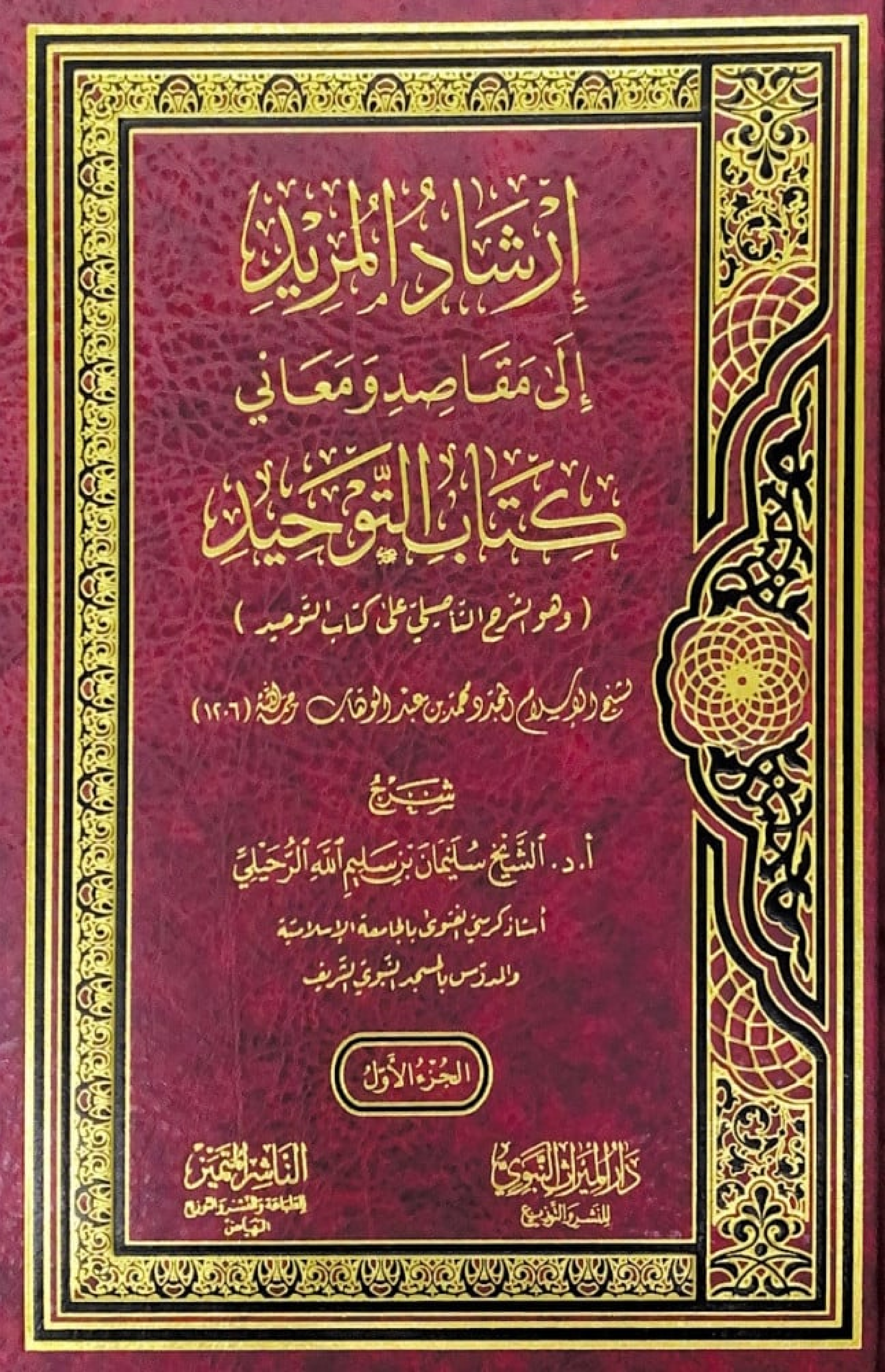
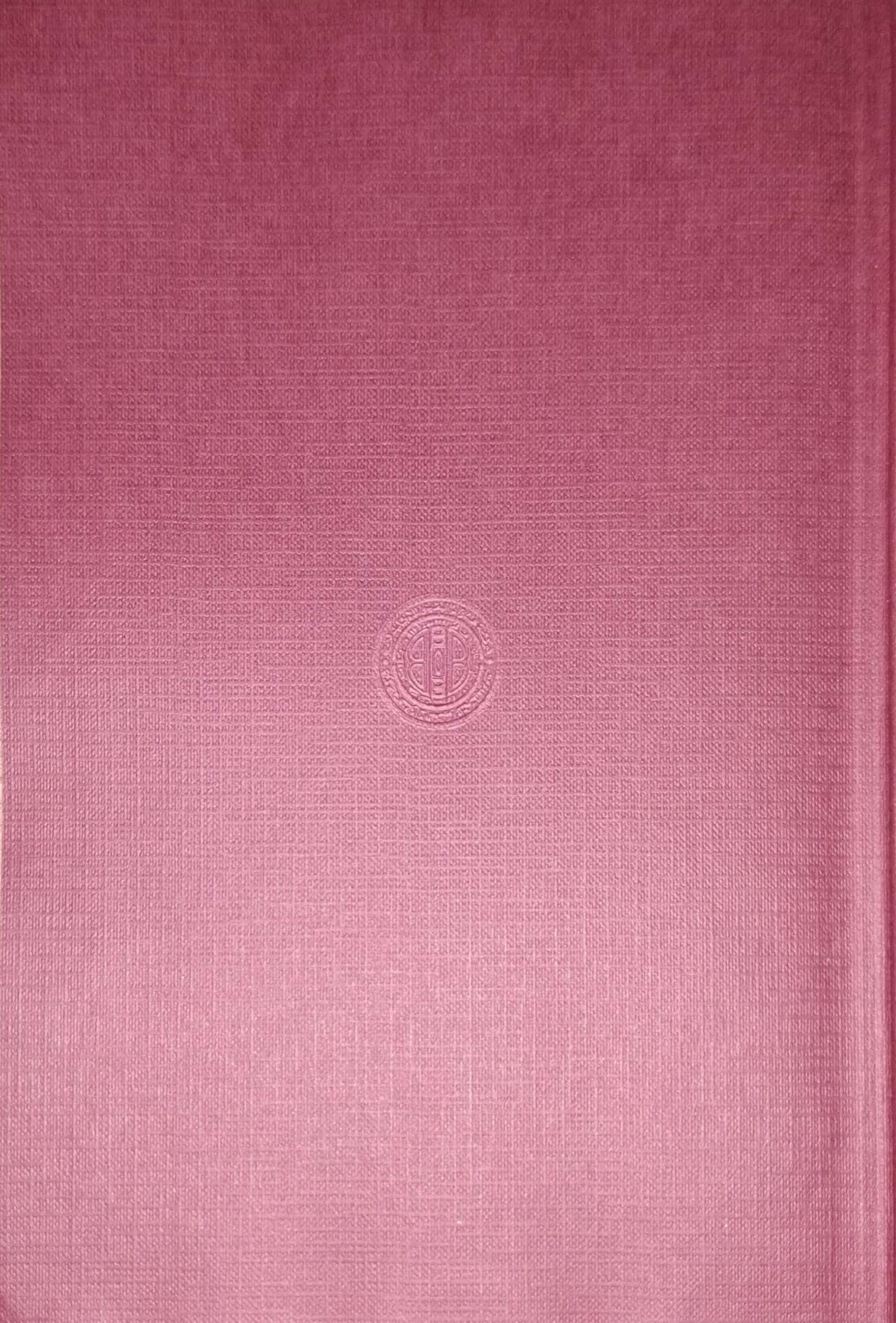
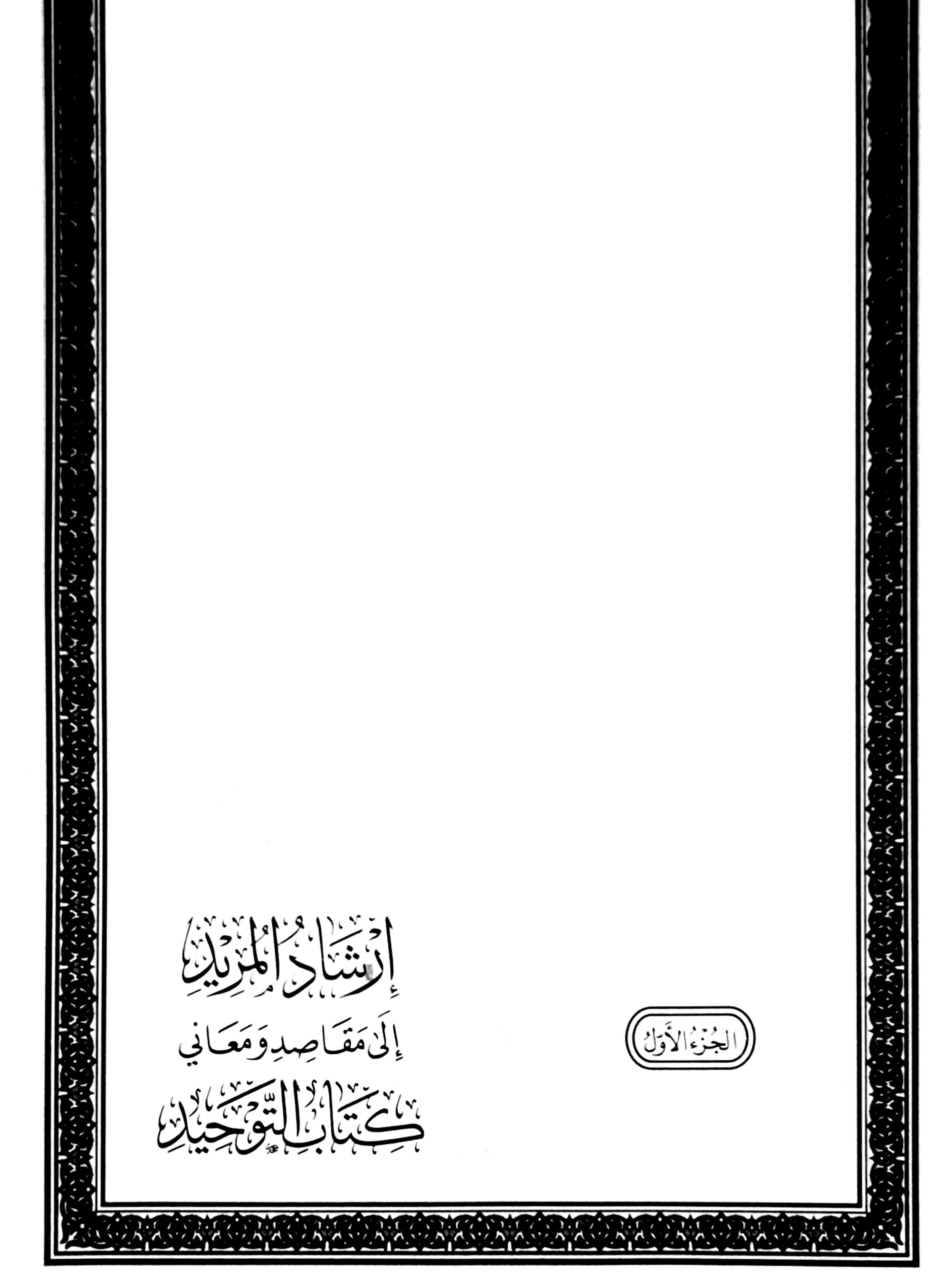
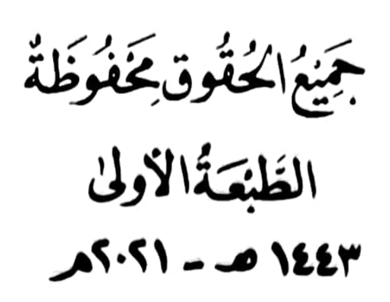

إرشاد المريد
إلى مقاصد ومعاني
كتاب التوحيد
(وهو الشرح التأصيلي على كتاب التوحيد)
شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١٢٠٦)
شرح
أ.د. الشيخ سليمان بن سليم الله الرحيلي
أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف
الجزء الأول
دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع
الناشر المتميز
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض

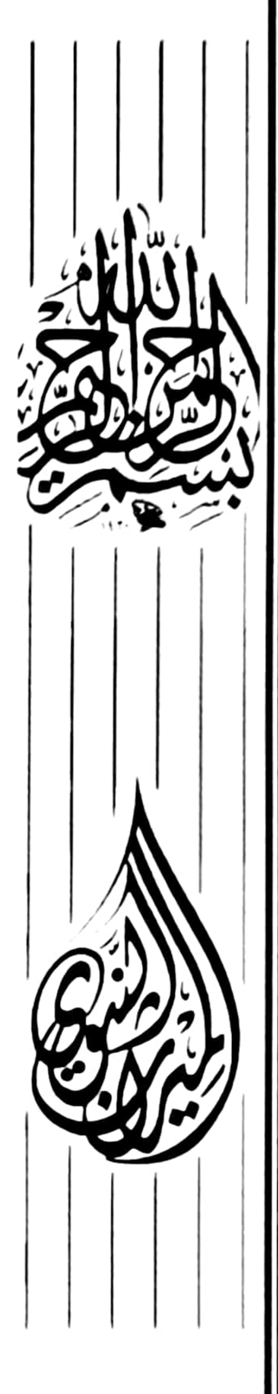




إرشاد المريد إلى مقاصد ومعاني كتاب التوحيد

الجزء الأول





العلم ميراث النبي كذا أتى	في النص والعلماء هم وراثه
ما خلف المختار غير حديثه	فينا فذاك متاعه وأثاثه

الإيداع القانوني: ديسمبر-2021

ردمك: 978-9947-48-216-2





الصنوبر البحري - المحمدية - الجزائر العاصمة

الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات: 550471594 (00213)

البريد الإلكتروني: dar.mirath@gmail.com

@mirathennabawi

إرشاد المريد

إلى مقاصد ومعاني

كتاب التوحيد

(وهو الشرح التأصيلي على كتاب التوحيد)

لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١٢٠٦)

شرح

أ.د. الشيخ سليمان بن سليم الله الرحيلي

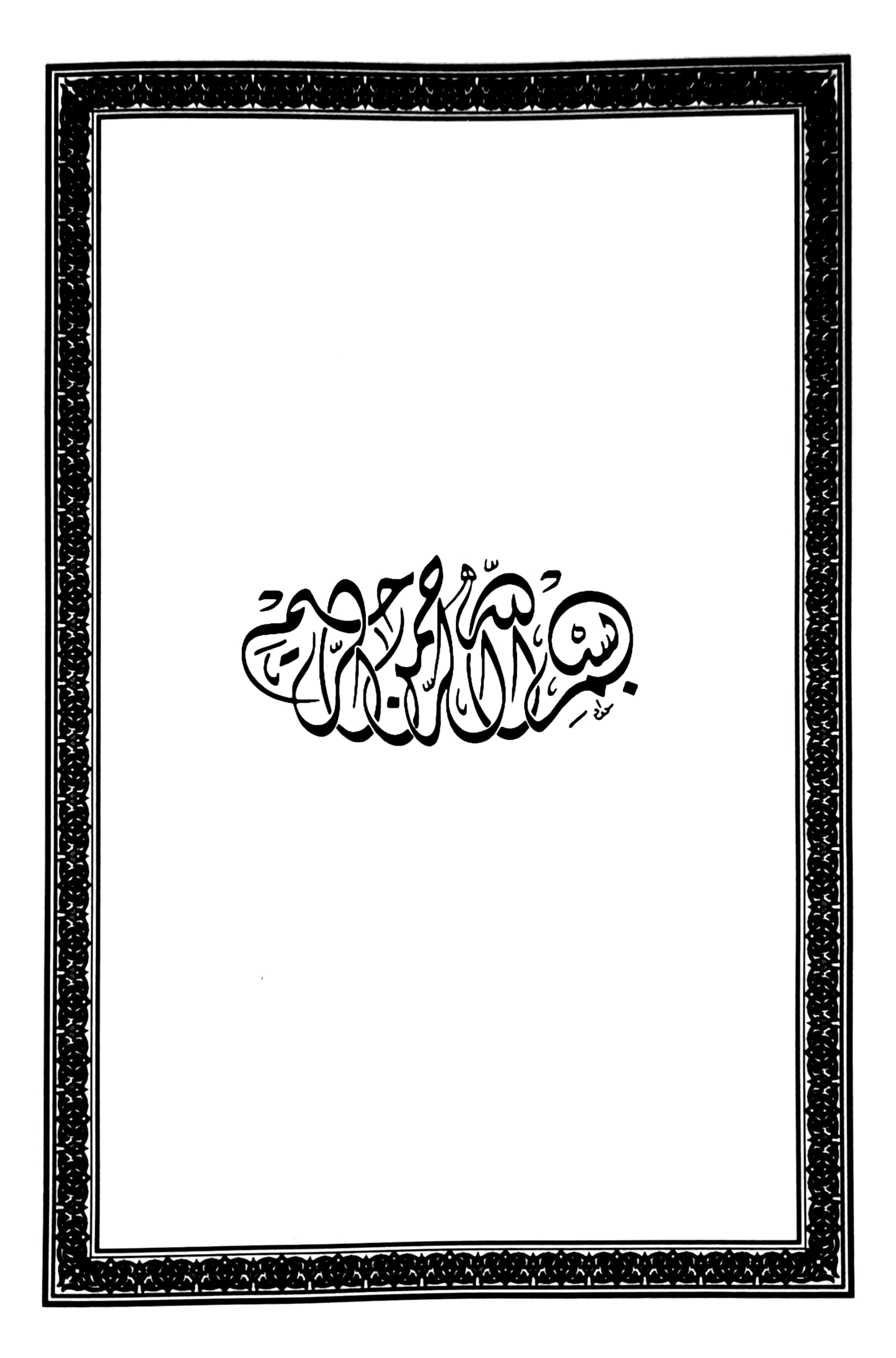
أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

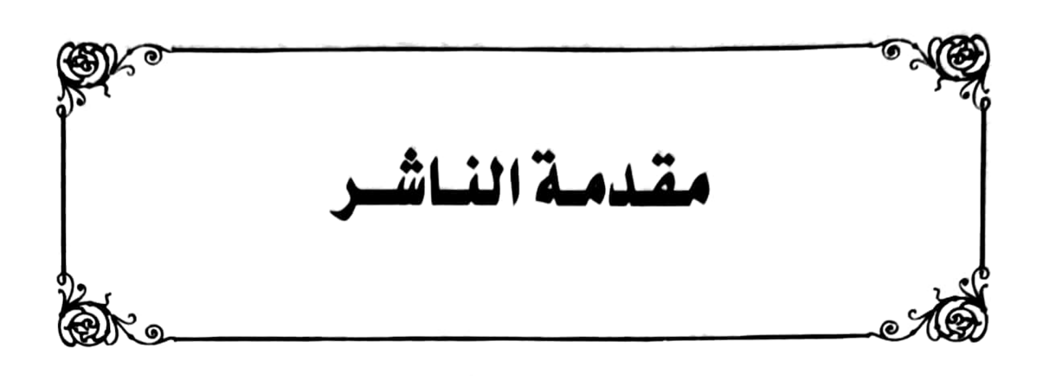
الجزء الأول

دار الميراث النبوي للنشر والتوزيع

الناشر المتميز للطباعة والنشر والتوزيع الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الناشر

إنَّ الحمدَ لله، نَحمَده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعدُ:

فإنَّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

وبعدُ:

فإنَّ توحيدَ الألوهيَّة هو الَّذي نازعَت فيه الأممُ رُسلَها؛ فما مِن رَسولٍ إلَّا وقَد أمَر أمَّتَه بتوحيدِ الأُلوهيَّة -وهو يتضمَّنُ توحيدَ الأسماءِ والصِّفات وتوحيد الرُّبوبيَّة-، ونازعه المُشركون في هذا التَّوحيد ولم يقبلوه، ولم يُقرُّوا به، وهو الَّذي أُمر النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُقاتلَ النَّاس عليه.

لذلك دأَب أئمَّة السُّنَّة علىٰ بيان هذا التَّوحيد، ونشره في النَّاس، والتَّحذير من الشِّرك، والتَّنويه بخطورته، لاسيَّما في العصور المُتأخِّرة الَّتي فشا فيها الشِّركُ والخُرافة، وصار أكثرُ النَّاس لا يعرفون من التَّوحيد إلَّا اسمَه.

ومِن الأئمَّة الَّذين جدَّد اللهُ بهم الدِّين، ودَحَرَ بهم الشِّركَ وأهلَه: الشَّيخُ الإمامُ محمَّد بن عبد الوهَّاب التَّميمي رَحِمَهُٱللَّهُ وأبناؤه وتلاميذُه، ومَن ناصرَه، ومن جاء بعده مُحتذيًا حذوه من علماء البلاد النَّجدية؛ فلهذا الإمام جهدٌ مشكورٌ في تجديد الدِّين، وبيان التوحيد وتقريره والدَّعوة إليه، والتَّحذير من الشِّرك وأهلِه، شهد له به علماء الأقطار المُنصفون، فقد قضىٰ جُلَّ حياته مُعلِّمًا وداعيًا إلىٰ التَّوحيد، ومجاهدًا في سبيله بلسانِه وقلمِه ويدِه، وخلَّف تراثًا علميًّا أثريًّا لا يزال يُفيد منه العلماء وطلَّاب العلم وعامَّة المسلمين إلىٰ يومِنا هذا، وفي مقدِّمة ذلك كتابُه الشَّهير «**كتاب التَّوحيد**»، الذي تفنَّن في تأليفِه، وأبدع بما لم يُسبَق إليه، حتَّىٰ قالوا فيه: إنَّه قطعةٌ مِن صحيح البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ!

*** سببُ تخصيص كتاب التَّوحيدِ بتوحيدِ الألوهيَّة[١]:**

مِن المَعلوم أنَّ موضوعَ «كتاب التَّوحيد» هو توحيد الألوهيَّة في الغالب، وذلك لأمور:

الأمر الأوَّل: لأنَّ التَّوحيد إذا أطلقناه في النُّصوص فإنَّ المراد به: توحيد الألوهيَّة.

الأمر الثَّاني: أنَّ الحاجة العظيمة الكبيرة في زمن كتابة هذا الكتاب إنَّما هي لتقرير توحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ زللَ النَّاس العظيم كان في هذا النَّوع مِن التَّوحيد؛ فإنَّه كثُر وُقوعُ النَّاس في الشِّرك في زمن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نجد والعراق ومصر وغيرها من البلدان الإسلامية.

الأمر الثَّالث: أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّة قلَّ مَن ينازِع فيه.

فكلُّ البشر -إلَّا من انطمست فطرتُه تمامًا- يقرُّون بتوحيد الرُّبوبيَّة، ولا يُنازِعون فيه.

وتوحيد الأسماء والصِّفاتِ قد كتَب فيه العُلماء كثيرًا، وبقي توحيدُ الألوهيَّة يحتاج إلىٰ مزيدٍ من التَّأليفِ والشَّرح، فألَّف الشَّيخ كتابه هذا في بابه؛ نُصحًا للأمَّة.

وقد جمع **«كتاب التَّوحيد»** أُصولَ تَوحيدِ العبادةِ، فلا يُعلَمُ أصلٌ مِن أصولِ

---

(١) استفدنا أغلبَ ما في هذه المقدِّمة من شرح الشَّيخِ -حفظه الله-.

توحيد العبادة يخرج عن كتاب التَّوحيدِ، وأمَّا الفُروعُ التي تفرَّع علىٰ الأصول فلم يقصدها الشَّيخِ بالجمع، وإنَّما كان قصد الشيخ جمع وإحكام أصول توحيدِ العِبادة.

*** منهج الشَّيخ في «كتاب التَّوحيد»:**

تحرَّىٰ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تصنيف هذا الكتاب منهجَ السَّلف والأئمَّة؛ إذ حرص فيه علىٰ ذكر أدلَّة الكتاب والسنَّة ما وجد إلىٰ ذلك سبيلًا، ودعَّم ذلك بتفاسير الصَّحابة والتَّابعين. فليس للشَّيخِ كلامٌ في الكتابِ سوىٰ التَّبويب والمسائل الَّتي يذكرها في آخر البابِ.

وسلك الشَّيخ هذا المنهج لأمرَين:

الأمر الأوَّل: لأنَّ هذا هو العلمُ المعتبَرُ عند السَّلفِ.

العِلـمُ قَـالَ اللَّـهُ قَـالَ رَسُـولُهُ ... قَـالَ الـصَّحَابَةُ هُـم أُولُـو العِـرفَانِ

والشَّيخُ مُتَّبعٌ للسَّلف الصَّالح رَضِيَٱللَّهُعَنهُم، فلم يجعل في كتابه إلَّا النُّصوص من الكتاب والسُّنَّة وأقوال الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُم.

الأمر الثَّاني: أنَّ هذا الأسلوبَ أدعىٰ للتَّسليمِ وعدم النِّزاع؛ فالاستدلالُ بالأدلَّةِ الواضحةِ أدعَىٰ لِلتَّسليم، لكن لو ذكر كلامًا له؛ لجاءه مَن ينازِعه في كلامِه؛ فلهذا سَلكَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المنهج العظيم النَّافع.

عددُ أبوابِ الكتاب:

اشتمل هذا الكتاب علىٰ ستَّة وستِّين بابًا؛ لأنَّ مطلع هذا الكتاب في قوله:

«كتاب التوحيد. وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]». هذا ليس بابًا، وإنما هو مدخل؛ وإنَّما تأتي الأبواب بعده.

إذن؛ فالكتاب مكوَّن من: مدخل وستَّة وستِّين بابًا.

وبعض أهل العلم يقول: عدد أبواب الكتاب: سبعة وستُّون بابًا؛ لأنهم يعدُّون المدخل بابًا، فيقولون: الباب الأوَّل: بابُ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] .

بيان الطَّريقة الَّتي عرَض بها الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ «كتاب التَّوحيدِ» وكيف قسَّمَه وجمَعَ مَادَّتَه:

بنىٰ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتابَ علىٰ ما يجبُ علىٰ المؤمن في التَّوحيد؛ **فإنَّه يجبُ عليه في التوحيدِ أمُور:**

الأمر الأوَّل: أن يحبَّه وأن يحبَّ أهلَه.

الأمر الثاني: أن يتعلَّمه جملةً وتفصيلًا.

الأمر الثالث: أن يحقِّق التوحيد.

الأمر الرَّابع: أن يحذر ممَّا يَنقضه أو يُنقصه.

فإنَّ التوحيدَ له نواقض تنقضه وتُزيله بالكلِّيَّة، وله مُضعفات تُنقِص كماله. فيجب علىٰ المؤمن أن يحذرها.

الأمر الخامس: أن يدعو إليه.

الأمر السادس: أن يصبر علىٰ ذلك؛ فإنه ما دعا أحدٌ إلىٰ التوحيد إلَّا أوذي، وما عمل أحدٌ بالتوحيد إلَّا أوذي.

وسار الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترتيبه تَرتيبًا بديعًا؛ لأنَّه بدأ بالكلِّيَّات في التَّوحيدِ، ثمَّ انتقلَ إلىٰ جُزئيَّاتٍ لابُدَّ منها. وهذا مِن سَعة عِلمِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفنِّ العظيمِ.

*** احتفاءُ العُلماءِ بكتابِ التَّوحيدِ:**

لقد لقِيَ هذا الكتابُ قَبولًا واسِعًا، واحتفاءً عظيمًا لدىٰ أهل العلم وطلَّابه قديمًا وحديثًا؛ فتداولوه حفظًا وتعلُّمًا وتعليمًا وشرحًا وتعليقًا، فعكَفَ عليه الطَّلبةُ، وصار الغالبُ يحفظُونه عن ظهر قلبٍ، وتصدَّىٰ لِشرحِه والتَّعليق عليه جماعة من الجهابذة النُّبلاء، وأوَّل من تصدَّىٰ لِشرحِه وأجادَ حفيدُ المؤلِّفِ الشَّيخ سُليمانُ ابنُ الشَّيخِ عبد الله رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، ولم يُتمَّه، ثمَّ هذَّبه وكمَّله حفيدُه الآخر الشَّيخُ عبد الرحمن بنُ حسن رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وأبرزَا في شرحيهما من البيان ما ينبغي أن يرجع إليه، وعلَّق عليه أيضًا الشَّيخ عبد الرَّحمن حاشيةً مفيدة -وهي المعروفة باسم: «قُرَّة عيون المُوَحِّدين»-، وعلَّق عليه تلميذُه الشيخ حمد بن عتيق، وتلميذه الشيخ عبد الله أبا بطين وغيرهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وتتابع أهلُ العلم بعدَهم علىٰ شرحه وإيضاح مسائله؛ وهم كُثُرٌ لا يُحصَون، وكلٌّ له طريقة خاصَّة في الشرح.

*** مُميِّزات هذا الشَّرح:**

أصلُ هذا الشَّرح الَّذي بين يدي القارئ دروسٌ صوتيَّة ألقاها الشَّيخُ سُليمان -حفظه الله- علىٰ طلَّابه، وقد جمع فيه عُصارةَ الشُّروح السَّابقة، وذكر فيه دقائق فائقة، وفوائد رائقة، كما عُهد من طريقة الشَّيخِ سُليمان -حفظه الله- في شُروحه، فكان الشَّيخ يبدأ بشرح ترجمة الباب، ويُبدي المناسبات بين الأبواب، ويُسهِبُ في شرحِ أدلَّتها، ويتكلَّم علىٰ الأحاديث والآثار تصحيحًا وتضعيفًا، ويختم بتوضيح المسائل الَّتي استنبطها الإمام محمَّد بن عبد الوهاب آخر كلِّ باب، فجاء شرحًا وافيًا بالمقصودِ، جزىٰ الله الشَّيخَ الشارح خير الجزاء، وجعل ثواب ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة.

*** طريقةُ عملِنا:**

- قُمنا بإثبات الآيات القرآنيَّة بالرَّسم العثمانيِّ، وعزوِها إلىٰ مواضعِها في المُصحف الشَّريف.

- خرَّجنا الأحاديث والآثار الواردة في الكتابِ، مع ذكرِ أحكام العلَّامة المحدِّث الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن وُجِدَت.

- قمنا بتقويم النَّصِّ -إذ أصله تفريغٌ صوتيٌّ-، فحَذَفنا العبارات المُكرَّرة، وما لا حاجة إليه، وعدَّلنا في بعض التراكيب.

- وضَعنا فهرسًا للمواضيع الواردة في الكتاب.

- وضَعنا مقدِّمةً مشتملة علىٰ وصفٍ لمَا امتازَ به هذا الشَّرح، وثَنَّينا بترجمةِ

لصاحب الكتاب للشَّيخ العلَّامة ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وختامًا؛ نسألُ الله أن يجزيَ المُؤلِّف والشَّارحَ خيرًا علىٰ ما قدَّمَا، وأن يَجعلَ ذلك في ميزان حسنَاتِهما، وأَن يُجرِيَه لهما صدقَةً إلىٰ يومِ الدِّين، وأن يرفعَ درجتَيهما في عليِّين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبِه أجمعِين.

❀❀❀

ترجمة شيخ الإسلام مُحمَّد بن عبد الوهَّاب للشيخ عبد العزيز بن باز[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ عبدِه ورَسُولِه وخيرتِه مِن خَلقه سَيِّدنا وإمامِنا محمَّد بن عبد الله، وعلىٰ آله وأصحابه ومَن وَالَاه.

أمَّا بعد:

أيُّها الإخوانُ الفضلاء، أيُّها الأبناء الأَعزَّاء، هذه المحاضرة المُوجَزة أَتَقدَّم بها بين أيديكم تنويرًا للأفكار، وإيضَاحًا للحقائق، ونُصحًا لله ولعباده، وأداءً لبعض ما يجب عليَّ من الحقِّ نحو المحَاضَر عنه؛ وهذه المحاضرة عنوانها: «**الشَّيخ الإمام محمَّد بنُ عبد الوَهَّاب؛ دعوتُه وسيرتُه**».

لمَّا كان الحديث عن المُصلِحِين، والدُّعاة والمُجدِّدين، والتَّذكير بأحوالهم وخصالهم الحميدة، وأعمالهم المجيدة، وشرح سيرتهم الَّتي دلَّت علىٰ إخلاصهم، وعلىٰ صدقهم في دعوتهم وإصلاحهم، وأعمالهم وسيرتهم؛ مِمَّا تشتاق إليه النُّفُوس الطَّيِّبة، وترتاح له القلوب، ويودُّ سماعه كلُّ غُيورٍ علىٰ

---

(١) محاضرة ألقاها سماحةُ الشَّيخ عبدُ العزيز بنُ باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي ضمن «مجموع فتاواه» (١/ ٣٥٤)، بعنوان: «**الشَّيخُ الإمامُ مُحمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب؛ دعوتُه وسيرتُه**».

الدِّين، وكلُّ راغبٍ في الإصلاح والدَّعوة إلىٰ سبيل الحقِّ، رأيتُ أن أتَحدَّث إليكم عن رجلٍ عظيمٍ ومُصلحٍ كبيرٍ وداعيةٍ غيورٍ، أَلَا وهو الشَّيخ الإمام المُجدِّد للإسلام في الجزيرة العربيَّة في القرن الثَّاني عشر من الهجرة النَّبويَّة.

هو: الإمام محمَّد بن عبد الوَهَّاب بن سليمان بن عليٍّ التَّميمي الحنبلي النَّجدي، لقَد عرف النَّاس هذا الإمام، ولا سيَّما علماؤهم ورؤساؤهم وكبراؤهم وأعيانهم في الجزيرة العربيَّة وفي خارجها، ولقَد كتب النَّاس عنه كتاباتٍ كثيرةً ما بين موجزٍ وما بين مُطولٍ.

ولقَد أفرَدَه كثيرٌ من النَّاس بكتابَاتٍ، حتَّىٰ المُستَشرقون كتبوا عنه كتاباتٍ كثيرةً، وكتب عنه آخرون في أثناء كتاباتهم عن المُصلِحِين، وفي أثناء كتاباتهم في التَّاريخ، وصفه المنصفون منهم بأنَّه مُصلِحٌ عظيمٌ، وبأنَّه مُجدِّدٌ للإسلام، وبأنَّه علىٰ هُدًىٰ ونورٍ مِن ربِّه، وتعدادهم يشقُّ كثيرًا.

ومِن جُملَتِهم: المُؤلِّف الكبير أبو بكر الشَّيخ حسين بن غنَّام الأحسَائي؛ فقَد كتب عن هذا الشَّيخ، فأجاد وأفاد، وذكَر دعوتَه، وذكر سيرتَه، وذكَر غزواته، وأَطنَب في ذلك، وكتب كثيرًا من رسائله واستنباطاته من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

ومنهم: الشَّيخ الإمامُ عُثمان بن بشر في كتابه: «عُنوان المَجد»؛ فقَد كتب عن هذا الشَّيخ، وعن دعوتِه، وعن سيرتِه، وعن تاريخ حياتِه، وعن غزواتِه وجهَادِه.

ومنهم خارج الجزيرة: الدُّكتور أحمد أمين في كتابه: «زعماء الإصلاح»؛ فقد كتب عنه وأنصفه.

ومنهم الشَّيخ الكبير مسعود عالم النَّدوي، فقَد كتب عنه وسَمَّاه: «المُصلِح المظلوم»، وكتب عن سيرته، وأجاد في ذلك.

وكتب عنه أيضًا آخرون، منهم: الشَّيخ الكبير الأمير محمَّد بن إسماعيل الصَّنعانيّ؛ فقَد كان في زمانه، وقَد كان علىٰ دعوته، فلمَّا بلغه دعوة الشَّيخ سُرَّ بها، وحمد الله عليها.

وكذلك كتب عنه العَلَّامة الكبير الشَّيخ محمَّد بن علي الشوكاني، صاحب «نيل الأوطار»، ورَثَاه بمَرثيَّةٍ عظيمةٍ، وكتب عنه جمعٌ غفيرٌ غير هؤلاء، يعرفهم القُرَّاء والعُلماء.

ولأجل كون كثيرٍ من النَّاس قَد يَخفىٰ عليه حال هذا الإمام وسيرته ودعوته، رأيت أن أُسهِم في بيان حاله، وما كان عليه من سيرةٍ حسنةٍ، ودعوةٍ صالحةٍ، وجهادٍ صادقٍ، وأن أشرح قليلًا مِمَّا أعرفه عن هذا الإمام حتَّىٰ يَتبصَّر في أمره مَن كان عنده شيءٌ من لَبسٍ، أو شيءٌ من شكٍّ في حاله ودعوته، وما كان عليه.

وُلِدَ هذا الإمام في عام (١١١٥) هجرية؛ هذا هو المشهور في مولده -رَحمَة الله عليه-، وقيل في عام (١١١١) هجرية، والمعروف الأوَّل، أنَّه وُلِدَ في عام (١١١٥) هجريَّة، علىٰ صاحبها أفضل الصَّلاة وأكمل التَّحيَّة.

وتَعلَّم علىٰ أبيه في بلدة العُيَينة، وهذه البلدة هي مسقط رأسه -رحمة الله عليه-، وهي قريةٌ معلومةٌ في اليمامة، في نجد شمال غرب مدينة الرِّياض، بينها وبين الرِّياض مسيرة سبعين كيلو مترًا تقريبًا، أو ما يقارب ذلك مِن جهة الغرب.

وُلِدَ فيها -رحمة الله عليه-، ونشأ نشأةً صالحةً، وقرأ القرآن مبكِّرًا، واجتهد في الدِّراسة والتَّفقُّه علىٰ أبيه الشَّيخ عبد الوهَّاب بن سليمان -وكان فَقيهًا كبيرًا وعالمًا قديرًا، وكان قاضيًا في بلدة العُيَينة-، ثمَّ بعد بلوغ الحُلُم حَجَّ وقَصَد بيت الله الحرام، وأَخَذ عن بعض علماء الحرم الشَّريف.

ثمَّ تَوجَّه إلىٰ المدينة -علىٰ ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام-، فاجتمع بعلمائها، وأقام فيها مُدَّةً، وأخَذَ من عالِمَين كبيرَين مشهُورَين في المدينة ذلك الوقت؛ وهما: الشَّيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النَّجدي، أصله من المجمعة، وهو والد الشَّيخ إبراهيم بن عبد الله صاحب «العذب الفائض في علم الفرائض»، وأَخَذ أيضًا عن الشَّيخ الكبير محمَّد حياة السِّندي بالمدينة.

هذان العَالِمَان مِمَّن اشتهر أخذ الشَّيخ عنهما بالمدينة، ولعلَّه أَخَذ عن غيرهما مِمَّن لا نعرف.

ورحل الشَّيخ لطلب العلم إلىٰ العراق، فقصد البصرة، واجتمع بعلمائها، وأَخَذ عنهم ما شاء الله من العلم.

وأظهر الدَّعوة هناك إلىٰ توحيدِ الله، ودعا النَّاس إلىٰ السُّنَّة، وأظهر للنَّاس أنَّ الواجب علىٰ جميع المسلمين أن يأخذُوا دِينَهم عن كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وناقش وذاكر في ذلك، وناظر هنالك من العُلماء، واشتهر من مَشَايخه هناك شخصٌ يُقَال له: الشَّيخ محمَّد المجموعي.

وقَد ثار عليه بعض علمَاء السُّوء بالبصرة، وحصل عليه وعلىٰ شيخه المذكور

بعض الأذىٰ، فخرج من أجل ذلك، وكان من نِيَّته أن يقصد الشَّام، فلم يقدر علىٰ ذلك لعدم وجود النَّفقة الكافية، فخرج من البصرة إلىٰ الزّبير، وتَوجَّه من الزّبير إلىٰ الأحساء، واجتمع بعلمائها، وذاكرهم في أشياء من أصول الدِّين.

ثمَّ تَوجَّه إلىٰ بلاد حريملاء، وذلك -والله أعلم- في العقد الخامس من القرن الثَّاني عشر؛ لأنَّ أباه كان قاضيًا في العيينة، وصار بينه وبين أميرها نزاعٌ، فانتقل عنها إلىٰ حريملاء سنة (١١٣٩) هجريَّة.

فقدم الشَّيخ مُحمَّدٌ علىٰ أبيه في حريملاء بعد انتقاله إليها سنة (١١٣٩) هجرية؛ فيكون قدومه حريملاء في عام (١١٤٠) أو بعدها، واستقرَّ هناك، ولم يزل مشتغلًا بالعلم والتَّعليم والدَّعوة في حريملاء حتَّىٰ مات والده في عام (١١٥٣) هجرية، فحصل من بعض أهل حريملاء شرٌّ عليه، وهَمَّ بعضُ السّفلة بها أن يَفتِكَ به.

وقيل: إنَّ بعضهم تَسوَّر عليه الجدار، فعلم بهم بعض النَّاس فهربوا.

وبعد ذلك ارتحل الشَّيخ إلىٰ العيينة -رحمة الله عليه-، وأسباب غضب هؤلاء السّفلة عليه أنَّه كان آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.

وكان يحثُّ الأمراء علىٰ تعزير المجرمين الَّذين يعتدون علىٰ النَّاس بالسَّلب والنَّهب والإيذاء، ومِن جملتهم هؤلاء السّفلة الَّذين يقال لهم: العبيد هناك، ولمَّا عرفوا من الشَّيخ أنَّه ضِدّهم، وأنَّه لا يرضىٰ بأفعالهم، وأنَّه يُحرِّض الأمراء علىٰ عقوباتهم، والحدِّ من شَرِّهم؛ غضبوا وهَمُّوا أن يفتكوا به، فصَانَه الله وحَمَاه.

ثمَّ انتقل إلىٰ بلدة العيينة، وأميرُها إذ ذاك عثمان بن محمَّد بن معمر، فنزل عليه ورَحَّبَ به الأمير، وقال: قُم بالدَّعوة إلىٰ الله، ونحن معك وناصروك، وأظهر له الخير والمحبَّة والموافقة علىٰ ما هو عليه.

فاشتغل الشَّيخ بالتَّعليم والإرشاد والدَّعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وتوجيه النَّاس إلىٰ الخير، والمحبَّة في الله، رجالهم ونسائهم، واشتهر أمره في العُيينة، وعَظُمَ صيته، وجاء إليه النَّاسُ مِن القُرىٰ المُجَاورة.

وفي يومٍ من الأيَّام قال الشَّيخ للأمير عثمان: دعنا نهدم قبة زيد بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّها أُسِّسَت علىٰ غير هُدىٰ، وإنَّ الله جَلَّ وَعَلَا لا يَرضَىٰ بهذا العمل، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ عن البناء علىٰ القُبور، واتِّخاذ المساجد عليها.

وهذه القبَّة فتنت النَّاس، وغَيَّرت العقائد، وحصل بها الشِّرك، فيجب هدمها، فقال الأمير عُثمان: لا مانع من ذلك.

فقال الشَّيخ: إنِّي أخشىٰ أن يثور لها أهل الجبيلة. (والجبيلة: قريةٌ هناك قريبةٌ من القبر).

فخرج عثمان ومعه جيشٌ يبلغون (٦٠٠) مقاتلٍ لهدم القُبَّة، ومعهم الشَّيخ -رحمة الله عليه- فلمَّا قربوا من القبَّة، خرج أهل الجبيلة لمَّا سمعوا بذلك لينصروها ويحموها، فلمَّا رأوا الأمير عثمان ومَن معه كَفُّوا ورجَعُوا عن ذلك، فباشر الشَّيخ هدمها وإزالتها، فأزالها الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ يديه -رحمة الله عليه-.

ولنَذكُر نبذةً عن حال نجد قبل قيام الشَّيخ -رحمة الله عليه-، وعن أسباب قيامه، ودعوته:

كان أهل نجد قبل دعوة الشَّيخ علىٰ حالةٍ لا يرضاها مؤمنٌ، وكان الشِّرك الأكبر قَد نشأ في نجدٍ وانتشر حتَّىٰ عُبدت القباب، وعُبدت الأشجار، والأحجار، وعُبدت الغيران، وعُبد مَن يُدعىٰ بالولاية وهو مِن المَعتُوهين، وعُبد مِن دون الله أناسٌ يُدعون بالولاية، وهم مجانين مجاذيب لا عقول عندهم!

واشتهر في نجد السَّحَرة والكَهَنة، وسؤالهم وتصديقهم، وليس هناك منكِرٌ إلَّا مَن شاء الله، وغلب علىٰ النَّاس الإقبال علىٰ الدُّنيا وشهواتها، وقلَّ القائم لله والنَّاصر لدينه، وهكذا في الحَرَمين الشَّريفين، وفي اليمن، اشتهر في ذلك الشِّرك وبناء القباب علىٰ القبور، ودعاء الأولياء والاستغاثة بهم، وفي اليمن من ذلك الشَّيء الكثير، وفي بلدان نجد من ذلك ما لا يُحصَىٰ، ما بين قبرٍ وما بين غارٍ، وبين شجرةٍ، وبين مجذوبٍ ومجنونٍ؛ يُدعىٰ من دون الله، ويُستَغاث به مع الله.

وكذلك مِمَّا عرف في نجد واشتهر: دعاء الجنِّ والاستغاثة بهم، وذبح الذَّبائح لهم، وجعلها في الزَّوايا من البُيُوت رجاءَ نجدتهم، وخوف شَرِّهم، فلمَّا رأىٰ الشَّيخُ الإمامُ هذا الشِّرك وظهوره في النَّاس وعدمَ وجود منكِرٍ لذلك، وقائمٍ بالدَّعوة إلىٰ الله في ذلك، شمَّر عن ساعد الجدِّ، وصبر علىٰ الدَّعوة، وعرف أنَّه لابدَّ من جهادٍ، وصبرٍ، وتَحمُّلٍ للأذىٰ.

فجَدَّ في التَّعليم والتَّوجيه والإرشاد وهو في العُيينة، وفي مُكَاتَبَة العلماء في ذلك، والمذاكرة معهم؛ رجاء أن يقومُوا معه في نُصرة دين الله، والمجاهدة في هذا الشِّرك وهذه الخرافات.

فأجابَ دعوتَه كثيرون مِن علماء نجدٍ، وعلماء الحرمين، وعلماء اليمن، وغيرهم، وكتبوا إليه بالموافقة، وخالف آخرون، وعابوا ما دعا إليه، وذَمُّوه ونفروا عنه، وهم بين أمرَين، ما بين جاهلٍ خرافيٍّ لا يعرف دين الله، ولا يعرف توحيد الله، وإنَّما يعرف ما هو عليه وآباؤه وأجدادُه من الجهل، والضَّلال، والشِّرك، والبدع، والخرافات، كما قال الله جَلَّوَعَلَا عن أمثال أولئك: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

وطائفةٌ أخرىٰ مِمَّن يُنسَبون إلىٰ العلم رَدُّوا عليه عنادًا وحسدًا لئلَّا يقول العامَّة: ما بالكم لم تنكروا علينا هذا الشَّيء؟! لماذا جاء ابن عبد الوَهَّاب وصار علىٰ الحقِّ وأنتم علماء ولم تنكروا هذا الباطل؟!

فحسدوه وخجلوا من العامَّة، وأظهروا العناد للحقِّ إيثارًا للعاجل علىٰ الآجل، واقتداءً باليهود في إيثارهم الدُّنيا علىٰ الآخرة، نسأل الله العافية والسَّلامة.

أمَّا الشَّيخ فقَد صبَرَ وجَدَّ في الدَّعوة، وشَجَّعه مَن شَجَّعه من العلماء والأعيان في داخل الجزيرة، وفي خارجها، وعزم علىٰ ذلك، واستعان بربِّه عَزَّوَجَلَّ، وعكف علىٰ الكتب النَّافعة ودرسها، وعكف قبل ذلك علىٰ كتاب الله، وكانت له اليد الطُّولَىٰ في تفسير كتاب الله، والاستنباط منه، وعَكَف علىٰ سيرة الرَّسُول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسيرة أصحابه، وَجَدَّ في ذلك وتَبصَّر فيه، حتَّىٰ أدركَ مِن

ذلك ما أعانَه الله به وثَبَّته علىٰ الحقِّ، فَشَمَّر عن ساعد الجدِّ، وصَمَّم علىٰ الدَّعوة وعلىٰ أن يَنشُرَها بين النَّاس، ويُكاتب الأمراء والعلماء في ذلك، وليكن في ذلك ما يكون، فحَقَّق اللهُ له الآمال الطَّيِّبة، ونشر به الدَّعوة، وأيَّد به الحقَّ، وهَيَّأ اللهُ له أنصارًا ومساعدين وأعوانًا حتَّىٰ ظهر دين الله، وَعَلَت كلمةُ الله.

فاستمرَّ الشَّيخ في الدَّعوة في العيينة بالتَّعليم والإرشاد، ثمَّ شمَّر عن ساعد الجدِّ إلىٰ العمل، وإزالة الشِّرك بالفعل لمَّا رأىٰ الدَّعوة لم تُؤثِّر في بعض النَّاس، فباشر الدَّعوة عمليًّا ليزيل بيده ما تَيسَّر وما أمكن من آثار الشِّرك.

فقال الشَّيخ للأمير عثمان بن معمر: لابدَّ من هدم هذه القُبَّة الَّتي علىٰ قبر زيد -وزيد ابن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أخو عمر بن الخطَّاب أمير المؤمنين، رضي الله تعالىٰ عن الجميع-.

وكان مِن جملة الشُّهداء في قتال مُسيلمة الكذَّاب في عام (١٢) من الهجرة النَّبويَّة، فكان مِمَّن قُتِل هناك، وبُنِيَ علىٰ قبره قُبَّة فيما يذكرون، وقَد يكون قبر غيره، لكنَّه فيما يذكرون أنَّه قبره؛ فوافقه عثمان كما تَقدَّم، وهُدمت القُبَّةُ -بحمد الله- وزال أثرها إلىٰ اليوم، ولله الحمد والمنَّة، أماتها جَلَّ وَعَلَا لمَّا هُدِمَت عن نِيَّةٍ صالحةٍ، وقصدٍ مستقيمٍ، ونصرٍ للحقِّ.

وهناك قبورٌ أخرىٰ، منها قبرٌ يُقَال: إنَّه قبر ضرار بن الأزور؛ كانت عليه قُبَّةٌ هُدِمت أيضًا، وهناك مشاهدُ أخرىٰ أزالها الله عَزَّوَجَلَّ، وكانت هناك غيران وأشجار تُعبَد من دون الله جَلَّ وَعَلَا فأُزِيلَت وقُضِيَ عليها، وحذر النَّاس عنها.

والمَقصُود: أنَّ الشَّيخ -رحمة الله عليه- استمرَّ علىٰ الدَّعوة قولًا وعملًا

كما تقدَّم. ثمَّ إنَّ الشَّيخ أتته امرأةٌ واعترفت عنده بالزِّنا عِدَّة مَرَّاتٍ، وسأل عن عقلها، فقيل: إنَّها عاقلةٌ ولا بأس بها، فلمَّا صَمَّمت علىٰ الاعتراف، ولم ترجع عن اعترافها، ولم تَدَّع إكراهًا ولا شبهةً، وكانت مُحصنةً؛ أَمَر الشَّيخ -رحمة الله عليه- بأن تُرجَم، فرُجمت بأمره حالةَ كونه قاضيًا بالعُيينة.

فاشتهر أمره بعد ذلك بهدم القبة، وبرجم المرأة، وبالدَّعوة العظيمة إلىٰ الله، وهجرة المُهَاجرين إلىٰ العيينة، وبلغ أمير الإحساء وتوابعها من بني خالد سليمان بن عريعر الخالدي أمر الشَّيخ، وأنَّه يدعو إلىٰ الله، وأنَّه يهدم القباب، وأنَّه يقيم الحدود، فعظم علىٰ هذا البدوي أَمرُ الشَّيخ؛ لأنَّ من عادة البادية -إلَّا مَن هدىٰ الله- الإقدام علىٰ الظُّلم، وسفك الدِّماء، ونَهب الأموال، وانتِهاك الحُرُمات، فخاف أنَّ هذا الشَّيخ يعظم أمره، ويزيل سلطان الأمير البدوي، فكتب إلىٰ عثمان يَتوعَّده ويأمره أن يقتل هذا المطوع الَّذي عنده في العيينة.

وقالَ: إنَّ المطوع الَّذي عندكم بلغنا عنه كذا، وكذا! فإمَّا أن تقتله، وإمَّا أن نقطع عنك خَرَاجك الَّذي عندنا! -وكان عنده للأمير عثمان خَرَاجٌ من الذَّهَب-، فعظم علىٰ عثمان أمر هذا الأمير، وخاف إِن عصاه أن يقطع عنه خَرَاجه أو يحاربه.

فقالَ للشَّيخ: إنَّ هذا الأمير كتب إلينا كذا وكذا، وأنَّه لا يحسن مِنَّا أن نقتلك، وإنَّا نخاف هذا الأمير، ولا نستطيع محاربته، فإذا رأيت أن تخرج عنَّا فعلتَ؟

فقالَ له الشَّيخ: إنَّ الَّذي أدعو إليه هو دين الله، وتحقيق كلمة «لا إله إلا الله»،

وتحقيق شهادة أنَّ «مُحمَّدًا رسول الله»، فمَن تَمسَّك بهذا الدِّين ونصره وصدق في ذلك؛ نصره الله وأيَّده ووَلَّاه علىٰ بلاد أعدائه، فإن صبرتَ واستقمتَ وقبلتَ هذا الخير فأبشر، فسينصرك الله ويحميك من هذا البدويِّ وغيره، وسوف يُولِّيك الله بلاده وعشيرته.

فقال: أيُّها الشَّيخ، إنَّا لا نستطيع مُحَاربته، ولا صبر لنا علىٰ مُخَالفته، فخرج الشَّيخ عند ذلك، وتَحوَّل من العيينة إلىٰ بلاد الدرعية، جاء إليها ماشيًا فيما ذكروا حتَّىٰ وصل إليها في آخر النَّهار.

وقَد خرج من العيينة في أوَّل النَّهار ماشيًا علىٰ الأقدام، لم يرحله عثمان، فدخل علىٰ شخصٍ من خيارها في أعلىٰ البلد، يُقَال له: محمد بن سويلم العريني، فنزل عليه، ويقال: إنَّ هذا الرَّجل خاف من نزوله عليه، وضاقت به الأرض بما رحُبَت، وخاف من أمير الدِّرعية محمَّد بن سعود، فَطَمأنَه الشَّيخ، وقال له: أبشِر بخَيرٍ، وهذا الَّذي أدعو النَّاس إليه دين الله، وسوف يُظهِرُه الله.

فبلغ محمَّد بن سعود خبر الشَّيخ مُحمَّد، ويقال: إنَّ الَّذي أخبره به زوجته جاء إليها بعضُ الصَّالحين، وقال لها: أخبري مُحمَّدًا بهذا الرَّجل، وشَجِّعيه علىٰ قَبُول دعوته، وحَرِّضيه علىٰ مؤازرته ومُسَاعدته، وكانت امرأةً صالحةً طَيِّبةً، فلمَّا دخل عليها محمَّد بن سعود أمير الدِّرعية وملحقاتها، قالت له: أَبشِر بهذه الغنيمة العظيمة! هذه غنيمةٌ ساقَها اللهُ إليك، رجلٌ داعيةٌ يدعو إلىٰ دين الله، ويدعو إلىٰ كتاب الله، يدعو إلىٰ سُنَّة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يا لها من غنيمةٍ! بادر بقَبوله، وبادر بنُصرته، ولا تقف في ذلك أبدًا، فقبل الأمير مشورتها، ثمَّ

تَردَّد هل يذهب إليه أو يدعوه إليه؟! فأشير عليه.

ويُقَال: إنَّ المرأة أيضًا هي الَّتي أشارت عليه مع جماعةٍ من الصَّالحين، وقالوا له: لا ينبغي أن تدعوَه إليك، بل ينبغي أن تقصدَه في منزلِه، وأن تقصِده أنت، وأن تعظِّم العلمَ والدَّاعي إلىٰ الخير، فأجاب إلىٰ ذلك لما كتب الله له من السَّعادة والخير، رحمة الله عليه، وأكرم الله مثواه.

فذهب إلىٰ الشَّيخ في بيت محمَّد بن سويلم، وَقَصَده وسَلَّم عليه، وتَحدَّث معه، وقال له: يا شيخ مُحمَّد، أبشر بالنُّصرة، وأبشر بالأمن، وأبشر بالمساعدة.

فقَالَ له الشَّيخ: وأنت أَبشِر بالنُّصرة أيضًا والتَّمكين والعاقبة الحميدة، هذا دينُ الله، مَن نَصَره؛ نَصَره الله، ومَن أَيَّده؛ أَيَّده الله، وسوف تجد آثار ذلك سريعًا.

فقالَ: يا شيخ سأبايعك علىٰ دين الله ورسوله، وعلىٰ الجهاد في سبيل الله، ولكنَّني أخشىٰ إذا أَيَّدناك ونصرناك وأظهرك الله علىٰ أعداء الإسلام، أن تبتغي غير أرضنا، وأن تنتقل عَنَّا إلىٰ أرضٍ أخرىٰ. فقال: لا؛ أبايعُك علىٰ هذا، أبايعُك علىٰ أنَّ الدَّم بالدَّم، والهدم بالهدم، لا أخرج من بلادك أبدًا، فبايعه علىٰ النُّصرة وعلىٰ البقاء في البلد، وأنَّه يبقىٰ عند الأمير يساعده، ويجاهد معه في سبيل الله حتَّىٰ يظهر دين الله، وتَمَّت البيعة علىٰ ذلك.

وتوافَدَ النَّاس إلىٰ الدرعية مِن كلِّ مكانٍ؛ من العيينة، وعرقة، ومنفوحة، والرِّياض، وغير ذلك من البلدان المجاورة، ولم تزل الدرعية موضع هجرةٍ يهاجر إليها النَّاس مِن كلِّ مكانٍ، وتسامع النَّاس بأخبار الشَّيخ ودروسه في الدرعية، ودعوته إلىٰ الله، وإرشاده إليه، فأتوا زرافاتٍ ووحدانًا.

فأقام الشَّيخ بالدرعية معظَّمًا مؤيَّدًا محبوبًا منصورًا، ورتَّب الدُّروس في الدرعية في العقائد، وفي القرآن الكريم، وفي التَّفسير، وفي الفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، والعلوم العربيَّة والتَّاريخيَّة، وغير ذلك من العلوم النَّافعة.

وتوافد النَّاس عليه من كلِّ مكانٍ، وتَعلَّم النَّاس عليه في الدرعية؛ الشَّباب وغيرهم، ورَتَّب للنَّاس دروسًا كثيرةً للعامَّة والخاصَّة، ونشر العلم في الدرعية، واستمرَّ علىٰ الدَّعوة.

ثمَّ بدأ بالجهاد، وكَاتَب النَّاس إلىٰ الدُّخول في هذا الميدان، وإزالة الشِّرك الَّذي في بلادهم، وبدأ بأهل نجد، وكاتَبَ أمراءها وعلماءها.

كَاتَب علماء الرِّياض وأميرها دهام بن دواس، كَاتَب علماء الخرج وأمراءها، وعلماء بلاد الجنوب والقصيم وحائل والوشم وسدير وغير ذلك، ولم يزل يكاتبهم ويكاتب علماءهم وأمراءهم، وهكذا علماء الأحساء وعلماء الحَرَمين الشَّريفين، وهكذا علماء الخارج في مصر، والشَّام، والعراق، والهند، واليمن، وغير ذلك.

ولم يزل يكاتب النَّاس ويُقِيم الحُجَج، ويُذكِّر النَّاس ما وقع فيه أكثر الخَلق من الشِّرك والبدع، وليس معنىٰ هذا أنَّه ليس هناك أنصارٌ للدِّين، بل هناك أنصارٌ، والله جَلَّ وَعَلَا قد ضمن لهذا الدِّين أن لابُدَّ له من ناصرٍ، ولا تزال طائفةٌ في هذه الأُمَّة علىٰ الحقِّ منصورة كما قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهناك أنصارٌ للحقِّ في أقطارٍ كثيرةٍ.

ولكنَّ الحديث الآن عن نجد، فكان فيها من الشَّرِّ والفساد والشِّرك والخرافات ما لا يحصيه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، مع أنَّ فيها علماءَ فيهم خيرٌ، ولكن لم يُقدَّر لهم أن ينشطوا في الدَّعوة، وأن يقوموا بها كما ينبغي، وهناك أيضًا في اليمن وغير اليمن دعاةٌ إلىٰ الحقِّ وأنصارٌ قَد عرفوا هذا الشِّرك وهذه الخرافات، ولكن لم يُقدِّر الله لدعوتهم من النجَاح ما قُدِّر لدعوة الشَّيخ مُحمَّدٍ لأسبابٍ كثيرةٍ:

منها: عدم تَيسُّر النَّاصر المساعد لهم.

ومنها: عدم الصَّبر لكثيرٍ من الدُّعاة، وتَحمُّل الأذىٰ في سبيل الله.

ومنها: قلَّة علوم بعض الدُّعاة الَّتي يستطيع بها أن يُوجِّهَ النَّاس بالأساليب المناسبة، والعبارات اللَّائقة، والحكمة والموعظة الحسنة.

ومنها أسبَابٌ أخرىٰ غير هذه الأسباب، وبسبب هذه المُكَاتَبات الكثيرة والرَّسائل والجهاد اشتهر أمرُ الشَّيخ، وظهر أمرُ الدَّعوة، واتَّصَلت رَسَائلُه بالعلماء في داخل الجزيرة، وفي خارجها.

وتأثَّر بدَعوَتِه جمعٌ غفيرٌ من النَّاس في الهندِ وفي إندونيسيا، وفي أفغانستان، وفي إفريقيا، وفي المغرب، وهكذا في مصر، والشَّام، والعراق، وكان هناك دعاةٌ كثيرون عندهم معرفةٌ بالحقِّ والدَّعوة إليه، فلمَّا بَلغَتهم دعوة الشَّيخ، زاد نشاطهم، وزادت قُوَّتهم، واشتهروا بالدَّعوة.

ولم تزل دعوة الشَّيخ تشتهر وتظهر بين العالم الإسلاميِّ وغيره، ثمَّ في هذا العصر الأخير طُبِعَت كُتُبه، ورسائله، وكُتُب أبنائه، وأحفاده، وأنصاره، وأعوانه

من علماء المسلمين في الجزيرة وخارجها.

وكذلك طُبِعَتِ الكُتُب المُؤلَّفة في دعوته، وترجمته، وأحواله، وأحوال أنصاره، حتَّىٰ اشتهرت بين النَّاس في غالب الأقطار والأمصار، ومن المعلوم أنَّ لكلِّ نعمةٍ حاسدًا، وأنَّ لكلِّ داعٍ أعداء كثيرين!

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

فلمَّا اشتهر الشَّيخ بالدَّعوة وكتب الكتابات الكثيرة، وألَّف المُؤلَّفات القَيِّمة، ونَشَرها في النَّاس، وكاتبه العلماء، ظهر جماعةٌ كثيرون من حُسَّاده، ومن مخالفيه، وظهر أيضًا أعداء آخرون، وصَار أعدَاؤه وخصُومُه قِسمَين:

قسم: عَادَوه باسم العلم والدِّين.

وقسم: عَادَوه باسم السِّياسة، ولكن تَستَّروا بالعلم، وتَستَّروا باسم الدِّين، وَاستَغلُّوا عداوة مَن عاداه من العلماء الَّذين أظهروا عداوته، وقالوا: إنَّه علىٰ غير الحقِّ، وإنَّه كَيت وكَيت.

والشَّيخ -رحمة الله عليه- مُستمرٌّ في الدَّعوة، يُزِيل الشُّبَه، ويُوضِّح الدَّليل، ويرشد النَّاس إلىٰ الحقائق علىٰ ما هي عليه من كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وطورًا يقولون: إنَّه من الخوارج، وتارةً يقولون: يخرق الإجماع، ويَدَّعي الاجتهاد المطلق، ولا يبالي بمَن قبله من العلماء والفقهاء، وتارةً يَرمونه بأشياء أخرىٰ، وما ذاك إلَّا من قِلَّة العلم من طائفةٍ منهم، وطائفةٌ أخرىٰ قَلَّدت غيرها

واعتَمَدَت عليها، وطائفةٌ أخرىٰ خافت علىٰ مراكزها، فَعادَته سياسةً، وتَستَّرت باسم الإسلام والدِّين، واعتمدت علىٰ أقوال المُخرِّفين والمُضلِّلين.

والخُصومُ في الحقيقةِ ثلاثةُ أقسامٍ:

علماء مُخرِّفون يَرون الحقَّ باطلًا، والباطل حقًّا، ويعتقدون أنَّ البناء علىٰ القبور، واتِّخاذ المساجد عليها، ودعاءها من دون الله، والاستغاثة بها، وما أشبه ذلك؛ دينٌ وهدًىٰ.

ويعتقدون أنَّ مَن أنكر ذلك فَقَد أبغضَ الصَّالحين، وأبغضَ الأولياء، وهو عدوٌّ يجبُ جهادُه.

وقسم آخَر: من المنسوبين للعلم جهلوا حقيقةَ هذا الرَّجل، ولم يعرفوا عنه الحقَّ الَّذي دعا إليه، بل قَلَّدوا غيرَهم، وصَدَّقوا ما قيل فيه من الخُرافيِّين المُضلِّلين، وظَنُّوا أنَّهم علىٰ هُدًىٰ فيما نَسبُوه إليه مِن بُغض الأولياءِ والأنبياءِ، ومن معاداتهم، وإنكار كراماتهم، فَذمُّوا الشَّيخ، وعابُوا دَعوَته ونفَّرُوا عنه.

وقسم آخر: خافوا علىٰ المناصب والمراتب، فَعادَوه لِئلَّا تَمتدَّ أيدي أنصار الدَّعوة الإسلاميَّة إليهم فتنزلهم عن مراكزهم، وتستولي علىٰ بلادهم، وَاستَمرَّت الحرب الكلاميَّة، والمُجَادلات والمُسَاجلات بين الشَّيخ وخصومه، يكاتبهم ويكاتبونه، ويجادلهم ويردُّ عليهم، ويَردُّون عليه.

وهكذا جرىٰ بين أبنائه وأحفاده وأنصاره، وبين خصوم الدَّعوة، حتَّىٰ اجتمع من ذلك رسائلُ كثيرةٌ، وردودٌ جَمَّةٌ.

وقَد جُمِعَت هذه الرَّسائل والفتاوىٰ والرُّدود فبلغت مُجلَّداتٍ، وقَد طُبعَ أكثرُها، والحمد لله.

واستمرَّ الشَّيخ في الدَّعوة والجهاد، وساعده الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية، وجد الأسرة السعوديَّة علىٰ ذلك، ورفعت راية الجهاد، وبدأ الجهاد من عام (١١٥٨ هـ).

بدأ الجهاد بالسَّيف، وبالكلام والبيان، والحُجَّة والبرهان، ثمَّ استمرَّت الدَّعوة مع الجهاد بالسَّيف، ومعلومٌ أنَّ الدَّاعيَ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إذا لم يكن لديه قُوَّةٌ تنصر الحقَّ وتنفذه، فسرعان ما تخبو دعوته، وتنطفئ شُهرته، ثمَّ يقلُّ أنصارُه.

ومعلومٌ ما للسِّلاح والقُوَّة من الأثر العظيم في نَشر الدَّعوة، وقَمع المعارضين، ونصر الحقِّ، وقمع الباطل، ولقَد صدق الله العظيم في قوله عَزَّوَجَلَّ وهو الصَّادق سبحانه في كلِّ ما يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥].

فبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه أرسل الرُّسل بالبيِّنات، وهي الحُجَج والبراهين السَّاطعة الَّتي يُوضِّح الله بها الحقَّ، ويدفع بها الباطل، وأنزل مع الرُّسُل الكتاب الَّذي فيه البيان، والهدىٰ والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدلُ الَّذي ينصف به المظلوم من الظَّالم، ويُقَام به الحقُّ، ويُنشَر به الهدىٰ، ويعامل النَّاس علىٰ ضوئه بالحقِّ والقسط، وأنزل الحديد فيه بأسٌ شديدٌ، فيه قُوَّةٌ وردعٌ وزجرٌ

لمَن خالف الحقَّ، فالحديد لمَن لم تنفع فيه الحُجَّة وتُؤثِّر فيه البيِّنة، فهو الملزم بالحقِّ، وهو القامع للباطل.

ولقَد أحسنَ مَن قال في مِثل هذا:

وَمَا هُوَ إِلَّا الوَحيُ أَو حَدُّ مُرهفٍ ... تُزِيلُ ظِبَاهُ أَخدَعَي كُلِّ مَائِلِ

فَهَذا دَوَاءُ الدَّاءِ مِن كُلِّ جَاهِلٍ ... وَهَذا دَوَاءُ الدَّاءِ مِن كُلِّ عَادِلِ

فالعاقلُ ذو الفِطرةِ السَّليمة يَنتفعُ بالبَيِّنةِ، ويقبلُ الحقَّ بدليلِهِ، أمَّا الظَّالم التَّابع لهواه فلا يردعه إلَّا السَّيف، فجَدَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدَّعوة والجهاد، وساعدَه أنصارُه من آل سعودٍ -طيَّب اللهُ ثراهم علىٰ ذلك- واستَمرُّوا في الجهاد والدَّعوة مِن عام (١١٥٨هـ) إلىٰ أن تُوفِّيَ الشَّيخُ في عام (١٢٠٦هـ).

فَاستمرَّ في الجهادِ والدَّعوة قريبًا من خمسينَ عامًا، جهادٌ، ودعوةٌ، ونضالٌ، وجدالٌ في الحقِّ، وإيضاحٌ لما قاله الله ورسولُه، ودعوةٌ إلىٰ دين الله، وإرشادٌ إلىٰ ما شرعه رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حتَّىٰ التزم النَّاس بالطَّاعة، ودخلُوا في دين الله، وهدمُوا ما عندهم مِن القباب، وأزالوا ما لديهم من المساجد المَبنيَّة علىٰ القُبور، وحَكَّموا الشَّريعة، ودانُوا بها، وتركُوا ما كانوا عليه مِن تحكيم سوالف الآباء والأجداد، وقوانينهم، ورجعُوا إلىٰ الحقِّ.

وعَمُرَتِ المساجد بالصَّلوات، وحلقات العلم، وأُدِّيَتِ الزَّكَوات، وصام النَّاس رمضان كما شرع الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأُمِرَ بالمعروف، ونُهِي عن المنكر، وساد الأمن في الأمصار، والقرىٰ، والطُّرُق، والبوادي، ووقف البادية عند

حَدِّهم، ودخلوا في دين الله، وقَبِلوا الحقَّ، ونشر الشَّيخ فيهم الدَّعوة.

وأرسل الشَّيخ إليهم المرشدين والدُّعاة في الصَّحَراء والبوادي، كما أرسل المُعلِّمين والمرشدين والقضاة إلىٰ البلدان والقرىٰ، وعمَّ هذا الخير العظيم والهدىٰ المستبين نجدًا كلَّها، وانتشر فيها الحقُّ، وظهر فيها دين الله عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ بعد وفاة الشَّيخ -رحمة الله عليه- استمرَّ أبناؤه وأحفادُه وتلاميذُه وأنصارُه في الدَّعوة والجهاد.

وعلىٰ رأس أبنائه: الشَّيخ الإمام عبد الله بن محمَّد، والشَّيخ حسين بن محمَّد، والشَّيخ عليّ بن محمَّد، والشَّيخ إبراهيم بن محمَّد.

ومن أحفاده: الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن، والشَّيخ علي بن حسين، والشَّيخ سليمان ابن عبد الله بن محمَّد، وجماعةٌ آخرون.

ومن تلاميذه أيضًا: الشَّيخ حمد بن ناصر بن معمر، وجمعٌ غفيرٌ من علماء الدرعية، وغيرهم استَمرُّوا في الدَّعوة والجهاد، ونشر دين الله تعالىٰ، وكتابة الرَّسائل، وتأليف المُؤلَّفات، وجهاد أعداء الدِّين، وليس بين هؤلاء الدُّعَاة وخصومهم شيءٌ إلَّا أنَّ هؤلاء دَعَوا إلىٰ توحيد الله، وإخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، والاستقامة علىٰ ذلك، وهدم المساجد والقباب الَّتي علىٰ القُبور، ودَعَوا إلىٰ تحكيم الشَّريعة والاستقامة عليها، وَدَعَوا إلىٰ الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وإقامة الحدود الشَّرعيَّة.

هذه أسباب النِّزاع بينهم وبين النَّاس.

والخُلاصَة: أنَّهم أرشدوا النَّاس إلىٰ توحيدِ الله، وأمروهم بذلك، وحَذَّروا النَّاس مِن الشِّرك بالله ومِن وسائله وذرائعه، وألزمُوا النَّاس بالشَّريعة الإسلاميَّة، ومَن أَبَىٰ واستمرَّ علىٰ الشِّرك بعد الدَّعوة والبيان، والإيضاح والحُجَّة، جاهدوه في الله عَزَّوَجَلَّ وقصدوه في بلاده حتَّىٰ يخضع للحقِّ، ويُنيب إليه أو يلزموه به بالقُوَّة والسَّيف، حتَّىٰ يخضعَ هو وأهل بلده إلىٰ ذلك.

وكذلك حَذَّرُوا النَّاس مِن البدع والخُرافات الَّتي ما أَنزلَ الله بها من سُلطانٍ، كالبناءِ علىٰ القُبور، واتِّخاذ القِباب عليها، والتَّحاكُم إلىٰ الطَّواغيت، وسُؤال السَّحَرة والكَهَنة، وتصديقِهم، وغير ذلك، فأزال الله ذلك علىٰ يدي الشَّيخ وأنصاره، رحمة الله عليهم جميعًا.

وعمرت المساجد بتدريس الكتاب العظيم والسُّنَّة المُطهَّرة، والتَّاريخ الإسلاميِّ، والعلوم العربيَّة النَّافعة، وصار النَّاس في مذاكرةٍ، وعلمٍ، وهُدىً، ودعوةٍ، وإرشادٍ، وآخرون منهم فيما يَتعلَّق بدنياهم من الزِّراعة والصِّناعة وغير ذلك، علمٌ وعملٌ، ودعوةٌ وإرشادٌ، ودنيا ودينٌ، فهو يَتعلَّم ويُذَاكِر، ومع ذلك يعمل في حقله الزِّراعيِّ، أو في صناعته أو تجارته، وغير ذلك، فتارةً لدينه، وتارةً لدنياه؛ دعاةٌ إلىٰ الله ومُوَجِّهُون إلىٰ سبيله، ومع ذلك يشتغلون بأنواع الصِّناعة الرَّائجة في بلادهم، ويحصلون من ذلك علىٰ ما يغنيهم عن خارج بلادهم.

وبعد فراغ الدُّعاة وآل سعود من نجدٍ، امتدَّت دعوتهم إلىٰ الحَرَمين، وجنوب الجزيرة، كَاتَبُوا علماء الحَرَمين سابقًا ولاحقًا.

فَلَمَّا لَم تُجدِ الدَّعوة، وَاستمرَّ أهلُ الحَرَمين علىٰ ما هُم عليه مِن تعظيم

القِباب، واتِّخاذها علىٰ القُبور، ووجود الشِّرك عندها، والسُّؤال لأربابها؛ سار الإمام سعود بن عبد العزيز بن مُحمَّد بعد وفاة الشَّيخ بإحدىٰ عشرة سنةً مُتوجِّهًا إلىٰ الحجاز، ونَازَل أهل الطَّائف، ثمَّ قصد أهل مكَّة -وكان أهل الطَّائف قَد تَوجَّه إليهم قبل سعود الأمير عُثمان بن عبد الرَّحمن المضايفي-، ونَازَلهم بقُوَّةٍ أرسلَها إليه الإمام سُعود بن عبد العزيز بن محمَّد أمير الدرعية (قوَّة عظيمة من أهل نجد وغيرهم)، ساعدوه حتَّىٰ استَولىٰ علىٰ الطَّائف، وأخرج منها أمراء الشَّريف، وأظهر فيه الدَّعوة إلىٰ الله، وأرشد إلىٰ الحقِّ، ونهىٰ فيها عن الشِّرك، وعبادة ابن عَبَّاسٍ، وغيره مِمَّا كان يعبده هناك الجُهَّال والسُّفَهاء مِن أهل الطَّائف.

ثمَّ تَوجَّه الأميرُ سعود عن أمر أبيه عبد العزيز إلىٰ جهة الحجاز، وَجُمِعَتِ الجيوش حول مَكَّة.

فلمَّا عرف شريفها أنَّه لابُدَّ من التَّسليم أو الفرار، فَرَّ إلىٰ جُدَّة، ودخل سعود ومَن معه من المسلمين البلاد من غير قتالٍ، وَاستَولَوا علىٰ مكَّة فجرًا من شهر مُحرَّمٍ من عام (١٢١٨هـ)، وأظهروا فيها الدَّعوة إلىٰ دين الله، وهدموا ما فيها من القباب الَّتي بُنِيَت علىٰ قبر خديجة وغيره، فأزالوا القِباب كلَّها، وأظهرُوا فيها الدَّعوة إلىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وعَيَّنوا فيها العلماء والمُدرِّسين، والمُوجِّهين والمُرشِدين، والقضاة الحاكمين بالشَّريعة.

ثمَّ بعد مُدَّةٍ وجيزةٍ فُتحت المدينة، واستولىٰ آل سُعود علىٰ المدينة في عام (١٢٢٠هـ) بعد مكَّة بنحو سنتَين، واستمرَّ الحَرَمان في ولاية آل سعود، وعَيَّنوا فيها المُوجِّهين والمُرشِدين، وأظهروا في البلاد العدل وتحكيم الشَّريعة، والإحسان

إلىٰ أهلِها، ولاسيَّما فقراؤهم ومحاويجهم، فأحسنوا إليهم بالأموال، وَوَاسَوهم، وعَلَّموهم كتاب الله.

وأرشدوهم إلىٰ الخير، وعَظَّموا العلماء، وشَجَّعوهم علىٰ التَّعليم، والإرشاد، ولم يزل الحَرَمان الشَّريفان تحت ولاية آل سعود إلىٰ عام (١٢٢٦هـ)، ثمَّ بدأت الجيوش المصريَّة والتُّركيَّة تَتوجَّه إلىٰ الحجاز لقتال آل سعود، وإخراجهم من الحَرَمين لأسبابٍ كثيرةٍ تَقدَّم بعضها.

وهذه الأسباب -**كما تَقدَّم**-: هي أنَّ أعداءهم، وحُسَّادهم، والمُخرِّفين الَّذين ليس لهم بصيرةٌ، وبعض السِّياسيِّين الَّذين أرادوا إخماد هذه الدَّعوة وخافوا منها أن تُزيل مراكزهم، وأن تقضي علىٰ أطماعهم، كذبوا علىٰ الشَّيخ وأتباعه وأنصاره، وقالوا: إنَّهم يبغضون الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّهم يبغضون الأولياء، وينكرون كراماتهم، وقالوا: إنَّهم أيضًا يقولون كَيت وكَيت مِمَّا يزعمون أنَّهم ينتقصون به الرُّسُل -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، وصدَّق هذا بعض الجُهَّال، وبعض المغرضين، وجعلوه سُلَّمًا للنَّيل منهم والقتال لهم، وتشجيع الأتراك والمصريِّين علىٰ حَربهم، فجرىٰ ما جرىٰ من الفتن والقتال.

وصار القتال بين الجنود المصريَّة والتُّركيَّة ومَن معهم وبين آل سعودٍ في نجد والحجاز سجالًا مُدَّةً طويلةً من عام (١٢٢٦هـ) إلىٰ عام (١٢٣٣هـ)، سبع سنين كلُّها قتالٌ ونضالٌ بين قوىٰ الحقِّ وقوىٰ الباطل.

والخُلاصة: أنَّ هذا الإمام الَّذي هو الشَّيخ محمَّد بن عبد الوَهَّاب -رحمة الله عليه- إنَّما قام لإظهار دين الله، وإرشاد النَّاس إلىٰ توحيدِ الله، وإنكار ما

أَدخَل النَّاس فيه من البدع والخرافات، وقام أيضًا لإلزام النَّاس بالحقِّ، وزجرهم عن الباطل، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

هذه خلاصة دعوته -رحمة الله تعالىٰ عليه-؛ وهو في العقيدة علىٰ طريقة السَّلَف الصَّالح؛ يؤمن بالله، وبأسمائه وصفاته، ويؤمن بملائكته، ورُسُله وكُتُبه، وباليوم الآخر، وبالقَدَر خيرِهِ وشَرِّهِ، وهو علىٰ طريقة أئمَّة الإسلام في توحيد الله، وإخلاص العبادة له جَلَّ وَعَلَا.

في الإيمان بأسماء الله وصفاته علىٰ الوجه اللَّائق بالله سبحانه، لا يُعطِّل صفات الله، ولا يُشبِّه الله بخَلقه، وفي الإيمان بالبعث والنُّشور، والجزاء والحساب، والجنَّة والنَّار، وغير ذلك.

ويقول في الإيمان ما قاله السَّلَف: إنَّه قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية، كلُّ هذا مِن عقيدتِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو علىٰ طَريقَتِهم وعلىٰ عقيدَتِهم، قولًا وعملًا، لم يخرج عن طريقتهم ألبتة، وليس له في ذلك مَذهَبٌ خاصٌّ، ولا طريقةٌ خَاصَّةٌ، بل هو علىٰ طريق السَّلَف الصَّالح من الصَّحَابة وأتباعهم بإحسانٍ، رضي الله عن الجميع.

وإنَّما أظهر ذلك في نجدٍ وما حولها، ودعا إلىٰ ذلك، ثمَّ جاهد عليه مَن أبَاه وعَانَدَه، وقاتلهم، حتَّىٰ ظهر دين الله وانتصر الحقُّ.

وكذلك هو علىٰ ما عليه المسلمون مِن الدَّعوة إلىٰ الله، وإنكار الباطل، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ولكن الشَّيخ وأنصاره يدعون النَّاس إلىٰ

الحقِّ، ويلزمونهم به، وينهونهم عن الباطل، ويُنكِرُونه عليهم، ويَزجُرونهم عنه حتَّىٰ يتركوه، وكذلك جدَّ في إنكار البدع والخرافات حتَّىٰ أزالها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسبب دعوته.

فالأسباب الثَّلاثة المُتقدِّمة آنفًا هي أسباب العداوة والنِّزاع بينه وبين النَّاس، وهي:

أوَّلًا: إنكار الشِّرك والدَّعوة إلىٰ التَّوحيد الخالص.

ثانيًا: إنكار البدع، والخرافات؛ كالبناء علىٰ القُبور واتِّخاذها مساجد، ونحو ذلك؛ كالموالد والطرق الَّتي أحدثتها طوائفُ المُتصوِّفة.

ثالثًا: أنَّه يأمر النَّاس بالمعروف، ويلزمهم به بالقُوَّة، فمَن أَبَىٰ المعروف الَّذي أوجبه الله عليه، أُلزِمَ به وعُزِّر عليه إذا تركه، وينهىٰ النَّاس عن المنكرات، ويزجرهم عنها، ويقيم حدودها، ويلزم النَّاس بالحقِّ، ويزجرهم عن الباطل.

وبذلك ظهر الحقُّ وانتشر، وكبت الباطل وانقمع، وصار النَّاس في سيرةٍ حسنةٍ، ومنهجٍ قويمٍ في أسواقهم، وفي مساجدهم، وفي سائر أحوالهم، لا تُعرَف البدع بينهم، ولا يوجد في بلادهم الشِّرك، ولا تظهر المنكرات بينهم، بل مَن شاهد بلادهم وشاهد أحوالهم وما هم عليه، ذَكَر حالَ السَّلف الصَّالح وما كانوا عليه زمن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزمن أصحابه، وزمن أتباعه بإحسانٍ في القرون المُفضَّلة، رحمة الله عليهم.

فالقوم ساروا سيرتَهم، ونهجوا منهجَهم، وصبرُوا علىٰ ذلك، وَجَدُّوا فيه،

وجاهدوا عليه، فلمَّا حصل بعض التَّغيير في آخر الزَّمان بعد وفاة الشَّيخ مُحمَّد بمُدَّةٍ طويلةٍ، ووفاةِ كثيرٍ من أبنائه -رحمة الله عليهم- وكثيرٍ من أنصاره، حصل بعض التَّغيير، جاء الابتلاء والامتحان بالدَّولة التُّركيَّة، والدَّولة المصريَّة، مِصداق قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلَ ما أصابَهم تكفيرًا وتمحيصًا من الذُّنُوب، ورفعةً وشهادةً لمَن قُتِل منهم، رضي الله عنهم ورحمهم.

ولم تزل دعوتهم -بحمد الله- قائمةً منتشرةً إلىٰ يومنا هذا، فإنَّ الجنودَ المصريَّة لَمَّا عاثت في نجدٍ، وقَتَلت مَن قَتَلت، وخرَّبت ما خرَّبت، لم يمضِ علىٰ ذلك إلَّا سنواتٌ قليلةٌ، ثمَّ قامت الدَّعوة بعد ذلك وانتشرت، ونهض بالدَّعوة بعد ذلك بنحو خمس سنين الإمام تركي بن عبد الله بن محمَّد بن سعود -رحمة الله عليه-، فنشر الدَّعوة في نجد وما حولها، وانتشر العلماء في نجد، وأخرج مَن كان هناك من الأتراك والمِصريِّين، أخرجهم مِن نجدٍ وقُراها وبلدانها، وانتشرت الدَّعوة بعد ذلك في نجد في عام (١٢٤٠هـ).

وكان تخريب الدرعية والقضاء علىٰ دولة آل سعود في عام (١٢٣٣هـ)، فمكث النَّاس في نجد في فوضىٰ وقتالٍ وفتنٍ بنحو خمس سنين، من (١٢٣٤هـ-١٢٣٩هـ).

ثمَّ في عام أربعين بعد المائتين وألفٍ، اجتمع شمل المسلمين في نجد علىٰ الإمام تركي بن عبد الله بن محمَّد بن سعود، وظهر الحقُّ، وكتب العلماء

الرَّسائل إلىٰ القُرىٰ والبلدان، وشَجَّعوا النَّاس ودَعَوهم إلىٰ دين الله، وانطفأت الفتن الَّتي بينهم بعد الحُروب الطَّويلة الَّتي حصلت علىٰ أيدي المِصريِّين وأعوانهم، وهكذا انطفأت الحروب والفتن الَّتي وقعت بينهم علىٰ أثر تلك الحروب، وخمدت نارها، وظهر دين الله، واشتغل النَّاس بعد ذلك بالتَّعليم، والإرشاد، والدَّعوة، والتَّوجيه، حتَّىٰ عادت المياه إلىٰ مجاريها، وعاد النَّاس إلىٰ أحوالهم، وما كانوا عليه في عهد الشَّيخ، وعهد تلامذته، وأبنائه، وأنصاره، رضي الله عن الجميع ورحمهم.

وَاستَمرَّت الدَّعوة مِن عام (١٢٤٠هـ) إلىٰ يومنا هذا -بحمد الله-، ولم يزل يخلف آل سعود بعضهم بعضًا، وآل الشَّيخ وعلماء نجد بعضهم بعضًا، فآل سعود يخلف بعضهم بعضًا في الإمامة والدَّعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيل الله.

وهكذا العلماء يخلف بعضهم بعضًا في الدَّعوة إلىٰ الله، والإرشاد إليه، والتَّوجيه إلىٰ الحقِّ.

إلَّا أنَّ الحرمَينِ بَقِيَا مفصولين عن الدَّولة السَّعوديَّة دهرًا طويلًا، ثمَّ عادَا إليهم في عام (١٣٤٣هـ)، واستولىٰ علىٰ الحَرَمين الشَّريفين الإمام عبد العزيز بن عبد الرَّحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن مُحمَّد بن سعود -رحمة الله عليه-، ولم يزالا -بحمد الله- تحت ولاية هذه الدَّولة إلىٰ يومنا هذا، فللَّه الحمد.

ونسألُ الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح البقيَّة الباقيةَ من آل سعودٍ، ومن آل الشَّيخ، ومن علماء المسلمين جميعًا في هذه البلاد، وغيرها، وأَن يُوفِّقهم جميعًا لما يرضيه، وأن يُصلح علماء المسلمين أينما كانُوا، وأن ينصرَ بالجميع الحقَّ، ويخذل بهم

الباطل، وأَن يُوفِّقَ دُعاة الهُدىٰ أينما كانوا للقيام بما أوجب الله عليهم، وأَن يَهديَنا وإيَّاهم صراطَه المستقيم، وأن يعمر الحَرَمين الشَّريفين، وملحقاتهما، وسائر بلاد المسلمين بالهدىٰ، ودين الحقِّ، وبتعظيم كتاب الله وسُنَّة نَبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأن يَمُنَّ علىٰ الجميع بالفقه فيهما، والتَّمسُّك بهما، والصَّبر علىٰ ذلك، والثَّبات عليه، والتَّحَاكم إليهما، حتَّىٰ يَلقَوا رَبَّهم عَزَّوَجَلَّ إنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ.

وهذا آخر ما تَيَسَّر بيانُه، والتَّعريف به من حال الشَّيخ، ودعوته، وأنصاره، وخصومه والله المستعان، وعليه الاتِّكَال، ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

وصلَّىٰ الله وَسَلَّم وبارك علىٰ عبدِهٖ ورسولِه، نَبيِّنا وإمامِنا مُحمَّد بن عبدِ الله، وعلىٰ آله وأصحابِه ومَن سلَك سبيله، واهتدىٰ بهُداه.

والحمد لله ربِّ العالمين.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، **كِتَابُ التَّوحِيدِ**».

الشرح

قوله: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) بدأ الشيخ بالبسمَلة؛ وفي هذا:

١- اقتداءٌ بكتاب ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ القرآن مبدوءٌ بـ: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم.

٢- اتِّباعٌ لسنَّة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد استُقرئت كُتبُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي كان يرسلها ويكتبها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوُجدَت كلُّها مبدوءةً بـ: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ).

فالسُّنَّة في الكتابة أن يبدأ الإنسَانُ الكتابَ بـ: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ).

ففي ذكرها في أوَّل الكتب اقتداءٌ بكتاب الله، واتِّباعٌ لسنَّة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فيُشرع للمؤمن إذا كتب كتابًا أن يبدأ بـ: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ).

وقوله: (كتاب التوحيد) هكذا وقع في بعض النُّسخ، قال: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، كِتَابُ التَّوحِيدِ).

وفي بعض النُّسَخ قال: (الحَمدُ لله، وصلَّىٰ الله علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آله وسلَّم)، فذَكَر بعد البَسمَلَة الحَمدَلَة والصَّلاة علىٰ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(كتاب): من الكَتب، وهو الجمع والضمُّ. ولذلك تسمَّىٰ القطعة من الجيش:

كتيبة؛ فيُقَال: كتيبة الفرسان، كتيبة المدفعية، كتيبة الدبابات؛ لأنهم يجتمعون في هذه الكتيبة.

والكتاب يُسَمَّىٰ كتابًا؛ لأنه تُجمَع فيه المادَّة العلمية المتعلِّقة به.

فعندَما نَقُول: (كتاب التوحيد)؛ يعني أنَّنا سنجمع المادَّة العلمية المتعلِّقة بالتوحيد.

والتوحيد في اللُّغة: مصدر: وحَّد يوحِّد. ومعنىٰ وحَّد الشيء: أي: أفردَه وجعله واحدًا.

أمَّا التوحيد في الشرع: فهو إفرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بما له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فما هو خاصٌّ لله عَزَّوَجَلَّ: يُفرَد الله به ولا يُشرَك فيه أحد.

مثل العبادة، هي خاصَّة لله عَزَّوَجَلَّ، فالتوحيد فيها: أن نُفرِد العبادة لله وألَّا نشرِك بالله أحدًا؛ لا ملَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولا رجلًا صالحًا، ولا غير ذلك. نوحِّد الله عَزَّوَجَلَّ في العبادة.

وما كان مُشتَركًا بين الله وخَلقِهِ: فإنَّ التوحيد فيه: أن نفرِد الله عَزَّوَجَلَّ فيه بالكمال المُطلَق. فالكمال المطلق إنَّما هو لله عَزَّوَجَلَّ.

مثلًا: وصف الرحمة، فربُّنا رحمن رحيم، والعبد قد يكون رحيمًا، كالنَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، والأمُّ رحيمة بأولادها، والأب رحيمٌ بأولاده، إذن الرحمة قد تكون من العبد.

فكيف يكونُ تَوحيدُ الله هنا؟

توحيدُ الله عَزَّوَجَلَّ هنا يكونُ: بإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالكمال المطلق في رحمته، فالله عَزَّوَجَلَّ له الكمال المطلق في الرحمة، وليس لأحدٍ من الخلق هذا الكمال، إنَّما يكون للمخلوق من الرحمة ما يُناسبه، أمَّا الكمال المطلق فهو لله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك العدل؛ فالله عدلٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والحاكم المسلم يجب أن يكون حاكمًا عادلًا، **فتوحيدُ الله هنا**: بأن نُفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالكمال المطلق في العدل، فالكمال المطلق في العَدل لله وحده لا شريك له، وأمَّا الخلق فعدلُهم فيما يناسبهم وبما يُنَاسبهم.

ولذلك؛ فالجُملة العامَّة الجامعةُ الشاملة لمعنىٰ التوحيد هي ما ذكرناه؛ وهي: إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بما له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والعلماء يَقُولون: إنَّ التوحيد: هو إفرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بأفعاله سبحانه، وإفرادُه بأفعال العباد علىٰ وجه التقرُّب، وإفرادُه بالأسماء والصِّفات. وهذا معنىٰ قولنا: «إفرادُ الله عَزَّوَجَلَّ بمَا له»؛ إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بأفعاله، وإفراد الله بأفعال العباد المتقرَّب بها -وسيأتي بيان هذا إن شاء الله-، وإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته.

إذن؛ التوحيد في كُلِّيَّاته ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسَام:

١- توحيد الربوبيَّة. ٢- توحيد الألوهيَّة.

٣- توحيد الأسماء والصِّفات.

وما الدليل علىٰ هذا التقسيم؟

هل جاء حديثٌ قال فيه النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التوحيد ثلاثة أقسام؟

الجواب: لا؛ ولكنَّ الدليل -كما يقول العلماء-: الاستقراء لأدلَّة التوحيد في الكتاب والسُّنَّة. فإنَّا استقرَأنَا أدلَّة التوحيد في الكتاب والسُّنَّة؛ فوجدناها إمَّا: متعلِّقةً بأفعال الله، وإمَّا متعلِّقةً بأسماء الله وصفاته، وإمَّا متعلِّقةً بأفعال العباد علىٰ وجه التقرُّب؛ فعلمنا أنَّ أقسام التوحيد ثلاثة(١).

ولا يمكن لعبدٍ أن يأتي بقسم رَابع، لأنه إذا ذكر قسمًا رابعًا فسيكون راجعًا إلىٰ أحد هذه الكليات، فهو ليس قسمًا، وإنما هو نوع من أنواع القسم المذكور، وهذا تقسيم حاصِر لأنواع التوحيد.

وتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ الذي سَمَّيناه بتوحيد الربوبية: هو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ بأفعاله؛ كالخلق والرَّزق والإحياء والإماتة والتدبير.

فتَوحيدُ الربوبِيَّة: أن يعترفَ العَبدُ ويعتقد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالقُ لا شريكَ له، وأنه سبحانه هو الرَّزَّاق لا شريك له، وأنه سبحانه هو المُحيي، وأنه سبحانه هو المُميت.

وهذا التوحيد -توحيد الربوبية- فرضٌ لازمٌ علىٰ كلِّ مسلم؛ لكنَّ الإتيان به لا يكفي للدخول في الإسلام.

ففرضٌ لازم للمسلم أن يوحِّد الله في ربوبيَّته، لكن لو أنَّ إنسانًا وحَّد الله في الربوبية؛ هل نقول: إنَّه مسلم بمجرَّد توحيد الربوبيَّة؟

الجَوَاب: لا، لا يُدخله ذلك في الإسلام؛ لأنَّه لم يأتِ بالمفتاح الَّذي يأتي

(١) انظر: «القول السَّديد في الرَّدِّ علىٰ من أنكر تقسيم التوحيد» للشيخ عبد الرَّزَّاق البدر -حفظه الله-.

بيانُه إن شاء الله.

وقد كان الكفَّار في زمن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُقِرِّين بتوحيد الربوبية، ويعتقدون أنَّ الخالق هو الله، وأنَّ الرَّازق هو الله، وأنَّ المُحيي هو الله، لكنَّ ذلك لم يُدخلهم في الإسلام.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

وفي هذه الآية نجدُ أنَّ الإقرار بتوحيد الربوبيَّة يستلزم توحيد الألوهيَّة؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في آخر الآية: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟! يعني: ما دُمتم تقرُّون أنَّ الله هو الذي يرزق، وأنَّ الله هو الذي يُحيي، وأنَّ الله هو الَّذي يُميت، فكيف لا تتَّقون؟!

الثاني: توحيد الألوهيَّة؛ وهو: توحيدُ الله عَزَّوَجَلَّ بأفعال العباد علىٰ وجه التقرُّب؛ لأنَّ أفعال العباد قد تكون عاديةً ليست علىٰ وجه التقرُّب؛ فهذه لا تدخل في التعريف، وإنَّما الَّذي يدخل منها: ما يكون علىٰ وجه التقرُّب؛ وهي العبادات.

وهذا التوحيد هو الَّذي نازعت فيه الأمم رُسلَها، فما من رسولٍ إلَّا وقد أمر أمَّته بتوحيد الألوهيَّة، ونازَعه المشركون في هذا التوحيد ولم يقبلوه ولم يُقرُّوا به.

ولهذا؛ لمَّا قام محمَّدٌ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قومه، وقال لهم: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ تُفلِحُوا**»[١]. أنكر كفَّار قريش عليه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟!، وأنكروا هذا وتعجَّبوا منه، وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]؛ كيف يجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! فمع إقرارهم بتوحيد الربوبيَّة، نازعوا في هذا التوحيد.

وهذا التوحيد هو الَّذي أُمر النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقاتِل النَّاس عليه؛ فقال النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشهَدُوا: أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ...**» الحديث[٢].

النَّوع الثالث: تَوحيد الأسمَاء والصِّفات؛ وهو: توحيدُ الله في أسمائه وصفاته؛ بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسولُه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسولُه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ علىٰ سَنن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

فهذه الآيةُ تضمَّنت كلَّ العقيدة في الأسماء والصفات، ولو أنَّ الأمَّة أخذت بهذه الآية لاستقامت علىٰ عقيدة التَّوحيد في الأسمَاء والصفات.

فقولُه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فيه أمران:

الأمرُ الأوَّل: نفي قياس التمثيل؛ أي: التمثيل بشيءٍ معيَّن. مثلًا: لك عمٌّ سافر

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٢٣-الرسالة) من حديث ربيعة بن عباد الديلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وانظر: «صحيح السيرة النبوية» للألباني (ص١٤٢-١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

إلىٰ دولة بعيدة عنكم وأنت صغير لم ترَهُ، ثمَّ علمتَ بقُدومه، فتقول لأبيك: صِف لي عمِّي! فيقول: تعرف عمَّك خالد هو مثلُه تمامًا؛ فهذا قياس تمثيل؛ لأنَّه مثَّل لك صورة عمِّك الغائب بصورة عمِّك الحاضر بعَينه.

إذن؛ امتنع قياسُ التمثيل في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فامتنع التمثيل في أسماء الله وفي صفاته عَزَّوَجَلَّ.

الأمر الثاني: قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾، هذه الكاف الَّتي يقول فيها بعضُ المفسِّرين: إنها زائدة، لها فائدة عظيمة؛ لأنَّها منعت قياس الشُّمول، الَّذي يقال فيه «ك»، وهو التَّمثيل بالأعمِّ.

مثلًا: أريد أن أعرف صفة وجه زيد من النَّاس، فأقول: زيدٌ إنسان، والإنسان وجهُه فيه أنفٌ في الوسط، وفيه عينان، وله فم تحت أنفه؛ هذه صفة وجه الإنسان علىٰ الشمول وعلىٰ العموم، فليس وصفًا لوجه إنسان معيَّن وإنَّما علىٰ الشمول. فامتنع إذن قياسُ الشُّمول في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

فقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ نفىٰ قياس التَّمثيل فلا تطمع بالتمثيل، أن تمثِّل يد الله أو تُمَثِّل وجهَ الله. ونفىٰ قياس الشُّمول أيضًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ هذا الإثبات، فنُثبتُ لله سَمعًا علىٰ المعنىٰ الظاهر علىٰ ما يليق بجلال الله، فلا نؤوِّل تأويل التحريف، كما يقول المؤوِّلة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؛ يعني: استولىٰ! وبزعمهم أنَّهم يريدون التنزيه! وما درَوا أنَّهم يقعون في تنقُّص الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ لازم

قولهم: أنَّ العرش لم يكن في سلطان الله تعالىٰ ثمَّ استولىٰ عليه! ففوق كونه تحريفًا هم يقعون فيما يَفِرُّون منه بزعمهم.

فيجِبُ أن نُثبت الاسم أو الصِّفة من غير تحريف، وذلك بإثبات المعنىٰ الظاهر علىٰ ما يليق بجلال ربِّنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

هذه هي أنواع التوحيد الثلاثة. لكنَّ التوحيد إذا أُطلق في النصوص، وفي لسان العلماء، فإنَّ المراد به: توحيد الألوهيَّة.

فتوحيد الألوهية يتضمَّن توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبيَّة؛ ولكنَّ المقصود بالتوحيد عند الإطلاق: هو توحيد الألوهيَّة.

ولذلك؛ عندما بعث النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مُعاذًا إلىٰ اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَىٰ قَومٍ أَهلِ كِتَابٍ؛ فَلَيكُن أَوَّلُ مَا تَدعُوهُم أَن تَدعُوهُم إِلَىٰ أَن يُوَحِّدُوا اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ...» الحَدِيث، أخرجه البخاريُّ[1].

وفي رواية للبخاريِّ ومُسلم[2]: «**إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أَهلِ الكِتَابِ، فَادعُهُم إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ...**» الحديث.

إذن؛ التَّوحيد: هو تحقيقُ شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وإذا أُطلِق في النصوص أو في لسان العلماء فإنَّ المقصود به: توحيد الألوهيَّة.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كتابُ التَّوحيد)**؛ فهل هذا عنوانٌ للكتاب كلِّه أو عنوان

---

(١) برقم (٧٣٧٢).

(٢) البخاري رقم (١٣٩٥)، ومسلم رقم (١٩) واللَّفظ له.

لِما تحته من كلام؟؛ لأنَّه قال: (كتَابُ التَّوحِيد، وقَول الله تَعَالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾...)؛ فهل قولُه: (كتاب التَّوحيد)، هو عنوانٌ للكتاب كلِّه، أو أنَّه عنوانٌ لِمَا تحته، فتكون الأبواب التي تأتي بعده مستقلَّةً عنه؟

الصَّواب: أنَّه عنوانٌ للكتاب كلِّه من أوَّله إلىٰ آخره؛ بدليل: أنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُقسِّم كتابه إلىٰ كتبٍ، وإنما قسَّم كتابه إلىٰ أبواب. فلو كان هذا الكتاب عنوانًا لِمَا تحته هنا؛ لقال بعده: كتاب كذا، كتاب كذا، كما في كتب الفقه؛ كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الصيام، كتاب الزكاة، كتاب الحج، وهكذا.

وإذا كان ذلك الأمر كذلك؛ فلماذا لم يَقُل الشيخ بعد قوله: (كتاب التوحيد): باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ فيكون هذا بابًا كسائر الأبواب؟!

والجوَاب: أنَّ هذا ليس بابًا؛ وإنما هذا مدخلٌ للكتاب يشمل الكتاب كلَّه، ويدخل فيه كلُّ ما يذكره في الكتاب، أراد به الشيخ بيان أهمِّيَّة التوحيد ومنزلته.

فإن قال قائلٌ: ما التوحيد الَّذي يتكلَّم عنه الشيخ هنا؛ هل هو توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات؟

الجواب: لا، إنَّ الشيخ يتكلَّم في هذا الكتاب عن توحيد الألوهيَّة.

ولكن؛ لماذا تكلم الشيخ عن توحيد الألوهية -وإن كان مُتَضَمنًا لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات- دون غيره من الأنواع؟

الجواب: خصَّه بالذكر لثلاثة أمُور:

الأمر الأوَّل: لأنَّ التوحيد إذا أطلقناه في النصوص فإنَّ المراد به توحيد الألوهيَّة.

الأمر الثاني: أنَّ الحاجة العظيمة الكبيرة في زمن كتابة هذا الكتاب إنَّما هي لتقرير توحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ زلل الناس العظيم كان في هذا النوع من التوحيد.

فإنَّ في زمن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَثُر الوقوع في الشِّرك في الأمَّة. فألَّف هذا الكتاب في العراق، في رحلته في طلب العلم، وهو ابنُ عشرين سنةً، وكان قد حَفِظَ القرآن وهو دون العشر سنين، ثمَّ ارتحل في طلب العلم وهو صغير، ولمَّا ذهب إلىٰ العراق ورأىٰ الشرك العظيم في البصرة وغيرها، دعا النَّاس إلىٰ التوحيد وهو ابنُ عشرين سنةً، وأوذي فصبر لأنَّه يريد وجه الله؛ يريد لهذه الأمَّة أن تخرج من الظلمات إلىٰ النُّور، وألَّف هذا الكتاب، وكانت الحاجة العظيمة لبيان توحيد الألوهية.

الأمر الثالث: أنَّ توحيد الربوبية قلَّ مَن ينازِع فيه.

فكلُّ البشر إلَّا من انطمست فطرتُه تمامًا يقرُّون بتوحيد الربوبية، ولا ينازِعون فيه.

وتوحيد الأسماء والصفات قد كتب فيه العلماء كثيرًا. وبقي توحيد الألوهية يحتاج إلىٰ مزيد من التأليف والشرح، فألَّف الشيخ كتابه هذا في بابه؛ نُصحًا للأمة.

ومنهجُ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه: أنه يستدلُّ بالقرآن والسُّنَّة وأقوال الصحابة.

فليس للشيخ كلام في الكتاب سوىٰ التبويب والمَسَائل الَّتي يذكرها في آخر الباب.

وسَلكَ الشيخُ هذا المنهج لأمرَين:

الأمر الأوَّل: لأنَّ هذا هو العلم عند السلف:

العِلــمُ قَــالَ اللَّــهُ قَــالَ رَسُــولُهُ　　　قَــالَ الـصَّحابَةُ هُـم أُولُـو العِـرفَانِ

هذا هو العلم المعتبَر عند السلف، والشيخ متَّبع للسلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يجعل في كتابه إلَّا النصوص من الكتاب والسُّنَّة وأقوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

الأمر الثاني: أنَّ هذا الأسلوب أدعىٰ للتَّسليم وعدم النزاع.

فالاستدلال بالأدلَّة الواضحة أدعىٰ للتسليم، لكن لو ذكر كلامًا له؛ لجاءه مَن ينازِعه في كلامه. فلهذا سَلكَ الشيخ هذا المنهج العظيم النافع.

وقد اشتمل هذا الكتاب علىٰ ستَّة وستِّين بابًا؛ لأنَّ مطلع هذا الكتاب في قوله: (**كتاب التوحيد. وقول الله تعالىٰ**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾) هذا ليس بابًا وإنما هو مَدخَل؛ وإنَّما تأتي الأبواب بعده.

إذن؛ فالكتاب مُكَوَّن من: مدخل وستَّة وستِّين بابًا.

وبعضُ أهل العِلم يَقُول: عدد أبواب الكتاب: سبعة وستُّون بابًا؛ لأنهم يعدُّون المدخل بابًا، فيقولون: الباب الأوَّل: بابُ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ولَكِن علىٰ أيِّ شيء بنىٰ الشيخ كتابه؟، وكيف قسم الكتاب وجمع المادة العلمية؟

بنىٰ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب علىٰ ما يَجبُ علىٰ المُؤمن في التوحيد؛ فإنَّه يجبُ عليه في التوحيد أمورٌ:

الأمر الأوَّل: أن يحبَّه وأن يُحبَّ أهلَه.

الأمر الثاني: أن يتعَلَّمه جُملةً وتفصيلًا.

الأمر الثالث: أن يُحَقِّق التوحيد.

الأمر الرابع: أن يحذَرَ ممَّا يَنقضه أو يُنقصه. فإنَّ التوحيد له نواقض تَنقُضه وتُزيله بالكلِّيَّة، وله مُضعِفَات تُنقِص كماله. فيجب علىٰ المؤمن أن يحذرها.

الأمر الخامس: أن يَدعُو إليه.

الأمر السادس: أن يصبر علىٰ ذلك؛ فإنه ما دعا أحدٌ إلىٰ التوحيد إلَّا أوذي، وما عمل أحدٌ بالتوحيد إلَّا أوذي.

هذه الأمور الَّتي تجب علىٰ المؤمن في باب التوحيد. وكتاب التوحيد كلُّه مبنيٌّ علىٰ هذا؛ علىٰ التحبيب في التوحيد وأهل التوحيد، وعلىٰ تعليم التوحيد، وعلىٰ بيان كيفية تحقيق التوحيد، وعلىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد، وعلىٰ الصبر علىٰ التوحيد، وعلىٰ التحذير مما يَنقض التوحيد أو يُنقص التوحيد.

وسار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترتيبه ترتيبًا بديعًا؛ لأنَّه بدأ بالكلِّيَّات في التوحيد، ثمَّ انتقل إلىٰ جزئيَّاتٍ لابدَّ منها. وهذا من سَعة علمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفنِّ العظيم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦].

الشرح

قَولُ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كِتَابُ التَّوحِيدِ، وَقَول اللهِ تَعَالَىٰ): يجوز لك في (قول) وجهَان:

الوجه الأوَّل: الجرُّ، فتقول: «كتابُ التوحيد وقولِ الله تعالىٰ»؛ فيكون معطوفًا علىٰ التوحيد، ووجه عطفه علىٰ التوحيد: أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ شامل لكلِّ الكتاب، كما أنَّ «كتاب التوحيد» عنوانٌ لكلِّ الكتاب، فالمذكور هنا: افتتاحية تشمل كلَّ الكتاب.

والوَجه الثَّاني: الرفع؛ فتقول: «وقولُ الله تعالىٰ»؛ علىٰ الاستئناف والابتداء.

ومُرادُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُبيِّن أهمِّيَّة التوحيد بأمرين:

الأمر الأوَّل: بيان أنَّ الجنَّ والإنس إنَّما خُلقوا من أجل التوحيد، بل كلُّ المخلوقات خُلقت من أجل التوحيد؛ فالسَّموات والأرض وما فيهنَّ خُلقت من أجل التوحيد، والملائكة خُلِقَت من أجل التوحيد، والجنُّ خُلقوا من أجل التوحيد، والإنس خُلقوا من أجل التوحيد، واللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر خُلقت من أجل التوحيد.

وذلك؛ أنَّ الإنسان إذا رأىٰ هذه الآيات العظيمة عَرَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا عرف الله وحَّدَه.

الأمر الثَّاني: أن الله عَزَّوَجَلَّ سخَّر للإنسان ما في الأرض من أجل أن يستعين بذلك علىٰ توحيد الله.

إذن؛ هذا شأن عظيم للتوحيد؛ أنَّ الخلق إنما خُلقوا من أجل التَّوحيد.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. **(الجنُّ)**: هي مخلوقاتٌ لله عَزَّوَجَلَّ، سمِّيت جِنًّا لأنَّها تختفي عن الأنظار فلا نراها. **(والإنس)**: هم بنو آدم، وسمِّي النَّاسُ بالإنس؛ لأن الإنسان من طبيعة خلقته أنَّه يستوحش لوحده ويأنس بغيره.

وفي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا﴾ أسلوبٌ قصر وحصر؛ فالمعنىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ لشيءٍ من الأشياء ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إلَّا ليوحِّدون.

وفسَّرنا (يَعبُدون) بـ(يُوحِّدون) -كما قاله بعضُ السلف- لأمرين:

الأمر الأوَّل: أنَّ الأصل في هذه الجملة: إلَّا ليعبدوني، فأُضيفت العبادة إلىٰ الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن؛ معنىٰ ذلك: إلَّا ليعبدوني مخلصينَ لي الدِّين، لأنها إضافة إلىٰ الياء: إلا ليعبدوني.

الأمر الثاني: أنَّ العبادة لا تكون عبادةً إلَّا بالتوحيد، بل العبادةُ هي التوحيد.

فالَّذي يصلِّي مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ هذا عَبَدَ الله، فهو موحِّد، لكن الَّذي يصلِّي من أجل أن يُثني عليه النَّاس، ومن أجل أن يُمدح؛ فهذا لم يَعبُد الله، وصلاته

هذه ليست عبادةً؛ بل هي معصية.

إذن؛ العبادة لا يُمكنُ أن تكون عبادةً إلَّا بالتوحيد؛ فمن صلَّىٰ لله فقد وحَّده، ومن صام لله فقد وحَّده، ومن زكَّىٰ لله فقد وحَّده، ومن حجَّ لله فقد وحَّده، أمَّا من عَبَدَ غير الله فهذا ما وحَّد وما عَبَده في الحقيقة، وإنَّما هو عابدٌ لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

واللام في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه اللَّام لبيان العلَّة والحِكمَة.

والعلماء يقولون: لام العلَّة:

- إمَّا غائيَّةٌ.

- وإمَّا حكمةٌ.

فالغائيَّة فهي الَّتي لابدَّ من وقوع معلولها؛ أي: وقوع ما بعدها، من قولنا: غايةُ الشيء ومنتهاه، فالشيء ينتهي إليها ولابدَّ؛ مثال ذلك: «يا أيُّها الإنسان خُلقتَ لتموت»، فاللَّام هنا غائيَّة؛ لأنَّه لابدَّ أن تموت، وما أحدٌ يخلَّد، فمنتهىٰ الإنسان أن يموت ليدخل قبره ثم يُبعَث.

ويسمِّيها بعضُ أهل العلم: بالعلَّة الموجِبة؛ أي: أنَّها توجِب معلولها؛ فلابدَّ منه.

ويُسَمِّيها بعضُ أهل العلم: بالعلَّة اللَّازمة؛ أي: أنَّ معلولها لازمٌ لها لا ينفكُّ عنها، يدور معها وجودًا وعدمًا.

ويسمِّيها بعضُ أهل العلم: بالعلَّة العقليَّة؛ أي: العلَّة التي لا تتخلَّف.

وأمَّا لام الحكمة؛ فكقولك: «اشتريتُ الكتاب لأقرأه»؛ لأنه يمكن أن أقرأ الكتاب ويمكن ألَّا أقرأه.

فاللام هنا في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ ليست غائيَّة؛ لأَنها لو كانت غائيَّة لما أشرك أحدٌ من الجنِّ والإنس، وإنَّما هي لبيان الحكمة.

ونجد بعض أهل العلم يسمِّيها العلَّة الغائيَّة، بمعنىٰ الغاية من الشيء، ولننتبه للفرق؛ فالأولىٰ يسمِّيها بعض أهل العلم: العلَّة الغائيَّة، بمعنىٰ: غاية الشيء ومنتهاه. والثانية يسمِّيها بعضُ أهل العلم العلَّة الغائيَّة، بمعنىٰ: الغاية من الشيء، يقال: «اشتريتُ الكتاب لأقرأه»؛ أي: لأجل أن أقرأه، فالغاية من شراء الكتاب أن أقرأه. فتسمَّىٰ هنا العلَّة الغائيَّة بهذا المعنىٰ.

أمّا العلَّة الغائيَّة الأولىٰ بمعنىٰ: منتهىٰ الشيء، فلا تصحُّ في قولي: اشتريت الكتاب لأقرأه؛ بأن المنتهىٰ سيكون القراءة! لأنَّه يمكن ألَّا أقرأ، فمن المُمكن أن أشتري الكتاب ويضيع منِّي ولا أقرأ فيه. فتسمَّىٰ إذن العلَّة الغائية بالمعنىٰ الثاني؛ وهو الغاية من الشيء. وهذه -كما قلنا- يسمِّيها بعضُ أهل العلم: الحكمة، وهذا أوضح.

ونجد في بعض الكتب الفلسفية ذكر «العلَّة الغائيَّة»، وهذه لها معنىٰ عند الفلاسفة والمناطقة؛ فلا نتكلَّم عنها ولا نتعرَّض لها، والعلل الأربعة عند المناطقة ليست من الإسلام في شيء فلا نتعرَّض لها.

ولذلك؛ قال بعضُ أهل العلم: الخَلق من الله، والعبَادة بأمر الله الشرعيِّ.

يعني: أنَّ الله خلقنا لا شكَّ في ذلك، والله أمرنا بالعبادة أمرًا شرعيًّا. فمَن كان

من أهل السعادة وحَّد الله، ومن كان من أهل الشقاء -والعياذ بالله- أشرك بالله.

ولذلك؛ قال بعضُ السَّلف: معنىٰ ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾: لأكلِّفهم بالعبادة؛ لآمرهم بالتوحيد وأنهاهم عن الشرك. وهذا هو الأمر الشرعي.

لأن الأمر:

- **إمَّا أمرٌ كونِيٌّ**: وهذا لابدَّ منه من وقوع المراد منه.

- **وإمَّا أمرٌ شرعيٌّ**: وهو ما يحبُّه الله ويرضاه، فيُمكن أن يقع المراد منه ويمكن ألَّا يقع، وهذا الواقع، فقد وُجد من الناس من وحَّد الله، ووجد كثيرون منهم قد أشركوا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وبهذا تعرف الجواب عن سؤال: لماذا لم يَذكُر الله الملائكة هنا، وهم كذلك مخلوقون لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وهو أنَّ الملائكة مخلوقةٌ للتوحيد فقط، فلا يتأتَّىٰ منها غير التوحيد، وهذا مُرادٌ بأمر الله الكونِيِّ، فإنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خلق الملائكة علىٰ هذه الجِبِلَّة، وإنما ذكر الله هنا من ابتلاهم بالأمر بالتوحيد، فمنهم موحِّد ومنهم مشرك، والعياذ بالله.

وما هي العبادة التي أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بها؟

أحسنُ ما قيل في تعريف العبادة هو قولُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **وهو أنها**: «اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[١].

---

(١) «العبودية» (ص٤٤ / المكتب الإسلامي).

فقوله: (اسم جامع): يعني: يجمع أشياء كثيرة.

وقوله: (لكل ما يحبه الله ويرضاه): أي: أنَّ الله تعالىٰ أمر بها في كتابه أو علىٰ لسان رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنه لا يمكن لنا أن نفتري علىٰ الله فنقول: «الله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ هذا العمل»، أو نقول: «الله عَزَّوَجَلَّ يرضىٰ عن هذا» بدون أن يخبرنا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كتابه أو علىٰ لسان رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقوله: (من الأقوال والأعمال): فالعبادة قد تكون قولًا وقد تكون عملًا.

وقوله: (**الظاهرة**) مثل الصلاة. و(**الباطنة**): مثل المحبَّة والخوف والرجاء، وغيرها من أعمال القلوب.

أمَّا التعبُّد: فهو التذلُّل والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ بما شرع في كتابه أو علىٰ لسان رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ علىٰ وجه المحبَّة.

إذن؛ التعبُّد: هو التذلُّل، ومنه قول القائل: طريق مُعَبَّد؛ أي: أنَّه مُذَلَّل سهل.

فأصل العبادة التذلُّل والخضوع، ولابدَّ في العبادة من ذِلَّة، فالذي يفعل العبادة بِكِبر هذا ما تعبَّد لله تعالىٰ، كالذي يصلِّي وهو يرىٰ أنَّ له علىٰ الله منَّةً في صلاته -والعياذ بالله-؛ هذا ما عَبَدَ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقولُنا:(بما شرع)؛ أي: ليس بالهوىٰ ولا بالرأي، ولا بما يراه المشايخ، ولا بما فعله آباؤنا؛ وإنما بما شرعه الله في كتابه أو علىٰ لسان رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والذي يتذلَّل لله أو يخضع له بما شرعه النَّاس ولم يأتِ في الكتاب ولا في

السُّنَّة؛ هذا ليس متعبِّدًا؛ بل هذا مبتدع.

وقولُنا: (علىٰ وجه المحبَّة): هذا شرطٌ في التَّعبُّد، يعني: أن يكون تعبُّدك لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ وجه المحبَّة، فمثلًا: تصلِّي لله تعالىٰ وأنت مُحِبٌّ لله عَزَّوَجَلَّ ومُحِبٌّ للصلاة.

فإذا خَلَت العبادة عن المحبَّة فهذا فعلُ المنافقين، الذين يصلُّون وهم كُسَالىٰ؛ لأنَّهم لا يحبُّون الصلاة.

أمَّا تعبُّد المؤمنين فلابدَّ فيه من المَحَبَّة.

إذن؛ **يجب أن نفرِّق بين حقيقة العبادة والتعبُّد**؛ لأنَّ بعض طلَّاب العلم اختلط عليهم الأمر، فانتقدوا تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ للعبادة؛ فقالوا: لابدَّ من الذُّلِّ والمحبَّة -كما قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، فخلطوا بين حقيقة العبادة؛ ما الَّذي نُسَمِّيه عبادةً وبين التعبُّد.

فالَّذي نسمِّيه عبادةً -بعيدًا عن فعل المكلَّف-: هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والتَّعبُّد هو فعلُ المكلَّف، وهو: التذلُّل والخضوع لله بما شرع في كتابه أو لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ وجه المحبَّة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦].

الشرح

قولُه تعالىٰ: (﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾): صدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الآية بثلاث مؤكِّدات، ولو لم تأتِ بغير مؤكِّد لصدَّقناه وآمنَّا؛ لكن لعظم شأن ما في هذه الآية أكَّده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بثلاث مؤكِّداتٍ:

الأوَّل: القسم المقدَّر؛ الَّذي تدلُّ عليه اللَّام الموطِّئة للقَسم.

والثاني: اللَّام.

والثالث: قد.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا. ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: في كلِّ طائفة ﴿رَّسُولًا﴾. وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بعث في كلِّ الأمم رسلًا ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]، فما من أمَّة وُجدَت إلَّا أرسل الله لها نذيرًا؛ أي: رسولًا: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا﴾: **قال بعضُ أهل العلم**: معنىٰ «أن» هنا: «بأن»؛ فنقدِّر قبل «أن» «باء»، والدليل علىٰ هذا التقدير قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَعَثْنَا﴾، فمثلًا أقول لك: بعثتُك بالرسالة إلىٰ أخي، أو بعثتُك بالمال إلىٰ صديقي، فلمَّا

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ بيَّن ما بُعِث به الرُّسلُ، فقدَّرنا «بأن»؛ أي: بأن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

وقال بعضُ أهل العلم: إنَّ «أن» هنا تفسيريَّة؛ تُفَسِّر ما بُعِث به الرُّسلُ.

إذن؛ الرُّسلُ جميعًا أُمروا بالتوحيد، وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ هي التوحيد، كما تقدَّم معنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: أي: جانبوه ومِيلوا عنه ولا تقربوه، فوظيفة الرُّسل الأصليَّة الَّتي بُعِثوا بها أن يأمروا بالتوحيد وأن ينهَوا عن الشِّرك.

والطاغوت هنا: من الطغيان، والطغيان: هو مُجَاوَزَةُ الحدِّ.

وقد فسَّره بعضُ السَّلف ببعض أفراده، فقال بعضهم: هو الشيطان، وقال آخرون: هو الكاهن، وقال آخرون: هو السَّاحر.

وفسَّره بعضُ السلف بمعنًىٰ عام؛ فقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الطَّاغوت: ما عُبِد من دون الله، أو الذين يُعبَدون من دون الله[1].

وأحسَنُ ما قيل في تعريفه ما ذكره ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: «كلُّ ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع»[2].

وهذا التَّعريف أشكل علىٰ كثير من أهل العلم، قالوا: إنَّا وجدنا ممَّا يُعبَد

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٨ الكتب المصرية) عن ابن وهب عن مالك، وانظر: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (ص١٦/ ط: السنة المحمدية).

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٠).

من دون الله: الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فاليهود يَعبُدون عُزَيرًا، والنصارىٰ يعبدون عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووجدنا من يَعبد الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فهل هؤلاء يسمَّون طواغيت؟!

فقال بعضُ أهل العلم: إنَّ هؤلاء لا يُسمَّون طواغيت، فلابدَّ من تقييد كلام ابن القيِّم، **فيُزاد فيه**: «ورضي بذلك»؛ حتىٰ يخرج الأنبياء والملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

والَّذي يظهر لي -والله أعلم- أنَّ عندنا أمرين:

١- اتِّخاذ الطَّاغوت.

٢- الطَّاغوت في حقيقته.

فاتِّخاذُ النَّاس طاغوتًا؛ فيكونُ هذا طاغوتًا باعتبار اتِّخاذ النَّاس له لا باعتبار حقيقته، وهذا يدخل فيه كلُّ من عُبد من دون الله، ولكنَّه في حقيقته ليس طاغوتًا، لكنَّ الذين عبدوه اتَّخذوه طاغوتًا؛ ولذلك قال ابنُ القيِّم: «كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه»، فقوله: «حدَّه»: يعني حدَّ المعبود ليس العبد، فالضمير يرجع إلىٰ المتجاوَز به وليس المتجاوِز؛ لأنَّنا ندرك جميعًا أنّ كلَّ مخلوق من مخلوقات الله له حدٌّ، فإذا جاء إنسان وتجاوز بهذا المخلوق حدَّه فقد اتَّخذه طاغوتًا، وإن لم يكن هو في حقيقته طاغوتًا؛ لكن هو بالنسبة للمتَّخِذ.

فيدخل بهذا الاعتبار في هذا التعريف: عبادةُ الأصنام، عبادةُ الأشجار، عبادةُ الملائكة، عبادةُ الأنبياء، عبادةُ الأولياء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أو متبوع): كمَشَايخ الضَّلال، الَّذين يقولون للنَّاس: لا تذهبوا إلىٰ دروس العلم ودروس التوحيد؛ هؤلاء وهَّابيَّة ضُلَّال كفَّار! لكن تعالوا عند القبور! يقولون: أنت تريد الولد؛ والوهابيَّة يقولون لك: قل: يا الله يا الله! فلا يأتيك ولد، تعال عند قبر سيدي فلان، وقل: يا سيِّدي فلان المددَ! يا سيِّدي فلان الولدَ! فيأتيك الولد! فيتَّبعهم بعضُ النَّاس، فهؤلاء طواغيت؛ لأنَّ هؤلاء اتَّخذوهم طواغيت، فاتَّبعوهم فيما يقولون.

وقوله: (أو مُطاع): أي: في تحليل ما حرَّم الله مع العلم بتحريمه، أو تحريم ما أحلَّ الله مع العلم بحلِّه.

يسمع أحدُهم قولَه تعالىٰ في القرآن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، فحرَّم الله تعالىٰ أن ندعو أحدًا مع الله تعالىٰ، ثمَّ يأتي شيخ يقول له: لا، هؤلاء الأولياء وسائطُ بينك وبين الله، ودعاؤهم زُلفَىٰ، فنحن ندعوهم لنتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ! فيأتي هذا الَّذي قرأ الآية وعَلِمَها، فيُطيعه في هذا الشرك!

أو يأتي أحدٌ يعلم أنَّ الرِّبا حرام، فيسمع عالمًا من علماء السلاطين[1] يقول: هذا المال الَّذي يوضع في البنوك وتؤخَذ عليه فوائد ليس ربًا، هو حلال، فيُطيعه في هذا التحليل مع علمه بأنه ربًا، وأنَّ الرِّبا حرام، فهذا قد اتَّخذه طاغوتًا في هذا الأمر.

---

(١) من الضُّلَّال من يتَّهم العلماء الربانيِّين الذين يَقفون عند الأدلَّة بأنهم من علماء السلاطين، وهذا جهل وظلم، لكن يوجد علماء سلاطين يقولون بما يقوله السلطان، إذا قال السلطان: النصارىٰ واليهود وكلُّ شخص قلبُه طيِّب هو في الجنَّة، قالوا: نعم؛ لأنَّ الرئيس قال هذا!

وعلىٰ هذا المعنىٰ: فليس كلُّ طاغوتٍ كافرًا؛ لأنَّه طاغوتٌ باعتبار المتَّخِذ لا باعتبار المتَّخَذ، يعني: لا باعتبار حقيقته.

وأمَّا باعتبار المتَّخَذ: وهو الطَّاغوت في ذاته. وهذا في الحقيقة هو: مَن عُبِد من دون الله وهو راضٍ أو غير كاره، فهذا طاغوتٌ في حقيقته، ونسمِّيه طاغوتًا.

فعندنا ثلاثة مقامات:

١- طاغوتٌ عُبِد من دون الله بأمره هو. وهذا أقبحُه؛ مثل فرعون الَّذي أمر النَّاس أن يعبدوه، وقال: أنا ربُّكم الأعلىٰ.

٢- طاغوتٌ عُبد من دون الله وهو راضٍ، لم يأمر بعبادته لكنَّه رضي بذلك، كمن جاءه النَّاس يتقرَّبون إليه ويُعطونه الأموال ويقولون: يا سيِّدنا أنت مبارك، فارزقنا، سيِّدَنا المددَ المددَ! فوجد الأموال والغنىٰ والجاه الكبير؛ فرضي بهذا الأفعال، ورضي بأن يُعبَد من دون الله، وأن يُدعىٰ من دون الله.

٣- طاغوتٌ عُبِد من دون الله وهو غيرُ كاره؛ لم يرضَ لكنَّه غيرُ كاره؛ مثل الشمس والقمر والحجر؛ فإنَّها غيرُ راضية، لكنَّها غيرُ كارهة، فهذه تسمَّىٰ طاغوتًا.

وبعض العلماء يُخرِجون الثالث ويقولون: إنَّ الطاغوت الذي يُسَمَّىٰ طاغوتًا في حقيقته هو الذي يُعبَدُ من دون الله بأمره، أو يُعبد من دون الله برضاه. أمّا من يُعبد من دون الله بغير أمره ولا رضاه مثل القمر والشمس ونحو ذلك قالوا: لا تسمىٰ طاغوتًا.

والذي يظهر -والله أعلم- أنه لا محذور في التسمية؛ فالحد موجود ولا محذور في التسمية.

إذن؛ خرج الملائكةُ والأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لأنَّه لا ينطبق عليهم هذا التعريف، فلا يُسمَّون طواغيت.

وهنا السُّؤال: هل الطَّاغوتُ بهذا المعنىٰ كافر؟

الجواب: نعم، الطَّاغوت في حقيقته كافر.

فالَّذي استحقَّ أن يسمَّىٰ طاغوتًا بما ذكرناه بهذه الأمور الثلاثة، وهي:

١- من عُبِدَ من دون الله بأمره.

٢- أو عُبِدَ من دون الله برضاه.

٣- أو عُبِدَ من دون الله بدون أن يكره ذلك، فهذا كافرٌ إن كان يستحقُّ أن يوصَف بذلك، أمَّا الأشياء الَّتي لا تستحقُّ أن توصف بالكفر والإيمان مثل الشمس والقمر والشجر؛ فلا يمكن أن تُوصف بأنَّها كافرة أو مؤمنة.

فإلحاق الأحكام يكون بحسب الاستحقاق، فلابدَّ من العلم والرضا، فيُلحَق حكمُ الطَّاغوت بمن عَلِمَ ورَضِيَ.

أمَّا من لم يعلم ولم يَرضَ فإنَّه لا تلحقه بذاته أحكامُ الطَّاغوت.

إذا فهم طالبُ العلم هذا وضبطه انحَلَّ عنه الإشكال، فالمسألة مشكلة لو لم تُفصَّل ويُبيَّن الفرق بين الطاغوت المُتَّخَذ والطاغوت الحقيقيِّ.

إذن؛ كلام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح في الطَّاغوت المتَّخَذ، ولذلك قال: كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع.

ولو أردنا حقيقة الطاغوت لقُلنا: يجب أن يُضاف إليه: «ورضي بذلك، أو لم يكره ذلك».

ودلَّ قولُه تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾، علىٰ أنَّ الدِّين الَّذي اتَّفق عليه الأنبياء جميعًا هو: التوحيد والتحذير من الشرك.

والتوحيد لابدَّ فيه:

- من نفي.

- وإثبات.

لأنَّ النَّفي وحده تعطيلٌ للعبادة كلِّها، فإذا قال الإنسان: لا إله؛ عطَّل عن العبادة.

والإثبات وحده لا يلزم منه نفيُ الشريك. فعندما تقول: الله إلهٌ؛ لا يلزمُ منه أن غيره ليس إلهًا.

فلابدَّ في التوحيد من النَّفي والإثبات؛ يعني: إثبات العبادة لله، ونفيها عن غير الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّىٰ يكون الإنسان موحِّدًا.

ولذلك؛ فما من رَسُول إلَّا وقد أوحىٰ الله إليه بهذه الكلمة العظمىٰ: «لا إله إلا الله»، الَّتي فيها النفي والإثبات.

ولا يكون الإنسان مستمسكًا ومتمسِّكًا بشهادة أن لا إله إلا الله الَّتي هي العروة الوثقىٰ إلَّا إذا أتىٰ بأمرين:

١- كَفَرَ بالطاغوت.

٢- وعَبَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]. فهي محكمة قويَّة، ولكن شرط ذلك: أن يَكفر بالطاغوت، وأن يَعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومعنىٰ الكفر بالطاغوت:

١- أن يُبغِض عبادة غير الله.

٢- وأن يَكفُرَ بعبادة غير الله.

٣- وأن يحذر عبادة غير الله.

هذه الثلاثة: أن يُبغض عبادة غير الله، وأن يكفر بعبادة غير الله؛ بأن يعتقد بأنَّ كلَّ عبادةٍ لغير الله باطلة وكفرٌ بالله. وأن يحذر عبادة غير الله، ولو شيئًا يسيرًا، ولو أن يقدِّم ذبابة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ هذا هو الكفر بالطاغوت الَّذي لابُدَّ منه في تحقيق التوحيد.

وهذه الآية أفادتنا فائدةً عظيمةً جدًّا؛ وهي: أنَّ دعوة الأنبياء والرُّسل لابدَّ فيها من أمر ونهي.

فكلُّ دعوة فيها أمرٌ بلا نهي أو نهيٌ بلا أمر فهي بدعة؛ فالجماعات الَّتي تقول: ندعو إلىٰ الله، والدعوة إلىٰ الله فضيلةٌ -ولا شكَّ في هذا-، ولكنَّا نأمر بالمعروف ولا ننهىٰ عن المنكر، إذا أمرنا بالمعروف ذهب المنكر!

فنَقُول: هذه بدعةٌ؛ لأنَّها مخالِفة لطريق الرُّسل جميعًا، فطريقُهم أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر؛ أمرٌ بالتوحيد ونهيٌ عن الشِّرك جملةً وتفصيلًا كما سيأتي إن شاء الله.

إذن؛ أيها المسلم، لا تغترَّ بمجرَّد الدعوىٰ، وأكثر المسلمين الَّذين ينساقون وراء بعض الدعوات البدعية قلوبُهم طيِّبة، ويحبُّون الله ورسوله، بل ويبذلون من أموالهم الشيء الكثير؛ لكن ليس البذل علامة الصِّحَّة؛ وإنَّما علامة الصِّحَّة أن تبذل في أمر شرعيٍّ صحيح.

فعلامة الصِّحَّة: أن تسير أيُّها المسلم علىٰ طريق الرُّسل، فجميع الرُّسل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ فكيف تحيدُ عن طريق الرُّسل، وتقول: لا؛ دعوتُنا أمرٌ بالمعروف فقط؟!

فحتَّىٰ المعروف الذي يقصدونه ليس كلَّ معروفٍ، وإنَّما ما يتَّفق عليه النَّاس! ويعتلُّون بقولهم: حتَّىٰ لا نختلف!

بالله عليك هل أنت علىٰ طريق الرُّسل؟!، لا واللهِ.

لكن للأسف بعضُ المسلمين تركوا نصوص الكتاب والسُّنَّة، وذهبوا إلىٰ غيرها من الرُّؤىٰ والمنامات والأمثلة العجيبة لتحبيب النَّاس في طرقٍ مبتدَعةٍ.

ونحن واللهِ نُحبُّ الدعوة إلىٰ الله، وإنِّي لا أسمع عن شخصٍ ما يدعو إلىٰ الله في بلد من البلدان علىٰ سنَّة وبصيرة -وأنا لا أعرفه- إلَّا أحببته في الله، وأعليتُ مقامه، ودعوتُ له كثيرًا.

فلا ينفع أن نترك طرق الأدلَّة وطرق الرُّسل ونأتي بأمثلةٍ مُضحكةٍ مُبكيةٍ؛ من أجل أن نحبِّب النَّاس في الدَّعوة علىٰ غير بصيرة وعلىٰ غير طريقة الرُّسل.

ومن أعجب ما سمعتُ دليلًا لصحَّة هذا الخروج الَّذي ليس علىٰ طريق الرُّسل ولا علىٰ طريق الصَّحابة؛ قول أحدهم: كتاكيت الحمام تخرج مغمضة العينين لا ريش فيها، ولا تنفع نفسها، أمَّا كتاكيت الدجاج فتخرج مفتحةً أعينها وتنقر طعامها وتنفع نفسها؛ ثمَّ قال لسامعيه: تدرون لماذا؟ قالوا: هات الحكمة التي استنبطتها؟ قال: إن السبب في ذلك: الأب، فالدِّيك يدعو إلىٰ الله؛ فهو يصيح: حيَّ علىٰ الصلاة؛ فأصلح الله أولاده ولم يُضيِّعه، وذكر الحمام يبقىٰ عند الأنثىٰ ولا يدعو إلىٰ الله، فيضيع أولادُه! إذن اخرجوا وادعوا! هذا هو الدليل العظيم علىٰ صحَّة الخروج المُبتدَع!

سبحان الله! نترك قال الله قال رسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ أمثلةٍ فاسدة!

فحتَّىٰ هذا المثال الَّذي ذكره هذا المتكلِّم فاسدٌ؛ لأنَّ الدِّيك لم يثبت أنه يدعو إلىٰ الله؛ لأنَّه يصيح فقط، ثمَّ الدِّيك لا يذهب عن الدَّجاجة، هو عندها دائمًا، والَّذي يذهب عن الحمامة هو ذَكرُ الحمام فإنَّه يطير، فهذا مَثَل منتكِسٌ في نفسه، ويدلُّ علىٰ أنَّ بعض إخواننا الَّذين ينتسبون إلىٰ الإسلام ويحبُّون الخير لم يعرفوا البصيرة.

ولذلك؛ ندعو أهل العلم وطلَّابه إلىٰ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ بجدٍّ واجتهادٍ علىٰ بصيرة، ولا يجوز لنا أن نكسَلَ، فأهلُ الشَّرِّ مجتهدون في الدعوة إلىٰ الباطل، وفي زماننا يستعملون جميع وسائل التَّواصل للدعوة إلىٰ الشِّرك وإلىٰ البدع.

وجهادُ هذا الزمان هو الدعوة إلىٰ الله بعلم، فندعو إخواننا الَّذين رزقهم الله حبَّ الدعوة علىٰ بصيرة، وأن يدعو إلىٰ الله ببصيرةٍ وسنَّةٍ، وأن يتركوا ما أحدثه المحدِثون؛ فإنَّ هذا يخالف طريق الرسل جميعًا؛ وهو طريق واحدة، ودين الأنبياء واحدٌ كما سيأتي في المسائل.

❊❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] الآية.

الشرح

هذه الآية وردت في بعض نسخ «كتاب التوحيد» هكذا غير تامَّة، ووردت في بعض النُّسخ تامَّةً. وهي آية عظيمة،وقد روىٰ ابنُ جرير[1] عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّها من الآيات المحكَمات في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ﴾: أي: قضىٰ قضاءً شرعيًّا؛ لأنَّ قضاء ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

- إمَّا قضاء كونِيٌّ قدريٌّ؛ فالله يقضي كونًا وقدرًا ما يحبُّ وما لا يحبُّ، وهذا لابدَّ من وقوعه.

فالله قضىٰ كونًا وقدرًا وقوع التوحيد من المؤمنين؛ وهذا أمرٌ يحبُّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقضىٰ كونًا وقدرًا وقوع الشرك من المشركين؛ وهذا لا يُحبه الله عَزَّ وَجَلَّ، بل يكرهه. وليس هذا هو المراد في الآية.

وإنما المراد هنا: **القضاء الشرعي**.

- **وضابط القضاء الشرعيِّ**: أنَّ الله لا يأمر ولا يقضي شرعًا إلَّا بما يُحِبُّ،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (٥/ ١٩٣ - هجر)، وابنُ أبي حاتم في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٥٩٢).

وأنَّ هذا القضاء قد يقع وقد لا يقع.

فنقول: قضىٰ ربُّنا أن نعبده وأن نوحِّده؛ أي: أمرنا بأن نعبده وأن نوحِّده. فالله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ أن نعبده وأن نوحِّده. وهذا القضاء قد يقع وقد لا يقع؛ ولذا نرىٰ من النَّاس من يُؤمن، ونرىٰ منهم من لا يؤمن.

وقال بعضُ أهل العلم: ﴿وَقَضَىٰ﴾: معناها: وصَّىٰ مُلزِمًا. وقال بعضُهم: معناها: أَمَر. وقال بعضهم: معناها: أَلزَم. وكلُّ هذه المعاني صحيحة.

ونلحظ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولم يقل: وقضىٰ الله؛ وفي هذا فائدة عظيمة؛ وهو أنَّ الَّذي قضىٰ وأمر هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو المنعِم بجميع النعم، وهو الَّذي ربَّىٰ خلقه بنعمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذن هو مستحقٌّ لأن يُطَاع.

وَقَولُهُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ هذا نفيٌ وإثباتٌ. والمعنىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أيَّ معبود ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. وهذا هو التوحيد، وهو حقُّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ فقَرَن حقَّ الوالدين بحقِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فأعظمُ الحقوق: حقُّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هو أعظمُ الحقوق علىٰ الإطلاق، وقرن الله بهذا الحقِّ: حق الوالدين.

فإن قال قائل: فأين حقُّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وحقُّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعظمُ حقٍّ بعد حقِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

قال العلماء: حقُّ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مضمَّنٌ في حقِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ التوحيد وعبادة الله لا تتحقَّق إلَّا بتحقيق الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ

محمَّدًا رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكأنَّ قائلًا يقول: كيف أُحسِنُ إلىٰ الوالدين؟

فبيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الإحسان بقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

فتحصَّل من هذا أنَّ الإحسان إلىٰ الوالِدَين يكون:

١- ببذل المعروف.

٢- وكفِّ الأذىٰ.

٣- وإدخال السُّرور.

٤- والدُّعاء لهما.

٥- والتواضع لهما.

فلا تكون مُحسنًا لوالديك إلَّا بهذه الأمور الخمسة:

١- بذلُ المعروف، وهذا يُؤخذ من قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ويدخل فيه كل معروف.

٢- كفُّ الأذىٰ عنهما؛ صغيرًا كان أو كبيرًا؛ ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، فنهىٰ عن الأذىٰ الصغير والأذىٰ الكبير.

- فالأذىٰ الصغير أن تقول: أُفٍّ، كأن يقول لك والدُك: يا بُنيَّ أحضر لي كذا؛ فتقول: أفٍّ! فما أحسنتَ إلىٰ الوالد؛ لأنَّك ما كففتَ الأذىٰ عنه.

- والأذىٰ الكبير: نَهرُهما فما فوقه، كأن تقول لأحد والديك: لا تطلب منِّي هذا الطلب؛ فقد آذيتني! فهذا نَهرٌ له.

٣- إدخال السرور إلىٰ قلب الأب وقلب الأم، ويدلُّ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، والقول الكريم هو الَّذي إذا سمعاه طابت أنفسُهما؛ فيُدخل السرور إلىٰ قلبيهما بهذا الكلام، ومثاله قولك لأبيك: يا أبت! يا أبي! يا أبي غفر الله لك! يا أبي رحمك الله! ونحوه.

٤- والتواضع لهما؛ وهذا يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، ومعناه: أن تتواضع لهما مهما بَلَغتَ من المنزلة.

وقد كان بعضُ العلماء يُدرِّس في مجلسه، فتناديه أمه، فيخرج من المجلس والطلاب يكتبون، جالس يُدرِّس الناس الحديث والسنة، فتناديه أمه: يا فلان!، فيقوم، ماذا تريد أمه؟ تقول له: ضع الحب للدجاج! فيأخذ الحب ويضعه للدجاج طاعة لأمه ويرجع إلىٰ درسه!

فمهما بلغتَ يجب أن تتواضع لوالديك.

ومن تواضع طالب العلم: أنَّه إذا جاءه طلَّاب العلم وهو مع والده، فعليه أن يقدِّم والده إلىٰ صدر المجلس، ويقول: هذا أبي، ولو كان عاميًّا من النَّاس، ولا يقل: لا أقدِّم أبي؛ لأنه عاميٌّ، وأنا طالب علم، وهؤلاء طلَّاب علم! فلا تستحي

بأبيك أبدًا مهما بلغتَ من منزلةٍ.

٥- والدُّعاء لهما؛ وهذا يُؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾، **قال العلماء:** تُسمعهما هذا الدُّعاء وتدعو به لهما في ظهر الغيب؛ فتسمعهما هذا الدعاء لتجمع بين الدعاء لهما وإدخال السرور إلىٰ قلبيهما، وتدعو به في ظهر الغيب ليكون أبلغ في الإجابة.

ووجه الدلالة من الآية: في قول الله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أنَّ أوَّل أمر وأعظم أمر وأعظم حقٍّ: هو توحيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ﮂ❁❁❁ﮁ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولُه: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦] الآية.

الشرح

قولُه تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾: هذا أمرٌ، والأمر المطلق يقتضي الوجوب. فقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ هذا هو التوحيد كما تقدَّم؛ فالتَّوحيد هو العبادة.

وَقَولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾: هذا الكفرُ بالطاغوت.

فلابدَّ من عبادة الله وتوحيد الله والكفر بالطاغوت؛ أي: نَفيٌ وإثبات.

وهاهُنا تَنبيهٌ: يقول العلماء: عندنا عمومان:

العُموم الأوَّل: في قول الله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ﴾، وذلك لأنَّ (تُشركوا) فعلٌ، والفعل يُضمَّن المَصدَر -لأنَّ الفعل يتضمَّن أمرَين: الحدث، وزمان الحدث. فالمتعلِّق بزمان الحدث: المَصدَر، والمصدر نكرةٌ، والنَّكرة في سياق النَّفي والنَّهي تعمُّ.

إذن؛ **معنىٰ العموم هنا**: لا تُشركوا به شركًا أيَّ شرك؛ لا الشرك الأكبر ولا الشرك الأصغر ولا الشرك الخفيّ، فكلُّها دخلت في هذا النَّهي.

والعموم الثاني: في قوله سبحانه: ﴿شَيۡـٔٗاۖ ﴾، فشيءٌ نكرة في سياق النَّهي؛ فتعمُّ، فلم يبقَ شيءٌ إلَّا وقد نُهينا أن نعبُدَه من دون الله؛ الملائكة، الأنبياء،

الصَّالحون، الأشجار، الأحجار، الشَّمس، القمر، الماء...؛ كلُّ شيءٍ دخل في هذا النَّهي، فنُهينا أن نشرك بالله شيئًا.

وهذا العموم أيضًا يقتضي النَّهي عن الشرك بالله مهما دقَّ؛ يعني: لا نُشرك بالله شيئًا ولو شيئًا يسيرًا، ولو أن تأخذ حبَّة ذُرة وتقدِّمها لصاحب القبر نذرًا أو تقرُّبًا إليه، فهذا من الشرك بالله، وهو داخلٌ في هذا النَّهي العظيم.

وهذه الآية دليلٌ علىٰ أهمِّيَّة التَّوحيد؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمر به أمرًا مطلقًا ونَهىٰ عن ضدِّه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولُه: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:١٥١] **الآيات.**

الشرح

روىٰ ابنُ جريرٍ عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَولِهِ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]، قَالَ: «هِيَ الثَّلَاثُ الآيَاتِ الَّتِي هَاهُنَا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] إِلَىٰ ثَلَاثِ آيَات، وَالَّتِي فِي بَنِي إِسرَائِيلَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إِلَىٰ آخِرِ الآيَاتِ»[1].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد، فرسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمره الله أن يقول هذا القول: ﴿تَعَالَوْاْ﴾، والخطاب للكفَّار الَّذين يَعبدون الأصنام والأحجار والأشجار والأوثان من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحرِّمون ويحلُّون أمورًا بزعمهم، ويقولون: هذا محرَّم علينا وهذا حلال لنا؛ زعمًا وكذبًا وتخرُّصًا، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول في مقابل حالهم: ﴿تَعَالَوْاْ﴾؛ أي: هلمُّوا وأقبِلوا.

قال بعضُ أهل العلم: هذا اللَّفظ فيه بيانُ عُلُوِّ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم.

وقال بعضُ المُفَسِّرين: هذا اللَّفظ فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ دين النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (٥/ ١٩٣/ هجر).

سيعلو في مكَّة: ﴿تَعَالَوْا﴾؛ أي: هلمُّوا وأقبِلوا، وهي مُشعرةٌ بالعلوِّ.

وقولُه: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ما حرَّمه ربُّكم عليكم صدقًا وحقًّا، ليس ما تزعمون وتفترون علىٰ الله، فأوَّل ما ذكر: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، لكنَّك إذا تلوت قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾فإنَّه يتبادر إليك أنَّه سيذكر المحرَّمات، لكنَّه قال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ فهل حرَّم الله علينا ألَّا نشرِك به، أو أمرنا بألَّا نشرِك به؟!

إنَّما أمرنا بألَّا نشرك به؛ أي: حرَّم علينا أن نُشرك به، **ولذلك قال العلماء**: كأنَّ هنا مقدَّرًا، تقديرُه: «وصَّاكم»؛ لِمَا سيأتي في آخر الآيات، فالمعنىٰ: وصَّاكم ألَّا تُشرِكُوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا.

وهل حرَّم الله علينا أن نحسن إلىٰ الوالدين؟ لا، وإنَّما وصَّانا بأن نُحسن إلىٰ الوالدين.

قال العلماء: هذا التفاتٌ بليغٌ؛ لأنَّه بهذا أفادهم فائدتين:

الفائدة الأولىٰ: ما وصَّاهم الله به محاسنُ الأمور، وستأتي في المسائل.

والفائدة الثانية: أنه بيَّن لهم ما حرَّم عليهم؛ لأنَّه إذا وصَّاهم بألَّا يشركوا به شيئًا فضدُّه قد حرَّمه عليهم؛ وهو أن يُشركوا به شيئًا، فحرامٌ عليهم أن يُشركوا بالله شيئًا.

وكذلك إذا وصَّاهم بالإحسان إلىٰ الوالدين؛ فضدُّه -وهو الإساءةُ إلىٰ الوالدين- قد حرَّمه الله عليهم.

فهذا الالتفات أفاد فائدتين:

١ - بيان معاني الأمور الَّتي وصَّىٰ الله بها.

٢ - وبيان أنَّ ضدَّها محرَّم؛ والدَّليل علىٰ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إذن لابدَّ أن يكون في ما يتلوه ما حرَّمه الله. والَّذي حرَّمه الله هو ضدُّ ما وصَّىٰ به.

ووجه الدلالة من هذه الآية علىٰ أهمِّية التوحيد: أنَّ رأس ما وصَّىٰ الله به هو التوحيد، وأنَّ ما بعده يتبعه، فلا خير في شيء يفعله العبد إلَّا مع التوحيد.

فالكافر لو كان من أبرِّ الناس بوالديه؛ فعملُه هذا ليس عبادة لله تعالىٰ؛ لأنه خلا من التوحيد، وهو عملُ خير وعملٌ طيِّب، قد يثيبه الله عليه في الدنيا وقد لا يجزيه شيئًا؛ لأنَّه لا يستحقُّ؛ لكنَّ الله من فضله قد يثيب الكافر علىٰ عمله الطيِّب في الدنيا ويعطيه شيئًا من الدنيا مقابِل ما عَمِلَ مِن عَمَلٍ طيِّب. أمَّا في الآخرة فهو كالهباء المنثور؛ لأنه ليس عبادةً.

إذن؛ كلُّ ما بعد التوحيد لا يصلح إلَّا بالتوحيد، وإذا خلا من التوحيد لم يكن عبادة، ولا ينفع العبدَ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي هذا دليلٌ علىٰ أهمِّية التوحيد.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: مَن أَرَادَ أَن يَنظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيهَا خَاتَمُهُ؛ فَليَقرَأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الآيَةَ[١].

الشرح

هذا الأثر رواه التِّرمذيُّ في «سننه»، والطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «الشُّعَب»، وحسَّنه التِّرمذيُّ، وضعَّفه الألبانيُّ، رحم الله الجميع.

فالألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكم علىٰ هذا الأثر بأنه ضعيف؛من أجل أنَّ في إسناده داود الأودي، وقد ظنَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ داود الأودي هذا هو داود بن يزيد الأودي، وهو رجلٌ ضعيف، كما ذكر الحافظ ابنُ حجر[٢]، فضعَّفه من أجل هذا.

لكنَّ الصواب -والله أعلم- أنَّ هذا الأثر إمَّا صحيح أو حسن. وحُكم الشيخ عليه بأنه ضعيف لم يُصِب فيه؛ لأنَّ داود الأودي هذا هو: داود بن عبد الله

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٠٧٠) وقال: «حسن غريب»، وابنُ أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٤١٤)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ٩٣)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٠/ ٣٠٨)، من طريق محمد بن فضيل عن داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود به.
واختلف في داود هذا؛ فذهب المزِّي في «تهذيب الكمال» (٨/ ٤١١) إلىٰ أنَّه داود بن عبد الله الأودي؛ وهذا ثقةٌ كما في «التقريب» (ص٣٠٦-٣٠٧ - أبو الأشبال).

(٢) انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٧٨ / الفكر)، و«تقريب التهذيب» (ص٣٠٩).

الأودي، وليس داود بن يزيد الأودي. وداود بن عبد الله ثقة[١]، بل قال الشيخ الألبانيُّ في موضع آخر[٢]: ثقةٌ باتِّفاق النُّقَّاد -وإن كان في الحقيقة فيه خلافٌ-، لكنَّه ثقةٌ، لكنه قال عند هذا الأثر: «ضعيف الإسناد»[٣]؛ لأنه ظنَّ أنه داود بن يزيد؛ وهو ضعيف، والحقُّ أنَّه داود بن عبدالله الأوديُّ، وهذا ثقةٌ؛ وإن لم يكن من رجال الصحيحين.

وسبب الوهم هنا؛ أنَّ الشيخ الألبانيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظنَّه داود بن يزيد الأودي؛ لأنَّه يروي عن عامر الشعبيِّ، وداود بنُ عبد الله الأودي يروي كذلك عن عامر الشعبيِّ؛ فظنَّ الشيخ الألبانيُّ أنه داود بن يزيد.

لكن لمَّا نظرنا في الإسناد تبيَّن لنا أنَّه داود بن عبد الله الأودي، والَّذي دلَّنا علىٰ ذلك: أنَّ الرَّاوي عن داود هنا هو: محمَّد بنُ فُضيل، ومحمَّد بنُ فُضيل إنَّما يروي عن داود بن عبد الله الأودي؛ لا عن داود بن يزيد، فعَلِمنا بهذا أنَّ داود هنا هو الثِّقة وليس الضَّعيف.

ولذلك نقول: هذا الأثرُ -وإن ضعَّفه الشيخ ناصر الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- إمَّا صحيح أو حسنٌ، وحسَّنه الترمذيُّ، والنَّظر في إسناده في الحقيقة يقتضي أنه صحيح؛ علىٰ ما بيَّنَّاه.

---

(١) انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٦٥)، و«تقريب التهذيب» (ص ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) «صحيح أبي داود - الأم» (١/ ٥٧) حديث رقم (٢٢).

(٣) «ضعيف سنن الترمذي» (٥٩٣).

والشيخ ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ معذور في الحكم عليه بالضعف؛ لأنه ظنَّ أنَّ داود الأودي هو الرَّجل الضعيف داود بن يزيد الأوديّ.

وقول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**مَن أَرَادَ أَن يَنظُرَ إِلَىٰ وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الَّتِي عَلَيهَا خَاتَمُهُ**»؛ أي: مَن أراد أن ينظر إلىٰ الوصيَّة الَّتي كتبها النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وختم عليها؛ لأنَّ لفظ الأثر عند الترمذي: «**مَن سَرَّهُ أَن يَنظُرَ إِلَىٰ الصَّحِيفَةِ الَّتِي عَلَيهَا خَاتَمُ مُحَمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ هذا معنىٰ الوصيَّة المكتوبة المَختُومة.

ولا شكَّ أنَّه ليس المراد أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب وصِيَّةً وختمها، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكتُب وصيَّة وختمها؛ يقينًا، لكن مراد ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو وصَّىٰ وكتب وصيَّة لأوصىٰ بهذه الآيات؛ وذلك:

١- لأنَّها جوامعُ الخيرات.

٢- ولأنَّ الله وصَّىٰ بها؛ والنَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصي بما وصَّىٰ به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول ابن مسعود هذا يدلُّ علىٰ عناية السَّلف بهذه الآيات؛ فابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكر هذه الآيات من الآيات المحكمات. وابنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جعلهنَّ كوصية النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكتوبة. إذن؛ هذا يدلُّ علىٰ أهمِّيَّتها.

وهذه الآيات تدلُّ علىٰ أهمِّيَّة التوحيد؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ بدأ الأمر فيها بالتوحيد وذلك بالنهي عن الشِّرك الَّذي يقتضي الأمر بالتوحيد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ، أَتَدرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَن يَعبُدُوهُ، وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَن لَا يُعَذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا، قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرهُم؛ فَيَتَّكِلُوا. أَخرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَينِ[(١)].

الشرح

راوي هذا الحديث العظيم هو معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعاذٌ له فضلٌ عظيم؛ فقد كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»[(٢)]. فكان يُخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه يحبُّه ويُقسم علىٰ ذلك.

وأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحشَر قبل العلماء برَتوة[(٣)]؛ أي: أنَّه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣). وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (١/ ٥٠٧)، ووافقه الذهبي. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود -الأم» (١٣٦٢).

(٣) أخرجه ابنُ شبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٨٨٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ ٤١٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥/ ٢٤٣٥)، وفي «حلية الأولياء» (١/ ٢٢٩)، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولفظه: «وَلَو أَدرَكتُ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ، ثُمَّ وَلَّيتُهُ ثُمَّ قَدِمتُ عَلَىٰ رَبِّي فَقَالَ لِي: مَن وَلَّيتَ عَلَىٰ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلتُ: إِنِّي سَمِعتُ عَبدَكَ وَخَلِيلَكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **يَأتِي بَينَ العُلَمَاءِ يَومَ القِيَامَةِ بِرَتوَةٍ**».

=

يُحشَر قبل العلماء بمسافة؛ وهذا من فضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (**كُنتُ رَدِيفَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)، الرَّديف: هو الرَّاكب خلف الراكب بإذنه.

وقد كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواضعًا في غاية التَّواضع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو نبيُّ الثَّقلين الجنِّ والإنس، ومن ذلك أنَّه كان يُردِف بعض النَّاس خلفه، وقد جمع الحافظُ ابنُ منده أسماء مَن أردفهم النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلفه فبلغوا بضعًا وثلاثين نفسًا من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (**عَلَىٰ حِمَارٍ**)؛ يعني الحمارَ الإنسيَّ المعروف، وهو أقلُّ الدَّوابِّ الَّتي تُركب، لأنَّ الإنسان إمَّا أن يركب من الدَّواب: الجمل أو الفرس أو الحصان أو يركب الحمار، والحمار أقلُّ الدَّواب الَّتي كانت تُركب في زمن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلكم كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركب علىٰ حمار؛ وهذا من تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واسم هذا الحمار (عُفَير) كما جاء في رواية في «الصحيحين»[1]، وهذا الاسم مأخوذٌ من (العَفر)، وهو لون التراب، فمعنىٰ هذا أنَّ لون هذا الحمار يشبه لون التراب، وهذا اللَّون معروفٌ. وقيل: مأخوذٌ من (العُفرَة)، والعُفرة:

=

وأخرجه أحمد (١٠٨) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نحوه. وله شواهد مرسلةٌ. وقد أورده الشيخ الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩١).

(١) البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

هي الحُمرة التي يخالطها بياض[١]، ومعنىٰ هذا أنَّ لون هذا الحمار أحمر مع بياض مخلوطٍ به.

فدلَّ هذا علىٰ أنَّ الحيوانات كانت تُسمَّىٰ في زمن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا الحمار كان يسمَّىٰ بعُفَير.

فقيل: إنَّه أهداه إلىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقوقِسُ حاكمُ مصر، وقيل: غيرُه[٢].

قوله: «**قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ، أَتَدرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟**»: فجاء بصيغة الاستفهام؛ ليكون أبلغ في السمع والفهم.

قوله: «**فَقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ**»: يعني: لا أدري؛ لكنَّه بدل أن يقول: لا أدري جاء بعبارة فيها أدبٌ؛ فقال: (اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ) وأمَّا أنا فلا أدري، وسيأتي إن شاء الله ما يتعلَّق بهذه الجملة في المسائل.

قوله: «**قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ**»: أي: حقُّ الله اللَّازم الواجب علىٰ العباد: «**أَن يَعبُدُوهُ وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا**»، فالعبادة والبراءة من الشرك هذا هو التَّوحيد.

قوله: «**وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ**»: أي: أنَّ الحقَّ الَّذي أوجبه الله علىٰ نفسه كرمًا منه وفضلًا، لا مقابَلةً، كما تقول المعتزلة الضُّلَّال الَّذين يقولون: نحن نعملُ

---

(١) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٩).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٩).

واللهُ يجب عليه أن يُثيب! ووالله لو كانت مقابَلةً لخسرنا مقابل نعمة واحدة من نعم الله تعالىٰ، فهذه العين الَّتي نبصر بها وبها نتحرَّك وبها نقرأ وبها نقوم بمصالحنا؛ فوالله نعمةُ هذه العين فقط لو قابلناها بعبادتنا كلِّها ولو عبدنا الله اللَّيل والنَّهار لا نفتُر لَمَا قابلت عبادتُنا هذه النِّعمة، فكيف ونحن نتقلَّب في نعم الله الكثيرة؟!

فهذا الحقُّ ليس حقًّا واجبًا مقابَلةً؛ ولكنَّه حقٌّ أوجبه الله علىٰ نفسه تفضُّلًا منه وإحسانًا.

فربُّنا جوادٌ كريمٌ برٌّ رحيمٌ، تفضَّل علينا فجعل لنا حقًّا عليه، فقولُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ» فيه تعظيمٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وليس تنقُّصًا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما ظنَّ بعضُ الجهَّال؛ لأنَّ هذا الحقَّ مِن كمال رحمة الله، ومن كمال رأفة الله بنا، ومن كمال فضل الله علينا؛ أنَّه جعل لنا حقًّا علىٰ نفسه إن أَتينا بشرط هذا الحقِّ؛ وهو ألَّا نُشرك به شيئًا.

وقد سبق أنَّ التَّوحيد لابدَّ فيه من النَّفي والإثبات؛ فلابدَّ من عبادة الله والبراءة من الشرك والكفر بالطاغوت، فلِمَ لم يذكر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَن لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا» إلَّا نفي الشرك؟!

نقول: بل العبادة مذكورة؛ وذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَحَقُّ العِبَادِ»؛ لأنَّ العبد الَّذي عَبَد، فإذا لم يَعبُد فليس عبدًا. وعُرِف ذلك أيضًا ممَّا تقدَّم في قوله: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَن يَعبُدُوهُ وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا».

وأصرح منهما جاء في رواية في «الصحيحين»[(١)] عن مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا أنا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيس بَينِي وَبَينَهُ إلَّا أخِرَةُ الرَّحلِ، فقال: «**يا مُعاذُ بن جَبَلٍ**» قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يا مُعاذُ**» قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يا مُعاذُ**» قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، قَالَ: «**هَل تَدرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؟**» قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَن يَعبُدُوهُ، وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا**» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بنَ جَبَلٍ**» قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، فَقَالَ: «**هَل تَدرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟**» قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أعلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُم**».

وفي هذه الرواية بيان اهتمام النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمر؛ فإنَّه كرَّر السُّؤال لمعاذ ثلاثًا، وفي كلِّ ذلك يجيبه مُعاذٌ: «لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ» فكان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسكت ولا يجيبه، ثمَّ يمكث ساعةً؛ يعني: مقدارًا من الزَّمن ويعيد عليه السُّؤال نفسه، فيقول معاذٌ: لبَّيك رسول الله وسعديك؛ ينتظر ما سيقوله النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسكت ولا يجيبه، حتَّىٰ أصبح معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متشوِّقًا لأن يعرف ماذا يريد النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الثَّالثة: «**هَل تَدرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ؟**» فقال معاذٌ: قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَن يَعبُدُوهُ، وَلَا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا**» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بنَ جَبَلٍ**» قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعدَيكَ، فَقَالَ: «**هَل تَدرِي**

(١) البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟» قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: «**حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُم**».

ونَفيُ العَذَاب عن المُوَحِّدين:

- إمَّا نفيٌ مُطلَق؛ أي: ألَّا يعذَّب العبدُ مطلقًا.

- وإمَّا نفيٌ مُقيَّدٌ.

وسنُبيِّن هذا في الباب التالي -إن شاء الله-.

قوله: (فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟!): يعني: ما دامت هذه البشارة العظيمة حاصلةً؛ وهو أنَّ مَن وحَّد الله ولم يُشرك به شيئًا لا يعذِّبه الله -علىٰ المعنىٰ الذي سنذكره إن شاء الله عندما نقرنه بدخول الجنة-، ألا أبشِّر النَّاس بها؟!

ويؤخذ من هذا أنَّ تبشير الإنسان بما يسرُّه هو من المكارم والمحامد والصفات الطِّيبة؛ ولذلك استأذن معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: أفلا أبشر الناس بهذه البشارة العظيمة؟!

قوله: (لَا تُبَشِّرهُم فَيَتَّكِلُوا): أي: مخافةَ أن يتَّكل بعضُ النَّاس علىٰ هذه البشارة فيُقَصِّروا في العمل.

قَولُه: (أخرجَاهُ في الصَّحيحَين): يعني: صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم -رحمهما الله تعالىٰ-.

وهذا الحديث يدلُّ علىٰ أنَّ العالِم ينبغي أن يعرف مَن يحدِّث من طلَّابه، فقد يخصُّ بعض الطُّلَّاب بعلم خاصٍّ إذا علم أنَّه ينفعه ولا يضرُّه.

فالنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصَّ مُعاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا العلم، ونهاه أن يبشِّر النَّاس؛ مخافة أن يتَّكلوا.

قال العلماء: وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الكتمان هنا إنَّما هو عمَّن يُخشىٰ منه ذلك، أمَّا مَن لا يُخشىٰ منه ذلك فلا يُكتم عنه[١].

وهاهنا سؤال؛ وهو: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تُبَشِّرهُم فَيَتَّكِلُوا**»، فلماذا روىٰ معاذٌ هذا الحديث وأخبرنا به؟

والجواب: أنَّه جاء في «الصحيح»[٢] أنَّه: «**أَخبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِندَ مَوتِهِ تَأَثُّمًا**»، يعني: تأثُّمًا أن يكتم هذا العلم، فحدَّث به عند موته -رضي الله عنه وأرضاه-، وضمَّن ما روىٰ ما يدفَع ما يُخشىٰ منه؛ وهو أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأذن لمعاذٍ في حينها أن يبشِّر الناس بهذه البشارة حتَّىٰ لا يتَّكلوا علىٰ ذلك. إذن ستتعلَّم الأمَّة أنَّها ليس لها أن تتَّكل علىٰ هذه البشارة، بل مع التوحيد والاجتهاد في عبادة اللهِ والتقرُّب إليه عَزَّ وَجَلَّ.

ووجه الدلالة من هذا الحديث علىٰ أهمِّيَّة التوحيد: أنَّ التوحيد هو حقُّ الله،

---

(١) انظر: «شرح المشكاة» للطِّيبي (٢/ ٤٧٤)، و«تيسير العزيز الحميد» لسليمان آل الشيخ (١/ ١٩٤ - الصميعي)، و«القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» لابن عثيمين (١/ ٥٥ - ابن الجوزي)، و«إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» للفوزان (١/ ٥٠ - الرسالة).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

فالتَّوحيد أعظمُ الحقوق، وأنَّ التوحيد سببٌ لمغفرة الذُّنوب ودخول الجنَّة، كما سيأتي في الباب التالي.

إذن؛ بيَّن لنا شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الافتتاحية أهمِّيَّة التوحيد بأمور:

الأمر الأوَّل: أنَّه من أجل التوحيد خُلق الجنُّ والإنس؛ بل المخلوقات كلُّها خُلقت من أجل التوحيد.

الأمر الثاني: أنه من أجل تحقيق التوحيد بُعثَت الرُّسل، فدينُ الرُّسل الَّذي اتَّفقت عليه هو الأمر بالتوحيد والنَّهي عن الشرك.

الأمر الثالث: أنَّ التوحيد أعظمُ الفرائض، وأنَّ كلَّ فرضٍ يَتبَع التوحيد. فأعظمُ فرض عُرِفَ علىٰ وجه الأرض منذ أن نزل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ الأرض إلىٰ أن تقوم الساعة: هو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ.

والأمر الرابع: أنَّ التوحيد هو حقُّ الله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الَّذي خلقنا وربَّانا بالنعم، والذي سيجازينا يوم القيامة. فأشرفُ حقٍّ وصفه واصفٌ هو التوحيد.

فلذلك يجبُ علىٰ المسلم أن يحبَّه، ويتعلَّمه، ويحقِّقه، ويحذر ممَّا يَنقضه أو يُنقصه، ويدعو إليه، ويصبر علىٰ ذلك، ويكون ثمرة ذلك أن يُعلِّق قلبَه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمسلم إذا عرف هذه الأهمِّيَّة وتقررت في قلبه فلابدَّ أن توجَد هذه الأمور في قلبه، فيكون علىٰ التوحيد ومع التوحيد دائمًا، وسيصبح التوحيد مثل الدَّم في جسده، ولو قُطِّع أو حُرِّق ما أشرك بالله، فحتَّىٰ لو أُكرِه فربَّما تلفَّظ بالكلمة المكروهة، لكنَّ قلبه موحِّدٌ مطمئنٌّ بالإيمان، وهذا الَّذي ينبغي أن نكون عليه.

ولنختبر قلوبنا بهذه الأمور: هل نحبُّ التوحيد؟ هل إذا سمعنا التَّوحيد انشرحت صدورُنا وفرحنا، أو ضاقت صدورُنا -عياذًا بالله من هذا-؟

فإنَّ القلب الحيَّ المؤمن يحبُّ التوحيد.

ولذلك يحرص الشَّيطان علىٰ أن يُبعِد النَّاس عن التوحيد؛ فيأتي لبعض الناس فيُلقي في قلوبهم الشُّبهات، فيقولون: سبقنا النَّاس؛ فإنَّهم اخترعوا الصواريخ وصعدوا إلىٰ القمر، واخترعوا كذا وكذا...، وأنتم مشغولون بالتوحيد!!

فنَقُول: واللهِ لو خَلَونا من التَّوحيد فلا خير فينا، ولو اخترعنا من المخترعات ما اخترعنا، ولو أصبحنا أقوىٰ الأمم فمثلُنا مثل بقيَّة الأمم؛ إن هم كالأنعام. لكن إذا حقَّقت الأمَّة التَّوحيد وأظهرت السُّنَّة؛ صارت قويَّة بالله تعالىٰ، وحينئذٍ تخافُها جميع الأمم.

فليست القوَّة بالأناشيد، وليست القوَّة بأن نترك ديننا من أجل أمور الدنيا؛ وإنَّما قوَّة الأمَّة في تحقيق التوحيد ولزوم السُّنَّة.

واللهِ لو أنَّا علىٰ التوحيد وأنَّا علىٰ السُّنَّة لا نهمل منها شيئًا، محافظون علىٰ الصلاة؛ لهابنا الأعداء؛ ثمَّ مع استقامتنا علىٰ هذه الطريقة نجتهد في الإعداد للأعداء ما استطعنا من قوَّة.

فشياطين الإنس والجنِّ لا يريدون للأمَّة أن تقوىٰ، ولذلك لا يريدون لها أن يظهر فيها التوحيد وحبُّ التوحيد.

فأقول للمُسلمِ: اختَبِر قَلبَك بهذه الأمور:

هل تحبُّ أن تتعلَّم التوحيد؟؛ هل إذا قام الخطيب وخطب عن التوحيد، قُلتَ: الحمد لله، اليوم سَمِعنَا من شيخنا خيرًا عظيمًا؛ علَّمنا التوحيد-وهذا صاحب قلب حيٍّ-؟، أو أنَّك -والعياذ بالله- تقول: «هذا الشيخ ما عنده إلَّا توحيد توحيد...»، هذه علامة سوء في القلب!

وهل تحقِّق التَّوحيد؟ ويكون عملُك بالتَّوحيد ألذَّ عندك من الماء البارد علىٰ العطش، وأحسن عندك من جمع الأموال أو لا؟

وهل نحذر ونخاف من الشِّرك وندعو الله أن يجنِّبنا الشِّرك أو لا؟

وهل ندعو إلىٰ التَّوحيد، لا سيَّما إذا قامت الحاجة إلىٰ ذلك، ورأينا المشركين ورأينا من أخطأ الطريق وهو ينتسب إلىٰ الإسلام، لكنَّه يعلِّق قلبه بغير الله؛ بالشيخ أو بالقبر أو لا؟

وهل نصبر علىٰ ذلك أو أنَّنا بمجرَّد ما قال النَّاس: وهَّابيٌّ! خِفنَا؟

إنَّ المؤمن الَّذي عرف حقَّ الله يصبر علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد ولو بقيَ وحده، فلو تركه النَّاس وابتعدوا عنه وبقيَ وحده في القرية لأنَّه يدعو الناس إلىٰ التوحيد؛ فإنَّه يبقىٰ يدعو إلىٰ التَّوحيد ويحقِّق التَّوحيد.

فإذا كان مدرِّسًا؛ وعمل درسًا في التوحيد فحضر له عشرة، وإذا قصَّ جاءه خمسون ألفًا، فإنَّ المؤمن يستمرُّ في درس التَّوحيد ولو كان عنده واحد، ويصبر ويفرح أنَّه يدرِّس التوحيد.

ووالله قد أدركنا من مشايخنا هذا الاهتمام والصبر، منهم شيخنا الشيخ عبد العزيز الشبل -رحمه الله رحمة واسعة-، كان يدرِّسني في المعهد الثانوي، وكان من الأتقياء الأزكياء -ولا نزكِّي علىٰ الله أحدًا-، وعرفناه بالدِّين والعبادة ورقَّة القلب، وكان إذا ذكر الصحابة بكىٰ -رحمه الله رحمة واسعة-، وكان رجل توحيد عجيب، وحافظًا لكتاب الله، حتَّىٰ كان الشيخ ابنُ صالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «ما أطمئنُّ في صلاتي إلَّا إذا كان الشيخ الشبل خلفي»، وذلك لحفظه وإتقانه لكتاب الله تعالىٰ، فكان شيخنا يدرِّس في المسجد بعد الرِّواق، فرأيتُه والله بعيني يلقي درسه ولا طالب معه موجود! رأيته جالسًا علىٰ الكرسي يُلقي درسه في التوحيد وليس بين يديه أحدٌ! لكنَّه يبقىٰ في درسه حتَّىٰ يفرغ، ويصلِّي العشاء خلف الإمام وينصرف، وقد مات في المسجد النبويِّ -رحمه الله رحمةً واسعة-.

وعلىٰ هذه الطريقة كذلك رأينا بعض شيوخنا.

وذكر لي بعضُ طلَّاب الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الشيخ في أوَّل حياته كان يدرِّس ولا يأتي أحد، فيأمر مؤذِّن المسجد أن يجلس معه، ويُلقي درسه؛ لأنَّهم يدرِّسون لله لا للجماهير. وإذا فعل الإنسانُ ما عليه فالَّذي عند الله لله فيه حكمة.

لكن بعض النَّاس -والعياذ بالله- يضحك عليه الشيطان يقول له: إذا درَّست التوحيد لا يأتيك أحد، لكن إذا درَّست الفقه ولا سيَّما إذا درَّست متنًا مالكيًّا إذا كنت عند المالكية، أو متنًا حنفيًّا إذا كنت عند الحنفية، أو متنًا شافعيًّا إذا كنت

عند الشافعية، أو متنًا حنبليًّا إذا كنت عند الحنابلة، فإنَّه يحضر عندك كثير! وكلُّه علم! درِّس الفقه! نعم لا شكَّ أنَّ الفقه خيرٌ وعلمٌ، لكن لا يترك الإنسان تدريس التوحيد لقلَّة من يحضر عنده. وهذه ثمرة معرفتنا بأهمِّيَّة التوحيد.

ومن هنا نعرف فقه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تبويب هذا الكتاب وفي ترتيبه، حيث بدأ بهذه الافتتاحية الَّتي تجعل المؤمن يرتبط بالتوحيد، ويحقِّق الأمور الَّتي ذكرناها.

فليس الشأن أن يعرفك النَّاس؛ وإنَّما الشأن أن تتعرَّف إلىٰ الله، فكم من العلماء والمشايخ الَّذين عرفناهم وأدركناهم لا يعرفهم كثيرٌ من الناس؛ وهم من خِيرة عباد الله علمًا وتعليمًا؛ من مثل شيخي وأستاذي الشيخ عبد العزيز الشبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد لا يعرفه كثيرٌ منكم، لكنَّه من العُلماء والعبَّاد الأبرار، وقد مات شابًّا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو رجلٌ عالم بالتوحيد وداعيةُ توحيد ومن العبَّاد، لا أعرف أنَّه ترك صلاة الضُّحىٰ، كان يتسلَّل بين الأشجار في كلِّيَّة الشريعة ويصلِّي صلاة الضحىٰ، رحمه الله رحمة واسعة.

وكم من العلماء الأبرار الَّذين لا يُعرفون، لكنَّ الله يعلمهم.

فليس الشأن أن يعرفك النَّاس، وليس الشأن أن يكون عندك جمهور من الحضور، وليس الشأن أن تكون مشهورًا، فإنَّه والله! إنَّ الشُّهرة قد تكون وبالًا علىٰ الإنسان، ولكنَّ الشأن أن تتعرَّف إلىٰ الله، وأن تكون من عباد الله الصالحين المصلِحين المجتهدين في بذل ما يستطيعون لتقريب النَّاس إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

فيا طلَّاب العلم، لا تُهمَّنَّكم الشُّهرة، ولا تلتفتوا إلىٰ أن يعرفكم النَّاس،

ولكن احرصوا علىٰ أن تتعرَّفوا إلىٰ الله، اعمُروا ما بينكم وبين الله، وما زاد علىٰ ذلك فالأمر كلُّه بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله حكيمٌ عليمٌ؛ فقد يكون من الخير لك أن تموت ولا تُعرَف، فقد تعلو منزلتُك في الجنَّة بسبب أنَّك مُتَّ وأنت غير معروف. وقد تكون معرفةُ النَّاس بك وبالًا عليك!

ولذلك؛ احرص علىٰ ما ينفعك، واحرص علىٰ ما يرفعك؛ وذلك بأن تتعرَّف إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تفعل ما يُرضيه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وألَّا تدع شيئًا علمتَ فيه رضا الله تعالىٰ إلَّا بادرت إليه، وحرصت عليه، مع الرِّفق بالنَّاس، والأدب معهم، أمَّا أن يرضىٰ عنك النَّاس فهذا الأمرُ إلىٰ الله، والله حكيمٌ عليمٌ.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: الحِكمَةُ فِي خَلقِ الجِنِّ وَالإِنسِ.

الحِكمَة من خَلق الجنِّ والإنس قد بيَّنها الله لنا؛ وهي: أن نوحِّده ونعرفه معرفةً تقودنا إلىٰ التوحيد. وقد تقَدَّم بيانُ هذا.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ العِبَادَةَ هِيَ التَّوحِيدُ؛ لِأَنَّ الخُصُومَةَ فِيهِ.

فالتَّوحيد رأسُ العبادات وشرطها، فلا تكون العبادة عبادةً إلَّا مع التوحيد. وقد دلَّت علىٰ ذلك الأدلَّة.

وقول الشَّيخ: (**لِأَنَّ الخُصُومَةَ فِيهِ**) يعني: خصومة الأنبياء جميعًا مع أممهم إنَّما كانت في توحيد الألوهية؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ العبادة هي التوحيد؛ لأنَّ الأنبياء جميعًا إنَّما أَمَروا بالعبادة واجتناب الطاغوت.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَن لَم يَأتِ بِهِ لَم يَعبُدِ اللهَ؛ فَفِيهِ مَعنَىٰ: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون:٣].

انتبه لهذه المسألة فهي في غاية النفاسة! قال: «**أَنَّ مَن لَم يَأتِ بِهِ لَم يَعبُدِ اللهَ**»؛ يعني: وإن عبدَ اللهَ أحيانًا؛ لكن ما دام أنه يشرك بالله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه ما عَبَدَ الله أصلًا.

قال: (**فَفِيهِ مَعنَىٰ:** ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾): قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١-٣]، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يا من عبدتم الأصنام ونحوها ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، لا أعبد هذه الأصنام الَّتي تعبدونها من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإن قال قائلٌ: هم أحيانًا يعبدون الله! فنقول: لمَّا كانوا لا يعبدون الله موحِّدين على الإطلاق؛ فإنَّهم ما عَبدوا الله أصلًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ أي: أنا أعبد الله، وأنتم لا تعبدون الله.

فإن قيل: هم يَعبُدون الله أحيانًا؟!

فنقولُ: هم يَعبُدون الله أحيانًا وهم مشركون به؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، فالمشركون في زمن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن عَرفوا الله ووحَّدوا الله توحيد الربوبيَّة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] فهم عرفوا الله لكنَّهم أشركوا بالله في ألوهيَّته.

بل المشركون في زَمَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أحيانًا يُوَحِّدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا ركبوا في الفلك ورأوا البحر يموج خافوا ورأوا أنَّه ما لهم قوَّة -مثل الذين يركبون في الطائرة، إذا ركبوا وأُغلق عليهم ذاك الصندوق، ما بقي

لهم شيءٌ يتعلَّقون به- ورأوا أنَّه لا يُنجيهم أحدٌ؛ دعوا الله مخلصين له الدِّين، إذن وحَّدوا الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المقام، فلمَّا نجَّاهم إلىٰ البرِّ ورجعوا إلىٰ قومهم ورأوا قوَّتهم؛ إذا هم يُشركون.

إذن؛ هؤلاء كانوا يُوحِّدون الله أحيانًا قال لهم النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾؛ لأنَّهم وإن عبدوا الله حينًا فإنَّهم يُشركون بالله عَزَّوَجَلَّ، فمَن لم يعبد الله موحِّدًا لله علىٰ الإطلاق؛ فإنَّه ليس عابدًا لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فالَّذين يدعون غير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ -ودعاء غير الله شركٌ أكبر يُخرِج من الملَّة-، فإنَّهم وإن وحَّدوا في صلاتهم أو صيامهم أو نحو ذلك، لا يكونون عابدين لله حتَّىٰ يَتخلَّصوا من هذا الشرك، ويوحِّدوا الله توحيدًا مطلَقًا.

إذن؛ هذه المسألة نافعةٌ جدًّا؛ وهو أنَّ التوحيد لابدَّ أن يكون علىٰ الإطلاق، فإنَّه لا يقبل التجزئة، بل لابدَّ أن يكون العبدُ موحِّدًا لله تعالىٰ علىٰ الإطلاق، وإلَّا لم يكن عابدًا لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الرَّابِعَةُ: الحِكمَةُ فِي إِرسَالِ الرُّسُلِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ-.

وقد تقدَّم بيانُها.

الخَامِسَةُ: أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّت كُلَّ أُمَّةٍ.

يعني: أنَّ كلَّ أمَّة قد جاءها رسولٌ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦]، و«كلُّ» من أقوىٰ ألفاظ العموم، وقد أُضيفت إلىٰ نكرة «كل أمَّة»، فيتأكَّد عمومُها؛ إذن الرِّسالة عمَّت كلَّ الأمم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]. وهذا ما جعل بعض أهل العلم يقولون: إنه لا يوجد زمن فترة، والفَترة: الانقطاع والسكون؛ لأنه ما من أمَّة إلَّا وقد جاءها رسولٌ.

لكنَّ الصَّحيح أنَّ هناك زَمنَ فَترةٍ بين النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن قَبله وهو عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩]، ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾: يعني علىٰ انقطاع من الرسل.

وقد صحَّ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «الصحيحين»[١] أنه قال: «**أَنَا أَولَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ، الأَنبِيَاءُ أَبنَاءُ عَلَّاتٍ، وَلَيسَ بَينِي وَبَينَ عِيسَىٰ نَبِيٌّ**».

إذن؛ كان بين النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ زمن فترة، فزمن الفترة من زمن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ زمن نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أمَّا قبل ذلك فإنَّ الرسل كانت تَترىٰ وتتابع؛ فليس هناك فترة وانقطاع إلَّا من زمن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ زمن نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يبقَ من الرِّسالة إلَّا بعض الأخبار الَّتي تصل إلىٰ النَّاس.

إذن؛ لا شكَّ أنَّ الرِّسالة عمَّت كلَّ أمَّة، وأنه حصل فترةٌ للرُّسل قبل رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اختلف العلماء في طول هذا الفترة، فقال بعضُ أهل العلم: إنَّه ستُّمائة سنة، وقال بعضُهم: إنَّه أقلُّ، وقال بعضُهم: إنَّه أكثر[٢]، لكن لا شكَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) واللَّفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٣)، و«تفسير الطبري» (٨/ ٢٧٤-٢٧٥)، و«تفسير البغوي» =

في وجود هذه الفترة.

السَّادِسَةُ: أَنَّ دِينَ الأَنبِيَاءِ وَاحِدٌ.

لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل:٣٦]؛ إذن؛ دعوةُ الرُّسل واحدةٌ، ودينُ الأنبياء واحد.

ولذلك؛ قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنبِيَاءُ إِخوَةٌ لِعَلَّاتٍ**»[1]، وقوله: «**لِعَلَّاتٍ**»: يعني: ليسوا لأمٍّ واحدة، والعلَّاتُ هنَّ الضَّرائر، كما قال ابنُ حجر[2].

فالأنبياء إخوةٌ لأب؛ لأنَّهم من ضرائر متعدِّدات؛ ولذلك قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمَّهَاتُهُم شَتَّى، وَدِينُهُم وَاحِدٌ**»؛ واختلف في معنى الأمَّهات[3].

فقال بعضُ أهل العلم: الأمَّهات: الأزمنة، يعني: أزمنتهم مختلفة وأصلُ دينهم واحدٌ؛ وهو: الأمر بالتوحيد والنَّهي عن الشرك.

=

(٣/ ٣٤)، و«زاد المسير» (١/ ٥٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٠)، و«فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٣١ - ابن كثير والكلم الطيب).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» لابن قرقول (٤/ ٤٣٦ - الفلاح)، و«فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٣/ ١١٦٠-١١٦١)، «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

وقال بعضُ أهل العلم: المقصود بأمَّهاتهم: الشرائع. والمقصود بالدِّين: الأصول؛ يعني: التوحيد والنَّهي عن الشرك.

والشاهد: قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَدِينُهُم وَاحِدٌ**»، وهو: الأمرُ بالتوحيد والنَّهيُ عن الشرك.

السَّابِعَةُ: المَسأَلَةُ الكِبيرَةُ: أَنَّ عِبادَةَ اللهِ لَا تَحصُلُ إِلَّا بِالكُفرِ بِالطَّاغُوتِ؛ فَفِيهِ مَعنَىٰ قَولِهِ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فلابدَّ من الأمرين: الكفر بالطَّاغوت والإيمان بالله، حتَّىٰ يكون الإنسان موحِّدًا، كما تقدَّم معنا بيانُه.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ.

فالطَّاغوت عامٌّ في كلِّ ما عُبد من دون الله تعالىٰ. وقيَّد شيخ الإسلام في بعض كتبه[(١)] ذلك بقوله: «إن رضي بذلك»، ولا تنافي بين الأمرين؛ فالطاغوت عامٌّ في كلِّ ما عُبِد من دون الله بالنسبة للمتَّخِذ، فمَن اتَّخذ أحدًا يعبده من دون الله؛ فقد فأعطىٰ غيرَ الله حقَّ الله. ويكون ظالمًا لمن اتَّخذه طاغوتًا إن لم يكن طاغوتًا في حقيقته.

فالنَّصارىٰ الَّذين يعبدون عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ظَلَمُوا مرَّتين:

١- ظَلَمُوا لأنَّهم عبدوا غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٢٠١). وفيه: «إذا لم يكن كارهًا».

٢- وظلموا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّهم اتَّخذوه طاغوتًا؛ مع أنَّه ليس طاغوتًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإنما هو عبدُ الله ورسولُه، كما سيأتي إن شاء الله.

فهنا نقول: الطَّاغوت عامٌّ في كلِّ ما عُبد من دون الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] فجعل الطَّاغوت في مقابل عبادة الله.

إذن؛ كلُّ مَن عُبد مِن دون الله فهو طاغوتٌ بالنسبة لاتِّخاذه، وبالنسبة لمتَّخِذه.

أمَّا تقييده بأنَّه «إن رضي» فهذا بالنسبة لذاته، فلا يكون طاغوتًا إلَّا إذا أمر بعبادته أو رضي بعبادته.

وبعضُ أهل العلم يزيد: أو لم يَكره أن يُعبد.

التَّاسِعَةُ: عِظَمُ شَأنِ الآيَاتِ المُحكَمَاتِ فِي سُورَةِ الأَنعَامِ عِندَ السَّلَفِ. وَفِيهَا عَشرُ مَسَائِلَ: أَوَّلُهَا: النَّهيُ عَنِ الشِّركِ.

هذه الآيات العظيمةُ فيها معالي الأمور؛ ففيها عشرُ مسائل:

المسألة الأولىٰ: النَّهيُ عن الشرك.

المسألة الثانية: الوصية بالوالدَين.

المسألة الثالثة: النَّهيُ عن قتل الأولاد.

وهنا فائدةٌ عظيمةٌ؛ وهي: أنَّ قتل الأولاد خشية الفقر حرام مرَّتين:

- **أوَّلًا:** أنَّه قتلٌ.

- **ثانيًا**: أنَّ فيه إساءةَ الظنِّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ وعد وعدًا لابدَّ منه؛ وهو: أنَّه يرزق الآباء مع أبنائهم، أو يرزق الأبناء مع آبائهم.

ولذلك يَحرُم تحديد النَّسل خوفًا من الفقر؛ لأنَّ فيه إساءة ظنٍّ بالله وردًّا لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد سُئل النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن العزل فقال: «**ذَلِكَ الوَأْدُ الخَفِيُّ**»[(١)]، فذهب المحقِّقون من أهل العلم[(٢)] إلىٰ أنَّ هذا يدلُّ علىٰ كراهية العزل؛ لأنه ثبت أنَّهم كانوا يعزلون في زمن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]، لكن إذا كان العزل وتحديد النَّسل خوفًا من الفقر فهذا حرام؛ لأنَّ فيه إساءة ظنٍّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وردًّا لكلامه.

ورابعها: النَّهيُ عن قربان الفواحش؛ والمراد بها هنا: الذنوب، فنَهَانا الله تعالىٰ عن قربانها؛ لأنَّ من اقترب من الفاحشة أوشك أن يقع فيها، والسَّلامة لا يعدلها شيءٌ. فالمشروع لنا أن نبتعد عن الذنوب وعن أهلها.

وخامسها: النَّهيُ عن قتل النفس المعصومة إلَّا بالحقِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤٢)، عن جدامة بنت وهب الجُدامية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: «المغني» لابن قدامة (٧/ ٢٩٨ / مكتبة القاهرة)، و«المجموع شرح المهذب» للنووي (١٦/ ٤٢١ / الفكر)، و«سبل السلام» للصنعاني (٢/ ٢١٥ / دار الحديث).

(٣) أخرج البخاريُّ (٥٢٠٨)، ومسلم (١٤٤٠)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**كُنَّا نَعزِلُ، وَالقُرآنُ يَنزِلُ**».

وسادسها: النَّهيُ عن قُربان مال اليتيم إلَّا بالَّتي هي أحسن.

وسابعها: الوفاء بالكيل والميزان.

وثامنها: الأمر بالعدل.

وتاسعها: الأمر بالوفاء بالعهد.

وعاشِرُها: الأمر باتِّباع صراط الله المستقيم، واجتناب السُّبل المفرِّقة.

وكلّ ما خالف صراط الله المستقيم فهو من السُّبل المفرِّقة الَّتي تدعو إليها شياطينُ الإنس والجنِّ.

العَاشِرَةُ: الآيَاتُ المُحكَمَاتُ فِي سُورَةِ الإِسرَاءِ وَفِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسأَلَةً؛ بَدَأَهَا اللهُ بِقَولِهِ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ [الإسراء:٢٢]، **وَخَتَمَهَا بِقَولِهِ:** ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩]، **وَنَبَّهَنَا اللهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ عِظَمِ شَأنِ هَذِهِ المَسَائِلِ بِقَولِهِ:** ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء:٣٩].

قوله: (ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسأَلَةً): كذا في الأصول، والصَّوابُ: ثماني عشرة مسألةً؛ لأنَّه من ثلاثة إلىٰ تسعة تخالف المعدود؛ و«مسألة» مؤنَّث؛ فيقال: ثماني عشرة مسألةً.

وهذه الثماني عشرة مسألة أكثرُها مشترك مع المسائل العشر المتقدِّمة، وفيها زيادةٌ تظهر بقراءة الآيات.

لكن هنا فائدة؛ وهي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بدأ هذه المسائل بالنَّهي عن الشرك،

وختمها بالنَّهي عن الشرك، فسوَّرها بالتوحيد؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّها لا تنفع إلَّا بالتوحيد.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: آيَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ، الَّتِي تُسَمَّىٰ: آيَةَ الحُقُوقِ العَشرَةِ. بَدَأَهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِقَولِ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦].

نعم؛ الحقوق العشرة في هذه الآية هي:

الأوَّل: حقُّ الله، ويتضمَّن حقَّ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الثاني: حقُّ الوالدين.

الثالث: حقُّ ذوي القربىٰ.

الرابع: حقُّ اليتامىٰ.

الخامس: حقُّ المساكين.

السادس: حقُّ الجار القريب. والقريب هنا وصفٌ عام؛ يشمل قُرب النَّسب وقُرب المكان، فالجار القريب نسبًا كالعم، وابن العم، والخال ونحوهم. والقريب مكانًا: من يكون بيتُه مُلاصقًا لبيتك.

السابع: حقُّ الجار ذي الجُنب؛ وهو الجار البعيد نسبًا أو مكانًا. فهذا له حقٌّ، ولو لم يكن قريبًا لك، ولو لم يكن من قبيلتك، ولو لم يكن من دولتك، بل حتَّىٰ لو لم يكن علىٰ دينك فله حقٌّ، فما دام له الحقُّ في السكنىٰ بجوارك فله حقُّ الجوار، ولذلك كان ابنُ عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا إذا ذبح شاةً يتصدَّق بها، وأوَّل ما

يسأل يقول: «أَهدَيتُم لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟»[(١)]؛ لأنه قد يُغفَل عنه.

فالجار البعيد -لعدم قرابته أو لعدم إسلامه- الَّذي له الحقُّ في السكنىٰ له حقٌّ. وكذلك الجار البعيد الَّذي ليس مُلاصِقًا لبيتك له حقٌّ.

الثامن: حقُّ الزَّوجَة.

التاسع: حقُّ ابن السبيل.

العاشر: حقُّ ملك اليمين.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِندَ مَوتِهِ.

كما في أثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ حَقِّ اللهِ عَلَينَا.

وهو أن نعبده ولا نُشرك به شيئًا.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ حَقِّ العِبَادِ عَلَيهِ إِذَا أَدَّوا حَقَّهُ.

وهو أنَّ الله تفضَّل علىٰ عباده فجعل علىٰ نفسه حقًّا: ألَّا يُعذِّب من وحَّده فعبده ولم يُشرِك به شيئًا.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: أَنَّ هَذِهِ المَسأَلَةَ لَا يَعرِفُهَا أَكثَرُ الصَّحَابَةِ.

وذلك لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّما أخبر بها معاذًا؛ فقال معاذٌ: (أَفَلَا أُبَشِّرُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٣) وقال: «حسن غريب»، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٥) و(١٢٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٧٤).

النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرهُم فَيَتَّكِلُوا**»؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ أكثر الصحابة لم يكن يعرف هذه المسألة.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: جَوَازُ كِتمَانِ العِلمِ لِلمَصلَحَةِ.

الأصل أنَّه لا يجوز كتمانُ العلم، لكن يجوز كتمانُه أحيانًا للمصلحة علىٰ أن يُبذَل في غير هذا الموطن.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: استِحبَابُ بِشَارَةِ المُسلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ.

وهذه من الآداب؛ أن تبشِّر المسلم بما يسرُّه، فإذا بلغك خبرٌ يسرُّ المسلم فمِن الأدب أن تعاجِله به لتُدخل السُّرور علىٰ قلبه فتنال ثواب ذلك، والعكس بالعكس، إذا علمتَ خبَرًا يغمُّه وليس في مصلحته أن تعاجِل بإخباره به فالمستحبُّ ألَّا تَعجَل به.

وبعض النَّاس إذا سمع خبَرًا يغمُّ إنسانًا بادَر بإخباره به، وهذا يخالف الأدب؛ إلَّا إذا كانت المصلحة تقتضي أن يبادَر بإخباره به.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: الخَوفُ مِنَ الاتِّكَالِ عَلَىٰ سَعَةِ رَحمَةِ اللهِ.

لا شكَّ أنَّ رحمة الله واسعةٌ؛ لكن إنَّما يكتبها الله عَزَّوَجَلَّ للمتَّقين، لكنَّ الخوف من الاتِّكال عليها وترك العمل والسعي لإرضاء الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنَّ ذلك غرور.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: قَولُ المَسئُولِ عَمَّا لَا يَعلَمُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

إذا سئل الإنسان عمَّا لا يعلم، فهذا له حالان[1]:

---

(١) انظر الكلام علىٰ هذه المسألة في: «فتاوىٰ اللَّجنة الدائمة» (٢٤/ ١٥١ القسم الأول- الدويش)، =

الأولىٰ: السؤال عن شيءٍ في زمن النَّبيِّ ﷺ، فهنا قالوا:

الأمور تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأوَّل: الأمور الشرعية. وهذه يقال فيها: الله ورسولُه أعلم.

القسم الثاني: الأمور الغيبيَّة. والرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وهذه يقال فيها: الله أعلم. ويصحُّ أن يقال: الله ورسولُه أعلم؛ باعتبار الخبر، يعني إذا أوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بالأمور الغيبيَّة أصبح النَّبيُّ ﷺ أعلم بها. أمَّا من جهة الإطلاق فالنَّبيُّ ﷺ لا يعلم الغيب إلَّا إذا أطلعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثانية: السُّؤال عن شيءٍ بعد موت النَّبيِّ ﷺ: وهذه نوعان؛ **فالنوع الأوَّل**: أمور شرعيَّةٌ وهي قسمان:

القسم الأوَّل: السُّؤال عن أمر شرعيٍّ واقع؛ قال العلماء: وهذا يقال فيه: الله ورسولُه أعلم.

=

و«القول المفيد» (١/ ٥٨) و(٢/ ٤٩، ٥٤٢) و«شرح رياض الصالحين» (٦/ ٤٧٥- الوطن)، و«فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام» (٥/ ٣٠٠ - المكتبة الإسلامية)، و«مجموع فتاوىٰ ورسائل ابن عثيمين» (٣/ ٧٦-٧٧) لابن عثيمين، و«إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» لصالح الفوزان (١/ ٤٤) و(٢/ ٣٠)، و«التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد» للدويش (ص٣٢)، و«التمهيد لشرح كتاب التوحيد» لصالح آل الشيخ (١/ ٣٥٥ - التوحيد).

القسم الثاني: السُّؤال عن أمر شرعيٍّ نازِل، لم يكن في زمن النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ كأن يُسأل الإنسان مثلًا: هل يجوز أن يقود الإنسان السَّيَّارة من جهة اليمين أو من جهة الشِّمال؟ فهذه السَّيَّارة نازلةٌ، ولم تكن موجودة في زمن النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكونه يقود من جهة اليمين أو من جهة الشمال هذه نازلةٌ؛ فهل يقولُ: الله ورسولُه أعلمُ، أو يقول: الله أعلم؟

- فبعض أهل العلم قال: يقول: الله أعلمُ.

- وبعضُ أهل العلم قال: يجوزُ أن يقول: الله ورسولُه أعلم؛ باعتبار أنَّ هذا حكم شرعيٌّ؛ والأحكام الشرعيَّة عُلِمت للنَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تأصيلًا وتفصيلًا؛ إمَّا علىٰ جهة الإجمال أو إمَّا علىٰ جهة التفصيل، وما دام أنه حكم شرعيٌّ فيجوز أن يقول المسئول: اللهُ ورسولُه أعلم.

النوع الثاني: النَّوازل الَّتي وقعت بعد موت النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ غير الأمور الشرعيَّة والأحكام الدينيَّة، فلا يجوز أن يقال فيها: الله ورسولُه أعلم، وإنَّما يقال: الله أعلم، يقينًا.

العِشرُونَ: جَوَازُ تَخصِيصِ بَعضِ النَّاسِ بِالعِلمِ دُونَ بَعضٍ.

هذه الفائدة قد تكلَّمنا عنها.

الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: تَوَاضُعُهُ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِرُكُوبِهِ الحِمَارَ مَعَ الإِردَافِ عَلَيهِ.

وهذه قد تكلَّمنا عنها أيضًا.

الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ: جَوَازُ الإِرْدَافِ عَلَىٰ الدَّابَّةِ.

وهذا الجواز مقيَّدٌ بشرطَين:

الشرط الأوَّل: أن تكون ممَّا يُركَب.

أمَّا إذا كانت من الدوابِّ الَّتي لا تُركب ولم تُخلَق للركوب؛ فلا يجوز الرُّكوب عليها.

الشَّرط الثاني: أن تكون مُطيقةً لذلك؛ فيجوز أن يركب عليها واحدٌ إذا كانت مُطيقة لواحدٍ، ويجوز أن يركب عليها اثنان إذا كانت مُطيقة لهما، ويجوز أن يركب عليها ثلاثةٌ إذا كانت مُطيقةً، ويجوز أن يركب عليها أربعةٌ إذا كانت مُطيقةً.

أمَّا إذا لم تكن مُطيقةً فلا يجوز الرُّكوب عليها، فلو كانت ضعيفةً لا تُطيق ركوب واحدٍ، بحيث إذا ركب عليها بَرَكَت؛ فلا يجوز الرُّكوب عليها، وإذا كانت لا تطيق أن يركب عليها اثنان فلا يجوز أن يركبا عليها.

والأحاديث الواردة في منع ركوب الثلاثة علىٰ الدَّابَّة كلُّها ضعيفة[1]، ولو صحَّت لحُمِلت علىٰ الحال الَّتي تكون الدَّابَّة غير مُطيقةٍ لذلك؛ لأنه ثبت عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أردف اثنين معه علىٰ الدَّابَّة فكانوا ثلاثةً؛ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن أردفهما[2]. فيُحمَل هذا علىٰ أنَّ الدَّابَّة كانت مُطيقةً، ويُحمل

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٢) ثبت هذا في غير ما حديث؛ منها ما أخرجه البخاريُّ (٥٩٦٥)، عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: =

النَّهيُ -لو صحَّ- علىٰ ما إذا كانت لا تُطيق ذلك.

الثَّالِثَةُ وَالعِشرُونَ: فَضِيلَةُ مُعَاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد كان النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يحبُّه، ويقول له: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، وقال: «**يُحشَرُ مُعَاذٌ قَبلَ العُلَمَاءِ بِرَتوَةٍ**» كما تقدَّم.

الرَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: عِظَمُ شَأنِ هَذِهِ المَسأَلَةِ.

جاء في بعض الأصول: (عظمُ شأن هذه المسائل)، فقوله: «هذه المسائل»: أي المسائل الَّتي ذكرها هنا. وإن قلنا: «عظمُ شأن هذه المسألة»، فالمراد بها: تحقيق التَّوحيد وأهمِّيَّة التَّوحيد.

❁❁❁

=

«لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَكَّةَ، استَقبَلَهُ أُغَيلِمَةُ بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، فَحَمَلَ وَاحِدًا بَينَ يَدَيهِ، وَالآخَرَ خَلفَهُ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ فَضلِ التَّوحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ.

الشرح

قولُه: «بابٌ» بالتنوين أو «بابُ» بغير تنوين.

(**فَضلِ التَّوحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ**): والمقصود بهذا الباب: بيانُ أنَّ التَّوحيد أعظمُ أسباب دخول الجنَّة بفضل الله تعالىٰ، وأنَّه أعظم أسباب النَّجاة من النَّار.

فالتَّوحيد أعظمُ أسباب دخول الجنَّة بفضل الله، ولا شكَّ أنَّه لن يدخل أحدٌ الجنَّة بعمله، وإنَّما تُدخَلُ الجنَّةُ بفضل الله، لكن من فضل الله أنَّه جعل لدخول الجنَّة أسبابًا، وأعظم أسباب دخول الجنَّة هو التَّوحيد، بل كلُّ سببٍ رُتِّب عليه دخول الجنَّة لا يكون سببًا لدخول الجنَّة إلَّا مع التَّوحيد.

فَمَثلًا: السُّننُ الرَّواتب مَن أتىٰ بهنَّ فإنَّه موعودٌ بدخول الجنَّة؛ لكنَّها لا تكون سببًا لدخول الجنَّة إلَّا مع التوحيد؛ وإلَّا ما كانت عبادةً لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

إذن؛ التَّوحيدُ هو أعظمُ الأعمال الصَّالحة، وهو شرطُ صلاح الأعمال.

فلابدَّ في صلاح الأعمال من التوحيد. والأعمال الصالحة هي أسباب دخول الجنَّة بفضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. كما أنَّ التوحيد سببٌ للنَّجاة من النَّار؛ وذلك لوَجهَين:

الوجه الأول: أنَّ التوحيد ثقيلٌ في الميزان. والمعلوم أنَّ أعمال العبد تُوزَن يوم القيامة، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف:٨-٩]. فالأعمال توزَن يوم القيامة، والتوحيد عملٌ ثقيل. فلو كان علىٰ الإنسان سيِّئات فوُضعت في كفَّة السيِّئات، وهو مُوحِّد، ووضعت أعمالُه الصالحة في كفَّة الصالحات، ترجَّحت كفَّة الصالحات بالتوحيد. وهذا له قيدٌ سيأتي إن شاء الله ذكرُه. هذا الوجه الأوَّل؛ وهو ما يُسمَّىٰ بالرُّجحان، يعني النَّجاة من النَّار برُجحان كفَّة الأعمال الصالحة.

والوجه الثاني: أنَّ التَّوحيد تُكفَّر به الذنوب. والذُّنوب هي سبب دخول النار، فإذا كُفِّرت الذنوب سلِم الإنسان من دخول النَّار ابتداءً أو من الخلود فيها إن دخلها؛ كما سيأتي بيانُه إن شاء الله.

إذن؛ المقصود بفضل التوحيد: أنَّه سببٌ للفوز؛ وذلك بدخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار.

***

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

الشرح

هذه الآية في قصَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه؛ قال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [الأنعام:٨١]، فجاء الجواب: **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الأنعام:٨٢].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: الذين وحَّدوا. **﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾**: أي: لم يخلطوا. **﴿إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾**: الظُّلم هنا هو الشِّرك.

والمعنىٰ: الَّذين آمنوا ولم يخلطوا توحيدهم بِشِرك؛ بكلِّ أنواع الشرك، لا بالشرك الأكبر ولا بالشرك الأصغر ولا بالشرك الخفيِّ.

والدَّليل علىٰ أنَّ الظُّلم المقصود هنا هو الشرك: ما رواه البخاريُّ في «الصحيح»(١)؛ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَت هَذِهِ الآيَةُ: **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾**، قَالَ أَصحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) برقم (٣٢).

أَيُّنَا لَم يَظلِم؟ فَأَنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]».

فأفادت هذه الرواية أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الَّذي فسَّر لهم الظُّلم بأنَّه الشرك بإنزاله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، فبيَّن لهم أنَّ الظُّلم في الآية هو: الشِّرك.

وفي رواية أخرىٰ في «الصحيحين»[(١)] عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نَزَلَت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، قُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لَا يَظلِمُ نَفسَهُ؟ قَالَ: لَيسَ كَمَا تَقُولُونَ ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ بِشِركٍ، أَوَلَم تَسمَعُوا إِلَىٰ قَولِ لُقمَانَ لِابنِهِ: يَا بُنَيَّ لَا تُشرِك بِاللهِ إِنَّ الشِّركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ».
فأفادت هذه الرواية أنَّ الَّذي فسَّر لهم الظُّلم هو النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا مانع من الأمرين؛ فالله عَزَّوَجَلَّ أنزل هذه الآية ليُبيِّن للصحابة معنىٰ الظُّلم، وبيَّن لهم النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، فاجتمع بيانُ الله عَزَّوَجَلَّ المراد بالظلم في الآية وبيان النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾، قال كثيرٌ من أهل العلم[(٢)]: المراد به الأمن يوم القيامة، يعني: الأمن من عذاب الله يوم الفزع الأكبر، وهذا أعظمُ أمن ولا شكَّ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، قال أهل العلم[(٣)]: هذا في الدنيا. فوصفُهم

---

(١) البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٩٤)، و«تيسير العزيز الحميد» (١/ ٢٠١).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٨٧)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٠)، و«فتح القدير» للشوكاني (٢/ ١٥٤)، و«تفسير السعدي» (ص٢٦٣)، و«تيسير العزيز الحميد» (١/ ٢٠١).

في الدُّنيا أنَّهم مهتدون، وجزاؤهم في الآخرة أنَّ لهم الأمن.

لكنَّ التحقيق: أنَّ لهم الأمن في الدنيا والآخرة، وأنَّهم مهتدون في الدنيا والآخرة[1].

فلهم الأمن في الدنيا، وهو طمأنينة القلب. فالمؤمن الموحِّد لا يخاف خوف السِّرِّ، ولا يخاف من غير الله أن يضرَّه من دون الله؛ ويدلُّ لذلك: ما جاء في الآية الَّتي قبلها؛ وهي قوله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ [الأنعام:٨١]، وهذا في الدُّنيا.

والَّذين لا توحيد عندهم أو عندهم ضَعفٌ في التَّوحيد يخافون خوفَ السِّرِّ من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يخافون من النَّاس، يخافون من الجنِّ، يخافون من الشياطين، وإذا جاء ناصحٌ وقال لهم: هذا الَّذي يُعبد من دون الله لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، وعبادَتُه من دون الله شرك؛ قالوا له: اسكت، إنه يضرُّك! وإذا قال: لا تعبدوا الجنَّ ولا تتقرَّبوا إليهم؛ قالوا: اسكت؛ إنَّهم يضرُّونك! وإذا قال: إنَّ السَّاحر كافرٌ دجَّالٌ لا خير فيه؛ قالوا له: اسكت؛ فإنَّه يضرُّك! يخافون من السحرة والكهنة أن يضرُّوهم وهم في بيوتهم! وهذا هو خوف السِّر.

أمَّا الموحِّد فهو آمن، لا يخاف إلَّا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالأمن في الدُّنيا حقيقته أمنُ القلوب، ومَن لم يأمن قلبُه فليس بآمن، فوالله

---

(١) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٧/ ٨٢)، و«الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» لابن القيم (٣/ ١٠٥٧-١٠٥٨- العاصمة)، و«تفسير السعدي» (ص٢٦٣)، و«القول المفيد» لابن عثيمين (١/ ٦٣).

لو اجتمع جنود الأرض حول إنسان حصل الخوف في قلبه ما حصل له الأمن.

لكن مَن رزقه الله الأمن في القلب فهو الآمن حقيقة. وهذا معنىٰ قول بعض السَّلف: «لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوف»[(١)]؛ يعني: طمأنينة القلب ونعيمه؛ طمأنينتُه بالتوحيد، ونعيمه بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالمحقِّقون للتَّوحيد لهم الأمن التَّامُّ في الدنيا، ولهم الأمن التَّامُّ من عذاب الله في الآخرة.

وهم مُهتَدُون أيضًا في الدُّنيا والآخرة؛ مهتدون في الدنيا إلىٰ ما يُرضي الله بتوحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومهتدون في الآخرة إلىٰ ما يرضيهم به الله تعالىٰ، فالمؤمن في الدنيا يسعىٰ إلىٰ إرضاء الله، والله تعالىٰ في الآخرة يُعطيه ما يُرضِيه.

وهذا الأمن والهداية بمِقدَار ما يكون من التوحيد.

- **فقد يكون للإنسان الأمن التَّامُّ**؛ إذا حقَّق التَّوحيد بالصُّورة الَّتي سنذكرها إن شاء الله.

---

(١) ذكره العلَّامة ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ٩٤٧ - عالم الفوائد)، و«الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص١٨٦-١٨٧) وفي غيرها من كتبه.
وقد أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧٠-٣٧١)، والبيهقيُّ في «الزهد الكبير» (٨٠)، والخطيب البغداديُّ في «المنتخب في الزهد والرقائق» (١١٥)، وأبو القاسم التيميُّ في «سير السلف الصالحين» (ص١٢٥٦ - دار الراية)، عن إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ: «لَو عَلِمَ المُلُوكُ وَأَبنَاءُ المُلُوكِ، مَا نَحنُ فِيهِ مِنَ السُّرُورِ وَالنَّعِيمِ إِذًا لَجَالَدُونَا عَلَىٰ مَا نَحنُ فِيهِ بِأَسيَافِهِم أَيَّامَ الحَيَاةِ عَلَىٰ مَا نَحنُ فِيهِ مِن لَذَّةِ العَيشِ وَقِلَّةِ التَّعَبِ».

- **وقد يكون له نوع أمن**، وليس الأمن التَّامَّ؛ وذلك إذا حصل نقصٌ في توحيده.

فكلُّ مؤمن عنده إيمان هو آمِنٌ من عذاب الخلود يوم القيامة، لكن ليس كلُّ مؤمن آمنًا من عذاب الدُّخول.

فالعذاب نوعان:

١- **عذابُ خلود**؛ وهو الخلود في النَّار، والعياذ بالله.

٢- **عذابُ الدُّخول**، فمن المؤمنين مَن يكون آمِنًا من هذا العذاب أيضًا؛ فلا يدخل النَّار، وإنَّما يرِدُها بالمرور على الصِّراط. كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، يعني: يمرُّ علىٰ الصراط.

ومن المؤمنين مَن يدخل النَّار فلا يكون آمنًا من هذا العذاب؛ لنقصٍ فيه ونقصٍ في توحيده؛ ولكنَّه لا يُخلَّد في النار؛ كما دلَّت عليه الأدلَّة.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «مَن شَهِدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَىٰ مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أَخرَجَاهُ.

الشرح

قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: **(مَن شَهِدَ)**: أي: مَن تيقَّن بقلبه وأقرَّ بلسانه وحقَّق بعمله؛ هذه معنىٰ الشهادة:

لابدَّ أن يتيقَّن بقلبه، أمَّا إذا قالها بلسانه ولم يتيقَّن بقلبه فهذا قولُ المنافقين، وقد كذَّبهم الله في هذا، فهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله. فلابدَّ من يقين القلب.

ولابدَّ من نطق اللِّسان لمَن كان قادرًا، أمَّا الَّذي لا يستطيع أن يتكلَّم فلا يُشتَرَط في حقِّه النُّطق.

ولابدَّ من تحقيق العمل؛ فإنَّ لا إله إلا الله مفتاح الجنَّة، والمفتاح لابدَّ له من أسنان.

ولفظ الشهادة في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**مَن شَهِدَ**» فيه فائدةٌ؛ وهي: أنَّ هذه الشهادة لابدَّ أن تُبنىٰ علىٰ العلم؛ لأنَّ الشَّهادة شرعًا شرطُها: أن تُبنىٰ علىٰ العلم ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]؛ فلابدَّ من العلم؛ ولذلك قال الله

تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، فلابدَّ في الشهادة من العلم.

وقولُه: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله؛ لا إلهَ: يعني لا معبود، ولكن لابدَّ من زيادة «بحَقٍّ»؛ لأنه توجَد آلهة أخرىٰ تُعبد دون الله تعالىٰ؛ فيوجد أُناسٌ يعبدون الشجر، وأُناسٌ يعبدون النَّار، وأُناسٌ يعبدون بوذا؛ لكنَّها كلها معبودات بغير حقٍّ، ولا معبود بحقٍّ إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولـ «لا إله إلَّا الله» ركنان؛ فـ «لا إله» ركن النفي، و«إلا الله» ركن الإثبات.

وقولُه: (وَحدَهُ): تأكيدٌ لركن الإثبات؛ وهو أنَّ الله تعالىٰ هو المعبود المستحقُّ للعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

وقولُه: (لَا شَرِيكَ لَهُ): تأكيدٌ للنفي؛ فلا معبود بحقٍّ إلَّا الله تعالىٰ، فلا شريك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقَولُه: (وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ): أي: عبدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكذَّب، وهذا تشريفٌ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرَّفه الله بالعبودية، وشرَّفه الله بالرسالة، فهو عبدٌ لا يُعبَد؛ فلا يُدعىٰ من دون الله، ولا يُستغاث به، ولا يُنذَر له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو رسولٌ لا يُكذَّب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا ردٌّ علىٰ طائفتين:

١- ردٌّ علىٰ الغُلاة.

٢- وردٌّ علىٰ الجُفاة.

ردٌّ علىٰ الغُلاة؛ الَّذين يرفعون النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق منزلته، ويجعلون له

ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويقولون -عياذًا بالله ممَّا يقولون-: إن النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملك الدُّنيا والآخرة، ويعطي الدنيا والآخرة لمن يشاء، وأنَّه يعلم الغيب، وأنه لا نجاة لأحدٍ يوم القيامة إلَّا بفضله!

فمَا تَركُوا شيئًا لله إلَّا جعلوه لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخالفوا ما جاء به رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقعوا فيما نهىٰ عنه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاء الغلاة لم يجعلوه عبدًا لله، وإنَّما جعلوه شريكًا لله. تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وردٌّ علىٰ **الجُفاة**؛ الَّذين يُنزلون النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن منزلته، فمنهم من يقول اليوم: أحاديثُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل كلام البشر نقبل منها ما يوافق عقولنا ونردُّ ما يخالف عقولنا؛ لأنه مثله مثل غيره، وكلامه مثل كلام غيره، لا مزيَّة له! والعياذ بالله.

وكذلك الَّذين يرفعون بعض النَّاس فوق النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كالَّذين يرون أنَّ شيوخهم وشيوخ طرقهم فوق النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما يقول قائلُهم:

مَقَـامُ النُّـبُوَّةِ فِـي بَـرزَخٍ فُوَيــقَ الرَّسُــولِ وَدُونَ الوَلِــي[1]

---

(١) هذا البيت الشعري مأثور عن شيخ الاتِّحاديَّة ابن عربي الحاتمي الطَّائي (ت ٦٣٨هـ)، كما في «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٢/ ٢٢١) و(٤/ ١٧١)، و«منهاج السنة النبوية» له (٥/ ٣٣٥-٣٣٦ - محمد رشاد)، و«الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر» (٣/ ١٠٤٨ - ابن حزم). وقد ورد في كتاب ابن عربيٍّ «تنزُّلات الأملاك في حركة الأفلاك» (ص٣٥ - دار صادر) بلفظ:

ســماء النُّــبوَّة فــي بــرزخ دُويــن الولــيِّ وفــوق الرَّســول

=

فالأعلىٰ عندهم هو الوليُّ ثمَّ الرَّسول ثمَّ النَّبيُّ! فيجعلون الوليَّ -والعياذ بالله- فوق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

هؤلاء جُفاةٌ في حقِّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غُلاةٌ في حقِّ شيوخهم.

أمَّا أهل الإيمان الذين يسيرون في طريق الجنَّة؛ فيشهدون أنَّ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله، فهو عبدٌ لا يُعبَد، ولا يُجاوَز به حدُّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورسولٌ لا يُكَذَّب، فلا يوجد مؤمن يعرف حقَّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرٌ كالبشر، بل هو بشرٌ شرَّفه الله بالرسالة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سيِّد ولد آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهذا هو الطريق الصحيح طريق الجنَّة: أن نشهد أنَّ محمَّدًا عبدُ الله ورسولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَولُه: (وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ): فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نشهد أنَّه عبدُ الله، وأنَّه رسولُ الله، فهو رسولٌ لله وعبدٌ له.

وفي هذا أيضًا ردٌّ علىٰ الغُلاة والجُفاة في حقِّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالغُلاةُ: النَّصارىٰ؛ الَّذين يقولون إنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنُ الله، وأنَّه ثالث ثلاثة. وبعضهم يقول: خُلِق منه الخلق.

والجُفاة: اليهود -قبَّحهم الله- الَّذين يقولون: إنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وأعوذ

=

وفي «الفتوحات المكية» له (٢/ ٢٥٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب)، (١٣٩٢هـ):

بين الولاية والرسالة برزخ ... فيه النبوة حكمها لا يجهل

بالله ممَّا قالوا- يقولون: إنَّه ابنُ زنا، وأنَّه يستحقُّ القتل، ويزعمون أنَّهم صلبوه، وما صلبوه.

ونحن نشهَدُ أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عبدُ الله، فليس ولدًا لله، ولا له شرك أبدًا.

وأنَّه رسولٌ من رُسل الله تعالىٰ. والمسلمون هم الأمَّة الوحيدة الَّتي تؤمن بجميع الرُّسل، لكنَّ الَّذي يُتَّبع هو رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك إذا نزل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان سيحكم بشريعة محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي روايةٍ عند مسلم[١]: «وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَابنُ أَمَتِهِ»، فليس ابنًا لله تعالىٰ.

وقَولُه: (وَكَلِمَتُهُ): أي: أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِق بالكلمة؛ وهي «كُن». وهو من البشر، وعاش عيشة البشر، وكان يأكل الطعام عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو ليس كلمةً؛ وإنَّما هو بشرٌ.

لكنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ اختُصَّ عن سائر البشر بجزءٍ ممَّا اختُصَّ به آدمُ في خلقه؛ فآدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلق بالكلمة «كن» فيكون، ولكنَّه خُلق من تراب، أمَّا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فخُلق بالكلمة «كن» فكان، ولكنَّه خُلق في رحم أمِّه، فاختُصَّ بجزءٍ ممَّا اختُصَّ به آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في خلقه، فلم يشارك أحدٌ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا من بني آدم.

---

(١) برقم (٢٨).

وقوله: (أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ): يدلُّ علىٰ أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلق في رحم مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، وليس كما يقول الدَّجَّالون النَّصارىٰ في كتبهم المحرَّفة: إنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء إلىٰ مريم فاستأذنها، فأذنت له، فدخل -يعني: لم يُخلق في رحمها، بل كان مخلوقًا قبل ذلك؛ لأنَّهم يقولون: إنه ابنُ الله، تعالىٰ الله علوًّا كبيرًا، ويزعمون أن استئذانه هذا من أدبه!- قالوا: وفَرَشَ -في الرحم- وقال: لا يكلِّمني أحدٌ إلَّا بعد تسعة أشهر!

فاعجب من هذه الخرافة، وانظر إلىٰ ضعف عقول هؤلاء!

فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِق بكلمة «كن»، أُلقِيَت إلىٰ مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ؛ فخُلق في رحم أمه؛ ولذلك هو ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قَولُه: (وَرُوحٌ مِنهُ): يعني: روحٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أي: نُفِخت فيه الرُّوح الَّتي هي من أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي من مخلوقات الله، ونُفِخَت بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأُضِيفَت إلىٰ الله تشريفًا؛ لأنَّ المقام مقام تشريف.

قَولُه: (وَالجَنَّة حَقٌّ، وَالنَّار حَقٌّ؛ أَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ):

وعند مُسلم: «أَدخَلَهُ اللهُ مِن أَيِّ أَبوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ».

وجاء عند البُخَارِيِّ زيادة: «أَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ مِن أَبوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ».

وللعُلمَاء في تَفسير قَولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِن عَمَلٍ» ثلاثةُ أقوال:

القول الأوَّل: أنَّ معناها: علىٰ ما كان من صلاحٍ أو فسادٍ من عمله.

فالمؤمن الموحِّد لابدَّ أن يدخل الجنَّة حتَّىٰ لو كانت له ذنوبٌ كثيرةٌ ولم يغفرها الله له ودخل بها النار، لابدَّ أن يخرج من النَّار ويدخل الجنَّة.

القول الثاني: أنَّ معناها: أنَّ درجات الموحِّدين في الجنَّة علىٰ حَسَب أعمالهم.

وهذا معنىٰ قول بَعض أهل العلم: «يدخل النَّاس الجنَّة بفضل الله، ويتفاوتون في درجاتها بأعمالهم». يعني: يكون الناس في الجنة بحسب أعمالهم، فيرتفعون درجات في الجنة بحَسَب أعمالهم.

القول الثالث: أنَّ دخوله الجنَّة مبنيٌّ علىٰ ما كان من عمله؛ فقد يدخل الجنَّة ابتداءً، إذا كانت له أعمالٌ صالحة وأعمالٌ سيِّئة غفرها الله له، أو رَجَحت بها الأعمالُ الصالحة. وقد يُبطئ به عملُه الفاسد عن دخولها ابتداءً؛ فلا يدخلها ابتداءً، وإنَّما يدخلها انتهاءً.

وبهذا؛ نعرف أنَّ العمل لابدَّ منه، وأنَّ الاتِّكال علىٰ الشهادة فقط بدون عمل إنَّما هو من غرور الشيطان.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَن قَالَ «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ».

الشرح

قوله: (وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ»...):

قولُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَرَّمَ**»: التَّحريم: هو المنع والحَجز.

قال العلماءُ: والتَّحريم هنا:

- إمَّا تحريم خلود.

- وإمَّا تحريم دخول.

أمَّا تحريم الخلود؛ فكلُّ موحِّد حرَّم الله أن يُخلَّد في النَّار.

وأمَّا تحريم دخول؛ فإنَّما هو لبعض الموحِّدين، الَّذين سيأتي وصفُهم -إن شاء الله- بعد ذلك.

وتأمَّل قول النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**»، فإنَّه لم يكتفِ بقول «لا إله إلا الله»؛ ولكنَّه اشترط لهذا القول شرطًا عظيمًا؛ وهو: أن يبتغي بذلك وجه الله؛ أي: يقصد بذلك وجه الله.

ووجه الله عَزَّ وَجَلَّ صفةٌ من صفات ربِّنا، فلربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجهٌ. وأعظم لذَّةٍ

وأعظم نعيم للموحِّدين هي رؤية وجه الله عَزَّوَجَلَّ إذا دخلوا الجنَّة، لا لذَّة أعظم منها، ولا نعيم أعلىٰ منه. فإنه إذا دخل الموحِّدون الجنَّة تجلَّىٰ لهم ربُّهم وزادهم نعيمًا وفضلًا ولذَّة، فرأوا وجه ربِّهم الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقولُ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا: «**يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**»: يعني: يبتغي بذلك وجه الله، ولازم ابتغائه وجه الله أن يرضىٰ الله عنه. فهو يبتغي بذلك وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويبتغي لازم ذلك وهو: أن يرضىٰ الله عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وجاء في حديث مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا مِن أَحَدٍ يَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدقًا مِن قَلبِهِ؛ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ**» متَّفقٌ عليه[1].

وهذا من أقوىٰ أنواع العموم؛ لأنَّ «أحد» نكرة جاءت في سياق النَّفي وسُبقَت بـ«مِن»، والعلماء يقولون: النَّكرة إذا جاءت في سياق النَّفي وسُبقَت بـ«مِن» كانت من أبلغ العموم حتَّىٰ أنه لا يصحُّ منها الاستثناء.

فلو قلتُ مثلًا: ما من رجلٍ في الدَّار، فمعنىٰ ذلك: أنَّه لا يوجد أيُّ رجل في الدَّار، ولا يصحُّ أن أقول: ما من رجل في الدار إلَّا فلانًا! لكن إذا قلت: لا رجل في الدار؛ فهذا يقتضي العموم، لكن يجوز الاستثناء منه؛ فتقول: إلَّا زيدًا.

إذن؛ هذا اللَّفظ: «ما من أحد»؛ من أبلغ أساليب العُموم.

وقوله: «**صِدقًا مِن قَلبِهِ**»: فيه اشتراطٌ أن يكون ذلك من قلبه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

وقوله: «**إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»: التحريم نوعان كما تقدَّم.

وهاهُنا سؤالٌ: هل ينتفع الإنسان بقول: لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله؟

نَقُول: أمَّا إذا قالها بلسَانِهِ ولم يكن ذلك في قلبه؛ فإنَّها تنفعه في الظاهر في أحكام الدنيا، فنحكم له بالإسلام ونُجري عليه أحكام الإسلام ما لم يأتِ بمُنَاقضٍ لها؛ لأنَّ الَّذي في القلب لا نعلمه، ولا يجوز الحكمُ على النَّاس بالكفر بالقرائن وقد أتَوا بالشهادتين ولم يتلبَّسوا بمناقِضٍ لهما.

ولذلك جاء في «الصحيحين»[(١)] عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الحُرَقَةِ مِن جُهَينَةَ، قَالَ: فَصَبَّحنا القومَ فهزَمناهُم، قَالَ: وَلَحِقتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ رَجُلًا مِنهُم، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنهُ الأَنصَارِيُّ، فَطَعَنتُهُ بِرُمحِي حَتَّى قَتَلتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمنَا بَلَغَذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: **يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلتَهُ بَعدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**؟ قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: **أَقَتَلتَهُ بَعدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**؟ قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَّيتُ أَنِّي لَم أَكُن أَسلَمتُ قَبلَ ذَلِكَ اليَومِ».

وفي رِوَاية[(٢)]: «**أَفَلَا شَقَقتَ عَن قَلبِهِ حَتَّى تَعلَمَ أَقَالَهَا أَم لَا؟**».

فالَّذي في قلبه لا تعلمه، إنَّما يعلمه الله، فعلى الظَّاهر تنفعه الشهادتان.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) لمسلم (٩٦).

وورد في حديث الباب -يعني: حديث عِتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ في أصل قصَّته؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلىٰ بيت عِتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو رجلٌ أعمىٰ- ليُصلِّي في بيت عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ، فَقُمنَا وَرَاءَهُ، فَصَلَّىٰ رَكعَتَينِ، ثُمَّ سَلَّمَ، قَالَ: وَحَبَسنَاهُ عَلَىٰ خَزِيرٍ صَنَعنَاهُ لَهُ، قَالَ: فَثَابَ رِجَالٌ مِن أَهلِ الدَّارِ حَولَنَا حَتَّىٰ اجتَمَعَ فِي البَيتِ رِجَالٌ ذَوُو عَدَدٍ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنهُم: أَينَ مَالِكُ بنُ الدُّخشُنِ؟ فَقَالَ بَعضُهُم: ذَلِكَ مُنَافِقٌ، لَا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا تَقُل لَهُ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَد قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**؟ قَالَ: قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: فَإِنَّمَا نَرَىٰ وَجهَهُ وَنَصِيحَتَهُ لِلمُنَافِقِينَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَإِنَّ اللهَ قَد حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ**».

فيدلُّ هذا علىٰ أنَّ من قال: «لا إله إلا الله»، ولم تكن في قلبه؛ ينفعه ذلك في الظاهر.

ولذلك لم يقتل النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنافقين مع علمه بأنَّهم كاذبون في قولهم: «لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله».

أمَّا عند الله فلا تنفعه؛ ما دام أنَّها لم تَكُن في قلبه.

وهل مَن قال: «لا إله إلا الله» من قلبه ولم يأتِ بالعمل الَّذي تقتضيه «لا إله إلا الله»، أو كان لا يأتي بهذا العمل -وهو عندنا الصلاة فيما نقرِّره-؛ هل تنفعه «لا إله إلا الله»؟

الجَوَاب: أنَّه إذا كان عالمًا بما يجب عليه، متمكِّنًا، ولم يأتِ بما هو واجبٌ عليه -وهو الصلاة على ما نراه، ومطلق العمل عند بعض السَّلف يعني أيَّ عمل يعمله، ونحن نرىٰ علىٰ الرَّاجح أنَّه عملٌ مخصوصٌ: وهو الصَّلاة-؛ فإنَّها لا تنفعه، ولا يكون من المسلمين.

أمَّا إذا لم يعلم بما يجب عليه، كمن كان في دولة من الدُّول فسمع بالإسلام وأحبَّه وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسولُ الله»، لكن لم يجد من يعلِّمه، فبقي يومين أو ثلاثة وهو دائمًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله، لكن ما عُلِّم شيئًا، فمات.

أو عَلِمَ أنه يجب عليه أن يصلِّي، لكن لم يتمكَّن من الصلاة، مثلًا علم في وقت الضُّحىٰ أنَّه يجب عليه أن يصلِّي الظهر، فمات قبل الظهر.

أو علم وتمكَّن ولم يفعل، لكنَّه قالها عند موته تائبًا ممَّا تقدَّم من النواقض الَّتي كان يفعلها كترك الصلاة، وعلمنا ذلك؛ فإنَّ هذا ينفعه.

فإذا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله» من قلبه، لكن لم يأتِ بمقتضاها من العمل الَّذي لابدَّ منه؛ لعَدَم علمه أو لعدم تمكُّنه، أو قالها عند موته تائبًا من الناقض الذي كان يفعله، نادمًا علىٰ ما تقدَّم؛ بمعنىٰ أنَّه عازم علىٰ أنَّه لو تمكَّن من الصلاة سيصلِّي؛ فإنَّه في هذه الحال ينفعه أنَّه قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله» من قلبه.

إذن؛ قولُ «لا إله إلا الله» لابدَّ فيه -كما تقدَّم- من: يقين القلب، ونطق اللسان مع القدرة، والعمل بمقتضىٰ «لا إله إلا الله».

أمَّا إذا كان باللِّسان فقط بدون القلب، فإنَّما تنفعه في الظاهر فقط، أمَّا عند الله فلا تنفعه.

أمَّا إذا نطق بالشهادتين متيقِّنًا من قلبه ولم يأتِ بالمقتضىٰ اللَّازم لـ «لا إله إلا الله» من العمل؛ فإنَّ الأمر كما سبق بيانه، وإذا ضبطتم هذا فإنَّ الأمر ينضبط لكم -إن شاء الله-.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ! عَلِّمنِي شَيئًا أَذكُرُكَ وَأَدعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُل يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَىٰ! لَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي وَالأَرَضِينَ السَّبعَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كَفَّةٍ؛ مَالَت بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ[(١)] وَصَحَّحَهُ.

الشرح

هذا الحديث رواه ابنُ حبَّان في «صحيحه» -والمعلوم أنَّه إذا روىٰ الحديث في صحيحه فهو يصحِّحه-، والحاكم وصحَّحه، وصحَّحه الذهبيُّ، وصحَّحه ابنُ حجر في «فتح الباري»، وقال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أسانيده جيِّدة»، لكنَّ الحديث ضعَّفه الألبانيُّ، وضعَّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط[(٢)] -رحم الله الجميع-.

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ في «عمل اليوم واللَّيلة» (٨٣٤) و(١١٤١)، وأبو يعلىٰ الموصليُّ في «المسند» (٢/ ٥٢٨)، وابنُ حبَّان في «صحيحه» (٦١٨٥ - باوزير)، والطبرانيُّ في «الدعاء» (ص٤٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٧)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٥١)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٥/ ٥٤)، من طريق درَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدريِّ به.

وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبيُّ. وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٨٨-البغية): «رجاله وُثِّقوا، وفيهم ضعف»، وصحَّح إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٠٨)، وضعَّفه الألبانيُّ في «التعليقات الحسان» (٩/ ٥٤).

(٢) انظر: «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/ ٤٦٠) (٩٢٣)، وتحقيق شعيب الأرناؤوط لـ«صحيح ابن حبَّان» (١٤/ ١٠٢).

والظاهر -والله أعلم- أنَّ إسناده ضعيف؛ لأنه من رواية درَّاج؛ ودرَّاج ضعيف، فإذا روىٰ عن أبي الهيثم فهو أشدُّ ضعفًا؛ وهو هنا يروي عنه.

فالحديث ضعيف؛ لكنَّ الشاهد منه صحيح، ولذلك لمَّا ذكره الحافظ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «وله شاهد، ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة»[١].

وأقرب شيءٍ إلىٰ معناه: الحديثُ المرويُّ في «السُّنَنِ» عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: **«أَفضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ عَرَفَةَ، وَأَفضَلُ مَا قُلتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِن قَبلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ، وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»**[٢][٣]؛ يعني: ويَشهَدُ للشاهد منه أيضًا؛ وذلك أنه روىٰ ما رواه الإمام

---

(١) وهو ما أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذيُّ (٢٦٣٩) وقال: «حسن غريب»، وابنُ ماجه (٤٣٠٠)، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَستَخلِصُ رَجُلًا مِن أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَومَ القِيَامَةِ، فَيَنشُرُ عَلَيهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنكِرُ مِن هَذَا شَيئًا؟ أَظَلَمَتكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذرٌ، أَو حَسَنَةٌ؟ فَيُبهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِندَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلمَ اليَومَ عَلَيكَ، فَتُخرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَلَا يَثقُلُ شَيءٌ بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ»**. وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٩٦١)، والترمذي (٣٥٨٥)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وحسَّنه الألبانيُّ في تعليقه علىٰ «المشكاة» (٢٥٩٨). وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٠٣).

(٣) «البداية والنهاية» (٢/ ١٦١).

أحمد[١] عن عَبدِ الله بن عمرٍو بن العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا لَمَّا حَضَرَتهُ الوَفَاةُ، قَالَ لابنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيكَ الوَصِيَّةَ: آمُرُكَ بِاثنَتَينِ، وَأَنهَاكَ عَنِ اثنَتَينِ؛ آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَالأَرَضِينَ السَّبعَ لَو وُضِعَت فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَت لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ رَجَحَت بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَالأَرَضِينَ السَّبعَ كُنَّ حَلقَةً مُبهَمَةً؛ قَصَمَتهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وصحَّحه الحافظ ابنُ كثير والشَّيخ أحمدُ شاكر والشَّيخ شعيبٌ الأرناؤوط والشَّيخ الألبانيُّ والشَّيخ مقبلٌ الوادعيُّ[٢] -رحم الله الجميع-.

فهذا الحديث صحيح، والشاهد من هذا الحديث المورَد عندنا موجودٌ فيه بتمامه.

فنقول في حديث الباب الَّذي معنا: إنَّ إسناده ضعيف؛ لكن ما تضمَّنه من شاهد الباب صحيح؛ لِمَا ذكرناه.

قَولُه: (عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **عَن رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: قَالَ مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا رَبِّ عَلِّمنِي شَيئًا أَذكُرُكَ وَأَدعُوكَ بِهِ)**: فطلب شيئًا ليس

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٨٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٨)، والطبراني في «الكبير» (١٣/ ٧-٨).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١/ ٢٨٠)، وتخريج «المسند» لأحمد شاكر (٦/ ١٥٤) حديث رقم (٦٥٨٣)، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٤)، و«الصحيح المسند ممَّا ليس في الصحيحين» (٨٠١)، وتخريج «المسند» للأرناؤوط (١١/ ١٥١) حديث رقم (٦٥٨٣).

للدُّنيا، وإنَّما ليدعو الله ويذكره به.

قَالَ: (قَالَ اللهُ: قُل يَا مُوسَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): فمعنىٰ ذلك أنَّ من قال: «لا إله إلا الله»، فقد ذكر الله ودعاه، وهذا ما يسمَّىٰ عند أهل العلم بدعاء العبادة.

والدُّعاء نوعان:

- دعاء المسألة.

- ودعاء العبادة.

فدعاء المسألة: أن تقول: اللَّهمَّ ارزقني، اللَّهمَّ اشفِني، اللَّهمَّ عافني؛ فأنت تطلب من الله تعالىٰ أن يؤتيَك سُؤلَك.

ودعاء العبادة: أن تعبُد الله بما شرع، فإذا عبدتَ الله بما شرع فقد دعوته؛ لأنَّ كلَّ عبادة تتضمَّن المسألة؛ فعندما تصلِّي فكأنَّك تقول: اللَّهمَّ اقبل صلاتي، وارزقني ما رتَّبتَه عليها، وعندما تحجُّ كأنَّك تقول: اللَّهُمَّ اقبل حجِّي، وارزقني ما رتَّبته علىٰ الحجِّ، فعندما تقول: «لا إله إلا الله» فأنت ذاكرٌ لله عَزَّوَجَلَّ وداعٍ دعاءَ العبادة؛ لأنَّ قولك: «لا إله إلا الله»، يتضمَّن أنَّك تسأل الله أن يرزقك الله ما رتَّبه علىٰ قول: «لا إله إلا الله».

إذن؛ ليس هناك إشكالٌ في أنَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب شيئًا يذكر الله به ويدعوه به، فقال له الله: قل: «لا إله إلا الله»؛ لأنه قد يأتي قائلٌ فيقول: هذا ذكرٌ، فأين الدُّعاء؟! فنقولُ: الدعاء موجُود في هذا الذكر.

قالَ: (كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا): جاء في أصل الرواية عند ابن حبَّان: «يَا رَبِّ،

كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ».

وعند الحاكم: «**قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ يَا رَبُّ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تُخُصُّنِي بِهِ**». فامتثل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر ربِّه ثمَّ قال: «**إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ**»؛ أي: أريد أن أزيد في عبادتك يا ربِّ، فكلُّ عبادك يقولون: «لا إله إلا الله».

وفي هذا دلالة علىٰ أنَّ الإنسان لا يكون عبدًا لله -علىٰ وجه الامتثال، لا علىٰ وجه كونه عبدًا لله أصلًا- إلَّا بقول: «لا إله إلا الله». فمَن لم يقل: «لا إله إلا الله»، فليس عبدًا لله علىٰ وجه الامتثال، وهذا يعمُّ كلَّ بشر من زمن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها.

قَولُه: (قَالَ: يَا مُوسَىٰ، لَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي): فيه أنَّ السَّموات السبع مَعمُورة بالملائكة، وربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُستوٍ علىٰ عرشه فوق سمواته، فعقيدة المؤمن الراسخة أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ في السماء.

قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦].

ولمَّا سأل النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجاريَةَ: «**أَينَ اللهُ؟**»؛ قَالَت: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: مَن أَنَا؟ قَالَت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: **أَعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ**»[1].

فربُّنا فوق سمواته مستوٍ علىٰ عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك قال: «**لو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي**».

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث مُعاوية بن الحَكَم السُّلميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: (وَالأَرَضِينَ السَّبعَ): وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الأرض مثلُ السماء (سبع).

(فِي كِفَّةٍ): من الميزان.

(وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ؛ مَالَت بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): والمعلوم أنَّ الأعمال توزَن يوم القيامة في الميزان، فتوضَع الأعمال الصالحة في كفَّة، وتوضَع الأعمال السَّيِّئة في كفَّة.

فَمِن الموحِّدين من تثقُل كفَّةُ حسناته؛ وأعظمُ ما فيها: «لا إله إلا الله».

ومن الموحِّدين من لا ترجح كفَّة حسناته، فيجازىٰ بسيِّئاته بالنَّار، إلَّا أن يعفُوَ الله عنه.

وهذا يدلُّنا علىٰ أنَّ النَّاس يتفاوتون في قوَّة «لا إله إلا الله» في قلوبهم.

إذ لا شكَّ أنَّ كلَّ المسلمين يقولون: «لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله»، ولو لم يكونوا يتفاوتون في قوَّتها لَمَا دخل مسلم موحِّد النار؛ لأنَّ «لا إله إلا الله» سترجح بكفَّة الحسنات! لكنَّ هذا بحسَب قوتها، فالنَّاس يتفاوتون في قوَّة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في أنفسهم.

وهذا يدلُّ علىٰ عظم هذه الكلمة «لا إله إلا الله»، وأنَّها المُنجية للعبد، وأنَّ العبد كلَّما اجتهد في تحقيقها وتخليصها -كما سيأتي في تحقيق التوحيد إن شاء الله- كان أقرب إلىٰ الجنَّة، حتَّىٰ أنَّه قد يصل بتحقيقه هذه الكلمة وتخليصها -علىٰ الوجه الَّذي سيأتي بيانُه إن شاء الله- يصل إلىٰ أنَّه منذ أن يموت لا يُعذَّب، فلا يعذَّب في قبره، ولا يعذَّب في النار؛ فيدخل الجنَّة بغير

حساب متقدِّم ولا عذاب يتقدَّم دخوله الجنَّة.

ومعرفة هذا الأمر يجعل المؤمن حريصًا على توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى تحقيقه على الوجه الَّذي سيأتي بيانُه إن شاء الله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلِلتِّرمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا ابنَ آدَمَ، لَو أَتَيتَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشرِكُ بِي شَيئًا لَأَتَيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً».

الشرح

الحديث رواه الترمذيُّ والطبرانيُّ بإسنادٍ حسَّنه التِّرمذيُّ، وصحَّحه الإمام الألبانِيُّ -رحم الله الجميع-[1].

قوله: (عَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ): فهذا حديثٌ قدسيٌّ.

قَولُه: (يَا ابنَ آدَمَ): أي: يا أيُّها الخطَّاء، وكلُّ بني آدم خطَّاء،ولابدَّ أن تُذنب يا ابن آدم.

قَولُه: (لَو أَتَيتَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَطَايَا): يعني: لو كانت الأرض قرابًا وملأته خطايا وذنوبًا صغيرة وكبيرة -غير الشرك الَّذي يخرج من الملَّة-.

قَولُه: (ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشرِكُ بِي شَيئًا): فكنتَ موحِّدًا؛ **«لَأَتَيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً»**.

ففي هذا أنَّ المغفرة إنَّما هي لأهل التوحيد، فأهلُ الشرك لا يغفر الله لهم،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وحسنه، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ولذلك فالمشركون يعذَّبون علىٰ شركهم، ويعذَّبون علىٰ تركهم الأعمال الصالحة وإن فعلوها؛ لأنَّها لا تُقبَل منهم، وليست عبادةً، فيعذَّبون علىٰ ترك الصلاة وعلىٰ ترك الصيام وعلىٰ ترك الحج وعلىٰ ترك الزكاة، ويعذَّبون علىٰ فعل السَّيِّئات.

وهل من كان يصلِّي، لكنَّه يعبد الوليَّ ويدعو غير الله ويستغيث بغير الله وكُفِّر بعينه، هل يؤاخذ علىٰ الصلاة؟

نقول: هذا لم يُصَلِّ لله؛ فيؤاخَذ علىٰ ترك الصلاة ويُعذَّب عليها. فأهلُ الشرك لا يُغفر لهم الشِّرك، ولا تُغفر لهم سيِّئاتهم.

فأهلُ التَّوحيد هم أهلٌ بأن يغفر الله لهم بفضله وكرمه وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذا فضلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله حكيمٌ عليمٌ.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلمُ بهم؛ فمِن عباده من يغفر له خطاياه؛ فيدخل الجنَّة ابتداءً، ومِن عباده من يؤاخَذ بخطاياه؛ فيدخل النَّار، فيشفع فيه الشافعون من الملائكة والصالحين؛ فيُخرَج من النَّار، ومنهم من يدخل النار، ثم يُخرجه الله عَزَّوَجَلَّ بعفوه فيكون من أهل الجنَّة. وهذا يدلُّ علىٰ فضل التوحيد.

ولا شكَّ أنَّ النَّاصح لنفسه إذا سمع قال اللهُ قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرف هذه الفضائل؛ كان التوحيد عنده أغلىٰ من الذهب والفضة، وأحبَّ إليه من النَّاس أجمعين، ولا يمكن أن يترك التوحيد أو شيئًا منه لقول شيخٍ أو لقومٍ أو لأنَّ أهله علىٰ غيره، أبدًا؛ لأنَّه مصدِّقٌ بخبر الله وخبر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَسمعه

عن الشيخ الفلانيِّ ولا الشيخ الفلانيِّ...، بل الَّذي قال هذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أصدقُ القائلين، والَّذي قال هذا هو محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول ربِّ العالمين، ووالله إنَّ المؤمن لا يشكُّ في حرف واحد ثبت عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون حريصًا علىٰ هذا التوحيد، وإذا كان عاش علىٰ غير التوحيد وعلم أمرًا ينافي التوحيد أو ينافي كماله برئ إلىٰ الله منه وغسل نفسه منه وتطهَّر منه وتاب إلىٰ الله. وسيأتي -إن شاء الله- تفصيلُ ما ينافي التوحيد أو ينافي كماله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: سَعَةُ فَضلِ اللهِ.

فَضلُ الله عظيم وَاسِعٌ علىٰ أهل التوحيد، فالله عَزَّوَجَلَّ يدخلهم الجنَّة إمَّا بغير حساب ولا عذاب، وإمَّا بأن يُمَحِّصهم ليتأهَّلوا للجنَّة ثمَّ يدخلوا الجنَّة بعد ذلك، مع أنَّه لا يستحقُّ أحدٌ الجنَّة بعمله، وإنَّما هو فضلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والأعمال أسبابٌ لنيل فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّانِيَةُ: كَثرَةُ ثَوَابِ التَّوحِيدِ عِندَ اللهِ.

أعظمُ الأعمال ثوابًا هو التوحيد، ثمَّ هو شرطٌ لكلِّ عملٍ يُثاب عليه، فلا يمكن أن يُثاب علىٰ عمل إلَّا بالتوحيد، فالتَّوحيد أعظمُ الأعمال ثوابًا، وهو شرطٌ لأن يُثَابَ علىٰ كلِّ عمل.

الثَّالِثَةُ: تَكفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ.

فالتوحيد مع كَونِه حسنةً عظيمة، وكُلُّ عمل لا يكون حسنةً إلا به؛ فإنَّه مع ذلك يكفِّر الله عَزَّوَجَلَّ به الذنوب عمَّن تحمَّل الذنوب.

الرَّابِعَةُ: تَفسِيرُ الآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الأَنعَامِ.

يعني: الآية الَّتي تقدَّمت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، وقد فسَّرناها وبيَّنَّاها.

الخَامِسَةُ: تَأَمُّلُ الخَمسِ اللَّوَاتِي فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ.

وهي المذكورة في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من شهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسىٰ عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلىٰ مريم، وأنَّ الجنَّة حقٌّ، والنَّار حقٌّ...»**. وقد تكلَّمنا عنها في موضعها.

السَّادِسَةُ: أَنَّكَ إِذَا جَمَعتَ بَينَهُ وَبَينَ حَدِيثِ عِتبَانَ وَمَا بَعدَهُ تَبَيَّنَ لَكَ مَعنَىٰ قَولِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ المَغرُورِينَ.

إنَّ شرط «لا إله إلا الله» أن تكون من القلب، وأن يبتغي بها العبدُ وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ من اغتر ومن ظنَّ بأنَّ مجرَّد قول «لا إله إلا الله» ينفع العبد، فلم يتحرَّز من الشرك بأنواعه -ممَّا لا يناقض التوحيد؛ وهو الشِّرك الأصغر والشِّرك الخفيُّ- ولم يعمل الصالحات؛ فهو مغرور؛ لأنَّ من ابتغىٰ وجه الله لابدَّ أن يعبُدَ الله، والَّذي يقول: أنا أقول: «لا إله إلا الله» أبتغي بذلك وجه الله، ثمَّ يقال له: صَلِّ؛ فإنَّ الله يحبُّ هذا، ثمَّ يقول: لا، لا أُصَلِّي! فهذا ما ابتغىٰ وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السَّابِعَةُ: التَّنبِيهُ لِلشَّرطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتبَانَ.

يعني: قوله: **«يَبتَغِي بذَلكَ وَجهَ اللهِ»**.

الثَّامِنَةُ: كَونُ الأَنبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَحتَاجُونَ لِلتَّنبِيهِ عَلَىٰ فَضلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وهذا لِمَا جاء في قصَّة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شكَّ أنَّ عباد الله جميعًا يحتاجون إلىٰ التنبيه علىٰ فضل «لا إله إلا الله». وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد:١٩].

وإذا كان هذا للأنبياء؛ فمن بابِ أولىٰ مَن كان دون الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

فالَّذين يقولون لنا: لماذا تُدَرِّسون التوحيد وتشغلون الأمَّة بالتوحيد؟

نقول لهم: إذا ما أشغلنا الأمَّة بالتَّوحيد الذي هو حقُّ الله، فوالله سيشغلها الشيطان بحقِّه!

والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ منذ أن يُبعَثوا إلىٰ أن يُقبَضوا وهم يُعَلِّمون التوحيد، ويُوصون به.

ونبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ أن بعثه الله وهو يأمر النَّاس بـ «لا إله إلا الله»، وعندما مات أوصىٰ النَّاس بـ «لا إله إلا الله».

ولن تعزَّ الأمَّة ولن تقوىٰ ولن يكون لها شأنٌ، إلَّا إذا أظهرت التوحيد الخالص، واجتهد أهلُ العلم وطلَّابه في دلالة المسلمين علىٰ هذا الطريق المستقيم، الصراط الَّذي لا يجوز للمسلم أن يسلك سواه أبدًا.

التَّاسِعَةُ: التَّنبِيهُ لِرُجحَانِهَا بِجَمِيعِ المَخلُوقَاتِ؛ مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّن يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ.

انتبه لهذا الكلام! «لا إله إلا الله» تَرجُح بجميع المخلوقات لو وُزنت بها في كفَّة؛ ومع ذلك فبعض مَن يَقُولها يخفُّ ميزانه بها؛ وهذا مِن نقصٍ فيه، لا مِن نقصٍ فيها؛ لأنَّه لم يجتهد في تحقيقها فخفَّت، فبعض النَّاس يقول: «لا إله إلا الله»، ويأتِي بما يناقضها، فيرفعها بالكلِّيَّة، ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ

محمَّدًا رسولُ الله، وإذا أصابته مصيبة لا يقول: يا ألله! ولكن يقول: يا سيدي فلان! فهذا يُعدِم قولَه: «لا إله إلا الله» بالكلِّيَّة؛ فلا يكون لها وزنٌ؛ لأنَّه أزالها.

ومن النَّاس مَن لا يأتي بمُنَاقضٍ لها؛ ولكنَّه لا يرعاها ولا يحافظ علىٰ كمالها، فتضعُف.

والدَّليل علىٰ أنَّها تخفُّ: أنَّ من الموحِّدين -يقينًا- من يدخل النَّار؛ وذلك لضعف «لا إله إلا الله» في قلبه.

العَاشِرَةُ: النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ الأَرَضِينَ سَبعٌ كَالسَّمَوَاتِ.

قد وردت الدِّلالة علىٰ هذا في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، لكن في حديث الباب نصَّ علىٰ أنَّ الأرضين سبع، وقد ورد في عدد من الأحاديث أنَّ الأرضين سبعٌ كالسَّموات[١]، والله أعلم بها.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ لَهُنَّ عُمَّارًا.

أمَّا الأرض فنحن نرىٰ عمَّارها، فمنهم بنو آدم، وأمَّا السَّماء فقد أخبرنا الله عن عمَّارها.

والَّذي يظهر هنا -والله أعلم- أنَّ مقصود الشيخ في قوله «أنَّ لهنَّ»: أي:

---

(١) قد ساق الحافظ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَّة أحاديث في الباب من الصَّحيحَين وغيرهما، وقال: «فهذه الأَحاديثُ كالمُتواترةِ في إثبات سبعِ أَرَضين». انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ٣٦-٣٩ - هجر).

السَّموات؛ لأنَّه هو الَّذي ورد في الحديث: «لَوَ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي».

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: إِثبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلأَشَاعِرَةِ.

إثباتُ الصِّفات خلافًا للنُّفاة أو للمؤوِّلة. فالصِّفاتُ ثابتةٌ لربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا شكَّ في ذلك، وقد دلَّت علىٰ ذلك أدلَّة كثيرة؛ منها ما تقدَّم معنا، وقد بيَّنَّا طريقة أهل السُّنَّة والجماعة في إثبات الصفات؛ خلافًا للنُّفاة الَّذين ينفون الصفات أصلًا؛ فيقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر. أو المؤوِّلة الَّذين يؤوِّلون الصفات، ومنهم الأشاعرةُ الَّذين يُثبِتون سبع صفات ويؤوِّلون غيرها.

ونصَّ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الأشاعرة هنا؛ لأنَّهم أقرب من تكلَّم في الصفات إلىٰ أهل السنَّة، وإن لم يكونوا من أهل السنَّة.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: أَنَّكَ إِذَا عَرَفتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفتَ أَنَّ قَولَهُ فِي حَدِيثِ عِتبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجهَ اللهِ» أَنَّ تَركَ الشِّركِ لَيسَ قَولَهَا بِاللِّسَانِ.

يعني المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قوله فيه: «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشرِكُ بِي شَيئًا»، فليس أن تقول «لا إله إلا الله» باللسان فقط؛ بل لابدَّ من القيود السابقة: أن تبتغي بذلك وجه الله.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: تَأَمَّلِ الجَمعَ بَينَ كَونِ عِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَبدَاهُ وَرَسُولَاهُ.

عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلاهما عبدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكذَّب،

فلهما منزلةٌ عظيمةٌ؛ وهي منزلةُ الرِّسالة.

والمعلوم أنَّ أفضل الأنبياء هو محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أولو العزم؛ ومنهم محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والمقصود هنا: أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كمحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هاتين الصِّفتين: عبدٌ ورسولٌ لله عَزَّ وَجَلَّ.

وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من خصائصه: أنَّه سينزل في آخر الزمان؛ لأن الله رفعه، فهو في السماء، وسينزل في آخر الزمان، ويصلِّي كما نصلِّي، ويحجُّ، ويحكم بشريعة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجاهد، ويجاهد معه المسلمون في قتل الدَّجَّال، ثمَّ يبعث لهم الله قومًا لا قدرة لهم علىٰ قتالهم وهم يأجوج ومأجوج؛ فيأمره الله أن يُحرِّز المؤمنين إلىٰ الطور، ويكون ما يكون في آخر الزمان.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ اختِصَاصِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَونِهِ كَلِمَةَ اللهِ.

قد بيَّنَّا معنىٰ كلمة الله؛ وهو أنَّه خُلِق بالكلمة. وكلُّ رجل خُلِق من ماء رجل مع بويضة الأنثىٰ، إلَّا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلق من التُّراب، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلق بقول الله: «كن» في رحم أمِّه، فكانت له أمٌّ؛ فهو ابنُ أمِّه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ كَونِهِ رُوحًا مِنهُ.

قد بيَّنَّا معنىٰ هذا فيما تقدَّم.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ فَضلِ الإِيمَانِ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ.

كما تقدم.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: مَعنَىٰ قَولِهِ: عَلَىٰ مَا كَانَ مِن عَمَلٍ.

قد تقدَّم أنَّ للعلماء ثلاثة أقوال في معنىٰ قوله: «**عَلَىٰ مَا كَانَ مِن عَمَلٍ**». وهذه تردُّ علىٰ المغرورين؛ الَّذين يقولون: يكفي أن يقول: «لا إله إلا الله»، ولو لم يعمل شيئًا!

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ أَنَّ المِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ.

أخذ الشيخ هذه الفائدة من قصَّة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال فيها: «**لَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي وَالأَرضِينَ السَّبعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ**».

لكن قال العلماء: هذا تمثيلٌ؛ لقوله: «لو»، لكنَّ فَهم الشَّيخ صحيح، فقد دلَّت الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة علىٰ أنَّ هذا سيكون، ولذلك السَّلف مُجمِعُون علىٰ أنَّ الميزان له كفَّتان، وأنَّ له لسانًا، فما من ميزان إلَّا له كفَّتان وله لسان.

العِشرُونَ: مَعرِفَةُ ذِكرِ الوَجهِ.

إن المؤمن يبتغي بأعماله الصالحة وجه الله؛ لأنَّ أعظم جزاء علىٰ الأعمال الصالحة علىٰ الإطلاق: هو رؤية وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أسأل الله أن يرزقنا جميعًا، أعظم نعيم علىٰ الإطلاق؛ وهو نظرُ المؤمنين إلىٰ وجه ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهم في الجنَّة.

فالمؤمن بأعماله الصالحة يبتغي وجه الله؛ ولازم ذلك: أنَّه يريد إرضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فهذا يدلُّ علىٰ إثبات الوجه لربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ ما يليق بجلال ربِّنا.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَن حَقَّقَ التَّوحِيدِ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ.

الشرح

مَقصُود هذا البَابِ أمرَان:

الأوَّل: بيانُ فضيلةٍ للتَّوحيد زائدةٍ علىٰ ما تقدَّم.

فالذي تقدَّم: فضلُ التَّوحيد؛ وهو دخول الجنَّة بالتوحيد بفضل الله، والنَّجاة من النَّار بالتوحيد.

وهنا أراد الشيخ أن يبيِّن فضيلة زائدة علىٰ مجرَّد دخول الجنَّة؛ وهي: دخول الجنَّة ابتداءً بغير حساب ولا عذاب يتقدَّم الدخول.

والثاني: بيان أنَّ ما تقَدَّم من دخول الجنَّة لأهل التوحيد ونجاتهم من النار لا يعني أنَّهم يدخلون الجنَّة جميعًا ابتداءً، وأنَّهم يَسلَمُون جميعًا من دخول النَّار ابتداءً.

فأراد الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا أن يقول لنا: إنَّ الذي تقدَّم في الباب السابق لا يعني أنَّ جميع الموحِّدين يدخلون الجنَّة ابتداءً، بل منهم من لن يدخل الجنَّة ابتداءً وإنما يدخلها انتهاءً، وأنَّه لا ينجو جميعُ الموحِّدين من دخول النَّار ابتداءً، بل من الموحِّدين من يدخل النَّار ابتداءً ثمَّ يخرج منها.

ودليلُ ذلك: تخصيصُ طائفةٍ وعددٍ من الأمَّة بدخول الجنَّة بغير حساب

ولا عذاب؛ إذن بقيَّة الأمَّة تدخل الجنَّة ولكن بتقدُّم عذاب.

وبهذا نعرف فقه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التَّرتيب، فهذا ليس من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ فقط؛ وإنَّما من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ مع فائدة القيد لِمَا تقدَّم، فهذا هو مراد الباب.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

الشرح

مناسبة هذه الآية للباب هو تفسيرُ تحقيق التوحيد الَّذي اشتُرِط في الباب، كأنَّ قائلًا قال: كيف أحقِّق التوحيد؟ فقال الشيخ: الجواب في هذه الآية.

إذن؛ مناسبة هذه الآية للباب: أنَّ هذه الآية تبيِّن الشرط المذكور في الباب؛ وهو: تحقيق التوحيد.

ففي هذه الآية العظيمة يثني الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نبيِّه وخليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

١- بأنَّه كان أمَّةً؛ أي: كان إمامًا متبوعًا، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إمامٌ للموحِّدين، فيجب علىٰ كلِّ مُوحِّد أن يتَّخِذه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إمامًا، كما يتَّخِذ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا.

والإمامة لا تُنال في الدِّين إلَّا باليقين والصَّبر؛ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، إذن؛ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مُوقنًا وكان صابرًا، وهو إمامٌ للموحِّدين.

٢- بأنَّه كان قانتًا لله؛ أي: كان مُنقَادًا لله، ومداومًا علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومُكثِرًا من الطاعات والتقرُّب.

٣- بأنَّه كان حنيفًا؛ أي: مائلًا من الشرك إلىٰ التوحيد، وعن المعصية إلىٰ الطاعة؛ وهذا هو التَّوحيد.

إذن؛ وَصَفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَلِيلَهُ بثلاث صفاتٍ:

الصفة الأولىٰ: أنَّه كان إمامًا للموحِّدين، وهذا يتضمَّن أنَّه كان مُوقنًا صابرًا.

الصفة الثانية: أنَّه كان قانتًا لله؛ أي: كان منقادًا لله عَزَّوَجَلَّ، مُسلِّمًا لأمر الله، مُداومًا علىٰ الطاعات، ومُكثِرًا منها.

الصفة الثالثة: أنَّه كان حنيفًا؛ أي: محقِّقًا للتَّوحيد؛ فإنَّه كان مائلًا عن الشِّرك إلىٰ التَّوحيد.

فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ كمال تحقيق التَّوحيد إنَّما يكون:

١- بالعلم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

٢- واليقين؛ يقين القلب.

٣- ونطق اللِّسان مع القدرة.

٤- والعمل بالتَّوحيد؛ بأصله وكماله.

٥- والبُعد عمَّا يَنقُضه أو يُنقِصه؛ أي: أن يخلِّص توحيده من الشرك الأكبر والشرك الأصغر، ومن البدع ومن المَعَاصي.

٦- والعمل بمقتضىٰ التوحيد؛ وهو: الانقياد لله عَزَّوَجَلَّ والتسليم لله وامتثال الأوامر كلِّها؛ الواجب والمستحبِّ منها بقدر الإمكان، واجتناب المناهي كلِّها؛ المحرَّم منها والمكروه بقدر الإمكان.

ومن الانقياد: التوبة عند الوقوع في الذنب، ولا يلزم لكمال تحقيق التوحيد ألَّا يُذنِبَ العبد، ولكن يلزم لكمال تحقيق التوحيد: أن يكون العبد توَّابًا من ذنوبه، مُنيبًا إلىٰ الله، كلَّما أذنب تاب.

٧- ولابدَّ في هذه المرتبة مِن تعليق القلب بالله تعليقًا تامًّا لا يتطرق إليه نقصٌ بوجه من الوجوه.

ولا يتحقَّق كلُّ ذلك إلا بالجهاد والصبر، ولكنَّ مَن عرف ما عند الله لمَن حقَّق هذه المرتبة هان عليه أن يبذُل النفس والنفيس ليكون من أهل هذه المرتبة.

وإن أردتَ عبارةً جامعةً مختصرةً لبيان مرتبة كمال التوحيد؛ فنقول: إنَّها جمع خصال الخير بحسَب الإمكان. أي: أن يجمع خصال الخير كلَّها؛ وذلك في جانب الطاعة وفي جانب ترك المعصية. فيجمع التوحيد، ويجمع العمل بالواجبات، والعمل بالمستحبَّات بقدر الإمكان، والسلامة من الشرك، ومن البدع والمعاصي بأنواعها، وإذا وقع في المعصية بادر بالتوبة وتاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. فهذا كمال تحقيق التوحيد، وهو أعلىٰ المراتب.

وعندنا في التَّوحيد مراتب:

المرتبة الأولىٰ: كمالُ تحقيق التوحيد، وهذه المرتبة إنَّما هي لأنبياء الله، وللخُلَّص من عباد الله الَّذين يتأسَّون بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وأمَّا المرتبة الثانية: فهي مرتبةُ تحقيق التوحيد، وهي مرتبة دون المرتبة الأولىٰ.

وهذه المرتبة أيضًا لابدَّ فيها من:

- العِلمِ.

- ويقينِ القلب.

- والنُّطقِ مع القُدرة.

- والعملِ بالتوحيد؛ بأصله وكماله.

- وتخليصِ التوحيد من الشرك بأنواعه، والبدع، والمعاصي.

- والعملِ بالأوامر الواجبة، وترك المناهي المحرَّمة.

- والصَّبرِ.

والفرق بينها وبين المرتبة السابقة:

- فيما يتعلَّق بفعل الأوامر؛ فإنَّ فعل الأوامر في المرتبة الأولىٰ: فيه فعلُ الأوامر الواجبة والمستحبَّة. وهنا: فيه فعلُ الأوامر الواجبة.

- وكذلك في ترك ما نهىٰ الله عنه. ففي المرتبة الأولىٰ: تركُ ما نهىٰ الله عنه نهيَ تحريم، وما نهىٰ الله عنه نهيَ كراهة بحسَب الإمكان. وفي هذه المرتبة: ترك ما نهىٰ الله عنه نهيَ تحريم.

- وقد يقع نوعٌ من النقص لا يُخِلُّ بالتوحيد في تعَلُّق القلب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه المرتبة.

وأمَّا المرتبة الثالثة: فهي مرتبةُ العمل بالتوحيد. وهي: أن يعمل العبد

بأصل التوحيد وبكماله، وأن يُخلِّص توحيده من الشرك الأكبر والشرك الأصغر. فمَن فعل ذلك فقد عمل بالتوحيد.

وأمَّا المرتبة الرابعة: فهي العمل بأصل التوحيد. وهي: أن يعمل العبد بأصل التوحيد ويَسلَم من الشرك الأكبر، لكن لابدَّ لإيمانه مِن عَمَلٍ بالجوارح، والراجح عندنا أنَّه لابدَّ أن يصلِّي.

مثاله: إنسان قال: أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، وأخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبرئ من الشرك الأكبر، ولم يفعل شيئًا مما يَنقض التوحيد، لكنَّه وقع مثلًا في الشرك الأصغر؛ كالحلف بالنَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو غيره من المخلوقين؛ فهذا جاء بشيءٍ من الشرك الأصغر -كما سيأتي بيانُه إن شاء الله- ولكنَّه لا يخرج بذلك عن الإسلام، ولا يخرج بذلك عن أن يكون موحِّدًا أصلًا؛ لكنَّ هذا الشرك يُنقص توحيده؛ فهذا ينافي كمال التوحيد.

وهذه هي أدنىٰ المراتب، فلا مرتبة في الإسلام دونها، فمَن سقط عنها -والعياذ بالله- سقط عن الإسلام.

فهذه مراتبُ النَّاس في التوحيد، وإذا لم تُفهَم هذه المراتب فلا ينضبِط للإنسان فهمُ التوحيد.

والمقصود هنا مرتبة كمال تحقيق التوحيد؛ وهي في الحقيقة للخُلَّص من عباد الله، وهم الَّذين نتكلَّم عنهم، وهم الَّذين سيكرمهم الله بهذه الكرامة العظيمة؛ وهو أنَّهم يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب متقدِّم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾[المؤمنون:٥٩].

الشرح

لمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أولياءه المؤمنين المُفلِحِينَ؛ ذكر مِن صفاتهم هذه الصفة العظيمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾، وهذه صفة الموحِّدين؛ أنَّهم لا يشركون بالله؛ فلا يشركون به الشرك الأكبر، وهذه صفة لازمةٌ للموحِّد، فلا يكون موحِّدًا أصلًا مَن لم يَسلم من الشرك الأكبر. ولا يشركون بالله الشِّرك الأصغر، وهذه صفةُ كمال في التوحيد.

فالله عَزَّوَجَلَّ مدح المؤمنين المفلحين، بأنهم يجتنبون جميع أنواع الشرك: الشرك الأكبر والشرك الأصغر، فهم لا يشركون بالله شركًا أبدًا؛ لا ملَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا، ولا مَلِكًا من ملوك الدنيا، ولا وَليًّا ولا صالحًا، ولا غير ذلك. ولا يشركون بالله شركًا أصغر. وهذه الصفة الَّتي يتحقَّق بها العملُ بالتوحيد.

ثمَّ يترقَّىٰ المؤمن إلىٰ درجة تحقيق التوحيد، ثمَّ قد يجتهد ويوفِّقه الله فيترقَّىٰ إلىٰ مرتبة كمال تحقيق التوحيد.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَن حُصَينِ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ قَالَ: كُنتُ عِندَ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ فقَالَ: أَيُّكُمُ رَأَىٰ الكَوكَبَ الَّذِي انقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلتُ: أَمَا إِنِّي لَم أَكُن فِي صَلَاةٍ، وَلكِنِّي لُدِغتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعتَ؟ قُلتُ: ارتقيتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟ قُلتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشّعبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلتُ: حَدَّثَنَا عَن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ».

قَالَ: قَد أَحسَنَ مَنِ انتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ، وَلَكِن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَٰذَا مُوسَىٰ وَقَومُهُ، فَنَظَرتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَٰذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنزِلَهُ. فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبوا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسلَامِ، فَلَم يُشرِكُوا بِاللهِ شَيئًا، وَذَكَرُوا أَشيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيهِم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخبَرُوهُ، فقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَستَرقُونَ، وَلَا يَكتَوونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ».

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم. قَالَ: «أَنتَ مِنهُم»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم. فَقَالَ:

«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

الشرح

هذا الحديث العظيم الجليل رواه الإمام مسلمٌ في «الصحيح»[(١)] بهذه القصَّة وهذا اللَّفظ، ورواه البخاريُّ في «الصحيح»[(٢)] بدون ذكر القصَّة في أوَّله مع تغيير في بعض الألفاظ، فالحديث في الجملة متَّفق عليه؛ لكنَّ اللَّفظ المذكور هنا بتمامه إنَّما هو لمُسلم.

قال: (عَن حُصَينِ بنِ عَبدِ الرَّحمَنِ): وهو من ثقاتِ التَّابعين.

قَالَ: (كُنتُ عِندَ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ): وهو من ثقاتِ التَّابعين.

(فَقَالَ: أَيُّكُم رَأَىٰ الكَوكَبَ): أي: النَّجم (الَّذِي انقَضَّ البَارِحَةَ): انقضَّ: أي: سقط وهوىٰ من السماء. ويبدو -والله أعلم- أنه كان علىٰ خلاف المعتاد؛ لأنَّ سقوط الشُّهب من السماء معتاد؛ لكن يبدو أنَّ هذا السقوط كان علىٰ هيئة مختلفة؛ إمَّا لكبر حجمه أو نحو ذلك؛ ولذلك سأل عنه سعيد بنُ جبير.

وقَوله: (البارِحة): مِن بَرَحَت؛ أي: ذهبت وزالت، والبارحة عند العرب: أقربُ ليلةٍ مَضَت. وقال أهلُ المعاجم: إذا تحدَّثت عن اللَّيلة الماضية بعد الزوال؛ تقول: البارحة. وإذا تحدَّثت عن اللَّيلة الماضية قبل الزوال؛ تقول: الليلة. أمَّا في عرفنا اليوم فاللَّيلة الماضية مطلقًا نقول لها: البارحة؛ سواء تحدَّثنا

---

(١) حديث (٢٢٠).

(٢) حديث (٥٧٠٥)، و(٥٧٥٢) و(٦٥٤١).

عنها في الصباح أو تحدَّثنا بعد الظهر.

قوله: (قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا): أي: حُصين.

(ثُمَّ قُلتُ: أَمَا إِنِّي لَم أَكُن فِي صَلَاةٍ): وهذا من حِرصِ السَّلف على الإخلاص! فإنَّهم كانوا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حريصين على الإخلاص، وعلى ألَّا يُمدَحوا بما ليس فيهم، وكانوا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يعملون العمل الصالح فيُخفونه ما استطاعوا.

فحُصَين رَحِمَهُٱللَّهُ لمَّا أخبر سعيد بن جبير أنه رأى الكوكب بالليل، أراد أن يقطع الظنَّ بأنَّه قام يصلِّي في الليل فرأى الكوكب، فلم يترك سامعه يظنُّ به ما لم يفعله؛ بل قال: (أَمَا إِنِّي لَم أَكُن فِي صَلَاةٍ)؛ أي: لا تحسِبوا أنِّي كنت أصلِّي، فإنِّي ما كنت في صلاة.

وهذا بخلاف المغرورين؛ يوهِم أحدُهم النَّاسَ أنَّه يعمل الخير! فمثلًا قد يقول أحدهم: البارحة وأنا مستيقظٌ في آخر اللَّيل سمعتُ صوتًا غريبًا، ويسكت...!؛ ليُشعِر النَّاس كأنَّه كان يصلِّي! أمَّا هذا التابعيُّ لمَّا قال: «أنا» إجابةً لسؤال سعيد، خشي أن يفهم النَّاس أنَّه كان في صلاة، فيُمدَح بما ليس فيه؛ فقال: (أَمَا إِنِّي لَم أَكُن فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغتُ): أي: في تلك اللَّيلة.

وقَوله: (لُدِغتُ): أي: أصابته ذاتُ سمٍّ بسمِّها، إمَّا عقربٌ وإمَّا حيَّةٌ أو نحو ذلك، لكن قال العلماء: يظهر -والله أعلم- أنه سمٌّ شديد؛ ولذلك حرَمَه من النوم.

قَولُه: (قَالَ: فَمَا صَنَعتَ؟): فيه: أنَّ على المسلم أن يعتني بإخوانه.

قَولُه: (ارتَقَيتُ): هذه اللَّفظة لم أرَها بحسَب بحثي في كتب السُّنَّة، وإنَّما وجدتُ لفظة: (استرقيتُ)؛ وهذا الذي في «صحيح مسلم»[١].

ومعنىٰ **(استَرقَيتُ)**: أي: طلبتُ مَن يرقيني؛ لأنَّ الألف والسِّين والتاء تدلُّ علىٰ الطلب.

قولُه: (فَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ؟): يعني: ما الَّذي جعلك تسترقي؟، ففيه: أنَّ المسلم إذا عَلِمَ من أخيه أنَّه فعل شيئًا أو قال شيئًا، أنَّه ينبغي أن يستفسر عن سبب فعله أو سبب قوله، ولا يبادِره بالإنكار وبالتأنيب.

قَولُه: (قُلتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعبِيُّ): وهو من كبار التابعين.

(قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم؟ قَالَ: حَدَّثَنَا عَن بُرَيدَةَ بنِ الحُصَيبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ): هكذا عند مسلم: عن بريدة موقوفًا عليه أنَّه قال: «لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ». وعند البخاريِّ: عن عمران بن حصين، موقوفًا عليه أيضًا.

لكن ورد هذا اللَّفظ مرفوعًا إلىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ**»، رواه الإمام أحمد وأبو داود والتِّرمذيُّ[٢]، وابنُ ماجه[٣]، وصحَّحه

---

(١) وهو كذلك في «مسند أحمد» (٢٤٤٨)، و«صحيح ابن حبان» (٦٣٩٦)، و«الإيمان» لابن منده (٩٨٢ / الرسالة)، و«المستخرج» لأبي نعيم (١/ ٢٨٤) رقم (٥٢٦)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (١١٢٢)، و«التوكل» لابن أبي الدنيا (ص٦٥) رقم (٣٩ / عطا).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٠٨) و(١٩٩٣٠) و(٢٠٠١٠)، وأبو داود (٣٨٨٤)، والتِّرمذيُّ (٢٠٥٧)، عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في التعليق علىٰ «مشكاة المصابيح» (٤٥٥٧).

(٣) أخرجه ابنُ ماجه (٣٨٤٨)، عن بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ.

النَّوويُّ، وشعيبُ الأرناؤوط، والألبانيُّ[١] -رحم الله الجميع-.

إذن؛ هذا اللَّفظ ورَدَ مرفوعًا صحيحًا عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنَّه قال: «**لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ**» وهذا حصرٌ، واستشكل العلماء ذلك؛ لأنَّ الرُّقية ثابتةٌ في غير العين والحمة! فلمَاذا قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ**»؟

قال العُلمَاء: معنىٰ «**لَا رُقيَةَ**»: أي: لا رُقية أنفع مِن رقية العين ورقية الحمة. فأنفع الرُّقىٰ هي رقية العين ورقية الحمة. ولا يعني هذا أنَّه لا تنفع الرُّقية في غير العين واللَّدغة، بل الرُّقية تنفع -بإذن الله-، ولا بأس بالرُّقىٰ ما لم تكن شركًا؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُم، لَا بَأسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَم تَكُن شِركًا**»[٢].

قال: (**لَا رُقيَةَ**): أي: أنفع، (**إِلَّا مِن عَينٍ**): والعين: إصابةُ العائن غيرَه بعينٍ، فيُسَبِّب له ضررًا. والعين حقٌّ؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣].

والعين ليس من شرطها الحسد؛ بل دلَّت النُّصوص علىٰ أن العين تنقسم إلىٰ قسمين:

- عينٌ خبيثةٌ حَاسِدَة.
- وعينٌ معجبَة.

---

(١) انظر: «المجموع شرح المهذَّب» (٩/ ٦٥)، والتعليق علىٰ «مشكاة المصابيح» (٤٥٥٧)، وتخريج المسند للأرناؤوط (٣٣/ ١٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٠)، وأبو داود (٣٨٨٦) واللَّفظ له، من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فالنَّوع الأول: العين الخبيثة الحاسدة، وهي التي يصيب بها العائن مَن حَسَدَه بعينه، فيسبِّب له ضررًا، مثلًا: يرىٰ إنسانًا يحمل شيئًا ثقيلًا فيحسده؛ فيصيبه بالعين، فلربَّما أُصيب بمرض في ظهره حتَّىٰ لا يستطيع أن يحمل شيئًا!

أو يرىٰ ابنَ جاره يذهب إلىٰ المسجد في كلِّ صلاةٍ وأبناؤه في البيت، وفي قلبه خبث؛ فيحسد ابنَ جاره، فيصبح لا يستطيع أن يذهب إلىٰ المسجد!

وقد وقفنا علىٰ شيءٍ من هذا، فقد رأينا شابًّا من الصالحين فجأةً أصبح لا يستطيع أن يدخل إلىٰ المسجد، يصل إلىٰ باب المسجد ولا يستطيع أن يدخل، فلمَّا رُقِي ذهب عنه هذا، بفضل الله تعالىٰ.

والنوع الثاني: عينٌ معجَبة، فهذه ليست خبيثة، ولكنَّها تصيب غيرها؛ لأنها أُعجِبت به؛ بفعله أو صفته.

وهذه العين قد يصيب بها الإنسانُ نفسَه، فقد يرىٰ مِن نفسه شيئًا يعجبه فيصيب نفسه بالعين، وعلاج ذلك: التبريك. فمَن رأىٰ من نفسه أو من أهله أو من جيرانه أو من إخوانه ما يعجبه فليبَرِّك عليه؛ فليَقُل: اللهمَّ بارك! بارك الله! تبارك الله! وإن قال: ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله، تبارك الله! فحسنٌ؛ لكن لا يترك التبريك.

والعين تُدفَع قبل الوقوع: بالتبريك من جهة العائن.

وتُدفَع من جهة الشخص الَّذي يخشىٰ أن يُصَاب: بذكر الله؛ أن يُحصِّن نفسَه.

وتُرفَع بعد الوقوع بأسباب؛ منها: الرُّقية؛ فإن رقية مَن أُصيب بالعين نافعة جدًّا.

قولُه: (أَو حُمَةٍ): الحُمَة: السُّمُّ. وقيل: الهامة ذاتُ السُّمِّ؛ أي: الدَّابَّة ذات السُّمِّ[١].

فَمِن أنفع الرُّقىٰ رقية اللَّدغة؛ لدغة العقرب، أو لدغة الثعبان، أو لَدغَة الحيَّة. فالرُّقية ترفعها إن شاء الله، وهي من أنفع الأسباب.

إذن؛ فَهِمَ حصين من هذا الحديث: أنَّ رقية اللَّدغة نافعة وجائزة؛ فاسترقىٰ.

(فقال سَعيدٌ: قَد أَحسَنَ مَنِ انتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ): أي: لا لوم عليه، من انتهىٰ إلىٰ ما عرف مِن الدَّليل فقد أحسن، وأنت انتهيتَ إلىٰ ما سمعتَ من الدليل.

قوله: (وَلَكِن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمِ»): أي: أنَّ الأمم السابقة جميعها عُرضت علىٰ النَّبيِّ ﷺ مع رُسلها، كل أمَّة مع رسولها.

وجاء أنَّ هذا العرض كان في ليلةٍ من اللَّيالي في أيَّام الحجِّ، ويظهر أنَّ هذا في المنام، فقد روىٰ الإمام أحمد، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، وابنُ حبَّان، والحاكم[٢]، وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح»، عن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «أَنَّ

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ١٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨١٩) و(٤٣٣٩)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٩١١)، وابنُ حبَّان (٦٠٥٢)، والحاكم (٤/ ٤٦٠)، وقال: «حديث صحيح». ووافقه الذهبي.

=

رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيَ الأُمَمَ بِالمَوسِمِ، فَرَاثَت عَلَيهِ أُمَّتُهُ، قَالَ: **فَأُرِيتُ أُمَّتِي، فَأَعجَبَنِي كَثرَتُهُم، قَد مَلَئُوا السَّهلَ وَالجَبَلَ...**» الحديث.

إذن؛ عَرضُ الأمم على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في أيام الموسم؛ في أيَّام الحجِّ، ولا يزال أهلُ المدينة إلى اليوم يسمُّون أيام الحجِّ بالموسم.

وجاء عند الترمذيِّ[1] أنَّ هذا العرض لمَّا أسري بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وصحَّحه الألبانيُّ.

والظاهِرُ -والله أعلَم-: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا أُسري به عُرضَت عليه الأمم كحالها يوم القيامة، وهذا في المنام، ولمَّا رجع حدَّث بأخبار مِن أخبار الإسراء، لكن لم يحدِّثهم بعرض الأمم عليه -لأنه لم يُنقَل أنه حدَّثهم بهذا-، فلمَّا هاجر إلى المدينة -وكان في أيَّام الحجِّ- رأى العرض في المنام -ورؤيا الأنبياء حقٌّ-، فحدَّث أصحابه بهذا العرض لمَّا أصبح. فهذا أدقُّ ما قيل في هذا الباب.

وقولُه: (عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ): أي: عُرِضَت عليه الطوائف مع أنبيائها.

قَولُه: (فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ): أي: معه جماعةٌ من ثلاثة إلى تسعة، والظاهر أنَّه ليس نبيًّا واحدًا، وإنَّما أنبياء؛ فمنهم مَن معه ثلاثة، وهم الرُّهَيط،

=

وقال الألبانيُّ: «حسن صحيح». انظر: «صحيح الأدب المفرد» (٩١١)، و«صحيح موارد الظمآن» (٢/ ٥٣٨ - الصميعي).

(١) حديث (٢٤٤٦). وقال: «حسن صحيح». وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي».

ومنهم مَن معه تسعةٌ؛ وهو أعلىٰ الرهط، ومنهم مَن معه دون ذلك!

نبيٌّ بعثه الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ أمَّة من الأمم، يأتي يوم القيامة وليس معه من أمَّته إلَّا ثلاثة أو خمسة أو تسعة!

قوله: (وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ): أي: مرَّ نبيٌّ في العرض ومعه رجلٌ واحد من قومه!

(وَالرَّجُلَانِ): أي: مرَّ نبيٌّ ومعه رجلان!

(وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ): أي: يمشي نبيٌّ لوحده، ليس معه أحد؛ لأنه لم يستجب له أحد!

وبهذا نعلم أنَّ الفضل والعبرة بالحقِّ، وليست بكثرة الناس، فمن كان علىٰ الحقِّ فهو أمَّة ولو كان واحدًا. وكثرة الناس ليست علامة علىٰ الحقِّ، وهذا معنىٰ قول أهل العلم: «إنَّ الناس يُعرَفون بالحق، ولا يُعرَف الحقُّ بالنَّاس».

قد تجِدُ عالمًا في بلد من البلدان وما معه إلَّا ثلاثة طلَّاب أو أربعة فقط، وتجد آخر معه مئات الألوف؛ وتجد الحقَّ مع هذا الَّذي معه ثلاثة أو أربعة؛ لأنَّه هو المتمسِّك بقال الله قال رسولُه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ): السَّواد: هو الإنسان من بعيد، وهو الَّذي نسمِّيه: الشخص. أي: رُفِع له أشخاص مِن بعيد، لم يرهم بأعيانهم، لكن رأىٰ كثرتهم؛ ولذلك قال: «إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ»؛ لكثرتهم.

قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (فَظَنَنتُ أَنَّهُم أُمَّتِي): وجاء في رواية البخاريِّ: «قُلتُ:

مَا هَذِهِ؛ هَذِهِ أُمَّتِي؟»: يعني: هل هذا السواد العظيم الَّذي أراه؛ هل هذه أمَّتي؟

قَالَ: (**فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىٰ وَقَومُهُ. فَنَظَرتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ**): وفي رواية للبخاريِّ[(١)]: «**قِيلَ: انظُر إِلَىٰ الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَملأُ الأُفُقَ**»؛ أي: أنه أكثر من ذاك السَّواد العظيم الَّذي رآه في الأوَّل.

قال: (**ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُر هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَد مَلأَ الأُفُقَ**): يعني: من جميع النواحي.

(**قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ**): فأمَّة محمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرُ الأمم عددًا.

قَولُه: (**قِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**): جاء في رواية البخاريِّ المتقدِّمة: «**وَيَدخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلَاءِ سَبعُونَ أَلفًا بِغَيرِ حِسَابٍ**»؛ وبين الروايتين فرق؛ ففي مسلم: «**وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا**»، وفي رواية البخاريِّ: «**وَيَدخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلَاءِ**»، لماذا هذا الفَرق؟

وسببُ التفريق بين العِبَارَتَين أنَّه في رواية مسلم قال: «**فَنَظَرتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ**» فذكر السواد فقط. وأمَّا رواية البخاريِّ فإنَّها ذكرت السَّواد الذي ملأ الأفق، ثمَّ ذكرت السَّواد الذي ملأ الأفق من هنا ومن هنا. فدلَّت علىٰ أنَّ العرض حصل للأمَّة كلِّها ومنهم السبعون ألفًا، ودلَّت رواية مسلم علىٰ أنَّ العرض كان للسواد العظيم فقط، ولمَّا نظر إليه النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل له: ومعهم سبعون ألفًا، فكأنَّه قيل له: ليس هؤلاء فقط؛ بل هؤلاء ومعهم سبعون ألفًا.

---

(١) برقم (٥٧٠٥).

واختلف أهل العلم أين كان هؤلاء السبعون ألفًا؛ هل كانوا مع السَّواد أم كانوا غائبين؟

قد فهم بعضُ أهل العلم أنَّهم كانوا غائبين[1]؛ لكنَّ الصواب[2]: أنَّهم كانوا قُدَّام السَّواد، فكانوا أمامهم، كما جاء صريحًا في رواية للبخاريِّ[3]: «**هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبعُونَ أَلفًا قُدَّامَهُم لَا حِسَابَ عَلَيهِم وَلَا عَذَابَ**»؛ فمعنىٰ قوله: «**وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا**»: أنَّهم مُتَقَدِّمون عليهم.

وقوله: «**وَمَعَهُم سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**»: أي: يدخلُ الجنَّة سبعون ألفًا من أمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير حساب؛ فلا يحاسَبون أبدًا؛ لا بِعَرض ولا بنقاش، بل هم مُكرَمون، ومَن لا يُحاسَب لا يُعَذَّب.

وقوله: «**وَلَا عَذَابٍ**»: نكرةٌ في سياق النَّفي؛ فتعمُّ كلَّ عذاب متقدِّم؛ فيدخل في ذلك: عذاب القبر. فيدخل هؤلاء السبعون ألفًا الجنَّة بغير عذاب متقدِّم؛ لا عند العرض ولا في القبر، ولا يدخلون النار، ويكون مرورهم علىٰ النَّار مرور سلامة لا مرور عذاب؛ لأنَّ الصِّراط يُنصَب علىٰ متن جهنَّم، ويقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فهؤلاء يمرُّون علىٰ الصراط ولابدَّ؛ ولكنَّهم يمرُّون مرور سلامة، لا يصل إليهم شيءٌ من النار، ولا تُصيبُهم كلاليبُها.

---

(١) انظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هُبيرة (٣/ ٦٥ - الوطن)، و«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤٠٨).

(٢) انظر: «شرح مسلم» للنوويِّ (٣/ ٩٤)، و«تيسير العزيز الحميد» (١/ ٢٦٧).

(٣) حديث (٦٥٤١).

قولُه: (ثُمَّ نَهَضَ): أي: النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فَدَخَلَ مَنزِلَهُ): ولم يبيِّن لهم مَن هؤلاء السبعون ألفًا. والصحابة يحبُّون الخير ويشتاقون إليه، ويريدون أن يَعلَموه لِيَمتثِلوه.

(فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ): أي: تَكلَّموا وتناظَروا وتَراجعوا الكلام فيما بينهم.

قَوله: (فَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): هذه الرواية بالمعنىٰ، وإلا فقد جاء في رواية للبخاريِّ[1] أنَّهم قالوا: **«نَحنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعنَا رَسُولَهُ، فَنَحنُ هُم»**.

قَوله: (وَقَالَ بَعضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسلَامِ فَلَم يُشرِكُوا بِاللهِ شَيئًا): يعني: قال بعضُهم -يعني: الَّذين ردُّوا علىٰ الأوَّلين- قالوا: نحن وإن كنَّا آمنَّا بالله واتَّبعنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير أنَّا عرفنا الشِّرك ونشأنا فيه، وإنَّما المراد: أولادُنا الَّذين ما عرفوا إلَّا التوحيد، أمَّا نحن فقد عرفنا الشِّرك قبل الإسلام.

قوله: (وَذَكَرُوا أَشيَاءَ): يعني: قالَ بعضُهم غير ذلك.

قولُه: (فَخَرَجَ عَلَيهِم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخبَرُوهُ، فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَسترقُونَ، وَلَا يَكتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ): يعني: هؤلاء من أمَّتي من الموحِّدين، ولهم مزيَّة؛ وهي أنَّهم:

---

(١) برقم (٥٧٠٥).

- (لَا يَستَرقُونَ): أي: لا يطلبون الرُّقية من غيرهم.

- (وَلَا يَكتَوُونَ): والكيُّ معروف، وهو العلاج بالنَّار.

- (وَلَا يَتَطيَّرُونَ): والطِّيَرة: هي التشاؤم. وسيأتي الكلام عليه -إن شاء الله-، ولا إشكال فيها؛ لأنَّ الطِّيَرة شرك، فكونهم لا يتطيَّرون لا إشكال فيه.

- (وَعَلَىٰ رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ).

واختلف العلماء في المراد بترك الاسترقاء والكي:

- **فقال بعض أهل العلم:** المراد أنَّهم لا يتداوَون مطلقًا، فإذا مرِضوا لا يتداوَون؛ بسبب اتِّكالهم على الله، وهذا القول مرجوحٌ غير صحيح؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تداوىٰ، فقد روىٰ البخاريُّ[1] عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «**احتَجَمَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَأسِهِ وَهُوَ مُحرِمٌ، مِن وَجَعٍ كَانَ بِهِ**».

وفي رواية له[2]: «**احتَجَمَ وَهُوَ مُحرِمٌ فِي رَأسِهِ، مِن شَقِيقَةٍ كَانَت بِهِ**».

فالنَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البَشَر، فكانت تصيبه الشقيقة، بل كان يُبتلىٰ بالأمراض ضِعف ما يُبتلىٰ غيرُه، ولذلك كان صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أصابته الحمَّىٰ وجدوا حرارتها مِن فوق الألحِفَة الَّتي فوقه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فيُضعِف الله عَزَّ وَجَلَّ له البلاء ليضاعف له الثواب[3].

---

(١) برقم (٥٧٠٠).

(٢) برقم (٥٧٠١).

(٣) روىٰ ابن ماجه (٤٠٢٤) عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «دَخَلتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

ولمَّا جُرِحَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أُحدٍ: «كَانَ عَلِيٌّ يَخْتَلِفُ بِالمَاءِ فِي المِجَنِّ، وَكَانَت فَاطِمَةُ تَغسِلُهُ، فَلَمَّا رَأَتِ الدَّمَ يَزِيدُ عَلَىٰ المَاءِ كَثرَةً، عَمَدَت إِلَىٰ حَصِيرٍ فَأَحرَقَتهَا وَأَلصَقَتهَا عَلَىٰ جُرحِهِ، فَرَقَأَ الدَّمُ»[١].

وكان النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أصابته شوكةٌ أو جُرِحَ؛ وضع عليه الحنَّاء[٢].

إذن؛ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تداوىٰ، وهو سيِّد المتوكِّلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شكَّ أنَّه رأس مَن حقق كمال التوحيد؛ فلا يمكن أن يكون المعنىٰ أن هؤلاء السبعين ألفًا تركوا التداوي توكُّلًا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- **وقال بعض أهل العلم**: معنىٰ ذلك: أنهم لا يُعَلِّقون قلوبهم بالسبب؛ وإنما يعلِّقون قلوبهم بالله، فهم يتداوون، ولكنَّ قلوبهم معلَّقة بالله.

وهذا القول أيضًا غير صحيح؛ لأنه لو كان ذلك كذلك لَمَا كان لهم مزيَّة؛ فإنَّ كلَّ موحِّد لا يعلِّق قلبه بالأسباب، وإنما يعلِّق قلبه بالله، يفعل السبب وهو يَعلَم أنَّ الشفاء من الله وأنَّ هذه أسباب فقط.

- **وقال بعض أهل العلم**: هذا خاصٌّ بما ذكره النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهو:

=

وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعتُ يَدِي عَلَيهِ فَوَجَدتُ حَرَّهُ بَينَ يَدَيَّ فَوقَ اللِّحَافِ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيكَ! قَالَ: إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا البَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجرُ» الحديث. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه».

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٩٠٣)، ومسلم (١٧٩٠) من حديث سهل بن سعد الساعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٠٥٤)، وابنُ ماجه (٣٥٠٢)، من حديث سلمىٰ أمِّ رافع مولاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٨٦٠).

أنَّهم لا يسترقون؛ أي: لا يطلبون الرقية، ولا يكتوون؛ توكُّلًا علىٰ الله، ولأنَّ طلب الرُّقية مكروه، والكيُّ مكروه.

وهذا القول أيضًا عليه إشكال! لأنَّه صحَّ أنَّ أسماء بنتَ عُميس رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ وَلَدَ جَعفرٍ تُسرِعُ إِلَيهِمُ العَينُ أَفَأَستَرقِي لَهُم؟ فَقَالَ: نَعَم»(١)؛ يعني: استرقي لهم.

وأيضًا الكيُّ؛ فقد ثبت في «الصحيح»(٢): عَن جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِلَىٰ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنهُ عِرقًا، ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيهِ».

وثبت في «الصحيح»(٣) أيضًا عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «كُوِيتُ مِن ذَاتِ الجَنبِ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَيٌّ، وَشَهِدَنِي أَبُو طَلحَةَ وَأَنَسُ بنُ النَّضرِ وَزَيدُ بنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو طَلحَةَ كَوَانِي».

بل أبلغ من هذا؛ فقد ثبت أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كوىٰ أسعد بن زرارة من الشوكة، كما عند الترمذي(٤) بإسناد صحَّحه الألبانيُّ(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤٧٠)، والتِّرمذيُّ (٢٠٥٩)، وابنُ ماجه (٣٥١٠). وقال التِّرمذيُّ: «حسن صحيح»، وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١٢٥٢).

وله شاهدٌ عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أخرجه مسلم (٢١٩٨) بمعناه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٧١٩).

(٤) حديث (٢٠٥٠)، وحسَّنه، من رواية أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. ورواه أيضًا ابنُ حبَّان (٦٠٤٨ - التعليقات الحسان)، والحاكم (٣/ ٢٠٧) و(٤/ ٤٦٢)، وصحَّحه.

(٥) انظر: «التعليقات الحسان» (٨/ ٤٤٣)، والتعليق علىٰ «هداية الرواة» (٤٤٦٠).

هذه خلاصة ما ذكره العلماء مع بيان الأدلَّة في نقد كلِّ قول.

والذي يظهر لي -والله أعلم-: أنَّ أدقَّ ما قيل في معنىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: **«الَّذِينَ لَا يَسْتَرقُونَ وَلَا يَكتَوُونَ»**: أنَّهم لا يفعلون ذلك مع عدم الحاجة الشديدة، فلا يفعلون ذلك إلا إذا تعيَّنت، وأصبح لابُدَّ من ذلك؛ وإلَّا فإنَّهم يتركونها. هذا الذي فهمته من كلامٍ لشيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمقصود: أنهم معلِّقون قُلوبَهُم بالله تعلُّقًا تامًّا.

قوله: (فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ): عكَّاشة -بتشديد الكاف- هذا هو الأشهر عند أهل اللُّغة وعند أهل الحديث. ويُقَال أيضًا: عُكَاشة -بفتح الكاف وتخفيفها-[١]، وهو صحابيٌّ جليل[٢].

قوله: (قَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم): جاء في رواية[٣]: أنَّ عكَّاشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: **«أَمِنهُم أَنَا؟»** هكذا بصيغة السُّؤال، **«فَقَالَ: نَعَم»**.

وجاء في رواية أخرىٰ[٤]: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«اللَّهُمَّ اجعَلهُ مِنهُم»**.

والَّذي يظهر من مجموع الروايات -والله أعلم-أنَّ عكاشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل

(١) انظر: «الصِّحاح» للجوهري (٣/ ١٠١٢)، و«تهذيب الأسماء واللُّغات» للنووي (١/ ٣٣٨ - الكتب العلمية)، و«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤١١)، و«الإصابة» لابن حجر (٤/ ٤٣٩ - الكتب العلمية).

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٤٣٩ - الكتب العلمية).

(٣) للبخاريِّ (٥٧٠٥).

(٤) للبخاريِّ (٦٥٤١)، ومسلم (٢١٦).

النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله أن يجعله من السَّبعين ألفًا، فدعا له، فلمَّا دعا له رجا، فقال: **أَمِنهُم أَنا؟ فَقَالَ: «أَنتَ مِنهُم»**.

وكيف عرف أنَّه منهم؟!

قال بعضُ أهل العلم: عرف ذلك بوحيٍ أوحاه الله إليه.

وقال بعضُهم: بل لعلَّه رآه في العَرض فعرفه.

الشاهد: أنَّ عكَّاشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من السبعين ألفًا؛ الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب؛ بشهادة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد عاش عكاشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موحِّدًا طائعًا ومات شهيدًا؛ وهذه من علامات نبوَّة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]؛ فإنَّ عكاشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عاش علىٰ التوحيد، وعاش ممدوحًا علىٰ طاعته، ومات شهيدًا في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قولُه: (**ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم**): يُريد مثل عكَّاشة، فقال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سَبقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**: فلماذا لم يقُل له النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنت منهم»، أو: «لست منهم»؟

لماذا لم يُجبه النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بنفي ولا بإثبات؛ وقال له: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**؟

---

(١) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٣٥٣ / الكتب العلمية)، و«دلائل النبوة» لأبي القاسم التيمي (ص٢٠٧ / طيبة)، و«فتح الباري» (١١/ ٤١٢)، و«الإصابة» (٤/ ٤٤٠).

قالَ بعضُ أهلِ العِلم: لأنَّ الرجلَ كان من المنافقين، ولم يُرِد النَّبيُّ ﷺ أن يقول له: إنَّك لست منهم؛ فأجابه بأسلوب التعريض: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**». وهذا مرجوح، بل ضعيف، بل مردود؛ **وذلك لأمرين:**

الأمر الأوَّل: أنَّ الأصل في الصحابة عدم النِّفاق، فالصحابة جميعهم مَرضِيٌّ عنهم، والمنافقون كانوا مع الصحابة وليسوا منهم، مثل إبليس مع الملائكة؛ كان معهم وليس منهم.

الأمر الثاني: أنه لو كان منافقًا لَمَا كان مُصَدِّقًا بِمَا يخبر النَّبيُّ ﷺ به؛ لأنَّ المنافق لو صدَّق النَّبيَّ ﷺ في خبره لآمن، لكن لكونه لا يصدِّق النَّبيَّ ﷺ هو منافق، فلو كان منافقًا كيف يقول: ادعُ الله أن يجعلني منهم، وهو لا يصدِّق النَّبيَّ ﷺ؟!

فلا يمكن إذن أن يكون منافقًا.

وقال بعضُ أهل العلم: قال له النَّبيُّ ﷺ ذلك لأنَّه عَلِمَ أنَّه لا يبلغ هذه الدرجة الَّتي بلغها عكَّاشة الَّتي أخبر عنها النَّبيُّ ﷺ، فلم يُرِد أن يُحزِنه فيقول له: لستَ منهم؛ فقال له: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

وقال بعضُ أهل العلم: بل أراد النبيُّ ﷺ سدَّ الباب؛ فإنَّه لو دعا للرَّجل لقام ثالث فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، ثم يقوم رابع، ثم يقوم خامس، ثم يقوم سادس، حتَّىٰ يقوم الصحابة كلُّهم؛ فأراد النَّبيُّ ﷺ سدَّ الباب.

والشاهد من هذا الحديث: بيانُ أنَّ الموحِّدين مَرَاتب، وليسوا علىٰ مرتبةٍ واحدةٍ؛ وأنَّ أكمَلَهُم: هؤلاء السبعون ألفًا الَّذين حقَّقوا مرتبة كمال تحقيق التوحيد.

وقد جاء في الحديث أنَّهم: «**سَبعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**».

لكن صحَّ أنَّ عددهم أكثرُ من ذلك؛ فقد جاء في حديث النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يتفضَّل علىٰ محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويزيده علىٰ السَّبعين ألفًا أعدادًا آخرين.

فقد جاء عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «**وَعَدَنِي رَبِّي أَن يُدخِلَ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِي سَبعِينَ أَلفًا بِغَيرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، مَعَ كُلِّ أَلفٍ سَبعُونَ أَلفًا**»(١).

وفي رواية(٢): «**سَبعِينَ أَلفًا**»، بالنَّصب.

وقد ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ الظاهر أنَّه لمَّا عَلِمَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الله يُدخِل من أمَّته سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب، رَجَا الله أن يزيده، والنَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَءُوف رحيم، فوَعَدَه الله بالزيادة؛ ووعدُ الله حقٌّ؛ والأمر كائنٌ.

إذن؛ مع كلِّ ألفٍ من السَّبعين ألفًا: سبعون ألفًا. وقد جاءت الرِّواية فيها

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٥٦) و(٢٢٣٠٣)، والترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، عن أبي أمامة الباهليِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة في تخريج السنَّة» (١/ ٢٦١)، وانظر: «الصحيحة» (٢١٧٩).

(٢) لابن حبَّان (٧٢٠٢).

بالنَّصب وجاءت بالرَّفع، فيصبح مجموع العدد الزائد: أربعة ملايين وتسعمائة ألف، وإذا زدنا عليهم السَّبعين ألفًا؛ صار المجموع: أربعة ملايين وتسعمائة وسبعين ألفًا.

وهل الزيادة محدودة عند هذا العدد فقط؟

لا؛ بل يوجد زيادة أخرىٰ؛ فقد جاء في الحديث السابق قول النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِن حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ»**؛ أي: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ وَعَدَه أيضًا أن يُدخِل مِن أمَّته الجنَّة بغير حساب ولا عذاب ما هو ثلاث حثيات من حثيات الربِّ عَزَّوَجَلَّ.

والمقصود بالحَثَيات: ملءُ اليدين، والمقصود: تكثيرُ العدد؛ فَالله عَزَّوَجَلَّ يكرم نبيَّه بزيادة فَوق أربعة ملايين وتسعمائة وسبعين ألفًا؛ فيزيده ثلاثَ حثَياتٍ من حثَياتِ ربِّنا من أمَّة محمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب.

فلا ينبغي لأحدنا اليوم أن ييأس؛ إذ كثيرٌ من المؤمنين الموحِّدين يغرُّهم الشيطان، يأتي أحدهم ويقول: أنت لستَ من هؤلاء الَّذين يدخلون الجنَّة مع السبعين ألفًا، ولن تكون منهم، أنت دونهم! فلا يسعىٰ ولا يجتهد!

فالمؤمن لا ييأس؛ بل يرجو فضل الله ولا يتقاعَس؛ بل يعمل ويجتهد، ويسأل الله من فضله ويدعوه؛ لعَلَّه أن يكون من هؤلاء.

وهؤلاء السَّبعون ألفًا يَدخُلون الجنَّة علىٰ صفة عظيمة؛ وهي: أنَّ وجوههم تضيءإضاءة القمر ليلة البدر. كما ورد في «الصحيحين»[1].

---

(١) البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاء في الحديث[1] أنَّهم يدخلون متماسكِين لا يتقدَّم بعضُهم بعضًا، لا يدخل أوَّلُهم حتَّىٰ يدخل آخرُهم.

والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر هذا الحديث ليَحُثَّنا علىٰ أن نكون من أهل هذه الطبقة من طبقات الموحِّدين.

ولذلك جاء في «مسند الإمام أحمد» و«صحيح ابن حبَّان»[2]: عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال -في حديث عرض الأمم-: «فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ لِيَ: انظُرْ عَنْ يَمِينِكَ. فَنَظَرْتُ، فَإِذَا الظِّرَابُ -وهي الجبال الصغيرة- قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، ثُمَّ قِيلَ لِيَ: انظُرْ عَنْ يَسَارِكَ. فَنَظَرْتُ، فَإِذَا الأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، فَقِيلَ لِي: أَرَضِيتَ؟ فَقُلْتُ: رَضِيتُ يَا رَبِّ، رَضِيتُ يَا رَبِّ. قَالَ: فَقِيلَ لِي: إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبعِينَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ».

ففي هذا الحديث ذُكِرَت ثلاثةُ أقسام:

- مَن علىٰ يمين النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وقد سَدُّوا الظِّراب؛ أي: الجبال الصغيرة. وهذا يعني أنَّهم أقلُّ عددًا ممَّن علىٰ اليسار.

- مَن علىٰ يسار النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سدُّوا الأفق؛ وهذا لكثرتهم بالنسبة لمَن علىٰ يمينه.

- مع هذين القسمين قسمٌ ثالث: وهم سبعون ألفًا؛ يدخلون الجنَّة بغير

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٤٣)، ومسلم (٢١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٠٦)، وابن حبَّان (٨٧٢١)، والحاكم (٤/ ٦٢١).

حساب ولا عذاب.

ثمَّ قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخاطبًا أمَّته: «فِدًى لَكُم أَبِي وَأُمِّي؛ إِنِ استَطَعتُم أَن تَكُونُوا مِنَ السَّبعِينَ أَلفًا فافعَلُوا، فَإِن قَصَّرتُم؛ فَكُونُوا مِن أَهلِ الظِّرَابِ» يعني: من أهل اليمين؛ لأنَّ كونهم على اليمين دليلٌ على فضيلة؛ فهم في المنزلة بعد السبعين ألفًا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِن قَصَّرتُم فَكُونُوا مِن أَهلِ الأُفُقِ». وهؤلاء من أهل المرتبة الثالثة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنِّي قَد رأيتُ ثَمَّ ناسًا يتهاوَشون».

وفي رواية: «يَتَهَارَشُونَ»[١]، وفي رواية: «يَتَهَرَّشُونَ»[٢]. والحديث صحَّحه الشيخ أحمد شاكر، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ[٣].

ومعنى قوله: «فَإِنِّي قَد رَأَيتَ ثَمَّ نَاسًا يَتَهَاوَشُونَ»؛ أي: رأيتُ بعد هذه الأصناف الثَّلاثة أناسًا هم من شرار الخلق، يتهاوشون على الدُّنيا؛ أي: يتدافعون على الدُّنيا ويتنافسون عليها؛ همُّهم الدُّنيا.

أو «يَتَهَارَشُونَ» بمعنى: يتقاتلون؛ أي: يقاتل بعضهم بعضًا. وهؤلاء من شرار الخلق؛ فلا تكونوا منهم.

إذن؛ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطب المؤمنين من أمَّته ويستميل قلوبهم بقوله:

---

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٢٦٠).

(٢) هذا اللَّفظ في رواية ابن حبَّان والحاكم.

(٣) انظر: «تخريج المسند» لأحمد شاكر (٤/ ٤١ و١٠٩)، و«التعليقات الحسان» (٩/ ١٨٠).

«فِدًىٰ لَكُم أَبِي وَأُمِّي». يستميلهم بهذا، **«إِنِ استَطَعتُم أَن تَكُونُوا مِنَ السَّبعِينَ أَلفًا فَافعَلُوا، فَإِن قَصَّرتُم؛ فَكُونُوا مِن أَهلِ الظِّرَابِ، فَإِن قَصَّرتُم فَكُونُوا مِن أَهلِ الأُفُقِ»**؛ يعني: وإيَّاكم أن تكونوا من الشِّرار.

فدلَّ هذا علىٰ ما قدَّمناه؛ وهو: أنَّ أهل التوحيد يوم القيامة يكونون علىٰ مَراتِبَ ولا شَكَّ:

منهم مَن يدخل الجنَّة بغير حساب ولا عذاب؛ وهم مَن ذكرت صِفَتُهم في الحديث وقد بيَّنَّاها في شرحه.

ومنهم مَن يدخل الجنَّة بعد أن يُعرَض عليه الحساب عرضًا، يدني اللهُ عليه كَنَفَه؛ فيَعرِض عليه ذنوبه؛ أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ حتىٰ إذا قرَّره بذنوبه وأقرَّ بها، ورأىٰ أنه قد هلك؛ قال الله له: **«قَد سَتَرتُهَا عَلَيكَ فِي الدُّنيَا، وَإِنِّي أَغفِرُهَا لَكَ اليَومَ»**[1]. فيكون نصيبه العرض؛ ثم يدخل الجنة، ولا يدخل النار.

وهؤلاء هم الَّذين يَلُون الَّذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب.

ومنهم مَن يُنَاقَش الحساب، ومَن نوقِش الحساب عُذِّب، ومَن نوقِش الحساب هلك؛ فيدخل النَّار، ثم يخرج منها فورًا بشفاعة الملائكة، وشفاعة الرُّسل، وشفاعة إخوانه الصالحين الَّذين كان معهم يحبُّهم ويُجَالسهم ولم يبلغ مرتبتهم؛ فيشفعون فيه، فيأمر الله هؤلاء الشفعاء الصالحين أن يدخلوا النار -وقد حرَّمهم

(١) انظر: «صحيح البخاريِّ» (٢٤٤١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٨).

على النار- ويقول: أخرجوا مَن تعرفون منهم، فيُخرِجون إخوانهم الذين كانوا يعرفون -واستحقُّوا دخول النار-، وهذه مِن أعظَم مَنَافع مجالسة الصالحين أهل التوحيد وأهل السنَّة، فكلَّما وجدتَ أقوامًا يحقِّقون التوحيد وهم على صلاح وديانة فاحرص أن تكون معهم- فيُخرِجون مَن يعرفون، ثم يُخرِج الله مَن شاء بلا شفاعة.

ومنهم مَن يدخل النَّار ويعذَّب في النَّار ثمَّ يخرج منها؛ غير أنَّ مواطن الوضوء لا تُصيبها النَّار منه. وهذا دليلٌ على ما قدَّمناه؛ مِن أنَّ الصلاة لابدَّ منها في صحَّة الإسلام؛ فإنَّه لا يتوضَّأ إلَّا مُصَلٍّ.

إذن؛ أهل التوحيد كما أنَّهم في الدنيا مراتب في توحيدهم؛ فإنَّهم في الآخرة مراتب في دخولهم الجنَّة.

ونحن في هذه الدنيا في سباقٍ ومسارعةٍ، وكلٌّ منَّا ينبغي عليه أن يحرص على أن يكون من السابقين المسارعين.

ولا تيأس ياعبد الله؛ لا تيأس أبدًا! بل اجتهد، وعلِّق قلبك بالله، وأحسِن ظنَّك بالله، واجعل رجاءك في الله، وأذِلَّ جسدك لله، واجتهد في الطاعة بما تستطيع؛ لتنال المَرَاتب العُلَا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: مَعرِفَةُ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي التَّوحِيدِ.

تقدَّم أنَّ النَّاس في التوحيد مَراتبُ في الدنيا، ومراتب في الآخرة.

فمراتبهم في التوحيد في الدنيا:

- منهم من يعمل بأصل التوحيد.
- ومنهم من يعمل بالتوحيد كلِّه؛ أصله وكماله.
- ومنهم من يحقِّق التوحيد.
- ومنهم من يحقِّق كمال تحقيق التوحيد.

وهم في الآخرة كذلك مراتب؛ علىٰ وفق مراتبهم في التوحيد في الدنيا تكون مراتبهم في الآخرة، كما تقدَّم معنا.

الثَّانِيَةُ: مَا مَعنَىٰ تَحقِيقِهِ؟

قد بيَّنَّا معنىٰ تحقيق التوحيد، وقلنا: إنَّ تحقيق التوحيد مرتبتان:

- مرتبة كمال.
- ومرتبة تحقيق.

وبيَّنَّا كيف يكون هذا وكيف يكون هذا.

وقلنا -باختصار-: تحقيق كمال التوحيد: هو جمع خصال الخير الواجبة والمستحبة بحسب الإمكان، هذا في الفعل، وفي الترك: ترك المحرَّم والمكروه بحسب الإمكان.

وأنَّ تحقيق التوحيد: هو جمع خصال الخير الواجبة بفعل الواجبات وترك المحرَّمات. ورأس الواجبات: التوحيد، ورأس المحرَّمات: الشِّرك.

الثَّالِثَةُ: ثَنَاؤُهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ إِبرَاهِيمَ بِكَونِهِ لَم يَكُن مِنَ المُشرِكِينَ.

فلابدَّ من التوحيد ومن البراءة من الشرك، ثمَّ لابدَّ مِن قدر زائد وهو: ألَّا يكون الموحِّد من المشركين؛ فلا يكون منهم بفعله؛ فلا يكون من المشركين بالله، ولا يكون معهم بقلبه؛ بل يبرأ من الشرك وأهله.

الرَّابِعَةُ: ثَنَاؤُهُ عَلَىٰ سَادَاتِ الأَولِيَاءِ بِسَلَامَتِهِم مِنَ الشِّركِ.

أي: ثناؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على المؤمنين المفلحين؛ الَّذين هم أهل الجنَّة بسلامتهم من الشرك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٥٩]، فلابدَّ في الوليِّ مِن أن يكون موحِّدًا سالمًا من الشرك، ولا يمكن أن يكون الوليُّ تاركًا للتوحيد أو لكمال التوحيد، أو يكون مشركًا بالله، فيرضىٰ أن يُدعىٰ من دون الله.

إذا وجدتَ الرجل يُدعىٰ من دون الله، ويُستَغَاث به من دون الله وهو راضٍ ويأخذ من الناس الأموال مقابل هذا؛ فاعلم يقينًا أنه ليس وليًّا لله.

وهذه مسألة مهمَّة، فإنَّ كثيرًا من المسلمين يغترُّون ببعض دعاة الوَلاية وهم ليسوا أهلًا لها، بمجرَّد أن يُشيع عن طريق أتباعه أنه حصل له من الخوارق كذا

وحصل له كذا؛ يتعلَّق به بعض الناس! مع أنه يُرىٰ لا يُصلِّي مع الناس، ولا ترىٰ عليه آثار الطهارة والنظافة، ويرضىٰ بأن يُشرَك بالله به فيكون شريكًا مع الله، فيُطلب منه الولد وهو يهزُّ رأسه، ويُطلَب منه الرِّزق! ويقولون: هذا وليٌّ! ويفعل المعاصي؛ ويقولون: هذا وليٌّ! وسبحان الله! الشيطان حتىٰ يحصِّن أولياءه أَورَد لهم شيئًا حتَّىٰ إذا رأىٰ النَّاس مِن هذا الذي يقال إنَّه وليٌّ ما يخالف الدِّين لم يَنزِعوا عنه الولاية؛ قالوا: «إنَّ الكريم إذا وَهَبَ ما سَلَبَ»؛ يعني: إنَّ الكريم وهو الله، إذا وهب ما سَلب! حتَّىٰ إذا رأيته يزني؛ فالكريم إذا وهب ما سلب! حتىٰ إذا أشرك؛ فالكريم إذا وهب ما سلب! وهذا واللهِ كذبٌ؛ فالإنسان قد يُوَحِّد الله ثمَّ قد يَرتَدُّ والعياذ بالله.

إذن؛ لا يمكن أن يكون وليُّ الله مشركًا بالله، ولا يمكن أن يكون وليُّ الله مجافيًا لسُنَّة نبيِّ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ رأس الأولياء محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يمكن لوليٍّ إلَّا أن يتابع رسولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الخَامِسَةُ: كَونُ تَركِ الرُّقيَةِ وَالكَيِّ مِن تَحقِيقِ التَّوحِيدِ.

كان ينبغي أن يقول: (ترك الاسترقاء)؛ لأنَّه تقدَّم معنا أنَّ هؤلاء السبعين ألفًا: «لَا يَستَرقُونَ»؛ وليس المراد ترك الرُّقية مطلقًا؛ فإنَّ رقية الإنسان لنفسه ليست مكروهة، والنَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقاه جبريل[1]، ورُقِيَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]، وكان الصحابة يرقون، ولَكِن المقصود: ترك الاسترقاء من غير حاجة شديدة، أمَّا إن وُجِدت

---

(١) أخرج ذلك مسلمٌ (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج ذلك البخاريُّ (٤٤٣٩)، ومسلمٌ (٢١٩٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

الحاجة الشديدة فلا بأس أن يطلب الإنسان الرُّقية.

مثال ذلك: إنسانٌ أصابَتهُ عين، وأصبح لا يستطيع أن يقرأ القرآن، أو قرأ علىٰ نفسه ولم ترتفع العين، فيجوز له أن يطلب الرُّقية بلا حرج، ولا يخرج بذلك من السَّبعين ألفًا إن شاء الله. وكذلك الكيُّ؛ من كمال تحقيق التوحيد أن يتركه الإنسان من غير حاجة شديدة.

السَّادِسَةُ: كَونُ الجَامِعِ لِتِلكَ الخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلُ.

الجامع لتلك الخصال المحمودة المذكورة: أنَّهم علىٰ ربِّهم يتوكَّلون.

فالمَنَاط هو أن تُعَلِّق قلبك بالله علىٰ كلِّ الأحوال؛ فإن كنت في الضِّيق تعلَّق قلبك بالله، وإن كنت في السَّعة تعلَّق قلبك بالله، وتنقاد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السَّابِعَةُ: عُمقُ عِلمِ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِمَعرِفَتِهِم أَنَّهُم لَم يَنالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.

ذلك أنَّه لمَّا ذكر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثمَّ قام ولم يقل لهم شيئًا، بدأ الصحابة يبحثون عمَّن ينال هذه المزيَّة، فعلِموا أنَّه إنما تُنال هذه المزيَّة بالعمل، فبعضهم قال: نحن الَّذين آمنَّا بالله وصدَّقنا رسول الله؛ فنحن هؤلاء، وبعضُهم قال: بل أولادنا الَّذين نشَئُوا في الإسلام، أمَّا نحن فنشأنا في الجاهلية...، فكان من عمق علم الصحابة أنَّهم علموا أنَّ هذه المنزلة إنَّما تُنال بالعَمَل.

الثَّامِنَةُ: حِرصُهُم عَلَىٰ الخَيرِ.

لأنَّ خوضهم في معرفة هؤلاء السبعين ألفًا إنَّما هو لينالوا هذه المنزلة،

فهم حريصون على الخير.

التَّاسِعَةُ: فَضِيلَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالكَمِّيَّةِ وَالكَيفِيَّةِ.

هذه الأمَّة أفضل الأمم، ويوم القيامة تظهر كرامتُها.

أمَّا بالكمِّيَّة؛ فهي أكثر الأمم يوم القيامة، لا تُدانيها إلا أمَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي أقلُّ بكثير من أمَّة محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ أمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة تسدُّ الأفق من الأمام، وتسد الأفق من اليمين، وتسدُّ الأفق من الشمال؛ فهي أكثر الأمم يوم القيامة.

وأمَّا بالكيفية؛ فهو أنَّ منها سبعين ألفًا يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، بل سيكون مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفًا، فيكون المجموع أربعة ملايين وتسعمائة ألف، ثمَّ زد عليهم سبعين ألفًا فيصبح العدد أربعة ملايين وتسعمائة وسبعين ألفًا، ثم يكرم الله الكريم أمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدد كثير يدخل الجنَّة بغير حساب ولا عذاب لا يعلم قدره إلَّا الله؛ لأنها ثلاث حثيات من حثيات ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذه الأمَّة أكرم الأمم يوم القيامة، عددًا: من جهة كثرتها، وكيفيةً: من جهة دخول عدد كثير منها الجنة بغير حساب ولا عذاب.

بل زد على ذلك: أنَّ أمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصف أهل الجنَّة؛ كما رجا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرجُو أَن تَكُونُوا رُبُعَ أَهلِ الجَنَّةِ**. قال: فَكَبَّرنَا، فَقَالَ:

أَرجُو أَن تَكُونُوا ثُلُثَ أَهلِ الجَنَّةِ. قال: فَكَبَّرنَا، **فَقَالَ: أَرجُو أَن تَكُونُوا نِصفَ أَهلِ الجَنَّةِ**. قال: فَكَبَّرنَا...» الحديث(١)، وهذه كرامة لأمَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

العَاشِرَةُ: فَضِيلَةُ أَصحَابِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لأنَّهم مُيِّزوا في الأمم بأنَّهم سوادٌ عظيم، وهذا يدلُّ علىٰ كثرة من اتَّبع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: عَرضُ الأُمَمِ عَلَيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا لشَرَفِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمقام النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامٌ عظيمٌ، فالله عَزَّ وَجَلَّ عرض عليه الأمم في الإسراء علىٰ هيئتها يوم القيامة، وعرض الأمم عليه في المنام ليلة يومٍ من أيَّام الحج؛ وذلك تسلية له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشارة له، ومن ثَمَّ تسلية للأمَّة وبشارة لها.

يا عبد الله، لا تحتَقِرَنَّ الأمَّة اليوم؛ ولكن اسعَ علىٰ أن تكون موحِّدًا وعلىٰ أن تنشر التوحيد؛ فأمَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكرمُ الأمم إن وحَّدت الله، وهي خير الأمم لو تمسَّكت بالتوحيد، إنَّما نخشىٰ عليها من تركها للتوحيد.

فلا تحقرنَّ هذه الأمَّة اليوم وتقول: سبقتها الأمم و...! خَف فقط عليها مِن ترك التوحيد، فاجتهد أن تكون موحِّدًا أنت بنفسك، وادعُ الناس إلىٰ التوحيد، فإن حصل ذلك فَواللهِ إنَّ هذه الأمَّة خير الأمم علىٰ الإطلاق.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُحشَرُ وَحدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

لأنَّ النَّبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا عُرضت عليه الأمم رأى النَّبيَّ ومعه الرهط، والنَّبيَّ ومعه الرُّهيط، والنَّبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنَّبيَّ وليس معه أحد، فلو كانوا يأتون يوم القيامة مختلطين لَمَا ميَّزهم النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لكن دلَّ ذلك على أنَّ كلَّ أمَّة تأتي مع نبيِّها.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: قِلَّةُ مَن استَجَابَ لِلأَنبِيَاءِ.

الله المستعان! النَّبيُّ يأتي ولا يأتي معه إلَّا عشرة ممَّن اتَّبعه من قومه فقط، ويأتي ومعه رجلٌ واحد اتَّبعه وصدَّق به فقط، ويأتي ومعه رجلان فقط، ويأتي نبيٌّ ليس معه أحد؛ لأنَّه لم يستجب له أحد.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّ مَن لَم يُجِبهُ أَحَدٌ يَأتِي وَحدَهُ.

نعم؛ من لم يستجب له أحدٌ في الدنيا؛ فإنَّه يأتي يوم القيامة وحده.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: ثَمرَةُ هَذَا العِلمِ؛ وَهُوَ: عَدَمُ الاغتِرَارِ بِالكَثرَةِ وَعَدَمُ الزُّهدِ فِي القِلَّةِ.

إذا علمنا أنَّ أنبياء الله عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ الَّذين استجابوا لهم قلَّة، وأنَّ النَّبيَّ قد يأتي ولم يستجب له أحدٌ؛ فإنَّ هذا يجعلنا لا نغترُّ بالكثرة ولا نزهد في القلَّة؛ وإنَّما ننظر إلى الحقِّ، فمَن كان على الحقِّ فهو أمَّة ولو كان واحدًا.

فلا نغترُّ بكثرة النَّاس ونقول: انظروا مسجدهم مليءٌ، والنَّاس يصلُّون في الشوارع؛ إذن هؤلاء على الحقِّ! وهؤلاء ثلاثةُ صفوف إن كثروا؛ إذن هؤلاء

علىٰ الباطل! لا، العبرة بالحقِّ، فمَن تمسَّك بالحقِّ ووجدتَ عنده قال الله قال رسولُه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الصحابة، ويُقرِّر ما قرَّره الأئمة؛ فهؤلاء أهل الحقِّ ولو كانوا قلَّةً.

فإذا علمتَ أنَّ النَّبيَّ يُبعث إلىٰ قومه فلا يُجيبه أحَدٌ؛ عرفت أنَّ الكثرة الكاثرة كفروا به؛ فكيف تجعل الكثرة دليلًا علىٰ الحقِّ؟!

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: الرُّخصَةُ فِي الرُّقيَةِ مِنَ العَينِ وَالحُمَةِ.

الصحيح: أنَّ الرُّقية مرخَّصٌ فيها ما لم تكن شركًا، وهي نافعةٌ من كلِّ داء. لكنَّها أنفع في العين واللَّدغة.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: عُمقُ عِلمِ السَّلَفِ؛ لِقَولِهِ: «قَد أَحسَنَ مَنِ انتَهَىٰ إِلَىٰ مَا سَمِعَ لَكِن كَذَا وَكَذَا»، فَعُلِمَ أَنَّ الحَدِيثَ الأَوَّلَ لَا يُخَالِفُ الثَّانِي.

لأنَّ سعيدًا لم يَرَ التعارض بين حديث بُريدة وعمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وحديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بل رأىٰ أنَّه يمكن أن يُجمَع بينهما، ولذلك لم يَعِب عليه.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: بُعدُ السَّلفِ عَن مَدحِ الإِنسَانِ بِمَا لَيسَ فِيهِ.

فلم يكن السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يحرصون علىٰ أن يُمدَحوا بما ليس فيهم؛ بل كانوا يحرصون علىٰ أن يُخفوا ما فيهم، فكان الواحد منهم يحرص علىٰ أن يُخفي ما فيه من الخير إلَّا أن يكون مأمورًا بإظهاره، ومن باب أولىٰ أنَّهم كانوا من أبعد النَّاس عن أن يُمدَحوا بما ليس فيهم، بل لو خشي أحدهم أن يُفهَم أنَّ فيه شيئًا ليس فيه، فإنَّه ينفي ذلك عن نفسه، كما مرَّ في هذا الحديث.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «أَنتَ مِنهُم» عَلَمٌ مِن أَعلَامِ النُّبُوَّةِ.

قولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لعكَّاشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «**أَنتَ مِنهُم**» علمٌ من أعلام النبوَّة؛ لأنَّ عكاشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عاش علىٰ التوحيد ومات شهيدًا؛ فهذا عَلَمٌ من أعلام النبوَّة.

العِشرُونَ: فَضِيلَةُ عُكَّاشَةَ.

نشهد لعكَّاشة بعينه أنَّه من أهل الجنَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ شهد له بذلك.

الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: استِعمَالُ المَعَارِيضِ.

وذلك في قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ للرجل: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»، ولم يقل له: لست منهم.

والمَعَاريض: هي أن تعبِّر عن المقصود بلفظٍ قد يُفهَم منه شيءٌ آخر.

واستعمال المعاريض عند الحاجة لا بأس به؛ فقد ثبت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أنَّه قال: «فِي المَعَارِيضِ مَا يُغنِي المُسلِمَ عَنِ الكَذِبِ»[1].

وعن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أنَّه قال: «**إِنَّ فِي المَعَارِيضِ لَمَندُوحَةً عَنِ**

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣/ ٣٢٥ - القبلة)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٨٤)، والطبريُّ في «تهذيب الآثار» (٣/ ١٤٤-١٤٥ - شاكر)، والطحاويُّ في «شرح مشكل الآثار» (٧/ ٣٦٩)، والبيهقيُّ في «السنن» (١٠/ ٣٣٥). وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٦٨٤).

الكَذِبِ»[١]، وهذا ثابتٌ موقوفًا عن بعض الصحابة، لكنَّه لم يثبت مرفوعًا إلىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن ثبت عن النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمال المعاريض؛ ومن ذلك أنَّه لمَّا كان النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسيرٍ وكان معه غلامٌ يَحدو للإبل، وكان صوته نديًّا، فقال النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارفُق يَا أَنجَشَةُ، وَيحَكَ بِالقَوارِيرِ**»[٢]، وفي رواية[٣]: «**رُوَيدَكَ يَا أَنجَشَةُ، لَا تَكسِرِ القَوارِيرَ**»، فعرَّض النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا بالنِّساء. فمراده بالقوارير هنا: النِّساء.

وجاء في «السنن»[٤] عن سُوَيدِ بنِ حَنظَلَةَ قَالَ: «خَرَجنَا نُرِيدُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَنَا وَائِلُ بنُ حُجرٍ، فَأَخَذَهُ عَدُوٌّ لَهُ، فَتَحَرَّجَ النَّاسُ أَن يَحلِفُوا، وَحَلَفتُ: أَنَّهُ أَخِي، فَخَلَّىٰ عَنهُ، فَأَتَينَا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: **أَنتَ كُنتَ أَبَرَّهُم وَأَصدَقَهُم، صَدَقتَ؛ المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ**».

فعرَّض سويدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله عن وائل: أخي؛ وهو يريد أنَّه أخوه في الإسلام،

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف» (١٣/ ٣٢٥)، وهنَّاد في «الزهد» (٢/ ٦٣٦)، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، والطبريُّ في «تهذيب الآثار» (٢/ ٦٣٨)، والطحاويُّ في «شرح مشكل الآثار» (٧/ ٣٧٠)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٨/ ١٠٦)، والبيهقيُّ في «السنن» (١٠/ ٣٣٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٦٦٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٢٠٩)، ومسلمٌ (٢٣٢٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) للبخاريِّ (٦٢١١)، ومسلم (٢٣٢٣).

(٤) أخرجه أحمد (١٦٧٢٦) و(١٦٧٢٧) واللفظ له، وأبو داود (٣٢٥٦)، وابنُ ماجه (٢١١٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

والرجل ظنَّ أنَّه أخوه بالنَّسب.

ولمَّا خرج أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مهاجرًا مع النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان أبو بكر شيخًا يُعرَف، وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعرَف -أي: في الطريق-، فكان إذا سُئل أبو بكر عنه قال: «هَذَا الرَّجُلُ يَهدِينِي السَّبِيلَ»، قال أنسٌ: «فَيَحسِبُ الحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعنِي الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا يَعنِي سَبِيلَ الخَيرِ»[1].

فالسامع يظنُّ أنَّه دليلٌ يدلُّه على الطريق، وهو يقصد أنَّه يهديه صراط الله المستقيم ويبيِّنه.

الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ: حُسنُ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الله أكبر! النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنُ النَّاس أخلاقًا، والشَّاهد هنا: **أنَّه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُرِد أن يواجه الرجل بقوله: لست منهم؛ فعبَّر بتعبير كافٍ فقال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»، وهذا من حُسن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا شكَّ أنَّ من حُسن الخلق ألَّا تواجه الإنسان بما يكره، وأن تتلطَّف في إيصال الخبر الَّذي يَكرَهُه إليه.

❀❀❀

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩١١)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ الخَوفِ مِنَ الشِّركِ.

الشرح

لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرِّر كلِّيَّات التوحيد؛ وقد بدأ بالترغيب الَّذي يقود المؤمن إلىٰ ما ينبغي في التوحيد، فبيَّن فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب، ثمَّ بيَّن أنَّ من الموحِّدين من يدخل الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، وهذا يقتضي منَّا أن نحبَّ التوحيد، وأن نحبَّ أهله، وأن نتعلَّم التوحيد، وأن نعمل به؛ فجاء بهذا الباب: باب (الخوف من الشِّرك)؛ لأنَّ مَن عَلِمَ فضل التَّوحيد؛ كان التَّوحيدُ عنده كنزًا عظيمًا فيخاف عليه أن يَذهبَ.

فممَّا ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد: أن يخاف من ضدِّه وهو الشِّرك؛ فلذلك ذكر الشيخ هذا الباب.

فمَقصُود الباب: بيانُ أنَّ الموحِّد مع توحيده وحبِّه للتوحيد وبراءته من الشرك وأهله، يخاف من الشرك بأنواعه، فيخاف أن يشرك بالله شيئًا؛ وذلك لعظم التوحيد عند المؤمن.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ الآية [النساء:٤٨].

الشرح

هذه الآية فيها بيانُ أنَّ الشِّرك أعظم الذُّنوب علىٰ الإطلاق، وأكبَرُ الكبائر علىٰ الإطلاق، وأقبح ما عُصي الله به علىٰ الإطلاق؛ لأنَّ ربَّنا الرحيم الغفور يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ فأن والفعل مؤوَّلة بالمصدر: لا يغفر الإشراك به؛ وذلك لعظم قُبح ذلك الذنب، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ وهم أهلُ التوحيد.

قال المُفَسِّرون: الاستثناء هنا لأهل التوحيد. ومعنىٰ هذا: أنَّ الله لا يغفر الإشراك به ولا يغفر للمشرك به ذنبًا، بل يؤاخَذ المشرك بجميع ذنوبه، وإنَّما يغفر الله ما دون الشِّرك لأهل التوحيد، فمَن كان موحِّدًا وأذنب فإنَّ الله يغفر ذنبه إن شاء.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مرتكب الكبيرة من الموحِّدين تحت المشيئة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، وما دون ذلك منه: الكبائر.

ولذا جاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: «مَا زِلنَا نُمسِكُ عَنِ الاستِغفَارِ لِأَهلِ الكَبَائِرِ». يعني: كانوا لا يستغفرون لأهل الكبائر؛ لأنَّ نصوص الوعيد في الكبائر عظيمة، قال: «حَتَّىٰ سَمِعنَا مِن فِي نَبِيِّنَا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. قَالَ: **فَإِنِّي أَخَّرتُ شَفَاعَتِي لِأَهلِ الكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ. فَأَمسَكنَا عَن كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ فِي أَنفُسِنَا»**. رواه البزَّار وأبو يعلىٰ وابنُ أبي عاصم، وصحَّحه الألبانيُّ[1].

فاجتمعت الآية والحديث؛ فالآية تدلُّ علىٰ أنَّ الله قد يغفر لصاحب الكبيرة الموحِّد إن شاء ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والحديث يدلُّ علىٰ أنَّ الشفاعة تنفع أهل الكبائر بإذن الله؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَإِنِّي أَخَّرتُ شَفَاعَتِي لِأَهلِ الكَبَائِرِ مِن أُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ**».

فجاءت هذه الآية عامَّة علىٰ كلِّ نصوص الوعيد في الكبائر، وأنَّ مرتكب الكبيرة يدخل تحت المشيئة.

مَسألة: قد تقدم أنَّ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر الإشراك به، ومعلوم أنَّ الإشراك نوعان: أكبر، وأصغر. وقد اتَّفق العلماء علىٰ أنَّ من مات مُشرِكًا بالله شركًا أكبر لا يُغفَر له، ولا يدخل الجنَّة أبدًا.

واختلفوا فيمن مات وهو يشرك بالله شركًا أصغر ولم يتب من ذلك، كمن كان طوال عمره يقول: والنَّبيِّ، أو يقول: والأمانةِ، أو يقول: ورأسِ أمِّي، أو

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في «المسند» (٥٨١٣)، والبزار في «المسند» (٥٨٤٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٣٠)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٨)، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٤٢)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد - طيبة» (١٩٥٤) و(٢٠٠١)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٢٢١-٢٢٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٩/ ٦٨). وحسَّنه الألبانيُّ في «ظلال الجنة» (٢/ ٣٩٨).

يتطيَّر، حتَّىٰ مات؛ هل يُغفَر له؟

- **فقال بعضُ أهلِ العِلم:** لا يُغفر له ذلك؛ وإنَّما يدخل تحت الموازنة، فإن رجحت حسناتُه دخل الجنة، وإن رجحت سيِّئاتُه دخل النار. قالوا: لأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾؛ وهذا شركٌ.

- **وذَهبَ بعضُ أهلِ العلم:** إلىٰ أنَّه يدخل تحت المشيئة؛ إن شاء غفر الله له وإن شاء عذَّبه.

وهذا هو الرَّاجِح.

والدَّليلُ علىٰ هذا التَّرجيح وَجهَان:

الوجه الأوَّل: أنَّا وجدنا أنَّ أكثر الآيات الَّتي ورد فيها الشِّرك عند الإطلاق يُرَادُ به: الشِّرك الأكبر؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، فقوله: «مأواه النَّار»؛ أي: منزله ومآله النَّار، وقد أجمع العلماء علىٰ أنَّ الشرك هنا هو الشِّرك الأكبر.

والوجه الثاني: أنَّا وجدنا أنَّ الشرك الأصغر يخالف الشرك الأكبر في كثير من الأحكام؛ **منها:**

١- أنَّ الشرك الأكبر يُخرج من الملَّة، أمَّا الشرك الأصغر فلا يُخرج من الملَّة. فالذي يَحلفُ بغير الله مسلمٌ لا يخرج من ملَّة الإسلام.

٢- أنَّ الشرك الأكبر مُوجِب للخلود في النار لمن مات عليه، أمَّا الشرك

الأصغر فليس موجبًا للخلود في النار لمن مات عليه، حتَّىٰ لو دخل النار فإنَّه يُخرَج منها.

٣- أنَّ الشرك الأكبر لا يدخل تحت الموازنة، فالمشرك شركًا أكبر ليس له عمل صالح حتىٰ يدخل تحت الموازنة، بخلاف الشرك الأصغر فإنَّه يدخل تحت الموازنة بالاتِّفاق، فحتَّىٰ الَّذين يقولون: إنَّه لا يُغفر ولا يدخل تحت المشيئة يقولون: يُوضَع في الميزان.

إذن؛ وجدنا أنَّ الشرك الأصغر يخالف الشرك الأكبر في أكثر أحكامه، ولم تبقَ إلَّا هذه المسألة. وهي محتمِلةٌ في الآية؛ فلأن تُلحَق ببقيَّة المسائل أولىٰ.

فالصَّحيحُ: أنَّ الشرك الأصغر يدخل تحت المشيئة.

فإن قال لي قائل: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر:٥٣]، ولم يستثنِ شيئًا؟!

قلنا: لا تعارُضَ بين الآيتين، فإنَّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ فيمن تاب، فمعنىٰ الآية: قل يا عبادي الَّذين أسرفوا علىٰ أنفسهم، مهما فعلتم من الذنوب ولو أشركتم، لا تقنطوا من رحمة الله، بل توبوا إلىٰ الله؛ فإنَّ الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب، ولو كان مشركًا بالله قبل التوبة فتاب، فإنَّ الله يغفر ذنبه ويبدِّل سيِّئاته حسنات.

وأمَّا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ فهي فيمن وافىٰ بذنبه، فلم يتُب. فمَن وافىٰ مشركًا بالله شركًا أكبر؛ فمات علىٰ الشرك الأكبر؛ فإنَّ الله لا يغفر ذنبه، لا الشرك ولا غير الشرك من الذنوب.

ومناسبة هذه الآية لهذا الباب «الخوف من الشرك»: أنَّ المسلم إذا علم أنَّ الله لا يغفر الشرك لمن مات عليه فإنَّه يخاف من ذلك؛ لأنَّ المسلم يريد مغفرة الله، ويُريد عفو الله.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

الشرح

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾: هذا مِن دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ؛ قال بعض أهل العلم: معنىٰ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾: اعصمني. وقال بعض أهل العلم: احفظني. وقال بعض أهل العلم: باعِد بيني وبين عبادة الأصنام؛ فاجعلني في جانب وهي في جانب.

قوله: ﴿وَبَنِيَّ﴾: قال بعضُ أهل العلم: المراد ببنيه هنا: مَن تناسَل منه، وهذا ليس صحيحًا؛ لأنَّه وقع الشِّرك في نسل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الأمم بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والصَّواب أن المُراد: بنوه من صُلبه، وليست الأمم الَّتي جاءت بعدهم؛ فإنَّ المعلوم أنَّ من كفَّار قريش من ينتسب إلىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكنَّه ليس من صُلبه.

قال بعضُ أهل العلم: إنَّ لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ثمانية أبناء. وقال بعضُ أهل العلم: بل له ابنان ومَن تناسل منهما أبناؤهما، أبناؤه وأبناء أبنائه، وأبناء أبناء أبنائه، وهؤلاء هم الَّذين استُجيب لإبراهيم فيهم.

إذن؛ لأهل العلم قولان في الأبناء المقصودين بالآية:

القول الأوَّل: أنَّهم كلُّ مَن بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويقول أصحاب هذا القول: لم يستجب الله لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الدعاء؛ لأنَّه قد كان ممَّن ينتسب إلىٰ إبراهيم مَن أشرك بالله.

القول الثاني: أنَّهم بنوه من صلبه، أي: بنوه، وبنو بنيه، وبنو بني بنيه. وهؤلاء لم يكن منهم مشرك.

قوله: ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: الأصنام: جمع (صَنَم)، والصَّنم: ما عُبد من دون الله وكان علىٰ هيئة صورة، سواء صورة بوجه أو بدون وجه.

والوثن: ما عُبد من دون الله ولو لم يكن علىٰ هيئة صورة؛ مثل القبر، فإنَّه إذا عُبد من دون الله فهو وثن.

والشاهد من هذا: أنَّ إبراهيم خليل الله كان يخاف من الشرك، فإذا كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاف من الشِّرك، فمن باب أولىٰ نحن أن نخاف من الشرك.

ولذلك قال إبراهيم التيميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن يأمن البلاء بعد قول إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟!»[1].

فالمؤمن النَّاصح لنفسه دائمًا يكون حذرًا من المعاصي، خائفًا من المعاصي، لا يغترُّ بصلاحه، ولا يغترُّ بعلمه، بل يكون دائمًا خائفًا من المعاصي؛ ورأسُ ذلك أن يخاف من الشِّرك أبدًا ما دام حيًّا.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٦٨٧-٦٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٤٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّركُ الأَصغَرُ»، فَسُئِلَ عَنهُ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

الشرح

هذا الحَديثُ رواهُ الإمامُ أحمد، والطَّبراني، والبَيهقيُّ، وحَسَّن إسناده الألبَانيُّ(١).

وفيه أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (**أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُم**): يا مَعَاشِرَ المُوَحِّدين؛ لأنَّ الخِطابَ للصحابة.

(**الشِّركُ الأَصغَرُ: فَسُئِلَ عَنهُ، فقَالَ: الرِّيَاءُ**).

وجَاءَ في روايَة: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إنَّ أَخوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّركُ الأَصغَرُ**. قَالُوا: وَمَا الشِّركُ الأَصغَرُ؟ قال: **الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **لَهُم يَومَ القِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعمَالِهِم: اذهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنتُم تُرَاؤُونَ فِي الدُّنيَا فَانظُرُوا هَل تَجِدُونَ عِندَهُم جَزَاءً؟**». رواه الإمام أحمد، وصحَّحه الألبانيُّ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٤/ ٢٥٣)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٦٤١٢)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٤/ ٣٢٣-٣٢٤)، عن محمود بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وجوَّد إسناده الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٩٥١).

(٢) أخرجه إسماعيل بن جعفر في «جزئه» (٣٨٤)، وأحمد (٢٣٦٣٠) و(٢٣٦٣١)، وأبو محمد الضراب في «ذم الرياء» (١٢) و(٣١)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٦٤١٢)، عن محمود بن =

وهذا الشِّرك أيضًا؛ سمَّاه النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الشِّرك الخفيَّ؛ لأنَّه يتسلَّل إلىٰ القلوب تسلُّلًا؛ قال النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُم عِندِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**»، قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: **الشِّركُ الخَفِيُّ، أَن يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ رَجُلٍ**». رواه ابنُ ماجه، والبيهقيُّ، وحسَّنه الألبانيُّ[(١)].

وسمَّاه النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شرك السرائر؛ لأنَّه يقع في القلوب؛ فقد روىٰ محمود بن لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُم وَشِركَ السَّرَائِرِ!** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا شِركُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: **يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ النَّاسِ إِلَيهِ، فَذَلِكَ شِركُ السَّرَائِرِ**». رواه ابنُ خزيمة، وحسَّنه الألبانِيُّ[(٢)].

وعندنا هنا أمورٌ:

الأمر الأوَّل: هل الشِّرك الأصغر هو الرِّياء؟

نقول: لا، الشِّرك الأصغر أعمُّ من الرِّياء. فمِن الشِّرك الأصغر: الحَلِف بغير

=

لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٥١).

(١) أخرجه أحمد (١١٢٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠).

(٢) أخرجه ابنُ خزيمة في «صحيحه» (٩٣٧)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١).

الله، ومنه: التطيُّر، ومنه: الرِّياء.

والرِّياء من أخبث أنواع الشِّرك الأصغر، ولذلك فُسِّر الشِّرك الأصغر في الحديث بأنَّه الرِّياء؛ لأنَّه من أخبث أنواع الشِّرك الأصغر. فكان أخوَف ما يخافه النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الأمَّة: الرِّياء.

ولذلك؛ يقول ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فذلك البحرُ الَّذي لا ساحل له؛ وقلَّ أن ينجو منه أحد»[1]؛ أي: الرِّياء.

إذن؛ ما هو الشِّركُ الأصغر وما مَعنَاه؟

الشِّرك الأصغر: هو كلُّ ما سُمِّي في النصوص شركًا ولم يبلغ حدَّ الشِّرك الأكبر، أو كان ذريعة مُوصلةً إلىٰ الشِّرك الأكبر يقينًا؛ يعني: مَن سَلَكَهُ لابد أن يصل إلىٰ الشرك الأكبر، أو غلبة ظن.

فإن قال قائلٌ: كيف نعرف أنَّ ما سُمِّي في النُّصوص شركًا يكون شركًا أصغر دون الشِّرك الأكبر؟

ذكر العُلمَاء لهذا علامَات:

- **منها**: النَّصُّ علىٰ أنَّه شرك أصغر؛ مثال ذلك حديثُ الباب: «**أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّركُ الأَصغَرُ**»، وفسَّره النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه الرِّياء.

- **ومنها**: أن يأتي منكَّرًا غير معرَّف؛ فيقال: شركٌ؛ فهنا يكون المراد به الشِّرك

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص٣١٢ - عالم الفوائد).

الأصغر؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»**. وسيأتي الكلام عن هذا إن شاء الله.

- **ومنها**: أن يظهر بالقَرَائن أنَّ المقصود من الشِّرك هنا هو الشِّرك الأصغر؛ مثل أن تقع واقعة فيصِفُها النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّها شرك، ولا يأمر فاعليها بالدُّخول في الإسلام مثلًا، كما سيأتي -إن شاء الله- في مسألة ما يتعلَّق بالأنواء.

- **ومنها**: أن يظهر أنَّ المقصود أنَّها من أخلاق الكفَّار؛ فلا يكون ذلك شركًا أكبر.

- **ومنها**: فَهم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وستأتي أمثلةٌ في هذا الكتاب -إن شاء الله-.

الأمر الثاني: كيف يُدفَع الرِّياءُ؟

قال العلماء: يدفع المسلم الرِّياء إن كان ظاهرًا: بالتخلُّص منه. وإن كان خفيًّا لا يظهر له: يدفعه بالاستعاذة بالله منه.

فقد يَرىٰ الإنسان الرياء في نفسه كأن يكبِّر للصلاة وهو يرائي النَّاس؛ فيدفع هذا بمجاهدة نفسه والتخلُّص منه. وقد يكون خفيًّا فيتسلَّل إلىٰ قلب العبد وهو لا يشعر به؛ فيكون التخلُّص منه: بالاستعاذة منه؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّركَ؛ فَإِنَّهُ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ**. فَقَالَ لَهُ مَن شَاءَ اللهُ أَن يَقُولَ: وَكَيفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن أَن نُشرِكَ بِكَ شَيئًا نَعلَمُهُ، وَنَستَغفِرُكَ لِمَا لَا نَعلَمُ»**. رواه الإمام أحمد، وصحَّحه الألبانيُّ وغيرُه[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٠٦)، عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال الهيثمي في «مجمع =

الأمر الثالث: ما أثرُ الرِّياء على الأعمال؟

الرِّياء المراد هنا الَّذي هو من الشِّرك الأصغر، وضابطه ألَّا يغلب على عبادة الإنسان، وإنما يَكونُ عَارِضًا، بمعنى: أنَّ الإنسان يعبد الله مخلصًا، لكن يطرأ عليه أحيانًا أنَّه يرائي الناس؛ فيُظهِر العمل الصالح أمام الناس ليُمدَح على ذلك.

أمَّا إذا كان الرِّياء -والعياذ بالله- غالبًا على عبادة الإنسان؛ فهو لا يصلِّي إلَّا رياء، ولا يصوم إلَّا رياء، ولا يحجُّ إلَّا رياء، ولا يتصدَّق إلَّا رياء؛ فهذا عابدٌ للنَّاس ليس عابدًا لله! هذه حالُ المنافقين، والعياذ بالله.

وكلامنا هنا على أثر الرِّياء الَّذي هو من الشِّرك الأصغر في عمل الإنسان.

فالرِّياء إمَّا أن يقع في عمل يتَّصل، وإمَّا أن يقع في عمل ينفصل.

- **فإن وقع في عمل يتَّصل**، كالصلاة؛ فإنَّها عمل متَّصل من أوله إلى آخره؛ تُفتتح بالتكبير وتُختتم بالتسليم، فإن وقع في أصل العمل؛ فإنَّ العمل لا يَنعَقِدُ أصلًا.

مثالُه: إنسَانٌ دخل المسجد، فإذا بالشيخ أو الأمير في المسجد، فكبَّر وأظهر حسن الصلاة أمام الشيخ أو أمام الأمير، كبَّر مُظهِرًا حسن صلاته، مُرائيًا لهذا المعظَّم عند التكبير، فهذا لم يدخل في الصلاة، ولم تنعقد صلاتُه.

فهذا يجب أن يستأنف الصلاة من الأوَّل، ولا يجوز له أن يستمرَّ؛ لأنَّ الصلاة

=

الزوائد» (١٠/ ٢٢٣): «رجال أحمد رجال الصحيح، غير أبي عليٍّ ووثَّقه ابنُ حبَّان».

وقال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦): «حسن لغيره».

لم تنعقد، **فإذا دفع الرِّياء في أثناء الصلاة؛** فبعدما كبَّر مُرائيًا وقرأ سورة الفاتحة مظهِرًا الخشوع والبكاء مرائيًا، ثمَّ تنبَّه وقال: أنا أقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وأنا علىٰ غير صراطٍ مستقيم! فقال: أعوذ بالله، واستغفر الله؛ فهل يستمرُّ في صلاته؟

هذا يبدأ من جديد مُخلِصًا لله تعالىٰ.

أمَّا إذا لم يقع في أصل العمل، ولكنَّه طرأ في أثنائه؛ مثاله: كبَّر مخلصًا لله تعالىٰ، ومعه اثنان يصلِّيان خلفه، ولمَّا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فإذا به جمعٌ خلفه؛ يقولون: آمين، فجاءه الشَّيطان فبدأ يقرأ ودخله الرِّياء؛ فهنا إن دفعه أثناء الصلاة صحَّت صلاتُه، ولا ينقص أجرُه؛ لأنَّه إذا دفعه فقد تاب، والتَّائب من الذَّنب لا ذنب له.

أمَّا إن استسلم له واستمرَّ فيه ولم يدفعه إلىٰ أن فرغ من العمل، فالصحيح من أقوال أهل العلم: أنَّ عمله باطل.

مِثَاله: إنسانٌ قام يُصَلِّىٰ مع الجماعة مخلصًا لله تعالىٰ، فصفَّ بجواره رجلٌ يريد أن يخطب ابنته، فلمَّا أحسَّ به راءاه؛ حتَّىٰ يرىٰ أنَّه من عباد الله الصالحين، واستمرَّ مُرائيًا إلىٰ أن فرغ من الصلاة! فهذا بَطَلَت صلاتُه، ويجب عليه أن يعيد الصلاة؛ لأنَّه لم يُؤَدِّ الفرض.

أمَّا إذا كان العمل مُنفَصِلًا، ينفصل بعضُه عن بعض؛ فهنا يبطل ما يُصِيبُه الرِّياء فقط.

مثلًا: إنسان عنده ألف ريال يريد أن يتصدَّق بها، وقسمها مائةً مائةً، فجاء

إلىٰ فقير فأعطاه المائة لله تعالىٰ، ثمَّ جاء إلىٰ الفقير الثَّاني التفت هل يراه الناس؟ فلمَّا رأىٰ الناس ينظرون إليه؛ أعطاه المائة؛ ليقول الناس: كريم! ثمَّ ذهب إلىٰ الثالث وتحيَّن نظر الناس إليه، فأعطاه مراءاة للنَّاس، ثمَّ عاد إلىٰ الإخلاص وأكمل الألف؟

يقول العلماء: صحَّت منه الثمانمائة الَّتي أخلص فيها، ولا يُقبل منه ما تصدَّق به من المائتين اللَّتين راءىٰ فيها؛ لأنَّ الله لا يقبلها منه.

لو فرضنا أنَّ هذا الأمر حصل في الزكاة؛ مثاله: رجلٌ وجب عليه عشرة آصُع زكاة الفطر، فأخرج صاعًا لله، وثانيًا لله، وثالثًا لله، ولما أتىٰ إلىٰ الصاع الرابع أخرجه رياءً، ثمَّ أكمل الباقي مخلصًا، فهذا يبقىٰ عليه صاع في ذمَّته يجب عليه أن يخرجه؛ لأنَّه ما صحَّ منه.

أمَّا إذا وقع الرِّياء بعد العمل: كأن يعمل مخلصًا لله تعالىٰ، وبعدما فرغ ولو بعد ساعة أو ساعتين أو يوم سمَّع بعمله؛ مثاله: صلَّىٰ لله في اللَّيل مخلصًا خاشعًا لله، لكن لمَّا التقىٰ بأحد أصدقائه أو لقي والده، جاءه الشيطان وضحك عليه، فقال: البارحة صلَّيت صلاةً خشعت فيها خشوعًا عجيبًا...! وهو يريد أن يسمِّع بصلاته، لا يريد أن يشجِّع صديقه علىٰ الخير ولا يريد أن يخبر والده بما يسرُّه، بل يريد أن يسمِّع ليُمدح! فهذا الفعلُ لا يبطل عملَه؛ لكنَّه يأثم بالتسميع؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ**»[1]، وإن كان البطلان لا يلحق العمل؛ لأنَّه تمَّ صحيحًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧)، عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا التَّحقيق من كلام أهل العلم.

مسألة: لو مُدح الإنسان علىٰ العَمَل بدون قصدٍ منه، يعني: لم يُرِد أن يُمدَح؟

هذا لا يَضُرُّه، وكون الناس يُثنُون عليه هذا من عاجل بشرىٰ المؤمن.

إذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ إيراد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث في هذا الباب، لأمور:

أوَّلًا: لأنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خافه علىٰ الأمَّة خوفًا شديدًا، وإذا خافه النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا؛ ألَا نخاف نحن منه؟!

والأمر الثاني: أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمَّاه شركًا، والمؤمن يخاف من الشِّرك.

والأمر الثالث: أنه يُحتمَل أن يدخل في قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]؛ لأنه شرك -علىٰ قول كما قدَّمنا-، وما دام أنه محتمِل؛ فالمؤمن يخاف أن يفعل فعلًا فلا يُغفَر له والعياذ بالله!

إذن؛ هذا يدلُّ علىٰ الخوف من الشرك، وعلىٰ أنَّ المؤمن يخاف من الشرك.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَن مَاتَ وَهُوَ يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الشرح

هذا الحديث العظيم الذي رواه البخاريُّ في «الصحيح»[1] فيه نذارة، وفيه بشارة.

وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلَّق بالنذارة؛ لأنَّ الباب في الخوف من الشِّرك.

قوله: (**عَنِ ابنِ مَسعُودٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: مَن مَاتَ**): وهذا يُخرِجُ مَن تاب، فمَن كان يدعو لله ندًّا ويدعو مع الله أحدًا ثمَّ تاب إلى الله توبةً نصوحًا، فإنَّ الله يفرح بتوبته ويقبله ويبدِّل سيِّئاته حسنات، ولا يدخل في هذا الوعيد الشديد.

قوله: (**وَهُوَ يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا**): الدُّعاء هو العبادة، والله عَزَّ وَجَلَّ نهانا عن عبادة غيره؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، فأنتم يا معاشر المؤمنين مخاطَبون بهذه الآية؛ فربُّكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ فالعبادة لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّ المساجد أماكن للعبادة، ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ فالله عَزَّ وَجَلَّ

(١) حديث (٤٤٩٧).

ينهانا، ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، «أحدًا» هنا نكرةٌ في سياق النَّفي فتعمُّ كلَّ أحدٍ من دون الله؛ الملائكة، والأنبياء، والأولياء، والصالحين، فالمؤمن إذا سمع هذه الآية يقول: سمعتُ وأطعتُ، فلا يدعو مع الله أحدًا، ولا يقول: إنَّ شيوخي يقولون، أو إنَّ آبائي يفعلون، كيف لا يسمع قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟!

فالدُّعاء هو العبادة، سواء كان دعاء العبادة مِن صلاةٍ وغيرها، أو دعاء المسألة كأن يقول العبد: اللَّهمَّ ارزقني، اللَّهمَّ أكرمني؛ ونحو ذلك.

وأمَّا سؤال النَّاس الأحياء ما يستطيعونه فهذا ليس دعاءً شرعًا؛ هذا يسمَّىٰ مسألة، ويُسمَّىٰ سؤالًا، ولا يُسمَّىٰ دعاء شرعًا، وإن سُمِّي دعاءً من جهة اللُّغة، أمَّا من جهة الشرع فلا يُسمَّىٰ دعاءً.

قوله: (نِدًّا): أي: مِثلًا، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَن دعا أحدًا دون الله فقد جعله ندًّا للهِ تعالىٰ، وجعله مِثلًا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهذا أعظمُ الظُّلم، وأخطرُ الآثام، فالله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيءٌ، وكيف يكون لله مِثلٌ والله هو الغنيُّ بذاته، والمخلوقات فقيرة إلىٰ الله بذواتها؟!

وكيف يجعل العبد لله ندًّا ومِثلًا والله هو الذي خلقه، وهو الذي رزقه، وهو الذي ربَّاه بالنعم، فما شارَكَ اللهَ أحدٌ في خلقك، ولاشارَكَ اللهَ أحدٌ في رزقك، ولا شارك اللهَ أحدٌ في الإنعام عليك، فالمنعِم عليك هو الله وحده، واللهِ لو اجتمع الخلقُ كلُّهم علىٰ أن يرزقوك نعمة النظر ساعةً واحدةً ما استطاعوا، وإنَّما الذي يُنعِم هو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وإذا كان المُنعم والمربِّي بالنِّعم هو الله ليس له ندٌّ في هذا، فلابدَّ أن يكون المعبود هو الله ليس له ندٌّ في هذا، ومَن جعل لله ندًّا فقد ظلم أعظم الظُّلم؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢]، وهذا أوَّل أَمرٍ أمرنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به في القرآن، وقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾؛ أي: وحِّدوا ﴿رَبَّكُمُ﴾، والرَّبُّ: هو الَّذي ربَّانا بالنعم؛ فهو المستحقُّ للعبادة، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأنتم تعلمون ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وأنتم تعلمون ذلك، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فخلَقكم لحكمةٍ عظيمةٍ وهي أن تتَّقوه بالتوحيد. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ هل شاركه أحدٌ؟ لا واللهِ، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ هل شاركه أحدٌ؟ لا واللهِ، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ هل شاركه أحدٌ؟ لا والله، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وهذا أوَّلُ نهيٍ في القرآن. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: كيف يستقيم أن تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون أنَّ الله هو الَّذي خلقكم وهو الَّذي رزقكم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟!

إذن؛ أعظم الظُّلم وأكبر الآثام أن تجعل لله ندًّا، ولذلك لمَّا سُئل النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَيُّ الذَّنبِ أعظَمُ؟ قَالَ: **أَن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». متفق عليه[1].

فهذا قول النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا قول آحاد النَّاس! فأعظم الذُّنوب أن تجعل

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠٠١)، ومسلمٌ (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لله ندًّا، أي: أن تجعل لله مِثلًا فتدعوه وهو خلقك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكيف تجعل له ندًّا فقيرًا ضعيفًا؟!

سبحان الله! الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ دعاة التَّوحيد هم أعظمُ البشر؛ ومع ذلك لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا. والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيِّدُنا وسيِّد الخلق وسيِّد ولد آدم أجمعين، وأفضل الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك كُسِرت رباعيتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُدمِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)؛ فما دفع عن نفسه مع شجاعته! ومات ابنُه إبراهيم بين يديه ونفسُه تقعقع(٢) فما استطاع أن يفعل له شيئًا!

هذا لنعلم أنَّ الخلق كلَّهم مفتقرون إلىٰ الله، فمن الظُّلم العظيم أن تترك الغنيَّ بذاته وتسأل الفقير بذاته.

وقد بيَّن النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الحديث العلَّة في كون الشرك أعظم الذنوب؛ وهو: أنَّ الله هو الَّذي خلقك، فكيف تجعل له ندًّا ومثيلًا ومِثلًا تدعوه من دونه؟!

ولا شَكَّ أنَّ المسلم إذا علم أنَّ مَن مات وهو يدعو لله ندًّا يدخل النَّار ولابدَّ؛ لا شكَّ أنَّه سيخاف خوفًا شديدًا من الشِّرك، ويحذر الشِّرك دائمًا.

وقد استدلَّ بعضُ أهل العلم بهذا الحديث علىٰ عذاب القبر؛ قالوا: لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يجعل بين هذا الرجل وبين دخول النَّار إلَّا الموت؛ فيدلُّ

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٢٩٠٣)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٧٣٧٧)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

هذا على عذاب القبر.

وأمَّا البشارة في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهي أنَّ: «**مَن مَاتَ وَهُوَ لَا يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، فمن مات موحِّدًا فلابدَّ أن يدخل الجنَّة؛ إمَّا ابتداء، وإمَّا انتهاء بعد تمحيصه إن كان له من الأعمال ما يستحقُّ به دخول النَّار ولم يعفُ الله عَزَّ وَجَلَّ عنه.

وهذه الجُملة الأخيرة جاءت من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: وقلتُ أنا: «**مَن مَاتَ وَهُوَ لَا يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، وجاءت مرفوعةً إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وأحسَنُ ما قيل في هذا: أنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالها أوَّلًا استنباطًا واجتهادًا، ثم سَمِعَها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن؛ مَن مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار؛ لأنَّه مشرك، والمشرك قد حَرَّم الله عليه الجنَّة، وأوجب له النار، وما للظالمين من أنصار.

❀❀❀

(١) انظر: «فتح الباري» (٣/ ١١١-١١٢).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِمُسلِمٍ عَن جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَن لَقِيَ اللهُ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ النَّارَ».

الشرح

قوله: (عَن جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَن لَقِيَ اللهَ): وهذا الَّذي يسمِّيه العلماء بـ«المُوَافاة».

فمن (**لَقِيَ اللهَ لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا**) فكان من الموحِّدين؛ (**دَخَلَ الجَنَّةَ**):

- إمَّا أن يدخلها ابتداءً بغير حساب ولا عذاب.

- وإمَّا أن يدخلها ابتداءً بعد العَرض.

- وإمَّا أن يدخلها انتهاءً بعد العذاب.

فالَّذي يمُوتُ موحِّدًا: إمَّا أن يدخل الجنَّة ابتداء بغير حساب ولا عذاب؛ وهذه المرتبة قد تقدَّم الكلام عنها.

وإمَّا أن يدخل الجنَّة ابتداءً أيضًا، لكن يسبق ذلك حسابٌ؛ وهو العرض.

وإمَّا أن يدخل الجنَّة انتهاءً؛ لأنَّه يُعذَّب قبل ذلك ثمَّ يدخل الجنَّة.

قَولُه: (وَمَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ النَّارَ): أمَّا إن كان يشرك به الشِّرك الأكبر فإنَّه يدخل النار دخول خلود، لا يخرج منها أبدًا ولا يُفتَّر عنه العذاب أبدًا -والعياذ بالله-؛ يُعذَّب بالحرِّ والزمهرير ولا يموت أبدًا.

ومَن كان يُشرك بالله الشِّرك الأصغر -كالرِّياء والطِّيَرة والحلف بغير الله-؛ فإنَّه يستحقُّ دخول النار لكنه لا يُخَلَّد فيها، وقد لا يدخل النَّار؛ إمَّا بسبب الموازنة؛ إذ تُوضَعُ أعمالُه الصالحة وأعمالُه السيِّئة في الميزان، فترجح أعماله الصالحة فيدخل الجنَّة، وإمَّا لا يدخل النَّار لعفو الله ومغفرته -علىٰ الراجح كما تقدَّم-؛ فإنَّ الرَّاجح عندنا أنَّ الشِّرك الأصغر من الذنوب الَّتي تقع تحت المشيئة؛ إن شاء الله أَخَذَ العبد بها وآخذه بها، وإن شاء عفا عنه وغفر له.

إذا عَلِمَ المُسلمُ أنَّ مَن لقي الله يُشرك به شيئًا دخل النَّار؛ فإنَّه يخاف من كلِّ الشِّرك، ويحذر الشِّرك كلَّه، ويعيش عمره متيقِّظًا؛ لأنَّه يعلم أنَّه في حربٍ مع الشيطان، والشيطان حريصٌ علىٰ أن يُلقيه في النَّار، وأعظمُ حرصه علىٰ أن يخلِّده في النَّار بالشِّرك الأكبر، فإن لم يستطع حرص علىٰ أن يُدخِله النَّار بالمعاصي.

إذن؛ المسلم يعلم أنَّه في حرب مع الشيطان، وأنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم فلا يغفل أبدًا، كيف يغفل المقاتِل عن سلاحه وعدوُّه يدور بسلاحه ليل نهار؟!

إنَّ الشيطان عدوك يجري منك مجرىٰ الدم، وهو ساعٍ مع جنوده ليل نهار لأن ينال منك بغفلة، فكيف تغفل؟! فالمؤمن دائمًا يخاف من الشرك.

ولذلك؛ من شأن المؤمن أنَّه يسأل الله دائمًا أن يثبته علىٰ التوحيد، ويستعيذ بالله من الشِّرك، ويسأل الله أن يجنِّبه الشِّرك؛ لأنَّه يخاف من الشِّرك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: الخَوفُ مِنَ الشِّركِ.

من صفات الموحِّدين ومن صفات أولياء الله الصالحين: أنَّهم يخافون من الشِّرك.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشِّركِ.

لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَخوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُمُ الشِّركُ الأَصغَرُ**»، ثمَّ فسَّره بالرِّياء.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ مِنَ الشِّركِ الأَصغَرِ.

لكنَّ العلمَاء يَقُولون: رياءُ المنافق شركٌ أكبر، ورياءُ الموحِّد شركٌ أصغر.

يعني: مَن وحَّد الله وعَبَدَه ووقع في الرِّياء أحيانًا؛ هذا رياؤه شركٌ أصغر. أمَّا المنافق -والعياذ بالله- فرياؤه شركٌ أكبر؛ لأنَّه لا يَعبُدُ الله أبدًا.

ولذلك يَقُول العلماء: «مَن غَلَبَ الرِّياء عليه فهو منافقٌ»؛ مَن كان لا يصلِّي إلَّا رياء، ولا يصوم إلَّا رياء، ولا يحجُّ إلَّا رياء، ولا يزكِّي إلَّا رياء، ولايدعو إلَّا رياء، فهذا منافقٌ -والعياذ بالله-.

أمَّا المُوَحِّد فهو عابدٌ لله، لكن قد يَضعُف أحيانًا فيقع في الرِّياء؛ فهذا الرِّياء شركٌ أصغر.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ أَخوَفُ مَا يُخَافُ مِنهُ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ.

أخوَفُ ما يُخاف علىٰ الموحِّدين: الرِّياء؛ لأنَّ الرِّياء خفيٌّ، ويوافق شهوة العبد.

فمِن شهوة العبد أنَّه يحبُّ أن يُمدَح، فإذا جاء الرِّياء وتسلَّل خفيًّا إلىٰ القلب وافق الشهوة؛ فقد يقع الإنسان في المحذور، فهو أخوَف ما يُخاف منه علىٰ الصالحين لأنَّه خفيٌّ، يدبُّ دبيبًا في القلب، ويتسلَّل تسلُّلًا إلىٰ النَّفس، ويوافق الشَّهوة الَّتي فيها.

الخَامِسَةُ: قُربُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن مَاتَ وَهُوَ يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**» فلم يجعل بينه وبين دخوله النار إلَّا الموت، والموت قريبٌ وما بعده قريبٌ. ولأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَمَن مَاتَ وَهُوَ لَا يَدعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ**» فلم يجعل بينه وبين الجنَّة سوىٰ الموت.

ولا شَكَّ أنَّ ما أمام العبد قريب، فالسَّاعة قريبة؛ قال تعالىٰ: ﴿**ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ**﴾ [القمر:١]، والحساب قريب؛ قال تعالىٰ: ﴿**ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**﴾ [الأنبياء:١]، والجنَّة قريبةٌ، والنَّار قريبةٌ؛ ليس بين العبد وبين ذلك إلَّا أن يموت، ومَن مات قامت قيامتُه. نسأل الله الجنَّة، ونعوذ بالله من النَّار.

السَّادِسَةُ: الجَمعُ بَينَهُمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

وهذا في حديث ابنِ مسعودٍ -وإن كان الشَّيخ لم يذكر الشطر الثاني- وفي

حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

السَّابِعَةُ: أَنَّ مَن لَقِيَهُ يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ النَّارَ، وَلَو كَانَ مِن أَعبَدِ النَّاسِ.

يعني: لو كان يعمل أعمالًا صالحة في الظاهر ولو كان من أشدِّ النَّاس اجتهادًا، لكن مادامَ أنَّه مشركٌ فإنَّ الله لا يقبَلُ منها شيئًا؛ بل هي مَردُودَةٌ علىٰ صاحبها، وهو خالدٌ مخلَّد في النار -والعياذ بالله-، وهذا ظاهرٌ؛ لأنَّه لم يأتِ بالشَّرط؛ وهو: التَّوحيد.

الثَّامِنَةُ: المَسأَلَةُ العَظِيمَةُ: وَهِيَ سُؤَالُ الخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبَادَةِ الأَصنَامِ.

المسألة العظيمة: هي أنَّ من صفات عباد الله تعالىٰ الموحِّدين؛ الأنبياء والأولياء، أنَّهم يسألون الله عَزَّوَجَلَّ لهم ولذرِّيَّتهم أن يُجَنِّبهم الأصنام.

وإذا كان هذا من جانب الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فمن باب أولىٰ مَن كان دونه مِن أمثالنا.

التَّاسِعَةُ: اعتِبَارُهُ بِحَالِ الأَكثَرِ؛ لِقَولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦].

علَّل ابراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سؤاله بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾؛ أي: الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، والحقيقة أنَّ الَّذي أضلَّهم هو الشيطان.

والحَظ عبارة الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعتبارُه بحال الأكثر»؛ والَّذي في الآية ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾، و«كثير» غير «الأكثر» كما يقول العلماء! فمِن أين أخذ الشَّيخ أنَّه اعتبر بحال الأكثر؟

الجَوَاب: أنَّ (كثيرًا) تحتمل أن تكون بمعنىٰ الأكثر، وأن تكون بمعنىٰ الكثير، فلمَّا دلَّت الأدلَّة الأخرىٰ علىٰ أنَّ الأكثر هم الضالُّون؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]، فعَلِم الشَّيخُ بالأدلَّة الأخرىٰ أنَّ المراد «بكثيرٍ» هنا: «أكثر»، فاندفع ما استشكله بعض الشُّراح مِن أنَّ الشيخ قال: «اعتباره بحال الأكثر»، مع أنَّ الَّذي في الآية «كثير»، فإنَّ «كثير» فُسِّرت بالأدلَّة الأخرىٰ أنَّها «الأكثر».

العَاشِرَةُ: فِيهِ تَفسِيرُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» كَمَا ذَكَرَهُ البُخَارِيُّ.

«لا إله إلا الله» ليست نُطقًا باللِّسان فقط؛ بل بالعمل بالتوحيد والسلامة من الشِّرك، هذا مقتضىٰ «لا إله إلا الله» ومعنىٰ «لا إله إلا الله».

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: فَضِيلَةُ مَن سَلِمَ مِنَ الشِّركِ.

لأنَّ مَن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنَّة؛ فهذا يدلُّ علىٰ فضيلة السلامة من الشِّرك.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ الدُّعَاءِ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَن «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

الشرح

هذا الباب -كما قلنا سابقًا- في كُليَّات التوحيد المتعلقة بما ينبغي علىٰ المؤمن تجاه التوحيد؛ حيثُ ينبغي علىٰ المؤمن:

- أن يحب التوحيد.
- وأن يحب أهل التوحيد.
- وأن يتعلَّم التوحيد علىٰ سبيل التفصيل.
- وأن يَعمَل بالتوحيد.
- وأن يَبرأ من الشرك وأهله.

وهذه يَقتَضيها ما ذكره الشيخ في «باب فضل التَّوحيد وما يُكَفِّر من الذنوب»، و«باب مَن حَقَّق التوحيد دخلَ الجنة بغير حسَاب».

- كما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد: أن يخاف من الشرك بأنواعه. وهذه تقدمت في «باب الخوف من الشرك».

- كما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد: أن يدعو إليه، وأن تُبنىٰ كل دعوة عليه؛ وهذا هو ما في هذا الباب.

لأنَّ الموحِّد إذا عرف أهمية التوحيد، وأنه حق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأنه سبيل

عزة الأمة، وأنَّ عمارة الأرض تكون به، وعَلِم ما تقدَّم من فضله؛ لابد أن يسعىٰ في نشره، ولابد أن ينقله إلىٰ غيره من الناس بحسب علمه وجهده، ولا ينجو الإنسان من الخسران إلا بهذا.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إنَّ جنس الإنسان لفي خسر إلا من استثناه الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: وحَّدوا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقاموا بحق التوحيد، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ فدعوا إلىٰ الحق ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

إذن؛ لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن لنا ما ينبغي للمؤمن تجاه التوحيد؛ ومن ذلك: الدعاء إلىٰ شهادة أن «لا إله إلا الله».

قال: (باب الدعاء): الدعاء في أصل اللغة: هو أن تستميل غيرك إلىٰ شيء بالصوت والكلام. هذا أصل الدعاء في لغة العرب كما في معجم «المقاييس»[1].

والمُرَاد بالدعاء هنَا: الدعوة، والدعوة فيها المعنىٰ اللغوي، وهو: أنك تستميل الناس إلىٰ ما تدعو إليه بالكلام، وما يحقِّق المقصود من غير الكلام كالقدوة مثلًا.

(بَابُ الدعَاءِ إِلَىٰ شَهَادةِ أَن «لَا إِلَهَ إِلَّا الله»): أعظم كلمة وأعظم كنز هو أن

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس (٢/ ٢٧٩) مادة (دعو)، ونصه: «الدَّالُ وَالعَينُ وَالحَرفُ المُعتَلُّ أَصلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ: أَن تُمِيلَ الشَّيءَ إِلَيكَ بِصَوتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنكَ».

تملك شهادة «لا إله إلا الله» مِلكًا حقيقيًّا؛ فتكون مصدِّقًا بها، ناطقًا بها، عاملًا بها مِن يقين، وبعد ذلك تُفيض علىٰ غيرك؛ فتدعو غيرك إلىٰ شهادة أن «لا إله إلا الله». تدعو مَن لم يُسلِم أصلًا إلىٰ الإسلام، وتدعو من انتسب إلىٰ الإسلام فوقع في الشرك الأكبر وهو يعلم أو لا يعلم؛ كبعض المسلمين المنتسبين إلىٰ الإسلام الذين ينذرون للقبور ويذبحون للقبور ويدعون غير الله.

وتدعو الموحدين إلىٰ الثبات علىٰ شهادة أن «لا إله إلا الله».

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ **الآيَة** [**يوسف:١٠٨**].

الشرح

الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يأمر رسولَهُ مُحمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقول هذه المقولة العظيمة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ قال بعض أهل العلم: سبيلي يعني: ديني. وقال بعض أهل العلم: يعني: دعوتي. وقال بعض أهل العلم: يعني: سُنَّتي. وقال بعض أهل العلم: يعني: مِنهَاجي وطريقي. والكل صحيحٌ.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ما هي هذه السبيل؟ ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولو لَم يَرِد في شرف الدعوة إلىٰ الله إلا هذا لكفىٰ به شرفًا؛ أنَّ محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو إلىٰ الله، الله أكبر! ما أعظم هذا الشرف!؛ أن تكون داعيًا إلىٰ الله كما كان محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو إلىٰ الله.

وكيف وقد جاء الشرف العظيم لمن يدعو إلىٰ الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣] أحسَنُ الأقوال هي قول من دعا إلىٰ الله، والذي يدعو إلىٰ الله لابد أن يكون مُوحِّدًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾: وفي هذا إشارة إلىٰ الإخلاص وبيان

الإخلاص؛ وهو أنَّ الداعية بحق الذي يستحق هذا الاسم الشريف: هو الذي يدعو إلىٰ الله؛ يعني: يدعو إلىٰ توحيد الله، وإلىٰ قال الله وقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يدعو إلىٰ نفسه.

كثير من الناس من الدعاة اليوم -من غير أن نُعَيِّن أحدًا- يدعو إلىٰ نفسه؛ بدليل أنه يبحث عمَّا يُعجِبُ الناس، الذي يُعجِب الناس ويجعل الجماهير يتقاطرون عليه يأتي به، والذي لا يعجب الناس لا يتكلم فيه ولو كانت حاجة الناس إليه أعظم الحاجات؛ لأنه لا يريد أن يُنَفِّر عنه الناس!

وكثير من الناس يَنفِرُون ممَّن يُنَبِّهُهم إلىٰ أخطائهم ويدعوهم إلىٰ التوحيد والسنة؛ لأنَّ الداعية مثل الطبيب، والطبيب الصادق أحيانًا يحتاج إلىٰ أن يُؤلِمَ المريض، وكثير من الناس لا يُحبُّ أن يذهب إلىٰ الطبيب.

الناس يريدون من الدعاة الذين يشعرونهم أنهم علىٰ خير فقط من غير أن ينبهوهم علىٰ أخطائهم، ومن غير أن يدعوهم إلىٰ التوحيد!

ولذلك الدعوة إلىٰ الله عالية وغالية؛ لأنَّ ثمنها غَالٍ، ولابد من إخلاص ومجاهدة القلب.

الداعي إلىٰ الله لا يدعو إلىٰ جماعة ولا إلىٰ حزبيات؛ وإنما يدعو إلىٰ قال الله قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: «بصيرة»؛ قال بعض أهل العلم: أي: علىٰ يقين؛ ما عندي شك. وقال بعض أهل العلم: علىٰ حق؛ لا أدعو إلىٰ باطل. وقال

بعض أهل العلم: أي: بعِلم؛ أدعو إلىٰ الله بعلم.

﴿أَنَا۠﴾: «أنا» هنا إذا قلنا: إنَّ الجملة متصلة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ تكون هنا للتأكيد؛ لأنه تقدم ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ﴾ يعني: أنا ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ فجاءت «أنا» مرة أخرىٰ للتأكيد.

وإذا قلنا ما قاله بعض العلماء وبعض المفسرين: أنَّ الآية هكذا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثم وقف ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾؛ فيكون الكلام مستأنفًا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾؛ فتكون ﴿أَنَا۠﴾ هذه جديدة.

وعلىٰ كل حال: فالمعنىٰ لا يبتعد، لأنَّا إذا قلنا ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وتنتهي هذه الجملة؛ فكل مؤمن يُحب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سيتأسىٰ بالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أنه يدعو إلىٰ الله. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ يعني: علىٰ يقين أنا ومن اتبعني.

وفي هذا أعظمُ دليلٍ علىٰ أنَّ الداعية إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينبغي ويجب عليه أن يتأسىٰ برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دعوته، فيدعو إلىٰ الله؛ لأنها جاءت علىٰ سبيل الحَصر ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ يعني: أدعو إلىٰ التوحيد.

إذن؛ كل دعوةٍ ليسَت علىٰ طريقة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خرجت عن الفَضل إلىٰ البدعة.

فيجب علىٰ الداعية إلىٰ الله أن يسير علىٰ طريقة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دعوته، أن يدعو إلىٰ الله ويجاهد نفسه في الإخلاص، ويبيِّن للناس الحقَّ ولو

بقي واحدًا، لو انصرف الناسُ أجمعون عنه فلا يغير الحق؛ بل يدعو الناس إلىٰ الحق لأنه يدعو إلىٰ الله، ولو فُصِل من عمله!

فمثلًا: إمام مسجد يدعو إلىٰ التوحيد، فقالت له الوزارة: لا، إمَّا أن تترك التوحيد هذا إلىٰ البِدَع وإمَّا نفصلك! لا يترك الدعوة إلىٰ التوحيد ولو بقي واحدًا؛ لأن هذه طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويبني دعوته علىٰ التوحيد.

أيضًا؛ أن تكون دعوتُه مُنطَلَقَة من الرحمة، فلا يدعو الناس ليتشفَّىٰ، ولا يدعو الناس ليتكبَّر، ولا يدعو الناس ليتجَبَّر، ولا يدعو الناس ليُرفَع؛ وإنما يدعو الناس من رحمة؛ يرحم الناس ولذلك يدعوهم؛ لأنَّ دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبنية علىٰ الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ولذلك؛ **علامَةُ الدَّاعية المُوَفَّق**: أن يتواضَعَ للناس وأن يرحَمَ الناس؛ لأنَّ هذا هو طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت تأتيه الجارية وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأخذه في سِكَك المدينة لحاجتها.

الداعية الذي علىٰ طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتكبر علىٰ الناس، ولا يدعوهم متكبِّرًا؛ وإنما يدعوهم راحمًا لهم، متواضعًا لهم، هذه طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن ذلك أيضًا: أن يدعو بالدَّليل، يدعو بقَال الله قال رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبيِّن ما يحتاجه الناس بالدليل.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ مُتَّبع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا وصدقًا هو الذي يحقق التوحيد، ليس متَّبعُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يزعم أنه يحب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يحقق التوحيد ويدعو غير الله ويقول: أنا أحب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! متَّبع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًّا وصدقًا هو الذي يسير علىٰ طريقته يدعو إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أُنزِّه الله عن الشِّرك وعمَّا لا يليق. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لستُ منهم وليسوا مني ولست معهم. فالمُوَحِّد يبرأ إلىٰ الله من الشِّرك ومن المشركين، ولا يكون من المشركين، ولا يكونون منه، بل يكون بريئًا من ذلك؛ لأنَّ هذه هي طريقةُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن؛ مَعَالم دَعوَة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- الدعوة إلىٰ الله؛ ورأسها التوحيد.

- وأن تكون الدعوة علىٰ بصيرة. و«البصيرة»: هي العلم الصحيح.

- وعلىٰ تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا لا يليق.

- وعلىٰ البَراءة من الشِّرك وأهله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَىٰ اليَمَنِ؛ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أَهلِ الكِتَابِ، فَليَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَىٰ أَن يُوَحِّدُوا اللهَ- فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيهِم خَمسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يومٍ وَلَيلَةٍ، فَإِن هُم أَطاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعلِمهُم أَنَّ اللهَ افتَرَضَ عَلَيهِم صَدَقَةً تُؤخَذُ مِن أَغنِيَائِهِم فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِم، فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَموَالِهِم، وَاتَّقِ دَعوَةَ المَظلُومِ، فَإِنَّهُ لَيسَ بَينَهَا وَبَينَ اللهِ حِجَابٌ». أَخرَجَاهُ.

الشرح

هذا الحديثُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيه الدعوة إلىٰ التوحيد، وأنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبعث الدعاة.

(عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعاذًا إِلَىٰ اليَمَنِ): سواء قُلنا: إنه بعثه قاضيًا أو واليًا؛ فإنه بعثه داعيًا؛ بدليل هذا الحديث.

(قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأتِي قَومًا مِن أَهلِ الكِتَابِ): وأهل الكتاب: هم اليهود والنصارىٰ. واليمن أغلب من كان فيها من أهل الكتاب، منهم يهود، وقد دخلت اليهودية اليمن قديمًا علىٰ يد الملك تُبَّع الصغير؛ وبقيت. ويوجد نصارىٰ أيضًا باليمن، وقد دخلت النصرانية اليَمَن عن طريق الحبشة. ومعلوم أنَّ الصِّلة بين اليمن والحبشة قوية جدًّا إلىٰ اليوم، فدخلت النصرانية إلىٰ اليمن عن طريق

الحبشة، وكان هناك مشركون لكن الأغلب أنهم من أهل الكتاب.

ولذلك؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِن أَهْلِ الكِتَابِ**»؛ أي: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّن له حال من سَيَدعُوهم.

وفي هذا بيانُ أنَّ الداعية إلىٰ الله إذا أراد أن يدعو ينبغي أن يعرف أحوال الناس الذين سيدعوهم؛ ما منزلتهم العلمية؟؛ لأنَّ خطاب مَن تعلَّم ليس كخطاب الجاهل، هل يفهمون اللغة العربية الفصحىٰ أو لا يفهمون اللغة العربية الفصحىٰ؟؛ لأنَّ بعض الناس اليوم في بعض بلدان المسلمين لو ذهبت إليهم تتكلم باللغة العربية الفصحىٰ ربما كان فهم الإنجليزية عنده أسهل أو الفرنسية أسهل. فتعرف حالهم لتُعطِيَهُم ما ينفعهم.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِن أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُن**»: هذا أمر؛ والأمر يقتضي الوجوب.

«**فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»: برفع كلمة (شهَادة) وإن شئتَ قلت: «**فَلْيَكُن أولُ ما تَدعُوهُم إِلَيهِ شهَادَةَ أَن لَا إِله إِلَّا اللهُ**». بنَصب كلمة (شهَادَة).

وهذه الجُملة بحثتُ عنها في كتب السنن فلم أجدها بهذا اللفظ: «**فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»! فلعلها مركبة من الروايات.

ففي روايَةٍ عند البُخَاري[1]: «**فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ أَن يُوَحِّدُوا اللهَ**».

---

(١) برقم (٧٣٧٢).

وفي رواية عند البخاري[١] ومسلم[٢]: «**فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ عِبَادَةُ اللهِ**».

وفي رواية عند البخاري[٣]: «**فَادعُهُم إِلَىٰ أَن يَشهَدُوا أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**».

وفي هذا بيان:

- أنَّ شهادة أن «لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله» تتحقق بعبادة الله وتوحيده.

- وأنَّ العبادة لا تُقبل إلا بالإخلاص الذي في شهادة «لا إله إلا الله»، وبالمتابعة التي في شهادة أنَّ «محمدًا رسول الله».

- وأنَّ أول ما يدعو إليه الداعية هو التوحيد؛ لأنَّ ما بعده لا يُقبل إلا به، ما بعد التوحيد لا يُقبل إلا بالتوحيد.

قال: «**فَإِن هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ**»: وفي رواية عند الشَّيخَين[٤]: «**فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ**»: هذا يدُلُّنا علىٰ أنَّ الذي يعرف الله هو الموحِّد، وإلا فالنصارىٰ يعرفون الله في الظاهر، ولكنهم يُشركون بالله، واليهود يعرفون الله في الظاهر، لكنهم يُشركون

---

(١) برقم (١٤٥٨).

(٢) برقم (١٩).

(٣) برقم (١٤٩٦).

(٤) البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

بالله، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ؛ فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ**» مع أنهم من أهل الكتاب، إذن؛ قَبلَ ذلك ما كانوا يعرفون الله حقًّا.

لذلك كثير من الناس اليوم لا يعرفون الله؛ لأنهم يُشركون بالله، لو عرفوا الله لَمَا أشركوا بالله، واللهِ مَن عرف الله يَستَحِي من الله أن يُفكِّر في أن يُشرِكَ به فضلًا علىٰ أن يشرِكَ به.

إذن؛ دلنا ذلك علىٰ أنَّ معرفة الله إنما هي للمُوحِّدين، ولا تكفي المعرفة بالظاهر بدون التوحيد.

قال: (فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة): فجعل الدعوة إلىٰ الصلاة تاليةً للدعوة إلىٰ التوحيد؛ لأنَّ الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، والصلاة هي العهد الذي بيننا وبين الكفار؛ فمن تَركهَا فقَد كفَر، ولا حَظَّ في الإسلام لمن تَرَك الصَّلاة، والصلاة أول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة من أعماله، ومِفتَاح الفَلَاح للموحدين يوم القيامة: الصَّلاة.

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبدُ يَومَ القِيَامَةِ مِن عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِن صَلُحَت فَقَد أَفلَحَ وَأَنجَحَ، وَإِن فَسَدَت فَقَد خَابَ وَخَسِر...**». رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

إذن؛ أول ما تدعو إليه بعد التوحيد الصلاة؛ لأنه إذا لم تصلُح الصلاة خاب العبد وخسر يوم القيامة، وإنما يفلح وينجح إذا صَلحت صلاته، فكيف يتجاوزها العبد إلىٰ غيرها؟!

يقول: لا، أنا لا أدعوهم إلىٰ الصلاة؛ أدعوهم إلىٰ الأخلاق!

الدعوة إلىٰ الأخلاق طيِّبة، لكن وضعها في هذا الموضع غير طيِّب!

يدعو إلىٰ الصلاة لأنها مفتاح الفلاح والنجاح يوم القيامة للموحدين، وإلا مفتاح الفلاح علىٰ الإطلاق شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

ومِن شأن هذه الصلوات أنها تتكرر في كل يوم وليلة، خمس صلوات في كل يوم وليلة، واستدل أهل العلم بهذا علىٰ أنَّ الوِترَ ليس واجبًا؛ لأنَّ هذا كان في آخر حياة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة العاشرة، وقيل: في التاسعة، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال: فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم ست صلوات؛ قال: خمس صلوات؛ فدل ذلك علىٰ أنَّ الوتر إلىٰ السنة العاشرة لم يكن فرضًا، فلم يكن فرضًا بعد ذلك.

«فإن هم أطاعوك لذلك»: أي: للصلاة، **«فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقة»**: والصدقة هنا: الزكاة؛ لأنها هي المفروضة، والزكاة قرينة الصلاة في الكتاب والسنة.

«تؤخَذ من أغنيائهم»: إذن الزكاة لا تؤخَذ من كل الناس، وإنما تؤخَذ من الأغنياء؛ وقد جاء تفصيل ذلك في الأدلة.

«فتردُّ علىٰ فقرائهم»: ومن هنا أخذ أهل العلم أنَّ الزكاة تُعطَىٰ لفقراء البلد، وأنَّ فقراء البلد أولىٰ بالزكاة من غيرهم؛ إلا إذا ظهرت في غيرهم مصلحة أعلىٰ.

أيضًا؛ أخذ أهل العلم من هذا أنه يجوز أن تُعطىٰ الزكاة لصنف واحد من أصناف الزكاة؛ لأنَّ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا ذكر صنفًا واحدًا وهم الفقراء؛ قال: **«وتردّ علىٰ فقرائهم»**.

«فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم»: كرائم: جمع (كريمة)، وهي الكاملة في خصالها وفي نوعها. لا تأخذ الزكاة من أكمل الأموال، فلا تأخذ الدابة السمينة العزيزة عند أهلها، وإنما خُذ من الوسط، فإياك وكرائم أموالهم عند أخذ الزكاة.

«واتَّقِ دَعوَةَ المَظلُوم»: وفي هذا إشارة إلىٰ أنه لو أخذ الكرائم لكان ظالمًا.

وهذا التحذير الشديد يُنبِّه النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه مُعاذَ بن جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو الذي كان النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: **«يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ»**[1].

ويقول عنه: **«يُحشَرُ أَمَامَ العُلَمَاءِ بِرَتوَةٍ»**[2]. يعني: بمسافة.

وهو الذي يذهبُ دَاعيَة إلىٰ الله بأمرِ رَسُول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَذهَبُ قاضيًا ويَذهَبُ وَاليًا؛ يقول له النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«واتَّقِ دَعوَةَ المَظلُومِ»**!

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٨٣).

فلا تتساهلوا في الظلم، وإياك أن تغرَّك قوتك، أو يَغُرَّك نصر أحد لك مهما كان، والله لو كان المَلِكُ ينصرك علىٰ الناس إياك أن يغرَّك ذلك فتُقدِم علىٰ الظلم، إذا نصرك شيخ وصرت قويًّا أمام طلاب العلم بهذا الشيخ اتق الله في دعوة المظلوم، لا تظلم إخوانك، لا تنسب لهم ما ليس فيهم، ولا تأمرهم بما ليس لك، ولا تُلزِمهم بما لا يَلزمهم؛ فإنَّ هذا من الظلم، واتق دعوة المظلوم مهما كنت، لا تغترَّ بقوة، والله إنَّ القوي قد يكسره الله بدعوة المظلوم.

فاتق دعوة المظلوم ولو كنت غنيًّا، واتق دعوة المظلوم ولو كنت قويًّا، واتق دعوة المظلوم ولو كنت صحيحًا، إياك والظلم، لا تحقِرَنَّ من الظلم صغيرة، الظلم ظلمات يوم القيامة.

ما لم تعلم أنَّ فِعلَكَ أو قولك عَدلٌ فإياك أن تُقدِم عليه.

والله لو اجتمع الناس وسبُّوك وشتموك لأنك لم تتكلم بكلام لكن أنت لم تعلم أنه عدل فسكتَّ؛ والله ما ضَرُّوك، والله لو عِشتَ وَحدَكَ في رأس جبل؛ لأنك اتقيتَ الظلم، والله ما ضرَّك، ولو أنك قلتَ ما تعتقد أنه ظلم -وقد لا يكون بالنسبة لغيرك ظلمًا لكن بالنسبة لك هو ظلم- لو قلته، واللهِ ما نفعك أحد.

فيجب علينا أن نخاف من الظلم، واليوم الناس أصبح عندهم جرأة علىٰ الظلم عظيمة، الرجل يَظلِمُ المرأة الضعيفة في بيته، ويظلم أولاده، طالب العلم يظلم إخوانه، وقد يصل الأمر بنا أحيانًا إلينا -نحن الشيوخ- أننا قد نظلم الطلاب، أستغفر الله وأتوب إليه.

قال: «**واتق دعوة المظلوم**»؛ لأنَّ الغالب أنَّ المظلوم يدعو.

«**فإنه ليس بينها وبين الله حجابٌ يمنعها**»: قال العلماء: المظلوم وإن كان فاسقًا ينصره الله. ترتفع دعوة المظلوم إلىٰ الله فيقول الله: «**وعزتي لأنصرنكِ ولو بعد حين**»، ليس بينها وبين الله حجاب؛ فهي مسموعة.

نعم؛ قد لا يُستَجابُ للمظلوم دعوتُه بعَينِهَا، لكن يُعطىٰ خيرًا منها، فيُصرَف عنه سوء مثلًا، أو تُدَّخر له منزلة في الجنة؛ لكنها دعوة مستجابة.

وما يدريك أنت أيها الظالم، كيف تنام وقد ظلمت وأنت تعلم أنَّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب؟!

والله لو كان في قلوبنا حياةٌ ما يُمسِي علينا الليل إلا وقد تخَلَّصنا من المظالم ما أمكننا، المظالم بالقول، والمظالم بالفعل.

«**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»: فلا تُمنَع؛ بل تُرفَع وتُسمَع، وينصُرُ الله المظلوم.

فالعدل واجب مِن كل أحد لكل أحد، والظلم حرام علىٰ كل أحد لكل أحد.

فلا يجوز لنا أن نظلم حتىٰ الكافر، وإنما نعامله بما أُذِن لنا فيه.

والفاسق لا يجوزُ أن نَظلِمَه.

والمُبتدِع لا يَجُوز أن نَظلِمَه.

فكيف بمَن كان مَعنا وعلىٰ طريقتنا؟!

كيف بمَن عرَفناه علىٰ السُّنَّة وعرفناه علىٰ التوحيد؟!

يُخطئ كما نُخطئ لكنه علىٰ استقامة؛ فكيف نظلمه؟!

نسأل الله أن يُعينَنا علىٰ العدل، وأن يكفينا شرَّ الظلم، وأن يعيننا علىٰ التخلص من المَظَالم.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يوم خَيبَرَ: «لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَاهَا؟

فَلَمَّا أَصبَحُوا، غَدَوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُم يَرجُو أَن يُعطَاهَا، فَقَالَ: «أَينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشتَكِي عَينَيهِ، قَالَ: فَأَرسِلُوا إِلَيهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَينَيهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَن لَم يَكُن بِهِ وَجَعٌ، فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ وَقَالَ: «انفُذ عَلَىٰ رِسلِكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ الإِسلَامِ، وَأَخبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِن حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَن يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن حُمرِ النَّعَمِ».

يَدُوكُونَ: أَي: يَخُوضُونَ.

الشرح

قوله: (**لَهُما**): أي: الشيخين البخاري ومسلم، فالحديث في «الصَّحِيحَين».

(**عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَومَ خَيبَرَ**): حيث حاصر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهود في خيبر، واستعصت الحصُونُ علىٰ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين أيامًا.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم من هذه الأيام: (**لأعطين الراية**): والراية ما نسميها اليوم بالعَلَم تكون مع الجيش.

قال: (لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ): الله أكبر! ما أعظم هذا المقام!؛ يُحِب الله ورسُولَه، ويحبه الله ورسوله.

والله يُحِبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نسأل الله أن نكون ممن أحبهم الله، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِب.

والجملة الأولىٰ سببٌ للجملة الثانية.

يحب الله ورسُولَه: حب الله الصادق وحب رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصادق؛ سبب لأن يحبك الله، ومن يحبه الله فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه.

ما هو الحب الصادق لله والحب الصادق لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ليس الحبُّ الصادق قَولَ الأشعار ولا القصائد؛ وإنما الحب الصادق هو الذي يثمر حُسنَ التقرب، والاتباع؛ ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

إذن؛ إذا كُنتَ صادقًا في حب الله فاتبع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أحببت الله حُبًّا دعاك إلىٰ اتباع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاتبعت؛ أحبك الله الحب الذي يدعو إلىٰ الاجتهاد في طاعة الله؛ ولذلك يقولُ الله عَزَّ وَجَلَّ في الحَديثِ القُدسِي: «...وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ...»[1].

إذن؛ حُبُّك الصادقُ لله عَزَّ وَجَلَّ، وحبك الصادق لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

علامته أن تجتهد في طاعة الله، أما الذي يعصي الله؛ فيشرب الخمر، ويزني، ولا يكاد يعبد الله إلا قليلًا، وإذا قلت له: يا رجل، أنت مسلم؟ قال: نعم، أنا أحب الله! قلنا: هذه دعوىٰ وهذا كذب؛ فإذا أحببت الله حبًّا صادقًا اقتضىٰ منك الاتباع وحُسنَ الطاعة، وأحببت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبًّا صادقًا اقتضىٰ حُسنَ اتباعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أحبَّك الله.

فهذه المنزلة ليست عصيَّة.

أن يحبك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمرُ ليس عصيًّا، ولكنه يحتاج إلىٰ إخلاص، وحسن متابعة، واجتهاد في الطاعة، إذا أخلصت لله وأحسنت متابعتك لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتهدت في طاعة الله، نِلتَ هذه المرتبة العلية؛ لكن هذه المرتبة فيها شهادة من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجل واحد.

«لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيهِ»: قال العلماء: وهذه الجملة من علامات نبوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه ذكر أنه غدًا سيفتح الحصن، فوقع هذا، وقد فتح الله الحصن في اليوم التالي علىٰ يد هذا الرجل.

قَالَ: (فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَاهَا؟): باتوا يخوضون ليلتهم في هذا الرجل، وكلهم يرجو أن يكون هو، وهذا فيه دليل علىٰ عظيم إيمان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وعظيم حُبِّهم لله عَزَّ وَجَلَّ، وحبهم لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن نيل هذه المنزلة أشغَلَهُم عن القتال والجهاد والفتح؛ لأن قلوبهم معلقة بالله.

فقد تضمَّن الحديث أمرَين:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ **غدًا سيعطي الراية لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.**

والأمر الثاني: البشارة بالفتح.

والصحابة رضي الله عنهم على يقين من الفتح لخبر رسول الله ﷺ، لكن لم يشغلهم ذلك ولم يفكروا فيه، وإنما الذي شَغَلهم هو من الذي سيُعطَى الراية، وينال هذه المزية العظيمة بشهادة رسول الله ﷺ.

(فَلَمَّا أَصبَحُوا، غَدَوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُم يَرجُو أَن يُعطَاهَا): وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا يتطاولون لرسول الله ﷺ وهم مع إخوانهم كل واحد يرفع نفسه؛ لعل النبي ﷺ يراه فيقول تعال.

حتىٰ عمر رضي الله عنه كان يتطاول بين الصحابة؛ وكان يقول: «ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم»[1]، ليس من أجل الإمارة، وإنما من أجل هذه المنزلة العلية؛ وهي شَهادة رسول الله ﷺ، وهذا دليل علىٰ حب الصحابة رضي الله عنهم لله سبحانه وتعالى؛ وحبهم لرسول الله ﷺ.

ولذلك كان حبُّ الصحابة رضي الله عنهم علامة الإيمان، فالذي يحب الصحابة أجمعين هذه علامة علىٰ إيمانه، والذي يبغض الصحابة أو يبغض واحدًا منهم، هذه علامة علىٰ النفاق.

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٢٤٠٥).

(**فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشتَكِي عَينَيهِ**): أي: أصابه رمَد، والرمد: داء يصيب العينين معروف، وأحيانًا يشتد حتىٰ يلصق أطراف العينين، فلا يستطيع الإنسان أن يفتح عينيه من شدة الرمد، وهذا معروف موجود، فعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مصابًا بالرَّمَد، وكان ذلك شديدًا عليه حتىٰ أنه كان لا يرىٰ من شدة الرمد.

فعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تخلف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خيبر، تخلف في المدينة، من أجل الرمد؛ لأنه كان لا يرىٰ، ثم لما سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أنا أتخلف عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فلام نفسه، فسار إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أرمد! فلما وصل، واجتمع الناس عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلهم يتطاول لعله أن ينال هذه الشهادة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ليس زُهدًا في هذه المنزلة؛ لكن لأنه كان أرمد لا يرىٰ، فكيف يأخذ الراية، وكيف يكون هو الذي سيفتح عليه وهو أرمد لا يرىٰ، فهو يرىٰ من نفسه أنه لايستطيع أن يسير.

(**فَقِيلَ: هُوَ يَشتَكِي عَينَيهِ، قَالَ: فَأَرسِلُوا إِلَيهِ**): أي: أمر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلوا إليه من يأتي به، فأرسل إليه سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل له: اذهب إليه وأتِ به، فذهب وأتىٰ به يقوده.

إذن؛ هو لم يَكُن يرىٰ؛ لذلك يحتاج إلىٰ من يأتي به ويَقُوده، فأُتي به إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَاد.

(**فَأُتِي بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَينَيهِ**): أي: فبصَقَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عينيه، وبُصَاق

النبي ﷺ مبارك، وكل ما انفصل عن النبي ﷺ مبارك؛ ولذلك كان الصَّحابة رضي الله عنهم يكادُون يَقتتلُونَ علىٰ وَضوء رسول الله ﷺ، يعني: البَقيَّة من الماء من وَضوء رَسُول الله ﷺ [١].

وفيهم من سَلَت عرقه ووضعه في قارورة، يتداوىٰ بها، ويداوي بها [٢].

ولما حَلَق النبيُّ ﷺ شَعرَهُ فرَّقهُ علىٰ الصحابة رضي الله عنهم [٣].

فهذا لا شَكَّ فيه ويُثبِتُه أهل السنة والجماعة، ويعتقده المؤمنون، أن ما انفصل عن النبي ﷺ فهو مبارك؛ لكن لا يوجَدُ شيء منه اليوم.

فهؤلاء الذين يقولون: عندنا شعرة من رسول الله ﷺ، أو عندنا قطعة من ثوب الرسول ﷺ كلها دعاوىٰ غير صحيحة، ولا يوجد شيء علىٰ الحقيقة اليوم من آثار النبيِّ ﷺ.

(فَبَصَقَ فِي عَينَيهِ، وَدَعَا لَهُ): فجمع له بين الأمرَين: بين الدواء الحسي، وبين الرقية والدعاء.

هنا النبي ﷺ استعمل الدواء الحِسِّي: وهو أنه بصَق في عينيه، ودعا له، وهذا هو المشروع للمؤمن؛ أن يذهب إلىٰ الطبيب، وأن يأخُذَ منه الدواء المَعرُوفَ المعتاد، وأن يستعمل الدواء، ولا ينسىٰ الدعاء والرقية.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤) ضمن حديث صُلح الحُدَيبية الطويل.

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (١٧١)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٥).

«فبرأ»: يعني: عوفي كأنه لم يُصَب بشيء، بمُجَرد أن بَصق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عينيه ودعا له برأ تمامًا؛ بل جاء أنه لم يشتكِ عينيه بعد ذلك إلىٰ أن مات. وهذه علامة من علامات نبُوَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسبحان الله! انظروا القدر وأنه كل ميسر لما جعله الله له، فعَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أول الأمر تخلف في المدينة أصلًا ولم يذهب، فشَاءَ الله أن يذهب، فذهب، وساقه الله لما يُسِّر له، وما شاءه الله له.

ثم لم يحضر المجلس الذي فيه الاختيار، فدعا به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا فيه الإيمان بالقدر مع فعل السَّبب؛ لأن الإنسان لا يدري ما المَقدُور، فيفعل السبب، مع جزمه أن ما قدَّره الله كائن، فالإنسان يفعل الأسباب الجالبة للخير، ويفعل الأسباب التي يجتنب بها الشر، مع إيمانه بالقدر؛ لأنك لا تدري ما هو المقدور؟، وهذا الأمر يُدرِكُه العقلاء.

فلو أن شخصًا في أي مكانٍ من الدنيا جاء تحت عمارة تتهدَّم وتتساقط علىٰ الأرض؛ فوقف وقال: الذي يقدره الله سيكون. ماذا سيقول العقلاء عنه؟!

سيقولون: مخبول! مَجنُون!

ولو أن شخصًا قال: أنا أحب أن يكون عندي أولاد، وكلما جلس في مجلس قال: أنا أحب أن يكون عندي أولاد، وإن شاء الله في نهاية هذه السنة يكون عندي ولد، فإذا قالوا له: أنت ما تزوجت؛ فهل أنت ستزني؟، قال: لا، وإنما المقدر كائن، وإن قدر الله يكون عندي ولد إن شاء الله وسيكون في نهاية

السنة، ولو لم أتزوج!

هذا سيذهبون به إلىٰ مستشفىٰ المَجَانين!

ففعل السبب مع الإيمان بالقدر، دَلَّ عليه الشرع والعقل، وكل سيُيَسَّر لما شاءه الله له.

ولذلك يجب علينا أن نتَنَافَسَ ولا نتحاسد؛ نتنافس: لأن التنافس هو فعل الأسباب، ولا نتحاسد؛ لأنه عند الوقوع نعلم أن ما وصل إلىٰ أخي واللهِ لن يكون لي أبدًا؛ فلا أحسده؛ ولكني أنافسه في بذل السبب.

«**فأعطاه الراية، فقال: انفد علىٰ رسلك**»: أي: بأدب وأناة، وفي هذا بيان أن المسلم يستعمل الأدب، وما يليق به في كل مكان، فإذا كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذاهبًا ليُقَاتِلَ فيَقُول له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علىٰ رسلك؛ يعني: علىٰ مَهلك؛ فكيف بالذي يذهب إلىٰ الحَج، والذي يذهبُ ليرمي الجِمَار؟!

بعض الناس تَرَاهُم وهم ذاهبون إلىٰ رمي الجمار كأنهم سيذهبون إلىٰ حرب شَعواء؛ الثوب مرفوع واليد متحفزة، والكم مشمر...!

وهذا ليس من الأدب، ولكن تسيرُ إلىٰ رَمي الجمار بأدب، وأنَاةٍ، تُكبِّر وتُهلِّل.

وكذلك وأنت ذاهب إلىٰ الصلاة، وحتىٰ لو أُقيمت الصلاة وأنت تسمعها، وأنت في خارج المسجد لا تُسرع، ولا تأتِها وأنت تسعىٰ، بل ائْتها بسكينة ووقار وأدَب.

قال العلماء: «**علىٰ رسلك**»: تتضمن ألَّا يرفع الصوت، ولا يصيح، وإنما يسير بأدب وأناة، بسكينة ووقار.

وفي رواية أن النبي ﷺ قال له: «**امشِ وَلَا تَلتَفِت**»[1]. فمشىٰ قليلًا، ثم وقف رضي الله عنه ولم يلتفت؛ ونادىٰ بصوت عالٍ: «يَا رَسُولَ الله، عَلَىٰ مَاذَا أُقَاتِلُ النَّاسَ؟».

فلم يلتفت ليَسأل؛ مع أن هذا الالتفات للسؤال؛ لأن النبي ﷺ قال له: «**امشِ وَلَا تَلتَفِت**». وهذا هو حُبُّ الصحابة الصادق للرسول ﷺ؛ حُسن الاتباع، ليس بالابتداع، ولا بالأهواء ولا المخالفات؛ بل بحُسن الاتباع.

ولما أرادَ أن يَسأل ويتعلَّم، وأن يَعرِفَ ما سيكون؛ لم يلتفت، ولم يلوِ رأسه؛ بل وقف مُتَوجِّهًا في طريقه.

«**حتىٰ تنزل بساحتهم**»: والساحة: أي: حتىٰ تصل إلىٰ قُرب الحصن، فكأن الذي بجوار الحِصن ساحة له.

«**ثم ادعهم إلىٰ الإسلام**»: يعنىٰ: ادعُهُم إلىٰ التوحيد.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن من لم يُوَحِّد الله؛ لم يُسلِم أصلًا، وإن صلىٰ وصام؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ثم ادعهم إلىٰ الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه**»: إذا دلَّ ذلك علىٰ أن الإسلام هو التوحيد، ثم يخبرهم بعد ذلك بما يجب عليهم. كما في حديث معاذ تمامًا، وفيه أن مقصود المسلم أن

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٥).

يدعو إلىٰ الله حتىٰ بالجهاد.

فهؤلاء اليهود كانوا في المدينة، وكانوا يسمعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوا ثم أجلوا إلىٰ خيبر، ومع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدعوهم، مع سَبق الدعوة إليهم، فهذا مشروع؛ لأن المقصود من الدعوة إلىٰ الله أن يدخلوا في دين الله.

«**وأخبرهم بما يجب من حق الله تعالىٰ فيه، فوالله...**»: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحتاج إلىٰ أن يُقسِم، والمُؤمن يصدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خبره؛ لكن هذا لِيُؤكِّدَ الأمر.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقسِمُ علىٰ الأمور المهمة، ولذلك يستحب للعالم في الأمور المهمة، ولا سيما التي يُنَازع فيها وهي أمور مهمة في الدِّين، أن يقسم فيقول: والله، أو والله والله والله... أو نحو ذلك، في الأمور ذات الشأن، ولا سيَّما ما يظهر فيه التقصير في الأمة مع أهميته.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم علىٰ المُهمَّات.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤمِنُ عَبدٌ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِجَارِهِ -أَو قَالَ: لِأَخِيهِ- مَا يُحِبُّ لِنَفسِه**»[١].

ويقول: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَا تدخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤمِنُوا...**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا فيه دليل علىٰ استحباب القَسَم علىٰ العلم عند الحاجة.

«فوالله لأن يهديَ الله بكَ رَجُلًا واحدًا»: رجل واحد تكون سببًا في هدايته إلىٰ الإسلام. **فاجتمعت الهدايتان**: هداية التوفيق، وهدايةُ السبب.

هداية التوفيق لله لا يَملِكُها أحد، لا الأنبياء لا الملائكة؛ ولذلك لا يُلَام أحد علىٰ هداية التوفيق.

وبعض الناس يرىٰ رجلًا عالِمًا مجتهدًا في الدعوة غير مُقَصِّر مع أبنائه، ولكن يجد أن له ابنًا فاسقًا، فيُلامُ العالِمُ علىٰ هذا، ويقولون: ابنه فاسق، ويقدح في العالِم بسَبب هذا.

وهذا خطأ؛ فهدايةُ التوفيق لا يُلام عليها أحَد؛ لأنها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فوالله لأن يَهدِيَ الله»** فهداية التوفيق بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والله تعالىٰ يَقُولُ للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾** [القصص:٥٦]. أي: إنك يا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -خيرُ مَن بَيَّن للناسِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا تهدي من تُحبُّ هدايةَ التوفيق؛ لكنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدي إلىٰ صراط مستقيم هدايةَ البيان.

(لأن يهديَ الله): وهذه هداية التوفيق.

(بك): وهذه هداية البَيَان.

فهداية البيان تقَعُ من الإنسان، فإذا بيَّن فهذه هداية البيان، أما هداية التوفيق

فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك: الداعية يدعو إلىٰ الله، بما شَرَع الله، رجاءَ أن يهدي الله عبَادَهُ:

يدعو إلىٰ الله: فلا يدعو إلىٰ نفسه.

بما شرع الله: فلا يبتدع.

رجاء أن يهدي الله من شاء من عباده: وإلا فهو لا يملك لأحدٍ شيئًا، ولو دعا ليلًا ونهارًا، لا يملك إلا هداية البيان، أما هداية التوفيق فهي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

(فَوَاللهِ لأَن يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن حُمرِ النَّعَمِ): حُمر النَّعَم: يعني: الإبل الحمراء، والإبل الحمراء هي كَنزُ العرب، وأحسن مال عند العربي هو الإبل الحمراء.

فمقصود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فوَاللهِ لأن يهدي بك الله رجلًا واحدًا فهذا خير لك من أموال الدنيا؛ لأن هذا فضل من الله ورحمة، وفضل الله ورحمته علىٰ العبد خير مما يَجمَعُه الناس.

فإذا هدىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بك رجلًا واحدًا فأنت من أغنياء الدنيا؛ لأن الذي فعلته خير لك من الأموال النفيسة.

وفي هذا الحديث بيان فضل الدعوة إلىٰ التوحيد، فلو لم تخرج من الدنيا إلا بأن هدىٰ الله بك رجلًا واحدًا إلىٰ التوحيد والسنة، لكنت من الفائزين، فكيف إذا أنعم الله عليك فاهتدىٰ بسببك رجل، أو اهتدىٰ ثلاثة، أو اهتدىٰ أربعة؟!

ولذلك المؤمن لا يقف ليَسأل: هل الدعوة واجبة عليه أو ليست واجبة عليه؟؛ بل المؤمن يبحث عن فضل الله عَزَّوَجَلَّ، وعن هذه المنزلة العظيمة، ويدعو إلىٰ الله بما يَعلَم، ولا يجوز أن يُمنع أحدٌ من أن يدعو إلىٰ الله بعِلم، يدعو بمقدار ما علم بأي حُجَّة من الحجج.

فالذين يقفون في وجه الذين يدعون إلىٰ التوحيد والسنة، ويَقُولون: لا يجوز لك حتىٰ تأتي بتزكية من العالم الفلاني!

فهذا لا يَجُوزُ لهم، فما دام أنه يدعو إلىٰ التوحيد والسنة بعِلم، ويقف عند علمه لا يجوز لك أن تقفَ في وجهه.

نعم لا يؤخذ العلم إلا من مُزَكىٰ، لكن ليس شرط التزكية أن يأخذ تزكية من معين.

فمن كان معروفًا بالتوحيد والسُّنة، ولا يُخَالف العلماء، ويدعو إلىٰ ما عَلِمَ، ويقرر ما عَلِمَ، فوالله إنه من خيرة عباد الله، ولا يحتاج إلىٰ أن يُزَكَّىٰ تزكية خاصة، فإن حصَلَت له تزكية خاصة فهذا نُور علىٰ نُور.

فالدعوة إلىٰ التوحيد والسنة شَرَفٌ عظيم يجب علينا أن نتعاون فيه، ومَن وجدناه يدعو إلىٰ التوحيد والسنة علىٰ بصيرة، بمقدار ما عَلِمَ، ولا يُعرف له مخالفة العلماء، ولا يعرف عنه طعن في العلماء؛ نُشجعه، ونقول له: استمر، وهذا الذي رأيناه من مشايخنا جميعًا الذين تعلمنا عليهم، سواء من كانوا في الجامعة أو خارج الجامعة. ومن وجدنا فيه انحرافًا عاملناه بمقدار ذلك شرعًا.

إذا تعلمت التوحيد ورأيتَ الناس غرقىٰ في الشرك، فترىٰ مَن يدعو غير الله، ويذهب إلىٰ القبور، ويستغيث بغير الله، وأنت تجلس بدم بارد تقول: ليس عندي تزكية!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرَكَ، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرك؛ عَلِّم الناس بمقدار ما عندك، ولا يجوز لأحد أن يقف في وجهك، وقِف حَيثُ عَلِمتَ، وكن سائرًا خلف العلماء، لا ترفع نفسَكَ فوقهم، ولا تتعالم أمام العلماء، وإنما تدعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ بصيرة، وهذا هو الوسط والاعتدال، وهذا الذي ندعو إليه، وهذا الذي نجاهد فيه، وهذا الذي نَصبِرُ عليه؛ رجاء أن نُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: أَنَّ الدَّعوَةَ إِلَىٰ اللهِ طَرِيقُ مَنِ اتَّبَعَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بل طريقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعوة إلىٰ الله، فالدعوة إلىٰ التوحيد طريق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطريقُ من اتبعه -كما تقدم معنا في الآية: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ أي: طريقي ومنهجي وسُنتي ودعوتي وديني. ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

الثَّانِيَةُ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ الإِخلاصِ؛ لأَنَّ كَثِيرًا ولَو دَعَا إِلَىٰ الحَقِّ فَهُوَ يَدعُو إِلَىٰ نَفسِهِ.

فالإخلاص رأسُ المال، وهو الكَنزُ في كل عبادة؛ فتنبَّه للإخلاص؛ في الصلاة، في الصوم، في الحج، في الزكاة، في الدعوة إلىٰ الله؛ لأن الشيطان حريص علىٰ إفساد الإخلاص. وتقدم معنا أن الشرك الأصغر -الرياء- خفي، يتسلل كدبيب النمل، والبعض يَدعُو إلىٰ الحق، لكن لا يدعو بحَق، قد يدعو إلىٰ التوحيد لكن بغير إخلاص؛ فلا يكون داعيًا لله ينتفع الناس بدعوته، ولكنه لا ينال خيرًا بهذه الدعوة!

فيجب علينا في دعوتنا أن نعرف أنَّا ندعو إلىٰ حق، وأن ندعو إلىٰ الله، وهذا هو الإخلاص.

لا ندعو إلىٰ أنفُسِنَا، ولا إلىٰ جماعتنا، ولا إلىٰ شيوخنا، بل ندعو الىٰ الله، وينتفع

بالحق أهل الحق، وتكون دعوتنا إلىٰ الحق بحَق؛ فلنلتزم سبيل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وألَّا ندعو إلىٰ الله ببدعة، ولا بما يخالف طريق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ البَصِيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

فالداعيةُ إلىٰ الله يجب أن يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة؛ لأن الذي يدعو علىٰ غير بصيرة إما أن يَضِلَّ، وإما أن يُضِل، وإما أن يُبعِدَ الحقَّ عن الناس.

إما أن يَضِل في نفسه، وإما أن يُضل غيره، وإما أن يبعد الحق عن الناس؛ لأنه دعا بغير علم، فإذا قام يتكلم عن التوحيد بغير علم وأخذ يَسُب الناس: أنتم مشركون! أنتم أولىٰ بالنار من كفار قريش!

هذا يُنَفِّر الناسَ من الحق، وينفر الناس منه، وينفر الناس من أمثاله، فإذا جاء داعية يدعو إلىٰ التوحيد علىٰ بصيرة، فإنه إذا ما بدأ يتكلم عن التوحيد يَهرُبون من المسجد؛ لأنهم يتذَكَّرون ذاك المُنَفِّر الأول!

لكن الداعية علىٰ بصيرة يُحَقق المقصود شرعًا.

وما الدليل علىٰ أن البصيرة فريضة، كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؟

الدليل: أن الله عَزَّ وَجَلَّ قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾، فهذه وقعت موقع الشرط، فشَرطُ الدعوة إلىٰ الله: البصيرة، والدعوة إلىٰ الله في الجُملة واجبة، فشَرطُها واجب، ووسيلتها واجبة وفريضة.

الرَّابِعَةُ: مِن دَلائِلِ حُسنِ التَّوحِيدِ: كَونُهُ تَنزِيهًا للهِ تَعالَىٰ عَنِ المَسَبَّةِ.

فالتوحيد كُله حسنٌ في ذاته، حسن في أثره علىٰ الفرد والأمة.

والموحِّد أكثر الناس طمأنينة في الدنيا، والأمة لو وحَّدت لكانت أقوىٰ الأمم، وكيف لا يكون التوحيدُ حسنًا وهو حق ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

ومن حُسنه أن في التوحيد تنزيهَ الله عن المسبَّة؛ لأن الموحد يقول بلسانه: لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، وبعمله يُحقق ذلك، ويقول: سبحان الله.

وتنزيه الله عن المسبَّة من أعظم الأعمال الصالحة، ولذلك لو علمنا أن سَبَّنا لآلهة الكفار التي تستحق السبَّ يترتب عليه سبُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حَرُم علينا أن نسبَّ آلهة الكفار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨].

ومن آلهة الكفار ما لا يستحق السب، كعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يعبُدُه بعض الناس وهم كفار، فعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا نَسُبه، الملائكة يَعبُدهم بعض الناس، فهم آلهة من دون الله لبعض الناس، لكن لا نَسُبُّهم.

فسَبُّ آلهة الكفار التي تستحق السب مشروع، لكن إذا علمنا أنَّا إذا سببنا آلهة الكفار سَبُّوا ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه لا يجوز أن نَسُب آلهة الكفار؛ بل نُقَرر التوحيد ونقرر البراءة من الشرك وأهله، لكن لا نسب آلهة الكفار.

كذلك لو علمنا أن سبنا لدين غيرنا سيترتب عليه سب نبينا وسب ديننا يقينًا أو غلبة ظن؛ فإنَّا لا نَسُب دين غيرنا، بل نُقَرر ديننا، ونُقَرر التوحيد، ونقرر الحق، ونقرر أن غير الإسلام باطل، لكن لا نَسُب السبَّ الذي يترتب عليه سب قرآننا وسب ديننا وسب نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من أصول ديننا العظيمة؛ تنزيه الله

عن المسبة لا بالفعل ولا بالتسبب، وتنزيه دين الله عن المسبة، وتنزيه نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المسبة.

الخَامِسَةُ: أَنَّ مِن قُبحِ الشِّركِ كَونُهُ مَسَبَّةً للهِ.

فأكبر السبِّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: الشِّرك، وبعض الناس لو سمع رجلًا يَسُب الدين يستقبح هذا، وهو قبيح جدًّا بلا شك، ولكنه يذهب للقبر ويذبح للقبر، وهذا الذي يفعله أعظم سبًّا لله من سب ذاك؛ لأن الشرك بالله أعظم السب.

فأعظم السبِّ وأعظم الإثم أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك!

فمما يدلُّك علىٰ قُبح الشرك: أن فيه سبَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسيأتينا -إن شاء الله- بيان أن الإنسان الذي يأتي إلىٰ صاحب القبر ويقول: يا سيدي فلان المدد، يا سيدي فلان الولد، أن هذا في الحقيقة يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يُسيء الظن بالله، ويجعل الله كبعض خَلقِهِ الذين يحتاجُونَ إلىٰ الوسَائط، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾: والذي يحتاجُ إلىٰ وسيط هو البعيدُ الذي يحتاج إلىٰ مَن يُوصِل إليه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريب سميع مُجيب.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾: ما من موحد يدعو الله إلا ويجيب الله دعاءه بما فيه خيره.

والله عَزَّوَجَلَّ يُجيب دعوة كل داعٍ مُوحِّد؛ فلا يحتاج إلىٰ واسطة، فالذين

يتخذون وسائط بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويقولون: هؤلاء المقبورون أولياؤنا، وهم واسطة بيننا وبين الله، وهم فقط وسيلة! وهؤلاء يسبون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظم السب؛ لأنهم يَرُدُّون قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويكذبون قول الله عَزَّوَجَلَّ، ويشركون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسيأتي مزيد بيان لهذا -إن شاء الله-.

السَّادِسَةُ -وَهِيَ مِن أَهَمِّهَا-: إِبعَادُ المُسلِمِ عَنِ المُشركِينَ لا يَصِيرَ مِنهُم، وَلَو لَم يُشرِك.

المشرك داءٌ مُعدٍ، والموحِّد لا يكون من المشركين؛ بل يبرأ إلىٰ الله من الشرك ومن أهله.

السَّابِعَةُ: كَونُ التَّوحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

وذلك لأن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر معاذًا أن تكون دعوتُه مبنيَّة علىٰ التوحيد، فأول ما يدعوهم إليه أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فَلَم يوجب عليهم النظر، ولم يوجب عليهم الشك، وإنمَا أوجَبَ عليهم أن يَشهَدُوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فأول واجب وأعظم واجب هو التوحيد.

الثَّامِنَةُ: أَن يَبدَأَ بِهِ قَبلَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّىٰ الصَّلاة.

وذلك كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ مَعنَىٰ: «أَن يُوَحِّدُوا اللهَ»؛ هُوَ مَعنَىٰ شَهَادَةِ: أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فشهادة «لا إله إلا الله» معناها التوحيد، كما سيأتينا إن شاء الله، وقد قدمنا

في شرح الحديث ما يَدُل علىٰ هذا من اختلاف الألفاظ.

العَاشِرَةُ: أَنَّ الإنسَانَ قَد يَكُونُ مِن أَهلِ الكِتَابِ وَهوَ لا يَعرِفُهَا، أَو يَعرِفُهَا وَلا يَعمَلُ بِهَا.

بمعنىٰ أن الإنسان قد يجهَلُ معنىٰ «لا إله إلا الله» مع أنه يُرَدِّدُهَا ليلًا ونهارًا، بل قد يقول «لا إله إلا الله» وهو لا يُحَقِّقُها؛ فبعضُ الناس يأتي عند القبر يلتمسُ الرزقَ والولد والخير من صاحب القبر وهو يقول «لا إله إلا الله»، فهؤلاء اليهود والنَّصارىٰ في اليمن ما كانوا يعرفون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ**» مع أنهم عندهم شيء من الكتاب؛ لأن من لم يُوحِّد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لم يعرفه حقيقة، وإن عرفه ظاهرًا أو باللفظ، فلابد من التوحيد؛ لِمَا تقدم في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ التَّعلِيمِ بِالتَّدرِيجِ.

وهذا من أهم ما يكون؛ فالتعليم بالتدرج هو سبب لإيصال الحق إلىٰ الناس؛ لأنك لو أتيت الناس بالشيء جُملة واحدة فقد يثقل عليهم، لكن لو درَّجتَهُم فأتيتهم بالأول الأهم ثم المُهم ثم المهم؛ فإنهم يقبلون ذلك.

وهذا أيضًا مهم في تعليم الأبناء؛ ينبغي أن نعلم الأبناء بالتدرج، نعلمهم بالترغيب، ثم ننتقل إلىٰ ما بعده: «**مُرُوا أَولَادكُم بِالصَّلَاةِ وَهُم أَبنَاءُ سَبعِ سِنِينَ، وَاضرِبُوهُم عَلَيهَا وَهُم أَبنَاءُ عَشرٍ، وَفَرِّقُوا بَينَهُم فِي المَضَاجِع**»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فإذا بلغ الطفلُ سبعَ سِنين مُره بالترغيب، والترغيب يكون إجمالًا وتفصيلًا فتقول له مثلًا: الذي يحب الله يُحِبه الله ويدخله الجنة، والصلاة يحبها الله والله يحب المُصَلِّين، ثم تأمُره بالصلاة، وتتدرج معه ثلاث سنين وأنت ترغب بلا نَهر ولا كَهر ولا ضرب ولا شيء، فإذا بلغ عشر سنين تنتقل إلىٰ الوسيلة الأخرىٰ التي هي الضرب.

وكذلك في التعليم تبدأ بأن تعلمه التوحيد بما يناسب سِنَّه، ثم تعلمه الصلاة، ولا تشغله بشيء آخر إن كان لا يستطيع، ابن سبع سنين إذا كان الصوم يشق عليه وينفر منه أو يجعله يستثقل الصلاة لا تأمره بالصيام، مُره بالصلاة إلىٰ أن ترىٰ أن الصلاة قد استقَرَّت في نَفسِهِ، ثم مُره بالصوم إذا كان يطيق، وهكذا.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: البَدَاءَةُ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ.

يعني: أن المشروع للمسلم دعوةً وعملًا أن يبدأ بالأهم فالمهم؛ يعني: الذي دونه في الأهمية وذلك عند التعارض، وهذه قاعدة عند أهل العلم: إذا تعارضت المصالح قُدِّم أعلاها.

فلو تعارض عندك أداء الفرض مع أداء النافلة؛ إذا جئت إلىٰ صلاة الفجر فدخلت المسجد فأقيمت الصلاة، وتعارض عندك هنا أن تصلي السنة الراتبة وأن تصلي الفرض، فهنا يجب أن تقدم الفرض وتُصَلي الفرض، ولا يَجُوز أن تشتغل بالنفل وقد أقيمت الصلاة.

وإذا تعارض عندك طاعة والدك مع نافلة، فإنك تقدم طاعة والدك؛ لأن طاعة والدك هي الأهم، وهي المصلحة العليا.

إذن؛ من القواعد الشرعية الشريفة أن المسلم في عمله يبدأ بالأهم فالمهم عند التعارض، وفي دعوته يبدأ بالمهم فالأهم ولا يعكس؛ ولذلك يبدأ بالتوحيد قبل أن يدعو إلىٰ الصلاة، ويدعو إلىٰ الصلاة قبل أن يدعو إلىٰ الزكاة، وهكذا.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: مَصرِفُ الزَّكَاةِ.

وليس المقصود هنا بمصرف الزكاة أن مصرف الزكاة هو الفقراء فقط؛ ولكن مقصود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة من مسائل مصارف الزكاة، وهي أنه يجوز الزكاة إلىٰ مصرف واحد من مصارف الزكاة، فإذا كان عندك زكاة يجوز أن تجعلها في فقير أو في الفقراء فقط دون المؤلفة قلوبهم مثلًا، فالنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تؤخذ من أغنيائهم وترد علىٰ فقراءهم**»؛ فدل ذلك علىٰ أن الفقراء من مصارف الزكاة، وعلىٰ أنه يجوز أن تُعطَىٰ الزكاة لمصرف واحد، أو تُخرَج الزكاة في مصرف واحد من مصارف الزكاة الثمانية.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: كَشفُ العَالِمُ الشُّبهَةَ عَنِ المُتَعَلِّمِ.

فمن أدب العَالِم أن يرحَمَ المتعلمين، ومن أعظم الآداب وأحسن الأخلاق للعَالِم المُعلِّم للناس أن يكون رحيمًا بهم، ومن رحمة العَالِم بمَن يُعلِّمهم أن يكشف عنهم الشبهة، ويدلهم علىٰ أحسن السبل، وقد جاءت هذه الفائدة من النصوص المتقدمة من قول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب**» فبين له الحال ليستعد ويعاملهم بما ينفع إن شاء الله.

فالنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن له الحال، فالعَالِم ينبغي له أن يكشف الشبهة لمن يعلِّمه، وأن يبين له الحال، وأن يُفَصِّل له إن كان الأمر يحتاج الىٰ تفصيل، وأن

يدله علىٰ أحسَن السُّبل التي يراها ويَعلمُها أنها توصله إلىٰ جنة رب العالمين.

ولا يكون العالِمُ نَاصحًا للناس إلا إذا كان يَدُلهم علىٰ طريق الجنة، وعلىٰ طريقة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا كان غاشًّا لَهُم.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: النَّهيُ عَن كَرَائِمِ الأَموَالِ.

يعني: في أخذ الزكاة يؤخذ الوسط، فلا تؤخذ الرديئة، ولا تؤخذ الكريمة.

وكذلك في الإنفاق، ينفق الإنسان الوسط فما فوق، فإذا أردت أن تتصدق تصدق بالوسط فما فوق؛ لأن بعض الناس إذا أراد أن يتصدق يبحث عن الشيء الذي لا يحتاجه أو عن الشيء الرديء، كمن يأتي إلىٰ الأُرز الذي لا يؤكل مثلًا ويتصدق به، نعم هذه صَدَقة، لكن ليست من خير الصَّدَقات، فخَيرُ الصدقات أن الإنسان يتصدق من الوسط فما فوق، وتكمل الصدقة إذا كان الإنسان ينفق مما يحب.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: اتِّقَاءُ دَعوَةِ المَظلُومِ.

وقد تقدم الكلام عن هذا بما فيه الكفاية.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: الإِخبَارُ بِأَنَّهَا لا تُحجَبُ.

فدعوة المظلوم تُرفَع وتُسمَع، وقد تكلمنا عن هذا.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: مِن أَدِلَّةِ التَّوحِيدِ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ سَيِّدِ المُرسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَولِيَاءِ مِنَ المَشَقَّةِ وَالجُوعِ والوَبَاءِ.

فمن أدلة التوحيد العظيمة ما جرىٰ علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المَشَاقِّ

والتعب؛ فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسافر للغزو ويسافر معه أصحابُه، ومنهم من يمشي ولا يجد ما يَحمِلُهم عليه، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصابه الرمد في عينه، وذهب وهو أرمد لا يكاد يرىٰ، أو لا يرىٰ من شدة الرمد.

السؤال: كيف يَدُل هذا علىٰ التوحيد؟

الجواب: هذا يَدُل علىٰ أنهم فقراء إلىٰ الله؛ ولا يَملِكُون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فإذا كان هؤلاء السادة، وهؤلاء الأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فمن باب أولىٰ مَن دُونَهُم، فلا يستحقون أن يُعبَدُوا ولا أن يُدعوا؛ فالذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه كيف يدفع عن غيره؟! فلا يدعون من دون الله.

وقد تقدم معنا كيف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتت بناته، ومات ابنه إبراهيم بين يديه وهو يقعقع ما استطاع أن يرد الموت عنه، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد ولد آدم أجمعين؛ بل أفضل الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقير إلىٰ الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الغني بذاته، ولا شك أن هذا يَدُل علىٰ (التَّوحيد).

فالله عَزَّ وَجَلَّ هو المستحق للعبادة علىٰ الاطلاق.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: قَولُهُ: «لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ..» إلخ عَلَمٌ مِن أَعلامِ النُّبُوَّةِ.

وذلك كما تقدم معنا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه**»، فأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه في الغد ستفتح الحصون، وقد وقع كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لا يكون إلا من وحي؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَعلمُ الغيب، إلا إذا أوحىٰ الله إليه.

العِشرُونَ: تَفلُهُ فِي عَينَيهِ عَلَمٌ مِن أَعلامِهَا أَيضًا.

كون النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تَفَلَ في عينَي عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فبرأتا فورًا، ولم يشتكِ منهما إلىٰ أن مات، هذا علم من أعلام نبوة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فإنه لا يقع إلا للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وذلك بشهادة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ له أنه يُحِب اللهَ ورسُولَه، ويحبه اللهُ ورسُوله، والمؤمنون يحبون عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، ويُحِبون من يُحبه عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، ويحبون من يُحِب عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وعليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يُحبُّ أبا بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ويحب عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فالمؤمنون يحبون صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أما المنافقون المُتَستِّرون فإنهم يَغلُون في علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ويُكَفِّرون صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ!

الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ: فَضلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوكِهِم تِلكَ اللَّيلَةَ، وَشُغلِهِم عَن بِشَارَةِ الفَتحِ.

فمِن فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ أنهم اشتغلوا عن البشارة بالفتح، وما يقع في الدنيا، بأمر أعظم؛ وهو ما يتعلق بخَبَر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن الرجل الذي سيأخذ الراية يحب اللهَ ورسُولَه، ويحبُّه اللهُ ورَسُولُه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

الثَّالِثَةُ وَالعِشرُونَ: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ لِحُصُولِهَا لِمَن لَم يَسعَ لَهَا، وَمَنعِهَا عَمَّن سَعَىٰ.

الإيمان بالقدر؛ وأن ما شاء الله كان، ولو اجتمع الخلق أجمعون ليَمنَعُوه،

وأن ما لم يشأ لم يكن، ولو اجتمع الخلق أجمعون ليوقعوه.

فهنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كما تقدَّم- تخَلَّف في المدينة من أجل الرمد، ثم ساقه الله، وقال: أنا أتخَلفُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

فذهب وكان أرمَد لا يرىٰ، فجَلسَ في خيمته، فدعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحصلت لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أنه لم يَسعَ، ولم تقع للصحابة الذين كانوا يتطاولون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا يقطَعُ الحسد من أصله؛ لأنك تعلم وتُوقِنُ إن الذي وَصَلَ إلىٰ أخيك ليس لك أبدًا وما كان لك ولن يكون، بل هو لأخيك؛ فكيف تحسده؟!

وأبخل البُخلاء الذي يبخل بما لا يُؤخَذُ منه، وليس هو الذي يُعطيه، وما ليس له أصلًا، فيبخل به علىٰ إخوانه ويَحسُد إخوانه!

النعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الخير الذي أخذه أخي هذا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولست أنا الذي أعطيته، ولا أُخذ مني، والذي وصل إلىٰ أخي ليس لي يقينًا، فكيف أبخل به علىٰ أخي وأحسُده؟!

فالإيمان بالقدر هو علامة السعادة، ولو آمن الناسُ بالقدر حقَّ الإيمان كما جاء في الكتاب والسنة؛ لَمَا شَقِيَ أحد؛ لأن الإنسان إذا آمن بالقدر يفعل السبب ولا يعلق قلبه بالسبب، ولا يحزن علىٰ ما فاته؛ لأنه يعلم أنه لن يُصِيبَهُ، ولا يحزن حزنًا يُقعِدُه -وأما الحزن الطبعي فهذا شيء آخَر- إذا أصابته مصيبة؛ لأنه يعلم أنه لا يمكن أن ينجو منها إذا وقعت، فلابد من وقوع القدر وعلامته أن يقع.

الرَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: الأَدَبُ فِي قَولِهِ: «عَلَىٰ رِسلِكَ».

والمسلم دائمًا يتأدَّب في كل أحواله؛ وقد ذكرتُ فيما تقدم هذه الفائدة فيما يتعلق بالحج، وما يحدث فيه من تدافع وتقاتل ومُضَايقَات من بعض الحَجيج!

الخَامِسَةُ وَالعِشرُونَ: الدَّعوَةُ إِلَىٰ الإسلامِ قَبلَ القِتَالِ.

وهذا واجب إذا كان المُقَاتَلُون لم يُدعَوا قبل ذلك؛ فإنهم يُدعَون إلىٰ الإسلام، فإن أجابوا لم يَجُز قتالُهم.

السَّادِسَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُ مَشرُوعٌ لِمَن دُعُوا قَبلَ ذَلِكَ وَقُوتِلُوا.

مشروعٌ وليس واجبًا؛ يعني: أنه يُستَحب إذا أردنا أن نقاتل قومًا قد دُعُوا قبلُ إلىٰ الإسلام فأبوا أن ندعوهم مرة أخرىٰ؛ فلعَلَّ الله أن يفتح قلوبهم، ونُكفَىٰ شر القتال، لكن هذا مستحب وليس واجبًا؛ والدليل علىٰ ذلك أن اليهود كانوا قد دُعوا إلىٰ الإسلام في المدينة قبل إجلائهم إلىٰ خيبر، ومع ذلك أمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن يَدعُوَهُم إلىٰ الإسلام.

السَّابِعَةُ وَالعِشرُونَ: الدَّعوَةُ إلىٰ اللهِ بِالحِكمَةِ، لِقَولِهِ: «أَخبِرهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم».

فالدعوة بالحكمة هذا أصل من أصول الدعوة، وأن الإنسان يدعو الناس بحِكمَة؛ ومن ذلك أن يخبر الناس خبرًا بما يجب عليهم؛ لأن الترفع علىٰ الناس أثناء الدعوة يُنَفِّرهم من قَبُول الحق، أما إذا كان علىٰ هيئة المُخبِر لهم فإن هذا يُقَرِّب قلوبَهُم إلىٰ الداعي.

الثَّامِنَةُ وَالعِشرُونَ: المَعرِفَةُ بِحَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الإِسلَامِ.

وأن لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حقًّا في الإسلام، فمَن وَحَّد الله، لا يعتمد علىٰ مجرد توحيده، بل يجتهد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيفعل الواجبات، ويترك المحرمات، ويكثر من المستحبات، ويترك المَكرُوهات.

التَّاسِعَةُ وَالعِشرُونَ: ثَوَابُ مَنِ اهتَدَىٰ عَلَىٰ يَدَيهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

وقد قُلنا: إن هداية رجل واحد إلىٰ الإسلام خيرٌ للمسلم من كنوز الأرض.

الثَّلاثُونَ: الحَلِفُ عَلَىٰ الفُتيَا.

وقلنا: إن الحلف علىٰ الأمور المهمة من السُّنة، وذلك من أجل تَوكِيدِهِ للناس، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان يَحلِفُ علىٰ الأمور ذات الشأن كما تقَدَّم.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ تَفسِيرِ التَّوحِيدِ، وَشَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

الشرح

لمَّا فَرَغ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من الأبواب التي تتعلق بكليات التوحيد، وفيها بيان ما ينبغي علىٰ المؤمن تجاه التوحيد، وهو أن يُحبَّه ويُحبَّ أهله، وأن يتعلمه وأن يعمل به، وأن يسلم مما يَنقُضه أو يُنقِصُه، وأن يبرأ مما يُعبَد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن المشركين لشِركِهم، وأن يدعو إليه وأن يصبر عليه، وأن يعلق قلبه بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن يخاف من الشرك بأنواعه؛ شرع هنا في بيان التوحيد، وبيان ما يُضَاده علىٰ سبيل الإجمال والتفصيل.

ففي هذا الباب بَيَّن معنىٰ التوحيد إجمالًا، ثم في الأبواب التالية إلىٰ آخر الكتاب بيَانُ التوحيد وبيان ما يُضَاده.

ومعنىٰ التوحيد قد تقدم معنَا وبيناه أثناء الكلام، لكنه هناك مَرَّ تبعًا ولم يَمُرَّ مقصودًا في الأبواب السابقة، أما هنا فهو مَقصُود؛ ولذلك ليس صحيحًا أن هذا الباب مُكرَّر؛ بل هذا الباب باب تأسيس؛ لأن فيه بيان معنىٰ التوحيد قصدًا، أما الذي مَرَّ فهو تَبَعٌ للأبواب التي تقدمت معنا.

قال: (باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله): التفسير: من الفَسر، وهو الكشف؛ أي: باب الكشف والبيان عن معنىٰ التوحيد.

والتوحيدُ هو شهادة أن «لا إله إلا الله»؛ لذلك يقول العلماء: هذا من باب

عطف المترادفات، فمعنىٰ الباب: باب كشف وبيان معنىٰ التوحيد، وأن التوحيد هو معنىٰ شهادة أن «لا إله إلا الله».

وقال بعضُ أهل العلم: هذا من باب عطف المُفسَّر علىٰ المُفسَّر به.

فيقولون: شهادة أن «لا إله إلا الله» مفسرة بالتوحيد، فهذا من باب عطف المفسر الذي هو شهادة أن «لا إله إلا الله» علىٰ المفسر به وهو التوحيد.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الآيَةَ [الإسراء:٥٧].

الشرح

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ قال: قُل للمشركين: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧].

وهذه الآية أصل يقوم عليه التوحيد؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غني بذَاتِهِ، وأن ما سِوَاه فقير بذاته.

والفقير مُحتَاج إلىٰ الغني، فمُستَحق العبادة هو الله الغني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومَن دونه لا يستحقون أن يُعبَدُوا أبدًا.

وقد رأىٰ بعض السلف أن هذه الآيَةَ في الذين كانوا يعبدون الملائكة، ورَأىٰ بعضُ السلف أنها في الذين كانوا يعبدون عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورأىٰ بعض السلف أنها في الذين كانوا يَعبُدون عُزيرًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورأىٰ بعض السلف أنها في قوم كانوا يعبدون جنًّا قد أسلموا[١].

وقد ذكر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن هذا هو سبب نزول الآية.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٦٢٦-٦٣١).

فقد روىٰ الشيخان -البُخاريُّ ومُسلمٌ-: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في هذه الآية: «كَانَ نَفَرٌ مِنَ الإِنسِ يَعبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ، فَأَسلَمَ النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ وَاستَمسَكَ الإِنسُ بِعِبَادَتِهِم، فَنَزَلَت»[1].

فمعنىٰ الآية: يقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل للمشركين الذين يعبدون الملائكة، أو يعبدون عيسىٰ، أو يعبدون عُزيرًا، أو يعبدون الجن المؤمنين، ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله عَزَّوَجَلَّ، و(**مِن دُونِ اللهِ**) **تعني معنيَين**:

- أي: يُعبَدُون من دون الله هم فقط.

- أو: يُعبَدُون مع الله.

وكلاهما مقصود، سواء عُبِدَت الملائكة فقط، أو عُبِدَت الملائكةُ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وسَوَاء عُبِدَ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط، أو عُبِدَ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الله.

فقل لهؤلاء المشركين علىٰ اختلاف أصنافهم: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله عَزَّوَجَلَّ أن يكشفوا الضُّرَّ عنكم، أو ألَّا يُصيبَكُم الضر!

فأنتم يصيبكم الجُوع، ويصيبكم العَطَش، ويُصيبكم المرَض، فادعوا هؤلاء الآلهة الذين تزعمون أنهم آلهة -والزعم مطية الكذب- أن يكشفوا الضر عنكم، أو أن يُحَولوه عنكم إلىٰ غيركم، أو عن مكانكم إلىٰ مكان آخر، فإن الله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠).

قادر علىٰ هذا، الذي يُعبَدُ قادر علىٰ هذا، فلو كانوا آلهة لكانُوا قَادِرين، لكنهم لن يستطيعوا، وهذا يَدُل علىٰ عجزهم عن نَفع غيرهم، وهذا يُدرِكُه المشركون في ذلك الزمان.

والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قَدِمَ المدينة وجد فيها حمىٰ شديدة، فدعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينقلها إلىٰ الجحفة، فنقلها الله عَزَّ وَجَلَّ إلىٰ الجحفة(١).

وقد كان المشركون في ذلك الزمان إذا ركبوا في الفُلكِ، وخافوا الضر، دعوا الله مُخلِصِينَ له الدين، وإذا رجعوا إلىٰ البر وسَلِمُوا، أشركوا بالله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُقيمُ عليهم الحُجَّة.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أولئك الذين يَدعُون ويزعمون أنهم آلهة يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة؛ يعني: يبتغون إلىٰ ربهم القربىٰ بطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورأس الطاعة التوحيد، ويتسابقون إلىٰ القرب من الله، ويَرجُون جنة الله، ويخافون عذاب الله، فهم فقراء إلىٰ الله، ولا يَملكُون أن ينفعوا غيرهم، ولا يملكون أن ينفعوا أنفسهم من دون الله، ولذلك يتقربون إلىٰ الله، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، فهم فقراء في ذاتهم، لا يستطيعون نَفعَ أنفسهم، وإذا كانوا لا يملكون نفع غيرهم، ولا يملكون نفع أنفسهم؛ فإنهم لا يستحقون أن يُعبَدُوا من دون الله عَزَّ وَجَلَّ،

---

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ وَبِيئَةٌ، فَاشْتَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ، وَاشْتَكَىٰ بِلَالٌ، فَلَمَّا رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكْوَىٰ أَصْحَابِهِ، قَالَ: **اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَحَوِّلْ حُمَّاهَا إِلَىٰ الْجُحْفَةِ**». أخرجه البخاري (١٨٨٩)، ومسلم (١٣٧٦) واللفظ له.

وإنما يُعبَد الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يُفيد السامعَ ثلاثَ فوائد كلها تُحقق مقصودَ البَاب:

الفائدة الأولىٰ: أن الله هو الغني بذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ وجميع المخلوقين فقراء إليه بذواتهم، وهذا يوجب -شرعًا وعقلًا- أن يوحد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن يُعلَّق القلب بالغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن تكون الرغبَةُ إليه، والرهبَةُ منه.

الفائدة الثانية: أنك أنت أيها المخاطب الآن، والذي تسمع هذه الآية، إنك فقير إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كأولئك؛ كالملائكة، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعزير عَلَيْهِ السَّلَامُ، والجن الذين آمنوا في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنت فقير إلىٰ الله مثلهم، فكن مثلهم موحدًا لله، طائعًا لله، معلقًا قلبك بالله، راجيًا جنَّةَ الله، خائفًا من عذاب الله، رغبتك إلىٰ الله، ورهبتك من الله؛ لأنك فقير مثلهم؛ بل أنت أشد فقرًا .

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة:٣٥]. فخاطَبَ المؤمنين أن يبتغوا إليه الوسيلة، فما هي الوسيلة؟

هل الوسيلة أن يُعبَد غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟! لا واللهِ.

الوسيلة: أن تُوحِّد الله، وأن تطيع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال مُقَاتل بن سليمان: «وابتَغُوا إليه الوسيلة؛ يعني: في طاعته بالعمل الصالح»[1].

---

(١) «تفسير مقاتل» (١/ ٤٧٣).

وقال قَتادةُ: «تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه»[١].

أي: ابتغوا إلىٰ الله الوسيلة بما يقربكم إليه، ويُكسِبُكم رضاه، وهو ما بَيَّنه لكم في القرآن، وفي سنة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأمَّا اتخاذُ أُنَاسٍ يُدعَون من دون الله بحجة أنهم الوسيلة، ويقولون: هؤلاء سادتنا، ووسيلتُنا إلىٰ ربنا، وهؤلاء وسائط يقربوننا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهذا مُنَافٍ للتوحيد الذي أُمِرنا به، وهو مِنَ الشِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ الذي عابه علىٰ المشركين.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يَقبَلُ من الدِّين إلا ما كان له خالصًا، لا يُشرَكُ معه أحد.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ يعني: هؤلاء الذين أشركوا يقولون: ما نعبدهم إلا أنَّهم وسيلة، إلا أنَّهم وسائط بيننا وبين الله .سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

وفي اتخاذ الوسائل من الرجال يُدعَون من دون الله -كما قلنا-: إساءة ظن بالله، وتشبيه لله بِخَلقه الذين يَحتاجُونَ إلىٰ مَن يرفع حاجاتِ الناس إليهم، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قطَعَ كل هذا وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٠٤).

دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

فهذا الذي يذهب إلىٰ القبور ويسأل أصحابها من دون الله، ممَّن يسميهم بالأولياء، نقول له: ألست مُصدِّقًا قول الله عَزَّوَجَلَّ الذي يقول لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾، فليس بعيدًا تحتاج معه إلىٰ غيره، ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ فهو جواد كريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجيب دعوة الداعي، فلا يحتاج إلىٰ وسطاء.

فآمِن بقَولِ الله، واتَّبِع قَولَ الله، تُوحِّد وتُسلِم.

الفائدة الثالثة: أن توحيد الله إنما يكون بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه، فهذا تفسير للتوحيد؛ لأن الله في أول الآية بيَّن لهم أن عبادة ما سواه باطلة، فيجب تركها، وبَيَّن لهم أن الملائكة والأنبياء تَعبُدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالتوحيد: هو عبَادة الله، وتَرك عبادة ما سواه.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ **الآيَةَ** [الزُّخرف:٢٦-٢٧].

الشرح

هذه الآية فيها تفسير «لا إله إلا الله»، وهي تفسير عمليٌّ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦].

يعني: استمسك بـ «لا إله إلا الله»؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هنا كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الذين يعبدون الأصنام ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ وأصل البراءة: التخلي، والمقصود بها هنا: الكفر، ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ مِن كل مَن تعبدونه أو مَا تعبدونه ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فاستثنىٰ المعبود الحق، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبين أنه هو المستحق للعبادة؛ لأنه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أي: خلقني وأوجدني من غير مثال سابق، لن يستطيع أحد أن يفعل هذا، فهو المستحق للعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولابدَّ في التوحيد أيضًا من البراءة من المشركين؛ يعني: عبادة الله وترك الشرك والبراءة من المشركين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤].

والمَقصُود بالبَرَاءة من المشركين: بُغضُهم لشِركهم.

إذن؛ حتىٰ تكون موحدًا، لابدَّ أن تعبد الله وحده، ولا بد أن تَسلَمَ من الشِّرك بالله، ولابد أن تكفُرَ بما يُعبَدُ من دون الله، فلو أن إنسانًا عبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما أشرك به، لكنه لم يَكفُر بالطواغيت، لم يكفر بما عُبِدَ من دون الله، وقال: لا، أنا لا أكفُرُ بهذه الآلهة، لكن أنا لا أُشرِكُ، فهذا في الحقيقة مَا وَحَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا دخل في الإسلام.

والذي يقول: أنا أعبد الله ولا أشرك بالله، لكن لا أعيب علىٰ أحد أنه يعبد عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو يعبد عُزيرًا، أو أنه يجوز لكل واحد أن يعبد الله كما شاء، والناس أحرارٌ، كل واحد يعبد الإله الذي يُحب، هذا ما وَحَّد.

بل لابُدَّ من الكُفر بجميع المَعبُودات من دُون الله، وأن يعتقد المسلم أنه لا يجوز لأحدٍ أن يعبد غير الله، وأن يُبغِضَ المشركين لشركهم؛ لأن الذي يحب المشركين لشركهم، ولدينهم، ولانحرافهم؛ هذا ما وَحَّد وما أسلَمَ.

أما محبة المشركين لغير دينهم،فهذه مسألة أخرىٰ،لا تنقض الإسلام.

فعندما نقول: البراءة من المشركين؛ تعني: بُغضَهم لشِركهم، وعدم محبتهم لشركهم، أما محبتهم من أجل الدنيا المَحبة الطَّبعيَّة فهذه بينَّاها سابقًا. وهي لا تنقض الإسلام، والذي نقصده هنا المَحبَّة التي تنقض الإسلام.

خُلاصَةُ الأمر: أن معنىٰ البراءة من المشركين الذي هو من معنىٰ التوحيد:

أن تُبغِضَ المشرك لشركه، فتبغض المشرك لأنه مشرك، وأن تعبد الله وحده، وأن تسلم من الشرك، وأن تَكفُر بكل ما عُبِدَ من دون الله، من جهة كونه معبودًا من دون الله، وأن تبرأ من المشركين.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِهِ تعالَىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التَّوبة:٣١].

الشرح

الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، والمقصود هنا أصالة: النصارىٰ، ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ ﴾، والأحبار: جمع (حَبر) أو (حِبر)، وهو العَالِم عند اليهود والنصارىٰ، ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ ﴾: أي: عُبَّادهم، ﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ يعني: أيضًا اتخذوا المسيح ابن مريم ربًّا من دون الله، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، إذن؛ فِعلُهم هذا ينافي التوحيد.

كيف اتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا؟

جعلوا لهم تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحلَّ الله، وأطاعوهم في ذلك، مع علمهم بأنه يُضاد حُكمَ الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لابد من الانتباه للمَعنىٰ حتىٰ لا يقع الخلط:

الذي يأتي لعَالِم من العلماء ويعتقد أن له أن يُحِل ما حرم الله، أو يحرم ما

أحل الله، فإذا قال له هذا العَالِم، الذي قد يُسمِّيه بالولي، إذا قال له: الربا حلال، وهو يعلم أن الله حرَّمه، فاعتقد أنه حلال؛ لأن هذا الشيخ قد أحله!

أو قال له هذا الشيخ: إن أكل اللحم حرام، مع علمه بأن الله أحله؛ فاعتقد أنه حرام، هذا قد اتخذه ربًّا؛ لأن الحكم لله، ويكفر بهذا ولا يكون موحدًا، ويكون مشركًا شرك الطاعة الذي يُخرِجُه من الملة.

أما إذا أطاع العَالِمَ في التحليل والتحريم معتقدًا أن هذا هو الدين، ولم يَعلَم خلاف ذلك، فهذا مشروع.

وإذا أطاع العالِمَ في التحليل والتحريم مع علمه أن الله أَحَلَّ ذاك الذي حرمه العالم، أو حرم ذلك الذي أباحه العالم شهوة، لا اعتقادًا؛ يعني: هو في نفسه يعلم أنه حرام، لكن من أجل شهوة الدنيا قال: أنا أتبع هذا العالم!

فيتعامل بالرِّبا ويعتقد في قلبه أن الربا حرام، لكن الشيخ الفلاني قال: هذه الصور من الربا حلال؛ فهو يتعامل للشهوة، أما الذي في قلبه فهو ما في الشَّرع من حُرمَة أو حِل، فهذا عاصٍ وليس كافرًا.

إذن؛ متىٰ يكون شِركُ الطاعة؟

إذا علم أن حُكمَ العَالِم خلاف حكم الله، واعتقد ما قاله العَالِم، وترك ما قاله الله؛ هذا يكون قد أشرك شرك الطاعة، وليس موحدًا.

وهذه الآيةُ سيأتي تفصيلُهَا -إن شاء الله- في بابٍ مُستَقل.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ **الآية** [البقرة:١٦٥].

الشرح

أي: أنهم اتخذوا أندادًا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنهم يحبونهم كحُبِّ الله، وهذا يُسمَّىٰ «شرك المحبة».

إذن؛ التوحيد لابد فيه من أن تُحِب الله حبًّا يغلب علىٰ كل شيء، حتىٰ علىٰ حبكَ لمُحمدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والناس في المَحبَّة علىٰ مراتب:

المرتبة الأولىٰ: ألَّا يُحِبَّ الله أصلًا، بل يُحِب شهواته ونزواته، ولا يحب الله، وهؤلاء شَوَاذ الخلق، كالمَلاحدة؛ وهم أضل من الأنعام، وأضل من الحيوانات.

والمرتبة الثانية: مَن يحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لكن يحب أحدًا من خلق الله أكثر من حُبه لله، يحب الله ويحب الولي حبًّا أكثَرَ من حبه لله، ولذلك يترك ما يريدُه الله، لِمَا يريده الولي بزعمه، وهذا مُشرِك.

والمَرتبة الثالثة: أن يحب الله ويحب أحدًا من خلق الله كحُب الله، فيُسَوِّي بين الله والمخلوق في المَحبَّة، وهذا مُشرك أيضًا.

والمرتبة الرابعة: أن يحب الله فوق مَحبَّة جميع المخلوقين، وهذا مُوحِّد، أو مسلم.

ثم يتفاوت المسلمون في المَحبَّة؛ يعني: حصل عنده المحبة التي هي شرط في الإسلام؛ أما محبة القرب، فهذه يتفاوت فيها الناس؛ فقد يكون الإنسان مسلمًا، ويكون مقتصرًا علىٰ المحبة اللازمة لتحقيق الإسلام، وقد يزيد، والناس مراتب.

ولذلك يَقُول العلماء: علامَةُ محبة المسلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن يُحسِن اتباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يجتهد في التقرُّب إلىٰ الله، وكلما كان أحسن اتباعًا وأكثر اجتهادًا كان أعظم مَحبَّة لله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك يقولُ العلماء أيضًا: ثمرة محبة المسلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: التقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وترك معاصيه.

ولذلك لو جاءنا مسلم يُكثِرُ من المعاصي، وتَقِلُّ عبادته لله عَزَّ وَجَلَّ وقال: أنا قلبي مليء بحب الله وحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! وأنا أحب الله وأحب رسوله!

قلنا له: هذه دعوىٰ أعمَالُك تُكَذِّبها!

ونقصد بهذا مَحبَّة المسلم، لا المحبة التي يُصبح بها مسلمًا، وإنما المحبة التي تكون في قلب المسلم زائدة عن المحبة التي يصبح بها مسلمًا.

وهذه مثل قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَىٰ**.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَن يَأبَىٰ؟ قَالَ: مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فَقَد أَبَىٰ»[١].

مع أنه قد يقَعُ في مَعصية ويدخل الجنة، وهذه مثل نصوص الوعيد.

ولذلك يقول العُلمَاء: نصوص الوعيد تُمَر ولا تُؤَول؛ لأن المقصود منها الزجر، فلو قُيِّدَت وأوِّلَت لذهب المقصود منها.

وسيأتي -إن شاء الله- في أحاديث الشفاعة أصول نافعة لأهل السنة والجماعة في تقييد النصوص.

*** مَسألةٌ مُهمَّة:**

وهي مَسألة البيتين المَشهُورَين علىٰ ألسنة الناس والوعاظ والدعاة، وهما:

تَعصِي الإلَـه وَأنـتَ تَـزعُمُ حُـبَّهُ ... هَـذَا لَعمـرُكَ فِـي القِيَاسِ شَـنِيعُ

لَـو كَـانَ حُـبُّكَ صَـادِقًا لأَطَعـتَهُ ... إنَّ المُحِـبَّ لِمَـن يُحِـبُّ مُطِـيعُ

ويُروىٰ البيت الأول علىٰ وجه آخر، يُقَال:

تَعصِي الإلَـهَ وَأَنـتَ تُظهِرُ حُبَّهُ ... هَـذَا لَعَمـرِي فِـي القِيَاسِ بَدِيـعُ

لَـو كَـانَ حُـبكَ صَـادِقًا لأَطعـتَهُ ... إنَّ المُحِـبَّ لِمَـن يُحِـبُّ مُطِـيعُ

وهذان البيتان يُنسبَان للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]، وينسبان لأبي العتاهية،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «ديوان الشافعي» (ص٩٢).

الشاعر الزاهد المعروف[(١)]، ولمحمد بن الحسن ابن الحنفية، كما في «شُعب الإيمان» للبيهقي[(٢)].

ويستشهد بهما بعضُ أهل العلم؛ كالشيخ ابن العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]، والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]، وكذا بعضُ شراح الحديث[(٥)].

فما الموقف من هذَين البيتين؟

نقول: الجوابُ علىٰ ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن كان المقصود بالمعصية هنا: كل المعاصي، بما فيها الشرك بالله، بحيث لا يَعبُدُ الله إلا قليلًا، كالمنافقين الذين يُشركون بالله، ويفعلون المعاصي، ولا يذكرون الله إلا قليلًا، وعُبَّاد عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعباد العزير عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعبَّاد الملائكة؛ فالبيتان صحيحان علىٰ ظاهرهما.

وعلىٰ هذا المعنىٰ يكون البيتان مأخوذَين من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران:٣١].

والوجه الثاني: إذا كان المراد بالمعصية: المعاصي التي تقع من المسلمين،

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٥) برقم (٤٩٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٤) برقم (٤٩٠).

(٣) «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» (٢/ ٥٢).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٨٧).

(٥) كالحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٧/ ط: الرسالة).

وكان المراد بالمَحبَّة: محبة المسلمين التي تقتضي القرب من الله، فالبيتان صحيحان.

بمعنىٰ: تَعصي الإله -أيها المسلم- وأنت تُظهر حبه، وتزعم أن قلبك مليء بالحب لله، فهذا لعمرك في القياس شنيع، فلو كان حبكَ صادقًا لأطعته.

لأن هذا هو مقتضىٰ المَحبَّة، ولا يعني أن المحبة تنفع العاصي؛ لكن المقصود هنا أن محبة المسلم لله التي تقتضي البُعدَ عن المعاصي والقرب من الله، هذه ليست موجودة أو ضعيفة، فالمعنىٰ صحيح.

وعلىٰ هذا نقول: إن العلماء الذين يستشهدون بهذَين البيتين من علماء أهل السنة يريدون هذا.

والوجه الثالث -وهو مُهِمٌّ-: أن يُراد أن العاصي لا يحب الله أصلًا، وهذا لا يقوله أهل السنة والجماعة؛ لأن أهل السنة والجماعة يقولون: إن العاصي المسلم وإن ارتكب الكبيرة لا يخرج من الإسلام، فعنده محبة لله أصبح بها مسلمًا، وإنما يقول هذا -يعني: أنه لا يحب الله أصلًا- الخوارج، الذين يرون أن مرتكب الكبيرة بارتكابه الكبيرة يخرج من الإسلام، فهو لا يحب الله أصلًا.

وأهل السنة يأبَونَ هذا، **ويقولون**: إن مرتكب الكبيرة وإن كان علىٰ خطر، وإن كان علىٰ ذنب عظيم، وإن كان معرضًا للعقوبة، إلا أنه مسلم، فهذا يدل علىٰ ضعف المحبة -محبة المسلم- أو عدمها، لا عدم المحبة التي يصبح بها مسلمًا.

وعلىٰ هذا قال بعضُ المشَايخ من المعاصرين من أهل العلم الفضلاء

الذين نعرفهم بالعلم: إن هذين البيتين فيهما نَفَسٌ خارجي على هذا المعنى الأخير.

وإذا عرفنا التفصيل عَظُم عندنا التَّحصيل، وعرفنا ضبط المسألة عند أهل العلم، فعندما تجد أن الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ استشهد بهذين البيتين، وكذلك الشيخ ابن عُثَيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنما يَعنيَان الوجه الأول والثاني، أما الوجه الثالث فلا يريده أحدٌ من أهل السُّنة والجماعة.

وهذه فائدة عَضُّوا عليها بالنَّواجذ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَن قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ».

وَشَرحُ هَذِهِ التَّرجَمَةِ مَا بَعدَهَا مِنَ الأبوَابِ.



الشرح

قوله: (**في الصَّحِيحِ**): يعني: في صحيح الإمام مسلم[1] رَحِمَهُ اللَّهُ.

(**عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنَّهُ قَالَ: مَن**): و(مَن) هذه شرطية، وهذا يَدُل علىٰ أن «لا إله إلا الله» لابد فيها من النطق مع القدرة، فمن كان قادرًا علىٰ النطق، لابد أن ينطق بـ «لا إله إلا الله»؛ حتىٰ يكون مسلمًا.

(**مَن قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**): هذه الجملة العظيمة التي هي العروة الوثقىٰ، والتي هي مفتاح الجنة، جُملة عظيمة عجيبة، هي كلمة الإخلاص، وهي الذكر الذي تستطيع أن تأتي به بإخلاص مطلقًا؛ لأن «لا إله إلا الله» كما يقول العلماء: حروفها جوفية، فلا تحتاج فيها إلىٰ تحريك الشفتين، فتستطيع أن تقول «لا إله إلا الله»، بدون أن يلحظ أحدٌ أنك قلتَ ذلك.

فلو أنك أطبقت شفتيك، أو أطبقت أسنانك، فإنك تستطيع أن تقول «لا إله إلا الله»، بخلاف غيرها من الأذكار. وهذا مَلمَح ذكره بعض أهل العلم، ذكرتُه للطافته.

---

(١) برقم (٢٣).

و(**لا إله**): نفي لكل مَعبُود، و(إله): نكرة، وقد تسلط النفي علىٰ هذه النكرة.

والأصوليون يقولون: إذا تسلط النفي علىٰ النكرة فهو أبلغ من عموم النكرة في سياق النفي؛ لأن النكرة في سياق النفي لا يشترط فيها أن يتسلط عليها النفي؛ لكن إذا تسلط النفي علىٰ النكرة كانت أبلغ في العموم.

لا إله: نفي لكل آلهة. **إلا الله** :إثبات الألوهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمعناها: **لَا مَعبُود بحق إلا الله**.

ومن لطيف كلام أهل العلم أنهم يقولون: إن «لا إله إلا الله» فيها تجريد وتفريد، وباجتماعهما يكون التوحيد.

تجريد؛ أي: تجريد العبادة عن غير الله.

وتفريد؛ أي: إفراد الله بالعبادة، وإذا جَرَّد العبد غير الله من استحقاقه للعبادة وأفرد الله بالعِبَادة فقد وَحَّد.

قوله: (وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ): يعني: أنه لابد في التوحيد من الكفر بما يُعبَد من دون الله من جهة كونه معبودًا من دون الله.

فنكفُرُ بالأصنام من جهة كونها معبودة من دون الله، ونكفر بالشمس لا بوجودها؛ ولكن من جهة كونها معبودة من دون الله، ونكفر بعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ من جهة كونِهِ مَعبودًا من دون الله، لا من جهة كونه نبيًّا مُرسلًا من الله، نُحبه ونُقِر بنبوته ورسالته عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إذن؛ هل هناك مَن يُعبَد من دون الله ولكن لا يُكفَرُ به؟

لا، بل كُل مَن يُعبَد من دون الله يُكفَر به من جهة كونه معبودًا من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يوجد من يستحقُّ العبادة من دون الله.

وكما سبق: معنىٰ (من دون الله): إما من دون الله حقيقة، فيَعبُد المعبودُ غيرَ الله، ولا يعبد الله، يَعبُد الصنم، ولا يعبد الله، يعبدُ الملائكة ولا يعبد الله.

وإما بمَعنىٰ: مع الله، فيعبد الله ويعبد الملائكة، ويعبد الله ويعبد الصنم.

وهذا كله شِركٌ أكبر والعياذ بالله.

إذن؛ لابد في «لا إله إلا الله» من الكفر بما يُعبَد من دون الله، من جهة كونه معبودًا من دون الله.

(حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ): وهذا يَدُل علىٰ أن تحريم الدَّم والمال لابُدَّ فيه من الإتيان بـ «لا إله إلا الله» علىٰ الوجه الذي يرضي الله، لكن نحن نعامل الناس بما يظهر منهم، فمن قال «لا إله إلا الله»، قَبِلنا منه ذلك، ولا ندري ما في قلبه.

ولذلك قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ): فحسابه علىٰ حقيقة ما في قلبه، وعلىٰ أعماله علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فدَلَّ ذلك علىٰ مراد المُصنِّف؛ وهو أن التوحيد ليس مجرد النطق بـ «لا إله إلا الله»، بل -كما قلنا-: التوحيد: أن تعبد الله وحده، وأن تبرأ من الشرك، وأن تكفُرَ بكُل ما عُبِدَ من دون الله، وأن تبرأ من المشركين؛ بمعنىٰ: أن تُبغِضَهُم لشِركِهِم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فثبت بما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب أن «لا إله إلا الله»: تُثبِتُ القصد،

والدعاء، والمحبة، والخوف، والرجاء، لله عَزَّوَجَلَّ، والبراءة من الشرك وأهله.

وتنفي دعاء غير الله، واتخاذ الآلهة، واتخاذ الأنداد من دون الله، واتخاذ المحبوبين كحُب الله، واتخاذ المُطَاعين في التحليل والتحريم بخلاف أمر الله وشرعه، كما تقدم معنا.

وقوله: (وَشَرحُ هَذِهِ التَّرجَمَةِ مَا بَعدَهَا مِنَ الأبوَابِ): يعني: أن هذا المَعنىٰ المُتعلِّق بالكلام علىٰ التوحيد مُجمَل في هذا المَوضِع، وتَفصيلُه وبيانه في أبواب الكتاب التالية.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ أَكبَرُ المَسَائِلِ وَأَهَمُّهَا: وَهِيَ تَفسِيرُ التَّوحِيدِ وتَفسِيرُ الشَّهَادَةِ، وَبيَّنَها بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ.

أصل المسائل كلها في هذا الباب: تفسير التوحيد، وهذه هي المسألة العظيمة؛ لأنه -كما تقدم- من أجل التوحيد خُلقنا، ومن أجل التوحيد بُعِث الرسل، والتوحيد أعظم الحُقوق علىٰ الإطلاق؛ لأنه حق الله، وأعظم الفرائض علىٰ الإطلاق، فتفسيره أعظَمُ العلم.

وقد بيَّن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالأدلة تفسير هذا التوحيد، فقال:

مِنهَا: آيَةُ الإسرَاءِ بيَّنَ فِيهَا الرَّدَّ عَلَىٰ المُشرِكِينَ الَّذِينَ يَدعُونَ الصَّالِحِينَ، فَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّركُ الأَكبَرُ.

في آية الإسراء -كما تقدَّم- أن الله بَيَّن للمشركين الذين يدعون الملائكة، والأنبياء، والجن المؤمنين، بَيَّن لهم بيانًا قطعيًّا أن أولئك لا يستحقون أن يُعبَدُوا من دون الله؛ لأنهم لا يَملِكُون نفعًا لغيرهم، ولا يملكون نفعًا لأنفسهم، بل هم فقراء إلىٰ الله الغني بذاته.

إذن؛ الصالحون والعُبَّاد، كلهم عِبَاد لله فقراء إلىٰ الله، ولا يجوز أن يُدعَوا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، إنما يُدعَىٰ الغني بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَمِنهَا: آيَةُ بَرَاءَةَ، بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ أَهلَ الكِتَابِ اتَّخَذُوا أَحبَارَهُم وَرُهبَانَهُم أَربَابًا مِن دُونِ اللهِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُم لَم يُؤمَرُوا إِلَّا بِأَن يَعبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفسِيرَهَا

الَّذِي لا إِشكَالَ فِيهِ طَاعَةُ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ فِي المَعصِيَةِ، لا دُعَاؤُهُم إِيَّاهُم.

وهذا سيأتي في باب مستقل، وقد شرحنا الآية، وبينًا متىٰ يكون ذلك شركًا، وسيأتي تفصيل وبيان نافع في موضعه -إن شاء الله-.

وَمِنهَا: قَولُ الخَلِيلِ عَلَيهِ السَّلَامُ **لِلكُفَّارِ:** ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ **فَاستَثنَىٰ مِنَ المَعبُودِينَ رَبَّهُ، وَذَكَرَ سُبحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ البَرَاءَةَ وَهَذِهِ المُوَالاةَ هِيَ تَفسِيرُ شَهَادَةِ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ:** ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

وهذه الكلمة هي: «**لا إله إلا الله**».

وَمِنهَا: آيَةُ البَقَرَةِ، فِي الكُفَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]. **ذَكَرَ أَنَّهُم يُحِبُّونَ أَندَادَهُم كَحُبِّ اللهِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُم يُحِبُّونَ اللهَ حُبًّا عَظِيمًا، وَلَم يُدخِلهُم فِي الإِسلامِ، فَكَيفَ بِمَن أَحَبَّ النِّدَّ حُبًّا أَكثَرَ مِن حُبِّ اللهِ؟! فَكَيفَ لِمَن لَم يُحِبَّ إِلَّا النِّدَّ وَحدَهُ، وَلَم يُحِبَّ اللهَ؟!**

وقد تقدَّم بيَانُ مَرَاتب الناس في المحبة.

وَمِنهَا: قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ**: «مَن قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ» وَهَذَا مِن أَعظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعنَىٰ «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَإِنَّهُ لَم يَجعَلِ التَّلَفُّظِ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالمَالِ، بَل وَلا مَعرِفَةَ مَعنَاهَا مَعَ لَفظِهَا، بَل وَلا الإِقرَارَ بِذَلِكَ، بل ولا كَونَهُ لا يَدعُو إلا اللهَ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، بَل لا يَحرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّىٰ يُضِيفَ إِلَىٰ ذَلِكَ الكُفرَ بِمَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ، فَإِن شَكَّ**

أو تَوَقَّفَ لَم يَحرُم مَالُهُ وَدَمُهُ.

فَيَا لَهَا مِن مَسألَةٍ مَا أعظَمَهَا وَأَجلَّهَا!، وَيَا لَهُ مِن بَيَانٍ مَا أَوضَحَهُ!، وَحُجَّةٍ مَا أَقطَعَهَا لِلمُنَازِعِ!

تقدم بيان هذا، لكن أُشِيرُ هنا إلىٰ أن من قال «لا إله إلا الله»، فشهد «أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسُول الله» حرم علينا مالُه ودمه في الظاهر بمجرد أن يقولها، ثم بعد ذلك يُنظَرُ في أمره؛ فإن أتىٰ بما يَقتَضِي أنه كافر، أو تَبيَّن أنه كافر، فإنه يُعَامَل بما يقتضيه ذلك.

فمن جاءنا وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»؛ أثبتنا له الإسلام في الظاهر، وحَرَّمنا ماله ودمه، فإذا جاء بعد ذلك وقال: أنا لا أكفر بما يُعبَد من دون الله، والناس أحرار، أو: أنا أَشُكُّ في هذا، فهنا تَبيَّن أنه لم يأتِ بـ «لا إله إلا الله» حقيقة؛ فيتبَيَّن أنه لم يُسلِم.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الشِّركِ لُبسُ الحَلقَةِ وَالخَيطِ ونَحوِهِمَا لِرَفعِ البَلاءِ أَو دَفعِهِ.

الشرح

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن يُفَسِّر التوحيد، وقد تبين لنا أن التوحيد هو عبادة الله وحده، وتَركُ الشرك، فلابُدَّ في التوحيد من مَعرِفة الشِّرك.

وهنا سؤال: هل ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشرك كله بكُل صوره في هذا الكتاب؟

الجواب: لا، لكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في الأبواب ما كان شركًا أكبر أو أصغر، ويكثر وقوعه ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام في زمنه، وذلك مِن نُصحِهِ للأمة، ولذلك بدأ بهذا الباب؛ لأن هذا الأمر المذكور هنا كثير الوقوع في الأمة؛ فبدأ به للتحذير منه.

قال: **(باب: من الشرك)**: (من) هنا تبعيضية، وإلا فالشرك أكثر من هذا.

والمراد بالشرك هنا: الأصغر.

(لبس الحلقة): والحَلقَة: ما استدار مثل الإسورة من حديد، أو نحاس، أو ذهب، أو فضة، أو غير ذلك.

ويصح أن تقول: (الحَلقَة) بإسكان اللام أو فتح اللام.

(والخيط): الخيوط معروفة، وهي قد تُربَط في العَضُد رَبطًا، وقد تُربَط في الرقبة، ونحو ذلك.

(ونحوهما): أي: كل ما يعلق، مثل: الخرز، ومثل تعليق النعل علىٰ الباب، وكل ما يعلق للعلة المذكورة هنا.

(لرفع البلاء): أي: بعد نزوله.

(أو دفعه): أي: قبل نزوله.

فبعضُ الناس يعلق علىٰ أطفاله خُيوطًا، ويقول: حتىٰ لا تصيبهم العين؛ أي: ليدفع العين عنهم!

وبعض الناس يضع علىٰ سيارته حذاء، أو كفًّا علىٰ هيئة خمسة؛ ليدفع العين عنها!

وبعضهم يرسم عينًا علىٰ السيارة، ويكتب: «عين الحسود فيها عود»؛ ليدفع عن هذه السيارة!

فهذا كله من الشرك الأصغر في الأصل، وقد يترقىٰ إلىٰ أن يكون شركًا أكبر، وذلك إذا اعتقد أنها تنفع بذاتها وليست سببًا.

فإذا اعتقد أنها سبب؛ فهو شِرك أصغَر، وإذا اعتقد أنها تدفع بذاتها، فهي التي تحمي، فهذا شرك أكبَرُ!

والمعلوم أن الله عَزَّوَجَلَّ يبتلي العبد في الدنيا بالضر والنفع، والشر والخير، والإنسان بطبعه يسعىٰ إلىٰ دفع الضر عن نفسه وعمَّن يحب، وإلىٰ رفعه عن نفسه أو عمن يحب إذا وقع!

فالإنسان منا يسعىٰ لأن يجتنب الأمراض، وإذا مرض يسعىٰ لأن يرفع هذا المرض.

وما يُرفَع به الضر، أو يُدفَع به الضر، لا يَخرُج عن ثلاثة أمُور:

الأمر الأول: الدعاء: وفي الحديث أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الدُّعَاءَ يَنفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَم يَنزِل، فَعَلَيكُم عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاءِ**»(١).

«الدعاء ينفع مما نزل»: أي: يُرفَع به الضر بعد نزوله.

«ومما لم ينزل»: أي: يُدفَع به الضر، فإن كان الدعاء لله فهو عبادة ونافع للعباد.

من قال: اللهم أعذني وأبنائي من المرض، أو من الداء الفلاني، فإنه يُرجَىٰ أن يستجيب الله دعاءه، وينفعه بهذا، وهو عابد لله بهذا.

فأنت تسأل الله وتدعوه ويثيبك علىٰ هذا، وهذا من جُودِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ أنك تسأله فيكتب لك الحسنات، وهذا غير مَسألة الإجابة.

وإن كان الدعاء لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهو شرك أكبر بالله، وصاحبُه مُعَرَّض لزيادَةِ البَلاء.

فالذي يَمرَضُ ويذهب إلىٰ صاحب قبر، ويقول: هذه دجاجة نذر!، يا سيدي، يا مولاي!، أنا أصابني البلاء، وأصابني الضر، وهذا نذر!، فهذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٨) من حديث ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٤): حسن لغيره.

-والعياذ بالله- شرك أكبر، يُخرِجُ من المِلَّة.

والأمر الثاني: الأسباب الحسية: ويُسمِّيها بعض أهل العلم «الأسباب القدرية»؛ أي: التي جعلها الله قدرًا سَببًا لدَفع الضر أو رفعه.

والأسباب الحسية يعني: المحسوسة؛ كالدواء، حيث يأتي الطبيب ويقول: اشرب هذا الدواء، فهو يَنفعُ في علاج هذا المرض الذي أنت فيه، فهذه أسباب حسية، فكيف تعرف؟

تُعرَفُ بالتجارب، فتَكشِفُ التجاربُ أن الله جعلها سببًا قدرًا.

ومثل ذلك الآن ما يسمونه «الأبحاث الطبية»، وكذلك ما يعرفه الناس بتجاربهم.

وكذلك تَثبُت بالدَّليل، مثل: أن العسل دواء، ثبت بالدليل من الكتاب والسنة، وأن الحجامة دواء، ثبت ذلك بالدليل من السنة، وأن الحبة السوداء دواء، ثبت ذلك بالدليل من السنة.

والدواء الحسي إن دَلَّت التجربة علىٰ أنه نافع، وكان يُرىٰ ويُدرَك بالحس، فيكون داخلًا إلىٰ بدن الإنسان، أو مُخرَجًا من بدن الإنسان، يكون داخلًا مثل الدواء الذي نَشرَبُه، أو نضع المَرهم علىٰ الجلد ويمتصه الجلد، أو يكون مخرجًا لما في بدن الإنسان، مثل شرطة الحجام، فالحجامة تُخرِج الدم، هذا الدواء الحسي.

فإن دلت التجارب علىٰ أنه نافع فهو دواء، يُدفَع به الضر ويرفع به، وهو

سبب، والنافع هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأمر الثالث: هو الأمر المَعنَوي، وهو الذي لا يُرَىٰ بالحِس، وهذا لا يُعرفُ إلا بالدليل؛ لأنه أمر غيبي، مثل الرقية، الرقية تقرأ علىٰ الإنسان ولا يدخل في جوفه شيء، ولا تُخرِج من جوفه شيئًا، فهي شيء معنوي، ولكن ثبت بالدليل الشرعي أنها نافعة بإذن الله، ما لم تكن شركًا.

والأمور المعنوية يسميها بعض أهل العلم «الأسباب الشرعية»؛ لأنها لا تُعرَف إلا من طريق الشرع، فما عُلِمَ من الشرع أنه نافع فهو نافع، وما لم يعلم من الشرع أنه نافع فليس بنافع، لو جاءنا دجَّال يُتَمتِم بكلام ليس من الرقىٰ، وفيه استعانة بغير الله، ونحو ذلك، وقال: أنا التجارب عندي دلت علىٰ أنه نافع، نقول: هذا ليس نافعًا، بل علىٰ ما ذكرنا فيه الشرك الأكبر!

إذن؛ الأسباب التي يُدفَع بها الضر أو يرفع ثلاثة، فما زاد عن ذلك إما أنه لم تدل التجارب علىٰ أنه نافع، أو كان معنويًّا لم يَدُل الشرع علىٰ أنه نافع، فإنه يكون من الشرك الأصغر، واتخاذه يكون من الشرك الأصغر؛ **لأن العلماء يقولون**: إذا اتخذ الإنسان سببًا لم يدل الدليل علىٰ أنه سبب شرعي، هذا في المعنويات، أو التجربة أو الدليل علىٰ أنه سبب قدري، وهذا في الحسيات، فقد أشرك بالله شركًا أصغر؛ لأن قلبه يتعلق بهذا، فما الذي يجعله يتخذه دواءً؟، وما الذي يجعله يتخذه سببًا؟، لم تَدُل عليه التجربة، ولم يدل عليه الدليل الشرعي!

إذن؛ لا يكون ذلك إلا عن عقيدة، وعن تَعَلُّق القلب، ولذلك يقولون: من

اتخذ سببًا، لم يكن سببًا شرعيًّا، ولا سببًا قدريًّا، فقد أشرك شركًا أصغر؛ لأنه لا يوجد ما يدعوه إلىٰ أن يتخذه إلا تعلُّق القلب به، وإلا عن عقيدة في القلب فقط، وهذا شرك أصغر.

وإذا فَهِمنَا هذا يَسهُل علينا فَهم ما يتعلق بهذا الباب.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآيَةَ [الزمر:٣٨].

الشرح

هذه الآية العظيمة في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني، ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، والجواب عندهم: لا؛ لأن المعلوم عن المشركين قديمًا أنهم إذا أصابهم ضُرٌّ يُوحِّدون الله، ويدعون الله وحدَهُ، وهذا يدل علىٰ أنهم يعتقدون أنهم لا يكشفون الضر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]؛ يعني: تُوحِّدون، وترجعون إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد تقدم معنا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦]؛ أي: قل للمشركين، ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أنهم أولياء تَدعُونَهُم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فهم فقراء، لا ينفعون غيرهم ولا ينفعون أنفسهم.

وما دلالة هذه الآية بالنسبة للباب؟

لأن الباب يقول: «من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما»، والآية ليس فيها هذا، فلماذا ذكرها الشيخ؟

نقول: مناسبة الآية للباب من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الشيء تبعًا للمناسبة، كعادة العلماء، وفي الفقه نجد أن الفقهاء يقولون: باب الآنية، وإذا ذكروا الآنية يذكرون الألبسة في الباب، مع أن الآلبسة ليست آنية، لكن يذكرونها للمُنَاسبة.

فهنا لمَّا كان الكلام عن أسباب كَشف الضُّر، ذكر الشيخ السبب الأعظم وهو الدعاء، وما يقع فيه من شرك بالله، فيكون ذكر الآية من باب ذكر الشيء تبعًا للمُنَاسبة.

الوجه الثاني: بيان أن كشف الضر لا يكون إلا من الله، فلا يكشف الضر إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يُطلَب إلا بما أذن الله فيه، أما ما نَهىٰ الله عنه فلا يُطلَب به كشف الضر، كتَعليق التمائم، وغير ذلك، مما لم يأذن الله فيها، فلا يُطلَب بها كشف الضر.

الوجه الثالث: بيان أن التعلق بغير الله في كشف الضر تعَلُّق باطل، ويدخل في ذلك التعلق بما نهىٰ الله عن التعلُّق به، أو ما نَهَىٰ الله عن اتخاذه سببًا؛ كالتمائم ونحوها.

والوجه الرابع: أن المَلائكة، والصَّالحين من عباد الله، لا يَملكون كشف الضر كما في الآية، فإذا كان هؤلاء الملائكة، وهم عباد الله الذين لا يعصُونه، والصالحون الذين هم عباد الله، لا يملكون كشف الضر، فما بالك بما كان دُونَ ذلك من حديد، أو خيوط، أو غير ذلك، لا شكَّ أنه لا يحصُلُ بها كشف الضُّر.

فهذه مناسبة الآية للباب من هذه الوجوه الأربعة.

وعَن عِمرَانَ بن حُصَينٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلقَةٌ مِن صُفرٍ، فقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فقَالَ: «انزِعهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا، فَإِنَّكَ لَو مِتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفلَحتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأسَ بِهِ.

الشرح

هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وابن ماجه، والبزار، والطبراني، وابن حبان، والحاكم، وصححه ابن حبان؛ لأنه رواه في صحيحه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي[١]، وحسن إسناده البوصيري[٢]، وصححه ابن حجر الهيثمي[٣]، وقال الشوكاني: «إسناده لا بأس به»، وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب -كما معنا-: «بسند لا بأس به»، وقال ابن باز: «إسناده جيد»[٤]، وضعفه الألباني[٥].

والذي يظهر لي -والله أعلم- أن إسناده جيد؛ **لأن الحديث أُعِلَّ بعِلَّتَين:**

الأولى: الاختلاف في سماع الحَسَن من عمران، وأهل الحديث قد اختلفوا

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٠٠-الرسالة)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٠٨٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤٠)، وصححه ووافقه الذهبي، والبَزَّار في «مسنده» (٣٥٤٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٩) برقم (٤١٤) من طُرُق عن الحَسَن، عن عمران رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ به.

(٢) «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» (٤/ ٧٧).

(٣) «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٣، ١٥٤).

(٤) «فتاوىٰ نور علىٰ الدرب» (١/ ٣٨٣ الشويعر).

(٥) «السلسلة الضعيفة» (١٠٢٩).

في سماعه منه، فأثبت الحاكم، ونقل ذلك عن أكثر شيوخه، سماعَ الحسن من عمران، ونفىٰ بعض كبار المحدثين سماع الحسن من عمران، ومنهم ابن المديني، وغيره من كبار المحدثين، لكن الذي يظهر -والله أعلم- في ظاهر هذه الرواية أن الحسن قد سمع من عمران هذه الرواية؛ لأن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في روايته لهذا الحديث، قال: عن الحسن قال: أخبرني عمران، وظاهر هذا الاتصال والسماع.

والعلة الثانية: عنعنة الحسن، والحسن البصري مُدَلِّس، فإذا عنعن المدلس فإن روايته ضعيفة، لكن هذه العلة أيضًا منتفية هنا؛ لأنه في رواية أحمد لم يعنعن، بل قال: أخبرني عمران، فلم يَقُل: عن عمران، كسائر الروايات، ولم يعنعن، ولذلك الذي يظهر -والله أعلم- أن إسناد الحديث ثابت.

قال: (وعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا): (رَجُلًا): نكرة، ولا نعرفه؛ لأن الفائدة لا تتعلَّق بمعرفته، مهما كان هذا الرجل فالفائدة متحققة، لكن الحقيقة أن هذا الرجل هو عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء في بعض الروايات هذا، كما عند ابن حبان، أن الرجل الذي رأىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يده هذه الحلقة هو عمران رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال: (رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلقَةٌ مِن صُفرٍ): والصفر هو: النُّحاس، يُسمَّىٰ صُفرًا؛ لأنه أصفر.

(فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟): في أكثر نسخ الكتاب قال: «**مَا هَذَا؟**»، وفي بعض النسخ قَالَ: «**مَا هَذِهِ؟**»؛ لأنها حَلقَة.

بعضُ أهل العلم قال: هذا استفهام مجرَّد؛ ليَعلَمَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستفصل؛ ما هذه؟؛ لماذا تضع هذه الحلقة؟؛ هل يضعها مثلًا للزينة، أو يضعها لأنه يريد ألَّا يفقدها فوضعها في يده، أو يريد أن يتعوذ بها، أو يتداوىٰ بها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا هَذِهِ؟**».

ومن هنا قال العُلماء: من أراد أن ينكر مُنكرًا يتطرق إليه الاحتمال، فلابُدَّ أن يستَفصِلَ، وألَّا يَعجَل بالإنكار.

وقال بعضُ أهل العلم: بل هذا استفهام إنكاري، يعني: فيه إنكار عليه، وليس للاستعلام، وإنما للإنكار عليه.

(**قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ**): **يعني**: وَضعتُها أتعالج بها من الواهنة، والواهنة: أَلَمٌ يُصيب اليَد، يبدأ من المَنكِب ثم يُصِيبُ اليد كلها، وقد قال أهل العلم: إنه يُصيبُ الرجال دون النساء، عِرق يكون في المنكب، يشعر الإنسان معه بألم، ثم يستمر هذا الألم إلىٰ أن يصبح في اليد كلها، وكانوا في زمن الجاهلية يَضعُونَ هذه الحلقة لدفع الواهنة ورفعها.

(**فَقَالَ: انزِعهَا**): وفي رواية: «**انبِذهَا**»(١). والنَّبذُ: هو الطَّرح بسرعة وقوة، كأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: انزعها عنك الآن، انزعها فورًا.

(**فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا**): أي: لا تزيدُكَ إلا مَرَضًا وضَعفًا.

وهنا سُؤال: هذه الحلقة لا تدفع الضر، ولا تَزيدُ المرض بذاتها، وهي غير

---

(١) وهو لفظ رواية أحمد وابن حبان والحاكم والبزار.

مؤثرة، فلمَاذا قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا**»؟

قال العُلمَاء: هذا إخبار بأن الله يُعَاقب مَن اتَّخذ هذه الأسباب غير المشروعة بضد ما قَصَد، فالذي وضع الحلقة يريد أن يتخلص من ألم الوَاهِنة، فيَزدَادُ ألمُه؛ عقوبة من الله، والذي تعلق تميمة؛ ما أتَمَّ الله له الأمر؛ عقوبة من الله.

(**فَإِنَّكَ لَو مِتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفلَحتَ أَبَدًا**): وهذا يَدُل علىٰ أن التوبة تنفع صاحبَهَا، فإذا تاب ولو من الشِّرك، فإن هذا لا يَضُره؛ لقوله: (**فَإِنَّكَ لَو مِتَّ وَهِيَ عَلَيكَ**).

وقوله: (**ما أفلحت أبدًا**): **قال بعضُ أهل العلم**: أي: لو مِتَّ وهي عليك بعد العلم، بدليل أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **قال**: «**انزعها**» ثم جاءت: «**فإنك**»، يعني: فإنك لو مت وهي عليك بعد أن أمرتُك بنَزعِها ما أفلحتَ أبدًا.

وقال بعضُ أهل العلم: فإنك لو متَّ وهي عليك مطلقًا ما أفلحت أبدًا، وهذا يدل علىٰ أنه لا يُعذَر بالجهل، والحقيقة أن هذا لا يَدُل علىٰ هذا؛ لأن هذا من الوعيد، والوعيد لا يُلتَفَتُ فيه إلىٰ الموانع، فهذا وعيد يعامل مُعَامَلة الوعيد، وإلا فالجَهلُ عُذرٌ إذا تحقَّق، وليس دَعوىٰ مُجرَّدة.

وهذا دَلَّ علىٰ مُرَاد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ، وهو أن تعليق الحَلقَة سبب غير شرعي، وما دام أنه سبب غير شرعي، ولا يَقُود إلىٰ الفلاح، فهو شِركٌ أصغَرُ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ: عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ مَرفُوعًا: «مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَن تَعَلَّقَ وَدعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةٍ فَقَد أَشرَكَ».

الشرح

(**وَلَهُ**): أي: الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن عُقبَة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَن تَعَلَّقَ وَدعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**». وَدعَة: بإسكان الدَّال أو فتحها.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو يعلىٰ، والطبراني، وابن حبان، والحاكم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي[1]، وقال المنذري: إسناده جيد[2]، وحسنه الأرناؤوط، وقال ابن باز: ثابت، وقال مَرَّة: صحيح[3]، وضَعَّفه الألباني[4].

وسَببُ تضعيف الألباني له: جهَالة خالد بن عبيد؛ وخالد بن عبيد وثَّقه ابن حبَّان.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٤-الرسالة)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (١٧٥٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٢٩٧) برقم (٨٢٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٠٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤٠)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٢) «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٥٦) برقم (٥٢٤١/ ط: دار الكتب العلمية).

(٣) «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٥/ ٣٠٦ الشويعر)، و«فتاوىٰ نور علىٰ الدرب» (١٢/ ١٢٧ الشويعر).

(٤) «السلسلة الضعيفة» (١٢٦٦).

ورجال إسناد هذا الحديث مُوثَّقون.

وقد قالَ حَيوَة -وهو ثقة-: أخبرني خالد بن عبيد؛ فخالد بن عبيد مَجهُول لا يُعرَف له إلا هذا الحديث؛ لكنه في إسناد وهو مُسَوَّر بالثقات، فالذي قبله ثقة، والذي فوقه ثقة؛ ولذلك الحَديثُ مُقَارِب، فيَظهَرُ -والله أعلم- أنه ثابت.

قال: (عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ مَرفُوعًا: مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً): **التَّميمةُ**: أصلها عند العرب: خَرزَات تُعَلَّق علىٰ الأطفال للوقاية من العين.

وهي تُطلَقُ علىٰ كل ما يُعَلَّق علىٰ النفس، أو علىٰ الأطفال، أو علىٰ الدواب، أو علىٰ البيوت؛ من خرز أو غيره؛ لدَفع البلاء أو رَفعه، فهذه كُلها تسمىٰ تميمة؛ فالذي يعلق خَيطًا، هذه تميمة، والذي يعلق خَرَزة، هذه تميمة، والذي يرسُم عينًا، هذه تميمة، والذي يضَعُ نَعلًا، هذه تميمة.

وقد رأيتُ في بعضِ بُلدان المسلمين في المَحَلَّات في السوق يضعون الفلفل الحار في خيط ويَضعُون في النصف ليمونة، فمن فوق فلفل؛ ومن تحت فلفل وفي الوسط ليمونة، يقولون: تقي من العين!

والكتابات التي تُكتَب، أيضًا تدخل في التمائم؛ كما ذكرنا من قبل عمن يكتب علىٰ سيارته: عين الحسود فيها عود!

وبعض الناس يكتب: يا ناس يا شر كفايه قرّ! فهذه تميمة.

كذلك حتىٰ الذين يكتبون: الحمد لله رب العالمين، أو: صلِّ علىٰ النبي، هذه من التمائم!

فإذا كان المَكتُوب من المشروع كالآيات، ونحو ذلك هي تميمة؛ لكن ما حكمها؟، سيأتي -إن شاء الله- بيانها في الباب التالي.

(**مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً**)؛ ليدفع العين (**فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**)؛ لأن التميمة سماها العرب تميمة: تفاؤلًا بتمام المقصود، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا عليه بضد مَقصُوده، **فلا أَتَمَّ الله لَهُ**.

كيف يأتي مسلم ويعلق التميمة؟! والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (**فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**)!

فلو أعطاك المشعوذ، أو من يسمونه شيخًا؛ خيطًا، وقال: ضعه تحت الوسادة، أو ضَعه في يدك، أو ضَعه في السيَّارة.

كيف تقبل هذا؟!، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَن تَعَلَّقَ وَدعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**».

والوَدعة أو الودَعة: شَيء يُخرَج من البحر، يُشبِهُ الصدف، ويستعمله الكهنة والمشعوذون في الضَّرب؛ فيَضرِبُون الوَدَع.

وبعض المسلمين مساكين، يذهبون -وهذا يكثر في النساء- يَضرِبن الودع ويذهبون إلىٰ من يسمونها الشيخة الصالحة! وهي مُشرِكة، ويسمونها الشيخة الصالحة: (والله ابني يريد أن يسافر، اضرِبي لنا الودع، والله ابني يريد أن يتزوج، اضربي لنا الودع، وانظري في المُستَقبل)!

وبعض الناس ينظمون الوَدَع في خيط، ويضعونها في رقبة الأطفال للحفظ من العين.

(فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ): أي: لا حَقَّق الله مُرادَه.

وبعضُ أهل العلم قال: يعني: لا أراحه الله؛ أي: لا جَعَله في دَعَة وسُكُون.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ): المقصود: وفي حديث آخر، وليس رواية لنفس الحديث.

(مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ): وهذه الرواية رواها الإمام أحمد، وابن أبي أسامة، والحاكم[(١)].

قال المنذري: رجال أحمد ثقات[(٢)].

وذكر الألباني هذا الحديث في «السلسلة الصحيحة»[(٣)].

فهذا الحديث صحيح.

(مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ): هذا حُكم من النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأصل -كما ذكرنا- أنه شِركٌ أصغر، لكن إذا اعتقد الإنسان أن هذه التميمة هي التي تَحميه بنَفسِها، فهذا شرك أكبر -و العياذ بالله-.

فإذا اعتقد فيها الضُّر والنفع، أو إذا كان فيها طلاسم واستغاثة بغير الله وعَلَّقها الإنسان وهو يَعلَمُ بذلك؛ فهَذا شِرك أكبر.

والتمائم أحيانًا تكون خيوطًا فقط، وأحيانًا تكون خرزًا، وأحيانًا تكون ورقًا

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٢٢-الرسالة)، وابن أبي أسامة (٥٦٣- بغية الباحث)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤٣).

(٢) «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٥٧) برقم (٥٢٤٢/ ط: دار الكتب العلمية).

(٣) برقم (٤٩٢).

ملفوفًا في داخل جلد ويُربَط علىٰ اليد، وهذا الورقُ أحيانًا يَكونُ فيه الاستغاثة بغير الله: يا أسيادنا في جبال قاص!، أو: يا أولياء الله، افعلوا لنا كذا وكذا!

فإذا عَلِمَ الإنسان هذا وعلقها؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه يستغيث بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الحَديثُ له قصة: وهي: عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَقبَلَ رَهطٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَايَعَ تِسعَةً، وَأَمسَكَ عَن وَاحِدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، بَايَعتَ تِسعَةً وَتَرَكتَ هَذَا؟

فَقَالَ: **إِنَّ عَلَيهِ تَمِيمَةً، مَن عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ.** فَأَدخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا، فَبَايَعَهُ».

فامتنَعَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مُبَايعته، وقال: «**إِنَّ عَلَيهِ تَمِيمَةً**» فَأَدخَلَ يَدَهُ فقَطَعَها.

وهذه من علامَاتِ نُبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن التميمَةَ لم تَكُن ظاهِرَة، بل كانت مَخفيَّة، فبَايَعَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلابنِ أَبِي حَاتِمٍ عَن حُذَيفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيطٌ مِنَ الحُمَّىٰ فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَولَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]».

الشرح

والذي في «تفسير ابن أبي حاتم»(١) غير هذا اللفظ، ففيه قال: «دَخَلَ حُذَيفَةُ عَلَىٰ مَرِيضٍ، فَرَأَىٰ فِي عَضُدِهِ سَيرًا فقطَعَهُ، أَوِ انتزَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾».

وقد ذكر بعض المعلقين علىٰ كتاب التوحيد أن الأثر ضعيف؛ لأنه من رواية عاصم بن أبي النجود، وهو صدوق، ولأنه عن عروة عن حذيفة، وعروة لا يُعرَف له سماع من حذيفة، فقالوا فيه: صدوق له أوهام، وفيه انقطاع.

لكن الإسناد عند ابن أبي حاتم ليس عن عروة عن حذيفة، كما ذكر في «تيسير العزيز الحميد»(٢)، و«فتح المجيد»(٣)؛ وإنما: عن عَزرَةَ، عن حذيفة، وليس عروة عن حذيفة.

وظهر لي بادي الرأي -والأمر يحتاج إلىٰ مزيد تحقيق- أن إسناد الأثر لا بأس به.

---

(١) أخرجه (٧/ ٢٢٠٨) برقم (١٢٠٤٠).

(٢) (ص١٢٨).

(٣) (ص١٢١/ ط: السنة المحمدية).

وعاصم -الذي هو عاصم الأحول- صدوق له أوهام، وقد روىٰ له البخاري مقرونًا بغيره.

وراجعتُ كلام أهل العلم فلم أجِد إلا كلام الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكلام الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُشعِرُ بثبوت هذا الأثر عنده.

وأنا يظهر لي بادي الرأي أن الأثر ثابت، لكن يحتاج إلىٰ مزيد مراجعة وتحقيق للإسناد.

(**رأىٰ رجلًا في يده خيط من الحمىٰ**): وقد قلنا: إن عند ابن أبي حاتم: «أنه رأىٰ في عضده سيرًا فقطعه»، ولم يذكر في التفسير أنه من الحُمىٰ كما هنا.

(**فقطعه**): انتزعه وأخذه، وتلا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وهذه الآية في الشرك الأكبر؛ وفي المشركين شركًا أكبر، أنهم يؤمنون بالله من جهة ربوبيته، ويشركون به في ألوهيته.

أو أن المُرَاد: أنهم يؤمنون بالله عند الضر، كما إذا ركبوا في الفلك، ولكنهم يشركون به في سائر أوقاتهم، ووَضعُ الخيط ليس من الشرك الأكبر، لكن الصحابة والسلف يستدلون بالشرك الأكبر علىٰ منع الشرك الأصغر، من جهة جنس الشرك؛ فهذا يدل علىٰ قطع الحبل الذي يُربَط لاتقاء العين ونحوها.

والذي يقطعه هو صاحبُه، هذا هو الأصل، الأصل أن نقول لصاحبه: انزعه واقطعه، كما في حديث عمران رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أو يقطعه مَن له ولاية؛ كالسلطة والحاكم ورجال الحِسبَة، أو من له مقام

عند الناس تُؤمَن معه الفتنة كالعَالِم.

والأمر بقَطع ما يُعلَّق لدفع العين واجب وثابت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَر من أسفاره: **«لا يَبقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعيرٍ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَت»** مُتَّفقٌ عَلَيهِ[1]. فأمر بقطعها.

قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَرَىٰ ذَلكَ مِنَ العَينِ»[2].

يعني: أرىٰ أنهم كانوا يُعلِّقون القلائد علىٰ الدواب من العين.

فيَا صاحبَ البيت، لايبقَينَّ في رقبة أو يَدِ أحدٍ ممَّن أنت ولي أمرِهِ في البيت خيط أو قِلَادة تُتَّخذُ لدَفع العين أو نحوها إلا قَطعتَهَا.

*** مَسألَةٌ مُهِمَّة:**

هناك مسألة يسأل عنها الناس الآن: وهي أنه في الأسواق توجد أساور مغناطيسية، توجد في الصيدليات وأماكن الطب؛ أساور مغناطيسية يقولون إنها تعالج من الروماتيزم، وآلام المفاصل، وتفرغ الشحنات الزائدة في الجسم، وهي مرخصة من قبل بعض الهيئات العالمية الطبية كما في بريطانيا، فهل يجوز لُبسُهَا؟

الجواب: تقدم معنا أن الذي يدفع به الضر أو يرفع به الضر **(الدعاء)**، هذا خارج مسألتنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥) من حديث أبي بشير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكَرَهُ عنه الإمامُ مُسلمٌ في روايتِهِ السابقة، وهو في «مَوطَّأ مالك» (١٧٤٥).

السبب القَدَري: وهو الشيء الحسي الذي يدخل إلىٰ البدن أو يخرج من البدن، ودلت التجارب علىٰ أنه نافع.

والسبب الشرعي: وهذا خارج.

بقي السَّبب الحسي: فهل هذا سبب حسي دلت التجارب علىٰ نفعه فيكون جائزًا مثل شرب الدواء أو لا؟

الذي يظهر -والله أعلم- أنه ليس سببًا حسيًّا، فهو لا يَدخُل إلىٰ الجسد، ولا يُخرِج شيئًا من الجسد.

وقد راجعتُ ما كتب في الهيئات العالمية الطبية فوجدت أنهم يزعمون أن الدم فيه حديد، وهذه الإسورة المغناطيسية إذا وضعتها؛ الدم لأن فيه الحديد يمتص المغناطيس، ثم هذا يمشي مع الدم إلىٰ الجسد.

ولكنهم يقولون إنه ليس لها تأثير حسي.

وبالتالي فالذي ظهر لي -والله أعلم- أنه لا يجوز لبس هذه الأساور ، وأنها من جنس الحلقة المنهي عنها؛ لأنه لا يوجد في الحس ما يَدُل علىٰ نَفعِها؛ ولأن وضعها ذريعة إلىٰ وضع التمائم وغيرها.

وهذا الذي ظهر لي هو الذي أفتىٰ به الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، والشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

---

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (١/ ٢٠٦-٢٠٧ الشويعر).

(٢) «مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين» (١/ ١١٠-١١١ الوطن).

وهذا الذي يظهر لي -والله أعلم- أنه أقرب إلىٰ قواعد الشريعة، وإلىٰ ما أورده الشيخ في هذا الباب من الأدلة أنه لا يجوز لبس هذه الأساور المغناطيسية؛ لأنها ليست من الأسباب الشرعية ولا الأسباب القدرية الحسية، وإنما هي أوهام وتخرُّصات لا يوجَدُ ما يَدُل عليها، فلا يجوز اتخاذها سببًا.

❁❁❁



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: التَّغلِيظُ فِي لُبسِ الحَلقَةِ والخَيطِ وَنَحوِهِمَا لِمِثلِ ذَلِكَ.

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلَّظ وشَدَّد في هذه التعاليق.

فكيف يطيب لمسلم أن يُعَلق حذاءً في سيارته أو علىٰ بيته، أو يُعلق خيطًا علىٰ أولاده، أو في رقبته، أو في يده، مع تغليظ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك؟!

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَو مَاتَ وَهِيَ عَلَيهِ مَا أَفلَحَ، فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلامِ الصَّحَابَةِ: أَنَّ الشِّركَ الأصغَرَ أَكبَرُ مِنَ الكَبَائِرِ.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَإِنَّكَ لَو مِتَّ وَهِيَ عَلَيكَ، مَا أَفلَحتَ أَبَدًا**»، وهو صحَابي!

والفلاح المنفي هنا الفلاح بالنجاة من العذاب، وليس الفلاح مطلقًا؛ يعني: أنك لو مت علىٰ ذلك لَمِتَّ علىٰ شِرك أصغر.

وقد تقدم معنا أن الراجح من أقوال أهل العلم: أن الشرك الأصغر ذنب من الذنوب، وهو أعلاها؛ أعلىٰ الذنوب التي دون الشرك الأكبر، أعلىٰ من الكبائر وأعلىٰ من البدع.

فلا شك أنه لو مات الإنسان عليه لمَا أفلح أبدًا، وكان مُعَرَّضًا لعقوبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي هذا دليل علىٰ أن الشِّرك الأصغر سَببٌ لعَدَم الفلاح في الدنيا، ولعدم الفلاح في الآخرة.

فالذي يرائي -وهذا شرك أصغر- لا يفلح في الدنيا، ولا يفلح في الآخرة، فهو معرض للعقاب متوعد بالعذاب.

والذي يعلق التمائم من غير القرآن -والتي من القرآن ستأتينا -إن شاء الله- لا يفلح في الدنيا؛ فإنه لا يتحقق له مقصوده، بل يعكس عليه، ولا يفلح في الآخرة.

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يرون أن الشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب.

يقول ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأَن أحلِفَ باللهِ كَاذِبًا أحَبُّ إِليَّ مِن أَن أحلِفَ بغَيرِهِ صَادِقًا»[1].

والحَلِفُ بالله كاذبًا لا شك أنه من كبائر الذنوب؛ لكنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كأنه يقول: لأن أرتكب هذه الكبيرة، أحب إلي من أن أشرك الشرك الأصغر، بأن أحلف بغير الله صادقًا، أن أقول: والنبي، أو: ورأس أمي ، أو: ورأس أبي، أو: والأمانة؛ فإن هذا من الشرك الأصغر.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن الصحابة كانوا يَرَون أن الشِّرك الأصغر أخبثُ من كبائر الذنوب.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَم يُعذَر بِالجَهَالَةِ.

وهذا مبني علىٰ أن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّكَ لَو مِتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا**

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٨٣) برقم (٨٩٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٥٣).

أَفلَحتَ أَبدًا». أن هذا كان وعيدًا لما كان قبل العلم، وقد كان جاهلًا، لكن الراجح أن هذا الوعيد رُتِّب علىٰ العلم؛ لأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**انزِعهَا**»، ثم قال: «**فَإِنَّكَ...**» فالمقصود: أنه لو فعلها بعد العلم لما أفلح أبدًا.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، باستقراء فتاواه وجدنا أنه يعذر بالجهل، غير أنه يحقق وجود الجهل أو عدم الجهل، فكلامه في تحقيق وجود الجهل.

والواجب: ألَّا يُسَلَّط التكفيرُ علىٰ عوام المسلمين في بلدان المسلمين بحُجَّة عدم العُذر بالجهل.

ولا شك أن الأدلة دلَّت علىٰ أن الجهل عُذر إن تحقق، لكن الشأن متىٰ يتحقق؟

فمن المسائل ما هو معلوم؛ إما بذاته أو ببيان العلماء له، فمن ادعىٰ الجهل فيه لا نُصَدِّقه إلا إذا أقام لنا دليلًا يدل علىٰ أنه جاهل.

ومن المسائل ما لا يكون معروفًا أو مشهورًا، أو يكون المشهور غيره في البلد؛ لأن العلماء يقررون غيره.

فهذا من ادعىٰ الجهل فيه صدَّقناه، وقلنا إنه يعذر بجُهلِهِ.

الرَّابِعَةُ: إخبارهُ أَنَّهَا لا تَنفَعُ فِي العَاجِلَةِ بَل تَضُرُّ، لِقَولِهِ: «لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا».

فهذه التمائم التي تعَلَّق من خيوط وخرز وغيرها، لا تنفع صاحبها؛ بل تَضُره.

يقول العُلماءُ: وضَررُها من وَجهَين:

الوجه الأول: أنه يقع في قلبه الخوف؛ فهو إذا علَّق هذ التمائم يَزدادُ خوفه

علىٰ أولاده، ويزداد خوفه علىٰ سيارته؛ فيكون خائفًا قَلِقًا، لا يرتاح ولا يَسكُن.

الوجه الثاني: أن الله يعاقبه بضد ما قصد، وهذا معنىٰ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا**». أي: أن الله يعاقبه بأن تزيده وهنًا وضعفًا، وهذه عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ.

الخَامِسَةُ: الإِنكَارُ بِالتَّغلِيظِ عَلَىٰ مَن فَعَلَ مِثلَ ذَلِكَ.

فمن درجات الإنكار: الإنكار باللسان علىٰ وجه التغليظ والزَّجر الشديد، وذلك إذا اقتضىٰ المقام ذلك.

السَّادِسَةُ: التَّصرِيحُ بِأَنَّ مَن تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ.

وهذا في حديث عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَن تعَلَّقَ تَميمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَه، وَمَن تَعلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَه**».

وسيأتي هذا الحديث: «**مَن تعَلَّق شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ**» في الباب التالي -إن شاء الله-.

السَّابِعَةُ: التَّصرِيحُ بِأَنَّ مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَد أَشرَكَ.

التصريح بأن تعليق التمائم -من غير القرآن- شرك، أما من القرآن فستأتي -إن شاء الله-.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ تَعلِيقَ الخَيطِ مِنَ الحُمَّىٰ مِن ذَلِكَ.

وذلك للأثر الذي عند ابن أبي حاتم، وقد ذكرتُ أن عند ابن أبي حاتم لم يذكر فيه أنه من الحُمَّىٰ.

لكن نقول: إن تعليقَ الخيطِ من التَّمائم التي هي شرك.

التَّاسِعَةُ: تِلاوَةُ حُذَيفَةَ الآيَةَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الصَّحَابَةَ يَستَدِلُّونَ بِالآيَاتِ الَّتِي فِي الشِّركِ الأَكبَرِ عَلَىٰ الأصغَرِ، كَمَا ذَكَرَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ البَقَرَةِ.

يستدلون علىٰ الشِّرك الأكبَر علىٰ الأصغر من وجهَين:

الأول: أن من اجتنب الأكبر فمن باب أولىٰ أن يجتنب الأصغر.

الثاني: الاشتراك بينهما في الظلم، فكُلُّ الشرك ظلم، إلا أن الشرك الأكبر ظلم أكبر، والشرك الأصغر ظلم دونه.

العَاشِرَةُ: أَنَّ تَعلِيقَ الوَدَعِ عَنِ العَينِ مِن ذَلِكَ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: الدُّعَاءُ عَلَىٰ مَن تَعَلَّقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللهَ لا يُتِمُّ لَهُ، وَمَن تَعَلَّقَ وَدعَةً فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ، أي: لا تَرَكَ اللهُ لَهُ.

وهذا يدُل علىٰ أنها من أعظم الذنوب، وفي هذا زجر.

وإذا علم أحدٌ أن النبي ﷺ دعا علىٰ مَن تعلق التمائم، بألَّا يُتِمَّ الله له؛ كيف يُعلِّق التميمة؟، وكيف يُعلِّق الودعة خوفَ العين؟!

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمِ.

الشرح

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب السابق ذكر لنا أن من الشرك لبس الحلقة أو الخيط لرفع البلاء أو دفعه، فناسب أن يذكر هنا ما جاء في الرقىٰ والتمائم؛ لأن الرقىٰ والتمائم تُتَّخذ لرفع البلاء أو دفعه، فهل هي مثل لبس الحلقة والخيط أو لا؟

يعني كأن سائلًا قال للشيخ: ذكرتَ لنا أن لبس الحلقة لدفع البلاء، أو رفع البلاء من الشرك، فما رأيك في التمائم والرقىٰ؟

وهنا تلحظون أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يَقُل: من الشرك الرقىٰ والتمائم؛ لأن لبس الحلقة شرك مطلقًا، أما الرقىٰ والتمائم ففيها تفصيل، فقد تكون شركًا، وقد لا تكون شركًا.

والرُّقىٰ: جمع (رُقية)، والرُّقية في اللغة: العُوذَة، بضم العين، يُقال: رَقَىٰ؛ إذا عوَّذ ونَفَثَ.

والرقية في الاصطلاح: ألفاظٌ تُتلىٰ علىٰ المُبتَلىٰ بمرض أو حسد، أو من يُخشَىٰ عليه البلاء؛ أي: أنها تُستَعمل في دفع البلاء قبل وقوعه، وفي رَفعِ البلاء بعد وقوعه.

وقيل: «تعويذَةٌ يُعَاذ بها من البلاء دفعًا أو رَفعًا».

والتمَائم: جمع (تَميمة)، وقد تقدم معنا أن أصل التمائم عند العرب: خرزات كانوا يعلقونها علىٰ الأطفال لدَفع العين.

والتَّميمَة في الاصطلاح: هي كُل ما عُلِّق من خَرَز، أو خيط، أو نعل، أو كفٍّ، أو غير ذلك، سواء عُلِّق علىٰ إنسان، أو علىٰ باب البيت، أو علىٰ السيارة؛ لدفع البلاء أو رَفعه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي بَشِيرٍ الأنصَارِيِّ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعضِ أسفَارِه فَأرسَلَ رَسُولًا: «أَلا يَبقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ -أَو قِلَادَةٌ- إِلَّا قُطِعَت».

الشرح

وهذا الحديث في «الصَّحِيحَين» عند البخاري ومسلم[(١)].

(عَن أَبِي بَشِيرٍ الأنصَارِيِّ): وقد اختلف العلماء في اسمه، فقال بعض أهل العلم: قيس بن عبيد. وقال بعض أهل العلم: قيس بن عبد الحرير.

والمُحَقِّقون من العلماء علىٰ أن اسمَه لم يتعَيَّن، فهو ممن عُرِف بكُنيَته ولم يُعرَف اسمه، وهو صحابي جليل، روىٰ عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعة أحاديث، في البخاري واحد منها، هو هذا الحديث الذي معنا.

(أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعضِ أسفَارِه): ولم يعين هذا السفر، ولم نقف علىٰ تعيينه.

(فَأرسَلَ رَسُولًا): جاء في بعض الروايات: أنه زيد بن حارثة مولاه، مولىٰ رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٠٩).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٤١).

(**أَلا يَبقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ -أَو قِلَادَةٌ-**): **والوَترُ**: هو ما يُصنَع من الأمعاء، ويوضع في القوس، من أجل الرمي به، كانوا يأخذون من الأمعاء أجود أنواع الوتر، يُؤخذ من الأمعاء، ويُجَفف، ثم يوضع في القوس، فيُشد، وترمىٰ به السهام، كانوا يفعلون هذا، فإذا اخلَولَقَ الوتر، وأرادوا تغييره يُعلِّقونه علىٰ الدواب.

قوله: (**مِن وَتَرٍ -أَو قِلَادَةٌ-**): قال شراح الحديث: إنها شك من الراوي، يعني: شكَّ الراوي: هل قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر**»، أو قال: «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة**»؟، بدون تقييد.

لكن جاء في رواية عند الإمام أحمد، وأبي داود: «**لَا يَبقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِن وَتَرٍ، وَلَا قِلَادَةٌ، إِلَّا قُطِعَت**». فليس فيها: (أو). وقد صحح الألباني هذا اللفظ[1].

فهذا يدل علىٰ أن (أو) هنا ليست للشك، وإنما للتنويع: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، ولا يبقين في رقبة بعير قلادة، فخصص ثم عمم.

خَصَّص؛ لأن هذا هو الغَالب، ثُم عَمَّم.

وسبب تعليق هذه القلادة علىٰ البعير: ما قاله الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ -كما في الموطأ-: «**أُرىٰ ذَلكَ مِن العَينِ**». «**أُرىٰ**» بِضَم الهمز، يَعني: أظن ذلك من العين،

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٨٧-الرسالة)، وأبو داود (٢٥٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

أنهم يقلدون البعير بهذه القلائد خوف العين، وهذا يتفق مع ما تقدم من النهي عن تعليق التمائم، ويَدُل علىٰ وجوب قطع التمائم إذا عُلِّقت.

وقَال بَعضُ أهل العِلم: إنمَا أمرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطعها حتىٰ لا يَختَنِق البعير بها عند رَكضِه. وقالوا: هذه القلائد في زمن الصحابة ما كانت للعين!، كانت سابقًا للعين، أما في زمن الصحابة فكانوا يُقَلِّدونها، ليس للعين، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقطعها، حتىٰ لا يختنق البعير بها، حتىٰ لا تضيق عليه ولاسيَّما عند الركض، فيختنق بها، وهذا قاله محمد بن الحسن، من فقهاء الأحنَاف.

وقال بعض أهل العلم: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقطعها؛ لأنهم كانوا يُعلِّقون الأجراس فيها، وهذا مَنهِيٌّ عنه.

والأول أَولَىٰ -والله أعلم-، وهو أن هذا كان من أجل العين، وهذا يَدُل علىٰ أن التمائم التي تُعَلق من خيط أو نحوه، من أجل دفع العين، أو دفع البلاء، حَرَام ويجب قَطعُها.

❀❀❀

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِركٌ» رَواهُ أَحمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ.

الشرح

هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وجمع من أهل العلم، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي[1]، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة»[2]، فهو صحيح.

(وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِركٌ»): فوصفها جميعًا بأنها شرك، من غير استثناء، لكن ستأتي أدلة مفصلة، ونبين التفصيل فيما يتعلق بالرقىٰ والتمائم، ونُفَسِّر كل كلمة؛ لأن المُصنِّف سيفسرها، وسنقف عندها -إن شاء الله-، ونُعَلِّق علىٰ أحكامها.

وقد ورَدَ في هذا الحديث قصة لطيفة أذكرها لفائدة في آخر كلامي:

فقد جاء عن ابنِ أخي زينبَ امرأةِ عبد الله بن مَسعُود، عن زينبَ امرأةِ عبدِ الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦١٥-الرسالة)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤١).

(٢) برقم (٣٣١).

الرُّقَىٰ والتَمائِمَ والتِّوَلَةَ شِركٌ.

قَالَت: قُلتُ: لِمَ تقولُ هذا؟ واللهِ لقد كانت عَيني تَقذِفُ وكنتُ أختلِفُ إلىٰ فُلانٍ اليهوديِّ يَرقِيني، فإذا رقَانِي سَكَنَت، فقال عبدُ الله: إنما ذاكَ عملُ الشَّيطانِ كان يَنخَسُها بيدِه، فإذا رقَاها كَفَّ عنها...».

قولها: «كَانَت عَيني تقذِفُ»؛ أي: تقذف الدمع، أو تقذف الدم، أو تقذف شيئًا آخر، كالقيح أو غير ذلك.

وقولها: «وكُنتُ اختلف إلىٰ فُلانٍ اليَهُودي يَرقِيني، فإذا رقَانِي سَكَنَت»؛ يعني: أنها كانت نَافِعَة.

فقال عبدُ الله: «إنمَا ذاكَ عمَلُ الشَّيطانِ، كانَ يَنخَسُها بيدِه، فإذَا رقَاهَا كفَّ عَنهَا»؛ يعني: أن هذا الشيطان يَعبثُ بِكِ ويُغرِكِ، فينخسُ عينَكِ حتىٰ تخرج الدمع، فإذا ذهَبتِ إلىٰ اليهودي ورَقَىٰ كفَّ عنها، ليُوهِمَها أن هذا نافعٌ.

وهذه القصةُ رواها أبو داود، وقال الألباني: صَحيحٌ[1].

وقد استغرب شيخنا الإمام، المُحدِّث، الفقيه، العقدي، الشيخ: عبد المحسن العباد في شرحه علىٰ «سُنن أبي داود» تصحيح الألباني لهذا الحديث!، وذلك لغرابة هذه القصة!، يعني: صحابية تحت صحابي من أفقه الصحابة، كانت تذهب إلىٰ يهودي ليرقيها!، فالأولىٰ أن تَطلُبَ من ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أن يرقيها!، والصحابة متوافرون، فالقصة غريبة!

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

أيضًا في الإسناد مُبهم، وهو ابن أخ زينب، أو ابن أخت زينب، جاء هذا وجاء هذا، وهو مُبهَمٌ لا يُدرَىٰ من هُو؟!

لكن الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول الأمر اغترَّ بقول ابن حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كأنَّه صحابي»[١]، فصَحَّح الحديث. ثم في «السلسلة الصحيحة» رجع عن تصحيح هذه القصة بعَينِهَا؛ للعلتين اللتين ذكرهما شيخنا الشيخ العباد، وطلب ممَّن وقف علىٰ كتبه أن يُصَحِّح تصحيحه، ويُزيل تصحيحه لهذه القصة[٢].

فانظر أولًا إلىٰ فقه شيخنا الشيخ العبَّاد، وسَعَة علمه، ثم انظر إلىٰ حرص العلماء علىٰ الحق، فالشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن كان قد صحَّح الحديث، خطَّأ نفسه وبَيَّن أن القصة لا تصح، وأنها منكرة!، لكن الحديث المرفوع صحيح، وهو قوله: «**إنَّ الرُّقَىٰ والتَمائِمَ والتِّوَلَةَ شِركٌ**». وسيَأتي بيانُ هذه الثلاثة وأحكَامها.

❀❀❀

(١) **قال العلامة الألباني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «السلسلة الصَّحيحة»** (٦/ ١١٦٥): «فمن الغرائب قول الحافظ في «التقريب»: «كأنه صحابي، ولم أره مُسمًّىٰ»! كذا قال، وكنتُ نقلتُه عنه قديمًا في «الصحيحة» دون أن يفتح لي بشيء عليه، والآن أقول: **إنه مجرد ظن منه لا دليل عليه**».اهـ

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٦/ ١١٦٦) حديث رقم (٢٩٧٢)، **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بعد تَحقيقِ القصَّة والحُكم عليها بالنَّكارة**: «علىٰ ضوء هذا البيَان والتحقيق والتفصيل أرجو من إخواني الكرام الذين قد يَجدُون في بعض مؤلفاتي القديمة ما قد يُخَالف ما هنا **أن يُعَدِّلوه ويُصَوِّبوه علىٰ وفق ما هنا...**».اهـ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن عَبدِ اللهِ بنِ عُكيمٍ مَرفُوعًا: «مَن تَعلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ» رَوَاهُ أحمَد وَالتِّرمِذِيُّ.

التَّمَائِمُ: شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الأَولادِ مِنَ العَينِ، لَكِن إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعضُ السَّلَفِ، وَبَعضُهُم لَم يُرَخِّص فِيهِ، وَيَجعَلُهُ مِنَ المَنهِيِّ عَنهُ، مِنهُمُ ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ.

وَالرُّقَىٰ: هِيَ الَّتِي تُسَمَّىٰ العَزَائِمُ، وَخَصَّ مِنهُ الدَّلِيلُ مَا خَلا مِنَ الشِّركِ، فَقَد رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِنَ العَينِ وَالحُمَةِ.

وَالتِّوَلَةُ: شيءٌ يَصنَعُونَهُ يَزعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرأَةَ إِلَىٰ زَوجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَىٰ امرَأَتِهِ.

الشرح

هذا الحديث رواه الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم[1].

وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، وهو سيئ الحفظ.

وعبد الله بن عُكَيم -وإن وُلدَ في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- لكن ليست له صُحبة، فقد وُلدَ في البادية في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ورأىٰ كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إلىٰ قومه؛ لكن لم تكُن له صُحبَة علىٰ الرَّاجح والصحيح.

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٨١-الرسالة)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وعليه فإن الحديث يكون مرسلًا، لكنَّ الحديث له شواهد، فله شاهد عند النسائي في «المُجتبىٰ»[١]، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويشهد له حديث عقبة المتقدم؛ فهو حَسَن؛ ولذلك قال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»[٢]: «حَسَنٌ لِغَيره».

(مَن تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ): (مَن): شَرطيَّة، و(شَيئًا): نكرة في سِيَاق الشَّرط؛ فتَعُمُّ كُلَّ شيء.

ومَن تَوكَّل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو كافيه، الذي يتوكل علىٰ الله ويترك هذه التعليقات فالله كافيه وهو حسبُه، والذي يعَلِّق هذه التمائم مطلقًا؛ فإنه يوكل إليها، وهي لا تنفع ولا تضر.

وهذا يشمل كل التمائم كما سنذكره -إن شاء الله-.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(التَّمَائِمُ: شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الأَولادِ مِنَ العَينَ)**: وهذا أصلها، وليس ذلك خاصًا بالأولاد؛ بل كما قُلنا: الذي يُعلَّق علىٰ السيارة أو الدَّواب أو البيت، أو غير ذلك، كل هذه من التمائم.

قَالَ: **(لَكِن إذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعضُ السَّلَفِ، وَبَعضُهُم لَم يُرَخِّص فِيهِ، وَيَجعَلُهُ مِنَ المَنهِيِّ عَنهُ، مِنهُمُ ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)**: بمعنىٰ: أن المُعلَّق إذا كانت فيه استغاثة بغير الله؛ يعني: فيه كتابات وطلاسم فيها استغاثة

---

(١) برقم (٤٠٧٩).

(٢) برقم (٣٤٥٦).

بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهو شرك أكبر.

فالذين يُعلِّقون أوراقًا مطوية فيها: يا سيدي فلان، يا أهل الصلاح، يا أهل جبال قاص، يا أوتاد، يا أقطاب؛ هذا شرك أكبر يُخرِجُ من الملة، وإذا كان المعلق خيطًا، أو خرزًا، أو غير ذلك؛ فهذا شرك أصغر -كما تقدم معنا-.

بقي الثالث: وهو إذا كان المُعلَّق شيئًا من القرآن، أو كان اسمًا من أسماء الله، أو صفة من صفات الله.

فبعض النساء تلبس قلادة فيها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لدفع العين والبلاء.

وبعض الناس يُعلِّق علىٰ أولاده أوراقًا مكتوب فيها الآيات المعوذات وتربط بخيط وتُلَف علىٰ اليد أو العُنُق.

وبعضهم يكتب علىٰ السيارة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وبعضُهم يُعَلِّق علىٰ باب بيته من الخَارج تَعليقة فيها المُعَوذات، هذا كُله تَعليقٌ من القرآن.

وهذا قد اختَلفَ فيه العلماء علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن ذلك جائز ما دام أن المُعلَّق من القرآن، أو كان فيه اسم الله، أو صفة الله.

ونص القائلون بالجواز من المتقدمين: علىٰ أنه يُكرَه إذا كان لدفع العين؛ يعني: أنه يجوز أن تُعَلق آيات، لكن لا بقصد دفع العين، أما بقصد دفع العين فهو مَكرُوه.

ويُنسَب إلىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه كان يعلم من يفهم من بنيه ويحفظ رقية الفزع - يعني: الفزع من النوم-، ومن كان لا يفهم من بنيه ويحفظ كان يكتبها ويعلقها عليه.

وهذا رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي؛ لكن قال العلامة الألباني: لا يصح[1].

والحقيقة: أن أكثر السَّلف الذين رُوِي عنهم جواز ذلك لم يَصِح ذلك عنهم.

أما الصحابة فلم يَصِح عن أحد من الصحابة، وأما التابعون فلم يَصِح عن أكثرهم، وإنما صَحَّ عن عطاء، والبَاقر فقط؛ أعني هذا القول.

والقول الثاني: لا يجوز تَعليقُ ما كُتب فيه القرآن لدفع البلاء، ويجوز لرفعه.

فلا يجوز أن يُعَلق ما فيه القرآن لدفع البلاء، كالخوف من العين، والخوف من الحوادث، ويَجُوز لرفعه.

فلو أن شخصًا مرض فيُعَلق عليه ذلك لرفع المَرَض، ونُسِب هذا إلىٰ أمِّنا

(١) أخرجه أحمد (٦٦٩٦-الرسالة)، وأبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨) من حديث عَبدِ الله بنِ عَمرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الْفَزَعِ كَلِمَاتٍ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ غَضَبِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ**». وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمرٍو يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ عَقَلَ مِنْ بَنِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ كَتَبَهُ فَأَعْلَقَهُ عَلَيْهِ.
قال الألباني: «حَسَن دُون قَوله: وكانَ عَبدُ اللهِ ...».

عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، ولم يصح عنها؛ لكن قاله بعض العلماء.

القول الثالث: لا يجوز ذلك مطلقًا، وهذا ثابت عن ابنِ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

وقد رَوَىٰ أبو عبيد في «فضائل القرآن»[1] بسَنَد صحيح عن إبراهيم النخعي قال: «كانوا يكرهون التمائم من القرآن وغيره».

قال بعضُ أهل العلم: الضمير في «كانوا» يرجع إلىٰ الصحابة، فهذا حكاية عن الصحابة.

وقال بعضُ أهل العلم: بل هذا يرجع إلىٰ ابن مسعود وأصحابه.

والرَّاجح -والله أعلم-: أنه لا يجوز أن يُعَلَّق ما كتب فيه القرآن لا علىٰ سيارة ولا علىٰ بيت ولا علىٰ غير ذلك بقصد دفع البلاء أو رفع البلاء.

وذلك لأمور:

الأمر الأول: عدم تفصيل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في التمائم كما فصَّل في الرقىٰ مع الحاجة، فلم يقل لمن وضَع الخيط من الواهنة: هل فيه قرآن؟؛ بل قال: انزعها، ولم يستفصل.

ولم يَرِد عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حرف واحد في التفصيل في التمائم؛ بل الذي ورد أنها شرك.

الأمر الثاني: أن التحريم ثَبَت عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، ولا يُعلَم له مُخَالف

---

(١) (ص٣٨٢/ ط: ابن كثير).

من الصحابة، وهذا يَعتَبِرُه العلماء إجماعًا علىٰ الراجح.

الأمر الثالث: أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن تعَلَّق شيئًا وُكلَ إِلَيه**».

وقلنا: إن (شيئًا) نكرة في سياق الشرط فتَعُمُّ، وهذا يشمل ما كان مكتوبًا من القرآن.

الأمر الرابع: سَدُّ الذريعة؛ فإن الناس إذا عَلَّقُوا المكتوب من القرآن، أوشَكُوا أن يُعَلِّقوا غيره. والمعلوم أن الشيطانَ يأخذ الناس خطوات؛ حتىٰ يَقعُوا في المَحذُور الأكبر، وهو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الخامس: أن في هذا امتهانًا للقرآن، فإذا كُتبت الآيات ووضعت في يد الطفل، فالطفل يعبث ولا يتحَرَّز عن النَّجاسات، ويدخل الحمام، وهذا مكتوب ومُعلَّق علىٰ يديه!، وكذلك الحال مع الكَبير.

فالراجحُ -والله أعلم-: أن تعليق التمائم من القرآن لا يَجُوز؛ لكن هذا ليس شركًا، وإنما حرام؛ لأنه تعليق للقرآن، فهو لم يُشرِك.

وشيخنا الشيخ ابن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ أنها حرام وليست شركًا.

وبعض أهل العلم يقول: إنه شرك؛ لأنه جعل سببًا لم يجعله الله شرعًا ولا قدرًا سببًا.

ومَن اتخذ سببًا لم يَثبُت شرعًا ولا قَدَرًا أنه سبب؛ فقد أشركَ شِركًا أصغر.

إذن؛ **التمائم**: **إما أنَّها شرك أكبَر**، وذلك إذا كان فيها استغاثة بغير الله، من جن، وشياطين، ونحو ذلك، أو اعتقد الإنسان أنها تنفع بنفسها.

وتكون شركًا أصغر، إذا كان المُعلَّق خيطًا، أو خَرَزة، أو غير ذلك بدون كتابة، أو كتابة ليس فيها استغاثة بغير الله.

وتكون حرامًا، إذا كان المُعَلَّق من القرآن، وبعض أهل العلم يرىٰ هذا أيضًا من الشرك الأصغر.

قال: **(وَالرُّقَىٰ: هِيَ الَّتِي تُسَمَّىٰ العَزَائِمُ)**: وتقدم بيانها، وهي تُسمىٰ عند بعض الناس «العزائم»، وتسمىٰ عند بعض الناس «المواثيق» أيضًا.

قال: **(وَخَصَّ مِنهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّركِ، فَقَد رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ العَينِ وَالحُمَةِ)**: وقد تقدم معنا قولُ النبي ﷺ: «**لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ**». وشرحنا هذا.

وعن جابرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «**رَخَّصَ النَّبيُّ** ﷺ **لآلِ حَزمٍ فِي رُقيَةِ الحَيَّةِ**». رواه مسلم[1].

وعَنهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَدَغَت رَجُلًا مِنَّا عَقرَبٌ، وَنَحنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرقِي؟ قَالَ: **مَنِ استَطَاعَ مِنكُم أَن يَنفَعَ أَخَاهُ فَليَفعَل**». رواه مسلم[2].

وعَن عَوفِ بنِ مَالِكٍ الأَشجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كُنَّا نَرقِي فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيفَ تَرَىٰ فِي ذَلِكَ؟**

---

(١) برقم (٢١٩٨).

(٢) برقم (٢١٩٩).

فَقَالَ: **اعرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُم، لَا بَأسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَم يَكُن فِيهِ شِركٌ**». رواه مسلم(١).

بل جاء عن طَلقِ بنِ عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: «**لَدَغَتنِي عَقرَبٌ عِندَ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، **فَرَقَانِي وَمَسَحَهَا**». رواه أحمد، وصَحَّحه الألباني(٢).

الرَّاقي هو: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

فهذه النصوصُ جميعًا تُقَرِّر جواز الرقىٰ، وأنه لا بأس بها.

وجاء في نصوص أخرىٰ النهي عن الرقىٰ، كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كما في حديثِ البَاب: «**إِنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ والتِّولَةَ شِركٌ**». وأيضًا ثبت في «صحيح مسلم»(٣): «**أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ **نَهَىٰ عَنِ الرُّقَىٰ**».

وتقدَّمَ في حديث السَّبعين ألفًا أنهم: «**لَا يَستَرقُونَ**».

وهذه نصوص تقابل تلك النصُوص، وللعلماء كلام طويل في التوفيق بين هذه النصوص؛ **لكن الصَّحيح من أقوال أهلِ العِلم:**

أن هذا يختلف باختلاف الرقىٰ؛ فقد تكون الرقية مُباحة، وذلك إذا اجتمعت فيها شروطٌ ثلاثة:

الشرط الأول: أن تكون بكلامٍ جائزٍ في الشرعِ؛ بمعنىٰ: لا يكون فيها شرك

---

(١) برقم (٢٢٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٢٩٨-الرسالة)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان» (٦٠٦١).

(٣) برقم (٢١٩٩).

ولا ممنوع.

وبعض أهل العلم يقول: أن تكون بالقرآن، أو بالسنة، أو بأسماء الله، أو بصفاته.

لكن الراجحَ أنه يجوز أن يُرقَىٰ بكل كلام حسن؛ جائز شرعًا، بدليل أن بعض الصحابة كانت عندهم رُقىٰ في الجاهلية، قبل نُزول القرآن، وقبل أن تأتي السنة، وقد قال لهم النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا**»[1].

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لا بأس بالرقىٰ؛ وقيد بقيد واحد: «**مَا لَم تَكُن شِركًا**». فإذا كانت بكلام حسن جائز شرعًا، فإنها مباحة.

الشرط الثاني: أن تكون بكلام مَفهُوم المعنىٰ، سواء كانت بالعربية أو بغير العربية، أما الطلاسم والكلام الذي لا يُفهَم معناه، فهذا لا تجوز به الرقىٰ.

وبعض الناس يزعم أن عنده رقية، ويأتي بكلام لا يفهَمُه الناس؛ خرنبيط، غرنبيط... ونحو ذلك من الكلام غير المفهوم.

أو يأتون برموز: كا-لي-تي-بي... فهذه لا تصح بها الرقية، سواء كان بالعربية أو غير العربية.

وبعضُ أهل العلم يشترط أن تكون بالعربية، وهذا للاحتياط؛ لكن الصَّحيح أنه لم يَدُل دليل علىٰ اشتراط العربية، وإنما لابد أن تكون بكلام مفهوم المعنىٰ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٦٢).

وبعض الناس يزعم أنه يَرقِي؛ ولكن لا يُخبر الناس بما يقول، فإذا جاء يرقي يخفض صوته، أو يتمتم، وبعضهم حتىٰ يَحمِي هذا يقول: الرقية إذا عَلِمت الناس بها تبطل، وهذا لا يجوز؛ فلابد أن تكون بكلام مفهوم المعنىٰ، وواضح معلوم.

الشرط الثالث: **ألَّا يعتقد تأثيرها بنفسها؛ بل بقَدَرِ الله وإذنه**، وهذا الشرط متفق عليه بين أهل العلم.

فإذا اجتمعت هذه الشروط الثلاثة؛ فكانت الرقية بكلام حسن جائز شرعًا، ومفهوم المعنىٰ، ولم يعتقد أنها مؤثرة بذاتها كانت **مُبَاحَة**.

فإن كانت بالمأثور من القرآن أو السُّنة، وقصد الراقي نفع المرقي كانت **مُستَحبَّة**.

يعني: إذا كانت بالقرآن والسنة؛ أي: بالأدعية الواردة في الكتاب والسنة، وقَصَدَ الرَّاقي أن ينفع المرقي كانت مستحبة؛ لأن النبي ﷺ فعلها وقال: «**مَن استَطَاعَ أَن يَنفَعَ أَخَاهُ فَليَفعَل**».

وقد تكون الرقية **شركًا أكبَر**؛ إذا كانت فيها استغاثة بغير الله، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا بَأسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَم تَكُن شِركًا**».

وقد تكون **شركًا أصغر**؛ إذا كانت بكلام لا يُفهَم، وليس بها استغاثة بغير الله؛ فتكون شركًا أصغر؛ لأنها جُعِلَت سببًا وليست سببًا، لا شرعًا ولا قدرًا.

وقد تكون الرقية **مَكرُوهة** إذا كانت بطلب من المَرقِي من غير حاجة ماسَّة؛

ماسة كما تقدم البيان، في حديث السبعين ألفًا، في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَلَا يَسْتَرْقُونَ»**.

فهذه هي أقسام أحكام الرقىٰ بحَسَب ما دَلَّت عليه الأدلة، وإذا ضبطتم هذا ينضبط لكم ما ورد في الرقىٰ، ويستقيم لكم الاستدلال بكل ما ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في باب الرقىٰ.

قال: **(وَالتِّوَلَةُ: شيءٌ يَصنَعُونَهُ يَزعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرأَةَ إِلَىٰ زَوجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَىٰ امرَأَتِهِ)**: **والتِّوَلة**: نوع من السِّحر، يُسمَّىٰ «سِحر العَطف»، وهو عزائم تُجعَل لتَجعَلَ الرجلَ يُحب المرأة، أو تجعل المرأه تحب الرجل، بل -والعياذ بالله- بعضهم ظلمات بعضها فوق بعض؛ يجعل الرجلَ يُحب الرجل، وقد عايَنتُ هذا بنفسي، في رجُلٍ سُحِرَ -والعياذ بالله- حتىٰ أصبح يُحب رجلًا معينًا، ويذهب إليه وهو كاره لهذا!

فهذا يسمىٰ سحر **العَطف**؛ وهو يقابل سحر **التَّفريق**: وهي العزائم التي توضع لتُفَرق بين الزوجين، إما التفريق الحسي وإما التفريق المَعنَوي.

التفريق الحسي: بأن تُبغِضَ المرأة الرجل وتفارقه تمامًا، أو العكس، الرجل يُبغضها.

والتَّفريق المَعنَوي: بألَّا يستطيع الرجل أن يجامع امرأته؛ ويسمىٰ بسحر **الرَّبط**.

فعندنا سِحرُ العطف، وعندنا سِحرُ التفريق، وعندنا سِحرُ الرَّبط، وكلها

مُتعلِّقة بالزوجَين.

فالتولةُ: هي سحر العَطفِ، وهو شيء يصنعونه قد يكون مأكولًا أو مشروبًا، وهذا أخبث هذه الأنواع؛ لأنه يصعب التخلُّص منه، فيوضع في مَشرُوب الرجل أو المرأة، أو في أكلِ الرجل أو المرأة.

وقد يكون مكتوبًا في أحجبة، أو نحو ذلك؛ يَزعُمون أنه يُحَبِّب المرأة إلىٰ زوجها، والرجل إلىٰ امرأته.

وهذا التفسيرُ جاء عن ابن مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بإسنَادٍ صحيح، كما عند ابن حبَّان(١)، قالَ: «شَيءٌ يَصنَعهُ النسَاءُ يتَحَبَّبنَ إلىٰ أزوَاجِهنَّ».

والسِّحر كُله كُفر؛ كمَا قال تعَالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

فالتِّولة: شرك أكبر؛ لأنه لابد فيها من الاستعانة بالجن والشياطين -والعياذ بالله-، وليس فيها تفصيل.

إذن؛ الرقىٰ والتمائم كلها مَمنُوعة؛ لكن فيها تفصيل في وصفها، فقد تكون شركًا أكبر، وقد تكون شركًا أصغر، أو محرمة. والرقىٰ فيها تفصيل كما قدمنا.

أما التِّوَلة؛ فلا تفصيلَ فيها؛ بل كلها شِركٌ، وهي شرك أكبر، وهي من الكُفر الذي يُخرِجُ من المِلَّة.

---

(١) في «صحيحه» برقم (٦٠٥٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحمَدُ عَن رُوَيفِعٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رُوَيفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَن عَقَدَ لِحيَتَهُ، أَو تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ استَنجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَو عَظمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنهُ».

الشرح

هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم(١).

وسكت عنه أبو داود، وما سكتَ عنه أبو داود؛ فهو صَالح عنده.

وقال النَّووي: إسنَادُه جيِّد(٢)، وصحَّحه ابنُ مُفلِح(٣)، وصحَّحه الألباني(٤).

وقال الشيخُ ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الحديث فيه لين، وله شواهد.

وقال مَرَّة: هو جيد بطُرُقه.

وقال شيخُنا العبَّاد: الحديث ثابتٌ بطريقَيه عند أبي داود.

فالحديث ثابت وصحيح، وله طُرُق وشَوَاهد.

قال: (**عَن رُوَيفِعٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا رُوَيفِعُ، لَعَلَّ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٩٥-الرسالة)، وأبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٦٧).

(٢) «المجموع شرح المهذب» (٣/ ١٥٤).

(٣) «الآداب الشرعية» (٣/ ١٥٤).

(٤) في «صحيح سنن أبي داود»، و«صحيح سنن النسائي».

الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ): وهذا علىٰ سبيل الظن، وقَد وقع؛ فقد طَالَت الحياة بِرُويفع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي هذه الجُملة فَائدَة، وهي: أن الدعوة إلىٰ الحق لا تنقطع بمُرور الأزمان، بل يُدعَىٰ إلىٰ التوحيد والحَقِّ ما بقي الزَّمان.

وقوله: **(لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ)**: **في هذا أيضًا فائدة، وهي**: أنه كلما بعد الناس عن زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت حاجتُهُم إلىٰ التعليم أكثر، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخبِرِ النَّاسَ**»؛ أي: عندئذٍ، عندما تطول بك الحياة.

(فَأَخبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَن عَقَدَ لِحيَتَهُ): **اللحيَةُ**: كانت في صَدر الإسلام موجودة عند الرجَال، ولا يتطَرَّق إليها الحلق، وحَلقُها إنما حدث عند المتأخِّرين، وهو حرامٌ بإجماع العلماء؛ بل وقفت علىٰ من قال من أهل العلم: «إنَّ حلق اللحيَة أشدُّ من فِعل المَجُوس»؛ لأن المجوس لا يَحلِقُونها بالكلية.

(أَنَّ مَن عَقَدَ لِحيَتَهُ): أي: أن الرجلَ الذي يعقِدُ لحيته فإنَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريء منه.

فما معنىٰ أن يَعقِدَ لِحيَتَهُ؟

قال بعضُ أهل العلم: معناه: أن يُضَفِّرها، ويعقدها، ويجعلها عُقدًا؛ ويفعل هذا أحيانًا في الحروب، وقد كان هذا من فعل الأعاجم الكفار، أنهم يَعقِدُون لحاهم إما أن يجعلها في جهتين، فيعقد جهة ويجعلها عُقدًا ويضفرها، والجهة

الأخرىٰ يعقدها ويجعلها عقدًا ويضفرها، كضفائر النساء، فتضفير اللحية كضفائر النساء حرام لا يجوز، ومن كبائر الذنوب، وهو تشبُّه بالأعاجم الكفار.

وقال بعض أهل العلم: معناه: أي: مَن نَفَش لحيتَهُ وجَعَلها علىٰ طريقة النساء في مُعَاملة شعورهن، فهذا فيه تشبه بالنساء من جهة معاملة الشعر، أن يعامل شعر لحيته كما تعامل المرأة شعرها، فيتشبه بالنساء.

أمَّا تسريح اللحيَة وتَرجيلها فهذا سُنَّة ثابتة عن النبي ﷺ أن الرجل يُمَشط لحيته، ويُرجِّلها، ويُكرِمُها.

والرجل مُحرَّم عليه -وهذا من كبائر الذنوب- في لحيته أمران:

الأمر الأول: أن يضفرها ويعقدها؛ يجعلها عقدًا يدخلها في بعضها، كما يفعل الأعاجم الكفار في زمن النبي ﷺ.

الأمر الثاني: أن يجعل عنَايَتَهُ بلحيته كعنَاية النساء بشعورهن، فيفعل ما تفعله النساء بشعورهن، وبعبارة أخرىٰ: أن يتشبه بالنساء في عنايته بشَعر لحيته، فيَعتَني بها اعتناء النساء بشعورهن؛ أما إعفاء اللحية فواجب، وأما تسريحها وإكرامها فسنة ثابتة عن النبي ﷺ.

قال: (**أَو تَقَلَّدَ وَترًا**): **والوَتَر** -كما سبق بيانه-: هو الخيط الذي يتَقلَّد لدَفعِ البلاء أو رَفعِه، والغالب أن يكون من الأمعاء؛ لكنه يشمَلُ كل خيط، فمن وضع خيطًا في يده لدفع العين ليُحمَىٰ، حتىٰ لا تقع له حوادث في سيارته، أو ليُشفَىٰ من مرضه؛ فهذا الذي عقد وترًا برئ منه النبي محمدٌ ﷺ.

ووالله إن المسلمَ المُحِب للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لو خُيِّر بين أن يبقىٰ مريضًا طوال حياته، ولا يَدخُل في قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنه بريء منه، وبين أن يُشفَىٰ من المرض فورًا ويَدخُل في قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنه بريء منه؛ لاختار أن يبقىٰ مريضًا.

فبراءة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المُسلم ليست شأنًا سهلًا عند المسلم؛ بل هي أمر عظيم، فمَن تقلد خيطًا لدفع العين عنه، أو قلد أبناءَه الخيط لدفع العين عنهم، أو لرفع البلاء فإن محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بريء منه.

(أَوِ استَنجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ): رجيع الدابة: إن كانت الدابة مما يُؤكل لحمه، كالشاة مثلًا؛ فالاستجمار برجيعها يُفسد هذا علىٰ دوابِّ الجن الصالحين المسلمين؛ لأن رجيعَ الدواب التي يُؤكَلُ لحمها علَفٌ لدواب الجن، فإذا استنجىٰ به واستجمر نَجَّسه، فأتلفه علىٰ دواب الجن.

وإن كان هذا الرجيع لدابة لا يُؤكَلُ لحمُها؛ فهو نجس، والنجاسَةُ لا تُزَال بالنجاسة.

فالذي يأتي برجيع كلب أو نحو ذلك، ويستجمر به؛ كمَن غسَل ذَكَرَه من البول بالبول.

قال: (أَو عَظمٍ): فإن العَظمَ إذا كان ممَّا يؤكل لحمه، فهو طعام الجن، فإذا استجمر به الإنسان أفسَده علىٰ الجن، وإذا كان مما لا يُؤكل لحمه، فلا تحصل به الطهارة؛ لأنه أملس، ولا يُزيل النجاسة.

إذن؛ يَحرُم علىٰ المسلم أن يستجمر برجيع دابة، أو بعَظم؛ فمَن فعل ذلك فإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيء منه.

وهذه الجملة ليس المقصود منها أنه يَكفُر؛ وإنما المقصود أنه لا يَكُون علىٰ سُنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذلك كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي**»[١]؛ أي: في هذا الفعل، ليسَ علىٰ سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بهذه الجملة تغليظًا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمُ أن هذه الجملة تَعظُم في قلب المسلم إذا سَمِعَهَا.

قال: (فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنهُ): ولا شَكَّ أن المسلم إذا سمع هذا سَيبتَعِدُ عن هذه الأمُور.

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: «مَن قَطَعَ تَمِيمَةً مَن إِنسَانٍ، كَانَ كَعَدلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ.

الشرح

سعيد بن جبير: هو الفقيه التابعي الكبير، قال هذه المقولة العظيمة، وقد رواه عنهُ وَكِيع، وابن أبي شَيبة[1].

(**قَالَ: مَن قَطَعَ تَمِيمَةً مَن إِنسَانٍ**): وقَطعُها، إما بأمر فَاعِلها أن يقطعها؛ فإذا أمرت فَاعِلَها أن يقطعها وبينت له أنها شرك، فقَطَعَها؛ فقد قطعتها أنت، أو بأن يقطعها الإنسان بنَفسِه إذا أَمِنَ الفِتنَةَ.

وما وجه أن من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة؛ يعني: كمن أعتق رقبة، ومن أعتق رقبة؛ أعتق بها يوم القيامة؟!

قالُوا: وجه هذا أن من تعَلَّق تميمة فقد أشرَكَ، فإذا قطعت عنه التميمة فقد أعتقته من الشِّرك، وهذا أعظم في الحقيقة من العِتقِ الحسي.

فعتقُ المسلم من الشرك أعظم من عتقه من الرِّق؛ لأن الرق ذُل في الدنيا، أما الشرك فذُلٌّ في الدنيا والآخرة.

ولذلك شيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما عَلَّق علىٰ هذا، قال: «هو أعظَمُ من

---

(١) في «المصنف» (٥/ ٣٦) برقم (٢٣٤٧٣).

عِتق الرَّقَبة»[١].

وكلما عَظُم نوع الشِّرك عَظُم الثواب، يَعني: أن تخرج مسلمًا وقع في الشرك الأكبر، فتأتي إليه وتُبَين له أن العكوف علىٰ القبور، والنذور لها، والسؤال لها، شرك أكبر؛ فيفتح الله قلبه فيترك هذا؛ هذا أعظم لك من أن تعتق رقابًا كثيرة.

ولا شكَّ أن المعنىٰ صحيح، وإن كان هذا ليس حديثًا، ولا أثرًا عن صحابي، وإنما هو قول تابعي، وقول التابعي ليس حجة؛ لكن معناه صحيح ولا شك إذا نظرنا إلىٰ حقيقة الأمر والواقع.

❀❀❀

(١) مقطع صوتي علىٰ الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعنوان: «شرح حديث: مَن قَطَع تميمةً مِن إنسانٍ».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ عَن إِبرَاهِيمَ، قَالَ: «كَانُوا يَكرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ».

الشرح

(**وَلَهُ**): أي: لوكيع[1].

(**عَن إِبرَاهِيمَ**): النَّخعي، وقد قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بسَندٍ صحيح»[2].

(**كَانُوا**): قالَ بعضُ أهل العلم: أي الصحابة، حيث لم يَثبُت عن أحد من الصحابة أنه جَوَّز تعليق التميمة من القرآن.

(**يَكرَهُونَ**): أي: يَمنَعُون، والكراهية عند السلف تعني المَنع والتحريم في الأصل.

(**كَانُوا يَكرَهُونَ**): أي: يمنعون ويحرمون.

(**التَّمَائِمَ كُلَّهَا**): وهذا يدل علىٰ العموم، ثم أكَّد العموم، فقال: (**مِنَ القُرآنِ وَغَيرَ القُرآنِ**).

وقال بعض أهلِ العلم: (كَانُوا)؛ أي: أصحاب ابن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا عند مَن ظَنَّ أنه ثبت عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه أجاز ذلك!، فقال: يقصد أصحاب ابن مسعود، ولا شك أن ابن مسعود وأصحابه كانوا يحرمون التمائم

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٨٢ ابن كثير)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٦).

(٢) «تخريج الكلم الطيب» للألباني (ص٤٥).

كلها، لكن الأقرب -والله أعلم- أن هذا عائد إلىٰ من أدركهم إبراهيم النخعي من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وهو يَحكي عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ الرُّقَىٰ وتَفسِيرُ التَّمَائِمِ.

وقد تقدم تفسره.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ التِّوَلَةِ.

وقد تقدمت، وبيَنَّا أنها من السحر، ولا يزال هذا -للأسف- في المسلمين، بل هو أكثر السِّحر ظهورًا، ولاسيما بين النساء.

والتِّولة يَجبُ أن نحذر منها، وأن نبين للمسلمين أنها كُفر؛ لأن بَعضَ النسَاء تقول: أنا ما صنعت شيئًا، أنا جعلت زوجي يحبني، وهو زوجي!

نقول: لا، لمَّا سَحَرتِ وَقَعتِ في الكُفر، وفَعلتِ كُفرًا، حتىٰ لو كان المقصود أن يُحبَّكِ زَوجُك.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذِهِ الثَّلاثَةِ كُلَّهَا مِنَ الشِّركِ مِن غَيرِ استِثنَاءٍ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الرُّقيَةَ بِالكَلامِ الحَقِّ مِنَ العَينِ والحُمَةِ لَيسَ مِن ذَلِكَ.

يظهر -والله أعلم- أن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَىٰ أن الرقية الجائزة هي رقية العين والحُمَة فقط. وهو قول لبعض أهل العلم، لقَول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أَو حُمَةٍ**».

وقد تبين لنا فيما سبق أن الحُمَة: إما أنها السم، أو ذوات السموم؛ فتكون

الرقية من اللَّدغ، لكن -كما تقدم- الرقيَةُ الجائزة أوسَعُ من هذا.

الخَامِسَةُ: أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَت مِنَ القُرآنِ فَقَدِ اختَلَفَ العُلَمَاءُ: هَل هِيَ مِن ذَلِكَ أَم لَا؟

وقد قلنا: اختلف العلماء من زمن التابعين، أما زمن الصحابة فلم يثبت الاختلاف، وإنما ثبَتَ تحريم ابن مسعود لها. لكن من زمن التابعين وقع الاختلاف إلىٰ يومنا هذا، والعلماء مُختَلِفُون في تعليق التميمة من القرآن، وبينَّا أن الراجحَ أنه حَرَام، ودلَّلنا علىٰ ذلك.

السَّادِسَةُ: أَنَّ تَعلِيقَ الأَوتَارِ عَلَىٰ الدَّوَابِّ مِنَ العَينِ مِن ذَلِكَ.

أي: من التَّمَائم المُحرَّمة، وليس المقصود أنها من المُختَلف فيه، وإنمَا المقصود أنها من التمائم المُحرَّمة التي هي شِرك.

السَّابِعَةُ: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَىٰ مَن تَعَلَّقَ وَتَرًا.

لأن النبيَّ ﷺ قال: «**فَإِنَّ مُحمَّدًا بَرِيءٌ مِنهُ**». ولا شَكَّ أن هذا وَعيدٌ شَديدٌ.

الثَّامِنَةُ: فَضلُ ثَوَابِ مَن قَطَعَ تَمِيمَةً مِن إِنسَانٍ.

وهو أنه يكون كعدل رَقَبَة؛ يعني: كثواب العتق.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ كَلامَ إِبرَاهِيمَ لا يُخَالِفُ ما تَقَدَّمَ مِنَ الاختِلافِ؛ لأَنَّ مُرَادَهُ أَصحَابُ عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ.

وهذا مبنيٌّ -كما تقدَّم- علىٰ أن الصَّحابة رضي الله عنهم قد اختلفوا في المسألة،

وأن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جاء عنه جواز التعليق، فيُحمَل هذا الأثر علىٰ أن المقصود به: أصحَاب ابن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن تقدم أن المنسوب إلىٰ ابن عمر لم يَثبُت.

ولذلك نقول: إنَّ إجماع الصحَابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ظاهره سبَقَ خلاف العُلمَاء الذين بَعدَهُم.

❁❁❁

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَن تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَو حَجَرٍ وَنَحوِهِمَا.

الشرح

عقَّب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا الباب؛ لأن التبرك بالأماكنِ، والقبور، والأحجار المَبنيَّة علىٰ القبور، والحَديد في بعض الأماكن، كثير في الأمة!

وإن شئت انظر إلىٰ إخواننا الذين يقدمون من بعض البُلدان، عندما يَصِلُون إلىٰ مكة والمدينة، تجد أنهم يَمُرون بهذه الحيطان، ويلمسون هذه الحيطان، وإذا جاءوا عند هذه الأبواب المَصنُوعة في خارج المدينة، بل بخارج البلاد، يتمسحون بها، وربما وَضع خَدَّه عليها، فضلًا عن المِحراب العثماني الموجود في طرف الروضة، يظنونه محرَابَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس كذلك، فلم يكن للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محراب في المسجد، وإنما حدث هذا متأخرًا، ويتمسحون به، فضلًا عما تراه من تمَسُّح ببلاط الحرم، ونحو ذلك!

فهذا التبَرُّك بالأحجار، والأشجار، والحديد، والقبور، كثير في الأمة، ولا يزال كثيرًا، فالأمر بحاجةٍ إلىٰ التنبيه عليه، فذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنَا.

والشيخ هنا ينوع في الأساليب في التبويب؛ لأنه هنا لم يقل: بابٌ من الشرك التبرك بشجرة أو حجر ونحوهما، كما قال في الباب قبلَ السابق، ولو قال لكان صحيحًا، لكنه يُنَوِّع في الأسلوب، وهو هنا بوَّب بأسلوب بديع جميل؛ لأنه ترك معرفة الحكم للقَارئ، من خلال النصوص، فكأنه يقول

للقارئ: يا أيها القارئ الكريم، أتريد أن تعرف حُكمَ التبرك بالشجر والحجر، انظر بنفسك!، قال الله كذا، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا، فاحكم بنفسك بما تسمَعُ من قول الله، وقول رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتقدير الباب: مَن تَبَرك بشجر أو حجر ونحوهما فقد أشرك، أو: من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما فمَا الحُكمُ؟

وهذا علىٰ أن (مَن) هنا شرطية، تحتاج إلىٰ جواب.

أو يكون التقدير: بيان حال من تبرك بشجرة أو حجر.

وهنا تكون (مَن) مَوصُولة، بيان حال الذي تبرك بشجرة أو حجر، ما حاله في الإسلام؟

والتَّبَرُّك: هو طلبُ حُصُول البركة.

والبَرَكة في اللغَة: النماء، والكثرة، والزيادة، والثبات، والاستقرار.

أما النمَاءُ، والكثرة، والزيادة، فالبَرَكة هنا مأخوذة من البِركة، والبِركة: مكان اجتماع الماء الكثير، وهو ينمو ويكثر بنزول المَطر.

وأما الثبات والاستقرار فمن بُرُوك البَعير؛ لأن البعير إذا نزَلَ ثَبَت واستقر.

ومعنىٰ التَّبَرك: طلب حصول الخير، وكثرته -بزيادة الرِّزق والوَلَد-، ونمائه، وثباته، واستقراره.

والبركة ثابتة، فالله بارَكَ فيمن شاء من مخلوقاته، **وهي تنقَسمُ إلىٰ أقسَام**:

بركة شَرعيَّة: وهي البركة التي تحصل من جهَةِ الشَّرع، وتتعلق بالشرع، كبركة الأعمال الصالحة؛ فالصَّلاة فيها بَرَكة، وهذه بركة شَرعيَّة؛ لأنها تتعلق بأمر شَرعي وهو فعلُ الصَّلاة.

وبَرَكة المدينة النبويَّة كذلكَ بَرَكة شَرعيَّة، والبركة التي في المدينة تتعَلَّق بالشرع، فمن بركة المدينة التي تتعلق بالشرع: أنك إذا صليت في مسجد النبي ﷺ بورك في صلاتك، فصَلاتُك في مسجدِ النبي ﷺ خير من ألف صَلاةٍ فيما سِواهُ إلا المَسجِد الحَرَام[1].

وكذلك للمَدينَة بَرَكة تتعَلَّق بالدنيا؛ فمن ذلك: الكيلُ والوَزن، فالكيلُ في المدينة مبَارَك، والعيشُ في المَدينة مُبَارك، ولكن الأصل أنها بَرَكة شرعية.

وبركة دُنيويَّة: وهي البَركة التي تتعلق بأمور الدنيا، كبركة المطر، فالمَطَر ماءٌ مبارك، وبركته تتعلق بأمور الدنيا من نَبَات الزرع، وحصُول الحياة، ونحو ذلك، وإن كان فيه بركة شرعية أيضًا من جهة الوضوء به، والغُسل، ونحو ذلك، لكن الأصل أن البركة دُنيوية.

بَرَكة ذاتيَّة: هي التي تكون الذاتُ فيها مُبَاركة، كذاتِ النبي ﷺ، فذاتُ النبي ﷺ مباركة، والله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باركَ النبيَّ ﷺ.

وبَرَكة الكعبة، والمَسجد الحرام، والمَسجِد النَّبوي، كلهَا ذَوَاتٌ مُبَاركة.

---

(١) عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَلَاةٌ فِي مَسجِدِي هَذَا خَيرٌ مِن أَلفِ صَلَاةٍ فِي غَيرِهِ مِنَ المَسَاجِدِ، إِلَّا المَسجِدَ الحَرَامَ**». أخرجه مسلم (١٣٩٤).

وبرَكَة عَمَل: وهي التي تكون حاصلةً بسَبب الأعمال الصَّالحة، كبركة المسلم، ففي المسلم بَرَكة.

فقد ثَبتَ في الحَدِيث الصَّحيح أن للمُسلم بَرَكة، ثم يتفاضَلُ المسلمون في البركة؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البَرَكةُ مَعَ أكَابِرِكُم**»[(١)].

فالمسلمون فيهم بَرَكة، لكن هذه بركة عمل، ليست بركَةَ ذات، فذواتُنا تُزكَّىٰ بالأعمال الصالحة، لكن بَرَكة المسلم بعَمَله الصالح، بالتوحيد، بعَمله بالسنة، بصلاته، بزكاته، بصيامه، بحَجِّه.

والمتقرِّر المقطوع به بالأدلة اليقينية، أن الذي يُبارِك هو الله وحده لا شريك له، فلا مخلوق يُبَارِك، وإنما الذي يُبارك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله يُبَارِك، والمَخلُوق يُبَارَك، يُبارِكُه اللهُ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل المَخلُوقات، ما بَارَكَ نَفسَه، بل الذي بارَكَه هو الله، والمسلمون كانوا يَدعُون له بالبركة، ولا يزالون يَدعُون: اللهم بارِك علىٰ محمدٍ وعلىٰ آل مُحمَّد.

إذا تقرَّر هذا؛ فإنه يترتَّبُ علىٰ ذلك أمرَانِ عَظيمَان في بابِ التبَرُّك:

الأمر الأول: أن البركةَ لا تثبُت إلا لِمَن أثبَتَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له البَرَكة، من الأمكنة والأزمنة والبشر، فلا تثبت البركة بالرأي ولا بالهَوَىٰ، وإنما تثبُتُ لمن

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٥٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٧٨).

أثبت الله له البركة.

الأمر الثاني: أن البركة لا تُطلب إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن طلب البركة من غير الله، أو اتخذ سببًا لحصُول البركة -لم يجعلُه الله سببًا لحصولها-؛ فقد أشرك.

وهو هنا إن اعتقد أن المَخلُوق يهب البركة بذاته، وتُحصَّلُ منه البركة بذاته، فهذا شركٌ أكبر؛ لأنه جعل ما لله لغير الله، وهذا أظلمُ الظُّلم، الذي يعتقد أن المَخلوقَ بذاتِهِ يُبارِك، ويُعطي البركة بذاته، **هذا شركٌ أكبر!**

وإن اعتقد أن المَخلُوق واسطة بينه وبين الله، يتقرَّبُ بها إلىٰ الله، يذهب إلىٰ القبور يتبرَّك بها، ويقول: هؤلاء واسطة بيننا وبين الله، نتقرَّب إلىٰ الله بهم!؛ فهذا شركٌ أكبر، كشِركِ المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٣].

نعوذ بالله من هذا القول ومن هذا الفعل.

وإن اعتقد أن المخلوق سَببٌ لحصول البركة من الله، فهو يعتقد أن البركة من الله، وأن هذا المخلوق مجرد سَبَب، وليس واسطة بينه وبين الله، مثل كَون الدواء سببًا للشفَاء، **فهذا شركٌ أصغر!**

فالذي يأتي عند القبر، ويأخذ من التراب، ويضعُه علىٰ رأسه يتبرك به، ويعتقد أن وضع التراب هذا سببٌ لأن يُنزِل الله عليه البركة، وهو ما اعتقد أن البركة من صاحب القبر يعطيها له، ولا أنه واسطة بينه وبين الله، لكن اعتقد أن تراب قبر الرجل الصالح سبب لنزول البركة من الله، فهذا شرك أصغر؛ لأنه

جعل سببًا ما لم يجعله الله سببًا شرعًا ولا قدرًا، فلا يكون ذلك إلا من تعلُّق القلب والعقيدة، فهو شركٌ أصغر، وهذا التبرُّك المَمنُوع.

أمَّا التبَرُّك المَشرُوع: فهو الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ، وهو اتخاذ سبب لحصول البركة من الله؛ لأن الدليل دلَّ علىٰ أن هذا السبب مبَاركٌ، وتُلتَمسُ فيه البركة، بشرط أن يكون هذا الاتخاذ علىٰ الوجهِ المشروع.

ومِن أمثلة ذلكَ:

أن تتخِذَ سُكناك المَدينة سببًا لحصولِ البركة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ جعل في المدينة ضِعفَي ما في مكة من البركة بدعاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، وتسكُن في المدينة، وتُصلي في مسجدِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا تبرُّك مشروع؛ لأنك جَعلتَ المدينة سببًا لحصول البركة من الله، ما اعتقدت أن المدينة تُبارِكُك، ولا أنها من الوسطاء، وإنما هي سببٌ، وقد جعلها الله سببًا بما جعل فيها من البركة، علىٰ الوجه المشروع.

ولكن لو أنك جئت وسكنت في المدينة، والمدينة مُباركة، وأخذت التراب، وأصبحت تأكُل من ترابِ المدينة، وتقول: المدينة مباركة!، وتضع التراب علىٰ رأسك، وتقول: المدينة مباركة!، هذا تبرُّك ممنوع. لماذا؟؛ لأنك تبركت بالمدينة علىٰ غير الوجه المشروع، وهو التبَرُّك بترابها، وحَجَرها، فإن هذا لم يثبُت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائل: ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يبُلُّ ريقه، ويأخُذُ شيئًا من التراب، ويقول: «**بِاسمِ اللهِ، تُربَةُ أَرضِنَا، بِرِيقَةِ بَعضِنَا، لِيُشفَىٰ بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذنِ رَبِّنَا**»[1].

قُلنا: هذا ليس تبرُّكًا بالأرض، إنما هذا علاج، أن يجمع بين الرِّيق والتُّراب، وهذا في أي مكان، وليس خاصًّا بالمدينة.

وكذلك الحجر الأسود، فالحجر الأسود مُبارك، فإذا ذهبت وقبَّلت الحجر الأسود تلتَمِسُ بركته بأن يكتُب الله لك ثواب السُّنة، وأن يحُط الله عنك الخطايا، وأن يشهد لك الحجرُ الأسود يوم القيامة، فهذا تبَرُّك مشروع؛ لأنك تبركت بالحجر الأسود وجعلته سببًا لحصُولِ هذا الثواب؛ لأن الله جعل فيه ذلك، وفعلته علىٰ الوجه المشروع.

لكن لو إنسانًا أصلع، وجاء إلىٰ الحجر الأسود وقبَّله، ثم وضع صَلعَته علىٰ الحجر الأسود، يريد أن يتَبَرَّك به ليَطلع له شَعر، أو مريض عنده جُروح في يده، فأصبح يتمسَّح في الحجر الأسود، يتبرك به حتىٰ يُشفىٰ جرحه.

فهذا فَعَل محظورين: آذىٰ المسلمين بما مسحه في الحَجَر من الأذىٰ، والتمس بركةً من الحجر علىٰ غير الوجه المشروع.

ولذلك لما جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقبِّل الحَجَر الأسود قال: «**إِنِّي أَعلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لَا تَضُرُّ وَلَا تَنفَعُ، وَلَولَا أَنِّي رَأَيتُ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُقَبِّلُكَ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٥)، ومسلم (٢١٩٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مَا قَبَّلْتُكَ»[١].

فجمع بين فعل المَشرُوع وتَرك المَمنُوع، وهو أن تتبرك بالحجر الأسود بقصدِ دفع ضرٍّ أو جَلبِ نفع.

وكذلك لو أن إنسانًا ذهب إلىٰ ما يُسمَّىٰ بحِجر إسماعيل، وصار يُقبِّل الحجر، يقول: أتبرَّك بالكعبة؛ لأن الكعبة مُباركة!

قُلنا: نعم الكعبة مُباركة، لكنك تبرَّكت علىٰ غير الوجهِ المشروع، فيكونُ ذلك ممنوعًا.

إذن؛ التبرُّك المَشرُوع لابُدَّ فيه من صفَات:

الصفة الأولىٰ: أن يثبُت أن الشيء مُبارك زمانًا، أو مكانًا، أو ذاتًا.

فإذا جاءنا إنسان وزعم أن شيئًا مبارك، ولم يَدُل عليه دَليل، كمن قال: العشر أيام الأول من ربيع الأول مباركة، أو قال: العشرة الأواسط من ذي القعدة مباركة!

نقول: ما دليلك علىٰ هذا؟؛ فالذي يُبارِك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولا دليل علىٰ هذه الأقوال.

لكن الذي يأتي ويقول: رمضان مبارك، نقول: علىٰ الرأس والعين، الذي يقول: ليلة القدر مباركة، نقول: علىٰ الرأس والعين، الذي يقول: المدينة مباركة، نقول: علىٰ الرأس والعين؛ لأن الدليل دلَّ علىٰ أنها مباركة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧).

الصِّفَة الثانية: أن يدُلَّ الدليلُ علىٰ أن هذه البَرَكة تُطلَبُ وتُلتمس، فقد يثبت الدليل أن الشيء مبارك، لكن لا يدُل دليل علىٰ أن هذه البركة تُطلب.

مثل: بركة المسلم، المسلم مبارك العمل، لكن لو أن إنسانًا جاء إلىٰ شخص يرىٰ أنه صالح من الصالحين؛ لأنه يراه يُبكِّر للمسجد وكذا، وقال: اتفل علي لأنك مبارك!؛ نقول: هذا تبرُّك ممنوع.

أو قال: توضَّأ واترك لي بَقيَّة وضوئك، أريد أن أشربه، لأن بطني تؤلمني، وأنت مبارك، نقول: لا، لم يَدُل الدليل علىٰ أن هذه البركة تُطلب وتُلتمَس.

فإن قالَ قَائلٌ: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتبَرَّكون بما انفصل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من عَرَقٍ، وريق، ووَضوءٍ، وشعرٍ!

قلنا: نعم، البركة في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت متعدية، لكن مَن الذي يقرُب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضلًا عن أن يُساويه؟!

كيف نقيس غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ النبي؟!، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُدانيه أحد، بل لو أن الأمة كلها اجتمعت في رجُلٍ واحد لما اقترب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضلًا عن أن يُساويه، وشرطُ القياس المُساواة.

ثم إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمَعُوا علىٰ أن هذا خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك أبو بكر الصَّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو رجُلٌ مُبارك، ما كانوا يتبَرَّكون بما ينفَصِلُ عنه، فمن باب أولىٰ مَن بعده، فإن كل من جاء بعد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لن يكون قريبًا من أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمن باب أولىٰ من جاء

بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإن من جاء بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لو أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مُدَّ أحد الصحابة أو نَصيفَه.

فإن قال قائلٌ: جاء حَديث!، قُلنا: ما هو هذا الحَدِيث؟

قالوا: يَزعُمون أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَو اعتقَد أحدُكُم علىٰ حجرٍ لنفَعَه»[1]!

يَقُولون: إذا كان هذا في حَجَر، فمن باب أولىٰ إذا كان في الصالحين!

نقول: هذا الكلام مَكذُوب علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَقُل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

فإن قال قائلٌ: إن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبعث إلىٰ المطاهر، يعني: الأماكن التي يتوضأ فيها المسلمون، ليُؤتَىٰ بالماء، يلتمِس بركة المسلمين. ويذكرون حديثًا في هذا[2]!

قلنا: هذا الحديث مُنكر، ولا يمكن أن يكون، فهو غيرُ ثابت، ثم هو في ذاته لا يُمكن؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبارك، فكيف يذهبُ يطلُب الماء من

---

(١) حَديثٌ مَوضُوع: انظر: «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (٢٤/ ٣٣٥)، و«المنار المنيف» لابن القيم (٣١٩)، و«كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ١٧٨/ ٢٠٨٧).

(٢) أخرج الطَّبراني في «المعجم الأوسط» (٧٩٤) عَن ابن عُمَرَ مَرفُوعًا: «كَانَ يَبْعَثُ إِلَىٰ المَطَاهِرِ فَيُؤْتَىٰ بِالمَاءِ فَيَشْرَبُهُ؛ يَرْجُو بَرَكَةَ أَيْدِي المُسْلِمِينَ».

وهو حديثٌ مُنكرٌ كما في «السلسلة الضعيفة» (٦٤٧٩)، وقد كان الشَّيخُ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ قد حسَّنهُ سابقًا في «السلسلة الصحيحة» (٢١١٨) ثُمَّ تبيَّنت لهُ نكارتُهُ.

المطاهر، ليلتمس بركة المسلمين؟!، هذا لا يليق بمقام النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ!

وكذلك إذا جاء شخصٌ وقال: أنا ألتمس البَركة من هذا المُسلم، مثلما يفعل البعضُ، إذا سلَّم علىٰ شيخ أو رجل من الصالحين، دعك يده بيده، وربما تمسَّح به يلتمس البركة؛ لأن فيه بركة؛ لأنه مسلم ولأنه صالح!

نقُول: لم يَدُل الدليل علىٰ أن هذه البركة تُلتَمس وتُطلَب.

الصِّفة الثالثة: أن يكون الالتماسُ علىٰ الوجه المَشرُوع.

فلو جاءنا شخص وقال: الكعبة مباركة، وفيها بركة تُلتمَس، وأنا سأُقَطِّعُ ثوبَ الكعبة، مثلما يفعل بعض الزُّوار، أو بعض الحجاج، يأتون بمقصات، ويَجعَلُونها في جيوبهم، ثم يَقُص من ثوب الكعبة، ثُم يذهب إلىٰ بلاده ويضع هذا في قارورة، ويُعالج الناس به بمَبَالغ باهظة، ويزعم أنها بركة!

وهذا الفعل ظلمات بَعضُها فوق بعض؛ فهو لصٌّ، ويَسرق من بيت الله، ويتبَرَّك بالكعبة علىٰ غير الوجه المشروع، فهذا تبَرُّك ممنوع.

لكن لو أنك طُفت بالكعبة، فهذا تبرك مشروع؛ لأنك فعلته علىٰ الوجه المشروع، وإذا قَبَّلت الحجر الأسود فهذا تبَرُّك مشروع، أو مَسَحت الركن اليماني فهذا تبَرُّك مشروع، لكن إذا تمَسَّحت ببقية الكعبة فهذا تبَرُّك ممنوع، لأنك فعلته علىٰ وجه غير مَشرُوع.

وكلُّ هذا مَبنيٌّ علىٰ أصلٍ عظيم، وهو: أن الخير من الله لا يُعرفُ إلا من طريقِ رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالذي علَّمنا هو رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بوحي

من الله، فالذي يأتينا بشيء لم يأتِ من طريق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يزعُم أنه سبب بركة، أو أنه مبارك، قلنا له: أين الطريق والدليل الصحيح؟!

قال: أنا رأيت في المنام!، قلنا: المَنَامات ليست نُورًا للطريق الصحيح!

قال: أنا شيخي قال لي، قلنا: مَن قال لشيخك؟، قال: جبريل! -هذا يدعيه بعض الغُلاة، يقولون: شيخنا يُحدِّثُه جبريل-؛ ولذلك يقولون: نحن أولىٰ منكم بالحق؛ لأنكم أنتم تروون عن ميت عن ميت، وأما شيخنا فيأخُذ عن حي عن الله، يأخذ عن جبريل عن الله!

قلنا: هذه فرية أعظم من فعلكم!، أن تكذِبوا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يُوحِي إلىٰ شيخكم عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن تُكذِّبوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «لَا نَبِيَّ بَعدِي»[1]!

إذن؛ مَن أراد إحكام الحق، فعليه بلزوم طريق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيَّاه والهوىٰ، وإيَّاه والآراء، وإيَّاه والظنون، فإنها طريقُ الشِّرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا ما سيتبين لنَا -إن شاء الله- في هَذا الباب العظيم.

❊❊❊

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩) من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِ اللهِ تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾ الآياتِ [النجم:١٩].

الشرح

بعض النسخ فيها الاقتصار على هذه الآية، وبعضُها أُكمِلت فيها الآيات، لكن الظاهر أن الشيخَ اقتصَرَ على صَدر الآية، ثم قال: (الآيَات)، يعني: أكمل الآيات.

قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:١٩-٢٣].

﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ﴾: هذا خطاب للمشركين، وذلك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قد رأى من آيات ربه الكبرىٰ، ورأىٰ المعجزات العظيمة، فجاء الخطاب: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾ أفرأيتم آلهتكم هذه!، ألها آيات؟، ليس لها آيات لا كبرىٰ ولا صغرىٰ، ولا تنفعُ نفسها.

فهل لهذه الأصنام الآلهة آيات؟، ليس لها آيات. هذا وجه قاله بعض أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾: أي: أخبروني عن اللات، والعزىٰ، ومناة الثالثة الأخرىٰ، أخبروني عنها.

واللات: إما أن يقال (اللَّات) بسكون التاء، يعني: بالتخفيف، قيل: إنها من اسم (الله)، وأضافوا التاء للتأنيث، فأصبحت: اللات؛ لأنهم يُؤنِّثونها.

وقُرِئَت (اللاتَّ) بتشديد التاء، واللاتُّ: رجل كان يلتُّ السويق للحجاج علىٰ صخرة في الطائف، وإذا قدِم الحجاج يأكلون من هذا السويق، فمات، فدُفِن بجوار الصخرة، فعُبِد قبرُهُ، ثم انتقلت العبادة إلىٰ هذه الصخرة، التي هي بجوار القبر، وهي صخرةٍ مُربَّعة بيضاء عليها نقوش، وعليها بناء وأستار.

قيل: إن قريشًا كانت تعبُدُه، وقيل: إن أهل الطائف كانُوا يعبُدُونه.

والعُزَّىٰ: قيل من اسم (العَزيز)، وقيل لها (العُزَّىٰ) من أجلِ التأنيث، وهي شجرات، قيل: إنها من شجر التمر، ثلاث شجرات، وكان عليها بناء وأستار.

وقيل: كانت العُزَّىٰ حجرًا أبيض وبُني عليها، والعُزَّىٰ: آلهة قريش.

ومَنَاة الأخرىٰ: هي بيتٌ كان يعبُدُه الأنصار، قيل: سُمِّيت (مَناة) من اسم الله (المنَّان)، وأضيفت التاء للتأنيث.

وقيل: من كثرةِ ما يُمنىٰ عندها من الدماء؛ أي: يُراق، من كثرة ما يُذبح عندها من الدماء.

وقيل: سُمِّيت مناة من النأي، وهو البُعد؛ لأنها كانت أبعد الأصنام عن مكة، وقيل: من الأنواء؛ لأنهم كانوا يَستَقسِمُون عندها بالأنواء.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ الأخرىٰ هنا يعني: البعيدة؛ لأنها كانت الأبعَدَ عن مكة.

وكانوا يُسمُّون هذه الأصنام بأسمَاء مؤنثة، ويزعُمون -وبئس ما زعموا- أنهن بنات الله، مع أنهم يكرهون الإناث.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]. فهم لا يُحبُّون الإناث، ومع ذلك من قُبحِ ما يفعلون أنهم جَعَلُوا الإناث لله، وقالوا: لله بنات، وهم يكرهون البنات.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾: يعني: تجعلون الذكور لكم!، وتكرهون الإناث لكم!، وتجعلون الإناث لله!

﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾: قال بعض أهل العلم: يعني: عَوجَاء. وقال بعض أهل العلم: غير مُستَقيمة. وقال بعض أهل العلم: نَاقصَة. وقال بعض أهل العلم: ظَالِمَة. وكل هذه المَعَاني صحيحة.

ثم يبين الله تعالىٰ لهم حقيقة هذه الأصنام التي يعبدونها فقال مُبَينًا حالها: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ﴾؛ أي: ما هي إلا أسماء، ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، فما أمركم الله بها، ولا دلَّكم عليها، فمن أين جاءت؟، جاءت من الظنُون وهوىٰ الأنفُس، وهي ضلال، والله لا يأتي منه إلا الهُدَىٰ.

ومِن هنا نَجِدُ مناسبة هذه الآية للباب من وَجهَين:

الوجه الأول: أن كفَّار قريش ومن معهم كانوا يتبَرَّكون بالأصنام، ويلتمِسُون البركة منها، وهذا كفر وشرك، فمن التمس البركة من شجرة أو حجر أو حديد

أو قبر فقد فعل ما يفعلُهُ المشركون.

والوجه الثاني: أنهم في عبادتهم لِلَّات والعُزىٰ ومناة، إنما أخذوا ذلك من الظن وهوىٰ الأنفس.

وكذلك المُتبَرِّكون بالأشجار، والأحجار، والقبور، ممن ينتسِبُون إلىٰ الإسلام، إنما أخذوا ذلك من الظن وما تَهوىٰ الأنفُس، ما جاءهم دليل، وما دلهم الله علىٰ هذا، وما هداهم الله لهذا، لكنهم اتَّخَذُوها من الظنون، والأوهام، وظنوا أن فيها بَرَكات، وأن فيها خيرات، فشَابَهُوا المُشركين في هذا الأمر العظيم.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِي قَالَ: خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَينٍ وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، وَلِلمُشرِكِينَ سِدرَةٌ يَعكُفُونَ عِندَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُم يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنوَاطٍ، فَمَرَرنَا بِسِدرَةٍ، فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَكبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلتُم وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَت بَنُو إِسرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، لَتَركَبُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

الشرح

هذا الحديث رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي في «الكبرىٰ»، وابن حِبان[1]، وصححه الترمذي، وابن حبان، والألباني، وابن باز.

وقال ابن القيم: ثابت[2].

فالحديث ثابتٌ، وهو حديث عظيم، فيه فوائد عظيمة، وسبحان الله! كل ما يقع في زمن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه فوائد للأمة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٩٧-الرسالة)، والترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٢١)، وابن حِبان في «صحيحه» (٦٧٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، وابن باز في «مجموع فتاواه» (٣/ ٣٣٧ الشويعر).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٠٠- المعارف).

(عَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِي): قيل: اسمه الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن الحارث، وقيل: الحارث بن مالك، فاختُلِف في اسمه، واختُلف في إسلامه متىٰ كان؟

فقال بعضُ أهل العلم: هو من أهل بدر، يعني: من المسلمين الأوائل.

وقال بعض أهل العلم: هو قديمُ الإسلام.

وقال بعض أهل العلم: بل أسلم بعد الفتح، وهذا الراجح، أنه أسلم بعد الفتح؛ لأنه ذكر هذه القصة، وجاء في رواية عندَ الإمام أحمد[1] أنه قال: «قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ»، فهو أسلم عام الفتح، أو بعد الفتح.

قال: (خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَينٍ): وحُنين: اسم وادٍ بين مكة والطائف، وقد كان خُروجُهم في شهر شوال، من السنة الثامنة من الهجرة، بعد فتح مكة، وذلك لمَّا أرادَت ثقيف أن تُقَاتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم.

قال: (وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ): يعني بذلك: مَن أسلموا عام الفتح، أسلموا في رمضان، أو بعد رمضان، في شوال، في وقت الخروج، فهم قريبو عهدٍ بكُفر، وهذا -كما قالَ العلماء-: ذَكَرَهُ علىٰ سبيل الاعتذار، وعلىٰ سبيل البيان.

أما علىٰ سبيل الاعتذار: فهو يعتذر لما سيأتي مما يقُصُّه، يقول: عُذرُنا أنا

(١) برقم (٢١٩٠٠-الرسالة).

حُدثاء عهد بكفر، يعني: ما زلنا ما تَعلَّمنا ولا عَرَفنا.

وعلىٰ سبيل البيان: ليُبيِّن أن الذين قالوا ذلك إنما هم من مسلمة الفتح لا من الصحابة الأوائل، وإلا فإن الذين خرجوا أكثرهم من الصحابة الأوائل، ومعهم مَن أسلم في عام الفَتح.

قال: (وَلِلمُشرِكِينَ سِدرَةٌ): السِّدرة: هي شجر النبق، وهو معروف؛ أي: كانت لهم سدرة.

(يَعكُفُونَ عِندَهَا): والعُكُوف: هو اللزوم علىٰ سبيل التعظيم، يعني: إذا جاءوا عندها ومرُّوا بها لابُدَّ أن ينزِلوا عندها؛ تَعظيمًا لها.

(وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُم): يعني: يُعلِّقون بها أسلحتهم، رجاءَ أن تنتقل البركة من الشجرة إلىٰ السلاح؛ ليَكونَ السلاح أمضىٰ وأقوىٰ. يقولون: إذا علقنا أسلحتنا في هذه الشجرة نُبارَك، فتحُل بها البركة، فيُصبِح السلاح أمضىٰ في قتالنا لأعدائنا، وأقوىٰ لنا!

(يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنوَاطٍ): أي ذات التعاليق، وأنتم ترون من المسلمين من يأتي ويُعلِّق في أسوارِ القبور؛ إما خِرقة، أو عمامة، أو نحو ذلك، يريدون بها البركة!

فالحال هو الحَال، يريدون أن تنتقلَ البَركَة من القبر إلىٰ هذا، والعياذ بالله.

قال: (فَمَرَرنَا بِسِدرَةٍ): أي: الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم الذين كانوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، ومنهم هؤلاء حدثاء العهد بكفر، مرُّوا بسدرة.

قال بعض أهل العلم: جاء في رواية عند الإمام أحمد[1]: «أَنَّها سِدرَةٌ خَضرَاءَ عَظيمَة».

قال بعضُ أهل العلم: إنها تُشبِه تلك السدرة التي كان يعكف عندها المُشرِكُون، فلما رأوها وهي تُشبِهها، قالوا مقولتهم، لكن الذي يظهر -والله أعلم- أنها سِدرَة المشركين بعينها، وليسَت سدرة أخرىٰ تُشبِهُها.

لماذا قلت: إن الذي يظهر -والله أعلم- أنها هي تلك السدرة؟

لأنه جاء في رواية الترمذي قال: «مَرَّ بشَجرَةٍ للمُشرِكِينَ»، يعني: الرسُول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه، إذن؛ هي شجرة المشركين.

وعند ابن حِبان: «حَتَّىٰ مَررنَا عَلَىٰ سِدرَةِ الكُفَّار»، فظاهر هذا أن هذه السدرة هي سِدرَة الكفار التي كانوا يعكُفُون عندها.

(فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ): وهنا يلحظ أدب هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع حداثة عهدهم بالكفر، أين الأدب؟

أنهم ما فعلوا ذلك بأنفسهم، وما ذهبوا يتسابقون إلىٰ السدرة، وعلَّقوا عليها؛ بل قالوا: (يَا رَسُولَ اللهِ، اجعَل لَنَا)، فطلبوا من النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا أدب من جهة عدم الإقدام علىٰ الفعل إلا بعد الرجُوعِ إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واليوم كثير من المسلمين لا يتأدبون مع الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُقدِمُون علىٰ الفعل بدون الرجُوع إلىٰ سُنَّة النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعبدون القبور،

---

(١) برقم (٢١٨٩٧-الرسالة).

ويَذبَحُون عندها، يَنذرون لها، يتقرَّبون لها، ولا يرجِعون إلىٰ سُنَّة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليعرِفوا!، ويذهبون إلىٰ أحاديث مكذوبة!، وتُرَّهات!، وأمور ما أنزل الله بها من سُلطان.

الأمر الثاني: قالوا: (**يَا رَسُولَ اللهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ**)، علىٰ أي وجه قالوا هذه المقولة؟

قال بعض أهل العلم: معنىٰ ذلك: يا رسول الله، ادع الله أن يُبارك في هذه الشجرة، حتىٰ نُعلِق عليها أسلحتنا، بمعنىٰ: أنهم طَلَبُوا من الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يسأل الله أن يجعل الشجرة مباركة، ليُعلِّقوا عليها أسلحتهم، وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان ذلك كذلك لما أنكر عليهم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا الإنكار، وغلَّظ عليهم هذا التغليظ، وكان يُمكن أن يُعلِّمُهم بأن هذا لا ينبغي أن يُسأل.

وقال بعض أهل العلم: إنهم أرادوا أن يجعلوها سببًا، لا أنها تُبارِك بذَاتِها، فيكون هذا من الشركِ الأصغر، كما تقدَّم معنا.

وقال بعضُ أهل العِلم: بل أرادوا أن يصنعوا كما يصنع المشركين، بطَلَب البَركة من الشَّجرة، وأن تُلتَمس البركة من الشجرة ذاتها، فيكون شركًا أكبر، غير أنهم لم يُشرِكوا بهذا؛ لأنهم طلبوا من رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولم يفعلوا!

(**فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الله أَكبَرُ!**»: وعند الترمذي، الذي عزا إليه الشيخ رَحِمَهُاللَّهُ، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سُبحَانَ الله!**»، لكن عند الإمام أحمد وابن حِبان قال: «**اللهُ أَكبَر**»، وهذا علىٰ سبيل التعجُّب من مقولتِهم ومن حالِهم،

وهذا يدُل علىٰ أن التكبير عند التعجُّب مشروع، خلافًا لمن أنكره من أهلِ العلم، فإذا رأىٰ الإنسان شيئًا يتعجَّب منه، يُشرع أن يقول: الله أكبر، أو يقول: سبحان الله، وقد ورد هذا وهذا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(**إِنَّهَا السُّنَنُ!**): ويصح أن تقول: السَّنَن؛ أي: الطرق المَسلُوكة.

(**قُلتُم وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ**): النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا يُقسِم، وقد قدمنا أن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقسِم علىٰ المُهمَّات والأمور العظيمة.

(**كَمَا قَالَت بَنُو إِسرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**): فوصفهم بالجهالة لطلبهم هذا.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾: فلا خير فيه ولا بركة، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠]، فدل ذلك علىٰ أن العبد إذا جعَلَ شيئًا يلتمِسُ منه البركة بذاته فإنه يكونُ قد جعَلَ إلهًا آخرَ غيرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**لَتَركَبُنَّ**): يعني: أنه سيقَعُ في هذه الأمة ما وقَعَ في الأمم السابقة، فكيف النجاة؟

النجَاة فيما بيَّنَه لنا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**مَا أَنَا عَلَيهِ وَأَصحَابِي**»(١).

فالناس الآن مُتفرِّقون، وكل واحد عنده طريقة، وكلٌّ يزعُم أنه علىٰ الحق والهُدىٰ، حتىٰ أولئك الذين يَدعُون الناس إلىٰ عبادة القبور، والنذر لها، والذبح

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحَسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

لها، يقولون: نحن على السنة!، ونحن على الهُدى!

فما العلامة التي إذا رأيناها عرفنا أصحاب الهُدَىٰ من غيرهم؟

العلامة هي التمسُّك بما كان عليه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

أهلُ الهُدىٰ علامتهم أنهم ينظرون في الأمور التي يُتقرَّب بها إلىٰ الله، هل كان هذا موجودًا في زمن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة؟

فإن كان موجودًا حرصُوا عليه، وإن لم يكن موجودًا تركوه وخافوا منه؛ لأن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«فَإِنَّهُ مَن يَعِش مِنكُم بَعدِي فَسَيَرَىٰ اختِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَة»**[1].

فالنجاة فيما قاله النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أرشد إليه، أو دلَّ عليه، فإن وجدته فاعلم أنه الهُدَىٰ، بشَرط أن يصِحَّ، فليس كُل ما نُسِب إلىٰ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحيحًا.

فقد يأتيك شيخ -إما جاهل وإما دجَّال- يقول لك: ثبت عن حبيبنا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أعيتكُم الأمُور فعَليكُم بأصحَابِ القُبورِ»!، والله ما قاله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

أو يقول: ثبت عن حبيبنا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «لو اعتَقَد أحدُكُم في حَجرٍ لنفعَهُ»، واللهِ ما قاله النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ![(١)].

فهذا كله من الكَذِب عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلابُدَّ من صحة وثبوت الدليل عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ثم انظر؛ هل كان هذا في زمن أبي بكر، أو في زمن عمر، أو في زمن عثمان، أو في زمن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؟

فإذا وَجدتَهُ كذلك فاعلم أنه الهُدىٰ والزمه، وتمَسَّك به وعَضَّ عليه بالنَّواجِذ، حتىٰ لو خَالَفك قَومُك، فالعلامة أنه ما كان عليه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه الهدىٰ والتُّقىٰ، وما عداه فهو ضلال.

فدَلَّ هذا الحديث -حَديث أبي وَاقدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- علىٰ أن: جَعل شيءٍ تُلتَمس منه البركة، إما بذاته: بأن يُزعم أنه يُبارِك بذاته وهذا شِركٌ أكبر، أو بكونه سببًا وهذا شركٌ أصغر، من فعل ذلك فقد أشرك، وفعل فِعل المشركين، وأن هذا من سُنن المشركين، وليس من طريق المفلحين!

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٢١٥)، حيثُ قال في الرد علىٰ عبَّاد القبور والمَفتُونين بها: «ومنها: أحاديث مَكذُوبة مُختلَقَة، وضعها أشباه عبَّاد الأصنام من المقابرية علىٰ رسُول الله -صلىٰ الله تعالىٰ وآله وسلم- تُناقض دينه، وما جاء به كحديث: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»، وحديث: «لو أحسن أحدكم ظنه بحَجَر نفعه»، وأمثال هذه الأحاديث التىٰ هىٰ مُنَاقضة لدين الإسلام. **وضعها المُشرِكُون، وراجت علىٰ أشبَاهِهم من الجهَّال الضلال**. والله بعَثَ رسوله يقتُلُ من حسَّن ظنه بالأحجار، وجنب أمته الفتنة بكل طريق».اهـ

فمن جعل القبور، والأسوار، والحديد، يُتمسَّح بها، ويُلتَمس منها البركة، إن كان اعتقد أن هذا الحديد بنفسه يمنح البركة، أو هذا القبر يمنح البركة، فهذا شرك أكبر، وإن اعتقد أنه سبب فهذا شرك أصغر، هذا ليس طريق المفلحين، وإنما هذا طريق أهل الضلال، والعياذ بالله!

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ النَّجمِ.

وقد تقدَّمت قريبًا.

الثَّانِيَةُ: مَعرِفَةُ صُورَةِ الأَمرِ الَّذِي طَلَبُوا.

فهؤلاء الذين طلبوا، طلبوه علىٰ أي صورة؟، وقد تقدم بيان ذلك.

الثَّالِثَةُ: كَونُهُم لَم يَفعَلُوا.

فَهُم طلبوا فقط ولم يَفعَلوا، ومع ذلك غَلَّظ عليهم النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «الله أكبر!»، أو قال: «**سبحان الله!، إنها السنن، قلتُم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ**»، هذا وهم قد قالوا فقط ولم يفعلوا!، وهذا يَدُل علىٰ أن الفِعل أغلظ وأعظَم، لكنهم لم يَفعَلُوا.

الرَّابِعَةُ: كَونُهُم قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِذَلِكَ، لِظَنِّهِم أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

فهم قصدوا التقرُّب إلىٰ الله بذلك، وأن يجعَلُوها زُلفىٰ إلىٰ الله، ما الدليل علىٰ هذا؟

أنهم طلبوه من رسُولِ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يعرِفون ويعلمون أن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُحِب إلا ما يُحِبُّه الله، فهم اعتقدوا أن الله يُحِب هذا، فَلِقُرب عهدِهم من الكُفر طلبُوه!

وهذا حال كثير ممَّن ينتسِبون إلىٰ الإسلام، ويتقرَّبون إلىٰ القبور، يظنُّون أن الله يُحِب هذا، وتَجِدُ الرجل فقيرًا معدمًا، ورُبما يبقىٰ سنة وسنتين يجمع المال ليشتري ديكًا يذبحُهُ لصَاحِب القبر، وهو يظن أنه بذلك بلغ أعلىٰ المَنَازل في إرضاءِ الله، والنية الصالحة لا تقلِبُ السيِّئ إلىٰ صالح، بل يبقىٰ السيِّئ سيئًا مَهمَا صلحت النيات.

الخَامِسَةُ: أَنَّهُم إِذَا جَهِلُوا هَذَا فَغَيرُهُم أَولَىٰ بِالجَهلِ.

هُم مع النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَهُم من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وإن كانوا قريبي عهدٍ بكُفر، ومع ذلك جَهِلوا حُكم هذا الفعل وطلبوه، فمن باب أولىٰ أنه كلما ابتعدنا عن زمن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وُجِد الجهل بهذا.

وفَائِدَةُ هذا الأمر: أنه يجب علىٰ أهل العلم، وعلىٰ طُلاب العلم أن يُتعِبوا أنفُسَهُم في بيان التوحيد، والتحذير من الشرك؛ لأن الشيطان يُريد من الأمة أن تغفل عن التوحيد؛ ليَأتِيَها بالشرك، فيجب علىٰ المجاهدين في سبيل الله من العلماء، ومن طلاب العلم، ومن الوعاظ، ومن الدُّعاة، أن يُعلِّموا الناس التوحيد، وألَّا يَترکُوا مجالًا للغَفلَة، وأن يُحذِّروا من الشِّرك علىٰ وجه التفصيل، يقوم الخطيب ويقول للناس: التوحيد حقُّ الله، والشرك أعظم الظلم، ولا يُعلِّمهم معنىٰ التوحيد!، ولا يُعلِّمهم معنىٰ الشرك!، ولا يُعلِّمهم صور الشرك!، وقد يقع المسلم في الشِّرك وهو لا يَعلَم، يحضُر الخُطبة، ويَسمَعُها، ويفرح بها، لكن الخُطبة ليس فيها تفصيل!، فلا يَدرِي أن الذي يفعلُه من الشرك.

إذن؛ ليس صحيحًا أن الأمة ليست بحَاجة إلىٰ تَعلِيم التوحيد؛ بل الأمة بحاجة إلىٰ تعليم التوحيد في كل وقت، فإذا كان هؤلاء مع كونهم مع النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ،

ومن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كانوا من المُتأخِّرين إسلامًا، جهِلوا هذا الأمر، فما بالك ببقية الأمة!، ولا سيما ونحنُ نُسافر، ونرىٰ أهلنا في كلِّ مكان، يضرِبُ فيهم الشيطان في أودية الشرك، وبعضُهُم قد يصل إلىٰ الشرك في الرُّبوبية.

السَّادِسَةُ: أَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ وَالوَعدِ بِالمَغفِرَةِ مَا لَيسَ لِغَيرِهِم.

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سواء من أسلم من قبل الفتح، أو أسلم بعد الفتح، لهم من الفضل والثواب والحسنات ما ليس لغيرهم.

السَّابِعَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَم يَعذُرهُم، بَل رَدَّ عَلَيهِم بِقَولِهِ: «اللهُ أَكبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَركَبُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم» فَغَلَّظَ الأَمرَ بِهَذِهِ الثَّلاثِ.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعذُرهم في ردِّ كلامهم، لا في الحُكم عليهم، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا ردَّ كلامهم، وأغلظَ عليهم، مع أنَّهم حُدثاء عهد بِكفر.

ومعنىٰ هذا: أن الباطِل إذا وُجِد يُرَد، ولو كان صاحِبُهُ معذورًا، يُرَد ويُنكر، والمُنكر يُنكَر، ولو كان صاحبُه معذورًا؛ لكونِه جاهلًا؛ لأنه لو لم يُنكر لانتَشَر.

الثَّامِنَةُ: الأَمرُ الكَبِيرُ -وَهوَ المَقصُودُ-: أَنَّهُ أَخبَرَ أَنَّ طِلبَتَهُم كَطِلبَةِ بَنِي إِسرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾.

وهذا واضح.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ نَفيَ هَذَا مِن مَعنَىٰ «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَىٰ أُولَئِكَ.

نَفي التبرُّك بالحجر والشجر، والتِمَاس البركة من أي مخلوقٍ، باعتِقادِ أنه هو

الذي يُعطي البركة، أو باعتِقاد أنه سبب مع أن الله لم يجعله سببًا، يُنافي «لا إله إلا الله»، فإن كان باعتقاد أن فيه البركة بِذاته، وأنه يُبارِك بذاتِه، فهذا يُنافيها من أصلِها.

وإن كان باعتِقادِ أنه سبب وإلا فالبركة من الله، فهذا يُنافي كمَالَها الواجب.

العَاشِرَةُ: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَىٰ الفُتيَا، وَهوَ لا يَحلِفُ إِلَّا لِمَصلَحَةٍ.

والنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُقسِم علىٰ الأمور المُهِمَّة، فيدُلُّنا هذا علىٰ أن هذه المسألة مسألةٌ مُهمة، وكيف لا تكون مسألة مُهِمَّة وهي مُتعلِّقة بالتوحيد، ونفي الشرك.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ الشِّركَ فِيهِ أَكبَرُ وَأَصغَرُ، لأَنَّهُم لَم يَرتَدُّوا بِهَذَا.

فالشِّرك فيه أكبَر وأصغَر، وهذا من الشِّركِ الأصغر؛ لأنه يظهر أن الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ -والله أعلم- جعَلَ طلبهم علىٰ الوجه الثاني، وهو أن يكون ذلك علىٰ جهة السَّببية، فيكون من باب الشرك الأصغر، واستدلَّ بكونِه من الشرك الأصغر أن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يُكفِّرهم، ولم يأمُرهُم بالدُّخول في الإسلام مرَّةً أخرىٰ، ولكن حتىٰ علىٰ الوجه الأول فإنهم لم يَكفُرُوا، وذلك **أولًا**: لأنهم جُهَّال. وثانيًا: لأنهم لم يَفعَلُوا.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: قَولُهُ: «وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ» فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ غَيرَهُم لَا يَجهَلُ ذَلِكَ.

يعني: أن غيرهم من الصحابة، وليس من الأمة، فغَيرُهم من الصحابة الذين

أسلموا قبل ذلك يَعرِفون هذا، ولم يطلُبوا هذا، وإنما الطلب من حُدَثاء العهد بالكفر، الذين أسلموا قريبًا.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: ذِكرُ التَّكبِيرُ عِندَ التَّعَجُّبِ، خِلافًا لِمَن كَرِهَهُ.

وقد بينا هذا وذكرناه.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: سَدُّ الذَّرائِعِ.

أي: سَدُّ الذرائع المُوصِلة إلىٰ الشر من الأصول العظيمة، فإن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسُدُّ ذرائع الشرك، ويَحمِي حِمىٰ التوحيد، فسَدُّ الذرائع التي تقود الناس إلىٰ الشرك من أعظمِ الأُصول الشرعية، وهذا له صورٌ كثيرة في ديننا.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: النَّهيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهلِ الجَاهِلِيَّةِ.

لأن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّها السُّنن**»، ثم قال: «**لَتركَبُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم**»، وهذا علىٰ سبيل الإنكارِ.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: الغَضَبُ عِندَ التَّعلِيمِ.

لأن الظاهِرَ أن النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضِب؛ لأنه قال: «**اللهُ أكبر!**»، «**سُبحَانَ اللهِ!، وَالذِي نَفسِي بِيَدِه، قُلتُم كَمَا قَالَت بَنُو إِسرَائِيلَ**»، والنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حليمًا، غير أنه يغضب إذا انتُهِكت حُرُماتُ الله؛ فإن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يغضب إلا إذا انتُهِكت محارِم الله.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: القَاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ، لِقَولِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ».

وهي أن للجاهلية سننًا، وأن من الأمة من سيَسِيرُ عليها.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: أَنَّ هَذَا عَلَمٌ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ لِكَونِهِ وَقَع كَمَا أَخبَرَ.

فهذا وَقَع، والأمة الآن تتفنَّن في اتِّباع طرق المشركين، **والمَقصُود**: مما يُخالِفُ الدِّين، أما ما ينفعُ الأمة، وكان أصلُه عند المشركين، فاتِّخاذُهُ قوَّة!، أن نأخُذ سِلاحًا، أن نركب السيارات، هذا ليس مذمُومًا، وإنما المذموم هو أن نتَّبع ونتشبَّه بالكفار فيما يُخالِفُ ديننا، أو مما هو من خواص الكُفَّار، يفعلونه لكفرهم؛ من ألبِسةٍ ونحوها.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّ كُلَّ مَا ذَمَّ اللهُ بِهِ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ فِي القُرآنِ أَنَّهُ لَنَا.

يعني: أنه نَهيٌ لنا، فنحن منهيُّون عنه بذمِّ الله له، وإن كان حكَايَة عن اليَهُود أو عن النصارىٰ.

العِشرُونَ: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِندَهُم أَنَّ العِبَادَاتِ مَبنَاهَا عَلَىٰ الأَمرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنبِيهُ عَلَىٰ مَسَائِلِ القَبرِ. أَمَّا «مَن رَبُّكَ»؟ فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا «مَن نَبِيُّكَ»؟ فَمِن إِخبَارِهِ بِأَنبَاءِ الغَيبِ، وَأَمَّا «مَا دِينُكَ»؟ فَمِن قَولِهِم: «اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لهم ذاتُ أنوَاطٍ...» إِلَخ.

والحقيقة أنهما فائدتان:

الفائدة الأولىٰ: أن المُستقِرَّ عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن العبادات مبناها علىٰ التَّوقيف، علىٰ الأمر، ليس بالهَوَىٰ، ولا بالإرادة، والدليل أنهم قالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ،

اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاط»، ولم يجعَلُوا هم ذاتَ أنواط من تلقاء أنفسهم، وإنما طلبوا ذلك من الرسُولِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا يُفيدُنا أمرين:

* **الأمر الأول**: أنهم يعتقِدُون أنها عبادة، فإنها لو كانت عادة ما احتاجوا إلىٰ سؤال رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

* **الأمر الثَّاني**: أنهم يعتقِدون أن العبادة لابُدَّ أن تكونَ من طريقِ رسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والفَائدة الثَّانية: أنه صار فيه التَّنبيه علىٰ مَسَائل القبر، ما هي مسائل القبر الثلاثة؟: مَن ربك؟، ما دينك؟، مَن نبيك؟، ففيها التنبيه علىٰ مسَائل القبر.

وليس المقصود أنها تدُلُّ علىٰ هذه الأسئلة، وأن الإنسان سيُسأل في قبرِه عنها، وإنما المقصود أنها تدُلُّ الإنسان علىٰ أجوبةِ هذه الأسئلة، فيعرِف ربَّه مُوحِّدًا إذا عرف هذا، وهذا واضِح.

ويعرِف أن محمدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسول الله، ومما يدُلُّه علىٰ ذلك، إخبارَ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن هذه الأمور التي تقع في المُستقبل، وقد وقعت.

أما ما دينُك؟، فهو إذا عرف هذه النُّصوص عَرَفَ دِينَه، وهو أن الدِّين الإسلام.

الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّ سُنَّةَ أَهلِ الكِتَابِ مَذمُومَةٌ كَسُنَّةِ المُشرِكِينَ.

أن سُنَّتَهُم وعاداتهم التي يختصون بها يحرُم علينا أن نفعلها، وأن نتشبَّه بهم فيها، فالذين يأتون بطاقيَّة مثل طاقيَّة اليهود علىٰ بعض الرأس، هذه حرام، أو لِباس

الزنَّار الخاص بالنصارىٰ، وما زال بعض النصارىٰ يفعلونه إذا كانوا يذهبون إلىٰ الكنيسة، هذا حرام.

والمقصود أن سُننهم، وعاداتهم التي يختصُّون بها، يحرُمُ علينا أن نتشبّه بهم فيها.

الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّ المُنتَقِلَ مِنَ البَاطِلِ الَّذِي اعتَادَهُ قَلبُهُ لا يَأمَنُ أَن يَكُونَ فِي قَلبِهِ بَقِيَّةٌ مِن تِلكَ العَادَةِ البَاطِلَةِ لِقَولِهِم: «وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ».

ما أعظم هذه المسألة!، أن الإنسان إذا كان علىٰ باطل، وانتقل منه، وكان قريبًا منه، زمنًا أو حِسًّا، لا يُؤمَنُ عليه أولًا: الانتكاس، مثلًا: لو أن رجُلًا يشرب الدُّخان، وشُرب الدُّخان حرام، ثم نزع وتاب، لكن بقِي مع المُدخنين، يُجَالِسُهم ويسير معهم، سيصبِر، ثم يصبِر، لكن قد يَرجِع إلىٰ شُرب الدُّخان.

ولذلك هؤلاء مع كَونِهم أسلَمُوا، ومن الصحابة، إلا أنهم قد دخلَ عليهم هذا الأمر؛ لقُربِ عهدهم بالكفر، ولذلك فينبغي علىٰ المُؤمنُ أن يبتعِدَ عن الشَّر، وعن أسبَابِه التي قد تُعيده إليه مرَّة أخرىٰ بعد أن تَابَ منه.

❀❀❀

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ.

الشرح

عقد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب ليُبين للأمة حُكم هذا الفعل: «**بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبحِ لِغَيرِ اللهِ**».

فإنه لمَّا كان الذبح لغير الله يقع كثيرًا ممَّن ينتسبون إلىٰ الإسلام؛ عقد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا البابَ ليُبيِّن للأمة حُكمَ هذا الفعل.

والذبح عبادة -كما سيأتي بيانه في النصوص-، وفيه **عبادتان تتعلق بهما** الأحكام:

الأولىٰ: عبادة التقرب.

الثانية: عبادة الاستعانة.

وعبَادَةُ التقرب مُتعَلقة بقصد الذابح ونِيَّته:

ولذلك تختلف أحكام الذبح باختلاف النيات، فإن ذبح بعيرًا، أو بقرة، أو شاة، أو دجاجة، أو ذبابة، تقربًا إلىٰ غير الله، كالتقرب لصاحب القبر، أو لرجل صالح، أو لسلطان، فيذبح له بقصد أن يتقرب إليه، فهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف العبادة لغير الله، وقد تقَدَّم أن التوحيد: إفراد الله بالعبادة، فصرف أي عبادة إلىٰ غير الله شِركٌ.

فمن جعل الذبح لغير الله، فتقرب لقبر، أو لصاحب القبر، أو لرجل صالح، أو غير ذلك، فقد أشرك شركًا أكبر؛ لأنه صرف العبادة لغير الله.

وإن ذبح تعظيمًا لمخلوقٍ، كأن ذبح تعظيمًا لمَلِك أو لسلطان، أو لأمير، أو غير ذلك، فهذا شِركٌ أكبر؛ لأنه تقرب تعظيمًا، وهذا شرك أكبر.

وإن ذبحَ بين أيدي السلاطين، وأهل الشَّأن، لا علىٰ سبيل التعظيم، مثل مَن جاء السلطان إلىٰ قريته، فذبح بقرة أمام السلطان وهو داخل فرحًا به، فهذا حرام علىٰ الصحيح من أقوال العلم؛ لقَولِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَقرَ فِي الإِسلَامِ**». قال عبد الرزَّاق: «كَانُوا يَعقِرُون عندَ القَبرِ بَقَرَةً أَو شَاةً»[1].

فلا يجوز العَقرُ في الاسلام.

ومن العقر في الاسلام: العَقرُ بين أيدي السلاطين، وأهل الشأن، والذبح بين أيديهم.

وإن ذَبَحَ بعد دَفن الميت عند قبره لله، فهذا حَرام؛ للحديث السابق.

وكانوا في الجَاهليَّة إذا قبروا المقبور، ذَبَحُوا عند قبره بَقَرة أو شاة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَقرَ فِي الإِسلَامِ**».

وسواء كان ذلك قبل دفنه، أو عند دفنه، أو بعد دفنه، هذا حرام لا يجوز في هذا الموطن؛ لهذا الحديث، ولما سيأتي -إن شاء الله- في الباب التالي.

---

(١) أخرجه أخرجه أبو داود (٣٢٢٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وإن ذبح بقصد إطعام الضيوف، أو اللحم، ولم يقصد أن يتقرب لغير الله، ولا أن يتقرب لله؛ بل أراد أن يُشبع بطنه، وأن يأكل اللحم، وأنه يأكل أهله اللحم، أو أن يطعم الضيوف فهذا مباح بالإجماع.

فإن نوىٰ به التقرب إلىٰ الله، فهذا مستحب؛ يعني: إذا ذَبحت الذبيحة لتطعم أهلك ولتأكلوا اللحم، فنَوَيت بها وجه الله، وابتغيت بذلك وجه الله، كان ذلك مستحبًّا وتؤجر عليه؛ لقول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّكَ لَن تُنفِقَ نَفَقَةً تَبتَغِي بِهَا وَجهَ اللهِ إِلَّا أُجِرتَ بِهَا، حَتَّىٰ مَا تَجعَلُ فِي فِي امرَأَتِكَ**»[1].

وهنا سُؤال عن أمر يَقَع من بعض المسلمين علىٰ ما بينَّاه، وهو: ما حكم ذبح الذبيحة علىٰ عَتَبة بيت عند اكتمال البناء أو عند أول دخوله؟

فبعضُ الناس إذا بنىٰ بيتًا وأكمله يأتي بشاة أو بقرة ويذبحها علىٰ عتبة البيت، أو إذا أراد أن يدخل البيت، ويأتي لسَكنه، يأتي بذبيحة يذبحها علىٰ عَتَبة البيت.

فما حُكم هذه الذَّبيحَة؟!

نَقُول: هذه الذَّبيحَة إن كانت لطَردِ الجن أو التقرب إلىٰ الجن أو السَّلامة من الأذىٰ؛ فهذا شرك، فبعض الناس يقولون: إن البيوت الفارغة مليئة بالجن، وإذا دخلت البيت يؤذيك هؤلاء الجن؛ لأنك تدخل عليهم، فاذبح ذبيحة ترضيهم علىٰ عتبة البيت؛ حتىٰ لا تُؤذَىٰ!

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهذا شرك أكبر -والعياذ بالله-؛ لأنه تقرب بهذه الذبيحة إلىٰ الجن.

وإن جعلها سببًا للسَّلامة من البلاء، وهو يقصد أن يَذبَحها لله؛ لكنه يجعلها سببًا ليسلم من البلاء؛ **فهذا شرك أصغر**.

وإن كان قصده بهذا شُكر الله، أي: ذبح الذبيحة علىٰ العتبة ويقصد شكر الله أنه أتم عليه البناء؛ **فهذا حرام**؛ لأنه ذريعة إلىٰ الحرام، وذَريعَة إلىٰ الشرك، ويَجبُ سَد الذرائع.

أما لو ذبح الذبيحة بأي مكان، ولم يجعلها علىٰ عتبة الباب، شكرًا لله ووَزَّعها علىٰ الفُقَراء فلا بأس.

أمَّا عبادة الاستِعَانة المتعلقة بالذبح؛ فهي متعلقة بالتسمية؛ أي: بالاسم الذي يُذكَر علىٰ الذبيحة.

فهذه عبادة الاستعانة؛ لأنك عندما تقول: بِاسم الله، الباء هذه للاستعانة؛ فهذه عبادة الاستعَانَة.

فإن ذبَحَ الذَّبيحة ولم يَذكُر عليها اسمًا لم يَذكُر لا اسم الله ولا اسم غير الله؛ سواء كان عالمًا، أو جاهلًا، أو ناسيًا، فهذه الذبيحة حَرَام علىٰ الرَّاجح لا يَجُوز أكلها.

وهذا ليس شركًا، لكن الذَّبيحة حَرَام؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:١٢١].

فنهانا عن الأكل من الذبيحة التي لم يُذكَر اسم الله عليها، وهذه لم يُذكَر

عليها اسمُ الله، وإن لم يُذكَر عليها اسمُ غيره؛ فالراجح من أقوال فقهائنا أنه لا يجوز الأكل منها.

وإن ذبح الذبيحة وذكر عليها اسم غير الله، فقال: باسم المسيح، أو: باسم مريم، أو: باسم أبي، أو: باسم سيدي فُلان، أو: باسم الأقطاب، أو: باسم الأوتاد؛ فهذا شِرك أَكبَر؛ لأنه يستعين بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإن ذبح الذبيحة باسم الله مُتقربًا بها إلىٰ الله فهذا التوحيد.

وقد يكونُ هذا الذَّبحُ واجبًا، مثل: النذر، كمن نذر أن يذبح شاة، فذبحها باسم الله مُتقَرِّبًا بها إلىٰ الله فهذا التوحيد.

وقد يكونُ هذَا الذَّبحُ مُستَحبًّا، مثل: ذبح الأضحية -علىٰ الراجح-، ومثل ما تقدم معنا.

وإذا ذَبحتَ لتكريم الضيوف تقَرُّبًا إلىٰ الله، وقلت: باسم الله والله أكبر، هذا توحيد.

وقد يكونُ هذا الذَّبح مُبَاحًا، إذا قُلتَ: باسم الله، فذبحت باسم الله ولم تقصد التقرب إلىٰ الله ولا إلىٰ غير الله، أردت شيئًا دنيويًّا، أردت أن تأكل اللحم، فهذا مباحٌ لا ينافي التوحيد بوجه من الوجوه.

أما مَن ذكر اسم غير الله سواء قصد بها التقرب إلىٰ الله، أو التقرب بها إلىٰ المخلوق فهذا شِرك أكبر.

لكن إذا ذَبَحَها فقال: باسم سيدنا فلان، أو قال: باسم الله واسم سيدنا فلان،

وذبحها متقربًا لصاحب القبر؛ فقد جمع شِركين؛ شِرك التقرُّب، وشِرك الاستعانة.

وإن قال: باسم سيدي فلان، أو: باسم الله وسيدنا فُلان، ونوىٰ بها التقرُّب إلىٰ الله، فقد أشرك شِركَ الاستعَانة.

وإذا عُرف هذا التفصيل انحلَّت الإشكالات فيما يتعلق بالذبح، فهذا تفصيل حاصر لأقسام الذبح كُلِّها.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تعالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ الآيَةَ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

الشرح

يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿قُلۡ﴾، والأمرُ للنَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمرٌ لنَا ما لم يَدُل دليلٌ علىٰ الخُصُوصيَّة.

﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾: قال بعض أهل العلم: يعني: الصلاة المفروضة؛ الصلوات الخمس.

وقال بعض أهل العلم: صلاة الليل.

وقال بعض أهل العلم: صلاة العيد.

والراجح العُموم؛ فهي تشمل كلَّ صَلاة؛ يعني: الصلاة المَفرُوضة، والسنن الرواتب، وصلاة الجنازة، وصلاة العِيدَين، وصلاة الليل، وغيرها.

﴿وَنُسُكِي﴾: قال أكثر أهل العلم: يعني: ذَبِيحَتي.

وقال بعض أهل العلم: حَجِّي.

وقال بعضهم: ديني.

وقال بعضهم: عبادتي.

والأظهر الأول؛ يعني: ذبيحتي؛ لتَقدُّم الصلاة، فهذا يَدُل علىٰ أن النسُكَ نوع خاص، وليس الدِّين كله.

﴿وَمَحْيَايَ﴾: قال بعض أهل العلم: يعني: ما أعمَلُه في حياتي.

﴿وَمَمَاتِي﴾: قال بعض أهل العلم: ما أُوصي به بعد موتي، أو ما أتركه بعد مماتي مما ينفع من مال، أو ولد، صَالح أو صَدَقة جَارِيَة، أو علم يُنتَفع به.

وقال بعضهم: مماتي؛ أي: ما أموت عليه. فأنا أحيا مُوحِّدًا، وأمُوت مُوحِّدًا.

﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا تدل علىٰ الاستحقاق، والاخلاص لله؛ أي: أن المستحق لها هو الله، وأنِّي أفعلُ مُخلصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاللام هنا تدل علىٰ الاستحقاق، وتدل علىٰ الاخلاص.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُلاحظ أنه -في الغَالِب- إذا ذُكِر التوحيد تُذكَر الربوبية؛ لأنه يذكر الاستحقاق، وسببًا عَظيمًا من أسبَاب الاستحقاق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكأن قائلًا يقول: **لماذا يستحق الله منكم العبادة؟**

فكَانَ **الجوابُ**: لأنه ربِّي ورب العالمين، ربَّاني بنِعَمِهِ، فمِن الظُّلم أن أجعَلَ عبادتي لغيره، وهو ربُّ العَالَمين كذلك.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: وهذا توحيد خالص.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فجاء نفي الشِّرك مع أنه مُتَضمن في التوحيد؛ لكن التوحيد لابد فيه من إثبات العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، وإفراد الله بالعبادة ونفي الشرك.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾: فهذا ليس اختراعًا من عندي، ويتضمن المَعنىٰ الخطاب لك أنت أيها المسلم، يا مَن شَهِدتَ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبذلك أمرت أن تقول وتفعل.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: قال بعض أهل العلم: إن كان المقصود الأولية في الزمان فالمعنىٰ: أنا أول المسلمين من أمتي، وإلا من حيث الزمان سبقه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومَن أسلَمَ مَعهُم، فيكون المعنىٰ: أنا أولُ المُسلمين من أمتي.

ويَصِح فيمَا يَظهَرُ لي -والله أعلم- أن يُقَال: وأنا أول المسلمين الذين يُسَمَّون بالمسلمين، والأمة التي سميت بالمسلمين هي أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأُمَم السابقة تُوصَف بالإسلام لكن التَّسمِيَة لأمةِ مُحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج:٧٨].

﴿هُوَ﴾: قيل: الله هو الذي سَمَّاكُم المسلمين؛ يعني: أنتم أتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي سَمَّاكُم المسلمين.

فالأمة التي تُسمىٰ بهذا الاسم هي أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان المتقدمُونَ مسلمين وَصفًا، ويوصفون بأنهم مسلمون.

والمعنىٰ واحد؛ يعني: أول المسلمين من هذه الأمة، وإن كانت الأولية معنوية ليست زمانية؛ فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول المسلمين؛ بمَعنىٰ: أنه أشرَفُ المسلمين علىٰ الإطلاق، فهو أول المسلمين شرفًا، وأولهم في دخول الجنة، فأول مَن تُفتَح له الجنة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

---

(١) أخرج مسلم (١٩٧) عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آتِي =

فهنيئًا لمن لزم رِكابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحَرَص علىٰ سُنَّتِهِ، وقَدَّم سُنَّته علىٰ قول كل أحد، وجعل سُنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده مُقَدَّمة علىٰ قول الناس أجمعين.

والشاهِدُ: أن الآية تَدُلُّ علىٰ أن الذبح عبادة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ إذَن الذَّبح عبادة، والمقصود هنا: الذَّبح علىٰ وَجه التقَرُّب.

❀❀❀

=

بَابَ الجَنَّةِ يومَ القِيَامَةِ فَأَستفتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَن أَنتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرتُ لَا أَفتَحُ لِأَحَدٍ قَبلَكَ».

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢].

الشرح

وهذه من أعظم النِّعَم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَّا ذَكَرَ الله نِعمَتَهُ العظمى على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعطائه الكوثر؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾: صَلِّ: أمرٌ بالصلاة.

قال بعض أهل العلم: يَعني: صلاة العيد؛ لتعَلُّقها بالنحر.

وقال بعضهم: بل كُل صلاة؛ اجعل صَلاتَك كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿لِرَبِّكَ ﴾: اللام هنا للاستحقاق والإخلاص.

﴿ وَٱنْحَرْ﴾: والنَّحر: هو نحر الإبل؛ والمعنى: وانحَر لربك، إذن النحر والذبح عبَادَة تَكُون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَربعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَن لَعَنَ وَالِدَيه، لَعَنَ اللهُ مَن آوَىٰ مُحدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَن غَيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ». رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

الشرح

وهذا الحديثُ الصَّحيح العظيم يَجبُ أن نقف عندَه بقُلوبنا.

(**حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَربعِ كَلِمَاتٍ**): أي: أربع جُمَل.

(**لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ**): هذه الجُملة تحتملُ أن تكون خبرية؛ أي: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخبِرُ بأن الله لعَن مَن فعل هذا.

ويحتمل أن تكون دُعَائية؛ أي: أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو علىٰ مَن فَعَلَ هذا بأن يَلعَنَهُ الله، والأمران عظيمان جدًّا.

واللَّعن: هو الطَّرد والإبعَاد من رَحمَة الله، وهذا المَذكُور هنا طَردُه من رحمة الله طردًا كُليًّا لا عَفوَ مَعَه، والجنة عليه حرام، وكما تعرفون أن الجنة من رحمة الله، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ للجنة: «**أَنتِ رَحمَتِي أَرحَمُ بِكِ مَن أَشَاءُ مِن عِبَادِي...**» متفق عليه(٢).

---

(١) برقم (١٩٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا مَطرُود من رَحمَة الله طردًا مؤبدًا لا عفو معه، ولا يدخل الجنة أبدًا؛ لأنه أشرَكَ بالله شركًا أكبَر؛ وتقرَّب بالذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبدأ به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه أعظمُ هذه الذنوب.

(لَعَنَ اللهُ مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ): أي: طَرَدَه الله مِن رَحمَته، وهذا وعيدٌ لأهل الكبائر، ويَدُل علىٰ أن لَعنَ الوالِدَين من الكبائر، بل لعن الوالدين من أكبر الكبائر، سَواء كان اللعن مباشرة، وهذا أقل من أن يقع في ذي فطرة سليمة، يعني: أن يقول لوالده: لعنكَ الله -والعياذ بالله-، أو يقول لأمه: لعنَكِ الله، وهذا قَلَّ أن يقع.

أو كان اللَّعنُ بالتَّسَبب؛ بمعنىٰ: أن يكون سببًا في أن يَلعَن غيرُه والدَيه، فهذا من أكبر الكبائر.

فإذا كان من أكبر الكبائر أن يتَسَبَّب المَرءُ في سَب والديه، فكيف بمن يَسُب والديه مباشرة؟!؛ بل كَيفَ بمَن يَضرِبُهما؟!

يَقُول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ مِن أَكبَرِ الكَبَائِرِ أَن يَلعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيهِ**. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيفَ يَلعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيهِ؟ قَالَ: **يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ»** متفق عليه، واللفظ للبخاري [1].

الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أهل فِطَر سليمة، وهم هنا لم يعتَرِضُوا علىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هم يُصَدقون ما قاله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن أرادوا أن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

يعرفوا كيف يكون هذا الأمر؛ لأنهم لم يتخيلوه!

فبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ذلك يكون إذا سَبَّ الرجلُ أبَا الرجل فيَقُوم هذا الرجل فينتقم منه ويَسُب أباه ويَسُب أمه؛ فيكون هذا قد ارتكب كبيرةً من أكبر الكبائر!

ومن ذلك أيضًا: إذا عَلِمتَ أن الرجل لَعَّان، وأنك إذا سببته -ولَو بِغَير اللعن- سيَسُب أباك ويَسُب أمك، فلا تتعرض له؛ لأن هذا يدخل في هذا الأمر الذي حذَّر منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنك تعرِفُ من حاله هذا؛ فإذا علمت أنك إذا سببت أحدًا سيَسُب أباك أو يَسُب أمك في غالب الظن؛ حَرُم عليك أن تَسُبَّه؛ بل يصبح من كبائر الذنوب، بل من أكبر الكبائر.

وهذا شأن عظيم يَدُلك علىٰ عِظَم شأن الوالد، أمكَ عندك في البيت جوهرة، أبوك عندك في البيت جوهرة، وبَابٌ من أبواب الجنة، بل هو أوسَطُ أبوابِ الجنة، فإنه شئت فضَيِّعه، وإن شِئتَ فَأبقِه.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **(لَعَنَ اللهُ مَن آوَىٰ مُحدِثًا)**: وتُضبَط أيضًا بفتح الدَّال: **(مُحدَثًا)**؛ أي: مُبتَدِعًا، فآواه، ونصَرَهُ، وحَمَاه، وقَوَّاه علىٰ بِدعَتِهِ، هذه كبيرة من كبائر الذنوب يستحق فاعِلُها اللَّعن.

وكذلك لو آوَىٰ مجرمًا وجَبَ عليه حقٌّ لله، أو حق لخلق الله، فمنع من أن يُقَام عليه الحق، إما بجَاهه أو بقُدرته.

وذلك كرَجُل سرَق مالَ مُسلِم، ثم ذهب إلىٰ شَخص وقال له: اجعلني

عندك في البَيتِ أيامًا، وهو يَعرفُ أنه مجرم، وللمُسلم عليه حق، فهذا قد آوَىٰ مُحدِثًا، وهذا في أي مَكَان وليس خاصًا بالمَدينة فقط، بل في المَدينة وفي مكة وفي القاهرة وفي الجزائر وفي تونس، وفي أي مكان.

والمعنىٰ: لعَنَ الله من آوىٰ بِدعَة أو جَريمة فمَكَّنَها؛ وفتح بيته للمبتدعة يقيمون البِدَع، أو حَمَىٰ المبتدعة بميثاق ويقول: هذا اجتهاد، يفعلون ما يشاءون، فهذا قد آوىٰ (محدِثًا)، أو آوَىٰ (مُحدَثًا)، فإنه يَحمي البدعة ويجعلها تبقىٰ وتترعرع، ويَحمي المُبتَدِعَة، أو أجَّر بيته علىٰ مبتدعة يقيمون بِدَعَهُم فيه، فهذا آوىٰ مُحدِثًا، وكذلك إذا آوَىٰ مجرمًا، فهَذا من كبائر الذنُوب.

فالمبتدعة يجب علينا أن نكسِرَ بدعتهم، وأن ننصحهم، وأن نُبيِّن لهم هذا الشر، لا أن نُؤويهم ونُقَويهم ونترك لهم الزمان والمكان من أجل أن يزيدوا بدعوتهم بين الناس، والعلماء يقولون: المبتدع يأخذ منك ولا يُعطيك، ولا يتقارب معَك؛ بل يَخدُعك لتتَقارب أنت مَعه في بِدعَته وليَجُرَّك إليها!

والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حمَىٰ جناب السُّنة، ونحن يجبُ علينا كذلك أن نَحمِي جنابَ السُّنة.

(**لَعَنَ اللهُ مَن غيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ**): منار الأرض؛ يعني: الأعلام التي تَدُل علىٰ الحدود بين الجِيرَان، فإذا غُيِّرت؛ اختَلطَت الأملاك، فالذي يُغير منار الأرض ارتكب كبيرة، ولو لم تكن له مَصلَحة، كمن يأتي إلىٰ أراضي الناس والتي عليها علامات تحدد حدودها، ثم يَأتِي مُفسِد ويُغَيِّر هذه العلامات؛ هو لم يستفد من جهة أنه يأخذ شيئًا؛ لكنه غيَّر منار الأرض وجعَلَ الأملاكَ تَختَلِط؛ فارتكَبَ

كبيرةً من كبائر الذنوب، فإن كان المُغَيِّر مُستفيدًا فهذا أعظم؛ مثل الجار الذي بينه وبين جَارِه حدودٌ وعلامات، فيأتي في الليل ويُغيِّر الحدود ويُدخِلُها في أرضه؛ فهَذا ارتكب كبيرةً من كبَائِر الذنُوب.

وتَخصيصُ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهذه الأمُور الأربعَة دليل علىٰ عِظَم جُرمِها؛ فيجب علينا أن نتفَقَّه فيها، وأن نَلزَمَها، وإذا أخطأنا في شيء منها أن نرجع إلىٰ الله، وأن نتوب إلىٰ الله، والله يقبل توبة التائب.

فإذا حصل منَّا أَنَّا ذبحنا لغير الله -نَعُوذ بالله من ذلك- نَتُوب إلىٰ الله، والله يقبَلُ التائب.

إذَا حصَلَ منَّا لَعنَ الوالِدَين أو تَسبَّبنا في مثل هذا، نتوب إلىٰ الله، ونحاول أن نرضي والدينا، والله يقبل توبة التائب.

إذا حصل منا خطأ أَنَّا آوَينَا مُحدثًا بأي صورة من الصور، ولو عن طريق الاجتهَاد؛ نتوب إلىٰ الله ولا نُؤوي المُحدِث.

إذا حصَلَ منا خطأ أَنَّا غيَّرنا منَارَ الأرض، نُعيدُ منار الأرض كما هو، ونتُوب إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن طَارِقِ بنِ شِهَابٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَىٰ قَومٍ لَهُم صَنَمٌ، لَا يُجَاوِزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقرِّبَ لَهُ شَيئًا، فَقَالُوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّب. قَالَ: ليس عِندِي شَيءٌ أقربُ. قَالُوا لهُ: قَرِّب وَلَو ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ. فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّب، قَالَ: مَا كُنتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيئًا دُونَ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ. **فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحمَدُ.**



الشرح

وهَذا الحديثُ لنَا معَه وقَفَات:

الوقفة الأولىٰ: أنه من روايةِ طَارق بن شهاب، وطارق بن شهاب اتَّفق العلماءُ علىٰ أنه لا رواية له عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان الراجحُ أن له رؤية -رأىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الرَّاجح؛ لكن لم يَروِ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا إشكَال.

والجَوَاب عن هذا الإشكَال: أنه علىٰ هذا مُرسَل صحَابي، ومُرسَل الصحابي صحيح، نَقُول: مُرسَل صحابي؛ لأنه أسقطَ رَاويًا هنا، وهو الذي فوقه؛ لكن مُرسَل الصَّحابي صحيح؛ لأنه يروي عن صَحَابي، وجَهَالة الصحابي لا تَضُر؛ لأن الصحَابةَ كُلَّهم عُدول، ونحن نحتاج أن نعرف الراوي لنعرف هل هو عدل أو لا؛ لكن لا نحتاج إلىٰ هذا الجَوَاب هنا بالذَّات؛ لأن جَميعَ كُتُب الحديث

التي رَوَته رَوَته عن طارق بن شهَاب عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إذن هنا لا يوجد إرسَال.

الوقفة الثانية: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر هذا الحديث مرفوعًا إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولم نَجِد هذا الأثر مرفوعًا في شيء من كُتُب السُّنة؛ بل كل مَن رواه من المُحدِّثين رواه موقوفًا علىٰ سَلمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه مَوقوفًا علىٰ سلمان: الإمام أحمد في «الزهد»، وابن أبي شيبة، وابن الأعرابي، والبيهقي في «الشُّعَب»، والخطيب في «الكفاية»، وغيرهم، بإسناد صحيح[1].

فهو إلىٰ سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح، ولعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ قد تابع الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في ذِكره مرفوعًا؛ لأن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الجَواب الكافي لمَن سألَ عن الدواء الشَّافي» أو «الداء والدواء»[2] قال: «رَوَىٰ الإمامُ أحمد عن طارق بن شِهَاب... يرفعه».

فلعَلَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أخذَه من هذا، وإلا فكُتب الحديث التي اطَّلَعنَا عليها ورد فيها هذا الأثر مَوقوفًا وليس مَرفوعًا.

الوقفة الثالثة: أن هذا الأثر الصَّحيح عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هل له حكم الرفع؟

ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذا الأثر له حكم الرفع؛ لأن فيه إخبارًا عن

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٨٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٧٣) برقم (٣٣٠٣٨)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٧٩٦)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٦٩٦٢)، والخطيب في «الكفاية» (ص١٨٥).

(٢) (ص٣٥).

قصة وَقَعت، وتضَمَّنَت أمورًا غيبية، من دخُول النار ودخُول الجَنَّة.

والظن بالصحابي أنه لا يَذكُر الأمورَ الغَيبيَّة إلا بتَوقيف عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فهذه ليست قصة يمكن أن يقال إنها من الإسرائيليات!

وأبَىٰ ذلك بعضُ العلماء، وقالوا: لعل سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخذه من الإسرائيليات؛ لأن سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قبل إسلامه كان مع النصارىٰ والرهبان، فلعله سمع ذلك منهم؛ بل قوَّىٰ ذلك بعض أهل العلم، وقالوا: هذا عندنا أنه من الإسرائيليات.

والأول عندي أقوىٰ -والله أعلم- أن له حُكمَ الرَّفع؛ لاسِيَّما إذا بينَّا وجه القصة، فإن العُلمَاء الذين مالوا إلىٰ أنها من الإسرائيليات مالوا إلىٰ ذلك لما في القصة من غرابة سنُبَيِّن وَجهَها؛ لكن إذا بينَّا الوجه الصحيح؛ فإنه يظهر -والله أعلم- أن الأقربَ أن هذا الأثر له حُكمُ الرَّفع فيما يَظهَرُ لي -والله أعلم-.

الوقفة الرابعة: وجه الغرابة في القصة: أن الرجلَ الذي دخلَ النار دخَلَها في ذباب قَدَّمه وهو مُكرَه، والإكراه يرفع المُؤَاخذة؛ لقَولِ الله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦].

والجَوابُ عن هذا من وجُوه:

الوجه الأول: أن يُقال: إن هذا الرجل كان مشركًا أصلًا قبل أن يُقرب الذباب، وهذا الجواب ضعيف؛ لأن ظاهر الأثر أنه دخل النار بسبب تَقرِيبه الذباب، ولو كان مشركًا أصلًا لدخل النار بسَبب شِركه الأصلي، وليس بسبب

تَقرِيبِه للذباب.

الوجه الثاني: أن العُذرَ بالإكراه لم يَكُن في الأمم السابقة قبل الإسلام، وإنما من رحمَة الله بأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه عذرَها بالإكراه.

فهذا من الآصَار التي كانت علىٰ الأمم السابقة، أعني: المؤاخذة بالإكراه، ورُفِعَ عن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من الأمم السابقة، ويدل لهذا الوجه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ قَد تَجَاوَزَ عَن أُمَّتِي الخَطَأَ، وَالنِّسيَانَ، وَمَا استُكرِهُوا عَلَيهِ**». رواه ابن ماجه وغيره، وصحَّحَه الألباني[1].

فظَاهر هذا التجَاوز أنه عن هذه الأمة دون غيرها، وهذا الوجه قويٌّ جدًّا.

الوجه الثالث: أنه فعل ذلك راضيًا به، مُنشَرِحَ الصَّدر به، لا كَارِهًا له، ويَدُل لذلك أنهم لما قالوا له: قَرِّب، لم يقل: أنا مسلم فلا أُقَرب، بل قال: ما عندي شيءٌ أقرب به؛ يعني: كأنه يَقُول: لو كان عندي شَيءٌ قربت، بخلاف الرجل الآخر الذي قال: ما كنتُ لأقرب شيئًا لغير الله.

أيضًا يَدُل له: أن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر أنه قَرَّب، قال: فَقَرَّب ذبابًا؛ أي: أنه تقَرَّب بهذا، ولم يَقُل: ذبح ذبابًا، وهذا يتَضَمَّن أنه تقَرَّب بهذا؛ إذ فعل هذا وهو مُنشَرِح الصَّدر، فكفَرَ بهذا بعد أن كان مسلمًا.

إذن؛ اندفَعَت غرابَةُ القصة التي جعَلت بعض علمائنا الأكابر كالشيخ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَميلُون إلىٰ أنها من الإسرائيليات.

ولذلك يظهَرُ لي -والله أعلم- نظرًا إلىٰ حُسن الظن بالصَّحابي، وإلىٰ ما تضَمَّنَته القصَّة: أن هذا الأثر له حُكمُ الرفع؛ فإن مثل هذا يَبعُدُ أن يَحكيَه الصحابيُّ عن أهل الكتاب من غير نِسبَته إليهم، فهنا سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يَقُل: يُقَال، أو: يُذكر؛ بل قَاله جازمًا، لا حاكيًا، ولم ينسبه إلىٰ النصارىٰ أو اليَهُود؛ فحُسن الظن بالصحابي أنه لا يفعل ذلك في مثل هذا إلا عن تَوقيفٍ، وإلىٰ ذلك أمِيلُ -والله أعلم- أي: إلىٰ أن هذا الأثر له حُكمُ الرَّفع.

قال: (**دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، قَالُوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟**): يعني: أن الذُّباب حيوان ضعيف مُستقذر، فكيف يَدخُل رجلٌ النار فيه، ويَسلَم رجلٌ من النار ويدخل الجنة بسببه؟!

قال: (**مَرَّ رَجُلَانِ**): أي: من الأُمَم السابقة.

(**عَلَىٰ قَومٍ لَهُم صَنَمٌ لَا يُجَاوِزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقرِّبَ لَهُ شَيئًا**): أي: لا يتعَدَّاه أحدٌ حتىٰ يُقَرِّب له شيئًا.

(**فَقَالُوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّب. قَالَ: ليس عِندِي شَيءٌ أقربُ**): فَلَم يقُل: ما كنتُ لأقرب؛ بل قالَ: ليس عندي شيءٌ أقَرِّب.

(**قَالُوا لهُ: قَرِّب وَلَو ذُبَابًا**): وهذا يَدُلك علىٰ أن المُشرِكين يعلمون أن المُهِم عندهم الاعتقاد، فالذبابة لا تَنفَعُهم، ولا تنفع الصنم؛ ولا تنفع بشيءٍ، ولا يُؤخَذ منها شيء مُطلقًا، بل هي شيء قَذِر، لكن للاعتقاد فيَعظُم الفعل بالاعتقاد، فإذا

قرب اعتقد فعَظُم الأمر، وإلا فالذبح لغير الله ولو كان بَعُوضة؛ فهو شِركٌ.

(فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ): أي: تَرَكُوه.

(فَدَخَلَ النَّارَ): وقد بينا وَجهَ ذَلكَ.

(وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّب، قَالَ: مَا كُنتُ لأُقَرِّبَ لأحَدٍ شَيئًا دُونَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ): لا أقرب إلا لله، فتَضَمَّن كلامُه توحيده هو، وتَسفيه فِعلِهم أنهم يقولون: للأصنام!

(فَضَرَبُوا عُنُقَهُ): أي: قَتَلُوه.

(فَدَخَلَ الجَنَّةَ): ولا شك أن التوحيد سببٌ عظيم؛ بل هو مِفتَاح الأسباب لدخُول الجنة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

كما تقدم وبيَّنا أن النسُكَ علىٰ الرَّاجح من أقوال أهل العلم هو الذبيحة، وبيَّنا مُنَاسبَتها للباب.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

وقد تقدم معنَا وقُلنا: معنىٰ الآية: فصَلِّ لرَبِّك وانحَر لرَبِّك، فدَلَّ علىٰ أن النحر عبادة.

الثَّالِثَةُ: البَدَاءَةُ بِلَعنَةِ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ.

أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي ذَكَر فيه الأربعة الأجناس الملعونين، بدأ بِلَعن مَن ذَبَح لغير الله، وذلك لأنه أعظمها إثمًا؛ فهو شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرَّابِعَةُ: لَعنُ مَن لَعَنَ وَالِدَيهِ، وَمِنهُ أَن تَلعَنَ وَالِدَي الرَّجُلِ فَيَلعَنَ وَالِدَيكَ.

نعوذ بالله من ذلك، وقد تقدم أنَّ هذا من أكبر الكَبَائر.

الخَامِسَةُ: لَعنُ مَن آوَىٰ مُحدَثًا وَهُوَ الرَّجُلُ يُحدِثُ شَيئًا يَجِبُ فِيهِ حَقٌّ للهِ فَيَلتَجِئُ إِلَىٰ مَن يُجِيرُهُ مِن ذَلِكَ.

وهذا له مَعنيان:

الأوَّل: الرجُل الجَاني إذا جنىٰ جناية وجب عليه حقٌّ لمخلوق، أو حَقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ،

فيذهب إلىٰ آخر يَستَنصِره، فإن آواه فَهُو مَلعُون.

والثاني: المُبتَدع حال فِعلِه بدعته فإن من آواه ونَصَره وقَوَّاه ومَكَّنه من إقامة بدعته؛ يدخل في هذا اللعن -العياذ بالله-.

السَّادِسَةُ: لَعنُ مَن غَيَّرَ مَنَارَ الأَرضِ، وَهِيَ المَرَاسِيمُ الَّتِي تُفرِّقُ بَينَ حَقِّكَ مِنَ الأَرضِ وَحَقِّ جَارِكَ، فَتُغيِّرُهَا بِتَقدِيمٍ أَو تَأخِيرٍ.

يُغَيِّرها الجار أو غيره من الناس -كما تقدم-.

فلو أن شخصًا جاء وغَيَّر الحدود وضيعها، وضيع حقوق الناس بسبب ذلك؛ فإنه يكونُ فاعلًا للكبيرة، فإذا غيرها الجَارُ ليأخُذَ شيئًا من أرض جاره فهذه كبيرة مَع كَبيرة؛ غَيَّر منَارَ الأرض، واقتطَعَ من أرض أخيه.

السَّابِعَةُ: الفَرقُ بَينَ لَعنِ المُعَيَّنِ، وَلَعنِ أَهلِ المَعَاصِي عَلَىٰ سَبِيلِ العُمُومِ.

والمَقصُود: أن النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَنَ أصحاب المعاصي هؤلاء من غير تعيين، فقال: «**لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوىٰ محدثا، لعن الله من غير منار الأرض**». فهذا لَعنٌ بالعُموم، بالجنس، وليس لعنًا لمُعَيَّن، أما لعنُ المُعَين فهو أن تَلعَنَ الجاني الذي فعل ما وَرَدَ فيه اللعنُ بعَينِهِ.

فإذا شرب شخصٌ مسلم الخمر؛ لا يجوز أن تَلعَنه بعينه فتقول: لعنَكَ الله، مع أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن شاربَ الخمر؛ لكن لم يَلعَن مُعينًا.

ولذلك جاء في الحديث: عَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ: «**أَنَّ رَجُلًا عَلَىٰ عَهدِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسمُهُ عَبدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضحِكُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَد جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَومًا فَأَمَرَ**

بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: اللَّهُمَّ العَنهُ، مَا أَكثَرَ مَا يُؤتَىٰ بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا تَلعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[١].

فنهاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا عن لَعنِ المُعَيَّن؛ فالمُعَيَّن لا يُلعَن.

وتعلمُونَ أن المؤمن لا يكون لعانًا؛ فيَحرص علىٰ عَدَم اللَّعن للمُعَيَّنين.

فإن قال قائلٌ: قد جاء في «سنن أبي داود»[٢]: عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشكُو جَارَهُ، فَقَالَ: **اذهَب فَاصبِر**. فَأَتَاهُ مَرَّتَينِ أَو ثَلَاثًا، فَقَالَ: **اذهَب فَاطرَح مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ**. فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسأَلُونَهُ فَيُخبِرُهُم خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلعَنُونَهُ: فَعَلَ اللهُ بِهِ، وَفَعَلَ، وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارجِع لَا تَرَىٰ مِنِّي شَيئًا تَكرَهُهُ».

الشَّاهِدُ هُنَا: أنه ورد في الحديث أنهم أخذوا يَلعَنُونه، وهذا مُعيَّن، ومنه قال بعض أهل العلم: إنه إذا تعيَّن اللعن للزَّجر فإنه يُلعَن المعين.

مثلًا: شخصٌ يُصِر علىٰ المعصية التي ورد فيها اللعن، مثل شُرب الخمر، ونحو ذلك، فعلمنا أنه لا يَنزَجِر إلا إذا أصبحنا نَلعَنُه -وأنا أقرر قولًا ولا أُرجِّحه-، عَلِمنا أنه إذا لعنَّاه وقلنا له: لعنك الله؛ فإنه يترك شرب الخمر، قالوا: هنا يجوز؛ لأنه يحقق المقصود الشرعي.

لكن الراجِح -والله أعلم-: أن لعن المعين لا يجوز؛ لأن المعين يُدعَىٰ له

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) برقم (٥١٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

بالهِدَاية، لعلَّ الله أن يهديه، حتىٰ أهل العلم ذكروا أنه حتىٰ الكافر -حال كَونِه حيًّا- لا يُلعَن؛ فإنه قد يَنقَلِبُ من كونه كافرًا إلىٰ كونه من خيرة المسلمين، كما في بعض صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الأمر، كخَالد بن الوليد، كانوا كفارًا ولم يؤمنوا بالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول الأمر، وحارَبُوه، ثم أصبَحُوا من خيرة عباد الله بإسلامهم، فقالوا: حتىٰ الكافر لا يُلعَن بعَينِهِ مادام حيًّا؛ ولا يُلعَن بعَينِهِ إلا إذا عُلِم أنه مَاتَ علىٰ الكفر.

لكن هذه مسألة أَخَصُّ من هذه، وهي لعنُ المُعَين المسلم إذا فعل ما ورَدَ اللعنُ عليه، فإن الصحيح أنه لا يجوز أن يُلعَن علىٰ أي وجه.

فإن قيل: وهذا الحديثُ الذي سبَقَ في لَعن الجار المُؤذِي، عَلَامَ يُحمَل؟

قُلتُ: في هذا أقوَالٌ:

إن مَعنَىٰ اللعن هنا هو: السَّب، أخذُوا يلعنونه، يعني: يَسُبونه؛ فإنه لم يَرِد أنهم قالوا: اللهُمَّ العَنه؛ بل الذي بعده يُفَسِّره؛ يَقُولون: اللهم افعَل به كذا، يَدعُون عليه.

أما لعن المُعَيَّن فلا يَجُوز وهو الذي أراده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والفرقُ بين لعن المُعَين ولعن أصحاب المعاصي بالجملة: أن لعن أصحاب المعاصي بالجُملَة يَجُوز، أما لعن المُعَين فلا يجوز.

الثَّامِنَةُ: هَذِهِ القِصَّةُ العَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

وقد تقدم ما فيها.

التَّاسِعَةُ: كَونهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَم يَقصِدهُ، بَل فَعَلَهُ تَخَلُّصًا مِن شَرِّهِم.

وهذا علىٰ رأي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لم يقصد ذلك، وإنما فعله تخَلُّصًا من شَرهم؛ وهذا مَرجُوح، وقُلنا: الأقرب -والله أعلم- أنه فعل ذلك مُنشَرِحَ الصدر، رَاضيًا به.

أو يكون -علىٰ الوجه الثاني-: فعَلَ ذلك مُكرهًا، لكن لا عُذرَ في أمته بالإكراه.

العَاشِرَةُ: مَعرِفَةُ قَدرِ الشِّركِ فِي قُلُوبِ المُؤمِنِينَ، كَيفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَىٰ القَتلِ وَلَم يُوَافِقهُم عَلَىٰ طِلبَتِهِم، مَعَ كَونِهِم لَم يَطلُبُوا مِنهُ إِلَّا العَمَلَ الظَّاهِرَ.

وذلك لأن الرجُلَ الثاني لما قِيل له: قَرِّب ولو ذبابًا، قال: ما كنتُ لأقرب لأحد شيئًا دون الله؛ يعني: هم قالوا له قَرِّب، ورأىٰ أنهم قالوا للأول: قَرِّب ذبابًا، إذا كانت القصة للرجُلَين معًا. قال: ما كنتُ لأقرب شيئًا مهما صغر لغير الله. وهذا يَدُلُّك علىٰ عِظَم التوحيد في قلوب المُوَحِّدين.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسلِمٌ، لأَنَّهُ لَو كَانَ كَافِرًا لَم يَقُل: «دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ».

كما تقدم بَيانُه؛ وهذا صحيح.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: فِيهِ شَاهِدٌ لِلحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الجَنَّةُ أَقرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِن شِرَاكِ نَعلِهِ، وَالنَّارُ مِثلُ ذَلِكَ».

فمن مات قامت قيامَتُه، ووجه الدلالة من القصة: أن الرجل قَرَّب فضُرب عنقه فدخل النار، يعني: بمَوته. وأنه الآخر أبىٰ أن يُقَرب فضُرِبَ عنقه، فدخل الجنة، وهذا يَدُل علىٰ قُربِهِمَا.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ القَلبِ هُوَ المَقصُودُ الأَعظَمُ حَتَّىٰ عِندَ عَبَدَةِ الأَوثَانِ.

ولذلك قالوا: قَرِّب ولو ذبابًا، مع أن الذباب شيء حقير، ولا ينفعُ بشَيء؛ ولكن أرادوا الاعتقَاد.

﴾❁❁❁﴿

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: لَا يُذْبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيرِ اللهِ.

الشرح

لمَّا ذَكَرَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب السابق مسألة عظيمة، وهي: مَسألة الذَّبح لغَيرِ الله، وأن يُقصَد بالذَّبح غَيرُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه تقَعُ من جماعَاتٍ يَنتسِبُون إلىٰ الإسلام، انتقل إلىٰ مسألة أخرىٰ تتعلق بها وهي كالوسيلة لها، ألا وهي: الذَّبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله.

وذلك سواء كان الذبح لغيرِ الله في زَمَن سابق، أو موجودًا عند ذَبحِهِ لله في هذا المكان:

- فلو كان هناك قبر يُذبَح عنده لغير الله، فالناسُ يأتون بذبَائحهم يذبحونها لغير الله، وجاء هذا بذبيحته يذبَحُها معهم لله، فهذا وافَقَهُم في الزمن.

- أو كان هذا القبر عند أجدَادِهِ يُذبح عنده لغير الله، ثُم تُرِكَ هذا، فجاء هذا بأضحيته أو عَقيقَته وذبحها لله عند القبر، فهذا أيضًا ذبَحَ لله في مكان يُذبَح فيه لغير الله.

وهذا حرَامٌ كما قَرَّرته الأدلة، وهو عند كثير من أهل العلم من الشِّرك الأصغر؛ **لأنه ذريعَةٌ لأن يقع الإنسان في الذَّبح لغير الله**، والشيطان يأتي لابن آدم ويأخذه إلىٰ الشر خطوة خطوَة.

ولأنه أيضًا ذريعة لأن يقع غَيرُه من الجُهَّال في الذبح لغير الله.

فإذا أخذ الذبيحة وذبَحَها عند القبر أمام الناس، فإنه سيفتح باب الشَّر للجُهَّال الذين لا يعلمون، فيَذبَحون لصاحب القبر عندَ القبر مُقتَدين به، ولا يعلمُون أنه ذبحها لله.

ولأنه ذريعةٌ لإحياء الذبح لغَير الله إن كان الذبح لغير الله قَد تُرك؛ فيكون قد سَنَّ سُنَّة سيئة في الإسلام، فَعَليه وِزرُها ووزر من عمل بهَا من بعده.

وهذه الذرائع الثلاثة ظاهرة جدًّا؛ ولذلك هذا عند جمع من أهل العلم -وهو الظاهر عندي-: أنه مِن الشرك الأصغر؛ لأنه ذَريعَةٌ إلىٰ الشرك الأكبر.

ويَلحَقُ بذلك: الذبحُ لله في مكان صالح لأن يذبح فيه لغير الله، حتىٰ لو لم يُذبح فيه لغير الله من قبل، لكنه مُهَيَّأ لذلك؛ مثل القبر، فلو أن شخصًا جاء بذبيحته وذَبَحها عند البقيع لله، فعند البقيع لا يُذبَح لغير الله، ولم نعلم في السابق أنه كان يُذبح لغير الله عند البقيع، لكن هذا المكان صالح لأن يَغُشَّ الشيطانُ الناسَ ليُوقِعَهُم في الذبح لغير الله؛ فيذبح لأصحاب القبور؛ فلا يَجُوز أن يذبح لله فيه؛ لأنه ذريعة لأن يُذبح لغير الله فيه.

وهذا الذبح قال فيه بعض أهل العلم -كما ذكرت-: إنه حرام.

وبعض أهل العلم قال: إن ذبح في المكان لاعتقاد فضيلته، فهي بدعة، وإن ذبَحَ من غير اعتقَادِ الفضيلة فهي حرام.

والرَّاجِحُ عندي -كما قلتُ-: أن هذا الذبح من الشرك الأصغر.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآيَةَ [التَّوبة:١٠٨].

الشرح

وهذه الآية العَظيمَة نَزَلت في مسجد الضرار الذي بنَاهُ المُنَافِقُون كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين؛ ولجعله مكانًا يَجتَمع فيه المنافقون، وتكون صلاةُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه حُجَّة لهم إذا قيل لهم: لماذا لا تأتُونَ إلىٰ المَسجد النَّبوي؟، فيقُولون: نحنُ في هذا المَسجِد الذي صلىٰ فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جاءوا إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقَالُوا: قد بنينا مسجدًا، وما نريد إلا الخير، وهم كاذبون، كما فَضَحَهُم الله عَزَّوَجَلَّ فقال الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾: أي: لا تَقُم في هذا المَسجدِ أبدًا، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (**بَابٌ: لَا يُذبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذبَحُ فِيهِ لِغَيرِ اللهِ**)، ويأتينا بآية عن مَسجِد!، فما وجه ذلك؟

نقول: الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقيه، وله ملامح علمية أحيانًا يَصعُب علينا أن نَصِلَ إليها إلا بعد التدبُّر الشديد.

فقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية لبيَانِ أن هذا مع كونه أصبح مَسجدًا، وبَنَاه المنافقون علىٰ هيئة المسجد، نُهِيَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القيام فيه، بل إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدَمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكَونِهِ لم يُؤَسَّس علىٰ التقوىٰ؛ فكان

الأساسُ فيه حرامًا.

وقد يقول قائل: مادام أن المسجد قد بُني؛ فلماذا لم ينتزعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المنافقين، ويُعَين إمامًا من الصحابة ويُصبح مسجدًا يُعبد الله فيه؟! هذا وجه الدلالة.

ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفعل ذلك؛ بل نَهاه الله أن يقوم فيه، ومعلوم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلىٰ سيُصَلي فيه لله، لكن لما كان مبنيًّا علىٰ حرام نُهِي أن يُصَلي فيه؛ بل هدمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُمِر بأن يُصَلي في المسجد الذي أُسِّس علىٰ التقوىٰ من أول يوم.

والمَسجدُ الذي أُسِّس علىٰ التَّقوىٰ من أول يَوم، قيل: هو مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ثبت بذَلكَ أدلة وأحاديث. وقيل: هو مسجد قباء. ولا مَانعَ من الأمرَين.

لكن المقصُود أصالة: هو مسجدُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن مسجد قُبَاء قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ من أول يوم؛ ولذلك جعلت فيه فضيلة للأمة إلىٰ اليوم أن من صلىٰ فيه كان له كعدل عمرة[1].

وفي الاستدلال بهذه الآية مَلمَح بديع آخر: وهو الرد علىٰ شُبهة من يقول: أنا أذبح لله وباسم الله في هذا المكان، والأرض لا تغير شيئًا، سواء ذبحت هنا

---

(١) عَن أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: قَالَ أَبِي: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ خَرَجَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ -مَسْجِدَ قُبَاءَ- فَصَلَّىٰ فِيهِ كَانَ لَهُ عَدْلُ عُمْرَةٍ»**. أخرجه النسائي (٦٩٩)، وابن ماجه (١٤١٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

أو في أي مكان، فما المانع؟!

فنقول له: لا؛ لأنَّ الأرض إذا كانت مؤسَّسَة علىٰ حرام، فإن هذا يُؤَثِّر فيها، بدليل هذه الآية العظيمة.

ونقول: إنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو صَلَّىٰ في هذا المسجد، مسجد الضرار، سيُصَلي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا شَك، ولكنَّ المنافقين يقصدون شيئًا آخرَ، فَنُهِي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يُصَلي فيه.

وهذا الاستدلالُ هو من فقه هذا الإمَام، ونُصحِه للأمة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَن ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَن يَنحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «هَل كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟» قَالُوا: لا. قَالَ: «فَهَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم؟» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «أَوفِ بِنَذرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذرٍ فِي مَعصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ ابنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَإِسنَادُهُ عَلَىٰ شَرطِهِمَا.

الشرح

هذا الحديثُ العظيم رواه أبو داود[١].

(وَإِسنَادُهُ عَلَىٰ شَرطِهِمَا): أي: علىٰ شرط الشيخين.

قال شيخ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «علىٰ شَرط الصحيحين، وإسناده كلهم ثقات مشاهير»[٢].

وقال ابن عبد الهَادي في «الصَّارم المُنكِي»[٣]: «حسن صحيح».

وفي «المُحَرَّر»[٤] **قالَ**: «رجالُه رجال الصَّحيحَين».

وقال ابن المُلَقِّن: «إسناده صحيح علىٰ شرط البخاري ومسلم، كل رجاله

(١) برقم (٣٣١٣).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٩٠).

(٣) (ص٣٠٩).

(٤) برقم (٧٧٢).

أئمة مُجمع علىٰ عدالتهم»[(١)].

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده صحيح»[(٢)].

وله روايات أخرىٰ بَعضُها حَسَن، وبَعضُها صحيح.

(**عَن ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ**): هذا الرجُلُ لم يُسَمَّ هنا، ولعله هو (كُردُم) الذي جاء في بعض الروايات.

(**أَن يَنحَرَ إِبِلًا**): وكلمة (إبل) هذا اسم جَمع لا مُفرَد له من لفظه، فلو أردت أن تُفرِدَ تَقُول: بعير أو جمَل.

(**بِبُوَانَةَ**): **يُقَال**: (بُوانة) بضم الباء، و(بَوانَة) بفتح الباء.

قيل: هي موضع أسفل مكة. وقيل: هي قريبة من ينبع؛ يعني: بين مكة وينبع البحر، وهي هَضبَة كبيرة وما زالت معروفة إلىٰ اليوم. وقيل: هي قريبَةٌ من (يَلملَم) ميقات أهل اليمن.

(**فَسَأَلَ النَّبِيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يعني: سألَ الرجلُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل يَفعَل؟

(**فَقَالَ**): أي: النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(**هَل كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟**): الوَثَن: ما يُعبَد من دُونِ الله،

---

(١) «البدر المنير» (٩/ ٥١٨).

(٢) «صحيح سنن أبي داود».

ولو لم يَكُن له صُورة.

والجَاهليَّة: ما قبل الإسلام.

يُعبَد: فهذا هو الشرك؛ وَثَن يُعبَد، فهذا الأمر الأعظم بدَأ به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(**قَالُوا: لا. قَالَ: فَهَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم؟**): فحتىٰ لو لم يَكُن عندهم وثنٌ يعبدونه في هذا المكان، فهَل كان لهم عيدٌ في هذا المكان؟

والمعروف أن الناس في الأعياد يَفعَلُون طقوسهم، ومنها الذبح؛ حيث يذبح المُشرِكون لغَيرِ الله باسم آلهتهم.

وسَواء تيقنًّا أنهم يَذبحُون في المكان لغير الله، أو غَلَب علىٰ ظنِّنا أنهم يذبحون في المكان لغير الله؛ لأنهم إذا كان عندهم وثن فنَحن نتيَقَّن أنهم يذبحون في هذا المكان لغير الله؛ لأنهم يذبحون لوثنهم.

وإذا لم يَكُن لهم وثَن، لكن كان لهم عيد -والعيد: هو الذي يتكرر، سواء في الأسبوع، أو في الشهر، أو في السنة، علىٰ وجه واحد-، فيَغلبُ علىٰ ظننا أنهم في عيدهم يذبحون، وإذا ذبحوا فإنهم يَذبَحُون لغير الله، وهذه الحكمة من أن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل أولًا عن الوثن، ثم سأَل عن العيد.

(**قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوفِ بِنَذرِكَ**): وهذا أمرٌ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأمرُ يَدُل علىٰ الوجوب، وهذا يَدُلنا علىٰ ما سيأتي من أن النَّذر عبادة؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر هنا بالوفاء بالنذر.

وهنا سؤال: وهو أن هذا الرجلَ نذر أن ينحر إبلًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه

طاعة، لكن نذر أن ينحرها في (بُوانة)، وهذا المكان ليس له فضيلة شرعيَّة، إذن هذا طاعة أو مباح؟

الجواب: هذا مباح؛ لأن المكَانَ ليس له فضيلة شرعية، فيُبَاح للإنسان أن يذبح فيه.

والنحر واجبٌ، والأمر للوجوب، وأما بالنسبة للذبح أو النَّحر في بُوانة بخصوصها، فالأمر فيه للتخيير؛ لأنه -سيأتي إن شاء الله- أن نذر المُبَاح لا يَجِبُ الوفاءُ به، وهذا مُبَاح.

(**فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعصِيَةِ اللهِ**): وهذا يَدُل علىٰ أن نَذرَ المعصية يَنعَقِدُ؛ لأنه قال: «**لَا وَفَاءَ**»، والوفاء يكونُ بعد الانعِقَاد.

وهذا مُوافِقٌ لقَول الجُمهور: إن مَن نذر المعصية لا يفي بالنَّذر، وعليه كفارة -وسيأتي إن شاء الله-.

(**وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ ابنُ آدَمَ**): وما لا يَملِكُه ابن آدم؛ إما أنه يَملِكُه غيرُه، وهذا هو المقصود هُنا. وهذا حَرَام، ولا يجوز الوفاء به.

أو الذي لا يَملكُه ابن آدم؛ بمعنىٰ: ألَّا يكون في يده، وليس ملكًا لغيره، ولكن هذا يثبت في الذمة؛ فيَجبُ عليه الوفاء به متىٰ ما قدَرَ علىٰ ما نذَرَهُ، فهذا ينعقِدُ ويَدخُلُ في نَذر الطاعة.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ قَولِهِ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وقد بيناه، وبينًا مُناسبة ذكر الآية.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ المَعصِيَةَ قَد تُؤَثِّرُ فِي الأَرضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.

وهذه أخذها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من الآية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال في مسجد الضرار ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ مع أنه بناء مسجد؛ ولكن أثَّر فيه قَصدُهم الفاسد، ومعصيتهم لله تعالىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ فوصَفَه الله بكونه أُسِّس علىٰ التقوىٰ؛ إذن هذا القَصدُ زَكَّاه، وأثر في المسجد، كما أثَّرَت المَعصيَة في مسجد الضرار.

الثَّالِثَةُ: رَدُّ المَسأَلَةِ المُشكِلَةِ إِلَىٰ المَسأَلَةِ البَيِّنَةِ لِيَزُولَ الإِشكَالُ.

وهذا من مُهِمَّات العلم؛ أنه إذا كانت المسألة مُشكلة؛ فإنها تُرَد إلىٰ المسألة البينة؛ ليتَّضِحَ إشكَالُهَا وينجلي، وفي ذلك تقريبٌ للمَسَائل إلىٰ الناس، وضَرب الأمثال والتفصيل الذي لا تشقيق فيه من أنفَعِ ما يَكونُ للناس؛ حتىٰ يَفهَمُوا، فإذا فهموا ارتاحت نُفُوسهم.

الرَّابِعَةُ: استِفصَالُ المُفتِي إِذَا احتَاجَ إِلَىٰ ذَلِكَ.

فإذا وُجِدَ احتمَالٌ ظاهر؛ فإن المفتي ينبغي أن يستفصل من المُستفتي، أمَّا

إذا لم يُوجَد الاحتمَالُ، أو كان الاحتمالُ ضعيفًا بعيدًا فلا يَستَفصِل؛ لأنه لو ذهبنا نتَتبَّع كل احتمال عقلي فإن المسألة لن تنتهي.

الخَامِسَةُ: أَنَّ تَخصِيصَ البُقعَةِ بِالنَّذرِ لا بَأسَ بِهِ إِذَا خَلا مِنَ المَوَانِعِ.

فتَخصيصُ بُقعة لم يرد بها النص في النذر هذا جَائز شرعًا، وهو من المُبَاح -كما قلنا-.

السَّادِسَةُ: المَنعُ مِنهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثَنٌ مِن أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ وَلَو بَعدَ زَوَالِهِ.

فإذا كان في البُقعة التي نذر الإنسان أن يذبح عندها وثن قبل ذلك؛ فإنه لا يجوز له أن يذبح هناك، فما بَالُك إذا كان الوثن موجودًا مِثل القُبور التي اتخذها بعضُ مَن يَنتسبُون إلىٰ الإسلام أوثانًا تُعبَد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السَّابِعَةُ: المَنعُ مِنهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم وَلَو بَعدَ زَوَالِهِ.

وذلك لأن العيد مَظِنَّة أن يُذبَح فيه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ لا يَجُوزُ لَهُ الوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلكَ البُقعَةِ، لأَنَّهُ نَذرُ مَعصِيَةٍ.

فلا يَجُوز النذر بما نَذَر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية، وقلنا: إن الراجِحَ أن الذبح هنا مُتَّفق علىٰ أنه حرام، لكن الراجح عندي -والله أعلَمُ- أنه من الشِّرك الأصغر.

التَّاسِعَةُ: الحَذَرُ مِن مُشَابَهَةِ المُشرِكِينَ فِي أَعيَادِهِم وَلَو لَم يَقصِدهُ.

وذلك لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فَهَل كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِن أَعيَادِهِم**».

فالرجل ربما لم يَكُن يَعلَم، ومع ذلك استفصل منه النبي ﷺ، والتشبُّه بالكفار في أعيادهم لا يَجُوز، لكن إذا كان الإنسان لا يقصد التَّشبُّه، ولا يعلم؛ فهذا لا شيء عليه، أما إذا عَلِم أن هذا الأمر يَفعَلُه الكفار ولم يَقصِد مُشَابَهَتَهُم؛ فهذا حَرَام، ويأثم بفعله.

فالتشبه لا يُشتَرَط فيه القَصد، وإنما يُشتَرَط فيه العِلم، فمن عَلِمَ صَنِيعَهم وتشبه بهم فيما هو من خَصَائصهم، فقد وقع في الحَرَام، فإن كان هذا مُتعلقًا بعقيدتهم؛ كان أشدَّ حُرمَة.

العَاشِرَةُ: لا نَذرَ فِي مَعصِيَةٍ.

وسيأتي -إن شاء الله- بيانُ هذا، وبيان أحكامه بالتفصيل.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: لا نَذرَ لابنِ آدَمَ فِيمَا لا يَملِكُ.

وهو -كما سبَقَ بيَانُه-: الذي يَملكُه غيره فيَنذره، أما أن يعقد ذلك في ذمَّته وهو لا يَملِكُه الآن؛ فهذا ينعقد، ويَلزَمُه إن كانَ مُطيقًا -كما سيأتي إن شاء الله-.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيرِ اللهِ.

الشرح

تقدم بيان أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يذكُر ما يكثُر وقوعُه ممَّن يَنتَسِبُون إلى الإسلام، وهو يخالف الإسلام، ومن ذلك: النذر لغير الله؛ حيث يكثر ممَّن ينتسبون للإسلام أنهم يقدمون النذور للأشياخ ولأصحاب القبور؛ بل قد يصل الأمر إلى أنهم ينذرون للجن، ومَن يسمونهم بأسيَادهم والصالحين من الغائبين والأموات!

ولا شَكَّ أن هذا من الشِّرك الأكبر المُخرِج من ملة الإسلام؛ لأن النذر عبادة، وصرف العبادة لغير الله هو الظلم العَظيم والشِّرك المبين، وأغلب من ينذرون لأصحاب القبور لا يدركون أن النذر عبادة، ولو أنهم فهموا وعلموا أن النذر عبادة لأقلعوا -إن شاء الله- عن هذا الأمر؛ فإنه لا يستجيز مسلمٌ أن يعبُدَ غير الله أبدًا.

والنذر عبادة من وَجهَين:

الوجه الأول: لأن النذر لا يكون إلا على وجه التقرُّب لمن يُرجى خَيرُه أو يعظَّم أمره، فلا يمكن أن ينذر الإنسان نذرًا إلا على وجه التقَرب للمَنذُور له، وهذا المَنذُور له إما يُرجى خَيرُه وإما أنه يعظَّم، وهذه هي العبادة، ولن تجد رجلا أو امرأة ينذِرُ لصاحب قبر وهو لا يُعظِّمه أو لا يَرجُو خيره، بل يَرجُو

بنذره له أن يَرضىٰ عنه، وأن يُرزَق الولد، أو يُرزَق المال، وهذا هو عين العبادة.

والوجه الثاني: أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بالوفاء بالنذر، ومَدَح المُوفِين بالنذر، وأثاب علىٰ الوفاء بالنذر، وهذا يَدُل علىٰ أن ذلك عبادة، وما دام أنه عبادة فلا يجوز صَرفُه لغير الله، فلا يجوز لك أيها المسلم أن تنذر لغير الله أبدًا، فإن فعلتَ فقد تقربت لغير الله بالعبادة، وهذا شرك أكبر، ولا يجوز لك أن تفي بنذر نَذَرتَه لغير الله؛ لأنك إذا وفيت بهذا النذر لغير الله فقَد عَبَدتَ هذا المنذور له من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والنذر لُغةً: مِن: نَذَر يَنذِر أَو يَنذُر -بكسر الذَّال وضمها-.

والنَّذر في لغة العَرَب: كلمة تدل علىٰ تخويف، ولا يكاد يُستَعمَل إلا في التخويف، ومنه سُمِّي النَّذر؛ لأن الناذر في الغالب يَخَاف من المنذور له، أو يخافُ من عدم الوفاء؛ فَسُمِّي النذر نَذرًا من الخوف.

وكذلك يُطلق النذرُ علىٰ الواجب، ومنه سُمِّي النذر نذرًا؛ لأن الإنسان يُوجِبُ علىٰ نفسه ما في النَّذر.

والنَّذر شرعًا: إلزامُ المُكلَّف نَفسَه شيئًا غير لازم له، ولم يُوجِبه عليه الشرع، لكنه يُلزِمُ نَفسَه به بلفظٍ.

كأن يقول: لله عليَّ أن أذبح شاة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يوجب عليَّ أن أذبح شاة، لكنني ألزمتُ نَفسي بذبح الشاة بِلَفظٍ.

فالنَّذرُ لابُدَّ فيه من (لفظٍ)؛ بمعنىٰ: أن المسلم لو التزم شيئًا يفعله دائمًا، مثل

السنن الرواتب، لو ألزم نفسه بالفعل أنه دائمًا يصلي السنن الرواتب، في هذه الحال ألزم نَفسَه بهذا الفعل ولم يَجعله واجبًا عليه، فهذا ليس نذرًا؛ فالنذر لابد فيه من لَفظٍ.

ولو أنه حَدَّث نفسه في قلبه وقال: إن شفىٰ الله مريضي لله عليَّ أن أذبحَ شَاة؛ فهذا ليس نَذرًا.

والنَّذرُ باعتبار المتقرب إليه يَنقَسم إلىٰ قِسمَين:

الأول: نذر لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: وهذا سيأتي حُكم الدخول فيه، وحُكم الوفاء به.

الثاني: نَذر لغير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: وهذا شِركٌ أكبر يُخرِج من ملَّة الإسلام.

والنذر باعتبار لفظِ النَّاذِرِ يَنقَسم إلىٰ قِسمَين:

الأول: نَذر التَّبَرُّر: وهو النَّذر من غير مُقابل.

كأن يَقُول: للهِ عليَّ أن أصوم يَومَين من هذا الأسبوع، ولم يذكُر مُقابلًا، ولم يذكر جزاءً للنذر، فهذا نذر تَبَرر، بِرٌّ يُريد أن يتعبَّد به ولا يَطلُب شيئًا، وإنما يريد أن يتقرب به إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

الثاني: نَذرٌ مُقيَّد: وبعض أهل العلم يُسمِّيه: **نذر الجَزَاء**، وبعضهم يسميه: **نَذر المقابلة**، وبعضهم يسميه: **نَذر المُعَاوَضة**.

ومَعناه: أن يكونَ النَّذر في مُقابل شيءٍ يَرجوه الناذر.

فيقول مَثلًا: لله عليَّ أن أصوم يومَين إن شَفىٰ الله مَريضي؛ فهذا قيدٌ نَذرَه

بشفاء مَرِيضِهِ، فهذا له مقابل وهو شفَاء المريض.

وأمَّا أحكامُ النَّذر فالكلامُ عنها من وجوه:

الوجه الأول: حُكمُه باعتبار المُتقرَّب إليه من النذر:

- فالنذر إن كان لله؛ فالوفاء به توحيد وعبادة.

- وإن كان لغير الله؛ فهو شِرك أكبر وظُلم عظيم.

والوجه الثاني: حُكم النذر باعتبار الدخول فيه أصلًا.

قال بعضُ أهل العلم:

- الدخُول في نَذر المُقَابلة والجزاء مَكروه.

- والدخُول في نَذر التبرُّر جائز.

يعني: أن تقول: لله عليَّ أن أصوم يومين من هذا الأسبوع؛ يقولون: هذا جائز وليس فيه كراهة؛ وذلك لأنه تَقَرُّب مَحضٌ.

أما أن تقول: لله علي أن أصوم يَومَين من هذا الأسبوع إن شفىٰ الله مَريضي؛ فهذا مَكرُوه؛ للأدلة التي سوف تأتي -إن شاء الله-.

وقال بعضُ أهل العلم: الدخُولُ في النذر مطلقًا مكروه.

وقال بعض أهل العلم: الدخول في النذر مطلقًا مُحَرَّم، وهذا أقرب، والله أعلم؛ وذلك لأدلة:

الدليل الأول: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن النذر: «**يَستَخرِجُ اللهُ بِهِ مِنَ**

البَخِيلِ». أخرجه البخاري[١].

والدليل الثاني: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا تَنذِرُوا، فَإِنَّ النَّذرَ لَا يُغنِي مِنَ القَدَرِ شَيئًا، وَإِنَّمَا يُستَخرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»**. أخرجه مسلم[٢].

«لَا تَنذِرُوا»: هذا نَهي، والنهي يقتضي التحريم؛ فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا، فإن قدَّر الله أن يشفي مريضَك سيشفيه إن نَذَرت أو لم تنذر، وإن شاء أن يموت مريضُك سيموت إن نذرت أو لم تنذر، وإنما يُستَخرج به من البَخيل.

والدليل الثالث: عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَىٰ عَنِ النَّذرِ**، وَقَالَ: **«إِنَّهُ لَا يَأتِي بِخَيرٍ، وَإِنَّمَا يُستَخرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»**. أخرجه مسلم[٣].

قالوا: فهذا نَهي عن النذر، والنهي يقتضي التحريم.

وقالُوا: وكذلك تَدُل عليه الحِكمَة؛ لأن المُكَلَّف يُوقِعُ نفسَهُ في الحَرَج، والشرع جاء بنفي الحَرَج، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُوجِب عليك أن تصوم يومين من هذا الأسبوع مثلًا، فإذا ألزمت نفسك تكون قد أوقعتها في الحَرَج والله لا يريد بنا الحرج والمشقة، وهذا أقرب، والله أعلم، وإن كان الجمهور علىٰ أن الدخول في النذر مَكرُوه.

والوجه الثالث: حُكمه من جِهَة الوفاء به:

فإذا قلنا بالتحريم؛ فإذا نذر الإنسان فإنه يأثم للدخُول في النذر.

---

(١) برقم (٦٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) برقم (١٦٤٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) برقم (١٦٣٩).

لَكِن ما حُكم الوفاء بالنَّذر اذا دخل فيه الإنسان؟

الجواب: هذا يختلف بحسب النَّذر نفسه؛ وهذا يَنقَسِم إلىٰ أقسام:

القسم الأول: النذر المُطلق: ومَعناه: أن المَنذُور لا يُذكَرُ فيه.

وذلك مثل أن يَقُول: نَذرٌ عليَّ إن شفىٰ الله مَريضي، أو: لله عليَّ نَذر إن شفىٰ الله مَريضي، ولا يذكر شيئًا معينًا، فهذا يسمىٰ عند العلماء: النذر المُطلَق، وهو الذي لم يُذكَر فيه المَنذور، وهذا فيه كفارة يَمين؛ لحَديث: **«كَفَّارَةُ النَّذرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»**. رواه مسلم[1].

وهذا النذرُ لا يُمكن الوفاءُ به؛ لأنه لم يَذكُر فيه الشيءَ، لكنه انعقد؛ فيُحَل بكفَّارة يمين؛ بأن يُعتِقَ رقبة، أو يُطعمَ عشرة مسَاكين، أو يَكسُوهم، فإن لم يَجِد ذلك كُله فإنه يصومُ ثلاثة أيام.

القسمُ الثاني: نَذرُ الطاعة؛ وهو أن تَنذِر طاعةً لله:

وذلك مثل أن يَقُول: للهِ عليَّ أن أصوم يومًا، أو: لله عليَّ أن أُصَلي ركعتين إن شَفَىٰ مريضي، فهذه طاعة، ونذر الطاعة يجب الوفاءُ به، ويأثَمُ النَّاذر إذا لم يَفِ به، لكن إن عجز عنه سَوَاء في الحال أو المآل، أو شق عليه مَشقَّة زائدة لا يأتي بها الشرع فإنه ينحلُّ من النَّذر بكفَّارة اليمين.

وذلك مثل أن يَقُول: لله عليَّ أن أذبح بقرة في هذا الشهر، فسُرِقَ ماله ولا يستطيع أن يذبح بقَرة في الحَال -في هذا الشهر-.

أو المآل: وذلك مثل أن ينذر إنسان أن يَصُوم يومًا وأن يُفطر يومًا، وقد كان

---

(١) برقم (١٦٤٥) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يستطيع ذلكَ في بدايَةِ الشَّباب، لكن لمَّا وصَلَ إلىٰ الخمسين أصبَحَ الصيام يَشُق عليه مشقَّة زائدة، فيَنحَلُّ من نَذره الذي عجز عنه بكفَّارة يمين؛ وذلك للحَديث السابق: «**كَفَّارَةُ النَّذرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ**».

ولقَول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا: «مَن نَذر نذرًا لا يطيقه فليُكَفِّر كفارة يمين». رواه أبو داود[١]، وصححه ابن حَجَر مَوقوفًا[٢].

القسم الثالث: نذر ما لا يَملِكُه الإنسان؛ بل يملكه غيره:

أن ينذر الانسان شيئا لا يملكه هو ويملكه غيره .

وذلك مثل أن يَقُول: إن شَفىٰ الله مريضي فلِلَّهِ عليَّ أن أتصَدَّق بسَيَّارة جاري، وهو لا يملكُ السيارة، وإنما الذي يملك السيارة جارُه، وهو لا يريد أن تكون في ذمته بأنه سيشتريها؛ بل هو يُريدُ أن يتصدق بمَا يملكه غيره؛ فهذا لا يُوفي به، ولا يجب الوفاء به؛ لقَولِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**لَا وَفَاءَ لنَذرٍ فِي مَعصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَملِكُ العَبدُ**». رواه مُسلم[٣].

وجاء أيضًا في الحَديث: «**لَا وَفَاءَ نَذرٍ إِلَّا فِيمَا تَملِكُ**». رواه أبو داود، وحَسَّنه الألباني[٤].

---

(١) برقم (٣٣٢٢) مرفوعًا، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود». وقال في «إرواء الغليل» (٨/ ٢١١): «الصواب في الحديث وَقفُه علىٰ ابن عباس».اهـ

(٢) قال في «فتح الباري» (١١/ ٥٨٧): «وَرُوَاته ثِقَات، لَكِن أخرجه ابن أَبِي شَيْبَة مَوْقُوفًا وَهُوَ أَشْبَهُ».اهـ

(٣) برقم (١٦٤١).

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فدَلَّ هذا الحديثُ علىٰ أن ما لا يَملكُه الإنسان لا وفاءَ بنَذرِه.

وأمَّا حُكمُه؛ فسيأتي -إن شاء الله- بعد الكلام علىٰ القسم الرَّابع.

القسم الرابع نذر المعصية:

وذلك مثل أن يَقُول: نَذرٌ عليَّ إن شَفَىٰ الله مريضي أن أزور قبر الولي الفلاني علىٰ وجه التقرُّب لصَاحِب القبر، وهذه مَعصيَة، ولا يجوز الوفاء بهذا النذر بإجماع العلماء، وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن نَذَرَ أَن يَعصِيَ اللهَ فَلَا يَعصِهِ**». رواه البخاري[1].

السُّؤال: هل في هذَين القِسمَين -نَذر ما لا يَملِكُ، ونَذر المَعصيَة- كفَّارة يمين؟

الجَوابُ: اختَلفَ العلماءُ في ذلك، والذي تحرَّر عندي في المسألة: أن الراجح أن فيه كفارة يمين، وقد كنتُ أرىٰ سابقًا أنه لا كفارةَ فيه -علىٰ ما ذهب إليه مالكٌ والشافعيُّ-؛ لأنه نذر معصية، فهو غيرُ مُنعَقدٍ أصلًا، لكن الرَّاجح أن فيه كفَّارة يَمين؛ لعُمُوم قولِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَفَّارَةُ النَّذرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ**».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النَّذرُ نَذرَانِ: فَمَا كَانَ مِن نَذرٍ فِي طَاعَةِ اللهِ فَذَلِكَ لِلَّهِ وَفِيهِ الوَفَاءُ، وَمَا كَانَ مِن نَذرٍ فِي مَعصِيَةِ اللهِ فَذَلِكَ لِلشَّيطَانِ وَلَا وَفَاءَ فِيهِ، وَيُكَفِّرُهُ مَا يُكَفِّرُ اليَمِينَ**». رواه النَّسائيُّ، وصَححَّه الألباني[2].

---

(١) برقم (٦٦٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه النسائي (٣٨٤٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين» رواه الأربعة، وصححه الألباني(١).

القسمُ الخَامسُ: نَذر المكروه:

وذلك مثل أن يَقُول: لله عليَّ أن أُصَلي الفرض بين السَّوَاري، وصلاة الفرض بين السواري من غير حاجة مكروهة، فنَذرُه هنا مكروه. فما حُكمُه؟

قالَ أهلُ العلم: إن وفىٰ به أجزأه، والأفضَلُ ألَّا يفي به، وفيه كفَّارة يمين علىٰ الأصَح.

القسم السادس: نَذرُ المُبَاح:

وذلك مثل أن يَقُول: لله عليَّ أن أخرج في نزهة، والخروج في نزهة مباح. أو: لله علي أن أمشي إلىٰ المسجد، والمشي مباح، فهذا لا يجب الوفاء به؛ لحديث: «لَا نَذرَ إِلَّا فِيمَا يُبتَغَىٰ بِهِ وَجهُ اللهِ، وَلَا يَمِينَ فِي قَطِيعَةِ رَحِمٍ». رواه أبو داود، وحسنه الألباني(٢).

فإن فعَلَ أجزأه عن نذره، وإن لم يَفعَل فالأحوطُ أن يُكَفِّر كفَّارةَ يَمين، والقَولُ بالكفَّارة هنا أضعف مما تقدم؛ لكن الأحوط أن يكفر كفارة يمين؛ لعموم الحديث السابق: «كَفَّارَةُ النَّذرِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ».

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٩٠)، والترمذي (١٥٢٤)، والنسائي (٣٨٣٤)، وابن ماجه (٢١٢٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٥٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

القسم السابع: النَّذر الذي يُقصَدُ به تَصدِيقُ شيء، أو الحَملُ علىٰ شيء، أو المَنعُ من شيء:

فالذي يُقصَدُ به تَصدِيقُ شيء: مثل أن يخبرك إنسان بخبر فرأىٰ منكَ عدم تصديقه في خبره، فقال لك- لتصدقه وليؤكِّد التصديق-: لله عليَّ أن أصوم يومين إن كنتُ كاذبًا.

ومُرادُه بهذا النذر: أن تُصدِّقَهُ في خبره.

والذي يُقصَدُ به الحَملُ علىٰ شيء: مثل أن يكون بينك وبين أخيك خصَام؛ وأردتُ منك أن تَصطَلح معه، فرأيتُ منك تأخرًا في ذلك، فقلتُ لك: لله عليَّ أن أصوم أسبوعًا إن لم تُصَالح أخَاك اليوم، وأنا أريدُ بذلك أن أحمِلَكَ علىٰ أن تُصَالحه، وليس النذر مقصودًا، وإنما المَقصُود هو أن أحمِلَكَ علىٰ أن تُصَالحه.

والذي يُقصَد به المَنعُ من شيء: مثل أن تجيئني وقد أغضبَتكَ الزوجةُ لأمر عارض، فقلت لي: أنا أفكِّر أن أطلِّقها، فقلت لك: اصبِر، والنساء ضعيفات، وعندَهُن عَجَلة، وإن أساءت اليوم ستُحسِن غدًا، فرأيت منك رغبة شديدة في تطليقها وأنت في فَورَة الغضب، فقلت لك: إن طلقتها اليوم عليَّ أن أصوم شهرًا، وقَصدِي أن أمنَعك من تَطلِيقِها اليومَ حتَّىٰ تَهدأ.

ومثل هذا يقول فيه العلماء: هو يَمينٌ بلفظ النذر؛ لأن النذر ليس مقصودًا، وإنما المَقصُود ما يُقصَد باليمين، وكأني في الحقيقة قُلتُ لك: والله لتفعَلَنَّ، أو: والله لا تَفعَل؛ إما للحَمل وإمَّا للمنع.

وقالوا: هذا يَمينٌ، وإن لم يَقَع ما يوجِبُه فلا شيء فيه، وإن وقع ففيه كفَّارة يمين.

فإن ذهبت وطلقتها اليوم؛ كان عليَّ كفارة يمين؛ لأن المقصود في الحقيقة هو اليمين، والنذر ليس مقصودًا.

القِسمُ الثامن: نَذرُ ما هو واجبٌ بالشَّرع:

وذلك مثل أن يَقُول الرجُلُ: لله عليَّ أن أصلي الظهر في جماعة، وصلاة الظهر في جماعةٍ أصلًا واجبٌ عليه، فهذا لا يُفيد شيئًا؛ لأن المذكور في النذر واجب في الشرع بدُونِ النذر لله.

القسم التاسع: نذر المُحَال -وهو الشيءُ الذي لا يُمكن وقوعُه-:

وذلك مثل أن يَقُول: لله عليَّ أن أحملَ هذه الصخرة، وهي صخرةٌ عظيمة لا يحملها مائةُ رجل!

أو يقول: لله عليَّ أن أسير علىٰ رأسي مسَافة كيلو متر، هذا لا يُمكنُ وهو أمرٌ مُحَال، فهذا عَبَثٌ لا ينعقد به شيء، ولا يلزَمُ به شيء.

فهذه هي أقسامُ النَّذر بالتفصيل المَذكُورة في كتُب الفقه وكتب الحديث وكتب العقيدة من جهة حُكم الوفاء بالنذر.

فإن قالَ قَائلٌ: أين الوفاءُ بالنذر لغير الله؟

نَقُول: النذر لغير الله تقدَّم معنا أنه شركٌ أكبر، ولا يجوز هذا النذرُ أصلًا، ولا يجوز الوفاء به.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان:٧].

الشرح

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أقام الأدلة علىٰ أن الوفاءَ بالنَّذرِ عبَادة.

وهو لم يَقُل: النذر عبادة؛ بل قال: «باب من الشِّركِ النذرُ لغَير الله»!

قُلنا: إذا ثبت أن الشيء عبادة؛ ثَبَتَ يقينًا أن جَعلَه لغير الله شِركٌ، وهذا يُدرِكُه كل مُسلِم.

قال تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾: فمَدح الله هؤلاء الأبرار بأنهم يُوفُون بالنذر، فدَلَّ ذلك علىٰ أن الوفاء بالنذر عبادَة، وإذا ثَبَت أنه عبَادَة؛ فإن صَرفَه لغير الله شِركٌ.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٠].

الشرح

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾: أي: في سَبيله تَقَرُّبًا إليه.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾: فقَرَنَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين النَّفقة في سبيله والنَّذر.

ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: أي: ويُجَازِيكُم عليه؛ فدَلَّ ذلكَ علىٰ أن النَّذر عبَادَةٌ.

والمَقصُود بالنَّذر: هو الوفاءُ، كما دَلَّت عليه النصوص، والوفاء بالنذر عبادة؛ فهذا يَدُل علىٰ المُرَاد.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَن عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَن نَذَرَ أَن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَن نَذَرَ أَن يَعصِيَ اللهَ فَلَا يَعصِهِ».

الشرح

(**الصَّحِيح**): أي: صَحيح البُخَاري[1].

(**عَن عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَن نَذَرَ أَن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعهُ**): فهذا أمر، والأمر يقتَضِي الوجُوب، وما دامَ أنه واجبٌ فَهُو عبَادة.

(**وَمَن نَذَرَ أَن يَعصِيَ اللهَ فَلَا يَعصِهِ**): وهذا يَدُل علىٰ ما ذكرنَاهُ من نَذر المَعصيَة.

والشَّاهد في قولِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن نَذَرَ أَن يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعهُ**»؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن الوفَاءَ بالنَّذر عبادة.

والعُلماء يقولون: إن باب النذر باب غريب في الشرع؛ لأن الإنسان يُلزِمُ نَفسَه بما لم يَلزَمه شرعًا، ولذلك النذر له قواعد خاصَّة؛ ومنها أنه يحرم الدخول فيه، ويجب الوفاء به.

وهذا الأمر له أمثلة في الشرع، مثل: حج المرأة بلا محرم حَرَام علىٰ الراجح من أقوال أهل العلم، فيحرُم علىٰ المرأة بغير مَحرم أن تدخل في الحج، فإن دخَلَت في الحج وقالت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمدَ والنعمة لك والمُلك، لبيك لا شَريكَ لك. فهُنا وجَبَ عليها أن تُتمَّه!

---

(١) برقم (٦٦٩٦).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: وُجُوبُ الوَفَاءِ بِالنَّذرِ.

وهذا بحسَب الأقسام التي ذكرنَاها.

الثَّانِيَةُ: إِذَا ثَبَتَ كَونُهُ عِبَادَةً للهِ؛ فَصَرفُهُ إِلَىٰ غَيرِهِ شِركٌ.

فقد ثبت بالأدلة المَذكُورة في البابِ أن النذرَ عبَادة؛ فإذا ثبت أنه عبَادة؛ فإن صَرفَهُ لغير الله شِرك، وهذا أمر يُدرِكُه كلُّ مُسلِم.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ نَذرَ المَعصِيَةِ لا يَجُوزُ الوَفَاءُ بِهِ.

لقَولِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن نَذَرَ أَن يَعصِيَ اللهَ فَلَا يَعصِهِ**».

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الشِّركِ الاستِعَاذَةُ بِغَيرِ اللهِ.

الشرح

الاستعَاذَة في اللغة هي: طَلَبُ العوذ. **والعَوذ هو:** الالتجاء والاعتصام والاحتِمَاء والتَّحصين والحِفظُ.

ومَعنىٰ الاستعاذة: هي اللجوءُ إلىٰ المُستعَاذ به؛ طلبًا للوقاية من الشَّر.

وإن شِئتَ قُل: هي طلبُ الحِمَاية من الشَّر.

ويُقَابل الاستِعَاذة: اللَّوذ، يقال: أَلُوذ لَوذًا ولِياذًا ولِواذًا. **واللَّوذ معناه:** طلبُ حُصول الخَير.

والعُلماء يقولون: الاستعاذة في المَرهُوب، واللوذ في المَرغُوب.

والاستعاذَةُ بالله: تَوحيدٌ وعبَادة.

والاستعَاذة بالمَخلُوق علىٰ قِسمَين:

القسم الأول: استعاذة فيها حقيقة الدعاء؛ كأنه يدعوه، وهذه شرك أكبر يُخرج من مِلَّة الإسلام؛ لأن هذه الاستعاذة عبادة؛ فصرفها لغير الله شرك أكبر.

وقد اتفق العُلماء من جميع المَذَاهب علىٰ حُرمة هذه الاستعاذة بالمخلوق.

وهذه الاستعاذة عبادة لوجهين:

الوجه الأول: أنها دعاء، و«**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[1]. كما ثبت في الحديث الصحيح.

والوجه الثاني: أن الله أمر بأن يُستَعَاذَ به؛ فدل ذلك على أن الاستعاذة عبادَة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦].

إذن؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا بالاستعاذة به؛ فَيَدُل ذلك على أن الاستعاذة عبَادَة.

سؤال: كيف نَعرفُ أن الاستعاذة بالمَخلُوق فيها حقيقة الدعاء؟

الجَوَاب: يقول العُلمَاء: لهذا صُوَر:

الصورة الأولىٰ: أن يكون المَخلُوق المُستعَاذ به غائبًا غير حاضر.

وذلك مثل أن يكون هنا في المدينة شخص ويَحصُل له ظُلم من شَخص؛ فيقُول: يا سيِّدي عبدالقادر -وهو في الجزائر- أعوذ بك من ظلم هذا الرجل؛ فهذا دعاءٌ في الحَقيقَة؛ لأن هذا الرجل غائب، وهذا شِركٌ أكبَر.

الصورة الثَّانية: أن يَكُون المَخلوقُ المستعاذ به مَيتًا، فيُستَعَاذ بميت وهو في قبره، وهذا في الحقيقة دعاء.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٥٢-الرسالة)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧).

الصورة الثالثة: أن يكونَ المُستَعَاذ به حاضرًا، ولا يَقدِرُ علىٰ الأمر المُستَعَاذ منه؛ فهذا شرك أكبر.

والقسم الثاني: الاستعاذة بالمَخلُوق بالفعل أو الطلب فيما يقدر عليه -وهذا لابُد أن يكون حاضرًا-، مع اعتقاد أنَّ الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وذلك مثل أن تقول للقاضي: أستعيذ بك أيها القاضي من ظلم خصمي.

فأنت الآن تَستعيذُ بالقاضي الحاضر القَادر علىٰ منع الظلم، تستعيذ به بما يقدر عليه، مع اعتقادك أن الأمر كله لله، وقَلبُك معلَّق بالله. فهذه الاستعاذة جائزة.

ولذلك النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الفتن عندمَا قَالَ: «**سَتَكُونُ فِتنٌ؛ القَاعِدُ فِيهَا خَيرٌ مِنَ القَائِمِ، والقَائِمُ فِيهَا خَيرٌ مِن المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيرٌ مِنَ السَّاعِي، مَن تَشَرَّفَ لَهَا تَستَشرِفهُ، فَمَن وَجَدَ مِنهَا مَلجَأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ بِهِ**»[1].

فهذه استعاذة بالمخلوق، وذلك كأن تَذهبَ إلىٰ بُستَانك في الصحراءِ بَعيدًا عن الفتنة.

وكذلك جاء عن أبي مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّهُ كَانَ يَضرِبُ غُلَامَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَضرِبُهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِرَسُولِ اللهِ، فَتَرَكَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَاللهِ لَلَّهُ أَقدَرُ عَلَيكَ مِنكَ عَلَيهِ. قَالَ: فَأَعتَقَهُ**». رواه مسلم[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨١)، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) برقم (١٦٥٩).

والشاهد هنا: أن الغلام استعاذ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ضَرب أبي مسعود له، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجود، بدليل أنه قال لأبي مسعود: «واللهِ لَلَّهُ أقدَرُ عَليكَ مِنكَ عَلَيهِ». فأعتقَهُ خوفًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذه استعاذَةٌ بالمَخلُوق فيما يَقدِرُ عليه، وهذه مُبَاحَة.

إذن؛ تَبيَّن بهذا أن الاستعاذة تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام من جهَة حُكمِها:

القسم الأول: شرعية مطلوبة: وهي الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ، أو بصفة من صفاته.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَعُوذُ بِعظَمَتِكَ أَن أُغتَالَ مِن تَحتِي**»[1].

وهذه استعاذة بصفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

في الحديث الذي معنا بالباب: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**»[2]. وهذه استعاذة بصفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّـهِ وَقُدرَتِهِ مِن شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»[3].

فهذه استعاذة بصفةٍ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وابن ماجه (٣٨٧١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خَوْلَة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنوع الثاني: استعاذة شِركيَّة: وهي الاستعاذة بالمخلوق، وفيها حقيقة الدعاء، أو أن يُعَلِّق العبد قلبَه بالمخلوق المُستعَاذ به، هذه استعاذة شركية.

والاستعاذة بالمخلوق التي فيهَا حقيقةُ الدعاء على ثلاثِ صُوَر:

١- استعاذة بغائب.

٢- استعاذة بميت.

٣- استعاذة بحي حاضر فيما لا يقدر عليه، أو أن يُعَلِّق قلبه بالمخلوق فيُخلي قَلبَهُ للمَخلُوق؛ فهذا شِرك.

والقسم الثالث: استعاذة مُباحَة: وهي الاستعاذة بالمَخلُوق في الفعل أو الطَّلَب، إذا كان المَخلُوق حاضرًا قادرًا فيما يقدر عليه، مع اعتقاد أن الأمر كله لله؛ فهذه الاستعاذة مُباحَة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

الشرح

بدأ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر هذه الآية؛ وذلك أن الجن لمَّا استمعوا القرآن فآمَنَ مَن آمن منهم برسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَكَروا أمورًا يعرفُونَها ويَعيبونَها علىٰ بني آدم، ومنها ما ذكر في هذه الآية: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: وهذا ليس تخصيصًا للرجال؛ بل الحُكم يشترك فيه الرجالُ والنساءُ، ولكن هذا بحكم الوَاقِع الأغلب.

﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: يطلبون العَوذ والحمَاية من الشَّر برجالٍ من الجن.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: زاد الجنُّ الناسَ إثمًا وخطيئةً وخَوفًا أثَّر في أبدانهم؛ فإنهم لمَّا عَاذُوا بهم كان زيادة في شركهم؛ فازدَادُوا بهذا إثمًا وخطيئة، وزادُوهم خوفًا؛ لأنهم كانوا يَستعِيذُون بهم من خَوفهم منهم؛ فزادوهم خوفًا، ليس مجرد الخوف وإنما هو خوف يضعف البدن ويُرهِقُه، فَزَادُوهم خوفًا أثَّر في أبدانهم وأضعَفَهُم وزادَهُم ضَعفًا.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: زاد الإنسُ الجنَّ طُغيانًا وتكبُّرًا وتجَبُّرًا، وكلا المعنيين صحيح.

فالجنُّ: يزيدون مَن يستعيذُ بهم خطيئة وإثمًا وخوفًا. **والإنس:** يزيدون

الجنَّ عند الاستعاذة بهم تَكَبُّرًا وتعظمًا وتجبُّرًا عليهم.

والأصل في هذا: أن العرب كانوا إذا ذهبوا إلىٰ مكان مُقفِر أو دخلوا واديًا خافوا من الجن، فيقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر سُفهَاء قومه. أو يقولون: نعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه(١).

وقد ذكَرَ بعض السَّلف: أن أول من استعاذ بالجن من العرب قوم من أهل اليمن من بني حنيفة، ثم انتشر ذلك في العرب في الجَاهليَّة، فكانوا يستعيذون بالجن، وهذا يَدُل علىٰ أن الاستعاذة بالمَخلُوق فيما لا يَقدِرُ عليه عادةً من الشرك الأكبر المُخرِج من الملة؛ لأن هذا حكاية عما يفعَلُه المشركون، وإذا كان هذا فيمن يستعيذ بالجن، والجن خَلقٌ من خَلق الله خُلِقُوا من نار، يروننا ولا نراهم، فمن بَاب أَولَىٰ أن يكونَ ذلك في الاستعاذة برجَالٍ من الإنس هم من أمثالنا، خُلِقُوا من تُراب، يأكلون كما نأكل، ويشربون كما نشرب، ويَمرَضُون كما نمرض، ويقضون الحاجة كما نقضي الحاجة، ويَمُوتُون كما نموت، فإذا كان هذا شركًا -أعني: الاستعاذة برجال من الجن- فمِن بابِ أولىٰ أن تكون الاستعاذة برجال من الإنس شِركًا يُخرِجُ من الملة.

❀❀❀

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٩- ط: دار طيبة).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن خَولَةَ بِنتِ حَكِيمٍ قَالَت: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَن نَزَلَ مَنزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَم يَضُرَّهُ شَيءٌ حَتَّىٰ يَرتَحِلَ مِن مَنزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

الشرح

(**مَن نَزَلَ**): (مَن) هنا شرطية.

(**مَنزِلًا**): نكرَة في سياق الشرط؛ فتَعُم كل مَنزِل، سواء نزلته لسُكنَاه دائمة، أو نزلته لسكنىٰ مؤقتة كالفندق، أو نزلته لتجلس فيه وتستظل فيه من الشمس، أو لتنام فيه ليلة في مَسِيرك، كُل مَنزِل تنزله يَدخُل في هذا الحديث.

(**أَعُوذُ**): أي: أعتصم وألتَجِئ وأحتَمِي.

(**بِكَلِمَاتِ اللهِ**): **قال بعضُ أهلِ العِلم: المُراد بـ(كَلِمَات الله) هنا: كلمات** الله الكونيَّة القدرية التي يَخلُق بها، ويُقَدِّر بها سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

و(**التَّامَّات**): أي: الواقعات التي لا رَادَّ لها، فكلمات الله الكونية القدرية واقعَةٌ لا رَادَّ لهَا.

وقال بعضُ أهل العِلم: المُراد بـ(كَلِمَات الله) هنا: كلمَات الله الشرعية، والمراد بها هنا: القرآن؛ لأن القرآنَ كَلامُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) برقم (٢٧٠٨).

ويكون معنىٰ (التامَّات) -علىٰ هذا المعنىٰ-: أي: التي لا يَلحَقُها نَقصٌ ولا عَيبٌ.

وكُل كلام غير الوحي لابُدَّ أن يَلحَقَهُ نَقصٌ أو عَيب، فسُبحان الله! مَهما تحريت في كلامك، تَجد أن فيه عيبًا أو نقصًا، أمَّا كلام الله عَزَّوَجَلَّ فليس فيه عيبٌ ولا نَقص.

كما أن معنىٰ (التَّامَّات) هنا: أنها الصادقَةُ في أخبارها، العَدلُ في أحكَامِهَا.

فكلامُ الله تامٌّ صِدقًا وعَدلًا؛ صِدقٌ في الأخبار، وعَدلٌ في الأحكام.

وعندما يقُولُ إنسانٌ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ» فَإنَّهُ يَجِبُ عليه: أن يستشعر هذا المَعنىٰ، فإن أهل العلم يقولون: إن الأذكَارَ والأدعية كُلمَا كان القلبُ مُستحضرًا لمَعناها؛ كانت أبلَغَ في تحقيق مُقتضَاها.

(أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ): وفي هذا استعاذَةٌ من شَر كُل ذي شَر من غير تخصيص.

(لَم يَضُرَّهُ شَيءٌ): و(شَيء) نكرَة في سياق النفي؛ فتَعُم، فإذا نزلت المَنزل فقل: **«أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ»**؛ فإنك مُعاذ من الشَّر، ولا يَضُرُّك شَر؛ لا لَدغَة حيَّة، ولا لَدغَة عَقرب، ولا أيُّ شَر في مَنزِلك ذلك.

و قد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لَقِيتُ مِن عَقرَبٍ لَدَغَتنِي البَارِحَةَ.

قَالَ: أَمَا لَو قُلتَ، حِينَ أَمسَيتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ،

لَم تَضُرَّكَ» رواه مسلم[(١)].

والمسَاء: هو من بعد الظُّهر، فإذا خَلَّفتَ الظُّهرَ فقَد أمسَيت.

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَن قَالَ حِينَ يُمسِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم يَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلكَ اللَّيلَةَ**»[(٢)].

وهذا يَدُل علىٰ أن المسَاء هنا المقصود به: عند دخُول اللَّيل.

سُؤال: هل يُقَال هذا الذِّكر ثَلاثًا أو مَرَّةً واحدة؟

الجَوَاب: قالَ بعضُ أهل العلم: يَقُولها ثلاث مَرَّات... لماذا؟

أولًا: لأنه ورَد في الرِّوايات: «**ثَلاث مَرَّاتٍ**»، لكن هذه الزيادة فيهَا ضعف.

وثَانيًا: لأن هذا دعاءٌ، ومن سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أنه كان إذا دعا، دعَا ثلاثًا، وهذا الذي فهمته من كلام شيخنا ابن باز رَحِمَهُ اللهُ[(٣)]، أنه يرىٰ أن من نزل منزلًا يقول: «أَعُوذ بكلمَاتِ الله التامَّاتِ من شَرِّ ما خَلَق» ثلاثًا.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنه يقال مرة واحدة: لأنه لم يَرِد التَّكرارُ في روايةٍ صحيحة؛ فيُقَال مرة واحدة.

والأمر في ذلك واسعٌ، فمَن قالها مرة واحدة رُجِي أن يَحصُل له هذا المَوعُود،

---

(١) برقم (٢٧٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٠٤)، وأحمد (٧٨٩٨-الرسالة).

(٣) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٨/ ١٠٨).

ومَن قالها ثلاثًا رُجِي أن يَحصُل له هذا المَوعُود.

وتأمَّل كيف أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر لنَا استعاذة المشركين وذكر لنا استعاذة المُؤمنين:

أمَّا استعاذةُ المُشرِكينَ: فذكرها بذِكرِ الآية؛ فإنهم كانوا إذا نزلوا منزلًا يَستَعيذُونَ برجَالٍ من الجِن.

وأمَّا المُؤمنونَ: فإنَّهم إذا نزلوا مَنزلًا فإنهم يستعيذون بكلمات الله التامَّات، وهذه استعاذة بصفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

فانظر في أي جانب أنتَ؛ لأن بعضَ الذين ينتسبون للإسلام إذا قلنا لهم: الاستعاذَةُ بالمَخلُوق فيما لا يقدِرُ عليه المخلوق عادةً شِرك؛ يَأبَون ذلك ويَستنكِرُونه!

وسُبحَان الله! تترك ما أمرَكَ الله به من الاستعاذة به أو بصِفَةٍ من صفاته إلىٰ كلام الناس الذي لا دَليلَ عليه، وإنما هو شُبهَات وكلمات يُرَص بعضها فوق بعض؟!

ولا شَكَّ أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ إذا علم هذه الحقيقة الكبرىٰ المجلاة في كتاب ربنا جَلَّوَعَلَا، وفي الحديث الصحيح عن رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ سيَأبَىٰ أن ينخَرِطَ في سبيل المشركين، أو أن يَسيرَ علىٰ خُطَاهم، أو أن يفعل فِعلَهُم، وسَيلزمُ ما أمرَهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، وبيَّنه له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ الجِنِّ.

وقد تقَدَّم بيانُ معنَاها.

الثَّانِيَةُ: كَونُهُ مِنَ الشِّركِ.

أي: كَونُ الاستعاذة بالجن من الشِّرك؛ لأن هذا جاءَ حِكَاية عن فعل المُشركين، وعن ذَمِّ المشركين بما يفعلونه، وهذا يَدُل علىٰ أنه من الشِّرك.

الثَّالِثَةُ: الاستِدلالُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالحَدِيثِ، لأَنَّ العُلَمَاءَ استَدَلُّوا بِهِ عَلَىٰ أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيرُ مَخلُوقَةٍ، قَالُوا: لأَنَّ الاستِعَاذَةَ بِالمَخلُوقِ شِركٌ.

الاستدلالُ بالحديث علىٰ أن الاستعاذة إنما تَكُون بالله أو بصِفَةٍ من صفَاته، ولقد استدَلَّ العلماءُ بهذا الحديث علىٰ أن كلمات الله ليست مخلوقة؛ بل هي صفة من صفاته؛ لأن العُلَمَاء مُتَّفِقُون علىٰ أن الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يَقدِرُ عليه المَخلُوق عادةً لا تجوز، فلمَّا جاء هذا الحديثُ دلَّ علىٰ أنَّ كَلمَات الله ليسَت مَخلُوقة، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة في كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرَّابِعَةُ: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اختِصَارِهِ.

فهذا الحديث يستطيعُ أن يحفظَهُ كُل مُسلم، ومع ذلك فيه فضل عظيم: فهُو عبادة يُكتَب للعبد بِها حسَنات، وكذلك يَحتَمي به العبدُ من الشَّر.

الخَامِسَةُ: أَنَّ كَونَ الشَّيءِ يَحصُلُ بِهِ مَنفَعَةٌ دُنيَوِيَّةٌ مِن كَفِّ شَرٍّ أَو جَلبِ نَفعٍ؛ لا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيسَ مِنَ الشِّركِ.

وهذه مسألة مهمةٌ؛ لأن بَعضَ الناس يقولون: جربنا الشيخ - حيث يُسَمون المشعوذين والسحرة شيوخًا!-، ووجدنا فيه فائدة؛ ففلان كان لا يولد له، فلما ذهب إلىٰ الشيخ رُزِق بالولد، وفلان كان فقيرًا التمَسَ الرزقَ من الشيخ؛ فأصبح غنيًّا!... وغير ذلك مما يَقُولون.

وهذا كله ليسَ دليلًا علىٰ أن هذا الفعلَ نَافعٌ في الحقيقة، أو أنه ليس شِركًا؛ لأن الله قد يَبتَلي عبادَهُ ليَتبَيَّن الصادقَ من غير الصادق، فقَد يُوافق القدرُ الفِعلَ فيَقعُ المقدور، فحَتىٰ ولو لم يذهب للشيخ لوَقعَ المَقدُور، لكنه ابتلاء أن يُوافِقَ الفعلُ القَدرَ.

فهذا الرجل كتَبَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ له أن يُرزَق ولدًا بعد عشر سنين من الزواج، فيَبقَىٰ تسع سنين صابرًا، ثُم يضعف -والعياذ بالله- فيذهب إلىٰ المشعوذ؛ فتحمل امرأتُه في تلك السَّنَة، ويُولَدُ له بعد عَشرِ سِنين، فوافق الفِعلُ القدر ابتلاءً واختبارًا، فالحُكم علىٰ الأشياء يُؤخَذُ من الأدلة، وليس من أخبَارِ الناس!

وأكثر الأخبَار كَذِب، يبثُّها شياطينُ الإنس والجن بين الناس، وتكون لا حقيقةَ لها؛ ليغروا الناس بالباطل والشِّرك، وما كان منها حقًّا فهو بقَدَرِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهذا لا يَعني أن الذهابَ إلىٰ ذلك المُشَعوذ خيرٌ، وأن التمَاسَ الرزق من القبر خَير؛ بل يَبقَىٰ شِركًا؛ لدَلالةِ الدليل علىٰ أن هذا الفِعلَ شِركٌ.

إذن؛ الأحكامُ نَأخُذها من: قال الله، قال رسوله ﷺ، ومن الأدلة الشرعية الثَّابتة، وليسَ من: حَدَّثَتني جارتي، ولا من: رأيتُ في المنام، ولا من الوقائع والتجَارب.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الشِّركِ أَن يَستَغِيثَ بِغَيرِ اللهِ أَو يَدعُو غَيرَهُ.

الشرح

تقدَّمَ أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكُرُ الأمور المُخَالفة للعقيدة وللتوحيد، والتي يقَعُ فيها كثيرٌ ممَّن يَنتَسِبُون للإسلام، وكثير ممن يفعلون ذلك يفعلونه لأنَّهُم لم يعلَمُوا أن هذا الأمر عبادَةٌ لا تَجُوز إلا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأن صرفه لغير الله شرك.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريدُ أن يُعلِّم الناس -ليس بكلامه ولا برأيه ولا برأي زيد ولا عَمرو-، وإنما بـ: قال الله، قال رسُولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وممَّا يقع من كثير ممن ينتسبون للإسلام مما يخالف التوحيد: الاستغاثة بغير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

الاستغاثة بالأبدال، والاستغاثة بالأقطاب، والاستغَاثَة بالأموات، والاستغاثة بأصحَابِ القُبُور.

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بَابٌ: مِنَ الشِّركِ أَن يَستَغِيثَ بِغَيرِ اللهِ أَو يَدعُو غَيرَهُ)**: **(مِن)**: تَبعيضِيَّة. و**(الشِّرك)**: يعني: الشِّرك الأكبر.

(أَن يَستَغِيثَ بِغَيرِ اللهِ): **الاستغاثة**: هي طلب الغَوث. والغَوث في اللغَة: النُّصرة عند الشِّدَّة، والتَّخليصُ من الكُربة.

فعندمَا تقُولُ: أستغيث بالله؛ أي: أطلُبُ من الله أن يَنصُرَني عند الشِّدة، وأن يُخَلِّصَنِي من هذه الكُربَة.

وتَنقسِمُ الاستغاثة من حيث حُكمُها إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: استغَاثةٌ هي تَوحيدٌ وعِبَادة: وهي الاستغاثةُ بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذه تُرضي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويَحصُل بها المَقصُود. فإذا نزلَت بك كُربَة قُلتَ: يا ألله، وإذا وقعت في شدة قلتَ: يا ألله.

والقسم الثاني: استغاثة جائزةٌ مبَاحَة: وهي الاستغاثة بالمَخلُوق الحَي الحَاضِر القَادر فيما يَقدِرُ عليه هذا المَخلُوق عادةً.

وذلك مثل رجُل هَجَم عليه أسَدٌ يُريد أن يَفتَرسَه، وهو يرىٰ رجلًا يَحمِلُ بندقية، فيقول له: يا فلان أغِثني؛ هذه استغاثة جائزة.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص:١٥].

فمُوسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عبد من عباد الله الأقوياء، خرج يومًا، فرأىٰ رجلًا من قومه يُقَاتل ويُصَارع رجلًا من عدوه -من قوم فرعون-، فهذا الذي من قوم موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ استغاثه، وقال: يا موسىٰ أغثني، فجَاء موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فوكَزَه وَكزة، لم يُرِد أن يَقتُله، ولكنه وَكَزه ليدفعه فقَضَىٰ عليه.

وهذا -وإن كانَ من شَرع مَن قَبلَنا- إلا أنه شَرعٌ لنا؛ لأن شرعَ الأنبياء في الأصول والتوحيد واحد، ولأنه جاء في القرآن ولم يُرفَع، ولم يَدُل دليل في

شرعنا علىٰ رفعه، فالاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر القَادر -فيما يَقدِرُ عليه هذا المَخلُوق عادة- جَائزة.

القِسمُ الثالث: استغاثَة شِركيَّة -وهي كمَا سَبقَ في الاستِعَاذَة- التي فيهَا حقيقةُ الدعَاء في الصُّوَر الثَّلاث:

١- الاستغاثة بالميت: وهذه فيهَا حقيقةُ الدعاء والطَّلَب، ولا يُمكنُ أن يستغيثَ بمَيت إلا إذا وقع في قَلبه أن له تأثيرًا.

٢- الاستغاثة بالغائب: وهي كالاستغَاثَة بِالمَيِّت.

٣- والاستغاثَةُ بالمَخلُوق فيما لا يَقدِرُ عليه المَخلُوق عادةً: وذلك كمن يطلب نزول المطر من المخلوق، أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه المخلوق؛ فهَذا شِرك باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله: (بَابٌ: مِنَ الشِّركِ أَن يَستَغِيثَ بِغَيرِ اللهِ أَو يَدعُو غَيرَهُ): والدُّعَاء يأتي بمَعنيَين في الأصل يجب أن نَفهَمَهُما:

الأول: يأتي الدعاءُ بمعنىٰ النِّداء: وذلك مثل أن أقول: يا زيد، يا طالع الجبل؛ فيُقَال: دَعوتُك؛ أي: نَادَيتُك، وهذا لا يدخل في الدعَاء الشَّرعي.

والثاني: ويَأتي الدعَاءُ بمَعنىٰ الطَّلَب بتذَلُّل: وهو طلبُ الأدنىٰ من الأعلىٰ، وهذا الذي هو يتعلق به الدعاءُ الشرعي.

وبَعضُ أهل العلم قال: إن دعاء المخلوق ينقسم إلىٰ قسمين: قد يكون شركًا، وقد لا يكون شركًا؛ لأنه جاء بالمعنيين؛ يأتي بمعنىٰ النداء والطلب

بتذلل، وهذا غير سَديدٍ، وإن كان قائله من العُلماء الكبَار.

والدعَاءُ الشَّرعي نوعَان:

الأول: دعاءُ مَسألة؛ ومَعنَاه: أن تَطلُبَ تَحصيل الخَير أو دَفعَ الشَّر.

والثاني: دعَاءُ عِبَادة، ومعناه: أن تَعبُدَ الله بمَا شَرَع.

والعلمَاءُ يقولون:

- دعاءُ المسألة مُتضَمِّن لدعاء العبادة:

بمعنىٰ: أنك عندما تقول: يا ألله، ارزقني؛ فأنت قد سَألتَ وعَبدتَ؛ لأن الدعاءَ عِبَادة.

- وَدُعاءُ العبادة يَستَلزِمُ دعَاءَ المَسألَة:

فعندما تُصَلِّي فإن صلاتك تستلزم أنك تسأل الله؛ تسأُل الله أن يقبل صلاتَك، تسأل الله أن يُثيبَكَ عَليها. فكأنك بلسانك تقولُ: اللهُمَّ اقبَل مِنِّي.

وهذا مَعنىٰ قَول العُلماء: إن دعاء العبَادَةِ يَستلزم دُعاءَ المسألة.

ودعاء المَخلُوق: شركٌ أكبر مُطلقًا؛ سواء كان دعاء المسألة أو دعاء العبادة.

أما دعاء المسألة: فظاهر، كما إذا انقلَبَت السيارة ببعض الذين ينتسبون للإسلام، فتسمَعُهم يصرخون: يا سيدي عبدالقادر، يا مولاي، يا مجذوب، يا سيدي!، هذا دعاء مسألة، وهو شرك أكبر.

ودعَاء العبادة: كذلك من الناس من يتقرب إلىٰ المَخلُوقات بأنواع من العبادة، فإذا جاء شخصٌ بالبقرة أو الشاة وذبحها لصاحب القبر؛ فهذا عَبَدَ صاحِبَ القبر بهذا الذبح، فهذا دعاء عبادة؛ لأنه يستلزم أنه يسأل أن يقبل الشيخ منه ذلك. وربما اجتهد طول الليل أن يَقبَلَها الشيخُ منه، ربما أكثر من اجتهاده ما لو تصَدَّق بصدقَةٍ أن يقبلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن؛ الدعاء بنوعيه قد يصرفه المَخلُوق إلىٰ المخلوق، وإذا صرفه المخلوق إلىٰ المخلوق فهذا شرك أكبر يُخرِجُ من الملة.

وقد دلت علىٰ ذلك أدلة كثيرة:

منها: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧].

وهذا يَعيبُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ المُشركين، وهو أنهم كانوا إذا مَسَّهم الضر في البحر؛ بمعنىٰ: اشتدَّتِ الرِّيحُ، وخَافُوا من الغرَق، تَركوا كل مَن كانوا يدعونه في البر ودَعَوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَهُ. وهذا يدلُّ علىٰ أن دعَاءَهُم لغير الله في البَرِّ شِرك.

ويقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

فكذلك الأمر يتكَرَّر؛ فإذا ركبوا في الفُلك وخافُوا من الغرَق؛ فإنهم يَدعُون الله مُخلِصينَ له الدين؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن الدعَاءَ لله توحيد، فإذا نجَّاهم إلىٰ البر

إذا هُم يُشرِكُون؛ أي: بدعاء غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فيَدعُون أصنَامهم وآلهتهم الباطلة من دُونِ الله جَلَّ وَعَلَا.

وقد صَحَّ عن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» رواه الترمذي، وأبو داود، وابنُ ماجه، وصحَّحه الألباني[1].

وهذا حصر للعبَادَةِ في الدعاء، فلُبُّ العبادة الدعاء، وصرفُهُ لغير الله شرك، والعياذُ بالله.

وهناك لفظٌ ثالثٌ يُشبهُ الاستغاثَةَ والاستعَاذَة، وهو «الاستعَانَة»:

والاستعانَة: طلبُ العَون، والعَون: هو المُسَاعَدة.

ومعنىٰ ذَلكَ: أنك إذا أَردتَ الخير تطلُب العَونَ والمساعدَةَ عليه.

فالاستعانة: هي طلبُ العون علىٰ الخير؛ من خَيرَي الدنيا والآخرة.

وحكم الاستعانة: كحُكم الاستغاثة.

والفرق بين الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة:

أن الاستعاذة: طلب الحمَاية من الشر، فهي تكون قبل وقوع الشَّر.

كما تَستعيذُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الفتن؛ يعني: تَطلُبُ من الله أن يَحميَك من شَرِّ الفتن قبل أن يقَعَ الشَّر.

وأما الاستغاثَةُ: فهي طلبُ تَفريج الشِّدَّة والكُربة؛ فهي تكون عند وقوع

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٣٨).

الشر، أو عند قربه كأنه واقع، فتستغيث لتَنجُو من هذه الشدة.

وهذا كما لو كنتَ في الطائرة، وحصل فيها خَلَل، فهذه شدة، وهذا شر وقَعَ، فتستغيث بالله وتطلب منه النَّجاةَ من هذه الكُربة التي وقعت.

والاستعانة: هي طلب العَونِ علىٰ الخير.

إذن؛ الاستغاثة والاستعاذة متعلقتان بدفع الشر أو رفعه، والاستعانة هي متعلقة بطلب الخير؛ سواء كان الخير من خير الدنيا أو خير الآخرة.

وأمَّا الفَرقُ بين هذه الثَّلاث والدعَاء:

أن الدعاء أعمُّ منها: فإن الاستعاذة دعاءٌ مَخصُوص، والاستغاثة دعَاء مخصُوص، والاستعانة دعَاءٌ مَخصُوص.

أما الدُّعاء؛ فهو عام في طَلَب ما تحتاجه وتبتغيه مُطلقًا؛ سواء كان في تحقيق خير أو دفع شَر.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِ اللهِ تعالَىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيةَ [يونس:١٠٦-١٠٧].

الشرح

هذه الآية العظيمة بدأها الله عَزَّوَجَلَّ بقوله قبلها: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس:١٠٥]. فأمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقيمَ وَجهَه للدين حنيفًا؛ أي: مائلًا عن الشرك الىٰ التوحيد، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

ثُمَّ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: وتقدم أن معنىٰ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: إمَّا أن تَدعُو غيرَ الله استقلالًا، وإما أن تدعو غير الله مع الله. كلتا الصُّورَتَين تَدخُلانِ في هذا.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾: وهذه الصفة مُلازِمَةٌ لِكُل مخلوق. فكل مَخلُوق لا يستطيع أن ينفعَكَ استقلالًا إلا بإذن الله وأمرِه، وكلُّ مخلوق لا يستطيع أن يَضُرَّكَ استقلالًا إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بل إن المخلوقات كلها؛ كبيرها وصغيرها، وشريفها ووضيعها، لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك؛ فإنهم لا يستطيعوا نَفعَك. ولو اجتمعت وتَظَاهَرت وتنَاصَرَت علىٰ أن يَضُرُّوك بشيء لم يَكتُبه الله عليك؛

لم يستطيعوا أن يَضُرُّوك.

إذن؛ مَعنىٰ الآية: لا تَدعُ من دون الله مخلوقًا؛ لأن هذه الصفة المذكورة في الآية هي صفَةُ المخلوقين.

ومَفهُوم المُخَالفة: ادعُ الله عَزَّوَجَلَّ وَحدَه لا شريكَ له؛ لأنه هو الذي يَنفعُك، وإن شاء مَسَّك الضُّر لحِكمَة عَظيمَة.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: يعني: إن دعوت ما لا ينفعُك ولا يضُرك، فإنك حينها تكون من الظَّالمين؛ أي: من المُشرِكين؛ لأنَّ الشِّرك أعظَمُ الظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وهذا الخطابُ للنَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لتَنزَجِرَ الأمة وتتعلم منه.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: أي: إن أصابك الله بِضُر بإذن الله عَزَّوَجَلَّ وبتقدير الله عَزَّوَجَلَّ، فلن يكشفه أحدٌ إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾: (كَاشِف) هذه نكِرَة تَعُم كُلَّ مَن سِوىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. فهو وحدَه القادر علىٰ كَشف الضُّر.

وهذا يَدُل علىٰ أنه لا يُدعَىٰ إلا الله، ولا يُستَغاثُ إلا بالله.

أما أول الآية: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ فإنه يَدل علىٰ أنه لا يُدعَىٰ إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: هنا تأتي الاستغاثة؛ لأن الاستغاثة هي طلب كَشفِ الضُّر وتَفريج الكُربة.

ومعنىٰ هذا: أنك لا تَستَغيثُ إلا بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: فلا يَملكُ أحَدٌ أن يَرُدَّ فَضلَ الله عَزَّوَجَلَّ عنك.

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: فهذه الآية العظيمة مَنَعت من الاستعاذة بغير الله، ومَنَعت من الاستعانة بغير الله، ومَنَعت من الاستغاثة بغير الله، ومنعت من دُعَاء غير الله.

وهذا المَنعُ كُله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ لأن الاستعاذة دعاء، والاستعانة دعاء، والاستغاثَة دُعاء.

وأيضًا مَنَعت الاستغاثة بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: وهذه هي الاستغَاثَة.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآيَةَ [العنكبوت:١٧].

الشرح

(قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾): هذا يشمل جميع المَعبُودات من دون الله، لا يَملِكُون لَكُم رِزقًا.

والرزق ليس خَاصًّا بالطعام والشَّراب فقط؛ بل يَشمَل الولد والعافية والطعام والشراب.

وكُلُّ المعبودات من دون الله لا تملكُ رِزقًا لعَابِديها، وإنَّما الرزَّاق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذا قال الله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾: والأصل: «فابتغوا الرزق عند الله»، ولكنه قَدَّم ما حقُّه التأخير للدلالة علىٰ الاختصاص؛ أي: لا تَبتَغُوا الرزقَ إلا من عند الله، ولا تطلبوه من غير الله أبدًا.

وهذا يَدُلُّ علىٰ أن الدعاءَ بجَميع أنواعه وصُوَره لا يكُونُ إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثُمَّ قال الله تعَالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: اعبُدُوه مُخلِصينَ له الدِّين. وهذا من باب عطفِ العامِّ علىٰ الخاص؛ لأن ابتغاءَ الرِّزق من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو نوعٌ من أنواع العِبادة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الآيَتَينِ [الأحقاف:٥-٦].

الشرح

قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾: أي: لا أحدَ أَضَل، وهذا يَدُل علىٰ أن دعاء غير الله شرك أكبر؛ لأنه الذي لا أضل منه هُو المُشرِك.

﴿مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: كما قلنا: إما أن يدعوه استقلالًا، وإما أن يَدعُوَه مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: وهذا وصفٌ لكل مخلوق؛ سَوَاء كان صنمًا أو كان مَلَكًا أو كان رجلًا.

وبعضُ أهل العلم حملوا هذه الآية علىٰ الأصنام؛ لكن الصَّحيح أنها تَشمَلُ جميعَ المَعبُودات من دُونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والدليلُ علىٰ ذلك في قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ﴿ وَمَنْ ﴾: الأصل فيها -كما يَقُول علماء اللغة-: أنها للعاقل، ويَدخُل فيها غير العاقل تبَعًا.

والأدقُّ أن يقال: إن «مَن» لِمَن يَعلَم، أدق مِن أن نقول: إنها لِمَن يَعقِل، وهذه درجة أخرىٰ.

ولا شَكَّ أن الأصل في هذا: أنهم الملائكة والأنبياء والأولياء الذين يُعبَدُون وهُم لا يَرضَون بعبادتهم لهُم؛ فهم لا يستجيبون لمن يُشرِكُ بالله يقينًا.

فالذي يدعو الملائكة من دون الله، فلو كانت الملائكة قادرة علىٰ أن تُعطِيَه ما أراد فلن تفعل؛ لأنه يُشرِكُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالآية عامَّة علىٰ الرَّاجِح من أقوال أهلِ العِلم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾: فإنَّهم يوم القيامة يتبَرَّءون مِنهُم ومِن شِركِهِم.

❀❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ **الآية** [النمل:٦٢].

الشرح

هذه الآيةُ دليلٌ علىٰ أن الاستغاثة تكون بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو الذي يجيب المضطر، وأنه هو الذي يكشفُ السُّوء.

فإن قال قائلٌ: لماذا خص الله المُضطرَّ هنا مع أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه سَواء كان مضطرًّا أو غير مضطر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة:١٨٦]؟

والجَوَاب: أن المضطر يكون أكثر إلحاحًا في الدعاء، وأكثر صدقًا في الدعاء؛ ولإقامة الحُجَّة علىٰ المُشركين؛ لأنهم كانوا إذا وقعوا في الضَّرورة والاضطرار يَدعُون الله مخلصين له الدين؛ لأنهم يَعلَمُون أن الذي يُجِيب المضطرَّ هو الله؛ فأقام الله عليهم الحُجَّة بهذه الآية العظيمة.

وهذه الآية أوردها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُبين أنه لا يُستَغَاث إلا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ يُؤذِي المُؤمِنِينَ، فَقَالَ بَعضُهُم: قُومُوا بِنَا نَستَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبحَانَ اللهِ! إِنَّهُ لَا يُستَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُستَغَاثُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

الشرح

الحديث رواه الطبراني في «المُعجم الكبير» كما قال الهيثمي في «مَجمع الزوائد»[1]. ولم أجده في المطبوع من «المُعجَم الكبير».

وقال الهيثميُّ: «رواه الطبراني في الكبير، ورجالُه رجال الصَّحيح، غير ابن لهيعة، وهو حَسَنُ الحديث».

وهذا الصحيح في ابن لهيعة؛ أنه حَسَنُ الحديث ما لم يُعنعِن، فالحديث حسن علىٰ ما حكَاهُ الهيثمي.

قالَ: (وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَافِقٌ): والمُنافقون: هُم الذين أظهَرُوا الإسلام وأبطَنُوا الكُفر، وكانوا موجودين في زمن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان أحدُهُم يشتَدُّ أذاه للمُؤمنين.

فقال بعضهم: أي: قال: أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. هكذا جاء في الروايات.

---

(١) (١٠/١٥٩).

وقال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قيل إنه عُبادة الراوي[1]، لكن في الروايات هو الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(فَقَالَ بَعضُهُم: قُومُوا بِنَا نَستَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن هَذَا المُنَافِقِ): أي: من أذاه.

(فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُبحَانَ اللهِ، إِنَّهُ لَا يُستَغَاثُ بِي): النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حي حاضر قادر، وهم قد استغاثوا بالحي الحاضر القَادِر فيما يقدِرُ عليه المخلوق عادةً، وقَدَّمنا أن هذه الاستغاثة مباحة.

إذن؛ لمَاذَا قالَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَا يُستَغَاثُ بِي**»؟

قال بعضُ أهل العلم: إنمَا أرادوا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتلَهُ، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يجوز أن يقتُلَه؛ إذن هم استغاثوا بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما لا يقدر عليه بحُكم أنه ممنوع شرعًا، وإن كان يستطيع أن يَقتُلَه بحُكم أنه الوالي، وأنه قادر علىٰ ذلك، لكن أخبرهم أن الله لم يأذن لهم، وهذا يدل علىٰ أن المخلوق لا يُستَغاث به فيما لا يقدر عليه؛ لذلك قال: «**إِنَّهُ لَا يُستَغَاثُ بِي**»؛ أي: في قتله؛ لأن الله لم يأذَن لي في قتله، وإنما يستغاث بالله؛ لأن الله قادر علىٰ أن يُهلِكَهُ. فهذا وجه.

وقالَ بَعضُ أهل العِلم: بل كان هذا من تَأديبِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُم، وسَدِّه للذرائع، وحَمِلِهم علىٰ أجمل المَحَامل وأحسنها، وهو الاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يَدُل علىٰ فائدة عَظِيمَة، وهي: أن الاستغاثة بالمخلوق -وإن كانت

---

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٨٢ دار الضياء).

جائزة- إلَّا أن الاستغاثَةَ بالله أعظَمُ وأوقَع.

(وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ): فدَلَّ ذلك علىٰ أن الاستغَاثَةَ تكونُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الباب وقع فيه الضَّلال ممَّن ينتسبون لأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم مما وقع من المُشركين في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبله؛ فإنَّ المشركين في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا إذا مَسَّهم الضُّر وهُم في البحر أخلَصُوا لله، وضَلَّ مَن يدعون من دون الله، فإذا نجَّاهم إلىٰ البر أشركوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

فهم كانوا إذا استغاثوا في الشِّدة يستغيثون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأمَّا بعضُ من ينتسبون للإسلام؛ فإذا وَقَعُوا في الشدائد استغَاثُوا بغير الله، فهم يستغيثون بغير الله في الشدة وفي الرخاء، ويَدعُون غير الله في الشِّدَّة والرخاء!

وهذا يجعلنا نَحرصُ حرصًا شديدًا علىٰ أن نُعَلِّم المسلمين التوحيد الصحيح، فأنا أجزم أن أكثر الذين يقعون في هذه الصور الشركية يَقعُون فيها وهم لا يَعلَمُون أنها عبادة، أو لأنهم مُغرَّر بهم من أناس يَدَّعون العِلم ويقولون لهم: هذه الأمور جَائزة!

ولو أن الناس عَلِمُوا لاستقامت حالُ كثير من الناس، ولذلك لا يَجُوز أن نتشاغل عن الدَّعوة للتوحيد، أو نتكاسل أو نثبط من الدعَاء للتَّوحيد، بل نفرح بهذه الدعوة التفصيلية البينة للتوحيد، ونُشَجعها وندعو لها، وندعو إليها، وندعو لأصحابها بأن يُوفِّقَهُم الله ويُسَدِّدهم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: أَنَّ عَطفَ الدُّعَاءِ عَلَىٰ الاستِغَاثَةِ مِن عَطفِ العَامِّ عَلَىٰ الخَاصِّ.

بعض الشراح قالوا: العَطفُ في التَّبويب؛ لأن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ: «باب: من الشِّرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره». فقالوا هذا من باب عطف العام علىٰ الخاص.

وبعض أهل العلم قالوا: إنَّ هذا العطف جاء في الآيات، ولكنه من باب عطف الخاص علىٰ العام، وذلك في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ هذا عام، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وهذا في الاستغاثة؛ فهو من باب عطف الخاص علىٰ العام.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ قَولِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

وقد تقدم شرحُهَا، وهذا يَقطعُ جُذور الشرك؛ لأن الداعي إما أن يريد حصول خير ونَفع، وإما أن يُريدَ دَفع شر، فإذا علم أنه ليس هناك مَخلوقٌ مَهمَا علا شَرفُه يمكنه أن يَدفَعَ الضر أو يَكشِفَه استقلالًا؛ فإنه لا يدعو إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّركُ الأَكبَرُ.

وذلك في قَولِ الله تعالىٰ: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا هو الشِّرك الأكبر.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصلَحَ النَّاسِ لَو يَفعَلُهُ إِرضَاءً لِغَيرِهِ؛ صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

أي: لو أن أفضل مَخلُوق -وهو النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فعل هذا فدَعا غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لكان من المُشرِكين، وحاشاه أن يفعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لو وَقع لكان كذلك، وذلك ليَعلمَ الناس أنه مهما كان صلاحُ الرجل؛ فإنه إذا أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهُوَ مُشرِك من الظالمين؛ لأن بعض الناس يقول: شيوخنا تجاوزوا القنطرة!

ومَقصُود الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: أن هذا الخطاب لمُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أصلح الخلق وأشرفهم وأعلاهم منزلة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكيف بمن هو دونه؟!

الخَامِسَةُ: تَفسِيرُ الآيَةِ الَّتِي بَعدَهَا: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

السَّادِسَةُ: كَونُ ذَلِكَ لا يَنفَعُ فِي الدُّنيَا مَعَ كَونِهِ كُفرًا.

كما تقَدَّم في الآيات.

السَّابِعَةُ: تَفسِيرُ الآيَةِ الثَّالِثَةِ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ طَلَبَ الرِّزقِ لا يَنبَغِي إِلَّا مِنَ اللهِ، كَمَا أَنَّ الجَنَّةَ لا تُطلَبُ إِلَّا مِنهُ.

التَّاسِعَةُ: تَفسِيرُ الآيَةِ الرَّابِعَةِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

العَاشِرَةُ: أَنَّهُ لا أَضَلَّ مِمَّن دَعَا غَيرَ اللهِ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّهُ غَافِلٌ عَن دُعَاءِ الدَّاعِي لا يَدرِي عَنهُ.

يعني: أن المَدعُوَّ غَافلٌ عن دعاء الداعي.

الثَّانِيَة عَشرَة: أنَّ تِلكَ الدَّعوَةَ سَبَبٌ لِبُغضِ المَدعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: تَسمِيَةُ تِلكَ الدَّعوَةِ عِبَادَةً لِلمَدعُوِّ.

وذلك لقَولِ الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فسمَّاها عبادَةً.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: كُفرُ المَدعُوِّ بِتِلكَ العِبَادَةِ.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: أنَّ هَذِهِ الأُمُورَ هِيَ سَبَبُ كَونِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: تَفسِيرُ الآيَةِ الخَامِسَةِ.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: الأَمرُ العَجِيبُ وَهُوَ إِقرَارُ عَبَدَةِ الأَوثَانِ أَنَّهُ لا يُجِيبُ المُضطَرَّ إلا اللهُ، ولأَجلِ هَذَا يَدعُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: حِمَايَةُ المُصطَفَىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حِمَىٰ التَّوحِيدِ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

الشرح

عقَدَ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا البابَ بِفِقهٍ عَجيب؛ لأنه لمَّا بَيَّن بالأدلة أن ما تقدَّم في الأبواب السابقة شِركٌ، وهي كُلها في طلب تحصيل الخير أو دفع الشر؛ **ناسَبَ أن يعقد هذا الباب هنا لبَيَان أمرَين:**

الأمر الأول: أن هذا الشرك الذي يقعُ فيه جماعاتٌ ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام هو من جنس شِركِ المشركين الأولين الذينَ قاتَلَهُم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، فهو يناقض الإسلام؛ **فمِنَ المُنَاقضة:** أن يقول العبد: أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله؛ ثم بعد ذلك ينذر لغير الله، ويدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، ويَستعيذُ بغَيرِ الله!

فهَذا من جنسِ ما كان يَفعَلُه المشركون الأولون؛ فإن المُشركين الأوَّلين ما كانوا يشركون إلا بقَصد جَلبِ النفع، أو دفع الضر، وهذا الذي يقع في جماعاتٍ ممَّن يَنتَسِبُون للإسلام.

والأمر الثاني: أن هذا الشِّرك مع كونه أكبَرَ الظلم، وأعظمَ الذنوب، وسَببًا للحِرمان من الجنة، والخلود في جهنم؛ فإنه لا ينفع صاحبه في الدنيا، ولا يُحَقِّقُ له مَقصُودَه.

ولذلك قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾: فكل من كان دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مَهما عَلَت مكانتُه، وعَظُم فَضلُه؛ لا يَتَّصفُ بما يَستَحقُّ أن يكونَ به مَعبودًا، ولا يملك لنَفسهِ ولا لغيره من دون الله جلبَ نفعٍ مَهمَا صَغُرَ، ولا دَفع شَر أبدًا.

فالله عَزَّوَجَلَّ أنكَرَ في هذه الآيات علىٰ المشركين شِركَهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع أن العقولَ قاطعة ببُطلان؛ وذلك لأنهم يُشرِكُون ما لا يَخلقُ شَيئًا، ولا مثقال ذرة، ولا ذبابة إلىٰ اليوم وإلىٰ قيام الساعة، فلا يَملكُ أحدٌ أن يَخلُقَ شَيئًا.

وكل عاقل يُدرك ذلك ويُقِرُّ به، وهو أن الخالقَ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن ما كان من دُون الله لا يملك أن يخلق ولو ذبابة؛ بل ومع ذلك -مع عجزهم عن الخَلق- هم يُخلَقُون، فهم مَخلُوقُون مَربُوبون، مُحتَاجون إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذي يستحق العبادة هو الذي يَخلُق لا المَخلُوق؛ ولذا نَجِدُ أن الله عَزَّوَجَلَّ يُقرر توحيده بأنه الخالقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١].

فالذي يَستَحقُّ العبادةَ هو الخالقُ جَلَّ وَعَلَا، وأما المخلوقُ فهو عَاجِز ضَعيف مُحتاج لا يستحق أن يُعبَد.

كما أنهم يُشركون بالله ما لا يَملكُ لهم جلبَ نفعٍ ولا دفعَ ضُرٍّ؛ بل ولا يَملِكُ ذلك لنفسه، فلا يستطيع أن يجلب لنَفسه نفعًا فَضلًا عن غيره، ولا أن يدفَعَ عن نفسه ضُرًّا. فهم لا يستطيعون نَصرَ غيرهم ولا يَنصُرون أنفُسَهُم، ومَن كان هذا

شأنه فإنه لا يَستحِقُّ أن يُعبَدَ، فدَلَّت هذه الآياتُ علىٰ أن:

- المُستحق للعبادة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن عبادَةَ غَير الله أعظَمُ الظلم.

- وأن كُلَّ مَن دُون الله لا يَستَحقُّ أن يُصرَف له شيءٌ من أنواع العِبَادة.

فدَلَّتنا الآية علىٰ أن: الذي يُعبد هو الخالق لا المخلوق، والناصر لا المَنصُور. والخَالق هو الله، والنَّاصِر هو الله.

وكُل المَخلُوقات مخلُوقة مَربُوبة مُحتَاجة ضَعيفة مَنصُورة، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نصرًا.

وكأنَّ الشيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقولُ هُنا لمن تقَدَّمُوا:** يا من تعبدون غير الله، ويا من تستغيثون بغير الله، ويا مَن تتبَرَّكون بالشجر والحَجَر ونحوه؛ لماذا تَفعَلُون ذلك؟!؛ هل لأن هذه المخلوقات عَظيمة قادِرَة؟!

إن قلتُم: نعم؛ قلنا لكم: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

أم أنكُم تُشركون بها مع الله، وتعبدونها من دون الله؛ لأنها تنفَعُ وتَضُر؟!

قُلنَا لكُم: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

فهذا وجه التبويبِ العظيم لهذا البابِ بعدَ الأبواب المُتقدِّمة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الآيَةَ [فاطر:١٣].

الشرح

قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: هذا يَشمَلُ جميع من يُدعَىٰ من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: أي: لا يملكون شيئًا. **والقِطمِير**: هو القشرة التي تكون علىٰ نَواة التَّمر، فليسَ التمرة مع قِلَّتها، وليس النواة مع قلة نَفعِها؛ وإنما القشرَةُ الرقيقة البيضاء التي تكون علىٰ النَّواة.

هذه القشرةُ الرقيقة التي تكون علىٰ النواة: لا يَملِكُونها، ولا يملكون شيئًا منها؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ وهذا سياقُ النفي. و﴿مِن﴾: تقتَضِي العُموم، ويؤكد العموم: ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يملكونَ شَيئًا من القِطميرِ ولا جُزءًا منه.

إذن؛ ما دام أنهم لا يَملِكُون فكيفَ يُعطُون؟!

إنه لا يُعطي إلا مالكٌ، والذي يدعو يُريدُ أن يُعطَىٰ؛ فدَلَّ هذا علىٰ أن الذي يُدعَىٰ هو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن كلَّ المخلوقات لا تَملكُ أن تُعطِيَ الدَّاعي شيئًا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُدٍ وَكُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «كَيفَ يُفلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهِم؟» فنزلَت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عِمران:١٢٨].

الشرح

وهذه القصَّةُ مع الآية رواها البخاريُّ تعليقًا[١]، ورواها مسلمٌ مُسندَةً[٢].

(عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُدٍ): أي: جُرِح في رأسِه.

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يَخرُج من المدينة إلىٰ أُحدٍ لبس لأمَتَهُ، ولبِسَ دِرعَه، ولَبِسَ بَيضَتَهُ فوق رأسه -وهي التي يُحمَىٰ بها الرأس-، فَهُشِّمَت البيضة وجُرِحَ رأسُهُ الشريفُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وَكُسِرَت رَبَاعِيَتُهُ): يُقَال: رَبَاعِيَتَهُ -بفتح الراء وتخفيف اليَاء-، ويُقَال: رُبَاعِيَّتُهُ -بضَمِّ الرَّاءِ وتَشديد اليَاء-.

والربَاعِية: هي السِّنُّ التي تلي الثنَايَا وقَبلَ الناب، وهي أربعة: ثنتان فوق وثنتان تحت.

---

(١) في كتاب المَغَازي، باب ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

(٢) برقم (١٧٩١).

كُسِر سِنُّ النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وجُرِح رأسُه فجعل يمسح الدم عنه وهو يقول: «**كيف يُفلِحُ قومٌ شَجُّوا نبِيَّهُم**»، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدعُوهُم إِلَىٰ اللهِ؟!.

لا ذنبَ له إلا أنه يَدعُوهم إلىٰ الله؛ فنَزَلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾.

ووجهُ الدلالة من هذه الآية: أن النبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو أفضَلُ خلق الله، جُرِحَ رأسُه في الحرب، وكُسِرَت سنه، وقُتِلَ عَمُّه، وقُتل نَحو من سَبعِينَ من صحابته في معركة أُحُد؛ فدَلَّ ذلك دلالة بَيِّنة علىٰ أنه لا يعلمُ الغيب، ولا يَملكُ جلبَ النفع ولا دفع الضُّر، لا عن نَفسِه ولا عن غَيره.

فلَم يستطع الحَبيبُ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يدفعَ الجرحَ عن رأسه، ولم يَستَطع أن يدفع القَتلَ عن عمه، ولا يعلم الغيب صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا ما أَطلَعَهُ الله؛ كالرُّؤيا الصادقة التي رآها قبل أن يَذهَبَ.

فالنبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -كما أمره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يَقُول- لا يَملكُ لنفسه ضرًّا ولا نَفعًا، ولا يعلم الغيبَ، وإذا كان هذا حالَ النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتىٰ قالَ الله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾: فليس لك من أمرِ عبادي شيء؛ وإنما الذي لك هو أن تُرشِدَهُم وتُبيِّن لَهُم وتُنذِرَهُم، أما أمر عبَادي فهو إليَّ.

فإذا كان هذا في رسُولِ الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أفضَل الخلق؛ لا يعلم الغيبَ، ولا يملك لنَفسِه جلبَ نفع ولا دفع ضُر ولا لأصحابه ولا لأحبَابه، وليس له من الأمر شيء، فكيف بمَن دُونَهُ من الخَلق؟؛ لا شَكَّ أنه من بَاب أَولىٰ.

وإذا لم يَكُن النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عالمًا للغيب، ولا مَالكًا لجَلبِ النفع

ولا لدَفع الضر عن نَفسِه ولا عن غيره، فإنه لا يَستَحق أن يُعبَد من دُون الله، وهو أفضلُ خَلق الله، فكيف بمن دونَه من المَخلُوقات؟!

كيف بمن يأتي إلىٰ شَيخ دجَّال رُبمَا لا يصلي، يُدَّعَىٰ فيه أنه رُفِعَ عنهُ القَلم، وأنه من أوليَاءِ الله الصَّالحين، ويَعبُده، ويُقَبل يدَهُ، ويتمَسَّح به، ويلتمسُ منه الذِّكر، ويُبَايعه ويُعَاهده؟!؛ لا شكَّ أن هذا أعظَمُ الضَّلال.

وإذا عَلِم المؤمنُ هذا الحال للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإنه سيَنزَجِر يَقينًا من أن يدعُوَ غير الله، أو يستغيث بغير الله، أو ينذر لغير الله؛ فإنه لا يَملكُ النفع والضُّر إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

نقَلَ النوويُّ رَحِمَهُاللَّهُ عن القاضي عياض ذِكرَ الحِكمَة مما أصاب النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصَابَ الأنبياءَ قبلَهُ، فقال: «ليُعلم أنهم من البشر، تصيبهم مِحَنُ الدنيا، ويَطرأ علىٰ أجسَامِهم ما يَطرَأ علىٰ أجسَام البَشَر؛ ليتيَقَّنُوا أنهم مَخلُوقُونَ مَربُوبُون»[1].اهـ

يَعني: أن الحِكمَة فيما يصيب الأنبياء وأصاب النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يَعلمَ الناسُ أن الأنبياء، مع ما جاءوا به من المُعجزات، بشَر ضعفاء يصيبهم ما يصيب البشر؛ ليَتيَقَّن الناسُ أنهم مخلوقون مَربُوبون، وأنهم عِبَاد لا يُعبَدون، ورسُل لا يُكَذَّبُون.

وبعضُ الناس يُسيءُ الأدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويُسيء الأدب مع رسُول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويَتَّهِمُ أهلَ التوحيد أنهم يُسيئُون الأدبَ مع رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ،

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٢/ ١٤٨).

بعضُ الناس يَرَىٰ أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُصرَفُ له العبادة من دونِ الله، وهذا:

١ - أساءَ الأدبَ مع الله؛ لأنه جعل ما لله لغير الله.

٢ - وأساءَ الأدبَ مع رسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه:

هَجَرَ كلَّ أحاديثِ الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي تأمر بالتوحيد وتَنهَىٰ عن الشِّرك.

واتَّهَم أهل التوحيد بالكَذب والزُّور والبُهتَان.

أهلُ التَّوحيد: يُحبُّون النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من الناس أجمَعِين، فيقولون: هو رسُول الله، رسول لا يُكَذَّب، وعَبد لا يُعبَد، ولا يُعبَد الله إلا بما شَرَع.

فهذا هو مَوقفُ المسلم الصَّحيح؛ يعرفُ حقَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَعرفُ حقَّ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قلنا: إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد بعَقدِ هذا الباب أن يُبين أن شرك من ينتسبون إلىٰ الإسلام، والذي يَفعلُه بعضُ من ينتسبون للإسلام، هو من جنس ما كان يفعله المُشركون المُتقدمون، الذين قاتلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ذلك الشرك.

وأن النذرَ لغَير الله، والاستغاثة بغير الله، ودعاء غير الله، والتبرك بالأشجار والأحجار والقبور وغير ذلك؛ هي مما يناقض الإسلام ويرفعه.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يُبين أن الشركَ الذي يقَعُ من بعض المنتسبين إلىٰ دين الإسلام هو مُوَافق لشرك المتقدمين في:

١- حَقيقته.

٢- وفي سببه.

٣- وفي أثَره.

- فهو موافق لشِركِ المُتقدِّمين في حَقيقَته:

فالمتقدمون قد أشرَكُوا بالله بعضَ خَلقِه، وبعضُ مَن ينتسبون للإسلام قد أشركوا بالله بعض خَلقِه.

- كمَا أنه موافق لشرك المشركين في سَببه:

فإن المُشركين المتقدمين إنما أشركوا بالله عَزَّوَجَلَّ لقصدهم أن يجلبَ لهم أولئك الشركاءُ النفع، أو يَدفَعُوا الضر، أو ليَجعَلُوهم زُلفىٰ إلىٰ الله ووسائط بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ في جلب النفع أو دفع الضُّر.

وهكَذا فعلَ بعضُ المُنتَسِبين للإسلام بإشراكهم بعضَ المخلوقين مع الله عَزَّوَجَلَّ بالنفع أو دفع الضر، أو أنَّهم يقولون: هم وسَائِطُنا وشفعاؤنا عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيَصرِفُون لهم العبادة ليَكُونوا شفعاء لهم، وهذا هو سببُ شِرك المشركين المتقدمين.

- كمَا أنَّهم يُوافقون شركَ المُشرِكين المُتقدِّمين في أثره:

فإن شِركَ المشركين المتقدِّمين ظُلمٌ عَظيم؛ يَحرُم علىٰ الإنسان بسَببه الجنة، وتُوجب له النار.

ولا يَحصُل للمُشرِك مقصوده في الدنيا بإشراكه بالله عَزَّوَجَلَّ، وكذا مَن يُشرِك

بالله من بعضِ مَن ينتسبون للإسلام.

كما أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد في عقد هذا الباب: أن يُبيِّن لكل عاقل أنه لا يُوجَد مخلوق، مَهمَا علا شرفه وعظم فضله، يستَحِق أن يُصرَف له شيء من أنواع العبادة؛ **لأن كل مخلوق في الدنيا لابُدَّ أن يتَّصف بصِفَات تقتضي أنه لا يَستَحِقُّ أن يُعبَدَ مِن دُونِ الله** عَزَّوَجَلَّ:

١- فهُو لا يستطيع أن يَخلُقَ شيئًا ولو حقيرًا، ولو صغيرًا.

٢- وهو مَخلُوقٌ مَربُوب.

٣- وهو لا يستطيع أن ينصُرَ غيره، وحتىٰ لو أراد أن ينصُرَ غيره فإنه لا يستطيع أن ينصره إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٤- وهو كذلك أنه لا يستطيع أن ينصُرَ نَفسَه هُو.

٥- وأنه لا يَملِكُ شَيئًا.

ومَن اتصف بهذه الصفَات الخمس، أو بواحدة منها؛ لا شكَّ أنه لا يستحقُّ أن يُصرَف له شيءٌ من أنواع العبَادة، وإنمَا تُصرَفُ العبادة لله عَزَّوَجَلَّ الذِي خلق الخلق أجمعين، والذي له المُلك المُطلَق التام، والذي يَنصُر من شاء من عبَادِهِ، وإذا أراد بعَبدِهِ خَيرًا لم يَستَطِع أحدٌ أن يمنع الخَلقَ عنه، وإن أراد أن يَمَسَّ عبدَهُ بضُر لم يستطع أحدٌ أن يكشف الضُّرَّ عنه إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو المستحق للعِبَادَة.

فمِن فِقه الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **العَظيم**: أنه أورد حديثًا عظيمًا يَدُلُّ كلَّ مسلم أنه

لا يُوجَد مخلوقٌ في الدنيا يَستَحِق أن يُصرَف له شيءٌ من أنواع العبادة.

فإذا كان رسولُنَا وحبيبنَا وقدوتنا، سيد ولد آدم، أفضل خلق الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يستطع أن يَمنعَ عن نفسه أن يُجرَح، وأن تكسر سنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَستَطِع أن يَمنَعَ قتل عمِّه، ولا قتل السبعين من صَحَابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنَّ مَن دُونَهُ أعجَزُ وأضعَفُ، ولا شَكَّ أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يجوزُ أن يُصرَف له شيء من العبادة، فكيفَ بمَن دُونه من الناس؟!

والله عَزَّوَجَلَّ أنزَلَ عَليهِ قَولَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ فالأمر كُله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا كان النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء، وليس له أن يتصرَّف في الكون، وليس له أن يُنصَرَ إلا بإذن الله، وليسَ له أن يَضُرَّ أحدًا إلا بإذن الله؛ فهو لا يستَحقُّ أن يُعبَدَ من دُون الله، فمن بابِ أولىٰ مَن كان دُونَهُ من الناس، وقد وَقَفنَا في هذه النُّقطة العَظيمَة التي فيها الدلالة البَيِّنَة علىٰ أن الذي يُعبَد هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وأنه لا يُوجَدُ مَخلُوق يَستَحِقُّ أن يُصرَف له شيء من أنواع العبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ بل والله لو أن المَخلُوقات كُلها جُمِعَت في مخلوق واحدٍ لَمَا استحَقَّ المخلوق أن يُصرَفَ له شيءٌ من العبادة لِمَا تقدَّم مَعَنا من الأمور الخَمسَة التي بيَّنتها الآياتُ التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِيهِ: عَنِ ابنِ عُمَرَ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكعَةِ الأخِيرَةِ مِنَ الفَجرِ: «اللَّهُمَّ العَن فُلانًا وَفُلانًا»، بَعدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمدُ»، فَأَنزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآيَةَ.

الشرح

(وَفِيهِ): أي: في «صحيح البخاري»[1].

(عَنِ ابنِ عُمَرَ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكعَةِ الأخِيرَةِ مِنَ الفَجرِ): وهذا هو ما يُسمَّىٰ عند أهل العِلم بـ«قُنوت النَّوازل»: إذا نزَلت نازلةٌ أو مُصيبة بِالأمة يَقنُت في الصلاة.

والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قُتلَ السبعون من أصحَابه، وشُجَّ في رأسه، وكُسِر سنُّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم أحد؛ كان يقنُت في صلاة الفجر «يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكعَةِ الأخِيرَةِ مِنَ الفَجرِ: «اللهُمَّ العَن فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمدُ».

فكانَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شفقَتِهِ علىٰ أصحابه يدعو علىٰ بعض أحياء العرب باللَّعن، وهم بعضُ الأحياء الذين كانوا يُؤذونَ أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) برقم (٤٠٧٠).

ويُريدون فتنتهم عن دِينهم؛ فكان النبي ﷺ يدعو باللَّعن في صَلَاته علىٰ بعض أحياء العَرَب.

كما كان النَّبيُّ ﷺ يدعو علىٰ بعض الأفراد بأعيَانِهم، ومن ذلك ما جاء عن ابن عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يومَ أُحُدٍ: «**اللَّهُمَّ العَنْ أَبَا سُفيَانَ، اللَّهُمَّ العَنِ الحَارِثَ بنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ العَن صَفوَانَ بنَ أُمَيَّةَ**.

قَالَ: فَنَزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:١٢٨]، فَتَابَ اللهُ عَلَيهِم فَأَسلَمُوا فَحَسُنَ إِسلَامُهُم». روَاهُ التِّرمذي، وصحَّحه الألباني[١].

فالنَّبي ﷺ خصَّ هؤلاء الثلاثَةَ بالدعاء عَليهم باللَّعن بعد أُحُد؛ لأنهم كانُوا أشَد المشركين في ذلك الوقت أذيَّة للمسلمين يوم أحد في القتال؛ فكان النبي ﷺ يَخُصُّهم باللعن، ومع ذلك لم يُستَجَب للنبي ﷺ فيهم!

وفي هذا عِدَّةُ بَرَاهين:

البُرهان الأول: أن النبي ﷺ ومعه سادات الأولياء صَحابتُه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا يقنتون في الفجر، ويسألون الله، فلم يسأل الصحَابةُ رسولَ الله ﷺ، ولم يستقِلَّ النبيُّ ﷺ بقُدرَة؛ بل كان النبي ﷺ يسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالنبيُّ ﷺ محتاج إلىٰ الله، والمُحتَاجُ لا يُعبَد.

والبُرهان الثاني: أن النبيَّ ﷺ مع دعائه علىٰ هؤلاء باللعن؛

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

لم يَستَجِب الله دُعَاءَه؛ بل أسلَمُوا وحَسُن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، وكانوا من صحَابَةِ رسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والبُرهان الثالث: أن الله أنزَلَ علىٰ نَبِيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، وقد كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو علىٰ بَعض المُنَافقين باللَّعن لشِدَّة أذَاهُم للمسلمين حتىٰ أُنزِلَت هذه الآيَة.

إذن؛ أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديثَ ليُبَيِّن لنَا أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أفضَلُ خَلقِ الله، لا يستحق أن يُعبَد، فكيف بمَن دُونَهُ من المَخلُوقات؟!

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدعُو عَلَىٰ صَفوَانَ بنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيلِ بنِ عَمرٍو وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَت: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ ﴾».

الشرح

وهذه الروايةُ جاءت مُرسَلَة عند البخاري[١]، ومَوصُولة عند الإمام أحمد[٢] بلفظ: «اللَّهُمَّ العَن الحَارِثَ بنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ العَن سُهَيلَ بنَ عَمرٍو، اللَّهُمَّ العَن صَفوَانَ بنَ أُمَيَّةَ».

فكانَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يدعو علىٰ هؤلاء الثلاثة، ويُضَاف لهم رابع وهو أبو سفيان، ومع ذلك لم يُستَجَب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيهم؛ بل تابَ الله عليهم جميعًا وأسلموا وحَسُن إسلامهم؛ فهذا يَدُل علىٰ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شَيء، كما نَصَّت علىٰ ذلك الآية.

❊❊❊

(١) برقم (٤٠٧٠).

(٢) برقم (٥٦٧٥-الرسالة).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِيهِ: عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أنزَلَ اللهُ عَلَيهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء:٢١٤]، فَصَعَدَ الصَّفَا، فقَالَ: «يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أَو كَلِمَةً نَحوَهَا-، اشتَرُوا أَنفُسَكُم لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغنِي عَنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، ويَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِن مَالِي مَا شِئتِ، لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا».

الشرح

وهذا الحديث في «الصحيحين»: البخاري ومسلم[1].

قال: (**قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أنزَلَ اللهُ عَلَيهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾**): فأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينذر عشيرَتَهُ الأقربين، وكان هذا في أول الأمر، فقام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أمر به.

قال: (**فَصَعَدَ الصَّفَا، فقَالَ: يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أَو كَلِمَةً نَحوَهَا-، اشتَرُوا أَنفُسَكُم لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا**): أي: أنقذوا أنفسَكُم وخَلِّصُوها من عذاب الله، وذلك بالتوحيد، فإن من مات على الشرك كان من المُعذَّبينَ يقينًا، ولا تَنفَعُه شفاعة الشافعين، ولا يُشفَع له، ولا يخرج من النار، فالشفاعة إنما تنفع الموحدين، أما من مات كافرًا فإن الشفاعة لا تنفعه؛ بل هو خالد مخلد في النار، وتحرم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

عليه الجنة، إلا ما استثني في تخفيف العذاب عن أبي طالب -كما سيأتي إن شاء الله-، لكنه لا يخرج من النار، ولكن يُخَفَّف عنه العذاب.

(**اشتَرُوا أَنفُسَكُم لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا**): فالنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لعشيرته الأقربين -لقريش-: لَا أُغني عنكُم من الله شيئًا.

و(**شَيئًا**): نكرة في سياق النفي؛ فتعُم كلَّ شيء!

والقائلُ هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهَل هُناك شكٌّ في نسبَةِ هذا إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الجوابُ: لا؛ فهذا الحديث في «الصحيحين».

ثم يأتي بعضُ الناس ويقول -معاندًا أو جاهلًا-: لا، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُغني شيئًا!؛ ولذلك يدعونه من دون الله، ويسألونه من دون الله.

والنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لعَشيرتِهِ الأقربين: لا أُغني عنكُم مِنَ الله شيئًا.

وفي «صَحِيح البُخَاري»[(١)]: «**يَا بَنِي عَبدِ مَنَافٍ، لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا**»، ولم تُذكَر هذه اللفظَةُ هنا. فخَصَّص صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ أن عمَّم، بدأ بقُرَيش، ثُم خصَّصَ فذَكَر بني عبدِ مَناف.

(**يَا عَبَّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغنِي عَنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا**): فخَصَّ عمَّه.

(**يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا**): وهي أم الزُّبَير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) برقم (٢٧٥٣).

(وَيَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِن مَالِي مَا شِئتِ، لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا): فوَصَلَ الأمرُ إلىٰ أن يقولَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنته التي هي قِطعَةٌ منه: لا أُغنِي عَنكِ منَ الله شيئًا.

ثُمَّ انظر ما قال لها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلِينِي مِن مَالِي مَا شِئتِ، لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا**» فهَذا هو الذي أَملِكُه، وهذا ما أستطيعُ أن أعطِيكِ إيَّاه.

ومعنَىٰ ذلك: أنها لو سألته ما لا يَملكُ؛ فإنه لا يَستطيعُ أن يُعطيَهَا، ولا يُغني عنها من الله شيئًا.

وهذه الجُملَة جاءت هنا لفائدةٍ عظيمَةٍ؛ فإنها لو سَألتِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يستطيع وما يَملِكُ لأعطاها؛ لكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَملكُ الجنة والسَّلامة من النار، وإنما يملكُ البيان والتحذير، فهو لا يغني عن أحدٍ من عباد الله شيئًا، وهذا يَدُل علىٰ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستحِقُّ أن يُدعَىٰ من دُونِ الله، أو يُعبَد من دون الله، وإذا كان هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا شَكَّ أن غيرَهُ من المخلوقات من باب أَولَىٰ.

وفي رواية قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُم مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ ضَرًّا وَلَا نَفعًا**». رواه الترمذي، وصححه الألباني[1].

يا معشر قريش، أنقِذُوا أنفُسَكُم من النار بتَوحيدكم وبإسلامكم؛ فإني

(١) أخرجه الترمذي (٣١٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

لا أملكُ لَكُم من الله ضرًّا ولا نفعًا، هذا يَقُوله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنا مُصَدِّقون رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالمُؤمن المُحِبُّ للرسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدعو أحدًا من دون الله، لا يَدعُو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يستغيثُ بغير الله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ الآيَتَينِ.

وتفسيرُ الآيتَين في ترجمَة الباب.

الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ أُحُدٍ.

الثَّالِثَةُ: قُنُوتُ سَيِّدِ المُرسَلِينَ وَخَلفَهُ سَادَاتُ الأَولِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلاةِ.

ومراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا أن يقول: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقير إلىٰ الله، والصَّحابة الذين هم رُءوس الأولياء، كانوا فقرَاءَ إلىٰ الله، فكانوا يَسألونَ الله، ويَدعُون الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا ليسَ المَقصُود منه مُجَرد الخبر من أنهم كانوا يَقنُتون، ولكن المَقصُود أنهم كانوا فُقَراء إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، والفقيرُ لا يُسأَلُ، وإنما هو الذي يَسأل، والذي يُدعَىٰ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ المَدعُوَّ عَلَيهِم كُفَّارٌ.

أي: حال الدعَاء عليهم كانوا كفارًا، وإلا فإنهم قد أسلَمُوا وحَسُن إسلامهم، لكن عند الدعاء عليهم كانوا كفَّارًا.

الخَامِسَةُ: أَنَّهُم فَعَلُوا أَشيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الكُفَّارِ مِنهَا: شَجُّهُم نَبِيَّهُم، وَحِرصُهُم عَلَىٰ قَتلِهِ.

وَمِنهَا: التَّمثِيلُ بِالقَتلَىٰ مَعَ أَنَّهُم بَنُو عَمِّهِم.

يعني: أنهم كانوا أشدَّ أذىٰ للمؤمنين من غيرهم من الكفار؛ ولذلك استَحقُّوا أن يَخُصَّهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء عليهم باللعن.

ومع ذلك: كان أمرهم الىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُسلِمُوا، وأن يَحسُنَ إسلامهم، وأن ينقلبَ حالهم؛ فكانوا ممَّن يُجاهد في سبيل الله جَلَّ وَعَلَا.

والتمثيل بالقَتلىٰ مع أنَّهم بنُو عمهم، وهذا لم يرد في النصوص، ولكن ورَدَ في قِصَّة أُحُد.

السَّادِسَةُ: أَنزَلَ اللهُ عَلَيهِ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

السَّابِعَةُ: قَولُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨]، **فَتَابَ عَلَيهِم فَآمَنُوا.**

وذلك مع دعاءِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللَّعن، فهذا أكَّد أنه ليس للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمرِ شَيءٌ.

الثَّامِنَةُ: القُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

بعضُ أهل العلم فَهِمُوا من هذا الحديث وأمثاله أنه يُسَن القنوت في الفَجر.

لكن الصَّواب: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُدَاوِم علىٰ هذا القنوت؛ وإنما كان هذا القنوت عند النَّوازل، ولذلك الصَّحيح في السُّنة أنه يقنت في الفجر وغيرها عند النوازل، أما اذا لم تكن هناك نَازِلَة فلا يُشرَع القنوتُ في صلاة الفجر.

التَّاسِعَةُ: تَسمِيَةُ المَدعُوِّ عَلَيهِم فِي الصَّلاةِ بِأَسمَائِهِم وَأَسمَاءِ آبَائِهِم.

ومن هذا أخذ أهلُ العلم أنه يَجُوز للإنسان أن يَدعُوَ لشَخص باسمه في الصلاة، كأن يقول: اللهم اشفِ فلان بن فلان، اللهم زَوِّج فلانة -بأسمائهم-.

ويجوز كذلك للمظلوم أن يَدعُو علىٰ مَن ظلمه باسمِهِ في الصلاة؛ لأن المظلوم يجوزُ له أن يدعو علىٰ مَن ظَلَمَهُ بمِقدَار مَظلَمَتِهِ، فيَجُوز له أن يُسَمِّيَهُ ولو كان في الصلاة.

العَاشِرَةُ: لَعنُهُ المُعَيَّنَ فِي القُنُوتِ.

ولم يكن لعنًا؛ وإنما كان دُعَاءً باللَّعن.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: قِصَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أُنزِلَ عَلَيهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: جِدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الأَمرِ، بِحَيثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَىٰ الجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَو يَفعَلُهُ مُسلِمٌ الآنَ.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان شديد الجدِّ في الدعوة إلىٰ الله؛ ولا سيَّما في التوحيد، وقد عاداه قومه؛ بل بعضُ أعمامه، من أجل دعوته إلىٰ التوحيد، فقام عمُّه أبو لهب وقال: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟[1].

و كان يمشي خلفه عندما يذهب للقبَائل يدعوها للتوحيد، ويَصِفُه بالجنون والسَّفه والسِّحر، ويُلقِّبه بالألقاب المُشينة؛ وذلك لأنهم كانوا يعرفون -لفَصَاحتهم-

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أنهم لا يستطيعون مُقَابَلة حُجَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويجبُ علىٰ الدَّاعي أن يتأسَّىٰ برسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون شَديدَ الجدِّ في دعوة الناس إلىٰ التوحيد والسُّنة، مُخلِصًا لله مُتجردًا، لا ينظر إلىٰ أحَدٍ من الناس، وإنما يُريدُ أن يُرضيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُحتسبًا في ذلك، وأن يصبر علىٰ الأذىٰ، فإنه ما قام داعية هُدىٰ يومًا من الأيام إلا ولُقِّب من أجل أن يُنَفِّر الناس عنه؛ وذلك لأن أهل الباطل لا يستطيعون أن يُواجِهُوا الحُجَّة بالحجة، ولا أن يقفوا أمام البراهين لأهل الحق؛ فيُلَقِّبون أهل الحق بألقاب مُنَفِّرة، ويَصِفُون أهل الباطل بأوصاف مُقَرِّبة.

يأتُون إلىٰ داعية التَّوحيد ويقولون: هذا وهَّابي!

ويأتون إلىٰ من يَدعُو إلىٰ الباطل ويقولون: العارف بالله!، المُحِب لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!، العَلامة! إمام هذا العصر!

وهذا أمر مَعروفٌ؛ لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك الدَّعوة إلىٰ التوحيد يومًا من أجل هذا، ولم يتخاذل، ولم يتوانَ، ولم يأته ما يأتي الناس من الوساوس بأن الدَّعوة إلىٰ التوحيد تُفَرِّق الناس، تَعَالَوا ندعُ الناس للأخلاق، وندعوهم إلىٰ الصلاة، وندعوهم إلىٰ الأشياء التي يتفق عليها الناس!

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا إلىٰ التوحيد، ودعَا إلىٰ تَرك الشرك، وحَذَّر من الشرك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأوذي وصَبَر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهكذا كل داعية صَادِق.

فإذَا أَردتَ أن تعرِفَ صِدقَ الداعية: فلا تنظر إلىٰ الألقاب، ولا تنظر إلىٰ

الجماهيرية، ولكن انظر إلىٰ ما يَدعُو، زِنه بدعوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، زِنه بطريقة دعوة صحابة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الميزان الصَّحيحُ الذي يُعرَف به الدعَاة.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: قَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأبعَدِ وَالأقرَبِ: «لا أُغنِي عَنكَم مِنَ اللهِ شَيئًا» حَتَّىٰ قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، لا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا»، فَإِذَا صَرَّحَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَيِّدُ المُرسَلِينَ بِأَنَّهُ لا يُغنِي شَيئًا عَن سَيِّدَةِ نِسَاءِ العَالَمِينَ، وَآمَنَ الإنسَانُ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَقُولُ إِلَّا الحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الآنَ؛ تَبَيَّنَ لَهُ التَّوحِيدُ، وَغُربَةُ الدِّينِ.

فهذا واضح الدلالة أنه لا يُوجد مخلوقٌ في الدنيا يستحق أن يُعبَد؛ لأنه إذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُغني عن ابنته من الله شيئًا، فكيف بمن دونه من الخلائق؟!

فإذا صرَّح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد المرسلين بأنه لا يُغنِي شيئًا عن سيدة نساء العالمين وآمن الإنسانُ أنه لا يقولُ إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن؛ تَبَيَّن له التوحيد وغربة الدين.

ويَدُلُّك هذا أيضًا علىٰ أن الأمَّةَ بحاجة عظيمة إلىٰ الدعاة الصَّادِقِين أعظم من حاجتها للأموال والأسلحة؛ فإن أعظَمَ ما يصيب الأمة ما يتعلق بتوحيدها، فالقَتلُ أسهل من أن يقَعَ في الشِّرك، وإن أعظم ما تُقتَل به الأمة أن تقع في الشرك، فالأمة بحَاجة الىٰ الدعاة الصادقين المخلصين الذين يترسَّمُونَ طَرِيقَ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

الشرح

ومُنَاسَبة هذا الباب للباب الذي قَبلَه في أحدِ وَجهَين -يعني: بأحدِهما وليس بكِلَيهما-:

الوَجه الأول: أن هذا الباب من ذكر الخاصِّ بعد العام؛ لتأكيد المعنىٰ.

وذلك إذا قُلنا: إنَّ الشيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أرادَ في الباب السَّابقِ بيان أن كُل مخلوق لا يستحقُّ أن يُعبَد من دون الله؛ لأنه يتصف بأمور -كما قلنا-، وهي: أنه لا يَخلُق شيئًا، وأنه مَخلُوق مربُوب، وأنه لا يستطيع نَصرَ أحد من دون الله، وأنه لا يستطيع نَصرَ نفسه، وأنه لا يملك شيئًا مِلكًا مُطلقًا تامًّا؛ فتكونُ الملائكةُ داخلةً في الباب السابق ثُم خَصَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب من باب ذِكرِ الخاص بعد العامِّ لتأكيد المَعنىٰ وتقويته.

والوجه الثاني: أنه ذكر هذا البابَ لبيان القسم الثاني من المَخلُوقات، وهي المخلوقات العظيمة الغائبة عنا، حيثُ تقدَّم في الباب السابق ما يتعلَّق بالمَخلُوقات العظيمة التي نراها ونَعرِفُها من الإنس ومَن دُونَهُم من الأصنام والأشجار والشمس والقمر وغيرها، وتقدم في الباب أنها لا تستحِقُّ أن تُعبَدَ، وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك ببيانِ أشرفِهَا وأفضَلِهَا وهو مُحمَّد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

والملائكة والجنُّ مخلوقاتٌ موجودة يقينًا، لكن لا نَرَاها، وهي غائبة عنا، فأرادَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُثبِتَ بهذا الباب أن المَخلُوقات العظيمة الغائبة عنَّا لا تستحِقُّ أن تُعبَدَ من دون الله، كما أن المخلوقات التي نَرَاها ونعلمها لا تَستحِق أن تعبد من دون الله.

فمَقصُود الباب: أن الملائكة الذين خلقهم الله علىٰ هيئات عظيمة، وجعَلَ لهم أعمالًا جسيمة؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر:١]، فالله جعل الملائكة رسلًا، وجعل للملائكة وظائف جسيمة، وزاد في خلقهم ما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكما في حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أُذِنَ لِي أَن أُحَدِّثَ عَن مَلَكٍ مِن مَلَائِكَةِ اللهِ مِن حَمَلَةِ العَرشِ، إِنَّ مَا بَينَ شَحمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبعِ مِائَةِ عَامٍ**». رواه أبو داود، وصححه الألباني[١].

وهذا المقدار الهائل هو لحَجم رَقبَة هذا المَلَك، فهي مَسيرة سبعمائة عام؛ فكيف ببقية خَلق هذا المَلَك؟!

وكما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأَيتُ جِبرِيلَ عِندَ سِدرَةِ المُنتَهَىٰ، وَعَلَيهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ يُنثَرُ مِن رِيشِهِ تَهَاوِيلُ الدُّرِّ وَاليَاقُوت**». رواه أحمد، وحَسَّنَهُ الألباني[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٩٦-الرسالة)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٤٢٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الإسراء والمعراج» (ص١٠٠).

والتَّهَاويل: الألوان المتعددة؛ يعني: يُنشَر من ريشه ألوان من الدر والياقوت تتساقط من ريشه.

وهؤلاء الملائكة الذينَ خَلَقَهُم الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الهَيئَات العَظيمة لا يستحقون أن يُصرَف لهم شَيءٌ من العِبَادة؛ وذلك لأمُور:

١- أنَّها لا تملك شيئًا.

٢- أنها ليست شَريكَة لله في مُلكِه: فهي لا تملك شيئًا استقلالًا، ولا تَملكُ شيئًا مشاركة، فهي ليست شريكة لله ولو بأصغر شيء.

٣- أنها ليسَت مُسَاعِدَة ومُعِينَة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على خلقه: فالله له الغِنَىٰ المُطلَق، وهي الفقيرة إلى الله.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون، ولكنه يأمُرُ الملائكة بأمور يريدُها تفضُّلًا وإنعامًا وإحسانًا على الملائكة.

٤- أنها لا تَملكُ الشَّفاعة إلا بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا تنفع شفاعَتُها إلا لمَن رضي الله قَولَهُ وفِعلَهُ؛ يعني: المُوَحدين في الجملة، وليس المَقصُود به أنه الذي لا يُذنِبُ.

٥- أنَّها لا تخلُقُ شيئًا.

٦- أَنَّها مَخلُوقة.

٧- أنها لا تنفع إلا بأمرِ الله.

٨- أنها لا تَضُر إلا بإذن الله.

٩- أنها تخافُ؛ والذي يخافُ لا يستحق أن يكون إلهًا.

١٠- أن الملائكة لهم عُقُول، وعقُولُها تذهبُ أحيانًا -كما سيأتينا-، فلا تصلح أن تكون آلهة.

١١- أنها تُصعَق ويُغشَىٰ عليها؛ ومثل هذا لا يصلح أن يكون إلهًا.

١٢- أنها تخضَعُ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذه الأمورُ كلها مَن وَجدتَهُ يَعبُد غير الله مطلقًا بأي نوع من أنواع العبادة فاسأله عنها جميعًا، فإنَّها براهينُ ساطعة علىٰ أنَّ من يتصف بها لا يَستَحِقُّ أن يُعبَد، وإذا كانت الملائكةُ لا تستحق أن تُعبَد؛ فمن باب أولىٰ مَن كانَ دُونَها من المَخلُوقات.

قَال: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾): والمَقصُود بهم: الملائكة، كما دلَّت علىٰ ذلك الأحاديث.

﴿إِذَا فُزِّعَ﴾: أي أُزِيلَ الفَزعُ عن قلوبهم. فالملائكة:

١- تَفزَع، والفَزع: هو الخوف المُفَاجئ.

٢- وهي تتفَاجَأ، والذي يتفَاجَأ لا يعلَمُ الغيب؛ لأن الذي يَعلَمُ الغيبَ كيف يتفاجأ؟!

٣- ثم إنها يُفَزَّع عنها؛ أي: يُزالُ الفزع من قلوبها، فلا تملِكُ أن تُزيلَ الفَزَع عن قلوبها.

فهذه البراهين الثَّلاثة تدلُّ علىٰ أن المَلائكة لا تستحِقُّ أن يُصرَفَ لها شيء من العبَادة.

إذن؛ فلنَنتَبِه إلىٰ ما في هذه الآيات من البراهين العظيمة علىٰ توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحُرمَة الإشراك بالله، وأنه لا يُوجَدُ مَن يَستَحِق أن يُعبَدَ من المَخلُوقات.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: فالمَلائكة لها قلوبٌ، ولها عُقُول.

﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: فهُم في وَقتِ غَشيهم وصَعقهم لم يعلموا شيئًا مما حَدَث، فاحتاجوا إلىٰ السؤال، والذي يحتاج للسؤال لا يَستَحقُّ أن يُعبَد.

﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: قال بعض الملائكة: ماذا قال ربكم؟، فقال بعضُهُم -وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو بعض الملائكة- كما سيأتي في الحَديث أن الذي يَقُول هذا القول إما أنه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وواقع منه ويقع منه، وإما بعض الملائكة أيضًا.

﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾: يعني: قالوا: قال اللهُ الحَقَّ.

والملائكة تعرفُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حق ويَقُول الحق، فما فائدة أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو بعض الملائكة يَقُولون: قالَ الحق؟!

قَالَ العُلَماء: هذا لتَعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا فإنَّهم يقولُونَ -كما سيأتي في الحديث- ما قاله الله: قال كذا وكذا، لكن يُقَدِّمون لذلك بقَولِهِم: قال الحَق، وهذا من باب الثَّناء والتَّمجِيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾): الذي له العُلو المُطلق:

- **العُلُو في ذاته:** فهو مُستَوٍ علىٰ عَرشِهِ فوق سَمَواته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومع عُلوِّه لا تَخفَىٰ عنه خافية، وهو معنا بسَمعِه وبَصَره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- **والعلو في صِفَاته:** فصفاتُه كاملة لا يَلحَقُها نقص.

- **ولَهُ العُلو في قَدره** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- **ولهُ العُلو في قَهره** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(﴿ٱلْكَبِيرُ﴾): الذي لا أكبَرَ منه، ولذلك عندَمَا نُصَلِّي نَقُول: الله أكبر.

فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكبير الذي لا أكبر منه، فيقول جبريل أو بعضُ المَلائكة: قال الله الحق وهو العلي الكبير، ثُمَّ يَذكُرونَ مَا قاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ»: عَن أَبِي هُرَيرَةَ، عنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجنِحَتِهَا خَضعَانًا لِقَولِهِ كَأَنَّهُ سِلسِلَةٌ عَلَىٰ صَفوَانٍ يَنفُذُهُم ذَلِكَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، فَيَسمَعُهَا مُستَرِقُ السَّمعِ، وَمُستَرِقُ السَّمعِ هَكَذَا بَعضُهُ فَوقَ بَعضٍ»، وَصَفَهُ سُفيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَينَ أَصَابِعِهِ، «فَيَسمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلقِيهَا إِلَىٰ مَن تَحتَهُ، ثُمَّ يُلقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَن تَحتَهُ، حَتَّىٰ يُلقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَو الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدرَكَهُ الشِّهَابُ قَبلَ أَن يُلقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبلَ أَن يُدرِكَهُ، فَيَكذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيسَ قَد قَالَ لَنَا يَومَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ».

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): أي: في «صَحيح البُخَارِي»[1].

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ، عنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمرَ فِي السَّمَاءِ**): أي: إذا تكلَّم الله بالوَحي، أو بما أراد قضاءَه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(**ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجنِحَتِهَا**): أي: وَضَعَت الملائكة أجنحتَها علىٰ الأرض، والملائكة أولو أجنحَة، وهم يتفاوتون في أعداد أجنحتهم، وهذه الأجنحة لها ريش.

---

(١) برقم (٤٧٠١).

(خُضعَانًا لِقَولِهِ): (خُضعَانًا): بضَم الخَاءِ وتسكين الضاد. أو (خَضعَانًا): بفتح الخاء والضاد.

أي: ضربت بأجنحتها خَاضِعِين لقول لله عَزَّوَجَلَّ.

(كَأَنَّهُ): الضَّمير يعود إلىٰ وقع الصَّوت في قلوبهم، وليس تشبيهًا لقول الله، وإنما تشبيه لوَقع الصوت في قلوب الملائكة، وبيَان لصِفَةِ سَمع الملائكة؛ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكَلَّم، ورَبُّنا تعالىٰ يتكَلَّم بمَا شاءَ متىٰ شَاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويتكَلَّم بحَرف وصَوت، فإن الملائكَةَ تَسمَعُ الكلام.

(سِلسِلَةٌ عَلَىٰ صَفوَانٍ): أي: كأَنَّهُ صوتُ سِلسلة علىٰ صَخرة مَلساء، وذلك لشِدَّة وَقع هذا الصَّوت في قلوبهم.

(يَنفُذُهُم ذَلِكَ): أي: يدخلُ في قلوبهم، ويتمَكَّن منهَا، ويبلُغ منهم كل مَبلَغ، وهنا مَحذُوف، وهو: أنهم إذا سَمِعُوا ذلك فَزِعُوا وغُشِيَ عليهم وسَجَدوا.

(﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾): والذي في الحَديث: «فَإِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم»، والشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ كتب الآيَةَ كما هي في المصحف.

(﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾): أي: إذا أُزِيلَ الفَزعُ عن قلوبهم؛ قال بعضهم لبعض: (﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾): يعني: قال بعضُهُم لبَعض: قال ربُّنا الحقَّ، فالله حق، ويقُول الحق.

(﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾): وهذا -كما سبق بيانه-: تَمجيدٌ وثناءٌ علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قبل أن يُخبَرُوا بالقول الذي قاله، وإلَّا فالملائكة كلهم يَعلَمُون أن

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقولُ إلا الحقَّ.

(فَيَسمَعُهَا مُستَرِقُ السَّمعِ): ومُستَرِق السَّمع هم مَرَدَة الجن، وهم يَستَرِقُون السمعَ من السَّماء الدنيا أو من السَّحَاب.

وكانوا قبلَ بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتَّخِذُون مقاعدَ للسمع في السماء الدنيا، وكان يكثُرُ استماعُهُم، وإن كانوا يُرمَون بالشُّهب أحيانًا، لكن لم يكن ذلك كثيرًا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل مرة الصحابة الذين كانوا معه: «**مَاذَا كُنتُم تَقُولُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثلِ هَذَا؟** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيم... »[1]. أي: قبلَ الإسلام.

فلمَّا بُعث محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُلِئَت السماءُ حرسًا شديدًا وشهُبًا، فجاء الجن يختَبِرون السماء؛ هل هناك منفذ؟، فوجدوا أنها مُلِئَت حرسًا شديدًا وشهبًا تحولُ دُونَ وصُولِهم إلىٰ السماء.

ولذلكَ قالَ العُلمَاء: إن الجنَّ مُنِعُوا من استراق السَّمع عندما بُعِثَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي حَال حيَاتِهِ.

ولذلك هم عندمَا رأوا ذلك عَلِمُوا أن هناك أمرًا عظيمًا سيقَعُ في الأرض، ولكن بعد مَوتِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عادوا إلىٰ استِرَاق السمع، ولكن ليس كالسابق.

وكانَ مِنهُم من يريد أن يسترق السمع في زمَن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتُدرِكُه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

الشهب فلا يَصِل من استراقهم للسمع إلىٰ الأرض شيء؛ فكان الوحي ينزل إلىٰ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نقيًّا، ولا تسبق الجن بشيء، ولا تسترق شيئًا.

والرَّاجحُ أنه بعد موتِ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد مَرَدةُ الجن إلىٰ ما كانوا يفعلون، ولكن أضعَف مما كَان.

(وَمُستَرِقُ السَّمعِ هَكَذَا بَعضُهُ فَوقَ بَعضٍ): واللهُ أعلمُ من الذي قال هذا؟؛ لم يتَّضح في الرِّواية، وإن كان بعضُ أهل العلم يقولون: إذا أُطلِقَ فهو من قول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه لو كان من قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لبيَّنه، ولو كان من قول سُفيان رَحِمَهُ اللَّهُ لبيَّنه.

(وَصَفَهُ سُفيَانُ بِكَفِّهِ): فالذي بين وَصفَهُم هو سفيان، ولم يَقُلهُ!

(فَحرَّفَهَا): أي: حرَّف يدَهُ وفرَّج بين أصَابِعِهِ، يعني: أنَّهُم يكونون غير مُتَلاصِقِين ولكنهم متقاربون، ولذلكَ حرَّف يَدَهُ.

(وَبدَدَّ بَينَ أَصَابِعِهِ): يعني: حرَّفها وفرَّجها، وهم يكونون فوق بعضِهِم إلىٰ أن يصلوا إلىٰ السماء الدنيا. فهذا وصف بالفعل لكونِ بعضِهم علىٰ بَعضٍ.

قال: (فَيَسمَعُ الكَلِمَةَ): أي: الأعلىٰ منهم يَسمَعُ الكلمةَ التي قالتها الملائكة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قالها، (فَيُلقِيهَا إِلَىٰ مَن تَحتَهُ، ثُمَّ يُلقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَن تَحتَهُ).

(حَتَّىٰ يُلقِيهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ): والسَّاحر هو الذي يستخدم السحر والتعاويذ والعَزَائم يَعقِدُها ليَضُرَّ من أراد ضرَّه، ولم يستطيع أن يَضُر أحدًا إلا بإذنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا دلالةٌ علىٰ أن السَّحرَةَ يَستَعمِلُون الجن، ولا شكَّ أن السحرة يتقربون إلىٰ الجن، ولذا تَجدُ بيت الساحر -مهما بلغ من الثراء- تجده في غاية القذارة والوسخ؛ لأنهم يتقربون إلىٰ الجن بهذه القذارة وهذا الوسخ.

فالساحر أقل ما يكون أن تكون ملابسُه قذرة مُتَّسخة، وبعض السحرة لا يغتسلون من الجنابة سواء كانوا رجالًا أو نسَاءً؛ تقرُّبًا إلىٰ الجن.

(أَو الكَاهِنِ): وهو الذي يَدَّعي علمَ الغَيب في المُستَقبل، أو يَدَّعي معرفة المُغَيَّبات، وأمَاكن المَسرُوقات، ونحو ذلك.

وإتيان الكُهَّان حرام حُرمةً مغَلَّظة، وقد يَكُون شركًا أكبر، وقد يكون دون ذلك، وسيأتي -إن شاء الله- بيَانُ هذا في باب مُستَقل.

(فَرُبَّمَا أَدرَكَهُ الشِّهَابُ): الشِّهاب: قطعة من النجم نارية تنفصل عنه، وتَسمَّىٰ أحيانًا بـ «النيَازِك»، وهي تُرسَلُ بأمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. أمَّا النجُومُ فهي لا تنزل إلىٰ الأرض.

(فَرُبَّمَا أَدرَكَهُ الشِّهَابُ قَبلَ أَن يُلقيهَا): فيَقضِي عليه؛ فلا تَصِلُ الكلمةُ إلىٰ السَّاحر أو الكاهن.

(وَرُبَّمَا أَلقَاهَا): إلىٰ السَّاحر أو الكَاهِن.

(قَبلَ أَن يُدرِكهُ): أي: الشِّهاب.

(فَيَكذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذبَةٍ): من هو الذي يَكذِب؟!

قال بعضُ أهلِ العلم: الذي يكذبُ هو الجني، يكذب مع الكلمة التي سمعها

مائة كذبة، ويلقيها إلىٰ الساحر أو الكاهن، فيعتقد فيه الساحر أو الكاهن أن في كلامِهِ حقًّا.

وقيل: إن الذي يكذِبُ هو السَّاحرُ أو الكَاهن، يأخذُ الكلمة التي علىٰ الحَق، وينقص منها ويَزيدُ عليها؛ فيكذب مائة كذبة، وهذا أقرَبُ.

(فَيُقَالُ): أي: يقول الناس إذا سمعوا الكاهن.

(أَلَيسَ قَد قَالَ لَنَا يَومَ كَذَا وكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟): فصُدِّق لأن الكلمة التي هي حقٌّ قد سَمِعها وقَالَهَا، فتقع فيراها الناس؛ فيقولون: صدق!

(فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ): سبحان الله! ما أضعف الإنسان! رجلٌ يكذب مائة كذبة ويصدق في كلمة واحدة، ويتعَامَىٰ الناس عن كل الكَذِب ويُصدِّقونه بِهذِه الكلمة، ويقولون: هذا رجلٌ واصِل! هذا مَكشُوف عنه الحِجَاب!

(فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ): أي: يُصَدَّق في كلامِهِ كُلِّه؛ الكذب والصدق؛ بسَببِ تلك الكلمة التي سُمِعَت من السَّمَاء.

والمُرَاد بإيراد هذا الحَدِيث: بيانُ أن الآية التي ذُكِرَت في الترجمة هي في المَلائكة، وأن الملائكة لا تستحقُّ أن تُعبَدَ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذا مَن كان دُونَها من المَخلُوقَات.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سِمعَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَن يُوحِيَ بِالأَمرِ؛ تَكَلَّمَ بِالوَحيِ، أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنهُ رَجفَةٌ، -أَو قَالَ: رَعدَةٌ- شَدِيدَةٌ خَوفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَن يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِن وَحيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبرِيلُ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبرِيلُ: قَالَ الحقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. قال: فَيَقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ، فَينتَهِي جِبرِيلُ بِالوَحيِ إِلَىٰ حيثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

الشرح

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يَذكُر مَن خرَّج الحديث كعادته، وهو في النسخ الخَطيَّة قد بيَّض لهذا الحديث -أي: ترك بياضًا-، ولعله أراد ان يُراجعَ تخريجه ليُثبِتَه فنَسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو لم يتَمَكَّن.

وهذا الحديث رواه جماعَةٌ من أهل العلم؛ منهم: ابنُ خُزَيمَة في «التوحيد»، والطبري في «التفسير»، وابن أبي حاتم، وابن أبي عاصم في «السُّنة»، والطبراني في «مسند الشاميين»[1].

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥)، والطبري في «التفسير» (١٩/ ٢٧٨ هجر)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٤١٦ تفسير ابن كثير)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٤٨ الرشد)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩١).

=



وإسناد الحديث ضعيف كما ذكرَ الشيخُ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وله عِلَّتان:

العِلَّة الأولىٰ: فيه نُعَيم بن حمَّاد، وقد اختلف فيه العلماء:

فقال بعضُ أهل العلم: ثقة. وقال بعض أهل العلم: ضعيف. وقال بعض أهل العلم: صدوق له أخطاء. وقال بعضهم: صدوق كثير الخطأ.

ومن أحسَن مَا قيل فيه ما قالَهُ ابنُ عَدِي في «الكامِل» حيثُ قَال: «وقد أثنَىٰ عَلَيهِ قوم وضعفه قوم، وكان ممن يتصلب فِي السُّنة، ومات فِي مِحنَة القرآن فِي الحبس، وعامة ما أنكر عَلَيهِ هو هذا الَّذِي ذكرته، وأرجو أن يكون باقي حديثه مُستقيمًا»(١).

فالأحاديث التي أُنكِرَت علىٰ نُعيم مَحدُودة مَعلُومة، وأغلَبُها في الفتن، والعُلماء الذين عَدُّوا تلك الأحاديث لم يَذكُروا فيها هذا الحديث الذي معنا.

والعِلَّة الثَّانيَة: فيه أيضًا الوليد بن مسلم، وهو ثقة، لكنه يدلس، وقد عنعن.

ولكن هذه العلة انتفَت هنا؛ لأن الطبراني في «مسند الشاميين» رَوَىٰ الحديثَ بتَصريح الوليد بالتَّحديث، قال: فحدثنا، وتدليس التسوية غير موجود هنا، فتكون العلة من جهة الوليد مُنتَفِيَة، ومن جهة نُعَيم يسيرة، فالضعف يسير،

=

وضعفه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (٥١٥).

وقال أيضًا في تحقيق كتاب «التَّنكيل» (٢/ ٧٣٥) للمُعلمي اليماني: «المتنُ غيرُ مُنكرٍ، فلهُ شواهد...، فالنَّكارةُ في السَّند فقط». اهـ

(١) «الكامل في الضعفاء» (٨/ ٢٥٦).

وقد وَجَدنَا للحديث شواهِدَ كثيرة صحيحة، فهي تجبر ضعف الحديث.

ولذلك الذي يظهر -والله أعلم- أن الحديث «**صحيح لغيره**»، ولعل هذا هو الذي جعل ابن خُزَيمة يذكر الحديث في «كتاب التوحيد»، وابنُ خُزَيمة التزم الصحة في «كتاب التوحيد»، فلعله ذكره لشَوَاهِده الصَّحيحة التي تَدُل علىٰ صحَّته.

قال: (**وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سِمعَانَ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ): وهو صحابي ابن صَحَابي، ويُقَال: سِمعَان -بكسر السين-، وسَمعَان -بفتح السين-. وقال العلماء: بفَتح السِّين أشهَر.

قال: (**قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**إذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ أَن يُوحِي بِالأَمرِ**): وفي هذا إثباتُ الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ، والأدلة علىٰ ذلك كثيرةٌ جدًّا.

قال: (**تَكَلَّمَ بِالوَحيِ**): وفي هذا إثباتُ الكَلام لرَبِّنا سُبحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنَّ المَلائكَةَ تَسمَعُ كلام رَبِّنا سُبحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (**أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنهُ**): أي: مِن كلام الله.

قال: (**رَجفَةٌ، -أَو قَالَ: رَعدَةٌ- شَدِيدَةٌ خَوفًا مِنَ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ): شكَّ الرَّاوي، والمعنىٰ واحد.

وهذا يَدُل علىٰ أن السَّموات فيها شُعُور، والله سُبحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد جعَلَ في مخلوقاته شعورًا تَخافُ الله جَلَّوَعَلَا به، فالسَّموات كلها تُصيبها رجفة ورعدَة لكَلام الله عَزَّوَجَلَّ خوفًا من الله سُبحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا): عندما يسمَعُ أهل السَّموات كلامَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمِن تعظيمهم لله جَلَّ وَعَلَا وخُضُوعهم له وخَوفِهم منه؛ يُصعَقُون؛ أي: يُغشَىٰ عليهم.

قال: (وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا): وهل هذا مع الغَشي، فيُغشَىٰ عليهم خارِّين لله سجدًا، فيكونُ سُقُوطهم علىٰ الأرض علىٰ هَيئَة السجود، أو أن هذا يكون بَعدَ أن يُفزَّع عن قلوبهم فإذا فُزِّع عن قلوبهم خرُّوا لله سُجدًا؟

لم يَأتِ ما يَدُل علىٰ هذا أو هذا، والواو تقتضي مُطلَق الجَمع، ولا تَدُل علىٰ الترتيب، لكن اليَقينَ أنه يَحصُل لهم الغَشي، ويحصُلُ منهم السُّجود.

قال: (فَيَكُونُ أَوَّلَ مَن يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِن وَحيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبرِيلُ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ): أول مَن يَرفَعُ رأسه من السجُود من الملائكة هو جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيُكَلِّمه الله بالوحي بما أراد، وهذا دليل علىٰ أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يسمع القرآنَ من الله عَزَّوَجَلَّ، وأن القرآنَ كلامُ الله حقيقة، بحرف وصَوت، سَمِعَه جبريلُ من ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثمَّ يَمُر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ المَلائكة في السموات، و«أل» هنا للجِنس؛ فتقتَضِي عُمومَ الملائكة في كل سَماء.

قال: (كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا): أي: جَميع ملائكة هذه السَّماء يسألونَ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبرِيلُ: قَالَ الحقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ.

قال: **فَيَقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ، فَينتَهِي جِبرِيلُ بِالوَحيِ إِلَىٰ حيثُ أَمَرهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**): فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الرسُولُ المُكلَّف من الملائكة بالوحي، يُوصِلُ الوحي إلىٰ مَن يأمره الله عَزَّوَجَلَّ بأن يُوصِلَه إليه.

وقد جاء في «صحيح مسلم»(١): عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَخبَرَنِي رَجُلٌ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الأَنصَارِ: «**أَنَّهُم بَينَمَا هُم جُلُوسٌ لَيلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُمِيَ بِنَجمٍ**»: أي: بشهاب، وإلا فالنجوم لا تسقط، لكن هذا من باب تسمية الشهاب بالنجم؛ لأنه ينفصِلُ عنه.

«**فَاستَنَار**»: أي: رأوا نوره.

«**فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَاذَا كُنتُم تَقُولُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثلِ هَذَا؟**»: وهذا يدل علىٰ ما قدَّمناه أن الشهب كان يُرمَىٰ بها في الجاهلية قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«**قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّهَا لَا يُرمَىٰ بِهَا لِمَوتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِن رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اسمُهُ- إِذَا قَضَىٰ أَمرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ العَرشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُم، حَتَّىٰ يَبلُغَ التَّسبِيحُ أَهلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنيَا**»: لأن السماء الدنيا هي التي نَراها فوقنا.

«**ثُمَّ قَالَ: الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ العَرشِ لِحَمَلَةِ العَرشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟**»: فهنا

---

(١) برقم (٢٢٢٩).

الذين يسألون هم الذين يَلُون حَملة العرش والذين يقولون هم حَملة العرش.

« **فَيُخبِرُونَهُم مَاذَا قَالَ. قَالَ: فَيستَخبِرُ بَعضُ أَهلِ السَّمَوَاتِ بَعضًا، حَتَّىٰ يَبلُغَ الخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنيَا، فَتَخطَفُ الجِنُّ السَّمعَ فَيَقذِفُونَ إِلَىٰ أَولِيَائِهِم، وَيُرمَونَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُم يَقرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُون**».

وهذا يدل أن الذي يقول قال الحق وهو العلي الكبير أحيانا جبريل عَلَيهِ السَّلَامُ وأحيانا حملة العرش؛ لأنه جاء في الرواية عند الامام أحمد[1]: «**فَيَقُولُونَ: الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**».

وهذا يدل علىٰ أن الجنَّ يَسترقونَ السَّمع من السماء الدنيا، كما جاء عندَ البُخاري أنهم يَسترقون السمعَ من السَّحاب، والسَّحاب دون السماء، فهو بينَ السَّماء والأرض.

فقد ثبت في «صحيح البخاري»[2] عن عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا: أنَّ الرسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ تَنزِلُ فِي العَنَانِ: وَهُوَ السَّحَابُ، فَتَذكُرُ الأَمرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَستَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمعَ فَتَسمَعُهُ، فَتُوحِيهِ إِلَىٰ الكُهَّانِ، فَيَكذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذبَةٍ مِن عِندِ أَنفُسِهِم**».

فهذا يَدُل علىٰ أن مَرَدة الجن يَستَرقون السَّمع من السَّماء الدنيا ومن السُّحب.

---

(١) برقم (١٨٨٣ - الرسالة).

(٢) برقم (٣٢١٠).

فالملائكة تنزل إلىٰ السُّحب ويُحَدِّثُ بعضُها بعضًا بما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيسترق مَرَدة الجن الكلام ويُلقُونَه إلىٰ الكهَّان.

والمُراد بهَذَا: بيانُ أن الملائكَة عبادٌ مُكرَمُون لا يَستحقُّون أن يُصرَف لهم شيءٌ من أنواع العبَادَة، وإذا ثبَتَ عندنا -كما سبقَ في الباب الأول- أن أفضَلَ الخلق وسَيد الإنسِ محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يَستحقُّ أن يُصرَف له شيءٌ من العبادَة، وأن الملائكة لا يَستَحقونَ أن يُصرَف لها شيءٌ من العبَادة؛ عَلِمنا يقينًا أنه لا يوجدُ مخلوق يستحِقُّ أن يُصرَف له شيء من العبَادة؛ لا دعاء ولا نذر ولا استغاثة ولا استعاذة، ولا غير ذلك من أنواع العبَادَة.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ الآيَةِ.

الثَّانِيَةُ: مَا فِيهَا مِنَ الحُجَّةِ عَلَىٰ إِبطَالِ الشِّركِ، خُصُوصًا مَن تَعَلَّقَ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّركِ مِنَ القَلبِ.

فهذه الآية فيها دلالَةٌ بَيِّنَة علىٰ إبطال الشرك، وأكثر الشرك الذي يقَعُ في أمة محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليسَ من بابِ عبَادَة الأصنام، وإنما من باب الغُلُو في الصالحين، والتعلُّق بالصالحين، والملائكة عبادٌ الله المُكرَمُون الذين لا يَعصُون الله ما أمرهم ويَفعَلُون ما يُؤمَرُون، فهم عبَاد صَالحُون وعلىٰ هيئَةٍ وخِلقةٍ عظيمة، ومع ذلك لا يَستَحقُّون أن يُصرَف لهم شيءٌ من أنواع العبادة، فكَذا مَن دُونَهُم من الصَّالحين.

الثَّالِثَةُ: تَفسِيرُ قَولِهِ: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

كما تقَدَّم في مَوضِعه.

الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِم عَن ذَلِكَ.

وهو أنَّهُ يُغشَىٰ عليهم فيَسأَلُون.

الخَامِسَةُ: أَنَّ جِبرِيلَ هُوَ الَّذِي يُجِيبُهُم بَعدَ ذَلِكَ بِقَولِهِ: «قَالَ كَذَا وَكَذَا».

فجِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يجيبهم بعد أن يَقُولَ: قال الحق وهو العلي الكبير، إنه

قال كذا وكذا؛ أي: إن الله عَزَّوَجَلَّ قال كذا وكذا، فيُخبِرُهم.

وفي الحديث الآخر: أنَّ حَمَلة العرش يخبرونَهم بما قال الله عَزَّوَجَلَّ.

السَّادِسَةُ: ذِكرُ أَنَّ أَوَّلَ مَن يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ.

وهذا ظاهر.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَقُولَ لأَهلِ السَّمَوَاتِ كُلِّهِم، لأَنَّهُم يَسأَلُونَهُ.

يعني: كل أهل السَّموات يَسألُون جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عمَّا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيُخبِرُهم.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الغَشيَ يَعُمُّ أَهلَ السَّمَوَاتِ كُلِّهِم.

التَّاسِعَةُ: ارتِجَافُ السَّمَوَاتِ بِكَلامِ اللهِ.

فالسَّموات تَرتجفُ لكَلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والذي ينبغي علينا نحن أيضًا أن نُجَاهد أنفسَنَا، وأن نوقظ قُلوبنا، وأن نُحضِرَ أسماعَنَا عند سماع كلام ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن نُقَدر لكلام ربنا قَدره.

العَاشِرَةُ: أَنَّ جِبرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنتَهِي بِالوَحيِ إِلَىٰ حَيثُ أَمَرَهُ اللهُ.

وذلك من السَّماء أو الأرض.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: ذِكرُ استِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

وبينا أنهم كانوا يَستَرقون قبلَ بعثَة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمَّا بعد بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ موته فقد امتَنعَ عليهم الاستراق، ثم عَادُوا بعد ذلك للاستراق،

وإن كان استراقُهُم التالي أضعفَ ممَّا كان قبل البعثة.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعضِهِم بَعضًا.

وهي الهيئة التي بيَّنها سُفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: سَبَبُ إرسَالُ الشُّهُبِ.

وهو استراق الجِنِّ للسَّمع.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّهُ تَارَةً يُدرِكُهُ الشِّهَابُ قبلَ أَن يُلقِيَهَا، وَتَارَةً يُلقِيهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الإِنسِ قَبلَ أَن يُدرِكَهُ.

وذلك لأن إلقاء الشُّهب من باب الأسبَاب، والأسبابُ قد يتحقق المُراد منها، وقد يشَاءُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ألا يتحقَّق، وهذا يدلُّ علىٰ أن الأمر كُلَّه لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فحتىٰ هذه الشُّهب التي تُرسَل علىٰ الجن؛ إن شاء الله أن تدرك الجني أدركته فأهلكَته؛ وإن لم يشأ عَطَّل هذا السبب ولم يتحقق المَقصُود.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: كَونُ الكَاهِنِ يَصدُقُ بَعضَ الأَحيَانِ.

وهذا ديدنُ أهل الباطل؛ لا يُمكن أن تجدَ شَخصًا من أهل الباطل يكون كلامُهُ باطلًا كُله؛ لأنه لو كان كلامُه باطلًا كله ما استجاب له أحدٌ وما سمعَ كلامَهُ أحَد، لكن أهل الباطل يَخلِطُون باطِلَهُم بحَق، وقد يجعلُونَ الحق كثيرًا، لكن الباطل عظيمُ التأثير.

فقد تجد رجلًا يتكلم ويُقَرر السُّنة، ويتكلم عن السنة، ولكن يخلطُ كَلامَه عن السنة بشَيءٍ من البدعة، وهذه البدعة إذا وَقَرت في القلب أفسَدَتهُ.

ولذلك لا حجة لأحد أن يقولَ: إنَّ فلانًا كلامُه فيه حق، فإنه لا أحدَ يتكلم بالباطل إلا ويجعَلُ فيه حقًّا، وإنما العبرة بحقيقة الكلام ومَرَاميه وما فيه، ولرُبَّما سقطت قطرة سُم في وعاء عَسَل فأفسدت العسل علىٰ أَهلِهِ.

وهذا يجعَلُنا نحذر فيما نَسمَع؛ فكم من شَخص دخلَ عليه الدَّاء من كَلمة في كلام، ومن جُملة في جُمَل، وهذا يَدُلُّ علىٰ فقه السلف في نَهيهم عن مُجَالسة أهل البدع والاستمَاع لَهُم.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: كَونُهُ يَكذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذبَةٍ.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّهُ لَم يُصَدَّق كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ.

أي: أنَّ الناس لم يُصَدِّقوا هذا الكاهن الكذاب إلا بتِلكَ الكلمة التي سُمِعَت من السَّماء -وهي حَق-، فيقُولون: الرجل صَادق! ألم يَقُل لنا كذا وقد وقع!

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: قَبُولُ النُّفُوسِ لِلبَاطِلِ، كَيفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلا يَعتَبِرُونَ بِمِائَةِ كَذبَةٍ؟!

فالناسُ أسرع لقَبُول الباطل منها إلىٰ قَبُول الحَق؛ لأن الغالبَ أن البَاطِلَ يُحدِّثُ الغرائز، ولا يُكَلِّف من العمل شيئًا. أمَّا الحق؛ فَهُو يُحدِّث العقولَ، ويُكَلِّف بالأعمال، وإسراعُ الناس إلىٰ العواطف أكثَر من إسرَاعِهم إلىٰ العقول؛ ولذلك دعاة الحق ينبغي عليهم أن يجتهدوا في الدعوة أكثر من أهل الباطل؛ لأن إسراع الناس الىٰ الباطل الذي يُزخرَف ويُغلَّف أكثر من استجابتهم للحق؛

لأن «كلام أهل الباطل يُطرِب ويُعجب ولا يُتعِب»؛ بل يخرُجُ الإنسانُ من كلام أهل الباطل وهو يَظُن أنه من أصلح عبَاد الله، ولو كان من الفُسَّاق!

أمَّا كلام أهل الحقِّ فهو ثقيل؛ ولذلك ينبغي علىٰ دعاة أهل الحق أن يسيروا في دعوتهم ويصبروا؛ فالإصلاح طريقه صَعب، لكنَّ عاقبته حميدة، والمصلح يواجه العواطف بعِلم وحِلم وحِكمَة وبَالبينات والبراهين والأدِلَّة؛ ولذلك يواجهه غيره بالسَّب والشتم، ويحاولون إيقاف طريقه، لكن من رزقه الله الإخلاص فليبشر، فإنه في طريق مستقيم، مبتدَؤُه في الدنيا ومنتهاه في الجنة، وما من مُصلِح أخلصَ لله إلا صَدقه الله عَزَّوَجَلَّ، وظَهَرَ أثَرُ دَعوَتِهِ علىٰ الناس ولو بعدَ مَوتِهِ.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: كَونُهُم يُلقِي بَعضُهُم إِلَىٰ بَعضٍ تِلكَ الكَلِمَةَ، وَيَحفَظُونَهَا، وَيَستَدِلُّونَ بِهَا.

فهم -كما قلنا-: لا يتجرَّدون من الحَق بالكُليَّة، ولكنَّهم يجعلون الحقَّ مصيدة للنَّاس ليَقَعُوا في الباطل.

العِشرُونَ: إِثبَاتُ الصِّفَاتِ خِلافًا لِلأَشعَرِيَّةِ المُعَطِّلَةِ.

فقد تقدم أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم، وأن الله هو العَلِيُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، له عُلُو الذات، وعُلو القهر، وعُلو القَدر، وأنَّه الكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأهلُ السُّنة والجَماعة يثبتون الصفات الوارِدَة في الكتاب والسُّنة علىٰ ما يَليقُ بجَلال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلا يُشَبِّهُونَه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندهم أعظَمُ

وأجَلُّ من أن يُشبَّهَ بأحدٍ من خلقه، فكمَا أن ذاته لا تُشبِه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفَات، فلا يُشبِّهون ولا يُكيِّفون؛ ولا يُحرِّفُون ولا يُعطِّلون؛ لأنهم مُعظِّمُون لله عَزَّوَجَلَّ.

الحَادِيَةُ وَالعِشرُونَ: التَّصرِيحُ بِأَنَّ تِلكَ الرَّجفَة وَالغَشي كَانَا خَوفًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وذلك كمَا ورَدَ في الحديث أن هذا لخَوفِهِم منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخُضعانًا لله جَلَّ وَعَلَا.

الثَّانِيَةُ وَالعِشرُونَ: أَنَّهُم يَخِرُّونَ للهِ سُجَّدًا.

كمَا تقدَّمَ بيَانُه.

❀❀❀



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ الشَّفَاعَةِ.

الشرح

هذا البَابُ العَظِيم ذكَرَهُ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِوَجهَين:

الوجه الأول: أن أكثر مَن يَقَعُون في الشِّرك من هذه الأمة إنما يقعون فيه من جهة الشفاعة؛ ويَقُولون: إنما نتقَرَّبُ إليهم ليَكُونوا شفعاء لنا، فيَنذِرُون لأصحاب القَبُور، أو يستشفعون بهم، أو يَستعِيذُون بهم، فإذا قُلتَ له: لماذا تنذر لصاحب القبر؟!

قال: ليَكونَ شَفيعًا لي، فيَفعلُون ذلك تقربًا لهم رجاءَ أن يشفعوا لَهُم عند الله عَزَّوَجَلَّ، فأرادَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَانَ مَا يتعلَّق بذَلك.

ولذلكَ نَاسبَ أن يذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابَ الشفاعة بعدما تقَدَّم من الأبواب.

والوَجهُ الثاني: أنه قَد تقدَّم قولُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا»**[1]. فناسَبَ أن يذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا هذا البَاب ليُبَيِّن:

- أنه لا تعارُضَ بينَ قَول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا»**، وبين الشفاعة.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٨٦).

- ولِيَرُدَّ علىٰ نُفَاة الشفاعة، وعلىٰ الضَّالِّين في باب الشفاعة.

فإن الشَّفاعةَ ضَلَّ فيها طائفتَان:

أحدهما: فَهُم نُفاة الشفاعة، وقالوا: إن كُل من يستحق العذاب يدخل النار، و كل من يدخُل النار لا يخرُجُ منها أبدًا، فلا عَفوَ ولا شَفَاعة؛ فأنكَرُوا الشفاعة وقالوا: إن الله نفىٰ الشفاعة، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وهؤلاء هم الوَعيديَّة من المُعتزلة والخَوارج.

وهَذا فيه ضلالٌ عَظيم، وفيه رَدٌّ للنصوص المُتكَاثرة المُتَواتِرَة الدالَّة علىٰ هذه الشَّفاعة.

والثَّانية: مَن أثبَتَ الشفاعة علىٰ غير الوَجهِ الذي دَلَّت عليه الأدلَّةُ؛ فكان ذلك سببًا للوقوع في الشِّرك بالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتَوسَّط أهل السُّنة والجماعة، فأثبَتُوا الشفاعة علىٰ الوجه الذي دَلَّت عليه الأدلة، ونَفَوا ما يُخالف الأدلة من الشفاعة -كما سيأتي-.

وهذه هي عادَةُ أهل السُّنَّة والجَمَاعة في الاستدلال؛ أنهم يجمعون الأدلة ويَرُدُّون الأدلة بعضها إلىٰ بعض؛ فيَرُدُّون المُتشَابه إلىٰ المُحكَم، وقد تكون الأدلة كلها مُحكَمة؛ لَكِن يُقيِّدونَ المُطلق بالمُقيد، ويُخَصِّصون العامَّ بالخاص، ولا يلزم من رَدِّ الأدلة بعضها إلىٰ بعض أن يكونَ أحدُها أو بعضُهَا مُتشابِهًا؛ بل الأدِلَّة:

- قد يكونُ بَعضُهَا متشابهًا ويُرَدُّ إلىٰ المُحكَم.

- وقد تكون كُلها مُحكَمة، ولكن بعضها يحتمل معَاني وبعضها لا يَحتَمل إلا مَعنَىٰ واحدًا، فيُرَد ما يحتمل إلىٰ ما لا يحتمل.

- وقد يكُونُ بعضُها مُقيدًا وبعضُها مطلقًا، فيُقَيد المُطلَق بالمقيد.

- وقَد يكون بعضها عامًّا وبعضها خاصًّا؛ فيخصص العام بالخاص.

وهذه هي طريقة أهل السنة والجماعة، تُجمَع الأدلة ولا يُضرَب بَعضُها ببَعض، بخِلافِ غيرهم من أهل البدع والزيغ.

فإنَّا نجد أن الوعيدية مثلًا نَظَروا إلىٰ نصوص الوعيد فقط، وأبطلوا نصوص الوعد، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة يوم القيامة خالد مُخَلَّد في النار!

والمُرجِئَة نظروا إلىٰ نُصوص الوعد، وقالوا: لا يَضُر مع الإيمان ذَنب!

أما أهل السُّنة والجَماعة فطريقَتُهم في الاستدلال دائمًا أنَّهم يَرُدُّون الأدلة إلىٰ بعضها، وهذا ما هو ظَاهِرٌ في إثبَاتِ الشَّفاعة.

وممَّن انحرفُوا في باب الشَّفاعة من يُثبِتُون الشفاعة بغَيرِ إذن الله ولا رضَاه، ويتخذون شفعاء، ولم يَأذَن الله في هذا.

والشَّفاعَةُ: من (الشَّفع)، والشَّفعُ يَدُل علىٰ قَرنِ شَيئَين وضَم أحدِهما إلىٰ الآخَر.

الشفاعة في اللغة: شفعَ فلانٌ لفُلان؛ إذا جاء لغيره مُلتمِسًا طلبًا لغيره أو دَفعَ ضُرٍّ عن غيره، ويُسمِّيها الناسُ اليوم «الوَاسِطة». يقولُ: اتَّخذت واسطَةً عند المسئول؛ فيَذهب المتوسِّطُ به إلىٰ المسئُول من أجل طلَب المُتوسَّط له؛ إمَّا

لتحقيق خَير لهُ، أو لِدَفع شرٍّ عنه.

فالشَّفاعةُ اصطلاحًا: توسُّط الشَّافع لغيره عند غَيرِهِ لجَلبِ مَنفَعَة أو دَفع مَضَرَّةٍ عنه.

ولذَلكَ يَقُول بعضُهم: الشفاعةُ طَلَب الخير للغَير من الغَير.

والمُراد بالشَّفاعَة في هذا البَاب: الشفاعة في الآخرة؛ **لأن الشفاعة في الأصل تنقسم إلىٰ قِسمَين:**

القِسم الأوَّل: الشَّفاعة في الدنيَا: **وهي تتنوع إلىٰ نوعَين:**

الأول: الشفاعة من المَخلُوق للمَخلُوق عند المَخلُوق.

مثل أن تشفع لأخيك المسلم عند مسئُول أو وَزير أو مَلِكٍ، أو نحو ذلك، وهذه الشفاعة إنما هي في أمور الدُّنيا، وهي مشروعة إذا كانت حَسَنة، ويُثَاب عليها الإنسان، فمَن شفع لأخيه شَفاعة حسَنة في الدنيا فإنه يُؤجَر؛ سواء قُبِلَت شفاعتُه أو رُدَّت شفاعته: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء:٨٥].

أي: مَن يشفع شفاعة حسنَةً لأخيه في الدنيا؛ يَكُن له نصيب من حسنها؛ فينال حَسَنة.

وقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اشفَعُوا تُؤجَرُوا»**[1].

وشرطُ هذه الشفاعة التي هي في أمُور الدنيا: ألا تكونَ في حرام. فإن كانت

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسىٰ الاشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

في حرام انقلَبَت إلىٰ شَفَاعة سيئة. فإذا شفع الإنسان في الظلم؛ كأن يُقدِّم المُؤخَّر علىٰ المُتقدِّم؛ فإن هذا ظُلم، وهذه شفاعة سيئة.

أما أن يشفع لأحد المُتساوِيَين ليُقدَّم؛ فهذه شفاعة حسنة، أو يُظهِرُ صِفَة في أحدهم تقتضي أن يتقدَّم علىٰ غيره؛ كأن يُزكِّيه ويثني عليه، ويكون لذلك قدر بحيث يستحق بهذا أن يُقَدَّم علىٰ غيره؛ فهذه شفَاعَة حَسَنة.

وكذلك من الشَّفاعة المُحرَّمة: التي تكون في مُخَالفَة النظام الذي جعله وليُّ الأمر.

وكذلك من الشَّفاعة المُحرَّمة: الشفاعة في حَدٍّ من حُدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلك لمَّا سَرَقت المَخزُومية، وأهم قريشٌ أمرها؛ فقَالُوا: «وَمَن يَجتَرِئُ عَلَيهِ إلَّا أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَتَشفَعُ فِي حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهِ؟**!، ثُمَّ قَامَ فَاختَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّمَا أَهلَكَ الَّذِينَ قَبلَكُم، أَنَّهُم كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيهِ الحَدَّ...**»[(١)].

وخُلاصَةُ الأمر: أن هذه الشفاعة إذا كانت حَسَنة؛ **وضَابِطُها**: ألا تكون في حرَام؛ فإنها مشروعة محبوبة مستحبة، ويؤجر عليها الإنسان.

وأما إذا كانت في حَرَام؛ فإنها شفاعة سيئة، ويُؤاخَذ بها الإنسان، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والثاني: هو الشفاعة التي يُقصَدُ بها «الدُّعاء». اشفع لي بمعنىٰ: ادعُ لي.

وهذه شَفَاعة جَائزة؛ بشرط أن يكون ذلك مَطلوبًا من الحَيِّ الحَاضر؛ كأن يقول الأخ لأخيه: يا أخي، إن عندي مريضًا فسَاعِدني في الدُّعاء له أن يَشفِيَه الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه شفاعة؛ حيث يَضُم دُعاءَه لدعائه، ويَضُم حَاجَتَه لحَاجَته، وهذه جائزة -كما قُلنا- إذا كانت من المَخلُوق الحَي الحاضر.

أمَّا إذا كانَت من الأموات؛ فهذه لا تَجُوز، فلا يَجُوز أن تَطلُب الشفاعة من الأموات، ولا من الغائبين، وإنمَا يَطلُب العبدُ من أخيه الحي الحاضر أن يشفع له عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بمعنىٰ: أن يَدعُوَ له ليحصل مقصودُه؛ ولذلك لو قال لك قائل: اشفع لي عند الله؛ **فإنَّه يُستَفصَلُ منه**:

- فإن كان مراده: ادعُ لي الله عَزَّوَجَلَّ أن يَحصُل لي مقصودي؛ فهذا جائز، وهو من باب طلب الدعاء من الحي الحاضر.

- وإن كان مُرادُه أن تشفع له عند الله يوم القيَامة؛ فهذا لا يجوز؛ لأن الشفَاعَةَ يوم القيامة إنما تُطلَبُ من الله عَزَّوَجَلَّ.

القِسم الثَّاني: الشَّفاعة في الآخرة، وهي المُراد بِهذَا الباب.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّما عقَدَ هذا الباب لهذه الشفاعة، وربُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يحتاجُ إلىٰ الشفعاء، لكنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مِن كَرَمه وجُوده يتفضل علىٰ مَن شاء مِن عباده يوم القيَامة بالشفاعة؛ وذلك لإظهار إكرام الشَّافع؛ لأنه لا شَكَّ أن شفاعَةَ الشافع تَدُل علىٰ مَقَام له عند المَشفُوع عنده، ولنَفع المَشفُوع له.

والشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكَرَ أدلَّةً فيها قواعدُ الشفاعة، ومُلَخَّص هذه القواعد مَا يَأتي:

القاعدَةُ الأُولىٰ: الشفاعة كُلُّها لله، فلا يَملِكُها مخلوق مهما علا شَرفُه ومكانته؛ بل الشفاعة كلها لله عَزَّوَجَلَّ، فلا تطلب إلا من الله عَزَّوَجَلَّ.

فالشفاعة يوم القيامة إنما تطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والقَاعِدَة الثَّانية: أن أدلَّةَ الشَّفاعة المُطلقَة مُقيَّدَة بالأدلة الأخرىٰ.

فالأدلة النافية للشفاعة مُقيَّدة بالأدلة المُثبِتَة لها.

و الأدلة التي فيها أن الشفاعة تكون لمن قال: «لا إله إلا الله»، أو لِمَن قال: «لا إِلَهَ إلا الله» يومًا، أو مَن ذكَرَ الله يومًا؛ هذه مُقيَّدة بالأدلة علىٰ أن الشفَاعَةَ إنما هي: لأهل التوحيد، ولمَن مات لا يُشركُ بالله، ولمَن مَاتَ غير كَافر.

أما من ماتَ مُشرِكًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه خَالِد مُخَلَّد في النار، ولا تنفعه شفاعة الشَّافِعين.

وكذلك مَن ماتَ كافرًا، ففعَلَ مُكفِّرًا، وحَكَمنَا عليه بالكفر بعَينِهِ، وكان ذلك موافقًا للظاهر والباطن؛ فإنه لا يدخُلُ في أحاديث وأدلة الشفاعة؛ لأن أدلَّةَ الشفاعة مُقيَّدَة.

ومن ذلك: ما جاء عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعوَةٌ مُستَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعوَتَهُ، وَإِنِّي اختَبَأتُ دَعوَتِي شَفَاعَةً**

لِأُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِن شَاءَ اللَّـهُ مَن مَاتَ مِن أُمَّتِي لَا يُشرِكُ بِاللَّـهِ شَيئًا»(١).

و لذلك لو أن شخصًا كفَّر شخصًا بسبب شرعي ظهر له فيه أن الموانع منتفية والشروط مجتمعة؛ فإنه يعتقد -بحَسَب ما يعلم- أن هذا الرجل لا تَنفَعُه شفاعَةُ الشَّافعين، فإن كان أمرُهُ كما اعتقد فيه فمَاتَ علىٰ الكفر، فلا شَكَّ أن الشفاعةَ لا تَنفَعُه.

ولذلكَ مَثلًا: مَن كان يعتقد أن تاركَ الصلاة مُطلقًا كَافر -كما أعتقدُ أنَا- بناءً علىٰ الأدلة؛ فإنه إذا علم أن فلانًا من الناس قد مات تاركًا للصلاة؛ فإنه يعتقد أنه لا تنفَعُه شفاعة الشافعين، لكنه لا يَجزِمُ بهذا؛ لأنه لا يدركُ يقينًا ما وافَىٰ عليه.

ولذلك أقُولُ: إن كان باطِنُه موافقًا لِمَا حكم عليه في الظاهر؛ فإنه يقينًا لا تنفعُهُ شفاعةُ الشافعين.

إذن؛ الأدلة المُطلقَة في الشفاعة مُقَيَّدة بالأدلة المُقيِّدة، وليس هذا مِن باب المُحكَم والمُتشَابه؛ بل أدلة الشفاعة كُلها مُحكَمة؛ لكن بعضها مطلق وبعضها مقيد، ويُرَدُّ هذا إلىٰ هذا.

ولا شكَّ أن أهل السُّنَّة والجماعة مُجمِعُون علىٰ أن من مات مُشرِكًا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا تنفعه الشفاعة، وأنه خالِدٌ مُخَلَّد في النار.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٩).

القاعِدةُ الثَّالثة: والتي دلَّت عليها النصوصُ التي ذكرها الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الشفاعة في الآخرة شفاعتَان:

الشَّفاعة الأولىٰ: شفاعة مَنفِيَّة.

وهذه لهَا أربَعُ صُوَر عند أهلِ العِلم:

١- **الشفاعة لأهل الشِّرك والكُفر**، فإنه لا يشفعُ أحَدٌ لأهل الشرك والكفر يوم القيامة، والمُشرِكُون والكفار لا تَنفَعُهم شفَاعَةُ الشَّافِعِين.

٢- **الشَّفاعةُ بغَير إذنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**؛ فإنه لا يشفَعُ شَافعٌ يوم القيامة إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والشفاعَةُ بغير إذن الله مُنتفيَة قطعًا يوم القيامة.

٣- **الشَّفاعة لغَير من يَرضَىٰ الله عنهُ**، فلا تَكُونُ الشَّفاعة إلا لمن رضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، إلا ما استُثنِيَ ممَّا سَنذكُرُه، وهُو:

- شفاعةُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العُظمىٰ للفَصل بين القضاء؛ فإنها تنال الجميع.

- وشفاعةُ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَمِّه أبي طَالب في تَخفيفِ العذابِ عنه.

٤- **شفَاعَة من يُعبَدُون من دون الله لعَابِدِيهم يوم القيامة**، وهذه الشفاعة هي التي يَظُنُّها المشركون قديمًا وحَديثًا، ويظُنون أن عابديهم الذين يتقَرَّبُون إليهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ يشفعُون لهم عند الله، وهذه الشفاعةُ مَنفيَّة يقينًا؛ فإن المَعبُودات من دون الله لا تشفع لعَابِدِيها من دونِ الله يوم القِيَامَة.

والشَّفاعة الثانية: شفاعة مُثبَتة: وهي الشفاعةُ التي يتفضَّل الله بها لمن أَذِنَ

له من الشُّفعَاء، ورَضِي عنه ولمَن رضي عنهم من المَشفُوع لهم.

فَلابُدَّ من ثلاثة أمورٍ في الشفاعة المُثبَتة:

الأول: إذنُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يُمكنُ لأحدٍ، مهمَا عَلا شرفُه، وعَظُمَت مكانَتُه، أن يشفعَ لأحد عند الله إلا بإذن الله جَلَّ وَعَلَا.

الثاني: رِضَا الله عن الشافع نَفسِه.

الثالث: رضَا الله عن المَشفُوع له.

ومَعنَىٰ رضا اللهِ عن المَشفُوع له لا يَعنِي أنه يكون من الصالحين من كل وجه؛ وإنَّما المقصود أن يكون مُوَحِّدًا، ولو كان فاعلًا لكبَائر، فما دام أنه مُوحِّد فإنه يدخُلُ في هذا الشرط، ولذلك شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي لأهل الكبَائر من أمته.

القَاعدَةُ الرَّابعة: أن الشفاعَةَ المُثبتَة يوم القيامة تنقَسِمُ إلىٰ قِسمَين:

القِسمُ الأول: شفَاعَةٌ خاصَّةٌ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا ينالها أحدٌ سواه.

وقد قال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُعطِيتُ خَمسًا لَم يُعطَهُنَّ أَحَدٌ قَبلِي: نُصِرتُ بِالرُّعبِ مَسِيرَةَ شَهرٍ، وَجُعِلَت لِي الأَرضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِن أُمَّتِي أَدرَكَتهُ الصَّلَاةُ فَليُصَلِّ، وَأُحِلَّت لِي المَغَانِمُ وَلَم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبلِي، وَأُعطِيتُ الشَّفَاعَةَ...»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهذه الشَّفاعَةُ التي أُعطيَهَا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم تُعطَ لأحدٍ من قبله من الأنبياء هي الشفاعة الخاصَّة به.

فهذا الحديثُ دليلٌ على أن هناك شفَاعةً يختصُّ بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذهِ الشَّفاعةُ التي يختص بهَا النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنواعٍ:

النَّوع الأوَّل: الشَّفاعةُ العظمىٰ، وهي من المَقَام المَحمُود، وهي شفاعَةُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهلِ المَوقف، حيثُ يَشفَعُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ يُقضَىٰ بينهم، وذلك عندما يَطلُبُون ذلك من الأنبياء، بدءًا من أبِينَا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيتأخَّرُ الأنبياء وأولُو العَزم من الرسُل عن ذلك، فإذا طلبوا من النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشفَعُ لَهُم عند الله، فيقولُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا**» فيستأذن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ربه ويقع ساجدًا، ويفتح الله عليه من المحامد ما لم يكن يعرفه قبل ذلك، ويطول سجوده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يُقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقُل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع. فيومئذٍ يبعثه الله مقاما محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم علىٰ هذا المقام[1].

فهذه الشفاعة ينتفع بها كلُّ أهل المَوقِف من جهة أنه يُفصَلُ بينهم في القضاء، ويَقضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين الخَلائق.

والنَّوع الثَّاني: شفاعةُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنَّة أن يَدخُلوا الجنة، حيث يجتمع المؤمنون الذين هم أهل الجنة، ويأتون آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولون:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيدفعها عن نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يأتوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقوم فيؤذن له، ويأتي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باب الجنة فيستفتح فيقول: الخازن: من أنت؟ فيقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك[1].

فهنا تُفتَحُ الجنةُ لأهلها، ويُدخِلُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنةَ مَن كان من أمته يدخلُ الجنة بغير حسَاب ولا عذاب من يمين الجنة، ثم يشترك الناسُ في بقيَّة أبواب الجنَّة.

والنوع الثالث: شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخاصَّة لعَمِّه أبي طالب بأن يُخَفَّف عنه العذاب؛ لأن أبَا طالب قد ماتَ على الشِّرك ولم يقل: «لا إله إلا الله»، مع تَقَدُّم نُصرَته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، هَل نَفَعتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغضَبُ لَكَ؟ قَالَ: **نَعم، هُوَ فِي ضَحضَاحٍ مِن نَارٍ، لَولَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّركِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارِ**»[2].

وكلام العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سبيل السؤال، وليس على سبيل الاستنكار أو نحو ذلك.

فأبو طالب لا يخرُجُ من النار؛ لكن يُجعَلُ في ضحضاح من نار.

---

(١) أخرجه مُسلم (١٩٧) من حديث أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ فَأَستفتِحُ، فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَن أَنتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرتُ لَا أَفتَحُ لِأَحَدٍ قَبلَكَ**».

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩).

وهذه الشفاعة لا تكونُ من رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والنَّوع الرَّابع: شفاعة النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة لأهل المدينة، وذلك لِمَن عاشَ فيهَا مُوحدًا، وصَبَر علىٰ شِدَّتها ولم يتسخط، ومات فيها، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له.

ولا شكَّ أن هذه الشفَاعَة شفاعةٌ خاصَّة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخاصَّة لأهل المَدينَة، فهي غير الشَّفاعة العَامَّة التي تكُونُ لأهل الكَبَائر من المُوحِّدين، أو لأمَّةِ مُحَمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المَدينَة: «**لَا يَصبِرُ عَلَىٰ لَأْوَائِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ، إِلَّا كُنتُ لَهُ شَهِيدًا أَو شَفِيعًا يومَ القِيَامَةِ إِذَا كَانَ مُسلِمًا**». رواه مسلمٌ[1].

وهذا يدُل علىٰ أن من أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المدينة، وعاش مشركًا؛ لا يزيدُه ذلك إلا شَرًّا، ولا يشفع له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن المُنَافِقين الذين عاشوا في المدينة لا يشفع لهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يَشفعُ لمَن كان مُسلمًا، وعاش في المدينة موحدًا، وكان صابرًا علىٰ شدَّتها وعلىٰ لأوائها، لا يتسَخَّط ولا يُظهِرُ السخطَ، ومات علىٰ ذلك.

سُؤال: ما معنىٰ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا**»؟

قالَ بعضُ أهل العلم: هكذا قالها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلعله وعد أن يَكونَ شفيعًا أو شهيدًا.

---

(١) برقم (١٣٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقالَ بعضُ أهل العلم: «أو» هنا بمعنىٰ الواو؛ أي: أكون له شهيدًا وشفيعًا يوم القيامَة.

وقالَ بعضُ أهل العلم: «أو» هُنا للتقسيم، ومعنىٰ للتقسيم؛ أي: أكون شهيدًا للطائعين أشهَدُ لَهُم.

وشَفيعًا للعصاة منهُم -من أهل المدينة- إذا كانوا مُوحِّدين، وصَبَروا علىٰ لأوائها، وماتُوا علىٰ التَّوحيد.

قالوا: يكون شَهيدًا لصِنف، ويكونُ شَفيعًا لصِنفٍ؛ فيكونُ شَهيدًا للطائعين، وشَفيعًا للعَاصِين.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: بل المعنىٰ: أكونُ شَهيدًا لمَن كان معي من أهل المدينة، وأكون شفيعًا لمَن جَاءَ بَعدِي من أهل المَدينَة، فكانَ مُسلمًا موحدًا صابرًا إلىٰ أن ماتَ علىٰ ذلك.

فالشهادة لمن رآهمُ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والشَّفاعةُ لمن جاءوا بعد مَوتِ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الشفاعةُ بشَارة لأهل المدينة وإكرام لهم؛ إذا هم اتَّقَوا اللهَ في المدينة.

القسم الثاني من الشَّفَاعة: شفاعة للنبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغَيره، يُكرِمُ الله بها مَن شاءَ من عباده، **وهي أنواع:**

النوع الأول: الشَّفاعة لأقوام مُسلِمين استحَقُّوا دخُولَ النار؛ فيشفَعُ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم ليخرجوا من النار، ويشفع لهم الأنبيَاء، ويشفع المُؤمنون،

وتشفَعُ الملائكة، فيُخرِجُ الله أقوامًا من النار بهذه الشفاعة.

وهذه الشفاعَةُ، وإن كانت للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولغَيرِهِ إلَّا أن النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهَا هُو المُقدَّم.

النوع الثاني: الشفاعة لأقوام من المُوحِّدين يستحِقُّون دخولَ النار ألا يدخُلوها.

والفرق بين الأولىٰ والثانية: أن الأولىٰ لأقوامٍ دخلوا النَّار بذُنُوبهم فعلًا، فيَشفع لَهُم ليَخرُجوا منها، أما الثانية فيشفع لأقوام ألَّا يدخلُوا النار أصلًا.

ومن ذلك: ما جاء في قول النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَيَدخُلَنَّ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيسَ بِنَبِيٍّ مِثلُ الحَيَّينِ، أَو مِثلُ أَحَدِ الحَيَّينِ: رَبِيعَةَ وَمُضَر**». رواه أحمد، وصححه الألباني[1].

مثل الحيين: يعني: مثل القبيلتَين الكَبيرتَين رَبيعَة ومُضَر.

وفي الحَديث أيضًا: قال النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَدخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِن أُمَّتِي أَكثَرُ مِن بَنِي تَمِيمٍ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، سِوَاكَ؟، قَالَ: سِوَايَ**». رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢١٥-الرسالة) من حديث أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣٨)، وابن ماجه (٤٣١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وهذا رجُلٌ واحدٌ من أمة محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ!، وظاهر هذا الحَديثِ أنهم يدخلون الجنة ابتدَاءً.

ومن ذلك أيضًا: قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِن رَجُلٍ مُسلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَىٰ جَنَازَتِهِ أَربَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشرِكُونَ بِاللهِ شَيئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**». رواه مسلمٌ[١].

(ما): نَافيَة. و(مِن): لتأكيد العُمُوم. و(مسلم): نكِرَة.

وفي الحديث بيان فَضيلَةِ التوحيد.

وقوله: «**إلا شَفَّعَهُم الله فيه**»: ظاهر هذا أن شفاعَتَهُم في مغفرة ذُنُوبه ودخُوله الجنَّة.

النوع الثالث: الشفاعَةُ في رِفعَة الدرجات في الجنة؛ ولهذا شُرِع أن يَسأل المُؤمنُ لأخيه أن يَرفَعَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ درجته في المَهدِيين، وأن يرفع درجَتَه في الجنة.

ومن ذَلكَ: شفاعَةُ من تَرتَفع درجتُه في الجنة لمَن دَنَت درجتُه فيها من أَهلِهِ.

فإذا دخلَ الوالدُ والأولادُ الجنَّة، فارتفع الوالد عن الأولاد؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُلحِقُ الأولادَ بأبيهم، ويكون شفيعًا لَهُم بعَمَله الذي ارتفع به في الجنة أن يَرفَعَهُم الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ دَرَجَتِهِ.

---

(١) برقم (٩٤٨).

فهذه هي أقسَامُ الشفاعة المثبتة يومَ القيامة بأنوَاعِهَا، وهذه هي القَواعد التي أخذناها من النصوص التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب العَظيم.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِ اللهِ تَعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام:٥١].

الشرح

في هذه الآية يأمُرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقولِهِ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾؛ أي: أنذر بالقرآن، وخَوِّف بالقُرآن.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾: أي: أنهم مُوحِّدون مُؤمِنُون بما يكون يوم القيَامَة.

فهم مُصدِّقون بما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به ممَّا يَكُون يوم القيامة أنه وَاقِع، فهُم مُؤمِنُون به.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾: ليس لهم من عذابِ الله إن عَذَّبَهُم ولي ينصُرُهم، ولا شفيع يشفع لهم عند الله؛ فيُخَلِّصهم من عذاب الله.

وهذه الآية في الموحدين، وليست في المشركين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾ فهؤلاء هُم المُوحِّدُون .

ثم قَالَ الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ ﴾؛ أي: ليس لهؤلاء المُوحِّدين ولي ولا شَفيع، فهل هذا يعني أن الشفاعة منفية؟

الجواب: لا؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ ﴾، فالشَّفَاعَةُ

المنفية هنا هي الشَّفَاعَة من دُونِ الله عَزَّوَجَلَّ، بدون إذن الله، بدُونِ رضا الله؛ فإنه لا شفاعة لأحد من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذَن؛ هذه الشَّفاعة المَنفيَّة لأهل التوحيد وغَيرِهم: هي الشفاعة من دُون الله؛ أي: من دُونِ إذنِهِ ولا رضَاه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٤].

الشرح

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾: وهذا يَدُل علىٰ الحَصر.

قُل يَا مُحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشفَاعةُ جَميعًا؛ إذن الشفاعة كلها لله جَلَّ وَعَلَا.

وهذه الآية تدُلُّنا علىٰ أمرَين:

الأمر الأوَّل: أن الشفاعة أنوَاعٌ، وليست أمرًا واحدًا؛ لأن الله قال: (جَميعًا).

والأمرُ الثَّاني: أن الشفاعة كلها بأنواعِهَا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا لقَطع طمَعِ المشركين، فإن المشركينَ يَطمَعُون أن تشفع لهم مَعبُودَاتُهم من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، فكأنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لَهُم: هيهات هيهات!، فإن الشفاعة لله جميعًا، فلا شَفَاعة للمشركين.

وهذا أيضًا يُفيدُنا أن الشفَاعَةَ إنمَا تُطلَبُ من مَالِكِهَا؛ فلا تُطلَب من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا في حياته ولا بَعدَ مَوتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تُطلَب مِن الملائكة، ولا تُطلَب من الأولياء، وإنما تُطلَب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو مالكُ هذه الشَّفَاعة بجميع أنواعها.

فهذه الآية أثبَتَت شَفَاعة. والتي قبلها نَفَت شفاعة، وهي الشفاعَةُ من دُونِ الله عَزَّوَجَلَّ. وهي لم تُفَصِّل الشفَاعَات؛ لكن بَيَّنت أنَّها لله عَزَّوَجَلَّ جميعًا، فلا تُطلَب إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ﮪ ❁❁❁ ﮫ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الشرح

وهذه الآيَةُ فصَّلت الشفاعة المُثبَتَة، والتي هي لله عَزَّوَجَلَّ.

ومعنَىٰ كَونِها لله عَزَّوَجَلَّ: أنها تكونُ بإذنِ الله، أولًا.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: فلا شافع عند الله إلا بإذن الله.

فلا يَشفَعُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع عُلو مقامه، وهو صاحب المقام المحمود عندَ الله، إلا بإذنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذلكَ إذا أراد نَبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَشفَعَ عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ تذَلَّل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيستَأذنُ أولًا، ويخِرُّ ساجدًا ثانيًا، ويَحمَدُ الله بمَحامِدَ كثيرة ما كانَ يعلَمُها من قبل، يَفتَحُ الله عليه بها، ويبقىٰ خارًّا ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ وقتًا طويلًا، ولا يرفَعُ رأسَه حتىٰ يأذَنَ له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويقول له: «**ارفَع رَأسَكَ**».

وهذا يُفيدكَ: أن الشَّفاعَة إنما تُطلَبُ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذه شفاعة مثبتة، وهي الشفاعة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

والشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بفِقهِهِ العظيم رَتَّب الآيات بحَسَب دلالتها علىٰ المُرَاد:

أولًا: الشفاعة المنفية، وهي التي من دون الله.

ثانيًا: إثبات الشفاعة، وأنها لله.

ثالثًا: بيان أن الشفاعة المثبتة لابُدَّ فيها من إذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

الشرح

كَم من مَلَكٍ في السَّموات -مع كثرتهم وعظم خلقهم- لا تُغني شفاعَتُهم شيئًا إلا من بعدِ أن يأذن الله ويشاء له أن يشفع ويَرضَىٰ عَن الطَّرَفَين: الشَّافع، والمَشفُوع لَهُ.

فذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية التي بِهَا الشرط الثاني والثالثُ، وهو: **رضَا الله عَن الشَّافع، ورضَا الله عن المَشفُوع له.**

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

الشرح

يَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: قل يا محمدُ للمُشرِكين: ادعُوا الذين زعمتم من دون الله، فانهم لا يستطيعون إجابَتَكُم، ولا يستحقُّونَ أن يُدعَوا من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ **وذَلك لأمُور:**

١- ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: فكُلُّهم؛ بل كل الخَلقِ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض مِلكًا تامًّا مُطلقًا.

والإنسان يَملِكُ ملكًا ناقصًا، ولا يأمَنُ على ما يملِكُه فقد يبقى أو يَذهَب؛ رُبَّما يُسرَقُ ما يملكه، أو يَنزل بهذا المال بلاءٌ يذهب به.

ثُمَّ إن الإنسانَ لا يتصَرَّف فيما يَملك هذا الملك الناقص إلا بإذن الله القَدَري، فقد يريد الإنسان أن يَشتَري بماله شيئًا لكن الله لم يُرِد ذَلك قَدَرًا؛ فلا يَستَطيع.

وكذلك أيضًا لا يستطيعُ الإنسانُ أن يتَصَرَّفَ فيما يَملكُ من هذا الملك الناقص إلا بإذن الله الشَّرعي، فلو أراد أن يشتَري شيئًا حرامًا لا يستطيعُ ذلك

شرعًا؛ لأنه مَمنوع من ذلك.

فهؤلاء الذين يَدعُونَهم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَملكُون مثقالَ ذَرةٍ في السمواتِ ولا في الأرض استقلالًا؛ فلا يستقِلُّ أحد منهم بملكِ شَيء .

٢- ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: أي: ما لهَؤُلاء المَعبُودات في السموات والأرض من شِركٍ مع الله، فهم لا يَملِكُون مثقال ذرة استقلالًا ولا يملكون مثقالَ ذَرة مُشَاركة .

٣- ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: أي: ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن هؤلاء المَعبُودين من ظهيرٍ ومُعين علىٰ خَلقِهِ.

والذِي يستحِقُّ أن يُتقَرَّب إليه إمَّا: مالك مِلكًا مُطلقا تامًّا، وإمَّا هو شريكٌ للمالِك، وإما مُعينٌ للمَالك. وهذا كله مُنتَفٍ عن الجَمِيع.

٤- ثُم جَاءَ: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: فَهُؤلاء يَرجُون النفع من مَعبُودِيهم، كالذينَ يتقَرَّبون إلىٰ أصحاب القبور؛ فإنهم يَرجُون من أصحابِ القُبور النَّفع، والنفع لا يكون إلَّا:

- إذا كان من يرجىٰ نفعُه مالكًا ملكًا تامًّا مُطلقًا، وهذا مُنتَفٍ.
- أو كانَ شَريكًا للمَالِك، وهذا مُنتفٍ.
- أو كانَ مُعينًا وظَهيرًا للمَالِكِ، وهذا منتفٍ.
- أو بالشفاعَة، وهذا في حق المُشرِكين مُنتفٍ؛ لأنه لا يَشفَعُ عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا مَن أَذِنَ له. فدلَّ ذلك علىٰ المَقصُود.

ويَقُول العلمَاءُ في هذه الآية: «إنَّها تقطَعُ جُذورَ الشِّرك».

ولو أن هؤلاءِ الذينَ يَنذرونُ لأصحَاب القبور، ويذبَحُون لهم، ويستشفعون بهم، قَرءُوا القُرآن تدبرًا لا تبَركًا -كما يقولون-؛ لانحَسَمَ الشِّرك من نُفُوسِهم، ولكنَّهُم قومٌ يغفلون، وواجِبُنا نحنُ أن نُذَكِّرهم، والهِدَاية بِيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞۞۞

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: نَفَىٰ اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشرِكُونَ؛ فَنَفَىٰ أَن يَكُونَ لِغَيرِهِ مُلكٌ أَو قِسطٌ مِنهُ، أَو يَكُونَ عَونًا للهِ، وَلَم يَبقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنفَعُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا المُشرِكُونَ هِيَ مُنتَفِيَةٌ يَومَ القِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا القُرآنُ.

الشرح

بَيَّنَ شَيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نفىٰ في هَاتَين الآيتين المُتقدِّمتين كُلَّ ما يتعلق به المُشرِكُون بشُركَائهم الذينَ يَدعُونَهم من دُونِ الله؛ فنفىٰ أن يكون لغيره مُلك -بضم حرف الميم- أو مِلك -بكسر حرف الميم- علىٰ وجه الاستقلال، ولو يسيرًا، أو قسط منه بالمُشَاركة، أو أن يكون أحدٌ منهم عَونًا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولم يبق إلا الشفاعة، وهذا هو الأمرُ الرابع، فبَيَّن أنها لا تنفع إلا لِمَن أذن له الربُّ؛ إذَن لم تَنفَع المُشرِكينَ، فالشركُ لا ينفع صاحِبَه، ولا يُحَقِّقُ له مقصوده؛ بل يَعُود عليه بالخُلُود في النار، والعيَاذُ بالله.

قالَ: (كَمَا قَالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾): فهذه الشفاعة التي يظنها المُشرِكُون؛ أي: أن المعبودات تشفع لعَابدِيها يوم القيامة؛ هي مُنتفِيَة يوم القيَامَة كما نَفَاها القُرآن.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٧٧-٧٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَخبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ يأتي فَيَسجُدُ لربه وَيَحمَدُهُ، لَا يَبدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ يُقَالَ لَهُ: ارفع رَأسَكَ، وقُل يُسمع، وَسَل تُعطَ، وَاشفَع تُشَفَّع.

الشرح

وهذا الحديث في الصحيحين -كما سبق-؛ حيث أخبَرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يَشفَع استقلالًا؛ بل يتذَلَّلُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ويخضَعُ لله عَزَّ وَجَلَّ؛ حتىٰ يأذن له بالشَّفاعة، فأخبر أنه يأتي فيَسجُد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولًا؛ لأنه لابُدَّ من إذنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يقال له: «**ارفَع رَأسَك، وقُل يُسمَع، وَسَل تُعطَ، واشفَع تُشَفَّع**»[١].

وهذا في الشفاعَتَين الخاصَّتَين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: في شفَاعته لأهل المَوقِف لفَصل القَضَاء، وشفاعته لأهل الجنة بالدخُول.

وهذا الأمرُ يَقعُ في الشَّفاعتين، وهو -كما قُلنا- من المَقَام المَحمُود.

❀❀❀

(١) تقدم تخريجه (ص٥٣٠).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيرَةُ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَن قَالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ خَالِصًا مِن قَلبِهِ»[١].

الشرح

فأَبُو هُرِيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأَل النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟**): من الذي سيسعد بشَفَاعتِك؟

قال: (**مَن قَالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ خَالِصًا مِن قَلبِهِ**): وفي رواية: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ إِن شَاءَ اللهُ مَن مَاتَ مِن أُمَّتِي لَا يُشرِكُ بِاللهِ شَيئًا**»[٢].

فلا ينفع قولُ: «لا إله إلا الله» باللسَان من غير القَلب، كما يَفعل المُنَافقون، ولا ينفعُ قولُهَا من غير تَوحِيد، كما يفعل بعضُ المُشرِكين الذين يَنتسِبُون الىٰ الإسلام، يقُولُ أحدُهم: «لا إله إلا الله»، ويذبح للقبر، حتىٰ بعدما يعلَمُ أن الذَّبح عبادة، وأن هذا شِرك؛ يظل يذبَحُ للقبر!؛ فهَذا لا يَدخُل في الشَّفَاعة.

وإنما الذي يَدخُل في الشفاعة: من قال «لا إله إلا الله» خالصًا من قَلبه، ومن قالها خالصًا من قلبه فإنه لابُدَّ أن يَكُون مُؤمِنًا.

فمن ينالُ الشفاعة لابُدَّ أن يكونَ مُوحدًا غيرَ مُشرِك ولا كافر، فالشَّفاعة لا تنال أحدًا من الكفَّار ولا المُشركين.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَتِلكَ الشَّفَاعَةُ لأَهلِ الإِخلَاصِ بِإِذنِ الله، ولَا تَكُونُ لِمَن أَشرَكَ بِاللهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَىٰ أَهلِ الإِخلَاصِ، فَيَغفِرُ لَهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَن أَذِنَ لَهُ أَن يَشفَعَ، لِيُكرِمَهُ وَيَنَالَ المَقَامَ المَحمُودَ.

الشرح

(فَتِلكَ الشَّفَاعَةُ لأَهلِ الإِخلَاصِ بِإِذنِ الله): يعني: لأهل التَّوحِيد.

(ولَا تَكُونُ لِمَن أَشرَكَ بِاللهِ. وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَىٰ أَهلِ الإِخلَاصِ، فَيَغفِرُ لَهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَن أَذِنَ لَهُ أَن يَشفَعَ، لِيُكرِمَهُ وَيَنَالَ المَقَامَ المَحمُودَ): فحقيقةُ الشفاعة أنها تَفضُّلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليسَت حقًّا للشافع ولا للمَشفُوع له، ثُم إنه إذا شفَعَ الشفعاء، فإن الذي يُخرِجُ الناس من النار هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفَضله، حيث يأمُرُ من شاء أن يُخرِجَ مَن شَاء، فيأمُر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُخرجَ من النار أقوامًا، ويَأمُر المؤمنين الذين يشفَعُون في إخوانهم أن يَدخُلوا النار، ويُحَرِّم اجسادهم علىٰ النار؛ ليُخرِجُوا مَن يَعرفُون منهم، فخرُوجهم بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليسَ بفِعل الشُّفعاء.

إذن؛ الشفاعَةُ في أولها فَضلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي ثَمرتها فَضلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يُعلَّقُ القَلبُ فيها إلا بِالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِركٌ، وَلِهَذَا أَثبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذنِهِ فِي مَوَاضِعَ. وَقَد بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لأَهلِ التَّوحِيدِ وَالإِخلَاصِ.

انتَهَىٰ كَلَامُهُ -رحمه الله تَعَالَىٰ-.

الشرح

وهذا وَاضِح وبَيِّن في المُراد بالشفَاعَة المُثبَتة، والشفاعة المَنفيَّة.

وهذا في الحقيقة يُجَلِّي أمرَ الشفاعة تجلية تامَّة، ولا تبقىٰ إلا شُبهَات ساقطة، حقيقتها أن بعضَ الناسِ -ولو انتسب إلىٰ العِلم- يَقيسُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ المَخلُوقات، وهذا قياسٌ فَاسدٌ سَاقِط.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ الآيَاتِ.

الثَّانِيَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المَنفِيَّةِ.

وصِفَةُ الشَّفاعة المَنفيَّة قد بيَّنَتها الأدلة، وذكرنا صورها الأربَع بالتَّفصيل.

الثَّالِثَةُ: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المُثبَتَةِ.

وهذا أيضًا تقدَّم بيانُها بالتَّفصيل من خلال الأدلَّةِ التي ذكَرَها المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الرَّابِعَةُ: ذِكرُ الشَّفَاعَةِ الكُبرَىٰ، وَهِيَ المَقَامُ المَحمُودُ.

والشَّفاعة الكُبرىٰ هي الخاصَّة بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي المقام المَحمود الذي يبعثه الله تعالىٰ إيَّاه يوم القَيامة.

الخَامِسَةُ: صِفَةُ مَا يَفعَلُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ لا يَبدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا، بَل يَسجُدُ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ لَهُ شَفَعَ.

والمَقصُود: أن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطَاه الشفاعة وأعلَمَهُ بذلك، وأعلَمَنَا الرسُولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وبيَّن لنا كيف تكونُ يوم القيامَةِ، إلا أنه مع ذلك لا يَملِكُ هذه الشفَاعة إلا بعد أن يأذن الله جَلَّ وَعَلَا له يَوم القيامة.

السَّادِسَةُ: بَيَانُ مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

وكما تقدَّم: أسعَدُ الناس بشفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم أهل التوحيد الذين قالوا «لا إله إلا الله» خَالصًا ذلكَ مِن قلوبهم.

ولابُدَّ كذلك معها من قَولِ: «مُحمد رَسُول الله» مع شهادة «لا إله إلا الله»؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله مُقتَضية لشهادة أن محمدًا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن أتىٰ بالشهادَتَين خالصًا من قلبه، ولم يأتِ بما يَنقُضهما ومَات علىٰ التوحيد؛ فهو مُستَحِق لشفاعَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهَا لا تَكُونُ لِمَن أَشرَكَ بِاللهِ.

فشفاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنال إلا مَن ماتَ أمة محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُشرك بالله شيئًا.

الثَّامِنَةُ: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

وذلك ببيان أن الشفاعة مَحضُ فَضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست حقًّا لأحدٍ.

فهي تفضُّل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علىٰ الشَّافع، فإن الشَّافعَ لا يستحِقُّ الشفاعَةَ إلا بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أجلِ أن يُظهِرَ الله إكرَامَهُ؛ ولذلك أعظَمُ مَن ينَالُ الشَّفاعَةِ يومَ القيَامَة هُو النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله شفاعَاتٌ خاصَّة؛ لأنه أكرم خلق الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتفضَّلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها كذلكَ علىٰ المَشفُوع له لينَفعَهُ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

الشرح

وأما عَلاقَةُ هذا الباب بكتَاب التَّوحيد، وسببُ إيرادِ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بعدَ بابِ الشفاعة؛ **فإن ذلكَ لأربعةِ أوجُه:**

الوَجهُ الأوَّل: أنه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا ذكَر الشفاعة، وبيَّن أنها لا تنفع المشركين؛ أعقَبَ ذلك الباب بهذا الباب؛ ليَدُلَّ علىٰ أن الاستغفار لا يكون للمشركين ولا ينفع المشركين وإنما ينفعُ المؤمنين.

فوجهُ العَلاقة بين الشفاعة وهذا الباب: أنه تبيَّن لنا في الباب السابق أن الشفاعة لا تكون للمشركين، ولا تنفع المُشركين، وإنما تنفَعُ المُؤمنين.

الوجه الثاني: أنه لمَّا تبيَّن في الباب السابق أنه لا يستطيع أحدٌ أن يُنقِذَ أحدًا من النار يوم القيامة إلا بإذن الله؛ تَبَيَّن لنا هذا في باب الشفاعة، وتبيَّن أن الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: الأمر في الآخرة، والأمر في الدنيا، وتبَيَّن لنا في بابِ الشَّفاعة أنه لا يملكُ أحدٌ -مهما علا شرَفُه- أن ينقذ أحدًا من النار إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عقدَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليُبين لنا أيضًا أنه في الدنيا لا يَملكُ أحدٌ أن يُنقذَ أحدًا من سَببِ دخُول النار، وهو الشِّرك والضلال والمَعاصي، إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيتبين للمؤمنِ أن الأمرَ كُلَّه لله؛ فتنقطع العلائق بكل مَخلُوق، ويُعَلِّق المؤمنُ قلبه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي له الأمر كله.

الوجه الثالث: أن هدايةَ التوفيق لا تكونُ إلا منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالتوحيد اعتقادُ ذلك، وطلبها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

فمن اعتقد أن أحدًا غير الله يملك هداية التوفيق؛ فقد أشركَ بالله الشركَ الأكبر. ومَن طَلَبَ هدايةَ التَّوفيق من غير الله عَزَّوَجَلَّ؛ **فقد أشركَ شركًا أكبَر**.

وقد أنكرَ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ المشركين أنهم يعبدون معبوداتهم وهي لا تهدي إلىٰ الحق: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾ [يونس:٣٥].

فبَيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن الذي يهدي إلىٰ الحق هداية التوفيق والإذعان إنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الذي يَستَحق أن يُعبَدَ هو الذي يهدي هداية التوفيق، وأن كل مَخلُوق لا يستطيع أن يهدي أحدًا إلا أن يُهدَىٰ فيهدي غيره هداية البيان؛ كما سيأتي في بيان أنواع الهداية.

فالتوحيد -يا مُسلِمُ-: أن تعتقد أن هداية التوفيق إنما هي لله عَزَّوَجَلَّ لا شريك له، وأن تطلبها من الله. ومن اعتقد أن أحدًا من خَلقِ الله يملك هدايةَ التوفيق فقد أشرَكَ شركًا أكبر مُخرجًا من المِلَّة.

ومَن طلبَ هدايَةَ التَّوفيق والإذعان من غير الله عَزَّوَجَلَّ؛ **فقد أشركَ شِركًا أكبَر مخرجًا من المِلَّة**.

الوَجهُ الرابع: أن هذا الباب تضَمَّن أن النَّبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع عُلو مكانَته، ومع كونه سَيدَ وَلدِ آدمَ، ومع كونِه سيدَ الأنبياء والمُرسلين، ومع كونِهِ أفضلَ خلق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، إلا أنه لا يستحِقُّ أن يُصرَفَ له شيء من العبادة؛ لأنه لا يملك هدايةَ التوفيق لِمَن أحبَّهم، ولو كانوا من أقربائه، فالنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يملك النفع ولا الضر لأحدٍ إلا بإذن الله.

وإذا كان هذا في حَقِّ النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فمن بابِ أولىٰ في حَقِّ مَن كانَ دُونَهُ من مَخلُوقَات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فلا يوجدُ مَخلوقٌ في الدنيا، ولا وُجِدَ ولن يُوجَد، يستحق أن نَدعُوَه من دون الله، أو أن ننذر له أو نستعيذ به أو نستغيث به استغاثة العبادة، كما تقدَّم معنا، أو نصرف له شيئًا من أنواع العبادة مهما كان صغيرًا.

فهذه الأوجه الأربعة لمُناسَبة هذا الباب لكتاب التوحيد، ولمُناسبة أن يكون بعد باب الشفاعة.

وبهذا نعرفُ فقهَ عُلمائنا رَحِمَهُمُٱللَّهُ كيف أنَّهم يفهمون التوحيد فهمًا دَقيقًا؛ فإن الناظرَ من أمثالنا لو قَرَأ هذه الآية ابتداءً قد لا يظهر له هذه المُنَاسبات العظيمة للتوحيد.

وهذا يدلُّك -يا طالبَ العِلم- أنك بحاجة إلىٰ العلماء، ولا يُوجَدُ طالبُ علم يستغني عن العلماء ويقولُ: أنا الحمد لله أنا تجاوزت القنطرة، الآن آخذ من المَعِين؛ من الكتاب والسنة!

لا؛ بل أنت بحاجة إلىٰ أهل العلم لتفهم ما في الكتاب والسنة. والمعلوم أنه لا يأخذ من الكتاب والسُّنة إلا المجتهد فيما لم يَمضِ القول فيه من الأحكام.

أما ما بُحِثَ وانتهىٰ وفَرغَ منه العلماء فلا يجوز إحداثُ قَولٍ جَديدٍ فيه.

لكن النازلةَ الجديدة إنما يستنبطها المجتهدون، ولذلك من خطأ بعض طلاب العلم الذين لم يَصِلُوا إلىٰ درجة الاجتهاد، ولو الجزئي؛ **لأن الاجتهَادَ نَوعَان:**

١- مُطلَق في الشَّريعة كلها.

٢- وجُزئي ولو في مَسألة.

وبعضُ طلاب العلم لم يَصِل إلىٰ درجة الاجتهاد ولو الجزئي، ومع ذلك إذا نزلت نازلة في بلَدِه لو وقعت في زمن الصحابة لاجتمع لها كبار الصحابَة؛ فيُبادر بالفتوىٰ فيها!

و لذلك مما يُحزِنُ القلب جدًّا: أننا نجد بعض طلاب العلم الذين لم يَصِلُوا إلىٰ درجة الاجتهاد يقينًا يُفتُون المسلمين في بلدانهم في الدماء! وفي أمور عظيمة، تحتاج إلىٰ أن يجتمع لها المُجتهِدُون، وهذا لا يجوز؛ فمَهمَا تكالبَ الناس عليك، ومَهمَا أصبح الناس يتصلون بك ويسألونَك لمَا عِندَك من علم، لا يجوز لك أن تعلُوَ قَدركَ، لا يجوز لك أن ترتفع فوق قَدرِك، المَسَائل الكبيرة العظيمة التي تُؤثِّر في الأمة تأثيرًا عَظيمًا إنما يُرجَعُ فيها إلىٰ العلماء الكبار.

والواجب أن يُرجِعَ طالبُ العلم فيها الناس إلىٰ العُلمَاء الكبار، وألَّا يتكبَّر

وأن يقول: لماذا لا أُشَارك وأدلي بدَلوِي، هذا دين الله، وهذا مبني علىٰ الهدىٰ، وعلىٰ ما دَلَّ عليه الكتاب والسنة، والمرجع في هذا في بيان هذه النوازل إلىٰ العلماء الكبار، إلىٰ أهل الاجتهاد الذين تأهلوا في هذه المَسَائل.

وأنا أحسب أن كثيرًا من الشَّر العام الذي يقَعُ بين المسلمين اليوم سبَبُه تقدم الصغار علىٰ الكبَار.

ولذلك نجِدُ شبابًا صغارًا في سِنِّهم، صغارًا في عقُولِهم يُقدِّمون ويُؤخرون في الشئون العامة للأمَّة، ويكتُبون التغريدات والبيانات، يُسَوِّدون صُحُف الفيس بوك وغيرها ببيانات يتزَعَّمُون فيها، وهم لا يزالون صغارًا في سِنِّهم، صغارًا في عقولهم، صغارًا في عِلمِهم، هذا سببُ الشَّر وسبب الداء وسببُ البلاء.

فإذا لم نُرَبِّ طُلَّابنا -وإذا لم نُرَبِّ أنفُسَنا قبل طلابنا- علىٰ الرجوع للعلماء الكبار، وأن نعرفَ قَدرَنا، وأن يعرفَ كل واحد قَدرَه ومقَامَه الذي يتكلم فيه، وأن نعرفَ لمَن سبقنا فضله وجهاده وقدره وعلمه؛ فإنه سيقَعُ بسَبب ذلك ما تُحمَد عُقبَاه.

فينبغي أن نَعلَم -نحن أنفسنا قبل غيرنا- الأدب الشرعي مع العلماء الكبار، وأن نعلم طلابنا هذا الأمر، فأنت بحاجة إلىٰ العلماء ولو أعطيتَ كُرسيًّا في المسجد النبوي تدرس فيه، أنت بحاجة إلىٰ العلماء ولو أصبحتَ أستاذًا في الجامعة، ولا يزالُ الواحدُ منا بحاجة إلىٰ علماء الحق، إلىٰ العلماء الربانيين، إلىٰ علماء السنة ما دام حَيًّا. نسأل الله أن يُكرمَنا وإياكم بالأدب والعلم.

وبعدَ ذِكر الأربعة أوجه في مناسبة الآية للباب يأتي سؤال:

ما هي أنواع الهداية؟

الجَواب: هدايةُ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لخَلقِه كما قَرَّره العُلمَاء ثلاثَةُ أقسام:

القسم الأول: هدَايةُ المخلوقات العامة إلىٰ ما ينفعها في معَايشها.

فالله عَزَّوَجَلَّ خَلقَ الخلقَ، وهَدىٰ كل مخلوق إلىٰ ما يُصلحُه في مَعيشته، في طعامه وشرابه، كيف يأكُل ويَشرَب؛ بل وكيفيَّة التناسُل وغير ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قالَ بعضُ أهل العلم: معنىٰ هذا: رَبنَا سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو الذي سَوَّىٰ خَلقَ مَخلُوقاته: فخَلَق من المَخلُوقات ما يمشي علىٰ رجلين، ومنها من يمشي علىٰ أربع، ومنها من يطير، ومنها من يَزحفُ، والله عَزَّوَجَلَّ يخلق ما يشاء ويختار سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فأعطىٰ كل شيء خلقه ثُم هداه لما يُصلِحُه في معيشته: فهَدىٰ الإنسانَ إلىٰ ما يليق به في المعيشة، وهدىٰ النحل إلىٰ ما يليق بها في المعيشة، وهدىٰ الدَّوابَّ كلها إلىٰ ما يُصلِحُها في المعيشة، فهذه هداية عامة للمخلوقات في الدنيا.

وقال بعضُ أهلِ العلم: أن معنىٰ هذه الآية: أن الله عَزَّوَجَلَّ أعطىٰ كل ذَكَر من الخلق نظيره في الخلقة أنثىٰ، ثُم هداهُما إلىٰ طريق التناسل ليَبقَىٰ النوع.

وهذا في الحقيقة لا ينافي الأول؛ بل هذا خاص والأول عام.

وهذا -كما يقول العلماء-: هو اختلافُ تنوع وليس اختلاف تضَاد، فالثاني نرجعه إلىٰ الأول لأن الأول عَام.

القسم الثاني: الهداية إلىٰ الدِّين في الدنيا، وهي علىٰ نوعَين:

١- هداية التوفيق والإذعان: أن يهدي الله عَزَّوَجَلَّ قلب الرجُل أو الأنثىٰ للحق، وأن يُذعِن له.

وهذه الهداية لا يملِكُها أحدٌ من المَخلُوقات مهما كان شريف المكان؛ ولذا لم يَهدِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أباه آزرَ، ولم يَهدِ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه، ولم يَهدِ مُحمدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمَّه أبا طالب ولا عمَّه أبَا لهب، فهذه الهدايةُ لا يملكها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولذا لا تعجب من أن تَجدَ رَجُلًا يعيش في بلد التَّوحيد يسمع أدلة التوحيد ليلًا ونهارًا ويَبقَىٰ علىٰ شِركِه والعياذ بالله، بل قد يَجلسُ في الحلقة في مسجد النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمع أدلة التوحيد الدامغة، ويَبقىٰ قلبُه مُعلقًا بغير الله، يدعو غير الله، وينذر لغير الله، ويستحقر التوحيد وأهله!

بينما قد تجد رجلًا في أمريكا أو في أوربا يُسلِمُ ولا يبقىٰ أيامًا حتىٰ يهتدي للتوحيد الخالص، ويكرَه الشرك؛ لأن هداية التوفيق والإذعان إنمَا هي من الله عَزَّوَجَلَّ . فالله يهدي من يشاء، كما سيأتينا في تفسير الآية.

٢- هداية الإرشاد والبَيَان: وهذه تكون من المَخلُوقين بإذن الله تعَالىٰ.

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يَهدِي في الحقيقة، ويَأذن لمن يشاء بأن يَهدي هداية البيان. وهذه الهداية فَضلٌ من الله أيضًا، لولا الله لما اهتدَىٰ من دعا للهداية.

وهي تقع من الأنبياء ومن العلماء؛ فإنهم يَهدُون هداية البيان.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢].

وهذه غير الهداية المَنفيَّة، هذه الهداية المُثبَتة هي هداية البيَان والإرشَاد.

القسم الثالث: هدايةُ الذينَ آمنوا إلىٰ الجنَّة، وإلىٰ منازلهم فيها.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة يهدي المؤمنين إلىٰ الجنة، وإذا دخَلُوا الجنة كُلٌّ يُهدَىٰ إلىٰ منزله، كأنه منزله الذي كان يعيش فيه في الدنيا يَذهَبُ إليه ولا يُخطِئه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس:٩]. فالله عَزَّوَجَلَّ يهديهم إلىٰ الجنة، ويهديهم الىٰ منازلهم فيها.

قَولُه: (بَابُ قولِ اللهِ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾): في هذه الآية العظيمة يقول الله عَزَّوَجَلَّ لخير خلقه محمدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنك يا محمد لا تَهدي من أحببت هدايةَ التوفيق والإذعان.

﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: للعُلماء قولان فيهَا:

قال بعضُ أهل العلم: من أحببت هدايته.

وقال بعضُ أهل العلم: من أحببته.

والسؤال: كيفَ يُحِبه وهو كافر؟

نَقُول: مَن أحببتَهُ حبًّا طبَعيًّا لا شرعيًّا؛ أي: الحُب الفطري، الموجود في طبيعة الإنسان، فالإنسان من طبيعته أنه يُحِب ابنَه ولو آذاه، ولو عَقَّه، فإنه يُحبُّه.

وضَابطُ الحُب الطَّبعي: أن الانسان لا يَكتَسِبه، ولا يَطلُبه، ولا يفعل مقدماته، ولكنه يُوجَد في القلب، وهذا لا يُؤاخَذ به الإنسان. فلو أحبَّ الإنسانُ والدَه المُشرك حُب الابن لأبيه مع بُغضِه له من أجل شِركِه؛ لا يُؤاخَذ بهذا. فالحب الطبعي لا يُؤاخَذ الإنسان به.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾: أي: أحبَبتَه حُبًا طبعيًا لا شرعيًا.

والمقصود هُنا هو: أبو طالب -كمَا سيأتينا إن شاء الله-؛ فإن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريصًا علىٰ هدايَتِهِ.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾: فبَيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن الهِداية له ومنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يَهدِي مَن يشَاء.

فالهَدايَةُ -هداية التوفيق- تفَضُّل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا هداكَ الله للإسلام لا تغتَرَّ بنَفسِك، فهَذا فضل من الله ونِعمَة. هداك الله إلىٰ التوحيد، لا تغتر بنفسك؛ هذا فضل من الله ونعمة. هداك الله إلىٰ حُب السلف الحب الصَّادق، وإلىٰ لزوم منهج السلف وطريق السلف؛ لا تغتر بنفسك؛ هذا فضل من الله ونعمة: ما نِلتَهُ لشَرفِك، ولا نِلتَه لاجتهَادِك، وإنما هو فضلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾: فمع كونِ الهداية فَضلًا من الله، فإنها تكون بعِلمِ الله وحِكمَته، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَهدِي مَن علم أنه مُستَحق للهداية وأهلٌ لها، ويَهدي مَن شاء بحكمَة.

فمن اهتدىٰ فبَفضل الله اهتدىٰ؛ هداه الله بعِلمه وحكمته. ومن ضلَّ فإنما

يضِلُّ علىٰ نفسه، فإنما أضَلَّه الله بعدله وعلمه وحكمته.

فالشر ليس إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا وقَعَ للمؤمنين، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي حبَّبَ الإيمانَ إلىٰ المؤمنين، وزَيَّنَهُ في قُلوبهم.

ولذلك سَمعَ خَلقٌ كثيرٌ النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلىٰ الله: آمن بَعضُهم، وكفر بعضهم، وهم عرب يفهمون كَلامَ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهمًا دقيقًا: كأبي طالب، وأبي لهب.

وآمن مَن شاء الله أن يؤمن؛ لأن الله حبَّبَ إليهم الإيمان، وزَيَّنَهُ في قلوبهم، وكَرَّه إليهم الكُفرَ والفسوق والعصيان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]. كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات:٨].

هذه الهداية: حُبُّكم للإيمان، حبكم للتوحيد، حبكم للسُّنة، حبكم لمنهج السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إنما هو فضلٌ من الله ونِعمَة عليكم.

ولذلك الذي يُهدَىٰ لهذا حَقًّا: لا يَغتر بنفسه، ولا يتكبر علىٰ خلق الله؛ بل تجده دائمًا خائفًا وَجِلًا؛ لأنه يعلم أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فهو خائف!

وكيف لا يخاف وهو يرىٰ الناس يُتخَطَّفون؟؛ فكَم من شخص كان معنَا!، وكم من شخص كان داعية مشهورًا للتوحيد؛ أصبح من غُلاة الصوفية، ومن دعاة التصوف الغالي، ولو شئتُ أن أذكر اسمَه لذَكرتُه.

فالإنسان يخَاف، ويسأل الله الثبات، ولا يتكبر علىٰ خلق الله أبدًا، ولا يتألَّىٰ

علىٰ الله ويرفع هذا ويَخفض هذا. ولكن يَذكُر الظاهر غير مُتألٍّ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: الذي وقع للمؤمنين أن الله حبَّبَ إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكَرَّه إليهم الكفر والفسُوق العصيان، هذا فضل منه ونعمة ورحمة، وهذا بعلمه وحكمته؛ فهذه هي أصولُ الهداية عند أهل السُّنة والجماعة جُمِعَت في هذه الآية.

وهذِه الآيةُ كَنزٌ في التَّوحِيد... لمَاذا؟

لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لنَبيه صَلَّىٰلَلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إذن؛ النبي صَلَّىٰلَلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يملكُ لأحد ضرًّا ولا نفعًا إلا بإذن الله؛ لأن أعظَمَ نفع في الدنيا من مَخلُوق لمخلوق هو الهداية، ولا يملكه المخلوق، وإنما الهداية من الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن؛ النبي صَلَّىٰلَلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يَملكُ أعظم نفع وهو هداية التوفيق، فمن باب أولىٰ لا يَملكُ مَن دونَ ذلك.

وإذا كان هذا للنبيِّ صَلَّىٰلَلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سيد ولدِ آدم أجمَعين، أفضَل خلق الله، وقرة عيون المؤمنين، لا يعتقد مؤمن أن هناك عابدًا لله أعظم من رسول الله صَلَّىٰلَلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا كان هذا له فما بالكَ بغَيره من الناس؟ لا يَملكُون نفعًا ولا ضرًّا إلا بإذن الله، ولذلك لا يُطلبُ النفع إلا من الله، ولا يُطلب دفع الضر إلا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثم قال الله تعالىٰ: (﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾): إذن؛ النبي صَلَّىٰلَلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يعلم

بالمهتدين، ولا يعلمُ الغيب؛ لأنه لا يعلم بالمهتدين، لا يعلم من الذي سيهتدي ومن الذي لن يهتدي؛ ولذلك إلىٰ أن مات عمُّه أبو طالب وهو يَدعُوه، وما دَرَىٰ أنه سيموت علىٰ الكُفر والشِّرك، ثم قال له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ»**[1]. فحتَّىٰ الأمور الشرعية لا يَعلمُها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه ما نُهِيَ عن الاستغفار للمشركين إذاك، وما درىٰ أنه سيُنهىٰ، لكن قال **«لأَستَغفِرَنَّ لكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ»** حتىٰ نُهِيَ عن ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن؛ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عالي المقام، وشريف المنزلة لم يَكُن يَعلَمُ شيئًا من الغيب إلا أن يُطلِعَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فيَدُلنا ذلك دلالة بينة علىٰ أنه لا يُوجَد مخلوقٌ ولن يوجد يَستَحق أن يُصرَف له شيء من العبادة، وإنما العبادَة كُلها صغيرها وكبيرها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) انظر التخريج الآتي، فهذه الجُملة قطعة منه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ المُسَيِّبِ، عَن أَبيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَت أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِندَهُ عبدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ، قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِندَ اللهِ»، فَقَالَا لَهُ: أَترغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ وَأَبَىٰ أَن يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ». فَأَنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآيَةَ [التَّوبَة:١١٣].

وَأَنزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

الشرح

(فِي الصَّحِيحِ): أي: عند البخاري ومسلم، فهذا الحديث في الصَّحِيحَين[1].

(عَنِ ابنِ المُسَيِّبِ): بكَسر اليَاء وتَشدِيدها، أو: المُسَيَّب بفتح اليَاء وتَشديدها، والفتح أشهر عند المحدثين.

ويُذكَرُ عن ابن المُسيِّب أنه قال: «من سَيَّبَنِي» -أي قال: المُسَيَّب بالفتح- «سيَّبه الله»[2]؛ أي: أنه كان يكرَهُ هذا، وإنما يُقَال: المُسيِّب -بالكَسر- علىٰ أنه

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

(٢) انظر: «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» للحافظ ابن حجر (٤/ ١٢٨٧).

هو الفَاعِل.

لكن المَشهُور عند المُحَدِّثينَ أنَّها تُضبَط بالفَتح (المُسَيَّب).

(عَن أَبيهِ): وقد كان صحابيًّا.

(قَالَ: لَمَّا حَضَرَت أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ): أبو طالب هو الذي رَبَّىٰ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد جَده، وأعتنىٰ به، وكان يُحِبه أكثر من ولده، فلما بُعِثَ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذَّبه قومُه نَاصَره أبو طالب مُناصرة شديدة، ووقف في صَفِّه، وقال[1]:

وَاللَّـهِ لَـن يَـصِلُوا إِلَـيكَ بِجَمعِهِـم ... حَتَّـىٰ أُوَسَّـدَ فِـي التُّـرَابِ دَفِيـنَا

يقول: واللهِ لو اجتمعوا علىٰ أن يُقَاتلوك فلن يَصِلوا إليك بجَمعهم؛ بل سأقاتل دُونك ولن يَصِلوا إليك ما دُمتُ حيًّا، وأوذي بسَبب نُصرته للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخل الشِّعب معه لما قاطعته قريش.

وأبو طالب له أيادٍ بيضاء علىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا كانَ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا علىٰ أن يَدعُوَه إلىٰ التوحيد.

فلمَّا حضرت أبا طالب الوفاةُ، وظهرت علاماتها عليه؛ من ضَعفِه ونحو ذلك، لا أنه قد عايَنَ وغرغَر؛ لأن مَن عاين وغرغر لا ينفَعُه إيمانه.

فرعون لما رأىٰ الغرق، وكاد أن يغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقيل: الآن!

---

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص١٥٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، و«سبل الهدىٰ والرشاد» للصالحي (٢/ ٣٢٧/ دار الكتب العلمية).

فإذا حصَلَت الغرغرة والمُعَاينة انقطع التكليف فلا توبةَ حينئذٍ.

ولذلكَ قال العُلمَاء: معنىٰ: «**لَمَّا حَضَرت أبَا طَالِبِ الوفَاةُ**»؛ يعني: ظهرَت العلامات وكانَ مَرِيضًا، فجاءه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأخذ العلماءُ من هذا أنه يجُوزُ للمسلم أن يعود الكافرَ غير الحربي، ولاسيَّما إذا رَجَا أن يُسلِم أن يدعوه إلىٰ الإسلام، أو أن يَرَىٰ أخلاق المسلمين فيُسلِم؛ لاسيَّمَا والإنسانُ عند المَرضِ يَضعُف ويَلين.

(**جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِندَهُ عبدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهلٍ**): وقد كانَ عبد الله بن أبي أميَّة إذ ذاكَ كافرًا، ولكنَّه أسلَمَ عام الفتح، فكان في السنة الثامنة من البعثة تقريبًا كافرًا، وأبو جهل قد ماتَ مُشركًا.

لذلك قال العلماءُ: شهد هذه القصة ثلاثة: اثنانِ أسلَمَا، وواحدٌ مَات علىٰ الشِّرك.

وقد عَرَفنا أن الذي مات علىٰ الشِّرك هو أبو جهل، وأن أحد المُسلِمَيْن هو عبدالله بن أبي أمية، فمن الثالث؟

قالوا: هو المُسيِّب؛ لأن الظاهر من حكايَتِهِ للقصة أنه حضَرَها.

(**فَقَالَ لَهُ**): أي: قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه.

(**يَا عَمِّ**): ويصح أن يقول: يا عَمَّاه.

(**قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**): هنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**قُل: لَا إِلَه إِلَّا الله**» عندما حضرته الوفاة، بينما نجد علماءنا وفقهاءنا يقولون: من أدب التلقين ألا تقول

للميت عند الاحتضار: «قل»؛ لأنه شَديد التضَجُّر، فإذا قُلت له: قل؛ قد يتضجر ويسكت، ويقول لك: اسكت لن أقول!

فيقال: من أدب التلقين عند الاحتضار أن تُذَكِّره «لا إله إلا الله» بِلِين من غير أن تُضجِره، ومن ذلك ألا تقول له: قل، فتقول: «لا إله إلا الله» أنت بنفسك أو نحو ذلك.

وهنا قال النبي ﷺ: «**قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»؛ قالوا: لأنه كان مشركًا، والمقصود بالتلقين: تلقين المُوَحِّد المسلم أصلًا، ولكن هذا خطاب للمُشرِك، وهذه دعوة إلىٰ التوحيد وليسَت تَلقينًا.

(**كَلِمَةً**): بالتنوين بالفتحَتين، أو (كلمةٌ): بالتنوين بالضمتَيْن.

كلمةً -بالتنوين بالفتحتين- بدل من «لا إله إلا الله».

وكلمةٌ -بالتنوين بالضمتين- علىٰ أنها مبتدأ وما بعدَهَا خَبَر.

(**أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِندَ اللهِ، فَقَالَا لَهُ: أَتَرغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟**): لمَّا خافَا أن يُسلم ويُؤثر هذا في الناس؛ ذَكَّراه بأمرٍ أَلَا وهو الاعتزاز بما كان عليه الأسلافُ: أترغب عن مِلَّة عبد المُطَّلب؟

وهذا حُجَّةٌ عند أهل الضلال دائمًا للوقوف في وجه الحق؛ فإذا جاء الداعية إلىٰ التوحيد إلىٰ البَلَد، وقال للناس التوحيد بالكتاب والسنة والحُجَّة والبرهان؛ قام دعاةُ الباطل والضلال وقالوا: أترغبون عمَّا كان عليه آباؤكم وأجدادُكُم، يعني: هل آباؤكم وأجدادُكُم في النار؟

يريدون: أنتم إذا قُلتُم إن هذا توحيدٌ وذاك شرك، فأنتم تَقُولون: إن آباءكم وأجدادكم يكونون في النار، فكيف هذا؟!

فهَذا النذرُ للقبور عادة سَنَوية ورثناها عن آبائنا وأجدادنا! فالحُجَّة هي الحُجة!

(**أَترَغَبُ عَن مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ؟**): وفي هذا دليلٌ علىٰ أن عبد المُطَّلب كان علىٰ الشِّرك، ومات علىٰ الشرك، بخِلاف مَن زَعمَ أنه أسلم!

بل يزعمون ويقولون: إنه ما من أحدٍ من نَسَب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إلا أسلم!

وهذا باطل؛ ولهذا قال له: «**أَترَغَبُ عَن مِلَّةِ عبد المُطَّلب!**»؛ فَلو كان عبد المطلب قد أسلم؛ لكان قال له النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: عبد المطلب مات علىٰ الإسلام فَكُن مِثلَه؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن عبد المطلب كان علىٰ الشرك، ومات علىٰ الشرك.

(**فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ** صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ): أي: «**قُل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**».

(**فَأَعَادَا**): أي: قالا له: أترغب عن مِلَّة عبد المطلب؟

(**فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَن يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**): غيَّرَ الراوي كلمة (أنا) بضمير الغائب؛ لأن أبَا طالب لم يَقُل: هُوَ علىٰ ملة عبدالمطلب؛ بل قال -عياذًا بالله-: أنا علىٰ مِلَّة عبد المطلب.

فالراوي غيَّر الضمير، وقال: هو؛ استقباحًا لأن يقول: (أنا) في هذه المقولة

القبيحة، ولو كان ذلك علىٰ سبيل النقل من غيره.

ولذلك يَذكُر الفقهاء أن من أدَب العِلمِ أنك إذا نَقلتَ مَقُولة قبيحة أو مَقُولة مكروهة ألا تَنسبَهَا إلىٰ نفسك ولو كنتَ حَاكيًا عن غيرك؛ فتقول: قال: هو.

فمَاتَ أبو طالب علىٰ الشِّرك.

(**فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَم أُنهَ عَنكَ**): ليُؤكِّد هذا، وهذا يدل علىٰ ما قدَّمناه أن حبيبَنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يعلَمُ الغيب إلا ما عَلَّمه الله، حتىٰ في أمور الشرع؛ ولذلك قال: «**لأستَغفرنَّ لكَ مَا لَم أُنه عَنكَ**».

(**فَأَنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾): وهذه الآية علىٰ الصحيح تعَدَّدت أسبابُ نزولها؛ فمنها هذا المذكور هنا، وهذه الآية من سورة التوبة، وسُورَة التوبة مَدنية، والقصَّة مكية؛ إذن تأخرت الآيةُ عن سبب نزولها؛ لأن هذه الآية نزلت في المدينة، وسَببُ نزولها كان في مكَّة قبل الهجرة، وهذا لا غَرَابَة فيه.

أيضًا من أسباب نُزولها: ما جاء عن عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعتُ رَجُلًا يَستَغفِرُ لِأَبَويهِ وَهُمَا مُشرِكَانِ، فَقُلتُ لَهُ: أَتستَغفِرُ لِأَبَويكَ وَهُمَا مُشرِكَانِ؟

فَقَالَ: أَوَلَيسَ استَغفَرَ إبرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَهُوَ مُشرِكٌ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية». وهذا رواهُ الترمذي، وحَسَّنه الترمذي والألبَاني[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٢٠٣٦)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وبعضُ أهل العلم يذكُر سببًا ثالثًا، وهو: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرِ أُمِّهِ حَتَّىٰ سَخِنَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ رَجَاءَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهَا، حَتَّىٰ نَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾»[1]. لكن الرواية التي فيها الآية ضَعيفَة.

والقصَّة صَحيحَة؛ فهي في «صحيح مسلم»[2]: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَىٰ وَأَبْكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: **اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**».

فهذه الآية تَعدَّدت أسبابُ نُزُولِهَا، ودلالتها ظاهرة في أن الاستغفار لا ينفع المشركين، ولا ينبغي أن يكون للمشركين؛ فإن المُشركينَ في الدنيا ليسُوا أهلًا للمَغفِرَة، فمَن مات علىٰ الشِّرك ليس أهلًا أن يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ له، كما أنه ليس أهلا للشفاعة يوم القيامة.

(**وأنزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾): فدَلَّ ذلك دلالة ظاهرة علىٰ ما قرَّرناه من عِظَم التوحيد وفَضله، وقَطع العلائق بالخَلائق، وأن الواجبَ علىٰ المُؤمنِ أن يعلِّقَ قَلبه بالله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يَسأل الهدايَةَ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٢).

(٢) برقم (٩٧٦).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ قَولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ الآية.

و قد سبق بيان معنَاها ودلالاتها العظيمة علىٰ التوحيد.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ قَولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآيَةَ.

كما تقدم أيضًا.

الثَّالِثَةُ -وَهِيَ المَسأَلَةُ الكُبرَىٰ-: تَفسِيرُ قَولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «قُل: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بِخِلافِ مَا عَلَيهِ مَن يَدَّعِي العِلمَ.

وتفسير قولِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**قُل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»؛ أي: أنه لا معبود بحق إلا الله، بخِلافِ ما يفسرها به بعض من يَدَّعون العلم بأن معناها: لا خالق ولا رازق ولا موجد إلا الله، أو نحو ذلك، فإن المشركين عَلِمُوا معناها؛ ولذلك أنكروا علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يَدعوَ إليها، وفهموا من قوله: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفلِحُوا**»[1]. أنه يجعل الآلهة إلهًا واحدًا، فيجعل المعبودَ واحدًا، وهذا الذي فهمه أبو جهل هنا: أنه يَدعُوه للتوحيد؛ ولذلك قال: «أترغَبُ عن مِلَّة عبدِ المُطَّلب؟»، مع أنه معلوم أن عبد المُطلب كالمشركين جميعًا يُقِرُّ أن الخالقَ هو الله، وأن الرزاق

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٥).

هو الله، وأن الناصر هو الله؛ ولذلك لما جاء جيش أبرهة ليَهدِمَ الكعبَةَ تعلقوا بالكعبة ودَعَوا الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم يعلمون أن الناصر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما لم يأتُوا بـ «لا إله إلا الله» وهي الإقرار واليقين والعمل بأنه لا معبود بحَقٍّ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَبَا جَهلٍ وَمَن مَعَهُ يَعرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذ قَالَ لِلرَّجُلِ: «قُل: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَقَبَّحَ اللهُ مَن أَبُو جَهلٍ أَعلَمُ مِنهُ بِأَصلِ الإِسلامِ.

وهذا صَحيحٌ مع الأسَف؛ فإنَّ بعضًا ممَّن ينتسبون للإسلام لا يعرفون معنىٰ «لا إله إلا الله» كما عرفَهَا المشركون؛ ولذلك يقولون «لا إله إلا الله» ويشركون بالله، يقول «لا إله إلا الله» وينذر للقبور وأصحاب القبور؛ لأنهم ما عَرَفُوا معناها، بينما المشركون الذين دَعَاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها كانوا يعرفون معناها!

الخَامِسَةُ: جِدُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسلامِ عَمِّهِ.

كمَا هو ظاهر في حديث البَاب.

السَّادِسَةُ: الرَّدُّ عَلَىٰ مَن زَعَمَ إِسلامَ عَبدِ المُطَّلِبِ وَأَسلافِهِ.

وقد تقدم بيانُ فَسَاد هذا القول.

السَّابِعَةُ: كَونُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استَغفَرَ لَهُ فَلَم يُغفَر لَهُ، بَل نُهِيَ عَن ذَلِكَ.

وهذا يدُلنَا علىٰ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له من الأمر شَيء؛ إلا ما أذن الله به، فهاهو قبل أن يُنهَىٰ قد دَعَا له بالمغفرة، فلم يَغفِر الله لعَمه، ولم يَستَجِب

دُعاءَه بالاستغفار له، ولكن -كما تقدم- سيَشفَعُ لعمه يوم القيامة بإذن الله لِيُخَفف عنه العذاب، لا ليَخرجَ من النار؛ فهذا يَدُلنا علىٰ أن الأمر كُلَّه لله.

الثَّامِنَةُ: مَضَرَّةُ أَصحَابِ السُّوءِ عَلَىٰ الإنسَانِ.

وهذا ظاهر؛ فأبو جهل حَالَ بين أبي طالب والإسلام بتَذكيره بنَعرَةِ الجاهليَّة.

التَّاسِعَةُ: مَضَرَّةُ تَعظِيمِ الأَسلافِ وَالأَكَابِرِ.

وذلك كما تقدم بيانُه، وهذه حُجَّة الشيطان علىٰ الناس يُوحِيهَا إلىٰ أوليائه، فإذا جئتَ تَدعُو الناس إلىٰ شيء؛ قالوا: نحن عِشنَا ستين سنة، أو سبعينَ سنةً ونحن علىٰ هذا؛ فتريد أن تُعلِّمَنا وأنت ابن أمس؟!

ويأتي دعاةُ الضَّلال كذلك يقولون: دينُنَا دين بلدنا، لا تَأخُذوا بالدِّين المستورد من السعودية، سبحان الله! عُنصُرية حتىٰ في الدِّين؛ جعلوا حتىٰ لِدِينِ الله حدودًا وجنسيَّة؛ ما بقي إلا أن يَكتُبوا في الجَوَاز: مسلم إسلام مصري، مسلم إسلام جزائري، مسلم إسلام سعودي! -نعوذ بالله-! فهذه كلها دعَاوىٰ الشياطين.

العَاشِرَةُ: الشُّبهَةُ لِلمُبطِلِينَ فِي ذَلِكَ، لاستِدلالِ أَبِي جَهلٍ بِذَلِكَ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: الشَّاهِدُ لِكَونِ الأَعمَالِ بِالخَوَاتِيمِ، لأَنَّهُ لَو قَالَهَا لَنَفَعَتهُ.

ولذلك الإنسانُ لا ييأسُ مِن أحَد؛ بل يدعوه ما دام علىٰ قيد الحيَاة، والعبرة بالخَوَاتيم؛ فقد يعيش الإنسان علىٰ الكُفر والشرك، ثم يشاءُ الله فيُختَمُ له

بالتوحيد والإسلام، ولا يأمن كذلك أحدٌ علىٰ نفسه الفتنة.

الثَّانِيَة عَشرَةَ: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لأَنَّ فِي القِصَّةِ أَنَّهُم لَم يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكرِيرِهِ، فَلأَجلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِندَهُم؛ اقتَصَرُوا عَلَيهَا.

وهذه في الحقيقة مما يمنع كثيرًا ممن يعرفُونَ الحق من اتباع الحق، وذلك لأحد أمرَين:

الأمر الأول: ما كان عليه الآباءُ والأسلاف.

الأمر الثاني: خَوف التَّعيير.

ولذلك جاء في رواية عند مُسلم[1] من حَديث أبي هُريرَةَ رضي الله عنه: أنَّ أبَا طالبٍ قالَ للنبيِّ ﷺ: «لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ...».

أي: لولا أن تُعيِّرني قريش بإسلامي ويقولون: إنما أسلم عندما رأىٰ الموت لأقررت بها عينك!

فأكثر ما يمنع الناس من الحق إذا تبين لهم الحَق إذا سَلِمُوا من الكبر: الاغترار بما كان عليه الآباء والتمَسُّك به وخوف تركه، والخوف من التعيير.

❀❀❀

---

(١) برقم (٢٥).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفرِ بَنِي آدَمَ وتَركِهِم دِينَهُم هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ.

الشرح

لمَّا بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأمورَ الشِّركية التي يكثُر وقوعها من أقوام ينتسبون إلىٰ الإسلام، ثُم بين بالبراهين القاطعة التي لا شك فيها أنه: لا يوجد مَخلُوق مهما علا شَرفُه وفضله ودرجته يَستَحق أن يُصرف له شيء من أنواع العبادة، وأن النفع والضُّر كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ، وأن النفع الحاصل من المخلوق للمخلوق في الآخرة أو في الدنيا إنما هو بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

فبين بالبَراهين أن العبادة إنما تكون لله وحده، وأن الأمر كله لله، وأنه ليس لمخلوق من الأمر شيء إلا بأمر الله وإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

وقد عقَدَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليُبَين أن السببَ الأعظم للوقوع في الشرك هو الغُلو في الصَّالحين.

فالغُلو في الصَّالحين: يجعَلُ علىٰ البَصيرَة غشاوة؛ فلا ترىٰ الحَقَّ الواضِحَ البَيِّن.

والغلو في اللغة: هو مُجَاوزة القدر والارتفاع.

يقال: غَلَت الأسعار؛ يعني: ارتفعت. ويقال: غَلا الرجُل في الرجل؛ أي: جاوز به قَدْرَهُ، وجاوز به حده.

والغُلو في الاصطلاح هو: مُجَاوزة الحد.

والحَدُّ قد يَكُون:

- عَقليًّا يُعرف بالعقل.

- وقد يكون عُرفيًّا يُعرَف بالعُرف والتجارب.

- وقد يكون شرعيًّا يُعرَف بالشَّرع ويُنسَب إليه.

والكلام هنا عن: **الغُلُو في الحَدِّ الشَّرعي**؛ أي: مُجَاوزة الحَدِّ الشرعي.

وضَابِطُه: أن يترك المَشرُوع الىٰ غير المَشرُوع، فمن ترك المشروع إلىٰ ما لم يَشرَعه الله عَزَّوَجَلَّ؛ فَقَد غَلَا وتجاوز الحَدَّ.

والغُلو في الدِّين حَرَام مطلقًا سَواء كان صغيرًا أو كبيرًا، لكنه ينقَسِمُ من حيث أثرُهُ إلىٰ قِسمَين:

١- **غُلو هو حرام**: لكنه لا يُخرِج من الدين. مَن فعله فقد ارتكَبَ حرامًا وأثم، لكنه يبقىٰ مُسلمًا، ولا يكون فاعلًا لمُكَفِّر.

مثالُ ذلك: الغُلو في الأذكار، فالله عَزَّوَجَلَّ شرع لنا أن نذكُرَه كثيرًا، وذكر الله مشروع، و قد بينه النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله وفعله، فإذا جاء رجل فترك المشروع وأحدث أمرًا ليس مشروعًا، فأصبح يذكر الله بـ «هو هو هو» هذا غير مشروع؛ لم يَرِد في كتاب الله ولا في سنة الرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا فعله سَادَةُ الأمة. فهذا غَلَا في الذِّكر، وفعل حرامًا، لكنه ليس مشركًا.

ومثال آخَر: أن يقوم إنسان بإحياء مولد النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والاحتفال به، فهذا ترك المَشرُوع من محبة النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المشروعة إلىٰ غير المشروع؛

لأن هذا الأمر ليسَ في الكتاب والسُّنَّة، والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**مَن أَحدَثَ فِي أَمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[١].

هذا قد غَلَا ويأثم؛ لأنه فعل حرامًا، لكنه لا يخرج من الملة؛ بل هو مسلم.

٢- **غُلُو مُكَفِّر**: وهو الذي يَفعَلُ الإنسان بسببه الكفر، وقد يُحكَم عليه بعينه بالكفر إذا اجتمعت الشُّروط وانتفَت المَوانع.

مثال ذلك: الغُلُو في النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتىٰ يُعتقَدَ فيه ما لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فإذا جاءنا إنسان وقال: النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم الغيب، وما من غَائبة إلا ويعلمُهَا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ!

قلنا: هذا غلو في النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه تجاوَزَ المشروع إلىٰ غير المشروع، وهذا كُفر -والعياذ بالله-؛ لأنه تكذيبٌ للقرآن، وتكذيب للسنة، ولأنه جعَلَ للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما لله؛ فهذا كُفر.

وكذلك الذي يأتي من بَلَده، ويَحُج ويطوف بالكعبة ويقف بعرفة، ثم يأتي إلىٰ المدينة ويذهب عند القبر، ويدعو النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويقول: يا رسول الله، أتيتُكَ مُحمَّلًا بالذنوب، فاغفر لي ذنوبي؛ هذا شرك -والعياذ بالله-؛ لأنه جعل ما لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للنَّبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جِهَتَيْن:

الجِهَة الأولىٰ: أنه دعَاهُ، والدعاء إنما هو للهِ -كما تقدم برهانه-.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

والجِهَة الثانية: أنه طلب منه مَغفرَة الذنوب، ومغفرة الذنوب إنما هي من الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا غلو، وهو كُفرٌ -والعيَاذ بالله-.

والشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يتحَدَّثُ عن غُلُو خَاص، وهو: «**الغُلُو في الصَّالحين**».

وذلك أن الصالحين من عِبَاد الله، وعلىٰ رأسهم أنبياء الله، العُبَّاد لله عَزَّوَجَلَّ، تجبُ محبتهم، ولهم مَنزلةٌ عالية شرعًا، وإجلالُهُم وتعظيمهم التعظيم الشرعي من إجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **وأخطأ في هذا طرَفَان:**

طَرَفٌ جُفَاة: لا يُحِبُّون عِبَادَ الله الصَّالحين، ولا يعرفون لهم فضلهم، ويُسَوونهم بغَيرِهم، وهذا ضَلال وخَطأ عظيم.

وطَرَفٌ غُلاة: يتَجَاوزون القَدر في المحبة وهذا هو المُرَاد هنا؛ فإن الغلو في محبة الصالحين يقود الإنسان إلىٰ الشر، ولرُبَّما وصل به إلىٰ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ كما يأتي في الأدلة.

فالسَّببُ الأعظم للشِّرك عَبر التَّاريخ هو: الغُلو في الصالحين، منذ أن وقع أول شركٍ في الأرض ما وقع إلا بسَبب الغُلو في الصالحين، وإلىٰ يَومِنا هذا وإلىٰ أن يَرِثَ الأرضَ ومَن عليها.

ويذكر لنا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا لأمرين:

الأمر الأول: لنَحذرَ ذلك؛ فلا نغلو في الصالحين، ولا نكون من الجُفَاة، وإنما نلزَمُ الشرع في هذا.

والأمرُ الثاني: حتىٰ يتخلص من وقع في شيء من الغلو في الصالحين من

هذا، ويتوب إلىٰ الله، ويرجع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من تَمَام النُّصح لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (وَقَولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾):
وأهلُ الكتاب هم: اليَهُود والنَّصَارىٰ.

والغُلو وُجِد في اليهود والنَّصَارىٰ، لكنه في النصارىٰ أعظم؛ لأن النصارىٰ أهل تعبد بجَهل، واليهود يعلمون ولا يعملون، فهم أهل جَفَاء، لكن الغلو وقع من اليهود ووقع من النصارىٰ، ولكنه في النصارىٰ أعظم.

وفي الآية الأخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

﴿قُلۡ﴾: يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾:
لا: ناهية، فنهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ أهل الكتاب عن الغلو في الدين.

وهذه الآية تَدُل علىٰ أنَّا مُخَاطَبُون بهذا النَّهي، وليس الخطاب فيها لليهود والنصارىٰ فقط.

وَوَجهُ الاحتجاج بها علىٰ أمة مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجهَيْن:

الوجه الأول: أن ما ورد في شرعنا خطابًا لأهل الكتاب فهو شَرعٌ لنا، وخُص أهل الكتاب هنا بالخطاب؛ لأن الغُلوَّ قد وقع مِنهُم.

والوجه الثاني: ما في الآية الثانية: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

فهذا الخطاب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي يُخَاطبهم هو مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

إذن النهي عن الغلو من شرعنَا؛ لأن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الذي يخاطبهم؛ فَدَلَّ ذلك علىٰ أن الغُلو في الدِّين حرامٌ، مُطلقًا سواءً كان في أمر صغير أو في أمر كبير.

وإنما يتحقق امتثال هذه الآية بلزوم المشروع وعدم الغلو في الدين، فإذا لزمت المَشروعَ سَلِمتَ من الغلو.

فهذه الآية بالمطابقة: تنهىٰ عن الغلو. وبالتضَمُّن: تأمُر بالاتباع؛ لأنه لا يمكنُ أن تكونَ السلامَةُ من الغُلُو إلا باتِّبَاع النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

❀❁❁❁❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣] قَالَ: «هَذِهِ أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا؛ أَوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم: أَنِ انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ فِيهَا أَنصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم، فَفَعَلُوا ولَم تُعبَد، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلمُ؛ عُبِدَت».

الشرح

(**فِي «الصَّحِيحِ»**): أي: في «صحيح البخاري»[(١)].

(**عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا): ترجمان القرآن، الذي قال فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ فَقِّههُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمهُ التَّأوِيلَ**»[(٢)].

(**فِي قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾**): التي تَعبُدونها.

(**﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾**): فسَّر ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذه الآية فقال:

(**هَذِهِ أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ**): فَوَدٌّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر، هذه أسماء لرجال صالحين كانوا يَعبُدون الله عَزَّ وَجَلَّ قبل وقوع الشرك؛

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ (٤٩٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٨٩).

لأن الناس بَقوا عشرة قرون بعد إهباط آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ الأرض وهم علىٰ التوحيد لا يعرفون الشِّرك.

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ بَينَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشرَةُ قُرونٍ كُلُّهُم عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الحَقِّ، فَاختَلَفُوا: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]»[1].

وهؤلاء الرجَالُ كانوا يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل وقوع الشرك في الأرض، فكانوا عبادًا لله صالحين موحدين.

(مِن قَومِ نُوحٍ): يعني: من القوم الذين ينتسب إليهم نوح، وليس المراد الذين كان نوح نبيهم؛ لأنه إذا قلنا: قوم نوح؛ قد يُرَاد أنهم القوم الذين بعث إليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان نوحٌ نَبيَّهم، وقد يُرَاد القوم الذين ينتسب إليهم نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والمُراد هنا: القوم الذين ينتسبُ إليهم؛ لأن هؤلاء الرجال كانوا قبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وماتُوا قبل نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعُبِدُوا قبل أن يُبعَثَ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أعني: لمَّا نُصِبَت التماثيل في مَجالسهم.

(فَلَمَّا هَلَكُوا): أي: لمَّا مَاتُوا، أصاب الحزنُ أتبَاعَهُم ومن كانوا معهم علىٰ فراقهم، وخافوا علىٰ أنفُسِهم أن تَقِلَّ عبادَتُهم لربهم؛ لأنهم كانوا إذا رأوا هؤلاء الرجالَ الصالحين نَشطوا في العبادة.

فجاء الشيطان إلىٰ هؤلاء القوم الذين يحبون أولئك الرجَال.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٩٦)، وانظر: «تحذير السَّاجد» للألباني (ص٩٠).

(**أَوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم**): أي: وَسوسَ لهم.

(**أَنِ انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ فِيهَا أَنصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم**): أي: تماثيل علىٰ صُوَرِهم؛ أي: صَوِّروهم واجعَلُوا هذه الصُّوَر في مَجَالسهم، وسَمُّوها بأسمَائِهم.

وإنما فعلوا ذلك ليَتَذَكَّروهم فينشطوا في العبادة، وليس ليَعبُدوهم، هكذا وسوس لهم إبليس، ففعلوا ذلك ونِيَّتُهم حَسَنة، فهم لا يريدون عبادةَ أحَدٍ من دون الله؛ بل يريدون النشاط في العبادة، لكنهم وَقَعُوا في هذه البدعة المُحدَثة، وهي نَصْبُ التماثيل تقربًا؛ لِيَنشَطُوا في العبادة بسَبِبها.

(**فَفَعَلُوا ولَم تُعبَد**): يعني: أن القوم الذين صَوَّروها لم يَعبُدوها؛ لأنهم يعرفون لِمَاذا صُوِّرَت.

(**حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ**): أي: ماتَ الذين صَوَّرُوها.

(**وَنُسِيَ العِلمُ**): والذي في كتب الأحاديث: «**ونُسِخَ العلم**»، أو: «**وتَنَسَّخَ العِلمُ**»، كما عند البخاري.

أي: أن العِلمَ قد رُفع؛ وما هو العلم الذي قد رُفِع؟

قال بعضُ أهل العلم: العِلمُ بسبب هذه التصاوير، وليس العلمُ مُطلقًا، ولا العلم بالتوحيد، وإنما العلم بسَبَب نصبِ هذه التَّماثيل.

وقال بعضهم: بل العلم الذي نُسِخ هنا هو العلم بالتوحيد؛ بسبب موت العُلماء.

وقالَ بعضهم: بل هو العلم مُطلقًا، ورُفِعَ بسبب موت العلماء، فجاء الجهل، والجَهلُ شَجرةُ كُل شَر.

(عُبِدَت): يعني: جاء إبليسُ إليهم وقال لهم: ما صوَّرها آباؤكم وأجدادكم إلا لمنزلتهم عند الله؛ ولأن لهم جاهًا ومَنزلة.

فعكَفُوا عليها فعبدوها؛ فوقع الشرك في الأرض، وأولُ شِرك وقع في الأرض هو هذا الشرك بسَبب المجاوزَة والغلو.

وإبليس لم يَنقلهم الىٰ الشرك مرةً واحدة؛ بل نقلهم إلىٰ البدعة، والبدعة بريد للشرك، فنَقَلهم إلىٰ الإحداث والابتدَاع، فأمرهم بنصب هذه التماثيل، وصَبَر علىٰ ذلك زَمنًا طَويلًا، ورضي من هؤلاء القوم بهذا، إلىٰ أن مات أولئك القوم، والمعلوم أن أعمَارَ الناس في ذلك الزمان كانت طويلة، فصبَرَ حتىٰ مات أولئك القَوم، ونُسخ العلم؛ فبدأ بأمرٍ آخرَ وخطوة أخرىٰ، وهي دعوة الناس إلىٰ عبادتهم؛ ليَكُونوا شفعاء لهم عند الله، وهكذا يفعل إبليسُ بالإنسان؛ يأخذه إلىٰ الشر خطوَة خطوَة.

فهذا يدُلُّ علىٰ أن سببَ أول شرك وقع في الأرض هو الغلو في الصالحين، غَلَوا في الصالحين لمحبتهم، ففَعَلُوا ما لم يشرع، ثم وقع الشركُ والعيَاذُ بالله.

❀❀❀

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ القَيِّم: «قَالَ غيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَىٰ قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم».

الشرح

(**وَقَالَ ابنُ القَيِّم: «قَالَ غيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ**): أي: قالَهُ جَمعٌ من السلف[١].

وهذه الأقوال موجودَةٌ في كتب التفسير عند: ابن جرير الطَّبري وغيره[٢].

(**لَمَّا مَاتُوا**): أي: مات أولئك الصَّالِحُون.

(**عَكَفُوا عَلَىٰ قُبُورِهِم**): أي: قَعَدُوا عند قبورهم.

(**ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم**): أول الغُلو هو العُكُوف عند القبور والجلوس عندها، أول أمر أنهم يجلسون جلوسًا عند القبور، ويجتمِعُون عندها، ثم بعد ذلك يأتيهم إبليس ويقول: البركات التي تَحصُل لكم، وهذه الخيرات التي تحصل في يومكم بسَببِ جُلُوسكم عند هؤلاء الصالحين عند قبورهم، ثم يأخذهم خطوة خطوة إلىٰ الإشراك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَوَقَع القومُ في نوعَين من الغُلو، هما خطوتان معلوماتان للوقوع في الشرك:

الأولىٰ: العكُوف عند القبور، ولو لم يعبد أصحاب القبور، الاجتماع عند

---

(١) انظر: «إغاثة اللَّهفَانِ مِن مَصايِد الشَّيطانِ» (١/ ١٨٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٣) وما بعدها.

القبور اجتماعًا مقصودًا، هذه خطوة للوقوع في الشِّرك.

والثانية: تصوير التمَاثيل، فتصوير تماثيل الصالحين سَببٌ لعبادتهم، فهذا غُلُو ظاهر.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَرْيَمَ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» أَخرَجَاهُ.

الشرح

والحَق أن الذي رواه هو البخاري[1]، ولم يَروِه مسلمٌ -رَحِم الله الجميع-.

وهذا الحديثُ من أصَحِّ الأحاديث وأقواها ثبوتًا ومعنًى؛ لأن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قاله علىٰ المنبر بحضرة الصحابة، فَلَم يَرُدَّ عليه أحدٌ من الصحابة، فكأن جميع الصحابة الحاضرين قد رَوَوه؛ لأنَّهم أقرُّوه، فهذا يُقَوي هذا الحديثَ جدًّا.

(لَا تُطرُونِي): وهذا خطابٌ للمُؤمنين، فمن كان مؤمنًا فليَسمَع.

والإطراء: هو الإفراط في المَدح، ومُجَاوزة الحد فيه، فنهىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغُلُو في مَدحه.

(كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ): كما أطرَت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُم بلغَ بهم الأمر أن قالوا: إنه ابن الله، أو قالوا: ثالث ثلاثة، أو قالوا: هو إله، وسبب هذا هو الغلو.

(إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ): والذي قال هذا هو رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يَقُله عالم ولا شيخ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

وبعض الناس من جَهلِهم يقولون: الذين يقولون إن النبي ﷺ عَبدٌ هؤلاء جفاة، ولا يُحِبون النبي ﷺ، وواللهِ إن الجُفاة هم الذين جمعوا بين الجَفوَة والغُلو، الذين لا يَقِفُون عند كلام النبي ﷺ.

قَالَ: «إنَّما»: وهذه أداةُ حَصر وقَصر.

(إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ): فهذه الجُملة فيها الرَّد علىٰ الغُلاة وعلىٰ الجُفاة.

(فَقُولُوا: عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ): هذا رد علىٰ الغُلاة الذين يُغلُون في رسول الله ﷺ، ويَجعَلُونه شَريكًا مع الله فيما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتىٰ في علم الغيب، وجَعلُوه شريكًا لله في الجُود والإعطاء مُطلقًا.

كما يقول البوصيري:

وإنَّ مِن جُودِكَ الدُّنيَا وضَرتهَا ... ومِن عُلومِك عِلم اللَّوحِ وَالقَلَمِ

وهذا قول النبي ﷺ: أنه عَبدٌ للهِ لا يُعبَد، ولا يُتجَاوز به مَرتبته، فلا يُجاوِزُ به عَبدٌ مَرتَبَتَهُ.

«ورَسُولُهُ»: هذا رَدٌّ علىٰ الجُفاة، فإنَّ النبيَّ ﷺ عبدٌ، فهو عبد لا يُعبَد، ورَسُول لا يُكَذَّب، لكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرَّفه بالرسَالة.

ومن عَجيبِ الأمر أن إبليسَ تسلَّط علىٰ بعض الناس ليَمنَعَهُم من الاستفادة من هذا الحديث الصحيح، وقال لهم: معنىٰ: «لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَم»: أي: لا تقولوا: إني ابن الله، ثم قولوا ما شئتم، فأصبَحُوا يقولون

الشِّركَ في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقولون: ما أطرَيناك كمَا أطرَت النصارىٰ ابن مريم؛ وسُبحان الله! النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ في هذا الحديث ما يَرُد هذا التفسير، فقال: «**إنمَا أنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عَبدُ اللهِ وَرَسُولُه**»: فنَهَىٰ عن الغُلو في مَدحه مُطلقًا؛ بل عندما جاء وفدُ بني عامرٍ إلىٰ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا له: «أَنتَ سَيدُنَا» ورَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيدُنا وسيد ولد آدم أجمعين، وهو القائل عن نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَومَ القِيَامَةِ**»(١).

إذن، هم لم يقولوا باطلًا من حيث اللفظ؛ بل قالوا: أنت سيدنا. فقال رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

قال العُلماء: رأىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهُم غُلوًّا فأدَّبَهُم، وهذا شأنُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا رأىٰ الغُلوَّ من أحدٍ أدَّبه كما سيأتي في حديث مَن قالَ له: «ما شَاء الله وشئتَ».

ولو قال: ما شاء الله ثم شئتَ؛ لكانَ صَوابًا، لكن لمَّا رأىٰ منه الغُلوَّ أدبه.

وكذلك هنا لما رأىٰ أنهم يقولون ذلك غلوًّا أدَّبَهُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**السَّيدُ الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. قَالُوا وأفضَلُنا فَضلًا، وأعظَمُنَا طَولًا». أي: أنت يا رَسُول الله أفضلنَا فَضلًا وأعظمنا جُودًا وإنفاقًا وكَرَمًا.

فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُولُوا بِقَولِكُم أَو بَعضِ قَولِكُم وَلَا يَستَجرِيَنَّكُمُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّيطَانُ». رواه أبو داودَ، وصحَّحه الألباني[١].

فقولُهُم صَحيحٌ وحَقٌّ، ولكن انتبهوا: **«لَا يَستجرِيَنَّكُم الشَّيطَان»** إلىٰ الغلو، فدَلَّ ذلك علىٰ أن مدح النبي ﷺ بما فيه من غير غُلو مَشرُوع لا بأس به، وأن الغُلُو في مَدحِ النبي ﷺ لا يُرضِي النَّبي ﷺ بل هو مِن عمَل الشَّيطان.

وقال رجلٌ: «يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ»**. رواه أحمد، وصَحَّحَهُ الألباني[٢].

«عَليكُم بتَقواكُم»: أي: الزَمُوا التَّقوىٰ.

«لَا يَستَهوِيَنَّكُم الشَّيطَانُ»: أي: لا يَقُودنَّكُم الشيطان إلىٰ الغلو؛ فإن الغُلُوَّ من وَسوسَةِ الشيطان.

«أَنَا مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ»: هذه مَنزِلتي: عَبدٌ لا أُعبَد، ورسُولٌ لا أُكَذَّبُ.

«واللهِ»: النَّبي ﷺ يُقسِمُ، وهذا دلالة علىٰ عِظَم الأمر وأهميته، ويَقُول للمؤمنين جميعًا: **«والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»**: فكيف يأتي مسلم ويفعلُ ما لا يُحبُّه النبي ﷺ، بزعم أنه يُحب

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٥١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٧).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقسم لك، وليس بحاجة لأن يُقسِم، وينفِي مَحبَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الغُلو.

فهَؤلاءِ الذين يَقُولون: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحَكَّم في الكون!

والذين يَقُولون: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره يُنقِذُ الغريق، ويُطفئ الحَريق، ويزيد الرِّزق!

هؤلاء رفَعُوا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق مَنزلته، بل جعلوه شريكًا لله عَزَّ وَجَلَّ!

إذَن؛ أحَبُّ الناس إلىٰ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يَقُول: مُحمَّد رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدُ اللهِ ورَسُولُه.

فدل هذا دلالة بَيِّنة علىٰ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُبغِضُ الغلو، وينهىٰ عنه في مَدحه، ولا شكَّ أن الغلو في المَدح يَقُود إلىٰ الوقوع في الشِّركِ والعيَاذ بالله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي الصَّحِيحِ، عَنِ ابنِ عبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمُ الغُلُوُّ».

الشرح

هكذا لفظ الحَديثِ، والحديث رواه أحمد، وابن ماجه، والنسائي، وصححه ابن خُزَيمَة، والحاكم، ووافقه الذهبي، والنووي، وابن تيمية، والألباني(١). والحديث صحيحٌ لا شكَّ في صحته.

وهو يدلُّ علىٰ تحريم الغُلُو في الدين في أي أمر؛ لأن سبب الحَديثِ إنما هو الحصيَات التي يرمي بها الحاج، فإن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طريقه من مزدلفة إلىٰ منىٰ قال لابن عباس: «**القُط لِي**». فلقَطَ له سبع حصيات، فأخذها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كفه الشريف وقال: «**بِمِثلِ هَذِهِ فَارمُوا، وإِيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ**».

يعني: وإيَّاكم الغلو في الحَصَىٰ؛ بأن تأخذ حصيات كبارًا لتَرمِيَ بها، فإن هذا من الغُلُو.

(١) أخرجه أحمد (١٨١٥)، والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٣٨٧١)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٣٧)، وصححه النووي في «المجموع شرح المهذب» (٨/ ١٧١)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٨٣)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٨٣).

فإذا نهانا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغلو في الحصىٰ، فمن باب أولىٰ الغلو فيما كان أكبر من ذلك، ولاسيَّما أن لفظ الحديث عام، والعلماء يقولون: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(إِيَّاكُم): يا من آمنتم بي، يا معاشر المسلمين، أحَذِّركم الغلو، فاحذرُوه؛ لأنه سبب للهلاك.

(فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمُ الغُلُوُّ): فعَبَدُوا غير الله بسَببِ الغلو في الدِّين، وهذا يَدُل علىٰ ما قدمناه من أن الغلو مَهمَا كان صغيرًا أو كبيرًا فإنَّه مُحرَّم مُطلقًا، وقد يَصِلُ بالعبد -والعياذ بالله- إلىٰ أن يَشرِكَ بالله فيَهلِك.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولِمُسلِمٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلاثًا[1].

الشرح

والمُتنطِّعون: هم المتعمقون في الدِّين، وليس المُتمسكون بالدين، بل المُتكلِّفون ما لم يُشرَع.

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هلك المتنطِّعون؛ أي: المتعمِّقون المُغالون المجَاوزون الحدودَ في أقوالهم وأفعالهم»[2].

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (**هَلَكَ المُتَنَطِّعُون**): أي: هَلكَ المتكلفون في الدين ما لم يُشرَع، المتعمقون فيه بالابتداع، أما المستقيمون علىٰ المشروع فهؤلاء هم أهل الأمن، وأهلُ الحيَاة الطيبة.

بعضُ الناس الآن إذا رأوا شخصًا أعفَىٰ لِحيَته، أو قَصَّر ثوبَه ولو فَوقَ الكعب بقليل قالوا: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعونَ**». قالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»!

وهذا ليس تنطُّعًا ولا غُلوًّا؛ بل هذا استقامة وقيام بأوامر الشَّرع، واقتداءٌ بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) «صحيح مُسلم بشرح النَّووي» (١٦/ ٢٢٠).

وإنما التنطع هو التكلف في الدين بحيث تفعل ما لم يُشرَع، وتبتدع بحُجَّة أنك تريد أن تزيد في العبادة، أو أنك تُريدُ مَزيدًا من القُرب من الله، فتأتي بعبادات لم يأتِ بها الشَّرع.

والغالبُ أن المتنطعَ بمقدار تنطعه يُحرَم السُّنة، وهذا أقل هلاكه، ولا شكَّ أنه يأثَمُ بفعل البدع، وهذا هلاك معنوي، وقد يصلُ الأمر إلىٰ الشِّرك، فيهلك هلاكًا هو أعظَمُ من المَوت.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن الغلُوَّ والتنطُّع والإفراط ليس طريقَ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُحِبه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس طريق الصَّالحين، وليس طريقًا للفلاح، وليس طريقًا للقُرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما هو من وسوسَةٌ الشيطان، وسبب للهَلاكِ والعيَاذ بالله.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن الحقَّ للمسلم والسلامة: أن يلزم المَشرُوع، وأن الهلاك في الابتداع والابتعاد عن سُنَّة النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: أَنَّ مَن فَهِمَ هَذَا البَابَ وَبَابَينِ بَعدَهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ غُربَةُ الإِسلامِ، وَرَأَىٰ مِن قُدرَةِ اللهِ وَتَقلِيبِهِ لِلقُلُوبِ العَجَبَ.

أي: أنك إذا تأمَّلت في حال المنتسبين إلىٰ الإسلام اليوم؛ تَجد أن كثيرًا من المسلمين وقعوا في الغُلُو في الدين، ويُقَابلهم أقوامٌ وقعوا في التساهل في الدين، فكثير ممَّن يريدون العبادة وقعوا في الغُلو، وكثير ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام وقعوا في التسَاهُل، وهذه غربةٌ أن تعيش حتىٰ ترىٰ هذا!

الثَّانِيَةُ: مَعرِفَةُ أَوَّلِ شِركٍ حَدَثَ عَلَىٰ وَجهِ الأَرضِ أَنَّهُ بِشُبهَةِ الصَّالِحِينَ.

وليس المقصودُ أنه بشُبهَة من الصَّالحين أنفُسِهم، وإنما بشبهة محبة الصالحين، فجاءهم إبليسُ فشبَّه عليهم؛ لأنهم يُحِبُّون الصالحين، وهو لم يأمرهم بمحبة الصالحين؛ بل أمرهم بالغُلُو في هذه المحبة؛ فكان ذلك سببَ وقوعِ أول شِرك في الأرض.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ أَوَّلُ شَيءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الأَنبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ مَعَ مَعرِفَةِ أَنَّ اللهَ أَرسَلَهُم.

أول أمر غُيِّر به دينُ الأنبياء هو الغلو في الصالحين حيث وقع بسَببه الشِّركُ، والله عَزَّوَجَلَّ أرسل الرسل لتُبيِّن للناس الصراط المستقيم، ومنه تركُ الغلو.

الرَّابِعَةُ: سَبَبُ قَبُولِ البِدَعِ مَعَ كَونِ الشَّرَائِعِ وَالفِطَرِ تَرُدُّهَا.

وسبب قبولِ البدع أن الشيطانَ يُزيِّنها بلبَاس الحق؛ ولذلك بعضُ الناس إذا رأوكَ تُنكرُ بدعة قالوا: لمَاذا تُنكر؛ هذا يَذكُر الله؟!

فالشيطانُ يُزخرف البدع بالحَق؛ فتَروج علىٰ المحبين؛ لقلَّة العلم وقِلَّة من يُبيِّن.

ولو عَرَض الشيطانُ بضاعته كما هي لَمَا قبلها عاقلٌ فضلًا عن مسلم، لكنه لا يَعرِضُها إلا مُزخرَفة بلباس الحَق ويَخلطُ الباطل بكثيرٍ من الحق ليُشبِّه علىٰ الناس، ولا نجاة إلا بلزوم سُنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَن أراد النجَاةَ لأهله فليُعَلِّمهُم سُنَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَزجُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ، فَالأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ، وَالثَّانِي: فِعلُ أُنَاسٍ مِن أَهلِ العِلمِ وَالدِّينِ شَيئًا أَرَادُوا بِهِ خَيرًا، فَظَنَّ مَن بَعدَهُم أَنَّهُم أَرَادُوا بِهِ غَيرَهُ.

مَزج الحق بالباطل؛ فالأول حَق، وهو مَحبَّة الصالحين وهي مطلوبَةٌ شرعًا، لكن من غير غلو، ففعل بعض الصالحين الجاهلين أو بعض من ينتسبون للعلم بعض الأشياء غير المَشرُوعة بسبب المَحبَة فيه مزج الحق بالباطل ومزج الباطل بالحق؛ حتىٰ يرُوجَ الباطلُ بقصدٍ أو بغير قَصد.

السَّادِسَةُ: تَفسِيرُ الآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

وقد فَسَّرها ترجمان القرآن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

السَّابِعَةُ: جِبِلَّةُ الآدَمِيِّ فِي كَونِ الحَقِّ يَنقُصُ فِي قَلبِهِ، وَالبَاطِلُ يَزِيدُ.

يجبُ أن نُدركَ أن من طبيعة الإنسان أن قَلبَه قلَّابٌ، وأن الحق الذي يعلمه ما لم يحافظ عليه بسؤال الله عَزَّوَجَلَّ الثبات، وهذا أعظم أسباب المحافظة، وبالعلم وبالعمل سينقص، كالمَاء إذا ترك في الحفرة فإنه ينقص حتىٰ لو كانت من الجبل الصلب أو من الصخر الصلب فكذلك الخير، وإذا نقص الخَيرُ حَلَّ مكانه ضده وهو الباطل!

إذا عرفت يا عبدالله أن هذا من طبيعتك، فهذا يجعلُكَ تُجَاهد في سبيل الله، ولا تغفل الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس؛ بأن تحرص علىٰ المُحَافظة علىٰ الخير الذي أنت فيه، وأن تحرص علىٰ الزيادة، وأن تحَذرَ من الباطل.

وإياك يا عبدالله ما دمت حيًّا أن تغفل عن عدوك، فبعض الناسِ قد يصل به الصلاح إلىٰ درجة أنه يقول: الحمد لله، أنا الآن لا أقربُ الأشياء التي يُبغضُها الله!؛ فيبدأ يتساهل في الحديث، ويتسَاهلُ في النظر، فيَضعُف!

لابُدَّ من أن نحرسَ هذه النفسَ من جميع الجوانب، من جهة الاعتقاد، ومن جهة العمل بالسُّنة، من جهة التدين، احرُس نَفسَك، واحرص علىٰ الثبات علىٰ الخير، واحذر مما حرم الله، واحذر من أن تُؤتَىٰ من الغفلة أو الغرور بالنفس.

للأسف بَعضُنا أصبح كثير الكلام قليلَ العمل، بخلاف ما عليه السلف، فإن أعمالهم كانت تسبق أقوالهم، وقَلَّ كلامُهم إلا فيما يُحتاج إليه؛ فكان مباركًا، وكثُرَت أعمالهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيا معاشر المسلمين، أدركوا هذه القضية العظيمة الكبرىٰ: وهي أن الحق

إذا لم يُتعاهَد لابُدَّ أن يقل ويَضعُف، وأن الباطل إذا لم يحذر منه لابد أن يتسَلَّل إلىٰ النفس فيَقوَىٰ، وتعلَّموا وعَلِّموا أنفُسَكم العقيدة والسُّنة والتَّدَيُّن، وكونوا من الصَّادِقين.

الثَّامِنَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ البِدعَةَ سَبَبُ الكُفرِ.

فالبدعة خطوةٌ في سُلَّم الغلو، فإبليس يأخذ الإنسان أولًا إلىٰ البدعة، وقد تكون بدعة صغيرة مع خير كثير جدًّا، ثم لا يزال يُمحض به البدعة حتىٰ تستقر البدعة ويذهب الحق، ثم قد يقوده إلىٰ الشرك بالله، كما فعل إبليس مع هؤلاء القوم من قَوم نُوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

التَّاسِعَةُ: مَعرِفَةُ الشَّيطَانِ بِمَا تَئُولُ إِلَيهِ البِدعَةُ، وَلَو حَسُنَ قَصدُ الفَاعِلِ.

فلا شكَّ أن الغالبَ علىٰ من يفعلون البدع أنهم يريدون خيرًا، ثُم بعد ذلك قد يقعون في المُكَابرة والمجادلة، فحُسنُ النية لا يسلمون به من الذنب، لكن مع ذلك إذا فعلوا البدعَ يُصبِحُون دعاة لها؛ فيزداد إثمهم، ويُحَاجُّون عنها؛ فيزداد إثمهم، ويفعلون هذه البدع؛ فتَقِل مَحبَّة السنة في قلوبهم، ويقودهم ذلك إلىٰ شر عظيم.

ولذلكَ إبليس يُحب البِدَع أكثر من المَعَاصي، كما قال بعضُ السلف: «البدعَةُ أحبُّ إلىٰ إبلِيسَ مِنَ المَعصيَةِ»[1]؛ لأن البدعةَ تُنسَب إلىٰ الدين، وتقود

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٤٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٦) من قول سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الإنسان إلىٰ درجات في البُعدِ عن السُّنة إلىٰ أن يصلَ الأمر إلىٰ الشِّرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

العَاشِرَةُ: مَعرِفَةُ القَاعِدَةِ الكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهيُ عَنِ الغُلُوِّ، وَمَعرِفَةُ ما يَئُولُ إِلَيهِ.

النهي عن الغلو في الدين مُطلقًا، ولو بشَيءٍ يسير، وأن الغلو نَفَق مظلم ومُنحَدَر عميق، مَن دَخَله أوشَكَ أن ينحَدِرَ فيه بقوة، فالسَّلامة في البُعدِ عنها أصلًا، وعدم التَّساهُل في شيءٍ من الغلو ولو كان يسيرًا صَغيرًا.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: مَضَرَّةُ العُكُوفِ عَلَىٰ القَبرِ لأَجلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

وسَيأتي تفصيله -إن شاء الله- في الباب التالي.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ النَّهيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَالحِكمَةِ فِي إِزَالَتِهَا.

الواجبُ ألا تُنصَب التماثيل أصلًا، فإذا وُجِدَت التماثيل فإن الواجب أن تُطمَس، لكن طَمسها إنما يرجع إلىٰ وليِّ الأمر، ولا يُسَلط الناس علىٰ الناس.

والقاعدة عند أهل العلم: أن المَفسَدَة لا تُدفَع بمفسدة أعلىٰ منها.

والنبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دخلَ مكَّة وفتحها، وأصبح حاكِمًا يستطيع أن يفعل ما يشاء، لم يَهدِم الكعبة مع أنها لم تُبنَ علىٰ قَواعِد إبراهيم كَامِلة، ولم يُعِدها إلىٰ هيئتها التي كانت عليها؛ بأن يجعل لها بابين؛ لأنه ظهرَ له صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فعل هذا مَفسَدة أعظم من مفسدة بقاء الكعبة علىٰ هذه الحال؛ ولذلك قال لأُمِّنا عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **«يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ**

أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ»(١).

لكن مَنعَه من ذلك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَفسَدة الأعظَم، وهي ارتِدَادُ الناس الذينَ أسلَمُوا حديثًا عن دِينِهِم.

ولذلك مثلُ هذه المسَائل التي تحتَاجُ إلىٰ اجتهاد لا يتصَرَّف فيها الأفراد، وإنما يُرجَع فيها إلىٰ أولي الأمر من العُلماء وولاة الأمر، العلماء في البيَان وولاة الأمر في العَمَل.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: مَعرِفَةُ عِظَمِ شَأنِ هَذِهِ القِصَّةِ، وَشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيهَا، مَعَ الغَفلَةِ عَنهَا.

فهذه القصة عظيمةٌ؛ لأن فيها التحذِيرَ من الغلو في الصالحين، والتَّحذير من مكر إبليس بالناس، ومع شدة الحاجة إليها لا نَجِدُ أن الدعاة والوعاظ يتكلمون عنها؛ بل للأسف لا نجدُ أن كثيرًا من الدعاة أو الوعاظ يتكلَّمون عن التوحيد أصلًا، وهذا خَلَلٌ عظيم.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: وَهِيَ أَعجَبُ وَأَعجَبُ: قِرَاءَتُهُم إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفسِيرِ وَالحَدِيثِ، وَمَعرِفَتُهُم بِمَعنَىٰ الكَلامِ، وَكَونُ اللهِ حَالَ بَينَهُم وَبَينَ قُلُوبِهِم حَتَّىٰ اعتَقَدُوا أَنَّ فِعلَ قَومِ نُوحٍ هُوَ أَفضَلُ العِبَادَاتِ، وَاعتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ عَنهُ فَهُوَ الكُفرُ المُبِيحُ لِلدَّمِ وَالمَالِ.

إن كنت تعجبُ من عدم مَعرفَة الناس بهذه القصة، فاعجَب من أناس

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٤)، ومسلم (١٣٣٣) واللفظ له.

يعرفونُ هذه القصة، ويَعرفُون البراهين القطعية على التوحيد، والأدلة الدامغة للشرك، ومع ذلك يُشرِكُون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَظُنون أنهم في أعلىٰ مقامات التوحيد، فإن هؤلاء يَعلَمُون ولا ينتفعون، يَقرَءون القرآن؛ بل قد يَحتَجُّون بآيات التوحيد وهم مشركون!، وهذا من أعجَبِ العَجَب، نسأل الله السلامة والهداية.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: التَّصرِيحُ أَنَّهُم لَم يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

لأنهم عندما نَصَبُوا تلك التماثيل إنمَا أرادوا أن تكون وَسيلة للنشاط في العبادة، ثم جعلوهم شفعاء لهم عند الله، وتقَرَّبوا بالتقرب إليهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فوقَعُوا في الشِّرك.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: ظَنُّهُم أَنَّ العُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

وذلك بوَسوسَةِ إبليس، وهذا يَدُلُّنا علىٰ أن القُربَ من العلماء رحمة، وأن البُعدَ عنهم عذاب، فإذا كنت قريبًا من العلماء فإنهم يُبينون لك الحق، ويبينون لك لماذا قَالُوا ولِمَاذا فَعَلُوا.

أمَّا إذا ابتعدتَ عن العلماء؛ فإنه يأتي إبليس ويَصرِفُ الحقَّ إلىٰ الغُلُو.

ولذلك نحنُ نُوصي ونقول: كُونوا قريبين من العلماء، وممَّن يَقرُب من العلماء؛ لتتعَلَّموا العلم، وإعمَالَ العِلم علىٰ وجهٍ صَحيحٍ.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: البَيَانُ العَظِيمُ فِي قَولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ» فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَىٰ مَن بَلَّغَ البَلاغَ المُبِينَ.

فلو أن الناسَ فَهِمُوا هذا، وابتعدوا عن الشُّبَه، لقُطِع الطريق علىٰ كثير من الغلو المَوجُود، نسأل الله أن يَهدي ضالَّ المسلمين.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: نَصِيحَتُهُ إيَّانَا بِهلاكِ المُتَنَطِّعِينَ.

نصيحته إيانا ببيانه هلاك المتنطعين حتىٰ لا نكونَ منهم، فكأن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لنا جميعًا: أنصحُكُم وأوصيكم وألزمكم ألا تكونوا متنطعين، فإن التنطعَ طَريقُ الهلاكِ.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: التَّصرِيحُ بِأنَّهَا لَم تُعبَد حَتَّىٰ نُسِيَ العِلمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعرِفَةِ قَدرِ وُجُودِهِ، وَمَضَرَّةِ فَقدِهِ.

وقد تَقَدَّم بيانُ هذا.

العِشرُونَ: أَنَّ سَبَبَ فَقدِ العِلمِ مَوتُ العُلَمَاءِ.

ولذلك إذا وَجدتَ عالِمًا، أو لَقيتَ عالمًا؛ فاحرص علىٰ أن تنتفعَ من عِلمِه ما عَلمتَه سابقًا عنه لا تشتغل به إذا لقيته، بل اشتَغِل بأن تزدادَ من علمه، فإن هذا العالمَ حَي اليوم، وقد تأتي مرة أخرىٰ فتجد أنه في قبره، سواءً كان العالمُ كبيرًا في سنِّه أو صغيرًا، فإن الموت يأتي فجأة، فإذا لقيت عالمًا فاستفد منه حتىٰ تأخُذَ علمه فيبقىٰ العلم، فإن العلم لا ينتزع انتزاعًا من صُدُور الرجال، وإنما بِقَبضِ العلماء.

فإذا كان طلابُ العلم يتعَلَّمون من العلماء؛ فإنهم سيَخلُفُون العلماء ويبقىٰ العلم، لكن إذا لم يتَعَلَّموا من العلماء، فإنه سيتَّخذُ الناس رءوسًا جُهَّالًا؛ لأنه لابُدَّ لهم من رءوس، فيُفتي أولئك الجُهالُ بغير علم فيَقعُ الضَّلال، والعيَاذُ بالله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغلِيظِ فِيمَن عبدَ اللهَ عِندَ قَبرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيفَ إذَا عَبَدَهُ؟!

الشرح

هذا الباب العظيم عقده الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بَيَّن في الباب السابق أن الغلو في الصالحين هو السبب الأعظم لوقُوع الشِّرك في الأرض، بدءًا من أول شرك وقع علىٰ وجه الأرض، وعلىٰ مَرِّ التاريخ، وإلىٰ يومنا هذا، وإلىٰ أن يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها.

ولَمَّا كان من أعظم صُوَر الغلو في الصالحين ما يتعلق بالفتنَةِ بقُبورهم، وكانَ تسَلُّل الشرك إلىٰ الغلو عند العُكُوف علىٰ قبور الصالحين كثيرًا وكَبيرًا وخطيرًا: عقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليُبين أن الشرعَ قد سَدَّ بابَ هذه الفتنة سدًّا مُحكمًا، وأنه ما دخل الشِّركُ علىٰ أقوام ممَّن ينتسبون إلىٰ الإسلام إلا بكسرهم لهذا الباب، ومُخَالفة النصوص الواضحة البينة فيما يتعلق بالقبور، حتىٰ أصبح تعَلُّق بعض ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام بالقبور أعظم من تعَلُّقِهم بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ فإذا نَزَلت بهم نازلة لا يتذكرون إلا أصحاب القبور، ولا يدعون إلا أصحاب القبور، عياذًا بالله من الشَّرك!

والشرع قد حَسَم فتنةَ القُبُور وسَدَّ بابَها سدًّا مُحكمًا، ومنع الذرائع إليها، **ويَظهرُ هذا في أمرَيْن عَظِيمَيْن:**

الأمر الأول: يتعلق بالقبور ذاتها، ومن ذلك أن الشَّرع نَهىٰ عن رفع القبور، وأمر بتَسويتِهَا.

فقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسوية القبور، كما في «صحيح مسلم»[(١)]: وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي هياج الأسدي وكان صاحب الشرطة: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَّا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَه».

فبَيَّن عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثَهُ بهذا الأمر العظيم، وهو أن يطمس التماثيل، وأن يُسَوِّي القبور المشرفة، وبعَثَ أبا الهَيَّاج علىٰ هذا.

وهذا يَدُل علىٰ استمرار هذا بعد مَوتِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجُوزُ رَفع القبور إلا بالقَدر الذي يُعرَف أنه قبر، كأن يرفع بمقدار شبر إلىٰ ذِرَاع.

وقد كان قَبر النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسَنَّمًا[(٢)]؛ أي: مرفوعًا عن الأرض ما يقارب الذراع، أما ما عدا ذلك من الرفع فلا يَجُوز.

ونهىٰ الشرع عن البناء علىٰ القبور، ومن باب أولىٰ بنَاء القباب التي تدعو في صورتها إلىٰ عبَادَة مَن تحتها، كما هو مُشَاهَد ومعلوم بالواقع من تَعلُّق الناس بالقباب ، فالقُبَّة إذا نُصِبَت فإنها تدعو بصورتها الناس إلىٰ التقرب إلىٰ مَن تحتها.

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٠).

وقد نهىٰ نبينا ﷺ عن البناء علىٰ القبور، كما في «صحيح مسلم»(١).

ونهىٰ النبي ﷺ عن مُطلق الكتابة علىٰ القبور: عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «**نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَن يُكتَبَ عَلَىٰ القَبرِ شَيء**». رواه ابن ماجه، وصححه الألباني(٢).

وعَملُ نبيِّنا ﷺ يَدُل علىٰ كُل ذلك:

فقد مات ابنُه إبراهيم، وهو الولدُ الذَّكرُ الوحيد الذي رُزِقَ به النبي ﷺ، فلم يَرفَع قبره، ولم يَبنِ عليه، ولم يأمُر بالكتابة عليه.

وماتَت ابنتُه رُقية، وابنته أم كلثوم، ومات عَمُّه حَمزة، ومات أفاضلُ من صحابته رضي الله عنهم، ومَع ذلك: لم يَرفع النبي ﷺ قبورَهُم، ولم يَبنِ عليها، ولم يأمُر بالكِتابةِ عليها.

فلو كان ذلك مَكرُمة أو شرفًا أو جائزًا لفَعلَه النبيُّ ﷺ بهؤلاء.

فلمَّا رأينا النبي ﷺ لم يَفعَل ذلك عَلِمنَا أنه لا يَجُوز.

كما أن مقاصِدَ الشريعة تَدُل علىٰ منع كل ما تقدم؛ وذلك أنه مُتَقَرِّر أن من مقاصد الشريعة: استواء الناس في قبورهم، فالناس سَواسِيَة في قبورهم كالحج.

---

(١) برقم (٩٧٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

ولا شَكَّ أن البناء علىٰ القبور والكتابة عليها ينافي هذا، ويُضَاد هذا، كما هو مُشَاهَد، فإنك ترىٰ في مَقَابر الأقوام الذين يَبنُون علىٰ القُبور تبَايُنًا عظيمًا بين القبُور:

فالأسرةُ الثرية الغنية تجد لها مَدفنًا مُزخرفًا كبيرًا ، والأسرة الفقيرة لا يُوضَع عليها شيء، والأسرةُ المتوسطة تَجِد لها مَدفنًا مُتواضعًا.

فإذا دخلتَ المَقبَرة وجدتَ الناس في قبورهم مُختلفين؛ هذا كأنه مَدفُون في قصر، وذاك مَدفُون في بيت، وذاك مدفون في عُشَّة!

وهذا كله خِلافُ المقصود الشرعي؛ **فإن المَقصُود الشَّرعي تراه في**: البقيع، فإذا دخلت البقيع وَجدتَ القبور سواسية، وأن الناس مُتسَاوون في قبورهم، وهكذا كان الأمر في زَمَن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي زمن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا يزال هذا -ولله الحمدُ والمِنَّة- في بعض بُلدَان المُسلمِين.

إذن فقد سَدَّ الشَّرعُ بابَ فتنة القبور فيما يتعلق بالقبور ذَاتِها.

والأمر الثاني: هو ما يتعَلَّق بجعلها موضعًا للعبادة؛ حيثُ نهىٰ الشَّرعُ عن جميع صُوَر الصلاة ذات الركوع والسُّجود عند القبور، سواء تعدَّدَت القبورُ أو كانت قبرًا واحدًا، فليست القبُورُ مَوضعًا للصَّلاة أبدًا، سواء صلىٰ علىٰ القبر، أي: صَلَّىٰ فَوقَه، أو صلىٰ إليه بأن جَعَله قبلة له، أو صلىٰ عنده، ولو كان القبر عن يمينه أو عن شماله أو من وراءه، وسواء بُنِي علىٰ القبور مَسجد أو لم يُبنَ، فكُل هذا ممنوع شَرعًا.

فاتخاذُ القبور مسَاجد كبيرةٌ من كبائر الذنوب، وشر عَظيم، وقد نصَّ فقهاء الأئمَّة الأربعة علىٰ حُرمَة اتخاذ القبور مساجد، ودلَّت علىٰ ذلك الأحاديث التي معنا في هذا الباب، وسنشرحها إن شاءَ الله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك دَلَّ علىٰ ذلك قولُ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا المَقْبَرَةَ وَالحَمَّام»**. رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني[1].

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«الأَرضُ كُلُّهَا مَسجِدٌ»**. فحَيثما أدركَتك الصلاة في موطن من الأرض فصَلِّ.

وهذا يَدُلُّنا علىٰ أن المَسجدَ هنا هو مكانُ السُّجود وليس البناء؛ لأنه ليس الأرض كلها مَبنية مسجدًا، فالمَقبَرة ليست مكانًا للسجود، وليست مكَانًا للصَّلاة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: **«أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نَهَىٰ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ»**. رواه ابن حبَّان، وصححه الألباني[2].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: **«نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَنِ الصَّلاة بين القُبُورِ»**. روَاه ابن حبَّان، وصحَّحَه الألباني[3].

فهذا أيضًا يَدُل علىٰ أن الصلاة ذات الركُوع والسجود بين القبور حرامٌ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٣١٩)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٢٣١٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٣١٨)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٢٣١٣).

ولو لم يَكُن الإنسَانُ مستقبلًا قبرًا ولا على قبر، إنما هو بين القبور.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا**» رواه مسلم(١).

أي: لا تجعلُوها قبلة، ولا تُصَلُّوا والقبر أمامَكُم، فقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك.

وقال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُمْتُ يَوْمًا أُصَلِّي وَبَيْنَ يَدِيَّ قَبْرٌ لَا أَشْعُرُ بِهِ، فَنَادَانِي عُمَرُ: الْقَبْرَ الْقَبْرَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي الْقَمَرَ، فَقَالَ لِي بَعْضُ مَنْ يَلِينِي: إِنَّمَا يَعْنِي الْقَبْرَ فَتَنَحَّيْتُ عَنْهُ»(٢).

وفي رِوَايَةٍ: عَنْ ثَابِتٍ الْبَنَانِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «رَآنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: وَأَنَا أُصَلِّي عِنْدَ قَبْرٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: الْقَبْرُ. قَالَ: فَحَسِبْتُهُ يَقُولُ: الْقَمَرُ.

قَالَ: فَجَعَلْتُ أَرْفَعُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَأَنْظُرُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَقُولُ: الْقَبْرُ، لَا تُصَلِّ إِلَيْهِ.

قَالَ ثَابِتٌ: فَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ يَأْخُذُ بِيَدِي إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ فَيَتَنَحَّى عَنِ الْقُبُورِ»(٣).

وهذه القصة روى البخَارِيُّ أصلَهَا تعليقًا(٤).

---

(١) برقم (٩٧٢).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤٢٧٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١/ ٤٠٤) برقم (١٥٨١)، وصححه الألباني في «تحذير الساجد» (ص٣٥).

(٤) كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ولفظه: «ورأى عمرُ أَنَسَ بنَ مالك يصَلي عندَ قبرٍ، فقالَ: القبْرَ القَبْر. ولمْ يأمرْهُ بالإعادةِ».

وهذا يَدُل علىٰ عِظَم الأمر؛ لأن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم ينتَظِر حتىٰ يَصِلَ إلىٰ أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بل ناداه من بعيد وهو يَقُول: القبر القبر!، وهذا يَدُل علىٰ أن هذَا أمرٌ مُنكَر.

فإن قال قائلٌ يعترض علىٰ ما قرَّرتموه في الأمرين: بدَليل من الكتاب، وآخر من السُّنة.

قلنا: ما الدليل من الكتاب؟

قال: قَولُ الله عَزَّوَجَلَّ في قصة أهل الكَهفِ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١].

قَالُوا: هذا من شَرع مَن قبلنا، وشرع مَن قَبلنا شرعٌ لنا.

إذن؛ هُم اتخذوا عليهم مسجدًا، فهذا يَدُل علىٰ جواز البنَاء علىٰ القبور، وبناء المسجد علىٰ القبر؛ لأنه إذا جاز بناء المَسجدِ جَاز غيره!

قُلنَا: الجَواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: لا نُسَلم أن هذا من شرع مَن قَبلنا؛ فإنه ليس فِعلَ نبي ولا بإقرار نبي ، وليس في الآية ما يَدُل علىٰ وجود نبي في ذلك الوقتِ أَصلًا.

إذن؛ هذا من فِعلِ بعض الناس، وفعلُ بعض الناس ليسَ حُجَّة.

والآن: هل فعلُ بعضِ المسلمين حُجَّة علىٰ دِينِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

الجواب: يَقينًا لا.

فكذلك فعل أولئك الناس ليس حُجَّة.

ثم إن بعضَ المُفسِّرين قالوا: إن الذين قالوا هذا من المشركين. وقال بعضهم: من المسلمين.

لكن الآية ظاهرة جدًّا في أن الذين قالوا إنما هم أهل الغَلَبة والقوة، فلم يكونوا أهل العلم ولا أهل الاتِّباع ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ولا عِبرَةَ بِفِعل أهل الغَلَبة والقُوَّة.

فلو أن إنسانًا قال: إن الحَاكمَ -وهو صاحبُ قوة وغَلَبة- قد أمَرَ بكذا، فإذن هذا حَلالٌ!

فهذا خطأ بلا شَك؛ لأن الحاكم مع قُوته ومكانته، إن كانَ مُسلمًا لا حُجَّة في فِعلِهِ ولا في قَوله.

الوجه الثاني: أنَّنا لو سَلَّمنا جدلًا أنه من شرع مَن قبلنا، فإن العلماء مُتَّفقون علىٰ أن شرع من قبلنا لا يكونُ شرعًا لنا إذا جاء في شَرعِنا ما يُخَالفُه؛ وهذا مَحَل إجماع.

فإذا جاء في الشرع السَّابق شيء، ثم جاءنا مُحمدٌ ﷺ بشيء يخالفه؛ فقد اتفقَ العلماءُ علىٰ أنه ليس شرعًا لنا؛ وأن ما جاء به محمد ﷺ يرفع ما تقدم.

وقد جاء في شرعنا ما يُخَالف هذا، فجاء: منعُ البناء علىٰ القبور، ومنعُ اتخَاذ القبور مَسَاجد.

إذن؛ تَبَيَّن أنه لا حُجَّة في الآية علىٰ بنَاء المَسَاجد علىٰ القبور، ولا بناء الأبنيَةِ علىٰ القُبور.

وأما دليلُ المُعتَرض من السُّنة: فهو قَبرُ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

قُلنا: كيف يُعارضُ مَا ذكرناه؟

قال: من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفِنَ في بَيته بالإجماع.

ومعنىٰ ذلك أن قبره كان تحت البنَاء، فهذا دليل علىٰ جَوازِ أن يكون علىٰ القبر بنَاء.

والجواب عنه: أن الأنبياء لهم خُصُوصيَّة؛ فإن مَوضعَ دَفن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توقيفي، لا يجوز تغييره.

فالأنبياء يدفنون حيث قبضوا، وهذا من خصَائصِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنهم يُدفَنُون في موضع مَوتِهم، فهذه خصوصِيَّة للنبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس لأحَدٍ أن يحتجَّ بها.

فعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: **«لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختَلَفُوا فِي دَفنِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكرٍ: سَمِعتُ مِن رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيئًا مَا نَسِيتُهُ، قَالَ: مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي المَوضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَن يُدفَنَ فِيهِ. ادفِنُوهُ فِي مَوضِعِ فِرَاشِهِ»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠١٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ولو قال قائلٌ: سَلَّمنا لهم خصوصيَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ولا يملك إلا أن يُسَلم لورودِ الدليل الصحيح-، لكن ماذا تقولون في دَفنِ أبي بكر وعُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟

قُلنا: لما دُفنَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان جاز دفنُ غيره تبعًا، ويُغتَفر في التوابع ما لا يُغتَفر في غيرها، ويجوز تبعًا ما لا يَجُوز استقلالًا؛ فلم يُدفَن أبو بكر الصديق ولا عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بيتٍ استقلالًا، وإنمَا كان ذلك تبعًا لدفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والوَجه الثاني: أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفِنَ في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولا شَكَّ أنَّها كانت تُصَلِّي في بيتها، وهذا يَدُل علىٰ جواز الصلاة عند القُبُور.

والجواب: أن المَكان الذي دُفن فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قُطِعَ عن البيت، فكانت هناك سُترة علىٰ الباب تفصله عن حُجرَة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم بعد ذلك بُني هذا الباب ووضع حائط بين حجرة عائشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وبين القبور، فما كانت تُصَلي في المكَانِ الذي فيه القَبر.

والوجهُ الثَّالث: قالوا: إنَّ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجده، وقد أجمَعَ العلماءُ علىٰ صحَّة الصلاة في مَسجدِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذن تَجُوز الصلاة في مكانٍ في قبر!

والجَوَاب عن هذا:

أولًا: أن هذا جهلٌ بالواقع؛ فإن قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَكُن في المسجد؛

بل كان في بَيتِ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وهو خارجُ المسجد، وكانَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ يَقضِي حاجَتَه فيه، ويُجَامع زوجته فيه، فبيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا ليس من المَسجِد.

وبقي كذلك إلىٰ أن ماتَ جميعُ الصحابة في المدينة، وعندما جاء الوليد بن عبد الملك خليفَة للمسلمين -قيل: في سنة ثمان وثمانين، وقيل: سنة تسعين، وقيل: في سنة إحدىٰ وتسعين- أدخَلَ الحجرات في المسجد، يعني: جعل المَسجدَ شَاملًا للحجرات، غير أَنَّهُم حرصُوا علىٰ فَصْل القبر عن المسجد، وهذا ما يَجهَلُه كثير من الناس.

فإنه لمَّا جاءَ عُمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ -وقد كان الوَالي علىٰ المدينة- للوليد بن عبد الملكِ وأدخَلَ الحجرات، ماذا صَنعَ في القبر؟

بنىٰ حَولَه بناءً مُحكمًا، ولم يجعل مكَانًا من المسجد بين القبر والجهة الشرقية، فالقبر كان مُتصلًا بالجهة الشرقية، إذن المسجد من هنا ينتهي عند القبر؛ لأن القَبر قد أحيط ببناء قوي، ثُم بعد ذلك أحيطَ بحَائط خُمَاسي، ثم يكون مُثلثًا من جهَةِ الشمال، فهو حائطٌ خُمَاسي له خَمس زوايا حتىٰ لا يكون مثل الكعبة، ثم حائطتان ممتدان إلىٰ جهة الشمال حتىٰ يلتقيا علىٰ رأس مثلث: فمن جهة القبلة هو مخمس، ومن جهة الشمال هو رأس مثلث.

وبقي القَبر مُنفصلًا عن المسجد بهذه الحِيطَان، ثم هو مُتَّصل بالجهة الشرقية، واستمر الحالُ علىٰ هذا، ولم يدخُل القبر حقيقة في المسجد إلىٰ ما بعد ألف ومائتين وسبعين من الهجرة، وقيل: ألف ومائتين وسبع وسبعين، أو نحو هذا، ففُتحَ ممَر بينَ المسجد والجهة الشرقية، فجُعِلَت بقعة من المسجد

من الجهة الشرقية... ومتىٰ حصل هذا؟

بعد مرور اثني عشَرَ قَرنًا علىٰ موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهُنا أصبح المسجدُ مُحيطًا بالقبر، **وقبل ذلك كنت تأتي القبر من ثلاث جهَاتٍ:** من جهة الجنوب، ومن جهَة الغرب، ومن جهة الشَّمال.

أمَّا من جهة الشَّرق فلا تستطيع؛ لأنك ستكُونُ خارج المسجد، إلا بعد أن فُتحَ هذا المكان وهذا المَمَر، فأصبحتَ تستطيعُ أن تأتي القبر من داخل المسجد من جميع الجِهَات.

فإذن؛ القَبر أولًا لم يَكُن في المسجد مُطلقًا مُدَّة زمن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ أن مات آخرُ صَحَابي في المدينة في خَمسٍ وسَبعين من الهجرة تقريبًا، ثُم بَعدَ ذلك بسنين حصَلَ إدخالُ الحُجرات من غير أن يَدخُل القبر علىٰ الوصف الذي ذكرناه، واستمر هذا علىٰ القُرون إلىٰ سنة ألف ومائتين وسبعين أو سبعة وسبعين، وجُعل هذا المَمَر؛ فأصبح القبر داخل المسجد؛ أي: أن المسجد يُحيطُ به، ولا حُجَّة في فعل المُتأخِّرين.

وثانيًا: نقول: إن قَبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس في مَسجدِه إلىٰ اليوم، وإنما أحاطَ المسجِدُ بالقبر، فقَبْرُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بُقعَة متميزة، في بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي وقَعَ أن المسجد أحاطَ به مع فَصلِهِ بالحيطَان التي ذكرنَاها.

ثم إنَّا نَقُول: إنَّ لقَبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصوصية، ولمسجده خصوصية تمنع أن يُقَاس عليه... كيف هذا ؟

مسجدُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له فضيلة خاصة ولا يُغني عنه مسجد آخر، وقبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موضعه توقيفي لا يجوز أن يُنقَل منه، وهذا ما لا يُوجَدُ في أي مسجدٍ فيه قبر؛ فلو أغلَقنَا أيَّ مسجد فيه قبر فَلَن يتغيَّر شيء، بل يمكنُ أن نُصَلي ببقية المساجد، وبُيوت الله كلها سواء.

أما لو نَقلنَا القبر من المَسجد؛ فما المانعُ الشَّرعي في ذلك؟

لا مانع، لكن لا يَجُوز هذا بالإجمَاع بالنسبة لمَسجدِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن موضعه تَوقيفي، بغضِّ النظر عن الخطأ الذي وقع بعد ذلك.

وهل يَجُوز لمسلم أن يُفَكر مجرد تَفكير أن يَنقلَ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

وهل يجوز أن نُغلقَ مَسجدَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ونقول لأهل المدينة: صَلُّوا في بقية المَساجِد، فكلُّها سواء؟

لا يجوزُ هذا بإجمَاع أهل العِلم؛ لأنه لا يُغنِي عن مَسجدِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي مَسجد آخر.

والأمرُ الآخَر: أن قَبرَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُبنَ عليه المَسجد، ولم يَدخُل في المسجد من أجل القبر علىٰ القَول بأنه داخل المسجد؛ وإنما أُدخِل من أجل توسعة المَسجد، ولا تجد مسجدًا فيه قبر في الدنيا إلا ويَكُون المسجد قد بُنِي من أجل القَبر، فيكونُ القبر سابقًا ثم يبنىٰ عليه المسجد، أو يكون القَبر أُدخِل في المسجد من أجل القَبر، فصُورَةُ بناء المَساجد علىٰ القبور، أو إدخال القبر إلىٰ المساجد تُخَالف ما وقع في قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعليه فلا حُجَّة في هذا، ولا وجه لمُعَارضة الأدلة الصحيحة الصريحة بهذه الأمور، فلم تَبق شُبهَة ولا دليلٌ يُعَارِضُ ما قرَّرناه.

ولا شك أن هذا البابَ عظيمٌ؛ فإن أخطاء المسلمين المُتَعلقة بالقبور كثيرة جدًّا، وقادَهُم ذلك إلىٰ زَلَلٍ عظيم حتىٰ وقعَ بعضُهم في الشرك الأكبر، ففِقهُ هذا البابِ من أعظم الواجبَات، وينبغي علىٰ طُلَّاب العلم أن يُبيِّنوه ويُوضِّحوه لأمة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ﮧ ❁❁❁ ﮨ

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَن عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَت لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتهَا بِأَرضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ العَبدُ الصَّالِحُ؛ بَنَوا عَلَىٰ قَبرِهِ مَسجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلقِ عِندَ اللهِ».

فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَينَ الفِتنَتَينِ: فِتنَةِ القُبُورِ، وَفِتنَةِ التَّمَاثِيلِ.

الشرح

قال: (**فِي الصَّحِيحِ**): أي: عند البُخَاري، وكذلك رواه مسلم[١]، فهذا الحديث متفق عليه بين الشَّيخين؛ فهو في غاية الصِّحَّة.

(**عَن عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ**): أم المؤمنين، وجاء في رواية أخرىٰ: أن أم سَلَمة وأم حبيبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قد ذكرتَا هذا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢].

(**ذَكَرَت لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتهَا بِأَرضِ الحَبَشَةِ**): يعني: عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك في المَرَض الذي مَرِضَه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر حياته؛ لأنه جاء عند البخاري أنَّهما ذكرتَا ذلك لما اشتكىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومعلومٌ أن المرضَ لما اشتد بحبيبنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استأذَنَ نساءَه في أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

يُمرَّض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأذِنَّ له، وكن يجتمعن عندَهُ كلَّ يوم، ففي ذات يوم اجتمَعن وهُن يتحدثن، فذكرت أم سلمَة وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الكنيسة.

وهذه الكَنيسَة جاء في الرواية الأخرىٰ عند الشيخين: أنه يُقَال لهَا: مارية (كَنيسَة مارية).

(وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ): وفي رواية: «مَا فِيهَا مِن الصُّوَرِ والتَّماثيل، وذَكرنَ مِن حُسنِها»؛ أي: من حُسن هذه الصور والتماثيل وإتقانها.

وهذه الرِّواية فيها فائدة: إذ إنَّها تَدُل علىٰ أنهم كانوا يُصَوِّرون صورًا لها ظِل وهي المسماة بالتماثيل، ويُصَورونَ صُورًا ليس لها ظل، وهي الرسم، والمُسَماة بالصور، ويَجعَلُون ذلك في الكنائس، ولا يزال إلىٰ اليوم يُوجَد هذا في الكَنَائس، فتجد -والعياذ بالله- أنهم يُمَثلون هيئة عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مَصلُوب، ويُمثلُون تماثيل لمَريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، ويُصَوِّرون صورًا لمَن يُسَمون من الأنبياء والصالحين في الكنَائس.

(فَقَالَ: أُولَئِكِ): قال العلماء: وفي التعبير بضمير البعيد فائدَةٌ، وأَنَّهُم مُبعَدون عنَّا.

(إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَو العَبدُ الصَّالِحُ): شَكَّ الرَّاوي: هل قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرجُل الصَّالح، أو: العَبد الصَّالح؟

(بَنوا عَلَىٰ قَبرِهِ مَسجِدًا): فيَبنُون أماكنَ العبادة علىٰ القبور، وهذا يَدُلنا علىٰ أن المَقصُود بالمسجد: مَوضِع العبادة؛ لأن المقصودَ أنهم يَبنُون كنائس لا أنهم

يبنون مسجدًا، لكن المَقصُود بالمسجد هنا: موضِع العبادة.

(وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكَ الصُّوَرَ): فيجمَعُون بين فتنة القبور وفتنة الصُّوَر والتماثيل.

قال العلمَاءُ: إنما يبنون المسجدَ على القَبر لعبادَةِ الله، وليس لعبَادَة أصحاب القبُور ابتداءً، ويُصَورون التماثيل ليستأنسوا برؤيتها ويتشجعوا على العبادة، هذا أول الأمر، ثم بعد ذلكَ يَقعُون في عبادة القبر وعبادة التَّماثيل.

(**أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلقِ عِندَ اللهِ**): وهذا يَدُل على عظيم جُرمِهم حتى وُصِفُوا بهذا الوصف.

فشِرَارُ الخَلق عند الله هم: الذين يَبنُون المساجد على القبور، ويتَّخذون الصور والتماثيل ولو لم يَعبُدوها، فكيف إذا عَبَدُوها؟!

وهذا يَدُل على حُرمَةِ بنَاء المسَاجِد على القُبُور، وعلى حُرمة نَصبِ الصُّور والتماثيل للصَّالحين وغيرهم، وهذا كان في آخر حياةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا يَرُد على من أغواهم الشيطان فقَالوا: إنَّ النهي عن اتخاذ القبور مسَاجدَ كان في أول الإسلام، قبل أن يستقِرَّ التوحيدُ، فلمَّا استقَرَّ التوحيد جازَ ذلك؛ مثل زيارة القبور، قالوا: هذا مثل زيارة القبور!

وقد تقدَّمَ أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهاهم عن زيَارَةِ القبور أولًا ثم قال: «**نَهيتُكُم عَن زِيَارَةِ القُبُورِ، فزُورُوهَا**»[1].

قالوا: وهكذا هنا، النَّهي عن اتخاذِ القُبور مساجدَ كان في أول الإسلام،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بُرَيدة بن الحُصَيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فلما استقَرَّ التوحيدُ وتمكَّنَ من القلوبِ ارتفَعَ هذا النَّهي.

قُلنا لهم: من أين لَكُم هذا؟

فإنه لا يُرفَعُ قَولُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا بقَولِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُم إنَّ هذا الحديث وما بَعدَهُ من الأحاديث يَرُد عليكم؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا في مَرضِ مَوته، وذلك بعدَ أن استقَرَّ التوحيد، وأُذِنَ للناس في زيارَةِ القُبُور؛ فيَدُل علىٰ بُطلان مَا ذَكرُوه.

(فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَينَ الفِتنَتَينِ: فِتنَةِ القُبُورِ، وَفِتنَةِ التَّمَاثِيلِ): وهذا معنىٰ كَلام شيخِ الإسلام ابن تيميَّة، ونَص كَلام ابنِ القَيِّم[1].

وهذا ظاهرُ في الحَديثِ، وهاتان الفتنتان هُما أساسُ الشَّر، وحَبلُ الوقوع في الشِّرك، والعيَاذ بالله.

❊❊❊

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٩١ عالم الكتب)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٤ المعارف).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولَهُمَا عَنهَا قَالَت: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجهِهِ، فَإِذَا اغتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَولَا ذَلِكَ لَأُبرِزَ قَبرُهُ غَيرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا. أَخرَجَاهُ.

الشرح

قال: (ولَهُمَا): أي: للشَّيخَين: البخاري ومُسلِم؛ فهو مُتَّفق عليه[1].

(عَنهَا): أي: عن عَائشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَعني: لمَّا أخذَ في النَّزع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما جاءَتهُ سكَرات الموت وكانت سكرات الموت قد اشتدَّت بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلمَوتِ سَكَرَاتٍ**»[2]، وهو في هذا الكَرب الشَّديد والنَّزع الشَّديد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **(طَفِقَ)**: ويقال: طَفَقَ، وكلاهُما صحيحٌ، والأفصح الكَسر. يعني: أخذ.

(يَطرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجهِهِ): أي: يأخذُ كساءً من صُوف ويَضَعه علىٰ وَجهِهِ الشريف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شِدَّة النَّزع وشِدة سَكَرات الموت.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

(فَإِذَا اغتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا): أي: إذا ضاقَ نَفَسُه بسبَبِهَا كشَفَها، وجَاء أنه كان يبُلُّها بالماء ويَضعُها على وجهه الشريف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشدَّة النَّزع[1].

(فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ): في آخرِ لحظة من لحَظَات حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(لَعنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى): واللعنُ: هو الطَّرد والإبعاد من رَحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي هنا من نَبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إما دُعاء عليهم، وإمَّا خَبَر عن وقوع اللعنة عليهم، ولا شَكَّ أنَّهم لُعِنُوا.

(اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ): أي: جعلُوهَا موضعًا للصلاة والعبَادَة.

والاتخاذُ لا يلزَمُ منها البناء؛ لأنه -كما قلنا-: المَسجدُ هو مَوضع الصَّلاة ومَوضعُ العبَادة، سَواء بُنِي عليه بناء أو لم يُبنَ.

فإذا كان ذلكَ في اتخاذِ قبُور الأنبياء؛ فمِن بابِ أَولىٰ في اتخاذ قبور مَن دُونَهم ممَّن يُقالُ إنهم من الأولياء أو من الصَّالحين.

فقالت عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **(يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا)**: أي: يُحذِّر الأمةَ مما صنَعَ اليهودُ النَّصارىٰ فاستَوجَبُوا به لعنَةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُودِّع الدنيا ويُفَارقها في آخر لحظَاتِ حيَاته يُحذِّر أمَّته من اتخاذ القبور مساجد، ومع ذلك نَجدُ بعضًا ممن قد يَنتسِبُون إلىٰ العلم يُحَبِّبُون إلىٰ الناس بناءَ المَسَاجد علىٰ القبور، نَعُوذُ بالله من الضلال.

إن المُؤمنَ المُحبَّ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا علمَ أن هذا آخر ما قالَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) التخريج السابق نفسه.

يَعلمُ أن هذا الأمر عظيم؛ فكيفَ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في النَّزع، وهو في كَربِ السكرات يَقُول هذه المقالَةَ العَظيمَة؟!

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحذِّرنا مما صنَعَ اليَهُود والنصارىٰ، وهذا ليس خَبرًا للتسلية أو قِصَّةً تُذكر، وإنما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر أمته مما صنعوا.

قَالَت: (وَلَولَا ذَلِكَ لأُبرِزَ قَبرُهُ): أي: لولا الخَوفُ من أن يُبنىٰ عليه ويُتَّخذ موضعًا للعبادة لأُبرز قبره؛ أي: أُخرِج، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَاء ألَّا يُبرز قبره، فقبضَهُ داخلَ بَيتِهِ، والله حَكَم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدفَن حيث مات ولا يبرز قبره.

وقد فَهِمَ ذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولم يُبرزُوا قَبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس.

والإبراز هنا ليس بمعنىٰ (الرَّفع)، وإنما المقصود بالإبراز: الإخراجُ للنَّاس، فلم يُدفَن في البقيع ولا في غير ذلك، وإنمَا دُفِنَ في داخل بيته، ولا أحدَ يستطيع أن يدخل بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلىٰ اليوم لا يستطيع أحد أن يدخُلَ مكانَ قَبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقد حَفظَ الله قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما في أول مَوتِه بوجود أُمِّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالبيت، فلا أحد يستطيع أن يدخل، وكان الناس في ذلك الوقت من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين رَبَّاهم وعلَّمَهُم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بعد ذلك ببناء الحائط، ثُم في زمن عمر بن عبد العزيز ببناء الحائط الخُمَاسي المُخَمَّس والمُثلَّث، ثم بعد ذلك وُضِعَ حائطٌ من حديد، فهذا الحائط الثالثُ، والظاهر أنه

هو الموجودُ الآن، وهذا وضعَ في زمن العثمانيين، فلا أحَدَ يستطيع أن يَصِلَ إلىٰ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالت: (غَيرَ أَنَّهُ خُشِيَ): أي: خَشِيَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجاء في ضبطِ (خَشِيَ)؛ أي: خَشِي النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا كان هذا خُشي علىٰ قَبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مَحذُور بالنسبة لقبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن بابِ أَولىٰ ما دُونه، فما عَرفَت الأرض قبرًا أشرف من قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما حَوَىٰ قَبرٌ أشرف من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك خُشِي أن يُتخذ قبره مسجدًا، فلم يبرز للناس، **فهذا يَدُلنا علىٰ الأمر الكُلي اليقيني**: أنه لا يجُوزُ أن يُبنىٰ البناء علىٰ القبر مَهمَا كان فَضلُ صاحب القبر.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولِمُسلِمٍ: عَن جُندُبِ بنِ عبدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَبلَ أن يَمُوتَ بِخَمسٍ وهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَن يَكُونَ لِي مِنكُم خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذتُ أَبَا بَكرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَن كَانَ قَبلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُم عَن ذَلِكَ».

الشرح

قَالَ: (ولِمُسلِمٍ): أي: في «صَحيح مُسلِم»[1].

(عَن جُندُبِ بنِ عبدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَبلَ أن يَمُوت بِخَمسٍ): أي: بخَمس ليَالٍ.

فهذه الأحاديث في غاية الإحكام، وقد قالها النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مرض موته، كما في الحديث السابق، وهذا الحديث قاله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس؛ وما هذا إلا للتأكيد، وهو في هذه الحَال في مرض موته، قبل أن يموت بخمس عند النزع؛ يؤكد هذه القضية الكلية علىٰ الأمَّة.

وقد جاء أن هذا كانَ في خُطبته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولعَلها الخُطبَة الأخيرة، التي خرج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيها إلىٰ الناس، قبل أن يَمُوت وخَطَب الناس.

---

(١) برقم (٥٣٢).

(**وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبرَأُ إِلَىٰ اللهِ**): أي: أمتنعُ وأُنكر.

(**أَن يَكُونَ لِي مِنكُم**): من أمَّته.

(**خَلِيل**): والخليل: هو الحَبيبُ غاية المَحبَّة، مأخوذ من (الخُلَّة) وهي: تخَلل المَودَّة والحب في القلب تخَللًا عظيمًا، وهذا يقتضي الانقطاع.

(**فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا**): وفي هذا رَدٌّ علىٰ نُفَاة الصفات، وبيَان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحِب، وقد اتَّخذ الله إبراهيم خَليلًا؛ أي: اصطفاه بغاية مَحبَّته، واتَّخذَ محمدًا صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خليلًا؛ فاصطفاه بغاية مَحبَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ففي هذا إثباتُ الصفات لربِّنا جَلَّ وَعَلَا علىٰ ما يليق بجلال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**كَمَا اتَّخَذَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَو كُنتُ مُتَّخِذًا مِن أُمَّتِي خَلِيلًا لاتَّخَذتُ أَبَا بَكرٍ خَلِيلًا**): وجاء في رواية عند الشَّيخَيْن[1]: قال: «**لَو كُنتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لاتَّخَذتُ أَبَا بَكرٍ خَلِيلًا، وَلَكِن أُخوَّةُ الإِسلَامِ وَمَودَّتُهُ...**». يعني: بَيني وبين أبي بكر أخوة الإسلام ومَودَّته والمَحبَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا يدل علىٰ أن الخلَّة أعظَم من المَحبَّة، فهي أعلىٰ درجات المَحبَّة.

النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يحب أبا بَكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ بل كان أبو بَكرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أحبَّ الناسِ إلىٰ النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

عن عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَعَثَهُ عَلَىٰ جَيْشِ ذَاتِ

---

(١) البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

السُّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ. فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: أَبُوهَا. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ. فَعَدَّ رِجَالًا»(١).

ومع ذلك لم يَتَّخذه خَليلًا؛ لأن الخلة أعلىٰ درجَاتِ المَحبَّة.

وقد جاء في رواية للبخاري ومسلم(٢) أيضًا: أنَّ النبي ﷺ قال: «**وَلَكِنِ أَخِي وَصَاحِبِي**».

وهذا يَدُل علىٰ فَضل أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأَنَّهُ أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ، وفي هذا رَدٌّ علىٰ الذين يَسُبونه ويَلعَنُونه.

النبي ﷺ ماتَ وهو راضٍ عنه، وقبل أن يَمُوت بخَمس يقول: «**وَلَكِنِ أَخِي وَصَاحِبِي**». وما ذكَرَ إلا أبَا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنه أفضلُ الصحابة، وهو أعلىٰ من يُحِبهم النبي ﷺ من الناس، وما منَعه من اتخاذه خليلًا إلا أنه خليلُ الله، كما جاء في الروايات.

قال العُلمَاء: وفي هذا إشارَةٌ إلىٰ أنه الخَليفَة، فمَا دام أنه أفضل الأمَّة، وأَحَب الأمة إلىٰ النبي ﷺ؛ فلن يتقدم عليه أحَدٌ، ولا يستحق أحدٌ الخلافة دونه -رضي الله عن صحَابَةِ رسُول الله ﷺ أجمَعين-.

قال: (**أَلَا وَإِنَّ مَن كَانَ قَبلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**): أي: يتخذُونَها مواضِعَ للعبادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٦)، ومسلم (٢٣٨٣).

(أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ): هذا نَهيٌ للأمة حتىٰ لا يأتِي أحدٌ ويَقُول: هذا حكاية عن اليَهُود، أما نَحن فما نُهِينَا.

ثم أَكَّدَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّهي السَّابق بقوله بَعدَه: **(إِنِّي أَنهَاكُم عَن ذَلِكَ)**: فتعَجَّب! كيف يَسمعُ مُسلم يُحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فيَبني علىٰ القبر مسجد؟! والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ذلك في آخر حياته.

فهذه أحاديثُ صحيحة مُحكَمة لا يتطرق إليها ضعف، ولا يُمكن أن تكون منسوخة؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالها في آخر حيَاته، فَلَم تُنسَخ.

وهي مُحكَمة في معناها، ومُحكَمة في ذاتها؛ وهذا يَدُل دلالة بينة علىٰ حُرمَة اتخاذ القبور مسَاجد.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَقَد نَهَىٰ عَنهُ وَهُوَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَن فَعَلَهُ، وَالصَّلاةُ عِندَهَا مِن ذَلِكَ، وَإِن لَم يُبنَ مَسجِدٌ، وَهُوَ مَعنَىٰ قَولِهَا: «خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجِدًا، وَكُلُّ مَوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسجِدًا، بَل كُلُّ مَوضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسجِدًا، كَمَا قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَت لِيَ الأَرضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا».

الشرح

وهذا الكلامُ قطعة من كلام شيخِ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَقَد نَهَىٰ عَنهُ)**: أي: نهىٰ رَسُولنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتخاذِ القبُور مسَاجد؛ أي: مَواضِعَ للعبادة عندها -كما تقدم بيانُه-.

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ أمته، نَهىٰ كلَّ مَن يؤمن به، ويشهَدُ أن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يتخذ القبورَ مسَاجِد، وقد اتفق فقهاءُ المذاهب الأربعة جميعًا من الأحناف، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، علىٰ تَحريم اتخاذ القبُور مسَاجد.

قال: (فَقَد نَهَىٰ عَنهُ وَهُوَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ): فهذا النهي جاءَ مِن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخرِ حياتِه، قبل أن يَموت بخمس، وهو في مَرض مَوتِه، ثم وهو في آخر لحظةٍ، وهو يُعَاني سَكَرات الموت صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهىٰ عن ذلك.

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٨٩/ عالم الكتب).

لذلك قال: (ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَن فَعَلَهُ): أي: عند الاحتضار.

وهذا يَدُل علىٰ أن الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماتَ وهو يَنهَىٰ عن هذا، ويُحَذر منه، وهذا لا شَك يجعل المؤمن يَنفِر من هذا المُنكر العظيم، فَضلًا عن أن يكون من أهله، فهذا من كبائر الذنوب التي يستحق بها المَرءُ إذا فعَلَها -والعياذ بالله- لعنَةَ الله، والطَّرد من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ -تبعًا لشَيخ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ-: **(وَالصَّلاةُ عِندَهَا مِن ذَلِكَ وَإِن لَم يُبنَ مَسجِدٌ)**: فالصَّلاة عند القبور من اتِّخاذها مساجد، وليس المقصود فقط من اتخاذها مسَاجد: أن تُبنَىٰ عليها مساجد، وإنما المقصود -كما تقدم-: أن تُتَّخذَ موضعًا للصلاة، سواء صلىٰ فوق القبر، أو صلىٰ إلىٰ القبر، أو صَلَّىٰ بين القبُور؛ فكُلُّها نهىٰ عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وَهُوَ مَعنَىٰ قَولِهَا: «خُشِي أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجِدًا): أي: وهو معنَىٰ قَولِ أُمِّنَا أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **«خُشِي أَن يُتَّخَذَ مَسجِدًا»**؛ أي: يُتَّخذ موضعًا للصلاة، وليس المقصود أنه خُشِي أن يُبنىٰ عليه مسجد؛ لأن الأمر كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجِدًا)**.

فَلا يُمكن أن يَبني الصحَابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حولَ قَبر النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسجدًا لأمرَين:

الأمر الأوَّل: أنَّهم علِمُوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بناءَ المَسجِد علىٰ القبر من كبَائر الذنوب، وحَرَام حُرمة مُغَلَّظة، يَستحق به العبدُ لعنَةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومِن المُحَال أن يسمَعَ صحابةُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأحاديث التي سَمِعناها ثم يُخَالفوها.

والأمر الثاني: فَالمَعلُوم أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفِنَ في بيته، وأن بيتَه مُلاصقٌ لمَسجِده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمِنَ المُحَال أن يأتي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ويَبنُوا مسجدًا آخر ملاصقًا لمَسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا لا يُمكنُ أن يقعَ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(وَكُلُّ مَوضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسجِدًا، بَل كُلُّ مَوضِعٍ يُصَلَّىٰ فِيهِ يُسَمَّىٰ مَسجِدًا): أي: كُل مَوضِع يَقصِدُ الناسُ الصلاةَ فيه فَهُو مسجد؛ سواء بُني أو لم يُبنَ عليه.

وحتىٰ المرأة التي تُصَلِّي في بيتها فمَوضِع صلاتها هذا مَسجِد؛ لأنه قد دلَّ الدليلُ الشرعي علىٰ أن المَسجدَ هو موضع الصلاة مُطلقًا.

(كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«جُعِلَت لِيَ الأَرضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا»)**: وهذا في الصحيحين[1].

وهذا من خصَائص أمَّة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّ المسلمَ حيثمَا أدركَته الصلاةُ يُصَلِّي، وليس من شَرطِ صحَّة الصلاة أن تكونَ في مسجد مَبنيٍّ؛ بل إذا صلىٰ المسلمُ في أي مكَانٍ صَحَّت صَلاتُه.

ودَلَّ ذلك علىٰ أنَّ المراد بالمَسجِد هو مَوضِعُ الصلاة ولو لم يُبن بنَاء -كما قرَّرناه-.

---

(١) أخرجه البُخَارِيُّ (٤٣٨)، ومُسْلِمٌ (٥٢١) منْ حديث جَابِر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولأَحمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعًا: «إِنَّ مِن شِرَارِ النَّاس: مَن تُدرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُم أَحيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح

هذا الحديثُ رواه أحمدُ وابنُ حبان، كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصَحَّحهُ الألبَاني[١].

والشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قالَ:** (بسَندٍ جيِّد) تبعًا لشيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

(**إِنَّ مِن شِرَارِ النَّاس**): أي: في الدنيَا.

(**مَن تُدرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُم أَحيَاءٌ**): وهذه الجملة جاء معناها في «صَحيح مُسلم»[٣]: عَن عَبدِ اللهِ بن عَمرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَىٰ شِرَارِ الخَلقِ**».

فَلَن تَقومَ السَّاعة علىٰ صَالِح، وإنمَا سَتَقُوم علىٰ شرار الناس.

ووَجهُ ذلك: أن الله عَزَّوَجَلَّ يبعثُ في آخر الزمان رِيحًا أَلْيَنَ من الحرير،

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣٤٢)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٦٨٤٧)، وصححه الألباني في «تحذير السَّاجد» (ص٢٣).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٨٦/ عالم الكتب).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤).

فلا تدَعُ أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبَضتهُ.

فَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قَالَت: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَذهَبُ اللَّيلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعبَدَ اللَّاتُ وَالعُزَّىٰ. فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِن كُنتُ لَأَظُنُّ حِينَ أَنزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣] أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا!

قَالَ: إِنَّهُ سَيَكُونُ مِن ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّىٰ كُلَّ مَن فِي قَلبِهِ مِثقَالُ حَبَّةِ خَردَلٍ مِن إِيمَانٍ، فَيَبقَىٰ مَن لَا خَيرَ فِيهِ؛ فَيَرجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِم»(١).

وَعَن أَنَس بنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي الأَرضِ: اللهُ اللهُ»(٢). يعني: يذهبُ الصالحونَ الذين يَذكُرون الله، ولا يَبقَىٰ إلا الشِّرار.

فهذا الحديثُ العظيم يُبين لنا أن بناءَ المسَاجد علىٰ القبور شَر، وأن الذين يفعَلُونه أشرار.

وكيف يَرضَىٰ المسلمُ المُصدِّق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أن يفعل الشَّر الذي وَصَف النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أهلَه بأنهم من شرار الخلق؟!

لا شكَّ أن في هذا زجرًا عظيمًا عن اتخاذ القُبور مَساجد.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَن بَنَىٰ مَسجِدًا يُعبَدُ اللهُ فِيهِ عِندَ قَبرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَو صَحَّت نِيَّةُ الفَاعِلِ.

وهذا يَدُل علىٰ عِظَم الأمر، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يلتَفِت إلىٰ نِيَّتهم، وقالَ: «**أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلقِ عِندَ اللهِ**». لمُجَرد أنَّهم بنَوا مسجدًا علىٰ القبر، ولو كان هذا المُسجدُ يُعبَد فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّانِيَةُ: النَّهيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وَغِلَظُ الأَمرِ فِي ذَلِكَ.

والنَّهي عن تصوير التماثيل؛ لأنَّها من أعظم أسباب وقوعِ الشِّرك.

الثَّالِثَةُ: العِبرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ، كَيفَ بَيَّنَ لَهُم هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبلَ مَوتِهِ بِخَمسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَم يَكتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

وهذا يجعلُ المُؤمنَ حَريصًا علىٰ البُعد عن هذا الأمر الذي مات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُحذِّر منه.

الرَّابِعَةُ: نَهيُهُ عَن فِعلِهِ عِندَ قَبرِهِ قَبلَ أَن يُوجَدَ القَبرُ.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ وهو في النَّزع: «**لَعنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**». قالت أمُّنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**يُحذِّرُ مَا صَنَعُوا**». وذلك قبل أن يَمُوت صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويَكُون له قبر فنهاهم عن هذا الأمر.

الخَامِسَةُ: أَنَّهُ مِن سُنَنِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي قُبُورِ أَنبِيَائِهِم.

بمعنىٰ: أنه لو لم يَرِد إلا أن هذا مِن فِعلِ اليهود والنصارىٰ؛ لوَجبَ علينا أن نُخالفهم؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُخَالفهم. فكيف وقد ورَدَت النصوصُ المُغَلِّظة في هذا الأمر؟!

السَّادِسَةُ: لَعنُهُ إِيَّاهُم عَلَىٰ ذَلِكَ.

وهذا يَدُل علىٰ أن بنَاء المَسَاجد علىٰ القبور من كبَائر الذنُوب.

السَّابِعَةُ: أَنَّ مُرَادَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحذِيرُهُ إِيَّانَا عَن قَبرِهِ.

كما قالت أمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يُحذِّرُ مَا صَنَعُوا».

الثَّامِنَةُ: العِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبرَازِ قَبرِهِ.

وذلك أنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خَشوا أن يُتَّخذ مسجدًا.

التَّاسِعَةُ: فِي مَعنَىٰ اتِّخَاذِهَا مَسجِدًا.

وهو أن تُتَّخذ موضعًا للتعبد، وليس المقصود بأن يُبنَىٰ مسجدٌ عليه؛ لِمَا ذكرنا من الأمرَين.

العَاشِرَةُ: أَنَّهُ قَرَنَ بَينَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسجِدًا وَبَينَ مَن تَقُومُ عَلَيهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَىٰ الشِّركِ قَبلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

قارن في حَديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بينَ مَن تقوم عليهم السَّاعة، وهم المشركون، وبين اتخَاذِ القبور مسَاجدَ، وهذا ذريعة إلىٰ الشِّرك، فذَكَرَ الذريعة

والسَّبب، وذكر ما تُوصلُ إليه وهُو الشِّرك.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: ذِكرُهُ فِي خُطبَتِهِ قبلَ مَوتِهِ بِخَمسٍ: الرَّدّ عَلَىٰ الطَّائِفَتَينِ اللَّتَينِ هُمَا شَرُّ أَهلِ البِدَعِ، بَل أَخرَجَهُم بَعضُ السَّلَفِ مِنَ الثِّنتَينِ وَالسَّبعِينَ فِرقَةً، وَهُمُ الرَّافِضَةُ وَالجَهمِيَّةُ، وَبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّركُ وَعِبَادَةُ القُبُورِ، وَهُم أَوَّلُ مَن بَنَىٰ عَلَيهَا المَسَاجِدَ.

مُراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن في الحديث ردًّا علىٰ الذين يَتنقَّصون صحابة رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويلعنون خيرَ الأمة بعد رَسُولها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويحكمون عليه بالنار، مع أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّن فَضلَهُ كما تقَدَّم.

وفيه الرَّدُّ أيضًا علىٰ الذين يُؤَولون الصفات، أو يُعَطِّلون الصفات؛ لأن الحديث فيه إثبات الخُلَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّانِيَة عَشرَةَ: مَا بُلِيَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن شِدَّةِ النَّزعِ.

فالنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُضَعَّف عليه البلاءُ في حياته وعند مماته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك ليُضَعَّف له الأجر؛ فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوعَكُ إذا مَرِض كما يوعك الرجُلان في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتشتد عليه الحُمَّىٰ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ قَالَ: أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ. قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلْ، ذَلِكَ كَذَلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًىٰ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا».

وعند موتِهِ كان يُعاني من السَّكرات جدًّا، حتىٰ أنه -كما سبق- كان يأخُذُ الماء ويَبل وجهه الشريف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويضع الخميصة علىٰ وجهه ويقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلمَوتِ سَكَرَاتٍ».

وفي هذا أمرانِ وفَائدتَانِ عَظيمتان:

الفَائدة الأولىٰ: عِظَم مقام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن البلاء لا يُنَافي المَقَام؛ لأن بعضَ الناس إذا رَأوا رجلًا مبتلىٰ أسَاءُوا الظن به، ولرُبَّما جاء بعض الغِلاظِ وقالوا له: هذا من ذُنُوبك، ولا شَكَّ أن الذنوب قد تكون سببًا للبلاء، لكن كما قال العُلمَاء: في باب البَلاء يُسِيء المرءُ الظن بنفسه، ويُحسِن الظن بإخوانه، فإذا نزل به البلاء يقول: ما جاءني هذا البلاءُ إلا من ذُنُوبي، ومِن بُعدِي عن الله، ويتوبُ ويُراجِع.

وإذا رأىٰ البلاءَ نزل بأخيه أحسَنَ الظن بأخيه، ويَقُول: لعَلَّ الله أرادَ به منزلًا، ولعلَّ هذا لعلو مقَامِه عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يمنَعُ من أن يُذَكِّرَهُ بغير غِلظَة.

فكَونُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُبتَلىٰ ويشتَدُّ البلاء به حتىٰ في مَوته فهذا فيه بيان أن شدَّة البلاء لا تُنافي عظَمَ المقام، ولا تدل علىٰ نَقصٍ.

والفائدة الثانية: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشَرٌ، وليس له من الأمر شيء، فحتَّىٰ عند ممَاتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما مَلَكَ أن يدفَعَ عن نفسه شِدَّة النزع؛ بل حاوَلَ أن يُخَفِّف عن نفسه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأخذ ماءً ويَمسَح وجهه الشريف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأخذ كساءً ويضعُه علىٰ وجهه، فإذا اغتَمَّ كشفه؛ لنعلم أن حبيبنا ونبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنمَا هو بشَر ليس له من الأمر شيء، وإنما الأمرُ كُله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا نَعبُده

من دون الله، ولا نصرفُ له مقدار شعرة من العبَادة، ولكن نَضعُه في مقامه، فلا نكُون جُفاة في حقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فإذا ذَكرنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشَر نَذكُر أنه رَسُول الله، شَرَّفه الله عَزَّ وَجَلَّ بالرسالة، وهو سَيِّد ولدِ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: مَا أُكرِمَ بِهِ مِنَ الخُلَّةِ.

فالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلُ الله، اتَّخذَهُ اللهُ خَليلًا، واتخذَ اللهَ خَليلًا.

وليس صحيحًا ما يقوله بعضُ الناس الذين يتكلمون بأهوائهم بِدُون الرجوع للنصوص والأدلة: إبراهيمُ خليل الله، ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبيب الله.

ويزعمونَ أن المحبَّة أعلىٰ من الخُلة، وليسَ الأمر كذلكَ؛ بل الخُلَّةُ أعلىٰ؛ ولذلك اتخذَ اللهُ نبيَّنا محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلًا، فهو خليل الله.

والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتخذَ رَبَّه خليلًا، ولم يَجعَل لأحدٍ في هذا نَصيبًا، فَلَم يتخِذ من البَشرِ خَليلًا، وإنمَا اتَّخذَ اللهَ خَليلًا، مع كونه يُحبُّ أبا بكر ويُحبُّ عائشةَ ويُحب الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: التَّصرِيحُ بِأَنَّهَا أَعلَىٰ مِنَ المَحَبَّةِ.

لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنِّي أَبرَأُ إِلَىٰ اللهِ أَن يَكُونَ لِي مِنكُم خَلِيلٌ**».

فَدَلَّ ذلك علىٰ أن الخُلة أعلىٰ من المَحبَّة.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: التَّصرِيحُ بأنَّ الصِّدِّيقَ أَفضَلُ الصَّحَابَةِ.

ولا شكَّ في ذلك؛ بل هو أفضل الأمة، بل هو أفضَلُ البَشَر بعد الأنبياء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛

لأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُحبُّه محبة شديدة؛ فهو أحَبُّ الناس إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومات النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو علىٰ ذلك، وما منَعه أن يتخذَهُ خَليلًا إلا أنه قد اتَّخَذ الله خَليلًا، فلولا هذا المانعُ لاتَّخذه خَليلًا.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: الإشَارَةُ إلىٰ خلافَتِهِ.

وذلك كما تقدم بيانه؛ فإنهُ إذَا ثَبتَ أنه أفضل الأمَّة، وأن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وهو أشَدُّ الناس مَحبَّة له، وهو رَاضٍ عنه؛ دَلَّ ذلك علىٰ أنه الأوْلَىٰ بالخِلافة بَعدَ مَوتِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوثَانًا تُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ.

الشرح

لما تقدَّمَ بيانُ أن السببَ الأعظم لوقوعِ الشِّرك في الأرض هو الغُلو في الصَّالحين، وبيان أن الشَّرع قد غَلَّظَ في عبادَةِ الله عند قَبر رجُل صالح، عقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليُبين أن أعظَمَ الغلو في الصالحين شَرًّا هو الغُلو في قبُورهم، فالغُلو في الصالحين شَرٌّ، وأشَرُّه الغلُو في قبورهم.

وهذا يُبين لنا أمرَيْن:

الأمر الأوَّل: أن السبَبَ الأعظم لوقوع أقوام من أمَّة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشِّرك هو الغلو في القبور.

وحيثمَا قرأتَ أو توجَّهت يومًا فوجَدتَ أرضًا يُشرَك فيها بالله من أقوام يَنتسبونَ إلىٰ الإسلام، ستَجدُ أن السبب الأعظم هو القُبور والفتنة بالقبور، وهذا يَجعَلُنا نحذَر من هذه الفتنة العظيمَة.

والأمر الثاني: أن الشرعَ إنما غلَّظ في عبادة الله عند قبر الرجُل الصالح؛ لكَونِ ذلك ذَريعةً إلىٰ الشِّرك.

قال: (**بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ**): والغُلو في قبُور الصالحين كُله حرام، لكنَّه قد يكون شركًا أكبر، وقد يَكُون بدعة، وقد يكون مُحَرمًا:

- فلو أن رجلًا جاء عند القبر وقال: يا سيدي فلان، أغثني، **فهذا غُلو في هذا القَبر وفي المَقبُور، وهذا شرك أكبر**؛ لأنه صَرف العبادَة -التي هي الدعاء والاستغاثَة- لصاحبِ القَبر.

- ولو جاء عند قبر الرجل الصالح وقال: اللهُم أغثني، وهو يعتقِدُ أن للبقعةِ فَضلًا وأثرًا في إجابَةِ الدعاء؛ فدَعَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنده؛ **فهذا بدعَةٌ**.

- ولو دعَا الله عند القبر، ولم يعتقد فَضيلَة المَكان، لكن قَصَدَ أن يدعو عند القبر، **فهذا حَرامٌ**؛ لكونه ذريعَةً إلىٰ الشِّرك.

- ولو دعا الله عند القبر لأمرٍ عَارِض، فهذا ليس غُلوًّا، **بل هذا دُعَاء مُبَاح**.

مثاله: رجلٌ رأىٰ رجلًا عند القبر يَفعلُ شِركًا أو حرامًا، فقال له: اتَّق الله، هذا يغضب الله، ونهىٰ عنه رسُولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: أنت كذا وكذا، فقال: أسألُ الله أن يَهدِيَك، فهذا دعَا عند القبر؛ لكن لسَبَبٍ عَارض وليس للقَبر وليسَ للبُقعة، فهذا دعاء جائز.

وقِس علىٰ ذلك كُل عبَادَة لا يَجُوز صَرفُها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كالنَّذر والذبح والصَّدقة وغيرها، وإذا ضَبطنا هذا فإن الأمور تَنضَبطُ عندَنا.

الغُلُو في قبُور الصالحين يعني: مُجَازوة الحَدِّ الشرعي، وهو حرامٌ كله.

لكن هل نقول: إن كُل غُلُو في قبور الصَّالحين يكون شركًا؟

الجَواب: لا.

بل قد يكون شِركًا أكبر، وقد يكون بدعة وهي أعظم من الذنوب، وقد

يكون محرمًا، كما سبق بيانُه.

قالَ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوثَانًا تُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ)**: **وأوثَان**: جمع (وَثَن)، والوَثَن: هو كُل مَا يُعبَد من دُونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواء كان مُصَوَّرًا علىٰ صُورة ذي رُوح، أو لم يَكُن مُصَورًا: كالقبر، والشَّجر، والشمس، والقَمر، والبَقر، هذه كُلهَا أوثانٌ إذا عُبِدَت من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

فقَبْرُ الرجلِ الصَّالح يُصبح وثنًا إذا عُبِدَ من دُونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رَوَىٰ مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأ»: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللهُمَّ لَا تجعَل قَبرِي وَثنًا يُعبَدُ، اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ».

الشرح

قالَ: (**رَوَىٰ مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأ»**): وهذا الحديث رَواهُ مالك[1] مُرسَلًا عن عطاء، وهو تَابعي، رَفَعه إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن الحَديث رَواه: البزار وأبو يَعلَىٰ والبَيهقي في «معرفة السُّنن»، وصَحَّحه الشيخ الألباني بمَجُموع شَوَاهده[2].

ورواه أحمدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوْعًا بِلَفْظ: **«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثنًا؛ لَعَنَ اللهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُوْرَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**[3].

وصَحَّحه الشيخ أحمد شاكر، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده قوي، وحَسَّنه الشيخُ الألباني، فالحَديثُ ثابتٌ.

قال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**اللَّهُمَّ**): أي: يا ألله، فدعَا الله عَزَّ وَجَلَّ (**لَا تَجعَل**): أي: لا تُصَيِّر.

---

(١) في «الموطأ» برقم (٤١٦).

(٢) أخرجه البزار (٩٠٨٧)، وأبو يَعلَىٰ (٦٦٨١)، والبَيهقي في «معرفة السُّنن والآثار» (٧٨٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه أَحْمَدُ (٧٣٥٨)، وانظر: «أَحْكَامُ الجَنَائِزِ» لِلألباني (ص٢١٦).

(قَبرِي وَثنًا يُعبَدُ): فكُلُّ ما عُبِدَ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو وثَن، حتىٰ قَبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو عُبِدَ من دُونِ الله لَكانَ وثنًا، لَكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حفظه.

وقوله: (**يُعبَد**) هذا للتوكيد، وإلا فلا يُسَمَّىٰ وثنًا إلا إذا كان يُعبَد من دُونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن -كمَا يَقُول العُلماء-: هذا وصف كاشفٌ يَزيدُ المعنىٰ ويُؤكِّده.

فالنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخافُ من هذا، ويسألُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يجعَلَ قبره وثنًا يُعبَد.

قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ)**: وفي هذا إثباتُ صفة الغَضَب لله علىٰ ما يليق بجَلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بغَير تأويل ولا تَمثيل ولا تكييفٍ ولا تَعطيل، فغَضبُ اللهِ ليس كغَضَب الناس، لا في الحَقيقةِ ولا في الأثَر.

وفيه أيضًا دليلٌ علىٰ أن غضبَ الله يتفاوَت؛ ولذلك قالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا: (**اشتَدَّ**): أي: ازداد غَضبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي «الصَّحيحين»[1] عندما يَسألُ الناسُ الأنبياءَ يومَ القيامةِ أن يشفَعُوا لهُم عندَ الله، ويأتونَ إلىٰ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتَذرُ أبونَا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقول: «**إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ غضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَا يَغضَبُ بَعدَهُ مِثلَهُ**».

فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُول: إن ربي قد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب مثله بعده، فدَلَّ ذلك علىٰ أن ربَّنا يغضب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن غضَبَهُ يتفاوت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

وهذا يقتضي منا أن نخَافَ من غَضَب الله، والله يَغضبُ إذا انتُهِكَت محارِمُه؛ فنحذَر من الحَرام ومن انتهَاكِ المَحَارم.

قال: (**اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَومٍ**): أي: قوم اتصفوا بهذه الصفة، (**اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**): فجمَعَ النبيُّ ﷺ بين التحذير من الشِّرك وبينَ اتخاذ وسيلة إلىٰ الشرك، قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجعَل قَبرِي وَثنًا يُعبَدُ**»: هذا الشِّرك، ثم قال: «**اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ**»: لأن هذا -كما تقدم- وَسيلةٌ إلىٰ الوقوع في الشِّرك.

๑❁❁❁๑

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلابنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ، عَن سُفيَانَ، عَن مَنصُورٍ، عَن مُجَاهِدٍ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [النَّجم: ١٩]؛ قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُم السَّويقَ، فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَىٰ قَبرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ».

الشرح

روىٰ ابن جرير[1] بإسناد صحيح: عن مُجَاهد -ومجاهد هو تلميذ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-، وقد عَرَضَ مجاهد القرآن علىٰ ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا آية آية، وابنُ عبَّاس يُفسِّرها له؛ فهو من أعلم النَّاس بالتفسير.

قال في قول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُم السَّويقَ): يعني: قالوا: هذا رجُل كان يُعرَف بالصَّلاح والأعمال الطيِّبة، ومن صلاحه أنه كان يَقعدُ علىٰ طريق الحُجَّاج من جهَةِ الطائف، وهناك صخرة يَلِتُّ عليها السَّويق.

والسَّويق: الشعير إذا حمص بالنار ثم دُق ثم أُضيفَ إليه عسلٌ أو زيت أو سَمن أو ماء، ويكمُل إذا أُضيفَ إليه التَّمر، فكان يفعَلُ ذلك ليُطعِمَ الحُجاج، فكان يُعرَف بالصلاح، إذن هو (لاتّ) وخُفِّفت التاء، فلمَّا مات قُبِرَ عند الصخرة التي كان يَلت عليها، فعَكَفُوا عند قبره، وصاروا إذا جاءوا يَمُرون علىٰ قبره ويَعكُفون، فليسَت زيارةً شرعية للسَّلام، والعُكوف عند القَبر بدعة، وهو

(١) في «تفسيره» (٢٢/ ٤٧).

سَببٌ للوقوع في الشِّرك؛ ثُم ما لَبِثَ أن عَبَدُوه، وانتقلت العبادَةُ إلىٰ الصَّخرة التي كان يَلِتُّ عليها؛ فعَظَّمُوا الصخرة مع تعظيمهم للقبر، وعَبَدُوها من دون الله؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن الغلوَّ في قبُورِ الصالحين يقودُ إلىٰ أن تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوزَاءِ): وهو تَابعي جَليل ثقة.

(عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ»): وذِكرُ الشيخ هذا هُنا لفَائدَةِ أنه كان رجلًا صالحًا، فهو يَلتُّ السويق للحجاج، وهذا يَدُل علىٰ صَلاحه؛ لأنه يُطعِمُ الحُجَّاج.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهلُ السُّنَنِ.

الشرح

هذا الحديثُ رواهُ أبو داود، والترمذي، والنسائي[1].

(**وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ القُبُورِ**): اختُلِفَ في هذا اللفظ (زائرات القُبُور): هل هو ثابت أو ضَعيف؟

والتحقيق أنه ضَعيف، لأن إسناد هذا الحديث ضعيف.

لكن ورد عن ثلاثة من الصحابة: «**لَعَنَ اللهُ زَوَّارات القُبُور**»[2]. بفتح الحرف الأول (الزَّاي) أو ضم الحرف الأول الزاي «**زُوَّارات القبور**» ضُبطت هكذا

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣) بلفظ: «زَائِرَات». وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٢) أخرجه بلفظ: «زوَّارَات»:

الترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وأحمد (٨٤٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد (٢٠٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وابن ماجه (١٥٧٤)، وأحمد (١٥٦٥٧) من حديث حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وضبطت هكذا، وهذه اللفظة صَحيحةٌ بشَواهدها.

وهذا اللفظ يَدُلُّ علىٰ أن زيارةَ النسَاء للمَقَابر كبيرةٌ من كبائر الذنوب؛ تقتضي اللعنَةَ وتُوجب اللَّعن.

وقَد يقُول قائل: كيف تَقُول (زيَارَة النساء)، و(زَوَّارات) صيغة مبالغة؟

قال أهل العلم: إن (زَوَّارَات) هنا صفة لكثرة النسَاء، وليست لكَثرَة الزيارة، فهُنَّ زوَّارات لكثرتهن، وهذا مُشَاهد؛ فالمَرأة لا تذهب وحدها بل تَذهبُ مع مجموعة من النسَاء؛ فزَوَّارات ليسَت صفة لفِعلهِنَّ، وإنما هي صفة لعددهن؛ أي: أنَّهُن كثيرات عندَ الزيارة، ولو مرة واحدة.

وقالَ بَعضُ أهل العلم: إن صيغة المُبَالغة هنا يُرادُ منها النَّهي عن الزيارة مُطلقًا، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. يعني: لا يَظلمُ مُطلقًا.

وقلنا: إن بعضَ أهل العِلم ضبط هذه اللفظةَ بضَمِّ الزاي (زُوَّارات)، وقالوا: هي جمع (زُوَّارة) بضَم الزاي. وتعني: (زَائرَة)، علىٰ غير قيَاس في اللغَة؛ فدَلَّ ذلك علىٰ تحريم زيارة النسَاء للمَقَابر.

فالرَّاجح عندنا: أن زيَارَةَ النسَاء للمقابر حَرَام، ولكن المَرأة إذا مَرَّت بالمقَابر من غير قَصدِ الزيارة؛ يُشرَع لها أن تسلم وتَدعُو لأهلِ القُبُور.

قَال: (وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ): ومَعنىٰ هذه الجملة مُتَواتر صحيح؛ لأنه ورد عندنا سَابقًا عددٌ من الأحاديث في ذلك.

فهذه الجُملة معناهَا صَحيح، وإن كان الإسنادُ هنا ضَعيفًا.

«والسُّرج»: لم يأتِ هذا اللفظُ إلا بِهذا الإسنَاد.

وهذا الإسناد اختلف فيه أهل العلم، فصَحَّحه بعضُهم كشَيخ الإسلام ابن تيميَّة[(١)]، وضَعَّفَهُ بعضُهم كالشيخ الألباني.

ونص جمع من أهل العلم علىٰ أنه ضعيف، وهذا الأقرب والله أعلم.

ومعنىٰ (وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ): يعني: الذين يتَّخذُون السُّرج علىٰ القبور، فيَضَعُون علىٰ القبر سِراجًا، وهذا سببٌ للغُلُو ومُجاوزة الحَدِّ فيه.

وإذا وُضِعَت الأنوار في المَقبرة، هل هذا جائزٌ؟

أقولُ: نصَّ أهل العلم علىٰ أن هذا لا يَجُوز إلا عند الحاجة، كمن أرَادُوا أن يَدفِنُوا ميتًا في الليل، فيَجُوز أن يتخذوا سراجًا؛ ليَستَبِينوا المَكان والمَوضعَ، ونَحو ذلك.

ويَدُل ذلك أن النبيَّ ﷺ لمَّا ذهب إلىٰ البقيع في الليل لم يَأخُذ معه سِراجًا وهو يَزُور، وإنما ذهبَ وسَلَّم ودعا طويلًا ثم عَاد[(٢)].

إذن؛ الأصلُ ألَّا تُتخذَ السُّرج في المقابر إلا عند الحاجة، وبمِقدَار الحاجة.

❀❀❀

(١) انظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٣/ ٥٢-٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: تَفسِيرُ الأَوثَانِ.

تفسير الأوثان من حَديثِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أن الوثَنَ هو الذي يُعبَدُ من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو لم يكن تمثالًا، ولو لم يَكُن موجودًا عند أهل الجَاهلية؛ لأن بعض الناس يقولون: الوَثَن: هو الذي كان عند أهل الجاهلية!

نَقُول: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجعَل قَبرِي وَثَنًا يُعبَدُ**»، ولم يَكُن ذلك عند أهل الجَاهليَّة.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ العِبَادَةِ.

العبَادة من جهَةِ التعبُّد: هي التذلُّل والخضُوع علىٰ وجه الخَوف والرجَاء والمَحبَّة.

الثَّالِثَةُ: أَنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَم يَستَعِذ إلا مِمَّا يَخَافُ وُقُوعَهُ.

وذلك لأنَّ بعضَ الناس يقولون: الشرك لا يقَعُ في أمة مُحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك يُشركون ويَعبُدون القبور، ويَقُولون: أمَّة مُحمدٍ بريئة من الشرك!

بل إنَّ الشرك قد يقع في أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجعَل قَبرِي وَثَنًا يُعبَدُ**»، فلو لم يَكُن ذلك مُحتملًا ما سأله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما سأل النجاة والسلامة منه، فلما دعا عَلِمنَا أنه يُمكنُ أن يقع، لكنَّ الله أجابَ دُعاءَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يُتَّخذ قَبرُه وثنًا.

الرَّابِعَةُ: قَرنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الأَنبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

كما ذكرنا؛ فقد جَمَع بين الشِّرك ووَسيلَة الشرك:

- الشِّرك: أن يُتَّخذ القبر وثنًا.

- ووَسيلة الشِّرك: أن يُبنَىٰ علىٰ القبر مسجد، فإنه الحبل المُوصِل إلىٰ الوقوع في الشِّرك.

الخَامِسَةُ: ذِكرُ شِدَّةِ الغَضَبِ مِنَ اللهِ.

السَّادِسَةُ -وَهِيَ مِن أَهَمِّهَا-: مَعرِفَةِ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِن أَكبَرِ الأَوثَانِ.

فقَد عَبَد الناسُ اللاتَ، بأنه لمَّا مات هذا الرجل الصَّالح عَكَفوا علىٰ قبره، ثم قادهم ذلك إلىٰ أن عَبَدُوه، وهذه طريقة الشيطان في اصطياد الناسِ لإيقَاعِهم في الشِّرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

السَّابِعَةُ: مَعرِفَةُ أَنَّهُ قَبرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

لمَّا قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ يَلِتُّ السَّويقَ للحَاجِّ»؛ علمنا أنه كانَ رجُلًا صَالحًا.

الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ اسمُ صَاحِبِ القَبرِ، وَذِكرُ مَعنَىٰ التَّسمِيَةِ.

اللات إمَّا أنه: (اللاتّ) بالتشديد، أو (اللَّات) بالتخفيف، أو أنه مُشتَق من اسم (الله)[1].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/٤٦).

التَّاسِعَةُ: لَعنهُ زَوَّارَاتِ القُبُورِ.

وقد تقدَّم بيانُه.

العَاشِرَةُ: لَعنهُ مَن أَسرَجَهَا.

وإن كان هذا لم يَثبُت بإسنادٍ صحيح، لكنه لم يَكُن في زَمَن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا فعَلَه مَن بَعدَه من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فدَلَّ علىٰ حُرمَتِهِ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصطَفَىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَابَ التَّوحِيدِ وسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَىٰ الشِّركِ.

الشرح

لمَّا ذكرَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السببَ الأعظم للشِّرك هو الغلو في الصَّالحين، وأن الغلو في قبُور الصالحين هو أشَر ذلك الغُلو الذي يَدعو إلىٰ الشرك، بَيَّن في هذا الباب أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمَىٰ جنَابَ التوحيد من هذا الباب؛ أعني: مَا يتعلَّق بالقبور.

ولم يُرِدِ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتحَدث في هذا البَاب عن حِمَاية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتوحيد من كُل وَجه؛ فإن هذا وإن كان حاصلًا، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذُ أن بَعثَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ آخر لَحظَة له في الدنيا كان يدعُو إلىٰ التوحيد، وكانَ يُحَذر من الشِّرك، وكان يَحمي جَنَابَ التوحيد، وقد تقدَّم شيءٌ ذلك، وأنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تُطرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عَبدُ اللهِ وَرَسُولُه**»[١].

وَلمَّا قال القوم: أنت سيدنا، قال: «**السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**». فلمَّا قالوا: أنتَ أفضَلُنا فَضلًا وأعظَمنا طولًا؛ قال: «**قُولُوا بِقَولِكُم أَو بَعضِ قَولِكُم، وَلَا يَستَجرِيَنَّكُم الشَّيطَانُ**»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٨٨).

(٢) تقدم تخريجه (ص٥٩١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنما أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله إني لا أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»**(١).

وما تقَدَّم معَنا في الأبواب السابقة إنَّمَا هو من حِمَاية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحِمَىٰ التوحيد، لَكِن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب أَرَادَ أن يُبَين حمايةَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَىٰ التوحيد من جِهَة القبور، **ويَدُلك علىٰ ذلك أمرَان:**

الأمرُ الأوَّل: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا لم يَذكُر إلا ما يتعَلَّق بحماية جناب التوحيد من جهة فِتنَة القبُور.

والأمرُ الثاني: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عَقدَ البابَ قبل الأخير حول هذا الموضوع في «باب ما جاء في حِمَاية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَىٰ التوحيد وسَدِّه طرقَ الشِّرك»، فهذا باب خاصٌّ، وذاك باب عامٌّ.

فهذا يَدُلك علىٰ أنه أرَادَ هُنا: حمَايَة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحِمَىٰ التوحيد من جهة فتنَة القبُور.

فإن قالَ قائلٌ: لماذا غلَّظ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وعقَدَ أبوابًا كثيرة مُتعَدِّدة مُتعَلقة بفِتنة القبُور؟

قُلنا: لأن فتنة أقوام من هذه الأمة بالقُبُور عظيمة جدًّا، حتىٰ أَلِفُوا ما يُفعَل عند القبور، وأصبَحَت طبائعهم وفِطَرُهم لا تُنكر ذلك، بل إن الوَاحدَ منهم يَقُولُ: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمدًا رسولُ الله، ويذبح لصَاحبِ القَبر!

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٩١).

فلما خفَّ الوازعُ الطَّبَعي؛ شَدَّد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الوَازِع الشَّرعي؛ **لأن الإنسانَ يَزعُه عن الشر وَازعَان:**

- **طَبَعي فِطري موجُود في فطرته وطَبعه.**

- **وشَرعي.**

فإذا خفَّ الوازع الطبعي بسَببٍ من الأسباب، فإنه يُشرَع أن يشدد في الوازع الشَّرعي؛ حتىٰ يحصُلَ المَقصُود شرعًا من الزَّجرِ.

قالَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصطَفَىٰ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **جَنَابَ التَّوحِيدِ)**: (المُصطَفىٰ): هو النَّبي مُحَمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المُصطَفَين مِن الأنبياء والرسُل الكرام، بل هُو سَيِّدهم وأشرَفُهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**». رواه مسلم[١].

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصطَفىٰ، وإنكارُ بعضِ الأشياخ إطلاق لَفظِ (المُصطَفىٰ) علىٰ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُجَانب للصَّوَاب.

ومَعنَىٰ «**اصطَفَىٰ**»؛ أي: اختار، وجعَلَهُم صفوةَ خَلقِه، من (الصَّفوَة)، وصفوة الشيء هي: خَيرُه. والصَّافي هو: النَّقي الذي لا كَدَر فيه.

---

(١) برقم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقَولُه: (جَنَابَ التَّوحِيدِ): أي: جهَة التوحيد ونَاحيته؛ أي: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل للتوحيد حِمىً وحَمَاه من أن يُنتَهك أو يقترب منه.

ولا شكَّ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فعل ذلك، ولاسيَّما فيمَا يتعَلَّقُ بفتنَة القبُور والأحاديث التي تقَدَّمت معنا من تغليظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك إنما هي لحمَايةِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جنابَ التوحيد.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولِ اللهِ تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨].

الشرح

(**وَقَول اللهِ تَعَالىٰ:** ﴿لَقَدۡ﴾): اللام هنا يقول العلماء: إنها مُوطئة للقَسَم.

فكل ما جاء في هذه الآية مُؤَكَّد بثلاث مؤكدات:

- بالقَسَم الموطأ له.
- وباللَّام.
- وبِقَد.

والله عَزَّوَجَلَّ إذا أكَّد شيئًا؛ فذلك لبيان عِظَمِه، وإلا فالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صادقُ القيل، لكن يؤكد لبيان عِظَم الشيء.

(﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ﴾): أي: مُرسَل من الله.

(﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾): **قال بعضُ أهلِ العلم:** أي: من جِنسِكُم أيهَا البَشَر، وهذا يَدُل علىٰ أنه رَسُول من الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه بَشَر مثلُكم يأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون، لكنه جاءكم بأمر لا تستطيعونه، فجاءكم بالقُرآن، وجاءكم بأخبَار السَّابقين، وجاءكم بأمور تَقَعُ وقد رأيتم وقوع بعضِهَا، وهذا يدل علىٰ أنه رَسُول من عند الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَليس لبَشَرٍ منكم أن يأتي بمِثلِ ما أتىٰ به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾: يعني: من جِنسِ المُؤمنين؛ سواء كانُوا عَربًا أو عَجمًا، المُهم أنهم من المؤمنين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٦٤].

قَالُوا: فهذه الآية تُفَسِّر هذه الآية، (مِن أنفُسِكم)؛ أي: منكُم يا معَاشِرَ المُؤمنين.

وقال بعضُ أهل العلم: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾: أي: أيُّها العَرب؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عربي، وبُعث في العَرَب.

وقد يَقُول قائل: النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بُعِث إلىٰ الناس كافَّة، بل بُعِثَ إلىٰ الجن والإنس، فلمَاذَا يخصُّ العَرب هنا؟

يُقَال: لأن الخطاب كان لَهُم؛ ولإقامة الحُجَّة عليهم، فَهُم الذين كانوا يُخَاطَبُون في ذلك الوقت، ثم غيرهم تَبَعٌ لَهُم.

وإن كنا نَستَظهر -والله أعلم- المَعنَىٰ الأول: وهو أن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من البشر، ومَع ذلك جاء بما تَعجزُ عنه البشر، ولا يُمكنُ أن يكون ذلك إلا بِوَحي من الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا يَدُل علىٰ أنه رَسُول.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾): **«عَزِيز»**: يعني: صَعُب عليه. **«مَا عَنِتُّم»**؛ أي: ما أشقَاكُم وأتعبَكُم.

فالنَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ من صفَاته: أنه يَصعُب عليه ما يَشُق علىٰ الأمَّة، ويَصعُب عليه ما يُعنِتُ الأمة، ويتَجَنَّب ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

(﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾): أي: حريصٌ علىٰ ما يَنفَعُكُم.

فاتَّصف النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفَتَيْن عَظيمَتَين:

الصِّفة الأولىٰ: حرصُه علىٰ تجنيب الأمة الضُّر والشر، وما يَشُق؛ لأنه إذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصعُب عليه ما يشق علىٰ الأمة، فمن باب أولىٰ أن يَصعُب عليه ما يضر الأمة.

إذن؛ هذا في جانب دَفع الشَّر، ودفع التعب، ودَفع المَشقَّة.

والصِّفة الثانية: أنه حريصٌ علىٰ ما ينفع الأمَّة، وهذا في باب جَلبِ الخَيرِ.

(﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾): ما أعظَمَ هذا الخطاب!، هذا خطاب لكُل مُؤمن.

(﴿رَءُوفٌ﴾): أي: أنه عَظيمُ الرحمة، فقد بلَغَ من الرحمة منتهاها بالنِّسبة للبَشَر.

(﴿رَّحِيمٌ﴾): أي: كَثيرُ الرَّحمة.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمؤمنين كثير الرحمة، وعَظيمُ الرَّحمة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و هذا يَدُل علىٰ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَحمِي جنابَ التوحيد؛ لأن أعظم مَنفَعة علىٰ الإطلاق للإنسان: أن يُوحِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا شَكَّ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حَريصًا علىٰ التَّوحيد.

ومن جِهَة أخرىٰ: أنه كانَ حَريصًا علىٰ مَنع الشرك؛ لأنه كان يَصعُب عليه أن يقع أحدٌ في الشرك؛ لأنه إذا صَعُبَت عليه المَشَقة علىٰ الأمة، فمن باب أولىٰ أن

يصعُبَ عليه ويَعِز عليه أن يقعَ أحدٌ من أمته في الشِّرك.

إذن؛ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمىٰ جنابَ التَّوحيد، وسَدَّ طرقَ الشِّرك؛ لأن بعض الناس لم يَفهَم وَجه إيراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الآية في هذا البَاب.

فبَعضُ أهل العلم اجتهد في هذا، وقال: هذه الآية كالمُوطِّئة لما بعدها.

لَكِن الصَّواب: أن هذه الآية فيها دليلٌ علىٰ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمَىٰ حِمىٰ التوحيد، وسَدَّ طُرقَ الشرك، كما أنها مُوطِّئة لما بَعدَها من الأحاديث.

وفي هذه الآيةِ فائدةٌ عظيمة للمُؤمِن عامَّة، ولطَالبِ العلم خَاصَّة، وهي: أن يتشَبَّه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا، فلن نكُون مثله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبدًا؛ لكن يُشرَع لنا أن نتشَبَّه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيَصعُب علينا ما يُعنِت الأمة، وما يَشُق عليها، ونَسعىٰ إلىٰ إبعَاد المَشقَّة عن الأمة بالوجُوه المَشرُوعة.

وإذا كانَت الأمَّةُ اليوم تُعَاني من اضطهاد أعدائهَا وكثرة المُخَالِفِين للسُّنة، فإنه ينبغي ألَّا نَشُق علىٰ الأمة بألفاظنا، بل نَحرصُ علىٰ أن تكون ألفاظُنا دَالَّة علىٰ الخير، دالَّة علىٰ الحق، فَاضِحَة للباطل من غير مشَقَّة علىٰ الأمة، نحرص علىٰ ذلك ما أمكننا، ونَحرصُ علىٰ ما ينفع المؤمنين، **وأعظَمُ ما يَنفَع المؤمنين:** أن يَسلَمُوا في دينهم، وأن نَدلَّهُم علىٰ التوحيد، ونَدُلهم علىٰ السنة، وأن نُحَذِّرهم من الشِّرك، ونُحذِّرهم من البدع، ونَدُلهم علىٰ الأعمال الصالحة، وأن تكون في قُلوبنَا رحمة، فمَن حُرِم الرَّحمة والرِّفق حُرِم الخَير كُلَّه.

تكونُ في قلوبنا رَحمَةٌ للأمة كلها، ثم رَحمَة لطُلَّاب العلم، ثُم رَحمَة لمن

استقَامُوا علىٰ الطَّريق وكانُوا علىٰ صِراطٍ مستقيم.

الغِلظَةُ عندنا آخر الأدوية، وهذا هو الشَّرع، والله لا نلتفت إلىٰ من يَعيبُ علينا هذا الكَلام؛ لأن هذا دِينُنا، وهذا فِعلُ النَّبي ﷺ، وهذا ما تعلَّمناه من النصوص، وتعلمناه من سيرَةِ النَّبي ﷺ، وتعلَّمناه من سيرة السَّلَف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنهُمْ، وتعَلمناه من علمائنا الذين ترَبَّينا علىٰ أيديهم، منهم من مات ومنهم من هو حي، علىٰ أن الغِلظَة آخر الأدوية، فنُقَدم الرحمة ونبدأ بها، ويا ليتنا نرحم إخواننا حتىٰ الذين يخطئون علينا؛ فما أجمَلَ هذه المنزلة! وما أزكاها من مرتبة! أن يبلغك عن أخيك أنه قال فيك قولًا غَليظًا لا تَستحِقُّه، ومع ذلك تَرحَمُ أخاك أن تَنطقَ فيه بكلمة، وهذه مَرتَبة عَليَّة. أسأل اللهَ أن يرزُقَنا الجهادَ لنَصلَ إليها.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَلَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

الشرح

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حكمه على هذا الحديث تبعَ شيخَ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **حيث قالَ عن هذا الحَدِيث**: حَسَن، رواته ثقات مشاهير[1].

والحَديثُ رواهُ أبو داود، وأحمد[2].

وقد حَسَّن إسنَادَهُ أيضًا ابن القيم[3]، وابن عبدالهادي، **بل قال ابنُ عبد الهَادي: «إنه حسَن جيد الإسناد، وله شواهد يَرتَقِي بها إلىٰ درجة الصحَّة»**[4].

وحسَّن إسنَادَهُ أيضًا: الحافظُ ابن حَجَر[5]، وصحَّح إسنادَهُ النَّووي[6]، والألبَاني. **فالحَديثُ ثَابتٌ عن النَّبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٨٨٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٩١).

(٤) «الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي» (ص٣٠٨).

(٥) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٨).

(٦) «الأذكار» (ص١١٥/ ت: الأرناؤوط).

قَالَ: (**عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا»**): وجاء في الحَدِيث: **«لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ»** رواه مسلم[1].

وجاء في الحَديثِ أيضًا: **«لَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ، صَلُّوا فِيهَا»** رواه أحمد، وابن حبان، وصحَّحه الألباني[2].

وهذه القِطعةُ من الحديث تَدُلُّ علىٰ أنه لا يَجُوز دفنُ الموتىٰ في البيوت؛ لأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ»**.

وهَذا لهُ حِكَم مُتعَددة؛ منها:

١ - أن دَفنَ المَوتىٰ في البيوت يُفسِدُها:

فإذا دُفِنَ الميت في البيت فإنه لا يُصَلَّىٰ في هذا المَوطِن، ويفسد البيت علىٰ أهله؛ ولأنه ذريعة إلىٰ تعظيم القُبور إذا كانت في البيوت؛ فإن الشيطان يأتي للناس ويقول: ما دُفِنَ هذا الميت في البيت دون المَقَابر إلا لعِظَم حاله، أو لأنه كان يُستَشفَع به، فيَقُود ذلك إلىٰ الوقوع في الشرك؛ ولأنه بناءٌ عَليها، وقد نُهينا عن ذلك كمَا تقدَّم.

٢- أنَّ دَفنَ الميتِ في البيت يَحرِمُ الميتَ من دعوات المسلمين عند الزيَارَة له في المَقَابر:

---

(١) برقم (٧٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٠٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٨٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤١٨).

فإذا دُفِنَ الميت في المَقَابر كلمَا جاء زائر إلىٰ المقابر وسَلَّم علىٰ أهل القبُور ودعَا لهم؛ دخَلَ هذا في الدعوة، لكن إذَا دُفنَ في بيته حُرِمَ من هذه الدَّعوة.

إذن؛ لفظُ الحديث يَدُل دلالة ظاهرة علىٰ أنه لا يَجُوز دَفنُ الموتىٰ في البيوت.

فإن قَالَ قَائل: فقَد دُفنَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بَيتِهِ:

قُلنا: قد أجَبنا عن هذا سابقًا، فهذه خُصُوصية للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبيَّ يُدفَن حيث مات، وهذا له حِكمَة عظيمة كما تقدم، وهو حمَايةُ قَبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يُجعَل وَثنًا يُعبَد.

كمَا تَدُل هذه الجُملة علىٰ أن الصَّلاة تُمنَع عند القبُورَ؛ لمَاذا؟

لأنه في اللفظ الآخر قَالَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَتَّخِذُوا بيُوتَكُم مَقَابِرَ، صَلُّوا فِيهَا»**. إذن؛ المقَابرُ لا يُصَلَّىٰ فيها؛ فدَلَّ ذلك علىٰ هذا.

٣- أن الذي تَدُل عَليه هذه الجُملَة الشَّريفة التي صَدَرت من نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استحبابُ صلاة النافلة في البَيت، واستحبابُ قرَاءة القُرآن في البيت.

فإن قال قائلٌ: أمَّا الصلاةُ فقد فَهِمنَاها؛ لقَولِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«صَلُّوا فِيهَا»**. فمن أين أَتىٰ قَولُ استحبابِ القُرآن في البيت؟

قُلنا: إنه جاء في بعض الروايات عند مسلم[1] وغيره: **«لَا تَجعَلُوا بيُوتَكُم مقَابِرَ، إِنَّ الشَّيطَانَ يَفِرُّ مِنَ البَيتِ الذِي تُقرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»**.

---

(١) برقم (٧٨٠).

فنهىٰ النبي ﷺ عن أن نجعل بيوتنا مقابِرَ، ثُم قال: «**إِنَّ الشَّيطانَ إِنَّ الشَّيطَانَ يَفِرُّ مِنَ البَيتِ الذِي تُقرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ**»؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أنه يُستحب أن يقرأ الإنسَانُ القرآنَ في بيته.

وبعضُ الناس لا يجعل قراءَةَ القرآن إلا في المسجد، ولا يَقرَؤه في بيته، وهذا يُفَوِّت علىٰ نَفسِه أجرًا؛ لأن في قرَاءَة القرآنِ في البيت أجرًا، ويُفَوِّت علىٰ بيته الخَيرَ، فيَكثُر فيه الشر، وقد تَدخُله الشياطينُ، وقد تَكُون فيه مشَاكِل.

قَالَ: (**وَلَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا**): أي: لا تُكَرِّروا الزيارةَ تكرارًا دائمًا، وإنَّما الزيَارَةُ تكون للغريب الذي يأتي إلىٰ المَدِينة، وتكونُ لمَن قدِمَ من سَفر من أهل المَدِينة.

ثُم اختلَفَ العلماءُ في زيارةِ قبر النبي ﷺ لأهل المَدِينة إذا كانوا مُقيمين فيهَا:

فمنهُم من مَنَعها، وقال: لم يُؤثَر هذا عن الصَّحابة ولا عن السَّلف.

ومنهم من قال: إنها مشروعة بقصد الاعتبار والسَّلام علىٰ النَّبي ﷺ من غير إكثَار، وهذا عندي أرجَح والله أعلم.

فَالذي في المَدينَة إن شاء في فتَرات مُتبَاعِدَات أن يذهَبَ إلىٰ قَبر النبي ﷺ ليتَّعظ ويَعتبر، وليُسَلم عليه؛ فهذا جائز لعُمُوم الأدلة، وقوله ﷺ: «**أَلَا إِنِّي كُنتُ نَهَيتُكُم عَن زِيَارَةِ القُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآَخِرَةَ**»[١].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٢١).

فمَعنَىٰ (لَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا): أي: لا تُكرِّروا الزيارة تكرارًا دائمًا علىٰ وجه مَخصُوص؛ كمَن يُخَصِّصون الفجر لزيارة قبر النبي ﷺ؛ فبَعضُ الناس كُلما صلىٰ الفجر في المَسجِد النبوي ذهب وسَلَّم، هذا جعل القَبْرَ عيدًا.

أو مَن يَجعَلُون الجمعة وقتًا لزيارة قبر النبي ﷺ، هذا جعل القبر عيدًا.

أما أن يَزورَ من غير تَخصيصٍ لوقت ولا إكثار، فالراجحُ من أقوال أهل العلم أن هذا لا بأسَ به.

وأيضًا مما يَدخُل في قول النبي ﷺ: «لَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا»: أي: لا تَقصِدُوا القبر في أوقاتٍ معينة، فإن العيد يُعَاد في وقت مُعَين، فلا تُخَصصوا الزيارةَ بوقت معين.

وهذا هو الذي فَهِمَه السلفُ من هذا، ولَسنَا الذين فَهِمنَاه.

فقد جاءَ عن سُهَيل بن أَبِي سُهَيلٍ أَنَّه قَالَ: «رَآنِي الحسَنُ بنُ الحسَنِ بنِ عَلِيٍّ ابنِ أَبِي طَالِبٍ عِندَ القَبرِ، فنَادَانِي وهُو فِي بَيتِ فَاطِمَةَ يتعَشَّىٰ، فقَالَ: هَلُمَّ إِلَىٰ العشَاءِ، فقُلتُ: لا أُرِيدُهُ.

فقَالَ: مَا لِي رَأيتُكَ عِندَ القَبرِ؟ فقُلتُ: سَلَّمتُ عَلىٰ النَّبيِّ ﷺ، فقال: إِذَا دخَلتَ المَسجِدَ فسَلِّم. ثُم قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **لَا تَتَّخِذُوا قَبرِي عِيدًا، وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُمَا كُنتُم، لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِم مَسَاجِدَ. مَا أَنتُم**

وَمَن بِالأندَلُسِ إِلَّا سَوَاء»[١].

وأيضًا القصَّة التي معَنا تَدُل علىٰ ذَلك.

قَالَ: (وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم): والصَّلاة علىٰ النَّبي ﷺ من أفضل الأعمَال، وهي عبَادَةٌ سَهلة شريفة، وأنَّ من صَلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ واحدةً صَلَّىٰ الله عليه بها عَشر صَلَوات، ومحَا عنه عَشرَ خطيئات، ورفع له عشر درجات.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَن صَلَّىٰ عَلَيَّ وَاحِدَةً؛ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ عَشْرًا**». رواه مُسلمٌ[٢].

فمَا أكثَرَ مَا فرَّطنا في الأجور!

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالْبُشْرَىٰ فِي وَجْهِهِ، فَقُلْنَا: إِنَّا لَنَرَىٰ الْبُشْرَىٰ فِي وَجْهِكَ، فَقَالَ: **إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ**

---

(١) **قالَ الألبَاني في «أحكَام الجَنائز»** (ص٢٢٠): «رواه سعيد بن منصور كما في «الاقتضاء» لابن تيمية، وهو عند الشيخ إسماعيل بن إسحَاق القاضي في «فضل الصلاة علىٰ النبي ﷺ» (رقم٣٠) دُون قوله: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُود...**». وكذا رواه ابن أبي شيبة (٤/ ١٤٠) مُقتَصِرًا علىٰ المَرفوع منه فقط.

وله شاهد آخر بنحو هذا من طَريق علي بن الحسين عن أبيه عن جدِّه مرفوعًا. أخرجه إسماعيل القاضي (رقم٢٠) وغيره. انظر: «تحذير الساجد» (٩٨ - ٩٩)».اهـ

(٢) برقم (٤٠٨).

أَحَدٌ، إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ، إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا»[1].

سُر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه يُصَلَّىٰ عليه ويُسَلم عليه، وسر من أجلِكُم أيتهَا الأمَّة، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل لَكُم بسَببه في كل صَلاة عشر صلوات، وفي كُل سلامٍ عَشر تسليمات. فمَا أعظم ما أكرَمَ الله به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وهنا سُؤال: ما العَلاقَة بين قَولِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَجعلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَلَا تَجعَلُوا قَبرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُم تَبلُغُنِي حَيثُ كُنتُم)؟

الجَواب: هذه العلاقة أنَّ الذي يذهب إلىٰ القَبر مرارًا قد يحتَج ويَقُول: أنا فقط أريدُ أن أُسَلِّم وأصَلِّي علىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَسَم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباب، فقَالَ: صَلُّوا علي من أي مكَان فإنَّ صلاتكُم تبلغني حيثمَا كنتُم.

وهذا يدل أيضًا علىٰ أن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمَىٰ حِمَىٰ التوحيد، فبَيَّن لنا أن القُبورَ لا يُصَلىٰ عندها، ولكن جاء بجُملة حَوَت فوائد كثيرة: **«لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبورًا»**.

وهذا أيضًا يَدُل علىٰ أن الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كانُوا يعرفون أن القبور لا يُصَلَّىٰ عندها؛ لأنه لو لم يكونوا يَعرفُون ذلك؛ لكانت هذه الجُملة لا فائدة منها.

وأيضًا حمَىٰ حمىٰ التوحيد بمنع تَكرَار زيارة قبره بكثرة؛ لأن ذلك قد يقُودُ إلىٰ الوقوع في الشِّرك، وحَسَمَ الباب والذرائع.

فقد يأتي شخص ويقول: أنا لا أذهبُ إلا لأصلي علىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه النسائي (١٢٨٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

نقول: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُم تَبلُغُني حَيثُ كُنتُم»**.

وكيف يَبلغُه تَسليمُنا وصلاتُنا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

بَيَّن لنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فقال: **«إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»**. رواه أحمد، والنسائي، وصحَّحه الألباني[1].

فهناك ملائكة سيَّاحون في الأرض؛ أي: يذهَبُون في الأرضِ ويَنتَشِرونُ فيها.

وقَولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُبَلِّغُونِي مِن أُمَّتي السَّلامَ»** يَدُل علىٰ كَثرتِهم؛ لأنه كلمَا سَلَّم أحدٌ علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأمة، بَلَّغت الملائكة النبي السَّلام.

قال العُلماء: وهذا يشمَلُ الأمة كلها، سواء كان المُسلم رجلًا أو امرأة، أو صبيًا أو عبدًا، أو غير ذلك، فالملائكة تبلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلام أمته.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»**[2]. رواه أحمد، وأبو داود، وحَسَّنه الألباني.

أي: أن سَلامَكَ علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبلغُه؛ بل يَرُد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السلامَ.

قالَ بَعضُ أهل العِلم: هذا الحديثُ الأخير خاص بمَن سَلَّم عليه عن قرب.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٦٦)، والنسائي (١٢٨٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

(٢) أخرجه أحمد (١٠٨١٥)، وأبو داود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وقالَ بعضهم: بل هو عامٌّ، فحيثُما سلَّم مُسلم علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رَدَّ الله عليه رُوحه فرَدَّ السلام علىٰ المُسلم.

وقَوله: (وَصَلُّوا عَلَيَّ): دَليلٌ علىٰ أنه يُشرَع أن يُصَلَّىٰ علىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو بِدُونِ التَّسليم:

- فيَصِحُّ أن تَقُول: «صَلَّىٰ الله عليه».

- ويَصِح أن تجمع بينهما فتَقُول: «صَلَّىٰ الله عليه وسَلَّم».

- ويصح أن تفرد السلام وتَقُول: «عليه السَّلام».

كُل هذا جائز، خِلافًا لمن كَرِه إفراد الصَّلاة، أو كره إفراد السَّلام.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ: أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَدخُلُ فِيهَا فَيَدعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُم حَدِيثًا سَمِعتُهُ مِن أَبِي عَن جَدِّي عَن رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسلِيمَكُم يَبلُغُنِي أَينَ كُنتُم». رَوَاهُ فِي المُختَارَةِ.

الشرح

هذا الحَديثُ مُسَلسل بآل البيت.

(عَن عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ: أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أي: فتحَة في الجدار كانَت موجُودَة عند قَبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (فَيَدخُلُ فِيهَا فَيَدعُو): فيُخَصِّص هذا المكان للدعاء، فنهاه عن ذلك.

(فَنَهَاهُ): قال العُلماءُ: نهَاهُ عن الأمرين: عن دخُوله في الفرجة، وعن دُعَائه.

دخوله في الفرجة: أي: تخصيص هذا المكان، وعن دعائه عِندَ القبر.

(وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُم حَدِيثًا): وهذا خطاب للجَمع، فالظَّاهر -والله أعلم- أنه لمَّا نَهاه كان هناك رجَالٌ، فأرَادَ أن يُفيدَهُم، فقال: «ألَا أحَدِّثُكم»، يعني: للرجُل ومن وُجِدَ.

(سَمِعتُهُ مِن أَبِي): الحُسَين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(عَن جَدِّي): علي بن أبي طَالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ووالله إنَّنا نُحِبُّهم، ولا يُحِبهم إلا مُؤمن، ولا يَغلُو فيهم أو يبغِضُهم إلا ضَال.

(عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُم قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسلِيمَكُم يَبلُغُنِي أَينَ كُنتُم):

(رَوَاهُ فِي المُختَارَةِ): يعني: رواهُ الضيَاء المَقدِسي الحنبلي في كتابه «الأحاديث المُختَارة»[1].

والذي في هذا الحَديثِ هو الذي فيما تَقَدَّم قبله، لكن الشَّاهد من القصة: أن السلفَ فَهِمُوا من قول النبي ﷺ: **«وَلَا تجعلُوا قَبرِي عِيدًا»**: النهي عن تَكرَار الزيارة وتَخصيصها بأشيَاءَ مُعيَّنة أو أوقات معينة.

ودل علىٰ أن تَسليمَنا علىٰ النبي ﷺ يبلُغُه، وعلىٰ أن صَلاتَنا علىٰ النبي ﷺ تبلُغه.

فدَلَّ هذا علىٰ أن النبي ﷺ حمَىٰ حِمَىٰ التَّوحيد حمايةً تامَّة، وأن الصحَابةَ والسَّلف قد فَهِموا ذلك، فلم يُؤثَر عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانُوا يُكرِّرون الزيارة إلىٰ قبر النبي ﷺ، بل لم يُنقَل عنهم أنهم كانوا يَزُورون القبر، فهَذَا يدل علىٰ فَهم الصحابة لحمَاية النبي ﷺ جنابَ التَّوحيد، وكذلك السَّادة من التابعين ومن بعدهم من أئمَّة المسلمين المُعتَبَرين.

❀❀❀

(١) برقم (٤٢٨)، وقال الألباني في كتابه «تخريج أحاديث فضائل الشَّام» (ص٥٢): «صحيحٌ بطرُقه وشَوَاهده».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةَ.

وقد بيَّناه فيمَا تقدم.

الثَّانِيَةُ: إِبعَادُهُ أُمَّتَهُ عَن هَذَا الحِمَىٰ غَايَةَ البُعدِ.

فقد حَرص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ألَّا تَقتربَ الأمة من الشِّرك أبدًا، وأن تَكُونَ الأمةُ دَاخِلَة في حِمَىٰ التوحيد، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا علىٰ ذلك أشدَّ الحِرص.

الثَّالِثَةُ: ذِكرُ حِرصِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَينَا، وَرَأفَتُهُ، وَرَحمَتُهُ.

وهذا يقتضي منا أن نَقُوم بحَقِّه، وأعظَمُ حَقِّه: أن نَتَّبعه. وأعظَمُ الاتباع علىٰ الإطلاق: اتباعه في التوحيد.

الرَّابِعَةُ: نَهيُهُ عَن زِيَارَةِ قَبرِهِ عَلَىٰ وَجهٍ مَخصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِن أَفضَلِ الأَعمَالِ.

أي: نهيه عن زيارة قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ وجه مخصوص وعلىٰ صِفَة مخصوصة؛ كتكرَار الزيارة وكثرتها.

مع أن زيارة قبره من أفضل الأعمال: يعني: من الأعمال الفَاضِلَة لا لخُصُوص قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما لمَشرُوعية زيارة القبور، وأنها من الأعمَالِ التي فعَلها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، فزار قبورَ البَقيع، وسَلَّم علىٰ أهل القبور ودعا

لهم، وزَارَ قبُورَ الشهداء ومعه أصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فمع أن زيارة القُبور من أفضَلِ الأعمال، فقد نهىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تخصيصِ قَبره بشَيء؛ لأن هذا يَقُود إلىٰ التعظيم الزائد المُغَالَىٰ فيه، والذي يَقُودُ الإنسانَ إلىٰ الشرك والعِيَاذُ بالله.

الخَامِسَةُ: نَهيُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِكثَارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

والشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فَهِمَ هذا، وهو أن النَّهي هو عن الإكثار من الزيارة، لا عن مُطلَق الزيارة.

فمَن كان من أهل المدينة ويَزُور أحيانًا في أوقات مُتبَاعدة للاتِّعاظ والاعتِبَار والسَّلام، فهَذا لا بأس به.

السَّادِسَةُ: حَثُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّافِلَةِ فِي البَيتِ.

وذلك لقَولِه: «**لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا**»؛ أي: صَلُّوا فيها، وقد صَرَّح بهذا في بعض الروايات.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِندَهُم أَنَّهُ لا يُصَلَّىٰ فِي المَقبَرَةِ.

لأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتفىٰ بقَولِه: «**لَا تَجعَلُوا بُيُوتَكُم قُبُورًا**». فهَذا يَدُل علىٰ أنه قد قدَّم لهم أن الصلاة في المَقَابر لا تَجُوز.

الثَّامِنَةُ: تَعلِيلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلاةَ الرَّجُلِ وَسَلامَهُ عَلَيهِ يَبلُغُهُ وَإِن بَعُدَ، فَلا حَاجَةَ إِلَىٰ مَا يَتَوَهَّمُهُ مَن أَرَادَ القُربَ.

فَسَدَّ الذريعَةَ لكثرة الزيَارة، فلا حاجة إلىٰ ما يتوَهَّمه من أرادَ القُرب، وكَمَا

قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَا أَنتُم وَمَن فِي الأَندَلُسِ إِلَّا سَوَاء».

التَّاسِعَةُ: كَونُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي البَرزَخِ تُعرَضُ أعمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلاةِ وَالسَّلامِ عَلَيهِ.

وهذا هو الذي دَلَّ عَليهِ الدَّليل، ولم يَدُل دليلٌ علىٰ غير ذلك، فلَم يَدُل علىٰ أن صلاتَنَا المَفرُوضة مَثلًا تُعرَض عليه، أو أن صَدقَاتِنا تُعرَض عليه، وإنَّما الذي يُعرَضُ عليه ما تعَلَّق به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صَلاتُنا وسَلامُنا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يَرُد السلام علىٰ مَن سَلَّم عليه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعبُدُ الأَوثَانَ.

الشرح

لمَّا تقدم بيان صُوَر من الشِّرك الظاهر التي تقع من أقوام ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام، وتقدَّمَت البراهينُ علىٰ أنها شرك، وتقدم بيان السبب الأعظم لوقوع الشرك، كأن قائلًا قال: إن هذا إنما هو في الأُمَم السابقة، وأما في أمة مُحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يَقَع!

وهذه شُبهَة منعت كثيرًا ممَّن ينتسبون إلىٰ الإسلام من الانتفاع بالنصُوصِ الواردة في التحذير من الشِّرك.

ونَجِدُ أن بعضَ مَن ينتسبون إلىٰ الإسلام يقعون في الشرك: فَينذرونَ للقبُور، أو يستغيثونَ بها، أو غير ذلك من الصُّور التي تقدمت، ومَع ذلك يقولون: إنَّ الشركَ لا يقعُ في أمة محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت هذه الشُّبهة غشاوةً أعمَت بعضَ مَن ينتسبون إلىٰ الإسلام عن النصوص الواضحة الصَّريحة في التحذير من الشرك، وخَدَّرت بعض المسلمين حتىٰ أصبَحُوا يقعون في الشرك وهم آمنُون لهذه الشبهة.

فعَقَد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليُبَين أن بعضَ هذه الأمة يقعون في الشرك؛ وذلك نُصحًا للأُمَّة، وقد أقام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأدلَّةَ علىٰ هذا، وهناك أدلة أخرىٰ لم يَذكُرها الشيخ تَدُل دلالة بَيِّنة علىٰ أن الشِّرك سيَقعُ في هذه الأمة؛ ومنها:

حديث أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوسٍ حَولَ ذِي الخَلَصَةِ»**، وهو وثنٌ كانت تَعبدُه دوسٌ في الجاهليَّة[1].

و جاء عند مسلم[2]: « **وَكَانَتْ صَنَمًا تَعْبُدُهَا دَوْسٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِتَبَالَةَ**».

أَلَيَات: جمع أَلْيَة؛ أي: عُجُز النسَاء.

وذو الخَلَصة: صنَم بتبالة. **وتبَالة**: قرية بعد الطائف إلىٰ جهَة اليمن، فهي من الجَزيرَة.

ورَاوِي الحديثِ هُو أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهُو دَوسي، من قبيلة دَوس، ودَوسٌ كانت قد أسلمت بدَعوَة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حيث قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«اللَّهُمَّ اهدِ دَوسًا وَأْتِ بِهِم»**[3].

فأسلمت دَوسٌ، ولكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر بهذا الخَبر الذي يقع في آخر الزمَان.

قالَ بعضُ أهلِ العلم: هذا يدُل علىٰ أنهن يَركَبن الدواب للوصول إلىٰ ذي الخلصة، أي: يأتين من بعيد، وهذا معنىٰ اضطراب ألياتهن؛ أي: أنَّها تَضطَرب فوق الدَّوَاب.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

(٢) برقم (٢٩٠٦/ ٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال بعضُ أهلِ العِلم: بل هذا يَدُل علىٰ شِدَّة الزحام، وأنَّهن يزدحِمنَ علىٰ هذا الصنم -والعياذُ بالله-؛ أي: أنهم يعبدونه.

إذن؛ سيَقعُ بعضُ هذه الأمة في الشِّرك، وفي جزيرة العرب.

وأيضًا ممَّا يدل علىٰ ذلكَ: أحاديثُ الدجال، فإن الأحاديث الكثيرة الواردة في الدجال، دَلَّت علىٰ أن مِن هذه الأمة من سيُؤمنُ بالدجال، وسيصدق بالدَّجال، وهذا كُفر، بل من أهل المَدينَة من سَيخرج إلىٰ الدجَّال، والدجال إذا جاء إلىٰ المَدينة يُمنَع من دخُولِهَا، حيث تَمنَعُه الملائكة، ويَنزل بالجرف، فيَخرُج إليه جُمُوع من المدينة ويُؤمنون بالدجَّال ويَتبعُونه.

وهذا يدلُّ دلالة واضحةً يَقينيَّة: علىٰ أن من أمَّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يقع في الكفر، ومنهم من يقع في الشِّرك؛ أي: أنهم يُفَارقون الإسلام.

كما يدل لذلك أيضًا صَنيعُ العلماء، فإنه ما من كتاب مُعتَمد في الفقه إلا وفيه باب أو كتاب عن الردَّة وأحكام المُرتَدين، فلو كانت الرِّدَّة لا تقع في الأمة، فلمَاذا يضع الفقهاء كتابًا حول أحكام الردَّة؟!

فإن قال قائلٌ: هذا الذي قررتُموه مُعارَض بحديث صحيح، ألا وهو حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُم**» رواه مسلم[1].

إن الشيطانَ قد أيسَ أن يَعبُده المُصَلُّون في جزيرة العرب، قالوا: فدَلَّ هذا

---

(١) برقم (٢٨١٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

علىٰ أن الشركَ لا يقَعُ في الأمَّة.

قُلنا: أولًا: الدليلُ أضيق من المَدلُول، والدعوىٰ أوسع من الدَّليل؛ لأن الدليل يتعلق بجزيرة العرب، والدَّعوة تتعلَّق بالمسلمين في كل مكان، ولا شَكَّ أن هذا الحديثَ لا يَدُل علىٰ أن الشِّركَ لا يقَعُ في أمة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فالجَواب عن هذا الحَدِيث من وجُوه:

الوَجه الأول: أن هذا الحديثَ فيه خبر عن إبليس، أنه يَئِسَ أن يعبُدَه المُصَلُّون؛ أي: أن ذلك في ظن إبليس؛ لَمَّا رأىٰ قوةَ التوحيد في جزيرة العَرَب وصَلابة الصَّحابة في دِينِهم، فظَنَّ أن الناس سيَستَمِرون علىٰ ذلك، وإبليسُ لا يعلم الغيب، فيَئس أن يعبُدَه أولئك المصلون، ويَأسُ إبليس لا يلزم منه الوقوع؛ لأنه لا يعلم الغيب، فهو يَئِسَ بناءً علىٰ ما رأىٰ، بل حتىٰ أنبياء الله يَأسُهم لا يلزم منه الوقوع، كما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]. فالرسلُ استيأسُوا، ولكن جاءهم نَصرُ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

فاليأسُ لا يلزم منه الوقُوع، فيَأسُ إبليس لا يلزم منه أنه لن يَعبُدَ أحدٌ الأصنامَ في جزيرة العرب، وهذا أمر ظاهرٌ لم يُخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن هذا سيكون، ولكن أخبر عن يَأس إبليس.

وهنا فائدةٌ عَظيمَة، وهي: أن نجَاةَ الناس إنما هي في قُوَّة التوحيد، وقُوَّة تمَسُّكهم بالدِّين، لأن إبليس لمَّا رأىٰ قوة توحيد الصحابة وصَلابتهم في دينهم، يَئِسَ من أن يُعبَد.

إذن؛ إذا أردنا القُوَّة للأمة، فعلينا أن نَدعُوها إلىٰ التوحيد، ونَحُثها علىٰ

التمسك بالسُّنة، وعلىٰ حُسن عبَادَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والوَجه الثاني: أن المَقصُود بالحَديث: أن الشِّرك لا يقع من جميع الأمة، ولا شك في هذا بحَمدِ الله، بل ستَبقَىٰ طائفة علىٰ التوحيد والسنة والحَق مَنصُورة، فيكون المَقصُود بالمصلين: جميع المُصَلِّين.

والوجه الثالثُ: أن «أل» هنا: للعهد، والمقصود بهم الصَّحابة؛ لأن المَعهُودين في ذلك الزمان هم الصحَابَة، فالشيطانُ أيسَ أن يَعبُدَه أحدٌ من الصحَابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فهذا يَدُلُّ علىٰ أن هذا الحَديثَ لا يدل علىٰ أن الشرك لن يقع في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأيضًا يَدُلنا علىٰ عدم عُمُوم الحديث: الواقع، فهُناك مَن ادَّعىٰ النبوة، واتَّبعَه بعضُ الناس وارتَدُّوا: كَأبي الأسود، ومُسيلمَة، وسَجَاح، وتَبِعَهُم بعضُ الناس وارتَدُّوا عن دينهم، فدَلَّ ذلك علىٰ أن الحَديثَ ليس عامًّا في نفي عبادة الأوثان عن أمَّة مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعضَ هَذِهِ الأُمَّة): لم يَقُل: كُل هذه الأمَّة؛ لأن الأمَّة بمَجمُوعها مَحفُوظة من الشِّرك، أما بعضُ هذه الأمَّة، أو طائفة منهَا فقد تقع في الشِّرك.

فأن تكُونَ الأمة كلها مُشرِكة، هذا لا يَقَع، وإنمَا سيقَعُ الشِّرك من بعضها.

و**(الأمَّة)**: المَقصُود بها: أمَّة الإجابَة، وليست أمَّة الدَّعوة؛ لأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أُمَّتَان:

أُمَّة الدَّعوَة: وهم كُل من وُجِدَ بعد بعثةِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإنسِ والجنِّ، كُلهم أمةُ دَعوَة.

وأُمَّة الإجَابَة: وهم مَن استَجَابُوا للنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشَهِدُوا أن لا إله إلا الله، وأن مُحمدًا رسُولُ الله.

قال: (يَعبُدُ الأَوثَان): وقد تقدم أن الأوثَان جمع (وَثَن)، وهو كُل مَا يُعبَدُ من دُونِ الله، سَواء كان علىٰ صُورَةٍ أو لم يَكُن علىٰ صُورَة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء: ٥١].

الشرح

يقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (﴿أَلَمْ تَرَ﴾): وهذا الاستفهام للتَّقرير والتعجب؛ يعني: أنَّه أمر عجيب هَذا الذي صَدَر منهم.

قالَ بَعضُ أهل العِلم: (تَرَىٰ) هنا: رُؤيَة بَصَرية؛ لأن (ترىٰ) لا تُعدَّىٰ بـ(إلىٰ) إلا إذا كانت رُؤيَة بَصَرية، يعني: أَلَم تَرَ ببَصَرك؟!

وقَال بَعضُ أهل العِلم: بل هي رؤية بالقلب والعلم؛ يعني: ألم تَرَ بقلبك وعِلمِك؟!؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رأىٰ هذا ببَصَره.

وهذا إذَا قُلنَا: إن الآية خاصَّة بمَن نزلت فيه، وهو كعب بن الأشرف، فإن هذا وقع في مَكَّة، ولم يَرَه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببَصَره، ويكون عُدي بـ(إلىٰ) هنا؛ لأنه نُزِّل في اليقين مَنزلَةَ البَصَر، يعني: أنه مُتَيَقِّنٌ من ذلك كما لو أَنَّه رَآه ببَصَره.

وإذَا قُلنا: أن هذه الآية في عُمُوم اليهود؛ فإن من اليَهُود مَن كان في المَدينة، وكان النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَراهُم، فيكون مَعنىٰ (تَرىٰ): البَصرية.

وقد يُرَاد الأمران: فيكون رأىٰ ذلك من اليهود؛ أي: رآهم ببَصرِه، ورأىٰ بعِلمِه وقَلبه بالخبر الذي بلغه من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو يَقِين.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا مُحمَّد. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾: أي: أُعطُوا حظًّا من الكتَاب. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: أي: يُصَدِّقُون.

﴿بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: **قَالَ بَعضُ السَّلَف: (الجِبت والطَّاغُوت)**: صنمَان كانَا يُعبَدان من دون الله، صَنَم يُقَال له: الجبت، وصَنَم يُقال له: الطَّاغوت.

وقَال بعضُ أهل العِلم: الجبت: الصنم. **والطاغوت**: رجَال يُعَبِّرون عن الأصنام، فيَنقلون -بزَعمهم- إلىٰ الناس ما يُريدُه الأصنام، فيَقُول: الصنم يقول لكم: اذبَحُوا بدنة، اذبحوا بقرة!

وهذا الذي عَبَّر عنه بعضُ السلف بقولهم: «إن الطاغوت مُتَرجمو الأصنام»[1]؛ يعني: الذين يَزعُمون أنهم يتكَلَّمُون بلسان الأصنام، وينقلون للناس مَا تُريدُه الأصنَام.

وقالَ بعضُ السَّلف: الجِبتُ: السحر. **والطاغوتُ**: الشيطان.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: الجبت: الساحر. **والطاغوتُ**: الكاهن.

وهذه كلها من اختلاف التنَوُّع؛ لأنها تفسيرٌ بالمِثَال؛ **ولذلك قال الطَّبريُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «تَفسِيره»**[2]: «الجِبتُ والطَّاغوت: اسمان لكُلِّ مُعظَّم بعبادة من دون الله، أو طاعة أو خضوع له، كائنًا ما كان ذلك المُعَظَّم؛ من حَجَر أو إنسان أو شَيطَان...».

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (١٠/ ١٢٠ إحياء التراث العربي).

(٢) (٧/ ١٤٠).

وتقدَّم أن الطَّاغُوت: كُل ما تَجَاوز به العبدُ حَدَّه من مَعبُود أو مَتبُوع أو مطاع.

وعَلاقة هذه الآية بالبَابِ من ثَلاثة وجُوه:

الوَجه الأول: أن الآيَةَ دَلَّت علىٰ أن بعضَ أهل الكتاب يُشرِكُون، ودَلَّ الحديثُ الذي سيأتي في الباب القَادم علىٰ أن مِن الأمة مَن سَيَتبع أهل الكتاب فيفعل ما يفعلون، فما دام أن بعضَ أهل الكتاب يُشركون، فإن بعضَ هذه الأمة سيشركون؛ لأنهم يَتَّبعون أهلَ الكتاب.

والوَجهُ الثاني: أن الآيَةَ دَلَّت علىٰ أن العِلمَ لا يَعصِمُ الإنسانَ منَ الوقوع في الشِّرك، لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾.

إذن؛ فَهُم عندهم عِلم، ومَع ذلك لم يَعصِمهُم من الوقُوع في الشِّرك، فكأنَّا نقولُ لِمَن يقولُ: إن الشرك لا يقع في أمة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ نَقُول له: لماذا تقول هذا؟

يقول: لأن العلم مَوجُود، القُرآن موجود، والسُّنة موجودة، والله حَفِظَهُما.

فنَقُول له: إن وجودَ العلم لا يمنعُ من وقوع الشِّرك، وإن كان يُقَلِّل منه ولا شك.

فنَجدُ بعض الدكاترة في الشريعة، وقد يَبلغُ أعلىٰ مَرتبة ويُسمىٰ أستاذًا في الجامعة!، ويُقَرر للناس الشرك، ويَدعُوهم إليه، من النذر للقُبُور والاستغاثة بغير

الله، فالعِلمُ لا يمنَعُ من الوقوع في الشِّرك.

والوَجه الثَّالث: أن بعثة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا تَمنعُ من الوقوع في الشِّرك بَعدَه؛ لأنَّ هؤلاء اليَهُود بُعِثَ لهم موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وقد بَيَّن لهم غاية البيَان، ومع ذلك أشرَكُوا بعده، فكذلك بعثة نَبِيِّنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا تَمنَعُ من وقوع الشِّرك في أمَّته مِن بَعده، فانسَدَّ البابُ.

فدَلَّت هذه الآيةُ بالوجوه الثلاثة علىٰ أن مِن أمةِ مُحمَّد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَن قد يقعُ في الشِّرك والعياذ بالله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

الشرح

يقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلۡ﴾ للمُستهزئين بِكُم، المُسفِّهين دينكم وهم من اليهود، ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾: أي: جزَاء عندَ الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: واليَهُود قد لعنَهُم الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾: وتَقدَّم بيانُ أن الغضَبَ صفَةٌ لربِّنا سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ مَا يَليقُ بجَلال رَبنا سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد غَضِبَ علىٰ اليهود. ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾: أي: مَسَخَ بعضَهُم قِرَدة، وهذا مسخٌ حَقيقي، فحَوَّل الله صورةَ بَعضِهم إلىٰ صورة القردة.

ولا يعني هذا أن القِرَدة هم أولئك المَمسُوخون، فالقِرَدة كانت موجودة قبلَهُم، ثم مُسِخُوا علىٰ صورتها، ومن مُسِخَ لا يكون له نَسل، بل يَمُوت وينقطع، فالمسخ له خاصة، يمسخ ثُم يموت علىٰ حاله ولا يتناسَلُ.

﴿وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾: فَالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مسَخَ بعضَ اليَهُود علىٰ صُورَة الخَنازير؛ وذلك لقبح صَنِيعهم، وعَجَّل الله جَلَّ وَعَلَا لهم المَهَانة في الدنيا قبل الآخرة، نعوذ بالله من الهَوَان.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: أي: ومَن عَبَدَ الطاغوت، وهذا يَدُل علىٰ أن من اليَهُود مَن أشرَكُوا، وهذا المراد.

وعَلاقَة الآية بالبَاب: هي نفسُ عَلاقة الآيَة الأولىٰ بالبَابِ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف:٢١].

الشرح

هذه الآيةُ -كمَا تقدم- هي في قصة أصحَاب الكهف، وهم الفتيَةُ الذين آمنوا وآووا إلىٰ الكهف، لما اطَّلع عليهم قومهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾:

قالَ بَعضُ أهل العلم: هُم المشركون؛ لأنهم هم الذين من عَادَتهم أنهم يبنون المسَاجدَ علىٰ القبور، كمَا تقدم في حديث أم سَلَمة وأم حَبيبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

وقالَ بعضهم: هم من المُسلمين، لكنهم لَيسُوا أنبياء.

وقالَ بعضهم: هم الحُكَّام أهل القُوة، وهذا ظاهر الآية، وتقدم بيانُ أنه لا حُجَّة في فِعلِهم.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم﴾: قال بعض المُفسِّرين: يعني: لنتخذنَّ علىٰ قُبُورهم مسجدًا.

وهذا وَجهُ الدَّلالة هنا: أن من عادة الأمم السابقة اتخَاذ القُبور مسَاجد.

وهذا -كما تقدم- من كبَائر الذنوب، وقد يكونُ من الشرك الأصغر ما لم يَعبُدوهم، فإن عَبدُوهم أصبح شركًا أكبر.

وقال بعضُ أهل العلم: يعني: لنتَّخذنَّ علىٰ الكهف مسجدًا، يعني: لنَجعلن

مكانَهم الذي كانُوا فيه مسجدًا، وليس علىٰ قُبُورهم.

وقالَ بعضُ أهل العلم: لنتَّخذنَّ عليهم؛ أي: بجوارهم مسجدًا.

وذلك لأنهم ظَنُّوا أنهم عادوا إلىٰ النوم كما كانُوا، فقالوا: لنبنيَنَّ لَهُم مسجدًا بجوارهم إذا استيقظوا من نومهم صلوا فيه، وهذا أحد التَّفاسِير.

ولكنَّ أظهرَ التَّفاسير الأول: أي: لنتخذَنَّ علىٰ قُبورهم مَسجدًا.

وقد تقدَّم بيانُ أنه لا حُجَّة في هذا؛ بل هذا من الضَّلال الذي حكَاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن تلك الأمَّة، فمن ضَلالِهم أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

والمقصُود: أن هذا كان موجودًا في الأمم السابقة، والأممُ يَتبَعُ بَعضُها الأممَ السابقة، فاتخَاذُ القُبورِ مَساجِد من هذا البَاب.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحرِ ضَبٍّ لَدَخَلتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «فَمَن؟». أَخرَجَاهُ.

الشرح

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعَ في ذكر لفظ الحديث شيخَ الإسلام؛ فذكَره كمَا ذكَره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، وإلا فإنَّا لم نَجد هذا الحديث بتمَام لفظه في شيء من كتب السُّنن، ومَعناهُ مَوجُود في «الصَّحيحَين».

جاء في «صَحيحِ البُخَاري»[٢]: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: فَمَنْ».**

ولفظ مُسلِم[٣]: **«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: فَمَنْ».**

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩-٨٠)، و«الاستقامة» (١/ ٢٥).

(٢) برقم (٧٣٢٠).

(٣) برقم (٢٦٦٩).

وسَنشرَحُ الحديثَ على اللفظِ الذي ذكَرهُ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**وَعَن أَبِي سَعِيدٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: لَتَتَّبِعُنَّ**): وهذا الخطابُ للأمَّة، وهو خطابٌ عامٌّ يُرادُ به الخُصوص؛ لأن الأمة كلها لن تتبع اليهودَ والنصَارىٰ، وإنما بعضُ الأمة سيتبعون اليهودَ والنصَارىٰ، وإلا فهُناك الطائفةُ المَنصُورة والفرقة الناجية، ولا تتبع اليَهودَ والنصَارىٰ.

(**سَنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم**): (سَنَن) بفَتح السين: مفرد بمعنىٰ (طريق)، وأفرد لأنه سواء في الشر، فمَهما تنوعت الصُّور فهو طريق شر.

وضُبط بضم السين (سُنَن)، فتكون جمع (سُنَّة)؛ أي: طُرق.

ومَعنىٰ ذلك: أن بعضَ الأمة قد يتبع اليُهودَ في شيء، وبَعضُها قد يتبع اليَهودَ في شيء آخر... وهكذا.

(**حَذوَ**): بمَعنىٰ: مُحَاذيًا، وهي مَنصُوبة علىٰ الحَال.

(**القُذَّةِ بِالقُذَّةِ**): ريشُ السَّهم، وكانوا قديمًا يضعون في السَّهم ثلاثَ ريش، ويُشتَرط لها أن تكون متساوية تمامًا؛ لأنَّ هذه الرِّيش تَضبط السَّهم إذا انطَلَق، فتصبح كأنها جناحٌ له؛ فلا يميل يمينًا ولا يَسَارًا حتىٰ يصل إلىٰ مَرماه، ولو نَقَصت هذه عن هذه ولو بمِقدَار قليل يختَل السهم.

إذن؛ كانوا يأخُذونَ الرِّيشة ويأتون بريشة ثانية ويُوازنونها بها حتىٰ تكونَ مثلها تمامًا، ثم يأتُون بالثالثة، وهذا مثلٌ يُضرَب للتساوي، تقول: سِرتُ حذوَ فلانٍ حذو القذة بالقُذَّة، كما يقولون اليوم: كأنك صورة منه.

والمَقصُود: شِدَّة الاتِّباع.

(**حَتَّىٰ لَو دَخَلُوا جُحرِ ضَبٍّ لَدَخَلتُمُوهُ**): الجُحر: هو الغار، والضَّب: هو الدابة المعروفة الزاحفة. **وجُحر الضَّب يتَّصف بصِفَتَين**:

١ - أنه ضَيِّق.

٢ - وأنَّه كَثيرُ التَّعرُّج.

والمَقصُود: أنه لو كان اتباعُهم صعبًا لاتَّبعتُموهم، ولا يُمكن لإنسانٍ أن يدخل في جُحر ضَب، لَكِن لو فَرضنا أنهم دخَلُوا لدَخلتُموه خلفهم، وهذا يَدُل علىٰ شدة الاتِّباع.

(**قَالُوا**): ولم يُعَين القائل.

(**يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟**): وَيصِحُّ النَّصبُ فيهما فتقول: (اليَهودَ) بفتح الدال، و(النَّصَارىٰ): والتقدير: تَعني اليهودَ والنَّصارىٰ؟.

ويَصِحُّ الرفعُ فيهما، ويكون التقدير: هُم اليَهُودُ والنَّصارىٰ؟

(**قَالَ: فَمَنْ؟**): والمَقصُود هنا اتِّباع اليَهُود والنصَارىٰ في المعَاصي، وما يتعلَّق بالدِّين من بِدَع وشِركيَّات!

وقد جاء في حديث قريب من هذا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ القُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ**. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: **وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا**

أُولَئِكَ»[١]. ففَسَّرها بأنهم فارس والرُّوم.

قالَ العُلماءُ: المقصود بـ: **«فَارِسَ والرُّوم»**: فيمَا يتعَلَّق بالحُكمِ والسِّياسة.

والمَقصُود بـ: «اليَهُود والنَّصَارىٰ»: فيمَا يتعَلَّق بالدِّيانة.

ووَجهُ الدلالة من الحَديث ظَاهِرَة: أن النبيَّ ﷺ أخبَرَنا في هذا الحديثِ الصَّحيح أنَّ بعض هذه الأمة سيَتَّبعون أهلَ الكتاب -اليَهُود والنَّصارىٰ- في كُل شيء، وسيُقَلِّدونهم في كلِّ صَغير وكَبير.

وثبَتَ بالأدلَّة أن بعض أهل الكتاب يُشرِكُون ويُؤمنون بالجبت والطاغُوت، وهم بعد بعثَة النبي ﷺ كفَّار إذا لم يُؤمِنُوا به؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن بعض أمة محمدٍ ﷺ سيُشرِكُون؛ لأنهم يَتَّبعون أهلَ الكتَاب في كل شَيء.

وهذا فيه تحذيرٌ شَديدٌ من مُوافَقة أهل الكتاب فيما ظَهَرَ أنه حُلو من أفعَالهم، أو كان مُرًّا، فلا يَجُوز لنا أن نتَشَبَّه بأهل الكتَاب.

❊❊❊

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِمُسلِمٍ: عَن ثَوبَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرضَ فَرَأَيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبلُغُ مُلكُهَا مَا زَوَىٰ لِي مِنهَا، وَأُعطِيتُ الكَنزَينِ: الأَحمَرَ وَالأَبيَضَ، وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي لأُمَّتِي ألا يُهلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَألا يُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم فَيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعطَيتُكَ لأُمَّتِكَ أَلا أُهلِكَهُم بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَألا أُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم فَيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم، وَلَوِ اجتَمَعَ عَلَيهِم مَن بِأَقطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعضُهُم يُهلِكُ بَعضًا وَيَسبِي بَعضُهُم بَعضًا».

الشرح

هذا الحديث في «صَحيح مُسلِم»[1]، وهو حديثٌ عظيم فيه بشَارات للأمَّة، وتحذيرٌ لها.

(إِنَّ اللهَ زَوَىٰ لِيَ الأَرضَ): (زَوَىٰ) بفتح الزاي والواو؛ أي: ما زوىٰ الله لي.

أو: (زُوِي) بضَم الزَّاي وكَسر الوَاو، وهو ظاهِر. وقد ضُبِطَت الكلمة بالضَّبطَين.

ومعنَىٰ (زَوَىٰ): جمَع وقَبَض؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ جمَع الأرضَ لنَبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) برقم (٢٨٨٩).

قالَ: (فَرَأَيتُ): ولم يأتِ دليلٌ علىٰ نَوع هذه الرؤية: هل هي رُؤيةٌ بالعين البَاصرة في اليقظة، فيكونُ الله عَزَّوَجَلَّ جمعَ الأرضَ وطَوَىٰ أطرافَهَا للنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتىٰ أصبَحَ النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينظُرُ إلىٰ مشارقها ومغاربها بعينيه في اليقظة؟، هذا مُحتَمل، والله علىٰ كل شيء قَدير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

أو أنه رَأىٰ ذلك في المَنَام، فأرَاه الله الأرض، فرَأىٰ مشَارِقها ومغاربَها في المنام، ورُؤيا الأنبياء حق لا كذِبَ فيها ولا تخليط ولا خطَأ فيها؟

الحَديثُ مُحتمل للأمرَين، ولم يأتِ دَليلٌ يُعَيِّن أحدَ الاحتِمالَين.

قال: (فَرَأَيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا): قال العُلمَاء: أي: رأيتُ جميعَ مشَارقها وجميع مغاربِها، فجميع نَواحي الشرق من الأرض قد رآها النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وجميع نَواحي الأرض من الغَرب قد رآها النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قالَ العُلمَاء: ولم يَذكُر شمالَها وجنوبَها، وفي هذا إشارة إلىٰ أن فُتوحاتِ المسلمين ومُلكَ المُسلمين سيَمتَدُّ في الشَّرق والغرب أكثَر منه في الشَّمال والجنوب، وهذا الوَاقِع.

وقالَ العُلماء: إن في هذا دليلًا علىٰ أن الإسلامَ سيدخُل جميعَ المشَارق وجَميعَ المغَارب، فما من جُزءٍ في المُشرقِ إلا وسيدخُلُه الإسلام، وما من جُزء في الغرب والمغَارب إلا سيَدخُله الإسلامُ؛ لأن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**وَإِنَّ أُمَّتِي**»: أي: أمّة الإجابة.

(سَيَبلُغُ مُلكُهَا مَا زَوَىٰ لِي مِنهَا): وهذا يَجعلُنا نقطع بأن الإسلام سيَصِلُ جميعَ المَشَارق، وسيصلُ جميعَ المغَارب، منها ما وَصَله فعلًا، ومنها ما سيَصِلُه

يقينًا وقَطعًا، والله غالبٌ علىٰ أمره.

قال: (وَأُعطِيتُ الكَنزَينِ: الأَحمَرَ وَالأَبيَضَ): يَعني: أُعطِيتُ لأمتي الذهبَ والفضة؛ فالأحمر هو: الذَّهب، والأبيض هو: الفِضَّة.

وفي هذا بشَارة للأمة في ذاك الوقت أنَّهم سيَستَولُون علىٰ مُلكِ كِسرَىٰ وقيصر، وذلك أن الغالبَ علىٰ أموالِ الفُرس كانت الدنَانير، وهي من الذهب. والغالب علىٰ أموال الرُّوم كانت الدَّرَاهم، وهي من الفضة.

والمَقصُود: أن الأمةَ ستَفتحُ فارس والروم، وسيُغلَب فارس والروم من أمَّة محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد وقع هذا في زَمَن عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (وَإِنِّي سَألتُ رَبِّي لأُمَّتِي): دعَا الله عَزَّوَجَلَّ لأمَّته.

(ألا يُهلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ): وفي بعض نُسَخ «كتاب التوحيد»: «بِسَنَةٍ عَامَّة»، وهكذا هي بالوَجهَين في نُسَخ مُسلِم، والمَعنىٰ وَاحِد.

والمَقصُود: ألَّا يُهلكَهُم الله بقَحط عام يَعُم المسلمين جميعًا، ويُبيدُ المسلمين جميعًا، والهَلاك في القحط يكُون بالجُوع، أو العَطَش، أو بِهما معًا؛ لأن القَحطَ يذهبُ معه الطَّعام، ولذلك جاءَ في روايَةٍ عندَ ابنِ مَاجه[1]: «وَإِنِّي لَنْ أُسَلِّطَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ جُوعًا فَيُهْلِكَهُمْ فِيه».

وكذلك (القَحطُ) مَعناه: فَقْدُ المَاء؛ فيُصيب الناسَ العطشُ.

(وَألا يُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا): يُعادِيهم ويُحَارِبُهم، ويتسَلَّط عليهم بقُوَّته.

---

(١) برقم (٣٩٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم): والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيَّد دعوته بهذا القَيد ولم يُطلِق؛ لأنه سبَقَ أن سأل الله لأمته ألَّا يجعلَ بأسَهُم بينهم، فلم يُعطِه اللهُ ذَلك، فعَلمَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بأسَ الأمةِ سيَكونُ بَينَهم، فسألَ الله ألَّا يُسلِّط عليهم عَدُوًّا كافرًا.

(فَيستَبِيحَ): مَعطُوف علىٰ: «**وألَّا يُسَلِّطَ**».

(بَيضَتَهُم): أي: جمَاعَتَهُم.

فالنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل ربَّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألَّا يُسلِّط علينا عدوًّا يُبيدُ جميع الأمَّة.

(وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ): وهذا دليلٌ علىٰ أن ربَّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتكلَّم متىٰ شاء بمَا شاء كلامًا حَقيقيًّا علىٰ ما يَليقُ بجَلال رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن كلام رَبِّنا ليسَ مَحصُورًا في الكتب المُنزَّلة، وإنما الله يتكلَّمُ متىٰ شاءَ، كيف شاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلامُه -كما هُو واضح بالأدلة وضوح الشَّمس- بحَرفٍ وصَوت.

(إِنِّي إِذَا قَضَيتُ قَضَاءً): أي: حَكمتُ حُكمًا كَونيًّا قَدَريًّا؛ فإنه لا يُرَد.

أمَّا القضَاء الشرعي: فإنه قد يُرَد ولا يَستجيبُ من طُلب منه ذلك.

فإنَّ القضاء القَدَري الكوني: إذا كان مُطلقًا فإنه لا يُرَد، وسيقع.

ولذلك يقولُ العُلمَاء: القضَاء الكَوني القَدَري مُلازم للوقوع. والقَضَاء الشَّرعي مُلازم للمَحبَّة.

أما إذا كان القضَاءُ الكوني القَدَري مربوطًا بسَبب؛ فإنَّه قَد يُرَد.

ولذلك جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَا يَزِيدُ فِي العُمرِ إِلَّا البِرُّ، وَلَا يَرُدُّ القَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ**» رواه ابن ماجه بإسناد حَسَّنه الألباني[1].

قالَ العلماء: هذا القضاء المُقيَّد بالدعاء يَكُون في أيدي الملائكة: أن فُلانًا إن دعَا لا ينزل به كذا، وإن لم يَدعُ يَنزل به كذا، أو إن دعَا يُعطَىٰ كذا، وإن لم يَدعُ يُحرَم من كذا، فإن دعَا وقع ما عُلِّق علىٰ الدعاء، وإن لم يَدعُ لم يَقَع، أو العَكس إذا كان في بَابِ المَنع.

(**فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ**): ومُنَاسبة هذه الجُملة للدعاء: أن يتيقن المؤمنون أن ما في هَذا الحديثِ وَاقع، ولا يستطيع أحَدٌ ولا جماعاتٌ منعَه.

(**وَإِنِّي أَعطَيتُكَ لأُمَّتِكَ أَلا أُهلِكَهُم بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ**): فاستجَابَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الدَّعوة؛ ألَّا يُهلك الأمة بقَحط يَعُمها.

وجاء في روايةٍ أُخرىٰ للحَديثِ: «**وَسَأَلتُهُ أَلَّا يُهلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ**»[2].

فالأمانُ العامُّ وقع من هذا، وهذا قضاء الله الكوني الذي سيقع يَقينًا.

فنحنُ نقولُ بيقين: إن هذه الأمة لن تُباد بقحط عام، ولا بجُوع عام، ولا بعَطش عام، ولا بغَرَق عام، وهذا يدل علىٰ أن بعضَهَا قد يهلك بسبب هذا، فقد يصيبُ بَلدًا من البُلدان جوعٌ فيَمُوت الناس، وقد يأتي سيل أو شيءٌ من البحر، أو إعصار أو نحو ذلك، فتَغرقُ مجموعة من المسلمين؛ لأن هذا قُيِّد «**بسَنَةٍ بِعَامَّةٍ**».

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسَّنَه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(وَأَلا أُسَلِّطَ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن سِوَىٰ أَنفُسِهِم): يعني: من الكُفَّار.

(فَيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم): يعني: يُبيد جَمَاعَتَهُم.

(وَلَوِ اجتَمَعَ عَلَيهِم مَن بِأَقطَارِهَا): فلو اجتمَعَ عَليهم مَن بنَواحِيها من الكفار وسَاروا بجيشٍ واحد لتُبيدَ المسلمين لن تستطيع.

قد تتَغَلَّب علىٰ بلد أو بعض البلدان، أمَّا أن تتغلب علىٰ جميع المُسلمين فلا.

والأمان هنا مِن أمرَين:

الأمر الأول: الإبادَة والقَضَاء. فالأمة مُؤَمَّنة من أن يُبيدها أعداؤها الكفَّار.

والأمر الثاني: التسلط والحكم. فالأمَّة مُؤَمَّنة من أن يسلَّط الكفارُ عليها تسلطًا عامًّا شاملًا.

(حَتَّىٰ يَكُونَ بَعضُهُم يُهلِكُ بَعضًا وَيَسبِي بَعضُهُم بَعضًا): أي: أن بأسَهُم سيكون بينَهُم.

(وَيَسبِي بَعضُهُم بَعضًا): أي: يأسِرُ بعضُهم بعضًا من الرجَال، ويَسبِي بعضُهم نسَاءَ بعض، وهذا الأمر واقع من الخَوَارج عبر الأزمان، فإنَّهم من بغيهم وجَهلِهم عابُوا علىٰ عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنه قاتَلَ ولم يَسْبِ ولم يَغنَم![1].

---

(١) جاء هذا ضمن الشُّبهات التي حاوَر ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا الخوارج فيها، وهي قصة طويلة في أخرجها عبد الرزَّاق في «المصنف» (١٨٦٧٨)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٢٢)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٨٥٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٦٤).

وهُم عبر تَاريخهم يَستَحِلُّون أموالَ المُسلمين، ولذلك تَرَون الخوارج المُعَاصرين منهم والذين هم شَرٌّ من الخوارج المتقدمين، إذا دخلوا مدينة أو بلدة يستَحِلُّون أموال المسلمين وبُيوتَهُم وسياراتهم، وكُلَّ ما يَملِكُون.

وهُم -علىٰ الرَّاجح من أقوال أهل العِلم-: من الأمة، وليسُوا كفَّارًا، ولكنَّهم علىٰ خطر شديد، فالوَصفُ فيهم شديد، والوعيدُ فيهم شديد.

ولذلك أنا أرَىٰ -والله أعلم-: أنهم يَدخُلون في هذا: «**حَتَّىٰ يَكُونَ بَعضُهُم يُهلِكُ بَعضًا، وَيَسبِي بَعضُهُم بَعضًا**».

ولا يلزَمُ -باتفاق العُلماء-: أن يقول الخارجُ عن نفسه إنه خَارجي، وإلا ما وُصف أحدٌ بأنه خَارجي؛ لأننا لا نعرفُ عبر التاريخ أن أحدًا منهم قال إنه خَارجي، أو رَضي بأن يُوصَف بأنه خارجي، ولكن العِبرَة بالوَصف.

وهذه قَاعدة أهل السُّنة والجمَاعة: المُبتدع نَصِفُه بأنه مبتدع، ولو قال إنه من أهلِ السُّنة.

والواجبُ والعَدل: هو النَّظر في الصِّفات الشرعية.

ومنهم هَؤلاء الخوارج: الذين يتَسمَّون أو سُمُّوا بـ «داعش»، ويتَسَمَّون زُورًا بـ «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، هذا أصل نَحت كلمة (داعش).

فهؤلاء منهم خَوارج ولا شَك، وينطبقُ عليهم وصفُ الخوارج ويَزيدُون، ومنهم من فيه صفَاتٌ من صفات الخَوَارج، لكنه لا يَنطَبق عليه وصف الخوارج من كل وجه، ومنهم بُغَاة دون الخَوَارج، والعِبرَة بتَحقُّق الوصف الشرعي.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَرَوَاهُ البَرقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[١]**، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمُ السَّيفُ لَم يُرفَع إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلحَقَ حَيٌّ مِن أُمَّتِي بِالمُشرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأَوثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُم يَزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنصُورَةً لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم وَلَا مَن خَالَفَهُم، حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».**

الشرح

(وَرَوَاهُ البَرقَانِيُّ): وهو الحَافظُ أحمَد بن محمد أبو بكر البَرقَاني، المُتوفَّىٰ سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائة من الهجرة، وله كتب مَشهُورة في السُّنة، منها صحيحُه الذي أشارَ إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه الزيادة رواها أيضًا أبو داود، وابنُ ماجه، وصحَّحها الشيخُ الألباني[٢].

(وَزَادَ: وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ): (وإنما): أداةُ حَصرٍ؛ فكأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصَر خوفَه علىٰ أمته من الأئمة المُضلِّين، وهذا للدَّلالة علىٰ عِظَم أثر الأئمة المُضِلين في الأمة.

---

(١) انظر: «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣/ ٥٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٥٢)، وابنُ ماجه (٣٩٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

والإِمَامُ: هو الذي يُقتَدىٰ به.

قال بعضُ أهل العلم: هو من الطريقِ؛ لأن الطريق يُسمىٰ (إمامًا).

فلمَّا كان الإمام يُسلَك وراءه سُمِّي (إمامًا).

وقَال بعضُ أهل العلم: بل هو من (الأمام)؛ بمعنىٰ (قُدام)، فلما كان يُقتَدىٰ به كان (إمامًا).

والإمامُ المقتدىٰ به قد يُقتَدىٰ به في الخير؛ فيكون إمامَ خَيرٍ، وقد يُقتدىٰ به في الشر؛ فيكون إمامَ شَرٍّ.

(أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ): **قال العُلماءُ**: والأئمة هنا تَشمَل العلماء: عُلماء الضلالة، والحُكَّام: حُكَّام الفساد والضلالة، كُلهم يدخلون في الأئمَّة المُضلين.

وهذه الأمةُ تُبتلىٰ بعُلماء سُوء ينتسبون إلىٰ العلم، لكن إنما يحملون العلمَ بلا زَكاء أنفُس؛ فلا يَنتفِعُون بالعلم، ولا ينفعون به، بل يتخذون علمهم وسيلة لصَدِّ الأمة عن الحق والاستقامَة، وإما أنهم يتعَالَمُون ولا علم عندهم، وكلا الصنفَيْن موجُود اليوم، وتسمَعُ عَجبًا ممن ينتسبون إلىٰ العلم اليوم، وقد يُسَمِّي نفسه ولا يُسَمَّىٰ: مفتي الدولة الفلانية، وخاصة في الدول الكافرة؛ ليس هناك سُلطَة؛ فيتَسَمَّىٰ بهذا الاسم ثم يُضِل الناس.

وكذلك تُبتَلىٰ الأمة بحُكَّام ضُلَّال أهل فسَاد.

ولا يعني هذا أن كل عَالم هو من عُلمَاء الضَّلالة، بل علماء الحَق والنور والهُدىٰ كُثر، والحَمدُ لله، ولا يعني هذا أن كُل حاكم من حُكَّام الضَّلالة.

فمِن الظلم الآن أن بعضَ الناس يصِفُ الحكام جميعًا بأنهم طَوَاغيت.

وللأسف بعضُ الناس لا يَقفُ عند هذه الجُملة!

الحُكامُ المسلمون منهم أخيار ومنهُم دون ذلك، ومنهم من قد يرتَدُّ -والعيَاذ بالله-، والعَدل: الحَذر في الأحكام، وعدم إطلاق الأحكام إلا إذا استبَانَ الحُكم، واستبان الخير في الإطلاق، لابد من الأمرين، لابد أن يستبين الحكم؛ فيكُون كالشَّمس، وإلا فَاسكُت، وأن يستبين الخَيرُ في الإطلاق، وإلا فاسكُت.

وقَال العُلماء: كلما بَعُد العهدُ عن زمن النبوة كَثُرَ الأئمة المضلون -نَعُوذ بالله من الضَّلال-.

(وَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمُ السَّيفُ لَم يُرفَع إِلَىٰ يَوم القِيَامَةِ): إذا وقعَ السيف علىٰ الأمة لم يُرفع رفعًا كُليًّا، قد يَخِفُّ حينًا ويَزيد حينًا، وقد وقَعَ السيفُ علىٰ الأمة في فتنة مَقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فانكسَرَ البابُ.

ومنذُ ذلك الحين لم يُرفَع السيف عن الأمَّة، ولن يُرفَع، لكن قد يَخِف، ويكونُ ذلك بالتوحيد والسُّنة، ويكثر السَّيف بانتشَار الشِّرك والبدعة.

وكيفَ تأمنُ الأمةُ من فتنة السُّيوف؟

أوَّل أمر وأهَم أمر وأعظَمُ أمر: أن يُنشَر التوحيد، وأن تُنشَر السنة، ويُحرَص علىٰ ذلك، فيَخف أمرُ السيف؛ لأن أهل السنة لا يرفَعُون السيوف، إلا جهادًا واضحًا كالشمس في سبيل الله، فأول الأمرِ نَشرُ التوحيد والسنة، ثم إعدادُ القُوة.

(وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلحَقَ حَيٌّ مِن أُمَّتِي بِالمُشرِكِينَ): اختلَفَ العُلماء في هذه الجُملة:

فقَال بعضُ أهل العلم: أي: يَلحَقُ حَي من المسلمين بالمشركين؛ أي: في دينهم، فيقَع الشركُ من هذا الحَي.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: بل المُرَاد: أن يُسَافر المسلمون إلىٰ ديار الكفَّار للإقامة عندَهُم.

وهَذا ظاهِرُ اللَّفظ؛ أن المُراد: أن يُسَافر المُسلم من غير ضَرُورة إلىٰ ديار الكفار ليُقيمَ بين ظهرانيهم، وهذا المُتقَرِّر عند أهل العلم، أن ذهاب المسلم إلىٰ ديار الكفار ليقيم بين ظهرانيهم من غير ضرورة، يعني: ما خافَ علىٰ نَفسِه في بلاد المُسلمين مَثلًا، أن هذا حرامٌ لا يَجُوز، وأنه شَرٌّ عظيم، وقد أدركَ مَن ذَهب إلىٰ هناك هذا بَعدَ مُرور سنين.

وأيَّد هؤلاء العلماء قولهم هَذا -أعني: أن هذا هو المُراد بالجُملة بظَاهر اللفظ، وبأن النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال بعدها: **«وَحَتَّىٰ تَعبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأوثَانَ»**-.

فقَالُوا: إذا حَملنا الجُملة الأولىٰ علىٰ أن هذا الحي يلحَقُ بالمشركين في الشرك؛ تكونُ الجملة الثانية بمَعناها؛ فيكُون ذلك تأكيدًا، والتأسيسُ أولىٰ من التأكيد.

يَقُول العلماء: إذا احتمَلَ الكلامُ مَعنًىٰ جَديدًا ومعنىٰ سابقًا، فالأولَىٰ حَملُه علىٰ معنًىٰ جديد؛ لأن التأسيس أولىٰ من التأكيد؛ لأن التأكيد فيه تعطيلُ بعضِ اللفظ، أما التأسيسُ ففيه حَملُ اللفظ علىٰ تَمام مَعناه.

(وَحَتَّىٰ تعبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأَوْثَانَ): (فِئَام)؛ أي: جماعات، وفي روَاية: «حَتَّىٰ تَعبُدَ قَبَائِلُ مِن أُمَّتِي الأوثَانَ»[١]. قبائل وليست قَبيلة واحدة!

فهذا دليلٌ علىٰ وقوع الشرك في هذه الأمَّة، وأن من أمة محمد ﷺ من سيَرتدُّ ويَعبُد الأوثان.

(وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ): والكذابونَ في الأمة كُثر، وفي زماننا كَثُر عددهم -لا كثَّرهم الله-، لكنَّ النبي ﷺ هنا ذكر رُءوسَ الكذَّابين، فرُءوس الكذابين ثلاثون، يَخرُجون عبر الأزمَان، ولا يُشترَطُ أن يجتمِعُوا في زمنٍ واحد.

(كُلُّهُم يَزعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ): والمُراد: أنه إذا زَعَم أنه نبي، فإن أفرادًا من الأمَّة سيُصَدِّقونه، وما من مُدَّعٍ يَدَّعي إلا ويجد له أتباعًا.

فهذا غُلام أحمد القادياني قال إنه نبي، وله أتباع كُثر، وغيره من الدجَّالين علىٰ مَرِّ التاريخ، وهذا يَدُل علىٰ أن بعضَ الأمة سيرتَدُّون أيضًا باتِّباع هؤلاء الدجَّالين.

قالَ: (وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعدِي): وقد أجمعت الأمةُ علىٰ أن مُحمدًا ﷺ هو خاتمُ الأنبياء والمُرسَلين، حتىٰ أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما يَنزلُ في آخر الزمان من السَّماء، سيَحكُم بشريعة محمد ﷺ؛ بل إنه إذا نزَلَ ووجدهم صَافِّين للصلاة لا يتقدَّم ليصلي بهم، بل يتقدَّم إمامُهُم يُصَلي بهم

---

(١) هي في رواية «أبي داود» التي في التَّخريج السابق.

ففي الحَدِيثِ عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ عَلىٰ الحَقِّ ظاهِرينَ إلىٰ يَومِ القِيامَةِ.

قَالَ: فَيَنزِلُ عِيسَىٰ ابنُ مَريَمَ، فَيقولُ أَميرُهُم: تَعَالَ صَلِّ لَنا. فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعضَكُم عَلَىٰ بَعضٍ أُمَرَاءَ تَكرِمَةَ اللهِ هَذهِ الأُمَّةَ»[1].

(وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ): أي: جماعة.

(مِن أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنصُورَةً): هي علىٰ الحَق، وهي مَنصُورة من الله عَزَّوَجَلَّ، يَنصُرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال العُلمَاء: النَّصرُ الواقع يقينًا هو نَصر الحُجة والبيان والبرهان، فإنَّ من كان علىٰ السنة يُنصَر علىٰ غيره بالحُجة والبرهان، ولذلك تجد أن الذين يخالفون السُّنة في كل مكان يُواجِهُونها بأمرَين أو بأحدِهمَا:

الأمر الأول: السَّب، والشَّتم، والكَذب عليهم.

والأمر الثاني: استعدَاءُ أصحاب السُّلطَة عليهم.

وقد تُنصَر بالقُوَّة أيضًا، فيكونُ لها دَولَة، ويكون لها قُوة، ويكون لها جنَاب، كما حدَثَ في هذه الدولة المباركة، عندمَا تحالفَ الإمامَان: محمد بن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب، فقَامَت دولة التوحيد، وأصبح لها قُوة، وأصبح لها هيبةٌ في بقاع الأرض وأصقَاع المَعمُورة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦).

(لَا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم): يعني: لم يُوافِقهُم من المسلمين ولم يَنصُرهم، **(وَلا مَن خَالَفَهُم)**.

(حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ): **المُراد** بأمر الله، أو الساعة -كما جاء في بعض الروايات-؛ أي: حتىٰ يأتي أمرُ الله قُرب قيام السَّاعة، حيث تهب ريح لينة أنعم من الحَرير، من جِهَة اليمن، تقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقىٰ مؤمن، فتُعبد اللات والعزىٰ، ومعنىٰ ذلك أنه يبقىٰ شيءٌ من الزمن بعد قَبضِهم، فلا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق.

فمَعنىٰ: **(حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ اللهِ)** أي: أمر الله بخُروج هذه الرِّيح التي تقبض أرواحَ المُؤمنين.

وجاء في رِواية أخرَىٰ: «**إِلَىٰ أَن تَقُومَ السَّاعَةُ**»[1].

قالَ العُلمَاء: أي: إلىٰ أن تَقُوم ساعتُهم، ومن مات قامَت قيامته.

أو أن المَقصُود: إلىٰ قُرب قيام الساعة، بدليل الأحاديث الأخرىٰ.

والشَّاهد من الحَديث: صراحَةُ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَحَتَّىٰ تَعبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأَوثَانَ)**.

❀❀❀

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩٢)، وابن ماجه (٦) من حديث قرة بن إياس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ النساءِ.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ المائدةِ.

الثَّالِثَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الكهفِ.

وكلها تَقَدَّم تفسيرها، وبيان مَعنَاها.

الرَّابِعَةُ -وَهِيَ من أهَمِّهَا-: مَا مَعنَىٰ الإيمَانِ بِالجبتِ والطَّاغوتِ فِي هذا المَوضِعِ؟ هل هُوَ اعتقادُ قلبٍ، أَو هُوَ مُوافقَةُ أَصحَابِهَا مَعَ بُغضِهَا ومَعرِفَةِ بُطلانِهَا؟

ما معنىٰ إيمَانِ هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب بالجِبتِ والطاغوت؟

هل هُم يَعتقدون في الأصنَام؟

الجَواب: أن اليهود لا يَعتقدون في الأصنام، وإن عَبَدوا عُزَيرًا؛ لكنهم لا يعتقدون في الأصنام.

(أو هُو مُوافَقة أصحَابها): يعني: الرِّضا بفِعلِ أصحابها، والثَّناء عليهم، والقول: إنهم أهدَىٰ من المؤمنين سبيلًا، فمَن رَضِي بالكفر وأقرَّهُ إقرارًا للكُفر ذاته؛ لأنه قد يُقِر أهلَ الكفر كما في أهل الكتاب في العهد والذمة؛ لكن لا يُقِرُّ الكفر، فمن أقرَّ الكفر ورضي به وصَحَّحه، فهو كافر، وإن لم يَكُن من أهله.

وذلك كَمَن يقول: الذين يَعبُدون بوذا علىٰ دين صحيح، وهم من أهل الجنة وأنا راضٍ بديانتهم؛ لكنِّي لست بوذيًّا، **هو كَافر**، وإن كانَ يُصَلِّي مع المُسلمين؛ ولكن كما قلتُ في الأحكام: يكون الأمر إلىٰ أهلها، ولا يُعتَدَىٰ فيها.

الخَامِسَةُ: قَولُهُم: إِنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ يَعرِفُونَ كُفرَهُم أَهدَىٰ سَبِيلًا مِنَ المُؤمِنِينَ.

وهذا طريقُ الضُّلَّال، فالآن تجد من الضلَّال الذين ينتسبون إلىٰ الإسلام مَن يصفُونَ الموحدين بأنهم أكفَرُ من اليَهُود والنصارىٰ!

وهَذا طريقُ الضُّلَّال، ورأسُهم اليهود؛ حيث سَألَهُم كفارُ قريش: مَن أهدَىٰ نَحن أم مُحمَّد؟!

قالوا: بل أنتُم أهدىٰ سبيلًا! وهكذا طريقُ أهل الضَّلال.

السَّادِسَةُ -وَهِيَ المقصودُ بِالتَّرجَمَةِ-: أَنَّ هَذَا لابُدَّ أن يُوجدَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، كما تقرر فِي حَدِيثِ أبي سَعِيدٍ.

(أَنَّ هَذَا): يعني: الإيمَان بالجِبتِ والطَّاغوت؛ وهو الشِّرك والكُفر.

السَّابِعَةُ: التَّصرِيحُ بِوُقُوعِهَا، أعنِي عِبَادَةَ الأوثَانِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ فِي جموعٍ كَثِيرَةٍ.

ففي الحَديث: «**وَحَتَّىٰ تَعبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأَوثَانَ**».

الثَّامِنَةُ: العَجَبُ العُجَابُ: خُرُوجُ مَن يَدَّعِي النُّبُوَّةَ مِثلِ المُختَارِ، مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَينِ وَتَصرِيحِهِ بِأَنَّهُ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ وأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وأَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضادِّ الوَاضِحِ، وَقَد خَرَجَ المُختَارُ فِي آخِرِ عَصرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ.

وهذا المختَار خرجَ في أواخر زمَن الصحابة، فلا يزالُ العلم طريًّا، وكان يُقِر بالشهادتَيْن، فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رَسُول الله، ويَشهدُ أن القرآنَ حَق؛ لكنه يَزعُم أنه نبي، والقرآنُ يُكذِّبه، والسنة تُكذِّبه؛ لأن فيهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتَمُ النبيين، ومع ذلك فبعضُ الذين يقرءونَ القرآن اتَّبعُوهُ، وآمنُوا به، وصَدَّقوه مع هذا التضَادِّ الظاهر!

ولهَذا نقُول: ما من مُدَّعٍ يَدَّعي إلا ويَجدُ له أتباعًا يُصَدِّقُونه.

التَّاسِعَةُ: البِشَارَةُ بأنَّ الحَقَّ لا يَزُولُ بالكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَىٰ، بل لا تَزالُ عَلَيهِ طَائفَةٌ.

أي: أمَّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤمَّنةٌ من أن يترك جميعُها الحق.

فبعضُ الأمة قد يتركُ الحَقَّ، أما أن جميعَ الأمة يترك الحَق كمَا وقع للأممِ السابقة، فهذا لا يكُون.

العَاشِرَةُ: الآيَةُ العُظمَىٰ أَنَّهُم مَعَ قِلَّتِهِم لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم وَلا مَن خَالَفَهُم.

فأهلُ الحَق في كل زمَان قِلَّة؛ ولكنهم مع كَونِهم قلة، ومع كونهم طائفة؛ فإنهم لا يَضُرهُم مَن خَذَلَهُم -وهم كُثر-، أو خَالَفَهُم -وهم كثر-. وهذا بنَصرِ الله وحفظِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ ذَلِكَ الشرطَ إِلَىٰ قيامِ السَّاعَةِ.

وقد سبق بيانُ أن في بعض نسخ الكتاب: إلىٰ قِيَام السَّاعَة، وفي بعضها: إلىٰ أشراط الساعة؛ يعني: إلىٰ ختام أشراط السَّاعة الكُبرىٰ، بعد أن تَطلُعَ الشمس من مَغرِبِها يكون هذا.

الثَّانِيَة عَشرَةَ: مَا فِيهِ مِنَ الآياتِ العظيمَةِ، مِنهَا: إخبَارُهُ بأَنَّ اللهَ زَوَىٰ لَهُ المشارقَ والمغاربَ، وأَخبَرَ بِمَعنَىٰ ذَلِكَ فوقعَ كَمَا أَخبَرَ، بخلافِ الجنوبِ والشَّمَالِ، وإخبارُهُ بأنَّهُ أُعطِيَ الكَنزَينِ، وإخبارُهُ بإجابَةِ دعوتِهِ لأُمَّتِهِ فِي الاثنتَينِ، وإخبارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّالِثَةَ، وإخبارُهُ بوُقُوعِ السَّيفِ، وَأَنَّهُ لا يُرفَعُ إذا وَقَعَ، وإخبارُهُ بإهلاكِ بَعضِهِم بَعضًا وَسَبيِ بَعضِهِم بَعضًا، وَخوفُهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ، وإخبارُهُ بِظُهورِ المُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وإخبارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ المنصُورَةِ، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنها أبعَدُ مَا يَكُونُ مِنَ العُقُولِ.

وهذا يُقرِّر ما تقرر سابقًا، من أن النَّبي ﷺ عبدُ الله ورَسُوله، ليس له من الأمر شيءٌ سِوَىٰ أن يسأل الله، وقد سَأَلَ اللهَ فأعطاهُ بعض سُؤلِهِ، ومَنعَهُ بعضَ سُؤلِهِ.

وهذا يَدُل علىٰ أن الذي يُسألُ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (وإخبارُهُ بوُقُوعِ السَّيفِ، وَأَنَّهُ لا يُرفَعُ إذا وَقَعَ، وإخبارُهُ بإهلاكِ بَعضِهِم بَعضًا وَسَبيِ بَعضِهِم بَعضًا، وَخوفُهُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ، وإخبارُهُ بِظُهورِ المُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وإخبارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ المنصُورَةِ، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنهَا أَبعَدُ مَا يَكُونُ مِنَ العُقُولِ): والمُرادُ هنا هو الجُملة الأخيرة، وهي الردُّ علىٰ الذين يقولون: غيرُ مَعقُول أن مَن أسلَم يُشرِك!

فيقول له الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الأمور المَذكُورة في الحَديث من ناحيَة النظر العقلي الضعيف هي أبعَدُ ما يكون؛ لكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبَرَ بها؛ فهي حَقٌّ ولو لم نَرَهَا وَقَعت، فكيف وقد رأينا ما وقع منهَا؟!

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: حَصرُ الخوفِ عَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ.

والمَقصُود أن شَرَّ الأئمة المضلين شَرٌّ عَظيم علىٰ أمةِ مُحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ مَعنَىٰ عبادَةِ الأوثانِ.

وهي أنها عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُطلقًا؛ سَواء كان المَعبُود صَنمًا، أو قمرًا، أو شجرًا، أو شَمسًا، أو بقرًا، أو غير ذَلكَ.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحرِ.

الشرح

لمَّا انتهىٰ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان أنواع الشِّرك في العبادة، والتي يكثر وقُوعها بين المسلمين، وكثير من الذين يَفعلُونها لا يَعرفون أنها حَرام، فضلًا عن أن تكُونَ شِركًا، فبَيَّن بالأدلة المُبينة لكل مُسلم يخافُ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنها شِرك، وبيَّن سبب ذلك، وبيَّن أن من أمَّة الإجابة من سيَعبُد الأوثان بأوضَحِ بَيان، وأنقىٰ كَلام، شَرعَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذِكرِ أمُورٍ تقع من كثير من المُسلمين، وفي الغَالب عن جَهل، وهي كُفر أو شِرك، زَاجرًا عنها، ومُحذِّرًا منها.

وبدأ بالسِّحر؛ لكثرَةِ وقوعِه، وعَظيم ضَرَره، وعظيم أثَره.

والسِّحرُ في اللغة له معَانٍ:

منها: الخَديعَة.

ومنها: كُل ما فيه من الشَّيطان مَعُونة.

ومنها: صَرفُ الشَّيء عن حَقيقَته.

ومنها: الإزالة من حَالٍ إلىٰ حَال.

ومنها: ما خَفي ودَقَّ سَببه؛ حيثُ لا يكادُ أن يدركه الناس؛ ولذلك يُقال عن الشيء الخفي جدًّا: أخفَىٰ من السِّحر.

والسِّحر: فِعلُ الساحِر. والفاعل: سَاحرٌ أو سَحَّار.

والسِّحرُ في الاصطلاح: اسم جامع لأنواعٍ مختلفة يجمعها الخَفَاء، ولكن

أَشَر أنواعه المنتشرة: عقدٌ تعقد من أسلاكٍ، أو قماش، أو نحو ذلك، ورُقىٰ، وعزائم؛ أي: تَمتَمات بكلمات يُتمتَم بها، يُنفَث فيها، وتؤثر في القلوب والأبدان بإذنِ الله الكَونِي.

فهي تُؤثِّر في القلوب بإذن الله الكَوني، فينقلبُ القلب من المَحبَّة إلىٰ العَدَاوة، ومن القُرب إلىٰ البُعد، وتؤثر في الأبدان، فتخرج أنواع من الأمراضِ علىٰ البَدَن، وقد يُظن أنها أمراض عُضويَّة، وهي من السحر، حتىٰ ما يُسمىٰ بمرض السرطان، فإنه تبين لنا بالتجَارب أن من أسباب وقوعه السحر، وإذا فُكَّ السحر زال هذا المرَض بعَون الله وتَوفيقه.

ولمَّا كان هذا النوع أشَرَّ أنواع السِّحر، وجدنا أن بعضَ أهل العلم يُعرِّف السحر به، وهو في الحقيقة نَوعٌ، وليس كل السِّحر.

وهل للسِّحر حقيقَة أو هو تَخييل؟

والجَواب: أن الذي عليه جماهير العلماء، بل عليه جماهير الناس، علىٰ أن للسحر حقيقة، وأن للسحر شرًّا يصيب الناس بإذن الله الكوني، وقد دلَّ علىٰ ذلك كتاب الله، وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والواقع يُصدِّق ذلك.

أما الكتاب: فقولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢]. فبين الله عَزَّوَجَلَّ أن السحرَ يَحصُل به التفريقُ بين المَرءِ وزوجه، وما ذلك إلا لأثره في القلوب، حتىٰ يكرَهَ الزوجُ زَوجَته، أو تكره الزوجةُ زَوجَها.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]. فأثبَتَ الله عَزَّوَجَلَّ أن السحرَ يَضُرُّ، لكن بإذنه الكَوني القَدَري، فإنه لا يَخرجُ شيء عن قَدَر الله، ولا يستطيع أحدٌ أن يَضُر أحدًا لم يَكتُب الله أن يَضُره، فالأمرُ كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن السحر يَضُر بإذن الله الكوني.

وكذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤]. والنفاثات: السَّواحر اللاتي يَنفُثن في العُقَد، ويَسحَرن الناسَ بها.

وفي الآية أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أثبت للنفاثاتِ شَرًّا، ولو لم يَكُن شَرُّهن واقعًا، لَمَا كان للاستعاذة من شَرِّهن معنىٰ، فدلَّ ذلك علىٰ أن للسِّحر والسَّحرة شرًّا يُصيبُ الناس.

وأمَّا السُّنة: فمنها: قولُ النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً؛ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ»**. متفق عليه[1].

و(تَصبَّح) يعني: في أول الصَّباح، فأكلَهَا بعد أن صلىٰ الصُّبح.

(سَبع تمرات عجوة): هل المقصود تمرٌ مُعَين، وهو ما يُسمىٰ في المدينة والحجاز بالعَجوة، أو هُو كُل تَمر؟

الذي يَظهَرُ -والله أعلم-: أن أنفعَهُ في هذا الباب عَجوَة العالية، وهو تَمرُ العجوة المعروف عند أهل المدينة، الذي يُزرعُ ويُغرس في العالية، ثم عَجوَة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٩)، ومسلم (٢٠٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

المَدينة، ثم العَجوَة من أي مكَانٍ كان، ثم التَّمر.

فمن وجَد عجوة العَاليَة فبِهَا ونِعمَت، ومن وجدَ عَجوة المدينة فبها ونعمَت، ومن وجد العجوة مطلقًا فبها ونعمَت، فإن عدِم ذلك كله، ووجد تمرًا من تمرِ بلاده، أو من تُمُور المدينة التي لا تُسمىٰ عَجوة عند أهل المدينة، فليتصَبَّح بها، ولا يُخلين نفسه من هذا الخير.

(لم يضرُّه في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر): فهذه من أسباب الوقاية من السموم، ومن أسباب الوقاية من السحر، أن يتصبح المسلم في كل يوم بسبع تمرات علىٰ ما ذَكَرنا.

وهذا يَدُل علىٰ أن للسحر ضَررًا يُتَّقىٰ، وتُبذلُ الأسبابُ لاتِّقائه، ومن تلك الأسباب -بل أنفعها علىٰ الإطلاق-: هذا الذي في هذا الحديث، بعد ذِكرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأن ضرَرَ السحر قد يقع علىٰ الإنسان إذا لم يَبذُل الأسباب، فقد يُسحَر ويتضرر بهذا السِّحر، كما هو ظاهر في هذا الحديث.

ومنهَا: ما جاء عن أمنا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قالت: «**سُحِرَ النَّبِيُّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **حَتَّىٰ كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُه...**». متفق عليه[1].

والنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سحَرَهُ رجلٌ يقال له: لَبيد بن الأعصم، ولكنَّ الله عاصمٌ نَبِيَّه من الناس، فلم يُؤثِّر السحرُ في دِينِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولا في سائر أموره، وإنمَا أثَّر في شيء واحد، وهو أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يُخيَّل إليه أنه يأتي أهله، وما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).

أتىٰ أهلَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من أثر هذا السِّحر، وما هذا إلا لحِكمَة عظيمة؛ لكي نعلمَ أنَّ الأمر كُله لله، وأن الأسبابَ إنما تؤثِّر بإذنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرُ مَن ذكر الله علىٰ الإطلاق، وما كان يَغفلُ عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وما كان يَحجزُه عن ذكر الله إلا الجنابة، ومَع ذلك سُحِر!

وذلك لنتَعَلَّم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا شاءَ عَطَّل السَّبب، فتتعلَّق قلوبُنا تعلقًا تامًّا مطلقًا بربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكي نعلم أن حبيبنا، وسيدنا، وقرة عيوننا، ومن نحبه فوق مَحبَّة كُل مَحبُوب دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أنه مع كونه رَسُولًا قد شرَّفه الله بالرسالة، فهو عبدٌ من عبيدِ الله، يُصيبُه ما يُصيبُ العباد، فلا يُصرَفُ له شيء من أنواع العبَادَة، وإنما العبادَةُ كلها: صغيرها وكبيرها، أولها وآخرها، لله رَبِّ العَالَمِين، رَبِّ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحبِه، ورب العالمين أجمَعِين.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن للسِّحر حقيقة وتأثيرًا حقيقيًّا بإذن الله الكَوني، والواقعُ شاهدٌ مُصَدِّق لهذه القضية القطعيَّة، فكم من شخصٍ ابتُلِي، بل رُؤي كالمَجنُون بين الناس، يسير في الطرقات هائمًا علىٰ وجهه، فلما وجِد السِّحر، وفُكَّ، وقُرئ عليه، وتُخُلِّص منه، عاد سَويًّا عاقلًا، والقصص التي نعرِفها ويعرِفها غيرُنا، مما لا يرُدُّه إلا مُكَابر، شاهدة علىٰ هذه الحَقيقة.

والسِّحر يتنوَّع من جهةِ حُكمِه إلىٰ أنواع:

النوع الأول: سحر يُتقرَّبُ به إلىٰ الشياطين، فلا يُرادُ منه صَرفٌ ولا عَطف، ولا إضرار بأحَد، وإنما يفعلُهُ أولئك السحرة تقرُّبا لآلهتهم، أو تقرُّبًا إلىٰ الشياطين، فبعضُهم يزعُم أن للنار إلهًا، فيتقربون إلىٰ ذلك الإله بأنواع من

السحر، وهكذا.

وهذا السحر كفرٌ باتفاق العلماء، لا يَجتَمع مع الإسلام أبدًا، ولا يفعل هذا السحرَ إلا الكُفار، يتقربون به إلىٰ الطَّواغيت، يتقربون به إلىٰ الشياطين، يتقربون به إلىٰ من يُسَمونهم الشفعاء، أو من يُسمَّونهم الآلهة.

والنَّوع الثاني: سحر يُستعانُ فيه بالجِن، ويتقرَّبُ فيه السَّاحر إلىٰ الجن بأنواع القَرابين، من أجل تحقيق المقصود من السِّحر، وهذا سحرٌ يُقصد به الصرفُ، أو المحبة، أو العَطف، أو الإضرار بأحد، فيَستَعين فيه الساحِرُ بالجن، ويُنادي الجن، ويكتبُ العزائم باسم الجن، ويتقرَّب إلىٰ الجن بأنواع القَرَابين، وقد يطلبُ ممن يريد أن يُسحَر له شيئًا من التقربِ، ولو بنملة، أو ذُبابة.

والفَرقُ بين هذا والأول: أن الأول يُتقرَّب بنفس السِّحر إلىٰ الشياطين، أما هنا فيُتقرَّب إلىٰ الجن والشياطين من أجل السِّحر، من أجل تحقُّق السحر.

وهذا أيضًا كُفرٌ أكبر يُخرِجُ من الملة باتفاق العلماء، فإن فيه تقرُّبًا إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ، واعتقادًا في المخلوق أنه يُؤثِّر باستقلاله، وأنه يعلَمُ الغيب، وستأتي الأدلة علىٰ كُفر هذا السحر، وكُفرِ السَّاحِر.

النَّوع الثالث: سحر بالأدوية والتَّراكيب، بحيث يضعُ الساحر مادة تُؤكَل، أو تُشرب، تؤثِّر في الجسَد، فيضعها في مطعومٍ، أو مشروب، فإذا أكل ذلك المطعوم، أو شرب ذلك الشراب، تأثر من أكلِه أو شُربه في نفسه، فإما أن يَجدَ في نفسه خمولًا، ونومًا دائمًا طويلًا مستمرًا، وكسلًا عظيمًا، وإما أن يجد نشاطًا زائدًا، وإما أن يجدَ في عقله نسيانًا وذهولًا، وإما أن يجِدَ في قلبه انصرَافًا عن

الناس، وحبًّا للعُزلة.

فهذا السحر ليس فيه عزَائم، ولا رُقىٰ، ولا نَفث، ولا استعانَة بالجِن، وإنما مادة يُركِّبها الساحرُ من أشياء، أو يعرِفها، ويكونُ تأثيرُها خَفيًّا.

وسُمي هذا النوع سحرًا؛ لأن سببه خفي، فلا يُطَّلعُ علىٰ سببه؛ ولأنه يُؤثِّر فيمن تعاطاه، كما يُؤثر السِّحر.

وهذا ينقسم في حُكمِه إلىٰ ثلاثة أقسَام:

القسمُ الأول: أن تكون المادة المَوضُوعة من أنواعِ المُسكِرات، أو أن تكون من أنواع المخدرات، وهذا حرَامٌ، وكبيرةٌ من كبَائر الذنوب، أيًّا كان القَصد، فوضعُ هذه المادة كبيرةٌ من كبائر الذنوبِ.

والقسمُ الثاني: ألَّا تكونَ المادةُ مُسكِرةً ولا مُخدِّرة، ويكونُ المقصودُ الإضرار بالشَّخص، وهذا حرامٌ وكبيرةٌ من كبائر الذنوبِ أيضًا.

والقسمُ الثَّالث: ألَّا تكونَ المادَّة مُسكرةً ولا مُخدِّرة، ويكون المقصُودُ نفع الشخص، كعلاجِه مثلًا، ولاسيَّما فيما يتعلق بالأمراض النفسيَّة ونحو هذا، فهذا جائز مُباح، إذا كان الدواء مَعرُوفًا نفعُهُ عند أهل الخِبرة.

والنَّوع الرابع: سِحر التخييلات، والأخذ بالعُيون، وما يُسمَّىٰ بخِفَّةِ اليد، فهو سِحرٌ لا حقيقة له سِوَىٰ التخييل، والأخذ بالعيون، فهذا الساحر يأخذ بعيون الناس، حتىٰ يُخَيَّل لهم الشَّيء أنه كذا وليس بكذا، وقد يستعمل في ذلك خفة يَدِه، أو نحو ذلك، وسُمِّي سِحرًا لخفائِهِ ودِقَّتِهِ، فهو شيءٌ يخفىٰ علىٰ

العامَّة، وإذا نظرت إليه ظننتهُ سِحرًا في الحقيقة، وإنما هو خيال.

وذلك كما فعل سَحَرةُ فرعونَ، فإن سِحرَهم من باب سحر التخييلات.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦]. فسِحرُهم كان للأعيُن.

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]. فأخَذُوا بعينه وأعيُن الناس، حتىٰ يُخيَّلُ إلىٰ الناظرين أن الحِبَال والعِصيَّ حيَّات تسعىٰ، وليست كذلك.

وهذا حُكمه بحسَبِ المَقصُود منه، وبِحسبِ ما يتضمَّنه وما يُؤدِّي إليه:

فإذا كان المَقصُود منه الإضرار بالناس؛ كالسَّرقة، فهذا حَرَام، وإذا كان يتضمن حرَامًا؛ كالاستعانة بالجن، فهذا حَرام، وقد يكون شِركًا، بحسَب نوع الاستعانَة، وإن كان يؤدي إلىٰ شَر؛ فهو حرام، وإن خَلا من ذلك فهو ليس من فعل أهل المُروءات، وستأتي -إن شاء الله- أنواعٌ أخرىٰ للسحر في الباب التالي، نتكلم عنها في مَوضِعها.

فالسِّحر الذي يكون فيه اعتقاد أن السَّحرة، أو من يستعينون بهم من الجن، يُؤثِّرون تأثيرًا مستقلًّا، أو يعلمون الغيب، كفرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك السِّحر الذي تكون فيه استعانة بالجن، وتقَرُّبٌ إليهم ولو بنملة، ولو بجناح طائر، ولو بنوعٍ من البخور، كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا ينطبق علىٰ السَّاحر، وعلىٰ من ذَهَب إلىٰ السَّاحر مُصدِّقًا له.

ويدُلُّ لذلك أدِلَّة:

منها: قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:١٠٢]. ما كفرَ سُليمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو نبي من أنبياءِ الله، ما جاء إلا بالحقِّ، والهُدىٰ، والعلمِ، والبيَان، ولكن اليهود كفَروا، فإنهم يتعلَّمون السحر ويُعلِّمون السحر، فدلَّ ذلك علىٰ أن سببَ كُفرِهم هو تعليمهم السِّحر للناس، فدل ذلك علىٰ أن هذا النوعَ من السِّحر كفرٌ، واليهود -قبَّحَهُم الله- من أعلمِ الناس بالسحرِ قديمًا وحديثًا.

ومنها: قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾: أي: المَلَكان ببابل هارُوت ومَارُوت، ما يعلمان من أحدٍ السِّحرَ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي: فلا تتعلَّم السحر فتكفُر؛ لأن تعلُّم السِّحرِ كفرٌ.

ومنها: حديثُ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الباب، وسنشرحُه -إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

ومنها: ما تقدَّم في الأبواب السابقة، من أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**والتِّوَلَةُ شِركٌ**»(١).

وذكَرنا أن التولة شيءٌ يُصنع يزعُمون أنه يُحبِّبُ الزوجة في زوجها، والزوج في زوجته، فذاك سحر العطفِ، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه شِرك.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٢٢).

ومنها: ما جاء عن عبد الله بن مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وسيأتي أيضًا- قالَ: «مَن أَتَىٰ سَاحِرًا أو كاهنًا أو عرَّافًا فصَدَّقهُ بما يقول، فقد كفر بما أُنزِل عَلىٰ محمدٍ». رواه البَيهقِيُّ، والبَزَّار[١].

قال الحافظ ابن حجَر: «بسندٍ جيد»[٢].

وهذا وإن كان من كلامِ ابن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلا أن له حُكمَ الرَّفع إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومثله لا يُقال بالرَّأي.

فإذا كان الذي يأتي السَّاحرَ، ويُصدِّقه بما يَقُول، يكون كافرًا بما أُنزِل علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بالسَّاحر نَفسِه؟، وكيف بمَن يعتقد في الساحرِ فوقَ التصديق؟

فهذا لا شَكَّ أنه أعظَم، وأنه كُفرٌ أكبر، يُخرِجُ من المِلَّة، والعياذ بالله.

❊❊❊

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٦٤٩٧)، والبزار في «مسنده» (١٨٧٣).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٢١٧).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة:١٠٢].

الشرح

هذه الآية العظيمة معناها: ولقد عَلِمَت اليهودُ في التوراة التي يتلونَها، لمن اختار السِّحر، واستبدل العِلمَ بالسِّحر، ما له من نَصيب في الآخرة؛ أي: في الجنة، وأن النار مَثواه ومَأوَاه، وهذا يَدُل علىٰ كُفر السَّاحر، ومَن اختار السِّحر.

وقَالَ بَعضُ أهل العلم: معنىٰ ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: ما له من دينٍ يُثاب عليه؛ أي: أنه بالسِّحر خرج من الدِّين المَرضي، وأصبح من الكُفَّار، فما له في الآخرة من دِين.

وعلىٰ المَعنَيَيْن؛ فإن الآية تَدُل علىٰ كُفر السَّاحر، وأنه لا خَيرَ في هذا السِّحر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء:٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الجِبتُ: السِّحرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيطَانُ».

الشرح

وقوله تعالىٰ علىٰ سبيل الذَّم لهم: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، وقد تقدَّمت هذه الآية، وتكلَّمنا عنها طويلًا.

لكنَّ المُراد هنا: ما جاء في أثر عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : (**قَالَ عُمَرُ: الجِبتُ: السِّحرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيطَانُ**): هذا الأثر روَاهُ ابنُ جرير[١] بإسنَادٍ صحيح، وذكَرَهُ البُخَاري في «الصحيح» تَعليقًا[٢].

وجَمعٌ من السَّلف فَسَّروا الجِبت بالسِّحر، منهم عُمَر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما هنا، ومنهم: مُجاهِد، والشَّعبي، وأبو العَاليَة[٣].

وقالَ بعضُ السَّلف -كابنِ سِيرينَ-: «الجِبتُ: هو السَّاحِر»[٤].

فبعضُ السلف فَسَّروا الجبت بالسِّحر، وبعض السلف فسَّروا الجبت بالسَّاحر، وهذا المراد هُنا.

---

(١) في «تفسيره» (٧/ ١٣٥).

(٢) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

(٣) «تفسير الطبري» (٧/ ١٣٦-١٣٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٧/ ١٣٩).

ووَجهُ إيرادِ الآية في هذا البَاب: أن الله ذَمَّهم علىٰ أنهم يُؤمنون بالسِّحر والسَّحَرة، وهذا يَدُل علىٰ أن هذا يُنافي الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه الآية تدل علىٰ أن أخذَ السِّحر -والعيَاذ بالله- إيمانٌ بالجبت، والإيمانُ بالجِبت أعظَم الكُفر.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

الشرح

هذا الأثَرُ عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أيضًا رواه ابن جرير في «تفسيره»[1] بإسنادٍ صحيح، وعلَّقه الإمام البخاري في «الصحيح»[2].

(**الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ**): أي: الذي يَستَرِقُ السمع، كما تقدم.

(**فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ**): أي: في كل قبيلة من قبائل العَرَب واحد، يرجعُونَ إليه، يتكهَّن لَهُم.

وهذا الباب كان يُناسب أن يَذكُره في (باب ما جَاء في الكُهان)، فلمَاذا ذكَره هنا؟

نَقُول: إن المناسبَة أن هذا الأثر دَلَّ علىٰ أن الطاغوت قد يَكُون من الجن، وقد يكون من الإنس، فالكاهنُ -هنا- الذي ينزِل عليه الجنِّي بما استَرق من السمع، وما كذَب فيه؛ طاغوت، وهو من الإنس، والجني الذي ينزِل عليه بهذا طاغوت، وهو من الجن، وهذا بعَينِهِ موجود في السِّحر، فإن الساحرَ يستعينُ

---

(١) (٤/ ٥٥٨).

(٢) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ (٦/ ٤٥).

بالجن، ويتقرَّب إليهم، فالجنُّ هنا طواغيتُ للسَّاحر، وكثير من الناس يعتقدونَ في الساحرِ أنه يعلمُ الغَيب، وأنه يضُرُّ الناسَ بنفسه، ويخافُونَ منه خوف السِّر، فإن الواحدَ منهم يكون في بيته مع زَوجتِهِ، فإذا ذكَرَتِ اسم هذا الساحر بسُوء قَالَ: اسكُتي؛ سيَضرُّنا، وهذا خَوفُ السِّر، وهو كُفر -والعيَاذُ بالله-، علىٰ ما سيأتينا بيانُه في ذكر أنواع الخوف.

فبعض الناس قد اتخَذُوا الساحرَ طاغوتًا، وهو من الإنس.

إذن؛ في السِّحر طاغوتٌ من الجن، وطاغوتٌ من الإنس، كما في الكهانة، فإن فيها طاغوتًا من الجن، وطاغوتًا من الإنسِ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّركُ بِاللهِ، وَالسِّحرُ، وَقَتلُ النَّفسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكلُ الرِّبَا، وَأَكلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَومَ الزَّحفِ، وَقَذفُ المُحصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤمِنَاتِ».

الشرح

هذا الحديث ورَدَ في بعض نُسَخ «كتَاب التوحيد» أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال عقِبه: «أَخرجَاه». وبُيِّض في بعض النُّسخ ولم يُذكَر هذا، والحديث في الصَّحِيحَيْن: البخاري ومسلم[1].

(**وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ**): اجتنبوا؛ أي: لا تَقرَبُوهُن، وابتَعِدُوا عنهن، وهذا أعظَمُ في النهي والتحريم من قَول: اتركُوا؛ لأن (اجتَنِبُوا) يَدُل علىٰ عَدَم القربان أصلًا، وعلىٰ وجوب المُبَاعَدة، وأن يكون الإنسان بعيدًا عن هذه السَّبع.

(**اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ**): أي: المُهلِكات، وهذه السبع مُهلِكاتٌ للعَبدِ في الدنيا، إما مَعنًىٰ، وذلك بسُوء أثرِهِنَّ علىٰ العبد، فإنَّ لهُن أثرًا علىٰ القلب، حتىٰ يُظلِم القلبُ بِهن، ويُصبِح العبدُ بهن لا يعرِف معروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكرًا،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).

وهذا والله هو المَوت والهلاك العظيم، وإما بالهَلاك الحِسِّي، كأن يُقتَل حدًّا، أو قِصاصًا، أو تعزيرًا.

وكذلك هُن موبقاتٌ يوم القِيَامَة، مُهلِكاتٌ للعبدِ إذا لقِي الله؛ لأنَّهُن من أسباب دخول النار، والخلودِ فيها، أو الخلود الطويل؛ لأن هذه الذنوب منها ما يُوجِب الخلودَ الدَّائم في النار، وهو الشِّرك بالله، والسحر، ومنها مَا يُوجِبُ الخلودَ بمَعنىٰ المُكث الطويل في النار، والعياذُ بالله، والغَمسَةُ الواحدةُ في النار ألمُها عظيمٌ.

عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤتَىٰ بِأَنعَمِ أَهلِ الدُّنيَا مِن أَهلِ النَّارِ يَومَ القِيَامَةِ، فَيُصبَغُ فِي النَّارِ صَبغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابنَ آدَمَ، هَل رَأَيتَ خَيرًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟، فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ، يَا رَبِّ.**

وَيُؤتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا فِي الدُّنيَا مِن أَهلِ الجَنَّةِ، فَيُصبَغُ فِي الجَنَّةِ صَبغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابنَ آدَمَ، هَل رَأَيتَ بُؤسًا قَطُّ؟ هَل مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ، يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيتُ شِدَّةً قَطُّ»[١].

وعَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَهوَنَ أَهلِ النَّارِ عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ مَن لَهُ نَعلانِ مِن نَارٍ يَغلِي مِنهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغلِي المِرجَلُ، مَا يَرَىٰ أَنَّ أَحَدًا أَشَدَّ عَذَابًا مِنهُ، وَإِنَّهُ لأَهوَنُهُم عَذَابًا**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣).

فهذا حالُ أهونِ أهل النار عذابًا؛ فكيفَ بمَن دخلَهَا وطال مُكثُه فيها، لا شَكَّ أن المؤمن يخافُ من عذاب الله ولو كانَ قَليلًا، ولا يستقِلُّ من عذابِ الله شيئًا، فهُن موبقاتٌ في الدنيا، موبقاتٌ في الآخرَة.

(قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّركُ بِاللهِ): والإشراكُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقبحُ ذَنبٍ علىٰ الإطلاق كما تقَدَّم مرارًا، فأن تَجعلَ لله ندًّا وهو خلقَك، وأن تجعَلَ لله ندًّا وهو رزقك، فهذا قَبيحٌ شرعًا، وقبيحٌ طبعًا.

فالعاقلُ لو تجرَّد لعلِم قُبحَ الشِّرك، فكيف بالمُؤمن الذي يقرأ كتابَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسمعُ سُنَّة رَسُول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

(وَالسِّحرُ): والسحرُ -كما تقدَّم- إن كان فيه اعتقَادُ عِلم الغيبِ، واعتقادُ أن الساحرَ يُؤثِّر سِحرُه بذاته، أو كان فيه تقرُّبٌ إلىٰ الجن والشياطين؛ فهو كُفر، فيكون هذا من بابِ عطف الخَاصِّ علىٰ العام، فالعَامُّ هو الشرك بالله، والسِّحر نوعٌ من أنواع الشِّرك بالله، ويكون هذا العَطفُ لبيَان عظيم شرِّ السِّحر، فإن ذِكرَ الخاص بعد العام إن كان في الخيرات، فهو يَدُل علىٰ شَرَف الخاص، وإن كان في الشرِّ -كما معنا هنا-، فهو يدل علىٰ شِدَّة قُبح الخاص.

وإذا قُلنَا: إن السحرَ هُنا يشملُ جميعَ أنواع السِّحر، ما كان منها كفرًا، وما لم يَكُن كفرًا، فإن هذا يتنوَّع؛ أعني: هذا العَطف، إن أُريدَ به ما كان كُفرًا من السِّحر، فهو من باب عطفِ الخاص علىٰ العَام، وإن لم يُرَد به ذلك؛ فإن هذا ذنبٌ آخر، وكبيرةٌ من كبَائر الذنوب، وإن كانَت ليسَت شِركًا.

(وَقَتلُ النَّفسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ): أعظم الوَرطات، وأشدُّ المُهلكات،

أن يُصيبَ المؤمنُ دمًا حرامًا، حرَّمه الله عليه، ولم يَأذَن الله له فيه، سواء كان هذا الدمُ دَمَ مُؤمِنٍ، أو دَمَ مُؤمَّنٍ.

وفي الحديث عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ»[١].

وبَلَّح؛ أي: انقطَعَ من الخيرات، والعيَاذُ بالله.

(وَأَكلُ الرِّبَا): مَن أكلَ الربَا فقد أهلَكَ نَفسَه؛ لأن الله آذنَهُ بحَرب منه، ومن رسُولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف يأمَن من يُحَاربه الله، ويُحَاربه رَسُوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، أقبَحُ مُتنَاوَل الرِّبا، وأقبَحُ مأكولٍ علىٰ الإطلاق الرِّبا، مُهلِكٌ للعبد من الجهة التي ذكرناها، ومُهلكٌ للعبد من جهة مَحْقِ بركةِ مالِ العبد، فإن الله يمحق الربا، ومهلكٌ للعبد من جهة أنه يَئُول بالمُرَابي إلىٰ الفقر، فالربا وإن كثُر فإلىٰ قِلة، كما أخبر بذلك النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]، ومُهلِكٌ للعبد بما يقعُ في قلبه من ظُلمَة بسببِ أكله لهذا الحَرَام البيِّن، وتمتَدُّ هذه الظلمة -والعياذ بالله- إلىٰ ذُريته، نعوذ بالله من سُوء الحَال.

(وَأَكلُ مَالِ اليَتِيمِ): فأكلُ مالِ اليَتيمِ مُهلِك للعبد في الدنيَا؛ لأن الذي يأكل

---

(١) أخرج أبو داود (٤٢٧٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) أخرج ابن ماجه (٢٢٧٩)، وأحمد (٣٧٥٤) واللفظ له، من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَىٰ قُلٍّ». وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

مالَ اليتيم كأنما يأكُل نارًا في بَطنِهِ، والنارُ تُحرِقُ ولا تَنفَع، وتُهلِكُ ولا تَرفَع، فأكلُ مال اليتيم سَببٌ للهلاك في الدنيَا، فكيف بالهلاك في الآخرة لآكلِ الربا وآكلِ مَالِ اليَتيم؟!

(وَالتَّوَلِّي يَومَ الزَّحفِ): إذا التَقىٰ الصفَّان في الجهاد المَشرُوع، وتعَيَّن القتالُ علىٰ المُؤمن، فإن التولِّي لغير مَصلحَة الجهادِ كَبيرةٌ من كبائر الذنوب، ومن أقبَحِ الذنوب، وهي مُهلكَةٌ للعبد بالعَار، والذم، والقُبح في الدنيا، وبعَظيم العقابِ في الآخرة.

أمَّا التولِّي لمصلحة الجهَاد، كأن يتحيَّزَ إلىٰ فئة، أو يَمكُر بالعدو، فهذا من فنونِ القتال، وهذا إنما هو في الجهَاد المَشرُوع، أما من ذَهَب إلىٰ غير جهاد مشروع في حقه، كمن ذهب من أهل الآفاق إلىٰ سُوريا، أو إلىٰ اليمن -فرَّج الله عن أهلهما-، فإن ذهَابَه ليس جهادًا في حَقِّه هو؛ لأنه قرَّرنا مرارًا أن الذي ظهر لنا بالدِّراسَة الشَّرعيَّة، بعيدًا عن التأثر العاطفي، أو بالآخرين، أن القتال في سوريا لمن كانَ من أهل سُوريا، أو وقع البلاء وهو هناك، لمن أخلصَ لله عَزَّوَجَلَّ جهاد مَشرُوع، وأما للآفاقِيِّين فإنه ليسَ جهَادًا، ولا تتوفَّر فيه شروطُ الجهاد الشرعي.

فأقُول: لو أن الآفاقيَّ ذهب إلىٰ سوريا، أو إلىٰ اليمن، ثم وهو هنَاك، والصفوف مُلتَحمَة، علِم أن فعله ليسَ مَشرُوعًا، فسعىٰ في العودة والتَّرك، توبَةً من هذا الفعل، فهذا ليس من التَّولِّي يوم الزَّحف، بل هذا مَشرُوع ومَحمُود، وهو من التوبة الصَّادقة، وكذا من غَرَّر به خوارجُ العصر، فذهب إلىٰ صَفِّهم،

وقد يكونُ مُخلِصًا، راغِبًا في نُصرةِ دين الله، وغُرِّر به، وظن أن هذا هو الطريق فذهب، فلما ذهبَ هناك رأىٰ حالَ القَوم، وتبَدَّىٰ له قُبحُ ما هم عليه في الحقيقة، بعد أن ينكشف القنَاع، فأرادَ أن يَعُود، فهذا ليس من التولِّي، بل هذا من التوبة الواجبة التي يَجبُ عليه أن يَفعلَهَا، وأن يعودَ إلىٰ أهل السُّنة، وأن يكون مَعهُم.

(**وَقَذفُ المُحصَنَاتِ**): أي: اللاتي حَفِظ الله فُروجَهُن، والأصل في المُؤمِنَة أنها مُحصَنة، ولا يجُوزُ قَذفها، بل مَن تَبَرَّجت، وخَرَجت مُتبَرِّجة إلىٰ الشارع، يجوزُ سَبُّها بفعلها؛ لأنها مُجاهِرةٌ بالفسق، لكن لا يَجُوز قَذفُها، ولا يجوز أن تُرمَىٰ بالزنا، ولا يَجوزُ لمُؤمن يخاف الله عَزَّوَجَلَّ أن يَرمي مؤمنةً بالزنا، ما لم يَرَ المِرودَ في المكحلة، ويشهد معه ثلاثة، فإذا حصَل هذا جاز له، أما إذا لم يَرَ، لكن هي مُستهتِرة، مُتهتِّكة، مُتبرِّجة، لا يَجُوز له أن يقذفهَا بالزنا، ولو رآها مع رجلٍ، تدخُلُ بيتَهُ، وهي أجنبية عنه، لا يَجُوز له أن يقذفَهَا بالزنا، ولو رآهَا وقد علاهَا الرجل، ورأىٰ المِرودَ في المكحلة، لكن لم يرَ ذلك غيرُه، فإنه وإن اعتقَدَ في قَلبه أنها زَانيَة، إلا أنه لا يَجُوز له أن يَقذِفَها، ولو قذفها وطَلَبَت حدَّ القذف لحُدَّ، أما إذا رأىٰ المِرودَ في المِكحلة، وشَهِد معه ثلاثة فكانُوا أربعة فهُنا يَجُوز.

وما الدليلُ علىٰ أنه إذا رآها وقد عَلاها الرجُلُ، ورأىٰ المرود في المكحلة، وتيقَّن زِناها، أنه لا يجوز له أن يَرمِيَها بالزنا لفظًا؟

الدليلُ: أن الشرعَ أوجَبَ حَدَّ القذفِ عليه، إذا لم يَشهد معه ثلاثةٌ آخَرون، فدَلَّ ذلك علىٰ أنه جُرم، وأنه كبيرة من كبائر الذنوب، وإذا كان هذا في المُؤمِنَة

فهو كذلك في المُؤمِن، ولكنه لما كان الغالبُ أن يكون القذفُ للمَرأة لضَعفِها، وقلةِ حيلتِها، نُصَّ علىٰ المُحصنات، وإلا فالمُحصَنُ كذلك.

والقَاعدةُ: أنه يُصانُ عِرضُ الإنسان بمقدارِ ما صان عرضه، فإن صانَه من كل وجهٍ، صِين عِرضُه من كل وَجه، وإن جاهَرَ بفِسقٍ، جاز ذِكرُهُ بهذا الفِسقِ، وأما القذفُ بالزنا فلا يَجُوز إلا علىٰ ما ذَكَرنا.

(الغَافِلَاتِ المُؤمِنَاتِ): أي: الغَافلات عن هذا القَذف.

والشَّاهد: أن النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدَّ السِّحر من المُوبِقات التي يجب علىٰ المُسلِم أن يبتعِد عنها، وألَّا يقربَهَا، وألَّا يقربَ أهلَهَا.

وهذا يَدُلنا علىٰ أنه لا يَجُوز أن يكونَ الإنسانُ ساحرًا، ولا أن يذهبَ إلىٰ السَّاحر، لا بغرضٍ أن يطلُب منه السِّحر، ولا بغرضٍ أن يتفرَّج علىٰ سِحرِه، وأمَّا الذهاب لمَنعه، والإنكار عليه من قادر فهذا مَشرُوع؛ لأن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمركَ أيها المؤمنُ أن تجتنِب السحر، ولا يمكنُ أن تجتنبَ السِّحر إلا باجتنابِ السَّحَرة، والبُعد عنهم، وعدم قُربانِهِم.

فهذا الحَديثُ حديثٌ عظيم، فيه حفظ العبدِ، وفيه إبقَاؤه علىٰ طريق السَّلامة، والبُعدِ عن المُهلِكَات.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن جُندُبٍ مَرفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَربَةٌ بِالسَّيفِ». رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوقُوفٌ.

الشرح

(**وَعَن جُندُبٍ مَرفُوعًا: حَدُّ السَّاحِرِ ضَربَةٌ بِالسَّيفِ**): أو: «**ضَرْبُهُ بِالسَّيفِ**». يَصِح هذا، ويصحُّ هذا.

(**رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ**): ورواه أيضًا عبد الرزَّاق، والطبراني في «الكبير»[(١)].

(**وَقَالَ**) التِّرمذي: (**الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوقُوفٌ**): وضعَّف الألباني المَرفوعَ، فالمرفوع إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضعيف، لكنَّ هذا ثابتٌ عن جُندب، الذي يُقال له: جُندُب الخَير؛ فالحديثُ صحيحٌ مَوقُوفًا.

(**حَدُّ السَّاحِرِ**): وهذا يَدُلُّ علىٰ أن قتلَ السَّاحِرِ الوارد هنا عقُوبَة مُقدَّرةٌ شرعًا، وليست عقوبةً تعزيريَّة، وهذا يَجعلُنا نقولُ: إن الظَّاهرَ أن هذا الكلام، وإن كان مَوقُوفًا، إلا أن له حُكمَ الرَّفع؛ لأنه أضافه إلىٰ الشَّرع بقَولِهِ: (**حَدّ**)، والحَد عقُوبةٌ مُقدَّرة شرعًا.

والسَّاحِر: وهو الذي عُرِف بالسِّحر، واشتهر بتعَاطيه.

(**ضَربَةٌ بِالسَّيفِ**): أي: أنَّ حدَّه أن يُقتَل.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، وعبد الرزَّاق في «المصنف» (١٨٧٥٢)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٦١) برقم (١٦٦٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» عَن بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ إِلَينا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: «أَنِ اقتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ.

الشرح

قال: (**وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَن بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ إِلَينَا**): هكذا في «صَحيح البُخَاري»[1].

(**عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ): أي: أن أميرَ المُؤمنينَ عُمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ كتبَ إلىٰ وُلاتِه في الأقَاليم.

(**أَنِ اقتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ**): وخَبَر بجَالة في كتابة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ هذا الكتاب إلىٰ عُمَّاله وولاته في الأقاليم، موجود في «صحيح البخاري»؛ لكن الشَّاهد منه المُتعَلِّق بالسحر، وقتل الساحر، ليس في «صحيح البخاري»؛ ولكن رواه أبو داود، والشَّافعي، وعبد الرزَّاق، وابنُ أبي شيبة، والبيهقي، وغيرهم[2].

وإسنادها صحيحٌ، صحَّحه ابن حَزم[3]، والألباني، وابن باز[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، والشافعي في «مسنده» (٢/ ٨٩) برقم (٢٩٠-السندي)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٩٧٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٥٦٢) برقم (٢٨٩٨٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٦٤٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) في «المُحلَّىٰ» (١٢/ ٤١٤/ دار الفكر).

(٤) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٨/ ٦٩).

فهذه الرِّواية صحيحةُ الاسناد، ثَابتة عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان ذلك قبل موته بسَنَة، كتب هذا الكتاب وأمر فيه بأمور ومنها: «أَن اقتُلُوا كُلَّ سَاحرٍ وسَاحرَةٍ».

فكان رأيُ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي أمر به: أن يُقتل الساحرُ ذَكرًا كان أو أُنثىٰ.

وأخبر بجَالَة أنهم في ناحيتهم فعَلُوا هذا، وقتَلُوا ثلاث سَواحر؛ أي: ثلاث نساءٍ سَاحِرات.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَصَحَّ عَن حَفصَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا: «أَنَّهَا أَمَرَت بِقَتلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتهَا، فَقُتِلَت».

وَكَذا صَحَّ عَن جُندُبٍ[١].

قَالَ أَحمَدُ: «عَن ثَلاثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ»[٢].

الشرح

قَال: (وَصَحَّ عَن حَفصَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا: أَنَّهَا أَمَرَت بِقَتلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتهَا، فَقُتِلَت): هذه القصَّة رَواها مالك في «الموطأ»، والطَّبراني، والبَيهَقي، وغيرهم، وإسنَادُها صَحِيح[٣].

أن حفصَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا أَمَرت بقَتل جاريَةٍ لها سَحَرتها، فقُتِلَت، وهذه جاريةٌ مملوكَةٌ لحفصَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا، فهذه الجارية سَحرت حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا، وأقَرَّت بذلك، فأمرَت حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا بقتلها فقُتِلَت، فهذا ثبَتَ عن حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهَا.

قال: (وَكَذا صَحَّ عَن جُندُبٍ): صَحَّ عن جُندب أنه قتَلَ سَاحِرًا، كان السَّاحر

(١) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ١٥١)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٤٠١)، والبيهقي في «الكبرىٰ» (٨/ ٢٣٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣/ ٦٤١-٦٤٢) تحت رقم (١٤٤٦).

(٢) انظر: «أحكام أهل الملل» للخلال (ص٤٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٥).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٦٢٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ١٨٧) برقم (٣٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٦٤٩٩).

في مجلسِ الأمير، وكان يُخَيل للناس أنه يقطَعُ رأسَه، ثم يُعيده مكانه!

وفي بعض الروايات: أنه يقطع رأس رجل ثم يُعيدُه مكانه، وفي اليوم التالي جاء جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممتشقًا سيفه، فلما فعل الساحر ذلك ضَربَ رَأسَه بسيفه، وقال: فليُعِده إن استطاع، وقال: «حَدُّ الساحر ضَربةٌ بالسَّيف».

قالَ: (قَالَ أَحمَدُ: عَن ثَلاثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أي: ثبَتَ قتلُ الساحر عن ثلاثة من أصحَابِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وجُندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وزِد علىٰ هؤلاء أيضًا ثلاثة، هم: عبد الله بنُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيس بن سَعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حيث جاء في قصَّة حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن جارية لحفصَةَ سَحرتها، فاعترفت بذلك، فأمَرَت بها أن تُقتَل فقُتِلَت، فأنكر ذلك عليها عثمان، فقال ابن عمر له: ما تُنكرُ علىٰ أم المؤمنين من امرأةٍ سَحَرت واعتَرفَت!، فسكت عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قالَ العُلمَاء: أنكر عليها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّها قتلتها بدُون أن ترجع إليه، وهو أميرُ المؤمنين، والحُكمُ في مثل هذا -أعني: في القَتل- إليه، فيُرجَع فيه للحَاكِم، فقال له ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما تُنكِرُ علىٰ أم المُؤمنين من امرأةٍ سَحرَت واعتَرفَت!، فسكت عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أي: أنه أقَرَّ هذا؛ لأن الجاريةَ مَملُوكة لسيدها؛ والراجحُ من أقوال أهل العلم: أنَّ للسيد أن يُقيم الحَدَّ علىٰ مملوكِهِ، فهي أقامت الحدَّ علىٰ مَملُوكتها

وهي هذه الجارية، فلا يُنكَر عليها، لذلك سَكتَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فاجتمع في هذه القصَّة رأيُ حفصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورأيُ ابنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورأي عثمَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيثُ سكت بعد أن أخبره ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذه المرأة الجاريَة سَحَرت واعتَرفت، فدلَّ علىٰ إقراره.

وأما قَيسُ بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قتلَ سَاحرًا، كما رواه عنه ابن عبد البر بإسناده[1].

فهؤلاءِ ستَّةٌ من صحَابَة رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اتَّفَق رَأيُهم علىٰ قَتل الساحر، ولا يُعلَم لهم من الصحَّابة مخالفٌ، فكان اجماعًا.

فإن قيلَ: قد جاءَ عَنْ عَمْرَةَ قَالَتْ: «اشْتَكَتْ عَائِشَةُ فَطَالَ شَكْوَاهَا، فَقَدِمَ إِنْسَانٌ الْمَدِينَةَ يَتَطَبَّبُ، فَذَهَبَ بَنُو أَخِيهَا يَسْأَلُونَهُ، عَنْ وَجَعِهَا، فَقَالَ: وَاللهِ إِنَّكُمْ تَنْعَتُونَ نَعْتَ امْرَأَةٍ مَطْبُوبَةٍ، قَالَ: هَذِهِ امْرَأَةٌ مَسْحُورَةٌ سَحَرَتْهَا جَارِيَةٌ لَهَا، قَالَتْ: نَعَمْ أَرَدْتُ أَنْ تَمُوتِي فَأُعْتَقَ، قَالَ: وَكَانَتْ مُدَبَّرَةً.

قَالَتْ: بِيعُوهَا فِي أَشَدِّ الْعَرَبِ مَلَكَةً، وَاجْعَلُوا ثَمَنَهَا فِي مِثْلِهَا»[2].

فعائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هنا لم تَقتُلها، ولكن بَاعَتها، وهذا يَدُل علىٰ أنها لم تكُن تَرىٰ قتل السَّاحر، فعائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خالَفت.

---

(١) «الاستذكار» (٨/ ١٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٢٦) واللفظ له، والبُخاري في «الأدب المفرد» (١٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٦٥٠٦)، وصححه محققو المسند، والألباني في «إرواء الغليل» (١٧٥٧).

قُلنا: حمَلَ أهلُ العلم فعلَ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا علىٰ أن الجَارِيةَ لم تكن مَعرُوفةً بالسِّحر، وليست هي السَّاحرة بنَفسِها، أو أنها كَانت جاهلَةً، فعَذَرَتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لكن عامَلتهَا بنقيضِ قَصدِها الفاسِد، فإن قصدَهَا الفاسِد أن تُعتَق، فباعتها حتىٰ لا تُعتَق، ولهذا ذهبَ جُمهُور أهل العلم إلىٰ أن العَبدَ المُدبَّر إذا قتلَ سَيدَهُ فإنه لا يُعتَق، مُعاملةً له بنَقيضِ قَصدِه الفَاسِد.

وقد وضَعَ الجُمهور قاعدةً تضبط لنا مسَائلَ كثيرة، قالوا: «كُل فَائدَةٍ تَحصُل بالمَوتِ تَنتَفِي بالقَتل». أي: أن كُل فائدة تحصُل للإنسان بالمَوت تَنتَفي إذا قَتل مَن تحصلُ منهُ تلكَ الفائدة.

فمثلًا: الميراثُ يَحصُل بالمَوت، فَلو أن الوارثَ قتلَ مُورِّثَهُ؛ حُرِم من الميراث.

والوَصيَّة تحصُل بالموت، فلو أن المُوصَىٰ له قتل المُوصِي؛ فإنه يُحرَم من الوصيَّة... وهكَذَا المُعامَلة بنَقيضِ القَصدِ الفَاسد.

الشاهدُ: أن أهلَ العلم القائلين بمُقتضَىٰ هذه الآثار، قالوا: إنَّ أثرَ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لا يُعارض آراءَ الصَّحابة الآخرين الذين ذَكرنَاهم؛ لأن أثر عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم يتحَقَّق فيه المُقتضِي من أنها -أعني: تلك الجَاريَة- سَاحرة بنَفسها، أو وُجِدَ المانع، وهو جَهلُها، وأنها لم تَعرف بالسِّحر، والإضرار بالنَّاس.

فهَذِه الآثارُ تَدُل علىٰ قَتل السَّاحر.

وقد اختلَفُ العلماءُ: هل يُقتل الساحرُ أو لا؟

فذهب الجُمهورُ: الحنفيَّة، والمالكية، والحَنَابلة، إلىٰ أن الساحر يُقتَل؛ لظاهرِ هذه الآثار عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولم يُعلَم لهم مخالفٌ كما ذكرنا، وأما أثَرُ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فأجابوا عنه بما ذَكَرنا.

وذهب الشافعيُّ، وتبعه أصحابُه: إلىٰ أن الساحرَ لا يُقتَلُ إلا في حالتين:

الحَالةُ الأولىٰ: أن يُقِرَّ علىٰ نَفسِه بالكفر، فلا يَكفِي أنه ساحِر، بل لابُدَّ أن يعتَرِفَ هو أنه في سِحرِه يَكفُر، فإذا اعتَرفَ علىٰ نَفسِه بالكفر في سِحرِه فإنه يُستَتاب؛ فإن تابَ وإلا قُتل.

الحَالةُ الثَّانية: أن يُقِرَّ علىٰ نَفسِه أنه قتل أحدًا بسِحرِه؛ وفي هذه الحال يُقتَل قصاصًا ولا يُستَتاب؛ أي: يُقتَصُّ منه.

وفيما عدَا هاتين الحالتين؛ لا يُقتل الساحر.

ودَليلُ الشَّافعية في ذلك: أن النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**»[1].

فقالوا: جعل النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصلًا، وهو أن دَم المسلم حَرَام، فإذا اعتَرف علىٰ نفسه بالكُفر فهذا ترك دِينَه، وإذا اعترف علىٰ نفسه بالقتل، فهذا من باب النَّفس بالنَّفس، وإذا لم يكن ذلك كذلك، دخل في قَولِ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسلِمٍ**»؛ فيكونُ دَمُه حرَامًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأمَّا آثار الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فقالوا: مُعارَضة بأثر عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

والصَّوابُ -والله أعلم-: أنه إذا عُرِف الساحرُ بالسحر الذي هو كُفر، فإنه يُقتلُ حدًّا لرِدَّته، فهذا حَد الردة.

أما إذا لم يُعرَف بالسحر الذي هو كُفر، ولكنه سَاحر؛ إما بالأدوية أو نحوها، فهذا يَرجعُ حُكمُه إلىٰ الحاكم أو القاضي؛ فإن رأىٰ قَتله تعزيرًا قَتَله.

فالقاضي قد لا يَثبُت عنده إن هذا السَّاحرَ يتعَاطَىٰ السِّحر الذي هو كُفر، لكن يَثبُت عنده أنه سَاحِر، ويرىٰ أنه فَتَن الناس وفُتِنَ به الناس، فيَرىٰ قتله تعزيرًا له، ودرءًا لهَذه الفتنة فَلهُ ذَلك، أو يرىٰ أنه يَضُرُّ بالناس إضرارًا عظيمًا، فيرىٰ أن يَقتُلَه تعزيرًا فلَهُ ذلك، وإن لم يَرَ قَتلَه فله ذلك، فليس هذا القتل هنا عقوبةً مُقَدَّرة لابُد منها، هذا الرَّاجِحُ، والله أعلم.

ويكون فعل الصحَابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من أحَدِ الأمرَين: إمَّا لأن أولئك السَّحرة عُرِفُوا بالسحر الذي هو كُفر، فيُقتَلُون ردَّة، وإما أن هذا كان تعزيرًا لأولئك السَّحَرة.

وإذا قُلنا: إن السَّاحر يُقتَل؛ فهَل يُستَتاب قبل قَتله؟

اختلفَ العلماءُ القائلون بقَتله الذينَ هُم الجُمهور: فذهب أكثرهم إلىٰ أنه إن ثبتَ عليه السِّحرُ قُتل ولا يُستَتاب؛ قالوا: لأن هذا ظاهر الآثار؛ أثر عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأثر حفصة، وأثر جندب، فظاهِرُها عدم الاستتابة، فنَعمَلُ بذلك؛ ولأن سِحرَهُ في نفسه لا يَزُول بالتوبة، قد تعَلَّمَ السِّحرَ، فيبقىٰ السحرُ معه، فلا يَزُول بتوبَته، فلا يُؤمَنُ ضررُه، فقد يَزعُم أنه تاب من السِّحر؛ لكي لا يُقتَل، ثم يَعُود إليه بعدَ مُدَّة من الزمن!

وذهَب بَعضُهم إلىٰ أنه يُستَتاب، قالوا: لأن الكافر المَحض يُستتاب قبل قَتله، فمن باب أولىٰ مَن كان دُونَه في الكفر، أو كان دُونه في الجُرم.

وقالُوا أيضًا -وهو وجه قَوي-: لأن الكافر الأصلي إذا كان ساحرًا، ثم أسلم قُبِلَ ذلك منه ولم يُقتَل بالاتفاق، والإسلام يَجُبُّ مَا كان قَبلَه.

وهذا الخلاف قد انعقَدَ بعد اتفَاقِ العُلَمَاء علىٰ أن توبةَ السَّاحر فيما بينَهُ وبين الله إن صَدق فيهَا تَصِح توبته، ولا يُحَال بين مذنب والتوبة؛ ولكن الكلام في الحُكم في الدنيا، هل نقتله، أو لابد أن نَستَتيبه ثم إن لم يَتُب نقتُله؟!، هذه هي المسألة.

والذي يَظهَرُ -والله أعلم-: أنه إن كان قَتلُه لكُفره فإنه يُستَتاب؛ لأن الأدلةَ دلَّت علىٰ أن الكافر يُستَتاب، أما إن كان قَتلُه لضَررِه أو فتنته فكانَ تَعزيرًا؛ فهذا يعودُ إلىٰ تقدير الحاكم، فقد يَقتُله بدُون أن يستتيبه؛ لأن القَصدَ من قتله خارجٌ عنه؛ يعني: ليس مُتعلقًا به، وإنما مُتعلِّق بخَوفِ الفتنة أو خَوفِ الضَّرر، فعليه ننظُر إلىٰ سبب قَتله؛ فإن كان سببُ قَتله الكُفر؛ فإنه يُستَتاب ولابد، أما إن كان سببُ قَتلِه فتنَةَ الناس به، أو إضرَاره بالناس، ورأىٰ الحاكمُ القاضي أن يُقتَل، فلَهُ أن يَقتُلَه بدون أن يستتيبه، بل له أن يَقتُله ولو أظهَرَ التَّوبة؛ لأن المَقصُود من قَتلِه خارجٌ عنه وليس مُتعَلقًا به، وإنما مُتعلقٌ بغَيره، هذا تحقيق المسألة في قتل الساحر واستتَابَتِه.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ البقرةِ.

وقد تقدَّم بيان معناها.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

وقد تقدم بيانُ معناها.

الثَّالِثَةُ: تَفسِيرُ الجِبتِ وَالطَّاغُوتِ، وَالفَرقُ بَينَهُمَا.

وقد تقدم الكلام علىٰ هذا في هذا الباب والذي قبلَهُ أيضًا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الطَّاغُوتَ قَد يَكُونُ مِنَ الجِنِّ، وَقَد يَكُونُ مِنَ الإِنسِ.

وأخذ هذا من أثَر جَابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما تَقَدَّم بيانُه.

الخَامِسَةُ: مَعرِفَةُ السبعِ المُوبِقَاتِ المَخصُوصَاتِ بِالنَّهيِ.

فهي مَخصُوصات بالنَّهي المُؤكَّد وإلا فالمَنهيَّات أوسع من هذا.

السَّادِسَةُ: أَنَّ السَّاحِرَ يَكفُرُ.

كما تقدم بيانُه.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُقتَلُ ولا يُستَتَابُ.

وذلك لظَاهرِ آثار الصَّحابة، فإن ظاهِرَ آثار الصحابة: قَتلُ السَّاحرِ بدُون

استتَابَة، وقد تقدم تفصيلُ هذه المَسألة.

الثَّامِنَةُ: وجودُ هَذَا فِي المُسلِمِينَ عَلَىٰ عهدِ عُمَرَ، فَكَيفَ بَعدَهُ؟!

أي: وجُودُ السحرَة في خير القرون، في القرن الأول، في زَمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكيف بمَا بعده من القرون؟!

فلا شكَّ أن هذا موجُود، ولا شكَّ أنه في زماننا توسَّع الناس في السحر توسُّعًا عظيمًا، حتىٰ أصبح كأنه من الأمور المُبَاحة، وأصبحَت المرأة تذهبُ إلىٰ السواحِر والسَّحرة، وقد يُسمَّون بالشيوخ، والمُبَاركين، ولا خير فيهم ولا بَركَة، من أجل أن تسحر زَوجَها، حتىٰ لا يتزوج ثَانية، وبعضُ الآباء المُغَفَّلين قد يذهب إلىٰ السَّحرة، من أجل أن يَسحرَ ابنتَه حتىٰ لا تميلَ إلىٰ الرجَال!

وهذا للأسف أصبحَ كثيرًا جدًّا في زمَاننا، فيَجبُ علينا وعلىٰ طُلَّاب العلم أن نُبَين قُبحَ هذا الأمر، وعظيم جُرمِهِ، وعظيم خَطره، وأن يُنشر هذا في الناس، حمايةً للدِّين، وحماية للمُسلِمِين.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: بَيَانِ شَيءٍ مِن أنوَاعِ السِّحرِ.

الشرح

لمَّا تقدَّم بيانُ ما جاء في السِّحر، وبيان قُبح السحر، وأن من السِّحر كُفرًا أكبر يُخرج من الملَّة؛ أعقَبَ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك الباب ببَيان ما جاء في النصُوص تسميته سِحرًا، وأنه أنواعٌ في حقيقته وليس نوعًا واحدًا، فكذلك هو أنواعٌ في أحكامِهِ، فليس حُكمُه واحدًا، وكلُّ هذه الأنواع التي سُمِّيت سِحرًا يَجمَعُها الخفاءُ في السَّبب، والأثر في القلوب والأبدَان.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ أَحمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جَعفَرَ، ثَنَا عَوفٌ، ثَنَا حَيَّانُ بنُ العَلَاءِ، ثَنَا قَطَنُ ابنُ قَبِيصَةَ، عَن أَبِيهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبتِ».

الشرح

هذا الحديثُ رواه أحمد -كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وأبو دَاوُد، وابن حِبَّان، والطبراني في «الكبير»[١].

وصححه ابن حبان، وحسَّنه النووي[٢]، وابن باز[٣].

وقال ابن مُفلِح[٤]: إسناده جيد.

وضعفه الألباني، وابن عثيمين[٥].

ولا شكَّ أن إسناده ضعيفٌ، وأن طُرقَه لا يَشُد بعضُها بعضًا؛ فهو ضعيفُ الإسناد، وإن لم يَكُن ضعفُه شَديدًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٠٤)، وأبو داود (٣٩٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٦٩) برقم (٩٤١)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٢) في «رياض الصالحين» (ص٣٦٩/ الرسالة).

(٣) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٨/ ٩١).

(٤) في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦٧/ عالم الكتب).

(٥) «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» (١/ ٥١٧/ ابن الجوزي).

(أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ العِيَافَةَ): وقد فَسَّرها بعض أهل العلم بأنها: زَجرُ الطَّير، كما سيأتي.

و(زَجرُ الطَّير) معناه: زَجرُه لترتيب العملِ عليه؛ كفًّا أو إقدَامًا.

فكانت العربُ إذا أرادت شيئًا، ولاسيَّما السفر، ورأت طائرًا؛ زَجَرَتْهُ: فإن طار ناحية اليمين؛ قالوا: سفر خير، وسافروا. وإن طار ناحية الشمال؛ قالوا: شُؤم، ورجعوا ولم يسافروا، فكان هذا من تَطَيُّر العرب، وسيأتي -إن شاء الله- باب الكلام عن التطَيُّر.

(وَالطَّرقَ): فسَّره بعضُ أهل العلم بأنه: الخَطُّ يُخَط في الأرض -وغَالبًا يكون في الرَّمل- لمَعرفةِ المُستقبل، فيذهب الشخصُ إلىٰ هؤلاء الذين يَخُطون ويَطرُقون فيقول: خُطوا لي، فيَخُطُّون له في الرمل، ويقولون له: أنت ستَوظَّف، أو لن تَجد وظيفة، أو سَتتزوج امرأة صفتها كذا... ونحو هذا

وَمِثلُه كُل خَط: كقراءَة خُطوط الكَف: فبَعضُ الناس يزعمون أنهم يَقرءونَ خطوطَ الكَف، ويَعرفُون بها المستقبل والأحوال، ويقولون لك: أنت مريضٌ بكذا، أو سيحصُل لك كذا؛ فهذا داخل في الطَّرقِ.

و كذلك الخُطوطُ علىٰ الوَرَق لمعرفة المُستَقبل.

ومثله قرَاءةُ الفنجَان: فإنه إذا شربت القهوة فإنه يكون في الفنجان خُطوط، ويأتي بعضُ الناسِ يَقرَءون -بزَعمِهم- هذه الخطوط؛ لمَعرفة المستقبل، فكل هذا يدخُلُ في الطَّرق.

وقيلَ: إنَّ الطَّرق: هو ضَربُ الأرض بالحَصَىٰ لمَعرفة الغَيب.

فيأخذُ مجموعة من الحَصىٰ ويضربها في الأرض لمَعرفةِ الغيب.

وقيل: هو التَّنجيم. كما قاله ابن حبان. وسيأتي -إن شاء الله-.

و قيل: هو اللعبُ بالحجَارة للأصنام. وقد كان أهلُ الجاهلية يَفعلُون هذا.

ولا تعارُضَ بين هذه المَعَاني، وكلها تدخلُ في معنىٰ الطرق.

(وَالطِّيَرَةَ): أي: التشَاؤم، وسيأتي الكلام عنها في باب التطَيُّر.

(مِنَ الجِبتِ): وتقدم أنَّ جمعًا من السَّلف -منهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُفسِّرون (الجبت) بالسِّحر، وهذه هي مناسبة ذِكرِ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لِهَذَا الحَديث هنا: **«أن العيَافة والطَّرقَ والطِّيَرَة مِنَ السِّحرِ»**.

وتكونُ العيافة من السِّحرِ لأمرَين:

الأمر الأول: أنَّها تعتمدُ علىٰ أمرٍ خَفي: كيف يقرأ القُرَّاء هذه الخطوط؟!

هذا أمرٌ خَفي، فهي مثل السِّحر؛ ولأن فيها ادعاءَ عِلم الغَيب والمُستقبل كالسِّحر.

الأمر الثاني: أن لهَا أثرًا في القُلُوب: من جهَةِ التَّصديق والإقدام علىٰ الفِعلِ أو الكَفِّ عنه.

وذلك مِثل أن يَقُول قارئُ الخَط لشَاب مثلًا: ستتزوج امرأة هي ابنة عمِّك، لكن ستحدُثُ مشاكلُ كثيرة، وتُرزَق منها بأبناء مُعَاقين، فيُعرِضُ عن الزواج بها؛

فتُؤثِّر فيه تأثير السِّحر في القلب!

وهذا أيضًا في (العيَافة) التي هي زَجرُ الطير؛ فإنه يُؤثِّر تأثير السِّحر في الإقدام أو الكف.

والعِيَافة كذلك من السِّحر لنَفسِ الأمرَين: لخفَاءِ السبب، ولأنها تُؤثِّر في القلوب؛ إقدامًا أو كَفًّا.

وَأمَّا الطِّيرة: فسَيأتي الكلامُ عنهَا بالتَّفصيل -إن شاء الله-.

ﮈ❁❁❁ﮊ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ عَوفٌ: «العِيَافَةُ: زَجرُ الطَّيرِ. والطَّرقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرضِ».

وَ«الجِبتُ»: قَالَ الحَسَنُ: «رَنَّةُ الشَّيطَانِ». إِسنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» المُسنَدُ مِنهُ.

الشرح

(**عَوفٌ**): هو ابنُ أبي جَميلة.

روىٰ هذا عَنهُ: أبو داود، وأحمد، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الآداب»، وهذا صحيحٌ عنه؛ كما صححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وقد تقَدَّم بيان معنىٰ العِيَافَة والطَّرق.

(**وَالجِبتُ: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيطَانِ**): والذي عند الإمام أحمد في «المسند»، والبيهقي في «الآداب»، قال: «والجِبتُ: قال الحسَنُ: إِنَّهُ الشَّيطَان»[2].

ولم أقِف علىٰ جُملَة (رَنَّة الشَّيطَان) في شَيءٍ من الكتب التي رَوت هذه الروايات.

لكن ابن مُفلح[3] عَزا هذه الجملة إلىٰ مسند الإمام أحمد، ولم أرَهَا في

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٨)، وأحمد (٢٠٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٣٦٩) برقم (٩٤٤)، والبيهقي في «الآداب» (٣٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٠٤)، والبيهقي في «الآداب» (٣٤٤).

(٣) «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦٧).

المسند، فلعَلَّها في نُسخَة لم تصلنا، أما الذي في النُّسَخ التي وصلتنا: قال: **«الشَّيطَان»**.

ومعنىٰ: (**رَنَّةُ الشَّيطَانِ**): فَسَّرها بعضُ أهل العلم بأن الرنة هي: الصَّوتُ الحزين.

فالمَقصُود: صوتُ الشيطان الذي يأمُر الناس فيه بالشَّر، ولا يأمر الشيطان إلا بالشَّر. وهذا أحدُ التفسيرات للجِبتِ، وإلا فقَد تقَدَّمت معانٍ عدَّة للجِبت.

(**وَلأَبي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» المُسنَدُ مِنهُ**): وأبو داود روَىٰ المسند والتفسير أيضًا، وأما النسَائي وابنُ حبَّان فروَيا المسند إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ السِّحرِ، زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسنَادٍ صَحِيحٍ.

الشرح

هذا الحديث رواه أبو دواد -كما قال المصنف- والإمامُ أحمد[1].

والحديثُ صَحيحٌ، وصحَّحه جَمعٌ من أهل العلم؛ منهم: النَّووي وابن تيميَّة والألباني وابن باز.

(**عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَنِ اقتَبَسَ**): أي: مَن تَعَلَّم.

(**شُعبَةً**): أي: جُزءًا.

(**مِنَ النُّجُومِ**): أي: من عِلم النُّجوم، وهذا العِلمُ علمٌ خَاصٌّ من علم النُّجوم، وهو ما يُسَمَّىٰ بعلم التأثير، **وذلك أن علم النجوم علىٰ أربعَةِ أنحَاء:**

الأول: أن يتعلَّمَ النجُومَ والكَوَاكب؛ ليَجعَلها علاماتٍ علىٰ الأمُور المَحسُوسة كالجهَاتِ؛ علامات علىٰ جهَة الشَّرق وجهَة الغَرب وجهة القبلة، وهذا يُسمَّىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وأحمد (٢٨٤٠)، وصححه النووي في «رياض الصالحين» (١/ ٣٦٩ الرسالة)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٩٣)، والألباني في «الصحيحة» (٧٩٣)، وابن باز في «مجموع فتاواه» (٢/ ١٢٠).

بـ«عِلم التَّسيير»، وهذا جائزٌ.

و قد امتَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا بهذا العلم في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]. أي: أن الله جعلَ لَكُم علاماتٍ بالنهَار تَعرفُون بها الطُّرق، وهَداكُم في سَيرِكم في الليل في البَر والبَحر بالنجوم؛ فتَعرفونَ الجهَات بمَعرفة الكواكب.

والثاني: الاستدلالُ بالنُّجوم علىٰ أزمنَة بَعضٍ ما يقعُ في المستقبل بمَعرفةِ سَير الكواكب المَعتَاد: كمَعرفة زمن دُخُول الصيف، أو زمن دخول الشتاء، أو زمن حصُول الكُسوف، أو زمن حصُول الخُسوف.

وهَذا ليس من ادعاء عِلم الغَيب، وإنمَا هو معرفَة بالأسبَاب المعتادَة، وهذا قد يَصدُق وقد يتخَلَّف، وهذا أيضًا عِلمٌ جائزٌ، وهو من علم التَّسيير أيضًا.

والثالث: هو مَعرفةُ النجُوم والكَواكب لمَعرفة أحداث المستقبل، فيُقَالُ: هذا العام سيَمُوت فلان، وسيتزوج فلان، وسيُرزَق فلان بوظيفَة.

ومثل ما يَفعلُون في الجَرائد والمجلات في أبواب «حَظك هذا الأسبوع»، أو «حَظك اليَوم». وهذا يُسمَّىٰ بـ«عِلم التَّأثير»، وهذا هو المَقصُود في هذا الحَديث.

والرابع: هو اعتقادُ أن الكواكبَ تُؤثِّر في الكَون، وإضافة الوقَائع إليهَا؛ فيقول القائل: نزل علينا المطر بكوكَب كذا، وجاء الإعصارُ بكَوكبِ كذا، ونحو ذلك، فيُضيفُونَ الفعل إلىٰ الكوكبِ، ويَعتقدون أن الكَواكبَ مُؤثِّرةٌ بذَاتها، وهذا

سيأتي له باب مستقل -إن شاء الله-، وهو نوعٌ من أنواع الكُفر، وسيأتي الكلامُ عليه -إن شاء الله- في الباب المَعقُودِ له في الاستسقاء بالأنواء.

وهو **-في الجُملةِ كمَا قُلنَا-**: نوعٌ من أنواع الكُفر.

والمَقصُود بقَولِ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن اقتَبسَ شُعبَةً مِنَ النُّجُومِ»**: أي: مَن تعلَّم جُزءًا من علم النجُوم، وهو علمُ التأثير، الذي يُدَّعَىٰ فيه مَعرفة الغَيب وأحداث المُستَقبل.

(فَقَدِ اقتَبَسَ شُعبَةً مِنَ السِّحرِ): أي: فقَد تعَلَّم شُعبَة من السِّحر.

(زَادَ مَا زَادَ): أي: كلما زَاد مِن تعَلُّم عِلم النجُوم هذا زَادَ سِحرًا وإثمًا.

إذَن؛ ادِّعاءُ معرفةِ أحداثِ المُستقبل بمَعرفة عِلم النجُوم نوعٌ من السِّحر بدَلالةِ هذا الحَديث الصحيحِ.

فإن اعتقَدَ أن الذينَ يتعَلَّمون النجُومَ يَعلمُون الغيب؛ **فهذا كُفر أكبَر**، والعيَاذ بالله.

وإن اعتقد أن تعَلُّم النجوم ومَعرفَتَها أسبابٌ لمَعرفة هذه الأحداث؛ وليست من علم الغيب، ولم يعتَقد فيه سَامِعُه أو الناظر إليه أنه يعلَمُ الغَيب؛ **فهذا كُفرٌ أصغَر**، والعياذ بالله. وكُلُّها شر ولا خَيرَ فيها، والعيَاذ بالله.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِلنَّسَائِيِّ مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَن عَقَدَ عُقدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا؛ فَقد سَحَرَ، وَمَن سَحَرَ فَقَد أَشرَكَ، وَمَن تَعَلَّقَ شَيئًا؛ وُكِلَ إِلَيهِ».

الشرح

هذا الحديث الذي رواه النسَائي[١]؛ حَسَّنه ابنُ مُفلِح[٢]، وقال الإمامُ الشيخ المُحدث الفَقية ابنُ باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مُنقَطع، لكن له شَواهد من حيثُ المَعنى[٣]، وضعَّفه الألباني.

ولا شكَّ أن معناه صحيح، وإن كان في إسنادِه ضَعفٌ.

(**مَن عَقَدَ عُقدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا؛ فَقَد سَحَرَ**): وهذا النوع هو أشهَرُ وأخبَثُ أنواع السِّحر، بحيث يكونُ فيه عُقَد وعزائمُ وتَمتمَات ونَفث؛ فيُؤثِّر في الأبدان والقلوب بإذن الله الكوني، وهذا لا شكَّ أنه سِحرٌ.

وتقدم بيانُ أن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما سُحِرَ بِهذه الطَّريقة وبينًا أن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع كونِهِ سُحِر؛ فإنه لم يُؤثِّر ذلك فيه إلا في جانب واحدٍ، وهو أمرٌ يتعلق بالدنيا، ولا يَضُر دينَهُ أبدًا، ولا عَقله، وهو ما يتعلق بأمر نسائه؛ فيُخَيَّل إليه أنه أتىٰ امرأتَه وهو لم يَفعَل صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن النسائي».

(٢) «الآداب الشرعية» (٣/ ٨٢).

(٣) انظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص١٣٥).

فهذا السِّحرُ أخبث أنواع السِّحر، وفيه الاستعانَةُ بالجن، والتَّقرُّب إليهم بالقَرَابين.

(**وَمَن سَحَرَ فَقَد أَشرَكَ**): وقد تقَدَّم من الأدلَّة ما يَدُل علىٰ أن السِّحرَ كُفر، وأن الساحرَ كافرٌ، ولاسيَّما هذا النَّوع من السِّحر، وقد فصَّلنا أنواع السِّحر من حيث الحُكم، فهَذا النوع يحصَلُ فيه الاستعانَةُ بالشَّياطين، والتقرُّب إليهم بالقَرَابين، فلا شَكَّ أنه شِركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، وكُفر مُخرِج من المِلَّة.

(**وَمَن تَعَلَّقَ شَيئًا؛ وُكِلَ إِلَيهِ**): وقد تقدم أيضًا هذا فيما يتعَلَّق بالتمائم، وبينَّا ما وَرد فيه.

ولا شَكَّ أن مَن عَلَّق قلبَهُ بشَيءٍ؛ وَكَله الله إلىٰ ذلك الشَّيء، ومن وَكَله الله إلىٰ المَخلُوق؛ فقَد خابَ وخَسِر، ومَن تعلَّقَ بالسَّحرَةِ؛ وَكَله الله إلىٰ السَّحرَة، ومَن وكَلَه الله إلىٰ هؤلاء القَومِ الذين لا خَيرَ فيهم؛ فقَد خابَ وخَسر، وإذا وَكَله الله إليه في الدنيا؛ فهو أهلٌ لأن يُعاقَبَ في الآخرَةِ.

ووَجهُ الدَّلالة من هذا الحَدِيث: بيانُ نوعٍ من أنواع السِّحر، وهو سِحرُ العُقَد والنَّفث، وكمَا تقَدَّم: أنهُ أشَر أنواع السِّحر.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلا هَل أُنَبِّئُكُم مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَينَ النَّاسِ». رَواهُ مُسلِمٌ[١].

الشرح

(وَعَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَلا هَل أُنَبِّئُكُم مَا العَضْهُ؟): (العَضْه) -بفَتح العَين وسُكُون الضَّاد-، وهذا هو الأشهر عند المُحَدِّثين.

وقيل: (العِضَه) -بكسر العين وفتح الضاد-، وهذا هو الأشهَرُ عند أهل اللغَة.

قالَ بعضُ أهل العلم: (العَضه): هو البهتان والكذب؛ أي: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ألا هَل أنَبئكم ما البُهتَان والكَذِب؟

وقال بَعضُ أهلِ العلم: (العَضه): هو السِّحر في لغة العرب، وقالوا: إنه لغة قريش، يُسَمُّون السحر (العَضْه) بفَتح العَينِ وتَسكينِ الضَّاد[٢].

وقد جاء عند الطحاوي[٣] والطبراني[٤]: أن عبدَ الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا نَقُولُ فِي الجَاهِلِيَّةِ: إِنَّ العَضْهَ هُوَ السِّحرُ».

---

(١) برقم (٢٦٠٦).

(٢) انظر: «لسان العرب». (١٣/ ٥١٥/ دار صادر).

(٣) «شرح مشكل الآثار» (٦/ ١٧٠) برقم (٢٣٩٢).

(٤) «المعجم الكبير» (٩/ ١٥٣) برقم (٨٧٦٧).

إذَن؛ من معَاني (العَضْه): السِّحر، وهو المُرادُ هُنا علىٰ تقرير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديثَ لبيَان شيءٍ من أنواع السحر، فيكون الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار مَعنىٰ (العَضه): السِّحر، وكلا المَعنيَيْن صَحيحٌ بالنِّسبة للنَّميمَة.

و(النميمة) فَسَّرَهَا النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّها: **(القَالَةُ بَينَ النَّاسِ)**: أي: نَقل الكلام بين الناسِ علىٰ وَجهِ الإفسَاد بينَهُم.

والنَّميمة كلها فسَاد وشَر، ومَن ابتُلِيَ بالنَّميمة؛ لا يستَقِر له قرار، ولا يَهدأ لهُ بالٌ إلا بأن يسعَىٰ بالنَّميمة بين الناسِ، وهي تُفسد آخرة صاحِبها؛ فهي -والعياذ بالله- سببٌ لعَذابِ القبر، كمَا ثبتَ ذلك في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ المَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ: **يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[1].

وهي أيضًا -والعياذ بالله- سببٌ للحِرمانِ من دخُولِ الجنة؛ وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[2]. **والقَتَّات**: هو النَّمَّام.

وهي تُشبهُ السحرَ في خفائها، فالنَّمام يحرصُ علىٰ إخفاء سَعيه عن كلا الطرفَين: المنقُول الكلام منه، والمَنقُول الكلام إليه. والغالب أن النمامَ يَنقل للطرفين!؛ ولذلك لا يُؤمن النمَّام، فإذا نقَلَ إليك ورَأيتَ منه الحرصَ علىٰ أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يُفسِدَ قَلبك علىٰ أخيك؛ فاعلَم أنه سينقلُ عنك، وأنَّ الذي تراه الآن بأمِّ عَينَيك يحدثُ من وراء ظهرك فيك.

وهي أيضًا تُشبه السِّحر في أثَرها؛ فهي تُفرِّق بين الأحبَّة، وقد قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ**». رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد، وحسَّنَهُ الألباني[1].

فشِرارُ أمَّة الإجابة: المشَّاءون بالنميمة؛ الذينَ ينقلون الكَلامَ بين الناس علىٰ سبيلِ السعَايَة والإفساد، وإنهم بالنَّميمة يُفرِّقون بين الأحبَّة، وهذا فعلُ السَّحَرة.

فالنميمةُ تُشبه السِّحر في التفريق بين القلوب، والتفريق بين المتحابين.

وقد رَوَىٰ أبو نُعَيم في «حِليَة الأولياء»[2]: عن يَحيَي بنِ أبِي كَثيرٍ أنه قَالَ: «**يُفْسِدُ النَّمَّامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ**».

فإفسادُ النمَّام أعظم من إفسَاد السَّاحر.

فالنَّميمَةُ شرها عظيمٌ، ويعظُم قُبحُها إذا كانَت بين طلَّاب العلم، الذين يجتمعون علىٰ الهُدَىٰ والسُّنة، وعلىٰ منهج السَّلَف الصالح، يَجتهدون في طَلبِ العلم، فيَأتي نمَّام ينقلُ كَلام هذا إلىٰ هذا، وينقل كلامَ هذا إلىٰ هذا علىٰ سَبيل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٩٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٤٦).

(٢) (٣/ ٧٠).

الإفساد؛ فهذا من أقبَحِ صُوَر النميمة، وأقبَح منه سَعي النمام للإفسَاد بين الشيخ وطُلابه الذين يجمعهم العلم والمنهج الرشيد والحب في الله، فقَد يَرىٰ النمَّام أن الشيخَ قَريبٌ من طلابه؛ فيَسعَىٰ للإفسادِ بينَ الشيخ وبين الطُّلاب.

وأقبَحُ من ذلك: النمَّامُ الذي يسعىٰ للإفساد بين المشَايخ الذين يجتمعُونَ علىٰ الحَق والهُدىٰ، والتوحيد والسُّنة، ومَنهج السَّلف الرشيد، فينقلُ كَلامًا من هذا إلىٰ هذا ومن هذا إلىٰ هذا بقَصدِ الإفساد بينَهُم، وكل هذا من كبَائرِ الذنُوب، ومن قبَائح الأفعَال.

والواجبُ علىٰ الإنسَان: أن يحذَرَ من النميمة حذرًا شَديدًا، وألَّا يَغُرَّه الشيطانُ ويَخدعَه!

واليوم تطوَّرت أساليبُ النَّميمة بوسَائل التواصُل الاجتماعي، وأصبَحَت النميمةُ كثيرةً جدًّا، ولا يحتاجُ النمَّام إلىٰ أن يتحرك بنَفسِه، وإنما برسالة يُرسلُها إلىٰ هذا، ورسَالة يُرسِلُها إلىٰ هذا، وهَذا كُله إذا كان صادقًا في كلامِهِ وينقلُ كَلامًا سَمِعَه، وإنما هو يَنقل الكلامَ بقَصدِ الإفسادِ، والعِيَاذ بالله.

وأمَّا إذا كان كاذبًا، فيكذِبُ علىٰ هذا ويَكذبُ علىٰ هذا؛ فهَذا جَمعٌ بين ثلاثِ جرائم: النَّميمَة، والغِيبَة، والكَذب والبُهتَان، وهذا شر عظيم، والعيَاذ بالله.

إذَن؛ تَبيَّن لنا من هذا الحَديث الصَّحيح: أن النميمَةَ نَوعٌ من السِّحر من جهَةِ أثرِها، وهذا يَدُل علىٰ عَظِيم جُرمِ النمَّام، والعيَاذ بالله.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحرًا».

الشرح

قال: (وَلَهُمَا): أي: للشيخَيْن: البُخَاري ومُسلم.

والحَقُّ أن هذا الحديث إنما روَاه البُخاري عن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]، ورواه مسلم عن عمَّار بن ياسِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

والبُخاري رواه بقصَّة، ومسلم لم يَذكُر هذه القصة التي مِن أجلِهَا قالَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الجُملة.

وذلكَ أن البخَاري رَوىٰ عن ابنِ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «جَاءَ رَجُلانِ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المَشرِقِ فخطَبَا، فَعَجِبَ النَّاسُ لبيَانِهِمَا، فقَال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**».

و البيانُ نعمَةٌ من الله علىٰ الإنسَان، والله عَزَّ وَجَلَّ عَلَّم الإنسانَ البيَان.

والبيَانُ علىٰ قِسمَين:

القِسمُ الأول: البيَان عن مُراد الإنسَان مُطلقًا: وهذا حاصلٌ لكُلِّ عَاقل، فإذا

---

(١) برقم (٥١٤٦).

(٢) برقم (٨٦٩).

كان -مثلًا- يُريد أن يَشرب؛ فإنه يُبين أنه يُريد أن يشرب، أو يُريد أن يَمشي ويذهب؛ فإنه يُبين أنه يريدُ أن يذهبَ ويَمشي، وهذا البيَانُ حاصل لكل إنسَان، وليس هو المُرَاد هنا.

والقسمُ الثَّاني: إتقانُ البيَان بالفصَاحة والبلاغة التي تأخذ الألبَاب، وهذا هو المراد هنا من قَولِهِ ﷺ: (**إِنَّ مِن البَيَانِ لَسِحرًا**).

وقد اختلفَ أهلُ العلم في مُرَاد النبيِّ ﷺ بِهذه الجُملة: هل أراد أن يَذُم البيان، أو أراد أن يَمدَحه؟

- فمَن نظر إلىٰ قول النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحرًا**»، والسِّحر إنما يَرِدُ في الشرع مَذمومًا؛ قال: **أراد ذَمَّ البيان**.

- ومَن نظر إلىٰ أن القصَّة لا تَدُلُّ علىٰ الذمِّ؛ قالوا: أراد مدحَ البيان بأنه يأخُذ بالقُلوب والألباب، ولا شكَّ أن الكلام هنا ليس عن كُل البيَان، وإنما عن بَعضِ البيان، فإن «مِن» هنا (تَبعيضيَّة)؛ لأنه جاء في الرواية الأخرىٰ: «**إِنَّ بَعضَ البَيانِ لسِحرًا**»: فالمُراد هنَا: بعض البيان.

فهل أرَادَ النبي ﷺ أراد المَدحَ أو الذَّم؟

مِن أهل العِلم مَن قَال: المراد: المَدح.

ومِن أهل العِلم مَن قال: المُراد: الذَّم.

وقال الحَافظُ ابن حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِن أُرِيد بِالْحَدِيثِ الْمَدْح؛ فَالْمَعْنىٰ: أَنه

يُستمَالُ بِهِ الْقُلُوب، ويَرضَىٰ بِهِ الساخط، وَيُسْتَنْزَلُ بِهِ الصَّعب...»[١].

يَعني: أنه يُؤثِّر أثرًا طيبًا فيُستمالُ به القلب إلىٰ الحق، فالبليغُ يَجذبُ قلوبَ الناسِ إلىٰ الحَق، ويرضَىٰ به السَّاخط.

ثم قالَ الحَافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَإِن أُرِيد بِهِ الذَّم؛ فَالْمَعْنىٰ: أَنه يكْتَسب بِهِ من الْإِثْم مَا يكتسبه السَّاحر»[٢].

يَعني: إن أُريد به الذَّم؛ فيكونُ البيانُ هنا هو البيَان المَذمُوم الذي يُقلَب به الحق بَاطلًا.

وقَال بَعضُ أهل العلم: بل هذا بيانٌ للواقع، وهذا اختاره شيخنا الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]. فالبيان يأخذُ بالألباب، ويسحَرُ النفُوس.

وأما المدحُ والذمُّ فليس مرادًا هنا؛ يعني: لمَّا رأىٰ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس عجِبُوا من خُطبَة هذين الرجُلَين، وكيف انجذَبَ الناسُ إليهما؛ قال: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحرًا**». وهذا الواقع؛ لكن هل هو ممدوح أو مذموم؟؛ **هذا بحَسَب ما فيه:**

- فإن كان هذا البيَان لبيَان الحق، والدَّعوة إلىٰ الحَق، وجَذب قلوب الناس إلىٰ الحَق؛ فهَذا مَمدُوح.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٣٠).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٣٠).

(٣) «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» (١/ ٥٣٨).

- وإن كان لبيَان البَاطل، وقَلبِ الحَق بَاطلًا، والتَّلبيس علىٰ الناسِ، كما يفعَلُه بعض الناس اليوم، فيستخدِمُ قُدرَته علىٰ البَلاغة في التأثير علىٰ الناس، وفي صَرفِهم عن الحق، فهَذا مَذمُوم.

إذن لا يُمدَحُ الإنسانُ بالبَلاغة حتىٰ يرىٰ إلىٰ مَا يَدعُو:

- فإن كان يدعو إلىٰ الحَق والهُدىٰ والسُّنَّة فهذا مَحمُود، ومأجُور يُثنَىٰ عليه وإلىٰ ما يَدعُو إليه.

- وإن كانَ يَدعُو إلىٰ البَاطل ويُزخرفُ الباطل بلسَانه وبيانِهِ، لإبعَاد الناس عن الحَق بزخرَفَةِ الكلام، والاستدلالاتِ العامَّة بعيدًا عن الدَّليل الخاص؛ فهذا مذمُوم، وبيانه شُؤم عليه وعلىٰ النَّاسِ، عياذًا بالله من سُوء الحَال.

فَالعِبْرة في البيَان بمَا يَكُونُ فيه من حقٍّ أو بَاطِل.

ووَجه الدَّلالة: أن النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أن مِن البيَانِ لسِحرًا، فمِن أنواع السِّحر البيَان، وهذا السِّحرُ قد يكون حَلالًا مَشروعًا، وقد يكون حَرَامًا ممنوعًا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: أَنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبتِ.

وتقَدَّمَ أن المَقصُود من الجِبتِ؛ يعني: من السِّحر؛ لأن جمعًا من السَّلف قد فَسَّروا الجِبتَ بأَنَّه السِّحر، وهذا المُناسبُ للباب؛ لأن الشيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يتكلم عن شيءٍ من أنواع السِّحر.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ العِيَافَةِ والطَّرقِ.

وقد تقدَّم بيَانُه.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ عِلمَ النجومِ نَوعٌ مِنَ السِّحرِ.

لحَديثِ ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ العَقدَ مَعَ النَّفثِ مِن ذَلِكَ.

كمَا سبَقَ بيانُه.

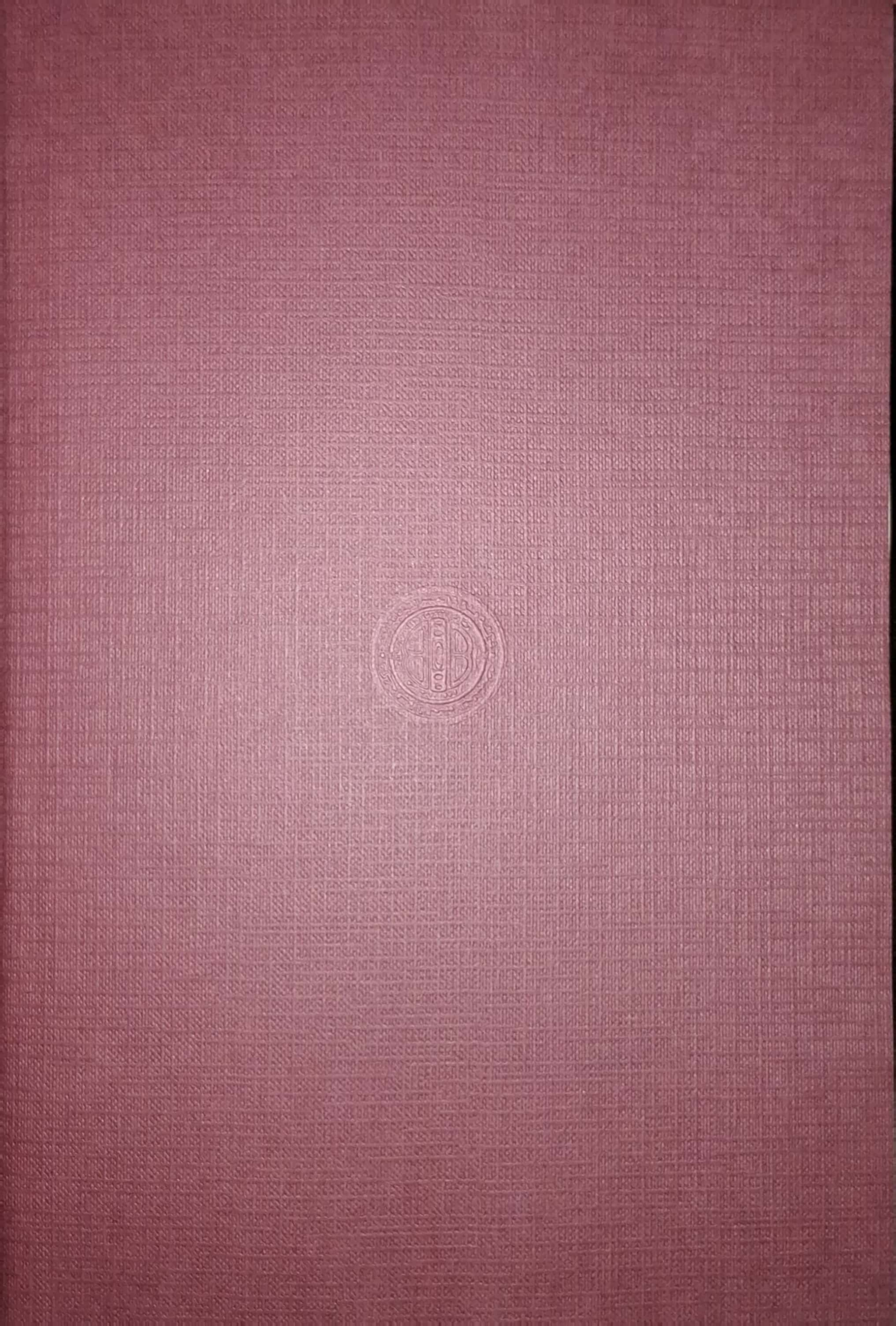
الخَامِسَةُ: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِن ذَلِكَ.

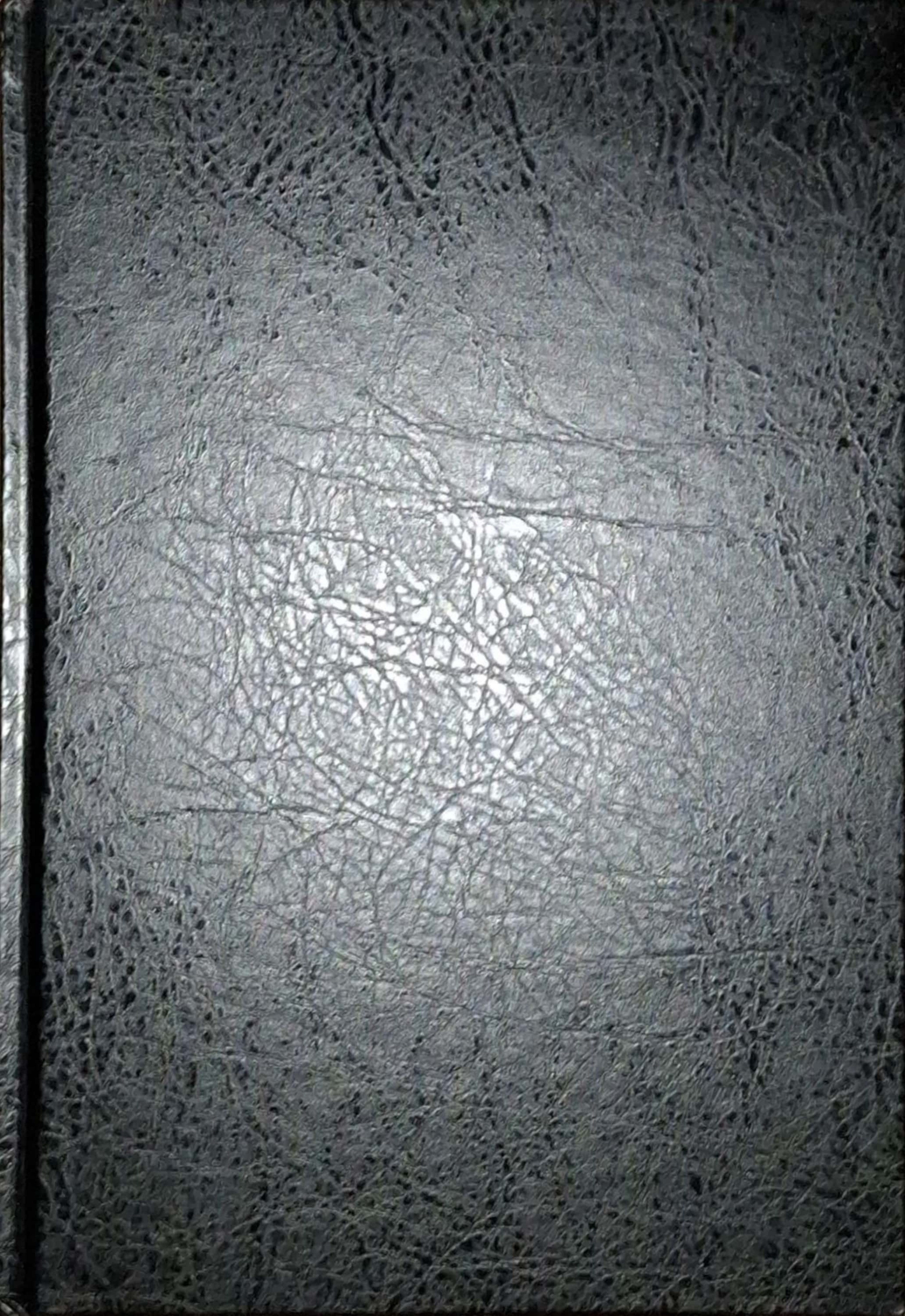
السَّادِسَةُ: أَنَّ مِن ذَلِكَ بَعضَ الفَصَاحَةِ.

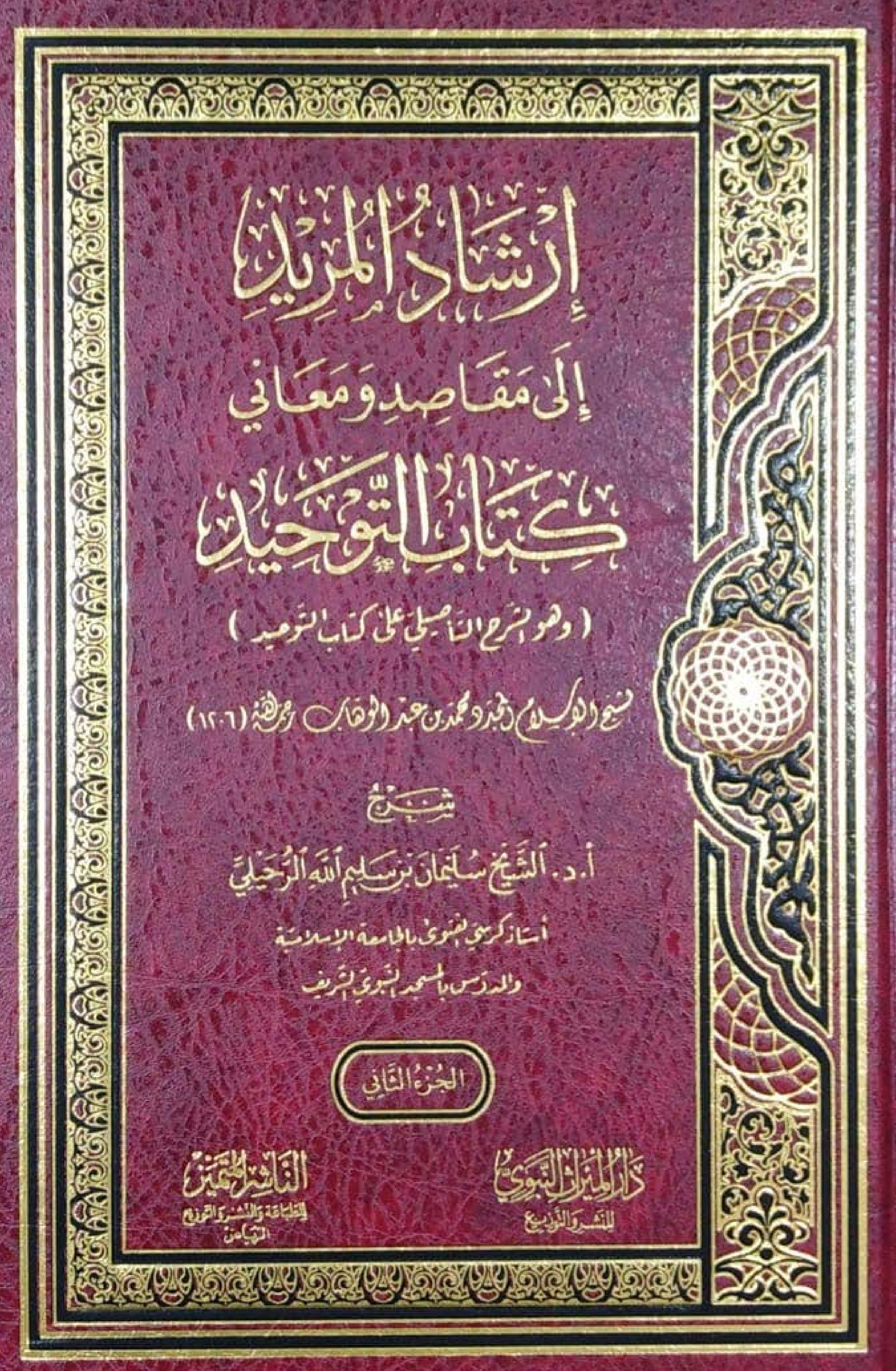
أن من ذلك بعض الفَصَاحة ليسَت كل الفصاحة؛ فمِن السِّحر المَذمُوم بعض الفصَاحَة.

❀❀❀

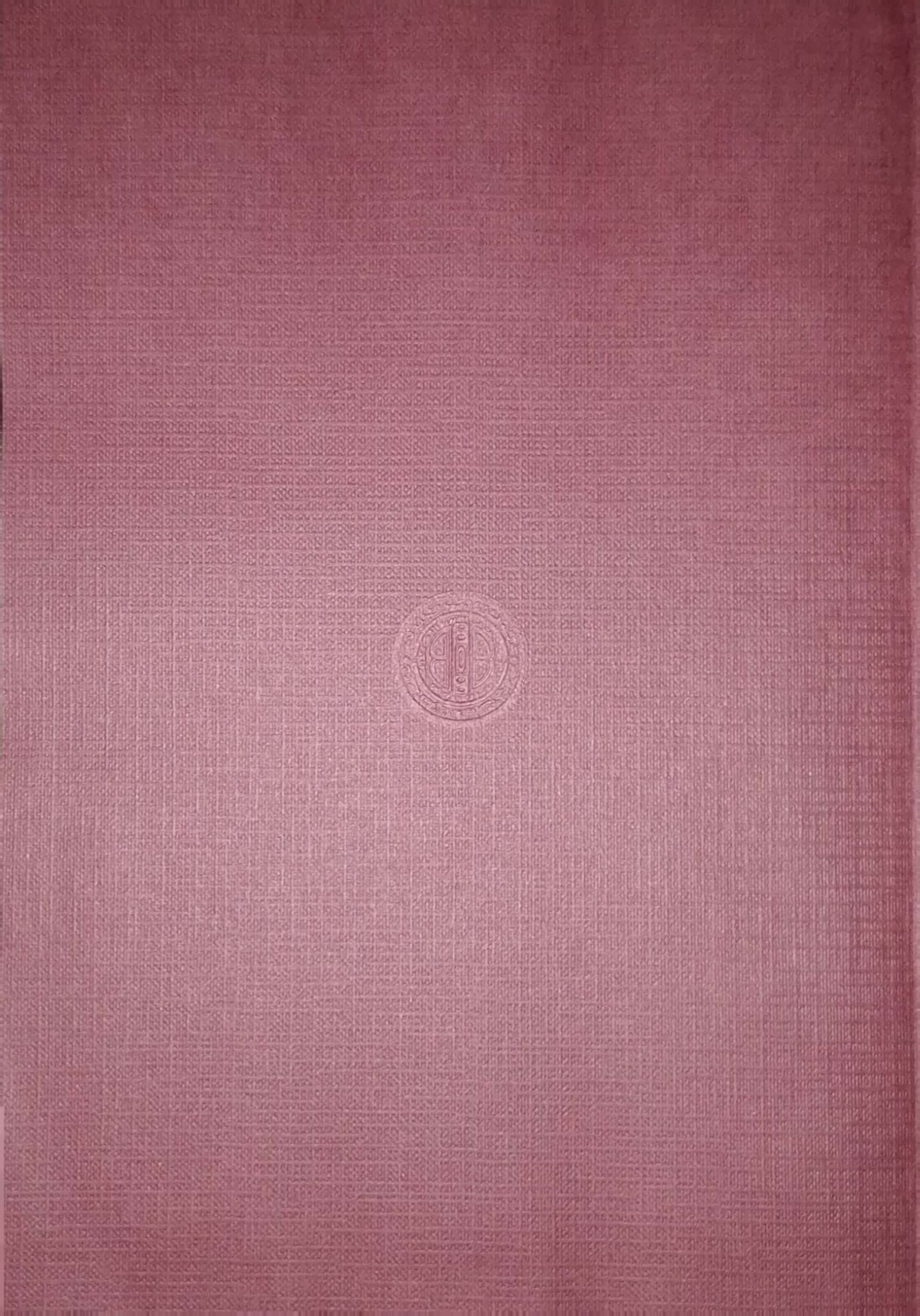
فهرس الموضوعات

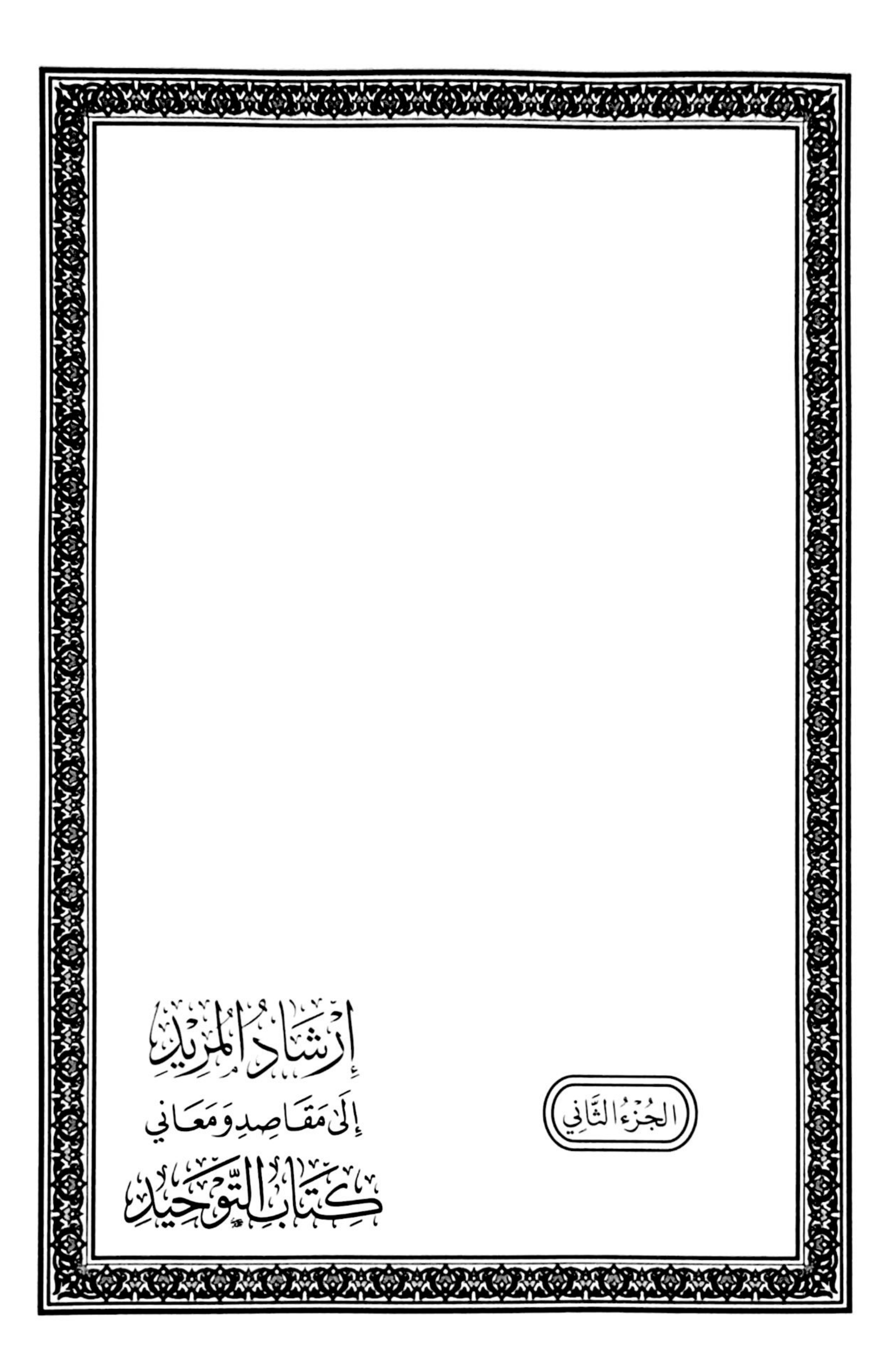






إرشاد المريد
إلى مقاصد ومعاني
كتاب التوحيد
(وهو الشرح التأصيلي على كتاب التوحيد)
لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١٢٠٦)
شرح
أ.د. الشيخ سليمان بن سليم الله الرحيلي
أستاذ كرسي فتوى بالجامعة الإسلامية
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف
الجزء الثاني
دار الميراث النبوي
للنشر والتوزيع
الناشر المتميز
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض




إرشاد المريد
إلى مقاصد ومعاني
كتاب التوحيد
الجزء الثاني

الطَّبعةُ الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

العِلمُ ميراثُ النبيِّ كذا أتى ... في النَّصِّ والعلماءُ هم وُرّاثُه
ما خلَّفَ المختارُ غيرَ حديثِهِ ... فينا فذاكَ متاعُهُ وأثاثُه

الإيداع القانوني: ديسمبر-2021
ردمك: 2-216-48-9947-978





دارُ الميراثِ النبويِّ للنشرِ والتوزيعِ
الصنوبر البحري - المحمدية - الجزائر العاصمة
الإدارة: 554250098 (00213) المبيعات: 550471594 (00213)
البريد الإلكتروني: dar.mirath@gmail.com

@mirathennabawi

إرشاد المريد

إلى مقاصد ومعاني

كتاب التوحيد

(وهو الشرح التأصيلي على كتاب التوحيد)

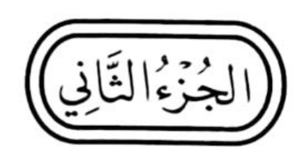
لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١٢٠٦)

شرح

أ. د. الشيخ سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ كرسي الفتوى بالجامعة الإسلامية

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف



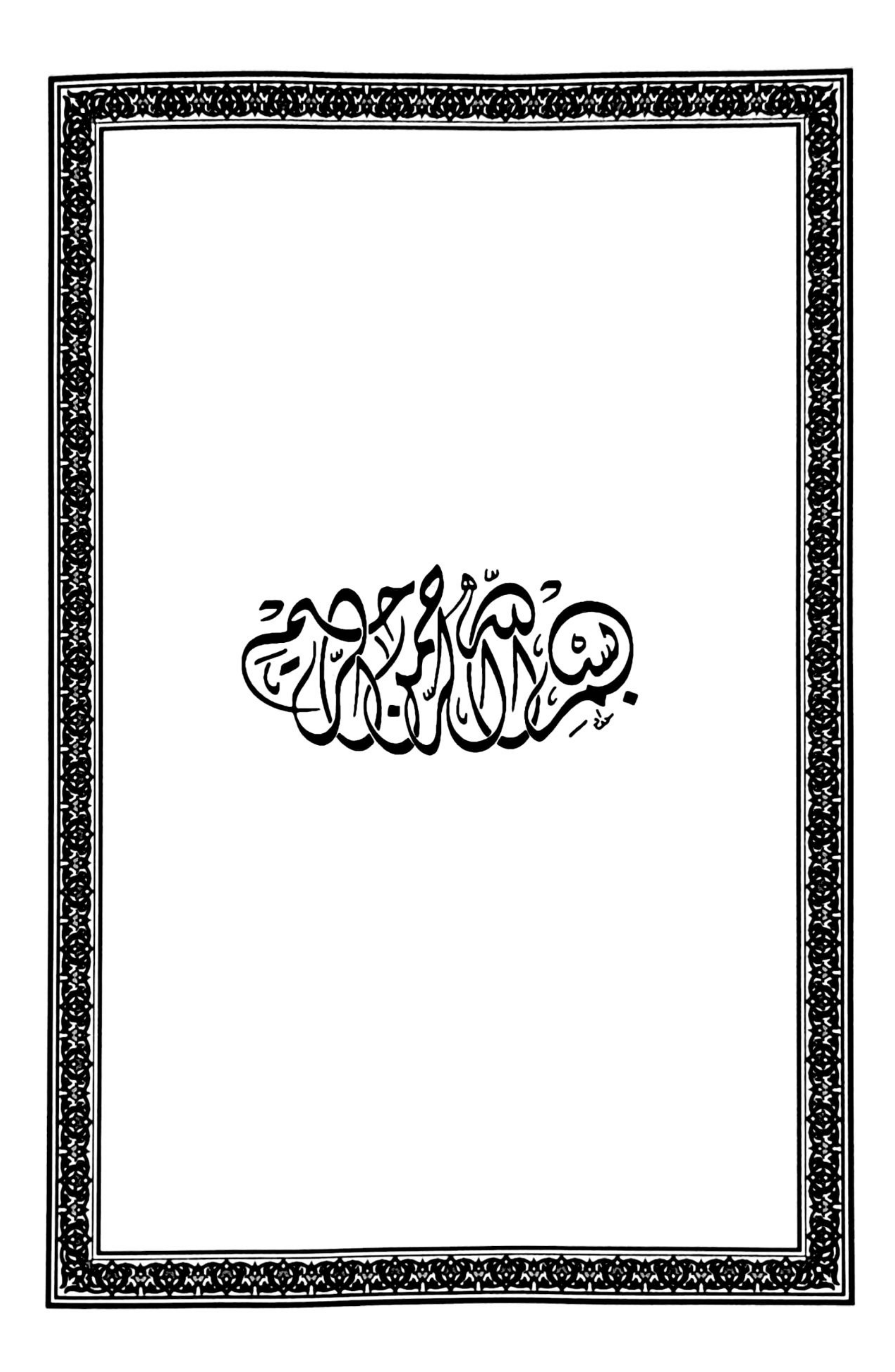
دار الميراث النبوي

للنشر والتوزيع

الناشر المتميز

للطباعة والنشر والتوزيع

الرياض


بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحوِهِم.

الشرح

لمَّا تَقدَّم الكلامُ عن السِّحر والسَّحَرة، وكان من الناس من يُشَارك السَّحرة في ادِّعاءِ عِلم الغَيب والمُستَقبل بغير أسبَابٍ حِسِّية مَعلُومة، وتتعلَّق قلوب بعضِ الناس بهم فيَذهَبُون إليهم، وقد يطلبون منهم ما يَطلُبون من السَّحَرة؛ من حَلِّ السحر ونَحوه؛ نَاسَب أن يذكر الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا هَؤلاءِ -وهُم الكهَّان والعرَّافُون-.

ومِن جهَةٍ أُخرىٰ: أنه لمَّا كان كثيرٌ من الناس يَذهبُ إلىٰ السَّحرة والكُهَّان والعرَّافين لحَل السحر؛ ناسَبَ أن يتكلم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا عن الكهَّان والعَرَّافين قبل أن يتكلم عن النُّشرَة التي هي حَلُّ السحر -كما سيأتي إن شاء الله-، وأن يتكلَّمَ عن حُكم الذهَابِ إليهم؛ فكان هذا مُناسبًا للباب السَّابق من جهَةِ أن الكهنَةَ والعَرَّافين يُشبِهُون السَّحرة.

وكانَ مُناسبًا للبابِ اللاحقِ: من جهة أن كثيرًا من الناس إذَا اعتقَدُوا أن فيهم سِحرًا؛ ذَهبُوا إلىٰ السَّحرة والكهَّان والعرَّافين؛ لِمعرفَةِ مَن سَحرَهُم؛ ولِحَلِّ السِّحر عنهم؛ فنَاسَب أن يذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلامَ عن الكُهَّان والعرَّافين، وعن حُكم الذَّهاب إليهم في هذا البَاب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رَوَىٰ مُسلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَن بَعضِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَن أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ فَصَدَّقَهُ؛ لَم تُقبَل لَهُ صَلَاةٌ أَربَعِينَ يَومًا».

الشرح

الحديث بهذا اللفظ بتمَامه ليس في مُسلِم، وإنما الذي عند مُسلِم وعند كثير من المُحدِّثين: «**مَن أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ لَم تُقبَل لَهُ صَلَاةٌ أَربَعِينَ لَيلَةً**»[1]. فليس في رواية مسلم: «**فَصَدَّقَهُ**»، بَل ولا في رواية أكثر المحدثين.

وإنما جاءت هذه الزيادَة في رِوايَة الإمامِ أحمَد[2] بلفظ: «**مَن أَتَىٰ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ؛ لَم تُقبَل لَهُ صَلَاةٌ أَربَعِينَ يَومًا**». وإسناده صَحيح.

ولَكِن ما حُكم هَذه الزيَادَة «**فَصَدَّقَهُ**»: هل هي من زيادة الثقة المَقبُولة أو هي شاذة من باب مُخَالفة الثقة للثقات، لأن أكثر الثقات قد رَوَوا الحديث بدونها، وزادها أحدُ الثقات، ومُخَالفة الثقة للثقات شاذة ضعيفة لا تقبل؟

هذا محَل نَظر وتَرَدُّد، فهي مُحتَملة لأن تكونَ من باب مُخَالَفَة الثقة للثِّقات؛ وذلك لأنها تقتضي قيدًا لا يوجد في الرواية المُطلَقة، ولأن التصديق جاءت عليه عقوبَةٌ أخرىٰ مُغَلَّظة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) برقم (١٦٦٣٨/ الرسالة)، وصحَّحه مُحَقِّقو المُسنَد علىٰ شرط مُسلِم.

ويحتمل أن تكونَ من بابِ زِيَادة الثقة، ويكون لها وجه سَنذكُره -إن شاء الله- عندما نتكَلَّم عن أحوالِ الذَّهَاب إلىٰ السحَرَة والكُهَّان والعرَّافين؛ فيَكُون لها وجه إذا كانت من بابِ زيَادَة الثقة.

(**قَالَ: مَن أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ**): **والعَرَّاف**: هو الذي يدَّعي معرفَةَ أماكن الغائباتِ بمُقدِّمات لا تُوصل إلىٰ معرفة ذلك في العَادة.

فقد يغيبُ الرجلُ عن البيت ويُفْقَد، فيذهبُ أهله إلىٰ العَرَّاف يسألونَه عن مكَانه، فيقول: هو عند القَوم الفلانيين، أو ذهبَ إلىٰ مدينة كذا، فيَدَّعي أنه يعرف مكانَ الغائب، وذلك بمُقدِّمات يزعُمها لا تُوصل إلىٰ ذلك في العادة، وإنمَا ذلك -والعيَاذُ بالله- لاستعانَته بالشَّيَاطين.

وقَولنا: «**بمُقدِّمات لا تُوصل إلىٰ ذلك بالعادة**»: لإخراج من يَعرفُ أماكن الغائبات بمُقدِّمات تَدُل علىٰ ذلك في العَادة كالقَافَة -والقائف: الذي يقتفي الأثر ليُوصِلكَ إلىٰ مكان الغائب-، فهذا يستَدِل بمقدمَاتٍ تُوصل إلىٰ ذلك في العادة، فالقائفُ قد يمشي خلف البَعير مَثلًا ويقول لك: وقفَ البعيرُ هنا؛ لأنه يعرفُ آثار البعير، وقد يُوصِلك إلىٰ مكانه، فهذا ليس عَرَّافًا؛ لأنه يَصِلُ إلىٰ أماكن الغائبات بمُقدمات تُوصِل إلىٰ ذلك في العَادة، وهي مُقدِّمات مَعلُومة.

وإنمَا **العَرَّاف**: الذي يَدَّعي مَعرفة أماكن الغائبات بمُقدمات لا تُعلَم، فهي لا تُوصل إلىٰ ذلك في العادة؛ فهُو عَرَّاف.

(**فَصَدَّقَهُ**): تقدم أن هذهِ روايةُ الإمام أحمد، وأما رواية مُسلم وأكثر المُحدثين فليس فيهَا: «**فَصَدَّقَهُ**».

(لَم تُقبَل لهُ صَلَاةٌ): ومعنىٰ (لم تُقبَل): يعني: أنه لا يُثَاب عليها، وهي مَطلُوبة منه، وتصِحُّ منه إن أتَىٰ بها صَحيحَة، وتَبرأ ذمَّتُه منها، غير أنه لا يَكتسِبُ بها ثوابًا لمُدَّة أربعين يومًا، ويَجبُ عليه أن يَأتي بِها.

وهَل يجبُ عليه بَعدَ الأربعين يومًا أن يقضيَ هذه الصَّلوات؟

الجَواب: لا؛ لأنَّ ذمته تَبرأ بما أدَّاه، لكن لا ثَوَاب له، والعيَاذُ بالله.

وإذا كان هذا فيمن أتىٰ العرَّافَ فَسأله؛ فمَا بالك بالعَرَّاف نفسِه، وسَيأتي - إن شاء الله- أن الذينَ يَذهبونَ للعرَّافين ليسُوا علىٰ درجَةٍ واحِدَة في الحُكم، وإن كان الذهابُ إليهم حرامًا علىٰ كل حَالٍ، إلا في حالةٍ واحدَة، سَنذكُرها -إن شاء الله-، وهي لإحقَاقِ الحَق وإظهار باطِلِهم، فمَا عدَا ذلك فالذَّهَابُ إلىٰ العرَّافين والكَهَنة والسحرَة حَرَام، ولكنه درجَاتٌ، فبَعضُها أشَدُّ حُرمَة مِن بَعض، كما سنبينه -إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن أَبِي هُرَيرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الشرح

هذا الحديث عند أبي داود بلفظ: «**مَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فقد بَرِئَ مِمَّا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**». وصحَّحه الألباني[1].

وعند ابن ماجه[2] بلَفظ: «**مَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ**».

واللفظُ المَذكُورُ في «كتَاب التَّوحيد» هو المُوافقُ لرِوَايةِ «ابنِ مَاجَه».

وهو أيضًا عند التِّرمذي[3] والنسائي[4]، بلَفظ: «**مَن أَتَىٰ كَاهِنًا فقد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**». بغير لفظة: «**فَصَدَّقه**».

والحديثُ صحيحٌ؛ صحَّحه الألبانيُّ وغيرُه من أهل العِلم.

(**مَن أَتَىٰ كَاهِنًا**): (الكَاهن): هو الذي يَدَّعي معرفةَ الغَيب ومعرفَة أمُور المستقبل بغَيرِ أسباب حسِّيَّة تُوصِل إلىٰ ذلك في العادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) برقم (٦٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) برقم (١٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٤) في «السنن الكبرىٰ» برقم (٨٩٦٨).

والفَرق بين العَرَّاف والكاهن:

أن العَرَّاف: يدَّعي أنه يعرفُ أماكن الأشياء الغَائبَة.

أما الكَاهِن: فهو يَدَّعي أنه يعرفُ الأشياء التي ستقَعُ في المستقبل، فلان سيتزوَّج فلانة، فلان سيُولَدُ له، ونَحو ذلك.

وبعضُ أهل العلم يَرَون أن العرَّاف والكاهن بمَعنًىٰ واحدٍ، ولا شَكَّ أنهما يتَّفقان في ادِّعَاء علم الغيب.

(فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ): من عِلم المُغَيبات وما يقع في المستقبل.

(فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ): وسيأتي الكلامُ عن هذِه الجُملة بعد الفَرَاغ من الكَلَام عن الحَديثِ الذي يَليه وأثَر ابن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ﮧ❁❁❁ﮦ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِلأَربَعَةِ وَالحَاكِمِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرطِهِمَا عَن.....: «مَن أَتَىٰ عَرَّافًا أَو كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وَلأَبِي يَعلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مِثلُهُ مَوقُوفًا.

الشرح

قال: (**وَلِلأَربَعَةِ**): هنا اختلفت نُسَخ الكتاب، ففي بعض نسخ الكتاب: (**وَرَوَىٰ أَبُو دَاودَ وَالأَربَعَةِ**): يعني: روَاه أبو داود والأربعَة، وهو كذلك، فإنَّ الحديثَ روَاه الأربعَةُ، علىٰ اختلاف في بعضِ الألفَاظ؛ رواه أبو دَاود، والترمذي، والنَّسَائي، وابن مَاجَه[1].

لكن يُشكِلُ علىٰ ذلك أن أبَا داود من الأربعَةِ!، فكيف يَقُول: (**وَرَوَىٰ أَبُو دَاودَ وَالأَربَعَةِ**)؟!

ويُمكن أن يُجَابَ عن هذا الإشكَال: بأن المُراد: بَقيَّة الأربعَة.

أو يُجَاب -وهذا عِندِي أقرَب، والله أعلَم-: رواه أبو داود والأربعة الباقون من الخَمسَة؛ لأنه إذا قيل: رواه الخمسة، فهم أصحابُ السنن الأربعة مع الإمام أحمد، وهذا الحَديث رواه الإمام أحمد[2]؛ فيكون المَعنىٰ: رواه أبو دَاود والأربعَةُ الباقون من الخَمسَة.

(١) انظر التخريجات السابقة.

(٢) أخرجه برقم (٩٥٣٦/ الرسالة) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه مُحَقِّقو المسند.

وفي بعض النسخ -كما هنا-: **(وَللأَربَعَةِ)**: وهذا في الحقيقة عليه إشكالٌ أكبَرُ من الذي قَبلَه؛ لأن هذا اللفظ الثاني لم يَروِه أحدٌ من الأربعَة، فكيفَ يقول الشيخ: **(وَللأَربَعَةِ)**؟!

قالَ بعضُ الشُرَّاح: لعله تبعَ في نسبَة هذا اللفظ إلىٰ الأربعَة: الحافظَ ابن حجَر في «فَتح الباري»[1]، حيث نسَب هذا اللفظ التالي لأصحَاب السُّنن الأربعة والحاكم، أو تَبع الحافظ المُنذِري في «الترغيب والترهيب»[2]، فإنَّه نسبَ هذا اللفظ التالي لأصحاب السنن الأربعة.

فالأمر مُحتَمل أن يكون: **(وَالأربَعَة)** وله وجه صحيح، **(وَللأربَعَة)** ولا يكونُ صَحيحًا، لكنه تبع في هذا الوَهم الحافظَيْن: الحافظ ابن حَجَر، والحافظ المُنذِري.

(وَالحَاكِمِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرطِهِمَا): هذا الحديثُ رواهُ الحاكمُ[3] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: صحيح علىٰ شَرطِهما، ووافقه الذهبي.

وأيضًا صحَّحه ابن باز، وحسَّنه الأرناؤوط[4]، وقوَّاه الحافظ ابن حجَر في «الفتح»، فالحَديثُ بهذا اللفظ أيضًا ثَابتٌ.

(عَن...): في بعض نسخ «كتاب التوحيد» هُنا بيَاضٌ، وفي بعض النُّسخ:

---

(١) (١٠/ ٢١٧).

(٢) برقم (٤٦١٤/ دار الكتب العلمية).

(٣) (١/ ٤٩).

(٤) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٨/ ١١٩)، وتحقيق الأرناؤوط علىٰ «مسند أحمد» (٩٥٣٦).

(**عَن ابنِ عَبَّاس**) وهذا غَلط، وفي بعض النسخ: (**عَنهُ**)؛ أي: عن أبي هُريرَة، وهذا هو الصَّوَاب.

وهذه رِوايَةٌ أخرىٰ للحَديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعة، وليسَت من كلامِ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد زادَ في هذه الرواية: «**عرَّافًا**»؛ ولهَذا ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(**مَن أَتَىٰ عرَّافًا أَو كَاهِنًا**): و(أو) هنا: للتَّنويع، فمَن أتىٰ عرَّافًا.

(**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَد كفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):

مَا وجهُ أنَّ من أتىٰ عرَّافًا أو كاهنًا فصَدَّقه بمَا يَقُول، يَكفُر بما أُنزِلَ علىٰ مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وَجهُ ذلك: أنَّ العرَّاف والكاهنَ يَدَّعيان علمَ الغَيب، والقُرآن الذي أنزل علىٰ مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينفِي أن يعلمَ أحدٌ الغيب إلا الله، أو بَوحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران:١٧٩].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن لنا بيانًا لا لَبسَ فيه: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ما كانَ ليُطلعَ خَلقه علىٰ الغَيب، إلا أن يجتَبِيَ رسُولًا فيُوحي إليه ما يشَاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس:٢٠].

فهذا حصرٌ في أن الغَيبَ إنمَا هو لله عَزَّوَجَلَّ، فمن صَدَّق القُرآن، كَذَّب العَرَّافين

والكهان ولابُد، ومَن صدَّق العرَّافين والكهان أو غيرَهم في مَعرفَة الغَيب، فقد كَذَّب القرآنَ ولابُد؛ لأنه صَدَّق ما ينفيه القُرآن.

قالَ: (وَلأَبِي يَعلَىٰ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مِثلُهُ مَوقُوفًا):

فقد رَوَىٰ معمر[1]، وأبو داود الطيالسي[2]، عن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ورَوَىٰ ابن الجَعدِ[3]، عن ابن مسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا فَسَأَلَهُ وَصَدَّقَهُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ورَوَىٰ ابن الجَعدِ[4]، وأبو يَعلَىٰ[5]: عن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «مَنْ أَتَىٰ سَاحِرًا، أَوْ كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَآمَنَ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قال الحَافِظُ ابن حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسنادُه جيدٌ، ومِثلُه لا يُقَال بالرَّأي»[6]؛ أي: أن له حُكمَ الرَّفع.

فهذه الأحاديثُ مُبَينة لحُكم الذهاب إلىٰ الكهَّان، والعرافين، والسحرة.

---

(١) في «جامعه» (١١/ ٢١٠) برقم (٢٠٣٤٨).

(٢) في «مسنده» برقم (٣٨١).

(٣) في «مسنده» برقم (١٩٤٧).

(٤) في «مسنده» برقم (١٩٥١).

(٥) في «مسنده» برقم (٥٤٠٨).

(٦) «فتح الباري» (١٠/ ٢١٧).

ولا شك أن الذهَابَ إلىٰ الكهان، أو العرَّافين، أو السحَرَة؛ حِسًّا بالذهاب إلىٰ أماكنهم، أو مَعنًىٰ بالاتصال بِهم في الهاتف، أو مُشَاهدة قنَواتِهم الفاسدة المُفسدة، حَرام مطلقًا، إلا لرَدِّ بَاطِلهم.

فلا يجُوز لمسلم يشهد أن لا إلهَ إلا الله، وأن محمدًا رسُولُ الله، أن يذهبَ إلىٰ كاهنٍ أوعَرَّاف أو سَاحِر، لأي سببٍ من الأسباب، إلا إذا كان ذَهابُه لرَدِّ باطلهم، وبيان الحَق، والإنكار عَليهِم.

قال مُعَاويةُ بنُ الحَكَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الكُهَّانَ، فقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا تَأْتِهِم**». روَاه مُسلِم[(١)].

وهذا نَهي مُطلَق، يبقَىٰ علىٰ إطلاقه، فلا يَجُوز للمُسلم أن يذهبَ إلىٰ الكهَّان مُطلقًا.

وسَأَلَ أُناسٌ رسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكُهَّان، فقال: «**لَيسُوا بِشَيءٍ**»[(٢)].

و(شَيء) هذه نكِرة، تُقال للتقليل أصلًا، وقد ذُكِرت في سياق النَّفي فتَعُمُّ، وهذا يَدُل علىٰ أنه لا قيمَةَ لَهُم، ولا علمَ عِندَهم يُلتَمَس مطلقًا، ولا عُذرَ عند الإنسان في ذهَابِه إلىٰ الكهَّان، أو العَرَّافين، أو السَّحرَة.

والذَّهَابُ إلىٰ الكُهَّان، أو العَرَّافين، أو السَّحَرة، علىٰ درجَاتٍ وأحوَال:

الدَّرجَة الأولَىٰ: أن يذهب إليهم، ويسألهم، ويُصَدِّقهم، مع اعتقاده أنهم

---

(١) برقم (٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يعلَمُون الغيب، أو مع علمه أنهم يستعينون بالشياطين ويتقربون إليهم، فهذا كفر أكبر، مُخرِج من المِلَّة؛ لأنه مُكَذِّب للقرآن، بتَصدِيقه للكُهَّان، ولأنه جاعل ما لله لغير الله؛ فهو جاعل علم الغيب الذي لله لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَدُل لهذه الحالة الحديث الذي معنَا.

والدَّرجَة الثَّانية: أن يذهبَ إليهم، ويسألهم، ويُصَدِّقهم، مع اعتقاده أنهم لا يعلمون الغيب، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله، ومع عدَم عِلمِه بأنهم يتقرَّبون إلىٰ الشياطين، وإنَّما يعتقد أنهم يَعلَمُون ما يقولون بطريق الإلهام، أو طريقِ العِلم؛ فيقول: هؤلاء عندهم من العلم ما ليس عندنا، أو نحو هذا، فهذا كُفرٌ أصغر، وهو كفرٌ دُونَ كُفر، وقد يدخل في عقوبة أنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، علىٰ رواية الإمام أحمَد: «فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، لَم تُقبَل لَهُ صلاةٌ أَربَعِينَ يَومًا»[1].

ونَازع بعضُ أهلِ العلم في هذا، وقَالُوا: بل إن صَدَّقهم فهو كافر كُفرًا أكبر، حتىٰ في هذه الحَالة، وقالوا: العبرة بتَصدِيقهم، وتوقَّفَ بعضُ أهل العلم.

والأقربُ -والله أعلم-: هو ما ذكرناه، أنه من الكفر الأصغر؛ لأنه لا يُوجَد فيه ما يُوجبُ الكفر الأكبر، فهو لا يعتقد أنهم يَعلَمُون الغيب، ولا يعلم أنَّهم يتقَرَّبون إلىٰ الشياطين.

والدَّرجَة الثالثة: أن يذهبَ إليهم لا ليَسألهم، ولا ليُصَدِّقهم، ولا يكون غرضُه إظهار باطلهم، وإنما يريد أن يطَّلع وأن يَرَىٰ، ويُريد أن يتفَكَّه، وأن يَضحك،

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦).

فهَذا حرام، وهو مُتوعَّد بأن لا يقبل الله له صلاة أربعين ليلة.

وكذلك الذي يُشَاهد قنوات السَّحرة والدجَّالين علىٰ الفضائيات من أجل الاطلاعِ والفضُول، وليس للعِلم للرَّد عليهم، أو بيَان حَالِهم وفسَادهم، وتحذير الناس منهم، فهذا أيضًا حرام لا يجوز؛ بل الذي يفعل هذا يُعَرِّض نفسه لئلَّا تُقبَل له صلاة أربعين يومًا.

والدَّرجَة الرَّابعة: أن يذهبَ إليهم لإظهَار بَاطِلهم، وكَشفِ زَيفِ أقوَالِهم، أو للإنكَار عَليهِم، ولا تترَتَّب علىٰ ذَهَابه مَفسَدة أعظم، فهذا جائزٌ، بل مَشرُوع.

ولذلك لمَّا ظهر أمرُ ابن صائد أو ابن الصَّياد أو ابن صَيَّاد في المَدينَة، في زَمَن النَّبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فظَنَّ بعضُ الصَّحابَة أنه الدجَّال الذي حذَّر منه النَّبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو دَجَّال لكنه ليس الأعورَ الدجَّال.

وفي الحَديثِ: «أن عُمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ انطَلَقَ مَعَ رَسُولِ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي رَهطٍ قِبَلَ ابنِ صَيَّادٍ، حتَّىٰ وَجدَهُ يلعَبُ معَ الصِّبيَانِ عِندَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ، وقَد قَارَبَ ابنُ صيَّادٍ يومَئِذٍ الحُلُمَ، فَلَم يَشعُر حَتَّىٰ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ظَهرَهُ بِيدِهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لابنِ صَيَّادٍ: **أَتَشهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله؟**

فنظَرَ إِلَيهِ ابنُ صَيَّادٍ فَقَالَ: أَشهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ. فَقَالَ ابنُ صَيَّادٍ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أَتَشهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله؟ فَرَفَضَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَقَالَ: **آمَنتُ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ**. ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **مَاذَا تَرَىٰ؟** قَالَ ابنُ صَيَّادٍ: يَأتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمرُ**. ثُمَّ قَالَ لَهُ

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنِّي قَد خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا**. فَقَالَ ابنُ صَيَّادٍ: **هُوَ الدُّخُّ**. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اخسَأْ فَلَن تَعدُوَ قَدرَكَ**. فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: ذَرنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضرِب عُنُقَهُ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِن يَكُن هُوَ فَلَن تُسَلَّطَ عَلَيهِ، وَإِن لَم يَكُن هُوَ فَلَا خَيرَ لَكَ فِي قَتلِهِ**»[1].

فهُنا ذهبَ إليهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسألَهُ ليَختَبِر أمرَه؛ وليُظهر حَقيقَتَهُ، ويَكشف للصَّحابة زَيفَ كَلامِهِ، فهذا مَشرُوع لمن كان قادرًا علىٰ أن يُظهِرَ بَاطِلَهُم، ويَكشِفَه، ويُنكر عَليهم.

ولذلك كانَ شَيخُ الإسلام ابن تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَأتيه المُنَجِّمُون، ويُناظِرُهم، ويُبَيِّن لهم بُطلانَ عِلمِهم، وبُطلان ما يَدَّعُون، فهذا إذا كان بهذه الحَال، وهذه الدَّرجَة، فهذا جَائزٌ وصَحِيحٌ.

❊❊❊

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣١).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعًا: «لَيسَ مِنَّا مَن تَطيَّرَ، أَو تُطيُّرَ لَهُ، أَو تَكَهَّنَ، أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ، أَو سُحِرَ لَهُ، وَمَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». رَوَاهُ البَزَّارُ بِإسنَادٍ جَيِّدٍ.

الشرح

هذا الحديث رواه البَزَّار[1] كمَا قال الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال المُنذري[2]، والهيتمي في «الزَّواجِر»[3]، وابن باز: بإسنَاد جَيِّد[4].

وقال الألباني: «السَّنَد جيد لولا عَنعنَة الحسن، وهو مدلس، لكن له شاهد»، وذكره الشيخُ في «السِّلسلة الصحيحة»، وقال: صحيحٌ بمَجمُوع طُرقِهِ[5].

فهَذا الحَديثُ صَحِيح.

(**وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعًا**): يعني: إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أنهُ قَال: (**لَيسَ مِنَّا**): أي: ليسَ علىٰ طَريقَتنا، ولا علىٰ مِنهاجِنا، وهذه لا تَنفي الديَانَة أصلًا، ولكنَّها بحَسَب الأحوال:

---

(١) في «مسنده» (٣٥٧٨).

(٢) «الترغيب والترهيب» برقم (٤٦٠٦).

(٣) (٢/ ١٧٧/ دار الفكر).

(٤) «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٢/ ١٢١).

(٥) «السلسلة الصحيحة» (٢١٩٥).

- فقد يَكُون معناها: ليسَ علىٰ دِيننا مُطلقًا.

وقد يَكُون: ليسَ علىٰ سُنتِنا ومنهَاجِنا، وإن كان من المُسلِمين، ولكنه واقِعٌ في حَرَام.

(مَن تَطَيَّرَ): والتطير: هو زجرُ الطَّير، وتحريكه؛ للنظر: هل يُقدِمُ أم يُحجِم؟، وسيَأتي -إن شاءَ الله-.

(أَو تُطُيِّرَ لَهُ): كمَن قال لشخصٍ: أنت عندك معرفة بالطيور، وأحوَالهَا، وذهابِها، وأنَا سأسافِرُ غدًا؛ فازجُر لي الطير: هل أسافر أو لا أسافر؟

فهذا تُطُيِّر له، وسنتكلم -إن شاء الله- عن الطيرة في (باب: مَا جاءَ في التَّطَير)، ونُفَصِّل فيها -إن شاء الله-.

(أَو تَكَهَّنَ): هو (أَو تُكُهِّنَ لَهُ): يعني: طلَبَ من الكاهنِ أن يتكَهَّن له، مثل الذين يَذهَبُون إلىٰ الذين يقرءونَ الكَفَّ، ويقولون: اقرأ لي الكَف، لأني أُريدُ أن أعرفَ مُستَقبلي!

أو يذهبون إلىٰ النساء اللاتي يَقرَأن الفنجَان، أو يَضرِبن علىٰ الرمل لمَعرفَة المُستقبل!

وهذا للأسفِ مَوجُود في بعض بُلدان المسلمين، حتىٰ أنِّي رأيتُه في بعض بلدان المسلمين العربية في السُّوق!، هؤلاء الكهان يجلسون مع مَن يَبيعُون السلع، كأنَّهم يبيعون سِلعَة، وأغلبُهُم من النسَاء.

(أَو سَحَرَ): بنفسه، (أَو سُحِرَ لَهُ): إمَّا بعَقد السِّحر، بأن يُريد أن يسحَرَ شخصًا،

وهو لا يعرِفُ السِّحر، فيذهَبُ إلىٰ السَّاحر، ويقول: اكتب لي حجابًا، بأي غَرضٍ كان، بأن تُحبَّه امرأة، أو أن يُؤذِي إنسانًا، فهذا عَقد للسِّحر.

وكذلكَ مَن ذهب إلىٰ السَّاحِر لحَلِّ السِّحر بالسِّحر، فإن مَن طلب من الساحر أن يَحُل السحر، فقد طلب أن يُسحَرَ له.

فهَذا يدل دلالة بَيِّنة علىٰ أنه لا يَجُوز الذهاب إلىٰ السَّحرة من أجل حَلِّ السحر، كما سيأتي بيانه بالأدلة المُقنِعَة -إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

(وَمَن أَتَىٰ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**: وقَد تقَدَّم بيانُ ما يتعلَّق بهذا.

***

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بإسنَادٍ حَسَنٍ مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَولِهِ: «وَمَن أَتَىٰ» إِلَىٰ آخِرِهِ.

قَالَ البَغَوِيُّ: «العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ المَسرُوقِ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحو ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ.

وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِر عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

الشرح

يعني: أن الطَّبَراني[1] رَوَىٰ هذا الحديث عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «لَيسَ مِنَّا مَن تَطيَّرَ، أَو تُطيِّرَ لَهُ، أَو تكَهَّنَ، أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ، أَو سُحِرَ لَهُ». هكَذا دُون بَاقي المَتن.

قالَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بإسنَادٍ حَسَنٍ): وقال الألباني: «حسَن لغيره»[2]. فهَذه الروايةُ في درَجَة الحَسن.

قال: (قَالَ البَغَوِيُّ: العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ المَسرُوقِ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحو ذَلِكَ): ونصُّ كلام البَغَوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في

---

(١) في «الأوسط» (٤٢٦٢).

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٢٦٥٠).

«شرح السُّنة»[1]؛ قال: «العَرَّاف: هوَ الَّذي يَدَّعي مَعرفَةَ الأمورِ بمقَدِّمَاتِ أَسبَابٍ يَستَدِلُّ بها علىٰ مَوَاقعهَا، كَالمَسروق مَن الذي سَرَقَهَا، وَمَعرفَة مَكَان الضَّالَّة، وَتُتَّهَم المَرأَة بالزِّنَا، فَيَقول من صَاحبهَا؟، وَنَحو ذَلكَ منَ الأمور. وَمنهم مَن يُسَمِّي المُنَجِّمَ كَاهنًا». اهـ

وما ذكرَهُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو بمعنىٰ الكلام الذي ذكره شيخ الإسلام عنه؛ لكن هذا هو اللفظ بنصه.

وأصلُ كلامِ البَغَوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو لأبي سُليمَان الخَطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صَاحب «معَالم السُّنن»[2]؛ قال: «وكان منهُم مَن يُسمَّىٰ عرافًا، وهو الذي يَزعُم أنه يَعرفُ الأمورَ بمُقَدِّماتِ أسبابٍ يستدَل بِها علىٰ مواقِعِها، كالشَّيء يُسرَق فيَعرف المَظنُون به السَّرقة، وتُتَّهم المرأةُ بالزنية فيَعرفُ مَن صَاحِبُها، ونحو ذلك من الأمُور. ومِنهُم مَن كان يُسمِّي المُنجِّمَ كاهنًا».اهـ

والذي يَظهَرُ -والله أعلم-: أن البغَوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ هذا الكلام عنه، والخَطَّابي متقدم جدًّا علىٰ البَغوي، فهذا كلام الخَطَّابي.

وشُرَّاح «كتَاب التَّوحيد» يَذكُرون أن الكلام كله إلىٰ: (**وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِرِ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ**) كُله للبَغَوي، وليس الأمر كذلك.

ويَظهَرُ لي -والله أعلم-: أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنمَا أرادَ المعنىٰ الأول.

---

(١) (١٢/ ١٨٢/ المكتب الإسلامي).

(٢) (٤/ ٢٢٩/ المطبعة العلمية).

(وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ.

وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ): وهذا ليسَ مِن كَلامِ البَغوي ولا الخَطَّابي.

فيَظهرُ لي -والله أعلَمُ-: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد بكلامِ البغوي: ما يَنتَهي إلى قَولِه: «ونَحو ذَلك».

قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ):

قالَ بَعضُ أهل العِلم: العَرَّاف هو الكاهن، فَهُما لفظانِ لمَعنًى واحد.

وبعضُهُم قالَ: الكاهنُ أعَم من العَرَّاف. فالكهَانة جِنسٌ، والعرَافَةُ نوعٌ من أنواع الكهَانَة.

قال: (وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ):

قالَ الخَطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكاهنُ إنمَا يتعاطَى الخبَر عن الكوَائن في مستقبل الزمَان، ويَدَّعي مَعرفةَ الأسرَار...»[1].

فهو يَدَّعي أنه يَطَّلعُ علىٰ الغَيب، ويُخبِرُ الناس عن الكوَائن -يعني: التي تقع في المستقبل-، فهَذا هو الكَاهنُ.

قال: (وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِر عمَّا فِي الضَّمِيرِ): وهذا بَحثتُ عنه بحَسَب جُهدي في كُتب أهل العلم فَلَم أجِده؛ لكن لا شَكَّ أن معناه موجودٌ، ولذلك النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) «معالم السنن» (٣/ ١٠٥).

لمَّا أرادَ أن يكشف أمر ابن صَائد -أو: ابن صَيَّاد- خبَّأَ له شيئًا، وقال: «قَد خَبَّأْتُ لَكَ شَيئًا»؛ لأن الكُهَّان والدجَّالين يَدَّعُون أنهم يَعلَمُون ما في ضمير الإنسَان.

وهذا واضح الآن؛ فبعضُ الكُهَّان إذا جاءه شخص ودخَل عليه قال له: لا تُخبرني، أنتَ أمُّك فُلانة، وعندك مُشكلَة كذَا وكذا! فيَدَّعي أنه يعرفُ ما في نَفسِ الإنسان من دُونِ أن يتكَلَّم، وشيطانُ المريضِ يَسبقُ إلىٰ شَيطان الكاهن ويُخبِرُ بمَا يريدُه المَريض، ويُعَرِّفه بهذه الأمور، وشيطانُ الكاهن يُخبِرُ الكاهنَ؛ فإذا دخل عليه الرَّجل قَال عن الكاهن مَفتُونًا به: هذا مَكشُوفٌ عنه الحِجَاب!؛ وإنما الشيطانُ أخبَره، وهَذا معلومٌ من أحوَالِ الكَهَنة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ تَقي الدِّين ابنُ تَيمِيَّةَ: «العَرَّافُ: اسم لِلكَاهِنِ، وَالمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ، وَنَحوهِم، مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ هَذِهِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

الشرح

يَعنِي: أن الكاهنَ كُلُّ مَن يدَّعي معرفة المُغَيَّبات أو الغَائبات، أيًّا كان؛ سَواء بعِلم النجُوم، أو بِالرَّمل، أو بالخَط، أو بالكهَانة، أو بغَير ذلك؛ فكُلُّها يَصدُق عليها أنها كهانة.

لكن شيخ الإسلام لم يَجزِم بهذا، وإنما قال: (والعَرَّاف)، ولم يَقُل: الكَاهِن.

قَالَ: (**وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ تَقي الدِّين ابنُ تَيمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسم لِلكَاهِنِ، وَالمُنَجِّمِ، وَالرَّمَّالِ، وَنَحوهِم، مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ هَذِهِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُق**):

ونَصُّ كلام شيخِ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**العَرَّافُ**، قَد قيلَ: إنَّهُ اسمٌ عَامٌّ للكَاهن وَالمُنَجِّم وَالرَّمَّال وَنَحوهم، ممَّن يَتَكَلَّمُ في تَقدمَة المَعرفَة بهَذه الطُّرُق، وَلَو قيلَ: إنَّهُ في اللُّغَة اسمٌ لبَعض هَذه الأَنوَاع، فَسَائرُهَا يَدخُلُ فيه بطَريقَة **العُمُوم المَعنَويِّ**، كَمَا قيلَ في اسم الخَمر وَالمَيسر وَنَحوهمَا»[1].

فشَيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسنِدُ الكلام الذي نقَله إلىٰ غيره علىٰ جهة التضعيف لا علىٰ جهة التقوية؛ حيث يقول: «**قَد قِيل**».

---

(١) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (١/ ٦٣).

ثم يَقُول: «وَلَو قِيلَ: إِنَّهُ فِي اللُّغَة اسمٌ لبَعض هَذه الأَنوَاع، فَسَائرُهَا يَدخُل فيه بطَرِيقَة العُمُوم المَعنَوِيِّ...».

يعني: أن هذا هو الأقوىٰ عند شَيخ الإسلام، أن يُقَال: إنَّ العرَّاف هو اسم لنَوع من هؤلاء، وهو -كما قلنا-: الذي يَدَّعي معرفة أماكن الغائبات؛ ولكن الكاهن، والمُنَجم، والرَّمَّال، يَدخُل في العَرَّاف بطريق (**العمُوم المَعنَوي**)، وهو عمُوم العِلَّة.

لأن العُمومَ نَوعان:

- عمُوم لَفظِي. - وعمُوم مَعنَوي.

العُموم اللفظي: هُو الذي يكُون بعُمُوم الكَلام، فأقول: كل المُؤمنين يدخُلونَ الجنة. فهذا عمُوم لفظي؛ أي: أن كُلَّ مؤمنٍ لابُدَّ أن يدخُلَ الجنَّة، سواء سبقَ ذلك دخوله النار أو لم يسبق.

والعمُوم المَعنَوي: هو عمُوم العِلَّة، مثل قولنا: كُل مُسكِرٍ فَهُو خَمر.

وذلك لعُموم العِلَّة، وهي الإسكار، فكُلُّ ما أسكر من مشروبٍ -وهذَا الأصلُ في الخمر- أو مَطعُومٍ، أو مَشمُومٍ، فهو خَمرٌ.

فهنا (الكَاهن وَالمُنَجِّم وَالرَّمَّال) كل هذه الأنواع تدخُلُ في اسم العَرَّاف، من جهة العُمُوم المعنوي؛ **وذلك لعُمُوم العلَّة:** وهي ادعاؤهم علم الغيب؛ فكُل من يدَّعي علمَ الغيب يصِحُّ أن نُسمِّيَهُ (عرَّافًا)، وإن كان ذلك لا يَصحُّ لُغةً؛ لكن هذا من باب العمُوم المَعنوي.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ «أَبَا جَادَ» وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ، قالَ: «مَا أَرَىٰ مَن فعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ اللهِ مِن خَلَاقٍ».

الشرح

هذا الحديثُ رواهُ بِهذا اللفظ بتمَامِهِ: البيهقيُّ في «السُّنَن الكبرىٰ»[1]، وفي «الآداب»[2]، وإسنادُه ظاهرُ الصحَّة.

قالَ: (**وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ «أَبَا جَادَ» وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ**): وهي: (**أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ**)، هذه الحروف يكتُبهَا بعضُ الناس ويُركِّبُون منها أخبارًا مُستقبلية، فيَدَّعُون معرفةَ المستقبل بطريق هذه الكِتَابة، وينظرون في النجوم والكَواكِب ويدَّعون معرفة ما يحدثُ في المستقبل بهذا.

قالَ: (**مَا أَرَىٰ مَن فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ اللهِ مِن خَلَاقٍ**): والخَلاقُ: نَصيبٌ في الجنة. يعني: ما أرىٰ له من نَصيبٍ في الجنة.

أو: مِن دِين؛ يعني: لا أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من دِين يُثَاب عليه يوم القيَامة.

---

(١) برقم (١٦٥١٤).

(٢) برقم (٣٤٢).

والمَقصُودُ: مَن ادعىٰ علمَ الغيب، أو مَن صدَّقَ مَن يدَّعي علم الغيب -في علمِه الغَيب-؛ فإنه بهذا يَكفُر، كمَا تقَدَّم بيَانُه. وسيأتي الكلامُ -إن شاء الله- عن التَّنجيم.

ﻫ ❁❁❁ ﻫ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: أَنَّهُ لَا يَجتَمِعُ تَصدِيقُ الكَاهِنِ مَعَ الإِيمَانِ بِالقُرآنِ.

وذلك لأنَّ الكاهنَ يَدَّعي علمَ الغيب، والقرآن يُخبِرنا ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه أنه لا يعلمُ الغيبَ إلا الله، فلا يُمكنُ أن يجتمع تصديق الكاهنِ مع تصديقِ القرآن، فإما أن تُكذِّب الكاهن، وإمَّا -والعيَاذُ بالله- أن تُكذِّب القُرآن.

الثَّانِيَةُ: التَّصرِيحُ بِأَنَّهُ كُفرٌ.

ففي الحديث: «فَقَد كَفَر بمَا أُنزِلَ عَلَىٰ مُحمَّدٍ».

الثَّالِثَةُ: ذكر من تُكُهِّنَ لَهُ.

يعني: مَع مَن تكهَّن، فالحُكمُ ليسَ خاصًّا بمَن تَكَهَّن فقط؛ بل حتَّىٰ من تُكُهِّنَ له، وفُعِلت من أجله الكهَانَة.

الرَّابِعَةُ: ذِكرُ مَن تُطُيِّرَ لَهُ.

يعني: مع مَن تطيَّر، ويدخُل فيه مَن فُعِلت مِن أجلِه الطِّيرَة كذَلك.

الخَامِسَةُ: ذِكرُ مَن سُحِرَ لَهُ.

يعني: مَع مَن سَحَر ويدخُل فيه مَن فُعِل مِن أجلِه السِّحر؛ فالأمر عظيم، وقد عرَفنَا درجات الذهاب إلىٰ الكهَّان والعرَّافين والسَّحَرة.

السَّادِسَةُ: ذِكرُ مَن تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

أي: ذِكرُ مَن تعلَّم أبا جاد مع النظر في النجوم، وقد تقدم ما يتعلَّق بمَن اقتبَسَ

شُعبة من النجوم فقَد اقتبس شُعبة من السحر.

فهنا ذكر (أبا جاد) مع النظر في النجوم؛ فحُكمُه حُكمُه؛ فحُكم تَعلُّم (أبا جاد) والعمل بهذا في ادِّعاء علم الغيب، هو كالنَّظر في النجُوم.

السَّابِعَةُ: ذِكرُ الفَرقِ بَينَ الكاهنِ والعَرَّافِ.

وقد تقدم بيانُ أن مِن أهل العِلم مَن يُفَرِّق بينهما، بأنَّ العَرَّاف يَدَّعي معرفةَ أماكن الغَائبات، والكاهنُ يَدَّعي معرفة أمور المستقبل المُغيَّبات، وأن بعضَ أهل العلم يقول: العرَّاف هو الكاهن، وبعض أهل العلم يَقُول: العرافُ نَوعٌ من الكهان، ومن أهل العلم من يُفَرِّق بينهما، ومن أهل العلم من يَقُول: همَا سَوَاء.

✿✿✿

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشرَةِ.

الشرح

لمَّا تقدَّمَ الكلام علىٰ السِّحر، وعن حُكمِه، وأن له حقيقَة، وأنه قد يَضُر بإذن الله الكوني؛ عقَدَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا البابَ ليُبين أن السحرَ الذي يُعقَد يمكن أن يُحَل، وليُبيِّن ما الذي يجُوزُ من طُرُق الناس في حَلِّه، وما الذي لا يَجُوز.

فإن الناسَ يَسعَونَ -إذا ابتُلي عندَهُم مُبتلًىٰ بالسِّحر- في حَلِّ هذا السِّحر، ولهم في ذلك طَرائق مُتعَدِّدة، فعقَدَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا البابَ ليُبين للأمةِ ما الذي يَحِلُّ من هذه الطَّرائق، وما الذي يَحرُم.

و(النُّشرَةُ): هي حَلُّ السِّحر عن المَسحُور، وهي إما أنها من النَّشر، والنشر: هو فَرقُ ما طُوِي وفَردُه، فالسجادَة مثلًا إذا طُوِيَت ثم فَردها الإنسان وفَرق أطرافها عن بعض نقول: نشَرَها، والنشرَةُ بهذا المَعنَىٰ كأنها تَنشُر ما طوَاه السَّاحر في العُقَد وتُفَرِّقه.

وإمَّا أنَّها مأخوذة من النَّشر والتَّنشير، وهو الكَشفُ، والإزالة، والتَّجليَة.

فيَكونُ المعنىٰ: أنه بالنُّشرة يكشِفُ عن المُبتلىٰ بالسِّحر ما فيه من البَلاء، ويُزَال عنه، ويُجَلَّىٰ عنه.

إذن؛ النُّشرة في أَصلِها: إما أنها مأخوذة من النَّشر، بمعنىٰ فرق المطوي وفرده، وإما أنها من التنشير، بمعنىٰ الكشف، والإزالة، والتَّجلية.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ» رَوَاهُ أَحمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وأَبُو دَاوُدَ.

الشرح

هذا الحديثُ رواه الإمام أحمَدُ، وأبو داودَ[1].

قال ابن مُفلِح: «بسند جيد»[2]، ووافقه على ذلك الشيخُ ابن باز[3]، والألبَاني[4]، وحسَّنه ابن حجر[5].

وتعقَّب الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابنَ حَجَرٍ في تَحسِينه فقط، وبيَّن أن الحديثَ صَحيح[6].

(**عَن جَابِرٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟**): ومَعنى ذلك أن النُّشرَة -التي هي كمَا قُلنَا: حَل السِّحر عن المَسحُور- كانت مَعرُوفة في زَمَن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسُئلَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤١٣٥)، وأبو داود (٣٨٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٧).

(٣) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٣/ ٢٨٠).

(٤) انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٦٠).

(٥) «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٣).

(٦) «السلسلة الصحيحة» (٢٧٦٠).

و«أل» في (النُّشرة):

- **إمَّا أنهَا للعَهدِ**؛ أي: سُئل عن النشرَةِ المَعهُودة عند أهل الجَاهِليَّة، وهي التي يُذهَبُ فيها إلىٰ السَّحرة، والكُهان، والعرافين. فالمعهود عند أهل الجاهليَّة أنهم يَحلُّون السحرَ عن المَسحُور بالذهاب إلىٰ هؤلاء.

- **ويحتمل أن تكون «أل» هنا للجنس**، عن جنسِ النشرَةِ، أي: عن حَلِّ السِّحر عن المَسحُور.

ويَكونُ المَعنىٰ إذَن: أن الأصل في النشرَةِ أنها مُحَرَّمة، وأنها من عمَل الشياطين، إلا ما دَلَّ الدليلُ علىٰ جَوَازه، أو أُجمِعَ علىٰ جَوَازه.

فإذا سأَلَ سَائلٌ عن النُّشرة، فنَقُول له: الأصل أنها من عَمَل الشيطان، إلا إذا كان المَعمُول به في النُّشرة دلَّ الدليل علىٰ جوَازه، كما سيأتي -إن شاء الله-، أو أجمع العلمَاءُ علىٰ جوازه، فإنه يَخرُج عن هذا الأصل.

(**فَقَالَ: «هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ»**): أي: أنَّها لا يتوصلُ إليهَا إلا بالتقَرُّب إلىٰ الشياطين، فلا يكَادُ يَعرفُها إلا ساحرٌ مُتقَرِّب إلىٰ الشياطين، أو كاهن مُتقَرِّب إلىٰ الشيَاطين، أو عَرَّاف مُتقَرِّب إلىٰ الشَّياطين.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ: «سُئِلَ أَحمَدُ عَنهَا فَقَالَ: ابنُ مَسعُودٍ يَكرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

الشرح

قَولُه: (وَقَالَ:): ظاهرُ هذا أنه يعودُ إلىٰ (أبي دَاود) الذي خرجَ حديثَ جَابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمَعلُوم أن أبا دَاود له سُؤالاتٌ للإمام أحمَد، وهذا كتاب مَطبُوع، وقد رجَعتُ إلىٰ «سؤالات أبي دَاودَ لأحمَد» فَلم أجِد فيها هذا الكَلام، وراجعتُ مسائلَ الإمام أحمد بروايَةِ ابنِه عبدِ الله، وبرواية الكَوسَج، وغيرها، فلم أعثُر علىٰ هذا الكلام.

لكن هذا الكلامَ نَقلَهُ بعضُ أهل العلم عن الإمامِ أحمد؛ كابن مُفلِح[1]، فإنه قال عن بعض تلاميذِ الإمامِ أحمَدَ -وهو جعفر-: أنه سُئل الإمام أحمدُ عن النشرة فقال: «ابنُ مَسعُود يَكرَهُ هَذا كُلَّه».

وكراهية ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنُّشرة ثابتة؛ فقد روىٰ ابنُ أبي شَيبَة[2] بإسنادٍ صَحيحٍ، عن إبرَاهيمَ النَّخعي، صاحبِ ابن مسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانُوا يَكرَهُونَ التَّمائِمَ، والرُّقَىٰ، والنُّشَرَ».

(كانوا) يعني: ابنَ مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأصحابه.

---

(١) «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٧).

(٢) في «المصنف» (٥/ ٣٦) برقم (٢٣٤٧١).

و(النُّشر): يعني: النُّشرة، جمع للنشرة.

(قَالَ: سُئِلَ أَحمَدُ عَنهَا): يعني: عن النشرَةِ.

(فَقَالَ: ابنُ مَسعُودٍ يَكرَهُ هَذَا كُلَّهُ): والكرَاهيَةُ عند السَّلفِ الأصل فيها أنَّها للتَّحريم، فالسَّلف إذا قالُوا: يُكرَه، أو: أكرَه؛ فإنَّهم يَعنُون بذَلكَ الحُرمَة، وليسَ كمَا اصطلح عليه المُتأخِّرون أن المَكرُوه ما نُهي عنه نَهيًا غير جازم، وإنما المَكرُوه عند السلف، وعندَ المُتقدِّمين، الأصل فيه أنه (المُحرَّم).

وقد يُرادُ به: المَكرُوه كراهة تَنزيه.

لكن الأصل أنه المُحرَّم؛ أي: أنهم كانوا يُحَرِّمون النُّشر، فالنشرة كان ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يُحرِّمُها مُطلقًا.

وقوله: «يَكرَهُ هَذا كُله»: عائد إلىٰ النُّشرة كُلِّها؛ فيحتمل أنَّ ابنَ مَسعُود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ كان يحرِّم النشرة كلها ، فيُحَرِّم ما كان فيه حرام لحُرمَته الظاهرَة، ويُحرِّم ما لم يَكُن فيه حرام؛ لأنه ذَريعةٌ إلىٰ الحرام.

ويحتمل أن يَكونَ المُراد به: ما فيه حَرَام، فلا يَدخُل في الحُكم ما فيه حَلال.

ومَالَ إلىٰ هذا شَيخُنا ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُٱللَّهُ[1]، بل رَجَّح هذا، **وقال**: «لأنَّ النشرةَ بالقُرآن والتعَوذات المَشرُوعة لم يَقُل أحدٌ بكَرَاهَته».

لكن ظاهِر عبَارَات السَّلف: أنهم كانُوا يَنهَون عن النشرَةِ مُطلقًا؛ لأن الغالبَ عليها الحَرَام، فإما أنهم حَرَّموا ما هو حرام، وهذا لا شَكَّ في تحريمه، وإما

---

(١) «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» (١/ ٥٥٥).

حَرَّموا المُبَاح؛ لأنه ذريعة إلىٰ الحَرام، وإن كان هذا مَرجُوحًا كما سيأتي -إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي البُخَارِيِّ، عَن قَتَادَةَ: «قُلتُ لابنِ المُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَو يُؤَخَّذُ عَنِ امرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنهُ أَو يُنَشَّرُ؟ قَالَ: لَا بَأسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنفَعُ؛ فَلَم يُنهَ عَنهُ» انتهىٰ.

الشرح

هذا الأثر رواه البخاري مُعَلقًا عن قتادة[1]، ولم يَروِه مَوصولًا بإسناده، ووَصَله الأثرَم في كتاب «السُّنن»، والطبري في كتاب «التهذيب»، بإسنَادٍ صَحيحٍ، وسيَأتي بيَانُ لفظه.

لمَّا ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمامِ أحمَدَ أن ابنَ مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُ كان يكرَهُ النشرةَ كُلَّها، أعقَبَ ذلك بأثَر سَعيدِ بن المُسَيَّب، وهو من السَّلَف من سَاداتِ التَّابعين.

(عَن قَتَادَةَ: قُلتُ لابنِ المُسَيَّبِ): وتقدَّم بيان أن أهلَ العِلم يَضبِطُونه: المُسَيَّب، أو: المُسَيِّب، وأكثر المُحَدِّثين علىٰ ضَبطه بالفَتح (المسيَّب).

---

(١) كتاب الطب، باب هل يَستخرِجُ السحر؟

ووصَلهُ الأثرم في «السنن» كما في «التمهيد» لابن عبد البر (٦/ ٢٤٤)، والطبري في «تهذيب الآثار» كما في «تغليق التَّعليق» (٥/ ٤٩)، وصحح إسناديهما الحافظ في «التغليق». وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٣).

وقال الألبانيُّ في «السلسلة الصَّحيحة» (٢٧٦٠): «وروايةُ قتادة أخرجهَا ابنُ أبي شيبة بسندٍ صحيحٍ عنهُ مُختصرًا». اهـ

(رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ): أي: به سِحر.

(أَو يُؤَخَّذُ عَنِ امرَأَتِهِ): أي: يُمنَع من جِمَاعها ولا يستطيع أن يأتي امرَأته.

وفي بعض الروايات: «رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أُخِذَ عَنِ امرَأَتِهِ»؛ يعني: أنه مَسحُور سِحرَ التَّفريق، فإذا أرادَ أن يُجَامع امرأَتَهُ لا يستطيع.

(أَيُحَلُّ عَنهُ أَو يُنَشَّرُ؟): أي: أيُحَل عنه هذا السِّحر أو يُنشَر؟

وهنا السُّؤالُ جاء مُطلَقًا.

(قَالَ: لَا بَأسَ بِهِ): أي: يَجُوز أن يُحَل عنه السِّحر.

(إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصلَاحَ): أي: إنمَا يُريدون بهذا العَمل، الذي هو النُّشرة، الإصلاحَ بإزالَةِ السِّحر، فينتَفعُ الزوج والزوجَةُ، ولا يقَعُ التَّفريق.

(فَأَمَّا مَا يَنفَعُ؛ فَلَم يُنهَ عَنهُ): وسيَأتي بيانٌ أكثَر عمَّا يتَعَلَّق بهذا بعد أثَر الحسَن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

⁂

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحرَ إِلَّا سَاحِرٌ».

الشرح

وهذا الأثرُ مُرتَبط بأثر ابنِ المُسيَّب، وقد جاء معه في روَايةٍ وَاحِدة.

(**وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحرَ إِلَّا سَاحِرٌ»**): قال الحافظ ابن حجَر: «قال قتادة: وكان الحسَن يَكرَهُ ذلك، ويقول: لا يعلم ذلك إلا سَاحِر»[1].

وهذا معنىٰ قول الحَسَن: «لَا يَحُلُّ السِّحرَ إِلَّا سَاحِرٌ»، يعني: أنه لا يكَادُ يقدِرُ علىٰ حَلِّ السِّحر إلا سَاحر، وهذا يُبَيِّنُ لك وَجه كرَاهيَة ابن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنشرَةِ.

وذكره الحافظ ابنُ حَجَر في «تغليق التعليق»[2] -وقال: إسنَادُه صَحِيح-: أنه رَواهُ ابن جرير في كتاب «تهذيب الآثار»، وذكر إسناده إلىٰ قتَادة، عن سعيد بن المُسَيب: «أنه لا يَرَىٰ بأسًا إذا كان الرجُلُ به سِحرٌ، يُمكن أن يَمشِي إلىٰ مَن يُطلِق ذلك عنهُ؟ قال: هو صلاح.

قال: وكَان الحسنُ يَكرَه ذلك؛ لأنه لا يَعلَمُ ذلك إلا سَاحرٌ.

فقال سَعِيدُ بنُ المُسَيب: لا بأسَ بالنشرَةِ، إنَّما نُهِي عن الذي يَضُر، ولم يُنه عمَّا يَنفَع». اهـ

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٣).

(٢) (٥/ ٤٩).

وهَذه الجُملَةُ مُهمة جدًّا في فَهْم أثرِ ابنِ المُسَيَّب رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومقصودُ سعيد بن المُسَيب هو التداوي، كمَا صَرَّح به في رواية ابن عبد البَر في «التَّمهيد»[1] بإسنادِه إلىٰ قتَادة، عن سَعيدِ بن المُسَيَّب: «في الرجُلِ يُؤخذُ عن امرَأتِه، فَيَلتَمسُ مَن يُداوِيه، فقَالَ سَعيدٌ: إنمَا نَهىٰ اللهُ عمَّا يَضُر، ولم يَنْهَ عمَّا يَنفعُ».

إذَن؛ مَقصُود سعيدِ بن المُسَيب: هو التداوي بالرقىٰ الشَّرعية ونَحوها، وليس مَقصُوده الذهاب إلىٰ السَّحَرة، كما زعم بعضهم؛ فقال: «إنَّما نهىٰ الله عما يَضُر، ولم يَنهَ عن الذي ينفع»، والسِّحر يَضُر ولا ينفع، وسعيدٌ يَعلَم هذا يقينًا، كما أن سائر المُؤمنين الذين يقرءونَ القرآنَ يَعلَمُون هذا يقينًا.

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢]. وهذا في السحر، فالسِّحرُ يَضُر ولا يَنفَع.

ويُؤَيِّد ذلكَ: ما روَاه ابراهيمُ الحَربي بإسناده إلىٰ قتادة قال: «قُلتُ له -أي: لسعيدِ بن المُسَيب-: رَجلٌ به طِب -أي: سِحر-، أيُحَل عنه؟، فقال: إن استَطَعتَ أن تنفَعَ أخاكَ فَافعَل»[2].

---

(١) (٦/ ٢٤٤)، وذكرها الحَافظُ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ٤٩)، وعزاها لابن عبد البَر في «التمهيد»، وقال: «وإسنَادُه صَحيح».

(٢) ذكره الحَافظُ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ٥٠)، وعزاه لإبراهيم الحربي في «غريب الحديث».

والخِطَابُ هُنا لقتَادة، وهو ليسَ سَاحرًا، بل هو عالمٌ من كِبَارِ علمَاء التابعين، والمَعلُوم كذلك أن قتادة لا يَحُل السِّحرَ بالسِّحرِ؛ فدل ذلك دلالةً بيِّنة علىٰ أن المُرادَ هو التداوي بمَا أباحَ الله، وليس حَل السِّحر بالسِّحر.

๑❋❋❋๑

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ ابنُ القَيِّم: «النُّشرَةُ: حَلُّ السَّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نوعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ. وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ، فَيَتَقرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالدَّعَوَاتِ وَالأَدوِيَةِ المُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ».

الشرح

(**قَالَ ابنُ القَيِّمِ: «النُّشرَةُ: حَلُّ السَّحرِ عَنِ المَسحُورِ**): وقد تقدَّم تعريفُ النُّشرَةِ وأنوَاعِها.

قَالَ: (وَهِيَ نوعَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ): وهو الذي قال فيه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُوَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ**»، ولا يَحصُل إلا بالتقَرُّب إلىٰ الشَّيَاطين.

قَالَ: (وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ): وقَول ابنِ مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيضًا؛ أن مَقصُودَهم: حَل السِّحر بسِحرٍ مثله، وهذا أحدُ الأوجه عند أهل العلم في تَفسيرِ كلامِ السَّلف.

قال: (فَيَتَقرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَىٰ الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسحُورِ): أي: يتقَرَّب الساحرُ حقيقةً إلىٰ الشَّيطان، ويتقَربُ المَسحُور له أحيانًا حقيقة إلىٰ الشَّيطان، ويقال له: اذبَح أرنبًا من صِفَاتِه كذا، أو: اذبَح دجاجَةً

من صفَاتها كذا، أو: اذبَح شَاةً مِن صفَاتِها كذا!

وقد يَقُول الساحِرُ: لا تَذكُر اسم الله عليها!، وقد يَأمُره بخَنقِها لا بذَبحِها؛ وهذا تقَرُّب إلىٰ الشياطين!

وقد يتقربُ -المَسحُور الذي يَطلُب حَلَّ السحر عنه من السَّاحر- إلىٰ الشيَاطين بواسطةِ السَّاحر؛ لأنه إذا طلبَ من السَّاحر أن يَحُل السحرَ عنه، فكأنَّه طلبَ من السَّاحِرِ أن يتقرَّبَ إلىٰ الشَّياطين؛ لأن المعلُومَ أن الساحِرَ لا يَحُل السحرَ إلا إذا تقَرَّب إلىٰ الشياطين؛ فيَكُون بذلك متقرِّبًا إلىٰ الشياطين، وهَذا كُفر.

وبهذا نَعرفُ حُكمَ حَل السِّحر بالسِّحر، **فإن حَلَّ السِّحرِ بالسِّحرِ حرَامٌ لَا يجوزُ. وقد دَلَّت علىٰ ذلك أدلةٌ كثيرَةٌ جدًّا:**

منها: أنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَىٰ عن إتيَانِ الكُهَّان مُطلقًا، والكهَّان يدخل فيهم السَّحَرة، ويدخل فيهم العَرَّافون، وحَلُّ السِّحرِ بسِحرٍ مِثله لا يتَأَتَّىٰ إلا بإتيَان الكهان والسَّحرَة والعَرَّافين، وهذا مَنهِيٌّ عنه.

ومنها: حديثُ البَاب: «أنَّ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عَن النُّشرَةِ، فقَالَ: **هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ**»، سَواء قُلنا إن (أل) للعَهد أو للجِنس؛ فإن الذهابَ إلىٰ السحرَةِ لحَلِّ السِّحر داخل في الحَديثِ يَقينًا.

ومنها: ما تقَدَّمَ من أدلَّة الكتاب والسُّنة المُطلَقة في تحريم السِّحرِ مُطلقًا، ولم يُستَثنَ من ذلك شيءٌ.

ومنهَا: ما تقدم منَ الأدلَّة الدالَّة علىٰ أن السِّحرَ يَضُر مُطلقًا ولا يَنفَعُ.

ومنهَا: قَولُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيسَ مِنَّا مَن تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ أَو سُحِرَ لَهُ**».

فيشمَلُ الحديثُ مَن يُسحر له لعَقدِ السِّحر، أو يُسحر له لفَكِّ السِّحر.

ومنها: مَا تقَدَّم أيضًا مِن قَولِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا بَأسَ بِالرُّقَىٰ مَا لَم تَكُن شِركًا**».

ولا شَكَّ أن حلَّ السحرِ بسِحرٍ مِثله من الشِّركِ.

ومنها: ما تقَدَّم أيضًا من قَولِ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَدَاوَوا عبَادَ اللهِ، وَلَا تتَدَاوَوا بمُحَرَّمٍ**».

ولا شَكَّ أن الذهابَ إلىٰ السَّحرَةِ مُحَرَّم.

ومنها: إجمَاعُ الصحَابَةِ المُتقَدِّم علىٰ قَتل الساحر، من غير تفصيل، وقَد ذكرنا أن سِتَّة من الصَّحابة صَرَّحُوا بقتل الساحر، ولا يُعلَمُ لَهُم مُخالفٌ؛ فكان هذا إجمَاعًا مِنهُم.

كمَا يَدُل لحُرمةِ حَل السِّحر بسِحرٍ مِثله: أنَّ في هذا ذريعةً للسَّحرة ليَدَّعي السَّاحر أنه إنما ينفع الناسَ ولا يَضُرُّهم!، وأنه يُطلق سَرَاحَهم من السِّحر من أجل مَنفَعتهم، والإحسَانِ إليهم!

كمَا يَدُل علىٰ حُرمَة هذا: أن مَن ذهبَ إلىٰ الساحرِ فانتفَعَ بشَيءٍ ممَّا فعَل في الظاهر؛ سيتعَلَّق قَلبُه به؛ فاليومَ ذَهب ليَحُل السحرَ عنه، وغَدًا يَذهبُ ويقُول: أنا

عندي مُشكلَة في الرزق، فاصنع لي حِجابًا ليزيد رزقي، أو نحو ذلك!

ولا شك أنَّ هذا ذريعَةٌ ليتعَلَّقَ القَلبُ بالساحر، ولا شكَّ أن الشرعَ جاءَ بمَنعِ هذه الذريعَة قَطعًا.

وأمَّا قولُ مَن قالَ بحَل السِّحر عن المَسحُور بسِحرٍ مِثله: إنَّ هذِه المَسألة خِلافيَّة:

فإنا نَقُول: أما السلف فلم يَختَلفوا في هذه المَسألة، ومَن نسَبَ إلىٰ أحدٍ من السلف أنه قَال بحَل السِّحر بسحر مثله؛ فقد أسَاء واعتَدىٰ؛ فإنه لا يُوجدُ كَلمَة واحدةٌ عن السلف فيها حَلُّ السحر بسِحر مِثله، وإنما فيها النشرَةُ التي تنفعُ.

وإنما وقعَ الخلاف من بعضِ المتأخرين من الفقَهَاء؛ والخلافُ من بعض المتأخرين من الفقهاء لا قيمَةَ له.

ولو سَلَّمنا جدلًا بوجُود الخلافِ فإن الخلافَ يُحتَج لهُ ولا يُحتَج به، فنُرجعُ الخِلافَ إلىٰ الأدلَّة، والأدلةُ ليس فيها حرفٌ واحدٌ يَدُل علىٰ جواز حَلِّ السحر بسِحرٍ مِثلِه.

وأمَّا قَولُ بعضٍ من أجازَ هذه الصُّورَة: أن هذا من الضَّرورَة، والضَّرورَات تُبيح المَحظُورات!

قُلنا: إن حِلَّ المُحرَّم بالضَّرورَة له شُروطٌ لا تُوجد هُنا:

منهَا: ألَّا يكونَ المُحَرَّم أعظَم ضَررًا مِن الضَّرُورَة:

والفُقهاء عندما ذَكَروا هذا الشرطَ مَثَّلوا له بمثالٍ قد لا يكُونُ وَاقعًا، لكن

لتَقريبِ الحال؛ قالوا: كما لو وجَدَ المُضطرُّ الذي يكادُ أن يهلكَ من الجُوعِ جثَّة نَبي، فإنه لا يَجُوز له أن يأكُلَ منها؛ لأن الأكلَ من جُثَّة النبي أعظمُ من هلاكه. وهذا بالطبع شَيءٌ غير واقع؛ لكنَّه لتقريب الحَالِ.

لَكن أقُول: لو أن الإنسانَ أُكرِه علىٰ قَتل مُسلم، وإلا قُتِلَ!، فالآن هو في ضَرورَة: إذا لم يَقتُل سَيُقتَل.

هنا أجمَع العُلماء علىٰ أنه لا يَجُوز له أن يَقتُل هذا المسلم؛ لأن قَتلَه له أعظمُ ضَررًا من أن يُقتَل هذا المُكرَه؛ لأنه إن قَتَلَ المسلمَ فقَد قَتله وكانَ ظَالمًا له، وإن قُتِلَ هو فقَد قُتِلَ مظلُومًا.

ولا شَكَّ أن الذهَابَ إلىٰ السَّحرة، وطَلب حَلِّ السِّحر منهم، وتَصديقهم فيما يَقُولون؛ أعظَمُ ضَررًا من الابتلاءِ بالسِّحرِ نَفسِه.

فلو أن الإنسَان بَقِي مَسحورًا إلىٰ أن يَمُوت؛ لكان ذَلكَ خَيرًا له مِن أن يَذهَبَ إلىٰ سَاحرٍ ليَحُلَّ السِّحرَ عنه؛ لأن الذَّهاب إلىٰ السَّاحر علىٰ هذه الصُّورةِ كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُوجد في الدنيا ضَررٌ أعظَم من ضَرَر الكفر والشِّرك.

ومنهَا: ألا تَكُون المَنفعَةُ بالضَّرورةِ مَوهومَة، أو مُحتمَلَة:

ولا شكَّ أن الانتفَاعَ من السَّاحرِ مَوهُوم؛ لأن الله نفَىٰ النفع عنهُم، أو مُحتَمل فلا يَجُوز.

ومنها: ألَّا يُوجَد مَا يُغنِي عَن ارتكَابِ المُحرَّم:

وبحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُوجَدُ ما يُغني عن ارتكاب المُحرَّم من الرُّقىٰ مَع

الصَّبر، والأدوية الشرعية، أو الأدوية المُبَاحَة.

ثم قَال ابنُ القيم: (وَالثَّانِي: النُّشرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالدَّعَوَاتِ وَالأَدوِيَةِ المُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ):

النشرَةُ بالرُّقيَة: والرقيَة تكونُ من الكتابِ والسُّنة الصَّحيحَة.

والتعَوذَات: سواء وَرَدت في السُّنة أو لَم تَرِد؛ إذا كانَ التعَوذ صَحيحًا، فهذَا من الدوَاءِ، ومن الرُّقيَة.

والدَّعوَات: ويُشتَرط في الدعَاءِ ألَّا يتَضَمَّن مُحرمًا، ولا يشترط فيه أن يَكُونَ مأثورًا، ولكِنَّ المَأثُور أنفَع.

فيجُوز لكَ وأنتَ تَرقي مريضًا أن تقرَأ عليه الآيَات، وأن تقرأ عليه مَا وَرَد في السنَّة من الأدعيَة، وأن تُعَوِّذه بما شِئتَ ممَّا لم يَكُن حرامًا، وأن تدعُوَ له بما شئتَ ما لم يكن حَرامًا، وقد تقدَّم بيانُ أن الرقىٰ جائزة ونافعَة، ما لم تكن شِركًا.

والأدوية النَّبويَّة: وهي الأدويَةُ التي جاءَت في سُنَّة النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن فيهَا شفاءً من الأمراض بإذنِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومنها:

١- **الاستشفَاءُ بمَاء زمزم**: فماء زمزم شفاء سُقم، وهذا يشمَلُ جميع الأسقام، بما فيها السِّحر.

٢- **وَالتَّصبُّح بسَبع تمَرات عَجوَة**: والكمَال فيها أن تكُونَ من عالية المدينة، ثم مما بين حَرَّتي المَدينة -يَعني: في حُدود الحَرَم-، ثم من المَدينة مُطلقًا -ولو في خَارج حُدود الحَرَم-، ثم من العَجوة، ثم من التَّمر أي مَكَان ومن أي بَلَد.

٣- والحَبَّة السَّوداء: وقد قالَ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَبَّةُ السَّوداءُ شِفَاءٌ مِن كُلِّ دَاءٍ إلَّا السَّامَ -أي: المَوت-**»[1].

ولم يُحدِّد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف يُستَشفَىٰ بها، فيدخُل في ذلك كلُّ ما يَعرفُه الناسُ من طُرقٍ للتداوي بالحَبَّة السَّوداء.

ومنها: أن يَأخُذَ سَبعَ حَبَّات سَودَاء، ويَضعَهَا في فِيهِ، ويُغلق فَاهُ ويَطحَنَها طحنًا، وهذه أحسن طَريقَةٍ للتَّداوي بالحبة السَّوداء كما قالَ المُختَصُّون؛ لأن هذا هو المِقدارُ النَّافع منها.

قالوا: لأن أنفَعَ ما فيها هو الزَّيت الطيَّارُ الذي يَحصُل أثناء الطَّحن؛ فإذا أغلَقَ فَمَه فإنه يدخلُ إلىٰ داخل الجَسَد، وهذه هي أنفَعُ الطرقِ في التَّداوي بالحبة السوداء.

وبعضُ العلماء قال: يأخذ خَمسَ حَبَّات ويَطحَنُها ويستنشقها في أنفه، أو يطحَنُها ويضَعُ مَعها زَيتًا ويستنشقها، أو يخرج زَيتَها ويدَّهن به، أو يشرب منه؛ فالحبة السودَاءُ شِفاء، وكُل مَا عَرفَ النَاسُ من طُرقِ الانتفَاعِ بها يدخُلُ في الحَديثِ؛ لإطلاقِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه كلها نُسَمِّيها الأدوية النبويَّة.

وَالأدويَة المُبَاحة: يَعني: الأدويةَ بالأسبَابِ الحِسِّية الظاهِرَة التي عُلِمَ بالتجربَةِ أنها تَنفعُ، ولا مَحظورَ فيهَا، فهذه أيضًا يُحَل بِها السحرُ، وإن جُمِعَت

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

معها الرقيَةُ فهذا أنفعُ وأقوىٰ.

فكُلُّ دواءٍ مُبَاح دَلَّت عليه التَّجربة، مع الأدوية النبويَّة، ومَع الرقىٰ، ومَع تَعليق القلبِ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ بالله عَزَّوَجَلَّ، فمَن فعلَ ذلك فإنَّه حَقيقٌ بأن يُرفعَ عنه هذا البَلاء بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا يُقَيَّد ذلك بعدَدٍ مُعَين، وإنما يَفعَلُه الإنسانُ حتىٰ يُذهِبَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما فيه إن كانَ مُبتَلًىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسأَلَتَانِ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَنِ النُّشرَةِ.

والمقصُود: النهي مُطلقًا، فيكونُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرىٰ أن الأصلَ في النُّشرَةِ أنها حَرَام، إلا ما دَلَّ الدليلُ علىٰ جَوَازه، أو أجمَعَ العلماء علىٰ جَوَازه.

الثَّانِيَةُ: الفَرقُ بَينَ المَنهِيِّ عَنهُ وَالمُرَخَّصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الإِشكَالَ.

الفرقُ بين المنهي عنه الذي هو الأصل، والمُرخَّص فيه الذي دلَّ الدليلُ علىٰ جَوازِه، أو أجمَعَ العلماءُ علىٰ جوازِهِ ممَّا يُزيل الإشكَال، ويَدفَع الاضطراب، ويَدفع الأوهَام، ويَدفعُ الخَطأ الذي وقع فيه بعضُ الناس في كلامِهِم عن حَلِّ السِّحر.

***

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ.

الشرح

عَقَدَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب في التطير؛ لأنه يقَعُ من كثير ممَّن ينتسبونَ إلىٰ الإسلام؛ فنَاسَب بيانُ حُكمه وما يتعلق به، ومن جهَةٍ أخرىٰ أنه تقَدَّم في باب بيَانِ شيءٍ من أنواع السِّحر، فالتطيُّر من الجِبت؛ أي: من السِّحر، فنَاسب أن يَعقدَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا البابَ بعدَ بابِ ما جاءَ في السِّحر وما يتعَلَّقُ به.

وسميت الطِّيرة بهذا الاسم؛ لأن أصل التشاؤم يكون بالطيور، والتشَاؤُم أوسَعُ من التطيُّر.

فقد ذكَرَ العلماءُ أن أصل التشَاؤم هو التشَاؤم بالطيور أو بأنوَاعٍ منها، كالتشاؤم بالغُرَاب والعقاب، فكانُوا إذا رأوا غرابًا؛ قالوا: مُصيبَة قادمة! وإذا رَأوا عقَابًا؛ قالوا: عقوبة قادِمَة!

وكذلك التشَاؤم بالبُومة؛ فكانوا إذا رأوا بومَةً واقعَة علىٰ بيت رجُل؛ قالوا: سيَموتُ فيه ميتٌ اليوم.

أو التشاؤم بألوانِهَا، فيتشَاءمُون بالغُراب، أو التشَاؤم بحركاتها!

فلما كان أصلُ التشَاؤم بالطُّيور سُمِّي التشاؤُم طِيرَة.

والتَّطَيُّر: هو التشَاؤم. **والتشَاؤُم**: هو توقُّع حُصُول الشَّر برُؤية مخلوقٍ أو

حرَكتِه، ممَّا يمنَعُ العبدَ ممَّا أرَاده.

برؤية مَخلُوق: كمن يخرُج مِن بيته فيرىٰ قطًّا أسود، أو بُومَة، أو غُرابًا؛ فيرجعُ إلىٰ البَيتِ.

أو يَخرُج من بيته فيَقعُ له حَادث؛ فيقول: أنَا تَصَبَّحتُ بوَجه مَن اليَوم؟!

أو حَركته: كمَن إذا خرج من البيتِ فرَأىٰ طائرًا يَطيرُ في جهة الشمَال؛ فيقول: خُرُوج مَشئُوم، ويرجِعُ إلىٰ البَيت.

والطِّيرَة لا تكون طِيرَةً إلا إذا منَعَت العبدَ ورَجع عَمَّا يُريد.

والتطَيُّر أمر قَديم في الأمم، وقد وجِدَ في الأمَم السابقة قبلَ الإسلام:

فأصحَابُ القرية التي جاءها المُرسَلون زعموا أنهم يتطَيَّرون بهؤلاء الرسل، فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ [يس:١٨].

وأصحَابُ مُوسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مِن كفَرة فِرعَون وقومه تَطيَّروا بمُوسىٰ ومن معه: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف:١٣٢].

وقوم صَالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تطيَّروا بصَالح ومَن مَعَه.

وقُريشٌ تَطيَّروا بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومَن مَعَه.

فالتطيُّر داءٌ قَديم، وفيه شَرٌّ عظيم.

والمُتَطير إن كانَ يَعتقدُ أن الذي يتَطيَّر منه يؤثر بذاتِه بدُونِ أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ومَشيئَته؛ **فهذا شِرك أكبَر**.

وإن كان يَعتقد أن الذي يتطيَّر به سَببٌ لحُصول الشَّر؛ **فهذا شِركٌ أصغر.**

وإذا كان الأمر يَحصُل في القلب من انقِبَاض ونحوه لا عَن اعتقاد؛ فهذا إن دفَعَهُ الإنسَانُ ولم يُؤثِّر في عمَلِه فهذا مَعفُو عنه، وهَذا قد أذهبَهُ الله عنه بالتَّوكُّل من جهة أثرِهِ في قلبه، وسيأتي دَليلُ هذا -إن شاء الله-.

والتطَيُّر تَضيقُ به الدنيَا، والمُتَطير تضيق دُنياه؛ فلا يكادُ يَفعلُ شيئًا إلا بضِيقٍ وعَنَت، لأنَّ التطيُّر كالجَرَب، يكبر ويكثر ويُعدِي أيضًا مَن حَوله في الحياة.

وهو سببٌ للحِرمان في الآخرة من الدرجَاتِ العُلا.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَن يَنَالَ الدَّرَجَاتِ العُلَا مَن تَكَهَّنَ أَو استَقسَمَ، أَو رَجَعَ مِن سَفرٍ تَطيُّرًا»**. روَاهُ الطبراني، وحَسَّنه لغيرِه الألبَانِيُّ[1].

كمَا أن التطيُّر فيه سُوءُ ظَنٍّ بالله عَزَّ وَجَلَّ، والله عند ظَن عَبدِه به، يُعامِلُ عبدَهُ بحَسَب ظَنِّه به، والمُتَطير يَظنُّ بالله السوءَ؛ فيُعَامله الله عَزَّ وَجَلَّ بذلك، وقد يُعَاقب باعتقادِه فيَحصُل له السُّوء بقَدَرِ الله، بسَبب تَطيُّره، فيكونُ طَائِرُه معه، يعني: أن الذي يَخافُ مِنهُ قَد يَقعُ له بتقدير الله؛ عُقوبَةً علىٰ هذا الذَّنب!

فالتَّطيُّر شَرٌّ كُله؛ ولذلك عقَدَ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب نُصحًا للأمَّة.

❀❀❀

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٠٤)، وحسَّنه لغَيرِه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٩٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

الشرح

وهذه الآيَةُ في حَقِّ فرعونَ وقَومِهِ الذين كانوا إذا أصابَتهم حسَنةٌ قالوا: هذه لنا إنما جَاءَتنا لاستحقَاقِنا لها، فنحنُ أهلٌ لها، وهذه سَوءَة؛ فإن الحسَنَة من فضلِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإن أصَابَتهم سَيئةٌ؛ مِن جَدبٍ أو قَحط أو مُصيبَة من مَصَائب الدنيا، قالوا: هذه بِشُؤم موسىٰ وقَومه، فما جَاءنَا الشرُّ إلا عندما عَرفنَاهم، فكان الجوابُ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنَّ الأمر كُله من خَيرٍ أو شَر إنمَا هُو بتقدِيرِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فما أَصَابَهُم من خَيرٍ وحسَنَة فبِفَضل الله، وما أَصَابَهُم من سَيئة فَبِإذنِ الله بمَا كسَبت أيديهم، وبسَبب ذنُوبِهم، فبَليَّتُهم جاءتهم بذُنُوبهم، وجاءتهم مِن كُفرِهِم، وهي بإذن الله القَدَرِي.

هذا أصحُّ أقوالِ أهل العِلم في تفسِيرِ هذه الآية.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: معنىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن عِلمَ ما يَئُول إليه الأمرُ عند اللهِ لا بِعلمٍ من طَائر ولا غيره فيُتشاءم منه، فعندمَا يرىٰ المتشائِمُ الطائر يَذهبُ شِمالًا فيتشاءَم منه، فيقول: سَفرة مَشئُومة؛ فإنه لا عِلمَ عند الطائرِ، وإنمَا علمُ الغَيب عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فلا حقيقةَ للطيَرَة؛ لأن كل مَخلُوق لا يعلَمُ ما أمامه من خير أو شر، فالطيرَةُ

وهمٌ لا حقيقَةَ لها.

وهذا أيضًا معنًى وَجيه، والمعنيان لا يتنافيان.

والشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما ذكرَ هذه الآيةَ لأمرَين:

الأمر الأول: بيان أن الطِّيرَة لا حقيقَة لها، وهي وَهمٌ، وإنه لا يَعرفُ حَقيقَة الإنسان في قابلِ وَقته إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لا العقل يُدرك، ولا المَخلوقاتُ تُدرك ما يقع في المستقبل، فالطيَرةُ لا حقيقة لها.

والأمرُ الثَّاني: بيانُ أن الطِّيرة من أخلاقِ المُشرِكين أعداءِ الأنبيَاءِ والرسُل، ولم تقع من المُؤمنين، وفي هذا تَحذيرٌ من الطِّيَرة.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ: ﴿ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾ الآيَةَ [يس:١٩].

الشرح

هذا في قصَّة القَريَة التي جاءَهَا المُرسَلُون، وقال أهلُ القريةِ الكَفَرةُ لأولئكَ المُرسلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ ﴾ [يس:١٨].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿ قَالُواْ ﴾): أي: الرسُل، بِوَحي من الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ ﴾): **قالَ بعضُ أهلِ العِلم**: معنَاها: ما قَدَّره الله لكم من خَير أو شَر في أعناقِكُم؛ أي: أنه مَكتُوب عليكم منذ الولادَةِ، وهو مَكتُوبٌ في اللوح المَحفُوظ قبلَ خَلقِ المَخلُوقات، لكنَّ المقصُودَ هنا أنه مكتوب عليكم منذ الولادة، فَهُو في أعناقكم.

وقد قَال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...**»[١].

فالإنسانُ إذا اكتمَلَت خِلقَتُه في بطن أمِّه، وأراد الله أن تُنفَخ فيه الرُّوح، بَعثَ له مَلَكًا، وأمرَه أن يكتُبَ أربَع كلماتٍ؛ أن يكتُب عمَله، وأن يكتُب رِزقَه، وأن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يكتُبَ أجَلَه، وأن يَكتُبَ هل هُو شَقيٌّ أو سَعيد.

فمَا يُصيبُ الإنسانَ من خيرٍ أو شرٍّ مَكتوبٌ، وهو في عنُقِه.

وقالَ بَعضُ أهل العلم: إن معنَىٰ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾؛ أي: أن سبَبَ مَا يُصيبُكُم من شَرٍّ من أنفُسِكُم؛ وذلك لأن التطَيُّر إنمَا هو في الشَّر، فيقولُ الله عَزَّوَجَلَّ لهم: إن مَا يُصيبكم من شر ليس بسَببِ الطيُور، ولا بسبَبِ ما تتشَاءَمُون به، وإنمَا بمَا كسَبَت أيدِيكُم، وبسَبب سَيِّئاتكم، فإذا أرَدتُم السلامَةَ فتخَلَّصوا من السيئاتِ، وأعظَمُ السيئات: الشِّركُ بالله، وهذا أيضًا معنًىٰ صَحيح، وكلا المَعنَيين تَحمِلُه الآية، ولا تدَافُعَ بَينهما.

والمرادُ أيضًا من ذِكرِ هذه الآية هو المُرادُ من ذِكرِ الآية السَّابقة في بيَان أن الطِّيرةَ لا حقيقَةَ لهَا؛ بل هي سببٌ مَوهُوم، وبيان أن الطيَرةَ إنمَا هي من صفَاتِ أعداءِ الأنبياء والمُرسَلِين، فهي من صفَاتِ الكفَّار، وليست من صفَاتِ المُؤمِنين.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا عَدوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ» أَخرَجَاهُ.

زَادَ مُسلِمٌ: «وَلَا نَوءَ، وَلَا غُولَ».

الشرح

(**أَخرَجَاهُ**): أي: رواه البخاريُّ[1]، ومسلم[2].

قولُه: (**لَا عَدوَىٰ**): و(العَدوىٰ): هي انتقال المَرض من المَريض إلىٰ الصَّحِيح.

وقد اختلَفَ العُلماء في المُراد بهذا النَّفي: هل المراد نَفي العدوىٰ حقيقة، فلا تُوجَد عدوىٰ أصلًا، أو أن المُراد نَفي تأثير العَدوىٰ بذاتها؟

والصَّحيح الثاني؛ لأنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا قال: «لَا عدوىٰ».

وفي آخر الحَديثِ نَفسِه قال: «**وفِرَّ مِنَ المَجذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ**». وهذا عند البُخَاري في «الصَّحِيح»[3].

وأيضًا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ علىٰ مُصِحٍّ**». أخرجَاه في

(١) برقم (٥٧٥٧).

(٢) برقم (٢٢٢٠).

(٣) ليس في الرِّواية المَوصُولة، وإنما في كتاب الطِّب، باب الجذام، مُعَلقًا، عَقِب الحديث (٥٧٠٧).

«الصَّحِيحَين»[١].

ومَعنَىٰ ذَلك: لا يُورد صاحبُ الإبل المريضة إبلَه علىٰ إبلٍ صَحيحَة.

وجاء أيضًا عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ فِي وَفْدِ ثَقِيفٍ رَجُلٌ مَجْذُومٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَارْجِعْ**». رواه مسلم في «الصَّحِيح»[٢].

يَعني: أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُبايعه مُباشرة؛ بل أرسلَ إليه بقَولِه: «**إِنَّا قَد بَايَعنَاكَ فَارجِع**».

وجَاء أنه لما قَال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَدْوَىٰ وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ**. فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأْتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: **فَمَنْ أَعْدَىٰ الأَوَّلَ؟**». مُتَّفقٌ عليه[٣].

إذن؛ عندنا نصُوصٌ تَنفي العَدوىٰ، ونُصوص فيها انتقَالُ المرض، وفِعلُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فمَاذا نفعل؟!

من العُلماء من ادَّعىٰ النسخ، ومنهم من ادَّعىٰ الترجيح، ومنهم من ادَّعَىٰ الجَمع.

والقَاعدَةُ: أن الجَمعَ مُقدَّم علىٰ النَّسخ والترجيح، فالصَّحيح هو الجمع.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) برقم (٢٢٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهنا الصَّحيحُ من أقوال أهلِ العلم هو ما قَدَّمناه؛ من أن قَولَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَدوىٰ**»؛ أي: أنها لا تُؤثِّر بذَاتها، وإنما تَأثيرُها بإذن الله القَدَري، فإن شاءَ أجرَىٰ ذلك، وإن شاء منَعَ ذلك.

فقد تجد شخصًا يُخالطُ مريضًا فلا ينتقلُ إليه المَرضُ، وتجد آخر يُخَالط مريضًا فينتقل إليه المَرض، فالأمر بإذن الله عَزَّوَجَلَّ القَدَري.

فالذي نُفِي إنما هو اعتقاد أهل الجَاهليَّة؛ أن المَرضَ يُؤثِّر بذَاته، ويَنتقلُ بذَاته، أمَّا اتخاذُ الأسباب لمَنعِ هذا السببِ فهَذا مَشرُوع؛ كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجلِ مِن وفد ثَقيف -وقد كان مَجذُومًا-: «**ارْجع فَقَد بَايَعنَاكَ**».

وهذا الذي لابد منه، فإن الوَاقعَ يَشهدُ أن من الأمراضِ ما يَنتقلُ من المَريض إلىٰ من يُخالِطُه، ومن الأمراض ما لا يَنتقل، ولا يُمكن أن تأتي الشَّريعة بما يُخَالف الواقع والحِسَّ، وهذا أمر بَيِّنٌ من النصوص.

وخُلاصة المَسألة: أنه لا عَدوىٰ تَحصُل بذَاتها أو تُؤثِّر بذَاتها، وإنمَا العَدوَىٰ سببٌ من الأسباب فتقَعُ بإذنِ الله القَدَري، وهذا مَوجُود وحاصل.

قال: (وَلَا طِيَرَةَ): والمَقصُود: أن الطيرة ليسَت سَببًا لحُصول الشَّر، كما تقدم بيانه، وسَيأتي -إن شاء الله- في آخر الباب: هل هُناك تشاؤمٌ مُستَثنىٰ وهو موجود أو لا؟

(وَلَا هَامَةَ): الهَامَة: بالفَتح، عند أكثر العلماء، وهذا هو الصواب.

وقَد اختلفَ عُلماؤنا في تَفسير (الهَامَة):

فقال بعضُ أهلِ العِلم: هي ما كانَت تعتقدُه العربُ؛ من أن القَتيلَ إذا قُتلَ

ولم يُؤخَذ بثأره: أن دُودَةً تخرُجُ من رأسِه، وتَدُور عند قَبْرِه، وتقُول: اسقوني، اسقوني -أي: من دَم قاتِلِ هذا القَتيل-.

وقيلَ: إن اليَهودَ كانت تَقُول: إنَّها تدُورُ حولَ قَبره سبعَةَ أيَّام.

فنفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للهامَة يَعني: أنه لا تُوجد هذه الدودَةُ التي تَزعُم العربُ أنها تكونُ مَوجُودة.

وقالَ بعضُ أهلِ العِلم: إن العَربَ كانَت تَقُول: إن القَتيل إذا قُتل ولم يُؤخَذ بثأرِه تَنقَلبُ عظامُه طائرًا يُقال له: الصَّدىٰ.

وقيلَ: إن رُوحَهُ تُصبحُ طَائرًا يطير في الحيِّ.

فنَفَىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك أيضًا، وبيَّن أن هذا ليسَ حَقيقَةً، ولا وجودَ له.

وقالَ بعضُ أهل العلم: إن الهامَة هي طائرُ البُومة المَعرُوف، وقد كانوا يتشاءَمُون به، فإذا وقع علىٰ البَيت قَالُوا: يمُوت مَيت، أو تَنزل مُصيبَة.

وبعضُ العرب عدَّىٰ ذلك حتىٰ أصبحَ يتشَاءَم من كل ذِي عَين واسعة، حتىٰ الإنسَان؛ فلو جاءَه إنسانٌ وكانت عيناه واسعتَيْن فإنه يتشَاءَم منه كالبُومة!

فنَفىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك أيضًا بما يعني أنه (لَا شُؤم في البُومَة)؛ فيعود هذا إلىٰ الطِّيرَة؛ فهذا نَوعٌ من أنواع الطيرَة؛ فيكونُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّم فقال: «وَلَا طِيرَة» -يَعني: لا شُؤم في شَيء-، «وَلَا هَامَةَ» -يعني: لا شُؤمَ في البُومة-. ويَكونُ ذلكَ لتأكيدِ نَفي التشَاؤم، ولا سيَّمَا من طائر البُوم.

(وَلَا صَفَرَ): قيل: إن (صَفَر) هو شهر صَفَر المعروف.

قَالَ بعضُ أهلِ العلم: «**لَا صَفَر**» يعني: لا شُؤم في شَهرِ صَفر؛ لأن العَربَ كانت تتشَاءَم بشَهر صفر، فإذا دخل شهرُ صَفَر لم يَعقِدُوا عقدًا، ولم يُسَافِرُوا سَفرًا، ويَقُولون: إنه شُؤم!

وكان بعضُ المُسلمين إلىٰ قريبٍ يَعتقِدُ في شهر (مُحَرم)، وليس بشهر (صَفر) الشُّؤمَ، ولا يَعقِدُون فيه عقد النكَاح، ومن الأمثلة السائرة عند العَوامِّ يَقُولون: «**ولد عاشور أقشر قاشور**».

ولد عَاشور: يعني: الذي يَكُون من عقد النكَاح في محرم. **وعَاشُور**: يعني شهر مُحَرَّم (عاشوراء).

أقشَر قَاشُور: يعني: أنه صاحِبُ شَر، وصاحب سوء.

فكَانُوا يتشاءمون بعَقدِ النكاح في مُحرَّم، وهذا من هَذا. ولا شُؤمَ في صفر ولا في غَيرِه من الشُّهُور.

وقال بعضُ أهلِ العِلم: المراد بالنفي هنا: نَفي النَّسِيء الذي كانت تَفعَلُه قُرَيش، فكانت تُقدِّم وتؤخِّر في الأشهر كما تشَاء، فتَجعلُ الأشهُرَ الحُرم في الأشهُرِ التي تُريدُ تَقديمًا وتأخيرًا، وكان أكثَرُ تَأخيرهم لشَهر صَفَر، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا صَفَر**».

والزمَانُ لم يَكُن علىٰ هيئته قبلَ بِعثَة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن العربَ كانت تعبَثُ في الأشهر، من أجل أن تقَعَ الأشهُر الحُرم في غير أوقاتها، فهم يُسَمُّونها باسمها: ذو القعدة، وذو الحِجَّة، ومُحَرم، ورجَب؛ لكنَّهم يُقَدِّمون ويُؤَخِّرون.

ثم استدارَ الزمانُ كهَيئته يوم خلقَ الله السَّموات والأرضَ في عام حجَّةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا صَفَر**»؛ أي: لا نَسيءَ بعد اليوم، ولا يزالُ الزمان علىٰ هَيئَته إلىٰ اليوم بحَمدِ الله تعَالىٰ.

وقال بعضُ أهلِ العِلم: صَفَر هو داءٌ يُصيب البَطن بِزَعم العرب، وهذا الذي نَحَا إليه البخَارِي في «الصحيح»[(١)].

فالعَربُ يقولُونَ: إن في البَطنِ دُودة يُهيِّجها الجُوع، وقد تقتُلُ صاحبَها.

ويَقُولون أيضًا: إنها مُعديَة، وهي أعدَىٰ من الجَرَب -مُعديَة بذاتها-، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا صَفَر**»: يَعني: لا دودةَ في البَطن يُهيِّجها الجوعُ وتَقتُل صاحبها، ولا تُعدِي بذَاتِها.

ولا مانعَ من إرادةِ كُل هذه المَعاني؛ لأنه لا تنافي بينها، وهذا من جَوامع كَلِمِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه يجمَعُ المعاني المُتعَدِّدة في الجُملَة الوَاحِدَة.

(**زَادَ مُسلِمٌ: وَلَا نَوءَ، وَلَا غُولَ**): فزَاد (النَّوء)، ومعناه: أن المَطرَ لا يكونُ بالأنواء، وأنه لا يُنسَب إلىٰ الأنواء؛ وإنمَا المَطرُ ينزلُ بفَضلِ الله ورَحمَتِه.

ولذَا تَرىٰ السُّحُبَ تنعقد علىٰ مكانٍ حتىٰ يتهيأ أهلُه لنُزول المَطر، فينزل المطرُ في مكانٍ آخَرَ. وهذا قد شَاهدنَاه وعايَناه.

(**وَلَا غُولَ**): وهذا أيضًا زادَهُ مسلمٌ[(٢)]، ولكِن مِن حَديثِ جَابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن

---

(١) (٧/ ١٢٨ طوق النجاة).

(٢) برقم (٢٢٢٢).

رَسُولَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالَ: «**لَا عَدوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا غُولَ**».

والغُول: كانَت العرب تزعم أن هناك جِنسًا من الشياطين يُقَال لها: الغِيلان -وهي جَمع (غُول)-، تتعَرَّض للناس في الطرق، فتُضلهم وتُهلِكُهم وهي (تتَغَوَّل)؛ أي: تتَلَّون ألوانًا، وتَظهَرُ لهم بصورة جَمَل؛ فإذا ذهبُوا يَطرُدونه، تَاهُوا وهلَكُوا، أو بصُورة غزَال، أو تُسمِعُهم صوتَ الماء في الصَّحراء، فيطلبُونه فلا يَجدُون شيئًا فَيتوهُون ويَهلكُون؛ فقَالَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَلَا غُول**».

قالَ بعضُ أهل العِلم: يعني لا وجود للغِيلان، ولا حقيقَةَ لها؛ بل هذا وَهمٌ.

وقالَ بعضُ أهلِ العِلم: بل المَقصُود: نَفي ضَرَرها؛ من أنَّها تَضُر الناس وتُهلِك الناسَ بذاتها، وإلا فهي مَوجُودة، وهكَذا قال بعضُ أهل العلم، وإليه ميلُ النَّووي[1]، واستدلوا بأن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر إذا تغَوَّلَت الغِيلَانُ بِالأذَان[2]، لكن الحَديث ضَعيف، وليسَ الدليلُ يُثبِتُ هذه الغِيلان.

والشاهد عندنَا أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نفَاها، فشَرُّها مُنتَفٍ.

ولَكن؛ هل حَقيقَتُها مُنتفيَة؟

الدَّليل مُحتَمل، ولم نَجِد من الأدلة ما يُنَافِيه، والواقع اللهُ أعلَمُ به، فبعضُ الناس يَحكِي وجودَ هذا، وبعضُ كبارِ السِّن كانوا يُحَدِّثُونَنا بأنهم كانوا إذا ذَهَبُوا

---

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» (١٤/ ٢١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٧٧) من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٤٠).

بالقَوافل يَجدُون شيئًا من هذا؛ فإذَا نَزَلوا في الليلِ في مكَانٍ يَرَون عن بُعد نيرانًا وضَجيجًا، وكأنَّ القوم عندهم فَرَح، والناسُ كانُوا في جُوع، فإذا ذهَبُوا إلىٰ ذلك المكانِ أبعَد وتَاه.

وإن كانَ الغالبُ نفي وجُودها، إلا إذا وجِدَ من الواقع ما يَدُل علىٰ وجُودِها.

فإن كانَ الواقعُ صَحيحًا فتَكُون مَوجودةً حقيقة؛ لكنَّها لا تَضُر بذاتها، بدَليل قول النبي ﷺ: «**وَلَا غُول**».

فهذه الأشيَاءُ التي ذُكِرت في الحَديثِ كُلها داخِلَة في التطيُّر، والحديث يَنفِي التطَيُّر؛ لأنه ينفي هذه الأسبَابَ أنها أسبَابٌ للشَّر والضَّرر، وأن السببَ هو الذي جعَلَهُ الله سببًا، وأعلمنَا أنه سبب؛ إما بالشَّرع؛ فدَلَّت الأدلة الشرعية أنه سبب، وإما بالحِسِّ والتَّجربة؛ فدَلَّت التجربة المَحسُوسة المَعلُومة أنه سبب، وماعدا ذلك فأوهَامٌ لا حقيقة لها.

ومَن اعتقد أنها سَببٌ؛ **فقد أشركَ شركًا أصغر**.

ومن اعتقَد أنها مُؤثِّرات بذاتها وخارجَة عن إذن الله الكوني وقَدَره؛ **فهذا شِركٌ أكبَر**.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا عَدوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعجِبُنِي الفَأْلُ»، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

الشرح

(**وَلَهُمَا**): أي: للشَّيخَين: البُخَاري[١] ومُسلِم[٢].

(**عَن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا عَدوَىٰ وَلَا طِيَرَة**): وقَد تَقَدَّم معناهُما في الحديث السَّابق.

قال: (**وَيُعجِبُنِي الفَأْلُ**): وفي رواية عند مُسلِم[٣] قَالَ: «**وَأُحِبُّ الفَأْلَ الصَّالِحَ**».

وجاء عند البُخَاري[٤] ومسلم[٥]: «**قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسمَعُهَا أَحَدُكُم**».

وفي روايَةٍ عند مُسلِم[٦] قالَ: «**الكَلِمَةُ الحَسَنَةُ، الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**».

إِذَن؛ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُحِبُّ الفأل، وكانَ يُعجِبه الفأل.

---

(١) برقم (٥٧٧٦).

(٢) برقم (٢٢٢٤).

(٣) برقم (٢٢٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) برقم (٥٧٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) برقم (٢٢٢٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) برقم (٢٢٢٤).

وقد فَسَّر الفألَ بأنَّه: (**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**): الكَلمة الطيبَة أو الكَلِمَة الصَّالحة أو الكَلِمَة الحَسَنة يَسمَعُها الإنسان، فالكَلمَة الطيبة إذا سَمِعها الإنسانُ فإنها تُدخِل السرورَ علىٰ قَلبه، ويَقوَىٰ في نَفسِه حُسنُ ظنِّه بالله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الفأل، ويعجبه الفألَ؛ لأن الفألَ مُوافِقٌ لطَبع الإنسان، فالإنسَانُ بطَبعه إذا سمِعَ ما يَسُر من كلمة طيبة أو نَحوها، فإنه يُسَر بذَلك، ويتفاءَل، وهي لا تُخَالفُ الشَّريعة، بل تُؤكِّد ما جاء في الشَّرع من حُسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمَل الفأل، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع «يا راشد، يا نجيح»: ففي الحَدِيثِ عَن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُعجِبُهُ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَةٍ أَن يَسمَعَ: يَا رَاشِدُ، يَا نَجِيحُ». رواه الترمذيُّ، وقال: حسَن صَحيح، وصححه الألباني[١].

يا نَجيح: يعني: يا ناجِح المقصد.

فهذه كَلمَة طيبة يُعجبُه أن يسمَعَها وهو خَارجٌ لحَاجته؛ فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعجِبُه هذا الفَأل.

وقَد حُكِيَ عَنِ الأَصمَعِيِّ أَنَّه قَالَ: سَأَلت ابنَ عَونٍ عَنِ الفَألِ؟ قَالَ: «هوَ أَن يَكونَ مَرِيضًا، فَيسمَع: يَا سَالِم، أَو يَكون طَالِبًا، فَيسمَع: يَا وَاجِد»[٢].

❀❀❀

(١) أخرجه الترمذي (١٦١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ١٧٦).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ، قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِندَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَحسَنُهَا الفَألُ، وَلَا تَرُدُّ مُسلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُم مَا يَكرَهُ فَليَقُل: اللهُمَّ لَا يَأتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلَا يَدفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

الشرح

قَالَ: (**وَلأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ**): هكذا في جميع نسخ كتاب التوحيد (**عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ**)، والحديث كذلك عند ابن السُّني في «عمَل اليَومِ واللَّيلَة»[١].

وأما عند أبي داود في «السنن»[٢]: (عُروَة بن عَامِر) وليسَ (عُقبَة).

والحديثُ سكَتَ عنه أبو داودَ، وقد ذكرَ أبو دَاود في «رسالته إلىٰ أهل مكة»[٣] أن ما سَكَت عنه فهو صَالحٌ.

وصحَّحه النووي[٤]، وأعلَّه كثيرٌ من العُلمَاء بالإرسال؛ لأن الذي عليه الجُمهُور أن (عُروَة بن عَامِر) تابعي وليس من الصحابة؛ فهو مُرسَل، وضَعَّفه

---

(١) برقم (٢٣٩/ دار القبلة).

(٢) برقم (٣٩١٩).

(٣) (ص٢٧/ دار العربية).

(٤) في «رياض الصالحين» (ص٤٧٠/ الرسالة).

الألباني[١].

قَالَ: (ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَحسَنُهَا الفَألُ): أي: أن الحَسَن: هو الفأل، أمَّا الطِّيَرَةُ، فلا طِيَرة.

والفأْلُ هنا يُقَابل الطيرة؛ لأن الطِّيَرة -كما قُلنا-: هي تَوقُّع الشَّر برُؤيَة مَخلوقٍ أو حَركَتِه.

أمَّا الفأل: فهو تَوقُّع الخَير بسَمَاع الكلمة الطَّيبَة.

ويَجتمعان في التوقع، لَكِن الطيرة في توقُّع الشَّر، والفألُ هنا في توقُّع الخَير.

وإن كانَ العُلماء يقولونَ في أصلِ الفَأل: إنه يقَعُ في الشَّر والخَير؛ لكن المُراد هنا هو تَوقُّع الخَير.

قَالَ: (وَلَا تَرُدُّ مُسلِمًا): وهذا يدُلُّ علىٰ أن الطِّيَرة المَذمُومة التي يُذَم فاعلُهَا إذا كانت تَرُد الإنسانَ عن حاجتِهِ، أما مُجَرد أنه رأىٰ شيئًا يَكرهُه يَقَع في نَفسه كراهتُه والخوفُ من الشَّر، ولكنَّه لا يَردُّه ذلك عن حاجَتِه؛ بل يدفَعُ ذلك بالتوكُّل علىٰ الله؛ فهذا لا يُذَم به الإنسَان.

فمَثلًا: لو أن إنسَانًا خرَجَ من بَيتِه، فلمَّا فتح بابَ بيتِه فإذا بِقِطٍّ أعوَر عند الباب، فلمَّا رآه كرِه ما رَأىٰ، وتوقَّع حصُولَ الشَّر، فرَجَعَ وأغلَقَ الباب ولم يَخرُج؛ فهذَا تطيُّر، وهذا مَذمُوم!

---

(١) في «السلسلة الضعيفة» (١٦١٩).

وإن اعتقَد أن هذا بعَينِه يَضُر؛ فهَذا شِركٌ أكبَر، وإن اعتقَدَ أن هذا سببًا للضُّر فهذا شِركٌ أصغَر.

وآخرُ فتَحَ بابَ بَيتِه يُريد أن يخرج لحَاجَته فرأىٰ قطًّا أعور، فكَرِهَ ذلك المنظَرَ وخَافَ من الشَّر، لكنَّه توكَّل علىٰ الله ومَضَىٰ؛ فهذا لا يُذَم، ولذلك ذَكرنا في تعريفِ التطيُّر: أنَّه ممَّا يَرُد الإنسَانَ عن حَاجَتِه.

أما مُجَرَّد الكراهَةِ وخَوفِ الشر مِن غير أن يتَرتَّب علىٰ ذلك أن يَرُد ذلك الإنسانَ عن حاجَتِه؛ فهَذا ليس ممَّا يُذَم به الإنسَان.

(فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُم مَا يَكرَهُ): إذا رَأىٰ شيئًا يَكرَهُه.

(فَليَقُلِ: اللهُمَّ لَا يَأتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلَا يَدفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنتَ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ): وفي هذا تمَامُ التوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الأمرَ كلَّه بِيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ»، «وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِن قَولِ ابنِ مَسعُودٍ.

الشرح

قال: (**وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ**): وقَد تقَدَّم بيانُ: أن الطيرَةَ كُلها شِركٌ؛ فإن اعتقد أن هَذه الأشيَاءَ تَضُر بأنفُسِها؛ فهذا شركٌ أكبر، وإن اعتقَدَ أنها سببٌ للضَّررِ؛ فهَذا شِركٌ أصغَر.

(**وَمَا مِنَّا إِلَّا**): هكَذا مُعَلَّقًا؛ ومعناه: ما مِنَّا إلا مَن يقَعُ في قلبه كراهَة رُؤية المَكرُوه، والخوف من الشَّر برُؤيته، فمَا منَّا نَحن البَشَر أحدٌ إلا ويقَعُ في قلبه كراهة المَكرُوهات إذا رآهَا، والخَوف من الشَّر عند رُؤيَتها، وذلك لعَجزِ الإنسانِ وضَعفِه وبحُكم العَادَة.

(**وَلَكِنَّ اللهَ يُذهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**): وهَذا هو الفَرقُ بينَ المُؤمنِ وضَعيفِ الإيمَان، أو عَديم الإيمَان:

- أنَّ المؤمِنَ يتوكَّلُ علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويَمضِي ولا يَرُده ذلك عمَّا يُريد، فإذا كان يريد السَّفرَ فرأىٰ شيئًا يَكرَهُه فإنه يَمضِي مُتوكلًا علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

- أمَّا عَديمُ الإيمانِ؛ فإنه إذا رَأىٰ ذلك لا يَمضِي بل يَرجعُ ولا يفعَل ما يُريد، وهو يَعتقِدُ أن هذا سيَضُرُّه بنَفسِه.

- وأمَّا ضعيفُ الإيمَان فإنه كذَلك لا يَمضِي في طريقِه، ويرجعُ ويَعتقدُ أن هذا سببٌ لأن يَحصُل له الشَّر والضَّرَر في الطريق.

إذن؛ المُؤمن لا تَرُده الطِّيَرةُ عن حاجته؛ بل يتوكَّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (**رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ**): رواه أبو داود، والترمذِيُّ، وابن مَاجَه، وصحَّحَه الألباني أيضًا[١].

قال: (**وَجَعَلَ آخِرَهُ مِن قَولِ ابنِ مَسعُودٍ**): أي: أن الترمذيَّ جعَلَ آخرَه من قولِ ابن مسعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ بمَعنىٰ أن المَرفُوع منه هو قَولُ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «**الطِّيَرَةُ شِركٌ، الطِّيَرَةُ شِركٌ**».

وما بَعدَه، وهو: «وَمَا مِنَّا إلا ...، وَلكن الله يُذهِبه بِالتَّوكُّل». من كلام ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعلىٰ هذا القولِ يكون آخرُ الحديثِ مُدرجًا، وهو من كلام ابن مَسعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لكن هذا خِلافُ الظَّاهر.

والظاهرُ -والله أعلم-: أن الكلامَ كُلَّه من كلامِ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ **لأن** الأصلَ عدمُ الإدراج، ولا يُوجَدُ دَليلٌ يَدُل علىٰ هذا الإدرَاج.

ولذلكَ قَال الإمامُ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ: «**وَلا حُجَّةَ هُنا في الإدراج، فالحديث** صحيحٌ بكامِله»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصحَّحَه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٢٩).

وقد جاءَ في الحَديثِ: أن النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إذَا تَطَيَّرتُم فَامضُوا، وتَوكَّلُوا عَلىٰ اللهِ»(١).

«إذَا تَطَيَّرتُم»: يعني: إذَا رأيتُم ما يُتطَيّر به في العَادة، فوقَعَ في نفُوسِكُم الكرَاهَة والخَوف، فامضُوا ولا تَرجِعُوا عَمَّا تُريدون، وتوَكَّلُوا علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٣١٥)، وأبو بكر البَزَّاز في «الغَيْلانيات» برقم (٤٢٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٩٤٢).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلأَحمَدَ مِن حَدِيثِ ابنِ عَمرٍو: «مَن رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ عَن حَاجَتِهِ؛ فَقَد أَشرَكَ». قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَن تَقُولَ: اللهمَّ لَا خَيرَ إِلَّا خَيرُكَ، وَلَا طَيرَ إِلَّا طَيرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيرُكَ».

الشرح

وهذا الحديثُ رواهُ الإمامُ أحمد، وهو حديثٌ صَحيح، وصَحَّحه أحمد شَاكر، والألبَاني رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ[1].

قالَ: (وَلأَحمَدَ مِن حَدِيثِ ابنِ عَمرٍو: «مَن رَدَّتهُ الطِّيَرَةُ عَن حَاجَتِهِ؛ فَقَد أَشرَكَ): وهذا يُبَيِّن ما تقَدَّم، من أن الإنسَانَ لا يُذَم بالتَّطَيُّر إلا إذا رَدَّه ذلك عن حاجَتِه، أو اعتقَدَ أن هذه الأشياءَ تَضُر بنفسها حتىٰ لو لم تَرُدَّه، وحتىٰ لَو لَم يتطَيَّر؛ فمن اعتقَدَ أن مخلوقًا يَضُر بذَاته، فهذا شرك أكبر -والعياذ بالله-.

فإذا لم تَرُد الطِّيَرة الإنسانَ عن حاجته؛ بل توكَّل علىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهَذا لا يُذم بهذا.

(قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟): وهذَا يَدُل علىٰ أنها ذَنبٌ يَحتاجُ إلىٰ كفَّارة.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٤٥) وحسَّنه مُحَقِّقو المُسنَد، وصحَّحه أحمد شَاكر، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٥٤).

قالَ العُلَمَاء: المقصود بالكَفَّارة: ما يُذهِب إثمَ الذَّنب، وما يدفَعُ ذلك الذَّنب؛ يَعني: أن هذِه الكفَّارَة فيها فَائدتَان:

- دَفعُ إثم الذَّنب إذا وقَع.

- ودَفع الذَّنب قبلَ وقُوعِه.

(قَالَ: أَن تَقُولَ: اللهمَّ لَا خَيرَ إِلَّا خَيرُكَ، وَلَا طَيرَ إِلَّا طَيرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيرُكَ): أي: أن الأمرَ كُلَّه لله، فلا يُصيبُ الخيرُ الإنسَان إلا بأمرِ الله، ولا يُصيبُ الشرُّ الإنسَانَ إلا بإذنِ الله، ولا إلَه إلَّا الله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ مِن حَدِيثِ الفَضلِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمضَاكَ أَو رَدَّكَ».

الشرح

(**وَلَهُ**): أي: للإمام أحمَد [١].

والحديث ضَعيفٌ، وضَعَّفه الشيخ أحمد شاكر.

وقال الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب -صَاحِب الكتاب- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه رجَلٌ مختَلَف فيه، وفيه انقِطَاع»[٢].

(**مِن حَدِيثِ الفَضلِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمضَاكَ أَو رَدَّكَ**): في قوله: «**أَو رَدَّك**» لا إشكَال؛ لأن الطِّيَرَة فيها الكراهَة، وقد تَرُد الإنسانَ عن حاجتِهِ؛ فتكُون ذَنبًا.

لكن «**مَا أَمضَاكَ**» هذا فيه إشكَال، من جهة أن المُتطَيِّر لا يَمضِي في حاجَته إذا تطَيَّر، وإنما الفَألُ الحَسَن هو الذي يجعلُ الإنسانَ يَزدادُ إقدامًا علىٰ ما يُريد، وقد تقدم أن الفأل ممَّا يُعجِبُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُحبُّه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وما في هذا الحَديث من أن الطِّيرة مَا يَرُد الإنسان معناهُ صَحيح، وقد تقدَّم في الأحاديث السابقة: أن الطِّيرة التي يُذَم بها الإنسان هي مَا يَرُدُّ الإنسانَ عَن حاجَتِه.

---

(١) برقم (١٨٢٤)، وضعَّفه مُحَقِّقو المُسنَد، وضعَّفه أحمد شَاكر.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٧٧/ الشاويش).

والحَديثُ -كما سَبق- ضَعيفٌ علىٰ كل حَال.

وإذا تقرر هذا، وأنَّه لا طِيَرة؛ فهل يُستَثنَىٰ من ذلك شَيء؟!

هل هُناك أشياءُ فيها شُؤم، وإذا وَجَدها الإنسان يَتركُها؟!

أقُول: قد جاء في حَديث عبد الله بن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: سَمعتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ: **«إِنَّمَا الشُّؤمُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الفَرَسِ، وَالمَرأَةِ، وَالدَّارِ»**. مُتفقٌ عَليه[1].

وفي رواية لَهُما[2]: **«إِن كَانَ الشُّؤمُ فِي شَيءٍ؛ فَفِي الدَّارِ، وَالمَرأَةِ، وَالفَرَسِ»**.

وفي روَايَة لمُسلِم[3]: **«إِن يَكُن مِنَ الشُّؤمِ شَيءٌ حَقٌّ؛ فَفِي الفَرَسِ، وَالمَرأَةِ، وَالدَّارِ»**.

وفي رواية للشَّيخَين[4]: **«لَا عَدوَىٰ، وَلَا طِيَرَةَ، وَالشُّؤمُ فِي ثَلاثٍ: فِي المَرأَةِ، وَالدَّارِ، وَالدَّابَّةِ»**.

وعند مسلم[5]: عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يُخبِرُ عَن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قَالَ: **«إِن كَانَ فِي شَيءٍ؛ فَفِي الرَّبعِ، وَالخَادِمِ، وَالفَرَسِ»**.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٨)، ومسلم (٢٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٤)، ومسلم (٢٢٢٥).

(٣) أخرجه برقم (٢٢٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٥٣)، ومسلم (٢٢٢٥).

(٥) برقم (٢٢٢٧).

«**إِن كَانَ**»: يعني: الشُّؤم.

و«**الرَّبع**»: هو الدَّار.

فهذه الأحاديثُ أفادت أنه لا شُؤمَ في غير الأربعَةِ المَذكُورات، فلا شُؤمَ في الغُراب، ولا شؤم في الحِمار، ولا شُؤمَ في إنسَانٍ كَرِيه المَنظَر؛ لأنَّ الحَديثَ حَصر الشؤم في هذه الأربعَة فقط.

والشؤم في هذه الأربَع، وهي: الدار، والدابة التي يَركَبُها الإنسان، والمرأة، والخادم، فهو ثَابتٌ بِهذه الأحاديث الصَّحيحة، التي لا مَطعَن فيها.

لَكِن اختَلفَ العُلماء في مَعنىٰ (الشُّؤم في هَذه الأشيَاء) هنا علىٰ ثَلاثة أقوَال:

القَولُ الأوَّل: ذهَب جمع من أهل العِلم، منهم: الإمام مالك، وابن قُتَيبة، والخَطَّابي، وابن باز، وابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلىٰ أنَّ هذه الأحَادِيث علىٰ ظَاهِرها، وأنها مُستَثنَاة من الطِّيرَة المُحرَّمة، وأن هذا شَرٌّ قَدَرِي، وقَد بَيَّنَ اللهُ أسبابَه، وقد تَدُل القَرائنُ علىٰ أسبَابِه.

وليسَت المرأةُ شُؤمًا دائمًا، بل قد تكُونُ المرأةُ خيرًا وبَرَكة علىٰ الزَّوج، وعلىٰ البَيت، وهذا الغالبُ علىٰ المَرأةِ إذا كانَت صَالِحة، لكِن قَد تكونُ المَرأةُ شُؤمًا، وتَدُل القرائن علىٰ أنها شُؤم، وذلك إذا تَوَالت عليه المصَائبُ بعدَ دُخولِهَا عليه.

وقد تكون الدابة شُؤمًا، فقد يَشتَري الإنسانُ سيارَةً وتكون شؤمًا، وليس

الأصلُ في السَّيَّارَةِ أو الدابَّة أنها شُؤمٌ، بل الأصل أن فيهَا خَيرًا، لكن قَد تَكونُ شُؤمًا، كمَن اشتَرىٰ سيَّارة، وأصبَحت الحوادثُ تقعُ منه كثيرًا، فهو يَقُود منذ ثلاثين سنَة، وقَلَّ أن يقع له حَادِث، واشتَرىٰ سيارَةً جَديدة وأصبح كُل يوم يَصدِم سيارة!، فهُنا القرائِنُ دَلَّت علىٰ أن هذه السَّيَّارة بعَينِها فيها شُؤمٌ.

وكذلك الدَّار، فقد يَنتقِلُ الإنسانُ إلىٰ دارٍ، فتتَوالىٰ عَليه حوادِثُ سَيِّئَة فيها؛ فيمرَضُ أو يَمرضُ أبنَاؤه باستمرَار، فهذه القرائنُ تَدُل علىٰ أن هذه الدَّار فيها شُؤم، وليس الأصلُ في الدَّار أن فيها شُؤمًا، لكن قد تكونُ الدَّار شُؤمًا.

وكذلك الخادم، قد يَأتي الإنسَانُ بخادم، والأصل في الخَادم أنه: العَبدُ المَملُوك، لكن لا يمنع هذا من سَعَة المعنىٰ إلىٰ مَن يأتي به الإنسان ليَخدُمَه، فقد يأتي الإنسان بخَادِم، فتتوالىٰ عليه المَصَائب والشُّرور، فأصحابُ هذا القول يَرونَ أن الشؤمَ علىٰ ظاهرِهِ في هذه الثَّلاث.

يقول الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تكون بعض النساء مشئومة علىٰ زوجها، فإذا ظهر منها ما يدل علىٰ شؤمها في سوء أخلاقها معه -وهذا في الحقيقة الشؤم في الصفات-، وسوء سيرتها معه -هذا شؤم في الفعل، في سوء الفعل-، أو ترادف الحوادث -أي: السيئة- عليه لمَّا تزوجها من خسارة، أو كساد في تجارته، أو فساد في مزرعته، أو ما أشبه ذلك، فلا مانع من طلاقها -إذا دلَّت القرائن علىٰ أن هذه المرأة شؤم لا مانع من أن يطلقها-».

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا الدار؛ إذا توالت عليه الحوادث فيها، وسوء الأحوال فيها، والأمراض عليه وعلىٰ أولاده فيها، فلا بأس من الانتقال عنها

-وهذا ليس من الطيرة المحرمة-؛ لهذا الحديث الصحيح».

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا الدابة، من ناقة، أو فرس، ونحو ذلك، إذا لم يَرَ فيها فائدة، ورأىٰ منها شرًّا، كمن توالت عليه حوادث بأسبابها، فلا بأس أن يبيعها، ويستبدلها بغيرها حسب نص الحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1] انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ربَّما يكون بعض المنازل، أو بعض المركوبات، أو بعض الزوجات مشئومًا يجعل الله بحكمته مع مصاحبته إما ضررًا، أو فوات منفعة، أو نحو ذلك؛ وعلىٰ هذا فلا بأس ببيع هذا البيت، والانتقال إلىٰ بيت غيره؛ ولعل الله أن يجعل الخير فيما ينتقل إليه»[2].

وكلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا فيه فوائد؛ لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «ربما»، وهذا للتقليل، فلا يتوسع في هذا، فبعض الناس كلما نظر إلىٰ امرأته قال: صحيح إن المرأة شؤم!، والشؤم والقبح في هذا الكلام!، فالمرأة خير، وإن كان قد يكون فيها شؤم وهذا قليل، ولذلك قال الشيخ: «ربما يكون بعض -وهذا للتقليل- المنازل، أو بعض المركوبات، أو بعض الزوجات مشئومًا -بذاته؟ لا- بجعل الله بحكمته مع مصاحبته -يعني: ملازمته- إما ضررًا أو فوات منفعة»، فهذا كما قلنا شرٌّ قدريٌّ دلَّت القرائن علىٰ أسبابه، وأخبرنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها قد تكون أسبابًا.

---

(١) «فتاوىٰ نور علىٰ الدرب» لابن باز (٣/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٢) «مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين» (٢/ ٣٢٧).

والقَولُ الثاني: قالَ بعضُ العُلماء: ليس المقصُود: التشَاؤم بهذه الأصنَاف، أو أنَّ فيها شؤمًا، وإنما المقصُودُ ما فيها من صفَاتٍ سيئة، وأنها تكونُ سَببًا لحصُولِ الشَّر، فتُشقِي صاحبَها، ومُصَاحِبها، كضِيقِ الدار، وسُوء جِيرَانها.

فيَقُولون: (الشُّؤم في الدار) لا يعني أنَّها سَببٌ لحُصول الحَوادثِ السيئَةِ، وإنما الشؤم في الدَّار أن تكون ضَيِّقة، قَليلَة المَرَافق، فيَضيقُ صَدرُ الإنسان بسُكنَاها، أو بسبب سُوء خُلُق الجِيران، وأذَاهُم له، وهذا أشَدُّ علىٰ الإنسانِ أذًىٰ وشقَاءً من ضيق الدار!، فلأن يَعيشَ الإنسانُ في غرفةٍ وَاحدة مع مَرافِقها أوسَع عَليه من أن يَعيشَ في دارٍ وَاسعَة بجِوارِ جَارٍ سَيِّئ؛ لأن جارَ السُّوء من أسبَابِ الشقَاء، نَعُوذ بالله منه.

وأما السُّوء في المرأة فقَالُوا: فأن تَكونَ المَرأة سَليطَة اللسان، بَذِيئة في كلامِها، وخاصَّة علىٰ زَوجِها، فَبَدلًا من أن تُدخلَ السُّرورَ علىٰ نَفسِه؛ فإنها كُلَّما رأته وجَلَست معه أدخَلَت عليه الشَّقاء ببذاءَتِها وسَلاطَةِ لسانها؛ فتُضَيِّق عليه حياتَه.

وأما الشؤم في الدابة: فَأَلَّا يكُونَ فِيهَا نَفع.

والقَولُ الثَّالث: قال بعض العلماء: بل المَعنىٰ: أن التشَاؤمَ الذي يقَعُ من الناسِ أكثَرُه في هذه الأصنَاف، فهو خَبَرٌ عن أحوال الناس، وليسَ تقريرًا لأمرٍ.

ويَقُولون: غايَةُ ما في هذا الحَديثِ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخبرنا أن التشَاؤُمَ الذي يقَعُ من الناس أكثَرُه في هذه الأصنَاف.

وهذا أضعَفُ الأقوَال، وقد رَدَّه المحققون: بأن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما بُعثَ ليُخبِرَنا بواقعِ الناس، وإنما بُعثَ ليُعلِّمنا، ويُبيِّنَ لنَا شَرعَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأقوَىٰ الأقوالِ هو الأولُ، والله أعلَم، وهو: أن الحَديثَ علىٰ ظَاهِره، إذ لا يوجَدُ دَليلٌ علىٰ صَرفِهِ عن ظاهره، فهذا مُستثنَىٰ من الطِّيرَةِ المُحرَّمة، وليس من الطيرة المَذمُومة، لكن بشَرط أن تَدُلَّ القَرائنُ علىٰ ذلك!، وألَّا يُوجَد ما يَدُل علىٰ سَببٍ آخر.

يَعني: لو أن الإنسان بعدمَا تزَوَّج خَسِر في تجَارته بسَبب أنه أصبَحَ يَنامُ في البيت كثيرًا، ولا يهتم بتجَارتِه، فهنا سَببُ خسَارته تفريطُه، وليس المَرأَة!

ولو أن الإنسان بعدمَا تزوج وأخذَ المرأة معَه في سيارته، فصُدِمَت سيارَتُه، وهذا يقع للنَّاس ولا إشكَال، لكِن لو تَكرَّرت هذه الحَوادثُ، ولم يُعلَم لها سَببٌ آخر؛ فهذا دَليلٌ علىٰ الشُّؤم.

فلا يُعَاب الإنسانُ ولا يُذَم إذا تخَلَّص من سَببِ هذا الأمر، فطَلَّق المرأَةَ، أو انتَقَلَ من الدَّار، أو باع الدَّابَّة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ قَولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مَعَ قَولِهِ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾.

الثَّانِيَةُ: نَفيُ العَدوَىٰ.

الثَّالِثَةُ: نَفيُ الطِّيَرَةِ.

الرَّابِعَةُ: نَفيُ الهَامَةِ.

الخَامِسَةُ: نَفيُ الصَّفرِ.

وهذا كُله قد تقَدَّم بيانُه بيَانًا وَافيًا.

السَّادِسَةُ: أَنَّ الفَألَ لَيسَ مِن ذَلِكَ بَل مُستَحَبٌّ.

كما تقدم بيانُه، وأن الفألَ هو الكلمَةُ الطيبة التي تُؤكِّد في نفس الإنسَانِ حُسنَ ظَنِّه بالله، والمَطلُوب من المؤمنِ أن يحسِنَ الظنَّ بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فإذا فعل الأسبابَ فإنه يتوكَّلُ علىٰ الله، مُحسِنًا ظنه بربه، ولذلك المُؤمن مِقدَام علىٰ خيره، إذا فعل الأسبابَ المشروعة، فإذا سمِعَ ما يؤكدُ ذلك فإن هذا هو الفأل.

السَّابِعَةُ: تَفسِيرُ الفَألِ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ الوَاقِعَ فِي القُلُوبِ مِن ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لا يَضُرُّ بَل يُذهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ.

التَّاسِعَةُ: ذِكرُ مَا يَقُولُهُ مَن وَجَدَهُ.

العَاشِرَةُ: التَّصرِيحُ بأنَّ الطِّيَرَةَ شِركٌ.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: تَفسِيرُ الطِّيَرَةِ المَذمُومَةِ.

وهي أنها ما رَدَّك عن حَاجَتك، كمَا تقَدَّم بيانه.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنجِيمِ.

الشرح

تقَدَّم أن الشيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنُصحِه للأمة؛ عقَدَ أبوابًا في أمُورٍ يَكثُر وقُوعُهَا من جماعاتٍ تَنتَسب إلىٰ الاسلام، وهي كُفرٌ أو شُعبَة من الكفر، وبدأ بالسِّحر والكِهَانة، ثم أتبَعَه بالتطَيُّر، وهو شُعبَة من السِّحر، ثُم أعقَبَهُ بالتَّنجيم وهو شُعبَةٌ من السِّحر -كما تقدم-: «**مَن اقتَبَس شُعبَةً مِنَ النجُومِ فَقَد اقتَبَس شُعبَةً مِنَ السِّحرِ زَادَ مَا زَادَ**»[1].

وبهذا يظهر لك دِقَّة الشيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترتيب هذه الأبوَاب.

ووجهُ كونِ التَّنجيم من السِّحرِ: أن التنجيم يعتمِدُ علىٰ أمرٍ خَفي، وليس علىٰ أسبابٍ معلومَةٍ أجراهَا الله عَزَّوَجَلَّ وعَلَّمَها لعبَاده، فيَأتِي المُنجِّم زَاعمًا أن هذا العَامَ سيَحدُث فيه من الكَوارِث كذا وكذا، ويَمُوت فيه الزعيم الفلاني، ويولَدُ فيه شخصٌ عَظيم، ويُفتَح فيه كذا وتَحصُل مُصيبَةٌ في بَلدِ كذا.

وهذا مثلُ السِّحر؛ لأن السحرَ -كما تقدم-: أمرٌ خَفِي يعتمدُ علىٰ أمورٍ خفيَّة؛ ولأن في التَّنجيم ادعَاءً لِعلم الغَيبِ، كما أن السِّحرَ نَوع من ادعَاءِ علم الغَيبِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وأحمد (٢٨٤٠)، وصححه النووي في «رياض الصالحين» (١/ ٣٦٩ الرسالة)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٩٣)، والألباني في «الصحيحة» (٧٩٣)، وابن باز في «مجموع فتاواه» (٢/ ١٢٠).

فكان قَولُ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَاب مَا جَاءَ فِي التَّنجِيم)؛ أي: ما جَاءَ من النصُوصِ وآثار السَّلَف في علم التَّنجِيم من جِهَة تَعلُّمِه، ومن جِهَة حُكمِه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: «قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهتَدَىٰ بِهَا، فَمَن تَأَوَّلَ فِيهَا غير ذَلِكَ؛ أَخطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلمَ لَهُ بِهِ». انتهىٰ.

الشرح

هذَا الأثرُ عَلَّقه البُخَاري في «الصحيح»[1].

ووصَلَهُ غيره؛ كالطَّبَري في «تَفسيره»[2]، وابنُ أبي حَاتم في «تَفسِيره»[3].

(قَالَ قَتَادَةُ): هو العَالِم الكَبير، التابعي، الثِّقة، الثبت، واسع العلم.

(خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ): أي: لثَلاث حِكَم عَظيمَات.

(زِينَةً لِلسَّمَاءِ): فاللهُ عَزَّوَجَلَّ زَيَّن السماءَ الدنيا بالنجُوم، وجعَلها زينَةً لهَا، وهذا ظاهِرٌ، فإن العبدَ في اللَّيلِ إذا نظَرَ في السَّماء، ورأىٰ تلألُؤَ النجُومِ في السماءِ، رَأىٰ هذه الزينَة لهذه السمَاء.

(وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ): فَجعلَ في السماء نُجومًا تُحفظُ بها السماءُ من استِرَاق الشياطين السَّمع.

---

(١) كتاب بدء الخلق، باب في النجوم. وانظر: «تغليق التعليق» (٣/ ٤٨٩).

(٢) (١٤/ ١٩٣).

(٣) (٩/ ٢٩١٣).

(وَعَلَامَاتٍ يُهتَدَىٰ بِهَا): في ظُلُمَات البَر والبَحر، يَعرفُ بها العبَادُ الجهاتِ، وطريقَ السير، فيكونُ الواحد فيهم في ظُلمةِ البَحر، وفي لُجَّة البحر، ويعرفُ إلىٰ أين يتَّجِه، مع أن البَحرَ لا علامة فيه، بل هو مَكانٌ مُستَوي الجِهات، فإذا كانَ في الظلمَةِ فالأمرُ أشَدُّ، ومع ذلك فالعَبدُ -بما عَلَّمه الله- يَنظُر في النجُوم، فيَعرف الجهَة، ويَسير ولا يَضل طريقَهُ في البَحر، وكذلك في البَر، إذا كان في الصَّحرَاء، وفي ظُلمَة الليل البَهيم، فإنه يَستطيعُ أن يعرفَ الجهَةَ بالنَّظرِ في النجُوم، بمَا عَلَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

(فَمَن تَأَوَّلَ فِيهَا غَير ذَلِكَ): أي: زعَمَ فيهَا غيرَ ما ذكَرَ الله تعَالىٰ في هذِه الثَّلاث؛ فظَنَّ أنها أسبَابٌ لمَا لم يَجعَلها الله أسبَابًا له، أو أنَّها مُؤثِّرةٌ في الكَون، كمَا يقول بَعضُ أهل الضَّلال، الذين ما عَرَفُوا التوحيد، فيزعمُون أن الكَواكبَ العُلويَّة تُؤثِّر في المَخلُوقات السُّفليَّة، ويَعنُون بالكَواكب العُلويَّة: النجُوم، والمَخلُوقات السُّفلية: مَن علىٰ الأرض.

(أَخطَأَ): أي: فقد أخطَأ الهُدىٰ، وضَلَّ عن طريقِه.

(وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ): أي: حَظَّه من عُمُره؛ لأنه اشتغَل بمَا لا فائدَةَ فيه؛ فإنَّ نصيبَ العبدِ ينبغي أن يَكُون في الخَير، فإذا تأوَّل في النجُوم غير مَا خلقَها الله له، فإنه يكُونُ قد أضَاعَ نَصيبَهُ من الخَير.

(وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلمَ لَهُ بِهِ): أي: تعَاطىٰ شَيئًا لا يتَصوَّرُ عِلمه، فهذا تَكَلُّف وليسَ عِلمًا، وهو يُخضِع العبدَ المَخلوقَ لمَخلوقٍ مِثله، فيُصبحُ العبدُ يخافُ منَ النجُوم، والله أكرَمَ العبدَ فجَعل خوفَه من ربِّ النُّجُوم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الأثَرُ عن قتادَةَ له تمَامٌ، فقد جَاءَ في هذا الأثر أن قتادَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ: «وَإِنَّ نَاسًا جَهَلَةً بِأَمرِ اللهِ؛ قَد أَحدَثُوا مِن هَذِهِ النُّجُوم كِهَانَةً: مَن أَعرَسَ بِنَجمِ كَذَا وَكَذَا؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَن سَافَرَ بِنَجمِ كَذَا وَكَذَا؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَن وُلِدَ بِنَجمِ كَذَا وَكَذَا؛ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَعَمرِي مَا مِن نَجمٍ إِلَّا يُولَدُ بِهِ الأَحمَرُ وَالأَسوَدُ، وَالقَصِيرُ وَالطَّوِيلُ، وَالحَسَنُ وَالدَّمِيمُ، وَمَا عِلمُ هَذَا النَّجمِ وَهَذِهِ الدَّابَّةِ وَهَذَا الطَّيرِ بِشَيءٍ مِنَ الغَيبِ! وَقَضَىٰ اللهُ أَنَّهُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]»(١).

وذلك بعينه كمَا يَأتِي الآن المُنجِّمُون ويقولون للرجُل: أنتَ من كَوكبِ الزُّهرة، فإذا تزَوَّجتَ امرأةً من كوكبِ كذَا حَصَلت لكُمَا السعادة، وسوف تُرزقَان بأولاد، ونَحو ذلك.

ويقولون كذلك للشَّخص: أنتَ من بُرج الجوزاء، فإذا تاجَرتَ في هذا الأسبوع فسَتحصُل لك خسَارة عظيمَة، وإذا سَافرتَ في هذا الأسبُوع، فسيَكُونُ سفرُكَ غير مُوفَّق، ونحو ذلك.

ويقُول قتَادَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَعَمرِي مَا مِن نَجمٍ إِلَّا يُولَدُ بِهِ الأَحمَرُ وَالأَسوَدُ، وَالقَصِيرُ وَالطَّوِيلُ، وَالحَسَنُ وَالدَّمِيمُ».

يَقُول: النجُومُ ما لها تَأثِير، لو نظَر العُقلاء، فكُل نَجم، وكُل بُرج، يُولَدُ فيه

(١) وهذه الزيَادةُ عندَ ابنِ أبي حَاتِم في «تفسيره».

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «تَفسِيره» (٦/ ٢٠٧): «وَهُوَ كَلَامٌ جَلِيلٌ مَتِينٌ صَحِيحٌ». اهـ

أحمَر وأبيضُ وأسوَدُ، فلا يوجَدُ نَجمٌ خاصٌّ بالبِيضِ، يُولَد فيه البِيض، وهو مَمنُوع علىٰ السُّود، مَمنُوع علىٰ السُّمر، مَمنُوع علىٰ الحُمْر، وإنما يُولَد الناس هذا أحمَرُ، وهذا أبيَضُ، وهذا أسمَرُ، وهذا أسوَدُ، وهذا طَويلٌ، وهذا قَصير، وهذا جَميلٌ، وهذا دَميم، في نَجم واحد، ووَقتٍ واحِد.

ويقول قتَادَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَمَا عِلمُ هَذَا النَّجمِ وَهَذِهِ الدَّابَّةِ وَهَذَا الطَّيرِ بِشَيءٍ مِنَ الغَيبِ! وَقَضَىٰ اللهُ أَنَّهُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾».

فهَذِه الأمورُ الثلاثَةُ التي ذكرها الإمامُ قتَادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي التي خَلقَ الله النجُومَ لهَا، وأخبَرنا بها في كتَابه:

الأول: أنَّها زِينَة للسماء.

والثَّاني: أنَّها رُجُوم للشياطين.

فبِهَا تُحفَظ السماء، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات:٦-٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك:٥].

والثَّالِث: أنَّها علامَاتٌ يُهتَدىٰ بها في ظُلمَات البَر والبَحر.

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ

وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

ولمَّا كانَ ذَلكَ كذلكَ؛ كانَت العلومُ المُتعَلِّقة بالنجُوم من جِهةِ التَّفصيل أربَعَة:

الأوَّل: علمُ دِرَاسَة النجُوم من جهَةِ مَواقِعها، وطَبيعَتِها، وأحجَامِها، وسَيرها، وهذا جزءٌ ممَّا يُسمَّىٰ بـ «عِلم الفَلَك»، ويُبنَىٰ علىٰ أشياءَ مَحسُوسة، وهذا عِلم مُبَاح.

والثاني: علم التَّسيير: أي: عِلمُ معرفَة كونِ النُّجوم علامَات علىٰ الجهَات ونَحوها، وهذا علمٌ جَائز، ولا حَرجَ في تعلُّمه علىٰ الرَّاجح من أقوَالِ أهلِ العِلم.

وسيأتينا أن بعضَ السَّلف مَنعُوا مِنهُ، لكن الصَّواب أنه علمٌ جَائز؛ بَل في الحقيقة إن تَعلُّمه من غَيرِ تكَلُّف وتعمُّق مُستَحب؛ لمَا في ذلك من نَفع الناسِ، وكلُّ عِلم نافع للناس لا ضرَرَ فيه فتعَلُّمه مُستَحَب؛ كتَعَلُّم الطبِّ والهَندَسة، ونحوهما، ففي ذلك نَفعٌ للنَّاس، ولا ضَرَر فيه.

وإذا تعَلَّم أفرَادٌ من الأمةِ هذه العُلوم؛ فإنَّهم يُغنُون الأمَّةَ عن الكُفَّار، وهذا أمر مطلُوب.

وقد يكُونُ تعَلُّم هذا العلم وَاجبًا علىٰ الإنسان، وذلكَ إذا كان لا يَستطيعُ معرفةَ القبلَةِ إلا بمَعرفةِ النجُوم، فهُنا يجب عليه أن يتعلَّم هذا؛ لأن معرِفَةَ جهَةِ القِبلَة واجبَة، و«ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلَّا بِهِ فهُو واجِب».

والثَّالث: علم الاستِدلالِ بالنجُومِ علىٰ أمورٍ تقَعُ في المُستَقبل، وذلك بحُكمِ التجرِبَة والمُعتاد، بأمور حِسِّية، كمَعرفة زمَن دخول الحَر، وزمَن دخُول البَرد، فيُقال: إذا طلَعَ نَجم كذا؛ فهَذه بداية فَصلِ الصَّيف، أو: إذا طلعَ نَجمُ كذا؛ يشتَدُّ الحر، أو: إذا طلعَ نَجمُ كذا؛ فهَذه بدَايةُ فَصل الشتَاء، أو: إذا طلَع نَجمُ كذا؛ فإنه وَقتُ اشتدَادِ البَرد.

أو مَعرفة زمَنِ الكسُوفِ والخسُوفِ، كما يَحصُل اليوم، يَقولُون: سيَحصُل في سنةِ كذَا كسوفٌ أو خُسُوف، وهذا ليسَ من بابِ ادِّعاءِ علم الغَيب، وإنمَا بدراسَةِ سَيرِ النجومِ المُعتَاد، فيَعرفُون بهذا زمَنَ الكُسوفِ والخسُوف؛ لأنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جعلَ هذا علىٰ طريقَةٍ مُنتَظمَةٍ، بدُون اعتقَادِ أنَّها مُؤثِّرة، وإنمَا علىٰ أنها علامَاتٌ جعَلها الله في الكونِ لهَذِه الأمُور، وقد عُرِفَت وعُلِمَت، فليسَت أمورًا مَوهُومة، وليسَت أمورًا خَفيَّة، فهذا العلمُ أيضًا جَائزٌ لا حَرجَ فيه علىٰ الراجِح، وإن كانَ مِن أهل العِلم من حَرَّمَه سَدًّا للذَّرائع، لكن هذا العلم لا مَحذُور فيه؛ إذ لا يُعتقَد فيه تأثير الكَواكِب في الأحدَاث، ولا يُعتَقد فيه أنها أسبَابٌ حيثُ لم يَجعَلها الله أسبَابًا، وإنما يُعرَف بمَسيرِها حُدوثُ هذه الأمُور بحُكمِ العادة، ودِراسَةِ سَير الكواكِبِ دراسَة عِلميَّة.

والرَّابع: علمُ التَّأثير: وهو علمُ النَّظر في النجوم لمَعرفَة الأمورِ الغَيبيَّة، وما يقعُ للأفراد والجماعَات في المُستَقبل، أو اعتقاد تأثير الكَواكبِ في الكَون، بحيثُ يُضَاف الفعلُ إليها.

وذلك كما يأتي المُنجِّمون -كما قلنا- في بدايَةِ كُل سنَةٍ ميلاديَّة، ويقولونَ:

هذه السَّنة سيحدثُ فيهَا من الأحداثِ كذَا وكذا وكذا، ويَموت أربعَةٌ من الزعمَاء، وتُضرَب بعضُ الدوَل، ونحو ذلك، فيَدَّعونَ علم الغَيبِ بغير أسبَاب شَرعيَّة ولا حِسيَّة، وإنمَا هي أمُورٌ خَفية وأوهَام.

أو يعتَقدُ تأثير الكواكِب في الأحداث في الأرضِ، وينسب ذلك إلىٰ الكَواكب، فيَقولُ القائل مَثلًا: مُطِرنا بنَوء كذا، وليس: فِي نَوء كَذا، والبَاء هنا - كما سيأتينا في البَابِ التَّالي -: إما أنَّها تأثيريَّة للتأثير، ويكُون المَعنىٰ: أن النَّجمَ هو الذي أثَّر في المطر، **وهذا شِركٌ أكبَر**، وإمَّا أنها للسَّببية؛ أي: مُطِرنا بسَببِ الكَوكَب، وبسَبَب النجم، **وهذا شِركٌ أصغَر**.

وقد خافَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أمَّته في آخر الزمانِ الإيمَانَ بالنجُوم، فقد جاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُهُ عَلَىٰ أُمَّتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ ثَلَاثًا: إِيمَانًا بِالنُّجُومِ، وَتَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ، وَحَيْفَ السُّلْطَانِ**».

وهذا الحَديثُ رواه أبو عَمرو الداني[1]، وذكَرَه الألباني في «الصَّحيحَة»، وقال: «له شَواهدُ كثيرة يَرتَقي بها إلىٰ درَجَة الصِّحة»[2].

«**إيمَانًا بِالنجُوم**»: ليس المَقصُود: الإيمَان بوجُودها، والإيمان بكونها زِينَة، وبكونها رجومًا، وبكونها علامَات معلومَة، فإن هذا من الدِّين، وإنما المقصُود الإيمانُ بالنجوم في علم التأثير الذي بيَّنَّاه.

---

(١) في «السنن الواردة في الفتن» (٣/ ٦١٩) برقم (٢٨٢/ العاصمة).

(٢) «السلسلة الصحيحة» (١١٢٧).

«وَتَكذِيبًا بِالقَدَرِ»: ويأتي أناسٌ ويَقُولون: لا نُؤمن بالقَدَر!

«وَحَيفَ السُّلطَانِ»: أي: ظُلم وجَور السُّلطان، فإن هذا خافَهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أمَّته في آخر الزمان، وهذا يَدُل علىٰ أنه سيقَعُ وقوعًا كثيرًا مُنتَشِرًا، وأن شَرَّهُ عَظيم.

وهناكَ شيءٌ يتعلَّق بعلم التأثير يَكُون شِركًا أصغَر، وهو: اعتقادُ أن النجُومَ أسبابٌ لقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، فمن يُولَد في البُرج الفلاني يكونُ سعيدًا بقَدَر الله، ومَن يُولد في البُرج الفلاني يكون جميلًا بقَدَر الله!

فهؤلاء يَقُولون: الأمور بقَدَر الله ومَشيئته، ولكن يَجعَلُون النجوم أسبابًا لأقدار الله، والله لم يَجعلهَا أسبابًا، فهذا شرك أصغر!

ويُمكن إجمالُ هذه العلوم الأربعَة إلىٰ عِلمَيْن:

الأول: عِلمُ التَّسيير: ويدخُل فيه الأول والثاني والثالث، وهذا جَائزٌ علىٰ الراجِح.

والثاني: علم التَّأثِير: وهو النَّوع الرابع عَلىٰ ما فَصَّلناه.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، ولَم يُرَخِّصِ ابنُ عُيَينَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَربٌ عَنهُمَا.

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ: أَحمَدُ، وَإِسحَاقُ.

الشرح

يتكَلَّم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حُكم تعَلُّم مَنازل القمَر والنجوم وأبراج الشَّمس؛ من أجلِ مَعرفة العلامات لا من أجل التَّأثير؛ لأن التأثيرَ مُجمَع علىٰ تحريمِهِ، وأنه داخلٌ في الشِّرك.

والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قدَّر القمر منازِل خلال الشَّهر، فالقَمرُ -كما هو مَعلُوم- له ثمَانٌ وعِشرُون منزلةً في الشَّهر، كُل يوم له مَنزِلَة، والشَّمس لها أبرَاج، وهي اثنَا عشَرَ بُرجًا في السَّنة، وهذه الأبرَاجُ فيها الفصُولُ الأربعة، كُل ثلاثَة أبراج فيهَا فَصل، الرَّبيع والصَّيف والخَريف والشِّتاء.

ولَكن ما حُكمُ تَعلُّم منازِل القَمر، وأبرَاج الشَّمس والنُّجوم؟

أين تطلُعُ؟، وعلىٰ أي هَيئةٍ؟، ومَتىٰ؟

فاختلفَ السلفُ في تعَلُّم ذلك من أجل مَعرفَة العلامات؛ فكَرِهَ بعضُ السلفِ ذلك، و(كَرِه) عند السلف تعني (حَرَّم).

قالَ: (**وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ**): أي: حَرَّم ومنَعَ من تَعلُّم منَازل القَمر مُطلقًا.

(ولَم يُرَخِّصِ ابنُ عُيَينَة فِيهِ): فحَرَّم ذلك ابنُ عُيينة أيضًا، وذلك سَدًّا للذَّريعَة.

فَهُم منعُوا ذلك حتىٰ لا يتدَرَّج الشيطانُ بالإنسانِ في تعَلُّم هذه المنَازِل.

ففي بدَاية الأمر يتعَلَّم هذه المنازِلَ لمعرفَةِ الأماكنِ والعلامَاتِ، ثُم يأخذُهُ الشيطانُ خطوة نَحو تعَلُّم الأبراج وما لها تَأثير -كما يَزعُم الكذَّابون والدجالون- في الكَون، حتىٰ يقَعَ في المحظُورِ، فقالوا: سَدًّا للذريعَةِ نُحرِّم تعَلُّم هذه المَنَازل.

وذهبَ جمهورُ العلماء من السَّلف والخلفِ إلىٰ أن تعلُّم منازل القَمر والنجومِ وأبراج الشَّمس من أجل عِلمِ التَّسيير، وهو غير محظور، فهذا جَائزٌ، بل النَّافع منه مُستَحب أو واجبٌ.

ولذَلك: **(رَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ: أَحمَدُ، وَإِسحَاقُ)**: بل ذكَرَ الإمامُ أحمَدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه تعَلَّم شيئًا من ذلك عن أهل مَكَّة، وهذا هو مَذهَبُ جُمهور العُلمَاء من السَّلفِ والخَلفِ: أنَّ هذا جَائزٌ ولا حرَجَ فيه، وهذا هو الرَّاجحُ الظَّاهر رُجحَانُه.

۞۞۞

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدمِنُ الخَمرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَّدِقٌ بِالسِّحرِ» رَوَاهُ أَحمَدُ، وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح

هذا الحديثُ رواهُ أحمدُ[1]، وابنُ حبَّان في «صَحيحه»[2]. كما قال المُصَنِّف.

وفي إسنَادِه ضَعفٌ ومَقَال، لكن الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرَ للحَديثِ طَريقَين ثم قالَ: «الحَديثُ بمَجمُوع الطريقَين حَسَن»[3].

وقال في «صَحيح الترغيب»[4]: «صَحيحٌ لغَيره».

فالحديثُ بمجموعِ طُرقِه ثابت، ولا شَكَّ أن معناه صَحيح؛ فإن الذي فيه قَد دَلَّت عليه أدلةٌ كَثيرَة.

قال: (**ثَلَاثَةٌ لَا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ**): (ثَلاثَة): ليس المَقصُود حصرَ الذين لا يدخُلون الجنة في هذه الأصنَاف الثلاثة، وإنما المَقصُود التحذير من الوقُوع فِيمَا يتَّصف به أهل هذه الصفَات.

---

(١) برقم (١٩٥٦٩)، وحسَّنه لغَيره مُحققو المسند.

(٢) برقم (٥٣٤٦).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٦٧٨).

(٤) برقم (٢٥٣٩).

وما معنىٰ: (لَا يَدخُلونَ الجَنَّة)؟

قالَ بعضُ أهل العِلم: معناه: أنَّهم لا يدخلُونَ الجنَّة أبدًا، وأنهم يُخلَّدون في النار، وذلك إذا استحَلُّوا هذه الذنُوبَ العَظيمَة، ورَأوها حَلالًا، فَإنَّ هذَا كُفرٌ يُخرِجُهم من مِلَّةِ الإسلام، وبهذا لا يَكُونُونَ مِن أهلِ الجَنَّة أبدًا.

وقالَ بعضُ أهل العلم: معناه: أنَّهم لا يَدخُلون الجنَّةَ ابتِداءً، وإنمَا يُؤَخَّرونَ عن دخُول الجنة زَمنًا طَويلًا، فَهُم من أواخر من يَدخُل الجنة، وذلك إذا كَانُوا مُرتَكبين لهذه الكبَائر غير مُستَحِلِّين لها، فإن ارتكَابَهُم لهذه الكبَائر وإصرَارهم عليها لا يُخرِجُهم من مِلَّة الإسلام، لكنَّه ذَنبٌ عَظيم يتَرتَّب عليه -والعياذُ بالله- دخول النار، والبقاء فيها مُدَّة طويلَة، والبُعدُ عن الجنَّة مُدَّة طويلة، وهذا لا شَكَّ أنه عذابٌ عَظِيم.

(**مُدمِنُ الخَمرِ**): و(الخَمرُ): هو كل ما خَامَر العَقل وغطَّاه من مَشرُوب أو مشمُوم، أو غير ذلك، فكُل ما يُغطِّي عقل الإنسان بتعَاطيه له، فَهُو خمر، قال ذلك أمير المُؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ المنبر بحَضرة صَحَابة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قالَ: «الخَمرُ مَا خَامَرَ العَقلَ»[1].

وأقَرَّه علىٰ ذلك صحَابَة رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو إجمَاعٌ منهُم، وبهذَا نعرِفُ خطأَ بعضِ المسلمين الذينَ يتسَاهَلُون في بعضِ مَا يُغطِّي العقلَ، ويقولون: إنه ليسَ خَمرًا!، ويظُنُّون أن الخَمرَ هُو المَشرُوب فقط، فنجدُ بعضَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١٩)، ومسلم (٣٠٣٢).

المسلمين يتساهَلُون في تعاطي الحَشيش، ويشربونَهُ كالدُّخان، ويقولون: هو مَكرُوه مثل الدخان، مع أن الدخانَ بذاته حَرام، لَكن يظُنون أن هذا ليس من الخَمر، وهو من الخَمرِ؛ لأنه يُغَطي العقل.

كذلك الذينَ يتسَاهَلُون في تنَاوُلِ القات، ويضعونَهُ في أفواهِهِم، ويزعمُون أنه ليس خَمرًا، وهو في الحقيقة خَمر؛ لأنه يغَطِّي العقلَ، وكُل ما غطىٰ العَقل وخامَره فهو خَمر.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ مُسكِرٍ خمرٌ، وَكُلُّ مُسكِرٍ حَرَامٌ**»[1].

فكلُّ ما أسكرَ العقل، وغَطَّىٰ العقل، وغَيَّر العقل؛ فهو خَمر، وكُل مُسكِر حَرام علىٰ الإطلَاق.

ومُدمِن الخَمر: هو المُداوِم علىٰ شُربِها حتىٰ يموتَ غَيرَ تائبٍ منها، فيَمُوت -والعياذُ بالله- وهو مُدمِنٌ لها.

والمُدمن للخَمر: إن كان مُستَحلًّا لهَا؛ فهذا كُفر يُخرِجُ من المِلَّة؛ لأن حُرمَة الخَمر قطعيَّة، والعلم بها قَطعِي، لكن إذا كان الإنسَانُ لا يعلَمُ أن ما يتعاطَاه خَمر، وكان مُستحِلًّا له، فهَذا جَاهل، ولا يُقَال: إنه كافِرٌ، حتىٰ يُعَلَّم ويُعرَّف أن هذا خَمر مُحَرم، ويُقَام عليه الحُجَّة، فإذا علم ثُم استحَلَّها؛ فإنه يَكفُر.

ولذلك: لو جاءنا إنسَانٌ يَعيشُ بين ظَهرَانَي المسلمين، وقال: شُربُ الخَمر حلال؛ فإنا نَقُول: هذا كُفر يُخرِج من الملَّة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإذا جاءنا إنسان وقَال: الحشيشُ حَلال، أو القَات حَلال، أو مَكرُوه ليس حرامًا، فإنَّا نَنظُر: فإن كان عالِمًا بأنها خَمر، ومع ذلك استحَلَّها؛ فهذا كفر أكبر، أما إذا لم يَعلَم أنها خَمر، فإنَّا لا نُكَفِّره، ولكن نُعَلِّمه، ونُبَيِّن له الحُكمَ، ونُقرِّر له بالأدلة أن هذا الذي يتعَاطَاه خَمر.

وشُربُ الخمرِ كَبيرةٌ في ذاتِه، لكنَّ إدمانَ الخَمر أشَدُّ وأعظم، والذي يُدمنُ الخَمر -والعياذ بالله- مُتوعَّد بألَّا يَدخُل الجنةَ ابتداءً إن كان غير مستحلٍّ لهَا، وإن كانَ مُستحِلًّا لهَا مع الإدمانِ فهو لا يَدخُل الجنَّة أبدًا.

(**وَقَاطِعُ الرَّحِمِ**): و(الرَّحِم): هي القَرَابة من جهة الأب أو من جِهَة الأم.

وصلةُ الرَّحم وَاجبة، وهي تكونُ بحَسَب حال الإنسَان، وبحسَب القَرَابة المَوصُولة.

فليس وصلُ الأقارِبِ درجَة واحِدَة؛ بل هذا يَختَلف بحَسَب حال الإنسَانِ نَفسِه، مِن غِنًىٰ وفَقر، وقُرب وبُعد، وبِحَسَب درجَةِ القَرَابة، فالعَمُّ ليس كابن العَم، وابنُ العم ليس كابنَةِ العَم، ونحو ذلك.

فإن الصلَةَ إنما تكونُ بالجَائز؛ يعني: ابنُ العَم تكونُ صِلتُه بالزِّيارة والحَديثِ معه ما بين الفَينَة والفينة، أما ابنَةُ العم، فلا تكون صِلَتُها بالزيارة؛ إنمَا تُزَارُ بالإحسَان، ونحو ذَلكَ.

وقطيعَةُ الرحِم -والعيَاذُ بالله- سَببٌ للحِرمانِ من الجَنَّة، وقد قال النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَدخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**»[1]؛ أي: لرَحِمِه. كما ورد ذلك مُصرَّحًا به

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

في بعض الروَايَات.

وقاطع الرَّحِم لا يَجدُ خيرًا أبدًا، وكيف يجد الخير وقد قطَعَهُ الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وقَد قالَ الله عَزَّوَجَلَّ للرَّحِم: «**أَمَا تَرضَيْنَ أن أَصِلَ مَن وَصَلَكِ، وَأَن أَقطَعَ مَن قَطَعَكِ؟، قَالَت: بَلَىٰ، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ**». مُتَّفَقٌ عليه[1].

فالله عَزَّوَجَلَّ جعَل للرَّحم أن يصِلَ مَن وصَلَها، فالذي يَصلُ رَحمَه ليُبشِر بالخَير، حتىٰ لو كان عندَهُ نقصٌ فإن الغالبَ أن واصِلَ الرَّحم يَئُول أمرُهُ إلىٰ خَيرٍ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَصِلُه، وأعظَمُ الصِّلة: الهِدَاية إلىٰ صِراطِ اللهِ المُستَقيم.

أما قاطع الرِّحمِ فإنهُ لا يبشَّرُ إلا بِشَر، حتىٰ لو كانت له حَالٌ في الدنيا مُستَقيمَة، فإن الغالبَ أن أمرهُ يئُول إلىٰ شَر.

وقد قالَ النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِن ذَنْبٍ أَجدَرُ أن يُعجِّلَ الله تَعالىٰ لِصَاحِبِه العُقوبَةَ في الدُّنيا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِثلُ البَغيِ، وقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**». رواه أبو داودَ، والترمِذي، وابنُ مَاجَه، وصحَّحه الألباني[2].

فقطيعة الرَّحِم ذَنبٌ تُعجَّل عقوبَتُه في الدنيا، ويَرىٰ القاطِعُ أثَرَ جَريمَتِهِ وهو يَسيرُ علىٰ الأرض، ولو لَم يَكُن إلا أن يَرَىٰ القطيعَةَ في أَولادِهِ له لكَفَىٰ بذَلك عقُوبَة؛ فكيفَ وهو مُهَدَّد بأنواع العقوبات؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٢)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وقطيعةُ الرَّحِم تمنَعُ الإنسانَ -والعياذ بالله- مِن رَحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومغفِرَته.

يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ»**. رواهُ أحمَدُ، وحَسَّنهُ الألبَانِيُّ[1].

فأعمَالُ بَنِي آدمَ تُعرَض علىٰ ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلَّ خَميس ليلَة الجُمعَة، فيَقبل اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصالِحَ من أعمالِ عبَادِه، إلا قاطِع الرَّحم، فإن قاطِعَ الرَّحم لا يَقبَلُ الله عمَلَهُ حتىٰ لو تحققَّت فيه شروطُ القَبُول: من الإخلاصِ والاتِّباع للسُّنة، فإنَّ قطيعَةَ الرَّحم مانِعٌ يَمنَع من القَبُول -والعيَاذُ بالله-؛ ولذا قطيعَةُ الرحم شأنُها عظيم، وجُرمُها كبير، وأثَرُها علىٰ الإنسَانِ عَظيم.

ولذلك يَنبَغي علينَا أن نتوَاصَىٰ بصِلةِ الرَّحم، وأن يُحَذِّر بعضُنا بعضًا من قَطيعَةِ الرَّحم، وإن مِن أعظَم حقُوقِ أخيكَ عَليكَ إذَا رَأيتَهُ قاطِعًا للرَّحِم أن تُحذِّرَهُ مِن هذا الذَّنب، وأن تُحاوِلَ أن تزجُرَه عن هَذا الذنبِ بذِكرِ النصُوصِ في ذلكَ.

(وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحرِ): والتَّصديق بالسحر له مَعنَيان يَخلِطُ بينَهُما بعضُ الناس فيُخطِئُون:

المَعنَىٰ الأوَّل: التَّصديق بوجُود السِّحر، وبوقُوعِه وأنه يُؤثِّر أثرًا حقيقيًّا بإذن الله القَدَري، فيُصَدِّق الإنسان أن هناك سِحرًا، وأن السحرَ وَاقِع من بعضِ الأشرَار،

(١) أخرجه أحمد (١٠٢٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه مُحَققو المسند، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٣٨).

وأنه قد يُفَرِّق به بين المَرءِ وزَوجِه بإذنِ اللهِ القَدَري، وأنه قد يُسَبِّب للإنسَان أمراضًا معنويَّة ونفسية، أو حِسِّية، كالسُّكر ونحو ذلك.

وهذا ليسَ مَمنوعًا؛ بل هو من الدِّين أن تُصَدِّق بذلك؛ لأن الأدلَّةَ من القُرآن والسُّنة، والوَاقع المعلوم، قد دلَّت علىٰ ذلك دَلالةً بيِّنة.

والمَعنىٰ الثَّاني: تَصدِيق السَّحرة، واعتقَاد أن لهم تَأثيرًا في الكَون، أو اعتقَاد أنهم يَعلَمُون الغيبَ، أو أنهم يتسَلَّطُون علىٰ الجن، والجِنُّ يؤثِّرون في الكَون، أو نحو ذلك، وهذا هو المَذمُوم، وهذا هو المَعنىٰ المَقصُود هنا من كَلامِ النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد تقَدَّم بيانُ أنَّ مَن يُصدِّق أن السحَرَةَ يُؤثرونَ بذَواتهم، أو أن الجنَّ الذين يَستعينونَ بِهم يُؤثِّرون بذَواتهم، أو أنهم يَعلَمُون الغَيبَ، أو يَخَافُهم خوفَ السِّر كما سَيأتي بيانُه -إن شاء الله-؛ أن **هذا شِركٌ أكبَر، وكُفر يُخرجُ من المِلَّة.**

ومُنَاسبة هذا الحَديث لبَاب التَّنجيم: في قَول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحر**».

وقد تقَدَّم حَديث النَّبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ اقتَبَس شُعبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَد اقتَبَس شُعبَةً مِنَ السِّحرِ، زَادَ مَا زَادَ**»[1].

فمَن اقتبس شُعبة من النجُوم؛ أي: بعِلم التأثير الذي ذَكرنَاه؛ فقَد اقتبس شُعبَة من السحر، وكُلما زاد اقتبَاسًا من علم التَّأثير للنجُوم؛ زَاد سِحرًا.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٨٦).

إذن؛ التَّنجيم نَوعٌ من السِّحر؛ لأن التَّنجيم ادِّعاءُ الأثَر وعِلم الغَيب بأمُور خَفيَّة لا تُعلَم، فهو كالسِّحرِ؛ ولأن لهُ أثرًا في نُفُوس النَّاس؛ مِن صَدِّهم عمَّا يُريدُون، وقد تقدَّمَ بيَانُ ذلك بالتَّفصيل.

***

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: الحِكمَةُ فِي خَلقِ النُّجُومِ.

كما تقَدَّم بيَانُه من خلال أثر قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثَّانِيَةُ: الرَّدُّ عَلَىٰ مَن زَعَمَ غَيرَ ذَلِكَ.

أي: مَن عَلق بالنُّجوم بغَير هذه الثلاث التي ذُكِرَت في أثر قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كَونِها: «**زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهتَدَىٰ بِهَا**»؛ فقَد أخطَأ وضَلَّ وغوىٰ، فإن هذه الثلاث هي الحِكمَة من خَلق النجُوم.

الثَّالِثَةُ: ذِكرُ الخِلافِ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ.

أي: ذِكرُ الخلافِ في تعَلُّم المَنازل للاهتداء بها في السَّير، وليسَ الاختلاف في تعلُّم النجُوم من أجل التأثير؛ لأن هذا مُتَّفق علىٰ أنه شِركٌ وحَرام.

وأمَّا ما يتعَلَّق (بعِلم التَّسيير)، فقد تقدَّم بيانُ الخلاف في ذلك وتَفصيل القَول فيه، وأن جُمهُور أهل العلم من السَّلف والخَلف علىٰ هذا ليسَ حَرامًا، بل هو مُستَحب، وهذا هو الراجح.

الرَّابِعَةُ: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَن صَدَّقَ بِشَيءٍ مِنَ السِّحرِ، وَلَو عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

فالسِّحر شُعَب كثيرة، فمَن صَدَّق بشيءٍ من السِّحر؛ كأن صدَّق بالتَّنجيم المُؤثِّر؛ فهو متوعَّد بألَّا يَدخُلَ الجنَّة.

ومعنىٰ قوله: (وَلَو عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ): أي: ولو عرَفَ أنه من صُنعِ أهلِ البَاطل، أو: ولو عَرفَ أنه حَرَام.

فبَعضُ الناس يَقُول: نعَم هذا (التَّنجيم)، و(اعرف حظك)، هذا حَرَام؛ لكن نَرَىٰ حظَّنا!

فهُوَ هنا يُصَدِّق بهِ، بقَولِه أو عَمَله!

بقَوله: كأن يسأل المُنَجِّمين.

أو عمَلِه: كأن يَفتَح الجَريدة كلَّ يوم علىٰ (حظك هذا اليوم)، ونحوه.

وهذا كُلُّه مع عِلمِه بتَحريمه وبُطلانه، وكَونِه كذبًا، فهذا -والعياذُ بالله- وقَع في كَبيرَةٍ عظيمَة من كبَائر الذنُوب.

✽✽✽

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الاستِسقَاءِ بِالأَنوَاءِ.

الشرح

وهذا آخِرُ الأبوابِ التي عقدَها الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أمورٍ يكثُر وقوعُها من جماعَاتٍ ممَّن ينتسبونَ إلىٰ الإسلام، وهي كُفر، أو شُعبَة من الكفر، وهو مُتعلِّق بالباب الذي قبلَهُ من جهة تعلُّقِه بالنجوم.

وقد تقدَّم في (بَاب ما جَاء في التَّطيُّر): أنَّ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَلَا نَوء**»[1]؛ ولذلكَ نَاسَب أن يتكَلَّم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا عن الاستسقَاءِ بِالأنوَاء.

والأنوَاء: جمعُ (نَوْء)، من (نَاء)، بمعنىٰ: مال إلىٰ السُّقوط، أو: نَهَض بتثَاقُل، أي: كأنه يَحمِلُ شَيئًا ثَقيلًا، فالجامعُ بينَ المَعنَيين: الثقل.

وسُمِّيت (الأنوَاء) بذَلك؛ لأن النَّوء نَجم إذا غابَ مع طُلوع الفَجر طَلَع في قبالَتِه وفي حِيَاله نَجمٌ في تِلكَ السَّاعة من الجِهَة المُقَابلة، يعني: إذا غابَ النَّجم عند الفَجر في جِهَة المَغرِب ومال إلىٰ السُّقُوط طلَعَ مُبَاشرة في نفس اللحظة نَجمٌ يُسَاويه في جهة المَشرِق.

وقَد يُرَاد بالنَّوء: الكَوكَب، والعُلماء المتقدمون يقولون: إن الأنواءَ عندَ العرب ثمَانية وعشرُون نَجمًا، تَعرفُ العربُ مَطالِعَها، وتُسَمِّيها بأسمَاء، وهي

(١) تقدم تخريجه (ص٥٩).

في أزمنة السَّنة كلها من بداية السَّنة إلىٰ نهايتها، كُلما سقط نجمٌ منها طلعَ نَجمٌ آخر حتىٰ تَنتهي السنَةُ.

والعربُ في الجاهلية كانوا يَقُولون: إذا طلع النَّوء هاجَت الرياحُ، ونَزَلت الأمطَارُ، ثم أصبَحُوا ينسبُونَ نزول المَطَر إلىٰ النوء، ويقولون: مُطِرنَا بنوء كذا؛ أي: الذي أمطَرَنَا هُو نَوءُ كَذا.

ومَعنىٰ (الاستسقَاء) هُو: طلبُ السُّقيا؛ لأن (الألف والسين والتَّاء) تَدُل علىٰ الطلب، فمَعنىٰ (استسقىٰ): طَلبَ السُّقيَا.

والمُراد بالاستسقَاءِ بالنُّجوم هُنا أمُور:

الأمرُ الأول: طَلبُ المَطر من النُّجُوم يَعني: الاستغاثَة بالنُّجوم، بالنَّوء، بالكَوكَب، فيُقال: يا نوء ارزقنا المَطَر، وهذا شِركٌ أكبر؛ لأنَّ الدعاءَ عبَادة، وهذا شرك أكبَر في الألوهِيَّة.

ومِثلُه: أن يطلُبَ المطَرَ من المَخلُوقات كالجِن مَثلًا بالسؤال أو التقرُّب.

فبعضُ المسلمين من أهل القُرىٰ في الجِبَال إذا غاب المَطر يَذبَحُون ذبائحَ، ويتركونَها في رءوسِ الجبَال، ويَطلُبون بهذا المطر، فَهُم لا يذبَحُونها لله؛ بل يَذبَحُونها للجِنِّ، وهَذا -والعياذ بالله- مِن الشِّركِ الأكبَر.

وبَعضُ الناس إذا قَلَّ الماءُ في النهر يأتُونَ ويَرمُون أشياءَ في النهر، كأموَالٍ، وبَعضُهم يرمُون ورودًا في النهر، وبعضُهم يرمونَ حيواناتٍ في النَّهر ليَفيض الماء، فهؤلاءِ يتقرَّبُون بهذا إلىٰ غيرِ الله، وهذا شِركٌ أكبَر!

وهذا مَأخُوذ من المُشركين القدامَىٰ، الذينَ يجعلُونَ لكُل شيءٍ إلَهًا، ويعتقدون أن إلَهَ المَاءِ في الأنهار، فكانُوا إذا لم يَأتِ فَيضَانُ النَّهر في عامٍ قَدَّمُوا فتاةً ورَمَوها في النهر إلىٰ هذا الإلَه، وانتقَلَ هذا لبَعضِ المُسلمين، وهذا مِنَ الشِّرك الأكبَر.

والأمرُ الثَّاني: نسبَةُ المطَر إلىٰ النجُوم والأنوَاء؛ فيُقَال: مُطِرنا بنَوء كذَا.

- فإذا اعتقَدَ أن النَّوء هو المُؤثِّر، وهو الذي أوجدَ، وهو الذي أنزلَ؛ **فهَذا شِرك أكبَر يُخرج من المِلَّة**.

- وإن اعتقَدَ أن المُوجِد هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولكن النَّوء سببٌ؛ فهذا شِركٌ أصغَرُ؛ لأنه جعل ما ليس سَببًا شرعيًّا ولا عَاديًّا سَببًا.

وهُنا سُؤال: هل يجوز لنا أن نَقُول: مُطِرنا في نَوء كذَا أو: يَنزلُ المَطرُ عَلينا في نَوءِ الثُّريَّا؟

الجوَاب: هذا ليس من المَمنُوع؛ لأن هذا زمَان حُصُول الأمر، كما يَقُول: مُطِرنا في الصيف ، مُطِرنا في الشتاء، مُطِرنا في شهر مُحَرم، مُطِرنا في نَوءِ كذا.

أو تقولُ: العادةُ أن المطَرَ ينزل علىٰ بلادِنا في الثلاثِ الأشهُر الأولىٰ من السنة المِيلاديَّة.

هنا أنتَ تَعتقدُ أن الذي يُنزلُ المطرَ هو الله، ولا تجعَل النوء والوقتَ سَببًا، ولكنَّك تُخبِر عن الزمَن المُعتَاد لنُزول المَطر، فإن شاء الله أنزَلَ المَطَر في هذا، وإن شاءَ لم يُنزِله.

لَكِن نَصَّ أكثر العُلماء علىٰ أنَّ قولَ: «مُطِرنا في نَوء كذا» مَكرُوه، لكَرَاهة التشبُّه في اللفظ؛ لأنه قَريبٌ مِن قَول: «مُطِرنا بِنَوء كذا».

فيُكره أن يقول الإنسَانُ: مُطِرنا في نوء كذا، وإنما يقول: مُطِرنا في شَهرِ كذَا، أو: مُطِرنا في فَصل كذا.

وَالأمرُ الثَّالث: نسبَةُ النِّعمَة باللفظ إلىٰ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليسَت النسبَةُ هنا باعتقَادِ التأثير أو السَّببية؛ وإنمَا بنِسبَة النعمَة باللفظ؛ فيُقَال: مُطِرنا بنوء كذا؛ وهذا نوعٌ مِن أنواعِ الشِّرك الخَفِي، وهو شِركٌ يتعَلَّقُ بالألفاظ، حيث يَعرفُ العبدُ نِعمَةَ الله ثم يُنكِرُها بلسَانه؛ حيث ينسبُها إلىٰ غيره، وقد لا يشعُرُ بذلك شعورًا بَيِّنًا ولذلك هو خَفي، مثل أن يقال: لولا الكَلبُ لسُرِقنا، فنَسب هذه النعمَةَ إلىٰ الكَلب، وغفَلَ قَلبُه باللفظ عن الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهذا شِركٌ خَفِي.

وهذا عند أهل العِلم يُسمَّىٰ «شِرك الألفَاظ»، وليس الشِّرك في المُعتَقد، وهذا الشِّركُ الخَفي لا يُخرِجُ من الملَّة، ولكنه حرَامٌ، كما سيأتي بيَانُه إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

الشرح

هَذه الآيةُ جاءَت في سياقِ الذَّم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿وَتَجْعَلُونَ﴾): أي: تُصَيِّرون.

(﴿رِزْقَكُمْ﴾): أي: شُكرَكُم. علىٰ ما فَسَّرها كثيرٌ من السَّلف، ومِنهُم ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[1].

فمَعنىٰ الآيَة: أنَّكم تُصَيِّرون شُكرَكم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ نِعمَة المطر أنكم تُكذِّبون فتَنسِبُون هذه النعمة إلىٰ غير مُسدِيها، فتَقُولون: مُطِرنا بنوء كذا، وصَدَق نوء كَذا، ونحو ذلك من العبَارَات القَبيحَة التي تُنسَب فيها نعمَةُ المَطَر إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا يَدُل علىٰ أنه لا يَجُوز أن يُنسَب المطر إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ، وإلىٰ غَيرِ رَحمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقد تَقدَّم بيان أنَّ هذه النسبة يختلف حُكمُها بحَسَب الاعتقَاد.

❀❀❀

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٧٠).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَربَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَترُكُونَهُنَّ: الفَخرُ بِالأَحسَابِ، وَالطَّعنُ فِي الأَنسَابِ، وَالاستِسقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَم تَتُب قَبلَ مَوتِهَا؛ تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ وَعَلَيهَا سِربَالٌ مِن قَطِرَانٍ، وَدِرعٌ مِن جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

الشرح

قالَ: (أَربَعٌ): أي: أربع خِصَال، وليس المَقصُود هنا الحَصر؛ وإنَّما المقصُودُ عدَّ هذه الأربع.

(فِي أُمَّتِي): أي: تكُونُ في أمة الإجابَةِ ولا تَنقَطِعُ.

قَال العُلمَاء: والمقصُود أنها تُوجَد في مَجمُوع الأمة، لا من جَميع الأمَّة، فهي تقَعُ من بعضِ الأفراد لَا من جَميع المُسلمين؛ بل هناك من الأمَّة من يَسلَمُ منها.

(مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ): أي: من شَأنِ الجاهليَّة، ومن صِفَات أهل الجاهليَّة.

والجَاهليَّة هنا: المُرَاد بها: الجَاهليَّة المُطلَقة، وهي مَا بينَ انقطاعِ الرسُل وبعثَة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ المَعلُوم أن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِث علىٰ انقطَاع وفَترَة من الرسُل، فمَا قَبلَ بعثة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ بعثة عيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو فَترةِ

---

(١) برقم (٩٣٤).

الرسُل، هذه تُسَمَّىٰ (جاهلية مُطلَقة) نِسبَة إلىٰ الجَهل؛ لأن الغالب عليها هو الشِّرك والكُفر والمَعَاصي، وكُل مَن عصَىٰ الله فهو جَاهل.

وهذه الجاهلية قد انفصَمَت ببعثَةِ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلن يَكُون في الأرض بَعدَ بعثَةِ مُحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاهليَّة مُطلَقة، أو جَاهليَّة عامَّة؛ لأن هنَاك طائفَةً من أمة مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصُورَة، وفرقَة ناجيَة تتمَسَّك بالحَقِّ، وتُظهِرُ الحَقَّ حتىٰ يَأتِي أمرُ الله، وإنمَا تُوجدُ جاهلية نِسبيَّة؛ كأن تُوجَد في مكان دُونَ مَكَان، أو في فَردٍ دُونَ فَردٍ، أو يتَّصفُ فرد بصِفَةٍ من صفَاتِ الجَاهليَّة.

ولذلكَ لمَّا تسَابَّ أبُو ذَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معَ رَجُلٍ فعَيَّره بِأمِّهِ قَالَ لَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَعَيَّرتَهُ بِأُمِّهِ؛ إِنَّكَ امرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**[1].

إذن؛ الجَاهليَّة النِّسبيَّة قد تُوجَدُ في أمَّة مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(لَا يَترُكُونَهُنَّ): أي: أن هذه الصِّفَات والخِصَال لن تنقَطعَ بالكُليَّة من أمَّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(الفَخرُ بِالأَحسَابِ): **الفَخرُ**: هو التَّعَالي والتَّعاظم علىٰ النَّاسِ، والفَخرُ خُلُق مَذمُوم في ذاته، ومن صفَات المُؤمِنين: التَّواضُع.

قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ أَوحَىٰ إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ»**. روَاهُ مُسلِم[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠).

(٢) برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ اللهَ أوحَىٰ إليَّ**»: لتَأكيد الأمرِ وتَعظيمِه في النفوس، وإلا فَكُلُّ السُّنة وحيٌ من الله، فَالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق إلا بالوَحي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هذا لاستِثَارَة النفُوس.

والأحسَاب: هي شَرفُ الآباء والأجداد، وقد يُراد بها شَرفُ الإنسان نَفسِه.

والفَخرُ بالأحسَابِ مَعنَاه: تَعدادُ الإنسانِ شَرفَه، والخِصَال التي تكون فيه وفي آبائه وأجدَاده علىٰ سبيل التعَاظُم والتعَالي علىٰ الناس. وهذا من صفَاتِ أهلِ الجاهلية.

وهل هذا يَعني أن الأحسَاب غير مَوجُودة؟!

الجَواب: لا، بل الأحسَاب ثابتَة، وتفَاضُل الناس في الشَّرف بحَسَب الأصول ثَابت.

ولذلك سألَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: **أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ**. قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: **فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللهِ**. قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: **فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي**؟، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: **فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**»[1].

فالنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُنكِر عليهم أن للعَرب معادِنَ وأحسابًا؛ بل أثبَتَ هذا، ولكن بَيَّن لَهُم أن الخيريَّة ليست بالحَسَب المجرَّد؛ وإنما خيَارُهم في

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهُوا، فإذا جمع الإنسانُ بين شرفِ الحَسَب وتَقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فهَذا أعظَمُ وأرفَعُ لشَأنِهِ، أمَّا إذا كان الشَّخصُ حَسيبًا لكنه قَليلُ التقوىٰ؛ فإنَّ هذا ليسَ فيه شَرفٌ وكَرَم، فمَن كانَ مِنَ الأشرفِ في الجَاهليَّة وأسلَم، وكانَ فَقيهًا؛ فإنه شَريفٌ.

أيضًا جاء عن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قولُه: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[1]. فأثبتَ الحَسَب، وأن هناك حَسَبًا؛ لكنَّه بَيَّن أن الخيريَّة في أن تُنكَح المرأة لدِينِهَا.

إذن؛ الحَسَب من حيثُ ذَاته ليس مَنفيًّا، ولكن الحَرَام أن يتَعَالىٰ الإنسَانُ ويتعاظَمُ به علىٰ الناس، أو يُنسَب الكرم إليه مجردًا.

ولذلك قال النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُه**». روَاه مُسلِم[2].

فالعبرة بالتَّقوىٰ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. وإذا جمَع اللهُ للعبد شَرفًا في حَسَبه وتُقًىٰ؛ فهذا نُور علىٰ نُور.

والشَّاهد: أن الفخرَ بالأحساب والتعَاظُم علىٰ الناس واحتقَار الخلق لشَرفِ الإنسَانِ مُحرَّم، ومن صفَاتِ أهلِ الكُفر، وليس من صفَاتِ أهلِ الإيمَان .

(**وَالطَّعنُ فِي الأنسَابِ**): **والنَّسَب**: نِسبَة الإنسان إلىٰ آبائِه وأجدَاده.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) برقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والطَّعنُ في الأنسَاب يُرَاد به أمرَان:

الأمرُ الأوَّل: التَّشكيك في نَسَب الناس المَعرُوف، فيأتي إنسَانٌ يَقُول: أشك أنَّ فُلانًا هو ابن فُلان، أو يَقُول: أشُك أنَّه من القبيلة الفُلانية، وهو مَنسُوب إليها، ومَعرُوفٌ بالنِّسبَة إليهَا.

فالتَّشكيكُ في الأنسَاب الثَّابتة المُستَفيضة بين الناس لا يَجُوز، وهو من صفَاتِ أهل الجَاهليَّة.

والأمرُ الثَّاني: عيبُ أنسابِ الناس وشَينُها، ووَصفُها بالقُبح، فيَنسب الشخصَ أو القبيلَة أو النَّسب المُعَيَّن إلىٰ العَيبِ والقُبح، وهذا أيضًا من صِفَاتِ أهلِ الجَاهليَّة.

والغَالبُ هو التَّلازُم بين الفَخرِ بالأحسَابِ والطَّعن في الأنسَابِ، فتَجدُ أن من يَفخَر بنَسبِه وحَسَبه يطعَنُ في أنسابِ الناس.

وهما صفتَانِ ذَميمَتان قَبيحَتان ليستَا من صفات أهلِ الإيمَان، فكيفَ إذا اجتمَعَتا؟!؛ فإنَّ الأمرَ يكون أقبَحَ وأشَدَّ نكَارَة.

(**وَالاستِسقَاءُ بِالنُّجُومِ**): الاستسقَاء بالنُّجوم هُو المُرَادُ هنا، وهو علىٰ المَعَاني الأربَع التي قدمنَاها في الاستسقَاءِ بالأنوَاءِ.

وهو هنا طلبُ المَطر من النُّجُوم، ونسبَة إيجَادِ المَطَر إلىٰ النجُوم والكَوَاكب، واعتقَاد أن الكواكبَ هي سَببُ نُزول الأمطَار، ونسبَة هذه النعمَة باللفظ إلىٰ الكَواكب.

وهذا يقع من أهل الجَاهليَّة؛ فإن كثيرًا من أهل الجَاهليَّة يَعتَقدُون أن الذي يُنزِلُ المطرَ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنهم يَنسبُون هذه النِّعمَة إلىٰ الأنوَاء والكَواكِب.

فهذه الأمورُ الأربعَة من صفَاتِ أهل الجَاهليَّة؛ أعني في الأمور الأربعَة في الاستسقَاءِ بالنُّجوم من صفات أهل الجاهلية، وحُكمُها يَختلفُ كمَا ذكرنَا في مقدمَة الكَلام.

(**وَالنِّيَاحَةُ**): والنَّوح: هو صَوتُ الحمَام، والنِّياحَة: هي رَفعُ الصَّوتِ عندَ المُصِيبةِ، وشقُّ الجَيبِ ونحو ذلك، وهي مُنافِيةٌ للصَّبر الوَاجبِ.

ومعنَىٰ ذَلك: أن أهلَ الجَاهليَّة إذَا ماتَ الميِّت، يَبكُون عليه بطريقة مُعيَّنة، لإظهار الجزَع، وهي طريقة تُشبِه نَوحَ الحَمَام، فيُظهِرُون أنهم يَبكُون من قُلوبِهم جزَعًا، فيكونُ كأنَّ الصوتَ يخرُجُ من القَلب، وهذه أفعالٌ قَبيحَةٌ منكرة، وهذا حرَام.

أما البكاءُ ودَمعُ العين والصَّوت المُعتَاد الذي يَغلب علىٰ الإنسَان من غير إظهَار الإنسانِ له، فهذا من الرَّحمَة التي جعلها الله في قُلوب العبَاد، وليسَ علىٰ سبيل إظهَار الجزَع، فهذا ليس حَرَامًا، فليسَ المَطلُوب من المؤمن إذا بَلغَه نَبأ موتِ قَريبٍ له ألَّا يَبكي، وإنما الحَرَامُ أن يَجزَعَ ويُظهِرَ الجزَعَ والتسَخُّط.

فالنيَاحة من صفات أهل الجاهليَّة، وليسَت من صفَاتِ أهل الإيمَان، فصفَاتُ أهل الإيمَان: الصَّبر علىٰ أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبَعضُ الناس تَرقَىٰ نفسُه حتىٰ يَرضَىٰ بقدَرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والصبر واجب -كما سيأتينا -إن شاء الله- في باب: من الإيمان بالله الصَّبر علىٰ أقدَار الله-، والرضَا سُنَّة مُستحبة، ولا يُطيقُه كل أحد، وإنمَا يُطيقه من أنارَ الله بَصيرتَه؛ فرَأىٰ المِنحَة في المِحنَة؛ لكن الواجبَ هو الصَّبر، والبُكاء لا يُنافي الصبر، وإنمَا الذي يُنافيه ما فيه سخط، وإظهَار للتفَجُّع والجَزَع.

(**وَقَالَ: النَّائِحَةُ**): يعني: المَرأة النائحة، وخَصَّ المَرأة مَع أن النياحَةُ تَقعُ من الرجُل والمرأة؛ لأن الأغلبَ أن النياحَةَ تكونُ من المَرأة، وهذا موجُود في النسَاءِ إلىٰ اليَوم، وإلا فالنيَاحَةُ حَرام، والعقوبةُ واحدةٌ سَواء كان النائحُ رَجُلًا، أو كانَت النائحَةُ امرَأة، وهذا من خِصَال أهل الجاهليَّة.

(**إِذَا لَم تَتُب قَبلَ مَوتِهَا**): في هذا دَليلٌ علىٰ سعَةِ رَحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ العبدَ مَهما أذنبَ، وسَواء جاءَ بذُنوب كثيرة، أو بذُنوبٍ عظيمَة، فتَابَ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ الذنبَ يَسقُط ويُمحىٰ بالكُليَّة كأنه ما فَعَله أصلًا؛ بل يَفرحُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعَبدِه التائب، ويبدل سَيئَاتِه حسَنات!

فهذه النائحة إذا لم تتب قبل أن تتيقن المَوت، بأن غَرغَرت، ووَصَلت الرُّوح إلىٰ مكَانٍ يعلم الإنسان أنها خارِجَة فتَابَت؛ فإن هذه التوبَةَ لا تَنفَعُ.

وقَد اختلفَ العُلمَاء: هل إذا تيقن العبدُ الموتَ بغير الغَرغَرة ووصول الرُّوح إلىٰ الحُلقُوم لا تَصِحُّ تَوبَتُه، وذلك كَمَن أُصيب بمَرض قال الأطبَاء: إنه سيَمُوت منه، ولا نَعرِفُ له عِلاجًا، وهذا مرضٌ فتَّاك يموت صاحبه.

فهَل إذا تَابَ في هذه الحَال تُقبَل توبَتُه، أم أنه يكُونُ كالذي تيقَّن الموتَ بالغرغرة ووصُولِ الرُّوح إلىٰ الحُلقُوم؟

الرَّاجِحُ مِن أقوَالِ أهلِ العِلم: أن توبته تُقبَل؛ لأنه مَهمَا يكن من أمر فَإنَّه لايزالُ يَرجُو الحيَاة، ويَبقىٰ له من الحيَاةِ مَا يَستلِذُّ به، فإذا أقبَل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأطاع الله وتابَ مُخلِصًا في توبَته، وَلا يزالُ يَرجُو في الدنيَا بَقاءً؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتوبُ عليه، ويَقبَل منه توبَتَه، وهذا ليسَ كالذِي بلغَت فيه رُوحه الحُلقُوم. هذا هو الرَّاجح من أقوال أهلِ العِلم.

وأمَّا التوبة بعدَ تيقُّن المَوتِ إذَا بلغت الروحُ الحُلقوم؛ فهذه لا تكونُ مَقبُولة؛ كتَوبَةِ فِرعَون لمَّا غَشِيه اليَم ورَأىٰ أنهُ غَرق قَال: آمنتُ أنهُ لا إلَه إلا الذي آمَنَت به بنو إسرَائيلَ، فلم يُقبَل ذلك منه.

(تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ): **قال بعضُ أهلِ العلم**: معنىٰ (تُقَام): تُحشَر يَوم القِيَامَة.

وقَال بَعضُ أهل العِلم: بل تُقَام بين الناس علىٰ سَبيلِ الخِزي لها والفَضيحَة -والعيَاذُ بالله- يوم القيامَة.

(وَعَلَيهَا سِربَالٌ مِن قَطِرَانٍ): **(السِّربال)**: هو القَميص.

و**(القَطِرَان)**: **قال بعضُ العلمَاءُ**: هو مادة تُستَحلبُ من شجر مُعَين، تُطلىٰ به الإبلُ إذا أصابَهَا الجَرَب، وهي مادَّة شديدةُ الحرارَةِ فتُحرِقُ الجرَب، وهي شديدة الاشتعَال.

وبَعضُ أهلِ العِلم قالُوا: هي الزِّفت، لكن الزِّفت مادَّة لم تَكُن مَعرُوفةً في القديم، فالصَّحيحُ ما قالَهُ العُلماء المُتقَدِّمون.

(وَدِرعٌ مِن جَرَبٍ): **(الدِّرعُ)**: هو اللبَاسُ الذي يلي الجَسَد.

والمَعنىٰ: أنه يُسَلَّط عليها الجَرَب والحِكَّة في جسدها، ويُغَطِّي جسدَها فيكون كدِرعِ المرأة الذي يَلي جسَدها.

والقَطِران هنا لا يُحرِق الجَرَب؛ لكنه يزيدُها حرَارةً وألمًا، فيجمع لها بين ألم الجَرَب وحرارة القطران -والعيَاذُ بالله-، وهذا في المَحشَر، فكيف بمَا بعدَه؟!

وهذا يَدُل علىٰ أن النِّياحةَ من الكبائر العظيمَة، ومن الذنُوب الكَبيرَة.

والمَقصُود: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذِّر من هذه الصِّفاتِ، وفيه تَنبيهٌ للمُؤمنِ حتىٰ يَكونَ أشَدَّ حذرًا من هذه الصفاتِ التي هي من صفَاتِ أهلِ الجَاهليَّة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا عَن زَيدِ بنِ خَالِدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الصُّبحِ بِالحُدَيبِيَةِ عَلَىٰ إِثرِ سَمَاءٍ كَانَت مِنَ اللَّيلِ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَقبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ، فَقَالَ: «هَل تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِفَضلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ».

الشرح

(**وَلَهُمَا**): أي: للشَّيخَين: البُخاري ومُسلم، فهذا الحَديث مُتَّفق عليه[1].

(**قَالَ: صَلَّىٰ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**): والمَعنَىٰ: صلَّىٰ بنَا، كما في بعض الروايات عند مسلم[2] وغيره.

وقوله: (**صَلَّىٰ لنَا**)؛ لأنَّ الإمامَ يُصَلِّي للناس، وذلك كمَا قالَ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُصَلُّونَ لَكُم**»[3].

(**صَلَاةَ الصُّبحِ بِالحُدَيبِيَةِ**): (**الحُدَيبيَة**): المَكان المعروفُ بجوارِ مَكَّة، وهو الذي وقَعَ فيه الصلحُ المَشهُور بينَ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفارِ قُريش، وكان فَتحًا

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٢) الموضع السابق نفسه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عظيمًا؛ إذ جعلَه الله عَزَّوَجَلَّ **سَببًا لفَتح مكة، فهَذا المكَانُ صلَّىٰ فيه النبيُّ** صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بالناس صَلاةَ الصُّبح.**

(عَلَىٰ إِثرِ سَمَاءٍ كَانَت مِنَ اللَّيلِ): أي: عَقِب مَطَرٍ نزَل باللَّيل، وسُمِّي المطر (سمَاءً)؛ لأنه يَنزِلُ من السمَاء؛ ولأنه رِزق، ورِزقُنا كما أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ في السَّمَاء: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات:٢٢].

فكَانَ الناسُ قد مُطِروا بفَضلِ الله ورحمَته في الليل.

(فلَمَّا انصَرفَ أَقبَلَ عَلَىٰ النَّاسِ): وقد كانَ من سُنَّة النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّه إذا سَلَّم من صَلاته، بعد أن يُصَلِّي بالناس يقول: «**أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهُمَّ أنت السَّلام، ومنك السَّلام، تبَارَكتَ يا ذا الجَلال والإكرَام**»[1]. وهو مُتَوجِّه إلىٰ القِبلَة، فإذا قالَها انصَرَفَ، وأقبلَ علىٰ الناس بوَجهِه، فلا يأخُذُ ذاتَ اليَمين أو ذات الشِّمال، وهذا هو السُّنَّة أن يُقبلَ الإمامُ علىٰ المَأمومِين بوجهِهِ كما كان يَفعلُ النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلكَ.

(فَقَالَ: هَل تَدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟): وهذا أسلُوبُ تَشويق ولَفتٌ للقُلُوب؛ لأن المَعلُوم أنَّهم لا يَدرُون ماذا قال الله عَزَّوَجَلَّ، فهَذا ليسَ سُؤالًا ليُعرَف الجَواب؛ وإنَّما لتَشويقِ النُّفوس إلىٰ ما فيه، وهذا من أسَاليبِ النَّبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تَعليم الناس، ويُؤخَذ منه: أنه يَنبَغي علىٰ الخطيبِ والدَّاعيَةِ والواعظِ والمُعلِّم أن يُخاطبَ الناسَ بمَا يَصِلُ إلىٰ قُلوبهم، وبما يَلفتُ أنظارَهُم ويُشَوِّقُ نفوسَهُم إلىٰ كَلامِه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(**قَالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ**): وهذَا من الأدَب، فإنَّهم ما قالوا: لا، ولو قالوا: لا؛ لكانَ ذَلك سائغًا، لكنَّهُم أحالُوا العِلمَ إلىٰ مَن يعلم، فقالوا: (**اللهُ أعلَمُ**): فالله عَزَّوَجَلَّ علمُه أحاطَ بكُل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**ورَسُوله أعلَمُ**): وهذا يُقَال في زمَن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوحَىٰ إليه وهو حَي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بعدَ مَوته: فهل إذا سُئلَ المسلم عن شيءٍ يقُول: (الله ورَسُوله أعلَم)؟

هذا فيهِ تَفصِيل: فإن كان الأمرُ ممَّا يتعلق بالدِّين والديَانَة، فإنه يُقَال: (**الله ورَسُوله أعلَم**).

أما إذا كانَ الأمرُ ممَّا يتعَلَّقُ بنوازِلِ الناس وما يَقعُ للناس بعد وفاةِ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لا يَجُوز أن يُقَال: (**اللهُ ورَسُوله أعلم**)، وإنمَا يُقَال: (**الله أعلَم**).

والنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ القيامة عندمَا يأتي أقوامٌ من أمته يَعرفُهم بسِيماهُم، وهو أثرُ الوضُوء عليهِم، يأتُون ليشرَبُوا من حَوضِه، فيَذُودهُم الملائكة عن الحَوض، فيَقُولُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[1].

فوقائعُ النَّاسِ وأحوَالُهُم وما وقعَ لهم بَعدَ موتِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلَمُ به إلا ما أخبَره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فأخبَرنَا ببعض الوقائع

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التي تقعُ في المُستقبل؛ كأشراطِ السَّاعة ونحوها، وإذَا لم يكن الأمرُ متعلِّقًا بأمورِ الديَانَة، فإنَّه بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنمَا يُقال: **(اللهُ أعلَم)**.

(قَالَ: قَالَ): أي: قال رسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومِن هُنا يُصبحُ الحَديث قُدسيًّا؛ لأن هذا قَولُ الله عَزَّوَجَلَّ، حكَاهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ): و(أصبَح) هنا تَصلُح أن تكونَ علىٰ بابِها فتكون من (الصُّبح)، وتَصلُح أن تكون بمعنىٰ (صار)؛ أي: صارَ مِن عبادي... وكل الناسِ عبادُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وكَافِرٌ): أي: كافر بي.

(فَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِفَضلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوكَبِ): لأنه اعتقَدَ أن المُنعِمَ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأضافَ النِّعمَة إلىٰ مُسدِيها، فكانَ اعتِقَادُه حَسَنًا، وكان لَفظُه حَسنًا:

- **كان اعتقاده حسَنًا**؛ لأنه اعتقدَ أن المُنعِم بالمطر هو الله، وأن الذي أنزَلَ المطرَ هو الله.

- **وكان لَفظُه حسنًا**؛ لأنه أضافَ النعمَة باللفظ إلىٰ مُسدِيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومعنَىٰ **(كَافِرٌ بِالكَوكَبِ)**: أنه كافِرٌ بما يعتقده المُشركون في الكَوكب، لا أنَّه كافرٌ بوجودِ الكوكب ولا بمَسِير الكواكب، وإنما كافِرٌ بما يعتقده أهلُ الجاهليَّة في الكوكب من كَونِه يُنزِلُ المطَرَ، أو كونه سببًا لهذا المَطر، أو من إضافَةِ هذه النِّعمَة إليه.

(وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطِرنَا بِنوءِ كَذَا وَكَذَا): أي: بنَجمٍ وكَوكبٍ كذَا وكذا.

(فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ): وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما حكَاهُ عنه نَبيُّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَافِرٌ بي): الأمر فيه -كما قال الإمام الشافعيُّ- **يحتمِل عدَّة معَانٍ**:

قال الإمَامُ الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ: «وَرَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بِأَبي هُوَ وَأُمّي- عَرَبيٌّ وَاسعُ اللّسَان يَحتَملُ قَولُهُ هَذَا مَعَاني، وَإِنَّمَا مُطرَ بَينَ ظَهرَانَي قَومٍ أَكثَرُهُم مُشركُونَ؛ لأَنَّ هَذَا في غَزوَة الحُدَيبيَة.

- **وَأَرَىٰ مَعنَىٰ قَوله هَذَا -وَاللهُ أَعلَمُ-**: أَنَّ مَن قَالَ: مُطرنَا بفَضل الله وَرَحمَته فَذَلكَ إيمَانٌ بالله؛ لأَنَّهُ يَعلَمُ أَنَّهُ لَا يُمطرُ وَلَا يُعطي إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

- وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطرنَا بنوء كَذَا، عَلَىٰ مَا كَانَ بَعضُ أَهل الشِّرك يَعنُونَ من إضَافَة المَطرِ إلَىٰ أَنَّهُ أَمْطَرَهُ نَوءُ كَذَا، **فَذَلكَ كُفرٌ** كَمَا قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأَنَّ النَّوءَ وَقتٌ، وَالوَقتُ مَخلُوقٌ، وَلَا يَملكُ لنَفسه وَلَا لغَيره شَيئًا، وَلَا يُمطرُ وَلَا يَصنَعُ شَيئًا.

- وَأَمَّا مَن قَالَ: مُطرنَا بنوء كَذَا عَلَىٰ مَعنَىٰ: مُطرنَا في وَقت نَوء كَذَا؛ فَإنَّمَا ذَلكَ كَقَوله: مُطرنَا في شَهر كَذَا، فَلَا يَكُونُ هَذَا كُفرًا، وَغَيرُهُ منَ الكَلَام أَحَبُّ إلَيَّ منهُ.

- أُحبُّ أَن يَقُولَ: مُطرنَا في وَقت كَذَا»[1].

---

(١) «الأم» للشافعي (١/ ٢٨٨ دار المعرفة).

وخُلاصة بيَانِ ما قاله الإمامُ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: **أن قولَه تعَالىٰ: (كَافِر بِي)**:

- يحتمل أنه كافر كُفرًا أكبر لا يبقَىٰ معه إيمانٌ؛ بل هو قول يَنقضُ الإيمانَ بالكلية: وذلك إذا اعتقَد أن هذا النوء وهذا الكَوكبَ هو الذي أنزل المَطَر، فأضافَ إيجادَ المَطر وإنزاله إلىٰ الكوكب؛ **فهَذا كفرٌ أكبَر**.

- وإن اعتقَد أن النوءَ سببُ نُزول المَطر، وأن حركَتَه وسُقوطَه في تلك الليلة، وظهُور الكوكَب الآخر الذي يُقَابله هو سَبب المطر؛ **فهذا كفرٌ أصغَر**، لا ينقضُ الإيمانَ ولكنه يُنقِصُه: فالكَواكبُ كلها ليسَت سببًا لمَا يحدُثُ في الكَون، وإنما قد تكونُ وقتًا، وهذا معنىٰ قول بعض أهل العلم: إنَّها سَبَب؛ وقصده من ذلك إذا قَرأتَ كَلامَه كُله، تَجدُ أن المقصُودَ أنها وقتٌ لحُصول كذا.

فيقولون: إن القمرَ إذا كان في كذا فهُو سببٌ للمَد والجَزر، يعني: أنه وقت حصُول المد، أو وقت حصول الجزر، فمن جعلها سببًا؛ **فهذا كفرٌ أصغَر**.

- ومَن أضافَ نعمة المَطر إلىٰ الكوكب باللفظِ فَقط؛ **فهَذا كفرُ النِّعمة**.

وقد قال ابنُ عبد البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **الإمام الفَقيه المَالكي المتفنن كَلامًا حسنًا هنا؛ حيث قالَ**: «وأما قَولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاكيًا عَن الله عَزَّوَجَلَّ: «**أَصبَحَ من عبَادي مُؤمنٌ بي وَكَافرٌ**» فَمَعناهُ عِندِي عَلَىٰ وَجهَين:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ القَائلَ: مُطرنَا بنوءِ كَذَا؛ أَي: بسُقُوط نَجم كَذَا، أَو بطُلُوع نَجم كَذَا، إن كَانَ يَعتَقدُ أَنَّ النَّوءَ هُوَ المُنزلُ للمَطَر، وَالخَالقُ لَهُ، وَالمُنشئُ للسَّحَاب من دُون الله؛ **فَهَذَا كَافرٌ كُفرًا صَريحًا يَنقُلُ عَن الملَّة**، وَإن كَانَ من أَهلهَا استُتيبَ، فَإن رَجَعَ إلَىٰ ذَلكَ إلَىٰ الإيمَان بالله وَحدَهُ وَإلَّا قُتلَ إلَىٰ النَّار.

- وَإن كَانَ أَرَادَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ النَّوْءَ عَلَامَةً للمَطَر، وَوَقتًا له، وسَببًا من أسبَابِه... **فَهَذَا مُؤمنٌ لَا كَافرٌ**، وَيلزَمُهُ مَعَ هَذَا أَن يَعلَمَ أَنَّ نُزُولَ المَاء لحكمَة الله تَعَالَىٰ وَرَحمَته وَقُدرَته لَا بغَير ذَلكَ؛ لأَنَّهُ مَرَّةً يُنزلُهُ بالنَّوء وَمَرَّةً بغَير نَوءٍ، كَيفَ يَشَاءُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ.

وَالَّذي أُحبُّ لكُلِّ مُؤمنٍ أَن يَقُولَ: مُطرنَا بفَضل الله وَرَحمَته»[1].

فقولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسَببًا من أسبَابِه»، ويَعني بالسَّبب: أنه علامةٌ ووقتٌ؛ **لأنه** قال: «عَلامةً ووَقتًا »، وهذا بنَفسِ المَعنىٰ.

۞۞۞

(١) «الاستذكار» (٢/ ٤٣٧/ دار الكتب العلمية).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا: مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ مَعناهُ. وَفِيهِ: «قَالَ بَعضُهُم: لَقَد صَدَقَ نَوءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنزَلَ الله هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢]».

الشرح

(**وَلَهُمَا**): أي: للبخاري ومسلم، والحَقُّ أن هذا الحديثَ ليس عند البُخاري، لكن لعل الشيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد ما عند البُخَاري تَعليقًا[1] من تفسير الآية: فالذي عند البخاري: أن ابن عباس قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، قال: «شُكركم».

أما هذا الحَديثُ فهو ليس عند البُخَاري، ولكنَّه عند مُسلِم[2]، ولَفظُه عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قَالَ: «مُطِرَ النَّاسُ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا**. قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]، حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]».

وابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا لم يُرد أن هذه الآيات كُلها نَزلت بسَببِ هذه القصَّة، وإنما أراد آخرها: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، لكن ذكر هذه الآيات لارتِبَاطِها.

---

(١) كتاب الجمعة، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾.

(٢) برقم (٧٣).

(﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾): ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾: يَقُول العلماء: (لا) هنا صِلةٌ تُفيدُ توكيد القسم وتَعظيمَه لا النَّفي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١].

والمَعنىٰ: إن كُنتُ مُقسمًا فأقسم بمَواقع النُّجوم، وهذا فيه دلالة علىٰ تَعظِيم هذا القَسَم.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: و(مواقِعُ النجُوم)؛ أي: مَسَاقطُ هذه الكواكب ومَطَالِعُها، وذلك أن هذه الكواكبَ فيهَا آيات عظيمة، وفي طُلوعها وسُقوطها آيةٌ عَظيمَة تَدُل علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ إذ إنَّ هذه الكواكب مع عِظَم حَجمِها وعُلوها في السماء تَسير بانتظام بديع، فوقتُ سقوطها لا يتخلف، ووقتُ طُلوعها لا يتخلَّف فمن الذي أوجدَهَا؟ ومن الذي حرَّكها ؟ ومن الذي دَبَّرها؟ ومن الذي جعلها علىٰ هذا الانتظام البديع ؟!

إنه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولا يُمكنُ أن يُقَال غير هذا، ففيها آياتٌ وعِبَر عظيمة.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: (مواقِع النجُوم): هي مواقع نجُوم القُرآن؛ لأن القرآنَ لم ينزل دفعَة واحدَة، وإنَّما نزَلَ مُنجَّمًا، والسِّياق يَدُل علىٰ هذا؛ لأن الآيات بَعدَه في القُرآن، والسِّياق يحتمِلُ الأمرَين ولا تدافُع.

(﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾): هذه الآية التي نَزَلت بسبب هذه القِصَّة قد تقدَّم بيانُ مَعنَاها؛ أي: وتُصَيِّرون شُكرَكُم نعمَةَ الله عليكم حيثُ أنزل عليكم المطَرَ أنكم تُكذِّبون، فتَنسبونَ المطر إلىٰ النَّوء، وتقولُون: مُطِرنا بنَوء كَذا وكذا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ الواقعةِ.

وهو قوله تَعَالىٰ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ وقد بينَّا معنَاها.

الثَّانِيَةُ: ذِكرُ الأَربَعِ الَّتِي مِن أمرِ الجَاهِلِيَّةِ.

وهي: الفَخر بالأحسَاب، والطَّعن في الأنسَاب، والاستسقاء بالأنوَاء، والنياحَة علىٰ الميت، وقَد فصَّلناها وبينَّا شأنَها.

الثَّالِثَةُ: ذِكرُ الكُفرِ فِي بَعضِهَا.

يعني: ما تقدَّم بيانُه من ذِكر الكُفر في الاستسقاء بالانواء: «**أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمنٌ بِي وَكَافِرٌ**».

وكذَلك ما جاء في حَديثِ أبي هُرَيرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّت**». رواهُ مُسلمٌ [1]. فسَمَّىٰ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الثَّلاثة كُفرًا.

فالشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندمَا يَقُولُ: «ذِكرُ الكُفرِ في بَعضِهَا»؛ أي: في هذه الثلاثة: الاستسقَاءُ بالأنواء -كما في حديث الباب-، والطَّعن في النَّسَب، والنِّيَاحَة علىٰ المَيِّت.

---

(١) برقم (٦٧).

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الكُفرِ مَا لا يُخرِجُ عَنِ المِلَّةِ.

فليسَ كُل لفظ (كفر) في الكتاب والسُّنة يُخرِج من الملَّة؛ بل الكفر إذا ورد في الكتاب والسُّنة فهو ينقسم إلىٰ قِسمَين: كفر أكبر يُخرِجُ من المِلَّة، وكفر أصغَر لا يُخرِج من المِلَّة.

ثُم ليس كلُّ ما سُمِّي (كُفرًا أكبر) في كتابِ الله أو في سُنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو في لسَان العلماء يَكفُر فاعله عَينًا، بل قد يَقُول العلماء: هذا شِركٌ أكبر، ولكن لا يَعني أن من فعَلَ هذا بعَينِه يُقال: إنه مُشركٌ شِركًا أكبر وخَارِجًا من ملَّة الإسلام فورًا، وإنمَا يُنظَر إلىٰ ثبُوتِ الشُّروط وانتفاء المَوَانع.

ولذلك الظَّلمَة الجَهَلة الذين يَقُولون: كُتب محمَّد بن عبد الوهاب فيها التَّكفِير، هؤلاء لا يَفهَمُون ولا يقرءون، ولا يُريدون أن يَفهَمُوا؛ بل كُتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ فيها التربية علىٰ ما في كتاب الله وسُنة نبيه مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالذِي يستغيثُ بالأولياء، نَقُول: الاستغاثة بالأولياء شِركٌ أكبر، لكن هل هذا الذي استغَاث خَارجٌ من المِلَّة؟

يُنظَر؛ فإن اجتمعت الشروط وانتفَت الموانع كُفِّر بِعَينه، وإلا لم يُكَفَّر.

يَقُول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن من الكفر ما لا يُخرِجُ من المِلَّة»؛ لأن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَّىٰ هذه الثلاث كُفرًا، ولكن الطَّعن في النسب ليس كفرًا أكبَر، والنِّياحة ليسَت كُفرًا أكبر، أما الاستسقَاءُ بالأنواء فَقد تكونُ كُفرًا أكبَر، وقد

تَكُونُ كُفرًا أصغر، كما تقدم بيانُه.

الخَامِسَةُ: قَولُهُ: «أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» بِسَبَبِ نُزُولِ النِّعمَةِ.

والنعمة هنا هي: المطر، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُشير إلىٰ أنَّ هذا الكُفرَ في الغَالب هو كُفرُ النِّعمة، وهو الكفر الخَفِي، بحَيثُ يُضَاف الخَيرُ إلىٰ المَخلُوق مع غَفلَة القلب عن المُنعِم، فالمَخلُوق لا يعتقد أن المُنعِم هو المخلوق، ولا أنه مُؤثِّر، ويَعتقد أن المُنعِم هو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لَكن عند اللفظ يَغفل قَلبُه عن المنعم ويُسنِدُ لفظَ النعمَةِ إلىٰ غيره، وهذا كفرُ النِّعمَة، وهذا الغَالبُ في هذا البَاب.

السَّادِسَةُ: التَّفَطُّنُ لِلإِيمَانِ فِي هَذَا المَوضِعِ.

يعني: أنه عندَ نُزول المطر ينبغي أن يَعتقِدَ المسلم أن المطرَ نِعمَة من الله، أنزَلَه الله عَزَّوَجَلَّ وأوجَده بفَضله وَحدَه لا شريك له، وأن يُضيفَ هذه النعمة إلىٰ مُسدِيها، فيقولُ: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فيَجتمع الاعتقَادُ الحسن واللفظ الحَسن، كما تقدَّم.

السَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ لِلكُفرِ فِي هَذَا المَوضِعِ.

أي: عندَ نُزول المَطَر، بإضافَةِ هذه النِّعمة إلىٰ النَّوء علىٰ الوجُوهِ التي فَصَّلنَاها: كُفر أكبَر، وكُفر أصغر، وكُفر خَفي، وهو كُفرُ النِّعمة.

الثَّامِنَةُ: التَّفَطُّنُ لِقَولِهِ: «لَقَد صَدَقَ نَوءُ كَذَا وَكَذَا».

أي: وأنه كقَولِهم: (مُطِرنا بنَوء كذا). وهو أن يَقُول القائل: لقد صَدَقَنا النَّوء، أو: مَا أخلَفَنا النوءُ مَوعِدَه. فهَذا مثل هذا، ويتنَوَّع الحُكمُ فيه بتلك الأنوَاع.



التَّاسِعَةُ: إِخرَاجُ العَالِمِ لِلمُتَعَلِّمِ المَسأَلَةَ بِالاستِفهَامِ عَنهَا، لِقَولِهِ: «أَتدرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟».

وهذا من أَسَاليب الخِطَاب، والأمر أوسَعُ من هذا، وهو إخراجُ العَالِم للمُتعلم المسألة بما يُشَوِّقه إليها ويُوصلها إلىٰ قَلبِه، فيختَار من الأَسَاليب ما يَحصُل به ذلك، وليسَ صحيحًا أن التفنُّن في الأَسَاليب من غير تقعُّر يُخَالف السُّنة، بل إذا كان الخطيبُ بَليغًا، يأتي بالأساليب البَليغة المُشَوقة من غير تقَعُّر ولا تَكَلُّف؛ فهذا أمر حَسَن.

العَاشِرَةُ: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

وهذا قد تقدَّم بيَانُ مَعنَاه.

والقَاعدَةُ: أن الجزاءَ مِن جنسِ العَمَل!

فالنائحةُ في الدنيا كانت تُحرقُ قُلوبَ أهلِ الميت، وتَزيد ألَمَهُم إذا نَاحَت وأخذَت تُعدِّد وتَندُب، وتَضرب علىٰ رأسِها ووَجهِها، وتَشُق جيبها؛ فكذلك تُحرَق بِهذَا، وتتَأَلَّم بهذا العَذَاب الأليم يوم القيامة: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَم تَتُب قَبلَ مَوتِهَا؛ تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ وَعَلَيهَا سِربَالٌ مِن قَطِرَانٍ، وَدِرعٌ مِن جَرَبٍ**»!

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

الشرح

بهذا البابِ يَبدأ قِسمٌ جديد من أقسام كتَاب التوحيد، ألا وهو القِسم المُتعلِّق بأعمال القلوب التي لها تعَلُّق بالتوحيد.

حيثُ إنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قسَّم كتاب التوحيد إلىٰ كُلِّيات، وإن لم يُصَرِّح بها، إلا أن المتأمِّلَ في الكتاب يَجد هذا التَّرتيب البديع، ثُم قَسَّم كل كُلِّي إلىٰ أبواب.

وبدَأ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قِسمَ ما يتعلَّقُ بأعمال القلوب المُتعلِّقة بالتوحيد بـ **«المَحبَّة»**؛ لأن المَحبَّة منها ما هو أصلٌ في التوحيد، ومنها ما هو مِن آثارِ وثِمَار التوحيد، ومنهَا مَا يُضادُّ التوحِيدَ، فالمَحبة لُبُّ العبادة، وحَقيقَة العبادَة، وهي شَرطٌ في العبادة، فلا تكُونُ عبادةُ الله عبادةً إلا إذا كانت عن مَحبَّة، ومن حقِّ ربِّنا علينَا أن نُحبَّه الحبَّ المُطلَق فوقَ كُل حب، وأن يَكونَ حُبُّنا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أصلَ كل حُب، فما تفَرَّع عن حبِّنا لربنا تَقرَّبنا به إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما ضَادَّ حُبنا لرَبِّنا تبَرَّأنا منه ورَدَدنَاه.

والمَحبَّة تنقسِمُ من حيثُ حَقيقَتُها إلىٰ خَمسَة أقسَام:

القسمُ الأوَّل: محبة طَبعِيَّة مَركُوزة في طَبْع الإنسان؛ كمَحبَّة الإنسان للأكلِ

والشُّرب، ومَلذَّات الدنيا المُبَاحة، ومَحبة الإنسان لمَصالِحِه، فهذا أمر طَبعِي مَركُوز في نَفسِ الإنسان، ويتفاوتُ فيه الناس، فمثلًا نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يحبُّ الحَلوىٰ، ويحب الشَّرَاب البارد، ويُحِب الدبَّاء، ويُحب الطِّيب، ويُحِبُّ النسَاء؛ فهذه المَحبَّة الطَّبعية في الأصل لا يتعَلَّق بها مدحٌ أو ذَم؛ لأنها من طَبع الإنسَان، **إلَّا في حَالتَين:**

الحَالة الأولىٰ: أن يكونَ الدَّافع لهذه المحبَّة حُبُّ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكَونُ الإنسان يحبُّ الطيبَ، فهذا لا بأسَ به، ولَكِن لمَّا علم أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يُحِب الطيب؛ أصبحَ يُحبُّه أكثر لِحُب رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، فهذا يُثَاب علىٰ هذه المَحبَّة، ويُمدَحُ بهذه المَحبَّة.

الحالة الثانية: أن يَجعلَ حُبَّه لهذه الأشياء الحُبَّ الطبعي سببًا لزيادة حُبِّه لله وتَقَرُّبه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فيُحبها لأنها تُعينُه علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيُحبُّ النومَ كما يحب كلُّ إنسان النَّوم، ولكن المؤمنَ يُحِب النومَ لأنه يتَقَوَّىٰ به علىٰ طاعَةِ الله، فيَزيد علىٰ الحُب الطبعي حُبه هذه الأمور؛ لأنها تَزيدُه قُربًا إلىٰ الله، وتُعينُه علىٰ التقرُّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

القِسمُ الثَّاني: مَحبَّة رَحمَة وإشفَاق؛ مثل: مَحبَّة الأم لولدها، أو محبة احترام؛ مثل: محبَّة الوَلَد لأبيه؛ ومَحبَّة التلميذِ لشَيخه، فهَذِه مَحبَّة دافِعُها الاحترام، وبعض أهل العلم يقول: الإجلال، والمقصود بالإجلال هنا: الاحتِرام، وهذه المَحبَّة يتعلَّق بها المدحُ شَرعًا من جهة ما يتعلَّق بها من رحمة واحترام، فالرحمَة يُمدَح بها الإنسان، والاحتِرام لذِي الاحتِرام يُمدَح به الإنسَان؛ لأن

هذا من إجلالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

القِسمُ الثَّالث: مَحبَّة إلفٍ وأُنس، فالإنسان يُحِب مَن يُخَالِطُه في العَادة؛ كمَحبَّة المسافر لرُفقَائه في السَّفر، ومَحبَّة الجليس لجُلسَائه، وهَذه مَحبَّة مُكتَسَبة جَائِزة ، إلا إذا وجِدَ في الشَّرع ما يَدفعُها؛ كابتِدَاع وإظهَارٍ للفِسقِ؛ فإنه إذ ذَاك تَندَفعُ هذه المَحبَّة، ولاسيَّما في الظاهر.

القِسمُ الرَّابع: مَحبَّةٌ لله ومحبة في الله، وهذه عبَادة واجِبَة علىٰ المُكَلَّف في الجُملة، ورأسُها وأعلاهَا: حُبُّ رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُم حُبُّ الأنبيَاء، ثُم حُبُّ الصَّالحين، ورَأسُهم صَحَابَةُ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

القِسمُ الخَامس: مَحبَّة ذُل وخضُوع وكمَالِ طاعَةٍ وتَعظيم، وهذه مَحبَّةُ عُبودِيَّة، ويَجبُ أن تكونَ لله عَزَّوَجَلَّ وَحدَه، ولا يَجُوز أن تُصرَف لأحدٍ من المَخلُوقين، قَليلها وكَثيرها صَرفُه لغير الله **شِركٌ أكبر**.

فهَذه مَحبَّة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وصَرفُها لغير الله مَحبَّة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو صنيعُ المشركين الأوَّلين!

والمُشرِكُون في باب محبَّة العبَادَة علىٰ دَركَات، بَعضُها أظلَمُ من بَعض:

- فمنهم مَن يُحِبُّ الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه يُحب الأندَادَ كحُبِّه لله، فيُسَوِّي بين الله وبينَ مَخلُوقاته في المحبة، سَواء سَوَّىٰ بين الله عَزَّوَجَلَّ والأصنَام في المحبَّة، أو سَوَّىٰ بين الله عَزَّوَجَلَّ ومَن يُسَمِّيهم بالأوليَاء والصَّالحين في المَحبَّة، وهذا هو صنيعُ المشركين الأوَّلينَ.

- ومِنهُم مَن يُحبُّ الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه يحبُّ الأندادَ أكثرَ من حُبِّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتجدُ تَعظيمَه لهم في قَلبِه أعظَم من تعظِيمه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحِرصه علىٰ حَقِّهم -بزَعمه- أعظَم من حِرصِه علىٰ حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتَجدُه يقضي الليلَ والنَّهارَ يُدافِع عن حُقُوقهم المَزعُومة، ويَذُم ويُعَادي من يَدعُو الىٰ حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَدعو الىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ!

فعَدُوُّه هو الذي يَقُول: مَحِّضوا حَقَّ الله للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يُصرَفُ شَيء من حَق الله لغَيرِ الله، فهَذا في حقيقةِ الأمر يُحبُّ هؤلاء الأندَادَ -الذين جعلَهُم نُظرَاء لله عَزَّوَجَلَّ- أعظَم مِن حُبِّه لله عَزَّوَجَلَّ، وهؤلاءِ أسوأ مِنَ الأوَّلين.

- ومنهم مَن يُحبُّ الأندادَ ولا يُحِب اللهَ أصلًا، وهذا -والعيَاذُ بِالله- شَرُّ مَن وَطِئَ الأرض، فيَصرفُ للأنداد حَقَّهم بزَعمِه -وهو شِركٌ-، ولا يَصرفُ لله عَزَّوَجَلَّ حقَّه من التوحيد، ولا يُحبُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُطلقًا.

فهذا التَّقسيم للمَحبَّة هو من جِهَة حَقيقَتِها، ويُمكن أن نُقَسِّم المَحبَّة من جِهَةِ حُكمِها إلىٰ أربعةِ أقسَامٍ:

القسم الأول: مَحبَّة فَرض؛ كمَحبَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا فَرضٌ مُطلَق، ومَحبَّة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مُتفَرِّع عن حب الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبَّة الصَّالحين، فهذه مَحبَّة هي فرضٌ واجبٌ علىٰ الإنسان.

القسمُ الثَّاني: مَحبَّة مُباحَة؛ وهي المَحبَّة الطَبْعيَّة التي في طَبْع الإنسان، بشَرط ألَّا تكون مَحبةً لمَا حَرَّم الله.

فلا يأتي إنسَانٌ ويَقول: أنا بطَبْعي أحبُّ الخمر!، نقول: هذا لا يَجُوز.

أو يقول: أنا أحبُّ النسَاء الأجنبيَّات عني!، نقول: هذا مرَضٌ ولَيسَ طَبعًا، ولا يجوز.

وبشَرطِ أيضًا ألَّا تُساوي محبَّة الله، أو تُقَدَّم علىٰ محبَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

القِسمُ الثَّالث: محبَّة مُحرَّمة؛ كالمَحبَّة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَقديم محبَّة أحدٍ من البَشَر علىٰ محبَّة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكالمَحبَّة التي حرَّمها الله؛ كمَحبَّة الكفار غير الطَّبْعِيَّة.

القِسمُ الرَّابع: مَحبَّةٌ مُستَحبَّة وفَضيلَة؛ كمَحبَّة ما يُحبُّه رَسُول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غَير الوَاجبَات، وكذلك مَحبَّة الأمور الطَّبْعيَّة لكَونِها تُعين علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا عرفتَ تَقسيمَ المَحبَّة؛ عرفتَ لِمَ ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ المَحبة في «كتاب التوحيد»؛ لأن مَحبَّة التعظيم والذُّل والخُضُوع وكمالِ الطاعة عِبَادَة، ففِعْلُها تَوحيدٌ، وصَرفُها لغير الله شِركٌ؛ ولأن المَحبَّة لله من آثَارِ التَّوحيدِ، ومن ثِمَار التوحيد؛ فنَاسَب أن يَذكُر هذا البَاب في «كتَاب التَّوحيد».

ثُمَّ إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بوَّب البابَ بِهذه الآيةِ العظيمة؛ ليُنبِّه مَن ينتسبُونَ إلىٰ الإسلامِ إلىٰ خُطُورة ما يَفعَلُه بَعضُهم في باب المَحبَّة لمَن يُسمُّونَهُم بالأولياء الصَّالحين؛ فَإنَّ بعض مَن ينتسِبُون إلىٰ الإسلام يَغلُون في مَحبَّة الأولياء الصَّالحين حتىٰ يقَعَ أحدُهُم في صَنيع المُشرِكين، بل أَشَد؛ لذا ذكَرَ الشَّيخُ هَذِه

الآيَةَ بيَانًا وتَحذيرًا؛ لأن ربَّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية ذَمَّ المشركين بكونِهم يتَّخِذُون من دُونِ اللهِ أندادًا، لا يَزعُمُون أنهم يَخلُقون، ولا يَزعُمون أنهم يَرزُقون، وإنمَا يُشرِكُونَهم مع الله في مَحبَّة التعظيم، فيُحِبُّونَ أندادَهُم كحُبِّ الله، فكيف بمن يَزعُم ممن ينتسبونَ إلىٰ الإسلام أن الأولياء يَخلُقون!، وأن الوَليَّ قادرٌ علىٰ خَلقِ الولدِ في بَطنِ أمِّه!، وأنَّهم يَرزُقون، وأنهم يُدبِّرون الكَون، ويتصَرَّفون فيه!، ويُحبُّهم كحُبِّ الله، بل حُبُّه لهم وخَوفُه منهم ورجَاؤُه لهم، أشَدُّ من حُبه لله، ومن خَوفه من الله، ومن رَجَائِه لمَا عند الله!، فتَراه إذا أعيَاه أمرٌ؛ فَزِعَ قَلبُه إلىٰ أولئك الأوليَاء؛ يَدعُوهم ويتقَرَّبُ إليهِم، ولا يَرِدُ علىٰ قلبِهِ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

ولا شَكَّ أن هؤلاء أسوأُ حَالًا من أولئكَ المُشركينَ الأوَّلينَ، عِياذًا بالله من الخِذلان!

والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، ومعنَاه: أن المُشركينَ يُسَاوون غير اللهِ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مَحبَّة التعظيم، فهم يُسَوُّون الله خَالِقَهم والمُنعِمَ عَليهِم وعلىٰ الناس أجمَعين بمَخلُوقاته الضعفاء المُحتَاجين إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في المَحبَّة، وهذا هو الضَّلال المُبين، والظُّلم العظيم، وهَذا الضَّلال يُدرِكه العاقلُ بعَقلِه قبل أن يَعرفَ ذلكَ بآياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبأحاديثِ رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قالَ الله عَزَّوَجَلَّ عن أهلِ النَّار: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٦-٩٨]. فكَانُوا يُسَوون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمَخلُوقَاته، أو يُسَوونَ المخلوقَاتِ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المَحبَّة،

فكُبكِبُوا في جهنَّمَ أجمَعين، وكانوا يتَلاوَمُون وتَبيَّن لهم -حيثُ لا ينفعُهم ذلك- أنَّهُم كانُوا في ضلالٍ مُبين؛ إذ كَانُوا يُسَوون تلكَ المَخلُوقات بالله رب العالمين في المَحبَّة.

وقِيلَ: إنَّ مَعنَىٰ قولِهِ تعَالىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: أنَّ المُشرِكين يُحبُّون أندَادَهُم كمَا يُحبُّ المؤمنون اللهَ، وهذا المَعنىٰ ضَعيف؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فَكيفَ يَذكُر الله في أولِ الآية التسَاوِي ثُم يَنفِيه في آخِرِ الآيَة؟

وقَولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ مَعناه: أنَّ حُبَّ المؤمنينَ لله أشدُّ من حُبِّ الكفار لله، لأنَّ حُبَّ المُؤمنين لله خَالصٌ، فهو حُبُّ التعظيم والعبَادة، فلا يَصرِفُونه لنَبيٍّ ولا لوَلِيٍّ، ولا لشَجرٍ وَلا لصَنَمٍ، وإنمَا هو للهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أمَّا حُبُّ المُشرِكين لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فَهُو حُب شِركٍ؛ إذ يُسوُّون المَخلُوقَ بالخالقِ في هذه المَحبَّة.

وقِيلَ: إن المَعنىٰ: أنَّ المؤمنين أشَدُّ حُبًّا لله من حُبِّ المُشرِكين لأندَادِهم، وبهذا تَعلَمُ مُناسَبَة التبويبِ بِهذِهِ الآية الشَّريفَة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التَّوبَة:٢٤].

الشرح

أورد الشيخ في هذا الباب قولَ رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

حيثُ أمرَ الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يتوعَّدَ المُؤثِرينَ هذه الثمانية التي تتعلَّقُ بها القلوبُ عادة، وهي: الآباءُ، والأبناءُ، والإخوانُ، والأزوَاجُ، والعَشيرة، والأموالُ المُكتَسَبة، والتجارَةُ التي يَخافُ عليها الإنسَانُ أن تَضيعَ، والمَسَاكن الطيِّبة التي يُحِبُّها الإنسَان، بهذا الوَعِيدِ العظيم، وهو أن ينتظِرَ عقَابَ الله، فهُو يعلَمُ وَعيدَ الله ويَنتظرُ عِقَابَ الله، وهذا أشدُّ لألَمِه، وأعظَمُ لعِقَابِهِ، حيثُ يَعلم أنهُ سينزل به عقَاب، ولكنه لا يَدرِي متىٰ يَنزِل، فهو في خَوفٍ دَائم، وفي قَلَقٍ مُستَمر، وهذا من أشدِّ أنواعِ العَذاب.

وفي هذِهِ الآيةِ دَليلٌ علىٰ أن محبَّةَ هذه الأمُور الثمَانية مُباحة جَائزة، إذَا لم تتعارَض مع حُبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الله لم يَذُم حُبَّها مُطلقًا، وإنما ذَمَّ تَقدِيمَها علىٰ حُبِّ الله وعلىٰ حُبِّ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا كان الإنسَانُ يُحبُّ أباه،

فهَذا ليس مَذمُومًا؛ بل مَطلُوب، وإذَا كَان يُحبُّ وَلَده فهذا ليس مَذمومًا؛ بل مطلوب، وإذا كانَ يُحبُّ زَوجَته، فهَذا ليسَ مَذمومًا؛ بل مَطلُوب، وإذا كانَ يُحبُّ مَاله فهَذا لَيسَ مذمومًا؛ بل مطلوب... وهكذا؛ ولكنَّ المَذموم المَمنوع: أن يتقَدَّم حُبها علىٰ حُبِّ الله وعلىٰ حُبِّ رسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والحُب لهذه الثَّمانية -إن كانَ مِن بابِ مَحبَّة الذُّل والتعبُّد والتَّعظيم-؛ فإنَّه شِركٌ أكبَر، وإن لم يكن من هذه المَحبَّة؛ فهو كَبيرةٌ من كبَائِر الذنُوب، وقد يكون شِركًا أصغَر.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجمَعِينَ». أَخرَجَاهُ.

الشرح

أوردَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحَديثَ؛ ليتكَلَّمَ عن محبَّة رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذَا الحديثُ رواه الشَّيخان: البُخارِيُّ[1] ومُسلمٌ[2].

(عَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم): وإذا نُفِي الإيمانُ في النصُوص:

- فإمَّا أن يكونَ النَّفي مُتسلطًا علىٰ الحقيقة.

- وإمَّا أن يكُونَ مُتسلطًا علىٰ الكَمال.

وهذا بحسَب الأدِلَّة.

ومعنىٰ: (لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم): قد يكون معناه: لا يقعُ الإيمَانُ في قلبه أصلًا، وقد يَكُون معناه: لا يُؤمن أحدكُم الإيمانَ الكَامل.

وهذَا النَّفي هُنا للأمرَين باختِلافِ الحَال:

- فإن كانَ العَبدُ لا يُحبُّ رسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلًا، ولا يَجدُ لرَسُولِ الله

---

(١) برقم (١٥).

(٢) برقم (٤٤).

حبًّا في قَلبِه؛ فهذا ليسَ مُؤمِنًا أصلًا؛ بل يَنتَفي عنهُ الإيمانُ بالكُليَّة.

- وإن كانَ العَبدُ يحبُّ رسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير أنه يُحِب نَفسَه أكثَر من حُبِّه لرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهَذا إيمَانُه نَاقصٌ نقصًا شَديدًا، وإن كانَ أصلُ الإيمَانِ حَاصلًا عِندَه.

وقولُه: (**لَا يُؤمِنُ أحَدُكُم**): هذا يَشملُ الذَّكرَ والأُنثىٰ.

(**حَتَّىٰ أكُونَ أَحَبَّ إلَيهِ مِن وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أجمَعِينَ**): ويَشملُ هَذا: نَفسَ الإنسان؛ كما قال عُمَرُ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الآنَ يَا عُمَرُ**»[1].

وقولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**» يَعنِي: لا يَكمُل إيمانُك حتَّىٰ أكونَ أحَبَّ إليكَ مِن نَفسِك.

وفي هذا دليلٌ علىٰ أن المَحبَّة تتغيَّر، فقد يتغيَّر الأمر من حُبٍّ إلىٰ بُغض، وقد يتغير الأمرُ إلىٰ محبَّةٍ أكمَل، فعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فورَ أن عَلمَ أن كمال الإيمَانِ يستلزِمُ كمَالَ حبِّ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ يكُونَ حُبُّه فوقَ كُلِّ حُبٍّ بَشَري، حتىٰ فَوقَ حَبِّ نَفس الإنسَان؛ أَحَبَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثَرَ من حُبِّه لنَفسِه!

وفي هذا أيضًا دَليلٌ علىٰ عِظَم إيمَانِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكَذا المؤمنُ إذا سمِعَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

هذا؛ فإنَّ قلبَهُ ينقادُ إلىٰ أن يكُونَ حُبُّ رسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه أعظَم مِن حُبِّه لنَفسِه، فهَذه مَحبَّة واجِبة، وهي مَحبَّة للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُتفرِّعة ونابعةٌ من حُب الله عَزَّوَجَلَّ، فرسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نُحبُّه لأنهُ رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رَحِمَنا به؛ ولأنه جاهَدَ في تَبليغ الدِّين إلينا حق الجِهاد، وأدَّىٰ الأمانة تامَّةً غَير مَنقُوصة، فنُحِبُّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فوقَ حُبِّنا لكُلِّ بَشَرٍ.

وعَلامةُ هذه المَحبَّة ودَليلُها الأكبَر: أن تُحسِنَ اتِّباعَك لرَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وألَّا تَعبُدَ الله عَزَّوَجَلَّ إلا بمَا شرَعَ وبيَّن صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وحُبُّ رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حُبِّ الله، ومُتفرِّع عَنه.

ولا يَعني هذا أنَّ مَن لم يَتَّبع النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في بَعضِ العبَادات لا يكونُ مُحبًّا لرسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنمَا يكونُ حُبُّه ناقصًا.

ولكِن الذي لا يتَّبع رسُولَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في شَيء؛ فهَذا لا يُحبُّ رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصلًا، وإن ادعىٰ بلسَانه هذِه المَحبَّة؛ فهو كاذبٌ فيهَا ولا يُصدَّق.

فالذي يَدَّعي محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومَحبَّة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم هو لا يُصَلي ولا يَصُوم ولا يحج ولا يتَصَدَّق، ويأتي بكل ما نَهىٰ الله ورَسُوله عنه!

نَقُول: هَذا كاذِبٌ صاحبُ بُهتان، وليسَ صاحبَ إيمَان، ولو قال: أشهَدُ أن لا إلَهَ إلا الله، وأنَّ مُحمدًا رَسُول الله، ولو قَال: أنا أُحِبُّ الله، وأُحبُّ رَسُولَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولو لهَجَ لسانُه بهذا الكَلام ليلَ نَهار، ثم لا يَعمَل شَيئًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

مع عِلمه وقُدرَته، فهذا كاذبٌ في دَعوَاه المَحبَّةَ.

أمَّا مَن كان يتَّبع رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّه يُخالِفُ في بعض الأُمُور؛ كمَن يُقيمُ احتفالًا للمَولِدِ النبويِّ مَثلًا، ولكنَّه يتَّبعُ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سائرِ الأعمَالِ؛ فهذا لا نَقُول: إنه لا يُحِبُّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن نقُولُ: إن حُبَّه للرسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقصٌ، وبِدعتُهُ هذِه تُبعِدُهُ عَن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُحبُّها الله، ولا يَقبَلُها الله، وقد تَزيدُ علىٰ قلبِ العَبدِ حتىٰ تَرينَ عَلىٰ قلبِه -والعِيَاذ بالله-؛ فيُصبح كالكُوز مُجَخِّيًا لا يَقبلُ مَعروفًا ولا يُنكِرُ مُنكرًا ولا بَاطلًا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَن يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ بَعدَ إِذ أَنقَذَهُ اللهُ مِنهُ، كَمَا يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النَّارِ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ...**» **إِلَىٰ آخِرِهِ.**



الشرح

(**وَلَهُمَا**): أي: للبُخاري[1] ومُسلِم[2].

(**عَنهُ**): أي: عَن أَنسِ بن مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(**قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ثَلَاثٌ**): أي: ثلاثُ خِصَالٍ، وعدُّ هذِه الثلاث ليسَ حَصرًا لأسبَابِ وجُودِ لذَّةِ الإيمَان؛ وإنمَا هي بيَانٌ لكمَالِ هذه الخصَال في هذا الباب، فكُلُّ مَا شَرعَهُ الله إن أدَّاهُ العَبدُ مُخلصًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُتَّبعًا لرسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ زاد في إيمانِ العَبدِ، ووَجدَ العَبدُ لذَّته في قَلبِهِ؛ لَكِنْ هذِهِ الثلَاثُ فيهَا كمَالُ المَوعُودِ في هذا الحَديثِ علىٰ لسَانِ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(**مَن كُنَّ فِيهِ**): أي: مَن وُجِدنَ فِيه.

---

(١) برقم (١٦).

(٢) برقم (٤٣).

(وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ): فَللإيمَانِ حَلاوةٌ، وهي لذَّةٌ يجدُهَا العبدُ في قَلبِه، وسعادَةٌ يَجدُها العبدُ في قَلبه، فيَعيشُ بين الناسِ في الأرضِ كأنَّهُ في جنَّة، بل يعيشُ بين الهُمومِ كأنه في جنَّةٍ، تُحيطُه الكروبُ وتُحيطُه الهمُومُ وهو في غاية اطمئنَانِ القَلبِ، وفي غاية سعَادةِ القَلب، ففي قَلبِه لذَّة لا يُوحشه في طريقه قلَّةُ السائرين، ولا قِلَّةُ المُنَاصِرين، ولا قلَّة المُتجَمهِرِين حَوله، ولأنه يأنسُ بِالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فقد جعلَ الله عَزَّوَجَلَّ له في قَلبِه حَلاوةً هي أعظَمُ مَا ذِيقَ من حَلاوةٍ في الدنيَا، أشَدُّ من حَلاوةِ العسَل، وأشدُّ من حلاوَةِ السكَّر؛ لأنها حَلاوةٌ تُخالِطُ القُلوب.

(أَن يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا): ومعنَىٰ ذلكَ: أن يقدِّمَ حُبَّ الله وحُبَّ رَسُول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ كُلِّ حُبٍّ.

حتىٰ لو كانَ الحُبُّ مَأذونًا فيهِ، أو مَشروعًا، فإن حَدَّهُ دُونَ حُبِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ودُونَ حُبِّ رسُولِ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا زادَ عن ذلكَ كَان مُحرَّمًا.

(وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ): وهذا من ثمرَةِ حُبِّه لله؛ أن يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأسبابُ المحبَّةِ بينَ الناس كثيرَةٌ، وخَيرُها وأزكاهَا وأفضلُهَا، والبَاقي منها في الدُّنيا والآخِرَة: أن يكُونَ ذلكَ لله، وأن تُحبَّ العبدَ لله.

وليسَ الحُبُّ لله قَولًا باللسَان، وإنمَا الحُبُّ لله أمرٌ يَقَرُّ في القلبِ لوجُودِ سَببِهِ، ويُشرعُ أن يُعبَّر عنه باللسَانِ؛ فتحب الرجُلَ في الله لاتِّباعه للسُّنَّة، ولذَبِّه عن السنَّة، وبعضُ الناسِ كُلَّما لقي إنسَانًا قال له: أُحبُّك في الله! وَلم يَعلَم سَببًا

يَقتَضِي حبَّه لله وفي الله!، وهذا غَلَط، فإذَا وُجدَ الحبُّ لله في القلب حَقيقةً شُرع للمرءِ أن يُخبِرَ أخاه أنه يُحبُّه لله، لتَزدادَ المَحبَّة بينَ المُؤمِنين.

(وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ بَعدَ إِذ أَنقَذَهُ اللهُ مِنهُ، كَمَا يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النَّارِ): فالكُفرُ بالله نارٌ مَعنويَّة أشَدُّ إحراقًا من النار الحِسيَّة، وهو سببٌ للخلود في نار جهنَّمَ -والعياذ بالله-.

فوَاللهِ لو جُمِعَت نيرانُ الدنيَا في مكَانٍ وَاحِدٍ وقُذفَ فيهَا العبدُ؛ لكانَ هَذا أهونَ مِن أن يكونَ مُشركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

فمَن أنقذَهُ الله من الكُفر، وتعلَّمَ التوحيد، وانصرَفَ عن عبادَةِ الأولياء وعبادَةِ أصحابِ القُبورِ، وعن النَّذرِ لهُم والدعَاءِ لهُم، مَن أنعمَ الله عليه بِهذه النِّعمَة، وأصبَحَ يَكرَهُ أن يعُودَ في ذلك الكُفرِ، وذلك الشَّقاءِ، كما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّار؛ هذا يَعبُدُ الله فوق تَوحيده بعبادَةٍ عظيمَةٍ هي سببٌ لأن يَجدَ في قلبه حلاوةَ الإيمانِ.

قالَ العُلمَاء: ويلحقُ بِهذا مَن كانَ علىٰ كبيرةٍ منَ الكبائِرِ فأنقذَهُ الله منهَا، وتابَ منهَا، فأصبَحَ يَكرَهُ أن يعودَ إليهَا وإلىٰ أهلِهَا، كمَا يكرَهُ أن يُقذَف في النار، فإنه يدخلُ في هذا الشَّرفِ وفي هذه العبَادَة، وفي هذا الثوابِ، وفي هذَا المآل، وأن يجِدَ حَلاوةَ الإيمَانِ في قَلبِه.

(وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ... إِلَىٰ آخِرِهِ):

وفي روايَةٍ للبُخارِي[1]: أن النَّبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ**

---

(١) برقم (٦٠٤١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَتَّىٰ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّىٰ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا».

وهذه الروَايةُ بمَعنىٰ الروايةِ السَّابقة، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا قال: «**لَا يَجِدُ أَحَدٌ**». فنفَىٰ وجدانَ حَلاوةِ الإيمانِ إلا بهذه الثَّلاث.

و(**أَحَدٌ**): نكرَةٌ في سِياقِ النَّفي؛ فتَعُمُّ كلَّ أحَدٍ؛ فلا يجد أحَدٌ حلاوةَ الإيمانِ حتَّىٰ يُحققَ هذه الثلاث، وحتىٰ يُوجدَ أصلُ هذه الثلاث في قَلبه، فإذَا وجَدَ أصلَ هذِه الثلاث في قَلبِه؛ فإنَّه يَجدُ حلاوةَ الإيمانِ بِعبَادةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلا يَجدُ أحدٌ حلاوة الإيمان حتىٰ يَكُونَ حُبُّ الله في قَلبه، وحتىٰ يكون حُبُّ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلبه، وحتىٰ يُحقِّق التوحيدَ ويَكرَه الكُفر، وحتَّىٰ يُحبَّ الصالحين في أصلِ المَحبَّة، فإذا وجَدَ هذا في قلبه فإنه يجدُ لذة الإيمان بما يتقرَّبُ به إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلمَا زادَ تَحقيقُه لهذه الثَّلاث زادَ كمَالُ اللذَّةِ وكمَالُ الحَلاوةِ في قَلبِهِ.

❀❀❀

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَن أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَن يَجِدَ عَبدٌ طَعمَ الإِيمَانِ وَإِن كَثُرَت صَلَاتُهُ وَصَومُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَد صَارَت عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمرِ الدُّنيَا، وَذَلِكَ لَا يُجدِي عَلَىٰ أَهلِهِ شَيئًا». رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ.

الشرح

هذَا الأَثَرُ عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه: (رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ): وقَد تطلَّبتُ هذا الأَثَرَ في «تَفسيرِ ابنِ جَريرٍ الطَّبري» فَلم أَقِف عَليه؛ لكن نسَبَهُ إلىٰ الطَّبَري: ابنُ رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلعَلَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابَعَ ابنَ رَجبٍ علىٰ هذه النِّسبَة[1].

وهذا الأثر رَواهُ ابنُ المُبَارك في «الزُّهد»[2]، بلفظ: «أَحِبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغِضْ لِلَّهِ، وَعَادِ فِي اللهِ، وَوَالِ فِي اللهِ، فَإِنَّهُ لَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَا يَجِدُ رَجُلٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَإِنْ كَثُرَت صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ مُواخَاةُ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ مَا لَا يُجْزِئُ عَنْ أَهْلِهِ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَة».

ورواه الطبراني عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[3].

(١) عَزَاهُ الحَافظُ ابنُ رَجَبٍ الحَنبَليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جَامع العُلُوم وَالحِكَم» (١/ ١٢٥/ الحَديث الثَّاني) إلَىٰ مُحمَّد بن جَريرِ الطَّبَريِّ، وَمُحمَّد بن نَصرِ المَروَزيِّ.

(٢) برقم (٣٥٣/ دار الكتب العلمية).

(٣) أَخرجَهُ الطَّبَرَانيُّ في «المُعجَم الكَبير» (١٢/ ٤١٧)، عَن ابن عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا موقُوفًا.

=

وفي أسانيدِ هذا الأثَر ضَعفٌ؛ لكن معناه صَحيحٌ، وقد تلقَّته الأمةُ بالقَبول، وقرَّره نُقَّادُ العلم، وأهلُ التوحيد وأهلُ العقيدة السَّلفيَّة في كُتُبهم.

(وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَن أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَىٰ فِي اللهِ، وَعَادَىٰ فِي اللهِ): هذه الجُملة من الأثَر ثابتَةٌ عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أَحَبَّ للهِ، وَأَبغَضَ للهِ، وَعَادَىٰ للهِ، وَأعطَىٰ للهِ، وَمَنَعَ للهِ؛ فَقَدِ استَكمَلَ الإِيمَانَ**». رواهُ أبو داودَ، وصحَّحه الألباني[1].

(مَن أَحَبَّ فِي اللهِ): فكان حُبُّه لله عَزَّ وَجَلَّ، فيُحب الرجُلَ لا يُحبُّه إلا للهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ يُحبُّه لصَلاحِه، ويُحبُّه لخيره، ويُحبُّه لاتِّبَاعه السُّنَّة.

وعلامَةُ هذا الحُب: أنه لا يَزدادُ بالقُرب الدُّنيَوي، ولا يزدَادُ بالإحسَان الدُّنيوي، ولا يَنقُص بالبُعد؛ وهذه هي الصِّفَةُ التي تَعلَّق بها هذا الحُبُّ.

إذن؛ «**مَن أحَبَّ في الله**»؛ أي: كانَ سببُ حُبِّه ما يُحبُّه الله، وهو الصَّلاحُ والتُّقىٰ.

ويتَفَاوتُ الناسُ في هذا الحبِّ: فالمُؤمنُ يُحبُّ المسلمينَ جميعًا في الله

=

قَالَ الهَيثَميُّ في «مَجمَعُ الزَّوَائد» (١/ ٩٠): «وَفيه لَيثُ بنُ أَبي سُلَيم، وَالأَكثَرُ عَلَىٰ ضَعفه». اهـ

وَقَريبٌ منهُ مَا رَوَاهُ أَيضًا الطَّبَرَانيُّ في «المعجم الكَبير» (١١/ ٢١٥)، عَن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفُوعًا: «**أَوثَقُ عُرَىٰ الإيمَان: المُوَالَاةُ في الله، وَالمُعَادَاةُ في الله، وَالحُبُّ في الله، وَالبُغضُ في الله عَزَّ وَجَلَّ**». وحَسَّنه الألباني في «السلسلة الصَّحيحَة» (١٧٢٨).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

لإسلامِهِم، وهذا الحُبُّ يكون في قلب المُؤمن، ثُم يظهَرُ حُبُّه لمن لم يُوجد مَا يمنَعُ من إظهَار حُبِّه لهُ، ويُخبِرُه أنه يُحبُّه في اللهِ، كمَا أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك.

أمَّا مَن وُجِدَ فيه مانعٌ شَرعيٌّ يَمنع من إظهَارِ الحبِّ لهُ؛ فإنهُ لا يُظهرُ له الحُبَّ؛ كالمُبتَدِع، والفَاسقِ المجَاهِر بفِسقِه.

لَكِن قالَ أهلُ العِلم: لا مانعَ من إظهَارِ الحُب له إذا اقتَضَىٰ المقامُ الشَّرعيُّ ذلك، كأن يكُونَ مُناصحًا له فيمَا بينه وبَينَه، فيقُول لهُ: إنِّي أُحبُّك، وهو صادِقٌ؛ فهو يُحبُّه لكَونِه مُسلِمًا، وإن كان يُبغِضُه لكونِهِ فاسقًا مُجَاهِرًا بفِسقِه، أو لكَونِهِ مُبتَدِعًا مُخالِفًا لسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُم يتفَاوتُ المُسلمونَ في حُبِّ المُسلم لَهُم، فكُلما عظُمَ صَلاحُ الرجُل عَظُمَ حبُّه في قلب الرجلِ المُسلم، والصالحونَ الذين عُرف عَنهُم أنهم عبادٌ أبرَار أولياء للهِ، ليسَت دعَاوَىٰ، وإنما أعمالُهم تدُل علىٰ ذلك، فإنَّهم أعلىٰ الناس محبَّةً في قلبِ الرجُلِ المُؤمن، ورأسُهم وأعلاهم: رسُل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ورَأسُهم ومُقدَّمُهم: محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم صحَابةُ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ الصَّالحون الفُضَلاء الذين لَهُم قَدمُ سَبقٍ، ولهُم فضلٌ عظيمٌ علىٰ أمَّةِ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ فَضلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وَأَبغَضَ فِي اللهِ): فيُبغِضُ مَن يبغضُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُبغضُه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكُل مُشرِكٍ فهو مُبغَض لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن محبَّتَه لله مَحبَّة شِركيَّة، وكُل مَن كذَّبَ رسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَونِه رَسولًا إلىٰ الناسِ جميعًا؛ فهو مُبغَض لرَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيُبغِضُه المؤمنُ بُغضًا خَالصًا لا مَحبَّة مَعه، إلا

أن تكُونَ المَحبَّة مَحبَّةً طَبْعِيَّةً غَالِبة علىٰ الإنسان لا تُؤثِّر في بُغضِهِ لِمَن يُبغضُه اللهُ ويُبغضه رسُولُه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهَذه الصفَةِ القَبيحَة فيه.

ويُبغَضُ كذلك المُبتَدعة من المُسلمين؛ فإن المبتدِعَ إمَّا أن تكونَ بِدعَتُه شركيَّة تُخرِجُه من مِلَّة الإسلام، وحَكَمَ عليه علمَاءُ السنَّة بأنَّه مُشرِك بعَينه، فهَذا يلتَحقُ بالنوعِ الأولِ؛ وهو مَن يُبغَضُ بُغضًا خَالصًا.

وإمَّا أن تكُونَ بِدعَتُه ليسَت شِركيَّة في ذاتِها، أو كَانَت بِدعَتُه شِركيَّة، لكن لم يَحكُم علماءُ الإسلام عليه بعَينِهِ أنهُ مُشرِك بتِلكَ البِدعَة الشِّركية، فهذا يُبغَض لبِدعَتِه ويُحَبُّ لإسلامِهِ.

وهذا فيمَا يتعَلَّق بما في القَلب؛ بمَعنىٰ: أنَّ المُبتدعَ الذي لم يَخرج عن الإسلام ببِدعَتِهِ لا تُبغِضه بُغضًا مُطلقًا كبُغضِ المُشرِكينَ؛ بل لهُ في قَلبِكَ حُبٌّ يَقتَضِيه الإسلامُ، وله بُغضٌ تَقتَضيه بِدعَتُه.

أما إظهَارُ ذَلك -فكما تقدم-: الأصلُ ألا تُظهِرَ حُبَّه، وإنما تُظهر بُغضَه زَجرًا له، ومَنعًا لغَيره مِن أن يكونَ علىٰ شَاكِلَته، وإعزازًا للسُّنَّة وانتِصَارًا لسُنَّة رَسُول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهُنا نحنُ بينَ طرَفَين:

- **طَرَف يَقُول:** إن المبتَدع لا يُحبُّ مُطلقًا حتىٰ في القَلب، وهذا غلطٌ؛ فإن مَن قام به الإسلامُ ثَبتَت له محبةٌ في القَلب.

- **وطَرَف يَقُول:** نُظهر للمُبتَدع المحبَّة كما نُظهرهَا لأهلِ السُّنة، وكما نُظهرها للصَّالِحين، وهذا غَلَطٌ.

والصَّوابُ الذي عليه السَّلف مَا بيَّنَّاه.

إذن؛ **يَدخُل في البُغض في الله**: أن تُبغضَ الفاسقَ لِفسقِه، وهذا الفاسِقُ -كما قُلنا- يَجتمع في قَلب المُؤمنِ في حقِّه حُبٌّ وبُغضٌ؛ حُب لإسلامِه وما يَعمل من الصالحَات، وبُغضٌ لِفسقِه.

(وَوَالَىٰ فِي اللهِ): والمُوالاة درجةٌ عَالية في المَحبَّة تستوجبُ أفعَالًا؛ مِن النُّصرَة والقُربِ والمحبَّة، ونَحوها.

فوالَىٰ في الله؛ أي: فكانت مَحبَّته في الله، ونُصرتُه لمَن يُحب في الله، يَنصُر أهل السُّنة، وينصُرُ أولياءَ الله، ويَكُون معهم، ويأنَسُ بهم، ويألفُهُم ويألفُونَه، وإذَا رأىٰ الرجُلَ من أهل السنَّةِ سُرَّ به ولو كانَ من بَلدٍ بَعيدٍ.

(وَعَادَىٰ فِي اللهِ): والمُعاداة هنا معنَاهَا: الأفعال المَبنيَّة علىٰ البُغضِ في الله، فهُو يَبتعدُ عَمَّن يُبغضُ في الله، ولا يكُونُ مَعه ولا يُجَالِسُه.

(فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ): و(الولاية) يَصح أن تُقَال بكَسرِ الوَاو وفَتح الوَاو: (وِلايَة الله) و(وَلاية الله).

فمَن سَلَّم قلبَه لله، واستتبَعَ ذلك أن كان مَا في قلبِه لله؛ فقد نالَ وِلايةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان من أوليَاءِ الله، فإنَّ ولاية الله عَزَّوَجَلَّ تُنالُ بذَلك.

ووِلايةُ الله ليسَت مِيراثًا يُورَث، فهَذا لا يَكُون وليًّا لله لأنه ابنُ الشيخِ فلان، وليسَت تُنالُ بالنَّسب ولا بالجِنسيَّات ولا بالدَّعاوىٰ؛ وإنما تُنَال وِلاية الله بتَقوَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا يُمكنُ أن يكون وليًا لله عَزَّوَجَلَّ إلا من وَحَّد الله تَوحيدًا خَالصًا، وأخلصَ لله في قَلبه، وظهر الصلاحُ علىٰ جَوارِحه؛ فكانَ فَاعلًا لفَرائضِ الله، مُجتنبًا لمحَارِمِ الله، مُتقربًا إلىٰ الله بالنَّوافِل، فإذا فعَل ذلك نَالَ وِلايةَ الله.

ومِن أعظَم العلاماتِ علىٰ ذلكَ: أن يكونَ القَلبُ لله، وأن يكون ما في القَلبِ لله، فإن هذِه الدرجَةَ لا يَصل إليهَا إلا المُوحِّد، الذي تقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما يُحبُّه الله؛ ولذلك قالَ ابنُ عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «فَإنَّمَا تُنالُ وِلايَةُ الله بذَلك».

ثُمَّ قالَ ابنُ عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: **(وَلَن يَجِدَ عَبدٌ طَعمَ الإيمَانِ وَإِن كَثُرَت صَلَاتُهُ وَصَومُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ)**: فالإيمان -كما تقدَّم- له طعمٌ أحلىٰ مِن كلِّ حَلاوة في الدنيا، وهذه حلاوةٌ عظيمةٌ تكون في القَلب تُورثُ طُمأنينةً، وحياة طيِّبة، وحيَاة سَعيدة، وهذا الطعمُ يَقعُ في قلب كلِّ مُؤمِن، لكن لن يَجدَ طَعمَه ولن يجدَ حلاوَتَه إلا مَن حَقَّق ذلك-كما تقدم بيانه-.

ولذَلك قال ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: **(وَلَن يَجِدَ عَبدٌ طَعمَ الإيمَانِ وَإِن كَثُرَت صَلَاتُهُ وَصَومُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذَلِكَ)**: لأن أعظَمَ الأعمالِ: التَّوحيد، وما يتعلَّقُ بأعمال القلوبِ، فإذا وُجِدَ ذلك في المُؤمِن وجَد طَعمَ الإيمَان.

قَالَ: (وَقَد صَارَت عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَىٰ أَمرِ الدُّنيَا): وهَذا في زَمَن ابنِ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، في زمَنٍ فيه صحابَةُ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والتَّابعونَ في القَرن المُفضَّل، في القرن الأول، خَيرِ القُرون.

يَقُول شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ: «فَإنَّ المُؤمنَ للمُؤمن كَاليَدَين تَغسلُ إحدَاهُمَا الأُخرَىٰ. وَقَد لَا يَنقَلعُ الوَسَخُ إلَّا بنَوع من الخُشُونَة؛ لَكنَّ ذَلكَ يُوجبُ

من النَّظَافَة وَالنُّعُومَة مَا نَحمَدُ مَعَهُ ذَلكَ التَّخشينَ»[(١)].

فالمُؤمن للمؤمن كاليدَين تغسل إحداهُما الأخرىٰ، فلا يَغُش المؤمنُ أخَاه المؤمن، ولا يُظهِر له أنه علىٰ خَير وهو علىٰ خلافِ ذلك، وإذا رَآه خالَفَ السُّنة، لا يُجامِلُه؛ بل يَنصَحُه ويُبَين له؛ لأنه يُحبُّ له ما يُحِبُّ لنَفسِه.

والمُؤمنُ لأخيه المُؤمن كاليَدِ والعَين؛ إذا دمَعتِ العَينُ مسَحت اليدُ دَمعَها، وإذا تألَّمت اليَدُ أسالتِ العَينُ دَمعَها.

(**وَذَلِكَ لَا يُجدِي عَلَىٰ أَهلِهِ شَيئًا**): أي: أنَّه لا ينفعُهم، فإن الذي ينفَعُ العبدَ إنمَا هو الحُب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والحبُّ في الدنيَا ليسَ مَذمومًا علىٰ الإطلاق، فكونُ الرجُل يُحب الرجُلَ لكَونه شَريكًا معه في التجَارَة لا لصَلاحِه، فهَذه المحبة لا تُذَم علىٰ الإطلاقِ، وإنما تُذَم إذا عارَضَت الحُبَّ لله، فإنها إذ ذاكَ تكونُ مَذمُومَة.

✽✽✽

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٥٣-٥٤).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦].

قَالَ: «المَوَدَّةُ».

الشرح

هذا الأَثَرُ رواه ابنُ جرير في «تفسيره»[١]، وابن أبي حاتم في «تفسيره»[٢]، والحَاكم، وصحَّحه الحَاكمُ، ووافقَهُ الذَّهبيُّ[٣].

(﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، **قَالَ: المَوَدَّةُ**): وذلك أن كل مَودَّة في الدنيَا تنقطِعُ يومَ القيامَة؛ بل تَنقلبُ إلىٰ عداوَة؛ لظُهورِ أثرها السيِّء، إلا مَودَّة المُتَّقين؛ فإنها مَوصُولة في الدنيَا والآخِرَة.

فالحُبُّ الحقيقي لله سَببٌ للمودة بين المُؤمنين في الدنيا والآخرة، فكل خَليل وكل حَبيبٍ يكون عدوًّا لحَبيبِهِ يومَ القيامة، إلا المُتَّقين فإن المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تَعظُم في الآخرة؛ لأن أثرَهَا خَيرٌ علىٰ المُؤمن يومَ القِيامَةِ؛ فيزدَادُ المؤمنُ حُبًّا لأخيهِ المُؤمن.

ولذلك قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾؛ أي: بالمشركين، ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾ المُوصِلة بَينَهُم؛ يعني: المَودَّة.

---

(١) (٣/ ٢٧).

(٢) (١/ ٢٧٨).

(٣) (٢/ ٢٩٩).

وهذا يدلُّ علىٰ أن المَحبَّةَ النافعَةَ الباقيةَ الدائمَةَ التي لا تَنقطِعُ أبدًا هي المَحبَّةُ في الله، والمحبة لله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا غيرُهَا من المحَابِّ فإنه ينقَطعُ ولا يَستَمِر.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ.

وهو قَولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقد تقَدَّم شرحُها وتفسيرُها.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة.

وهو قَولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [التوبة:٢٤]. إلىٰ آخر الآية.

وقد تقَدَّم شرحُها وتفسيرُها.

الثَّالِثَةُ: وُجُوبُ تَقدِيمِ مَحبَّتِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّفسِ وَالأَهلِ وَالمَالِ.

ولا شَكَّ -كما تقدم- أنه يَجبُ على المُؤمنِ أن يُحبَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثَرَ من محبَّته لنَفسِه، وما دام أنه يَجبُ أن يحبَّهُ أكثر من مَحبَّتِه لنَفسِهِ؛ فإنه يجبُ أن يُحبَّه أكثَرَ من مَحبَّتِهِ لكُلِّ بَشَرِيٍّ ولِكُل مَحبُوب من محَابِّ الإنسانِ في الدُّنيَا.

فالنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُقدَّم مَحبَّتُه علىٰ محبَّةِ النَّفس والمال والأهل، وقَد تقدَّم بيَانُ ذلك.

الرَّابِعَةُ: أنَّ نَفيَ الإيمانِ لا يَدُلُّ عَلَىٰ الخروجِ مِنَ الإسلامِ.

ونَفي الإيمَان علىٰ ثلاثِ درَجَات:

الدَّرجَة الأولىٰ: نَفي أصلِ الإيمان، فإذا قيلَ: (لا يُؤمِن) فقد يَكُون المَعنىٰ: لم يُؤمِن أصلًا، ولا يُوجدُ الإيمانُ في قَلبِهِ.

الدَّرجة الثانيَة: نَفي الإيمَان الوَاجب، ومعنَاه: نَفيُ خَصلَةٍ من خصَال الإيمَان الواجِبَة.

الدَّرجة الثَّالثَة: نَفي كمَال الإيمَان.

فنَفي الإيمان لا يَدُل علىٰ الخُروج من الإسلام، وهذا ما جَهِلَته الخوارجُ والمُكفِّرةُ؛ فإنهم حيثُمَا وجدُوا نصًّا فيه نفيُ الإيمانِ حَكمُوا علىٰ مَن انتفىٰ ذَلك الإيمانُ عنه بالكُفرِ، وهذا مِن جَهلِهم، وبُعدِهم عن فَهمِ السَّلف الصالحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومتىٰ وُجِد نَصٌّ فيه نَفي الإيمَانِ، فتراجَعُ النصوصُ، ويُرَاجعُ كلامُ العُلماءِ الأثبَات؛ حتَّىٰ تُعلَمَ دَرجَةُ هذا النَّفي: هل هُوَ لنَفي أصل الإيمَان، أو لنَفي الكمَال الواجب، أو لنَفي الكمَال المُستَحَب؟

الخَامِسَةُ: أنَّ للإيمانِ حَلاوَةً قَد يَجِدُهَا الإنسانُ، وَقَد لا يَجِدُهَا.

فللإيمانِ حَلاوةٌ، وهذه الحلاوة تُوجدُ مع وجُودِ الإيمَان في القَلب، لكن ذَوقها إنمَا يكونُ لبَعض المُؤمِنين الذين تَحقَّقَت فيهم أسبَابُ وجُودِ حَلاوةِ الإيمَان -كما جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذه الحلاوةُ قد يَجدُها الإنسانُ وقد لا يَجدُها، وقد تعظُمُ في قلبِ الإنسانِ حتَّىٰ يَعيشَ مُنعَّمًا في الدنيَا في قلبِهِ وإن أحاطَت بِهِ الكرُوب.

السَّادِسَةُ: أعمالُ القَلبِ الأَربَعَةُ الَّتِي لا تُنَالُ ولايَةُ اللهِ إلا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ طَعمَ الإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

فمِن أعظَم ما تُنَال به وِلايةُ الله -كما سبق بيانه-: تسليمُ القَلبِ لله، وأن يكونَ مَا في قلبِ المُؤمنِ لله وفي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهَذه الأعمَالِ الأربعَة:

- أن يُحِبَّ لله.
- ويُبغضَ لله.
- ويوالي لله.
- ويُعَادِي لله.

السَّابِعَةُ: فَهمُ الصَّحَابِيِّ للوَاقِعِ أنَّ عَامَّةَ المُؤَاخَاةِ عَلَىٰ أمرِ الدُّنيَا.

فهم الصَّحابي ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي الرواية الأُخرَىٰ ابن عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لواقعِ الناس فَهمًا حقيقيًّا مبنيًّا علىٰ الفِقهِ في الدِّين وليس فهمًا للواقع يقُودُ العبد إلىٰ أن يُخالفَ النصوصَ بحُجَّة «فقه الواقع»، فإنَّ بعضَ الناس يتركون النصوص الصَّحيحةَ الثابتة التي لا شَكَّ فيها في مسألةٍ كوجُوبِ طاعَة ولي الأمر المسلم في غَيرِ مَعصيَة الله، ووجُوب الصَّبر عَليه مَهمَا كانَ حالُه ما دام في دائرَةِ الإيمَان؛ فيَتركُ ذلك إلىٰ تَحبيبِ الناسِ في الثورَات، والانقلابَات، بل وزَرع المُتفجِّرات في دِيارِ المُؤمِنين، وقتلِ رجَالِ الجيش بحُجَّة فَهمِ الوَاقع وفِقه الواقع!

وهَذا ليس فهمًا ولا فقهًا، بل هو ظُلمَة أوجَدهَا الاستسلام للواقِع، وعَدمُ الاستضاءَةِ بنُورِ الوَحي.

والسَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ كانُوا يَفهمُون الواقعَ، ويُصحِّحون الواقِعَ، ويُصلِحُون الواقِعَ بنُور الكتابِ والسُّنَّة.

أمَّا أن يتتبَّع الإنسان ما يُفعَلُ من المعَاصي ويَشغل نَفسَه بذَلك ويَشغَلُ الناس بذَلك، وإذا خَطبَ الخُطبة كانت خُطبةُ الجمعة عندَه نَشرَة أخبَار، يجمَعُ ما في الصُّحف وما في وكالات الأنباء العالميَّة، ويعظ الناس بِهذِه الأخبَار؛ فهَذا جهلٌ وليس فِقهًا للواقع، ولا فَهمًا للوَاقع.

فالوَاجبُ علىٰ طلَّابِ العِلم وعَلىٰ الدُّعاةِ: أن يَرجعُوا إلىٰ طريقَةِ السَّلف الصَّالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فَهمِهم لوَاقعِ الأمَّة ومُعَالجَتِهم لواقع الأمَّة.

وقد رأىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ عامَّة مُؤاخاةِ الناس في ذلك الزمَان صارَت للدنيا، فكيف في زمَانِنَا هذا، الذي بَعُد الناسُ فيه عن عَهدِ النبوَّة وبَعُدَ كثيرٌ من الناس عن نُور النبُوَّة، وفي الأمَّةِ خَيرٌ، ولا نزالُ نَرجُو الخَيرَ مِن أمَّة مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّامِنَةُ: تَفسِيرُ الآية: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

وتقدم أن (الأسبَاب) هنا يَعني: المَودَّات والمحبَّة، فإنَّ جَميعَ الأسبَابِ بَينَ الناس تَئُول إلىٰ هذا السَّببِ، وهو المَودَّة.

التَّاسِعَةُ: أنَّ مِنَ المُشرِكِينَ مَن يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا.

كثيرٌ من المُشركينَ يُحبُّون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقَلَّ أن تجِدَ إنسانًا عَاقلًا لا يُحبُّ الله علىٰ الإطلاق، وأكثَرُ المشركِينَ يُحبونَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَجدُ في قلوبِهم

مَحبَّة الله، بل قد تَجدُ في قلوبِهم مَحبَّة شديدةً لله؛ ولذلكَ قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾.

(**أَشَد**): (أفْعَل) تَفضيل، يُقابلها: (شديد)، و(شَديد) يُقابِلُه: (ضَعيف)، و(أصَح) يقابِلُه: (صَحيح)، و(صَحيح) يُقَابله: (ضَعِيف).

فكَونُ الذِين آمَنُوا أشَد حُبًّا لله يَعني: أن المُشركين عندَهُم حُبٌّ شَديدٌ لله، ولكنَّه حُبٌّ فيه شِركٌ، فهم يُحبُّون أندادَهُم كحُب الله أو أشَد من حُبِّهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكونُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: (**أنَّ مِنَ المُشرِكِينَ مَن يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا**): لا يقصِدُ به أن يَمدَح المُشركين، أو أنَّا نُحبُّهم لأنهم يُحبُّون الله، وإنما مَقصُوده: أن حُبَّهم الشديدَ لله لم يَمنَع كَونَهُم مُشركِينَ بِالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالذِي يأتِي من أمَّةِ مُحمدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويَذبح لغير الله، فيذبح لصَاحبِ قَبر، أو يَنذر لصَاحب قَبر، أو يَدعُو غيرَ الله؛ فإذا قُلتَ له: هذا شِركٌ بالله -شِرك أكبر-، قال: كَيفَ تَقُول أنَا مُشرِك وأنا أُحِبُّ الله؟!

نَقُول: إن وجُودَ الحبِّ في القلب لا يَمنعُ أن يكونَ العبدُ مُشرِكًا إذا وُجِدَ فيه ما يَقتَضي ذلك. فهَذا مُرادُ شَيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

العَاشِرَةُ: الوَعِيدُ عَلَىٰ مَن كَانَتِ الثَّمَانِيَةُ عِندَهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن دِينِهِ.

وقَد تقدم هذا في آيَةِ (بَراءة)، وقُلنا: إن من يُقدِّم هذه المَحبُوبات علىٰ محبَّته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومَحبَّته لرَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن هَذا يكون شِركًا

أصغَر، أو يَكُون من كبائر الذنُوب، بحَسَب مَقامَاتِ ذلك.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللهِ فَهُوَ الشِّركُ الأكبَرُ.

فمَن اتخَذَ نِدًّا يُحبُّه مَحبَّة تألُّهٍ وتَذَلُّل وخُضُوع وطَاعة باطنَة وخَوف قلب (خَوف السر -كما سيأتي-) أَن هذَا شِركٌ أكبَر، وأن حالَ المُشركينَ أنهم يُحبُّون الله، لكن حُبَّهم لأندَادِهم يُسَاوي مَحبَّتهم لله، أو أَشَد من مَحبَّتِهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالذِي يتركُ حقَّ الله من أجل الحَقِّ المزعوم المَكذُوبِ لأصحابِ القُبور، هذا قَد تَلبَّس بالشرك الأكبر، وهذا قد اتخذَ نِدًّا يُحبُّه أشدَّ من محبَّتِه لله، وإن زعَمَ خِلافَ ذلك، فإنَّه لو كان يُحبُّ الله محبَّة المُوحِّدينَ لَمَا صرَفَ شَيئًا من أنواعِ العبادَةِ لغَيرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

الشرح

هذا هوَ البابُ الثَّاني من الأبوَابِ المُتعَلِّقة بأعمَالِ القُلوب المُتعَلِّقة بالتَّوحيد، حيث ذكر الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الأولِ منهَا ما يتعلَّق بالمحَبَّة، ثم أعقبَهُ بهذا الباب، وهو بابُ الخوفِ، وإذا ذُكِرَ الخوفُ فإنه يُذكَر معه الرجَاء، وهذه الأمُور الثلاثة العَظيمة: المَحبَّة والخوفُ والرجَاء، يرتبطُ بعضُها ببعض، إذ العبَادة لا تكُون عبادةً إلا إذا كانت عن محبة وخوفٍ ورجاء، مع ذُلٍّ وتَعظِيم لربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والإنسانُ في هذه الدُّنيا يسيرُ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو في سَيرِه إلىٰ الله بينَ أمرَينِ لا ثالثَ لهُما: إما أن يتقَدَّم، وإمَّا أن يتأَخَّر: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧].

والإنسان في سيره إلىٰ الله لكي يَكُونَ مُتقَدِّمًا لابُد له من هذه الأمورِ الثلاثة: المَحبَّة والخوف والرجَاء.

فالمَحَبة: تدفعه ليَسير؛ لأن مَن أحبَّ شيئًا تقدَّم إليه، فكيف بمَن أحبَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإن حُبَّ العَبدِ لله يدفعه ليتحرك ويتقدم ويَسير.

والخَوف: يَحميه من الانحرَاف ذاتَ اليَمين أو ذات الشِّمال، فالخوفُ كالسورِ حولَ الطريق الذي يسيرُ فيه الإنسانُ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والرجَاءُ: يَجعَله يُسَارع ويسابق؛ لأن الإنسانَ وهو يَرجُو ما عندَ الله يَجعَلُه ذلك يُسَابق غيره، ويُسَارعُ إلىٰ ما عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلابد للمَرءِ المُوفَّق في سيره إلىٰ الله من هذه الأمور الثلاثة، وإذا عُدِمَت انقطَعَ السَّيرُ بالكُلِّيَّة، وإذا ضَعُفَت ضَعُفَ سَيرُ العبد، فيكون تأخُّره أكثَرَ من تقدُّمِهِ، ومن هنا تعلَمُ أهميَّة هذه الأمُور الثلاثة.

والخَوف في اللغة: معناه: الذُّعر والفَزَع.

وأما في اصطِلاحِ العُلمَاء: فالخوفُ انفعالٌ في القلب من تَوقُّع ضَرَر أو أذىٰ أو عُقوبة؛ يُثمِرُ فِعلًا أو تَركًا أو اعتقادًا.

والخوفُ يُقَسَّم عند أهل العلم إلىٰ ثلاثة أقسَام:

القِسمُ الأول: باعتبَارِ حقيقَتِه، وهو ينقسم إلىٰ أقسَام أربعَة:

القسم الأول: خوفُ السِّر، وهذا الخوف تَضبِطُه أمور ثلاثة؛ فإذا اجتمَعَت هذه الأمورُ الثلاثة فهو خوف سر:

الأمر الأول: أن يكونَ من غائبٍ حقيقةً أو حُكمًا أو حسًّا.

غائب حقيقَة: مثل أن يجلسَ إنسانٌ في المدينة، ويخاف من رَجُل في المَغرب، ويخافُ أن يُؤذيه أو يَضُره، سَواء سُمِّي هذا الغائبُ وَليًّا أو سَاحرًا أو مُشعوذًا، المُهمُّ أنه غائبٌ حَقيقَة.

أو حُكمًا: مثل المَقبُور في القبر، فالإنسان يكونُ عند القَبر والمَقبُور في قبره، فهَذا المَقبُور غائبٌ حكمًا، وإن كان مَوجودًا بين يَدَي الإنسَان.

أو حسًّا: وهو الذي لا يُحسُّه الإنسانُ بحَواسِّه الخمس، مثل الجن والشيَاطين، فالجِن قد تكونُ مع الإنسان مَوجُودة، لكن الإنسان لا يُدركهم بحواسه.

وكذَلكَ ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو معنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإن كنَّا لا نُدرِكُه بالحَواس.

الأمر الثاني: أن يكون ذلك بالقُدرة لا بِسَبب حسِّي، يعني: أن تخافَ منه لأن عنده قُدرَة علىٰ إيذائك، وليس بسَبب حِسِّي، والسَّبَب الحِسِّي مثل: الخَوف من المَلِك أو السُّلطان الظالم.

أما ما لا يكون له سَببٌ حِسِّي، فكالذي يخَاف من الوليِّ؛ لأنه في اعتقَادِه قادرٌ علىٰ إيذائه في أي مَكَان، فيؤذيه بالقدرة، فلا يكُون له سببٌ حسِّي، وإنما سببه قُدرة مزعومة، أو قُدرَة حَقيقيَّة.

والأمر الثالثُ: أن يُثمرَ طاعةً باطنَة ولابُدَّ؛ لأن من اعتقدَ في غائب أنه قَادرٌ علىٰ أن يُؤذِيَه فلابُدَّ أن يُثمِر هذا طاعةً باطنة في قلبِهِ، وقد يتَرتَّب علىٰ ذلك طاعَة ظاهِرَة، لكن الأصل أنها طاعة باطنة في القلب.

فإذا وجِدَت هذه الأمور الثلاثة فهَذا الخَوفُ خَوف سِرٍّ.

وخَوفُ السرِّ ينقَسِم إلىٰ نَوعين:

النَّوع الأول: خَوفُ أهلِ التَّوحيد، وهو الخوفُ من الله عَزَّوَجَلَّ، فخوفُ السِّر لا يكونُ إلا من الله عَزَّوَجَلَّ القوي العزيز القادِر علىٰ كل شيء.

فالمُوحِّد يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠].

وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩].

النَّوع الثاني: خوفُ المشركين؛ كالذين يخَافُون من الأصنام، ومن المَقبُورين، وممَّن يُسَمُّونَهم بالأولياء، أن يَضُرُّوهم أو يُؤذُوهم بقُدرتهم.

فخوف السِّر ليس فيه أمرٌ وَسَط؛ فهو إمَّا توحيدٌ وإما شِركٌ أكبَر، فإن كان منَ الله فهذا تَوحِيد، وإن كان من غير الله فهذا شِركٌ أكبر يُخالفُ الإسلامَ من كُل وجه، ويُخرِجُ من ملَّة الإسلام.

والقسمُ الثاني: أن يخافَ الإنسانُ مِن مَخلُوق حتىٰ يتركَ ما أوجبَه الله عليه من أجلِه، أو يَفعَل الحرامَ من أجله؛ فهذا حرامٌ ومن الشِّرك الأصغَر، وليس من الشِّرك الأكبر.

ولا يدخلُ في هَذا: تركُ الواجب وفعل الحرَام من أجل الإكراه، فإذا كانَ الإنسانُ مُكرهًا إكراهًا بشروطه؛ فأُكرِه علىٰ ترك واجب، كمَن وقفَ لصٌّ أمام بيته يُريد أن يسرقه، إما أن يعلَمَ ذلك بعَينِه أو بغَلَبة الظن، ولو خرجَ إلىٰ صلاة الفَجرِ لاعتدىٰ علىٰ عِرضِه في بيته أو سرق ماله، هذا مُكرَه، وله أن يبقَىٰ في بَيتِه ويُصَلي الفجر في بَيته، ولا يُقال: إنه خَافَ فتَركَ الواجبَ فوقَعَ في حَرَام؛ بل هذا مُكرَه معذُور شرعًا، وإنما الذي يدخُلُ في هذا ألا يكونَ هناكَ إكراه، ويترك الواجبَ أو يفعل الحَرَام بسبب هذا الخَوف.

القسمُ الثالث: خوفُ وَعيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا خوفٌ واجبٌ علىٰ المُكلَّف،

أن يخاف وعيد الله، وأن يخاف عقوبَةَ الله، وأن يخافَ النار: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

فهناكَ الخوفُ من الله -الذي تقدَّم في خوفِ السِّر-، وهناك خوفُ وعيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهذا فرضٌ علىٰ المُكلَّف.

القِسمُ الرابع: الخوفُ الطَّبْعِي المَركُوز في طبيعة الإنسَان، وهُو الخوفُ من مخلوقٍ قادرٍ علىٰ الأذىٰ بسَببٍ حِسِّي، كأن يكُونَ حاضرًا قَادرًا بسَبَب حسِّي، ليس بالقُدرَة كالخوفِ من الحيَواناتِ المُفترِسة، والخوف من العَقَارب مثلًا، والخَوف من الظَّالم القادر علىٰ الأذىٰ.

وهذا الخوفُ لا يُؤاخَذُ به الإنسانُ، وليس قادحًا في التَّوحِيد.

قال تعَالىٰ عن موسىٰ وهارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه:٤٥].

فمُوسىٰ وهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ لعِلمِهما بجبروت فرعون؛ خافَا إذا وصَلَا إليه ودَعوَاه إلىٰ التوحيد أن يفرُطَ عليهما فيُؤذيهما أو أن يَطغَىٰ، وهذا ليس قدحًا في الإنسان.

والله عَزَّوَجَلَّ قال عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١].

فهذا خوفٌ طبعي لا يُؤاخَذ به الإنسان، ولا يُعَاب بهِ.

هَذه أقسام أربعَة للخَوف باعتبَار حَقيقَتِهِ:

- خوف السِّر.

- الخوف من مَخلُوق، والذي يجعَل المسلم يتركُ واجبًا أو يفعل حرامًا.

- خوف وَعيد الله.

- الخوف الطبعي المَوجُود في طَبْع الإنسان.

ويَنقَسِم الخوفُ باعتبار أثَرِه في نفس الإنسان إلىٰ خَمسَة أقسَام:

القسمُ الأول: خوف يدفعُ العبدَ إلىٰ طاعة الله واجتِنابِ معَاصيه، فهو يخافُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخَوفُه من الله يَدفَعُه إلىٰ أن يفعل الواجبَات، وإلىٰ أن يتركَ المُحرَّمَات، وهذا مَحمُود.

والقسم الثاني: خَوفٌ يدفع العَبدَ إلىٰ طاعة بَاطنَة كتَعظِيم غير الله، وإلىٰ تعَلُّق القَلبِ بالمَخُوف منه، **وهذا شِركٌ أكبَر.**

القسم الثالث: خوفٌ يَدفَع العبدَ إلىٰ القُنُوط من رَحمَة الله، فيخَاف حتىٰ يقنَطَ من رَحمَة الله، وأن الله لا يَرحَمُه، وأن الله لا يَغفِرُ له، **فهذا خوف مُحرَّم مذموم.**

القسم الرابع: خوفٌ يَدفَعُ العبدَ إلىٰ ترك واجبٍ عَليه، أو فِعلِ مُحرَّم عليه، **وهذا مذموم محرم،** ويعده العلماءُ من **الشِّرك الأصغَر إلا في بابِ الإكراه،** فإنه لا يدخل في ذلك عند أهلِ العِلم.

القسم الخامس: خوفٌ له سببُه الظَّاهر، ويَدفعُ العبد إلىٰ فِعلِ الأسباب المُبَاحَة، ليتَجَنَّب الضَّرر، **وهذا مُبَاح،** كمن يَرَىٰ حيوانًا مخوفًا فيخَاف أن يُؤذِيَه فيَفِر منه، أو يَعلَم بظَالم يُؤذِي الناسَ فيَدفعه ذلك إلىٰ أن يَجتَنبَ هذا الظَّالم

ويبتعد عنه، كمَا فعَلَ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه لمَّا خافَ من المَلأ فَرَّ، وخرج منَ المَدينة خائفًا يتَرقَّب، فهَذا الخوف الذي له سَببٌ ظاهر ويَدفعُ الإنسَانَ إلىٰ اتخاذِ الأسبابِ المُبَاحة، **هذا جائز**.

والتقسيمُ الثالثُ: تقسيمُ الخَوفِ باعتبار الدَّاعي إليه، فإنه يُقَسم عند أهل العلم ثلاثَة أقسَام:

القسمُ الأوَّل: خَوفٌ يَدعُو إليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاللهُ يأمُرُ به ويدعو إليه، والذي يُحَرِّكُه في قلب المؤمن إيمَانُه بالله؛ فيكونُ مُؤمنًا بالله وبقُدرَته، فيخاف الله عَزَّوَجَلَّ، **وهَذا هو الخَوفُ المَشرُوع**.

القسمُ الثاني: خوفٌ يَدعُو إليه الشيطان، ويُزَيِّنُه في قلوب مَن يُطيعُونه، **وهذا هو الخوفُ المَمنُوع**.

القِسمُ الثَّالث: خوفٌ تدعو إليه النَّفس، أو قُل: تَدعُو إليه طبيعَةُ الإنسَان.

والخَوفُ الذي تَدعُو إليه النفس يَعُم أنواعًا كثيرة أشمَل من طَبيعَة الإنسان.

فالخَوف الذي قَد يَدعُو إليه طبعُ الإنسان -كما قُلنا-: كالخَوفِ من الحيوانات المُفتَرسَة والمُؤذيَة.

وقد يدعو إليه شيء آخر في النفس، مثل: الوَسوسَة، فبَعضُ الناسِ عنده خوف وَسواسي، فيخاف من بعض الأشيَاءِ أن تُؤذِيَه وهي ليسَت مُؤذِية، فإذا سَلَّم علىٰ إنسان يُصيبه خَوف، وإذا مس شيئًا بيَده يُصيبُه خَوفٌ، فتَجدُه يغسلُ يدَه في كُلِّ وَقتٍ وحِين، من خَوفٍ في نَفسه!

فهذا ليسَ خَوفًا طَبعيًّا، ولكنَّه خوفٌ تدعو إليه النَّفسُ لمَرَض، وهذا يَجبُ علىٰ المَرءِ أن يُعالجه.

إذَن؛ الخوفُ الذي تدعُو إليه النَّفسُ قد لا يكونُ مَذمومًا؛ كالخوفِ الذي له سببٌ ظَاهر، وفي طبيعة الإنسَان، وقد يكُونُ مَذمومًا كالخوفِ بسَببِ الوسَاوِس ونَحو ذلك.

هذه تقسيمات الخوف باعتباراتها الثلاث، ومن ضبطها يفهم أحكام الخوف في الشرع، ويفهم كيف يتعلق الخوف بالتوحيد.

قالَ: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾): يعني: إنما ذلِكُم الشيطانُ يُخوِّفكُم بأوليَائه من الكفَّار والطواغيت والقُبور.

(﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾): لا تخَافُوا من هؤلاءِ الذينَ يُخوِّفكم الشيطانُ بهم.

(﴿وَخَافُونِ﴾): أي: أفرِدُوني بهذا الخَوف؛ فلا تَجعلُوا هذا الخوفَ إلا من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾): فجَعلَ الله عَزَّوَجَلَّ شرطَ الإيمانِ به الخوف منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فدَلَّ ذلك علىٰ أن خَوفَ السِّر من غير الله عَزَّوَجَلَّ يُنَافي الإيمَان، فالواجب علىٰ المُوحِّد ألَّا يخافَ خَوفَ السِّر إلا من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وألَّا يخاف من أحدٍ خوفَ السرِّ أبدًا، ولا يتحقق التوحيد إلا بالبَراءة من خوف السرِّ من غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ودلَّت هذه الآيةُ علىٰ أمورٍ تتعلَّق بالخوف:

الأمرُ الأول: أن الخوفَ واقع، وهذا أمر يَقينيٌّ لا يَشُكُّ فيه عاقلٌ.

الأمرُ الثَّاني: أن الخوفَ ينقسم إلىٰ قِسمَين:

- خوف يَدعُو إليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- وخوف يدعو إليه الشيطانُ، وهذا في خَوفِ السِّر.

الأمرُ الثَّالث: أن من الخوفِ مَا يُؤمَر به، ومن الخَوف ما يُنهَىٰ عنه؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ هذا نَهي، ﴿وَخَافُونِ﴾ هذا أمر؛ فالخوف منه ما يُؤمر به شرعًا، ومنه ما يُنهَىٰ عنه شَرعًا.

الأمر الرَّابع: أن خوفَ السِّر من غير الله يُنَافي الإيمَانَ بالكُلِّيَّة، فإذا وجِدَ خوفُ السر من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ارتفَعَ الإيمانُ وانتَفَىٰ، فشرط الإيمانِ ألَّا يخافَ العبدُ خوفَ السرِّ إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهناك أمورٌ أخرىٰ تتعَلَّق بباب الخَوف:

الأمر الأولُ: ذِكرُ بَعض الألفاظ الشَّرعية المُقاربَة للخَوف؛ وهي:

١- **الخَشيَة:** وهي الخَوف المَقرُون بالعلم والتَّعظيم، فهي من أعلىٰ درجَات الخَوف؛ لأنك قد تخافُ ممَّن تعلَمُه وتعلَمُ بَأسَه، وقد تخَافُ ممن تَجهَلُه، قد تخاف ممَّن تُعظِّمُه، وقد تخافُ ممَّن تَذُمُّه.

أما الخشيةُ؛ فهي خوف بعِلمٍ وتَعظِيم، كما أن الخشيَة خَوفٌ دائم؛ لأن سبَبَها بالقَلب، أما الخوفُ فإنما يكونُ عند وجُودِ سَببه.

والخوفُ يكونُ لعمُوم الناس؛ ويشترك فيه العامَّة والعلماء، أما الخَشية فإنها تكونُ للعُلماء، وكلما زاد العِلمُ زَادَت الخشية.

وليس المَقصُود بالعلماء مَن يُسَمَّون بالعلماء، وإنما المَقصُود بالعُلمَاء: العلماء العَامِلُون.

وكُلما علِمَ العبدُ حقَّ الله وأسماء الله وصفات الله؛ زادَت خشيتُه لله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

لذلكَ يَقُول العلمَاء: الخوفُ للعامَّة والخشية للعُلماء.

٢- **الرَّهبَة**: وهي خوفٌ مَقرُون بالهَرَب، فالرَّهبة: الإمعَانُ في الهرب من المَكرُوه.

وهذا ظاهرٌ من المُجَانسة بين لفظي (الرَّهبَة والهَرَب)، فالحروف وَاحِدة.

وكُل من تخَافُه وترهَبُه تَفِرُّ منه، إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنك إذا رَهِبتَهُ وازدادت رهبتك منه؛ فَرَرتَ إليه. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠].

٣- **الوَجَل**: وهو رَجَفان القلب لتَذكُّر من يَخَاف سلطانه، أو تُخشَىٰ عُقُوبَته.

٤- **الهيبة**: وهي خَوف مُقارِنٌ للإجلال والمَحبَّة.

فالهَيبَة خَوفٌ، ولكنه خوف مَخصُوص مقارن للإجلال والمَحبَّة، فالهَيبَة خَوفُ المُحبِّين.

٥- **الإشفاق**: وهو خوفٌ يَدعُو إلىٰ العِنَاية والاهتمَام، تَقول: أشفقتُ عليك، يعني: خِفتُ عَليك فاعتنَيتُ بك.

فهذه الألفاظ الخَمسةُ لهَا تعَلُّق بالخوف؛ بل هي من الخَوفِ، ولكنه خَوفٌ مَخصُوص.

فمِن فِقهِ هذا البَابِ أن نُدركَ معَانِيَها. وهذا خلاصَةُ مَا أبحَر فيه أهل العلمِ في هَذا الباب.

والأمرُ الثاني: ذكَرنا أن الإنسان في سَيرِه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يُحرِّكه الحبُّ، ويَحرُسه الخَوف، ويُسَارعُ به الرجَاء.

وقُلنا: أن الإنسان وهو في الدنيا يسير إلىٰ الله، وهو في سَيره بين خطوتَين لا ثالثَ لهُمَا؛ إما تَقدُّم أو تَأخُّر، فيَدعُوه إلىٰ التقدم المَحبَّة، ويحرسُه من الزَّلَل ويَرُدُّه إلىٰ الصِّراط الخوف، ويُسَارع به الرجَاء.

فكُلَّما عَظُم رجاؤه لما عند الله سارع وسَابق إلىٰ الخيراتِ.

لَكِن ما الذي يُغَلِّبه الإنسانُ من الخوف أو الرجَاء وهو يَسيرُ إلىٰ الله؟

قال بعضُ أهل العِلم: يُغلِّب الخوفَ.

وقال بعضهم: يُغلِّب الرجاء.

والتَّحقيق: أن المؤمنَ في سيره إلىٰ الله يكون بين الرجَاءِ والخوف، لا يَزيدُ هذا علىٰ هذا، ولا يزيدُ هذا علىٰ هَذا.

يُعبِّر عن ذلك العُلمَاء فيَقُولون: كجنَاحَي طائر؛ فالطائرُ تتسَاوىٰ جناحَاه، فالإنسانُ يطير إلىٰ إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ بجنَاحَي الخوفِ والرجَاء.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

فتأمَّل كيفَ جَمعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا النَّبأ العظيم بين الخَوفِ والرَّجاء؟!

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾: هذا بابُ الرجَاء.

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾: هذا بابُ الخَوف.

وفي الآية الأخرىٰ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٨].

ففي الآيَةِ الأولَىٰ تَقدَّم الرجاءُ وتأخَّر الخوفُ، وفي الآية الثانية تقدَّم الخوفُ وتأخَّرَ الرجَاء.

ولكنَّ الآيتَيْن تدُلَّان علىٰ أن المُؤمن يكونُ بينَهُما بالخَوفِ والرَّجاء.

ولكنَّه قد يُغَلِّب أحدَهُما لحاجة وسَبب، فإذا رأىٰ مِن نَفسهِ قُنُوطًا من رحمَة الله، غلَّب جانب الرجَاء وقَرأ في القرآن ما يتعَلَّق بالرجاء، وقرأ في الأحَاديث ما يتعَلَّق بالرجاء.

وإذا رأىٰ من نَفسِه مَيلًا إلىٰ التوسُّع الاعتماد علىٰ رَحمَة الله ومَغفِرَته، ولاسيَّما في السِّر، فيَرىٰ أن نفسه بدأت تعمَلُ بعض المَعَاصي، ويقعُ في النفس أن الله غَفورٌ رَحيم؛ فإنَّه يُغَلِّب جانبَ الخوف، ويقرأ في نُصُوص الكتاب والسُّنة ما يُعظِّم جانبَ الخَوف في قَلبه.

كذلك إذا كانَ في جانبِ قوة وصِحَّة يُغَلِّب جانبَ الخوف؛ لأن القُوةَ والصِّحةَ قد تَدعُو الإنسانَ إلىٰ أن يَطغَىٰ، فيُغلِّب جانبَ الخوف، وإذا كان فيه ضَعفٌ أو مَرَض يُغَلِّب جانبَ الرجَاء.

وكذلكَ في آخرِ حيَاته؛ إذا رأىٰ أنه بَدَأ يَضعُف، وأن المَوتَ قَرُب، ورأىٰ

العلامَات: وَهَن في الجسد، وشَيب في الشعر، وشَيبُ الشعر هو النذير؛ فإنه **يُغلِّب** جانب الرجاء، يَقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** عَزَّ وَجَلَّ». رَواه مُسلِمٌ[1].

ففي حالِ الإقبال علىٰ اللهِ وشُعُور المَرء بالمَوت، لاسيَّما عند وصولِ علامَاته الظاهِرَة، أو الوَاصِلة، فأحسَّ الإنسانُ بالمَوت، فإنه يُغلِّب جانب الرجَاء، هذا هو البابُ العظيم الذي له أثرُه العظيم في تَوحيدِ المؤمن، وفي سيرِ المُؤمنِ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومِن القواعِد الكليَّة في هذا البَاب: أنه كُلما حققتَ التوحيدَ ضَعُف خوفُ الخَلقِ من قلبِك، إلا ما كانَ طَبْعيًّا في الفِطرَة وفي الطَّبْع.

وذلك لأنه كُلمَا حقَّقتَ التوحيدَ؛ تعَلَّق قَلبُك بالله، وانصرَفَ عن النَّاس، حتىٰ أن مِن الناسِ من لا يَرىٰ الناس شيئًا إلا فيما حَدَّه الله له، وهذا لا يعني أنه يحتقرهم؛ كَلا، هو يُجِلُّ الناسَ ويَحتَرمهم، ويُعطيهم حقَّهم علىٰ وفقِ مَا شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنه لا يلتَفتُ إليهم في سَيرِه إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فلا يتركُ طاعةً، ولا يُبطِئ عنها من أجل الناسِ، ولا يفعَلُ حرامًا ولا يقتَرفُ منه شيئًا من أجل الناس، ولا يُرائِي الناس، ولا يُسَمِّعُهم الناس.

❀❀❀

(١) برقم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ **الآية** [التَّوبة:١٨].

الشرح

في هذه الآيَةِ يَذكُر الله عَزَّوَجَلَّ أعظَم المقَامَات في الإيمَان: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ حقيقة، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهذَا وَجه الشَّاهد، ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: لم يَخَف إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وقد دَلَّت الأدلَّة علىٰ أن هذا هو خَوف السِّر، فلا يَخشَىٰ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويَدخلُ في ذَلك: أنَّ العبدَ لا يخافُ المخلوقين خَوفًا يجعله يَفعل حرامًا، أو يترك واجبًا، فإنه يدخُل في هذه الآية عند أهل العِلم.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن التَّوحيد لابُدَّ فيه من أن يَكونَ خَوفُ العَبد خوفَ السِّر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحدَه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ **الآية** [العنكبوت:١٠].

الشرح

هذه الآية ورَدَت مَورِدَ الذَّم لهذا الصِّنف من النَّاس.

(﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾): فيُظهر الإيمانَ، فإذا أوذي في الله - ولابدَّ لمَن أظهَر الإيمَان من أن يُفتَن-: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢].

فلابُد من الفِتنَة، ولابدَّ من الابتلاء، ولابُدَّ من الاختبار.

(﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾): ففعلَ الحرامَ من أجل الخوفِ من الناس، وتركَ الواجب من أجلِ الخوفِ من الناس!

وفي الآية بيانُ أن فتنةَ الناس وأذَاهم حاصِلٌ لهذا الإنسَان؛ فيجعَل أذىٰ الناس أعظمَ في نفسه من عَذابِ الله، أو كعَذابِ الله، فيَدعُوه ذلك إلىٰ أن يفعَلَ الحرامَ أو يتركَ الواجب، وهو غير مُكرَهٍ علىٰ ذلك -كما تقدم بيانُه-، فإن الإكراه عُذر شَرعًا، وإنما المَقصُود هنا ما يَكُون بغير عُذرٍ من الله، وإنما يترك الواجب أو يَفعَل الحرام بسَببِ فتنة الناس.

ومثل ذلك مَن يكونُ قد أعفَىٰ لِحيَته اقتداءً بالنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيستهزئ منه بعض الناس، ويَسخَرُون من لِحيَته، أو يقولون: وهَّابي! جاءَنا بِدِين جَدِيد!؛

فبعضُ الناس يجعلُ فتنة الناس كعَذابِ الله؛ فيَحلقُ لِحيَته، فهذا خوفٌ مَذمُوم.

والواجبُ علىٰ المُؤمن إذا أنعَم الله عليه بنِعمَةٍ شرعية أن يتمَسَّك بها، وأن يُظهِرَها، وأن يَدعُوَ إليها، وأن يُنَافِحَ عنها ما لم يُكرَه إكراهًا تتوفَّر فيه الشروط التي ذكرناها، فيتركُ شيئًا من أجلِ الإكرَاه مع اطمئنانِ قَلبه بالحَقِّ، وعَدَم نكوصِ قَلبِه عن الحق، فذَاك شيءٌ آخَر.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَرفُوعًا: «إِنَّ مِن ضَعفِ اليَقِينِ: أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسخطِ اللهِ، وَأَن تَحمَدَهُم عَلَىٰ رِزقِ اللهِ، وَأَن تَذُمَّهُم عَلَىٰ مَا لَم يُؤتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

الشرح

هذا الحَديثُ رواه أبُو نُعَيم في «الحِليَة»، والبيهقي في «شُعب الإيمَان»[1]، وإسنادُه في غاية الضَّعف.

وقد رُوي أيضًا عن ابن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، رواه البَيهَقي في «شُعب الإيمَان»[2]، وإسنَادُه ضَعيفٌ.

ورُوي أيضًا عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رواه ابن وَدْعَان في «الأربعين»[3]، وإسنادُه سَاقِط.

إذَن، رُويَ هذا الحَديثُ عن ثلاثة من صحَابة رسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن أبي سَعيدٍ، وعن ابن مَسعُود، وعن أنَس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لكن جميع رواياته ضَعيفَة جدًّا، ولا يُقَوِّي بعضُهَا بَعضًا، فالحديثُ من جهة الإسنادِ ضَعيف، لكن معنَاهُ

---

(١) أخرجه أبُو نُعَيم في «الحِليَة» (٥/ ١٠٦)، والبيهقي في «شُعب الإيمَان» (١/ ٣٨٢) برقم (٢٠٣)، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٤٨٢): موضوع.

(٢) أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمَان» (١/ ٣٨٣) برقم (٢٠٤).

(٣) «الحَديث الثَّلاثُون».

صحيحٌ، تَدُل عليه أدلَّة الشَّريعة وقَواعدها.

قال: (**إِنَّ مِن ضَعفِ اليَقِينِ**): و(اليَقينُ) هو: الاعتقادُ الجازم، والعِلمُ الذي لا يخالطُه شَك، وهو الإيمانُ كُلُّه.

كما قَال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «**اليَقينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ**»[(١)].

واليَقينُ من فرائضِ الدِّين التي لابُدَّ منها، **فواجبٌ وفرضٌ علىٰ العبد**: أن يكون علىٰ يَقين من أن أمرَ الله حَقٌّ، ومن أن وَعدَهُ صِدقٌ، ومن أن قَدَرَه عَدل، ومِن أن الأمرَ كُلَّه لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهذا اليَقينُ يَقوىٰ ويَضعُف؛ ولذلك يَنبَغي علىٰ العبد دائمًا أن يعمَلَ علىٰ ما يُقَوِّي يقينه: مِن قراءةِ القرآنِ بتدَبُّر، ومِن التفَكُّر في مَخلُوقات الله، ومِن النَّظر إلىٰ نَفسِه؛ فإن هذا يُقَوِّي يَقينَه.

ولضَعفِ اليقين علاماتٌ وأسبَابٌ جاءَت في هذا الحَدِيث:

قال: (**أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسخطِ اللهِ**): فاليَقينُ أن تُرضِيَ الله عَزَّوَجَلَّ، وأن تستَجلبَ رضا الناس بإرضَاء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فتُقَدم ما يريده مَولاك علىٰ ما يريدهُ الناس أو يُريدُه هواك؛ لأنك تُوقنُ أن الأمر كُلَّه لله، وأن القلوبَ بينَ أصبعَيْن من أصابع الرحمَن يُقَلِّبُها كيف يشاء سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فالذي يُرضِي ويُسخِطُ هو الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولو بَذَلت للناس كلَّ ما يستطيع إنسَانٌ أن يَبذُلَه، إذا لم يُرِد الله أن

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب الإيمان، باب قولِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «بُنِي الإسلامُ علىٰ خَمس»، وهو قولٌ وفِعل، يزيدُ ويَنقُص...

يَرضَوا عنك فَلن يَرضَىٰ عنك أحدٌ، ولو فعلتَ ما يُسخطُ الناسَ لأن الله أمرَكَ به، وأرادَ الله أن يرضَىٰ عنك الناسُ سَيرضَىٰ عنك الناس، فأنتَ علىٰ يَقين من هذا، فخَشيَتُك من الله وحَسيبُك الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب:٣٩].

هذا هو اليَقين، **ومِن ضَعْف اليَقين**: أن تُرضِيَ الناس بسَخط الله، أن تخافَ النَّاس، أو تَرجُو ما عند الناس خَوفًا أو رجَاءً يجعلك تترك الواجبَ من أجل إرضاء الناس، أو تفعل الحَرَام من أجل إرضَاء الناس.

إذَن من أسبابِ ضَعفِ اليقين وعلامَات ضعفِ اليَقين: أن تُرضِيَ الناس بسَخَط الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فتُعاوض رضا الله بسَخَط الناس وبِئسَ المُعَاوضة، وإنه والله لَلخُسْرَان: أن تَستبدلَ رضا الله بسَخَط الله عَزَّوَجَلَّ، بأن تَطلُبَ رضَا الناسِ وتُقَدِّمه علىٰ رضا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، هذا السببُ الأول والعلامَةُ الأولىٰ.

(وَأَن تَحمَدَهُم عَلَىٰ رِزقِ اللهِ): فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الرزَّاق وهو المُعطي لا معطي غيره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد يجعَلُ الله بعض خَلقِه سببًا لرزقِه، لكن المُعطي هو الله علىٰ كل حَال؛ سَواء جاءَكَ الرزق بواسطة أحدٍ من الخَلق، أو بغَيرِ واسطةٍ من الخَلق.

ولذلك النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو يقسم للناسِ ويُعطيهم يَقُول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَخَازِنٌ، وَاللهُ يُعطِي»**[(١)].

فالنِّعمَة من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب فرض الخمس، باب قولِ الله تعالىٰ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾.

فاليَقِينُ أن تعتقد وتَعلم علما يَقينيًّا: أن ما قسمَهُ الله لك لا يَستطيعُ أحدٌ من خَلق الله، بل ولا خَلق الله جميعًا، مَنعَك منه، وما لم يَقسِمْهُ الله لك لن يستَطيعَ أحدٌ من خَلق الله، بل الخَلق جميعًا، أن يُوصِلَه إليك.

تعتقِدُ هذا مع بَذل الأسبابِ المَشرُوعة، ولا تَقُول: أنا علىٰ يقين، ولا تَبذُل الأسبابَ المشروعة!

وهذا يَقتَضي أن يتعَلَّق قلبُك بالله طلبًا للرزق، وحمدًا مُطلقًا عند حصولِ الرزق، فالمَحمُود علىٰ الإنعَام هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليسَ للمَخلوق منكَ إلا شُكر مَعرُوفه، إذا جَعَله الله سببًا لوصُول النعمة إليك، وحصُول الرِّزق لك، وهذا من شُكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُنافي حمدَ الله، ولا يُنَافي شُكرَ الله أن تَشكُر معروف المَخلُوق.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لَا يَشكُرُ النَّاسَ لَا يَشكُرُ اللهَ**». رواه الترمذي، وصحَّحه، وصحَّحه الألباني[1].

وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَروا أَنَّكُم قَد كَافَأْتُمُوهُ**». رواه أبو دَاودَ، والنَّسائِيُّ، وصحَّحه الألباني[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحَهُ الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنَّسائي (٢٥٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

إذن؛ اليقينُ في بابِ النِّعم الواصِلَة أن تعلم: أن المُعطي والمُنعِم هو الله، وأن تحمَدَ الله، وأن تَشكُرَ الله.

و من شُكر الله: أن تشكُرَ مَن جعله الله سببًا لوصُول النِّعمَة إليك.

وضَعفُ اليقين هنا: أن تحمَدَ المخلُوق حمدًا يقارِب حمدَك لله، فَضلًا عن أن تساوي حَمدك للمَخلوق بحمدك لله، فَضلًا عن أن تنسب الخير للمَخلُوق وتَنسىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا شكَّ أن هذا من ضَعف اليقين، ومن ضَعفِ العَقل أن تضيف النِّعمَة إلىٰ السَّبب وتَنسَىٰ المُسَبِّب.

(وَأَن تَذُمَّهُم عَلَىٰ مَا لَم يُؤتِكَ اللهُ): وهذه هي العَلامة الثالثَة من علامات ضعف اليقين، وهو أن تَذُم الناس علىٰ ما لم يُؤتِك الله، وهذا مُتعلِّق بسابقه، فقد تقدَّم أن اليَقين أن تعلَمَ أن المُعطي هو الله، وأن المانع هو الله، وأن الخَلْق لو اجتمعوا جميعا بقُوة واحدة علىٰ أن يُعطُوك شق تَمرةٍ لم يَكتُبها الله لك؛ لن يَستَطيعُوا ذلك، وأن الخَلْق لو اجتمَعُوا جميعًا بقوة واحدة علىٰ منعك من أمرٍ قد كتبه الله عَزَّوَجَلَّ لكَ؛ لن يَستَطيعُوا ذلكَ.

فإذا طلبتَ من مخلوقٍ شيئًا من أمور الدنيا فلم يُعطك؛ فإنَّ اليقينَ أن تعتقد أن الله لم يُرد لك أن تأخذ هذا؛ إذ لو أرادَ الله لك أن تأخذَ هذا لاستجابَ العبدُ لطلبك يَقينًا، فإذا لم يستَجِب، فاليقينُ أنك لا تلتفت إلىٰ المَخلوق، وإنما يلتفت قلبُك إلىٰ الله، وتعلم أن الله لم يُرد لك أن تحصُلَ علىٰ هذا.

وبالتالي فإنك لا تذم المخلوق علىٰ هذا، فمن ضعفِ اليَقين أن تَذُم المَخلوقَ علىٰ امتنَاعِه عن إعطَائِكَ شَيئًا، من جهة عدم الإعطاء، وأما من جِهَة سُوء الخُلق،

أو من جِهَة البُخل، فهذه صفاتٌ في المخلُوق، لكن من جهة عدَمِ الإعطاء أنت علىٰ يقين أن الذي منعَ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا المَخلُوق لا يستطيع أن يَمتنعَ إذا أراد الله أن تأخُذَ هذا الشيء.

فهذه ثلاث علامَاتٍ علىٰ ضعفِ اليقين ويَظهرُ فيها أن المؤمنَ عَزيز يرتبط قلبُهُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(إِنَّ رِزقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ): وهذه جُملة تعليلية لكُلِّ ما سَبق؛ تَدفع كل ضعف.

(إِنَّ رِزقَ اللهِ): ومنه رضَا الناس.

(لَا يَجُرُّهُ حِرصُ حَرِيصٍ): فمَهمَا حَرَصت أن تأخذ ما لم يَكتُبه الله فلن يَكُون، ولو سَعَيتَ الليل والنهار في أن تُرضِي الناس، إذا لم يكتُب الله لك أن يرضَىٰ عنك أحدٌ من الناس فَلَن يرضَىٰ عنك أحدٌ من الناس، لا بذَكَائك، ولا بعَمَلك، ولا بمَالك، لا بتنازُلاتِك، فالرِّزق المادي لا يَجُرُّه حرص حريص.

(وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ): فلو أَرضَيت الله ولَزِمتَ التوحيدَ والسُّنة، وأرادَ الله أن يَرضىٰ عنك مَنْ في خَيرك رِضَاه؛ لأن رضا الناس جميعًا ليس فيه الخير، بل الخَيرُ أن يرضىٰ عنك أهلُ الخَير، فإن الناس -أعني: أهل الخير- سيَرضَون عَنكَ.

خُلاصة كُل هَذا: أن تُوقنَ أن سبب كُل خير لك في العاجل والآجل هو طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاجتهَاد في إرضائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَثبُتَ علىٰ هذا الطريق.

وضَعفُ اليقين عَكس هذا.

قد يَقُول قائلٌ: أين الخوفُ في هذا الحديث؟!

والجَواب: أن الدَّاعي إلىٰ ضعف اليقين المَذكُور في الحديث هو الخَوف، أو الرجَاء، فمَا الذي يجعلُ الإنسَانَ يَلتمسُ رضَا الناس بسخط الله؟!؛ إمَّا أنه خائفٌ منهم، وإمَّا أنه يَرجُو ما عندَهُم.

وما الذي يجعَلُ الإنسان يَحمَدُ المخلوق علىٰ نِعمَة الله؟!؛ إما أنه خائفٌ منه فيَحمده بما ليسَ فيه، وإما أنه يَرجُو ما عنده، ويُريد أن يستَجلبَ ما عنده.

ويتبع هذا أنَّ الذي يجعل الإنسان يَذُم الناسَ؛ إما عدَمُ حصُول الرجَاء، وإما اندفَاعُ الخوف.

أمَّا المؤمن المُوقِن صاحبُ الحق، فحَمدُه لله، وإذا حمد مَخلوقًا؛ أي: أثنىٰ عليه، فَلِلَّه.

وبهذا تُعلم مُناسَبةُ الحديثِ للباب؛ وهو أن ضَعفَ اليقين سَببُه؛ إما الخوفُ وإما الرجاءُ، علىٰ ما بَينَّاه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ التَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَأَرضَىٰ عَنهُ النَّاسَ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيهِ وَأَسخَطَ عَلَيهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح

هذا الحَديثُ رواه ابن حِبَّان[1]، وقال عنه الشَّيخ الألبَاني: صحيح لغَيره[2].

وقد روَاهُ التِّرمذي من وَصيَّة أمِّنا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا لمعَاويَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وذلكَ أن معَاويَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ كتَب لأمِّنا عائشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن تكتُبَ له كتابًا تُوصِيهِ فِيهِ، فكتبَت إليهِ أنَّها سَمِعَت رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «**مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاس**». وصحَّحه الألبَانِيُّ[3].

(**مَنِ التَمَسَ**): الالتمَاسُ: هو الطلبُ بتَذَلُّل.

(**رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ**): جَعل عِوض رضَا الله سخط الناس.

(**رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَأَرضَىٰ عَنهُ النَّاسَ**): والمقصُودُ: أن من التمس رضَا الله وَلو سَخِط الناس، فيتمَسَّك بالحقِّ وبالسُّنة، ولو استهزأ به النَّاس، أو سَخطُوا عليه؛

---

(١) في «صحيحه» (٢٧٦).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فإنه مَوعُود بأن يَكفِيَه الله مؤونة الناس.

ومادام أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكفيك مؤونة الناس؛ فكيف تخَافُ مِنهُم؟!

بل أنت علىٰ يَقين أن ما يَصلُك من أذىٰ الناس إنما هو رِفعَةٌ لك، فلا تَخَف من الناس.

(وَمَنِ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ): فجعَلَ عِوَض رضَا الله إرضاءَ الناس، فيُرضِي الناسَ بمَا يُسخِط الله، فيَترك الواجب أو يَفعل الحَرَام، من أجل أن يُرضي الناس.

(سَخِطَ اللهُ عَلَيهِ وَأَسخَطَ عَلَيهِ النَّاسَ): فالقُلوب بين إصبُعَين من أصابع الرحمن يُقَلِّبها كيف يشَاء.

والدَّاعي لذلك إنما هو الخَوفُ والرجَاء، فالذي يلتَمسُ رضَا الله ولو أسخطَ الناس، الذي يَدعُوه إلىٰ هذا خَوفُه من الله ورجَاؤه ما عند الله عَزَّوَجَلَّ، والذي يلتمِسُ رضا الناس ولو أسخَط الله، الذي يَدعُوه إلىٰ هذا خَوفه من الناس أو رجَاء ما في أيدي الناس، وبِهذا تَعرِفُ مُنَاسبة الحَديث للباب.

وهذا الحديثُ فيه قاعدَةٌ شَرعية قطعية؛ وهي: أن المَقصُود الحسَن مع العمَل الصالح سببٌ لحُصُول الخَير، وأن المقصُودَ الفاسد سببٌ لأن يُعامَلَ الإنسانُ بنقيضِ قَصدِه.

فالذي قَصدُه أن يُرضِي الله؛ فلَزِم سُنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهو مَوعُود بالخير، في العَاجل والآجل، والذي قصدُه أن يُرضي الناس ولو بسَخطِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فإنه يُعَامل بنقيضِ قَصدِه الفَاسد.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ آلِ عمرانَ.

وهو قَولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ حيثُ دلت الآيةُ علىٰ أن الخوفَ من الله من الإيمَان، وشرطٌ في الإيمان، وأن الخوفَ منه ما هو مأمورٌ به، ومنه ما هو مَنهِيٌّ عنه.

وتقدَّم بيان أقسَام الخَوفِ وأحكَامه.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ براءةَ.

وهو قَولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، والشَّاهد منها قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فكان خَوفُه من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وقد تقَدَّم الكلام عن هذا.

الثَّالِثَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ العنكبوتِ.

وهو قَولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، فالإنسَانُ إذا آمَن فَلابُد أن يُفتَن، فمِن الناس مَن يَقُول آمنتُ بالله، فيُفتَن بالناس، ويخافُ منهم، فيَجعَل فتنةَ الناس كعذابِ الله أو أشَد؛ فيَترك الواجبَ، أو يفعَلُ الحرام من أجل خَوفِه من النَّاس.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ اليَقِينَ يَضعُفُ وَيَقوَىٰ.

وفائِدَةُ هذا أن يسعَىٰ العبد إلىٰ تقويةِ يَقينه، وأن يجتَنِبَ ما يُضعِفُ يقينَه؛ لأن اليقينَ: الإيمَانُ كُلُّه.

الخَامِسَةُ: علامةُ ضَعفِهِ، وَمِن ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلاثُ.

أن تلتَمِسَ رضَا الناسِ بسَخط الله عَزَّوَجَلَّ، وأن تحمَدَ الناس علىٰ رِزقِ الله، وأن تَذُم الناس علىٰ ما لم يُؤتِكَ الله.

السَّادِسَةُ: أَنَّ إِخلاصَ الخَوفِ للهِ مِنَ الفَرائِضِ.

كما دَلَّت عليه الأدلةُ المَذكُورة في البابِ كُلهَا.

السَّابِعَةُ: ذِكرُ ثَوَابِ مَن فَعَلَهُ.

وهُو أن الله عَزَّوَجَلَّ يَرضَىٰ عن عبده، ويُرضي عنه من الناسِ مَن في رِضَاهم عنه الخَير له، ويُؤَمِّنه يومَ القيامة، ولا يجمعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبدِهِ بينَ خَوفَين؛ فمن خافَ الله في الدنيا أَمَّنَهُ يوم القيامَة، فإذا أردتَ الأمن يومَ الفزع الأكبَر فخَفِ اليَوم.

الثَّامِنَةُ: ذِكرُ عِقَابِ مَن تَركَهُ.

وهو أن مَن تركَ الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ -الخوفُ الذي هو توحيدٌ وتَركٌ لخَوفِ السِّر- فهذا نقضٌ للإيمان، وإبطالٌ له، وإذا كان هذا الخَوفُ ليس خَوف السرِّ، لكنه يَجعَلُ العبدَ يَترك الواجبات، أو بعض الواجبات، ويَفعلُ بَعضَ المُحرَّمات؛ فهذا نَقصٌ في الإيمان يُعاقَب عليه الإنسان؛ ومن العقوبةِ في الدنيَا: أن يُسخِطَ اللهُ العبَادَ علىٰ العَبد، أو يَبتَليه برضَاهم عنه، ويَستَدرجه بهذا -والعيَاذ بِالله-، وأن يكونَ ذلكَ سَببًا لدخولِ النار، وللفَزع يوم القيَامة، فمَن أمِنَ في الدنيَا وتَرك خَوفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ اشتَدَّ فزَعُه يوم القيامة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

الشرح

ما زالَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكُرُ أعمالَ القلوبِ التي لها تعلُّق بالتوحيد.

ومن المُناسب جدًّا أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر بابَ التوكُّل بعد بابِ الخَوف: وذلك أن مَن توكَّل علىٰ الله ذَهبَ خَوفُه من غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وكلَّما عَظُمَ التوكل علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ ضَعُفَ الخوفُ من غير الله في قَلب العَبد.

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وجَاء عَن جَابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: «أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: **إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللهُ -ثَلَاثًا-**. وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

فالتوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قلبِ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعَلَهُ لا يخَافُ هذا الأعرابي، مع كونه مُمسكًا بالسَّيف، وسَالًّا السيفَ، لكنَّه التوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والتوكُّل في اللُّغَة هو: الاعتمادُ على الغيرِ في أمرٍ ما، مع إظهَارِ العَجز.

أمَّا التوكُّل في الشَّرع فهو: صدقُ اعتمَاد القلبِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في استجلاب المنَافِع ودفع المضَارِّ مع فِعلِ الأسباب.

فالتوكُّل يقوم على أمرَيْن:

- أمرٍ يتعَلَّق بالقَلب.
- وأمرٍ يتعَلَّق بالجَوارح.

أمَّا الذي يتعَلَّق بالقَلب: فهو اعتمادُ القلبِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في استجلاب مَنفَعة أو دفع مضَرَّة، فهُو الثقةُ بما عندَ الله، والإيمانُ بقُدرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ممَّا يجعلُ القلبَ يَعتمدُ على الله عَزَّوَجَلَّ في جَلبِ المَنفَعة ودفع المَضرَّة.

وأمَّا الذي يتعَلَّق بالجَوارِحِ: فهو فعل الأسباب المَشرُوعة، صغيرَةً كانت أو كبيرَةً.

فالقَلبُ يعتمدُ على الله، والجوارِحُ إنمَا تَفعلُ لأن الله أجرىٰ سُنَّته في كَونِه في ربط المسببات بأسبابِها، ولا يعتَمدُ عليها القلبُ، وإنما الاعتمَادُ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- فالرجُل يتزَوَّج من أجلِ أن يُحصِّلَ الوَلَد، لكنَّ قَلبَه يَعتمِد على الله في تحصيلِ الولد.

- والرجُلُ يَذهب إلىٰ السوق فيَبيع ويَشتَري، ولكنَّ القلبَ مُعَلَّقٌ بالله الرزَّاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- الفلاحُ يَغدو إلىٰ حَقلِه مُبكرًا يَحرُث الأرضَ ويَبذُر البذر، ولَكنَّ قَلبَه مُعتَمِدٌ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تحصيل المقصود وإنبات الزَّرع.

فليسَ التوكُّل: اعتمَادُ القلب وإهمال الأسباب؛ بل هذا تواكُل وجَهل بالشرع وخِلافُ العَقل؛ فإن كل عاقل يُدرِك أنه لابدَّ من فِعلِ الأسباب.

وفعلُ الأسباب هو الذي جاء بِهِ الشَّرع، والله عَزَّوَجَلَّ قالَ لمَريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ لمَّا حَمَلت بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥].

والله قادرٌ علىٰ أن يُسقطَ لها الرطبَ بدون أن تَهُزَّ، لكن أمرها بِفِعلِ السَّبب.

والله عَزَّوَجَلَّ قال لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص:٤٢].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادِرٌ علىٰ أن يُخرِجَ الماءَ من الأرض بِدُون هذا.

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سَيِّد المُتوكِّلين يفعَلُ الأسباب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أموره كُلِّها.

إذن؛ لابُد في التوكل: مِن بَذل السببِ مع اعتمَادِ القلب علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا علىٰ السَّبب.

وقد جمعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَهُمَا في حديثٍ وَاحدٍ حيثُ قالَ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا**

وَتَرُوحُ بِطَانًا». رواهُ التِّرمذيُّ، وابنُ ماجه، وصحَّحَهُ الألباني[(١)].

فالطُيور لا تُرزَق وهي قابعةٌ في أعشاشِها؛ وإنما تَخرُج لطلب رزقها وتبذُل السبب، فهكذا التوكل.

وقد ذكَرَ بعضُ أهل العِلم أن التوكُّل يَنقَسِم إلىٰ ثلاثة أقسَام:

القسمُ الأوَّل: الاعتمادُ القلبي المُطلَق علىٰ مَن يتوكَّل عليه؛ بحيثُ يَعتقد أن بيَدِه جلبَ النَّفع أو دَفعَ الضُّر.

وهذا التوكُّل إن كان علىٰ الله، فهو التَّوحيد، ومنزلتُه من الدِّين منزلةٌ عظيمة؛ بل قال أهلُ العلم: إنه نصفُ الدِّين؛ لقَول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣].

فكانَ الدِّين قسمَين: عبَادة، وتَوكُّل.

و كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]: عبادَةٌ وتوكُّل واستعانةٌ بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهذا التوكُّل يجلبُ للعبدِ مَحبَّة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

كما أن هذا التوكُّل سبب لنَصر الله عَزَّوَجَلَّ، فما توكَّل عبدٌ علىٰ رَبِّه إلا نصَرَهُ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ كمَا قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠].

فدَلَّ هذا علىٰ أن التوكلَ سببٌ لنَصرِ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهذا التَّوكلُ علىٰ الله سببٌ لحفظ العَبد من الشيطانِ؛ فإنَّ مَن توكَّل علىٰ الله حَفِظَه من الشيطان؛ كمَا قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [النحل:٩٩].

وهو سببٌ لكفَايَة الله عَبدَه؛ كمَا قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا** ﴾ [الأحزاب:٣].

وصرفُ شيءٍ من هذا التوكُّل لغير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ **شِركٌ أكبَر**.

فالذي يعتمِدُ بقَلبه اعتمادًا مُطلقًا علىٰ مخلُوقٍ في أي أمرٍ، سواءً كان صغيرًا أو كَبيرًا، فقد أشرَكَ شِركًا أكبر، وكذلك إذا تَوكَّل علىٰ الله وتوكَّل علىٰ غيرِه مَعَه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، **فهَذا أيضًا شِركٌ أكبَر**.

فبعضُ الناس يعتمِدُ بقلبه في تحصيل نفعه أو دَفع ضُرِّه علىٰ المَقبُورين، وعلىٰ مَن يُسَمَّون بالأولياء، فيتوكَّلُ عليهم، فإذا رجَا الرزق لم يذهَب قلبُه إلىٰ ربه مُعتمدًا عليه، وإنما يذهَبُ إلىٰ ذلك المَقبُور في قبره يعتمد عليه، ولذَلك إذا وقَع في كُربَة لا يلجأُ إلىٰ الله، وإنما يلجَأُ إلىٰ المَقبُور في قبره، وهذا شِركٌ أكبر، يُخرِجُ من ملَّة الإسلام.

وهَذا الشِّرك -كما قال العلماءُ- له صُوَر:

منها: التوكُّل علىٰ المَقبُورين مُطلقًا، وهذا شِركٌ أكبر.

ومِنهَا: التوكُّل علىٰ الغائبين مُطلقًا، وهذا شِركٌ أكبر.

ومنها: التوكُّل علىٰ الحَيِّ الحَاضر فيما لا يقدر عليه، وهذا أيضًا شِرك أكبَر.

وضَابطُها كما قلنا:

- تعلُّق القلب بالمُتَوكَّل عَليه من المَخلُوقين، **فهذا شرك أكبر**.

- أما تعَلُّق القلبِ بالله، والاعتمادُ المُطلَق علىٰ الله، **فهَذا هو التَّوحِيد**.

والقِسمُ الثَّاني: اعتمادُ القلب علىٰ الغير في الرِّزق والمَعَاش وأمور الدنيا، بحيث يتعَلَّق القلب بالمُتَوكَّل عليه غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من جِهَة كون ذلك سببًا، لا من جِهَة كونه مُسَبِّبًا، **وهذا شِركٌ أصغَرُ**.

ومثالُ ذلكَ: أن يعتمِدَ الإنسانُ علىٰ وظيفته في حصُولِ المال، ويتعَلَّق قلبه بِهذا، **فهذا شِركٌ أصغَر**.

إذن؛ فلنُفَرِّق بين فِعلِ السَّبب، وتَعلُّق القلب بالسَّبب: فعلُ السَّبب توكُّل، وتَعلُّق القلب بالسَّبب شرك أصغَر.

ولكن إذا تعَلَّق القلبُ بالسَّبب علىٰ أنه مُسَبِّب جَالبٌ للنفع ودَافعٌ للضُّرِّ؛ فهُنا يُصبحُ شِركًا أكبَرَ.

أمَّا فعل السببَ مع تعَلُّق القلب بالله، فهذا هو التوكُّل علىٰ الله، وهو التَّوحيد.

القِسمُ الثَّالث: وهو الاعتمادُ علىٰ المَخلُوق الحَيِّ القادر فيما يَقدِرُ عليه علىٰ أنه سبب.

«الاعتمَاد علىٰ المَخلُوق الحي»: هذا أخرَجَ المَيِّت.

«القَادر»: هذا أخرَجَ العاجزَ.

«فيمَا يَقدر عَليه»: هذا أخرَجَ ما لا يَقدِر عليه.

«علىٰ أنَّهُ سَبَب»: هذا أخرَجَ تعَلُّق القلب به، فهذا جَائزٌ.

فمَثلًا: عندما تُوكِّل أخاك في أن يُرَاجع دائرة حكومية عنك، فأنت اعتمَدتَ عليه، وهو قادِرٌ علىٰ ذلك، علىٰ أنه سَبَب، **فهذا جائز**.

وهَذا في الحقيقة: توكُّل باعتبار المَعنىٰ اللغوي، وليس توكلًا باعتبار المعنىٰ الشرعي.

وذلك لأنَّ التوكُّل في اللغة: الاعتمَاد علىٰ الغَير في أمرٍ ما.

أما بالمَعنىٰ الشَّرعي: فليس تَوكلًا؛ لأن التوكل بالمعنىٰ الشرعي: اعتمَادُ القلب، وهذا في الحقيقة يُسمَّىٰ (**تَوكيلًا**)، وهذا أولَىٰ من تَسميَتِه (**توكلًا**)، حتىٰ لا يُوهِم.

وبناءً علىٰ هذا، هل يَصِح أن يقول العَبدُ: تَوكَّلتُ عَليكَ في المُعَاملة الفُلانيَّة؟

الجَواب: إذا كان مراده بقوله: «تَوكَّلت عليك في المُعَاملة الفُلانيَّة»: اعتمَدتُ عَليك، من جهة كونِه سَببًا، لا من جهة تَعلُّق القلب، فالمَعنَىٰ صَحِيح، لكن اللفظ خَاطئ؛ فينبغي أن يقُولَ: وكَّلتُك، أو نحو ذلك.

وهل يَجُوز أن يقول الإنسان لآخر: «تَوكَّلت علىٰ الله ثُمَّ عليكَ»، بمَعنىٰ: وَكَّلتُك في هذا الأمر؟

رخَّص فيه بعضُ أهل العلم، ومَنَعه بعضُهُم.

والتَّحقيق:

- **أنَّه إذا كان مُرَادُه بالتوكُّل اعتمَادَ القَلب، فهذا حَرَام لا يَجُوز؛ بل هو:**

إما شِركٌ أكبر، إذا نظر إلىٰ كونه جَالبًا للخير دافعًا للضُّر.

أو شِركٌ أصغر، إذا تعلَّقَ القلبُ به باعتبَارِه سَببًا.

- **أمَّا إذا كان مُرادُه الاعتماد، وهو المَعنىٰ اللغوي، فالمَعنىٰ صحيح.**

ومع ذلك يُنهَىٰ عن هذا اللفظِ سَدًّا للذَّريعَة؛ فلا ينبغي أن يَقُول: توكلت علىٰ الله ثُمَّ عليك.

ثُم إن الشَّيخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ البَابَ وتَرجَم له بهذه الآية العظيمة: (﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾):

ما أعظَم وَقعَ هذه الآية علىٰ القَلبِ!

(﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ ﴾): ولم يقل: تَوكَّلوا علىٰ اللهِ إن كُنتُم مُؤمِنين.

قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، والعلماء يقولون: تَقديمُ الجَارِّ والمَجرُور يَدُل علىٰ الحَصر والقصر.

فالمَعنىٰ: اعتَمِدُوا بقُلوبِكم علىٰ الله، لا عَلىٰ غَيرِه.

(﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾): أي: إن كُنتُم صادِقين في إيمَانِكم.

والتوكلُ بالقَلبِ علىٰ غيرِ الله قد يُذهِبُ الإيمانَ بالكُليَّة، وقد يُنقِصُ الإيمان، وكِلا الأمرَين يَدخُلان في هذه الآية.

فإذا توكَّلَ الإنسانُ علىٰ غير الله، معتقدًا أنه يجلبُ النَّفع، أو يدفع الضُّر، فهذا يُذهِبُ إيمَانَه، وقد اشتَرطَ الله عَزَّوَجَلَّ للإيمانِ هُنا التوكُّل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإن كان توكُّله علىٰ غَيرِ الله، وتعَلَّق قلبه بغير اللهِ علىٰ أنه سَبَب، لا أنَّه مُسَبِّب، فهذا شِركٌ أصغَرُ يُضعِفُ الإيمان.

ومن هنا نَتبَيَّنُ فِقهَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إيرَادِه للأدِلَّة: حيثُ تَرجَم بهذه الآية التي تَدُلُّ علىٰ أن التوكلَ شَرطٌ لصِحَّة الإيمان، وشرطٌ لكمال الإيمان.

ويُقَابِلُه التوكلُ علىٰ المَخلُوق، قد يُذهِبُ الإيمانَ كَلَّه، وقد يُذهِبُ بعضَ الإيمَانِ، كمَا بيَّنَّاه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢].

الشرح

(﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾): العُلمَاءُ يقولون: (إنمَا) أدَاةُ حَصر، ففِيهَا حصر المُؤمنين في المُتَّصفين بهذه الصفَات.

(﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾): ففيها عبادَةُ الخوفِ من الله عَزَّوَجَلَّ، فالمؤمن إذا ذُكِرَ الله عندَهُ يخَافُ الله عَزَّوَجَلَّ، سَواء كان مُقيمًا علىٰ طاعة، أو كان فاعلًا لمَعصيَة، فإذا كانَ مُقيمًا علىٰ طاعة عَظُمَ إخلاصُه لله، وثباتُه علىٰ الطاعة؛ لخَوفِه من الله، وإذا كان فاعلًا لمعصيةٍ؛ تَركَ المعصيَةَ لخَوفِهِ من الله، وذلكَ لتَعظِيمِ قَلبِهِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾): وهذا دَليلٌ علىٰ صِدقِ إيمَانِهم، فكُلَّما قَرءوا القرآنَ أو سَمِعُوا القُرآن زادَ إيمَانُهم، وفي هذه الآيةِ دَليلٌ علىٰ زيَادَة الإيمَان، وما يَزيدُ فإنه يَنقُص، فهو دليلٌ لأهل السُّنة والجمَاعة علىٰ أن الإيمانَ يَزيد ويَنقُص.

(﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾): أي: يَعتمدونَ بقُلوبِهم علىٰ اللهِ لا علىٰ غَيرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فدَلَّ هذا علىٰ أن التوكُّل علىٰ الله عبادَةٌ مَفرُوضة، فهي من فَرَائض الدِّين، ومن أصُول الدِّين.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤].

الشرح

ومَعنىٰ هذِه الآيَة:

(﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾): وهذا خِطابٌ لمُحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾): أي: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَافِيك، وما يكفيكَ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمَّا الخلقُ فلو اجتمعوا جميعًا علىٰ أن ينفعُوك بشيء لم يَنفَعُوك إلا بشيءٍ قد كتبَهُ الله لك، ولو اجتمَعُوا علىٰ أن يَضُرُّوك بشيء لم يَضُرُّوك إلا بشَيءٍ قد كتبَهُ الله عليَكَ، فلا يَكفيكَ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾): **للعُلمَاء فيه قَولان:**

قالَ بعضُ العُلماء: العطفُ هنا علىٰ لفظ الجَلالة، فالمعنىٰ: حسبُك الله وحسبُك مَن اتَّبعك من المُؤمنين، وهذا خطأٌ يَقينًا، وإن ذَكَره بعضُ المُفَسِّرين، فإن التوكُّل لا يَكُون إلا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاعتمَادُ القلبيُّ لا يكون إلا علىٰ الله، كما قَال الله تعَالىٰ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨].

وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]. كما سيأتي إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

وقالَ بعضُ العُلماء: العَطفُ في الآيَةِ علىٰ الكَاف، فالمَعنىٰ: حَسبُك الله،

وحَسبُ مَن اتَّبعَك من المؤمنين الله، فشأنُ أهل الإيمانِ جَميعًا أن حَسبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ظاهِرٌ جِدًّا، وبِمُجرَّد التأمل في الآية يتبَيَّن هذا المَعنىٰ، وأن المعنىٰ الأول خطأ، لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤]. فكيف يكونُ التابعُ حسبًا للمَتبُوع، والمَتبُوع مُقدَّم علىٰ التَّابع؟!، لا شكَّ أنه لا يُمكنُ أن يَكُون.

والذي عَليه أكثَر العُلَماء هو المَعنىٰ الثَّاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَسبُ المؤمنين جميعًا، وهذا يدُلُّ علىٰ أنه يَجبُ أن يكونَ التوكُّلُ علىٰ الله؛ لأنه إذا كان الله حَسبَ المؤمنين؛ فإنه يجبُ علىٰ المؤمنينَ أن يتوكَّلُوا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقَولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

الشرح

(﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾): هذه جُملة شَرطيَّة، فشَرَط الله عَزَّوَجَلَّ لكفاية اللهِ عَبدَه أن يتوكَّل العَبدُ عليه، فمن أرادَ أن يكفيه الله فليتوكَّل علىٰ الله.

ومَفهُوم الآية: أن مَن تَوكَّل علىٰ غير الله خذَلَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووَكَله إلىٰ ذلك الضَّعيف الذي لا يجلبُ خَيرًا ولا يَدفع ضُرًّا، فهذه الآيةُ دَلَّت علىٰ وجوبِ التوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ حُرمَةِ التوكُّل علىٰ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞۞۞

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، قَالَهَا إبرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآيَةَ [آل عمران:١٧٣]» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

الشرح

هذا الأثرُ الصَّحيح الذي رواهُ البخاريُّ[1] عَن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيه خبران صَحيحَان:

الخَبر الأول: (﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إبرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ): وهذا الخَبَر له حُكم الرَّفع فأخبر ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بهذا الخبر الصادق، وهو أن الخليلَ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أُلقِي في النار كَانَت آخر كَلمَة قالها: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

والخَبَر الثَّاني: قالَ: (وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾): فقَالَهَا أيضًا الخليلُ مُحمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وذلك أنه في غزوَة أُحُد لمَّا وقع ما وقع، وأصابَ المسلمين ما أصابَهُم، وذهب المشركُون، ثم وهُم في الطَّريق إلىٰ مكَّة ندمُوا

---

(١) برقم (٤٥٦٣).

وقالوا: نَرجِع فنَقضي علىٰ محمد وصَحبِه، فمَرَّ بِهم رجلٌ ذاهب إلىٰ المَدينة، فقالوا له: أخبِر محمدًا أنا قادِمُون إليه، فجاءَ هذا الرجل، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جريحًا، وكان بعض الصحابةِ جَرحَىٰ وفي غاية التَّعَب، فقال لهم الرجُل: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ فقد زادُوا قوة إلىٰ قُوَّتِهم السَّابقة، وهم قادمون لاستئصَالِكُم، وأنتُم في هذه الحال من الضَّعف؛ فزَادَهُم ذلك إيمَانًا بوَعدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقالُوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فلمَّا قالوها أوقَعَ الله الرعبَ في قلوبِ المُشركينَ، فرجَعُوا إلىٰ مكَّة.

فهذه الجملة عظيمَةُ المَعنىٰ، عَظيمَة الأثر.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: أي: كافينا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومادَام أن اللهَ كَافِينا؛ فإنَّا نتوكَّلُ عَليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: ونِعمَ الوكيلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومَعنىٰ (الوَكِيل): المُفوَّض في الأمر.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَسبُنا، فعليه نتوكَّل ونِعمَ المُفوَّض في الأمر، فنفوض أمرَنا كُلَّه إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهكذا شأنُ المُؤمنِ دَائمًا يقولُ: حسبُنا الله ونِعمَ الوكيل، يَقُولها تصورًا، ويَعتقدُها قَلبًا، ويعمل بها في جميع أموره.

والعُلمَاء يَقُولون: تصَور التوكُّل سَهل، وتَحقيقه صَعبٌ!

فكُلُّ مَن ينتسبون إلىٰ الإسلام يتصَوَّرون التوكُّل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن

إذا جئتَ إلىٰ التَّحقيق تَجد أن الذينَ يُحَقِّقون التوكُّل قِلَّة، ويَظهرُ هذا عند المصَائب والشَّدائد، فإذا وقع حادِثٌ يتبين لك مَن يتوكَّل علىٰ الله ومَن يتوكَّل علىٰ غَير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذَا وقعَ حادثٌ فإن المُؤمن يُنَادي: يا ألله، ويتوَكَّلُ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحدَهُ لا شَريكَ له، ويَمتلئ قلبُه يَقينًا بهذا وثِقَة بمَا عند الله، بحَيث لا يبقَىٰ لمَخلوقٍ في القَلب مكَانٌ بِهذا الاعتِبَار، ويعمل بهذا في أمُورِه كُلِّها.

وغيرُ المُؤمِن: يتَوكَّل علىٰ المَخلُوق ويُنَادي: يا سَيِّدي فُلان، الغوثَ الغوثَ، المَدَدَ المَدَدَ!

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

أنَّ التَّوكُّل من الفَرَائضِ لقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

ولقَولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] الآية.

والتوكُّل فَرضٌ علىٰ المؤمن في صِغَار الأمُور، وفي كبَارهَا في جميع الأحوَال، أكثَر المُؤمنين يتصَوَّرون التوكُّل في الرِّزق، ولكِن **التوكُّل فَرض في جَميعِ الأمُور:**

- التوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عند الإعرَاضِ عنِ الأعدَاء؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:٨١].

- والتوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عند إعرَاض الناس عن العَبدِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩].

- والتوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عندَ مُسَالَمَة الأعداء: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١].

- والتوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عندَ الخَوفِ من المَصَائب: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

فالتوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فرضٌ مُطلَق في جميع الأمُور وجَميع الأحوَال.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِن شُرُوطِ الإيمَانِ.

فشَرطُ الإيمَان التوكُّل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، كمَا قُلنَا من توَكَّل علىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ قد يَذهب إيمَانه بالكُليَّة وقد يَنقُصُ إيمَانُهُ، فإن كان اعتمَاد القَلب علىٰ غَير الله عَزَّوَجَلَّ مع اعتقاد أنه يَجلبُ النَّفعَ أو يَدفع الضُّر، فهذا يُذهِبُ بالإيمَان، وإن كان الاعتماد علىٰ المَخلُوق اعتمَاد القَلب علىٰ المَخلُوق من جِهَة أنه سبب لا من جِهَة أنه يَجلبُ الخير، أو يدفع الضُّر؛ **فهَذا شِركٌ أصغَر يُنقِصُ الإيمَان.**

الثَّالِثَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الأَنفَالِ.

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾. وقد تَقَدَّم تفسيرُها.

الرَّابِعَةُ: تَفسِيرُ الآيَةِ فِي آخِرِهَا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾. وقد تَقَدَّم تَفسيرُها.

الخَامِسَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾. وقد تَقَدَّم تَفسيرُها.

السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَولُ إِبرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِمَا وَسَلَّمَ- فِي الشَّدَائِدِ.

وهي كَلمَة «حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الوَكيل».

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

الشرح

لما ذَكرَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابَ الخوفِ، وتضمَّن البابُ الكلامَ عن الرجَاءِ -كمَا تقدم-، وأعقَبَهُ بباب التوكل الذي يُضعِفُ في القلبِ الخوفَ من غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويُقَوِّي تعلقَ القَلبِ بالله عَزَّوَجَلَّ، وبمَا عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ أعقَبَ ذلك بهذا البابِ.

وهَذا البَابُ متعلِّق بآفتين قلبِيَّتَيْن مُتقَابِلَتَيْن، وهُمَا آفتان تقطعَانِ صَاحِبَهُما عن الخَيرِ:

الآفةُ الأولىٰ: الأمن من مَكرِ الله؛ وسَببُها الغُلو في الرجَاء؛ حيث يَغلُو العبدُ في الرجَاء وفي النَّظر إلىٰ سعَةِ رَحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتىٰ يقع في هذه الآفة الخَطيرة.

فيلحظُ المَخذُول سعَةَ رَحمَة الله وعِظَم مَغفِرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا يَقُودُه ذلك إلىٰ الشُّكر وحُسنِ الذِّكر، وإنمَا يَقُوده إلىٰ التسَاهُل في الواجبَاتِ والجرأَةِ علَىٰ المُحَرَّمات؛ فيَأمن مكرَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ فلا يفعَلُ الواجب مُعتَمِدًا علىٰ سعَةِ رحمَةِ الله، وعلىٰ أن اللهَ غَفُور رَحِيم.

والآفة الثَّانيَة: اليَأسُ من رَحمَة الله، وسَببُها التنطعُ في الخَوفِ حتىٰ يقنَطَ من رحمَةِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وييأس من رَوْحِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَقعد عن الخَيرات ليَأسِهِ

من رَحمَةِ الله، فإذا يَئِسَ من رحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لا يَرُدُّهُ ذلك عن ذَنب، ولا يَفعلُ وَاجبًا؛ لأنه يَئِسَ من رَحمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ .

فمَآلُ هاتَين الآفتَين هو: الانقطَاعُ عن الخَيرات، والجُرأة علىٰ المُحرَّمات.

ويَختلفَان في سَببهما:

أمَّا الأمنُ من مكرِ الله عَزَّوَجَلَّ فسَبَبُه: **التَّوَسُّع في الرجَاء**.

وأمَّا اليأسُ من رَحمَة الله عَزَّوَجَلَّ فسَببُه: **التَّنطُّع في الخَوف**.

والأمنُ مِن مَكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنقَسِم من حيثُ حُكمُه إلىٰ قِسمَين:

القِسم الأول: أمنٌ مِن مَكرِ الله هو **كُفرٌ** بالله يُخرِج العبدَ من الإسلام، وينقله عن المِلَّة بالكُليَّة، وذلك إذا انعدَمَ الخوفُ في القلب بالكليَّة؛ لأنه تَكذيبٌ لصَريح القرآن، وصَريحِ السُّنة مما لا يحتمل تأويلًا؛ ولأنه ذَمٌّ لله عَزَّوَجَلَّ بأعظَم الذَّم.

والقِسم الثَّاني: أمنٌ مِن مَكرِ الله هو **كَبيرَة من الكبَائر**، ولا يُخرجُ من مِلَّة الإسلام، وذلك إذا وُجِدَ أصلُ الخَوف، فأصلُ الخَوف من الله موجُود في القَلب؛ لكن يتَوسَّعُ هذا المَخذُول في الرجاءِ حتَّىٰ يَتركَ الواجبات ويَفعَل المُحرَّمات.

وأمَّا اليأسُ من رَحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَنقسمُ من حيثُ حقيقتُه إلىٰ قِسمَين:

القِسم الأول: قنوطٌ من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في **الأمُور الأخرَويَّة**؛ يَعني: أن يقنَطَ من رَحمَة الله فيمَا يتعَلَّق بالآخِرَة؛ كأن يقنَطَ من رحمة اللهِ، وأن يقنطَ

من مغفِرَة الله؛ فهذا قنُوطٌ من رحمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ فيما يتعلق بأمورِ الآخرة.

وهذا القسمُ ينقسمُ إلىٰ نوعَين:

النَّوع الأول: قنوطٌ من رَحمَة الله فيما يتعَلَّق بأمور الآخرَةِ يتعلَّقُ بالإنسان نَفسِه.

ومَعناه: أن الإنسانَ يَقنَط من رَحمَة الله لنَفسِه، ويَقنطُ من مَغفِرَة الله لنَفسِه، وهو يتفَرَّع إلىٰ فرعَيْن:

الفَرعُ الأول: أن يقنطَ من رحمَة الله، ومِن قَبُول الله عَزَّوَجَلَّ للتَّوبة، سواء عَمَّم أو خَصَّص.

عَمَّم؛ أي قال: أنا مُذنِب، والله لا يغفِرُ للمُذنِبين، ولا يقبلُ التوبَةَ من المُذنب.

أو خَصَّص؛ أي قال: أنَا لا يقبَلُ الله تَوبَتي، ولا يَغفر الله لي، فهَذا قنَطَ مِن رحمَةِ الله، ومِن قَبُول الله للتَّوبَة.

الفَرعُ الثَّاني: أن يقنَطَ من وقُوعِ التَّوبة مِنهُ، وإن قال: إن الله يَغفرُ الذَّنب ويَقبلُ تَوبة التائب؛ لكن أنَا لا يَقبلُ الله توبتي، وأنَا لا أصلحُ لأن أتوبَ؛ فقَنطَ من جهة وقوع التَّوبة منه مع اعتقَادِه أن مَن تَاب يقبل الله توبَته، ويغفر الله له.

فمِن الناسِ مَن يقنطُ من رحمة الله من الجهَةِ الأولىٰ، ومن الناسِ من يَقنَطُ من رحمَةِ الله من الجهَةِ الثانيَة، وحيثُمَا ظَفِرَ الشيطانُ بمَطلُوبِه فهو المَقصُود عِندَه.

النَّوع الثَّاني: قُنوط من رحمَةِ الله فيما يتعلَّق بالآخرَة، ولكنه لا يتعلَّق بشَخصِ الإنسَان، وإنَّما يتعلَّقُ بإنسَانٍ آخرَ.

وهذا قَد يقَعُ فيه بعضُ الناس وهم لا يَشعُرون، وهو **اعتقادُ أنَّ الله لا يغفِرُ لفُلان** مع إسلامِه، أو لا يتوبُ الله علىٰ فُلان؛ فيقُول: الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبَلُ توبةَ المُسرِف علىٰ نَفسِه بالذُّنُوب، ولن يَغفرَ اللهُ ذَنبَه، ولن يرحمَه، أو لن يَدخُلَ الجنَّةَ!

فهذا قنوط من رَحمَة الله لغير الإنسَان؛ فهو لم يَقنَط من رحمَةِ الله من جهَةِ نفسِه، لكن قنَطَ من جهَةِ رَحمَةِ الله لغَيرِه من المُسلمِين، فهذا أيضًا داخلٌ في القنوط من رَحمَة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

والقِسم الثَّاني: قُنوطٌ من رحمَة الله **فيما يتعلَّق بأمُورِ الدنيا**؛ كالقنُوط من فَرَج الله، حيث يكُونُ الإنسانُ في كُربة ويقنط من فَرَج الله، مع أن فرَجَ الله قريب؛ وأقرَبُ إليه من النَّفس؛ ولكن لله حِكمَة أن يقَعَ الفرجُ متىٰ شاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد يقُودُه ذلك -والعياذ بالله- إلىٰ أن يَقتُلَ نَفسَه فهذا قنُوط أيضًا من رحمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ويأس من رَوْحِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد ابتدَأ الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية التي في ترجمة الباب.

(﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾): وهذه الآيَةُ مُتعَلقة بالآفة الأولىٰ: وهي الأمنُ مِن مَكرِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الآيةُ في أهل القُرَىٰ الذين أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عَلَيهم بالنِّعَم فلم يَشكُروها،

ولم يَذكُروا الله بها، ولم يُوحِّدوا الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل ظنُّوا أنهم قد أُعطُوا هذه النِّعم لقُوَّتهم أو لذكائهم أو لقدرتهم، أو لعظم مكانتهم عند الله، فقال الله فيهم: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٧].

فهُم لعِظَم أمنِهم من مَكرِ الله ينامُون مِلء عيُونِهم مع شِركِهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فكأنهم أَمِنُوا أن يأتيَهُم عذابُ الله أمنًا مُطلقًا؛ ولذلك نامُوا مع طُغيَانِهم، ولو كانُوا يخافونَ عذابَ الله لمَا نَامُوا مع طُغيانهم، فهم أمِنُوا مَكرَ الله أمنًا عظيمًا مع أنهم يَعلمُونَ أن عذابَ الله قد أصابَ بعضَ القُرىٰ بياتًا وهم نائمون كمَا حصَلَ لقَوم لُوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ثم قَال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٨]. أي: أنهم لعِظَم أمنهم من مَكر الله يَلعبُون في نهارهم، ويَلهون في دنياهم؛ فكأنَّهم أمِنُوا أن يأتيهم عذابُ الله وانتقَامُه نَهارًا، كما وقع لبَعضِ القُرىٰ قَبلَهم.

ثم جاءَ الحُكمُ العام: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: أمِنُوا مكرَ الله باستِدرَاجهم بالنِّعم مع عدم شُكرِها وعَدَم توحيدهم لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا استفهَامٌ استنكاريٌّ، وهذا يَدُل علىٰ أن الأمنَ من مَكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حرَام.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]: الذين هُم في غاية الخَسَارة، ولا يأمنُ أحدٌ مَكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا خَسِر؛ إمَّا أن يخسر دينَه بالكُليَّة، وذلك إذا ذهبَ الخوفُ من قَلبِه بالكُليَّة، وإمَّا أن يخسَرَ بَعضَ دِينِه، وذلك إذا

بقيَ معه أصلُ الخوفِ، ويَخسرُ أيضًا دُنياه، فالخسران مُلازِمٌ لمَن أمِن مكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا كذلكَ يَدُل علىٰ أن الأمنَ من مَكرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَرَام؛ بل يَدُل علىٰ أن الأمنَ من مَكرِ الله كبيرةٌ من كبائر الذنُوب، إن لم يَصِل إلىٰ الكُفر -علىٰ ما بينَّاه-.

والمَكرُ: هو الإيقاعُ بالخَصم بطَريقَةٍ خَفيَّة. وإن شِئتَ قُلتَ: هو التوصُّلُ إلىٰ الإيقاع بالخَصم وهو لا يشعر.

والمَكرُ من جهة أصله قد يكُون مذمومًا، وقد يكُونُ مَحمودًا مَمدُوحا.

فالمَكرُ المَذمُوم: هو المكرُ بمَن لا يستحِقُّ أن يُمكَر به؛ كالمَكر بالغافلِ من غَير تَنبيهِه؛ فهُو من باب الظُّلم والبَغي.

كما يأتِي مُجرِم من الناسِ فيمكُرُ بإنسانٍ غَافلٍ في غفلَتِه حتىٰ يوقِعَه في أمرٍ يكرَهُه، وكمَكرِ الكفَّار بالمُؤمنين في كل زمَانٍ ومكانٍ، فإنه مكرٌ مَذمُوم؛ لأنه مكرُ ظالمٍ بمَظلُوم، ومَكرُ بَاغٍ بمَن لا يستَحِق.

والمَكر المَمدُوح: هو المَكرُ بمن يَستحقه؛ كمَن أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه بالنِّعَم، ودَلَّه علىٰ وجوبِ شُكرِها، وعَلَّمَه كيف يَشكُرهَا فَلم يَشكُر؛ بل كفَرَ بنِعَمِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيَمكُر الله به بزِيادة النِّعم عليه حتىٰ يستدرِجَه، حتىٰ إذا أخذَهُ أخذَه أخْذَ عَزيزٍ مُقتَدِر فلم يُفلِته؛ فهذا مكرٌ مَمدُوح مَحمُود.

وكذلك المَكرُ الذي يكونُ في مُقابلة مكر أهلِ الباطل؛ فالكفَّار يَمكُرون

بالمسلمين، والله يَمكُر بالكفار؛ فهذا مَكرٌ محمود، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ناصِرٌ عِبادَهُ، ويمكرُ بمَن يمكرُ بعبادِهِ المُوحِّدين؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠].

فيَمكُر أهلُ الشِّرك بالمؤمنين المُوحِّدين، ويمكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمُشرِكين، وهذا المكرُ في غاية العَدلِ والحِكمَة والقُوَّة والقُدرَة.

وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠].

والمَكرُ صِفَةٌ فعليَّة لا تُضاف إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الإطلاق، ولا تُنفَىٰ عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ بإطلاق؛ لأنه -كما سبَقَ- المَكر منه ما هو مَمدُوح، ومنه مَا هو مَذمُوم؛ فتكون هَذه الصِّفَة مُقيَّدة، فتُضَاف إلىٰ الله حيثُ دَلَّ الكلامُ علىٰ أن المَكرَ مَمدُوح، وتُنفَىٰ عن الله حيثُ دلَّ الكلامُ علىٰ أن المكرَ مَذمُوم.

ولا يُشتَق من هذه الصِّفَة اسمٌ؛ فلا يُسمىٰ الله بالمَاكِر؛ لأن هذا الفِعلَ -كما بينَّا- منه ما هو مَحمُود ومنه ما هو مَذمُوم.

وفي هذِه الآية مَلمَح عَظيم ينبغي أن يلمَحَهُ المؤمن، وهو: أن المُؤمنَ لا يأمَنُ مَكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل يكون خائفًا من الله -كما تقدَّم في باب الخَوف-، وفي الوقتِ نفسه لا يخافُ مَكرَ الماكرين من الكَافرين وأهلِ الباطل، لا يخافُ منهم خوفًا يَقُوده إلىٰ القُعُود عن الحَق، أو التخَاذُل عن الحَق؛ وإنمَا يعلَمُ ويُوقِن أن أهل الباطلِ يَمكُرون بأهلِ الحق، وأن الكفَّار يمكُرون بأهلِ الإسلام، ويَحذَرُ من مَكرِهم حَذَر الذَّكي الزَّكي، ويَعلم أن المكرَ كُلَّه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٤٢].

وهذا وعيد للكفار الذين يَمكُرون بالمؤمنين.

ومن هذه الآية يعلم المؤمنُ أن الكفارَ، وإن مَكرُوا بالمُؤمنين، إلا أن مَكرَهُم في خسَار.

✻✻✻

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

الشرح

هذه الآيةُ فيهَا الكلامُ عن الآفةِ الثَّانية، ألا وهي: **القنُوطُ من رَحمَةِ الله.**

وهذه الآية من كَلام إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للملائكة الذينَ جاءوه في صُورَة بشَر، فبَشَّروه بغُلام عليم، وقد كانَ كبيرًا في السِّن، وكانت امرأتُه عَجُوزًا، فكانت الأسبابُ غيرَ قائمة لأن يَلِدَ رجُلٌ طاعِنٌ في السنِّ وامرأتُه عَجُوز، فقال لهُم: أبشَّرتُموني بهذا الغلام وأنا قد مَسَّني الكِبَر فبما تُبشِّرون؟! تُبشرون شَيخًا هرمًا بأنه يُولد له غُلام؟!

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر:٥٥].

ففَهِم أنها بشَارةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾** [الحجر:٥٦].

فلا يقنَطُ من رحمَة الله مُهتَدٍ، وإنما يقنَطُ من رحمَةِ ربِّه الضَّال عن الهِدايَة إلىٰ الواجبِ عليه، وهو ألَّا يقنطَ مِن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، والضَّال عن عِظَم رَحمَة الله وقُرب فَرَج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو ضَالٌّ عمَّا وَجَب عليه وهو عدمُ القُنوط، وضَالٌّ عن سعَة رَحمَة الله، ولو أدركَ العبدُ سعَةَ رحمَةِ الله لَمَا قنطَ من رحمَةِ الله أبدًا.

وكمَا تقَدَّم بيانُه: فالقُنوط من رحمَة الله سببُه التنطُّعُ في الخوف، وأيضًا من أسبابه ضعفُ الإيمان بأسمَاءِ الله وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لاسيَّما ما يتعلَّق بالقُدرة

والرَّحمة، فإن القنُوطَ من فرَجِ الله في أمور الدنيَا من أسبابه ضعفِ الإيمان بأن اللهَ علىٰ كُلِّ شيءٍ قَدير.

والقنوط من رَحمَة الله في الآخرَةِ سَببُه ضعفُ الإيمان بسعَةِ رَحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد دلَّت هذه الآيةُ الشريفة علىٰ حُرمَة القنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ وجوبِ رجَاء ما عِندَ الله رجَاءً مَشُوبًا بخَوفٍ -كما تقدَّم بيانُه عند الكَلام علىٰ (الخَوف)-.

ومهمَا كان حالُ العبدِ مع إسلامِه؛ فإنه لا يجوزُ له أن يقنطَ من رحمَةِ الله أو أن يَيأسَ من رَوْحِ الله، لا من جهة تخلُّصِه من الذنب، ولا من جهة تخلُّصه من أثَرِ الذنب، بل المؤمنُ يَرجُو الله عَزَّوَجَلَّ أن يتخَلَّص من ذنبه ويعمَل، ويَرجُو الله أن يتخلص من أثَر ذَنبِه ويَعمَل.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر:٥٣].

فالعبدُ وإن أسرفَ علىٰ نَفسِه بالذنب فهو عَبدٌ لله، فلا يقنط مع ذَنبِه من رحمة الله؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يغفر الذنوبَ جَميعًا.

ورجاءُ المُؤمن فيه صِفتَان:

الصِّفةُ الأولىٰ: أنه مَشُوبٌ بخَوف، وهذا الخَوف هو السُّور الحاجزُ من الوقوعِ في اليأس من رَحمَة الله، والأمنِ من مَكرِ الله.

والصفَةُ الثَّانيَة: أنه مَقرُون بالعمَل والطَّاعة، والقيَام بالواجبَات، مع الإقلاعِ عن الذَّنب والتَّوبة منه، فلا يُقيم علىٰ المَعصيَةِ اتِّكالًا علىٰ الرَّحمةِ والمَغفِرَة.

ꕥ❁❁❁ꕥ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشِّركُ بِاللهِ، وَاليَأسُ مِن رَوحِ اللهِ، وَالأَمنُ مِن مَكرِ اللهِ».

الشرح

هذا الحَديثُ روَاه البزَّار، والطبراني، وغَيرهما[١].

وتكلَّمَ بَعضُ أهلِ العِلم في إسنَادِه، وقالوا: في إسناده نظر[٢].

لكن حكَم عليه جمعٌ من أهل العلمِ بأنه حَسَن؛ كالعَينِي[٣].

وبيَّن الإمامُ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حَسَن، وأن له شواهِدَ تُقَوِّيه، وذكرَ هذا الحَديث في «السِّلسلة الصَّحِيحَة»[٤].

(**أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ**): والكَبيرَةُ: ما نَهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عنه في كتابه، أو علىٰ لسَانِ رَسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهيًا جازمًا مع التغليظِ؛ كوَصفِ فاعله بأنه خاسِر، ووَصفِ فاعله بأنه ليسَ مِنَّا، وكلَعنِ فَاعِله، وكالتوعُّد عَليه بخُصوصِه بالنار، أو بالخِزي والنَّدامَة يوم القيَامَة، فهذه هي الكبَائر.

---

(١) أخرجه البزار (١/ ٧١- كشف الأستار)، وذكره الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٤)، وقال: «رواه البَزَّار والطَّبَراني، ورجالُه مُوثَّقُون».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) انظر: «عمدة القاري» (٢٢/ ٨٤).

(٤) برقم (٢٠٥١).

والكبائرُ أغلظُ الذنوبِ، ولذَلك لا تُغفَرُ إلا بتَوبَةٍ، حتىٰ ولو كانت الشِّركَ الأكبَر، أو برَحمَة الله وعَفوِه، إن لم تَكُن الشِّركَ الأكبر.

(**فَقَالَ: الشِّركُ بِاللهِ**): والشِّرك بالله أكبَرُ الكبَائر، وقد سبَقَ الكلامُ عنه مِرارًا.

(**وَاليَأسُ مِن رَوحِ اللهِ**): وسَيأتي -إن شاء الله- الكلامُ عن رَوْح الله ورَحمَة الله في أثَر ابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(**وَالأَمنُ مِن مَكرِ اللهِ**): وهَذا الحديث فائدته: في بيَان أن اليأس من رَوحِ الله، والأمنَ من مَكرِ الله، من كبَائِر الذنُوب.

༺❁❁❁༻

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمنُ مِن مَكرِ اللهِ، وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ اللهِ، وَاليَأسُ مِن رَوحِ اللهِ» رَوَاهُ عَبدُ الرَّزَّاق.

الشرح

هذا الأثر رواهُ عبد الرزَّاق[1]، وابن جرير في «التفسير»[2].

وإسنادُه صَحيحٌ يَقينًا، كما قال ابنُ كثير في «التفسير»[3]: «وَهُوَ صَحِيحٌ إِلَيْهِ[4] بِلَا شَكٍّ».

(أَكبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمنُ مِن مَكرِ اللهِ، وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ اللهِ): فالقنُوط من رحمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كبائر الذنُوب.

وقد تقَدَّم الكلام في معنىٰ (القنُوطِ مِن رَحمَة الله).

(وَاليَأسُ مِن رَوحِ اللهِ): اليأس مِن رَوْحِ الله من أكبَر الكبائر؛ كما قال يَعقُوب لبَنِيه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وقد تقدم بيانُ أن اليأسَ من رَوحِ الله قد يَكُونُ كُفرًا، وقد يكونُ كَبيرةً من الكبَائر.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٤٤٨).

(٢) (٦/ ٦٤٨).

وذكره الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٤)، وقال: «إسناده صحيح».

(٣) (٢/ ٢٧٩).

(٤) أي: إلىٰ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي كلامِ ابن مَسعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قوله: «وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ اللهِ، وَاليَأسُ مِن رَوحِ اللهِ»، فذكرَهُما معًا.

قال بعضُ أهلِ العلم: هما مُترادفان، ولا فرقَ بينهما، فيكُون ذِكر الثَّاني من بابِ تأكيد العبَارَة الأولىٰ بالتَّنويع بلَفظ مُختلف، والمَعنىٰ واحد.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: بل بينَهُما فرقٌ، والفَرق: أن القنوطَ من رَحمَة الله هو أشَد اليأسِ من رَوْح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن القنُوطَ من رَحمَة الله هو اليأسُ من رَوحِ الله مع الجَزمِ والعَزم بعدَمِ وقوعِ رَحمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهُو أشَرُّ اليأسِ من رَوْح الله.

وعلىٰ هذا تَكونُ العبارَةُ في كلامِ ابن مَسعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من بابِ عَطفِ العَام علىٰ الخَاص؛ لأنه قال: «والقنُوطُ مِن رَحمَة الله» وهذا خاص، ثم قالَ: «واليَأسُ مِن رَوْحِ الله» فعطَفَ العامَّ علىٰ الخاص.

وقال بعضُ أهل العِلم: الفَرقُ أن اليأسِ من رَوْح الله إذا كان في القَلب، ولم يُثمر عَملًا، وأن القنوط من رَحمة الله إذا كان في القلب وأثمَر عمَلًا وظهَرَ علىٰ الجوارح.

إذن؛ القنوطُ من رَحمَة الله أشَدُّ من اليأسِ من رَوْحِ الله؛ لأن اليأسَ مِن رَوحِ الله في القَلبِ فَقط، أما القُنُوط من رَحمَة الله فهو في القَلب ويُثمر عَملًا، ويَظهر العملُ علىٰ الجَوَارح.

وقالَ بعضُ أهلِ العِلم عَكسَ الأول: قالوا: إن اليأسَ أشَرُّ من القنوط؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال في اليَأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وقال في القنوط: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

قالوا: والكفرُ أشدُّ من الضَّلال؛ لكن هذا مَحَلُّ نَظَر.

وقال بعضُ أهلِ العِلم: القنوطُ أعمُّ من اليَأس، لأن القنُوطَ عُلِّق برَحمَة الله؛ ورحمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ تشمل حصُولَ النِّعَم واندِفاعَ النِّقَم، أمَّا اليأسُ فعُلِّق برَوْح الله، ورَوحُ الله في الغالب يُطلَق علىٰ اندفاعِ النِّقَم؛ إذن القنوط أعَمُّ من اليأسِ.

هذا ما ذكره أهل العلم في هذا الأمرِ، والأصلُ التَّرَادُف.

ولو قُلنا بقاعِدَة أهل العِلم في (الإيمَان والإسلام): (إذَا اجتمَعَا افترَقا، وإذا افترَقَا اجتمَعَا)؛ لكان صوابًا.

فإذا قلنا: (القنوط من رَحمَة الله) وسكتنا، وقُلنا مرة أخرىٰ: (اليَأسُ من رَوحِ الله) فهُمَا بمَعنىٰ واحد.

وإذا ذَكرنَاهُما معًا كما ذَكر ابنُ مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكونُ للقُنوطِ مَعنًىٰ، ولليأسِ مَعنًىٰ آخر علىٰ ما ذكرنَاه من الفُروقِ التي ذكَرها أهلُ العِلم.

والقنُوط من رحمَة الله ينقَسِم من جهَة حُكمِه إلىٰ قسمَين:

القسم الأول: هو كفرٌ مُخرج من دِينِ الإسلام، وذلك إذا انعدَمَ الرجَاءُ بالكُليَّة، فلم يكن عندَ العبدِ رجاءٌ أبدًا، فهذا كفرٌ يُناقض الإسلام؛ لأن فيه تَكذيبًا لصريحِ الكتابِ والسُّنَّة.

والقسم الثاني: أنه من كبَائِر الذنُوب، وذلك إذا وجِدَ أصلُ الرجَاء، لكن حصلَ القُنوط، فإنه إذ ذاكَ يَكونُ من كبائِرِ الذنُوب.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ الأعرَافِ.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾، وقد تقدَّم تفسيرُها.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الحِجرِ.

﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وقد تقدَّم تفسيرُها.

الثَّالِثَةُ: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَن أَمِنَ مَكرَ اللهِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِي القُنُوطِ.

وذلك لأنَّ الأمنَ مِن مَكرِ الله، والقنُوط من رَحمَة الله من الكبَائر، وأهلُ الكبائر مُتَوعَّدُون بالنَّار.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبرُ عَلَىٰ أَقدَارِ اللهِ.

الشرح

ما زال كلامُ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتعلقًا بالعباداتِ القلبية التي لها تعلُّق بالتوحيد، وتتعَلَّق بها مخالفاتٌ تُنَافي التوحيد، أو تنافي كمَالَ التوحيد.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا البابِ يتكَلَّمُ عن عبادَةِ الصَّبر التي لها شأنٌ عَظِيم.

وقد ذكرَ أهلُ العلمِ أن الصبر نِصفُ الإيمان، وأنه من الإيمانِ بمَنزلةِ الرُّوحِ من الجسَد.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالصَّبرُ ضِيَاءٌ». روَاه مُسلِم[1].

والصبر أوسعُ ما يُعطاه المُؤمنُ من العطَاء، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ»[2].

فأوسعُ الخَيراتِ التي يُعطَاها المؤمنُ: الصَّبر.

والصَّبر فضَائله عظيمَة واسِعَة، ولا مُنتَهىٰ لأجر الصَّبر إلا جنة ربِّ العالمين، التي يَرزُقها الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه بما صَبَروا.

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) برقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والصَّبر من الإيمانِ ولا شَكَّ، وهو مُلازِم للإيمانِ، فلا يخلُو الإيمَانُ عن صبرٍ؛ لأن الإنسانَ في إيمانه ما بين طاعَةٍ، واجتناب مَعصيَةٍ، وصبر علىٰ الأقدَار، أو نُزول الأقدار، وفي كلِّ هذا هو مُحتَاج إلىٰ الصَّبر.

ومناسَبة البابِ للتَّوحيد: أن الصَّبر من أعظم معَالم التوحيد، ومن أعظم شعَائِر الإيمان، وخِصَال الإيمَان، وأنه تتعَلَّقُ به مخالفَاتٌ قَد تقودُ العبدَ إلىٰ الكُفر -والعياذ بالله-.

و(الصَّبر) في اللغَة: هو الحَبسُ، فكل حَبسٍ يُسمَّىٰ (صَبرًا).

وفي الشَّرع: هو حبسُ النفس علىٰ مُراد اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ولذَا قسَّم العلماءُ الصَّبر إلىٰ ثلاثَةِ أقسَام:

القِسم الأول: الصَبرُ علىٰ المَأمُور: بأن يَحبسَ العبدُ نَفسَه علىٰ طاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فلا ينِدُّ عن الطاعَةِ من أجل لذَّة دنيوية، ولا شَهوة جِسمَانية، ولا رَغبَة إنسانيَّة، وإنما يحبسُ نفسه علىٰ طاعة الله، فإذا أرادَ أن ينام عن الصَّلاة، حبَسَ نفسه عن هذه الإرَادة، وحبس نفسَه علىٰ طاعة الله، وقام وتَوضَّأ، وذهبَ إلىٰ المَسجِد، وصلىٰ الفَجرَ مع المُسلمين... وهكذا في كل طاعة، وهذه أعظَمُ درجَاتِ الصَّبر ومَرَاتبه.

القسم الثاني: الصَّبر عن مَعصِيَة الله: بحيث يَحبسُ العبدُ نَفسَه عن معصِيَة الله، وكُلمَا قام الدَّاعي إلىٰ المَعصِيَة كانَت مَنزلةُ الصبر أعظَم.

ويقولُ أهلُ العلم: إن الصَّبر عن المَعاصي علىٰ مَرتبَتَين:

المَرتبة الأولىٰ: أن يَصبر عن المَعصيَة خَوفًا من عذَابِ الله، فإذا دَعته نَفسُه إلىٰ المَعصيَة، وتزَخرَفَت له المَعصيَة، وازدَلَفَت إليه المَعصيَة، ذَكَّر نَفسَهُ بعَذاب الله عَزَّوَجَلَّ، فصَبَر خَوفًا من عذَابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمَرتَبة الثَّانية: وهي أعلَىٰ وأكملُ من المَرتَبة الأولىٰ: أن يَصبِر عن معصيَةِ الله ويَحبسَ نَفسَه عنها حيَاءً من الله، فيَستَحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرَاه وهو علىٰ المَعصية، فهو لعَظيم إيمَانِه بأن الله عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ حَالَه كُلَّه، ويسمع صَوتَه كله، ويَطَّلع علىٰ مَا في قلبه، ويراه حيثُمَا كَان؛ يَستحي منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يراهُ علىٰ مَعصيَة.

القسم الثَّالث: الصَّبرُ علىٰ أقدَارِ الله: أن يَصبِر العبدُ علىٰ أقدار الله المُؤلِمَة، فإن العبدَ في الدنيا تنزلُ به المصَائبُ، وينزل به ما يُؤلِمُه، فيحتاج إلىٰ الصَّبر.

والصبر -بأقسَامِه الثَّلاث- واجبٌ بإجماع الأمة:

فقد أجمَعَت أمةُ الإسلام علىٰ أن الصَّبر علىٰ الطاعة، والصَّبر عن المَعصيَة، والصَّبر علىٰ أقدار الله، واجبٌ وفَرض مُتعَين علىٰ المُكلَّف.

والعبدُ المؤمنُ يفعلُ الأسبابَ، ويتوَكَّل علىٰ الله، ويُعلِّقُ قَلبَه بالله، ويرجُو الخَيرَ من الله قَبل وقوعِ الأمر، فإذا وقعَ الأمرُ عَلمَ أنه من الله، وأنه بإذن الله، وأنه لا يَجرِي شَيءٌ في كَونِ الله إلا بمَشيئة الله القَدَرية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَصبِر، ويُسَلِّم، ويمنَعُ نَفسَه من الجزَع؛ لأنه علىٰ يقينٍ أنه لو اجتمعَ الخَلقُ كلهم بإنسِهِم وجِنِّهم، ومَلائِكَتهم، وجمَادَاتِهم، علىٰ مَنع ما وقَعَ، لمَا استطَاعُوا أن يَمنَعُوا شيئًا منه، فَضلًا أن يَمنَعُوه.

وما دام ذلك كذلك؛ فإنَّ المؤمنَ يُسلِّمُ لأمر الله ويَصبِر، ويَمنعُ نفسَه من الجزَع، ويمنَعُ نَفسَه من التسخُّط بالقَلب، ومن التسخُّطِ باللسَان، ومن التسخُّطِ بالجَوارِح.

وصَبرُ المؤمن: صَبر بالله، وصَبر لله، وصَبر مع الله، فيَدُور مع هذه الأمُورِ الثَّلاثة.

صَبر بالله: فإن المؤمن يُوقِن أنه لا صَبر له إلا بالله، وأنه لن يَصبِر إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيستَعين المؤمنُ بربِّه في هذا؛ كما قالَ الله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧].

فاصبِر واعلَم وأيقِن أنَّك لن تَصبِرَ إلا بِعَونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُؤمن إذا أيقَنَ بهذا، وتصَبَّر واستعانَ بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّهُ سيَصبِر، كمَا قالَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَمَن يَتَصَبَّر يُصَبِّرهُ اللهُ»**[1].

«مَن يتَصَبَّر» يَعني: مَن يَعلم أنَّه لا صَبر إلا بالله، فيَستَعين بالله، ويَطلبُ من الله الصَّبر، ويَبذُل من نَفسِه الصَّبر، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُصَبِّره ولابُدَّ، ويُوفِّقه إلىٰ الصَّبر.

وصَبرٌ لله: فالمُؤمن يكون صبره لله عَزَّوَجَلَّ، فيَصبِر لكَونِه يُعظِّم الله، ولكونِهِ يَرجُو ما عندَ الله، ولكونه يَخافُ الله.

فلا يَصبِر لكونِه رَجُلًا -كمَا يَقُول بعضُ الناس، فيَصطَنع الصَّبر أمامَهُم-، وإنَّما يَصبِرُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) التخريج السَّابق نفسه.

وصَبرٌ مع الله: فالمُؤمن يكون صَبره معَ الله؛ أي: يَدُور صَبْره مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما أرَادَه الله عَزَّوَجَلَّ منه فعَله، فهو في جَميعِ أحوالِهِ يَدُور مع مُرَادِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقَد ذكَر العُلماءُ أن الناسَ في أقدَارِ الله علىٰ مَرتَبتَيْن:

المرتبة الأولىٰ: المَرتبَة المَحمُودة.

والمرتبة الثانية: المَرتبة المَذمُومة.

أما المَرتبةُ الأولىٰ -وهي المحمُودة-، فالناسُ فيها علىٰ ثلاثِ درجَات:

الدرجةُ الأولىٰ: الصَّبر، والتَّسليم، وحبسُ النَّفس والقَلب واللسَان عن التسخُّطِ علىٰ قدَر الله: بأن يصبِرَ المُسلم، ويَحبسَ نفسَه عن التسخُّطِ، فلا يَقُول بلسانه ما فيه تسخُّط.

وذلك كقَول بَعضِهم عند نُزول المُصيبَة: لماذا أنا من بين الناس؟! لمَاذا أنا تنزل بي هذه المصيبة؟! أو كما يقول بعض الناس -والعياذ بالله-: لمَاذا يا رَبِّي؟!

وكذلك يَمنعُ قلبَه من التسَخُّطِ علىٰ قدَر الله، ويَمنعُ نفسَه من أن تفعلَ ما يَدُل علىٰ التسَخُّط وعدم التَّسليم، كأن يَضربَ وجهَه، أو يضرب جَبهَته، أو يقطعَ ثيَابَه، أو عمامَتَهُ، أو نحو ذلك.

وهذه الدَّرجَةُ واجبَةٌ وفَرض علىٰ المُكلَّف باتفاق العُلماء.

والدَّرجَة الثَّانيَة: الرضَا بقَدَر الله: وهذه مرتبة فوقَ الصَّبر؛ لأن الصبر يكونُ مع كراهيَةِ القَلب لِمَا وقَع، لكن بلا جَزَع، ولا تسخُّطِ من المَقدُور، أما الرضَا

فهو اطمئنانُ القلب، وسَكينته، واستواءُ الأمرَين فيه، كأن الأمر مَا وقَع، فالقلبُ مطمئنٌّ ورَاضٍ بما جرىٰ؛ لأنه عَلِمَ أنه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الدَّرجة قد اختلفَ العلماءُ في حُكمِها: فأوجبَها بعضُ أهلِ العلم.

وقال بعض أهل العلم: **إنهَا مُستَحبة**، وهذا الراجِح، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يَأمُرنا بالرضَا، وإنمَا أمرَنَا بالصَّبر، فما زادَ عن الصَّبر فهو كمَال ومُستَحَب.

والدَّرجَة الثَّالثة: الشُّكر: أن يشكُرَ العبدُ ربَّه علىٰ المُصيبَة، لا من جهَةِ ذَاتِها، وإنمَا من جهَةِ ما يَرَاه فيها من خَيرَات؛ بأن يُوقِنَ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُنزِل المُصيبَةَ إلا لحِكمةٍ، وأن المِحنَةَ فيها مِنحَة، وأن المُصيبة للمؤمنِ لا تتكَشَّفُ إلا عن خَير، فهو ينظُرُ إلىٰ ما فيها، لا إلىٰ ذَاتِها، فيَشكُر الله عَزَّوَجَلَّ، ويَراها نِعمَة باعتبارِ ما فيهَا.

وهذه مرتَبةُ الكُمَّل من عبَادِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **وهذه المَرتبَةُ لا شكَّ أنها ليسَت واجبَة، وهي أعلىٰ المَراتب المَحمُودة.**

وأضربُ مثَلًا يُقرِّب لنا هذه الدَّرجَات:

- رجلٌ احتَرق بيتُه، فسَلَّم وصبَر ولم يجزَع، مع المَرارَة في قلبه، والكراهَةِ في قلبِه، **فهذا أتىٰ بالوَاجب.**

- رجُل احتَرق بَيتُه، فعَلِم أنه بأمرِ الله، وأنه عن حِكمَة من الله، فسَلَّم ورَضِي، واطمأنَّ قلبُه بقَدَر الله، **فهذا أتىٰ بالرِّضا.**

- رجلٌ احتَرق بيتُه، فرأىٰ أن هذا لابُد أن يَئُول إلىٰ خَير، وأن فيه خيراتٍ

عَلِمها أو لم يَعلَمها، فشكَرَ الله علىٰ ما أجرَىٰ، لا علىٰ ذاتِ المُصيبَة، **فهَذا أتىٰ بالدَّرجَة العُليَا.**

ويُعينُ المُؤمنَ علىٰ تحقيقِ هذه الدرجاتِ أمورٌ:

الأمرُ الأوَّل: أن يستعينَ بالله، وأن يسأَلَ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُثبِّته عند نزول القَدَر المُؤلِم، وكلما عظُمَت الاستعانةُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَظُم توفيقُ العبدِ إلىٰ هذه الدرجَاتِ، حتىٰ يبلغَ الأمرُ بالعَبدِ أن يكونَ شَاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ جميعِ أحوَالِهِ؛ عندَ السَّرَّاء وعند الضرَّاء.

والأمرُ الثَّاني: أن يتذكَّرَ أنه عَبدٌ، وأن الذي يُجرِي الأقدارَ المؤلمَةَ هو اللهُ سَيِّدُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعبدُ ليس له مع سَيِّده سوىٰ التسليمِ والخضُوعِ.

والأمرُ الثَّالث: أن يتذكَّرَ أن ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أجرَىٰ عليه الأقدارَ المُؤلمَةَ رَءوفٌ رَحيم عَليمٌ حَكِيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولتمَام حِكمَتِه وإحاطة عِلمِه، لا يُسأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسألون؛ فلا يسأل رَبَّه عن فِعلِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه مُوقِن أن فِعلَ الله عَزَّوَجَلَّ في غاية الإحكَامِ، وفي غايَةِ الحِكمَة.

والأمرُ الرَّابع: أن يتذكَّر أن ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَفعلُ شَيئًا إلا لحِكمَةٍ، فهذه المُصيبَة التي نَزَلت به لا شَكَّ أنها لحِكمَة، وأن هذه الحِكَمَ تَعُودُ علىٰ العبدِ بفضَائِلَ عديدة؛ **فَهِيَ:**

- إما لتَنبيهه من غَفلة؛ وليَرجعَ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وكم من شَخصٍ كان سَادِرًا في المعَاصي، مُغرقا في الآثام، مُعرِضًا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فأنزلَ الله به مُصيبَةً

جَلَّا؛ فأصبحَ من عبَادِ الله المُكرَمين، وأصبح من العُبَّاد، ومن أهل المساجد.

- وإما لتكفيرِ سيئاتِهِ في الدنيا حتىٰ لا يؤاخذ بها في الآخرَةِ.

- وإما لرَفعِ دَرجاتِهِ في الجنة، فيكُونُ قد قصَّر عن درجَته في الجنَّة بعَمَله، فيُنزِلُ الله عَزَّوَجَلَّ به المُصيبَة، ويُصبِّره عليهَا؛ لتَرتِفعَ درجتُه في الجنة.

وهذه الأمورُ الثلاثةُ خيرٌ للمُسلم من الدنيا وما فيها؛ فإذا عَلمَ المسلمُ أنه بهذه المُصيبَة لا يَخلُو من واحدَةٍ من هذه الحِكَم، أو من جَمِيعها؛ فإن هذه المُصيبَة تَهُونُ عليه جدًّا.

والأمرُ الخَامسُ: أن يتذكَّرَ أن الذي ابتَلىٰ بالمصيبة وبالقَدَر المُؤلم هو المُنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه المصيبَةُ تَنغَمِرُ في نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ التي لا تُحصَىٰ، فالذي أخذَ هو الذِي أعطَىٰ، ولو قارَنتَ هذه المُصيبَة بنِعَم الله عَزَّوَجَلَّ عليكَ لكانَت نُقطَةً في بَحر، ولا شكَّ في هذا الأمرِ.

وكذلك من جِهَة أُخرىٰ أن الذي أنعَمَ بما قبل المُصيبَة هو الذي أنزَلَ المُصيبَة:

فقد كُنتَ صَحيحًا؛ فمَن الذي رزقك الصحة؟، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلما أصَابكَ المَرَض؛ مَن الذي أخذ منك شيئًا من الصحة؟!، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أعطَاكَ الصحَّة.

ماتَ الولد؛ فَمَن الذي رزَقَك الولدَ أصلًا؟!، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُنعِم بالولد، وهو الذي أخذ ما أعطىٰ.

الأمرُ السَّادس: أن ينظُرَ العبدُ عندَ نُزُول قدَر الله المُؤلِم إلىٰ ما سَلِمَ له من الخيرَات، وأن ينظُرَ إلىٰ ما أصابَ غَيرَه من المَصَائب، وأن يتذَكَّر أنه كانَ يُمكنُ أن يُصيبَهُ أعظَم ممَّا أصَابَهُ؛ فيتسَلَّىٰ بهذا الأمر، وأنه مَهما بلَغَت المُصيبَة فلابُدَّ فيها من لُطفِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

الأمرُ السَّابع: أن يتذكَّرَ أن ابتلاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعَبدِه دليلٌ علىٰ حُبِّ الله للعبد، أو إرادَة الله الخَيرَ بالعَبد، ولذلكَ يكونُ الابتلاءُ بمِقدارِ حُبِّ الله للعَبد.

فمَا أحوجَنَا إلىٰ معرفَةِ هذه الأمُور؛ فإن غَفلةَ الناس عنها جعَلتهُم يبتعدُونَ كثيرًا عن درجَاتِ الصَّبر عند نُزولِ أقدَارِ الله المُؤلِمَة.

وأمَّا المرتبَةُ الثانيَة -وهي المَرتَبة المَذمُومَة-: فهي التسخُّط عند نُزولِ القَدَر بالقَلبِ، أو اللسَان، أو العمَل.

وهذِهِ المَرتبةُ مُحرَّمة بإجماعِ الأمَّة.

ويكون الناس في هذه المرتبة علىٰ دركات، حتىٰ قَد يَصلُ الأمرُ بالإنسَانِ بسبب تسَخُّطه علىٰ أقدارِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعدَم الصَّبر عليها إلىٰ الكُفرِ -والعيَاذ باللهِ-، وإني لأجزِمُ أن المُلحِدين إنمَا وقَعُوا في الإلحاد بسَببِ اختلالِ الصَّبر في المَرتبَة العُليا، فتَجِدُ أنه يَعُود إلىٰ نظرهم إلىٰ المصَائب التي يُصيبُ الله عَزَّوَجَلَّ بها عبادَهُ فيَقودُهم ذلك إلىٰ الإلحَاد؛ لأنهم ما عَرَفُوا أولًا أن المصَائبَ عن حِكمَة، وما عرَفُوا ثانيًا الواجبَ عندَ نُزولِ المُصيبَة.

وقد يصِلُ الأمرُ ببعضِ الناس أنه إذا أصَابَته ضَرَّاء أو مُصيبَة أو فِتنَة انقلب علىٰ وجهِه وارتَدَّ وكفَرَ بالله فخَسرَ الدنيَا والآخرَة.

﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج:١١].

هذا ما يتَعَلَّق بالمَدخَل إلىٰ هذا البَاب باختِصَار.

والشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: (بَابٌ: مِن الإيمَانِ بِاللهِ الصَّبرُ عَلىٰ أقدَارِ الله).

وقد بينَّا أن الصَّبر علىٰ أقدَارِ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الإيمَانِ، وأن الصَّبر بأقسامِه الثلاثَة مُلازمٌ للإيمَان.

***

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

الشرح

في هَذه الآيَةِ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

ولابد مِن رَبطِهَا بصَدْرها؛ حيثُ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾: مُصيبَة نكِرة تَقدَّمَتها ﴿مِن﴾ في سياق النَّفي؛ فتقتضي الاستغراقَ المُطلَق، فكلُّ المصائبِ تدخُل في هذا.

والمُصيبَة: ما نزَلَ بالمؤمنِ ممَّا يُؤلِمُه في نفسه، أو فيمَن يُحب، أو فيمَا يُحِب، من مالٍ أو وَلد، أو غَير ذلك.

وما من مُصيبَة تنزل بإنسانٍ إلا وهي بإذن الله القَدَري، وبمَشيئةِ الله القَدريَّة، فإنه لا يَجرِي في كَونِ الله إلا ما شَاء، وفيهَا العدلُ المُطلَق؛ فالله لا يظلمُ الناسَ شيئًا، لا في الدُّنيا ولا في الآخرَة؛ وهي عن حِكمَة تامَّة ومع ذلكَ فهي بسَببِ الناسِ، وبسَبب ما كسَبَته أيدِيهم.

وتعَالىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَظلمَ؛ فهو العَدلُ، وهو الذِي أمرَ بالعَدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيها الحِكمَة التامَّة، فهي ليسَت عَبثًا، ولا لإيلامِ النَّاس، وإنما لحِكمَة تامَّة تَعُود علىٰ العبَادِ ولابُدَّ؛ ومع ذلك، فما من مصيبة تنزل إلا وهي من أنفسنا بسببٍ منَّا بسبب ما كسبته أيدي الناس.

قالَ تَعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

وقالَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

ثم قالَ تعالىٰ: (﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾): جُملة شرطيَّة فيها فِعلُ الشَّرط وجواب الشَّرط، فما معناهَا؟

قال بعضُ أهلِ العلم: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: أي: يُؤمن أنه ما من مُصيبَة إلا بإذن الله؛ وفيها العَدلُ وفيها الحكمة؛ ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾: أي: يَهدِ قلبَهُ إلىٰ الصَّبر والتَّسليم، أو ماهو أعلىٰ منه.

وقال بعضُ أهلِ العِلم: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويَصبِر ويَحتَسب، ويَمنَع قلبَه ونفسَه ولسانَه عن التسخُّط؛ ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ إلىٰ الاسترجاعِ عندَ المُصيبَة، فيَقُول: إنَّا لله وإنا إلَيه رَاجِعُون، ومَن قالَ هذا أبدَلهُ الله خيرًا ممَّا أصابَه.

وقالَ بَعضُ أهلِ العِلم: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: أي: يُؤمن بأن المُصيبَة بإذن الله القَدَري وفيها عَدلُ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وفيها الحِكمَة التامَّة، ويصبر ويحتسب؛ يعوِّضه الله خيرًا بالهِدايَة في قلبه؛ فيَرزُقه الله الهدايَة، والهِدايَة خيرٌ من المُصيبَة؛ بل خَيرٌ من الدنيا وما فيهَا.

ولا مانعَ من صحَّة كل هذه المَعاني؛ فهذَا تنوعٌ وليس تضَادًّا.

وهذه الآية تَدُل علىٰ أن الصَّبر من الإيمَان، وهذا هو مرادُ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، والمُراد هنَا: الإيمانُ بما تقَدَّم، وهو ما يتعَلَّق بالمُصيبَة؛ فالصَّبر من الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (**قَالَ عَلقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِن عِندِ اللهِ، فَيَرضَىٰ وَيُسَلِّم**):

(**قَالَ عَلقَمَةُ**): هو علقَمةُ النَّخعي: من كبَار التَّابعين وفقهَائهم، وقد سمعَ كبارَ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذَا الأثرُ رَواه ابنُ جَرير في «تَفسيره»[1] بأسانيدَ صَحيحَة.

(**هُوَ الرَّجُلُ**): و(الرجُل) هنا ليس تَخصيصًا للذَّكَر دُونَ الأُنثَىٰ، وإنما هو تَعبيرٌ عن الإنسَان.

(**تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ**): كما قُلنَا: (المُصيبَة): هي مَا ينزلُ بالإنسَان ممَّا يُؤلم.

(**فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِن عِندِ اللهِ**): أي: بإذنِ الله عَزَّوَجَلَّ القَدَري وعَدلِه وحِكمَته.

(**فَيَرضَىٰ وَيُسَلِّم**): ومعنىٰ (يرضَىٰ) هُنا؛ أي: يَصبِر ويَحتَسب ويُسَلِّم، وقد تكون علىٰ بابِهَا؛ فتكون الدرجَة الثانية التي ذكرنَاها، وهي (**الرِّضا**).

❀❀❀

(١) (٢٣/ ١٢).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اثنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفرٌ: الطَّعنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ المَيِّتِ».

الشرح

هذا الحَديثُ في «صَحيحِ مُسلم»[1].

(**اثنَتَانِ**): أي: خَصلتَان وصِفتان.

(**فِي النَّاسِ**): أي: في أمةِ مُحمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تزالانِ بَاقيتانِ فِيهِم.

(**هُمَا بِهِم كُفرٌ**): أي: أنَّهُما من خصَال الكفر، لا أن مَن يَفعلُهما كافر؛ فإن حقيقةَ الكُفر ليسَت فيه؛ فليسَ كُفرُه كفرًا أكبَر، وإنمَا يفعَلُ خَصلَة من خِصَال الكفَّارِ، وهذا يَدُلُّ علىٰ أنَّها كبيرةٌ من كبائِرِ الذنوبِ؛ **فإنَّ من علامَاتِ الكبَائِرِ**: أن يُوصَف الفِعلُ بأنه من فِعل الكفَّار، أو من فِعلِ أهل الجَاهليَّة.

فهاتانِ الخَصلتَانِ المَذمُومتَان شَرعًا الواقِعَتان من كثيرٍ من النَّاس؛ فَهي منهم وفيهم كُفر.

(**الطَّعنُ فِي النَّسَبِ**): وسبقَ بيانُ أن الطعنَ في النَّسبِ الثابت علىٰ ثَلاثَةِ أرجاءٍ كُلها حرامٌ لا تَجوز:

الأول: نفي النسَب الثابِت، والنسب يثبتُ بالشُّهرة، فمن شُهِر بأنه ابن فلان،

---

(١) برقم (٦٧).

أو من القَبيلةِ الفُلانيَّة؛ فإنه لا يجُوزُ نَفيُ نَسَبِه، فيُقال: إنه ليس ابنَ فُلان، أو نحو ذلك.

الثَّاني: التَّشكيك في النَّسَب، وإن لم يُنفَ، فيقُول إنسانٌ: لا أدرِي عمَّا يَدَّعِيه، الله أعلم بحَالِه، أو يُشير بيدِه، أو يُشيرُ بِعَينه، أو يُشير بوَجهِه، بما يَدُل علىٰ التشكيكِ في النسب.

الثَّالث: العيبُ في النَّسَب، ونِسبَة العيب إليها ممَّا لا يكونُ من أصحَابِها.

(وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ المَيِّتِ): وهذا وجه الشاهد؛ لأن النياحةَ علىٰ الميتِ تُنَافي الصَّبر، **وجَامع ما يُنَافي الصَّبر أنَّه**: التسخُّط علىٰ المَقدُور بالقَلب، أو اللسَان، أو الفِعل.

بالقَلب: بأن يعتقد بقَلبِه أنَّه لا يستحِقُّ أن ينزِلَ به هذا، أو يَعتَقد أن هذا ظُلم، فهذا يُنافي الصَّبر، وهو تسَخُّط.

وليس الحزنُ في القَلب من التسخُّط، فإن الله لا يُعذِّبُ بحُزن القلب، بل من فطرَةِ الإنسان أن يحزَنَ عند نزولِ المُصيبَة؛ ولذلك لم يكن الرضَا وَاجبًا، وإنما كان كمالًا، وهو أن يَستَوي الأمرانِ في القَلب، فالتسَخُّط بالقلب اعتقَادُ ما لا يجوزُ عند نزول المَقدُور.

أو اللسَان: بأن يَقُول الإنسانُ ما يكون فيه تسَخُّط، كما يقُول بعضَ الناس عند نزول المُصيبَة: لمَاذا أنا؟!، أو: ماذا فعلتُ حتىٰ ينزل بي هذا؟!، أو نحوها من العبارَاتِ؛ فهذا من التسَخُّط.

أو الفِعل: كأن يَضرِب الإنسانُ وَجهَه، أو يُمَزق ثَوبَه عند نزُول المُصيبَة.

ومن التسخُّط بالفِعل عند نُزولِ المُصيبَة: أن يمتنعَ الإنسانُ عن خير أرادَه بسبَبِ نُزول المصيبة، كمَن يكونُ أرادَ أن يتصَدَّق فتنزِل به المُصيبَة فيَتركُ الصدقَةَ من أجل نُزولِ المُصيبَة لا بسَببٍ آخَرَ؛ فهذا من التسَخُّط بالفعل.

ومِن التسخُّط بالقَول: «**النياحَةُ علىٰ المَيِّت**»؛ وهي من كبَائر الذنُوب.

وقد كان من بيعَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنسَاء عَدمُ النياحَة.

وهذا يدُلُّ علىٰ أهميَّة الأمر وعِظَمِه؛ فإن البيعَةَ إنما وقعَت علىٰ الأمور العِظَام.

وقد ثبت في «الصَّحِيحَين»[1] أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبايع النساء علىٰ عدم النياحة.

والنيَاحَةُ حرامٌ من الرجَالِ والنسَاء: قال ابنُ عَبدِ البَر رَحِمَهُ اللهُ: «أجمع العُلماءُ علىٰ أن النياحَةَ لا تجُوزُ للرِّجالِ ولا النسَاء»[2].

والنيَاحةُ علىٰ المَيتِ عَلىٰ أنحَاء:

النَّاحيَة الأولىٰ: رفعُ الصوت بتَعدادِ مَحَاسن المَيِّت علىٰ وجهِ التسَخُّط؛ سواء كانت محَاسن حقيقيَّة أو مزعُومَة.

وذلك كأن تَقولَ المَرأةُ: وا جَبَلاه!، وا عِزَّاه!، مَن لي بَعدَك!، تَركتَنا لمَن!،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٢)، ومسلم (٩٣٦) من حديث أم عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) «الاستذكار» (٣/ ٦٨).

وترفع صوتها بهذا، وكذلك الرجُل، وهو شَرٌّ علىٰ النائح وعلىٰ من نِيحَ عَليه؛ شَر علىٰ النائح لأنهُ مُرتَكبٌ كَبيرة من كبَائر الذنوب، وعلىٰ من نِيح عَليه لأنه يُوكَّل به ملكَانِ يَلْكُزانِه، إذا قيل فيه شَيء، ويقال له: أنت كذلك، أنت كذلك!

وقد ثبتَ بهذَا الحديثُ عَن رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ بَاكِيهِ، فَيَقُولُ: وَاجَبَلَاهْ وَاسَيِّدَاهْ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، إِلَّا وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلْهَزَانِهِ: أَهَكَذَا كُنْتَ؟»**[1].

بل ثبتَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: **«أُغْمِيَ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ، فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ عَمْرَةُ تَبْكِي وَاجَبَلَاهْ، وَاكَذَا وَاكَذَا، تُعَدِّدُ عَلَيْهِ، فَقَالَ حِينَ أَفَاقَ: مَا قُلْتِ شَيْئًا إِلَّا قِيلَ لِي: آنْتَ كَذَلِكَ؟ فَلَمَّا مَاتَ لَمْ تَبْكِ عَلَيْهِ»**[2].

وفي الحَديثِ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: **«المَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ»**. وفي لفظٍ: **«المَيِّتُ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الحَيِّ عَلَيْهِ»**[3].

وذلك إذا أوصَىٰ بالنيَاحَة، أو كان يَعلمُ أن أهلَ البَلدِ يَنُوحُون علىٰ المَيتِ فلم يَنهَهُم عن ذَلك، ولم يُوصِ بعَدمِ النياحةِ عَليه؛ لأنهُ إذا سكَتَ فهُو كالمُقرِّ للعَادة الجاريَةِ؛ فيكونُ مِن فِعلِه، فيُعذَّبُ ببُكاء أهلِه عَليه.

النَّاحيَةُ الثَّانية: البكاءُ بصَوتٍ مَخصُوص علىٰ وجهِ التجَزُّع والتَسخُّط؛ فيكونُ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٠٣)، وابن ماجه (١٥٩٤) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٩٢٧، ٩٣٢) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

البكَاءُ بصَوتٍ علىٰ غيرِ وَجهِ العَادة، وهو الرنَّةُ المُحرَّمة، ومنه سُمِّيت النياحَةُ (نيَاحَة).

الناحيَةُ الثالثة: رَفعُ الصوت علىٰ سَبيلِ الجَزع، ولو لم يَكُن فيه تَعدَاد؛ وهذا الفرقُ بينَ الثالثِ والأول.

ففي الأول: رَفعٌ مع تَعدَاد.

وفي الثَّالث: رَفعٌ علىٰ سَبيل الجزَع والتسخُّط؛ كأن يصيحَ الإنسانُ ويَرفَعَ صوتَه علىٰ وجه غير مُعتَاد.

وقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ ابْنُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ هَذَا مِنَّا، لَيْسَ لِصَارِخٍ حَظٌّ، الْقَلْبُ يَحْزَنُ، وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُغْضِبُ الرَّبَّ**»[(١)].

والشَّاهدُ منه: أن أسامةَ بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه موت إبراهيم ابن رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحَ ورفَعَ صَوتَه؛ فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيسَ هَذَا مِنَّا**»؛ يعني: ليسَ منا مَن يَصيحُ عند المُصيبَة.

و(الصِّياحُ) هنا: ليس بمعنَىٰ (البُكَاء)، وإنما هو رَفع الصوتِ عَلىٰ سبيلِ التجَزُّع والتسَخُّط.

وقَولُه: «**لَيسَ لِصَارِخٍ حَظٌّ**»؛ يعني: نصيبٌ؛ لأن هذا الفِعلَ ليسَ من الإِسلام،

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣١٦٠)، وحسنه الألباني في «التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان» (٣١٥٠).

وليسَ مِن أفعَالِ المُسلِمين.

النَّاحيَةُ الرَّابعة: فِعلُ ما يدلُّ علىٰ النيَاحَة؛ كالاجتمَاع في بيت المَيتِ لغَير التعزيَة، وصُنع الطعام للاجتمَاع عليه بعد مَوتِ المَيت.

يقُولُ جَريرُ بنُ عبدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «**كُنَّا نَرَىٰ الاجتِمَاعَ إِلَىٰ أَهلِ المَيِّتِ وَصَنعَةَ الطَّعَامِ، مِنَ النِّيَاحَةِ**». رواهُ ابن مَاجَه، وصَحَّحه الألباني [(١)].

«**كُنَّا**»؛ يَعني: معَاشرَ الصَّحابة، والأظهَرُ فيه أنه في زمَنِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ، ولو لم يَكُن في زمَنِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ فإنه يَدُل علىٰ الإجمَاع؛ إجمَاعِ الصحابة، وهو حُجَّةٌ علىٰ كُلِّ حال، سَوَاء أرادَ: كنَّا في زمَن النَّبيصَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ، وهو الأظهر، أو أرادَ: كنَّا بَعدَ مَوتِ النَّبيصَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ.

والاجتمَاعُ إلىٰ أهلِ المَيتِ له صُورَتان:

الصورَةُ الأولىٰ: الاجتماع إلىٰ أهل المَيت لغيرِ التعزيَة؛ بأن يبقَىٰ الإنسانُ عندَهُم الفتَرات الطوال، يتحدَّث ويأكُل ويشربُ، وهذا هو المُرَاد هنَا.

الصُّورةُ الثَّانية: أن يذهَبَ ليُعزِّيهم التعزيَةَ المَشروعَة ثم ينصرِفُ، ويَجتمعُ أهلُ الميت للرِّفقِ بالناس لا من أجل الاجتمَاع، وإنما لتبَاعُدِ البُيوت وتباعُدِ المسافَات، فحتىٰ لا يَشُق علىٰ الناس فيَذهَب المُعزِّي المُحِب إلىٰ هذا في طَرَفِ البلد، وإلىٰ هذا في طَرَفِ البَلد، وإلىٰ هذا في وسَطِ البَلَد، فيجتَمِع أهلُ المَيت في مكانٍ واحدٍ رِفقًا بالناس، فهذا جائز، وإن كان من مَشايخِنا مَن يمنع

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦١٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

هذا ويوصي بعَدمِه.

لكن الأظهَر -والله أعلَم- أن هذا جَائزٌ؛ لأنه لا يُخالفُ الشَّرع في شَيء، وليس به تَسَخُّط ولا غير ذَلك.

وصُنع الطعَام في أيَّام العزاءِ له حَالات:

الحَالَة الأولىٰ: أن يكونَ بغَير سَببٍ مُعتَاد؛ وإنَّما سببُه الموتُ، هذا يَقُول: اليوم الغدَاءُ عليَّ، وهذا يقول: العشَاء عَليَّ، وربَّما قال أحدُهُم: الفطُور عليَّ!

فهَذا حرامٌ، ومن النِّياحة، والنياحَةُ من كبائر الذنُوب.

والحَالةُ الثَّانيَة: أن يكُونَ ذلك لسَببٍ مُعتاد؛ حيثُ جَرَت العادَةُ بصُنع الطعام من أجلِه؛ كأن يَقدم قَومٌ من سَفر، وجَرت عادةُ الناسِ أنه إذَا قَدمَ حَبيبٌ أو صديقٌ من سَفرٍ أن يُذبَح له ويُكرَم، فيُفعَلُ هذا ويُقدَّمُ عند أهلِ المَيتِ، فهذا لا بأسَ به، وأن يجتمعَ مَن حضرَ، ويجوزُ أن يأكُلَ الضيفُ ومَن حضَرَ مع الضيفِ ومَن دُعِيَ أيضًا؛ لأن هذا ليسَ للعَزاءِ، وليسَ للموتِ، وإنما لذلكَ السَّبب؛ فهَذا لا حرَجَ فيه.

وأقبَحُ هذه الأمُور: أن يُكَلَّف أهلُ الميت بصُنعِ الطعام لهَذا العَزاء؛ فالناسُ يجتمعون وأهلُ الميِّتِ يُطعِمُون؛ فتُجمَع عليهم مع مُصيبةِ موتِ مَيِّتِهم هذه التكَاليف.

ومنه ما يَفعلُه بعضُ الناسِ اليومَ من استئجارِ صَالة في المسَاجِد للعَزَاء تُكَلِّفُ أهل الميت مبالغَ ماليَّةً بسببِ هذا؛ فإن هذا من المُحَرَّم، ويَدخلُ في النياحة؛ فينبغي للمُؤمنين أن يتنبَّهُوا لهذا الأمر.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولَهُمَا عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: «لَيسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ».

الشرح

(**ولَهُمَا**): أي: للشَّيخَيْن: البُخَاري[1] ومُسلِم[2].

(**عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا**): أي: إلىٰ النَّبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(**لَيسَ مِنَّا**): يَعني: ليسَ علىٰ طَرِيقَتِنا، وليسَ علىٰ سُنَّتِنا، وليس علىٰ مَنهَجنَا، وليس المُرَاد أنهُ ليس من المُسلمين، وأنه يَخرجُ بهذا عن الإسلام.

وهذا يدُلُّ علىٰ أن المَذكورَ في الحديثِ من كبَائرِ الذنُوب.

وقد جاء عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الْخَامِشَةَ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُور**». رواه ابنُ ماجَه، وصحَّحه الألبَاني[3].

فمِمَّا يُلعَن به الإنسانُ ويُطرَد به من رَحمَة الله: هذه الأمورُ الثلاثة التي تُنَافي الصَّبر بالأفعال.

---

(١) برقم (١٢٩٧).

(٢) برقم (١٠٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(**مَن ضَرَبَ الخُدُودَ**): أي: عندَ نُزولِ المُصيبَة، فيضرِبُ خدَّهُ علىٰ وَجهِ التسخُّط، وهذا يشملُ الرجُلَ والمَرأة، ويدخُلُ فيهِ ضَرب كُل عُضوٍ آخر مِن أعضَاءِ الجسَد؛ كأن يضرِبَ رَأسَه أو فَخِذه أو يَدَه، فكلُّها تدخُل في الحديث، وإنما خُصَّت الخُدود هنا؛ لأن الغالبَ أن المُتجزِّع عند نزُولِ المُصيبَة يضربُ خَدَّه، فهذا الفِعلُ حرَام، وكبيرة من كبائر الذنوب.

(**وَشَقَّ الجُيُوبَ**): و(الجَيبُ): هو الفتحَة التي يُدخَلُ منهَا القَميصُ من الرأس، هذا يُسمَّىٰ (جَيبًا).

والمَقصُود: مَن شقَّ ثوبَه عند نزولِ المُصيبة بأيِّ طريقَةٍ من الطُّرق؛ فإن هذا حرَامٌ ومن كبَائر الذنُوب، سواء كانَ ذلك من رجُلٍ أو من امرَأة.

(**وَدَعَا بِدَعوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ**):

قالَ بعضُ أهلِ العِلم: يعني: أنه نَاحَ وصوَّت علىٰ المَيتِ علىٰ طريقةِ أهلِ الجَاهليَّة، والذي جعلَهُم يَقُولون هذا: السِّياق؛ لأن السيَاقَ فيما يُفعَلُ عند المَوتِ، فكانت دعوَىٰ الجاهليَّة هنا خاصَّة بما يتعلق بالمَوت، وهو النيَاحةُ علىٰ الميت، وهذه -كما تقَدَّم- من خِصَال الكفَّار.

وقالَ بعضُ أهل العلم: بل هذا يشمَلُ كلَّ ما تدعُو إليهِ الجاهليَّةُ من التعصُّب والانتصارِ للأنسَابِ، وغير ذَلكَ، ويدخلُ فيه النياحَةُ.

لكنَّ الأول أقرَب؛ لأنه الأوفَقُ للسِّياق.

وقَالَ أَسِيدُ بْنُ أَبِي أَسِيدٍ، عَنِ امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايِعَاتِ قَالَتْ: «**كَانَ فِيمَا أَخَذَ**

عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي المَعْرُوفِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْنَا أَلَّا نَعْصِيَهُ فِيهِ: أَلَّا نَخْمُشَ وَجْهًا، وَلَا نَدْعُوَ وَيْلًا، وَلَا نَشُقَّ جَيْبًا، وَأَلَّا نَنْشُرَ شَعَرًا». رواه أبو داودَ، وصَحَّحهُ الألبَاني[1].

وهَذه الأمور الأربعَةُ كانت من فعل أهلِ الجاهليَّة؛ فدلَّ هذا الأمر علىٰ أنَّ هذه الخصَال من كبائرِ الذنُوب، وهي تُنافي الصَّبر.

***

(١) أخرجه أبو داود (٣١٣١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الخَيرَ؛ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الشَّرَّ؛ أَمسَكَ عَنهُ بِذَنبِهِ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ».

الشرح

هذا الحديث رواه الترمذي والحَاكم، وسكتَ عنه الذَّهبيُّ، وقال الألباني: حسَن صحيح[1].

(**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الخَيرَ**): هذه الإرادةُ هنا هي (الإرادةُ الكونيَّة القَدَريَّة)، واللهُ عَزَّوَجَلَّ قد يريدُ بعَبدِه الخيرَ بفَضلِه، وقد يريدُ بعبدِهِ الشرَّ بعَدلِه، والكلُّ عن عِلمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المُحيط بكُلِّ شيء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يظلِمُ الناسَ شيئًا، لا في الدنيَا ولا في الآخِرَة؛ بل فِعلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُله عدلٌ مُطلَق، وكِلا الأمرَين -أعني: الخَير والشَّر- عن حِكمَة تَامَّة.

والشَّر ليس إلىٰ ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنمَا هُو شَرٌّ بالنِّسبَة إلىٰ المَخلُوق، **وهَذا معنىٰ قولِ بَعضِ السَّلف: «الشَّر في مَفعُولاتِه، وليس في فِعلِه».**

ففعلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُلُّه خَير؛ لأنه عن حِكمَة، وإنما يكونُ شَرًّا بالنِّسبة إلىٰ المَخلُوق .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٠)، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: حسن صحيح.

وقَولُه: (**بِعَبدِهِ**): المَقصُود به: المُؤمن، أما الكافِرُ فلا يَدخُل هنا؛ **لأن مَا يُصيبُ الكافر في الدنيَا له حِكمتَان:**

الحِكمَة الأُولَىٰ: التَّذكرة لعَلَّه أن يرجعَ عن كُفرِه، وأن يُسلِم، فيُصيبُه الله ببعضِ المَصَائب لعلَّه أن يُؤمن.

الحِكمَة الثَّانيَة: أنها عقوبة مُعجَّلة، وما عندَ الله أشدُّ وأبقَىٰ.

(**عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنيَا**): وذَلكَ لأنَّ بَني آدمَ خَطَّاء، كما قال النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ**»[1].

فالعَبدُ لابد له من ذَنبٍ، ولابُدَّ له من خَطيئَة، وهَذِه الخطيئة تستَدعِي عقوبَةً، ويستحق صاحبُها أن يُعَاقَب بالنار يَومَ القِيَامة، إلا أن يَعفُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذَا أرادَ الله بعبدِه الخَير، وكان قَد أذنبَ -ولابدَّ من الذَّنب- عَجَّلَ له العُقوبَة في الدنيَا.

وقَد جاءَ أن النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يُصِب مِنه**» رواه البُخَاري[2].

أي: يُنزل به مُصيبَة؛ لأن هذه المُصيبَة يُكفَّر بِها ذَنبُه، وهي عُقوبَة في الدنيَا، وهي إذَا قُورِنَت بعقوبَة الآخرة نُقطَة في بَحر، فيَكونُ نُزول المُصيبَة بالمُؤمن خيرًا له، وهذا يُسَلِّي المؤمنَ ويُعينُه علىٰ الصَّبر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحَسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) برقم (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًىٰ إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»**. متَّفق عليه[1].

(مُسلِم): نكِرَة في سِيَاق النَّفي تقدَّمَتهَا (مِن) فيَقتَضِي العُمُوم.

(يُصِيبُه أَذىٰ): في نَفسِه، أو في ولَدِه، أو في مَالِه، أو في أحبَابِه.

و(أَذىٰ): نكِرَة؛ أي: أذىٰ صَغيرًا كانَ أو كبيرًا إلا تحَات عنه خطَايَاه؛ أي: ذنُوبه.

وهَذا عندَ جُمهُور العُلمَاء: مُتعَلِّق بالصَّغائر أما الكبَائر، فلابُدَّ من توبَة.

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»**. متفقٌ عَليه[2].

(مُصيبَة): نكِرَة في سيَاقِ النفي تقدَّمتهَا (مِن) فتَقتضي استغراقَ العُمُوم والشُّمول لكل مُصيبَة؛ من قَولٍ أو فعلٍ؛ فيُخَفَّف عنه بمقدَارها؛ فإن كانت المُصيبَة صغيرةً؛ كُفِّر عنه بما يُوازِيها، وإن كانت كَبيرةً؛ كُفِّر عنه بما يُوازِيهَا.

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»** رواه التِّرمذيُّ، وقال الألباني: حسَنٌ صحيح[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٢٥٧١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: حسَن صَحيح.

فلا يزال البلاء بالمؤمن حتىٰ يَدَعه يخرج من الدنيا وليس عليه خَطيئة.

وعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «عَادَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَرِيضَةٌ، فَقَالَ: **أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعَلَاءِ، فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يُذْهِبُ اللهُ بِهِ خَطَايَاهُ، كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**». رواه أبو دَاودَ، وصَحَّحهُ الألبَاني[1].

ولم يَقُل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَبَثَ الحَدِيد»؛ بل قالَ: «**خَبثَ الذَّهبِ والفِضَّة**»؛ لأن المؤمنَ مثلُ الذَّهبِ والفِضَّة، ويلحَقُه خبثٌ مثل التُّراب الذِي يغطي الذَّهَب، فالمرَضُ إذا نزَلَ بالمؤمن فإنَّه يُذهبُ خطَاياه، ويبقىٰ الصَّافي مثل الذهبِ والفِضَّة ولا شَكَّ.

والمُؤمن إذا علم هذَا؛ أدرَكَ أن في المِحنَة مِنحَة، وهذا يُعينه علىٰ الصَّبر، بل لو أيقَنَ، يُعينُه علىٰ الرضا، بل لو تيَقَّن، يُعينُه ذلك علىٰ الشُّكر؛ لِمَا في هذهِ المُصيبةِ مِن خيرٍ عَظيم أرادَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بعَبدِه.

والمَقصُود هنا: العبدُ الصَّابر علىٰ أقدَارِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمَّا الذي إذا نَزلَت به المُصيبَة تَسخَّط بقَلبِهِ أو بقَولِه أو بفِعلِه؛ فهَذا لم يُرِد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به الخَيرَ؛ بل أرادَ اللهُ به شَرًّا.

(**وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الشَّرَّ**): بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**أَمسَكَ عَنهُ بِذَنبِهِ**): فَلَم يُصِب منه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(حَتَّىٰ يُوَافِي بِهِ يَومَ القِيَامَةِ): فيَأتِي يومَ القيامة وعَليه ذَنبُه؛ فيُعاقَب به يومَ القيَامَة.

والشَّاهدُ هنَا: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرَ هذا من بابِ ذِكرِ مَا يُعينُ المؤمنَ علىٰ الصَّبر، وقد تقدَّم ذِكرُ أمور تُعين المؤمنَ علىٰ الصَّبر.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قومًا ابتَلَاهُم، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ.

الشرح

هذا الحَديثُ رَواه الترمذيُّ[1]، وابنُ ماجه[2]، وذكرَه الشيخُ الألبَاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السِّلسلة الصَّحيحَة»[3].

(**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ**): وعِظَمُ الجزاء يَشملُ: الثوابَ والعِقَاب.

(**وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قومًا ابتَلَاهُم**): فالبلاءُ دليلٌ علىٰ حبِّ الرَّحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِمَا تقدَّم من أن في البلاء إرادةَ الخَير.

إذن؛ إذا نزلَ البلاءُ بالمؤمنِ فإنه يعلَمُ أمرَين عظيمَيْن:

الأمر الأوَّل: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرادَ به الخيرَ إن صَبَر.

وَالأمر الثَّاني: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحبُّه إن امتثَلَ شَرعَهُ.

وهاتان الفَضيلتَان العَظيمتان لو باعَ الإنسانُ الدنيَا بما فيهَا من أوَّلها إلىٰ

---

(١) برقم (٢٣٩٦).

(٢) برقم (٤٠٣١).

(٣) برقم (١٤٦).

آخرِها بهما لَمَا كَان خَاسِرًا.

وغايةُ الأمرِ أن العبدَ إذا نزَلَت به مصيبةٌ فإنما يحتَاجُ إلىٰ أن يَصبِرَ فقط.

وقد جاء عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ! قَالَ: **إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: **الْأَنْبِيَاءُ**. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: **ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَىٰ بِالْفَقْرِ، حَتَّىٰ مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**». رواهُ ابن ماجه، وصَحَّحه الألباني[1].

فكان الصالحُونَ مع نزولِ المَصَائب بهم يَفرحُ أحدهُم بالبلاءِ إذا نَزل به؛ لأنه يعلَمُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُريد بعَبدِه الخيرَ هُنا، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحبُّ العبدَ إذا ابتَلاه؛ فيفرَحُون.

وقد كان السَّلف يَفعَلُون ذَلك؛ فكَان أحدهم إذا مَرَّ به زَمَن لم تَنزِل به مُصيبة يتفَقَّدُ نَفسَه: ما الذي فَعلتُه؟ ما الذي أَخَّر البَلاء؟؛ وذلك لقُوَّة إيمانهم.

وقد جاء في الحَديثِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، حِينَ يُعطَىٰ أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ، لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»[1].

فيودُّ الذي كان مُعافىٰ في الدُّنيا، إذا رأىٰ المُبتَلىٰ يومَ القيامة وما يُعطَاه من الثَّوابِ العَظِيم علىٰ صَبره علىٰ بلائِه أنه لو كانَ في الدنيَا قَد نُشِر بالمنَاشير.

وهذَا لا يَعني أن العبدَ في الدنيَا يتمنَّىٰ البَلاء، بل هذا لا يَجُوز، وعَليه أن يَسأَلَ الله العافيَة، **لكن المَقصُود**: أن أهلَ البلاء مع الصَّبر ينالونَ ثوابًا عظيمًا يَومَ القيامَة، وهذا يُعينُ المؤمنَ علىٰ الصَّبر.

(فَمَن رَضِيَ): أي: لم يَسخَط، وليسَت هذه مرتبَة الرِّضا الاصطلاحيَّة عند أهلِ العلم، وإنمَا هي الصَّبر بأنوَاعِه: صَبَر، أو رَضِي، أو شَكَر.

(فَلَهُ الرِّضَا): مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا صَبَر عِند المُصيبَة رَضِيَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهُ.

(وَمَن سَخِطَ): وتسَخَّط علىٰ أقدَارِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولم يَصبِر.

(فَلَهُ السَّخَطُ): فيَسخَط اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَليه؛ لأنهُ فعَلَ كبيرةً من كبَائرِ الذنُوب، وهي التسَخُّط عند نُزول المُصيبَة.

إذن؛ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن فِقهِه ومَعرفَته لطريقَةِ العلماءِ ذكرَ الأمورَ الثلاثَةَ التي لابُدَّ من ذِكرِها في مَسألَة الصَّبر:

- ما يتعَلَّق بالتأصيلِ في الصَّبر ودرَجَته.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

- ما يُنَافيه، وقد ذكَرَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلةً علىٰ القَولِ والفِعل.

- ما يُعينُ عَليه.

وكل هذا قد ورَد في هذا البابِ، ولو أنَّ المؤمِن قرَأ هذا البابَ بفِقهِ لاستَراح راحَةً عُظمىٰ في الدنيَا؛ لأن الذي يُزعِجُ المؤمنَ في الدنيَا هو نُزول البَلاء؛ فيَذهبُ عنه هذا الإزعَاج، ويهنَأ بحيَاته، ويُرجَىٰ له الدرجةُ العُليَا يوم القيامة، فيعيشُ حياةً طيبَةً، ويُرجَىٰ له المقَامُ الطيِّبُ في جنَّةِ الخُلد.

فمَا أحوجَنَا إلىٰ هذا البابِ، وإلىٰ فِقهِهِ ومَعرفَةِ حَدِّه!

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، وقد تقدم بيانُها، ومُناسَبتها للبَاب.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الإِيمَانِ باللهِ.

فلا شَكَّ أن الصَّبر علىٰ أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أعظَم شُعَب الإيمان.

الثَّالِثَةُ: الطَّعنُ فِي النَّسَبِ.

وأنه مِن كبَائِر الذنُوب، ومن خِصَالِ الكُفر، ومن أفعال الكُفَّار التي يَنبَغي علىٰ المسلم أن يتنزَّه عنها.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الوَعِيدِ فيمَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعا بِدَعوَىٰ الجَاهِلِيَّةِ.

أنه ليسَ مِنَّا، وليسَ علىٰ طَريقَتِنا، وأنه مَلعُون، والعيَاذُ بالله.

الخَامِسَةُ: عَلامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبدِهِ الخَيرَ.

وهي أن يُنزِلَ به البَلاءَ، وأن يُصَبِّره علىٰ ذَلك؛ ولذلكَ كانَ الصَّالحونَ يَشتاقُونَ إلىٰ البَلاء.

السَّادِسَةُ: علامة إِرَادَةِ اللهِ بِعبدِهِ الشَّرَّ.

علامَة إرادَة الله بعَبدِه الشَّر بِعدِله، وهو أن يُمسِكَ عنه ولا يُنزل به البَلاء

حتىٰ يُوافي يومَ القيَامَة بذَنبِهِ.

وهذا لا يَعني أن المُؤمنَ يسألُ الله البَلاء؛ بل يسألُ العَافية، لَكن إذا نزَلَ به البلاءُ بإرادةِ الله عَزَّوَجَلَّ صَبَر، وإن كَمُل رَضِي، وَإن عَظُم إيمانُه شَكَر.

السَّابِعَةُ: عَلامَةُ حُبِّ اللهِ لِلعَبدِ.

من علامَاتِ حُب الله للعبدِ أن يَبتَليَه؛ فنزول البلاءِ علامَةٌ علىٰ حبِّ الله للعَبد، ولذلكَ لا ينبغي لنَا أن نَحتَقِرَ مُبتَلًىٰ، ونَحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ العَافية، فإنَّ نزولَ البَلاءِ بالمُؤمن الذي لا يفعلُ ما يُخالف شَرعَ الله علامةٌ علىٰ حب الله للمبتلىٰ.

الثَّامِنَةُ: تَحرِيمُ السَّخَطِ.

وأنهُ من كبَائرِ الذنُوب، وقد يصِلُ إلىٰ الكُفر بالله -والعيَاذُ بالله-:

- إما بأن يَتركَ دينَ الله لنُزول المُصيبَة بِهِ أو بِغَيره، كما يفعَلُ المَلاحِدَة اليَوم، فإن كثيرًا ممن لعِبَ بهم الشيطَان إنَّما ألحَدُوا لمَا يَرونَه من المَصَائب؛ وهذا لقِلَّة عَقلِهم وجَهلِهم بالشَّرع.

- وإما بأن يَعتقدَ في الله ما هُو كُفرٌ؛ كأن يعتقد -وأعوذُ بالله من هذا الاعتقَاد- أن الله ظَالمٌ، ولولا البيان ما قُلنا هذه الكَلمَة، فهَذا يصلُ إلىٰ الكُفر، وإذا نزَلَ عن هذا فهُو كَبيرةٌ من كبَائر الذنُوب.

التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضا بالبلاءِ.

ومن ثوابِ الرضَا بالبَلاء وأعظَمه وأكمَله وأكرَمه: أن الله يَرضَىٰ عن العَبدِ،

وإذا رَضيَ الله عن عَبدِه أرضَاه، وليس معنىٰ إرضَائه أنهُ لا تَنزل به مُصيبَة، ولكن المَعنىٰ: أنه يَرضِيه في الدنيَا بالاستقَامَة ويُرضِيه في الآخرَة بعُلُوِّ المَنزلَةِ، فمَن ابتُلي فرَضِي فجزاؤه من جَزَائه، وأعظَمُ جزائِه الرضَا، أن يَرضىٰ الله عنهُ، ومَن رضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه جاءَه كُلُّ خَيرٍ في الدنيَا والآخرَةِ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ.

الشرح

عقَدَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا البابَ والبابَ الذي يَليه؛ ليُبَيِّن شِركَ الإرادَةِ والقَصدِ.

فللإرادَةِ شِركٌ بيَّنَه شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هَذَين البَابَين.

والرِّيَاء: مصدر (رَاءَىٰ مُراءَاة ورِيَاء)، وأصلُه مُشتَق من (الرُّؤيَة).

ومَعناه في اللغَة: ظهورُ العمل الصَّالح علىٰ خلاف ما يُبطن، أو إظهار خلاف ما في الباطن.

ولذلك إذا لَقِيتَ إنسَانًا فبَشَشتَ في وجهِه وكلَّمته بكلام طَيِّب وأنت تُبغضُه في قلبك؛ فأنتَ رَاءَيته -لُغَةً-؛ لأنك أظهَرتَ له خلافَ ما في بَاطنك.

أما الرِّياء في الشَّرع: فهو إظهارُ العملِ الصالحِ أمامَ الناس بقَصد طَلَب مَدحِهِم، وأن يذكُرَهُ الناسُ بخَير.

وقولُنا: «بقَصدِ طَلَب مَدحِهم»: قَيْد مُهِم؛ لأن الإنسانَ لو أظهرَ العملَ الصالحَ أمامَ الناس لقَصدٍ مَشروع؛ وليَقتَدي بِهِ غَيرُه، فهذا ليسَ رياءً؛ بل مَحمُود، ويُثَابُ عليه الإنسانُ.

وهذا أمر مَحمُود؛ لأنه منَ الأمرِ بالمَعرُوف، ولكنَّه أمرٌ دقيقٌ لا يَنبَغي للإنسانِ أن يَغفلَ فيه؛ فإن بينَ الأمرَيْن شَعرةً، ومن لم يُجَاهد نفسَه فقَد يَقَعُ،

والسلامَةُ لا يَعدِلُها شيءٌ.

ومِن الرِّياء: التَّسمِيع.

والفرقُ بينَهُما: أن الرياءَ: يتعلَّق بإظهارِ العمَلِ الصالح ليُرىٰ؛ أمَّا التسميع: فيتعَلَّق بالكَلام.

والتَّسميعُ لهُ أربَعُ صُوَر:

الصَّورَةُ الأولىٰ: أن يُسَمِّعَ الإنسانُ بعَمله الصالحِ أثناء العمَلِ بقَصدِ أن يُمدَح.

وذلكَ كمَن يَرفعُ صَوتَه بالصَّلاة في الليل ليَسمعَ النَّاسُ قراءَتَه، ويَمدَحُوه علىٰ أنَّه من العُبَّاد.

والصُّورة الثانيَة: أن يقعَ بعدَ العمَل، وقد كان مَقصُودًا عند العمَل؛ أي: أنَّه نَوىٰ في نفسِه مع العمَل أنه سيتحَدَّث به مع الناسِ ويُخبِرهم عنه من الغَد!

فهَذا لم يقع أثنَاء العمَل أنه سَمَّع، ولكن قَصَد التسمِيعَ أثناء العمَل، فهَذا من التسميع المُحرَّم الذي يُبطِلُ العمَل علىٰ ما يَأتي تَفصِيلُه.

والصُّورَة الثالثَة: أن يُسَمِّعَ بعَمَله بعد العمَل من غيرِ أن يكُونَ ذَلك مَقصُودًا عندَ العمَل، فيَتحَدَّثَ بعَمَلِه الصَّالحِ بَعد فراغِهِ مِنه من أجل أن يُمدَحَ؛ فهَذا ليسَ من التسميعِ، وليس لهُ أثَر في العمَل، لكنَّه حرَامٌ هو بِذاته؛ لأنَّ العملَ قد مَضَىٰ وانقَضَىٰ بشُروط تمَامِه؛ فلا أثَرَ له.

والصُّورَة الرَّابعَة: أن يُسمِّع بعمَلِه لقَصدٍ مَشرُوعٍ، وليسَ لقَصدِ المَدح؛

ولَكِن بقَصدِ أن يُشَجِّع النَّاس علىٰ العَمَل الصَّالح؛ كمَن يتحدث عن صَدقَته أمام أناسٍ أغنيَاءَ فيهم بُخل؛ ليَحثَّهم علىٰ الإنفاقِ في سَبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا التسميع بقَصدِ أن يُشَجِّعَهم علىٰ الصدقة، لا بقَصدِ أن يُمدَح، ولا بقَصدِ أن يُثنَىٰ عليه؛ فهذا عملٌ صَالحٌ يُؤجَر عليه، ولو استجَابُوا واقتَدوا به فإنه يكونُ له أجرُهم، فيَجبُ التفريقُ بين هذه الأمُور.

والرِّياءُ والسُّمعَة من الأعمَالِ القبيحَة، وقد بيَّن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُوءَ عاقبةِ الريَاء والمُرائِين.

قال صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فعرَّفَهُ نِعمَهُ فعرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ

بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّار»(١).

وهذه كُلهَا أعمالٌ صالحَة طيِّبة؛ بل مِن أشرَفِ الأعمال وأعظَمِها، ولكن لمَّا كان قصدُ أصحابِها هو نَيل الثناءِ عَليها، ولم يُريدُوا بها وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ كانَت أعمَالُهم وبالًا عَليهم؛ لأنها ليسَت ابتغَاءَ وجهِ الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا المَآلِ الشَّديد يَجعلُ المؤمن يخَافُ الريَاء خَوفًا شَديدًا، ويحذره حذرًا عظيمًا.

وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَىٰ رَاءَىٰ اللهُ بِهِ»**. روَاه مُسلمٌ(٢).

فمَن سمَّع الناسَ في الدنيَا ليُمدَح بعمَلِه الصَّالح؛ سَمَّع اللهُ به يومَ القيامة ليُفضَحَ علىٰ رءوس الخَلائق، فَيحَقِّرُه ويُصغِّرُه في ذلك المَوقفِ العَظيم، ومن راءَىٰ بعمَلِه الصَّالحِ الناسَ ليُمدَح؛ راءىٰ الله به يومَ القيامة علىٰ رءوسِ الخلائقِ ليُفضَح، فالمُرائي -والعياذ بالله- مُتَوعَّدٌ بالفَضيحة في العَرصَات، ومتوعَّد بالنَّار.

وقد سمىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرياء شِركًا.

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: يَقُومُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) برقم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الرَّجُلُ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ».
رواه ابن خُزَيمَة، والبَيهَقيُّ، وحسَّنَه الألباني(١).

فحَذَّر النبيُّ ﷺ أمَّتَه من شِركِ السَّرائر، وفَسَّر هذا الشرك بمثالٍ؛ وهو: أن يقوم الرجل فيزين صلاتَه، ويُطيل قراءَته وركُوعَه وسجودَه، وليُرَىٰ أنه خاشِعٌ، وذلك لِمَا يَرىٰ من نظَر الناس إليهِ، فهذا شِركُ السَّرائر.

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ!** قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: **الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»**(٢).

وهذا يَدُل علىٰ أن الرياءَ من أقبَحِ أنواعِ الشِّركِ الأصغَر؛ لأن النَّبي ﷺ كأنه خَصَّه به؛ فقَال: **«الرِّيَاء»**.

فالأصل في الرِّيَاء: أنه شِركٌ أصغر، وقَد يصلُ إلىٰ درجَة لا تَصدُرُ من مُؤمن؛ بل هي النِّفاقُ الخَالصُ، وذلكَ إذا غَلبَ علىٰ أعمالِ الإنسان، سَواء في الأصلِ أو الفَرع؛ فيَأتي بالشَّهَاداتِ رِياءً، يُصَلي رياءً، ولا يذكُرُ اللهَ إلا قليلًا، وهذه الدرجَةُ لا تصدُرُ مِن مُؤمنٍ؛ ومَن كان مُتَّصفًا بهذا؛ فهُو منافقٌ نفَاقًا خَالصًا.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (٩٣٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٧٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، وحسَّنه محققو المسند، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢).

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عَن المُنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فالأصلُ في الرياءِ أنهُ شِركٌ أصغر، ولا يَنبَغي للإنسانِ أن يتهاوَنَ فيه ويَقُول: هو شِركٌ أصغَر؛ لأنه يَكفِي أنه شركٌ أصغرُ حتَّىٰ يحذَرَهُ المُسلِم؛ فكيفَ وهُو قد يترقَّىٰ حتىٰ يُدخِلَ الإنسانَ في عِدادِ المُنافِقين، ويُخرِجُه من المُؤمِنين، وذَلك إذَا غَلَبَ علىٰ أعمالِهِ كُلِّها.

وأمَّا أثرُ الرِّيَاءُ علىٰ الأعمالِ: فإن كانَ الرياءُ في العملِ كُلِّه فإنه يُبطِلُه باتفاق العُلمَاء؛ سَواء كان يريدُ مع الريَاءِ وجهَ الله -وهذا الغَالبُ علىٰ المُسلمين إذا وقع هذا مِنهُم-، أو كانَ يُريدُ الريَاءَ فقَط، فإنَّ هذا العملَ باطلٌ حابِط باتِّفاق العلمَاء.

فإن كان العمَلُ وَاجبًا؛ وجَبَ علىٰ فاعلِ هذا أن يتوبَ إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن يعيدَ هذا العمَل.

ومثَالُ ذلكَ: إنسان دخَلَ في الصَّلاة المَكتُوبة، فرَأىٰ مَنْ يُعظِّم؛ رَأىٰ المَلكَ، أو رَأىٰ رَئيسَ الدَّولة، أو رَأىٰ شَيخًا، فرَاءىٰ من أولِ الصَّلاة؛ من التَّكبيرِ إلىٰ التَّسليم؛ فهذا صَلاتُه بَاطِلَة، وتنقلِبُ من كَونِها عملًا صَالحًا يُثابُ عَليه إلىٰ كونِها عملًا يُعاقَب عليه.

والواجِبُ عَليه في هذِهِ الحَال: أن يتُوبَ إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حتَّىٰ يُزيلَ الإثمَ، وأن يُعيدَ هَذه الصَّلاة؛ فإن ذِمَّتَه ما زَالت مَشغُولة بهذه الصَّلاة.

وإن كان العمل مُستَحبًا؛ وليسَ واجبًا؛ كسُنَّةٍ من السُّننِ الرَّواتب، أو كصَلاة التَّراويح.

فالوَاجبُ عَليه في هذه الحَال: أن يتُوبَ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَجبُ عَليه أن يُعيدَها؛ لأنَّها نافلةٌ.

أمَّا إن وقعَ الريَاءُ في بعضِ العمَل؛ ففِيهِ تفصيلٌ:

أولًا: أن يوجدَ الرياء في أصلِ العَمَل الذي يتصلُ بعضُه ببَعضٍ؛ مثل: الصلاة؛ فهي عملٌ وَاحدٌ مُفتَتَح بالتَّكبير ومُختَتم بالتَّسليم، فإذا وجدَ الريَاءُ في أصلِ العمل، فعندَما كبَّر تكبيرةَ الإحرَام كانَ يُرائِي؛ فهذا العملُ بَاطِل باتفَاقِ السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

والوَاجب علىٰ مَن فعَل ذَلك: أن يتوبَ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يَخرُج من هذا العمَل فورًا، وأن يبدَأه من جَديد؛ وذلكَ لأن هذه الصَّلاة لم تَنعَقد أصلًا، بل بَدَأت بَاطِلة، فإذا استمرَّ فإنَّ البُطلان يستَمرُّ حتىٰ لو دفَعَ الريَاء بعدَ ذَلك.

ثانيًا: أن يوجدَ الرياءُ في أثناءِ العمَل، ويَدفعه صَاحبُه أثناء العمَل.

ومثَالُ ذلكَ: إنسَان كبَّر في الصلاة مُخلصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُم في الرَّكعة الثَّانية دخلَ عليه الرياءُ بسَببِ رُؤيَة إنسَانٍ يرَاه، فزادَ في إظهارِ الخُشُوع وتَطبيقِ السُّنة مراءَاة لهذا الشخص، لكن سُرعانَ مَا تَذكَّر، واستعاذَ بالله من الشيطان الرَّجيم، ودفَعَ هذا الريَاء عن نفسه؛ فهَذا عملُه صَحيحٌ ولا يَضُر هذا القصدُ في عَملِهِ؛ لأنه قد تابَ، والتائِبُ من الذَّنبِ كمَن لا ذَنبَ له، وقَد بدَأَ مُخلِصًا وختَمَ

مُخلِصًا، فيصدُق عليه أنهُ قَد عملَ العملَ الصَّالح خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ.

ثَالثًا: أن يوجَدَ الرياءُ في أثناء العَمَل، لكنَّه يَستَمِرُّ إلىٰ الفرَاغِ مِن العمَلِ، وهذا في العمَل الذي يتصل بَعضُه ببَعضٍ.

ومثَالُ ذلكَ: إنسَانٌ دخلَ في الصَّلاة مخلصًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفي الرَّكعَة الثانية دخلَ عليه الريَاءُ لرُؤية شَخصٍ له، ثُم استمَرَّ مُرائيًا إلىٰ أن سَلَّمَ من الصَّلاة تمامًا.

وهذا هو الفَرقُ بين هذا والذِي قَبله؛ فالذي قبلَهُ لم يَختِم مُرائيًا، ولذلك يُسمِّيه العُلمَاء (**خاطِرًا**)؛ ثم اندفعَ هذا الخَاطر.

وأمَّا في هذه الصُّورة؛ فإن صاحبَها لم يَدفَع هذا الخَاطر؛ بل رَضيَ بالريَاءِ واستمَرَّ عليه إلىٰ أن فَرغ من صلاته، فهُو لم يَتُب في أثناءِ العمَل.

وقَد اختلفَ العلمَاءُ في حُكمِ عَملِه: والرَّاجح -والله أعلم-: **أنَّ عمَلَهُ يَبطُل**؛ لأنه عمِلَ عمَلًا أشركَ فيه مع الله غَيرَه، ومن عمَل عملًا أشركَ فيه مع الله غَيرَه تَركَه اللهُ وشِركَه، فالله مِنه بَريء، وهُو لمَن أشرَكَ.

والوَاجِبُ عَليه هنا هو مَا تقدَّم بيَانه:

- **فإن كانَ العملُ واجبًا**؛ وَجَبَ عليهِ أن يتوبَ إلىٰ الله وأن يُعيد هذا العمل.

- **وإن كانَ العَمل مُستحبًّا**؛ وجبَ عليه أن يتُوب إلىٰ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

رابعًا: أن يوجَدَ الرياءُ في العملِ الذي يتجزَّأ، وهنا يَبطُل ما وقع فيه الريَاءُ دونَ غَيرِه.

ومثَالُ ذلكَ: بعدَ الصلاة هناك أذكَار، مثل: أستغفِرُ الله، أستغفِرُ الله، أستغفِرُ الله (ثَلاث مَرَّات).

فقال إنسَانٌ: أستغفر الله (الأولىٰ) -مُخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ-، ثم لَمَح شخصًا بجِوارِه، فدخَلَ عليه الريَاءُ في (الثانيَة)، ثم دفعه ورجَعَ إلىٰ الإخلاصِ في (الثَّالثة)، **فمَا الحُكم؟!**

نَقُول: قوله: أستغفِرُ الله (الأوَّل) قولٌ صَحيح، وقَوله: أستغفِرُ الله (الثَّاني) بَاطِل حَابِط، وقولُه: أستغفِرُ الله (الثَّالث) صَحيحٌ.

والوَاجبُ عليهِ في هذِهِ الحَال: أن يتُوبَ إلىٰ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ليَزولَ الذَّنبُ، ويَقُول: أستغفِرُ الله (الثالثَة) حتَّىٰ يأتِيَ بالذِّكر المَشرُوع، وهذا ليسَ وَاجبًا لكنَّه مُستَحَب.

فهذا ما يتعَلَّق بالريَاء من جهة أثَرِه في العَمَل، وقد نذكر بَعضَ الأحكَام الأخرَىٰ المُتعَلِّقة به أثنَاءَ التَّعليقِ علىٰ الأدِلَّة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآيَةَ [الكهف: ١١٠].

الشرح

هذهِ الآيَةُ العظيمةُ التي مُلِئَت بالتَّوحيد، يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ فيهَا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وقد بدَأ بِها الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ليُبيِّن الأصلَ في هذا البابِ وغَيرِه، وهو: ألَّا يُعبَد إلا الله، وألا يُصرَف شَيءٌ من العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

ودَلالة هذهِ الآية علىٰ هذَا الأصلِ من ثلاثَة أوجُه:

الوَجه الأول: في قولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمِرًا نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يَقُول: (﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾): فالمَعبُود بحقٍّ واحِد سُبحانه هو الله، والمَعبُودات كلها التي يعبُدها الناسُ لو جُمِعَت في إلهٍ واحدٍ لما كانت مُستَحِقَّة لقليلِ عبادَة؛ فكيف وهي مُفَرَّقة؟!

(﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾): والإلهُ: هو المعبُودُ المُستَحقُّ للعبَادة، ومَا عدَا الله ممَّن تُصرَف لهم العبَادات، فإنَّهم لا يستحِقُّون العبادَةَ، وهذا الصَّرفُ شِركٌ.

والوَجهُ الثَّاني: في قول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾): والعَمل الصَّالح:

هو الذي يكونُ صاحبُه مُخلصًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مُتَّبِعًا لرسُولِ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذان هُما شرطَا قبولِ العمَلِ الصَّالح؛ أن يجتمع فيه إصابَةٌ وإخلاصٌ معًا.

والوَجه الثَّالِث: في قولِ الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾): (أَحَدًا) نكرة في سياق النَّهي فَتَعُمُّ كلَّ أحَد مما يُعبَد من دُونِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ من حَجَر أو شجَر، أو صنَم أو بقَر أو وَثن، أو شَمس أو قمر، أو غير ذلك.

وفي هذه الآية العظيمة يقول رَبُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، فلم يَقُل: (ولا يُشرِك بعبَادة الله)؛ لأنَّ الذي خلقَك وربَّاك بالنِّعَم هو الله عَزَّوَجَلَّ، فهُو المُستَحقُّ للعبَادَة وحدَهُ لا شَريكَ له.

فكَيفَ يَخلُق ويُعبَد غيرُه؟!، وكيف يُنعِم ويرزُقُ ويُعبد سواه؟!

ثم تأمل في هذه الآية كيف بُدئت بالتوحيد وخُتِمَت كذلك بالتوحيد؛ وفيها بيانٌ واضحٌ جَلي أن التوحيدَ لابُد فيه من تَوحيد الله والبَراءة من الشِّرك؛ فلا يَكفي أن تقول «لا إلهَ إلَّا الله» ولا تتبَرَّأ من الشِّرك، لابد من التَّحليَة والتَّخليَة؛ فلابُدَّ من إثبَات التَّوحيد والبَراءة من الشِّرك بكل صُوَره.

وفي هذه الآية من الفَوائدِ في قَولِ ربِّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فالمُخاطب هو نبينا محمدٌ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ وفي هذا بيانٌ لمَقام النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفيه رَدٌّ علىٰ الغُلاة، ورَدٌّ علىٰ الجُفاة:

- رَد علىٰ الغُلاة الذين يَقُولون: إن محمدًا صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليس بَشرًا؛ بل هُو نُور خالص كمَا يَزعمُون، واللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي خلَقَه وكرَّمه يَقُول له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ ويَكفي هذا، ثم قال: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ حتىٰ لا يأتي متأوِّلٌ فيَقُول بخلافِ البشَريَّة المعهُودة في سَائرِ الناس.

- وفي قوله تعَالىٰ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ رَدٌّ علىٰ الجُفاة الذين يجعَلُون النبي ﷺ كسائِر الناسِ، ويجعلونَ كَلامَه ككلام سَائر النَّاس؛ فيتعاملُون مع السُّنة النبويَّة بحَسَب عُقُولهم، فيقبَلُون ما يشاءونَ، ويَرفُضون ما يشَاءون!

وأمَّا أهلُ العَدلِ والحُبِّ الحقيقيِّ للنبيِّ ﷺ؛ فإنَّهم يَقُولون: إنه بشَرٌ لا يُعبَد، ونَبي لا يُكَذَّب ﷺ، فيَعتقِدُون أنه بشَر لكنَّه خَيرُ البَشَر، ويَعتقدُون أنه من وَلَدِ آدمَ؛ بل هو سيدُ ولدِ آدم ﷺ، وشَرَّفه ربُّه بأن جعلَهُ خاتمَ الأنبياء والمُرسَلين، ولكنَّه لا يَستحِقُّ شَيئًا من العبَادة.

ومُناسبَة هذه الآية للبَاب: أنها بيَّنت أن الرياءَ مُحرَّمٌ؛ لأنه من الشِّرك كمَا سيأتينَا، وهذه الآية بالوجُوه الثلاثَةِ التي ذكرنَاها دَلَّت علىٰ النَّهي المُؤكَّد عن الشِّرك، والريَاءُ يُنافي الإخلاصَ؛ فيَدخُل في عمُومِ هذه الآيَةِ.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ مَرفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ مَعِي فِيهِ غَيرِي؛ تَرَكتُهُ وَشِركَهُ». رَوَاهُ مُسلِمٌ.

الشرح

هذَا الحديثُ رواهُ مسلم «صحيحه»[1]، ويَرويه نَبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو حديثٌ قُدسي، لفظُه ومعنَاه من الله عَزَّ وَجَلَّ، غير أنَّا لم نُتعَبَّد بلَفظِه كالقُرآن، ولم يُتحدَّ الناسُ بلفظِهِ كالقُرآن.

(**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ**): أي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الغِنىٰ المُطلَق عن الشِّرك؛ لأنه المُستَحقُّ للعبادةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلُّ مَن سِواه لا يستحِقُّ شيئًا من العبادَة، فاللهُ أغنَىٰ الشركَاءِ عن الشِّركِ ؛ ومعنىٰ «أغنَىٰ»؛ أي: أنَّ له الغِنَىٰ المُطلَقَ التامَّ الكامِلَ عن الشِّرك.

(**مَن عَمِلَ عَمَلًا**): (**عَمَلًا**): نكرَة في سيَاق الشَّرط؛ فيَعُمُّ كلَّ عمَل يُعمَل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أصلِه فإنه يَدخُل في هذا صغيرًا كان أو كبيرًا؛ فالدُّعاء عمَل يَدخُل في هذا؛ والذَّبحُ عمَل يدخلُ في هذا؛ والصَّلاة عمَل تَدخُل في هذَا؛ والصَّوم عمَلٌ يَدخُل في هذا.

(**أَشرَكَ مَعِي فِيهِ غَيرِي**): أي: أرادَ وَجهَ الله وأرادَ غيرَه فجمعَ بينَهُما؛ فهذا لم

---

(١) برقم (٢٩٨٥).

يُرِد غير الله فقط وإنما أشرك معه غيره، فأَرَاد وجهَ الله وأرادَ غَيرَ الله.

(تَرَكتُهُ وَشِركَهُ): أي: أنهُ لا جزَاء له مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يُقالُ له: اطلُب جزاءَكَ ممَّن أشرَكتَه مع الله، وهيهَاتَ أن يكونَ ذلك.

ولذلك جاءَ في الحَديثِ عَنْ أَبِي سَعْدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ الأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِذَا جَمَعَ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَىٰ مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**». رواهُ التِّرمذي، وحسَّنه الألباني(١).

ففي يومِ القيَامة يُنادِي مُنادٍ: مَن عمِلَ لله وأشركَ فيه أحدًا معَ الله؛ فليَطلُب ثوابَه من عندِ غير الله، والناسُ كُلُّهم في ذلك اليَوم فُقراء، لا يملكُونَ شيئًا؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغنىٰ الشركَاءِ عن الشِّرك.

وجَاء الحَديثُ الذي مَعنَا بلفظ آخرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**». رواهُ ابنُ ماجه، وصَحَّحه الألباني(٢).

فهذا يدُلُّ علىٰ أن مَن عمل لله عملًا صَالحًا، لَكِن أشركَ فيه غَيرَه معهُ؛ فإن

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٥٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

اللهَ لا يَقبَله، وهذا يَدُل أيضًا علىٰ أنه يَأثَم؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: «**تَركتُه وشِركَه**»، وهذا يَدُل علىٰ أنه يُغضِبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو آثِمٌ بهَذا.

وهذه العقوبَةُ فيمَن إذا عمِلَ العملَ لله وأشرك فيه مَع الله؛ فكيف بمَن عمِلَ العمَلَ لغَيرِ الله أصلًا؟!

كيف بالذِي يأتِي ويسأَلُ أهلَ القُبور، ويطلبُ منهم المدَد والولدَ، ويجعل الدعاء لهم خالصًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ؟!

ووجهُ مُناسبة هذَا الحديثِ للبَاب: أن مَن رَاءىٰ فقَد أشركَ معَ الله؛ فيكونُ عملُهُ حَابطًا لا يَقبَلُه الله، إلا إذا تابَ أثناءَ العَملِ ولم يَكُن في أصلِ العَمل، وما عدَا ذلك فكُلُّ صُوَر الرياء تَدخُل في هذا الحَديث.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ مَرفُوعًا: «أَلَا أُخبِرُكُم بِمَا هُوَ أَخوَفُ عَلَيكُم عِندِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَىٰ يا رسول الله. قَالَ: «الشِّركُ الخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحمَدُ.

الشرح

هذا الحديثُ رواه أحمدُ، وابن مَاجَه، وصَحَّحه الألبَاني[1].

وهذا الحَديثُ الصحيحُ فيه أن أبَا سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ. فَقَالَ: **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟** قَالَ: قُلْنَا: بَلَىٰ، فَقَالَ: **الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**».

(ألا أخبركم؟) ألا: أدَاة عَرضٍ يُقصَدُ بها التنبيه علىٰ أمرٍ مُهِم وعظيم.

وفي الحَديثِ بيانُ أن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخَافُ علىٰ أمَّتِه من الفِتَن، ومِن أعظمِ ما كانَ يَخافُه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أُمَّته من الفتن (فِتنَة الدجَّال)، التي هي أعظَمُ فِتنةٍ مَا بين خلقِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ قيام السَّاعة، ومَا من نبي إلَّا كان حقًّا عليه أن يُحذِّر أمَّته من فتنة المَسيحِ الدجَّال؛ ولذَا شُرِعَ لنَا أن نَستعيذَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فتنَةِ المَسيح الدجَّال في كل صَلَاة، ولكن هُناك أمر هو أخوفُ عند النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الأمَّةِ من المَسيحِ الدجَّال.

---

(١) أخرجه أحمد (١١٢٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

و(**المسيح الدَّجَّال**) سُمِّيَ (مَسيحًا)؛ لأن إحدَىٰ عَينيه مَمسُوحة.

أو: لأنه يمسَحُ الأرض في أربعين يومًا.

ولا مانع من الأمرين.

ولفظة (**المَسِيح**) تُطلق علىٰ الصِّدِّيق، وهو عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلىٰ الضِّلِّيل الكذَّاب وهو الأعورُ الدَّجَّال[1].

و«**الدَّجَّال**»: مُشتق من (دَجَل)، ودَجَلَ الشيءَ: غطَّاه.

وسُمِّي «دجَّالًا»: لتَمويهه علىٰ الناس وتَلبيسه وتزيينه الباطلَ.

وقيل: لأنه يُغطِّي الأرض بجُمُوعه.

وقيل: لأنه يُغطِّي علىٰ الناس بكُفرِه.

وقيل: لأنه يدَّعي الربوبية، سُمِّي بذلك لكَذبه، وكل هذه المعاني متقاربةٌ.

وقيل: الدجَّال: المُموِّه، يُقال: دَجلتَ السيفَ: موَّهتَه وطليتَه بماء الذهب، وجمعه: دجَّالون، ودَجَاجلة[2].

وخروجه من الأشراط العظيمة المُؤذِنة بقيام الساعة، وفتنَتُهُ من أعظم الفتن والمِحَن التي تمُرُّ علىٰ الناس.

(قَالَوا: بَلَىٰ يا رسول الله. قَالَ: الشِّركُ الخَفِيُّ): فسَمَّاه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٣٢٦)، و«لسان العرب» لابن منظور (٢/ ٥٩٤).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١٠٢)، و«لسان العرب» (١١/ ٢٣٦).

شِركًا، ووَصفَه بكَونِه خَفيًّا؛ وذلك لأن طَرائِقَه خَفيَّة، ويتَسَلَّل إلىٰ القَلب تَسَلُّلًا، فهو شِركٌ خَفي؛ ولأن مكَانَه القَلب، فَلا يُطَّلَعُ عليه، فهو شِركٌ خَفي.

وإنما كان شِركًا خفيًّا لأمرَين:

الأمر الأول: أنَّ طرائقَهُ خَفيَّة؛ فيتَسلَّلُ إلىٰ قَلب الإنسَان؛ ولذلك قَلَّ من يَسلَمُ منه منَ الناس.

الأمر الثاني: أن مَكانَهُ القلبُ؛ فهو خَفي لا يَطَّلع عليه أحَدٌ من النَّاس.

ثُم فسَّره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمِثَال، فقالَ: (**يَقُومُ الرَّجُلُ**): وهذا عندَ أهلِ العِلم يُسَمَّىٰ (مَفهُوم اللَّقب) وليسَ له مَفهُوم مُخَالفة؛ فهذا لا يُخرِجُ المَرأة؛ بل المَرأةُ مثلُ الرجُل في هذا.

(**فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ رَجُلٍ**): وهذا هُو الريَاء.

والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطبُ أصحَابَهُ الذينَ هُم أزكَىٰ الأمَّةِ علىٰ الإطلاق بأنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخافُ عليهِمُ الريَاء أعظَم مِن خَوفِه عليهِم منَ المَسيح الدجَّال، مع أن فتنَة المَسيح الدجَّال أشَدُّ وأعظَم فتنَة، وذلك من وَجهَين:

الوَجه الأول: أن المَسيح الدجَّال له عَلامَاتٌ ظَاهرَة تَدُل علىٰ دَجَله، وتدفعُ فِتنَته، فهو كذَّاب ظَاهرُ الكَذب، حيث يَدَّعي أنه إلَه، وهذا كذبٌ ظَاهر، وهو مَمسوحُ العَين اليُمنىٰ، فهُو ناقصٌ، ونَقصُه ظَاهرٌ، ومَكتُوب بين عَينَيه (كافر - ك ف ر) يَقرؤها كُلُّ مُؤمن قارئًا كانَ أم غير قَارئ.

أما الريَاءُ فهُو أمرٌ خَفي ليسَت لهُ عَلاماتٌ؛ بل يتسَلَّلُ إلىٰ القَلبِ تَسَلُّلًا

وتُمدُّه الشهوَةُ الإنسانيَّة، فطَبيعة الإنسانُ أنهُ يُحبُّ أن يُمدَح، فهو أشَدُّ في هذه الناحيَةِ من فتنةِ المَسيحِ الدجَّال.

والوجه الثاني: أن فتنَةَ المَسيح الدجَّال لهَا زَمن تقَعُ فيه، وقد يُدركُ الإنسانُ هذا الزمَنَ وقَد لا يُدرِكه، أمَّا الرياءُ فيُمكنُ أن يقعَ فيه الإنسانُ في أيِّ وقت، وفي أي مكَان، بل في أشرفِ الأوقاتِ وفي أشرَفِ الأمكِنَة يُمكنُ أن يقع الإنسانُ فِي الريَاء.

وإِذَا كان ذلك كذَلك، فإنَّه يجبُ علىٰ كلِّ واحدٍ منَّا أن يخافَ الريَاء علىٰ نفسِه، وأن يكُونَ حارسًا لقَلبِه، وأن يُجاهدَ نَفسَه جهادًا عَظيمًا في هذا البَاب.

وإياكَ أن تأمنَ الريَاء علىٰ نفسِكَ، وأن تدَّعي أنكَ سليمٌ من الريَاء؛ فإنَّ مَن أمِنَ أوشَكَ أن يُفتَن، ولَكن خَف عَلىٰ نَفسِك من الريَاءِ، وكُلما كَثُرت أعمالُك الصالحَة فليَشتَدَّ خَوفُك، وكُن حارسًا لقَلبِك، مانعًا من تسَلُّل الريَاءِ إلَيه؛ فإن تسَلَّلَ الرياءُ إلَيه فاجتَهِد في إخرَاجِه مِن قَلبِك، وجاهِد نَفسَك في هَذا الشَّأنِ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ الكهفِ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقَد فَسَّرنَاها.

الثَّانِيَةُ: هَذَا الأَمرُ العظيمُ فِي ردِّ العَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيءٌ لِغَيرِ اللهِ.

فمَن رُدَّ عليه عملُه فقَد أُصيبَ بمُصيبَة عُظمَىٰ، أعظم من مصَائب الدنيا كُلِّها، والمُؤمنُ إذا علمَ سببَ هذه المُصيبَة الكُبرىٰ وهي الريَاء؛ وجَبَ عليه أن يُخلِّصَ أعمَالَهُ منه، وأن يُجاهدَ في ذلك جهَادًا عَظيمًا.

الثَّالِثَةُ: ذِكرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، وَهوَ كمالُ الغِنَىٰ.

فإذا عملَ العبدُ عمَلًا صالحًا، وأشرك فيه مع الله عَزَّوَجَلَّ غيرَهُ أيًّا كانَ؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرُد عَليه عمَلَهُ، ويَغضَبُ عَليه؛ لكمَالِ غِناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَهُو أغنَىٰ الشركاء عن الشِّرك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الأَسبَابِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ خيرُ الشُّرَكَاءِ.

أي: أنَّ من أسبابِ رَدِّ العَمل الذي يَقَعُ فيه شيءٌ من الشِّرك أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خيرُ الشُّركاء، فلا يُنَازع شريكه؛ بَل إذا وجِدَ شَريكٌ في العمَل ترك العملَ للشريك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو خيرُ الشُّركاء.

الخَامِسَةُ: خَوفُ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَصحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

ونحنُ تبعٌ للصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في هذَا الخَوف، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان

يخافُ علينا الرِّياء؛ لأنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمُؤمنين رَءُوف رَحِيم؛ يريدُ للمُؤمنين جميعًا أن يتخَلَّصوا ممَّا يُغضبُ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وكانَ يخافُ علىٰ أمَّتِه الفِتَن، ويُحذر أمَّته منها، وإذَا كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خافَ الرياءَ علىٰ أصحَابِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الذينَ يُرَبِّيهم ويُعَلِّمُهم، فمِن بابِ أَولَىٰ نحنُ في هذا الزَّمان ومَن يأتي بعدنَا.

السَّادِسَةُ: أنه فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَن يُصَلِّيَ المرءُ للهِ، لَكِن يُزِيِّنُهَا لِمَا يَرَىٰ مِن نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيهِ.

وهذه الفائدَةُ فيهَا أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَّرَ الرياءَ والشِّركَ الخَفيَّ، بأن يُصَلِّي المرءُ للهِ، فليسَت صلاتُه خالصةً لغَير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولَكِن يَدخُلها الشركُ، فيُزَينها لمَا يَرىٰ من نظَرِ رَجلٍ إليه، فكيفَ بمَن كانت صلاتُه كلهَا رياء من أوَّلها إلىٰ آخرِها؟!

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَّر الرياءَ بهذا المثالِ؛ لأنه من أكثَرِ صُورِ الرياءِ وقوعًا؛ وهذا يُرشد إلىٰ أن الشَّيطان أحرَصُ ما يكون في بابِ الرياء أن يُدخلَ الرياءَ علىٰ العبد في الصَّلاة؛ لأن أعظَم الأعمال الصَّلاة، فإذا أفسدَ علىٰ العَبدِ الصلاةَ؛ فقد نالَ منه المُنَىٰ، ولذا يَنبَغي أن نتنبَّه لصَلاتنا، وأن نحرِصَ عليهَا، وألَّا نَغفلَ عنها طَرفَة عَين.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَابٌ: مِنَ الشِّركِ إِرَادَةُ الإِنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنيَا.

الشرح

هذا هو البابُ الثَّاني من أبوابِ شِرك الإرادَة والقَصد.

والبعضُ ظنُّوا أن هذا البابَ والذي قبله لا فرق بينَهُما، ويرىٰ أنه كان من الأولَىٰ أن يدمج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ البابَين معًا؛ لأنهما بمعنىٰ واحِد، فالرياء وإرادَة الدنيا بمعنىٰ واحد، وليس الأمر كذلك؛ **بل بَينَ البَابَين فرقٌ من ثلاثَة أوجه:**

الوجه الأول: من جهَة المَقصُود: ففي باب الريَاء المَقصُود الذِّكرُ والثنَاء، والذِّكر الحَسَن من المُرائِي.

وأمَّا في هذا الباب فالمَقصُود مَصلحَة دُنيَوية؛ من مَالٍ أو زَوجةٍ، أو نحو ذلك.

والوَجه الثاني: مِن جهةِ البَاعث علىٰ المَقصُود: ففي الريَاء: الباعثُ علىٰ المقصُودِ هو تعظيم المَخلُوق؛ لأنه لمَّا عظَّم المُرائي المخلُوقَ، وعظُم في قَلبِه راءَاه، ولو لم يَرَه عظيمًا لما رَاءَاه.

أما البَاعثُ علىٰ إرادَة الدنيا فهو شَهوةُ النَّفس، وليسَ تَعظيم المَخلُوق، فالنفس تُحبُّ المَال، وتُحِب الدنيَا.

والوَجه الثَّالث: من جهة المُشَرَّك: ففي الرياء المُشرك مخلوقٌ، فهو شِركٌ في نية المَعمُولِ له؛ فالمُرائي عندما صَلَّىٰ لله ولهَذا المخلوق من أجلِ أن يَمدَحه

عمِلَ العمل لله ولهَذا المخلوق.

أما إرادة الدنيَا فإنما هي في العمَل **لأجله** وليسَ في المَعمُول لَه.

يَعني: الذي يَصُلِّي ويُريد بالصلاة أن يُعطَىٰ أموالًا من المُحسِنين؛ هو صَلَّىٰ لله، فالمَعمُول له هو الله، لكنه عمِلَ العمَلَ من أجلِ أن يَحصُلَ علىٰ المال ويَحصُلَ علىٰ الثَّواب.

إذن؛ المُشرك في الريَاء المَخلُوق؛ فهو شِركٌ في نيَّة المعمولِ لَه.

أمَّا في إرادة الدنيا فليسَ الشِّرك في نيَّة المعمول له؛ وإنما في العمل لأجلِه، فَهُو عَمِلَ من أجلِ الثوابِ ومِن أجلِ الدُّنيا.

فهذه فروقٌ ثلاثة تدُلُّ علىٰ الفرق بين البَابَين، وأن بابَ الريَاءِ أخبَثُ من إرادَة الدنيَا.

وحُكم إرادة الإنسَانِ بعمَله الدنيَا: أنه قَد يَكُون **شِركًا أكبَر**، وقد يكون **شِركًا أصغَر**.

يَكُون شِركًا أكبَر: إذا كان في الأعمَال كُلِّها في أصلِهَا -وهو الدخُولُ في الإسلامِ- وفي فُروعها كلها من أجلِ الدنيَا.

فإذا كان عمَلُ الإنسانِ كُلُّه من أوَّله إلىٰ آخِره لا يكون إلا مِن أجلِ الدُّنيا؛ **فهذا شِركٌ أكبَر**، فإن كان لم يأتِ بالشَّهادَتَين ولم يُظهِر الإسلامَ فهَذا **المُشرك**، وإن أتَىٰ بالشهادَتَيْن فهَذا **المُنَافق**.

وما عدَا ذلك يكون شركًا أصغَر؛ بمعنىٰ: إذا كانَت إرادةُ الدُّنيا في بعضِ

العمَل؛ فهذا شركٌ أصغر.

وأثَر إرادة الدنيَا علىٰ العَمل: أنه إن كانَت إرادة الإنسَان الدنيا في العمل خالصةً للدنيَا، فالعملُ كُله للدنيا؛ والعمَل باطل وصَاحبُه آثِم، للآية الأولىٰ التي سيذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسيأتي الكلامُ عنها.

ولقَولِ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَىٰ بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. يَعْنِي: رِيحَهَا**». روَاهُ أبو دَاودَ، وابنُ ماجَه، وصَحَّحَه الألبَاني[1].

فدلَّ هذا علىٰ أنه إذا كانَت النيَّةُ للدنيا فقَط؛ فالعملُ حابِط باطِل وصَاحبُه آثِم، وقد اتفَقَ العلماءُ علىٰ هَذا.

أمَّا إذا حدَثَت إرادةُ الدنيا في العمَل، ولم يكُن العملُ كُله للدنيا؛ فللعُلمَاء فيه أربعةُ أقوال في المَسألَة:

القول الأول: أن كلَّ إرادة للدنيَا في العمَل -قلَّت أو كثُرت- تُبطِله.

مثالُ ذلك: مَن توضَّأ للوضوءِ والتبَرُّد في جو حَار بنِيَّتَين؛ نية دينيَّة وهو الوضوء الشرعي، ونيَّة دنيوية وهو أن يتبَرَّد.

فقالوا: هذا وضوؤه باطلٌ، ولا يصِحُّ أن يصلي به؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]. وهذا غير مُخلِص.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصَحَّحَه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وأيضًا لقولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**». رواهُ النَّسائي، وقَالَ الألبَاني: حسَن صَحيحٌ(١).

وهذا لَم يكُن خالِصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وممن ذهب إلىٰ هذا ونَصَره: ابنُ حَزم الظَّاهري.

القولُ الثاني: أن العملَ يَصحُّ مع إرادَةِ الدنيَا؛ بل إن إرادةَ الدنيا لا تَضُرُّ العملَ ولا تُنقِصُ الأجرَ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أذِنَ في ذلك؛ كمَا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]. وهذا في التجَارة في الحَج بإجماعِ أهلِ العِلم(٢).

يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أذِنَ لنَا في ذَهابِنا للحَجِّ أن ننويَ الحجَّ ونُريد التجارَةَ، وهذه إرادَةٌ للدنيا.

واستدَلُّوا أيضًا بقولِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن أَحَبَّ أَن يُبسَطَ لَهُ فِي رِزقِهِ، وَيُنسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**». والحَديث في «الصَّحِيحَين»(٣).

فقَالُوا: إن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حثَّ علىٰ إرادةِ الدنيَا بصِلةِ الرحِم، ولكن ليسَت خالصة؛ وإنمَا يُريدُ وجهَ الله عَزَّ وَجَلَّ، ويُريد أن يُوسَّع عليه في الرِّزق.

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٤٠) من حديث أبي أُمَامَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «صحيح سنن النسائي»: حسَن صَحيح.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٦٦ الرسالة).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

القَول الثَّالث: أن العِبْرَة بالأصل والباعِث؛ فإن كان الباعثُ والأصل والمحرك النيَّةَ الدينيَّةَ؛ فالعملُ صحيحٌ، وإن تبعته نيَّة الدنيا.

مثالُ ذلكَ: شخصٌ حجَّ عن الغير وأخذ مالًا، ولكن نيَّته الحج والإحسَان إلىٰ أخيه، ونوىٰ النقود تَبَعًا، فالمُحرِّك له هو الحَجُّ؛ فهذا لا يَضُرُّ العملَ، أمَّا إن كان الأصلُ والباعث والمحرك النيَّةَ الدنيوية، فلَولا الدنيَا لَمَا تحرَّك ولمَا فعَل؛ فهذا عملُه بَاطِل.

أمَّا إذا كانت النيةُ الأصليَّةُ هي الدنيا والتقرُّب كان تابعًا، بأن كان غرضُه هو المالُ فقط، دون النظَر إلىٰ العبَادة أو الاهتمَام بها، ولولا الأجرةُ لمَا فعَل وما قامَ بالعَمل؛ فهذا عَمَلُه باطلٌ ولا يُثاب عليه.

القَول الرَّابع: أن النَّظر إلىٰ الغالب علىٰ القَلب؛ فإن كان الغالبُ علىٰ القَلب نيَّةَ الدنيَا؛ فالعملُ باطلٌ، وإن كان الغالبُ علىٰ القلب النيَّةَ الدينيَّةَ؛ فالعمَلُ صَحيح.

فهَذه أقوالٌ أربعة للعُلماء في هذه المَسألَة.

والتَّحقيقُ -والله أعلمُ- التَّفصِيل، كمَا في النقَاطِ التَّالية:

أولًا: أن يريد العبدُ بالعمل وجهَ الله ويريدُ من الدنيا ما أذِن الله بإرَادَته، وهذا لا يَضُر العملَ؛ بل هو جَمعٌ بينَ الحُسنيَيْن، مثل: أن يَحُج بنية الحَج والتقرُّب، وأن يبيعَ بِضَاعَته؛ فهذا لا يَضُر العمَل، ولا يُنقصُ الأجر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أذِنَ في ذلك: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

وهذه الآيةُ في التجارَةِ بإجمَاع المُفسِّرين.

ومِثل: أن يصِلَ رَحِمَه تقرُّبًا الىٰ الله وإرادَة لأن يوسِّع عليه في رزقه، ويُنسَأ له في أجَلِه، فهذا لا يَضُرُّ العمَل، وقد أذِن الله فيه علىٰ لسَانِ رَسُوله ﷺ.

ومثل: أن يقتُلَ المُسلمُ الكافرَ في المعركَةِ يُريدُ وجهَ الله ويُريدُ سَلَبَه؛ فهذا لا يَضُر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**مَن قتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيهِ بيِّنَةٌ فلَهُ سَلَبُهُ**»[1]. فهَذا حَثٌّ وتشجيع، ولا يَضُر العمَل.

ثانيًا: أن يريدَ العبدُ بالعمَل الصالحِ وَجهَ الله ومصلحَةً دُنيويَّة تَحصُل بالعمَل، سوَاء نواهَا أو لم يَنوِها، فهي حاصِلَة حَاصِلة.

مثال ذلكَ: التبَرُّد بالوضُوء حاصلٌ؛ فإذا توضَّأت تَبَردتَ، سواء نَويت أو لم تَنوِ، فهَذا لا يضُرُّ العملَ؛ لأن النيَّةَ لم تُكسِبه شيئًا؛ لأن هذا التبرد حَاصِل حَاصِل.

ثالثًا: أن يُريدَ العبدُ بالعمَلِ وَجهَ الله ومَصلحَةً دُنيويَّة غيرَ مَا تقدَّم، وكانت النيَّةُ الأصليَّةُ الدنيَا ولَولاها لمَا فعَل، فهَذا العملُ باطلٌ لعُمُوم الأدِلَّة، كما تقَدَّم فيمن يحُجُّ عن الغير من أجل المَال؛ فلولا المَال لمَا حجَّ وبَقِيَ عند عيَاله، لكنه يحُجُّ من أجلِ المَال، فهَذا أصلُ النية هو الدُّنيا، والتقَرُّب تابعٌ، فهذا العمَلُ باطِلٌ.

رَابعًا: أن يريدَ العبدُ بالعمَلِ وَجهَ الله ومَصلحَةً دُنيَويَّة غير ما تقَدَّم، وكانَت

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النيَّةُ الأصليَّةُ الدِّينيَّة، وأما الدنيَا فتابِعة، فهذا لا يَبطل عَملُه، ولكن يَنقُص أجرُه.

وإذَا عَلِمنا هذا؛ فينبغي أن يعلمَ المُؤمنُ أن الأكملَ للعَبد أن يُريدَ بالعمل وجهَ الله، وألَّا يريدَ الدنيا مُطلقًا، والدنيَا ستَأتيه، ولا يحتَاجُ أن يَنوي، وإذا ابتغَىٰ العبدُ وجهَ الله فليُبشِر بالفَضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وستَأتيه الدنيَا أحلَىٰ وأبرَك وأكمَل ممَّا لو أرادَهَا.

وهذا كلُّه إذا كانت الدنيَا مقصودَة لذاتها، أما إذا كانت المَصلحَة الدنيويَّة مُرادة للاستعانَةِ بها علىٰ العمَل الصَّالح؛ فإن هذا من الإرادَةِ الطيِّبة ولا يَضُر ذلك؛ بل يُثَاب عليهَا الإنسَان.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النساء:١٣٤].

والتَّحقيقُ في معنَىٰ هذه الآية: أن مَن كان يريدُ ثوابَ الدنيَا فليُرضِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليَعمَل لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ثوابَ الدنيَا وثوابَ الآخرَة إنما هو من عندِ الله، وإذا أَرضَيت اللهَ أتاكَ ثوابُ الدنيَا، وأتاكَ ثوابُ الآخِرَة.

أيضًا يَدُلُّ لذَلك قولُ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : **«مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ غِناهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»**. رواهُ التِّرمذي، وصححه الألباني[١].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

قَولُه: (بابٌ: مِنَ الشِّركِ إِرَادةُ الإنسَانِ بعَمَلِه الدُّنيَا): (**مِنْ**): للتَّبعيض؛ أي: مِن بَعضِ الشِّرك، وليس كُل الشِّرك.

(**الشِّركُ**): أي: جنس الشِّرك، وقد يكونُ أكبَر، وقد يكُونُ أصغَر، كما تقَدَّم بيَانُه، وإن كان الأصلُ في المسلم أن الذي يقَعُ منه -إن وقَع- الشركُ الأصغَرُ؛ لأن الشركَ الأكبرَ لا يقعُ إلا من منَافِق أو مُشرِك أصلًا؛ ولذلك بعض الشُّرَّاح فسَّر الشِّرك هنا بالشِّرك الأصغر؛ لأن هذا هو الذي يقَعُ من المُسلم.

(**إِرادَةُ الإنسَانِ**): أي: قَصدُ الإنسان.

(**بِعَمَله**): وعملُ الإنسان ينقسِمُ إلىٰ قِسمَين: عادَات، وعبَادَات.

والعَادات: هي أمور الدنيَا، وهذه لا يَضُر الإنسان أن يريدَ بها الدنيَا.

وذلك كشَخص يُتَاجر ويبيع ويشتري من أجلِ أن يربحَ المَال؛ فهذا يُريدُ الدنيا، وليس هذا شِركًا؛ لأن هذه التِّجَارة الأصلُ فيها أن الإنسانَ يُريد الدنيَا.

وإن كانَ الأكملُ للإنسان أن يُريدَ بِعمله -وإن كَان من العَادَات- ما يُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

فيَنوِي أن يَبيع ويَربح ليُحصِّل أموالًا ليَتَصدَّق بها.

وينامُ ويريدُ بهذا النَّوم مع الرَّاحةِ أن يتقَوَّىٰ علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويأكُل في غير الصِّيام، ويُريد بهذا الأكل أن يتقَوَّىٰ علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا أكلَ الإنسانُ ومَلأ بطنَه بالطعَام، أو تاجَر وربحَ الكثيرَ من المَال، ولم يَنوِ في ذلك أمرًا مُتعَلقًا بطَاعَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَخطُر هذا في بالِه؛ فهذا لم يفعَل

حرامًا ولم يقَع في شِرك.

إذَن؛ العاداتُ لا تدخلُ معنَا في هذا البَاب؛ فمَن أراد بها الدنيَا لا يُذَم ولا يأثَم.

وأمَّا العبَادات: فهي القُرَب التي يُتقَرَّب بها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهي المُرادَةُ هنا.

(الدُّنيَا): أي: مصَالحَ الدنيَا.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾ الآيَتَينِ [هود:١٥-١٦].

الشرح

ومَقصُود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (الآيَتَيْن)؛ يعنِي: أكمِل الآيتين؛ ولذلِكَ نصبَ الكلمَة.

(﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾): مَن كان مَقصُودُه من العمَل الصَّالح الدنيَا، وما فيها من زِينة فَانِيَة.

(﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾): أي: نُعطِيهم من الدنيَا تَفضُّلًا من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا استحقَاقًا منهُم؛ لأن هذا الذي عمِلَ العملَ الصَّالحَ وهو يُريد به الدنيا عمَلُه بَاطل فليسَ له حقٌّ؛ بل هو آثمٌ يستَحقُّ العُقوبة، لكن الله عَزَّوَجَلَّ تَفَضُّلًا منه يُعطِيه من الدنيَا ولا يُنقص شيئًا.

(﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾): أي: أُولئكَ الذين يُريدونَ بالعمَل الصالحِ الدنيَا؛ ليس لهُم في الآخرَةِ إلا النَّار، إن كانُوا ممَّن يُريدون الدنيَا بجَميعِ أعمالِهم؛ فلَهُم النارُ مُخلَّدون فيها، ولا يَخرُجون منها أبدًا، وإن كانُوا أرادُوا الدنيَا ببَعضِ أعمَالِهم؛ فَهُم مُتوَعَّدون بدخُولِ النارِ، وإن كانُوا لا يُخَلَّدون فيها؛ وحَبِطَ وبطَل ما صنَعُوا في الدنيا من الأعمَال الصالحةِ التي عَمِلُوها.

فدَلَّت هذه الآيةُ علىٰ أن إرادَةَ الدنيَا بالعمَل الصالح حرَامٌ، ويستَحِق صاحبُها دخولَ النَّار، إن كانت إرادَتُه للدنيَا من باب الشِّرك الأكبَر؛ فهو مُخلَّد في النار؛ وإن كانَت إرادَتُه الدنيَا من بابِ الشِّركِ الأصغَر؛ فهو متوَعَّد بدخولِ النار؛ وأن العملَ الصالِحَ إذا أُريدَ به الدنيَا فقَط؛ يَبطُل ولا يُقبَل.

وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أيضًا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

فالذي يُريدُ حرثَ الدنيَا يُؤتِيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منهَا، وليسَ له في الآخرَةِ من نصيبٍ.

وهذا بمَعنىٰ الآيةِ السَّابقة، لكن هَل هذا العطاءُ مُطلَق؟

الجَوابُ: لا؛ بَل مُقيَّد.

فظَاهِر هاتَين الآيتين وإطلاقُ هاتين الآيتين أن كل مَن أراد بعمَله الدنيَا أعطاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منها، وليسَ كذَلكَ؛ بل هذا الإطلاقُ مُقيَّد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨].

ففي هذه الآية قيدان؛ فليسَ كُل من أرادَ شيئًا من الدنيَا ينالُه، بل الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُعطي مَا يشَاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأيضًا ليسَ كل مَن أراد الدنيا أُعطِي الدنيَا؛ وإنمَا مَن أراد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُعطِيَه.

وكمَا تقدَّم: هذَا الإعطاءُ فَضلٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس حَقًّا لَهُم؛ لأن هؤلاء عَملُهُم حَابطٌ باطلٌ، ولا جزاءَ لهم إلا النَّار.

فدَلَّت هذهِ الآياتُ علىٰ أن من أرادَ الدنيا بعمله الصَّالح حَبطَ عمَلُه، وكان في الآخرَةِ من الخاسِرينَ، وأن مَن أرادَ الآخرَةَ رزَقَهُ الله الخَيرَ والبُشرَىٰ في الدنيَا، ورزقَهُ في الآخرة الحُسنىٰ وزيَادة.

وبهذا يَظهر عِظَمُ خُسران مَن أرادَ بعَملِهِ الصالحِ الدنيَا، وفَوزُ مَن أراد بعَمَلِه الصالحِ الآخرَةَ، فأرادَ إرضَاءَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَمِ، تَعِسَ عَبدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبدُ الخَمِيلَةِ، إن أُعطِيَ رَضِيَ، وَإِن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انتَقَشَ، طُوبَىٰ لِعَبدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشعَثَ رَأسُهُ، مُغبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إن كَانَ فِي الحِرَاسَةِ؛ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِن كَانَ فِي السَّاقَةِ؛ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ استَأذَنَ؛ لَم يُؤذَن لَهُ، وَإِن شَفَعَ، لَم يُشَفَّع».

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): أي: في «صحيح البخاري»[1].

(**تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَمِ، تَعِسَ عَبدُ الخَمِيصَةِ**): تكرار (تعس) ليس عند البُخاري، وإنما الذي عند البُخَاري: «**تَعسَ عَبدُ الدِّينَارِ وَالدِّرهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ**»، وأما تكرار (تَعِس)، فهُو عند الطبَراني في «المُعجَم الأوسَط»[2].

(**تَعِسَ عَبدُ الخَمِيلَةِ**): كذلك لَم أَرَ لفظ (الخَميلَة) هذَا في شيءٍ مِن كتُب السُّنة، وإنَّما ورَدَ عند البخاري لفظُ (القَطيفَة)، وفسَّرها بعضُ أهل العلم بالخَميلةَ.

---

(١) برقم (٢٨٨٧).

(٢) برقم (٢٥٩٥).

(تَعِسَ): قالَ بعضُ أهلِ العِلم: معناهَا: بَعُد.

وقالَ بعضهم: معناها: لَزِمَه الشَّر.

أي: هذا يُريدُ الدنيَا فأصابَهُ عكسُ مَا يريدُ؛ فَلزمَه الشَّر.

وقالَ بعضهم: معناها: لا أفَاقَ مِن عَثْرَته، فإنه عَاثِر؛ فمعنىٰ (تَعِسَ) الدعاءُ أَلَّا يُفيقَ من هَذه العَثْرَة.

وقال بعضهم: معناها: سَقطَ عَلىٰ وَجهِه.

وقالَ بعضهم: معنىٰ (تَعس) هنا عَلىٰ بابه؛ أي: شَقِيَ ولَم يَسعَد.

فتكُون الدنيا التي طلبَهَا من أجلِ السعَادَة سببًا لشَقائِه.

(تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ): الدِّينار: هو النَّقد من الذَّهَب.

(تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَمِ): الدِّرهَم هو النَّقد من الفِضَّة.

(تَعِسَ عَبدُ الخَمِيصَةِ): (الخَميصَة): كِساءٌ؛ قيل: أسوَد، وقيل: أحمَر لهُ أعلام -أي: فيه خُطوط (مُخَطَّط)-.

والمَقصُود به هنا: الثَّوب.

وجاء في روَايَةِ البُخَاري: **«عَبدُ القَطِيفَة»**.

و(القَطيفة): قيل: كساءٌ له أهداب -أي: أطراف-، وقيل: (القطيفَة) هي الفِرَاش. ونَفسُ هذَين المَعنَيَين ذُكِرَا لـ(الخَميلة).

والمَقصُود: تَعسَ مَن عَبدَ النَّقد، وتَعسَ مَن عَبدَ ثَوبَه.

ومعنىٰ كونِ الإنسانِ عبدًا لهذِه الأشيَاء: أنه طلبَهَا وأرادَهَا بالعَمل الصَّالح، فكان كالعَابِد لها؛ لأنه أرادَها بدَلَ أن يُريد وَجه الله، فأرادَ هذه الدنيَا، أو أرادَهَا مع إرادَة وجه الله عَزَّوَجَلَّ!

ثم إن الغالبَ علىٰ مَن يريدُ الدنيَا أن يكونَ ذَليلًا، ولا يُمكنُ أن ترَىٰ العزَّة في عبدٍ يريدُ الدنيا، بل هو يتَذَلَّل للعبيدِ الأغنيَاء من أجلِ الدُّنيا، ويكذب من أجلِ طلبِ الدنيَا، ويبيعُ دِينه وكرَامَته بعَرَضٍ من الدُّنيا!؛ فكان كالعابدِ لهَا؛ لأنه مُتذَلِّل من أجلها.

(إن أُعطِيَ رَضِيَ، وَإن لَم يُعطَ سَخِطَ): هذا تفسيرٌ لتِلك العبوديَّة؛ لأن حالَه يكونُ: إن أُعطِي من الدنيا رَضِي، وإن لم يُعطَ منهَا سَخِط وغَضِب، فرِضَاه تابع للدنيَا، وغضبُه تابعٌ للدنيَا، فقَلبُه معلَّق بالدنيا، وقد يظهَرُ هذا في عمل الإنسَان، فإذا وجدَ الدنيَا في العمَلِ الصالحِ؛ نَشِطَ له وأقبَل عليه وواظبَ عَليه، وإذا فقَدَ الدنيَا في ذلك العمَل كانَ من المُتَباطِئين عنه، المُتبَاعِدين منه، وقد يصِلُ هذا -والعياذُ بالله- إلىٰ رضَا العبدِ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإذا أُعطي الدنيَا رضي، وإذا مُنعَ شَيئًا من الدنيَا سَخِطَ علىٰ الله، وسَخِط علىٰ قدَرِ الله!

(تَعِسَ وَانتَكَسَ): وقد تقدَّمت المَعاني المختلفة لكلمَة (تَعِسَ).

وهي إمَّا دُعاءٌ من النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليه بالخَيبَة والخُسران، أو أن هَذا خَبَر من النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه سيكُون هكَذا.

و(انتَكَس): سَقط علىٰ رأسِهِ.

فعَلىٰ أحد المعَاني في (تَعس) أنه سَقط علىٰ وَجهه، و(انتَكَس) أنه سقَط علىٰ رأسِه، وهو إما دُعاء وإما خَبَر أيضًا.

(وَإِذَا شِيكَ): أي: أصابَته شَوكَة.

(فَلَا انتَقَشَ): أي: لا وجَدَ من يُخرجها له بالمِنقَاش.

فقد وصَل إلىٰ حالَةٍ من الدنَاءَة والذل، والضعف، وقِلَّة الحِيلَة، إلىٰ هذه الدرجَة؛ أن الشَّوكةَ الصغيرةَ التي تدخُلُ في رِجلِه وتُؤذيه لا يستطيع أن يُخرِجَها، ولا يجدُ من الناس وأهل الدنيَا من يُخرِجُهَا له.

ثم ذكرَ النبيُّ ﷺ أمرًا آخَرَ يُقابِل هذه الدناءَة، وهذه الإرادة الفاسدَة، فقال: **(طُوبَىٰ)**: قال بعضُ أهل العلم: هي الجنَّة.

وقال بعضهم: هي بابٌ من أبوابِ الجنَّة.

وقالَ بعضهم: هي شجرَةٌ في الجنَّة.

وقال بعضهم: معنَاها: له الطَّيِّبُ كُله في الدنيا والآخرة. **وهذا أظهَر الأقوَال.**

(لِعَبدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ): أي: برِباط فَرَسه.

(فِي سَبِيلِ اللهِ): يُجاهدُ في سَبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجهَادَ المَشرُوع، وليسَ جهادَ الكذَّابين والخوَارج.

(أَشعَثَ رَأسُهُ): مِن اشتغالِه بالجهَادِ لم يَهتَمَّ برَأسِه، ولم يُسَرِّح شَعرَه، ولذلك شَعرُه مُشعَث، من اشتغَاله بطاعَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**مُغبَرَّةٍ قَدَمَاهُ**): أي: في سَبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

(**إِن كَانَ فِي الحِرَاسَةِ؛ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ**): أي: يكونُ حيثُ يُؤمَر، لا يَطلُب الرئاسَةَ ولا الزَّعامة؛ إن أُمر بأن يكونَ في حراسة الجيشِ كانَ في حراسَةِ الجيشِ.

(**وَإِن كَانَ فِي السَّاقَةِ؛ كَانَ فِي السَّاقَةِ**): يَعني: في آخِرِ الجَيش.

والغالبُ أن الذين يُتركُون في آخر الجيش هم الذينَ ليسَت لهم مكَانَة، ولكنهُ مع ذلك يُجاهد في سَبيل اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيًّا كان مَكَانه.

(**إِنِ استَأذَنَ؛ لَم يُؤذَن لَهُ**): فهو ليس حَريصًا علىٰ الشُّهرة، وعلىٰ أن يعرِفَه الأشرافُ وأصحابُ المُلك والرئاسات؛ بل هَمُّه أن يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومَا دخَلَ الخَلَلُ علىٰ أحَدٍ أكثَر مِن دخُولِهِ من جهَةِ حبِّ المنَاصِب والرئاسَات، والشُّهرة بينَ النَّاس، فقد يَقُود ذلك الإنسان إلىٰ أن يُغَيِّر في دينِ الله من أجل أن يأتِي بشَيء يحبُّه الناس من أجلِه؛ وليشتَهِر بينهم، وليكُون صاحب حظوَةٍ في قُلوبهم.

(**وَإِن شَفَعَ، لَم يُشَفَّع**): إن شفَع لأحدٍ لم تُقبَل شفاعَتُه؛ لأنه غير مَعرُوف مع كونِه من عبَادِ الله الصَّالحين.

والمَقصُود: أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمدحُ مَن أراد وَجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولَم يَسعَ للدنيا بعَمله الصَّالح، ولم يَطلُب شُهرةً بينَ الخَلقِ، ولم يُرِد ثناءَ الناس، ولم يُرِد أن يقدِّمَه أهلُ المَناصب؛ وإنما أراد إرضَاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهو مُتواضع بين الناسِ كوَاحدٍ منهم، ولا يطلبُ العُلوَّ علىٰ الخَلق، مع أنه

قد يكونُ صاحبَ فضل وعِلم وعَمَل؛ لكنه ما سَعَىٰ لأهل الدنيا.

وهذا لا يعنِي ذمَّ مَن أحبَّه الناس مِن غَير سَعي مِنه، ولا مَن رُفِعَ قَدرُه بين الناسِ من غَير سَعي منه، فهذا فَضلُ الله يُؤتيه مَن يشَاء، فقد يكون العبدُ من أحسنِ النَّاس إخلاصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُرزَقُ المكانَةَ عند الناس، وإذَا استَأذن أُذِن له، وإذا شَفع يُشَفَّع.

فلا يَعني ما سبقَ أن هذَا الإنسانَ الذي له مَكانةٌ عند أهل الجَاه، ويُحبُّه الناسُ، وتُقبَل شَفاعتُه، أن هذا يكونُ مَذمومًا، لا؛ وإنَّما المَذمومُ أن يسعىٰ العبدُ إلىٰ هذا، وأن تَكونَ طلبتُه هذه الأمور، وغايَتُه هذه الأمور.

إذن؛ العَبدُ مع عمَلِه الصالحِ واجتهَادِه لا يَخلُو من ثلاثَةِ أحوَال:

الحَالة الأولَىٰ: أن يجتهدَ في العملِ الصالحِ، ولا يَعرفهُ الناس؛ لكن الله عَزَّوَجَلَّ يعلَمُ حَالَه، وما هو عليه من خيرٍ، وهذا عَبدٌ مَحمُود، طُوبَىٰ له، ولهُ كُل طيِّب.

الحَالة الثَّانية: أن يكونَ مُجتهدًا في طاعة الله، مُخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ، ويَعرفه الناسُ، وتكون له مكانَةٌ عند النَّاس، فهذا أيضًا مَحمُود غير مَذمُوم.

والحَالة الثَّالثة: أن يريدَ الإنسانُ باجتهاده في عمَلٍ صالحِ المَنزلةَ عند النَّاس، نَالَها أو لم يَنَلهَا، وهذا مَذمُوم، قد فاتَه الخيرُ في الدنيَا والآخرة.

فيتحَصَّل من هذا كُله: أن الخيرَ للمؤمِنِ أن يريدَ بعَمِلِه الصالحِ وَجهَ الله، وأن إرادةَ الدنيَا بالعمَلِ الصالِحِ مُحرَّمةٌ مَذمُومةٌ علىٰ الوَجهِ الذي فصَّلنَاه في أول الكَلام.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: إِرَادَةُ الإِنسَانِ الدُّنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ.

وقد تَضمَّنت هذه الجُملةُ فائدَتَين:

الفائدة الأولىٰ: أن هناكَ من الناس مَن يُريد بالعمَل الصالح الدُّنيا.

والفائدة الثانيَة: أن هذَا مَذمومٌ، كمَا ورَد في النصوص.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ هودٍ.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، وقد تقَدَّم شَرحُها وتفسيرها.

الثَّالِثَةُ: تَسمِيَةُ الإنسانِ المُسلِمِ: عَبدَ الدِّينارِ والدِّرهَمِ والخَمِيصَةِ والخَمِيلَةِ.

أي: أنه يكونُ عَابدًا للدنيَا مَع كونِهِ مُسلمًا، ولا يمنَعُ كَونُه مُسلمًا من كونِهِ عابدًا للدنيَا، هذا إذا أَرادَ الدنيَا ببعضِ عَملِهِ، أما مَن أراد الدنيَا بكُلِّ عمَله، فإنهُ لا يكُونُ مُسلِمًا.

الرَّابِعَةُ: تَفسِيرُ ذَلِكَ بأَنَّهُ إِن أُعطِيَ رَضِيَ، وإِن لَم يعطَ سَخِطَ.

أي: أن القَلبَ يتَعَلَّق بالدنيَا؛ فرضَاهُ تابعٌ للدنيَا، وغَضبُه تابعٌ للدنيَا، حتىٰ قَد يصلُ به الأمر إلىٰ أن يكونَ رضَاه عن الله تابعًا للدُّنيَا، وغَضبه وسَخطه من قَدَر الله تابعًا للدنيَا!

الخَامِسَةُ: قَولُهُ: «تَعِسَ وَانتَكَسَ».

أي: أنَّ النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جمعَ له بينَ الأمرَينِ، دُعَاءً أو خَبرًا.

السَّادِسَةُ: قَولُهُ: «وَإِذَا شِيكَ فَلا انتَقَشَ».

أي: يُصبحُ من المَهَانة والذلَّة والضَّعف بحَيثُ لا يُحصِّلُ أسهلَ أمورِ الدنيَا؛ عقوبَةً له بنَقيضِ قَصدِه، فهو قد أرادَ بالعمَل الصالحِ أن يُحصِّلَ الدنيا، فَلا يُحصِّل أقلَّ أمورِ الدنيا؛ ذِلَّةً ومَهَانةً له من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى!

السَّابِعَةُ: الثَّنَاءُ عَلَىٰ المُجَاهِدِ المَوصُوفِ بِتِلكَ الصِّفَاتِ.

والمَقصُود: الثناءُ علىٰ مَن أطاعَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، يُريد وجهَ الله قاطعًا نَظرَهُ عن الناس، وعمَّا في أيدِي الناسِ، وليسَ المقصُود المُجَاهد فقط، بل هذا مِثال، وإنما المَقصُود: الذي يُطيعُ الله في أي عمَل صالحٍ يُريد به وَجهَ الله عَزَّوَجَلَّ، قَاطعًا نظَرَه عن الناس، كأنَّهُم غير موجُودِين، فلا يُريدُ منهم ثنَاء ولا شيئًا من الدنيَا التي عِندَهُم؛ فهذا مُثنَّىٰ عَليه.

✽✽✽

بَابُ: مَن أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأمرَاءَ فِي تَحرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ، وَتَحلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ فَقَدِ اتَّخذَهُم أَربَابًا مِن دُونِ اللهِ.

الشرح

وهذا البابُ والذي يَليهِ مُتعَلق بحَق الله عَزَّوَجَلَّ في التشريع، وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو المتصرِّفُ في أمر عباده بالتشرِيعِ؛ فلا شَرع إلا ما شَرَعه الله، ولا حُكمَ إلا ما حكم الله به، أو أرشَدَ إلىٰ طريقه.

ومن المَعلوم أنَّ من لوازِم التَّوحيد: طاعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وطاعة رَسُوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي من طاعَة الله، ولا يقوم الدين إلا بطاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن لم يُطع الله لم يَعبُده، وكيف يعبدُ الله وهو لا يُطيعُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؟!

فطاعة الله وطاعةُ رسُوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فريضةٌ عُظمَىٰ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وهذه الطاعةُ المُطلَقة شرطٌ في الإيمان؛ فلا يكون العبدُ مؤمنًا إذا أبىٰ أن يطيعَ الله بالكلية.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥].

وهذه الطاعةُ -أعني: طاعَةَ الله وطاعةَ رسُولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أصلُ الطاعاتِ عند المُؤمن، فما كان عائدًا إليها يكون محمودًا، وما كان مُخالِفًا لها يكون مَذمومًا.

وطاعةُ الأمراءِ تكُون في ثلاثةِ أمُور:

الأمر الأوَّل: طاعتُهُم في غير معصيَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا أمرُوا بما أمَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، وهذه الطاعةُ دِين لله وتقوىٰ وإيمان؛ أن تطيعَ أميرَكَ المُسلم إذا أمرَكَ بما أمرَكَ الله به؛ أمرَكَ بالصَّلاة مع الجَمَاعة فأطَعتَه؛ تُثاب علىٰ طاعَتِك للهِ أولًا، وعلىٰ صَلاتك وعلىٰ طاعَتك لولي أمرِك، فيُضاف إليك ثوابٌ آخر.

الأمر الثَّاني: طاعتُهُم فيما هو مسكُوت عنه في الشَّرع، ولا يخالف دين الله، فرأىٰ فيه مصلحَةً عامَّة فأمر به؛ فإن طاعتَك له دِينٌ تُثاب عليه.

وليست طاعةُ ولي الأمرِ المُسلم في هذين الأمرَين من باب السيَاسَة، ولا من باب التزَلُّف، ولا من باب طلب الدنيا، ولا من باب طَلَب المَنَاصب، وإنما من باب إقامَةِ دين الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**عَلَىٰ المَرْءِ المُسلِمِ السَّمعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أن يُؤمَرَ بِمَعصِيَةٍ، فَإِن أُمِرَ بِمَعصِيَةٍ، فَلَا سَمعَ وَلَا طَاعَةَ**». مُتفقٌ عليه[1].

فطاعةُ الأمراءِ هذه عائدة إلىٰ طاعة الله ورسُوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فهي مَحمُودة شرعًا.

ومن هنا تُدرك السرَّ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

فلم يَقُل: (وأطيعوا أُولي الأمر مِنكُم)؛ لأن طاعة ولاةِ الأمر إنمَا تكونُ محمودةً إذا كانت راجعة إلىٰ طاعة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ وراجِعَة إلىٰ طاعة رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والأمر الثَّالث: طاعَتُهم في مَعصيَة الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهذا حرامٌ ومَعصيَة؛ فإذا أمر المَلِكُ أو أمرَ رئيسُ الدولة أمر أميرُ البلاد بأمرٍ هو مَعصيَة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ لا يجوز أن يطاع في هذه المعصيَة.

ومن الغُلُو أن يُقَال: إن وليّ الأمر يطاع مُطلقًا من أجل المصلحَة العَامَّة!

وهذا غير صَحيح؛ فإن وليّ الأمر إذا أمر بمَعصيَة فإنه لا يُطاع في هذه المعصية؛ فلا طاعةَ لمَخلُوق في مَعصيةِ الخَالق. **وهذه من قَواعِد الدِّين القَطعيَّة**.

ولذلكَ قالَ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحَديثِ المُتقدِّم: «**عَلَىٰ المَرءِ المُسلِمِ**

---

(١) البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

السَّمعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَن يُؤمَرَ بِمَعصِيَةٍ، فَإِن أُمِرَ بِمَعصِيَةٍ، فَلَا سَمعَ وَلَا طَاعَةَ».

فجعلَ الحَدَّ إذا أمرَ بمَعصية؛ فإن أمر بمَعصِيَة فلا سَمعَ ولا طَاعَة.

وهذه الطاعَةُ لَمَّا كانَت مخالفَةً لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ كانت مذمومَةً إذا عَرَفنا المِيزان.

وهناك طَاعة العُلمَاء أيضًا، وهي على نَوعَين:

النَّوع الأول: أن يُطيعَهُم الجاهل حيث يسألهم ويعمل بفتواهم، وأن يُطيعهم مَن كان دونَ الاجتهَاد، بحيثُ يأخذُ مِن أقوالهم ما نصَره الدَّليل، وهذه طاعة لله ودِين وخَير وبَركة؛ لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فالله أوجب علىٰ من لا يَعلم أن يسأل من يَعلم، ولازم ذلك أن يأخذَ بقوله؛ وإلَّا مَا كان لسؤالِهِ فَائدَة، وعلىٰ هذا العمَلُ من زمن صحابةِ رَسُول الله ﷺ إلىٰ يومنا هذا والناسُ يسألون علمَاءَهُم، ولن يدخلَ الفسادُ علىٰ الناس إلا إذا تركُوا العلماء، وتَجاسَرُوا علىٰ ما لا يَجسُر عليه العلماء، هناك انتَظر الفسَادَ والطَّوامَّ الكبرىٰ التي تزلزل كيان الأمة، فالرجُوع إلىٰ العلماء حَق وخير وبرَكة يُشَجِّعه أهلُ العلم الربانيون ولا يُحَاربونه.

والنَّوع الثاني: طاعة العلمَاء مع وضوح الدَّليل علىٰ خلاف قول العَالِم، وهذه معصية وحَرام بإجماع العُلمَاء.

قالَ الإمامُ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَجمَعَ المُسلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَن استبَانَت لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَم يَكُن لَهُ أَن يَدَعَهَا لِقَولِ أَحَدٍ مِن النَّاسِ»[1].

وبعض المُسلمين إذا أُمِر بأمر أو فعل للنبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثبت عنه؛ فإنه يقُول: لكنَّ الإمام لم يَقُل هذا!

وهذه مَعصيَة؛ أن تُعرِض عن فعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل عدَم فِعل غيرِه؛ والإمامُ معذورٌ؛ لأنه لم يبلغه الدليل، ولو بَلغَه لفعل.

فالإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كانَ يأخُذ بالتخليل بين الأصَابع في الوضوء، فلما أخبَره أحدُهُم بالحديث في الباب رَآه بعد ذلك يُخَلل[2].

هكذا هُم علمَاؤنا، وهذا اعتقادُنا فيهِم؛ فلا يجوز للإنسَان إذا اتضَحَ له الدليلُ، وعلم الدَّليل أن يُطيع عالمًا في فتوىٰ تُخَالف الدَّليل؛ لأن هذا العالم لو اتضَحَ له هذا الدليلَ لمَا قال بقَولِه، ولَفَعل ما دلَّ عليه الدَّليل.

فإذا عرَفنا أن الطاعة لغَير الله ولغير رَسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميزانُها طاعةُ الله وطاعة رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما عَادَ إلىٰ طاعَة الله وطاعة رَسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو مَحمُودٌ ودِين، وما خالَفَ طاعة الله أو طاعةَ رسُولِه فهُو مذمُوم وحرَام.

وهذه الطاعَةُ المُحرَّمة للعُلماء والأمراء -وهي الطاعةُ التي تُخَالف طاعةَ الله وطاعة رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تنقسِمُ من حيثُ الحُكم إلىٰ أقسام خَمسَة:

---

(١) ذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ٦/ دار الكتب العلمية).

(٢) انظر: «اختلاف أقوال مالك وأصحابه» لابن عبد البر (ص٤٠-٤١).

القسم الأول: أن يُطيعهم وهو يعتقدُ أن لهُم أن يُحِلوا الحرام وأن يُحَرِّموا الحلال.

وذلك مثلمَا يقولُه بعضُ الغلاة في شيُوخهم: الشيخُ يرىٰ ما لا يرىٰ المُريد؛ فالشيخُ له أن يَقلبَ الحلالَ حرامًا، وأن يقلبَ الحرام حلالًا، ولا يجوز أن يُعصَىٰ الشيخُ ولو أمر بالحَرام البَيِّن؛ ولذلك يقول بعض الغُلاة: «كُن مع الشَّيخ كالمَيت مع المُغَسل»[١]. فمهما قال لا يُعتَرضُ عليه!

وهذه الطاعةُ **شِرك أكبَر يُنافي الإسلام**؛ لأنه جعل لهم مَا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وصَرف ما لله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ غَير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

القسم الثاني: أن يطيعَهُم اعتقادًا وعملًا؛ فيعتقد أن ما يقُولونه دِين ويُعمَل به، مع وضُوح الدليل علىٰ خِلافه عندَه، ومع ذلك يُعرِضُ عنه، وهذا أيضًا **شِركٌ أكبَر** -والعياذ بالله-.

وهذا الكلامُ علىٰ الفِعل، أما الفاعلُ فقد تكون عنده موَانِع تَمنَع أن يُوصَف بأنه مُشرِك.

القسم الثالث: أن يُطيعهم عملًا، وهو يعتقد أن قولَهُم خير وأصلَح من قول الله وقَول رسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فبعضُ الناس يعرف ما في القرآن وما في السُّنة، ويعرفُ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حَكم علىٰ هذا الشَّيء بأنه حرام؛ كالربَا مثلًا، يعلم أنَّ الله حكم عليه بأنه حَرام،

---

(١) انظر: «الفتاوىٰ الحديثية» لابن حَجَر الهَيتَمي (ص٥٦/ دار الفكر).

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكَم عليه بأنه حرام، وأجمعَ العلماءُ علىٰ أنه حرَام، لكن يأتي بعضُ المُعَمَّمين اليومَ ويُحلِّلون صورًا كثيرةً من صُوَر الربا، فيأتي إنسان ويقول: أنا أعرفُ الذي في القرآن، وأعرف الذي في السُّنة، لكن قول هؤلاء أن هذه الصور حلالٌ أحسَن للناس وأصلَحُ، وخَير من حُكمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

وهذا أيضًا -والعياذ بالله- شِرك أكبَر.

القسم الرابع: أن يُطيعَهُم عملًا في الشِّرك، وهو لا يعتَقِد ذلك الشرك، لكنهم يأمرونه بالشِّرك، فيُطيعهم ويعمَل الشرك، وهو يعلم أنه شرك؛ لكن لأن الشيخَ أمرَه بهذا، فهو يعلَمُ أنه إن أخَذَ بَقَرة أو شاة أو عُصفورًا إلىٰ القبر وذَبَحه لصَاحب القبر فهذا شِرك؛ لكن الشيخ قال له: خُذ بقرةً أو شاةً واذهب بها إلىٰ مقام سَيدي فلان واذبَحها لصَاحب القبر، فيُطيعُه في هذا؛ **فهذا شرك أكبر**؛ لأنه عَمِلَ بالشِّرك .

القسم الخَامس: أن يُطيعَهُم عملًا لا اعتقادًا في غير الشِّرك، مع اعتقاده وعلمه بالحُكم الشَّرعي.

مثلًا: رجل يَشرب الدخَان، وهو يعرفُ أن شرب الدخَان حرَام، واليَوم أنا أظن أن كل عاقلٍ من المسلمين يُدرك أن شرب الدخان حرَام، ولكنه ربما وجَدَ شيخًا معممًا أو أستاذًا في الجَامعة يدرس الشريعَة يشربان الدخَان، وأفتيَاه بأن شُرب الدخان مَكرُوه وليس حرَامًا؛ مع أنه يعرفُ أنه حرَام، لكنه أطاعَ هذا الدكتور أو هذا الشيخ عمَلًا لا اعتقادًا، فشرب الدخان بسبب ذلك، **فهنا قال بعضُ أهل العلم**: هذا من **الشِّرك الأصغر**.

والكلامُ هنا ليس عن حُكم شُرب الدخَان، وإنما عن طاعَةِ الشيخ وشُرب الدخان بهذه الطاعة؛ فشُرب الدخان في نفسه معصية، ولا أحد يتكلم فيه، لكن كونه يُطيع مخلوقًا في شرب الدخان عملًا لا اعتقادًا؛ فهذا قال بعض أهل العلم أنه شِركٌ أصغَر... لماذا؟

قالوا: من جهة الطاعَة؛ لأنه أطاعَ المَخلُوقَ فيما يعلم أنه معصيَة.

وقال بعضُ العُلماء: بل هو معصيَةٌ كسَائر المَعاصي، وليس من الشِّرك الأصغر؛ لأنه لم يُطِعهم في التحليل والتحريم؛ بل هو يَعتَقد أنه حرام، ولكنه عمل المَعصية، فهي معصية كسَائر المعاصي.

وهذا الذي يظهَرُ لي -والله أعلم-: أنه ما دام يعتقدُ الحُكم الشرعي فهذه معصية كسائر المَعَاصي.

وهذا التقسيم من جهَة المُطِيعين؛ أما من جهَة المُطَاعِين الذين يُطَاعُون في هذا يُطَاعون في هذا فإنهم علىٰ قِسمَين:

القسم الأول: مجتَهِد: بذَل ما يجب عليه، وطلب الحقَّ بطُرقه، فقال ما توصل إليه باجتهادِه، ثُم تبيَّن أن قوله يُخَالف دليلًا لم يطَّلع عليه، فهذا مُجتهد مخطئ مَغفُور له خَطَؤه، ومُثَاب علىٰ اجتهاده، ومَعلُوم فَضلُه، لَكن ليس لمن عرف الدليلَ علىٰ خلاف قولِهِ أن يتبعه في ذلكَ القَول.

وذلك مثل الأئمَّة الأربعة؛ نحن نعتقدُ اعتقادًا جازمًا لا نَشُك فيه أنه ما من إمام من الأئمة الأربعة قال قولًا إلا وهو مَبنِي علىٰ اجتهادِه، وعلىٰ بذل ما يستطيعُ، وأنه لا يوجَدُ إمام يثبُت عنده الدليل ويتعَمَّد مُخَالفة الدليل؛ ولكن في

نفس الوقت نَعتقد أنهم ما أحاطُوا بكل الأدلَّة، فقد يُخطِئُون وقد يُصِيبُون، فمُخطِئهم فاضلٌ مغفور له خطَؤُه وله أجر علىٰ اجتهاده، ومُصيبُهم فاضل وله أجران: أجر علىٰ اجتهَاده وأجر علىٰ صَوَابه؛ فهؤلاء، وإن أطاعَهُم بعض الناس طاعة محرمَة، وأنا علىٰ يَقين أن الإمام لو رأىٰ هذا الرجلَ يُطيعه في هذا بعد وضوح الدليل لنَهَاه عن هذا.

فهَؤُلاء المُطاعون أئمةٌ وفُضلاء، ولا يُذَمُّون أبدًا، ولكن يُذَم مَن يُطيعُهم وقد علم أن الدليلَ بخلاف قَولِهم.

والقسم الثاني: مُفرط: ليس من أهل الاجتهاد، ولم يبذُل ما يجبُ في طلب الحَق، ومع ذلك يَحكُم في الحلال والحرام، فهذا علىٰ جُرم كَبير، وخَطر عظيم، وإن مدَحَه الناس، وإن اجتمع علىٰ كلامِهِ جماعَاتٌ من الناس؛ هذا يكون من باب افتِرَاء الكذب علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو أصَاب!

ولذلكَ يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

فالذي يجرُؤ علىٰ أن يقولَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، وهو ليس من أهل الشَّأن، ولم يبذل ما يَجبُ عليه في هذا البَاب لا يُفلحُ ولا يُفلِحُ مَن اتَّبَعه.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أن تنزلَ عَلَيكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ!».

الشرح

هذا الأثر بهذا اللفظِ ليس له أصلٌ في الكتب المُسنَدة التي بين أيدِينَا، وإنما ورَدَ في كلام العلمَاء مَنسُوبًا إلىٰ ابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بدون إسنَاد.

فقد وردَ في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وفي كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] منسُوبًا إلىٰ ابن عباس بدُون إسنَاد.

وكذا هو مَشهُورعلىٰ ألسنَةِ علمائنا المُعَاصرين بهذا اللفظ لكن بدون إسناد.

وقد جاء معناه بألفَاظٍ أخرىٰ: فقد روىٰ الإمامُ أحمدُ في «المُسنَد»[3]، وابنُ عبد البَر في «جَامع بيَان العِلم»[4]، وابن حَزم في «حجَّة الوَدَاع»[5] وغيرهم، لكن إسنَاده ضَعيف، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قالَ: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ عُروَةُ بنُ الزُّبَيرِ: نَهَىٰ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ عَنِ المُتعَةِ.

---

(١) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٥/ ١٢٦).

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦٨).

(٣) برقم (٣١٢١-الرسالة)، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٤) برقم (٢٣٧٨/ ابن الجوزي).

(٥) (ص٣٥٢/ بيت الأفكار).

فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟ قَالَ: يَقُولُ: نَهَىٰ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ عَنِ المُتعَةِ.

فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: أُرَاهُم سَيَهلِكُونَ، أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَقُولُ: نَهَىٰ أَبُو بَكرٍ وَعُمَر».

والمَقصُود هنا: مُتعة الحج وليست متعَة النساء.

ومعنىٰ (تمَتَّع): حَجَّ مُتمتعًا، **وهذا علىٰ أحَد وَجهَين**:

الوجه الأول: أن السَّلف كانوا يُسَمون القِرَان تمتعًا، فالقِران أحدُ التمتُّعَين.

والوجه الثاني: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَوِ استَقبَلتُ مِن أَمرِي مَا استَدبَرتُ مَا سُقتُ الهَديَ، وَلَحَلَلتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا»**[1].

ورَوىٰ ابن حزم في «حجَّة الوداع»[2] بإسناده إلىٰ الإمام عَبدِ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعمَرٌ، عَن أَيُّوبَ قَالَ: قَالَ عُروَةُ لِابنِ عَبَّاسٍ: **«أَلَا تَتَّقِي اللهَ، تُرَخِّصُ فِي المُتعَةِ؟!**

فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: سَل أُمَّكَ يَا عُروَةُ!

فَقَالَ عُروَةُ: أَمَّا أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ فَلَم يَفعَلَا.

فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: وَاللهِ مَا أَرَاكُم مُنتَهِينَ حَتَّىٰ يُعَذِّبَكُمُ اللهُ، أُحَدِّثُكُم عَن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُحَدِّثُونَنَا عَن أَبِي بَكرٍ، وَعُمَرَ...».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٩).

(٢) (ص٣٥٣).

يعني: تُعارضُون قولَ الرسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برَأي أبي بكرٍ وعُمرَ؟!؛ يُوشك أن يُعَذبَكُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وروىٰ هذا أيضًا ابن عبد البَر[1]، لكنه روَاهُ عن عبد الرزَّاق بِدُون إسنادٍ إلىٰ عبدِ الرزَّاق، بخلاف ابن حَزم؛ فقد ذكر إسنادَه إلىٰ عبدِ الرزاق؛ فهذا يَدُل علىٰ أن الأثر له أصلٌ، وأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خشيَ أن ينزل عذابٌ علىٰ النَّاس بسبب مُعَارضَة بعضِ الناس قولَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ): أي: يَقتَرب.

(أَن تَنزِلَ عَلَيكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ): يعني: أن يُعذِّبكم الله بنزول حجارَةٍ من السمَاء؛ لأن الحجارَةَ التي تنزل من السَّماء علىٰ بعض المُعَذَّبين ما هي من الظالمين ببعيد، كما أخبَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهذا ظُلم!

وبهذا تعرفُ لمَاذا قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -لو صَحَّ هذا الأثر عنه- بهذا اللفظ: «يوشِكُ أن تنزلَ عَليكُم حجارَةٌ من السَّماء»؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

(أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ): وأبُو بكر وعمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أفضلُ الأمَّة بعدَ نَبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الإطلاق.

وأفضلُ الأمَّة: الرسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) «جامع بيان العلم» برقم (٢٣٧٧).

من أمَّة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نزَل في آخر الزمان.

وبعضُ أهل العلم يُلغِزُ بهذا فيقُول: رجلٌ من أمة مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ من أبِي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟

وهو عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه عند نُزُوله عَلَيْهِ السَّلَامُ سيكونُ علىٰ شريعَةِ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أبو بَكر ثم عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فهما أفضَلُ الأمة؛ بل النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَرَ بالرجُوع إلىٰ سُنَّتهما في قَوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... **فَعلَيكُم بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1].

ومع ذلك يَقُول ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا للناسِ: يُوشك أن ينزل عليكم عذابٌ بسَبب مُعَارَضتكم قولَ الرسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا!

فكيفَ بمَن هو دُونَهما من أمةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

❊❊❊

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: «عَجِبتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذهَبُونَ إِلَىٰ رَأيِ سُفيَانَ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، أَتَدرِي مَا الفِتنَةُ؟ الفِتنَةُ: الشِّركُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ أَن يَقَعَ فِي قَلبِهِ شَيءٌ مِن الزَّيغِ فَيَهلَكَ».

الشرح

وهذا كلامُ الإمام أحمَد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ رواه بعضُ تلاميذه، وهو مَشهُور في كتب أصحَابه، سَواء في مُؤلفَاتِهم العقدية، أو مؤلفاتِهم الفقهيَّة[1].

وعندَنَا في هذا الكَلام أمرَان:

الأمر الأول: في قول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ

(١) ذكَرَه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ١٠٤)، وذكره بنَحوه ابنُ مُفلح فِي «الفروع» (١١/ ١٠٧).

وأخرجهُ بإسنادِهِ ابنُ بَطَّةَ العُكبَري في «الإبَانة الكُبرىٰ» (١/ ٢٦٠): عَنِ الفَضلِ بنِ زِيَادٍ، قَالَ: «سَمِعتُ أَبَا عَبدِ اللهِ أَحمَدَ بنَ مُحَمَّدِ بنِ حَنبَلٍ يَقُولُ: نَظَرتُ فِي المُصحَفِ فَوَجَدتُ فِيهِ طَاعَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوضِعًا، ثُمَّ جَعَلَ يَتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. وَجَعَلَ يُكَرِّرُهَا، وَيَقُولُ: ومَا الفِتنَةُ؟ الشِّركُ. لَعَلَّهُ أَن يَقَعَ فِي قَلبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيغِ فَيَزِيغَ فَيُهلِكَهُ. وَجَعَلَ يَتلُو هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]».

فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾): حيث حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ هذا التحذيرَ الشَّديد للذِينَ يُخالِفُون عن أمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ مع أن هذا الفعل (خَالَفَ) يتعدَّىٰ بنفسه، يُقال: خَالَفَ أمرَ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفلان يُخالف أمرَ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلماذا أدخل الله عَزَّوَجَلَّ الحرف (عن) هنا؟

وفائِدَةُ ذلكَ -كمَا قال العُلمَاء-: أن المُخَالفة هنا ضُمِّنَت الإعراض، **فأصبح المَعنىٰ:** «فليَحذر الذين يُخَالفون أمر النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُعرِضين عنه إلىٰ غيره»!

إذَن ليس المقصُودُ كلَّ مُخَالفة؛ لأن الإنسانَ قد يُخَالف الحديث اجتهادًا، وهو لا يعلمُ بالحديث، أو يخالف جهلًا؛ فهذا لا يدخل في النَّهي.

وإنما الذي يدخُل في هذا هو مَن يعلمُ أمرَ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثم يُعرض عنه ويُعطِيه ظهرَه إلىٰ غيره، حَذَّرهم هذا التحذير الشَّديد: ﴿ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾!

﴿ فِتْنَةٌ ﴾: **قال بعضُ أهل العِلم:** بليَّة تنزلُ بهم.

وقال بعضهم: عُقوبة.

وقال بعضهم: بلاءٌ في القلب؛ إما شرك وإما بدعة. وهذا هو الرَّاجح.

فالذي يُعرِضُ عن أمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقع في الشِّرك؛ يقعُ في الشرك الأصغَر علىٰ ما بينَّا، أو يقعُ في الشِّرك الأكبَر علىٰ ما بينَّا، أو يقع في بِدعَة، ويَعتقدُ أنه أحسَن من النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ!

لا أظنُّ أنه يُوجدُ مسلم يشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله يستطيع أو يجرؤ أن يقُولَ بلسَانه: إنه أحسَنُ من النبي ﷺ!

وإنما يكون ذلك بحَاله وفِعله، فهناك كثيرٌ يَفعلُون البِدَع؛ وحالهم يَقُول: نحن أفضل من النبي ﷺ؛ لأنهم يفعلون ما لم يَفعَله النبي ﷺ، ويعتقدون هذا دِينًا.

فهذه الآية دليلٌ على عِظَم مُصيبَة مَن أعرض عن أمرِ النبي ﷺ، وطلبَ الهُدىٰ في غيره مع علمه بأمرِ رسُولِ الله ﷺ.

الأمر الثاني: قول الإمام أحمد حيث قال: **(عَجِبتُ)**: وهذا تعجبُ استِنكَار.

(لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسنَادَ وَصِحَّتَهُ): أي: أنهم يعرفونَ الأدلَّة وليسُوا عوَامَّ لا يعرفون الأدلة.

(يَذهَبُونَ إِلَىٰ رَأيِ سُفيَانَ): وهو من كبَار العُلماء وخِيَارِهم، ولكن الإمام أحمد تكَلَّم عن أقوام يَعرفُون الحديثَ الصحيح ويَتركونه إلىٰ رَأي سُفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]**، أَتَدرِي مَا الفِتنَةُ؟ الفِتنَةُ: الشِّركُ)**: هذا أحدُ الأوجُه.

(لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ أَن يَقَعَ فِي قَلبِهِ شَيءٌ مِن الزَّيغِ فَيَهلَكَ): يقع في قَلبِهِ شيءٌ من الشِّرك، ثُم قد يعظُم حتىٰ يصل الشركِ الأكبر والعياذُ بالله؛ فيَهلِك .

وهذا الكلامُ للإمام أحمد مثالٌ لكلام العلمَاء المُتقدمين، وإلا فالعلماء

المتقدمون تتَّحد كلمتُهم علىٰ أن الحق مَربُوط بالدليل، وأن التعبدَ مربُوط بالدليل، وأن العلماءَ مُرشِدُون إلىٰ الحَقِّ، وليس لمَن ظهر له الدَّليل أن يتركَهُ من أجل قول عَالِم، هذا محَل اتفاقٍ بين العلماء المُتقدمين.

ولا شكَّ أن تَركَ الدليلِ من أجل قَولِ عالِم مَعذُور لم يَطَّلع علىٰ الدليل خلافُ الشرع وخلاف العَقل:

أما كَونُه خلاف الشرع: فإن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

وأولو الأمرِ هم: العُلماء والحُكَّام المُسلمون، فأمَرنا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن نُطيعَهُم في غير المَعصية.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾: أي: فإذا وقع الخِلافُ بين العُلماء؛ فهَل قال الله: فرُدُّوه إلىٰ الله والرسُول وأولي الأمر منكم؟ لَا.

بل قَال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فلا يُرَد إلىٰ الخِلاف، وإنما يُرَد إلىٰ الكتاب والسُّنة، ويُؤخذ بما دلَّ عليه الدليل.

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: فإنكم ستلقَونَ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وسيُحاسبكم علىٰ ذلكَ الذي تَفعَلُون.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: أي: والردُّ إلىٰ الكتاب والسُّنة خَير لكُم في دِينِكم.

﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾: يعني أحسَنُ عاقبة لكُم في أمورِكم.

إذن؛ المَشرُوع لنا إذا اختلف العلماءُ أن نَرُد إلىٰ الكتاب والسُّنة، ونأخذ من أقوالِ علمائنا بمَا قوَّاه الدليلُ.

وأمَّا كونُه خِلاف العَقل: فإن مَن وصَلَ إلىٰ المقصود ثم تَركه لمُخالفته طريقةً من طرُق الوصول إليه؛ يكُون فِعلُه مخالفًا للعَقل!

وأضرب لكم مثالًا يبين لكم هذه القاعدة: فلو أن رجلًا في صَحنِ المَطاف يرىٰ الكعبة بأمِّ عينيه أرادَ أن يُصَلي، فأخرج البوصلة ووضَعَها علىٰ الأرض، وأشارت البوصلة إليه علىٰ خِلاف الكعبة؛ فجعلَ الكعبَةَ خَلفَ ظَهره وكبَّر يريد أن يُصَلي!

فإذا قيلَ له: أليسَت هذه الكعبة وأنت تَرَاها؟! قال: بلىٰ، قيل: فلمَاذا لا تصَلي إليها؟!، قال: لأن البوصلة التي تُرشِدُني إلىٰ الكعبة، قالَت: إن القِبلَة إلىٰ الجهة الأخرَىٰ، هل هَذا عاقل؟

لا واللهِ، فكذلكَ العُلماء، العلمَاءُ طَريق مُوصلٌ إلىٰ الحقِّ؛ فإذا تبيَّن للإنسان الحَق بالدَّليل؛ وجَبَ عليه أن يأخذ به.

أما الذي يقول: لا، أنا لا آخذُ بِقَول الله وبقَولِ رسُوله ﷺ، وإنما آخذُ بقَول العالِم الفُلاني؛ لأن العالم الفُلاني مَا قال بهذا الدليل!

فهذا يترك الحَق الذي يَرَاه ووصلَ إليه من أجل اختلافِ الطَّريق، وهذا خلاف العَقل!

إذن؛ الشَّرع والعَقلُ يدعونا إلىٰ أنه إذا اختلف العُلماء نأخذ بالقَول الذي دلَّ

عليه الدَّليل واتضَح لنَا، مع معرفة فَضلِ العلماء وعَدم سُوءِ الأدب مَعهم.

والعلمَاءُ يَستَدلون بهذه الآية التي استدَلَّ بها الإمامُ أحمد علىٰ وجوبِ العملِ بقَولِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووجُوب العمَل بفِعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ رَجلٌ للإمامِ مَالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِن أَينَ أُحرِمُ؟ قَالَ: مِن حَيثُ أَحرَمَ رَسُولُ اللهِ. قالَ الرجُلُ: فَإِن أَحرَمتُ مِن أَبعدَ مِنهُ؟

قَالَ: فَلا تَفعَل فَإِنِّي أَخافُ عَليكَ الفِتنَةَ! قَالَ: وَأيُّ فِتنَةٍ فِي ازدِيَادِ الخَيرِ؟!

فقَالَ مَالِكٌ: فَإنَّ اللهَ تَعالىٰ يقُولُ: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور:٦٣].

وأيُّ فِتنَةٍ أعظَمُ مِن أَن تَرَىٰ أَنَّكَ خُصِصتَ بفَضلٍ لَم يُخَصَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ؟!»[1].

وقَال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «الأم»**[2]: «قَالَ تَعالىٰ: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ**﴾: فَعُلِمَ أَنَّ الحَقَّ كِتَابُ اللهِ، ثُمَّ سُنَّةُ نَبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَيس لِمُفتٍ وَلَا لِحَاكِمٍ أَن يُفتِيَ وَلَا يَحكُمَ حَتَّىٰ يَكُونَ عَالِمًا بِهِمَا وَلَا أَن يُخَالِفَهُمَا وَلَا وَاحِدًا مِنهُمَا بِحَالٍ فَإذَا خَالَفَهُمَا فَهُوَ عَاصٍ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَحُكمُهُ مَردُودٌ...».

فمَن خالف الكتابَ والسنة؛ سواء كان مُفتيًا أو حاكمًا، مع علمه بالدَّليل؛ فهو عاصٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقولُه وحُكمه مَردُود، لا يجُوز العملُ به، وهذا هو الذي اتفقَت عليه كلمةُ العُلماء.

---

(١) «الباعث علىٰ إنكار البدع والحوادث»، لأبي شامة (ص٢١).

(٢) (٧/ ٩٨/ دار المعرفة).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةَ [التَّوبة:٣١]، فَقُلتُ لَهُ: إِنَّا لَسنَا نَعبُدُهُم. قَالَ: «أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ؛ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلتُ: بَلَىٰ. قَالَ: «فَتِلكَ عِبَادَتُهُم» رَوَاهُ أَحمَدُ، وَالتِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

الشرح

حَديثُ عَدي بن حَاتِم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رواهُ جمعٌ من أهل العِلم؛ منهم: التِّرمذيُّ، والطَّبَري، والطبراني في «الكبير»[1].

ولم أرَ هذا الحَديث في «مُسنَد الإمام أحمد».

والشيخ هنا قالَ: إن الترمذي حسَّنه؛ والذي رأيتُه في الطبَعَات التي بين يَدي أن الترمذيَّ قالَ: «هذا حديث غَريبٌ لا نعرِفُه إلا من حَديث عبد السَّلام بن حرب، وغُطَيف بن أعيَن ليسَ بمَعرُوفٍ في الحَدِيث».

وإذا قال التِّرمذي: «هَذا حديثٌ غريب» فقَط؛ فهذا يعني أن الحَديث ضعيفٌ عندَهُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٤١٧)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢) برقم (٢١٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وقول الترمذي: «وغُطَيف بن أعيَن ليس بمَعرُوف في الحَديث»؛ أي: أنهُ مَجهُول.

ووجدت الشيخَ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الصحيحة»[1] قال: «قال الترمذي: حسَن غريب». فزاد: حسَن.

ثُم قالَ الألبَانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التحسينُ المَذكُور لم يَرِد في النسخةِ التي نَنقل عنها، وإنما هي زيَادة استفَدتُها من تخريج الكشَّاف للحافظ العسقَلاني... والدُّر المنثور للسيُوطي».

فعلمنا من كلام الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تحسينَ الترمذي للحديث معروفٌ عند العلماء، ذكَرَهُ ابنُ حجر، وهو من الحُفَّاظ، والسيوطي، وجَمعٌ من أهل العلم، فلعَلَّه في نسخة لم تَبلُغنا، وإنما في النُّسَخ التي بلغَتنَا أنه قال: «حديثٌ غَريبٌ».

وقد ذكَر الشيخُ نَاصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحَديثَ في «السِّلسلة الصحيحة»[2]، وحَكَم عليه بأنه حسَن، فهو صالحٌ للاحتِجَاج .

(عَن عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ)**: وذلك قبل أن يُسلِمَ جاءَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُتعَلِّق صليبًا من ذهبٍ؛ لأنه كان نصرانيًّا، فقال له النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا عَدِيُّ أَلقِ عَنكَ هَذَا الوَثَن»**

---

(١) عقب الحديث رقم (٣٢٩٣).

(٢) برقم (٣٢٩٣).

فنحَّاه عَنه، فاقتَرب من النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَمِعَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هَذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

(﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ ﴾): جمع (حَبر أو حِبر)، والأحبار من اليهود.

(﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾): جمع (رَاهِب)، وهو من النَّصارىٰ .

فالأحبَارُ: هم الذين يحملونَ ما أُثِرَ عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بزَعمِهم، وهو ما يسمَّىٰ بالعهد القديم، ونقول: بزعمهم؛ لأن أكثر الذي في أيدِيهِم ليسَ مَأثُورًا عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنمَا هو مُحرَّف .

والرُّهبَان: هم الذين يحمِلُون المأثور عن موسىٰ وعيسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بزعمهم؛ أي: ما يُعرَف بالعهد القديم والعَهد الجَديد؛ فالأحبار علماءُ اليهود، والرهبَانُ عُلمَاء النصارىٰ .

(**فَقُلتُ لَهُ: إنَّا لَسنَا نَعبُدُهُم**): ففَهِمَ عَدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من قولِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرْبَابًا ﴾؛ ومعنىٰ (أربَاب)؛ أي: مَعبُودات؛ ولذلك عدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لَسنَا نَعبُدهم».

(**قَالَ: «أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ؛ فَتُحَرِّمُونَهُ**): يعني: وأنتُم تَعلمُون؛ فالأحبَار والرهبان من وظائفهم تغيير الأحكام؛ حيث يَكونُ مذكورًا في الكتاب أن هذا حرَام، فلهُ أن يقول لهم: هذا حلال!

(**وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ فَتُحِلُّونَهُ؟**): يعني: وأنتُم تَعلَمُون.

(**فَقُلتُ: بَلَىٰ**): أي: هذا يكُونُ وهذا الواقِع؛ أن اعتقَادَنا وعمَلَنا تابع لقَولِ

الأحبَار والرهبَان.

(**فَتِلكَ عِبَادَتُهُم**): فتبَيَّن أن طاعة الكُبَراء والعلماء الطاعة المُحرَّمة التي فيها مُخَالفة لطاعة الله وطاعة رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبادَةٌ لَهُم، فأدنىٰ ما تكون أنها **شِركٌ أصغَر**، وقد تصِلُ إلىٰ أن تكون **شِركًا أكبر** يُخرِج من المِلَّة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تفسِيرُ آيَةِ النُّور.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الثَّانِيَةُ: تفسِيرُ آيَةِ بَرَاءَة.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

الثَّالِثَةُ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ مَعنَىٰ العِبَادَةِ الَّتِي أَنكَرَهَا عَدِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهي عبادَةُ (الطَّاعة)؛ أنهم يُطيعُونَهم بخلافِ طاعة الله وطَاعة رَسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرَّابِعَةُ: تَمثِيلُ ابنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وَتَمثِيلُ أحمَدَ بِسُفيَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يعني: تَمثيل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بأمثل وأحسَن وأعلم أهل زمَانه: أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأنه لا يجوز للمُسلم أن يعترض علىٰ قول الرسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول أبي بكر وعُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ فكيف بمن دُونَهما من العلماء؟!

وتَمثيل الإمام أحمد بسفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي كان من كبَار عُلماء عصره، وإليه المنتهىٰ في العلم؛ فكيف بمن دونَهُ من العُلماء؟!

الخَامِسَةُ: تَغيُّرُ الأَحوَالِ إِلَىٰ هَذِهِ الغَايَةِ، حَتَّىٰ صَارَ عِندَ الأَكثَرِ عِبَادَةُ الرُّهبَانِ هِيَ أَفضَلُ الأَعمَالِ، ولاسِيَّمَا الوِلايَةَ، وَعِبَادَةُ الأَحبَارِ هِيَ العِلمُ وَالفِقهُ،

ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الحَالُ إِلَىٰ أَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ مَن لَيسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالمَعنَىٰ الثَّانِي مَن هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ.

فإن الجهل قد كثُرَ في أمة مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ تغيَّرت الأحوال إلىٰ هَذه الغاية من السُّوء؛ فتغيرت أحوال كثيرٍ من الأمة لا كُل الأمة: من السُّنة إلىٰ البدعة، ومن التَّوحيد إلىٰ فعل الشِّرك؛ ظنًّا أنه التوحيد، بسَبب اندثار العلم وقِلَّة المُعَلِّمين للتَّوحيد؛ حتىٰ صار عند الأكثَرِ عبَادة الرهبان، وهي طاعة العُلماء في مخالفة طاعةِ الله وطاعة الرسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هي أفضَل الأعمال!

حتىٰ قالَ قائلٌ -والعياذُ بالله ممَّا قال-: (إن الأخذَ بالظَّواهر كُفر)[1]!

قال: (**ولاسيَّما الوَلَايَة**): هكذا في بعض النُّسَخ، وفي بعض النُّسخ: (**وتَسميتها الولايَة**)، وفي بعض النسخ: (**وتُسمىٰ الوَلايَة**)؛ يعني: أن بعضَ النَّاس يقول: الولي له ما لله! حتىٰ بلغ بحالِ بعض أهل هذا العَصر أن يقول أحدُ غُلاة الصوفية المُنحَرفين الضُّلال: إن للوَليِّ أن يخلُقَ الجنين في بطن أمِّه، وإنما مَنَعَهم من ذلك خَوف اختلاط الأنسَاب!

فوصَلَ الأمرُ إلىٰ الشِّرك في الربُوبية، والذي ما جَرُؤَ أن يقول به كفَّار قُريش!

---

(١) قال أحمَد بن مُحمَّد الصَّاوي في حَاشِيَته علىٰ «تَفسير الجَلالَين» (٣/ ٩)، (سُورة الكَهف: آية ٢٣): «ولا يَجُوز تقليدُ ما عدا المذاهبِ الأربعَة، ولو وافقَ قَول الصَّحابة والحَديث الصَّحيح والآية، فالخَارجُ عن المَذاهب الأربعة ضَالٌّ مضلٌّ، ورُبَّما أدَّاه ذلك للكُفر؛ **لأنَّ الأخذ بظَواهِر الكتاب والسُّنة من أصولِ الكفر!**».

وانظر في الردِّ عَليه: «أضواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٤٣٧-٤٤٣)، ورسَالة «تنزيه السُّنة والقُرآن عن أن يكونَا من أصولِ الضَّلال والكُفران» لأحمد بن حَجر آل بُوطامي.

ويَقُولُون: إن أولياءَنا وساداتنا هم الأقطابُ والأوتاد الذين يتحكَّمون في الكون!

هذا معنىٰ قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وتُسَمىٰ الولَايَة**»، وهي ليست الولايَة الشرعية التي في الكتاب والسُّنة، ويُثبتها عبادُ الله من أهل السُّنة والجَماعة؛ وإنما الولاية التي أدخلَها الشيطانُ علىٰ بعض أمة مُحَمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(**وَعِبَادَةُ الأَحبَارِ هِيَ العِلمُ وَالفِقهُ**): يعني: أن يَرُد الدليلَ من القرآن والسُّنة لقول عالِم من العُلماء؛ فأصبح هذا هو الفِقه، ويُنهىٰ عن التفقُّه بالأدِلَّة.

قال: (**ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الحَالُ إِلَىٰ أَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ مَن لَيسَ مِنَ الصَّالِحِينَ**):

وعبَادَة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلها شَر، لكن بَعضَ الناس كانوا يَعبُدون الصالحينَ؛ فتغَيَّر الأمر عند بعض الأمة حتىٰ أصبحوا يَعبُدون من ليسُوا من الصالحين، وكل من قِيل لهم أنه سَيد وصاحب مقام وصاحب ولاية؛ عَبَدُوه!

(**وَعُبِدَ بِالمَعنَىٰ الثَّانِي**): يعني: بمعنىٰ الاتباع لأقوالهم (**مَن هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ**)!

وهذا حاصلٌ خاصَّة في زمانِنا اليوم؛ زمان الفضَائيات؛ فالشيخ الذي تَدعَمُه القنواتُ الفضَائيَّة أو يكون عنده متابِعُون بالملايين؛ قد يكون يظهر في القنوات الفضائية وهو عَالِم؛ وقد يَكُون له مُتَابعون وهو عَالِم؛ لكن اليومَ المِيزان عند الناس ليس العِلم، وإنما الظهُور والبُروز؛ فيُطَاع مَن لا علم عِندَه، أو من قَلَّ علمُه، ويُقَدَّمُ علىٰ العلماء، ويُترك كلام العلماء بالأدلة من أجل كلامه؛ حتىٰ أصبح بعضُ الناس عقائِدُهم مَنُوطة بالكلام، فإذا جاء شخصٌ من المشاهير

وقال كلامًا غَيَّر عقيدَتَهُ علىٰ حسَب ما يَقُول هذا!

ونَحن نَقُول: المَشهُور والمَغمُور ميزانُه **(العِلمُ الصَّحِيح)**؛ فمَن كان علىٰ علم صَحيح يُعلِّم الناس قال الله قال رسوله ﷺ، ولم يُعرَف بانحراف فهو عالم، سَواء كان مَغمُورًا أو مَشهُورًا؛ أما من عُرِف بمُخَالفة العلماء، وقِلَّة العلم، والإتيان بشَوَاذ الأمور؛ فهذا يدخُلُ في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فأصبح بعض الناس يتلَقَّون دينَهُم عن المَجَاهيل!، وبعض الناس يأخُذون الفتَاوىٰ من أي كَلام يُذكَر علىٰ الإنترنت، ويَستفتون المَواقِع، وهم لا يعلَمون مَن القائل، ولا مَا دليله؟!

وهذا خطَرٌ عظيم علىٰ الدِّين، فيجبُ علينا جميعًا أن نعمَلَ جاهدين علىٰ رَدِّ أمَّتنا إلىٰ الصِّراط المُستقيم، وهو لزومُ العُلماء، وهذه الأمة خيرُها وبركتُها في أن تجتمع مع علمَائها، وأن ترجعَ إلىٰ علمائهَا، وأن تجلسَ إلىٰ علمَائها، وأن تأخذ الأحكامَ من علمَائها، وأن تُعظِّم الدليل؛ فَليس البحثُ عن الأيسَر والترخص في الفتاوىٰ؛ بل البحث يكونُ عن الحق والصَّواب والحُكم الشَّرعي الصحيح المُعتَبر.

فعزُّ الأمة ونورها العِلم، والرجُوع إلىٰ العلماء المَعرُوفين الذين ينتَصِبُون إلىٰ التعليم في الأمَاكنِ الظاهِرَة المَعرُوفة، والذين يُشهَدُ لهم بالعلم، وأن يُتَلَقَّىٰ عنهم العِلم، وأن تؤخَذ عنهم الفتاوىٰ.

ومن الظلم البَيِّن أن يُرجَع إلىٰ غير العُلماء، وأن يُؤخَذ الدِّينُ عن غير العلمَاء؛ وأن يُقَدَّم الصِّغارُ علىٰ الكبار، وألَّا يُلتَفت إلىٰ ما اقتضته الأدلة الشَّرعيَّة.

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

الشرح

هذا الباب مُتعلق بالكلام عن لوازِم التوحيد وما يُضَاد ذلك، وهذا الباب مُرتبط بالباب السابقِ ارتباطًا بيِّنًا شديدًا، وذلك أن من لَوازم التَّوحيد: أن يكون التشريعُ لله عَزَّوَجَلَّ، فيجب أن تكون الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ، ويُضَاد ذلك أن يطَاع مخلوقٌ فيما يخَالفُ طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا تقدَّم في البابِ السَّابق.

ثم ما دام أن التشريعَ والحُكم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فإنه يجبُ أن يكون التحاكُم إلىٰ شرع الله، ويُضَاد ذلك أن يكون التحاكم إلىٰ ما يخالف شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا الذي يُقَرره الشيخ في هذا الباب.

إذن البابانِ مُتَعلقان بالتشريع، ولكن الباب السَّابق متعلقٌ بالطاعة، وهذا الباب متعلق بالتحاكُم.

فمن لوازم التَّوحيد: أن يكون الحكمُ لله عَزَّوَجَلَّ؛ فيكون الشأنُ عند المؤمن كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيهِ الحُكمُ**» رواهُ أبو داودَ، وصحَّحه الألبَاني[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فمِن لوازم التَّوحيد التي هي من قَطعيَّات الشَّريعة: أن الحُكمَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧]، فالحُكم كله لله عَزَّوَجَلَّ.

وكما قال سبحانه: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [الأنعام:٦٢]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحُكم كونًا وقَدرًا، وله الحُكم شرعًا وأمرًا، وله الحكم جزاءً وعقابًا.

وما دام ذلك كذلك؛ فإنه يجب أن يكونَ التحاكُمُ إلىٰ حكم الله وإلىٰ شَرع الله عَزَّوَجَلَّ.

والتحاكُم بينَ الناس علىٰ ثَلاثَة أنحَاء:

الأول: التحاكم إلىٰ شَرع الله إذا وقع بين الناس نزاعٌ في أمر من أمورِهِم الدِّينية أو الدنيوية، فيتَحَاكمون إلىٰ الكتاب والسُّنة، وهذا فرضٌ من الفرائض القطعيَّة في الدين، ولا عدل في غيره، إنما العدلُ في التحاكمِ إلىٰ شَرع الله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: التحَاكُم إلىٰ أنظِمَة تُخالف شرع الله، فللهِ حُكم، وللنِّظام والقَانُون حُكم آخر، والعياذ بالله!

فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: تُقطَع يد السَّارق، والنظام يقول: يُسجَن السارق ولا تُقطَع يَدُه!

فالتحاكُم إلىٰ هذه الأنظمة التي تخالفُ شَرع الله عَزَّوَجَلَّ معصيَةٌ كبرىٰ وجريمة عُظمىٰ، وسببٌ للظلم وللفسَاد في الأرض، وسيأتي فيها تفصيلٌ في درجَات هذا الحكم إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

والثالث: التحاكُم إلىٰ أنظمة بشرية لا تُخَالف شرعَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل هي في

أمور مَسكُوت عنها شرعًا، أو نحو ذلك مما لا يخالف شرعَ الله، وهذا التحاكُم جائزٌ، وهو في حقيقته راجعٌ إلىٰ التحاكُم إلىٰ شرع الله؛ لأن شرع الله عَزَّوَجَلَّ جاء بالعَدل وبحفظ ضروريات الناس، فإذا وجدَت أنظمةٌ تَحفظ للناس العدل وضرورياتهم وهي لا تخَالفُ شرع الله عَزَّوَجَلَّ فهي من شَرع الله ومُقتَضاه.

وهذا مراد قول الإمامِ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الله سُبحَانَهُ أَرسَلَ رُسُلَهُ، وَأَنزَلَ كُتُبَهُ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسطِ، وَهُوَ العَدلُ الَّذِي قَامَت بِهِ الأَرضُ وَالسَّمَوَاتُ، فَإِذَا ظَهَرَت أَمَارَاتُ العَدلِ وَأَسفَرَ وَجهُهُ بِأَي طَرِيقٍ كَانَ، **فَثَمَّ شَرعُ اللهِ وَدِينُهُ**»[1].

وليسَ المَقصُود أن للبشَر أن يضعوا أنظمةً تخالفُ شرع الله ويَعتقدونَ أنها تحققُ العدلَ؛ لأن هذا لا عدلَ فيه، وإنما المقصود أنه إذا وجد العدلُ بالحُكم بأن كان بما نصَّ عليه في الكتاب والسُّنة، أو أجمعَ عليه علماءُ الأمة، أو كان باجتهادٍ عند عدم النَّص، سَواء جُعل ذلك النظام أو رجع إلىٰ القاضي، فهذا من حكمُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المقصودَ من حُكم الله العَدل بين الناس وحِفظ ضرورياتهم، وبهذا تعلَمُ جوابَ السؤال: متىٰ يكونُ التحاكم إلىٰ الأنظمة البشرية معصيَةً كبرىٰ علىٰ ما يأتي تفصيلُ أحكامه؟ ومَتىٰ يكون جَائزًا؟

فالجَواب: إذا كان النظام البَشري مُخَالفًا لشرع الله، بحيث وجدَ نَص علىٰ الحُكم، ووُضِع في النظام حكم يُخَالفه، فهذا جريمةٌ كُبرىٰ ومَعصية عُظمىٰ.

أما إذا كانَ النظام البشَري لا يُخَالف شرعَ الله، ويحقق المقصود الشَّرعي من التحاكم؛ فالتحَاكُم إليه جائز.

---

(١) «الطرق الحكمية» (ص١٣/ مكتبة دار البيان).

وإذا كان ذلك كذَلك؛ فإن التحَاكُم إلىٰ أنظمةٍ تُخالف شرعَ الله ليس علىٰ درجَةٍ واحدة؛ بل هو علىٰ أقسَام، ولابُدَّ من ضَبطِها حتىٰ لا تَختلطَ الأمورُ علىٰ الناسِ:

القِسم الأول: أن يتحاكمَ المُتحاكِم إلىٰ تلك الأنظمة مُتنَقِّصًا شرعَ الله، وكارهًا لشرع الله، مثل أن يستكبر عن شَرع الله، ويرىٰ أنه أكبَرُ من أن يُحكَم عليه بشَرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

أو يَقول: الشريعةُ لا دخلَ لها في هذهِ الأمور، فهذه تجارة ولا دخلَ للدِّين في التجارة، فهو يتحاكم إلىٰ الأنظِمَة البشريَّة مع إعراضِه عن حُكم الله وكَراهيته لحكم الله، وهذا -والعياذ بالله- **كفر أكبر.**

القسم الثاني: أن يتحَاكمَ إلىٰ تلك الأنظمَة المُخَالفة لشَرع الله، وهو يَعتَقد أنها أحسَنُ من حُكم الله، وأحرىٰ بتَحقيق العدل من حُكم الله، **وهذا كُفر أكبَر.**

القسم الثالث: أن يتحاكَم إلىٰ تلك الأنظمة المُخَالفة لشَرع الله عَزَّوَجَلَّ، وهو يعتقدُ أنها مُسَاوية لشرع الله، فالكُل عنده سَوَاء، ما جَاء في كتاب الله وما جَاء في سُنَّة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده مُسَاوٍ لما جاء في كتاب القَانُون الفَرنسي أو القانون الإنجليزي، أو ما وَضَعه مَن يُسَمونهم بفقَهَاء القانون، ممَّا يُخَالف شرع الله، **وهذا أيضًا كُفر أكبَر.**

القسم الرابع: أن يتحَاكمَ إلىٰ تلك الأنظمَة المُخَالفة لشَرع الله، وهو يعتقدُ أن حكمَ الله أحسَنُ وأكمل وأعدَل، لكن يعتقد أنه يَجُوز التحاكُم إلىٰ ما خالَفَهُ، **وهذا أيضًا كفر أكبر.**

وهنا أمران لابُدَّ من فَهمِهما والانتباه لهُما:

الأمر الأول: أن الحُكمَ هنا علىٰ الفِعل لا علىٰ الفاعل، فنحنُ هنا لا نحكُم علىٰ المُتحاكم، ولكن نحكُمُ علىٰ التحَاكُم الذي هو الفِعل، أما الحُكم علىٰ الفاعلِ فله شأنٌ آخرُ يُنظَر فيه في اجتماعِ الشروط وانتفاء الموانع كما هو معلوم.

وهذا الحال في «كتَابِ التَّوحيد» كُله؛ فإن ما يذكُره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أحكَام إنما هي أحكامٌ علىٰ الأفعال لا علىٰ الفَاعِلين.

وهنا يُخطِئ فريقان عند قراءة «كتَابِ التَّوحيد»:

الأول: فريق يكفِّر الناسَ بأعيانهم بمُجَرد فِعل ما بيَّن الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكتاب أنه كُفر أكبر أو شِرك أكبر، فكلما وَجَد من فعَل ما بيَّن الشيخ أنه كُفر أكبر أو شرك أكبر قال: كافر بعَينه، مُشرِك بعينه، وهذا خطأ؛ لأن الحُكمَ علىٰ الفعل يختلف عن الحُكم علىٰ الفَاعِل.

والثاني: فريق يتهم «كتَاب التَّوحيد» بتكفير الناس، ويأتي علىٰ ما قال فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كفر أو شرك، فيظن خطأ أن الشيخ يريد تكفير الناس بهذا!

وهذا الذي ذكرَه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ موجُودٌ في القرآن والسُّنة؛ ولكنَّهم لم يفهَمُوا هذه القضيَّة الشَّرعية علىٰ وجهها الصحيح المقصود من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وهي: أن الحكم هنا إنما هو علىٰ الأفعَال لا علىٰ الأشخَاص.

ويُلحَق بهم فريقٌ ثالث أذكره من باب المُنَاسبَة:

وهم الذين يُرَسِّخون في أذهانِ الناس أن الحكمَ علىٰ مُعَين بأنه كافر يعني

جوازَ قَتلِه!

فإن كثيرًا من وسائل الإعلام اليوم، وكثيرًا من الذين يتكَلَّمون -ولا علم عندهم في الحقيقة وإن أخذوا شهادات- يُكَرِّسون في أذهان السَّامعين أن مَن حُكمَ عليه بالكفر بعينه جازَ قَتله؛ ولذلك كلما وجَدُوا عالمًا قال: فُلان كافر؛ قالوا: هذا هو الذي يَحُث علىٰ القتل، وهذا هو الذي جعلَ بعضَ شَباب المسلمين يَقعُون في وَحل دمَاءِ الناس!

ونجد أن بعض الشبابِ يُفَجِّرون ويُقَتِّلون ويدمرون، وقد يقتلُ الواحدُ منهم نفسَه في هذا، وهو يظن أنه بهذا يجاهد في سَبيل الله؛ لأنه كُرِّس في ذهنه أن من حُكِم بكُفرِه جازَ قَتلُه، وهذا مُخَالف لشَرع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه لا يجوزُ قَتل أحدٍ إلا بجَريمة ثابتة وبِحُكم ممَّن له الحُكم، وفي هذه الحَالة لا يُنَفِّذ ذلك إلا ولي الأمر، أو من يُنيبه (وزيره ومَن يُمَثله)، ، فهذا الأمر ينبغي أن يُتنبه له.

فأهلُ السُّنة والجماعة في كَلامهم العدلُ والحِكمة والرَّحمة؛ يُفَرقون في الحكم بين الفعل والفَاعل.

والأمر الثاني: أن هذه الأحكَام المَذكُورة كما سَمِعتُم مُتَعلقة بأمر خفي (متعلقة بما في القَلب)، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يتسلط علىٰ قلوبِ الناس، وأن يقول: هذا يعتقد كذا، وهذا يعتقد كذا، إلا إذا صرَّح هو بمُعتَقده، والأصل فيمَن أتىٰ بالشهادتَين الإسلام حتىٰ يثبت خلافُ ذلك.

إذن؛ ذكَرنا فيمَا سَبق أربعَة أقسام كلها من الكُفر الأكبَر.

والقسم الخَامس: أن يتحَاكمَ إلىٰ تلك الأنظمة، وهو يعتقد أنه عَاصٍ، ولكن

تغلبُه شهوته وهواه، **فهذه كبيرةٌ من كبائر الذنوبِ وليسَت كُفرًا.**

مثال ذلك: شخصٌ تعامَل بمعاملة ربوية فأقرضَ شخصًا مائة ألف علىٰ أن يردَّها مائتَي ألف، ثم اختصَما، والمُقرِض هنا يعلمُ أنه لو تحاكَم إلىٰ المَحكَمة الشرعية ستحكُم بردِّ رأس ماله فقط -أي: أن يَرُد له مائة ألف فقط-، لكن لو تحاكَمَ إلىٰ القانون فسيَحكُمون له بمُقتَضىٰ العقد، وكما يَقُولون: العقد شريعَةُ المتعَاقِدين؛ فيحكمون له بمِائَتي ألف، فلشَهوَته وهواه تحاكَمَ إلىٰ القانون، وهو يعتقدُ أنه عاصٍ، ولكنه يُريد الدنيا، فهذه مَعصيَةٌ كُبرىٰ، ومن كبائر الذنوب، وهو علىٰ خَطَر عظيم!

وبَقِيَ أمرٌ يتحدَّث عنه العُلماءُ ويحتَاج إليه الناس، ولابُدَّ من بيَانه: وهو التحاكُم إلىٰ أنظمَة تُخَالف شَرع الله حالَ الاضطرار إذا كان الإنسان مضطرًّا.

مثالُ ذَلك: تعامَل تاجرٌ مُسلم مع تاجر كافر في بلد ذلك التَّاجر الكافر، ثم وقعت بَينَهما خصُومَة، فهنا لا يُمكن للتاجر أن يتحاكَمَ إلىٰ المَحَاكم الشَّرعية في البلد المُسلم؛ **لأن القضيَّة وقعت في بلد الكفر فهو بَين أمرَين:**

إمَّا أن يتحاكم إلىٰ المَحَاكم في بلاد الكُفر، وهي تَحكُم بالأنظمَة التي تُخالف شَرعَ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وإمَّا أن يُضيع حقَّه. فليس عندَهُ إلا أَحَدُ هذَين الطريقَين.

وأشَدُّ من ذلك اضطرَارًا: لو أن التاجرَ الكافرَ رفع القَضيَّة إلىٰ المَحكمَة في بلاده، وليس عند التاجر المُسلم أي اختِيَار؛ هل يرفع أو لا يَرفَع؟، القضية رُفِعَت وهو مُلزَم، فهذه من صُوَر الاضطرار.

ومن صُوَر الاضطرار التي تقعُ بين المسلمين اليوم الذين يعيشون في أوربا:

لو أن رجُلًا ترَكَ زوجتَه وهجرها وأبىٰ أن يُطَلِّقها، ورُبما ذهب إلىٰ بلدٍ آخر وأبىٰ أن يُطَلقها، فهي إما أن تَبقَىٰ مُعَلَّقة؛ لا مُزَوَّجة و لا مُطَلَّقة طول عُمرها مع الفتن والبَلاء، والخَوف علىٰ دِينها، وإما أن ترفع أمرها إلىٰ المَحَاكم في تلك البلد لتحكُمَ لها؛ فهي في حال ضَرُورة .

هنا من أهل العلم من يَقُول: تتركُ حقَّها ما لم تَستَحكم الضَّرورة.

ويَقُولون: لا يجُوزُ للمسلمِ أن يتَرافَعَ إلىٰ تلك المَحَاكم لخُطورة الأمر، ما لم تستحكم الضرورة، فيبقَىٰ لا اختيارَ له مُطلقًا.

وقالَ أكثَر العُلماء -وهو الرَّاجِح-: يجوز له أن يتحاكمَ إلىٰ تلك الأنظمَة مع كراهيته لها بِشُروط:

الشَّرط الأول: أن يكون كارهًا لتلك الأنظمة، ولا يرضَىٰ بها؛ بل كارِهٌ بقَلبه لذلك، ومُطمَئن بأن شرع الله هو الحَق، ولكنه مُكرَه، فهو يذهب إليها مُكرَهًا كارهًا.

الشَّرط الثاني: أن يكون الضَّررُ مُتَحققًا وموجُودًا، وليس مَوهُومًا ولا مُتَوقعًا.

الشَّرط الثَّالث: أن يكونَ الضَّررُ عظيمًا لا يُحتَمل، والمَفسَدة فيه عظيمَة.

والشَّرط الرابع: ألا يُوجد طريقٌ آخر غير تلك المَحَاكم.

فمثلًا: هذه المَرأةُ التي ضَرَبنا لها مثالًا، والتي هجَرَها زَوجُها أو طَلَّقها، لو كان

يُوجد مركزٌ إسلامي يَنظر بمُقتضىٰ الشرع ويحكم لها حُكمًا مُلزِمًا؛ فإنه لا يَجُوز لها أن تذهبَ إلىٰ تلك المَحَاكم.

والشَّرط الخامس: أن يَقتصِرَ المُتحَاكم علىٰ حقِّه الشَّرعي، ولا يأخُذ ما يَزيد علىٰ ذلك، يعني الذي لو تحَاكَم إلىٰ مَحكمَة شرعية حَكمت له به، وألا يزيد علىٰ ذلك، فما زاد عن حَقِّه الشرعي حتىٰ لو حكَمَت به هذه المحكمة غير الشرعية، فلا يَجُوز له أن يأخذه؛ بل يَقتَصِر علىٰ حقِّه الشَّرعي.

وهذا الكلام السابق مُتَعلق بالتحَاكُم لا عن الحُكم.

فالتَّحَاكُم: التَّرافُع إلىٰ هذه الأحكام.

وأمَّا الحُكم: فهو مَسألة أخرىٰ لا نتكَلَّم عنها هنا؛ لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُرِدها هنا، وإنَّما أراد التحَاكُم إلىٰ غير شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

قَال الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (باب قَولِ اللهِ تَعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾):

(﴿أَلَمۡ تَرَ﴾): **قال بعضُ أهل العِلم**: هَذا استِفهَامٌ إنكَارِي؛ أي: يُنكر حَالَهُم وفِعلهم.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: هو أسلُوب تَعجِيب وتَعجُّب للإنكار، تَعجِيب للسامِع، وتَعجُّب من المُتكَلِّم.

(﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾): والزَّعم -في الغَالب-: هو القَول الكَاذِب،

نَقُول: زعم فلانٌ أن خالدًا قَدِمَ من السفر، ومَقصُودُنا: كذَب، فإن خالدًا لم يَقدَم من السَّفر، وهذا الغَالب.

- وقد يُطلَقُ (الزَّعمُ) علىٰ الكلام الذي فيه شُبهَة؛ يحتمل الصدق ويحتمل الكذب.

فعندما تسأل: هل صحيحٌ أن فلانًا في المدينة؟ فأقول لك: زَعَم فلانٌ ذلك، فهذا يَعني أن فيه اشتباهًا عندي، فيُمكن أن يكون صدقًا، ويُمكن أن يَكُون كذبًا.

- وقد يطلق (الزَّعم) ويُراد به إسنادُ القول إلىٰ الغَير، يعني: ليس هذا كذبًا عندَك، وليس فيه شُبهَة لكن أَردت أن تُسنِدَه إلىٰ غيرك، فتَقُول: زعَم فُلان كذا، وليس مرادُك أنه كَذب، ولا أنه في كلامه احتمالًا، ولَكن أردتَ أن تَنسب القولَ له.

وهذا الأخيرُ يَستعمله العلماءُ، فتَجدُهم يَقُولون: زَعَم أحمد، زَعم مالكٌ، زعم الخَليلُ بن أحمد؛ وذلك كله بمَعنىٰ أنك تُسنِد القول إليه.

والمَقصُود بالزَّعم هنا في الآية الكريمة هو الأول؛ وهو القولُ الكَاذب.

(﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾): فمِن أركانِ الإيمان أن تُؤمن بما أُنزل علىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أُنزل علىٰ الرسُل السَّابقين، لكنَّ إيمانَك بما أنزل علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكونُ إيمانًا مع اتِّبَاع، فتُؤمن بالقرآن وتتبع القرآن.

وإيمانُك بالكتب السَّابقة التي أُنزِلت علىٰ الأنبياء السَّابقين يكونُ مع اعتقاد النَّسخ فيها من حيثُ ذَاتُها، أما الموجودُ بين أيدي الناس فمُحَرَّف، وحتىٰ

الصَّحيح منها قد نُسخ بشريعة الإسلام وأصبحَ لا يَجُوز العمل به، وإنما العمَلُ يكون بما جاءَ به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾): فلم يَقُل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: يتحَاكَمُون، فلم يُسند الأمر إلىٰ الفعل، وإنما أسندَ الأمر إلىٰ الإرَادَة، فقال: يُريدون. والإرادة تكُونُ في القَلب.

فمَناط الحُكم بالكُفر في باب التحاكُم يكون علىٰ مَا في القلب.

(﴿يُرِيدُونَ﴾): وهذا يُخرج الذي لا يُريد أن يتحاكَمَ إلىٰ الطاغوت، لكنَّه مُضطر كما -كما سبق بيانُه- في حالِ الضرورة، أو جاهل لا يعرفُ أن هذا يُخَالف شرع الله، أو كارِهٌ لكن غلبَته الشَّهوَة.

(﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾): والطَّاغوت من (الطُّغيان)، وهو: مُجَاوزة الحَد، وقد تقَدَّم بيانُ الطاغوت فيما سبق، **وأن الأدقَّ في تعريفه أنه:** كُل ما تجاوز به العبدُ حَدَّه من معبُود أو مَتبُوع أو مُطَاع.

وهذه الآية تَدُل علىٰ أن الطواغيت ليست الأصنام فقَط كما يَقُول بعض الناس؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سَمَّىٰ ما يُتحاكم إليه مما يُخالف شَرع الله طاغوتًا، وقد أُمِروا أن يكفروا به.

وهذه الآية جاء قبلَهَا الأصل الشَّرعي، ثم جاء بيانُ هذا الانحراف؛ فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

هذا الأصل الشَّرعي في بيَان حالِ أهل الإيمَان؛ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وطَاعَة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطاعَة العُلمَاء والأمراء فيمَا لا يُخالفُ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾: واحتَجتُم إلىٰ التحاكم، فتحَاكَمُوا إلىٰ كتاب الله وإلىٰ سنة رسول الله، رُدوه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلىٰ رسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: هذا يدل علىٰ أن هذا التحاكُم شَرط في الإيمَان، ولا يكون الإنسَانُ مُؤمنًا إلا إذا تحاكَمَ إلىٰ كتاب الله أو سُنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ما بيَنَّاه في الأقسام.

ثُم جاءَت بعدها هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ وهُم المُنافقون، يزعمُون بألسنتِهم ولا إيمان في قُلُوبهم، ومِن فسادهم أنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١].

الشرح

(﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾): وهؤلاء هم المُنافقون، وهذه الآية في صفَاتِ المنافقين.

(﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾): والإفساد في الأرض نوعَان: حِسِّي ومَعنَوي.

حسِّي: كأن تُهدَم البيوت، وتُقتل الأنفس، وتقطع الأشجَار، هذا إفساد حسِّي!

ومَعنَوي: بالمعَاصي، ومُخَالفة شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

والآية تشملُ الأمرَين، فالمُنَافقون في الحَقيقة مُفسِدون حسًّا ومَعنىً.

(﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾): قال بعضُ أهل العلم: هذا إذا قال لهم الضَّعفَةُ الذين معهم، قالوا لَهُم: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، غايتُنا الصلاح والإصلاح، ونحن أهل الصَّلاح والإصلاح.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢]: ﴿أَلَآ﴾: هذا تأكيد.

﴿إِنَّهُمْ هُمُ﴾: فجاء ضَمير الفَصل للتَّأكيد.

﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾: جاءت (أل) للحَصر، فكأنه لا مُفسِد في الأرض غيرهم،

كأن الفساد قد انحصَرَ فيهم.

وهنا سُؤال: ما مُنَاسبة الآية للبَاب؟

الجَوَاب: أن هذه الآية في صفات المنافقين، وبيان أنَّهم هم المُفسِدون، فأفعالُهُم إفسادٌ في الأرض.

وفي الآية السَّابقة التي في رأسِ الباب: أنَّهم يريدونَ أن يتحاكَمُوا إلىٰ الطاغوت.

فعَلِمنا من مجموع الآيتين: أن إرادة التحاكُم إلىٰ الطاغوت إنما هي من أفعال المُنَافقين والمشركين، وأنها من أعظَم الإفسَاد في الأرض.

وهذا صحيحٌ واللهِ؛ فإن إنشَاءَ المَحَاكم الوضعية التي تُخَالف شرعَ الله، والتحاكُم إليها، من أعظم أسباب الفسَادِ في الأرض.

وهذا مُراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن يُبين أن التحاكُمَ إلىٰ الطاغوت، وإلىٰ غير ما شرَع الله عَزَّوَجَلَّ، وإلىٰ ما يُخَالف شرع الله عَزَّوَجَلَّ، من أعظم أسبابِ الفساد في الأرض.

من أين جاء بهذا التحَاكُم؟، جاء به من الآيَة السَّابقة.

وذلك أن من صفَات المنافقين أنهم يُريدُون أن يتحاكَمُوا إلىٰ الطاغوت، والمُنافقون هم المُفسِدون؛ إذن من أعظم الإفسَاد: التحاكُم إلىٰ الطاغوت، هذا مرادُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

الشرح

(﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾): لمَّا تقدَّم أن المنافقين هم المُفسِدُون في الأرض، وأن من أفعالهم التحَاكُم إلىٰ الطاغوت، وهذا من أعظم الفسَاد، جاء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية التي تَدُل علىٰ الأصل العَام، وهو أنه لا يجوزُ للمسلم أن يُفسِدَ في الأرض لا حسًّا ولا معنًىٰ، فإن الله أصلحَ الأرض بحُكمِه القَدَري وبحُكمِه الشرعي، فلا يجوز للمسلم أن يُفسدَها أو يفسدَ فيها، وشمل هذا النَّهي عن الإفسَاد في الأرض بالتحاكم إلىٰ الطاغوت.

وهذه الآيات الثلاثة لابدَّ أن تَصِلَها ببعضها؛ حتىٰ تعرف مراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهي آيات تتصلُ ببَعضها في المعنىٰ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

الشرح

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾): ﴿أَفَحُكْمَ﴾: هَمزةُ الاستفهام للإنكَار.

حُكم الجَاهلية: الجَاهلية: كل ما خَالف شرع الله، سواء ما كان قبل الشَّرع -في فترة الجاهلية-، أو ما كان بعد الشَّرع؛ فإنه من الجَاهليَّة.

ولذلك أحكامُ قريش قبل الإسلام مِن أحكَام الجَاهلية، وأحكام البَاديَة -وهي الأعرافُ القَبَليَّة التي تُخَالف شرع الله- من أحكام الجَاهليَّة، وما يحدثه أهل المُدن من أحكام عُرفية تُخَالف شرع الله، هذا كُله من أحكَام الجاهلية.

فالذي يَبحثُ عن القوانين الفرنسية والإنجليزية والرومانية واليونانية ويريدُ التحاكم إليها؛ هذا يبتغي حُكمَ الجَاهلية؛ والذي يُريد تحكيمَ الأعراف التي تخالفُ شَرع الله؛ هذا ابتغىٰ حُكم الجَاهليَّة.

(﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾): أي: يَطلُبون ويُريدون.

(﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾): أي: لا أحسَن من الله حكمًا. ولكن لمن؟!

(﴿لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾): أهل اليَقين والإيمانِ يُوقِنُون ويعتقدون أن خير حُكم هو حُكم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فحُكم الله خير الأحكَام، وكل حُكم خالفَ حُكمَ الله فلا خير فيه.

ꕤ❁❁❁ꕤ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي كِتَابِ الحُجَّةِ بِإِسنَادٍ صَحِيحٍ».

الشرح

هذا الحديث رواه صحابيَّانِ جليلان؛ فرَواه عبد الله بن عَمرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كما هنا، ورواه أيضًا أبو هُريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقد روىٰ هذا الحديثَ جمعٌ من العلماء؛ منهم: ابن أبي عاصم في «السُّنة»، والبغوي[(١)].

وقد اختلفَ العلماءُ في إسناده:

فقال النَّووي -كما في «الأربعين النووية»-[(٢)]: «حسن صحيح، ورُوِّيناه في كتاب الحُجَّة بإسنَاد صَحيح».

وقال ابن حَجر في «فتح الباري»[(٣)]: «رجاله ثقات». وذكر تصحيحَ النَّووي له، وسَكت عنه لم يخالفه.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٢)، والبغوي «شرح السنة» (١/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) حديث رقم (٤١).

(٣) (١٣/ ٢٨٩).

وقال ابنُ باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ضَعفَه بعضُ أهل العلم لكن معناه صَحِيح[١].

وضعَّفه ابنُ رجبٍ في «جامع العلوم والحكم»[٢]، وضعفه الألباني[٣].

والناظر في إسناد الحديث يرىٰ أنه ضعيفٌ، ولا يُمكنُ أن يُصَحَّح من جهة الإسناد، ولكن معناه صحيح، كمَا قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإن التوحيدَ والنطقَ بالشهادَتَين يقتَضِي أن يكون ميلُ الإنسان ومُرَاده مُقيدًا بشرع الله، فلا يَميل إلىٰ ما حَرَّم الله، ولا يريد إرادة جازمةً ما حرم الله، ولا يفعل ما حرَّم الله، هذا مقتضىٰ التوحيد، لكنه ليسَ شَرطًا فيه؛ بمعنىٰ: أن الذي يميلُ إلىٰ أمر حرمه الله، أو أراد أمرًا حرَّمه الله، أو فعل أمرًا حرَّمه الله؛ لا يَكفُر بهذا، إلا إذا كان هوَاهُ كُله تبعًا لما خالفَ شرع الله، أو كان هواه هذا مَبنيًّا علىٰ كُرهِ شرع الله؛ فإنه إذ ذاك يكون كُفرًا، أو كان استحلالًا لمَا حرَّم الله؛ فإنه يكون كفرًا.

فيكونُ مَيلُ الإنسان وإرادته وعملُه بما خالف شرع الله كفرًا في أحوال:

الحالةُ الأولىٰ: أن تكون إراداتُه كلهَا تبعًا لمَا خالفَ شَرع الله.

الحَالةُ الثانيَة: أن يكون ميلُه إلىٰ ما خالَفَ شَرع الله كُرهًا لشَرعِ الله عَزَّوَجَلَّ، وبُغضًا لشَرع الله، مع عِلمِه بشَرع الله.

---

(١) «شرح كتاب التوحيد» للعلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص١٩٧).

(٢) (٢/ ٣٩٤/ الرسالة).

(٣) في «ظلال الجنة في تخريج السنة» برقم (١٥).

والحَالة الثالثةُ: أن يكون ذلك استحلالًا لمَا حَرم الله مع عِلمِه بما حرم الله.

فإذا سَلِمَ من كُل هذا؛ فإنه لا يكون كفرًا، لكنَّه يكون حَرَامًا .

وهذه الجملة: **(لَا يُؤمِن أحَدُكُم)**: عند أهل العِلم من علامات الكبائر، فنَفيُ الإيمان عن فعل شَيء، أو عن فاعل شَيء يَدُل علىٰ أن ذلك الشَّيء من كبَائر الذنُوب.

(حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ): أي: مَيله وما يَشتهيه.

(تَبعًا لِمَا جِئتُ بِهِ): أي: لا يخالفُ مَا جئتُ به في الكتاب والسُّنة.

ووَجهُ إيراد هذا الحديث في هذا البَاب: أن التحاكمَ إلىٰ ما خَالف شرعَ الله عَزَّوَجَلَّ يدخلُ في كون الهَوىٰ مُخَالفًا لمَا جاء به رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فليس تَبعًا لما جاءَ به رسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

❁❁❁

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ الشَّعبِيُّ: «كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشوَةَ-، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ اليَهُودِ -لِعِلمِهِ أَنَّهُم يَأْخُذُونَ الرِّشوَةَ-، فَاتَّفَقَا عَلَىٰ أَن يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَينَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيهِ، فَنَزَلَت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيَةَ [النساء: ٦٠]»(١).

وَقِيلَ: نَزَلَت فِي رَجُلَينِ اختَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ الآخَرُ: إِلَىٰ كَعبِ بنِ الأَشرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَىٰ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ؛ فَقَالَ لِلَّذِي لَم يَرضَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَم، فَضَرَبَهُ بِالسَّيفِ فَقَتَلَهُ، فَنَزَلَت(٢).

الشرح

هنا يَذكُر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سببَ نُزول الآية التي ترجَمَ بها للباب، وأسبَابُ النزول المذكورة هنا من جهَة الإسناد ضَعيفَة، لكن شُهرتها عند علماء الإسلام وقبول العلماء لهَا، وتعدد طرقها تَشهَد أن لها أصلًا.

فشُهرة هذا السبب عند أهل التفسير وعلماء الإسلام قَاطِبة، وقَبُول العلماء

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٨٩-١٩٠ هجر).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص١٦٢)، و«تفسير البغوي» (١/ ٦٥٤-٦٥٥)، وفي إسناده الكلبي، وهو كذَّاب.

لهذا، وتعَدُّد طُرق هاتَين القصَّتَين يشهَدُ لها بالاعتبَار.

(قَالَ الشَّعبِيُّ): وهو الإمام التَّابعي المَعرُوف.

(كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ): فاحتَاجَا معها إلىٰ التحَاكُم.

(فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأخُذُ الرِّشوَةَ-): لأن اليَهوديَّ يعرفُ أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحكُم بالعدل، ولا يقبل الرِّشوة، ولا يظلم حتىٰ أعدَىٰ الأعداء، ويَعلم أن الحَقَّ له.

وليس صحيحًا هنا ما قاله بعضُ الشُّرَّاح من أن اليهودي هنا أحسَنُ حَالًا من المنافق؛ بل كُلهم سواء، لكن اليهودي يَعرفُ أن الحَقَّ له، وأنه إذا رُفِعَت الخصومةُ إلىٰ مَن يحكم بالعدل سيَحكُم له، وهو علىٰ يقين من أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحكُم إلا بالعدل، ولا يَقبلُ الظلم علىٰ أحد، ولا يقبل الرشوَة؛ فقال: نتحاكم إلىٰ مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما المُنافق فيَعلم أن الحق عليه، وأنه إذا لم يتَّخذ الطرق المُلتَوية سيُحكَم عليه.

(وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَىٰ اليَهُودِ -لِعِلمِهِ أَنَّهُم يَأخُذُونَ الرِّشوَةَ-): فهو يريدُ أن يتحَاكمَ إلىٰ اليَهود -قَوم هذا اليَهُودي- الذي هو خَصمُه؛ لأنه يعلَمُ أن اليهود يقبَلُون الرشوة، فإذا أشار لليَهُودي بالرِّشوة حَكمَ علىٰ أخيه.

(فَاتَّفَقَا عَلَىٰ أَن يَأتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَينَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيهِ): والكَاهنُ: هو الذي يدَّعي علمَ المستقبل، وقد كانت العرب تُعظِّم الكُهَّان وتجعلهم قضاة، فكان

هناكَ كاهنٌ في جُهَينة، فاتَّفقا علىٰ أن يأتيا إليه فيتحَاكما إليه، فنزَلت الآية.

(﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾): أي: أنَّها في شأن المُنافق، فإنه أبَىٰ أن يتحاكَمَ إلىٰ شرع الله أولًا، وطلب التحَاكُم إلىٰ اليَهُود، ثم ثانيًا طلب التحَاكُم إلىٰ الكَاهن، فنزلَت الآية.

(**وَقِيلَ: نَزَلَت فِي رَجُلينِ اختَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَىٰ النَّبِيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَقَالَ الآخَرُ: إِلَىٰ كَعبِ بنِ الأَشرَفِ**): وهو رجلٌ يَهُودي.

وجاء في بعض الطُّرق: أنهما اتفقَا علىٰ التحَاكُم إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتحاكمَا إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يَرضيَا بحُكمه، أو لم يَرضَ أحدُهما بحكمه، وطلبَ أن يتحَاكَم إلىٰ أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ وهذا الرجلُ الذي لم يَرضَ بحُكم النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منافق.

فأرسلَهُما النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ أبي بَكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فلما جاءَا عند أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسَمع قال: ما كُنتُ لأحكُمَ بَينَ رَجُلَين لم يَرضَ أحدُهما بحكم رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرَدَّهُما فعادَا إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسلَهُما إلىٰ عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فلما جاءَا وقَصَّا الخَبَر علىٰ عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للمُنافق الرَّافض للحُكم: (**أَكَذَلِكَ؟**): أي: لَم تَقبَل حُكمَ رَسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

(**قَالَ: نَعَم**): قال: نعَم لم أَقبَله؛ وأريدُ أن تَحكُم بيننَا.

(**فَضَرَبَهُ بِالسَّيفِ فَقَتَلَهُ**): أي: فدَخلَ بَيتَه، واختَرط سَيفه، وخرج فضَربَ

عنقَ هذا المُنافق.

وقال عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هَذا حُكمِي فِيمَن لم يَقبَل حُكمَ رسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ». فنَزلت الآيَة[١].

وهنا إشكالٌ: كيفَ قَتل عُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذا الرجُل وهو ليس ولي أمرٍ؟!

وهذا إنما هو من عَمَل وليِّ الأمر!

وأُجيبَ عن هذا بأجوِبَة:

فقال بعضُ أهلِ العِلم: إن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ غارَ علىٰ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلم يَملِك نَفسَه. ولكن هذا عِندِي **ليسَ بِقَوي** -والله أعلم-.

وقال بعضُ أهل العلم: إن عُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان وزيرَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكان ينفذ الأحكَام، فقتَله بحُكم كونه وزيرًا لرسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. **وهذا أقوىٰ** مِن الذي قَبلَه.

لكن الأقوىٰ -والله أعلم-: أن عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فَهِم من إرسالِ الرسُول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الرَّجُلَين له أنه ما أراد منه أن يَحكُمَ بينهما، وعُمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُدركُ أنه لا يجوزُ أن يحكمَ بينهما بعد حُكم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويَعلُم رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُدرك هذا.

إذن؛ لمَّا جاءَا وقد أرسلهُمَا رسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَهِم عمر أن المُراد ليس أن يحكُم بينهما، إذن ما المراد؟!

---

(١) «تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز» (٢/ ٧٢/ دار الكتب العلمية).

المُرَاد: أن يقتُلَ مَن لم يقبل حُكمَ رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ففَهِم من صَنِيع رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أراد منهُ شَيئًا غير الحُكم، وهو شيءٌ واحد: أن يَقتُل هذا المنافق، وجَريمَتُه: أنه لم يَقبَل حُكم رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهذا ما يَظهَر -والله أعلَمُ- في هذا السَّبب.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الإِعَانَةِ عَلَىٰ فَهمِ الطَّاغُوتِ.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ ومَا فيها من الإعانة علىٰ فَهم الطاغوت، وبيَان أن الطاغوت ليسَ الأصنام فقط، بل كل ما تجَاوزَ به العبدُ حَدَّه من مَعبُود أو مَتبُوع أو مُطَاع. علىٰ ما فَسَّرناه سابقًا، فإن الله سمَّىٰ الحكم المُخَالف لشَرعه (طَاغوتًا)، وهذا ليس صنمًا فدَلَّ ذلك علىٰ أن الطاغوتَ أوسَعُ من الأصنام.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ البَقَرةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وبيَان أنها في المُنافقين، وأن من أعظم الإفسَاد في الأرض: التحَاكُم إلىٰ ما يُخَالف شرعَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهو من شأن المُنافقين.

الثَّالِثَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الأعرافِ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾.

وتضَمَّن هذا تحريم التحَاكُم إلىٰ ما يخالف شَرع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه من أعظم الإفساد في الأرض، ومن شأن المُفسِدين في الأرض.

الرَّابِعَةُ: تَفسِيرُ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾.

وقد تقَدَّم بيانُ أن هذا إنكارٌ عليهم في طَلبهم حُكمَ الجاهلية، وبينَّا معنىٰ الجَاهليَّة.

الخَامِسَةُ: ما قَالَهُ الشَّعبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ الأُولَىٰ.

وقد تقَدَّم بيانُ ذلك بالتَّفصيل.

السَّادِسَةُ: تَفسِيرُ الإيمَانِ الصَّادِقِ والكَاذِبِ.

والإيمانُ الصَّادق: هو الذي فيه قَبُول شَرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والإيمَانُ الكاذبُ: الذي فيه رَدُّ شَرعِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمُنَافِقُون يَزعُمون بألسنتهم أنهم مؤمنون؛ وهم كذَبَة، ومن هذا الكذبِ الذي يعيشون فيه أنهم يُريدُون التحاكُمَ إلىٰ الطاغوت.

فالإيمانُ الكاذبُ: هو القول باللسَان، مع بُغضِ شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وعَدم التحَاكُم إليه.

السَّابِعَةُ: قِصَّةُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ المنافِقِ.

وأنه عَلمَ بأنه بهذا كافرٌ، وفَهِمَ أن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرادَ منه قَتلَه، وهذا يَدُل علىٰ أن من لم يَقبَل شرع الله يَكفُر بهذا.

الثَّامِنَةُ: كَونُ الإيمَانِ لا يَحصُلُ لأَحَدٍ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد تقدم تَفسيرُه، وبيَان معنىٰ الحَدِيث.

❁❁❁

بَابُ: مَن جَحَدَ شَيئًا مِنَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الشرح

تقدم في أول شَرحنَا لكتاب التَّوحيد بيَان أن هذا الكتابَ ألفه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توحيد الألوهية فقَط، في توحيد العُبودية؛ ولذلك كان عنوان الكتَاب «**كتَاب التَّوحيد الذِي هو حَق الله عَلىٰ العَبِيد**»، وحَق الله علىٰ العَبيد أن يَعبُدوه ولا يُشرِكُوا به شيئًا.

وبَيَّنا في مُقدمة شَرحنا أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب لم يتعَرَّض لتوحيد الربوبيَّة ولا لتَوحيد الأسماء والصفَات إلا من جهَة تعَلُّقها بتوحيد الألوهية، ومنه هذا الباب؛ فإن هذا الباب مُتعَلق بالأسماء والصِّفات، لكن من جهة تعلُّق هذا بتوحيد الألوهيَّة، وذلك أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ذكر هذا الباب في قسم لَوَازِم توحيد الألوهية وما يُضَاد ذلك.

وذَلك أن من لَوَازِم توحيدِ الألوهيَّة: إثبات صفاتِ الكمال لله عَزَّوَجَلَّ، فمَن لوازم إثبات الألوهيَّة للهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يُثبت العبدُ لله صفَاتِ الكمال؛ لأن الذي لا يتصفُ بشيءٍ لا يكون مَوجُودًا إلا في الأذهان، ولا يكونُ مَوجودًا في الخارجِ؛ بل هو عَدَم!

ولذلك يُقال عن نُفَاة الصِّفَات بالكُليَّة: إنَّهم يَعبُدون عدمًا؛ فهو عندهم لا مَوجُود ولا مَعدُوم، ولا في داخل العالَم ولا في خارجِ العالَم، ولا أول ولا آخِر، ولا ظاهر ولا باطِن، فهذا وصفٌ للمَعدُوم الذي لا يتَّصِفُ بشَيءٍ، وهو الذي

يُسَمِّيه المنَاطقة: الموجود المُطلق. وهذا يكون في الأذهَان، ولا يكون موجودًا في الخارج!

ومن لا يتَّصفُ بصفات الكمَال نَاقصٌ عاجِز، والعاجِزُ لا يكون إلهًا؛ كمَا قال الله عَزَّوَجَلَّ في نَفي ألوهيَّة آلِهَةِ الكفَّار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

فالله عَزَّوَجَلَّ يقُول: إن كُل هذه الآلهَة التي تُعبَد من دونِ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ظُلمًا إنمَا هم عبادٌ، فكيف يكونُ العبدُ مَعبُودًا؟!

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾: إذن هُم لا يَسمَعُون الدعاءَ، فَهُم فيهم نقص، ولو سَمِعُوا ما استجَابُوا، وليس لهم صفَاتُ كمَال.

﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ ﴾: فأقام الله الحُجَّة علىٰ الكفار بأن آلهتَهُم لا تستحق أن تُعبَد؛ لأنها ضعيفَةٌ عَاجزة؛ لعَدم اتصَافِها بصفات الكمَال.

إذن؛ من **لوَازم الألوهية**: أن تُثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفات الكمَال، وهي الصفَاتُ التي وصفَ الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسَه، ووصَفَهُ بها رسُولُه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بمعَانيها الظاهرة علىٰ ما يَليقُ بجَلال الله عَزَّوَجَلَّ.

فالمؤمنُ يُعظم الله عَزَّوَجَلَّ في نَفسِه، فلا يَجرُؤ علىٰ نفي ما أثبته الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لنفسه من الصفات!

فإذا أثبت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنفسه أنه كلَّم موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن المُؤمن الذي يُعظِّم الله لا يَجرُؤ أن يقول: لا، ما كَلَّم الله موسىٰ، ولا يَجرُؤ أن يظن أن الله حدَّث الناس عن أعظَم مَعلُوم بالألغاز التي لا تُفهَم لأول مرة!

فأعظَمُ مَعلوم هو الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يُمكن للمسلم وقد عَظَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَظُن أن الله في بابِ تَعرِيفنا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستعملُ الألغاز، ويجعَلُ الكلام علىٰ غير ظَاهِره في جميع سيَاقَاته.

ولا يَجرُؤ المؤمن كذلكَ علىٰ أن يُشَبِّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشَيءٍ من خَلقِه، ولا يجرؤ أن يطمَع في أن يُدركَ كيفيَّة صفَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ.

كما أنَّ المسلمَ يُعَظم رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا يعتقدُ أن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكُن عالمًا بربِّه العِلمَ الحَقيقي، وأن المتأخِّرين من أمَّته عرَفوا ربَّه أكثَر منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يَجرُؤ أن يَظُن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ناقِصَ البلاغَة حتىٰ لا يستطيع أن يُعَبر عن صفات الله عَزَّ وَجَلَّ بما يُفهَم.

كمَا يُعظِّم المسلم صحَابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا يَجرؤ أن يَظُن أن المتأخِّرين من الأمة أعلم بِرَبهم من صحَابة رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يجرؤ أن يقول: «طَريقة السلفِ أسلَم، وطريقة الخلفِ أعلَمُ وأحكَم»[(١)].

وبالتالي يثبت صفَات الله عَزَّ وَجَلَّ من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

---

(١) انظر: «معجم المَنَاهي اللفظية» لبكر أبو زيد (ص٤٨٢).

والأسماء في كل ما تقدَّم كالصِّفات؛ فإن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ليست أعلامًا مُجَردة؛ بل هي مُتَضمنة للصفات، فكُل اسمٍ من أسماء رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه صفةٌ أو أكثر، فالسَّميع فيه إثبات صفَة السمع لله عَزَّوَجَلَّ، والبصيرُ فيه إثبات صفة البصَر لله عَزَّوَجَلَّ، وجَحدُ شيء من الأسماء أو الصفات يُضاد هذا.

والشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَال: (**بَابُ مَن جَحدَ شَيئًا مِنَ الأسمَاءِ وَالصِّفَاتِ**): فيكون المعنىٰ «باب الذِي جحَد شيئًا من الأسماء والصفات، مَا حُكمُه؟!».

ويَصِح أن يكُونَ المَعنىٰ: «بابُ مَن جحَد شيئًا مِن الأسمَاءِ والصِّفات فقَد كذَّب اللهَ ورَسُوله».

وجحدُ شيءٍ من الأسمَاء والصِّفات الأصل العَام فيه أنه **كُفر أكبَر**؛ لأنه تكذيبٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتكذيبٌ لرَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله عَزَّوَجَلَّ يقُول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦].

وذاكَ يَقُول: الله ليس في السمَاء!

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤].

وذاك يقولُ: ما كَلَّم الله موسىٰ تكليمًا!

والرسولُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يَنزِلُ رَبُّنا**»[(١)].

وذاك يقول: لا يَنزلُ ربُّنا!

فهذا تكذيبٌ لله ولرَسُوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٨٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لكن في نَفس الوقت يُوجدُ أصلٌ آخرُ يَقُول: «التأويلُ يَمنَع تكفير المُعيَّن»، فالذي ينفي صفَةً من الصفات أو اسمًا من الأسماء مُتأولًا لا يكفر بِعَينه، وإن كان فِعلُه كفرًا؛ لأنه تكذيبٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولرسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأصولُ أهلِ السُّنة والجمَاعة هِدَاية وأمان، وفيها حفظُ الدِّين، وفيها حفظُ أمور الناس!

فجَحْدُ صفَة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآن أو السُّنة هو تكذيبٌ للقرآن والسُّنة، وهذا كُفر!

والتأويل يَمنعُ تكفير المُعَين؛ فمن تأولَ صفة من الصفات أو بعضَها، أو تأول الصفات؛ فإنه لا يكفُر بعَينه، وإن كان من أهل البِدَع وعلىٰ خَطَر عظيم!

وجَحد الأسمَاء والصفات علىٰ دَركَات:

الأولىٰ: جَحْدُ الأسماء والصفات بالكُلية، وتعطيل الله عَزَّوَجَلَّ من أسمَائه وصفاته بالكُليَّة وهؤلاء أشرُّ القوم.

والثانية: إثبَاتُ الأسماء وجَحد معَانيها ومعاني الصفات، يقولُون: نُثبت أن الله سميعٌ لكن بلا سمع، بصيرٌ لكن بلا بصَر، قدير لكن بلا قُدرَة، حي لكن بلا حيَاة، عليم لكن بلا عِلم!

فيثبتون أسماءً جوفاءَ وينفونَ المعاني، وهؤلاء دونَ الأوَّلين.

والثالثة: إثبَاتُ الأسماء وبعض الصِّفات ونَفي باقيها، أو تَأوُّل باقيها، وهؤلاء دون مَن سَبَقهم.

والرابعة: إثباتُ ألفاظ الأسماء والصفاتِ وتَفويض معَانيها، وهم فِرقتَان:

- فرقةٌ تقول: نَعلَم أن للأسمَاء والصفات معَاني لكنَّها خلافُ الظَّاهر، ولا نَدرِي ما هي؟!

فهؤلاء مُؤَوِّلة مُفَوضة، مُؤَوِّلة لأنهم يَقُولون: هي خلاف الظاهر، ومُفَوِّضة لأنهم يقولون: المعاني المُرَادة نتوقف فيها، ولا نَدرِي ما هي؟!

- وفرقة تَقُول: نُثبت لها معاني، ولكن نُفَوض فيها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا نذكُر هذه المَعَاني ولا نَقُول: هي موافقَة للظَّاهر، أو هي مُخالفة للظَّاهر.

إذَن هؤلاء يُثبِتُون الأسماءَ والصفات، وأن لها معاني؛ لكن يُفَوِّضون هذه المعاني.

وكُل هؤلاء قد أخطَئُوا الطريق وخَالفُوا السَّلف، ومن قبل ذلك خَالَفُوا الكتابَ والسُّنة، فهذا هو المرادُ بهذا البَاب.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد:٣٠].

الشرح

قال: (وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾):

قال بَعضُ العلماء: معنىٰ هذه الآية: وهُم يجحدون بألوهيَّة ووحدانيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويُكَذِّبون بها؛ أي: أن كفارَ قُريش كانُوا يَجحَدُون وحدانية الله جَلَّ وَعَلَا.

وهم لا يَجحَدُون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يُنكرونَ وجودَ الله جَلَّ وَعَلَا، وإنما يجحَدُون وحدانيَّة الله جَلَّ وَعَلَا.

وبهذا يظهَرُ خَطأ مَن قال: إن مِن أهل العِلم من قال: معنىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾: أي: يَكفُرون بالمُسمَّىٰ!

والحقيقة أنهم لا يَكفُرون بالمُسمَّىٰ، بل هم يؤمنون بوجود الله، ويؤمنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وإنما يَكفُرون بوحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم يؤمنون أن الله جَلَّ وَعَلَا هو الخالق وهو الرزاق؛ لكن إذا قيل لهم «لا إله إلا الله» يكفرون!

وعلىٰ هذا فليس المُراد هنا أنَّهم يكفُرون باسم الرحمن، وإنما المراد: أنهم يكفرونَ بوحدَانية الرحمن، بوحدانية الله؛ لأن الله قال بعدَ ذلكَ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

قالوا: فكان الجَوابُ في تَقرير اسم (الرَّحمن)، أو في تقرير ألوهية الله؟

قالوا: في تَقريرِ ألوهيَّة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ إذن الذي كفَرُوا به هو الألوهيَّة والوَحدانيَّة.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: إنهم كَفَروا باسم (الرَّحمن)، كما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠].

فما قالوا: (ومَن الرَّحمن؟)؛ لأنهم يؤمنون بوجُود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأنهم ينكرون اسم (الرَّحمَن).

وفي صُلح الحُدَيبية كما جاء في «صحيح البخاري»(١) لمَّا أمرَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للكاتب أن يكتب: «**بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**.

قَالَ سُهَيلٌ: أَمَّا الرَّحمَنُ، فَوَاللهِ مَا أَدرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكتُب بِاسمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنتَ تَكتُبُ ...».

فسُهَيل يُثبتُ وجُودَ الله جَلَّوَعَلَا، وإنما كانَ إنكارُه لاسم الرَّحمَن.

واليقين أن كفار مَكَّة كانوا يكفُرون بهذا وهذا، فكانوا يكفُرُون بوحدانيَّة الله، وكانوا يكفرون باسم الرحمن، فَكِلا المَعنيَين داخل في الآية.

ووَجه الدلالة من الآيةِ للبَاب: علىٰ المَعنىٰ الثاني؛ لأن الله سمَّاه **كُفرًا**، فجَحدُ اسمٍ من أسمَاءِ الله كُفر، كمَا سَمَّىٰ الله جَحدَ اسمه (الرحمَن) كفرًا.

---

(١) برقم (٢٧٣١).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»، قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَن يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

الشرح

هذا الأثرُ في «صَحيح البُخَاري»[1]؛ فهو أثرٌ صَحيح .

(قَالَ عَلِيٌّ): أميرُ المُؤمنين وحبيبُ المُؤمنين عَلي بن أبي طَالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من كبارِ عُلمَاء وحُكَماء الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعرِفُونَ): وليس المَقصُود: (حَدِّثوا الناسَ بمَا يَعلمُون)؛ لأن تحديثَ الناس بما يَعلمُون تحصيلُ حاصِل.

ولكن المَقصُود: حَدِّثوا الناسَ بما يُمكن أن يَعرفُوه، وبمَا يُمكن أن يَفهَمُوه، رَاعُوا أحوالَ الناس عند التَّعلِيم.

وهذا الأثر يحتاجُ إليه كلُّ عالم مُعلِّم، وكل شيخ معلِّم؛ فإن من يُعَلِّم الناس يجب عليه أن يُعَلمهم الحقَّ، وحرامٌ عليه حُرمَة مُغَلظة أن يعلِّم الناس شيئًا من الباطل لهَوَىٰ نَفسِه، أو لشَهوة نَفسِه، أو ليُحبَّه الناس، أو ليُعظِّمه الناس؛ فإن هذا من أبطَلِ الباطل، وأشَر الأفعال!

ويجب عليه أيضًا أن يتَرفَّق بالخَلق عند إيصال الحَق، وأن يختَارَ لهم من

---

(١) برقم (١٢٧).

الألفاظِ أحسَنَها، ومن الأساليبِ ألطَفَها؛ لكي يَفهَمُوا الحقَّ، ويَصل الحقُّ إلىٰ قلوبِهم.

نعم، لا يوجدُ أحدٌ من الناس يملك قلوب الناس: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

ولكنَّ الإنسان يَملكُ حُسنَ اللسان، بحيثُ يتلطَّفُ في إيصال الحق إلىٰ الخَلق، وكلما عَذُبَ الشيء وطاب؛ سَهُل تقبُّله وقَبُولُه عند الناس.

بَقي السُّؤال: لماذا أوردَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأثرَ في (باب من جحَد شيئًا من الأسماء والصفات)؟

وما علاقةُ هذا الأثر بالأسمَاء والصفات؟

الذي يَظهرُ -والله أعلم-: أن الشيخ أورد هذا الأثر لفَوائدَ تتعلَّق بهذا الباب:

الفائدةُ الأولىٰ: أن مَن يُحدِّث الناسَ في باب الأسمَاء والصفات ينبغي أن يختار من الألفاظ والأساليب ما يُقرِّب الحقَّ إلىٰ أذهانِهم، وألَّا يَهجمَ عليهم بالمسائل هجومًا؛ بل يُمهِّد لهم، ويقرب المعَاني إلىٰ أذهانهم؛ حتىٰ لا يكونَ لهم فتنةٌ.

كما قالَ ابنُ مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَنتَ بِمُحَدِّثٍ قَومًا حَدِيثًا لَا تَبلُغُهُ عُقُولُهُم، إِلَّا كَانَ لِبَعضِهِم فِتنَة». روَاه مُسلم[1].

---

(١) في مقدمة صحيحه (ص١١).

أي: أنكَ إذا لم تقرِّب الحديث إليهم حتىٰ يبلُغَ عقولهم ويَفهَمُوه، إلا كان لبَعضِهم فتنَة.

وليس المَقصُود هنا أن تَكُفَّ عن تحديثِ الناس بالحَقِّ والعقيدة والدِّين؛ ولكن المَقصُود أن تُقرِّب الحق إلىٰ عقُول الناس بحيث تَبلُغه عقولهم.

والفائدة الثانيَة: أن من يُحدِّث الناس في باب الأسماء والصفات يَنبَغي أن يكفَّ عن تحديث العامة ببَعضِ الدقائق التي لا تُهِمهم في صحيح المُعتَقد، ويصعُب عليهم فهمُها؛ حتىٰ لا يكون ذلك لهم فتنَة؛ لأن هذا لو ذُكِر لهم قد يجعَلُهم يعودون إلىٰ فسَادٍ في العقيدة!

وهذا فقه جليلٌ، وإنَّما يُحدَّث العامة في باب الأسماء والصفات بما يَصِح به المُعتقد، وما جاء في القرآن والسُّنة الصحيحة البيِّنة، أما الدقائقُ وبعض التفاصيل التي لا تَهُم العامة في صحيح معتقدهم، ويَصعُب عليهم فهمُها، فيَنبَغي تركُها؛ بل يجب تركُها؛ لأنها تَئُول بهم إلىٰ التكذيب.

والفائدة الثالثة: الرَّد علىٰ الذين يَزعُمون أن الكلامَ في الأسماء والصفات فتنة.

وبعض الناس يقولون: لا تُحَدثوا الناس عن الأسماء والصفات؛ فإن هذا فتنة، ولرُبَّما ذكرُوا هذا الأثر، وفي هذا الأثر رَدٌّ عليهم؛ لأن الذي يُنهَىٰ عن تحديث الناس به هو الذي يُؤدي إلىٰ تكذيب الله وتكذيبِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما تحديثُ الناس بالأسماء والصِّفات؛ فيَزيدُهم معرفةً بالله، ويَزيدهم إيمانًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالعَبدُ إذا آمنَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سميع يَسمَع كلامَه؛ يجعله ذلك يَحفظ لسانَه، وإذا آمن أن الله يرَاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يجعَله ذلك إذا خَلا بنَفسِه وأراد المعصية يَخافُ ويَقُول: الله جَلَّ وَعَلَا يَراني، أنا أستَحي من أبي أن يراني ولا أستحي من الله وهو يَرَاني!

إذن؛ تَحديث الناس بالأسمَاء والصِّفات يَزيدُهم إيمانًا وتُقًىٰ وتدَينًا؛ فلا يدخلُ في أثرِ عَلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والصحابَة الذين قالُوا هذا -أعني- «**حَدِّثُوا الناسَ بمَا يَعرِفُون**»-، كانوا يُحَدثون الناسَ بالأسماء والصفات، ويقرءون عليهم القرآن، ومُعظَم آيات القرآن فيها الأسمَاء والصِّفات، ويُحَدثون الناسَ بالأحاديث الصَّحيحة التي فيها الأسماء والصِّفات، ولذلك من فِقه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ذَكرَ أثرَ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم ذكرَ أثرَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي بعدَه، وقد كانَ يُحدِّث الناسَ بالصِّفات.

الفائدة الرابعة: بيانُ أن نصوص الصفَات علىٰ ظَاهرها علىٰ ما يَليقُ بِجَلال الله؛ ولو لم تَكُن الصفات علىٰ ظاهرها لكانت فتنة، وتُؤَدي إلىٰ أن يُكذَّب الله عَزَّوَجَلَّ ويُكذَّب رَسُوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكنها علىٰ ظاهرها، فَمَن آمَن بها علىٰ ظاهِرهَا فقد صدَّقَ اللهَ ورَسُوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن كذَّب بها أو جَحَدها فقد كذَّب اللهَ ورَسُولَه.

هذه الفَوائدُ التي تظهرُ -والله أعلمُ- مِن ذِكرِ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لهَذا الأثرِ في هذا البَاب.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرَوَىٰ عَبدُ الرَّزَّاقِ، عَن مَعمَرٍ، عَن ابنِ طَاوُسٍ، عَن أَبِيهِ، عَن ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا انتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ؛ استِنكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِندَ مُحكَمِهِ، وَيَهلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ».

الشرح

هذا الأثرُ بهذا الإسنَاد من أصَحِّ الآثار؛ فهذا الإسنادُ من أصحِّ أسَانيد المسلمين، ومن أجوَدِ الأسانيد علىٰ الإطلاق، فهذا إسناد جيِّد صحيحٌ في غاية الصحة[١].

وفيه أن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان يُحدِّث الناسَ عن رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحَديث عَظِيم عَن أبي هُريرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال فيه النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«احتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يَدخِلُنِي إِلَّا فُقَرَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُم؟، وَقَالَتِ النَّارُ: لَا يَدخُلُنِي إِلَّا الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ؟**

فَقَالَ لِلنَّارِ: أَنتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَن أَشَاءُ، وَقَالَ لِلجَنَّةِ: أَنتِ رَحمَتِي أُصِيبُ بِكِ مَن أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنكُمَا مِلؤُهَا، فَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنشِئُ لَهَا مَا يَشَاءُ، وَأَمَّا النَّارُ فَيُلقَونَ فِيهَا فَتَقُولُ: هَل مِن مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا، فَهُنَالِكَ تَمتَلِئُ وَيُزوَىٰ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٢٣١) برقم (٢٩٦٠).

بَعضُهَا إِلَىٰ بَعضٍ، وَتَقُولُ: قَط قَط قَط؛ أَي: حَسبِي»[١].

هذا الحَديثُ كان يحدِّث به ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا عن أبي هُرَيرَة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عَن رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكانَ هُنالك رجل يجلس معهم، فلمَّا سمع الحديث انتفض وارتَعد؛ استنكارًا لذَلك.

فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: (**مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟**): أي: ما الذي يُخيفُ هؤلاء، و(فَرَق) بمعنىٰ: خَوف، وضُبِطَت أيضًا: (مَا فرَّق هؤلاء!)؛ أي: ما فَرَّق هَؤُلاء بين الحق والبَاطِل.

(**يَجِدُونَ رِقَّةً عِندَ مُحكَمِهِ**): أي: تَرِقُّ قلوبُهم عند المعاني الواضحة.

(**وَيَهلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ**): ومَعنىٰ (عندَ مُتشَابِهه)؛ يعني: عند المعَاني التي فيها غموضٌ وتحتاج إلىٰ علم وبيَان وقوة إيمَان.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن الصحَابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ يؤمِنُون بالقرآن كله، يؤمنون بمُحكَمه ويرقُّون عنده، ويُؤمنُون بمتشابِهه ويَطلُبون عِلمه ممن عنده عِلمُه، وممن علم القرآن كُله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

فليسَ في القرآن ما لا يُفهَم مَعناه؛ لكن قد يكونُ المعنىٰ فيه غموض يحتَاج إلىٰ مَزيد علم، أو يحتاج إلىٰ عالِم يُبين معناه، أو قد يَغمُض عليَّ ويتضحُ لك.

فإن قال قائل: فما معنىٰ (الٓمٓ، حمٓ، كٓهيعٓصٓ) ونحوها؟!

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٢٣١) برقم (٢٩٥٩).

نقولُ: هذا السؤال جَهلٌ باللغة؛ لأن الكلام ثلاثةُ أقسام: اسم وفِعل وحَرف، كما قال ابنُ مَالِك في «ألفِيَّته»:

كَلامُـنا لَفـظٌ مُفـيدٌ كَاسـتَقِم   واسـمٌ وفِعـلٌ ثُـم حَـرفٌ الكَلِـم

الاسم: فيه معنىٰ غير مُرتَبط بزَمن.

والفِعل: فيه معنىٰ وزمن.

والحرف: لا معنىٰ له في ذَاته، فلا يَصِح عند العُقلاء أن نقول: ما معنىٰ (في) أو (إلىٰ)، أو (أ)... وهكذا؟، وهذا في أي لُغَة من اللغَات؛ الحروف المفردة ليس لها معنىٰ في ذاتها، وإنما معناها يتعلَّق بغيرها.

إذن الحرف لا مَعنىٰ له فلا يجوز أن يُقال: ما معناه؟؛ ولكنه ذُكر في القرآن لفائدة التحدي للعَرَب، فكأنه قال: يا أيهَا العَربُ، هذه حُرُوفكم، وهي ليسَت حروفًا أعجمية؛ ومنها هذا القُرآن، فَأتُوا بسورةٍ من مثله، ولم يَستطيعوا.

إذن؛ مقصُود ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن حَال الصحابة والمؤمنين أنهم يُؤمنُون بالقرآن والحديث الصحيح كله، ما عَرَفوا معناه لوضُوح معناه فالحمدُ لله، وما لم يَعرفُوا معناه أيقَنُوا أنه حق لا شكَّ فيه، وطلبُوا معناه عند العُلمَاء، أما أهل الفتنةِ فيَرِقُّون عند مُحكَمه، ويهلكون عند متشَابِهه، ويرُدُّون المحكم بالمتشَابِه!

وأما أهلُ السُّنة أهلُ الحَق؛ إذا جاء نصٌّ فيه غموض أوضَحُوه بالنصوص الأخرىٰ، وأهل البدَع والباطل إذا جاءَ نَص فيه غمُوض شَوَّشوا به النصوصَ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَمَّا سَمِعَت قُرَيشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذكُرُ الرَّحمَنَ؛ أَنكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية.

الشرح

روىٰ ابن جَرير في «تَفسيرِهِ»[1] عن مُجاهد -وهو تَابعي- قال: «هَذَا لَمَّا كَاتَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرَيشًا فِي الحُدَيبِيَةِ كَتَبَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ.

قَالُوا: لَا تَكتُبِ الرَّحمَنَ، وَمَا نَدرِي مَا الرَّحمَنُ، وَلَا نكتُب إِلَّا: بِاسمِكَ اللَّهُمَّ، قَالَ اللهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآيَةَ».

ولكنَّ مجاهدًا تابعي، فهذا ضَعيف.

والوَاحدي في «أسبَاب النزولِ»[2] نَسَب هذا إلىٰ أهل التفسير، ولم أقف علىٰ أثَرٍ صَحيحٍ أن هذا هو سَببُ نُزُول قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

لكن لا شكَّ أن هذا يُفَسر كفرَهُم بالرحمن، وأن كفرَهُم بالرحمَن **-كمَا تقدم بيانُه- علىٰ جِهَتَين:**

- كُفر بوحدَانيَّة الله جَلَّ وَعَلَا.
- وكُفر باسم (الرحمَن).

(١) (١٣/ ٥٣١).

(٢) (ص٢٧٣/ دار الإصلاح).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: عَدَمُ الإِيمَانِ بِجَحدِ شَيءٍ مِنَ الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

يَعني: أن الإيمانَ يُعدَم عند جَحد شيءٍ من الأسماء والصفات؛ لأنه -كما تقدم بيانُه- تكذيبٌ لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتكذيب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

لكن المُتأول للصِّفات لا يكفُر؛ للقَاعدة: أن التأويلَ يَمنعُ تكفِير المُعَيَّن.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الرعدِ.

وهو قَولُه تعَالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، وقد تقَدَّم شَرحُها.

الثَّالِثَةُ: تَركُ التَّحدِيثِ بِمَا لا يَفهَمُ السَّامِعُ.

فينتَقي المتكَلِّم من الكلام ما يُمكن للسَّامع أن يَفهَمه ويستوعبَه.

وحتىٰ في الأحوال المُتعلقة بنفسية المستمع؛ من أحوال الغَضَب أو الحُزن؛ ونحوها من الانفعالات التي لا يستطيع معها السامعُ أن يعي ما يُقال؛ فلا ينبغي في هذه الحال أن نُحدِّث الناس بما لا يَفهمُون ولا يَعُون، فلابد من انتقاء الكلمَات المناسِبَة، والأحوال المُناسبة للمُستَمع؛ ليُؤدي الكلامُ فائِدتَه المَرجُوَّة التي يريدُها المتكلِّم، وهذا من الحِكمَة وحُسنِ الفَهم.

ولذلك؛ العقلُ (أن تعرفَ متىٰ تتكَلَّم ومتىٰ تَسكُت)، وهذه الثانيةُ أصعبُ من الأولىٰ، أن تعرفَ متىٰ تتكلم يُمكن أن يعرفها الكثير، لكن أن تعرف متىٰ تسكت، فهذه صعبَة.

وأكثر الضَّرر الذي يَدخُل إلىٰ الناس من جهَة أنهم لا يَعرفُون متىٰ يسكتُون.

فمراعاة حال السَّامع، وأنه قابل لأن يَفهَم، مُهِمَّة عند التحديث، فإذا رأيتَ منه عدمَ قابليَّةٍ للفَهم؛ فاترُكه إلىٰ وقتٍ آخَرَ، أو اتركه إلىٰ غيرك.

فسبحانَ الله! القُلوب لها مفَاتيح، قد تكون أنت مفتاحًا لهذا القلب، وقد يكون أخُوك مِفتاحًا لقلبِ الآخر، لكنَّ الحقَّ لا يُترك، ولكن يُستَعمل ما يوصل الحق إلىٰ الناس فتُراعي حال السامِع.

الرَّابِعَةُ: ذِكرُ العِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفضِي إِلَىٰ تَكذِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَو لَم يَتَعَمَّدِ المُنكَرَ.

أي: أنه نَهىٰ عن ذلك لئلَّا يكذَّب الله ورسُوله، ولو لم يتعمَّد المُكذِّب المنكر للحق، ولكنه يفهمُه علىٰ غير وَجهِه؛ لأن الذي لا يبلغ عقلُه ما حُدِّث به يُفضِي به التحديثُ إلىٰ تكذيب الله ورسوله، فيُكَذِّب ويقول: هذا غير مُمكِن، أو: هذا لا يَصِح، فهو لا يتعمَّد التكذيب، لكن يُفضِي أمرُه إلىٰ التكذيب.

الخَامسَةُ: كَلامُ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِمَن استَنكَرَ شَيئًا مِن ذَلِكَ وَأَنَّهُ أَهلَكَهُ.

وأن جحدَ شَيءٍ من الأسماء والصفات الثابتَةِ في القرآن والسُّنة سَببٌ للهلاك، وأن حالَ المؤمن أن يؤمنَ بكُل ما ثبتَ في الكتاب والسُّنة علىٰ ظاهِرِه، وعلىٰ ما يليق بجَلالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣].

الشرح

مِن لوَازم التَّوحيد: أن تعلمَ وتعتقد أن كل نِعمة حصَلت أو حاصلة أو ستحصل لك، فهي من الله وحده لا شريك له، وأن كل نِقمَة وبليَّة دُفِعَت عنك فمن الله عَزَّوَجَلَّ، وأن تنسب ذلك إلىٰ الله باللسَان، وأن تستعملها في طاعَة الرحمن.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨].

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:٧].

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ:١١].

وهذا هو شكرُ النعمَة الواجب، وهو مُتعَلق بالقلب واللسَان والجَوَارح.

ومِن لوازم التوحيد أيضًا: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يجعلُ لنِعمته سببًا من مَخلُوقاته، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللهُ يُعطِي**». مُتَّفق عَليه[1].

فالنبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقولُ لأصحَابه: هذا الرزقُ الذي أقسمه بينكُم هو من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فالله هو المُنعم وهو المُعطي، وإنما أنا قاسمٌ، وسَبَب أوصل

(١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لكم نِعمَةَ الله، وإلا فالنعمةُ من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والمَخلُوق الذي يجعله الله سببًا للنعمة حقُّه أن يُشكَر، وأن يُدعَىٰ له.

قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن لَا يَشكُرُ النَّاسَ لَا يَشكُرُ اللهَ**». رواهُ أبُو داودَ، والترمذي، وصَحَّحه الألباني[1].

وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَن صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوا أَنَّكُم قَد كَافَأتُمُوه**». رَواهُ أبو داودَ، وصحَّحه الألبَاني[2].

ويُضاد ذلكَ: كُفر النِّعمة!

وهذا قَد يكونُ بالقلب: بأن يعتقد العبدُ أن النعمة من المَخلُوق، فالمخلوق مُوجِدها ومُسدِيها والمُنعِم بها، **وهذا كفرٌ أكبَر!**

وذلك كمَن يعتقد أنه رُزِق الولدَ من الوَلي، أو أعطي المَال من سيِّده فُلان المَقبُور... ونحو ذلكَ!

ففي النِّعَمِ لا يجوزُ أن يَلتفت القلب إلىٰ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالنِّعم كُلها من الله جَلَّ وَعَلَا، لا يُشاركه في ذلك مَخلُوق، لا مَلَك، ولا نَبي،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) واللفظ له من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصَحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ولا وَلي، مَع فَضلِهم.

وقَد يكون كُفر النِّعمَة باللسَان: وهذا كفرٌ أصغَر، أو شِرك أصغر لا يُخرج من المِلَّة.

وذلك بأن يُضيفَ النِّعمة إلىٰ غير اللهعَزَّوَجَلَّ بلسَانه، كأن يضيفها إلىٰ المَخلُوق فقط علىٰ سبيل إضافة النِّعمة، كأن يَقُول مَن نجَا من حَادِث: لولا مهارةُ السائق لكنَّا هَلكَىٰ!

فهنا أضافَ النعمَةَ إلىٰ مهَارة السائق، وهذا كفر أصغر.

أو أن يضيفها إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإلىٰ المَخلُوق علىٰ وَجه التَّسوية، كأن يقول: لولا اللهُ والسائقُ لكُنا هلكَىٰ!

فهذا أيضًا كُفر أصغر، وشِرك أصغر؛ لأنه سَوَّىٰ غيرَ الله بالله جَلَّوَعَلَا باللَّفظ، أما لو كان بالاعتقادِ والقَلب؛ فهَذا كفر أكبَر.

أمَّا إذا أضافهَا إلىٰ المخلُوق مع إضافَتها إلىٰ اللهعَزَّوَجَلَّ، ثُم ذكَرَ المخلُوقَ بلفظٍ لا يقتضي التسويَة علىٰ أن المَخلُوق سبب يُذكَر ويُشكَر؛ فهذا لا بأس بِه، كأن يقُول: لولا اللهُ ثُم مَهارة السائق لهَلكنَا.

فهُنا أضاف النعمةَ إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ثُم أضافهَا إلىٰ المَخلُوق بما لا يقتضي التسوية، بشَرط أن يكون ذلك علىٰ أن المَخلُوق سببٌ لا مُوجِد، فمَهارة السائقِ سَببٌ لنعمة الله، فهذا جَائز.

وهنا تنبيهٌ علىٰ دَقيقة لابدَّ من بيانِها؛ حتىٰ لا تختلطَ الأحكامُ علىٰ الناس:

وهو أن الكلام هُنا إنما هو في إضافة النِّعمة، أما إذا كان الكلامُ في الإخبار

عن السبب المُجَرَّد الواقع -أي: الإخبار عن سبب واقِع- فهُنا يجوز أن يُقَال: لولا كذا لكانَ كذا؛ أي: إذا كان المَذكورُ سببًا عادة أو شَرعًا للشيء فحَصل فأخبَرت أنه سببٌ فقط لا من باب إضَافة النِّعمة فهذا جائز.

كأن تقول: لولا وصولُ الشُّرطي لقتَلَني هذا المُجرم!

فأنت هنا لا تتحَدَّث عن النعمَة، ولكن تتحدَّث عن السَّبب، وتُخبِر عن سبب نجَاتك، وأنها كانت بسبب وصُولِ الشرطي، فهذا جائز.

ومنهُ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي طَالبٍ: «... **لَولَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارِ**». كما عند البُخَاري[1].

فالنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا قال: «**لَولَا أَنَا**»، وهذا خبر عن السَّبب، وإلا فالمُنعِم، والذي تُضَاف إليه النعمة هو الله عَزَّ وَجَلَّ، فما شفَع النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طالبٍ إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن لا يَجُوزُ في بابِ الإخبَار عن السَّبب أن يُسَوَّىٰ بين الله والمَخلُوق، فلا يجوز أن تقول: لولا الله والسائق لهلَكنَا، حتىٰ لو كان من باب الإخبار عن السبب، فإن الله لا يُسَوَّىٰ به مَخلُوق لا عقيدةً ولا لفظًا.

وقَد يكون كفرُ النعمَة بالجَوَارح: وذلك بأن يستعمل نعمةَ الله في معصية الله.

فمِن كُفرِ النِّعم: أن تَعصِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنعمَه عليك، فخيرُ الله جَلَّ وَعَلَا

(١) برقم (٦٢٠٨) من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إليك نازِل، وشَرُّك إليه صاعد -والعياذ بالله-، فهذا كفران النعم.

قَال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ**: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾): وهؤلاء المقصُودُون بالآية: قرَيش.

(﴿ يَعْرِفُونَ ﴾): أي: يُدرِكُون ذلك بقُلوبهم، ويَعرفونَه بحَواسِّهم؛ فهُم يدركون أن الله يُنعم، ويعرفونَ نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد اختُلف في المُراد بالنعمة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾:

قالَ بعضُ العلماء: هو مُحَمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا شكَّ أن محمدًا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونبُوته أعظم النِّعَم.

وقال بعضُ أهل العلم: هي نِعَم الله التي ذكرها في (سورة النحل) التي منها هذه الآية، و(سُورة النحل) تُسمَّىٰ عند العلماء بـ(سورَة النِّعَم)؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكَرَ فيها كثيرًا من النِّعَم.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: بل المُراد كل النِّعم التي أنعَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها علىٰ العباد، وهذا هو الصحيح؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ و(نِعمَة) مُفرَد مُضاف، والمفرد المضاف يَعُم فيَشمَل كلَّ نِعمَة.

(﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾): ثم يَجحَدونَها ويَكفُرون بها، وهذا يَدُل علىٰ أن جحُود النِّعم من صفاتِ الكفار.

قَالَ: (﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾): وقد اختُلفَ في المَقصُود بالضمير في قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ﴾:

فقال بعضُ أهل العلم: المقصود قُرَيش.

وهذا لا إشكال فيه؛ ويكُون المَعنىٰ: (وَأكثَر قريش الكَافرون بكَ، والقليلونَ منهُم آمنوا بكَ). وهذا واضح؛ لأن أكثَرَ قُرَيش لم يُؤمِنُوا بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما دعاهُم إلىٰ الإسلام، والذين آمنوا عددُهُم قَليل.

وقال بعضُ أهلِ العلم: إن المُراد بالضَّمير الكفار.

وهذا فيه إشكَال؛ إذ سيكُون السِّياق: (وأكثَرُ الكفار هم الكافرون)!

فهل أكثَرُ الكفار كفار، أو كُل الكفار كُفَار؟

كُل الكفار كُفَّار؛ فكيف يكون هذا المَقصُود هكذا؟

قالوا: المُراد بالكُفر هنا: كفرُ الجُحود؛ لأن كُفر كفَّار قريش بالرسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوعان:

كُفر جُحُود: بمَعنىٰ: أن قلوبَهُم عارفة ومُقِرة؛ لكنَّهم يَكفُرون بألسِنَتهم، فهُم لا يُكذِّبون النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقةً؛ بل يعلَمُون أنه صادِقٌ.

كُفر تَكذيب: بمعنىٰ: أن منهُم من كفَر بالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُكَذِّبه.

لكن الأكثر هم الذين كفَرُوا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفرَ جُحُود؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

فهذا الأكثَر، وقليلٌ منهم من كان مكذبًا؛ فيُصبح المعنىٰ: وأكثَرُهم الكافرونَ بك كُفرَ جُحود، وقليل منهم كافرٌ بك كفرَ تَكذيب.

هذا هو مَا قصَدَه أهلُ العلم في هذا المعنىٰ للآية الكَريمَة.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعنَاهُ: «هُوَ قَولُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثتُهُ عَن آبَائِي».

وَقَالَ عَونُ بنُ عَبدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَولَا فُلَانٌ، لَم يَكُن كَذَا وَكَذَا».

وَقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

الشرح

قال: (قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعنَاهُ: هُوَ قَولُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثتُهُ عَن آبَائِي):

وهذا رواهُ ابنُ جَرير في «تَفسيرِه» بإسنَاده[1] عن مُجاهِدٍ، والشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكرَهُ بالمَعنىٰ، أما لَفظُه فقال: «هِيَ المَسَاكِنُ وَالأَنعَامُ وَمَا يُرزَقُونَ مِنهَا، وَالسَّرَابِيلُ مِنَ الحَدِيدِ وَالثِّيَابِ، تَعرِفُ هَذَا كُفَّارُ قُرَيشٍ، ثُمَّ تُنكِرُهُ بِأَن تَقُولَ: هَذَا كَانَ لِآبَائِنَا، فَرَوَّحُونَا إِيَّاه». أو: «فَوَرَّثُونَا إِيَّاهَا».

فكان كفارُ قُرَيش لا يُقِرون بأن ما في أيديهم من أموال وخيرات من الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يقولون: هذا من آبائنا وأجدادنا ورِثناه، وهذا قد يكون بالقَلبِ واللسَان، وقد يكون باللسَان فقط.

قال: (وَقَالَ عَونُ بنُ عَبدِ اللهِ: يَقُولُونَ: لَولَا فُلَانٌ، لَم يَكُن كَذَا وَكَذَا): عَون ابن عَبدِ الله التَّابعي.

وقد ذكره الشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا بالمعنىٰ.

---

(١) (١٤/ ٣٢٥).

ولفظُه: قَالَ: «إِنكَارُهُم إِيَّاهَا: أَن يَقُولَ الرَّجُلُ: لَولَا فُلَانٌ مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَولَا فُلَانٌ مَا أَصَبتُ كَذَا وَكَذَا». رواه ابنُ جرير في «تفسيره»[1]، وإسناده ضعيفٌ، ولكنَّ المَعنىٰ صَحيح.

وهذا تفسيرٌ لجُحُود النِّعمة الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في الآية.

قال: (**وَقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا**)[2]: يعني: أن كفار قُرَيش كيف يجحدُون النعمة، ويقولون: هذه النعم ماجَاءتنا إلا بشَفَاعة آلهتنا، وليسَ بفَضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا أقبَحُ ما يكون!

وللأسف! بعضُ المنتسبين للإسلام اليوم يَقُولون هذا، فإذا كانَت بلادهُم طيِّبة، وعندهم زُروع طيبة، قالوا: هذا بشَفاعة سيِّدنا فلان الذي في القبر، وهذه بَرَكة سيدنا فلان، طابت أرضُنا وطاب ماؤنا وحسُن هواؤنا ببركة سيِّدنا (المقبور)!

وهذا -والعياذ بالله- **شرك أكبر**؛ لأنَّهم يُسنِدُون هذه النعمة حقيقَة إلىٰ هذا المخلوق، فإذا كان إسنادُ النعمة إلىٰ المخلُوقِ بالقلب والاعتقاد؛ **فهو شِركٌ أكبَر**، وإذا كان باللسَان؛ **فهو شِركٌ أصغَر**.

---

(١) (١٤/ ٣٢٦).

(٢) «غريب القرآن» (ص٢٤٨ -صقر)، وانظر: «زاد المسير» (٢/ ٥٧٧).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ -بَعدَ حَدِيثِ زَيد بنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: «أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِر...» الحَدِيث، وَقَد تَقَدَّمَ-: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبحَانَهُ مَن يُضِيفُ إِنعَامَهُ إِلَىٰ غَيرِهِ وَيُشرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَولِهِم: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلسِنَةٍ كَثِيرٍ». انتَهَىٰ كَلَامُهُ.



الشرح

هذا كلامُ شيخِ الإسلام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

قالَ: (بَعدَ حَدِيثِ زَيد بنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: أَصبَحَ مِن عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِر...): وقد تقَدَّم شَرحُه، وبيان مَعناه، وما فيه من فَوائِدَ عقَديَّة.

قالَ: (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبحَانَهُ مَن يُضِيفُ إِنعَامَهُ إِلَىٰ غَيرِهِ وَيُشرِكُ بِهِ): فمَن أضاف النعَمَ إلىٰ مخلوق فقد أشرَك، وكما قُلنا: إن أضافَها بقلبه فقد أشرَكَ الشركَ الأكبر، وإن أضافَها بلسَانه فقد أشرَكَ الشركَ الأصغَر.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَولِهِم: كَانَتِ الرِّيحُ**

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣٣).

طَيِّبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقًا): فإذا سَلِمت السفينةُ، فقيل لهُم: كيف سَلمتُم؟، قالوا: كانت الريحُ طَيبة.

والمَلَّاح: هو قائدُ السَّفينة، سُمِّي ملاحًا؛ لأن الغالب أن السفن تكونُ في البَحر، والبحر مَالِح.

حَاذقًا: أي: ماهرًا؛ فيُضيفون النِّعَم إليهم، لا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (وَنَحوِ ذلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَىٰ أَلسِنَةِ كَثِيرٍ): وهذه العبارة لم أجِدها في كلام شيخِ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلعلها في بعضِ نُسَخ «مجموع الفتاوىٰ»، ممَّا لم نَقف نحن عَليه.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ مَعرِفَةِ النِّعمَةِ، وَإِنكَارِهَا.

فمعنىٰ المَعرفَة: هو أنه قد يَعرفُ هذا بالحَواس، ويُقِر بهذا بقلبه، والإنكار: هو الجُحود، وقد تقدم بيانُ أن هذا قد يكون بالقلب واللسان والجَوارح.

الثَّانِيَةُ: مَعرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَىٰ أَلسِنَةِ كَثِيرٍ.

ففي الواقع أن كثيرًا من الناس يُسنِدُون النعمة بألسنتهم إلىٰ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من الشِّرك الأصغَر.

الثَّالِثَةُ: تَسمِيَةُ هَذَا الكَلامِ إِنكَارًا لِلنِّعمَةِ.

يُسمَّىٰ: إنكارًا، وجُحودًا، وكُفرًا، وكُفرانًا، كلها ألفاظٌ شرعيَّة لهذا الفِعلِ وهذا القَول.

الرَّابِعَةُ: اجتِمَاعُ الضِّدَّينِ فِي القَلبِ.

يعني: أنه قد يجتمِعُ ضِدَّان في القلب؛ بمعنىٰ: أنه قد يَجتمعُ في القلب الحُب والبُغض، وإنسانٌ واحدٌ قد تُحبه وتُبغِضُه؛ فيجتمع في قلبِك حبُّك له وبُغضُك له.

مثَال ذَلك: إنسَانٌ مُحَافظ علىٰ الصَّلاة في المَسجد، ويَشرب الدخَان؛ فتُحبه لأنه يصلي، وتُبغضُه لأنه يشرب الدخَان.

والشَّيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذا؛ لأنه اجتمعَ في قلوب الكفَّار معرفة النِّعمة وكفرُ النعمة، فعرَفوا النعمة وكفروا بالنِّعمة، عرَفُوها بقلوبِهم وحَواسِّهم، ولكنهم كَفَروا بها، فلم يُؤمِنُوا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فاجتمع الضِّدَّان في قلوبهم.

❀❀❀

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

الشرح

ومُراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا البَاب من جِهتَين:

الجِهَة الأولىٰ: بيانُ بعض الألفاظ التي يَكثُر وقوعُها علىٰ ألسنة المُسلمين وهي من الشِّرك الأصغر؛ وهم لا يَعلمُون هذا.

والجهَة الثَّانية: بيانُ أن الشرك الأصغَر أشَر من كبائر الذنوب التي هي معاصٍ؛ وأن يَحذَر المُؤمن من الجرأة علىٰ الشِّرك الأصغر؛ لكَونه وصِفَ بأنه أصغر؛ ولأنه لا يُخرج من الملَّة!

ومَراتب الذنُوب: أعلاها إثمًا: الشرك الأكبر، ثم الشركُ الأصغر، ثم البدع، ثم بقيَّة المعَاصي: الكبَائر ثم الصغَائر.

ومراد الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الباب هو الثاني (وهو الشِّرك الأصغَر)، وأن يُنبِّهنا إلىٰ هذه القضيَّة؛ حتىٰ لا نقعَ في الشِّرك الأصغر تسَاهلًا وجرأة .

قالَ: (بابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾): وهَذا الخطابُ أصلُه لكفَّار قُريش.

﴿أَندَادًا﴾: هذه نكِرة تَشمَل كل نِد؛ والنِّد: هو النَّظير والشَّبيه والمُسَاوي.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أنه لا نِدَّ لله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الآيةُ يُخَاطَب بها كل إنسان.

وهذا يشملُ النَّهي عن تسوية الله بخَلقه بالاعتقاد أو باللسان؛ فمَن سَوَّىٰ الله

بخَلقه؛ فقد جعلَ المَخلوق ندًّا للخَالق.

فإن كان قَد سَوَّىٰ الخالق بالمَخلُوق بقَلبه واعتقاده؛ **فهَذا شرك أكبر يُخرِج من المِلَّة.**

أما إذا سَوَّىٰ الخالق بالمَخلُوق في اللفظِ فَقط، فقال مثلًا: ما شاء الله وشئتَ؛ **فهذا شِرك أصغَرُ لا يُخرج من المِلَّة.**

وقد فسَّرَ ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا هذه الآية بتفسير عَظيم وهو مَا أورده الشيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فِي الآيَةِ: «الأندادُ: هُوَ الشِّركُ، أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَىٰ صَفَاةٍ سَوداءَ فِي ظُلمَةِ اللَّيلِ، وَهُوَ أَن تَقُولَ: وَاللهِ وَحيَاتِكِ يَا فُلانُة، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَولَا كَلبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَولَا البَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَىٰ اللُّصُوصُ، وَقَولُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ، وَقَولُ الرَّجُلِ: لَولَا اللهُ وَفُلَانٌ؛ لَا تَجعَل فِيهَا: «فُلَان»؛ هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِركٌ». رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

الشرح

روىٰ ابنُ أبي حاتم هذا الأثرَ في «تفسيره»[1] عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد جيِّد.

قالَ: **(الأندادُ: هُوَ الشِّركُ، أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَىٰ صَفَاةٍ سَوداءَ فِي ظُلمَةِ اللَّيلِ)**: وهذا تَفسيرٌ بنَوع من أنواع الأندَاد؛ لأن جعلَ الأنداد لله أعمُّ من هذا؛ فالشِّرك الأكبر من باب جَعل الأنداد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ والشِّرك في الألفاظ من باب جعلِ الأنداد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لكنَّ ابنَ عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أراد أن يُنبه علىٰ تنديد خاصٍّ وشِرك خاصٍّ هو أخطر ما يكون علىٰ المؤمنين؛ لأنه خفي، فالشِّرك الأكبر قد يتنبه له من أتَىٰ بالشهادتَين، لكن هذا الشرك الخَفي قد يتسلَّل إليه وهو لا يَدري.

---

(١) (١/ ٦٢) برقم (٢٢٩).

قال: (أخفىٰ مِن دَبيبِ النَّملِ): ودبيبُ النمل: صوتُ وأثَر مَشي النمل، ولا أحَد يسمَعُ صوت مَشي النمل، ولا أحدَ يَرىٰ أثر هذا المشي.

ثم يقولُ ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: **(عَلَىٰ صَفَاةٍ سَودَاءَ)**: الصَّفاة: هي الحَصَاة المَلساء، وهذه الحصَاة الملساء سَوداء.

(فِي ظُلمَةِ اللَّيلِ): وهذه صفةٌ لا يُمكن أن يُسمع أو يُرَىٰ بها دَبيبُ النمل، ولا بالمَيكرُوسكُوب.

ومرادُ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن يَقُول لك: انتبه يا مُؤمن؛ فهذا الشِّرك خَفيٌّ؛ فَأوصِد البَابَ جَيدًا، واحذَر منه بشِدَّة.

قال: (وَهُوَ أَن تَقُولَ: وَاللهِ وَحيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ): تُريد أَن تَحلفَ لزَوجَتك مثلًا، فتَقول لها: واللهِ وحيَاتِك! فتَحلف بحيَاتها مع حَلِفك بالله!

وهَذا فيه أمرَان عظيمانِ كلاهُما من الشِّرك الأصغر:

الأمر الأول: أنك سَوَّيتَ بينَ الله وبين حياتِها في اللفظ؛ لأنك قلتَ: والله وحيَاتِك؛ فسَوَّيت بين الخَالق والمَخلُوق في اللفظ، **وهذا من الشِّرك الأصغَر**.

والأمر الثاني: أنك حَلفتَ بغَير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ والحَلِف بغَير الله من الشِّرك الأصغَر كمَا سيأتي -إن شاء الله-.

قال: (وَتَقُولَ: لَولَا كَلبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ): وهذا من الشِّرك الأصغَر؛ لأن فيه إضافَةَ النعمة إلىٰ المَخلوق؛ إضافة النعمة إلىٰ هذه الكَلبة، أنه بنُبَاحها وحراستها ما جاءنا اللصوص، وهذا تقدَّم أنه إن كان من بَاب الحديثِ عن

النعمة وإضافة النِّعمة يكون من الشِّرك الأصغر.

قال: (**وَلَولَا البَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَىٰ اللُّصُوصُ**): البَط: هذا الطائر كثير الصَّوت، كثير الفَزع، فصَوتُه عَالٍ، وإذا رأىٰ شيئًا يَفزَع ويشتدُّ صَوتُه؛ فلو جاء لصٌّ إلىٰ الدار فإنَّه إذا سمع صوت البَطِّ يخاف ويَفزع، وإذا دخلَ فإن صوتَ البط يَعلُو؛ فيتنبَّه أهلُ الدَّار؛ ومثل البط (الوَز)، ففي بَعض البُلدان يضعون في البيت (الوَز) من أجل حمَاية البيت لِمَا ذَكرنا.

فيَأتي إنسَان فيقول: «لولا البَط لسُرِقنا؛ لولا الوَز لسُرِقنا!» من باب إضافَة هذه النعمة، فهذا حرامٌ لا يجوز، وهو من الشِّرك الأصغر.

قال: (**وَقَولُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ**): وهَذا سيأتي بعد ذلك في بابٍ مُستَقل، وسنُبيِّنُه -إن شاء الله-.

قال: (**وَقَولُ الرَّجُلِ: لَولَا اللهُ وَفُلَانٌ**): وهذا من باب الخَبَر وحِكَاية السَّبب، لكنه حَرام؛ لأنه قال: «و»؛ لولا الله وفلان؛ **فهذا حرام علىٰ الحَالَين**:

سَواء إذا كان من باب السَّبب والخَبَر، أو من بَابِ إضافة النِّعمة؛ لأنه ذَكَرَ (الواو) فكان حرامًا؛ لأن هذا يقتضي التسويَة؛ والتسويَةُ بين الخالق والمَخلُوق في الألفاظ من الشِّرك الأصغر.

وإذَا كان من بابِ إضافَة النِّعمة فهنا مَحذُوران:

الأول: أنك أضفتَ النعمة إلىٰ المَخلوق، **وهذا شِرك أصغَر**.

والثَّاني: وأنك سَوَّيت بين الله والمَخلوق، **وهذا شِرك أصغَر**.

قال: (**لَا تَجعَل فِيهَا: فُلَان**): تفسير ابن أبي حاتم له طَبعَتان، وإحدىٰ الطبعتين فيها: (**لا تَجعَل فيهَا فُلَان**)، والأخرىٰ فيها: (**لَا تَجعَل فِيهَا فُلانًا**).

فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ذكَر الرواية التي في الطَّبعة الأخرىٰ: «**لَا تَجعَل فِيهَا فُلَان**» وهذا علىٰ الحِكَاية؛ حكاية القَول السابق: لولا الله وفلان؛ ولذلك لم ينصبها، وإنمَا ذكرها علىٰ الرفع لأنَّها علىٰ الحِكَاية، وأمَّا: «**لَا تَجعَل فِيهَا فُلانًا**» فهَذا الأصل.

قال: (**هَذا كُلُّه**): يعني: الذي تقدم (**بِه**): يَعني: بقائله (**شِركٌ**): يعني: أن من قال هذا القَول فقد وقَع في شِرك التسوية بالألفاظ.

وقد ذكرنَا مِرارًا أن التسوية بالاعتقَاد شرك أكبر، والتَّسوية بالألفاظ شِركٌ أصغَر.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ؛ فقَد كفَرَ أَو أَشرَكَ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ.**

الشرح

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهِم في ذكر صحَابي الحَديث، فإن الراوي ليس عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإنما الرَّاوي ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فقد رَوىٰ التِّرمِذي[1]: «أَنَّ ابنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعبَةِ، فَقَالَ ابنُ عُمَرَ: لَا يُحلَفُ بِغَيرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كفَرَ أَو أَشرَكَ**». ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حَسَن.

وهذا التردُّد من أحَد الرُّواة.

وقد رواهُ أبو دَاودَ[2] بالجَزم: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ**».

وروَاهُ أحمدُ[3] بلَفظ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كفَرَ وَأَشرَكَ**».

ورواهُ الحَاكمُ[4] بلفظ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كفَرَ**».

---

(١) برقم (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) برقم (٣٢٥١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) برقم (٦٠٧٢-الرسالة).

(٤) في «المستدرك» (١/ ٦٥).

وصَحَّحه ابنُ حبان[١]، وابنُ تيميَّة[٢]، وابنُ القيم[٣]، وأحمَد شاكر، وابنُ باز[٤]، والألبَاني. **فالحَديثُ صحيحٌ بلا شَك.**

وهو يدُل علىٰ تحريم الحَلِف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل يدُل علىٰ أن الحلف بغير الله من الشِّرك الأصغر. كأن يقول الرجل: وحيَاةِ أبي، ورأسِ أمي، والنَّبي، وجبريل، والكعبة... أو غير ذلك، هذا كله من الشِّرك الأصغر، وقد يصلُ إلىٰ الشرك الأكبر -والعِيَاذ بالله-، إذا كان تعظيمُ المخلوق في قلب الحَالِف أعظمَ من تعظيم الله!

وهَل هناكَ مَن يُعظِّم المخلوقَ أعظَم من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

نعَم؛ فبعضُ الناس يُمكن أن يحلفَ بالله كاذبًا؛ لكن لا يُمكن أن يَحلفَ بالوَليِّ كاذبًا؛ بل يخاف من الولي أن يَحلفَ به كاذبًا؛ هذا عظَّم الوليَّ في قلبه أكثر من تعظيم الله، فهنا يُصبح الحلف به شِركًا أكبر!

وقد نَصَّ الفقهاء من الحنفية والمالكية والشَّافعية والحنابلة علىٰ أن مَن قام بقلبه عند الحلف تعظيم المَخلُوق حتىٰ ساوَىٰ تعظيمه لله أو كان أعظَم من تعظيمه لله **أنه شِركٌ أكبر**، أما إذا لم يكن ذلك كذلك وإنمَا علىٰ سَبيل الحَلِف؛ **فهذا شرك أصغر**؛ بدلالة هذا الحَديث.

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٤٣٥٨).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٢٦).

(٣) «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٩).

(٤) «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (١/ ٤٥ الشويعر).

ويَدُل لتحريم ذلك أيضًا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيسَ مِنَّا»**. رَواهُ أبو داود، وصَحَّحه الألبانيُّ(١).

يَعني: ليس علىٰ طَريقتنا، فيَحرُم الحلِفُ بالأمانة.

وأيضًا يَدُل لذلكَ قولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم، وَمَن كَانَ حَالِفًا فَليَحلِف بِاللهِ»**. رواه البُخاري(٢).

وإذا كنَّا لا نَحلِف بآبائنا، فمن بابِ أولىٰ ألَّا نحلف بأبنائنا وغير ذَلك، وسيأتي التَّعليق علىٰ هذه -إن شاء الله-.

وقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَحلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلَا بِآبَائِكُم»**. رواه مسلم(٣). والطَّوَاغي: هِي الطَّوَاغيت.

فقَرنَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الحَلفِ بالطواغيت والحَلف بالآباء!

فإن قالَ قائل: جاء في الحَديث عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **«جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعظَمُ أَجرًا؟ فَقَالَ: أَمَا وَأَبِيكَ لَتُنَبَّأَنَّه...»**(٤).

وَعَن طَلحَةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **«جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣) من حديث بُرَيدَة بن الحُصَيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) برقم (٧٤٠١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) برقم (١٦٤٨) من حديث عبد الرحمَن بن سَمُرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٣٢).

مِن أَهلِ نَجدٍ ثَائِرُ الرَّأسِ، نَسمَعُ دَوِيَّ صَوتِهِ، وَلَا نَفقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ دَنَا مِن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَسأَلُ عَنِ الإِسلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: **خَمسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَومِ، وَاللَّيلَةِ**. فَقَالَ: هَل عَلَيَّ غَيرُهُنَّ؟ قَالَ: **لَا، إِلَّا أَن تَطَّوَّعَ، وَصِيَامُ شَهرِ رَمَضَانَ**. فَقَالَ: هَل عَلَيَّ غَيرُهُ؟ فَقَالَ: **لَا، إِلَّا أَن تَطَّوَّعَ**. وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَل عَلَيَّ غَيرُهَا؟ قَالَ: **لَا، إِلَّا أَن تَطَّوَّعَ**. قَالَ: فَأَدبَرَ الرَّجُلُ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ، لَا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا، وَلَا أَنقُصُ مِنهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: **أَفلَحَ إِن صَدَقَ**».

وفي رِوَاية: «**أَفلَحَ وَأَبِيهِ إِن صَدَقَ...**»[١].

فيقولُ: إن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال: وأَبِيك، وهذا قسَم بالأب، وقال: وَأَبِيه!

فلماذَا لا نقُول: إن الحلفَ بغَير الله مَكرُوه؟، وهذا يذكُره بعضُ الناس اليوم!

نَقُول: إن الذي قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كَفَرَ أَو أَشرَكَ**»[٢].

وقال فيه: «**لَا تَحلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلَا بِآبَائِكُم**»[٣].

لا يُمكن أن يَكُون هذا مَكرُوهًا، فلا يُوجَد في الشَّريعة شيءٌ هو شِركٌ ويكونُ مَكرُوهًا.

---

(١) أخرجهما مسلم (١١).

(٢) تقدم تخريجه (ص٣٩٥).

(٣) تقدم تخريجه (ص٣٩٧).

وقد أجابَ العُلماءُ علىٰ هَذَين الحديثَين بأجوبَةٍ كَثيرة، وأقواها جَوَابان:

الجَواب الأول: أن هذا مما يجرىٰ علىٰ الألسنة، ولا يُقصَد به معناه، وهذا موجودٌ في العربيَّة، وفي كلام النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالعَربُ تَقُول: افعل كذا تَرِبَت يدَاك!

وأصلُ مَعنىٰ (تَرِبت يدَاك): التصَقت يَدُك بالتُّراب من الفقر، فهو دُعَاء، فأصلُها دُعاء بالفَقر، ثم أصبحَ الناسُ يستعملونها بغير قصدِ الدعاء، وإنما تُذكَر في الكلام.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَاظفَر بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَت يَدَاكَ**»(١).

فهَل نقُول: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعُو علىٰ مَن يتزوج صالحةً بالفَقر؟!

لا؛ بل هذا مما يجرِي علىٰ الألسنة، ولا يقصد معنَاه.

ومنه أيضًا قولهم: (ثَكِلَتكَ أمُّك)!

فإن معناها في الأصل: فَقَدَتكَ أمُّك! فهي في الأصلِ دُعاء بالمَوت، لكن أصبح هذا مما يَجرِي علىٰ الألسنة بدون هذا المَقصُود.

ولذلك قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمُعَاذ الذي يُحِبه، والذي قال له: «**وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّكَ**»، قالَ له: «**ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ!**»(٢).

فهل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو علىٰ معَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمَوت؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الجَواب: لا، ولكن هذا ممَّا جَرىٰ علىٰ الألسنة؛ ولم يُقصَد به مَعنَاه الظَّاهر.

ومنه هذه الجُملة التي ورَدت في الحَديث: «**أَفلَحَ وَأَبِيهِ**»، فليس هذا من بابِ القسَم، وإنما جرىٰ علىٰ الألسِنَة؛ فإن قصَدَ به الإنسانُ القَسَم كان حرامًا.

والوَجه الثَّاني: أن هذا كان قبلَ النهي؛ فإنَّ هذا كان موجودًا في لغَة العرب، وكانت الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ تستعمِلُه إلىٰ أن جاء النهي، كمَا سيأتي في حديثِ اليَهُودي -إن شَاء الله-.

وخُلاصة ذلك: أن المؤمن الحقَّ عندما يسمعُ قولَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد كفَر، أَو قَال: فَقد أَشرَك**»؛ لا يمكنُ أن يتساهلَ في هذا الأمر بالحلف بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مُتتبِّعًا التأويل والأقوال الشاذة بعد أن عَلِم القول الفَصل للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مسألة الحَلف بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فإن التزامَ كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نورٌ وصدقٌ وبُرهان علىٰ إيمان العَبد.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ: «لأَن أَحلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَحلِفَ بِغَيرِهِ صَادِقًا».

الشرح

هذا الأثر رواه عبدُ الرزَّاق، وابنُ أبي شَيبة، وصحَّحه الألباني[1].

(**قَالَ ابنُ مَسعُودٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ): وهو الصَّحابي الفَقيه من كبَار فُقهاء الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(**لأَن أَحلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا**): الحَلفُ بالله كاذبًا من كبَائر الذنوب، وهي اليَمينُ الغَمُوس التي تغمسُ صاحبها في النار.

ومع ذلك يَقُول هذا الصَّحابي الجَليل: «**لأَن أَحلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا**»، وهذه كبيرةٌ من كبَائر الذنُوب.

(**أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَحلِفَ بِغَيرِهِ صَادِقًا**): وذلك لأن الحَلفَ بالله كاذبًا كبيرة ومَعصية، والحَلفُ بغير الله صادقًا أو كاذبًا شِرك أصغَر، **والشِّرك الأصغَرُ أعظَمُ مِن الكَبيرَة المُجَرَّدَة.**

ومراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **من ذِكر هذا**: أن يؤكدَ لك أن المستقِرَّ عند الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أن الحلف بغير الله شرك أصغر؛ ولذلك جعلَ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) أخرجه عبدُ الرزَّاق في «المصنف» (٨/ ٤٦٨) برقم (١٥٩٢٩)، وابنُ أبي شَيبة في «المصنف» (٢/ ٧٩) برقم (١٢٢٨١)، وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٥٦٢).

الحلفَ بالله كاذبًا أحبَّ إليه من الحلف بغير الله صادقًا، فهل يمكنُ بعد هذا أن يأتي واحدٌ ويَقُول: الحلفُ بغير الله مَكرُوه؟!

كيفَ يكون مَكرُوهًا وابن مَسعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول : **(لأَن أَحلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَحلِفَ بِغَيرِهِ صَادِقًا)** وهذا من كبَائر الذنُوب؟!

بل الحَلفُ بغير الله شِركٌ أصغر، وهو أعظمُ من كبائر الذنوبِ المُجَردة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن حُذَيفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

الشرح

وهذا سيأتي الكلامُ عليه -إن شاء الله- في بابه فيما سَيأتي.

❀❀❀

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٧).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَجَاءَ عَن إِبرَاهِيمَ النَّخعِيِّ: «أَنَّهُ يَكرَهُ أَن يَقُولَ الرَّجُلُ: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَن يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ؛ قَالَ: وَيَقُولُ: لَولَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ؛ وَلَا تَقُولُوا: لَولَا اللهُ وَفُلَانٌ».

الشرح

هذا الأثرُ رواه مَعمر في «الجَامع»[1] بإسناد صَحيحٍ.

(وَجَاءَ عَن إِبرَاهِيمَ النَّخعِيِّ): وهو التَّابعي الكبير الفَقيه.

(أَنَّهُ يَكرَهُ): ولفظة: (أكرَه، ويُكرَه) عند السَّلف تعني (يَحرم)، وليس هو المَكروه عند المتأخرين، بل لفظُ (الكراهة) عند السلف يعني (التحريم)؛ فإذا وجدتَ في لسان الصحابي: أكره، أو: يُكره، أو: هذا مكروه؛ فاعلم أنه يقصدُ أنه (يَحرم)، وكذا عند التَّابعين.

(أَن يَقُولَ الرَّجُلُ: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَن يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ): وقد تقدَّم بيانُ أن الاستعاذة علىٰ هيئة الدعاء لا تكونُ إلا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وجَعلُها للمخلوق شِركٌ أكبر.

أمَّا الاستعاذة بالمَخلوق بالفِعل أو بالطلب علىٰ غير هيئة الدعاء؛ بأن تستعيذَ بالمخلوق الحي القادر الحَاضر فيمَا يقدِرُ عليه فهذا جائز.

---

(١) المُلحَق بمُصنف عبد الرزَّاق (١١/ ٢٧) برقم (١٩٨١١).

كأن تقُول: أعوذ بهذا الجبَل من الفتن؛ أي: الجأ إليه وأصعدُ عَليه فِرارًا من الفِتَن.

وهذا هو مَعنَىٰ قَولِ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «...**وَمَن وَجَدَ مَلجَأً أَو مَعَاذًا فَليَعُذ بِهِ**»[1].

وكأن تَقُول للقَاضي: أعوذ بك من ظُلم خَصمي لي؛ فهذا يَجُوز.

ويَجُوز أن تقول: أعوذ بالله ثُم بك من ظُلم الظالم.

لكن لا يَجُوز أن تقُول: أعوذ بالله وبك!

لأن في هذا تَسويَةً بين الخالق والمَخلُوق، وهذا لا يجُوز حتىٰ فيما يقدر عليه المَخلُوق، وهذا من شِرك التسوية بالألفاظ.

(قَالَ: وَيَقُولُ: لَولَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ؛ وَلَا تَقُولُوا: لَولَا اللهُ وَفَلَانٌ): وقد تَقدَّم الكلامُ عن هَذا.

❊❊❊

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ فِي الأَندَادِ.

وأنها تشمَلُ كُل ما جُعل ندًّا لله عَزَّوَجَلَّ؛ سَواء بالاعتقاد أو بالألفَاظ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّركِ الأَكبَرِ بِأَنَّهَا تَعُمُّ الأَصغَرَ.

كما فَسَّرها ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وذكر الشِّرك الأصغر.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الحَلِفَ بِغَيرِ اللهِ شِركٌ.

وذلك بنَصِّ حَديثِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ صَادِقًا، فَهُوَ أَكبَرُ مِنَ اليَمِينِ الغَمُوسِ.

لأنه شرك أصغَر.

الخَامِسَةُ: الفَرقُ بَينَ «الوَاوِ» و«ثُمَّ» فِي اللَّفظِ.

لأن «الواو» تقتضي المُسَاواة، ولا يجوز تَسوية الخالق بالمخلوق، و«ثُم» تقتضي التَّرتيب والتَّراخي وتأخير الرتبَة؛ فجَازَت.

❀❀❀

بَابُ: مَا جَاءَ فِيمَن لَم يَقنَع بِالحَلِفِ بِاللهِ.

الشرح

لمَّا تقدم الكلام عن الحلف بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنه من لَوَازم التوحيد، وعن الحَلف بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنه شِرك؛ عقَد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا البابَ؛ لأن الاقتناع بالحَلف بالله والرضَا بذلك من لوَازم التوحيد، ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

فمِن تعظيم المُوحِّد لله جَلَّوَعَلَا **في** قَلبه: أن يَرضَىٰ بالحَلفِ بالله، ولا يَطلُب الحَلفَ بغَير الله، وأن يُسلِّم لمَن حَلَفَ بالله عَزَّوَجَلَّ.

وقد يعظُمُ تعظيم الله في قلبِ المُؤمن حتىٰ يُصدِّق من حَلفَ بالله وإن كان الحِسُّ يدُل علىٰ كَذِبه، فيلتمس له الأعذار حتىٰ يُصدِّقه لتعظيمه لله في قلبه، وأضرب مثالًا من الوَاقِع، ومثالًا في السُّنة.

أمَّا المِثال من الواقِع: فلو أنك كنت مواعدًا شخصًا أن يأتيك ضحًىٰ، فلم يأتِ، فلقيته بعد العصر فقلت له: يا فلان، لِمَ لَم تأت علىٰ المَوعد؟ فقال: واللهِ كنتُ مُسافرًا!

وأنت كنتَ قد رأيتَه بعينك، فتصدقُه في قوله إنه كان مُسَافرًا، وتلتمس له العُذر، إن كنتَ رأيتَه قبل الموعد تقول: لعله سافر بعدَما رأيتُه، وإن كنتَ رأيته بعدَ الموعد تقول: لعله قَدِم بعدمَا فاتَ المَوعد.

وذلك لأنكَ تُعظِّم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، في قَلبك تعظيمًا شديدًا؛ فلمَّا قال لكَ: واللهِ، صَدَّقت بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

وأما المِثالُ من السُّنة: فما جاء عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**رَأَىٰ عِيسَىٰ ابنُ مَريَمَ رَجُلًا يَسرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَىٰ: آمَنتُ بِاللهِ، وَكَذَّبتُ عَينِي**». رواهُ البُخاري[1].

وفي روايةٍ عند مُسلم[2]: «**فَقَالَ عِيسَىٰ: آمَنتُ بِاللهِ وَكَذَّبتُ نَفسِي**».

وإنما قال عيسَىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ ذلك رغمَ أنه رأىٰ الرجُل بعَينيه وهو يَسرِق، لتعظيم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قَلبه، حتىٰ إنه صَدَّقه مع أنه رآه يَسرِق.

قال العلمَاء: التمس له العُذر فقال: لعله كان يأخذُ مالًا له وأنا ظننتُه يَسرق، لعله وَكيل عن صَاحب المال فأخذ من مالِهِ؛ وذلك كله مِن أجل أنه حلف له بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا كمَال وليس بواجِب، ولكن الواجبَ أن يَرضىٰ المسلمُ بالحَلف بالله، فهذا من لَوَازم التَّوحيد.

قَال: (**بَابُ: مَا جَاءَ فِيمَن لَم يَقنَع بِالحَلِفِ بِاللهِ**): يعني: لم يَرضَ ولم يُسَلم بالحَلف بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

---

(١) برقم (٣٤٤٤).

(٢) برقم (٢٣٦٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «لا تحلِفُوا بِآبَائِكُم، مَن حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصدُق، وَمَن حُلِفَ لَهُ بِالله فَليَرضَ، وَمَن لَم يَرضَ فَلَيس مِنَ اللهِ». رَوَاهُ ابنُ مَاجه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.**

الشرح

هذا الحديث رواه ابن ماجه[1]، ولفظُه: أن رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: **«لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم، مَن حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصدُق، وَمَن حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَليَرضَ، وَمَن لَم يَرضَ بِاللهِ، فَلَيسَ مِنَ اللهِ»**. وصحَّحه الألباني.

وقد حسَّنه الحافظُ ابنُ حَجَر في «فتح البَاري»[2].

(**لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم**): هذا نَهيٌ، والنهي يقتضي التَّحريم، وتَخصيص الآبَاء هنا خَرج مَخرج الغالب، وهو أن الغالبَ أنهم كانوا يَحلفُون بآبائهم؛ فلا مَفهُوم له، فلا يعني أن نَحلفَ بالكعبة أو بالأبناء أو غير ذلك؛ بل هذا النهي يَشمَل كُل حَلِف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«أَلَا مَن كَانَ حَالِفًا فَلَا يَحلِف إِلَّا بِاللهِ. فَكَانَت قُرَيشٌ تَحلِفُ بِآبَائِهَا، فَقَالَ: لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم»**.

---

(١) برقم (٢١٠١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) (١١/ ٥٣٦).

مُتَّفق عَليه[١].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَحلِفُوا بِآبَائِكُم وَلَا بِأُمَّهَاتِكُم وَلَا بِالأَندَادِ، وَلَا تَحلِفُوا إِلَّا بِاللهِ، وَلَا تَحلِفُوا إِلَّا وَأَنتُم صَادِقُونَ**». رواه أبو دَاود، والنسائي، وصَحَّحه الألبَاني[٢].

(**مَن حَلَفَ بِاللهِ فَليَصدُق**): فيَجب علىٰ المؤمن أن يكونَ صادقًا في حَلِفه باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والحلف بالله -مع عِلم الإنسان أنه كاذب- هذه هي اليَمين الغَموس التي تَغمِسُ صَاحِبَها في النار، وهي من كبائر الذنوب.

عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الكَبَائِرُ: الإِشرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَينِ، وَقَتلُ النَّفسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ**». رواهُ البُخَاري[٣].

فيجبُ علىٰ المؤمنين أن يَحذَرُوا من ذلك؛ وللأسف كَثُر الحَلفُ بِالله مع علم الإنسان أنه كاذِب، وهذه كبيرة من كبَائر الذنوب في أي أمرٍ، ولكن إثمهَا يشتدُّ إذا كانت في الحُقوق وأكل أموال الناس.

عَن عَبدِ اللهِ بن مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَحلِفُ عَلَىٰ يَمِينِ صَبرٍ يَقتَطِعُ مَالًا وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيهِ غَضبَانُ...**». مُتَّفقٌ عَليه[٤].

---

(١) البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، والنسائي (٣٧٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) برقم (٦٦٧٥).

(٤) البخاري (٧١٨٣)، ومسلم (١٣٨).

(**وَمَن حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرضَ**): أي: أن من حُلِف له بالله فليَرضَ بالحلف بالله، ولا يطلب الحلفَ بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما يفعلُ بعض الناس اليَوم، فلا يرضىٰ إلا بالحَلِف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَقتنع إلا بذلك، ولا يقبل الحَلف بالله جَلَّ وَعَلَا!، وهذا يكون كمن حَلف بغير الله؛ لأن المُتسبب في الشيء كفاعله؛ فيكون قد وقعَ في الشِّركَ الأصغر؛ فمن طلبَ من أحدٍ أن يحلف بغَير الله؛ فقد وقع في الشِّركَ الأصغر كالحَالف، وكذلك مَن حُلف له بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القضَاء فليَرض، إذا لم تَكُن عنده بينة لإثبات حقِّه، وحَلف خَصمُه باللهِ وأنكرَ الحقَّ الذي عليه؛ لأن هذا شَرعُ الله؛ والواجب علىٰ المسلم أن يُسَلم لشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وليسَ المقصُود أن تعتقدَ في قَلبِك أنه ليس لك حَق، لا، ما دمتَ تعرفُ أن لك حقًّا فهذا في قَلبك، لكِن سَلِّم للحُكم؛ لأنه شرعُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك أيضًا مَن حلف لكَ بالله علىٰ شيء فصَدِّقه، ما لم يوجد ما يُكَذبه، طالما أنه يغلب علىٰ ظنِّك أنه صادق فيه فصَدِّقه، وأما إذا كنتَ تعرفُ ما يُكذِّبه وأنه كذَّاب في هذا؛ فلا يلزم أن تُصَدقه، ولا يجبُ عليك، لكن لو صَدَّقته فهذا كمالٌ في خُلقِك وتَعظيمِك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**وَمَن لَم يَرضَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ**): هذا وعيدٌ شَديد ويَدُل علىٰ أن عدَم الرضَا بالقسَم بالله كبيرة من كبَائر الذنُوب.

فإن كانَ يَطلُب القَسَم بغير الله؛ **فهذا شِركٌ أصغر**، وإن كان لا يَرضَىٰ بالحُكم، أو لا يُصَدق؛ **فهَذه كبيرةٌ من كبَائر الذنُوب**، إلا إذا وُجد ما يَدُل علىٰ كَذِبه؛ فلا يلزم الإنسَان أن يُصَدِّقه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَنِ الحَلِفِ بِالآبَاءِ.

وبالتالي النهي عن الحَلف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُطلقًا: بالآباء، أو بالأمهَات، أو بالأبنَاء، أو بالكعبة... أو بغير ذلك، فالحلفُ بغَير الله كُله منهيٌّ عنه.

الثَّانِيَةُ: الأَمرُ لِلمَحلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَن يَرضَىٰ.

كمَا تقَدَّم بيانُه.

الثَّالِثَةُ: وَعِيدُ مَن لَم يَرضَ.

كمَا تقَدَّم بيَانُه.

❁❁❁

بَابُ: قَولِ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ.

الشرح

أي: ما حُكمُه؟ أهُو شِرك أم دون ذلك؟

وإن كان شركًا، فما نوعُه؟

والجوابُ يأتي من الأدلَّة المَذكُورة في الباب، ولا شكَّ أن الأدلة دلت علىٰ أنه شِرك؛ أن يَقُول الإنسَان: ما شَاء الله وشئتَ (بالواو)، الأصل فيه أنه شِركٌ أصغَر، وقد يكون شركًا أكبَر، كما سنُبَين -إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

وهذا البابُ في مُكَملات ومُتمِّمات توحيد الألوهية، وما يتعَلَّق بما يُضَاد كمالَ التَّوحيد.

والمَعلُومُ أن التوحيد يكونُ بالاعتقاد، ويكون بالعَمل، ويكون بالألفاظ.

وكذلك الشِّرك؛ يكون بالاعتقَاد، ويكون بالعمَل، ويكون بالألفَاظ.

وهذا البابُ مُتعَلق بشِرك الألفاظ.

ومن المَعلُوم المُستَقِر شَرعًا وواقعًا: أن للعبدِ مشيئة؛ فيشَاء العبد الفعلَ ويشَاء الترك.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨].

فأثبت للعَبدِ مَشيئَة؛ لكن مشيئة العبد تحتَ مشيئة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فلا يكونُ في كَونِ الله عَزَّوَجَلَّ إلا ما شَاءَه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، كما قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٩]. فمشيئة العبد تحت مَشيئة الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالكمالُ للمؤمن أن يَقُول: ما شاء الله وَحدَه؛ لأن مشيئة المخلوق تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد تقَدَّم حَديثُ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**». وهذا الحديثُ رواه أبُو داودَ بإسنَادٍ صَحِيح[1].

فنَبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانَا أن نَقُول: ما شَاء الله وشَاء فُلان، وأمرَنا أن نقول: ما شاء الله وَحدَه، وهذا الكمَالُ للمُؤمِن.

ويجوز للمؤمن أن يَقُول: ما شاء الله ثُم شاء فلان؛ ممَّا له فيه مشيئة.

وذلك لأن مَشيئةَ الإنسان في هذه الجُملة تابِعَة لمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فـ(ثُم) -كما هو معلوم- تَقتَضي الترتيبَ والتَّراخي، فتكون مشيئَةُ الإنسان تابعةً لمشيئة الله، ومُتَراخية عن مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن الشِّرك أن يُضيفَ الإنسَان المَشيئَة إلىٰ من لا مَشيئة له؛ كالأموات؛ فيقول: ما شَاء صاحبُ القبر، **فهذا من الشِّرك**.

ولا يَجُوز أن يقولَ الإنسانُ: ما شاء الله ثم شاء صاحبُ القبر؛ لأن الميت لا مشيئة له هُنا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

كذلك لا يجوز أن يُضيفَ المشيئة إلىٰ حي في أمرٍ لا مشيئةَ له فيه، كأن يقول: إن شاء الله ثم شئتُ أن أُرزَق ولدًا؛ فإن المخلُوق لا مشيئة له في رزق الولد؛ **فهذا من الشِّرك**.

ومن الشِّرك الأصغَر: أن تُسَوىٰ مشيئة المخلوق بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ في اللفظ؛ بأن يقال: ما شاء الله وشئت. أو: ما شاء الله وشاء فلان. أو يقال: ما شاء الله وشئت (بالواو)؛ فإن (الواو) تَقتَضي التسوية.

فمَن قال هذا القول لا يَخلُو من حَالَين:

الحَالة الأولىٰ: ألا يعتقد بقَلبه التسوية، وإنما يَقُول هذا بلسانه؛ **فهذا شِرك أصغر**؛ كمَا يَدُل عليه الحَديثُ التالي -إن شاء الله-.

الحَالة الثَّانية: إن اعتقَد التسوية في قلبه، وأن مشيئَة المَخلُوق مساوية لمَشيئَة الله عَزَّوَجَلَّ، وقال: شاء الله وشِئت؛ **فهَذا شركٌ أكبر**؛ لأنه جعل المخلوق ندًّا لله عَزَّوَجَلَّ.

وقد دلَّ علىٰ هذا الحُكم أدلةٌ كثيرة منها ما سبق.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهىٰ عن قولِ: ما شاء الله وشئت؛ والنَّهي يقتَضي التَّحريم، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ما يَدُل علىٰ أنه شِرك.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن قُتَيلةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّكُم تُشرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعبَةِ؛ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَن يَحلِفُوا أَن يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعبَةِ، وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئتَ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

الشرح

هذا الحديثُ رواه النسَائي، وصَحَّحه الألبَاني(١)، وروىٰ الإمامُ أحمد قريبًا منه، وصحَّحه الأرنَاؤوط(٢).

(عَن قُتَيلةَ): وهذه صحَابيَّة شرفها الله جَلَّ وَعَلَا بصُحبة رَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ واسمُها: قُتَيلة بنت صَيفي الجُهَنية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(أَنَّ يَهُودِيًّا): واليَهُود هم الذين ينتسبُون إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قيل: سُموا باليهود؛ لأنهم قالوا: إنا هدنا إليك.

وقيل: سُموا باليَهُود؛ لأن جَدهم الأكبر اسمه: يهود، أو يهودا.

وكان اليَهُودُ في أول الأمرِ يَعيشُون في المَدينة.

(أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّكُم تُشرِكُونَ): هذا اليَهُودي جاء إلىٰ

---

(١) أخرجه النَّسائي (٣٧٧٣)، وصححه الألباني «صحيح سنن النسائي».

(٢) برقم (٢٧٠٩٣-الرسالة).

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا لِيَنصَح الأمة عن الشِّرك، ولكن لِيتَنَقَّص محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه؛ فيُريد أن ينتقم منهم؛ كأنه يريد أن يَقُول: أنتم تقولون إنَّا نُشرك، وأنتم تُشركون!

(تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعبَةِ): فسَمَّىٰ هذا شِركًا بحَضرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَن يَحلِفُوا أَن يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعبَةِ): فالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرَّ اليهودي علىٰ أن الحَلِف بالكعبة، وهي مَخلُوق عظيم، ولها حرمَة عظيمَة، من الشِّرك.

(وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئتَ): فدَلَّ هذا علىٰ جوَاز أن يقول المؤمن: ما شاء الله ثم شئت.

والفرقُ بين قَول القائل: ما شاء اللهُ وشئتَ، و: ما شَاء الله ثم شئتَ، بَيِّن؛ لأن (الواو) تَقتضي التسويَة، أما (ثم) فتَقتضي الترتيب والتَّراخي.

ومِن فَوائد هذا الحَديث:

- أن صَاحبَ الباطل قد يَقُول الحق لا لإظهار الحق، وإنما لغرض فاسد، فمن عُرف بالباطل لا يُغتَر بقوله الحق، فإن صاحب الباطل قد يقول الحَق لا للحق كهذا اليهودي الذي قال حقًّا ودل علىٰ خير، لكن لا من أجل الحق، وإنما من أجل سَب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسَب أمته بهذه الطريقة الخفيَّة.

- كمَا أن في هذا الحديث أن المؤمن يقبل الحق إذا ظهَر أنه حَقٌّ، مهما

كان قائله، سواء قاله مُشرِك، أو قاله مُبتَدع، أو قاله فاسق، فإذا ظهر أنه حق فإن المؤمن يَقْبَلُهُ، لكن لا يُطلب الحق من أهل الباطل؛ لأن الأصلَ في أهل الباطل الإضلال والضَّلال، وأنَّهم لا يرشدون إلىٰ الحق، وإنما يُرشِدون إلىٰ الباطل.

فيَجب التفريق بين قَبُول الحق، وبَين طلبِ الحق، فبعض الناس يَخلطُ بين الأمرَين، فيَرُد الحق إذا جاء من مُبتَدع، ويقول: لا نأخذُ الحق من المبتدع، ولا نطلب الحق من المُبتَدع، فيَخلِط بين الطلب والقَبُول!

وبعض الناس بالعَكس؛ يقول: نقبل الحَقَّ من المبتدع، ونَطلُب الحق من المُبتدع!

وكلا الطرفَين مُخطئ؛ فإن هناك فرقًا بين طلَب الحق وبين قَبُول الحق، فقد نُهينا أن نطلُبَ الحق من اليَهُود، أو أن نأخذ أوراقًا من أوراق أهل الكتاب، ولكن في هذا الحَديث قَبِل النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحقَّ من اليهودي.

فهَذه فائدة نفيسة يُخطئ فيها كثيرٌ من طلابِ العلم في هذه المَسألة، فضلًا عن العَوَام.

أيضًا من الأدبِ هُنا: ألا يُغر الناسُ به؛ فيُرفَع من شأنه، ويُنسَب إليه الحق ويُمدح بهذا، إلا إذا كان علىٰ سبيل الحِكَاية كما في هذا الحَدِيث.

- **ومِن فوائد هذا الحديث**: أن كيدَ أهل الباطل لأهل الحق يَئُول إلىٰ خير لأهل الحَق؛ فهذا اليهودي ما أراد الخير للأمة، وإنما جاء كائدًا متَربصًا، ومع ذلك نفع الله بهذا الأمَّة، وخلص الله الأمة من هذا الشِّرك.

ولذلك اشتَغِل بإصلاح ما بينك وبين الله، واحرص علىٰ أن تكون علىٰ توحيد وسُنة، ولا يشغلنك ما يكيدُه الأعداءُ والجُهَّال، فإن الله ناصرٌ مَن يَنصُر دينَه، ومَن يَحفظُ دِينَه، لكن المُهم ألا يكون العطب من عندك؛ لا في قلبك، ولا في قولك، ولا في فعلك، فكيد أهل الباطل وأهل الشر وأهل الفجور لأهل الحَق يئول إلىٰ خَير!

وكَم كادَ أهلُ الباطل لأهل الحق، ونَسَبُوهم إلىٰ النقائص؛ فكان ذلك سببًا لنَشر كلامهم بين الناس، ونَشرِ الحق بين الناس.

فهذه فوائدُ عَظيمة نأخذُها من هذا الحَديث.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ أَيضًا عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ، قَالَ: «أَجَعَلتَنِي للهِ نِدًّا؟ قُل: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ»**.

الشرح

(**وَلَهُ**): أي: للنَّسائي[١].

وهذا الحَديثُ رواهُ البُخَاري في «الأدَب المُفرَد»[٢] بِلَفظ: «**جَعَلتَ لِلَّهِ نِدًّا؟! مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ**».

(**عَن ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا شَاءَ اللهُ وَشِئتَ**): هذا الرجلُ جاء إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما شَاءَ الله وشِئتَ، قال هذا لأشرَفِ مَن وَطئَ الأرض صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لسَيد ولد آدمَ أجمَعِين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأشرفِ المَخلُوقات صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

(**قَالَ: أَجَعَلتَنِي للهِ نِدًّا؟**): فأنكر عليه، وهذا استفهام إنكَار وتعجُّب، أنكر عليه وتعجب مِن فِعله وقَوله، فبهَذا الكلام جعلت لله ندًّا، والله حَرَّم علينا أن نجعل له ندًّا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**قُل: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ**): فلمَّا كان هذا في هذَا المَقام أرادَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقطعَ الذرائع، فلم يقل له: قل: مَا شاء الله ثُم شئتَ؛ بل قالَ له: «**قُل: مَا شَاءَ**

---

(١) في «السنن الكبرىٰ» برقم (١٠٧٥٩)، ولفظه: «**أَجَعَلتَنِي لِلَّهِ عَدلًا؟ قُل: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ**».

(٢) «صحيح الأدب المفرد» برقم (٧٨٣).

اللهُ وَحدَه»؛ فأرشدَه إلىٰ درجة الكمال؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن قول: ما شاء الله وشئت، من الشِّرك؛ لأن جعل ندٍّ لله عَزَّوَجَلَّ شِرك، وقد يكونُ شِركًا أكبَر، وقد يكونُ شركًا أصغَر.

❊❊❊



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلابنِ مَاجَه: عَنِ الطُّفَيلِ -أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا- قَالَ: رَأَيتُ كَأَنِّي أَتَيتُ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ؛ قُلتُ: إِنَّكُم لأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُم لأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.

ثُمَّ مَرَرتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَىٰ، فَقُلتُ: إِنَّكُم لأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابنُ اللهِ. قَالُوا: وَأَنتُم لأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا أَصبَحتُ، أَخبَرتُ بِهَا مَن أَخبَرتُ، ثُمَّ أَتَيتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخبَرتُهُ، قَالَ: «هَل أَخبَرتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلتُ: نَعَم. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثنَىٰ عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعدُ؛ فَإِنَّ طُفَيلًا رَأَىٰ رُؤيَا أَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ مِنكُم، وَإِنَّكُم قُلتُم كَلِمَةً كَانَ يَمنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَن أَنهَاكُم عَنهَا؛ فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ».

الشرح

هذه الرؤيا رَواها ابن ماجَه عن حُذَيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1].

وذِكرُ حذيفَةَ في روايةِ هذا الحَديث وهمٌ من ابن عُيينَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما نبَّه عليه المُحقِّقون، ونبَّه عليه ابنُ حَجَر في «فتح البَاري»[2].

---

(١) برقم (٢١١٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) (١١/ ٥٤٠).

فالذي عندَ ابنِ مَاجَه: عَن حُذَيفَةَ بنِ اليَمَانِ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ المُسلِمِينَ رَأَىٰ فِي النَّومِ أَنَّهُ لَقِيَ رَجُلًا مِن أَهلِ الكِتَابِ، فَقَالَ: نِعمَ القَومُ أَنتُم لَولَا أَنَّكُم تُشرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ.

وَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: **أَمَا وَاللهِ، إِن كُنتُ لَأَعرِفُهَا لَكُم، قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**».

وهذا ليسَ بالتَّمام الذي ذَكَره الشيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ في الكتابِ.

ثم ذكر ابن ماجَه إسناده إلىٰ الطُّفَيل أخي عائشَة بعد أن ذكر الحديث عن حذيفَة ولم يذكر بعده لفظَ الحديث.

وهذه الرؤيَا أيضًا روَاهَا أحمَدُ في «المُسنَد»[١]، بقَريبٍ ممَّا ذكرهُ الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ هنا، وجَاءَ في آخرِهَا: أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ طُفَيلًا رَأَىٰ رُؤيَا فَأَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ مِنكُم، وَإِنَّكُم كُنتُم تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمنَعُنِي الحَيَاءُ مِنكُم أَن أَنهَاكُم عَنهَا. قَالَ: لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ**». وصَحَّحه الأرنَاؤوط.

(**عَنِ الطُّفَيلِ**): وهو صحَابي ليس له إلا هذا الحديث، وهو أخو عائشَةَ لأمها.

ذكر بعض العُلماء أن والد الطفيل جاء مكَّة وتزوج أم رُومان، وأنجبَ منها الطفيل ومات، ثم تَزَوجها أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فأنجب منها عائشة، فهو أخو عائشَة لأمها، ولا يُعرف له إلا هذا الحديث .

(١) برقم (٢٠٦٩٤- الرسالة).

(قَالَ: رَأَيتُ): يَعني: رأيتُ في المنَام.

(كَأَنِّي أَتَيتُ): وفي بعض الروايات: «مَرَرتُ».

(عَلَىٰ نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ): وفي بعض الروايات: «عَلىٰ رَهطٍ مِن اليَهُود». وهم جماعةٌ ما بينَ الثلاثة إلىٰ العشرة من الرجَال.

(قُلتُ: إِنَّكُم لأَنتُمُ): وفي بعض النسخ: «قُلت: إِنَّكم أنتُم» بدون اللام.

(القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: عُزَيرٌ ابنُ اللهِ): عُزَير رجلٌ صالح، نَسَبه اليهود إلىٰ الله، فقالوا: إنه ابنُ الله، تعَالىٰ الله عما يقول الظالمون عُلوًّا كَبيرًا.

(قَالُوا: وَإِنَّكُم لأَنتُمُ القَومُ): وفي بَعضِ النسَخ: «وَأَنتُم لأَنتُم القَوم»؛ يعني: يا معاشِرَ المُسلمِين.

(لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ): فلم يَجدُوا في كلام الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ولا في أفعالهم ولا في اعتقَادِهم شِركًا سِوىٰ هذه المقولة، وقد كانُوا يقولونَها قبل أن يُنهَوا عنها، فلم تَكُن ممنوعَة في حَقِّهم.

(ثُمَّ مَرَرتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَىٰ): وهُم أتباع عيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الذين قَالوا: نَحن أنصَارُ الله.

(فَقُلتُ: إِنَّكُم لأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابنُ اللهِ. قَالَوا: وَأَنتُم لأَنتُمُ القَومُ لَولَا أَنَّكُم تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ مُحَمَّدٌ): فهؤلاء اليَهُود والنصارىٰ ما وجدوا إلا هذا، يَعيبُون به الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

(فَلَمَّا أَصبَحتُ، أَخبَرتُ بِهَا مَن أَخبَرتُ، ثُمَّ أَتَيتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

فَأَخبَرتُهُ، قَالَ: هَل أَخبَرتَ بِهَا أَحَدًا؟، قُلتُ: نَعَم): وسببُ هذا السؤال من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرُ ظَاهر.

وبعضُ أهل العلم قال قولًا لا يَظهرُ أنه سَديد، قالوا: سأله هذا السؤال؛ لأنه لو لم يُخبِر أحدًا بها لأمرَهُ بالسكوت، وألا يُخبِر أحدًا بها!

لكن هذا لا يَظهُر والله أعلم؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنىٰ عليها خيرًا وحقًّا، وفيها خير وحَق لهذه الأمة، فسَببُ هذا السؤال غير ظَاهرٍ، والله أعلم.

(قَالَ: فَحَمِدَ الله، وَأَثنَىٰ عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بعدُ؛ فَإِنَّ طُفَيلًا رَأَىٰ رُؤيَا أَخبَرَ بِهَا مَن أَخبَرَ مِنكُم، وَإِنَّكُم قُلتُم كَلِمَةً كَانَ يَمنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَن أَنهَاكُم عَنهَا): والروايةُ الأخرىٰ مُفَسِّرة؛ قال: «**كَانَ يَمنَعُني الحَياءُ أن أَنهاكُم عَنهَا**».

لِمَاذا كان يَمنعُه الحياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

لأنه لم يُنزل عليه فيها شَيء، فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكرهُها ولا يُحبها، وكان يعرفُها منهم إذا سمعها، لكن لم يُوحَ إليه فيها شَيء، فلم يَنهَهم.

فالنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو رسُولُ الله، ما كانَ يَنهَاهم عما يَكره إلا بِوَحي، فكيفَ لأحدٍ أن يُوجب علىٰ الناس أن يأخذ بقول قائلٍ بلا دليل؟!

وليسَ لأحدٍ أن يَقُول: هذا حلال، وهذا حَرَام، أو هذا حَق، هذا بَاطل، أو هذا صاحبُ حَق، وهذا صاحب باطل، إلا بدَليل، فإن جاء بالدَّليل، وكان الدليلُ صحيحًا، وكانت دلالته صَحيحَة، وسَلِم من مُعَارضة مثله أو أقوىٰ منهُ؛ وَجبَ لزُومه، وإن تخلَّف واحد من هذه فلا يَجبُ علىٰ الأمة أن تلزم قَول أحدٍ

من الناس كائنًا مَن كان، بَعد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإلزام الناس بقول فلان لأنه قول فلان، باطلٌ وبِدعة، ولا يجوز، وإنما يُلزَم الناسُ بالحق.

فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمنعُه الحياءُ من أن ينهاهم عن هذه الكَلمَة؛ لأنه لم ينزل فيها وَحي.

فلما جاءت هذه الرؤيا، وهي حَق، وقد أقَرَّها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رَتَّب عليها أنه نَهَاهم عن قول: ما شاءَ الله وشاء مُحمد.

ودَلَّ هذا الدليل علىٰ أن هذا شِركٌ أصغَر؛ لأنه لو كان شركًا أكبَر؛ لما امتنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نَهيهم عنه، ولَمَا تأَخَّر الوحي بالنهي عنه، فإن النَّهي عن الشرك الأكبر جاء من أولِ بعثَة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يتدَرَّج فيه في شَيء، فدَلَّ ذلك علىٰ أنه من الشِّرك الأصغر.

ومن هنا نعلمُ أن قول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ما شاء الله وشئتَ، لا يُعابُون به؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يأتي اليومَ ويَقُول: الصحابة كانوا يَقُولون الشرك الأصغر!

هذا خطَأ؛ لأنهم لم يكونُوا قد نُهُوا عنه، ولم يُعلَم حُكمُه حتىٰ نَهىٰ عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإنَّا علىٰ يَقين أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما نُهوا عن هذا انتهوا، ولم يَعُودوا إلىٰ قَول هذا القَول.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: مَعرِفَةُ اليَهُودِ بِالشِّركِ الأصغَرِ.

معرفة اليهودُ والنصارىٰ بالشِّرك الأصغر؛ اليَهُود في الحديثِ الأول وفي الحديث الثاني حديثِ الطُّفَيل، والنصارىٰ في الحديث الثاني حديثِ الطُّفَيل؛ يعرفُون الشرك الأصغر مع ما عندهم من تحريفٍ في الكتاب!

ومن أسفٍ أن بعض المسلمين الذين حفظ الله لهم كتابهم وسُنة نبيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يعرفُون الشرك الأكبر؛ بل يتقربون إلىٰ الله بالشرك الأكبر، ولكنهم لا يَعلَمُون؛ لأن قُطاع الطرق كُثر يبَغضِّون إليهم التَّوحيد ويُحَببونهم في الشرك والعياذ بالله، فَضلًا عن الشرك الأصغَر.

وهذا الجهلُ جعل للشيطانِ مَدخلًا إلىٰ قُلوب بعض المسلمين، وأعانه علىٰ ذلك أقوامٌ يتكسبون من أموال المُسلمين بهذا الشِّرك الذين يَدعُون إليه والعيَاذ بالله.

الثَّانِيَةُ: فَهمُ الإنسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًىٰ.

أي: أن صاحبَ الهوىٰ قد يفهَمُ الحق، ويَعرفُ الحق، ويقولُ الحق، ويُرشد إلىٰ الحق؛ لَكن له غرضٌ فاسدٌ يُريد أن يصل إليه غَيرَ بَيان الحق؛ فهؤلاء اليهود فتشوا في مَقُولات المسلمين وعَرَفوا الحق، وهو أن هذه الجملة «مَا شَاء الله وشاءَ مُحمد» شِرك؛ وفَهِموا هذا مع أنَّهم أصحابُ هَوىٰ.

الثَّالِثَةُ: قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟**» **فَكَيفَ بِمَن قَالَ:**

يَا أَكرَمَ الخَلقِ مَا لِي مَن أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِندَ نُزُولِ الحادِثِ العَمَمِ

والبَيتَينِ بَعدَهُ؟!

وذلك لأنه سَوَّىٰ بين مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومَشيئَة المَخلُوق الضَّعيف؛ فأنكَر عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، وقد تقدَّم بيان أن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمَىٰ حِمىٰ التوحيد، وكان ينهىٰ عن الغُلو نَهيًا شديدًا.

فكيفَ بِمَن غَلا غلوًّا فاحشًا حتىٰ جعل ما للهِ لعبدٍ من عبادِ الله، فقال هذه الأبيات؟!

وهذه الأبيات من قَصيدَة «بُردة البوصيري»، وهو: مُحمد بن سعيدِ بن حمَّاد الصنهاجي، المعروف بالبُوصيري، وقد توفي سَنة ست وتِسعين وسِتمِائة من الهجرَة، ويقولُ فيها:

يَا أَكرَم الخَلق مَا لي مَن أَلوذُ بِه ... سِواكَ عِندَ حُلولِ الحَادِثِ العَمِمِ

إن لَم يَكن فِي مَعَادي آخذًا بِيَدي ... فَضلًا وَإلا فَقُل يَا زلَّةَ القَدَمِ

ولَن يَضيقَ رَسُول اللهِ جَاهُك بِي ... إذَا الكَريمُ تَجلَّىٰ بِاسمِ مُنتَقِمِ

فَإن مِن جُودِك الدنيَا وضَرَّتَها ... ومِن عُلومِك عِلم اللَّوحِ والقَلمِ

هذه هي الأبياتُ التي أشار إليها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذه الأبياتُ جعل فيها قائلُها ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتىٰ أنه لو قال: يَا خالقَ الخَلقِ لأحسَن، فلو جعل هذا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لكَانَ

حسنًا، لكنه جعل هذا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

ولا شكَّ أن هذا الغُلو يُبغضُه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقينًا!

ولا شك أن هذا مما يَنهَىٰ عنه النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه من الشِّرك الذي قضَىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمره منذ بعثته إلىٰ أن مات يَنهَىٰ عنه.

والواجبُ علىٰ المسلمين تركُ هذه القصيدة، ومن أسفٍ أن بعض المسلمين يتغَنَّون بهذه القصيدة كل سَنَة فيما يُسَمىٰ بالمولد، ويذكرون هذه الأبيات الشِّركية والعياذ بالله!

ولو تجرَّد الإنسانُ من الهوىٰ ومن الألفة لهَذا الشيء؛ لظَهر له من غير أن يكون عالمًا -بمُجَرد الفطرة- ما في هذه الأبيَات من شِركٍ ومن غُلو فاحش، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهَىٰ عن الغُلُو.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا لَيسَ مِنَ الشِّركِ الأكبَرِ، لِقَولِهِ: «يَمنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

يعني: أن هذا من الشِّرك الأصغَر، ولو كان من الشرك الأكبر لنَهىٰ عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فورًا، فلما منعه الحياءُ وتأَخَّر الوحي فيه؛ عَلِمنا أنه ليس من الشرك الأكبر؛ بل من الشِّرك الأصغر.

الخَامِسَةُ: أَنَّ الرُّؤيَا الصَّالِحَةَ مِن أَقسَامِ الوَحيِ.

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رتَّب عليها أحكامًا؛ فنهَاهم بعد أن كان يَمنعه الحياء من نَهيهم عن هذه الجُملة.

السَّادِسَةُ: أَنَّهَا قَد تَكُونُ سَبَبًا لِشَرعِ بَعضِ الأَحكَامِ.

فرُؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحي، فإذا أخبَرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رُؤيا

رآها فهذا وَحي نُؤمن به ونعتقده، وإن كان في الأحكام عَمِلنَا به؛ أما رُؤيا غيره فقد تكون سببًا لبعض الأحكام، وذلك في زمَن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كالرؤيا التي كانت سببًا لمَشروعية الأذان[1].

أمَّا بعد موتِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلا تكونُ الرؤيا سببًا لشَرع شَيء من الأحكام أبدًا؛ بل إذا رأىٰ الإنسانُ رُؤيا وكان فيها ما يخالف شَرع الله، أو كان فيها أمرٌ بعبادة لم تَكُن في زمن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلِمنا يقينًا أنها من الشيطان وليست رُؤيا؛ لأن الشيطانَ هو الذي يأمُرنا بخِلاف شَرعِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، وابن ماجه (٧٠٦) من حديث عبد الله بن زيد بن عبد ربه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

بَابُ: مَن سَبَّ الدَّهرَ فَقَد آذَىٰ اللهَ.

الشرح

وهذا فيه بيانُ أن الأدبَ مع الله عَزَّوَجَلَّ من كمال التوحيد، وأن تأدُّب المؤمن مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ من كمال توحيده لرَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا البابُ متعلق بهذا .

قالَ: (بَابُ مَن سَبَّ الدَّهرَ): السَّب: هو الشَّتم، وأعلاه اللَّعن.

وأيضًا من السَّب: نسبَة النقائص إلىٰ الشَّيء، فمن نسَب النقيصة إلىٰ الشَّيء فقد سَبَّه.

والدَّهر: هو الزمَان كالليل والنهار واليوم والأسبوع والشهر والسنة والعمر، ويطلق الدهر أيضا علىٰ الأبد، كما يطلق علىٰ الزمن الطويل كعمر الإنسان وعمر القوم، ويطلق علىٰ بعض الزمن؛ ويطلق كما قلنا علىٰ الزمن الطويل كعمر الإنسان؛ ومنه صيام الدهر يعني صيام العمر؛ وصيام داود نصف الدهر يعني نصف العمر .

والمقصود بالدهر هنا: الزمان سواء كان قليلا أو كان كثيرا .

وقَوله: (بَابُ مَن سَبَّ الدَّهرَ): أي: شتم الدهر أو لعن الدهر أو أضاف النقيصة إلىٰ الدهر؛ مثل قول بعض الناس والعياذ بالله: لعن الله اليوم الذي عرفتك فيه، أو: لعن الله اليوم الذي عرَّفني بك... أو نحو ذلك!

(**فَقَد آذَىٰ اللهَ**): يَقُول العُلماء: الأذَىٰ: هو ما خَفَّ أثَرُه وضَعُف، **وأسبَابُه كَثيرَة**:

فقد يَحصُل بالسَّب: فمن سَبَّك فقَد آذاك، وإن لم يَضُرَّك؛ فالسَّب أذيَّة.

ويَحصل بالتنقص: فمَن قال لك: أنت كَسُول عن طلب العِلم؛ فقد آذاك وإن لم يحصل لك بذلك ضَرَر.

وكذلك يَحصُل بالفِعل: فلو أن إنسانًا مثلًا قلبَ يده أمامك كالمتنقِّص لك عندما تُذكَر؛ فأشار كأنه يقول عنك: لا شَيء؛ فقد آذاك، مع أن أثرَه فيكَ ضَعيف، وهو دون الضَّرَر.

ولذلك يحصُل الأذَىٰ من المَخلُوق لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يَحصُل الضَّرر من المَخلُوق لله عَزَّوَجَلَّ؛ يَدُل علىٰ ذلك كتابُ الله وسُنة رسُول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

أما في كتَابِ الله: فمنه قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ** ﴾ [الأحزاب:٥٧].

فهُناك من يُؤذي الله ويُؤذي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومن آذىٰ رسُولَ الله فقد آذىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وفي السُّنة: ما جاء في قَولِ الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث الذي يرويه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن ربه: «**يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ**...»[(١)].

إذن الأذىٰ من ابن آدم لله عَزَّوَجَلَّ يحصل: إما بقوله، أو فعله؛ أما الضرر

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

فلا يضر مخلوق الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٧].

وكما في الحَديث الذي يَرويهِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رَبِّه جَلَّ وَعَلَا: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُم لَن تَبلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي...»(١).

فالمخلوقُ لا يَضُر الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا؛ أما الأذىٰ فثابتٌ في القُرآن والسُّنة: أن المَخلُوق قد يُؤذِي الله عَزَّوَجَلَّ، وتَأويل هذا لا دَليلَ عَليه.

وهذا البَاب مُتعلق بنسبَةِ المَكرُوهات إلىٰ الدَّهر؛ ونِسبَة المَكرُوهات إلىٰ الدَّهر أنوَاع:

النَّوع الأول: وَصفُ المَكرُوه الذي وقعَ في هذا اليوم، أو وَصفُ اليوم بالمَكروه الذي وقع فيه، كأن تقول: هذا اليوم حَرُّه شديد؛ أو تقول عن اليَوم الذي كثُرت فيه المَصَائب عليك: هذا يوم شديد؛ فهذا وصفٌ وليس سبًّا؛ **وهذا جائز**؛ أن يُنسَب المكروه إلىٰ اليَوم علىٰ سبيل الوصف أو الخَبَر من غير تنقُّص، ومن غير سَبٍّ، فهذا وصفٌ وليس سبًّا.

وذلك كمَا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]. فهذا وصفٌ لليوم لِمَا وقع فيه من العَذاب؛ فإذا وصف الإنسانُ الزمنَ بوَصف لما وقع فيه علىٰ سبيل الوصف أو الخبرية من غير تنقُّص ولا سبٍّ فهذا جائز.

والنَّوع الثاني: نسبة المكروه إلىٰ الدهر علىٰ أن الدَّهرَ هو الفاعل لذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المَكرُوه حقيقة؛ **فهذا شِركٌ أكبر وكُفر أكبَر**، وهو اعتقاد الدَّهرية -بفتح الدال- أو الدُّهرية -بضم الدال-، وهم الذين يَعتقدون أن الدَّهر هو فاعل الأشيَاء، وهو فاعل المَكرُوهات.

والنَّوع الثالث: أن يَسُب الدهر لوقوعِ المَكرُوه فيه، لا لأنه فاعلٌ له، **فهَذا حَرَام**، وحَقيقته أنه سَب لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا هو الذي قدَّر المكرُوه وأجرىٰ المكروه، وليس اليوم أو الأسبُوع أو الشهر؛ وذلك لحكمة عظيمة؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا لا يفعل شيئًا إلا لحكمَة؛ فالذي يسُب اليوم إنما يَسُبه لوقوع المكروه فيه؛ فيكونُ حَقيقة الأمر أنه سَبَّ الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، **لكن هذا ليسَ كفرًا أكبَر، وإنما هو كُفر أصغَر**؛ لأنه لم يَسُبَّ الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُبَاشرة، ولم يُرِد سَبَّ الله جَلَّوَعَلَا، ولم يعتقد سَب الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذن؛ مَن سبَّ الله سبًّا مباشرًا بما يعلم أنه سَب؛ **فهَذا كُفر أكبر مُخرِج من المِلة**، ومن سَبَّ الله، لكن لا مُبَاشرة، بحيث يغلب علىٰ الظَّن أن الساب لا يعلَمُ أنه يَسُب الله عَزَّوَجَلَّ، **فهَذا كُفر أصغَر**.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].

الشرح

ذكر الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيةَ التي يُخبر الله عَزَّوَجَلَّ فيها عن منكري البَعث، وأغلبُ الكفار من غير أهل الكتاب يُنكرون البَعث، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

(﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾): أي: لا حيَاةَ إلا حيَاتُنا الدنيا، وهذا إنكارٌ للآخرة وللبَعث، وزَعمٌ أنه لا تُوجد حياة آخرة.

(﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾): **قالَ بعضُ أهل العِلم**: المرادُ: نموت نحنُ ويَحيا أولادنا، ولمَّا كان الأولادُ حياة لآبائهم قالوا: نَمُوت نحن الآباء ونحيَا بحياة أولادِنا، فحياة أولادهم كَأنَّها حياةٌ لهُم، وهذا معنىٰ واضح جدًّا.

وقال بعضُ أهل العلم: المعنىٰ علىٰ التَّرتيب؛ فيكونُ المراد: نَحيا ثم نَمُوت ولا بَعث، وهذا أيضًا معنىٰ ذكره بعض السَّلف.

(﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾): أي: ما يُهلكنا إلا طُول العمر، تَطُول أعمارنا فنهلك، فالدَّهر هو الذي يقَلِّب الأمور؛ فيَنسبُون الحوادث إلىٰ دَورَة الدهر، وأن الدهر هو الذي يَفعل هذا.

(﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾): قطعًا ويَقينًا إنه لا عِلمَ عِند دَهري، ولا علمَ عند مُلحِد.

(﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾): (يظنون) هنا معنَاها: يتوهَّمون؛ فإنه لا يُوجد عندهم ما يُسَبب الظَّن، وإنما هو وهمٌ أوحَاه الشيطانُ إليهم، وهذه حقيقةُ كُل من يُخَالف التوحيد، لا علم عنده يقينًا، وإنمَا يعيش علىٰ أوهام وخُرَافات لا حقيقة لها.

ومنَاسبة هذه الآية للبَاب من ثلاثة أوجُه:

الوجه الأول: بيانُ أن من سَبَّ الدَّهر نَاسبًا الفعلَ إليه، ومعتقدًا أن الدهرَ هو الذي أنزلَ به المصيبة؛ فقد كفرَ كفرًا أكبر؛ لأنه موافق لقولِ أولئك الكفار: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

وذلك مثل أن يَقُول قائل: ما أماتَ ابني إلا هذا اليوم المشئوم! ما احترقت سيارتي إلا بفعل هذا اليوم المَشئُوم!

فهذا كُفر أكبر إذا اعتقد أن الدَّهرَ هو الذي فعل؛ فمَن سبَّ الدهر معتقدًا أنه الفاعل حقيقةً لذلك الأمر فقَد كفر كُفرًا أكبر بدلالة هذه الآيَة.

الوجه الثاني: أن فيها أن من سَبَّ الدهرَ فقد وافق الكُفار في هذا الفعل، فإن من صَنِيع الكفار أنهم يَسُبُّون الدهرَ؛ بدَلالة هذه الآية.

وقد يسأل سائلٌ: أين السَّب في هذه الآية؟

نَقُول: من اعتقد أن الدهرَ هو الذي يفعل الأمور ويُقلِّبها؛ فلابُد أن يَسُبَّه؛ لأنه ستقعُ أحداثٌ مؤلمة فيه فيَسُبه؛ فكان من صنيع الكفَّار أنهم كانوا يَسُبون

الدهر، فمن سَبَّ الدهرَ من المسلمين فقد وافَق الكفار في صنيعهم، وإن لم يَكُن كافرًا كفرًا أكبَر؛ لأنه لا يَنسب الفعل إلىٰ الدهر وإنما يَسُب الدهر؛ فيكونُ مرتكبًا للكفر الأصغَر.

الوجه الثالث: بيان أن (الدَّهر) ليس من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دَفعًا لتوهم من قَد يتوهم من الحديث التالي أن الدَّهر من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبعض أهل العلم أخَذُوا من هذا الحَدِيث -الذي سيأتي إن شاء الله- أن الدَّهر من أسماءِ الله، ومنهم ابن حَزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا غَلط؛ بل قال بعض أهل العلم: هذا غلطٌ فَاحِش!

فإن الدَّهر ليسَ من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، ومما يدُل علىٰ ذلك هذه الآية، فلو كان الدهرُ من أسماءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لكان قولُهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ صحيحًا؛ لأن الدهرَ هو الله، ومن أسماء الله (الدَّهر)؛ لكن الله عابَهُم علىٰ هذا؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أن الدهرَ ليس من أسمَاء الله عَزَّوَجَلَّ.

وابن حزم وغيره من العُلماء الذين قالوا: إن الدهرَ من أسمَاءِ الله؛ لا يعَنُون بالدهر: الزمان؛ من اليَوم والنهار والشَّهر والسنة والأسبوع... إلخ، وإنما يَعنُون بالدهر: الأزَل والقِدم؛ يعني: فسَّروا الدهر بالأبَد القديم، والأزَل القديم[1].

---

(١) قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٤٩٤): «والقول الثَّاني: قول نُعَيم بن حمَّاد وطائفة معه من أهل الحديثِ والصُّوفيَّة: إنَّ الدَّهر من أسمَاء الله تعالىٰ، ومعناه: القديم الأزليُّ، ورَوَوا في بعض الأدعية: (يا دهر، يا ديهور، يا ديهار).

=

لَكن نَقُول: إنَّ القول بأن (الدَّهر) من أسمَاء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قولٌ غير صحيح.

❊❊❊

=

وهذا المعنىٰ صحيحٌ؛ لأنَّ الله سبحانه هو الأوَّل ليس قبله شيءٌ، وهو الآخر ليس بعده شيءٌ، فهذا المعنىٰ صحيحٌ، إنَّما النِّزاع في كونه يُسمَّىٰ دَهرًا...».اهـ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ، وَأَنَا الدَّهرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهرُ».

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): أي: في «الصَّحِيحَين»[1]، واللفظُ المَذكُور هنا لمُسلم.

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ**): فنَبِيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصَّادق المَصدُوق يُخبِرنا أن رَبَّنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال هذا القولَ العظيم.

(**يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ**): وقد تقدمَ بيانُ مَعنىٰ الأذىٰ.

(**يَسُبُّ الدَّهرَ**): وهذا من أذىٰ ابن آدم لله عَزَّ وَجَلَّ: أنه يَسُب الدهر؛ فيقُول: يا خَيبةَ الدهر!، لعن الله الشهر!، هذا شهرٌ مَلعُون!، هذا يوم خَبيث!، وذلك علىٰ سَبيل السَّب والتنقُّص.

(**وَأَنَا الدَّهرُ**): يَعني: وأنا مُدبِّر الدَّهر، فالدهر زمان جامِد لا يفعلُ شَيئًا، وإنما هو ظرفٌ للأفعال، والذي جعله ظرفًا للأفعال هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقال بعضُ أهل العلم: المَعنىٰ: وأنا فاعلُ ما في الدَّهر، فَهُم يَسُبون الدهر

(١) البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

للأفعال التي فيه من مصائب ونحوها مما لا يُحبُّه الإنسَان، والله عَزَّوَجَلَّ هو الفاعلُ؛ لأنه هو المُقَدر والمُجرِي سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإن كان الشرُّ ليس إليه؛ لأن فعلَهُ كُله عن حكمة تامَّة.

(**وَأَنَا الدَّهرُ**): وفي رواية «**بِيَدِي الأَمرُ**»[1]؛ أي: أن الأمُور كُلها بِيدِ الله، لا تَجري إلا بقضَائه وقَدَره، حُلوها ومُرِّها.

(**أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ**): فمَا يحدُث في الليل والنَّهار فإنما الذي يُجريه هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذَن مَن سَبَّ الدهرَ فحقَيقةُ أمرِه أنه يَسُب الله؛ لكنَّه لا يَكفُر بهذا؛ لأنه لا يَسُب اللهَ بحَسَب عِلمه ومُرَاده، وإن كان في الحقيقة يَعُود كلامُه إلىٰ سبِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(**وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَسُبُّوا الدَّهرَ**): فمَهمَا كان أو حصَل لا تَسُبُّوا الدهر.

(**فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهرُ**): يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُقَلب الدهرَ، وهو الذي يُجرِي الحُلوَ والمُر، والخير والشَّر، فإن سَببتَ الدهر لشَرٍّ وقَع فِيك؛ فقَد سَببْتَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

❁❁❁

(١) التخريج السابق نفسه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَن سَبِّ الدَّهرِ.

والنَّهي المُطلق يقتضي التحريم، فسَبُّ الدهر ونِسبَة النقائص إلىٰ الليَالي والأيام حَرام، وهذا الحرام يتفَاوت، فاللَّعن أشدُّ من مُجَرد السَّب، والكُل حرام.

الثَّانِيَةُ: تَسمِيَتُهُ أَذًىٰ للهِ.

وكونه أذًىٰ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يَصلُ إلىٰ درجة الكُفر؛ لكنه كُفر أصغر؛ لأن السابَّ لا يُريد سبَّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ بل اليقين أنه لو علم أنه سبٌّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَمَا سب، فهُو كفر أصغر، وليس من الكفر الأكبَر.

الثَّالِثَةُ: التَّأَمُّلُ فِي قَولِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهرُ».

وأنَّ هذه الجُملة فيها بيان سَبب كونِ سبِّ الدهر أذًىٰ لله عَزَّوَجَلَّ، وأن المُرادَ أن الله هو مُدَبر الدهر، وأن الدهر ليس من أسمَاءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما تقدم بيَانُه.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ قَد يَكُونُ سَبًّا وَلَو لَم يَقصِدهُ بِقَلبِهِ.

وهذه مسألة مُهمة جِدًّا، فسَبُّ الله عَزَّوَجَلَّ يُنظَر فيه إلىٰ حَقيقَته، فمَن سبَّ الله عَزَّوَجَلَّ بما يُعلم أنه سَب فقد كَفَر، حتىٰ لو قال: إنه لم يَقصِد أن يَسُبَّ الله، أو أنه كان غضبَان، إلا لو كان غضبًا يَصير معه الإنسانُ كالمجنون لا يَدري ما يَقُول

فهذا مَرفُوع عنه القَلم، لكن دون ذلك لا يُقبَل عُذره بالغضَب.

وشأنُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومقَام ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظمُ من أن نَلتمسَ للناس مثل هذه الأعذَار، فمَن سبَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يُعلم أنه سَب -والمَرجِع في السب إلىٰ العُرف- فهناك أمورٌ يتَّفق العقلاء علىٰ أنها سَب، وأمورٌ قد تكون في مكان سبًّا، وفي مكان آخر ليسَت سبًّا، فيُرجَع فيها إلىٰ العُرف.

❁❁❁

بَابُ: التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحوِهِ.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا مُتعلق بالأمُور التي فيها كمال التوحيد، وتعظيم الرَّب، وفي ضدِّها مُنَافاة لكمال التَّوحيد.

وهذا البابُ في التسَمِّي بأسماء تُنافي الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

(**بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحوِهِ**): أي: حُكم التسَمِّي بقاضي القضَاة ونحوه؛ سَواء تسَمَّىٰ به هو، أو سَمَّاه غيره ورَضي هو به.

وهذا الحُكمُ يُؤخَذ من الأدلة، وقد دَلَّت الأدلة علىٰ أنه حَرَام، ويُنافي كمال التوحيد، كمَا يتبَيَّن إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

وذلك أن هذه الأسمَاء فيها وَصفُ المخلوقِ بالكمَال التام في فعلٍ كمَالُه لله عَزَّوَجَلَّ وليسَ للمَخلوق!

فعندما يُقال: قاضِي القُضاة؛ معناه: أكمَل القضَاة، ورئيسُ القضاة جميعًا، ومَن يمضي حكمه علىٰ جميع القضَاة!

والمَعلُوم أن الله عَزَّوَجَلَّ يَقضي بين الخلائِق، فإذا تسَمَّىٰ الإنسان بقاضِي القضاة؛ فمَعنىٰ ذلك أنه رئيسُ وكبيرُ القضاةِ مُطلقًا، وفي هذا إساءَةُ أدبٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ.

ومِن وَجه آخَر أن هذا كَذِب؛ فلا يُمكن لإنسانٍ أن يكون قاضي القُضَاة كُلهم، ولو كانوا من البَشَر فقط، فلا يُمكن أن يكون إنسانٌ قاضيَ القُضَاة جميعًا.

وكذلك «مَلِك الأملاك»، أو: «مَلِك المُلُوك»؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ملِك يَوم الدِّين، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَلِك؛ فعِندما يُسَمَّىٰ إنسان بملك الملوك؛ ففي هذا إساءةُ أدب مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك مِن وَجهٍ آخرَ أنه كذب، فإن مِلكَ المَخلُوق ناقص مهما عَلا، وقد يذهب منه هذا المِلكُ فَجأة ولا يَبقىٰ منه شَيء، حتىٰ المَلِكُ علىٰ بلاده مهما كان فمِلكه ناقص، فقد يَخرُج عليه أحدٌ، وقد لا يُطيعه أحدٌ، وإن انتظم له؛ فإنه سيموت ويَتركه!، فكيف يقال: «مَلِك الأملاك»، أو: «مَلِك المُلُوك»؟!

وهذا الحُكم السَّابق عند الإطلاق؛ أمَّا إذا قُيِّد هذا اللقب؛ فقيل: قَاضي قضَاة مِصر، أو: قاضي قضَاة الأردن، أو: قاضي قُضَاة العراق، أو: قاضِي قضاة العَرب، أو: قاضي قُضَاة الترك، أو: قاضِي قُضاة مكة، فَقُيِّد بقَيد يَحُول دون عُمومه؛ فهذا ليس فيه إساءةُ أدب مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فتنتفي إساءَةُ الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه قُيِّد، فإن كان صدقًا فهو جائزٌ، كما نَص علىٰ ذلك الشيخ ابن باز[1] والشيخ ابنُ عثيمين[2]. ولكن الأفضل تَركُه، وأن يُستغنَىٰ عنه بغيره.

يَقُول العُلماء: وإنمَا ابتُلي بهذه الألقاب أهل المَشرِق، أما أهل المَغرِب

---

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد» للعلامة ابن باز (ص٢٢٢).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٢٥٠).

فقد سَلِموا منها؛ لأنهم يقولون: قاضي الجماعَة، أو: قَاضي المؤمنين، ونحو ذلك.

وألحَق العلماءُ بهذا: التسَمِّي بما لا يكون إلا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كالتسمي بـ «سيد النَّاس»، أو: «سَيد الآدميين»، أو: «سَيد وَلدِ آدم»؛ فإن في هذا سوءَ أدبٍ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل والرسل جميعًا؛ لأنك إذا قُلت: «سيد النَّاس»؛ ومُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس؛ فتكون قد أسأتَ الأدبَ مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن لم تَقصِد ذلك؛ لكن هذا سُوء أدب لَفظي!

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَملاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ».

قَالَ سُفيَان: «مِثلُ شَاهَانِ شَاه».

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ وَأَخبَثُهُ».

قَولُهُ: «أَخنَعَ» يَعنِي: أَوضَعَ.

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): يعني: في «الصحيحين»[1]، واللفظ بتمامه لمُسلم.

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِندَ اللهِ**): (أخنَع اسم) مَعناه: أوضَع. كما فسَّره أبُو عَمرٍو الشَّيبَاني[2].

وقال بعضُ العلمَاء: مَعناه: أشَد الأسماء صَغارًا عند الله جَلَّ وَعَلَا هذا الاسم.

وقريبٌ منه قولُ بعضهم: معناه: أذَلُّ الأسماء عند الله جَلَّ وَعَلَا. ولازمُ هذا ذِلَّة صَاحبِه، وهذا من المُعاملة بنقيض القَصد الفَاسد؛ فالذي يتسَمَّىٰ بهذا الاسم يُريد أن يرفع نَفسَه، وأن يُعزَّ نَفسَه؛ فيُعامله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنقيض قَصده فيُذِله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويكونُ ذليلًا.

---

(١) البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

(٢) عند مُسلِم: «قَالَ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: سَأَلتُ أَبَا عَمرٍو عَن أَخنَعَ؟ فَقَالَ: أَوضَعَ».

(رَجُل): ويَدخل في ذلك المَرأة كَذلك لو تسَمَّت بمثله.

(تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلَاكِ): قال العُلماء: تسَمَّىٰ بنفسِه، أو سَمَّاه غيره، وقَبِله ورَضِيه ورَضي بِه.

(لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ): فمَهما كان مُلك الإنسان فمُلكُه ناقص؛ والذي لا يتحَكَّم في نَفسِه كيف يَملكُ ملكًا تامًّا؟!

فلا مَالكَ علىٰ الحقيقَةِ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالمِلك الحقيقي التام إنما هو لربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(قَالَ سُفيَان): هو ابنُ عُيَينة، وهو أحدُ رواة الحديث.

(مِثلُ: شَاهَانِ شَاه): وبَعضُهم يذكُرها بالتَّسكين (شَاهَانْ)، و(شَاهَان): المُلوك، و(شَاه): الملك، ومعناها: مَلك الأملاك، أو: مَلك المُلوك، بلغةِ الفُرس.

والمَقصود: أن كل ما أخَذ مَعنَىٰ ما وَرد فإنه يأخُذ حُكمه؛ مثل قاضي القضاة وشاهان شَاه، وغير ذلك مما يدل علىٰ المعنىٰ نَفسِه.

(وَفِي رِوَايَةٍ): وهذه الرِّواية عند مُسلِم[1].

(أَغيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ وَأَخبَثُهُ): ولم يُكمِل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرِّواية، قال: «**أَغيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ وَأَخبَثُهُ وَأَغيَظُهُ عَلَيهِ، رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّىٰ مَلِكَ الأَملَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ**».

(١) برقم (٢١٤٣).

وفي رواية عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اشتَدَّ غَضَبُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَن زَعَمَ أَنَّهُ مَلِكُ الأَملَاكِ**». رواه الطبراني في «الكَبير»، وصَحَّحه الألبَاني[1].

واشتداد الغَضَب هو مَعنىٰ (أغيَظ)؛ فهَذه شِدَّة الغيظ وشدة الغضب؛ وهذا يدُل علىٰ شدة حرمة هذا الاسم؛ لأنه -كمَا قدمنَا- يُنافي الأدبَ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل فيه إساءَة أدب مع الله جَلَّ وَعَلَا، كما أن فيه كذبًا؛ لأنه لا يُطابق الوَاقع.

❀❀❀

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٣٩٦) برقم (١٢١١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٨٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَنِ التَّسَمِّي بِـ: «مَلِكِ الأَملاكِ».

وهذا جاء في الحديث الصَّحيحِ صَريحًا.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا فِي مَعنَاهُ مِثلُهُ، كَمَا قَالَ سُفيَانُ.

ويجمع ذلك كله ما تقدَّم في أول الكَلام: أن كُل اسم فيه وصف لمَخلوق بالكمال التامِّ في فِعلٍ كمَالُه لله عَزَّوَجَلَّ، ويَدخُل في هذا: مَلك الأملاك، شَاهان شَاه، وقاضي القُضَاة، وغير ذلك.

الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغلِيظِ فِي هَذَا وَنَحوِهِ، مَعَ القَطعِ بِأَنَّ القَلبَ لَم يَقصِد مَعنَاهُ.

فقد جاء هذا التغليظُ العظيم في الحديث علىٰ من تَسمَّىٰ ملك الأملاك، وأن صاحبه يلقىٰ الله وقد اشتدَّ غضَبُه عَزَّوَجَلَّ عليه، وهو أغيظُ رجلٍ عند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، وأخبَث رجُل عند الله يوم القيامة، وهذا تغليظ شديد، مع القَطع أن القلبَ لم يقصد ما فيه من سُوء، فكيف بمَن يقصد؟!؛ لا شكَّ أن الأمر أغلظ.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يُريد أن يشير إلىٰ أن من الناسِ مَن يُسيء الأدبَ مع الله جَلَّ وَعَلَا، ويقصد هذا، فيغلُو في مخلوق حتىٰ يَقِلَّ تعظيمُ الخالق في قلبه، ومن عقوبة الله لمَن غلا في المَخلُوقين أن يَضعُفَ تعظيمُ الله في قلبه؛ فلا يَجتمع في قلبٍ الغُلوُّ في مخلوق وكمال تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لإِجلالِ اللهِ سُبحَانَهُ.

فهذا إنما هو للتأدُّب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وإجلال الله الذي هو ذو الجَلال والإكرام سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذا التغليظ إنما هو لحِفظ الأدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالمؤمن يجبُ عليه أن يستصحِبَ الأدب مع الله دائمًا وفي كل أحواله.

❊❊❊

بَابُ: احتِرَامِ أَسمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَغيِيرِ الاسمِ لأَجلِ ذَلِكَ.

الشرح

وهذا البابُ كسَابِقه في الأدب مع الله جَلَّ وَعَلَا في الألفاظ، والتأدب مع الله في الألفاظ من كمَال التوحيدِ، ومن صفات المؤمنين المُعَظِّمين لرَبِّهم جَلَّ وَعَلَا.

ومِن الأدَب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفَاظ: تعظيمُ أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ، وعدم تسمية المخلوق بها، إن كان معناهَا لا يكون إلا لله جَلَّ وَعَلَا، فإن كان الاسم لا يكون معناه إلا لله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنه لا يجوز أن يُسَمَّىٰ به مخلوق، ولو سُمِّي به مخلوق فإنه يجب أن يُغيِّر ذلك الاسم، أما إذا كان معناها كليًّا؛ فكان معنَاها علىٰ الكمال لله عَزَّ وَجَلَّ وللمخلوقِ نَصيب من معناها يُنَاسبه، فإنه لا يمنع من التسمية بها.

فأسمَاء الله عَزَّ وَجَلَّ تنقَسِم إلىٰ قِسمَين:

القسم الأول: أسماء لا يكونُ معناها إلا لربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل: الرَّحمن، والخَالق، والرزَّاق، فهذه معنَاها ليس إلا لله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهذه لا يَجُوز التسمية بها، فلا يجوز للعَبد أن يسمي نَفسه الرحمَن أو الرزاق، فإن سُمِّي بهذا وجب أن يُغير هذا الاسم.

القسم الثاني: ما يكون للمَخلُوق نصيب من معناه يناسبُ ذلك المخلوق، فهذه يجوز أن يُسمَّىٰ بها المخلوق، مثل: الرءوف، فإن الإنسان قد يكون رءوفًا بما يُناسبه، والرحيم، نقول: الأب رَحيم، ففيه من الرَّحمة ما يناسبه، والحَليم كذلك، فهذه يجُوزُ إطلاقها علىٰ المخلُوق وصفًا أن يوصف بها المَخلُوق؛ كمَا

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

فمُحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رءوف رَحيم.

وكما قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]. فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ موصوفٌ بكَونه حليمًا.

ولكن يَلحَظ بالصفة هنا أنها بما يناسب المَخلُوق، كما يجوزُ التَّسمية بها.

لكن بَعض أهلِ العلم يقولون: تجوز التسمية بها بدُون (أل) فيُسَمَّىٰ الصبي بـ (رَءوف، ورَحيم، وحَليم).

وأما إذا كان بـ (أل)؛ فيقولُون: لا يجوز التسمية بها؛ لأن (أل) فيها شُبهَة التشريك، فلا يسمىٰ: الرَّءوف، والرحيم، والحليم.

وذهب بعض أهل العِلم إلىٰ جوازِها مع (أل) أيضًا؛ لأن بعض الصحابة كانوا يُسَمون بالحَكَم، والحَكَم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ كما سيأتي.

والأحوطُ -والله أعلم- ألَّا يُسمَّىٰ بها مع (أل) وإن كان ذلك جائزًا سَدًّا للذَّرائع وبُعدًا عن الشُّبهات.

ومثلُ ذلك (العزيز)، كما في قَوله تعَالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]. العزيز بـ(أل)، فهذا جائز، لكن الأحسن لو اجتُنِبَ، فإذا سُمِّي يُسَمىٰ بدون (أل).

إذن مقصُود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن يُبَين أن الأدب في الألفاظ مع الله من كمال التوحيد، ومن الأدب في هذا: تعظيمُ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وألَّا يُسَمىٰ المخلوق بها إذا كان الاسم في مَعناه لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وأن مَن سُمي بها غُيِّرَ اسمه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن أَبِي شُرَيحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكنَىٰ أَبَا الحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيهِ الحُكمُ» فقَالَ: إِنَّ قَومِي إِذَا اختَلَفُوا فِي شَيءٍ أَتونِي، فَحَكَمتُ بَينَهُم فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَينِ. فقَالَ: «مَا أَحسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الولَدِ؟» قَالَ: شُرَيحٌ، وَمُسلِمٌ، وَعَبدُ اللهِ. قَالَ: «فَمَن أَكبَرُهُم؟» قُلتُ: شُرَيحٌ. قَالَ: «أَنتَ أَبُو شُرَيحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ.

الشرح

هذا الحديثُ رواه أبو داود، والنَّسائي وغيرُهما، وصَحَّحه الألباني[1].

(**عَن أَبِي شُرَيحٍ**): واسمُه: هانئ.

(**أَنَّهُ كَانَ يُكنَىٰ**): بالتَّخفيف -تخفيف النُّون-، وفي لُغَة ضعيفة بالتَّشديد (يُكَنَّىٰ)، والأفصح التخفيف.

(**أَبَا الحَكَمِ**): فلمَّا قدم مع وَفد قومه علىٰ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومَه يُنَادونه ويقولون: يا أبا الحَكَم، فدَعَاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له:

(**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ**): (الحَكَم) اسمٌ من أسمَاء الله عَزَّ وَجَلَّ، و(الحَكَم) هو الذي إذا حَكم لا يُرد حُكمُه، والله عَزَّ وَجَلَّ إذا حكَم حُكمًا كونيًّا قدريًّا فإنه لا يمكن

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

لمَخلُوق أن يَرُد حكمَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا حكم حكمًا شرعيًّا فإنه لا يَجُوز لمَخلُوق أن يرد حُكمَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فحُكمُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نوعان: قَدري وشَرعي:

القَدَري: ما يُجريه الله عَزَّوَجَلَّ ويُقَدِّره، إذا حكم الله عَزَّوَجَلَّ حكمًا قدريًّا؛ فإنه لا يمكن لمخلُوق أن يَرُد قدرَ الله وحُكمَ الله القَدَري.

والشَّرعي: هو الأمر والنَّهي، وإذا حكم الله عَزَّوَجَلَّ حكمًا شرعيًّا فإنه لا يَجُوز لمَخلُوق أن يَرُد حُكم الله عَزَّوَجَلَّ، فالذي لا يُرَد حكمه أبدًا هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو الحَكَم.

(وَإِلَيهِ الحُكمُ): أي: أن الفصلَ بين العباد بما هو حَقٌّ قطعًا إنمَا هُو لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص:٧٠].

فأخبَر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أبا شُريح بقضية شرعيَّة كُلية، وهي أن الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الحَكَم وإليه الحُكم.

ثم قال له صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فَلِمَ تُكنَىٰ أَبَا الحَكَم؟**»، وهذا لم يذكُره الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ، وهو مَوجُود في الروايات.

فاستفصَل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن سَبب هذه الكُنية، وهذا يَدُل علىٰ أن الحكم فيه تفصيل، وإلا لم تكن له فَائدة.

فهذا يدل علىٰ أنه لو قال: إني أُكنىٰ أبا الحكم لأن أكبر أبنائي الحكم لأَقَرَّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولم يُغَيِّره.

والدَّليلُ علىٰ هذا: أن هناك ثلاثةً من أصحاب رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبار اسمُهم (الحكَم)، ولم يُغير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسماءَهُم، مع أن (الحكَم) أقربُ إلىٰ الاشتبَاه من (أبي الحكَم)، والنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُغَير أسماءهم.

وهناك أيضًا ثلاثة من أصحَاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسمهم (حَكيم)، ولم يُغَير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسمَاءَهم.

وهناك سِتَّة من أصحاب رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكنون بـ (أبي حَكِيم)، ولم يُغَير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنَاهم؛ لأن هذا من باب التسمية.

وقد سأله النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه سيُرَتب الحُكمَ علىٰ جوابه.

(فَقَالَ: إِنَّ قَومِي إِذَا اختَلَفُوا فِي شَيءٍ أَتَونِي، فَحَكَمتُ بَينَهُم فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَينِ. فَقَالَ: مَا أَحسَنَ هَذَا!): قيل: الإشارةُ ترجعُ إلىٰ إصلاحه بين الناس؛ لأنه بحُكمه يصلح بين الناس فيتَراضَون، وهذا شئ طيب، والإصلاحُ بين الناس قبل الحُكم من الفضل المَطلُوب، وهذا أمرٌ حسن ومَحمُود يُحمَد عليه الإنسان؛ لأن الحُكم لو وقع قد تقع في النفوس حزَازَات، أمَّا الإصلاح فيُنهي القضية بالكُلية.

فالفَرق بين الإصلاح والحُكم: أن الإصلاح يَسبق الحُكم، أما الحُكم فهو الفصلُ بين الطرفَين.

وقال بعضُ أهل العِلم: هذه الإشارة ترجعُ إلىٰ الكُنية، لكن هذا بَعيد؛ لأن

النبي ﷺ غيَّر كُنيته، فالسببُ الكنية وليس التَّسمية، وإنما سببُ الكنية أنه يحكمُ بين الناس فكنَّاه الناس أبا الحَكَم.

(**فَمَا لَكَ مِنَ الولدِ؟**): وضُبِط في رواية الحَديث: «**فَمَا لَكَ مِنَ الوُلدِ؟**»، والمَعنىٰ وَاحد.

(**قَالَ: شُرَيحٌ، وَمُسلِمٌ، وَعَبدُ اللهِ. قَالَ: فَمَن أَكبَرُهُم؟**): وهذا يَدُل علىٰ القاعدةِ التي يُقَررها جمهور الأصوليين، وهي: أن الواو لا تقتضي التَّرتيب؛ لأنها لو كانت تَقتَضي الترتيب ما احتَاج النبي ﷺ أن يَقُول له: فَمَن أكبرهم؟؛ لأنه سيعرف أنه (شُريح) المذكور أولًا.

(**قُلتُ: شُرَيحٌ. قَالَ: أَنتَ أَبُو شُرَيحٍ**): فكناه بأبي شُرَيح، بأكبر أولاده.

وفيه: أن الأفضل في الكُنية أن تكون بأكبر الأولاد؛ لِفعلِ النبي ﷺ.

وهذا الحديثُ في ظاهره يَدُل علىٰ تحريم التسمي بالحَكم وعلىٰ التكني بأبي الحَكم، وأن هذا الاسم يغيَّر إذا وُجد؛ لأن (الحَكم) اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

لكن اعتُرض علىٰ الحديث بما ذَكرنا: أن ثلاثة من أصحاب رسُول الله ﷺ كانوا يسمَّون بالحكم، والنبي ﷺ يعرفهم ولم يُغير أسماءهم، وثلاثة كانوا يكنَون بأبي الحكم، ولم يُغير النبي ﷺ كُناهم، وهذا ثابتٌ لاشكَّ فيه، **وهنا اتخَذَ العلماء مَوقِفَين**:

المَوقفُ الأول: تضعيف هذا الحَديث، وتجويز التسمِّي بهذا الاسم، ونَحَا

هذا المنحىٰ الشيخُ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث ذكر ما ذكرنا ثم قال: وهَذا يَدُل أن في صحته نظرًا[١].

والمَوقف الثاني: الجمعُ، وهذا أصحُّ، فإن كان الاسم من باب التوصيف ولُوحِظَت فيه الصفة إلىٰ تمامها فإن هذا حرام؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الحَكم، فيصبح مِثل: قاضي القُضاة؛ أما إذا كان لمُجَرد التسمية ولم تُلحظ الصفة أو لُحِظَت الصفة بما يُنَاسب المَخلُوق؛ فإن المخلوقَ قد يكون حَكمًا.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء:٣٥].

فإذا لُوحِظَت الصفةُ بما يُناسب المَخلُوق؛ **فهَذا جَائز**.

ومن العُلماء من أجاز التَّسمية بالحَكَم للعلَمية فقط، أما إذا لُوحِظت الصفة فإنه يحرم هذا.

وخُلاصة هذه المَسألة: أن التسميةَ باسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ فيها تَفصيل علىٰ أحوال:

الحَالة الأولىٰ: أن تكون التسمية باسم لا يكون معنَاه إلا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ كالرزاق، والخَالق، والله فهذه التسمية حرام، وإذا وقع هذا الاسم وجب أن يُغيَّر.

والحالةُ الثانيَة: أن تكون التسمية باسم له معنىٰ كُلِّي لله عَزَّوَجَلَّ وفيه كمالُ المَعنىٰ، وللمَخلوق نصيبٌ من مَعناه يُناسب ذلك المخلوق، مع مُلاحظة الصفة

---

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد» للعلامة ابن باز (ص٢٢٥).

في تمَامها أو إطلاقها؛ فهذا حرام أن يسمىٰ المخلوق بالحكم، أو: الرءوف، أو: الرحيم، مع ملاحظة الصِّفة بتمامها؛ فإن هذا لا يجوز.

والحَالة الثالثة: أن يُسمَّىٰ باسم الله عَزَّوَجَلَّ الذي له معنىٰ كُلي وللمَخلُوق نصيب من معناه يُناسبه، مع مُلاحَظة الصفة المناسبة للمخلوق وعدم التجاوز، فهذا محل خلاف بين العُلمَاء، والراجحُ أنه يَجُوز.

والحَالة الرَّابعة: التسمِّي باسمٍ من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ له معنىٰ كلي وللمَخلُوق نصيبٌ من معناه يُنَاسبه للعَلَمية فقط، وللدلالة علىٰ شخص فقط من غير نظر إلىٰ الصفة، فهذا جائز .

وأما مع جَواز التسمية، فهل تكون التسمية مع (أل) أو بدون (أل)؟

هذا مَحل خلاف؛ فمن أهل العلم من يُحرم التسمية بها مع (أل)، ومن أهل العلم من يجيز التسمية بها ولو مع (أل)، وهذا هو الراجح؛ لدلالة الأدلَّة، وإن كان الأفضلُ أن تكون التسمية بدون (أل).

وإذا عَرفتَ هذا التفصيل؛ فإنك تُحيط بما ذكَرَه العلماء في هذه المَسألَة.

๑❋❋❋๑

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: احتِرَامُ أَسمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَو لَم يَقصِد مَعنَاهُ.

وجوبُ احترام أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاتِه، ووجوب التأدُّب في هذا الباب؛ لأنه أدب مع الله عَزَّوَجَلَّ ولو بكلام لم يُقصَد معناه، فالمُؤمن المُوَحد الموفق المعظِّم لله يجتهد في التأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ في ألفاظه.

الثَّانِيَةُ: تَغيِيرُ الاسمِ لأَجلِ ذَلِكَ.

إذا كان علىٰ الوَجه المُحرَّم، فإنه يُغَيَّر.

الثَّالِثَةُ: اختِيَارُ أَكبَرِ الأَبنَاءِ لِلكُنيَةِ.

وأن هذا هو الأفضل؛ لأنه فِعلُ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

❊❊❊

بَابُ: مَن هَزَلَ بِشَيءٍ فِيهِ ذِكرُ اللهِ أوِ القُرآنِ أوِ الرَّسُولِ.

الشرح

قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَن هَزَلَ بِشَيءٍ فِيهِ ذِكرُ اللهِ، أَو القُرآنِ، أَو الرَّسُولِ).

(مَن هَزَل): أي: سَخِر واستهزأ لعبًا ولهوًا؛ والهَزل: السُّخرية والاستهزَاء علىٰ وجه اللعِب وتمضية الوقت.

والمَعنىٰ: ما حُكم مَن سَخِر واستهزأ لعبًا وتَسلية بالله عَزَّوَجَلَّ، أو بالقُرآن، أو بالرسول، أو بشَرعِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

والجواب يُؤخذُ من الأدلة؛ والأدلة دلَّت علىٰ أنه كافر كفرًا أكبر.

فمَن استهزَأ بربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو سخِرَ من أفعَال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ وجه تمضية الأوقات واللعب؛ فإنه يكفر كفرًا أكبر، وكذلك من سَخر بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بصفَةٍ من صفات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كمن يسخر باللحيَةِ الكثَّة، وهو يَعلُم أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت له لحية كثة؛ مثل قَول بعضهم -والعياذ بالله-: هذه اللحية وسَخ وقذر!، أو قال: تُشبه ذَقن التَّيس!، أو نحو ذلك من ألفاظ السخرية والاستهزاء؛ فهذا كُفر أكبر -والعياذ بالله-؛ لأن هذا عائدٌ للسخرية من رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ سَواء كان جادًّا أو لاعبًا.

أما إذا سَخر من لحية إنسانٍ بعَينه، وليس من اللحية بذاتها، كمن قَال: انظر إلىٰ لحيَة فلان شَكلها كذا، أو هيئتها كذا؛ فهذا ليس كفرًا؛ ولكنَّه سَب مُحرَّم.

كذلك من سَخِرَ أو استهزأ بنَبيٍّ من أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، سواء كان جادًّا أو لاعبًا؛ فإن هذا من الكفر الأكبر، الذي يُخرِج من المِلَّة.

وكذلك من سَخِر من القرآن؛ فإن هذا كفر أكبَر، ولو كان علىٰ سبيل اللعب.

وكذلك من سَخر بشَرع الله، أو بشيء منه، مع علمه بأنه من شَرع الله؛ فهذا كُفر.

وخُلاصة الأمر: أن الاستهزاء بالله، أو بكتَاب الله، أو برسُول الله، أو برسُولٍ من رسُل الله، أو بشَرعِ الله مع العلم أنه شَرعُ الله؛ فإن هذا لا يجتمع مع التَّوحيد أبدًا؛ وذلك لأن التوحيد مُوافقة وتسليم، والاستهزاء مُعَارضة وعدم تعظيم؛ فلا يجتمعان أبدًا، فإذا وجدَ الاستهزاء ارتفع التوحيد.

فمَا الحُكم لو قال شَخص لآخرَ: دينُك هذا مثل لعب الأطفال؟

نَقُول: إن أراد تَديُّن هذا المُعين، وليس أصل الدِّين فهذا سَب، أما إن أَرَاد أصل الدِّين، وأن دينَ الإسلام -والعياذ بالله- مثل لعَب الأطفال، فهذا كفر أكبر -والعياذ بالله-.

✽✽✽

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ **الآيَةَ** [التَّوبَة:٦٥].

الشرح

قوله تعالى: (﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾): يا محمد، (﴿لَيَقُولُنَّ﴾): بألسنتهم: (﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾): وأصلُ (الخَوض): هو السير في الماء، شَبَّهوا فِعلَهم بلعِب الأطفال وخَوضهم في المَاء على سبيل اللهو.

أي: كُنَّا نُمضي الوقت ونقطع الطريق بالاستهزاء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من الصحابة، كما سَيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجيبهم بأمرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

فحَكَم عليهم ربُّنا جَلَّ وَعَلَا باستهزائهم لعبًا بالرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالصَّحابة بأنَّهم أظهَرُوا الكُفر بعد أن كانوا قد أظهَرُوا الإيمان.

وهذه الآية اختلف فيها العلماءُ:

فقالَ بعضُ أهل العلم: هؤلاء منافقون كانوا يُظهرون الإيمان أمام الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصَّحابة، ثم بهذا الكلام أظهَرُوا الكفر، فهَذا معنى ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛ يعني: أظهرتُم الكفر بعد أن كنتم تُبطنونه، ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾؛

أي: بعد أن كنتُم تُظهرُون الإيمان، وهذا هو الذي رجَّحهُ المُحَقِّقونَ من أهل العلم.

وذَهبت طائفةٌ من أهلِ العلم إلىٰ أنهم ليسُوا مُنَافقين، وإنما قالوا هذا القَول فكَفَروا به، والأول رجَّحه جماعةٌ من المُحَقِّقين.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنِ ابنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ، وَزَيدِ بنِ أَسلَمَ، وَقَتَادَةَ -دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِم فِي بَعضٍ-: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزوَةِ تَبُوكٍ: مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكذَبَ أَلسُنًا، وَلَا أَجبَنَ عِندَ اللِّقَاءِ -يَعنِي: رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصحَابَهُ القُرَّاءَ-. فَقَالَ لَهُ عَوفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَذَهَبَ عَوفٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرآنَ قَد سَبَقَهُ؛ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدِ ارتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكبِ نَقطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ.

قَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ الحِجَارَةَ لَتَنكُبُ رِجلَيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ؛ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] مَا يَلتَفِتُ إِلَيهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيهِ».



الشرح

هذه القصةُ رواها جمعٌ من أهل العِلم، وممن رَواها: ابن جرير الطبري في «تفسيره»[1].

(١) (١١/ ٥٤٣).

وهي قصَّة صحيحة، وقد ذكرها العلامة مُحَدِّث اليمن الشيخ مقبل الوادعي، في كتابِه «الصَّحِيح المُسنَد من أسبَاب النُّزول»[١].

(عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): هو الصحَابي المَشهُور.

(وَمُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ، وَزَيدِ بنِ أَسلَمَ، وَقَتَادَةَ): وهؤلاء الثلاثةُ من التَّابعين.

فهؤلاء الثلاثة روايتهم مُرسَلة، والظاهر -والله أعلم-: أن زيد بن أسلم يَروِيها عن ابن عمر؛ لأنه في بداية القصة لم يَذكُر ابنَ عمر لكن في أثنائها قالَ: وقال ابن عُمَر كذا.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِم فِي بَعضٍ): وهذا يَصنَعُه بعض المحدِّثين، فإذا كان للقصة رُواة مُتعَدِّدون، ولهم ألفاظ؛ فإنهم يَجمَعُونها ويَقُولون: دخل حديثُ بعضهم في بعض. وهذا معروف عند جمَاعة من المتقدمين، ولا يزال العلماءُ يَستعملونه، ومنهم الشيخ الألباني -رَحِمَ الله الجَميع-.

فمَعنىٰ قول الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هُنا: أي: أدخَلتُ حديثَ بعضهم في بعضٍ فسبكتُ منه قصةً واحدة، وليس المقصُود أن الواحد منهم أدخل حديثَ الثاني في داخل حديثه. وإنما الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ الآن في ذِكرها قد سبَكَها في قصة واحدة من ألفاظ هؤلاء الروَاة.

(أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزوَةِ تَبُوكٍ): وهي الغَزوة المعروفة، والطَّريق طويلٌ من المدينة إلىٰ تَبُوك.

---

(١) (ص١٠٨-١٠٩).

(مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ): وهم الذينَ يَحفَظُون القُرآن ويَقرءونَ القُرآن، ويَقصدون بِهم رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبَار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

(أَرغَبَ بُطُونًا): أي: أوسَع بُطونًا وأكبَر بطونًا، لكَثرة رغبتهم في الأكل، وكثرة أكلهم، وهذه سُخرية بيِّنة من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبَار الصَّحابة، وذلك أيضًامع كونِها كذبًا لا شَكَّ فيه؛ فإنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من أقل الناس أكلًا، وكذا صحَابته رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فهي سُخريَة وكَذِب.

(وَلَا أَكذَبَ أَلسُنًا): أي: هؤلاءِ القُرَّاء كذابون، وما رأينا أكذَبَ منهم، وهذه أيضا سُخرية وكَذِب؛ فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَكذِب قط صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكبار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كانُوا يتورَّعون عما دُون الكذب، فكيف بالكذب الذي عُلِمَت حُرمته؛ لكنه مَرض القلب.

(وَلَا أَجبَنَ عِندَ اللِّقَاءِ): الجُبن: هو الخَوَر والضَّعف والانهزام، فيَصِفُونهم بأنهم جبناء إذا التَقىٰ الصفان، وهذه أيضًا سُخرية وكذب، فرَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أشجَع النَّاس، وأول المتقدمين في صفُوف المُجَاهدين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **«كُنَّا إِذَا احمَرَّ البَأسُ، وَلَقِيَ القَومُ القَومَ، اتَّقَينَا بِرَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدنَىٰ مِنَ القَومِ مِنهُ»**[1].

أي: حتىٰ إذا حَمِي الوَطيس واشتدت الحَربُ؛ اتخذ الناسُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرعًا لشَجاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثباته.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٤٧-الرسالة).

فهذا المنافقُ أراد أن يسخرَ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ولم يَجِد ما يسخرُ به منهم صِدقًا -أعني: ويصدُق في ذلك-؛ فكَذَب؛ فجمعَ السخريةَ مع الكَذِب.

(**فَقَالَ لَهُ عَوفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبتَ، وَلكِنَّكَ مُنَافِقٌ**): وهذا مَعلُوم؛ وقد عَلمَ عوفٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه مُنافق؛ لأن هذا لا يَقُوله مُؤمن.

(**لأُخبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَذَهَبَ عَوفٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرآنَ قَد سَبَقَهُ**): أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر نَبِيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما سيكُون، وذلك في قَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ هذا لم يَكُن قد وقَع؛ ولكنه سيَقع، فأخبر اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رسولَه بمَا سيَكُون، وهو أن هذا الرجل سيأتي ويَقُول هكذا!

(**فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**): الرجلُ الذي سَخِر وتكَلَّم.

(**وَقَدِ ارتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ**): ارتحل؛ أي: من مَوضِعه، وارتحلَ القومُ من الموضع: أرادوا السَّير.

(**فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ**): كمَا أخبَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، وتقدم بيان مَعنىٰ هذه الجُملَة.

(**وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكبِ نَقطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ**): وفي رواية: «نَقطعُ بِهِ عناءَ الطَّرِيقِ»؛ لأن الطريق طويلٌ، فيَعتذر بهذا العُذر.

(قَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيهِ مُتَعَلِّقًا بنِسعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ):

وقوله: «بِنِسعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ». لم أرَها في أثرِ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بعد البَحث في الرِّوايات، وإنما الذي في أثر ابنِ عمر: «بِحَقَب ناقَةِ رَسُولِ الله ﷺ».

أما رواية «بنِسعَة...» فهذه وجدتُها في رواية محمَّد بن كعب، ولم ينسبهَا لابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والنَّسعُ أو النِّسع: سَيرٌ عَرِيض يُشدُّ به الرَّحلُ إلىٰ الدَّابة، إلىٰ الناقة، وسُمِّي نسعًا لطُولِه؛ لأن النِّسع هو الطويل.

وأما الحَقَب: فهو مثل النَّسع أو النِّسع، حِزام يُشدُّ به الرَّحلُ إلىٰ الدابة.

فهَذا الرجلُ لما جاء ووجدَ النبي ﷺ قد ركب الناقةَ وسارَ النبي ﷺ غير مُبَالٍ به، أمسك هذا الحَبل وهذا السَّير العَريض بيده وهو يقول: إنما كنا نَخُوض ونلعب.

قَالَ: **(وَإِنَّ الحِجَارَةَ لَتنكُبُ رِجلَيهِ)**: أي: لتُصيبُ رِجلَيه؛ لأن النَّبي ﷺ سائرٌ بنَاقته وهو مُمسك بهذا السير؛ فينسحب الرجلُ في الأرض، والحِجَارة تُصيب رِجلَيه.

(وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلعَبُ): انظُروا ما جعلَ الله له من الذِّلَّة، وهو يُحاول أن يعتذر، وهو مُمسكٌ بسير الناقة.

(فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥] **مَا يَلتَفِتُ إِلَيهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَليهِ)**: فدَلَّ ذلك علىٰ أن الساخِرَ بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، أو الساخِر برَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو الساخر بالقُرآن، أو السَّاخر بما جاء به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وما في القرآن؛ يَكفُر بهذا ولو كان لاعبًا، ولو اعتذر بأنه كان هازلًا، وليس جادًّا، ولا يقصدُ ولا يريد؛ فإنه يكفُر بهذا.

وهذا أمرٌ عظيم، ومن الخطأ قولُ بعضِهم: أنه لا يكفُر إلا إذا استَحلَّ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ما رَتَّب الكفرَ علىٰ الاستحلال، ولكن رتَّب الكفر علىٰ لَعِبِهم، وخَوضِهم الذي يَدَّعون، وكذلك فعلَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فدَلَّنا ذلك علىٰ أن مَن سَخرَ بهذه الثلاثة؛ بالله عَزَّوَجَلَّ، أو برسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أو بِرسُولٍ من رسل الله، أو بالقُرآن؛ أنه يَكفُر ولو كان لاعبًا، إذن من باب أولىٰ أن يكفُرَ لو كان جادًّا قاصدًا، ويلحق بذلك إذا استهزَأ بشَرع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ﮋ❁❁❁ﮊ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ -وَهِيَ العَظِيمَةُ-: أَنَّ مَن هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ.

ولا شكَّ أنها عَظيمَة: أن من هَزل واستهزأ وسَخِر بالله أو برسُوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بالقُرآن أو ما يَعُود إلىٰ ذلك؛ أنه يكفُر ولو كان لاعبًا خائضًا؛ فكيف إذا كان جادًّا قاصدًا؟!

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ تَفسِيرُ الآيَةِ فِيمَن فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَن كَانَ.

فليسَت هذه قضيةَ عينٍ تُقصَر علىٰ صاحبها؛ بل هذا الحُكمُ باقٍ عام إلىٰ يوم القيامة؛ فمن استهزَأ اليوم في الصُّحف، أو في التِّلفاز، أو في شَبَكات التواصل بالقرآن، أو استهزأ برسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو استهزَأ بشَيءٍ من شرع الله، مع عِلمه بأنه من شَرع الله؛ يكفر بهذا.

حتَّىٰ قال العُلماء: مَن استهزَأ بالسِّواك لأنه سِواك، مَع عِلمه أن السواك من شرعِ الله؛ يَكفُر بهذا.

وهذا الأمر محَل إجماع بين فقهاء الأمة، والفقهاءُ في هذا الباب قد تشدَّدوا تشددًا كثيرًا؛ حتىٰ أن منهم من قال: من قال (مُصَيحِف، مُسَيجِد) -بالتصغير-؛ فإنه يَكفُر بهذا، وإن كُنا لا نُوافِقُهم علىٰ هذا الإطلاق؛ فإن كان يَقصِدُ أن هذا المصحفَ صَغير وهو صَغير؛ أو أن هذا المسجد صغير وليس من الجوامع الكبيرة؛ فليس هذا كفرًا، أمَّا إذا كان يقصد السُّخرية والاستهزاء بالقرآن أو

بالمسجد؛ فهذا كُفر.

الثَّالِثَةُ: الفَرقُ بَينَ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ.

وهذا أمر عظيم؛ فإن النميمَة كبيرةٌ من كبائر الذنوب، والنصيحة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله وللمؤمنين من أعظم أمورِ الدِّين، ولابُد من معرفة الفَرق بينهما؛ **فإن النميمَة**: نقلُ الكلام بين الناس علىٰ سبيل السِّعاية والإفساد، والنمام خَبيثٌ لا يقصد نُصرة حق ولا كَسر باطل ولا نُصحًا، وإنما يُريد الإفسَاد، أما النَّصيحة لله ولرسُوله وللمؤمنين، فيُقصد منها إعلاء الحق وكَسر الباطل وحمَاية بيضة المسلمين؛ فقد ينقل رجلٌ كلامًا لمَسئول أو لأمن الدَّولة من أجل حماية البَلد؛ كمن سمع أناسًا يتكلَّمون فيما بينهم ويتآمَرُون علىٰ تفجير سيَفعَلُونه غدًا في ميدان، أو مبنىٰ من مباني البلاد؛ فيَقُوم ويذهب إلىٰ المسئولين أو إلىٰ أمن الدولة وإلىٰ مَن يَثِق به ويخبره بما سمع؛ فهَذا نُصحٌ لله ولرسوله ولعُموم المسلمين، وحماية لبَيضَة المسلمين، وليس من النميمة في شيء، وليس من الإفساد في شيء.

وضابطُ النَّصيحة لله ولرَسُوله وللمُؤمنين: صدق الكَلام وعدم الكَذِب، وصِدق النيَّة، بأن يكون مقصودُ العبد حماية الدِّين وحمَاية ديار المسلمين، فهَذا ناصح لله ولرَسُوله وللمؤمنين، وليس هذا من النميمَة ولا الغِيبَة في شيء.

الرَّابِعَةُ: الفَرقُ بَينَ العَفوِ الَّذِي يُحبُّهُ اللهُ، وَبَينَ الغِلظَةِ عَلَىٰ أَعداءِ اللهِ.

فتَضع الرفق في مَوضِع الرِّفق، وتضَعُ العُنف في مَوضِع العنف.

حتىٰ أن بعضَ السلفِ ذكرَ أن استعمالَ العُنف عند الحاجة إليه هو الرِّفق؛ لأنه هو الذي يُحقق المقصُود.

فالعفو يُحبُّه الله جَلَّوَعَلَا، وهو أمر طَيب، والرِّفقُ يُحِبه الله ويُعطي عليه ما لا يُعطي علىٰ العنف، لكن في موطنه ومَوضِعه، وهو الأصل؛ والغلظة علىٰ المُخطِئ أحيانًا يحبُّها الله، وهي مَطلُوبة إذا كان الخير لا يتحَقَّق إلا بها.

فالعبرة بما يُحَقق المقصود؛ فإن كان العفو يُحَقق المقصود ولا يترتَّب عليه مفسَدة عظيمة؛ فإنه يُحبُّه الله ورَسُوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ وإن كانت الغِلظَة تحقق المقصود والعَفو والرفق واللين لا يُحَقق المقصود؛ فإن المَشرُوع هو الغلظة.

والتفريقُ بَينَهُما يحتاجه الإنسان حاجة شديدة؛ لأنا هناك مَن يُعَامل الناس بالرفق واللين دائمًا، ولربما وقعَ في المَحذُورات الشَّرعية بسبب هذا، ولا يُحَقق المقصود، وهذا لا شك أنه مَذمُوم!

ومن الناس من يُعَامل الناس بالغلظة والشدة دائمًا، ولا شكَّ أن هذا يُنَفِّر الناس من الحَق، وهو مَذمُوم كذلك!

والطريق الصَّوَاب، والذي عليه السلف، وعليه علماؤنا ومشايخنا، ومن تربينا علىٰ أيديهم، وتلقينا عنهم العلم: أن يعامل الناس بالرفق والصبر ما كان لذلكَ سَبيل، وما كان يُحَقِّق المَقصُود، ولا تترَتَّب عليه مَفسَدة عظيمة، وإلا كان الأمر كمَا يقول القائل:

إذَا لَـم يَكُـن إلَّا الأسـنَّة مَـركبًا ... فمَـا حِـيلةُ المُـضطرِّ إلا رُكـوبُهَا

الخَامِسَةُ: أَنَّ مِنَ الأَعذَارِ مَا لا يَنبَغِي أَن يُقبَلَ.

وذلك لأن الأصلَ أن المُؤمنَ يقبَلُ اعتذار أخيه؛ لكن مِن الأعذار ما لا ينبغي أن يُقبَل؛ وذلك إذا كان ممَّا يتعلَّق بالدِّين مثلًا مما يظهر عدم صحته أو عَدَم صَوابه، يَعني: عَدم صحته من جهةِ كونه عُذرًا، أو عدم صوابه من جهَةِ الاعتذار به حتىٰ لو كان صَحيحًا في وقوعه مثل عُذر هؤلاء بقَولهم: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فإن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يَقبل اعتذَارَهم.

❊❊❊

باب: ما جاء في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ الآية.

الشرح

وهذا الباب أيضًا في أن الأدبَ مع الله في الألفاظ من كمَال التوحيد، ومن ذلك: أن ينسبَ العبدُ بلسانه النعمة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويشكُره عليها، ويبرأ من حَولِه وقُوَّته؛ فينسب الفضلَ كُله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل أحواله؛ فإن كان غَنيًّا يقول: لولا الله ما اغتنَيتُ، فالفضلُ كله لله، وإن كان صحيحًا مُعافىٰ يقول: لولا الله ما عُوفِيتُ، فالفضلُ كله لله، وإن كان ذا علم يَقُول: لولا الله ما عَلِمتُ، فالفضلُ كُله لله.

ويُنافي كمالَ التوحيد: أن ينسبَ الإنسان بلسَانه النعمة إلىٰ نَسَبه أو شرفه أو حوله أو قوَّته أو مهاراته أو ذكائه، ومن فعل ذلك فقد قدَحَ في توحيدِه، وأساء الأدبَ مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان عُرضَة لأن يسلب الله عَزَّوَجَلَّ منه تلك النعمة.

فهذا البابُ في تقرير هذا الأمرِ العَظيم.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَولِ اللهِ تَعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾):

وتمَام الآياتِ مع التي قَبلَها: يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ

لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت:٤٩-٥٠].

﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ﴾: الإنسان هنا هو (الكَافر) فـ(أل) هنا للعهد وليست للجنس، فليسَ المقصودُ كُلَّ إنسان؛ وإنما الإنسان الكافر، لا يمل من الدعَاء ما دام في الخَيرِ، ويسأل الله الخَير، وإن ناله الضَّرر في نفسِهِ أو أهله أو ماله أو معيشته يَئِسَ من رَوحِ الله ومن رَحمَته ومن كشف ذلك الضُّر.

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ ما مَعناه: ولئن نحن كشَفنا عنه ما أصابه من ضَرر في نفسه أو ماله أو أهله أو معيشته، فوَهَبنا له عافية أو رزقناه ولدًا صالحًا أو رزقناه مالًا؛ ليقولن: هذا حَق لي عند الله عَزَّوَجَلَّ، فأنا مُستَحقه! فالله جَلَّوَعَلَا علِم -هكذا يَزعُم الكافرُ- أنه مُستَحق لهذه النعمة، فأنعم عليه، وذلك لكرَامَته عنده بزعمه، أو لرضَا الله عنه وعن عمَله بزَعمه؛ فلا يشكُر النعمة، وإنما يتألَّىٰ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويغتر باستدراج الله عَزَّوَجَلَّ له!

وهذا هو حال الكافر مع النِّعَم؛ لا يشكر الله علىٰ النعمة حتىٰ باللسَان، ولا ينسبها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما ينسبها إلىٰ نَفسِه، أو إلىٰ أنه مُستَحقٌّ لهذه النعمة، وأنه نالَهَا لاستحقاقه لها؛ لشَرَفه، ولمَهارته، ولعِلمِ الله أنه مُستَحق لها، وهذا يدلُّ عنده بزعمه علىٰ كرامته عند الله، وأن له مَنزِلة عند الله، وأن الله رَاضٍ عنه، وأن الله راضٍ عن عَمَله، فهذه من صفَات الكفار؛ ولذلك يقول الكافر: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: لا أظنُّ أن هناك بَعثًا، ولو صَدقتكُم أن هناك بعثًا فإني سأُبعَث علىٰ خير؛ لأن الله راضٍ عني، فكما أعطَاني في الدنيا سيُعطِيني في

الآخرة! هكذا يظُن الكافر، وما هو إلا وَهم!

وجهُ الشَّاهد: أن من صفاتِ الكفار أنهم لا يَشكُرون الله جَلَّوَعَلَا علىٰ النِّعمة ولو باللسَان، فإذا تقَلَّبوا في نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ أضافوها إلىٰ أنفسهم، وقالوا: هذه مِلكُنا ومِن حَقِّنا، ونحن مُستَحقُّون لها، ولم يُدركُوا أن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالبَلاء، ويغفلون عن استدراج الله عَزَّوَجَلَّ لهم بالنِّعَم!

فمَن فعل ذلك من المُسلمين فتقَلَّب في نِعَم الله جَلَّوَعَلَا، ومع ذلك يقُول: هذه النعمة لي ومِلكي؛ لشَرَفي ونَسَبي، أو لذَكَائي ومَهَارتي، أو لأني مُستَحقها؛ فإنه شابَهَ الكُفَّار في ذلك، وأساءَ الأدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولم يَشكُر نِعمَة الله عَزَّوَجَلَّ عليه!

وكذلك مَن اغترَّ بالنِّعم؛ فرأىٰ أنه ما دام صَحيحًا، وعنده أولاد وأموال؛ فإن هذا يَدُل علىٰ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ راضٍ عنه، فيَغفل عن عبَادَة الله جَلَّوَعَلَا، ويَستدرجُه الشيطانُ إلىٰ المَعَاصي!

وبهذا الاغترَار يكونُ قد تَشبَّه بالكفار، وفيه شبَهٌ وصفة من صفات الكفار، ويكونُ قد أساءَ الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن؛ بهَذا نَعلمُ أن الأدبَ وكمَال التوحيد: أن ينسب المُسلمُ النعمَةَ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بلِسَانِهِ.

وعلاقة هذا البَابِ بالبَاب الذي تقَدَّم، وهو: (**بَابُ قَولِ الله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾**): أن ذلك البابَ في وجُوب شُكر النِّعمَة، وبيان

كُفرها، وكيف يَكُون الإنسانُ -والعياذ بالله- كافرًا بالنعمة.

أمَّا هذا البَاب: ففي التأدُّب بالألفاظ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في باب النِّعمَة، فليس هذا تَكرارًا لذلك الباب وإنما هنا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلَّم في هذه الأبواب عن التأدُّب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ، ومنه هذا الباب؛ التأدُّب مع الله في الألفاظ في باب النِّعمة، وهو نسبَةُ النعمَة إلىٰ الله باللسَان.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحقُوقٌ بِهِ»(١).

وَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ: «يُرِيد مِن عِندِي»(٢).

وَقَولُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَىٰ عِلمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ»(٣).

وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَىٰ عِلمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهلٌ»(٤).

وَهَذَا مَعنَىٰ قَولِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ»(٥).

الشرح

(قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحقُوقٌ بِهِ): أي: أن هذا بعَملي، وأنا اجتهَدتُ وحصَّلت هذه النِّعمَة، فهذه النِّعمة جَاءَتني بعمَلي، وأنا مَحقُوق بهذا، أي مُستَحق لها كأنه يَلزَمُ الله عَزَّوَجَلَّ بأن يُعطِيَه هذه النعمة!، وليس علىٰ أن العملَ سببٌ للوصول إلىٰ النعمَةِ.

(وَقَالَ ابنُ عبَّاسٍ: يُرِيد مِن عِندِي): يعني: من عند عملي واجتهادي، أو من

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٥٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٧٣).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٦٦).

(٤) «تفسير البغوي» (٧/ ١٢٤).

(٥) «تفسير مجاهد» (ص٥٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٢١).

جهة الوِرَاثة، فأنا ورثت هذه النعمة عن آبائِي وأجدَادي .

(وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، **قَالَ قَتَادَةُ: عَلَىٰ عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ.**

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ): وهذا قول قَارُون -كمَا ذكَرَ الله جَلَّ وَعَلَا عنه- لمَّا آتَاه الله عَزَّوَجَلَّ المال الكثير، والكنوز العظيمة، حتىٰ أن مفاتيح خزائنه تنُوء وتثقُل بحِملها العُصبة القَوية من الرجال الأقويَاء، فليس المال وليسَت الخَزائن؛ بل المَفَاتيح فقط، فكيف بالمَالِ والخزَائن أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه بها؟!

وقد نصَحَهُ قَومُه، ومع ذلك أبىٰ وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

وفَسَّر السَّلفُ هذه الجُملَة بتَفسيرَين:

التَّفسير الأول: أي: علىٰ علم منِّي أنا بوجُوه المكاسب، والمهارة في جذب الأموال وكسبها.

والتَّفسير الثاني: أي: علىٰ علمٍ من الله أني أستحقُّ هذا، وأن هذا من حَقِّي، فالله أعطاني إيَّاه، وليس هذا تفضُّلًا منه، وإنما لأني مُستَحق لهَذا.

فتحَصَّلَ من كلام السَّلفِ عن الآيتَين درجتَان تقَعُ من الكفار في باب النِّعمَة في اللسَانِ:

الدَّرجَة الأولىٰ: أن ينسبَ الكافر النعمةَ لنَفسه، ولا ينسبُها لله أصلًا، وهذه أقبَحُ الدرجتين، وهي شركٌ في الربوبية.

والدرجَةُ الثانيَة: أن ينسب النعمة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن يَزعُم أنه مُستَحق لها، فهذه النعمةُ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن لم يَنلها بفَضلِ الله، وإنَّما يزعُم أنه نالَهَا؛ لأنه مستحقٌّ لهَا.

وسبحان الله! ما أعظَمَ جَهلَ هَؤلاء ومَن أشبههم من المسلمين في هذا الباب!؛ فإن الذي خلَقَ الإنسانَ أصلًا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُنعم الذي وهبك نفسَك وما تَملِك ومَنَّ عليك بالمَهَارة والقُدرة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَلولا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما حصَّلتها؛ فكيف لا ينسبُ العبدُ الضعيف النعمةَ إلىٰ الله ويَقُول: هذه كلها من الله، والفَضلُ كُله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

(وَهَذَا مَعنَىٰ قَولِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَىٰ شَرَفٍ): يعني: أن قول مُجَاهِد يشملُ الأمرين: أوتيتُه علىٰ شَرف فيَّ من جهة عِلمي، ومن جهة علم الله بأنِّي مُستَحق لهذه النِّعَم، عياذًا بالله من سُوءِ الأدب.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِن بَنِي إِسرَائِيلَ: أَبرَصَ، وَأَقرَعَ، وَأَعمَىٰ، فَأَرَادَ اللهُ أَن يَبتَلِيَهُم، فَبَعَثَ إِلَيهِم مَلَكًا، فَأَتَىٰ الأَبرَصَ، فقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجِلدٌ حَسَنٌ، وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ قَذَرُهُ، فَأُعطِيَ لَونًا حَسَنًا وَجِلدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ أَوِ البَقَرُ -شَكَّ إِسحَاقُ-. فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

قَالَ: فَأَتَىٰ الأَقرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: شَعرٌ حَسَنٌ، وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ، وَأُعطِيَ شَعرًا حَسَنًا. قَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَو الإِبِلُ. فَأُعطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا؛ قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَىٰ الأَعمَىٰ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ فقَالَ: أَن يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبصِرُ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ. فَأُعطِيَ شَاةً وَالِدًا.

فَأَنتَجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَىٰ الأَبرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ وابنُ سَبِيلٍ، قَد انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ،

أَسأَلُكَ بِالَّذِي أَعطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ وَالجِلدَ الحَسَنَ وَالمَالَ بَعِيرًا أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ لَهُ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعرِفُكَ! أَلَم تَكُن أَبرَصَ يَقذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعطَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَن كَابِرٍ. قَالَ: إِن كُنتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنتَ.

قَالَ: فَأَتَىٰ الأَقرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثلَ مَا رَدَّ عَلَيهِ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: إِن كُنتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنتَ.

قَالَ: فَأَتَىٰ الأَعمَىٰ فِي صُورَتِهِ وهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ وَابنُ سَبِيلٍ، قَد انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَد كُنتُ أَعمَىٰ فَرَدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَرِي، فَخُذ مَا شِئتَ، وَدَع مَا شِئتَ، فَوَاللهِ لَا أَجهَدُكَ اليَومَ بِشَيءٍ أَخَذتَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَقَالَ: أَمسِك مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابتُلِيتُم؛ فَقَد رَضِيَ اللهُ عَنكَ، وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيكَ». أَخرَجَاهُ.

الشرح

هذا الحديثُ في «الصَّحِيحَين»[1]؛ وهو حديثٌ طَويل فيه قصَّة، والقصَّة في القرآن والسنة إنما تَرِدُ للعبرة، والاتِّعاظ، ولأخذ الفوائد منها؛ ولا تُذكَر علىٰ سبيل التسليَة وقضاء الأوقات؛ وإنما تُذكر ليتفكر فيها المُتفكِّرون، ويعتبر بما فيها المُعتَبِرون.

---

(١) البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

فيخبرنا النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الصَّادق المَصدُوق بهذه القصَّة.

(**إِنَّ ثَلَاثَةً مِن بَنِي إِسرَائِيلَ**): وإسرائيل: اسم بالعبرانية؛ إسرَا: ومعناها بالعبرانية: صَفِي، وئيل: معناها: الله. فمعنىٰ هذا الاسم بالعربية: صَفِيُّ الله؛ أي: أن الله اصطفاه، واختاره، وهو نَبي الله يعقُوب عَلَيْهِالسَّلَامُ.

(**أبرَصَ**): والبَرَصُ: تغيُّر في لون الجِلد حتىٰ يكون للجلد لونَان فيما يَرىٰ الناسُ.

(**وَأَقرَعَ**): أي: ليس علىٰ رأسِهِ شَعرٌ بِالكُليَّة.

(**وَأعمَىٰ**): أي: لَا يُبصِر.

(**فَأَرَادَ اللهُ أَن يَبتَلِيَهُم**): أرادَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يَختبرهم وأن يُظهر شأنَهُم للناس؛ ليَعتبروا به.

(**فَبَعَثَ إِلَيهِم مَلَكًا**): جَاءَهُم علىٰ هيئةِ إنسَان.

(**فَأَتَىٰ الأَبرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجِلدٌ حَسَنٌ، وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ**): أي: استَقذرني الناس مِن أجله، وأخذُوا يَبتَعدون عنِّي، ولا يُحبُّون الخلطة بي بسبب هذا التغير في الجِلد.

(**قَالَ: فَمَسَحَهُ**): قالَ العُلماء: ليَعلمَ العبادُ أن لكل شيء سببًا؛ وما كان الملَكُ بحاجة لأن يَمسَحه، ولكنه مَسَحه؛ ليتعلم العبادُ أن للأشياءِ أسبابَها، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُجرِي الأسباب والمُسَببات.

(**فَذَهَبَ عَنهُ قَذَرُهُ، فَأُعطِيَ لَونًا حَسَنًا وَجِلدًا حَسَنًا**): ومعنىٰ هذا أن البَرَص

يمكن أن يزول، وأن له علاجًا يَغفل عنه كثيرٌ من الناس؛ وعلاج البَرَص ليس عند الأطباء، فإن هذا المَرض لم يَعرف الأطباء ما يُذهبه، وإنما يُخفِّفونه، أو يجرون عمليات تسمَّىٰ بتوحيد اللون، أما علاجه حتىٰ يَذهَب ويُشفَىٰ العبدُ منه ويأتي اللون الحسن فهو: كثرة الدعَاء وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يُذهِب هذا عن العبد، والإلحاح في هذا، فإن الله علىٰ كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن ذلكَ: أن يشربَ المُبتلىٰ بالبَرَص ماءَ زمزم ويتَضَلَّع منه، سَواء في مكة أو في بلده إذا حُمل له زمزم من مكة، ويَسأل الله أن يُذهب عنه هذا؛ فإنه كما في الحَديث: «**مَاءُ زَمزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[1].

فإذا شَرب ماءَ زمزم بنية أن يَشفيَه الله من هذا؛ فإن هذا من الدَّواء لهذا الدَّاء.

(**قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الإِبلُ أَوِ البَقَرُ -شَكَّ إِسحَاقُ-**): هو إسحَاق بنُ عَبدِ الله أحدُ رواة الحَديث، فهُو يعلمُ أن الأبرص والأقرع قال أحدُهما: الإبل، وقال الثاني: البقر، لكنه شَكَّ من الذي قال منهما الإبل، ومَن الذي قال منهمَا البَقَر.

والظَّاهر -والله أعلم-: أن الأبرص قال: الإبل؛ بدَلالة السياق التالي إلىٰ آخر الحَديث، فهذا الأقرَبُ.

(**فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ**): وهي الناقةُ الحاملُ التي قَرُبَت ولادتُها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا): هذه الجُملة يحتمل أنها دُعَاء من المَلَك له بأن يُبَارك الله له فيها، ويحتمل أنه خَبَر؛ بمعنىٰ: خُذ هذه ناقة قد بَارك الله لك فيها، فأخبَرَه أن الله قد بارك له فيها.

(قَالَ: فَأَتَىٰ الأَقرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِليكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ): وهذه طبيعة الإنسَان أنه إذا رُجِّي بالخَير يطمع، فهذا أقرعُ ليس عندَه شَعر، ورُبَّما كان قبل هذا يتمنىٰ الشعر، فلما رُجِّي بالخير، وقيل له: أيُّ شيء أحب إليك؟، قال: شَعرٌ حسن، ما قَال: شَعر؛ بل قال: شَعرٌ حَسَن!

فطبيعةُ الإنسان أنه أول أمره يُريد أن يجتنب المَفسَدة، فإذا علم أنه اجتنب المفسَدة رجَا المصلحة، فإذا تَرجَّىٰ المَصلحة رجَا أعلىٰ المَصلَحة.

(وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ): قال بعضُ أهلِ العِلم: هذا يَدُل علىٰ أنهم كانوا لا يَلبسُون العمائم، وإنما كانت رُءوسهم مَكشُوفة؛ ولذلك هو وسط الناس أقرع مَا له شعر، والناس لهم شُعور، فيستقذِرُونه بهذا الصَّلع التام في وسطهم، فسأل الله وطلب أن يَذهَب عنه هذا.

(فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ، وَأُعطِيَ شَعَرًا حَسَنًا. قَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَو الإِبلُ): هذا أيضًا شَكٌّ من إسحاقَ -كما تقدم-.

(فَأُعطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا): قَريبة الولادة، كما يَدُل عليه السياق.

(قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَىٰ الأَعمَىٰ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ فقَالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي،

فَأُبصِرُ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ. فَأُعطِيَ شَاةً وَالِدًا): والدًا: مَعَها ولدُها؛ وقيل: قريبَةُ الولادة، والشيء القريب يُعَبر عنه العرب بالمآل، فشاةٌ وَالدٌ؛ أي: أنها حاملٌ تكاد أن تلد؛ فكأنَّها والد.

(فَأَنتَجَ هَذَانِ): والناتِجُ: هو الذي يُولِّد الناقةَ أو البَقرة، يُسمَّىٰ نَاتِجًا.

يقول العُلماء: وهو كالقابلة للأنثىٰ من بني آدم عند وِلادَتها.

والمعنىٰ: تتَابَعت ولادة الناقة والبَقرة عندهما، واسم الإشارة (هذان) يرجع إلىٰ الأبرَصِ والأقرع.

(وَوَلَّدَ هَذَا): أي: ولَّد الغنم للأعمىٰ، فكَثُر ولد الغنم عنده، فبُورِك لهم في هذا المَال.

(فَكَانَ لِهَذا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ): وادٍ مليء بالإبل، والبقر، والغنم!؛ يَدُل علىٰ كثرة النتَاج والبَركة فيما أعطَاهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ): أي: المَلَك.

(أَتَىٰ الأَبرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ): وليس معنىٰ هذا أنه جاءه في صورة الملك وهيئته؛ وإنما يَعنىٰ أنه جاءه في صُورَته وهيئته السابقة عندما جاءه وهو أبرَص؛ وذلك ليكون ذلك مُذكِّرًا له، إن كان في قلبه حياة. ولم يأته بصورة ثانية، وهذه من باب التذكير وإقامة الحُجَّة عليه.

(فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ وابنُ سَبِيلٍ): وابنُ السبيل: المُسافر الذي انقطع في طريقِهِ.

(قَد انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي هَذَا): الحبَال: قيل: الأسباب؛ أي: تقَطَّعت بي الأَسباب، وما عندي سَببٌ يُوصلني إلىٰ أهلي.

وقال بعضُ أهل العلم: الحبال: هي الطرُق.

وقال بعض أهل العلم: الحبالُ: هي كُثبان الرمَال.

يعني: ما معي شيء وأنا طريقي طويل، فانقطع بي الطريق في سفري.

واسم الإشارة (**هَذا**) في الرواية المَذكُورة هنا ليسَ عند البخاري ولا مُسلِم.

(فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ): أي: لا وصولَ إلىٰ بلدي وأهلي إلا بالله ثم بك.

وهذا يَدُل علىٰ أن القوم كانوا يَعرفون التوحيد وكمَال التوحيد؛ فإنه لم يَقُل: فلا بلاغ لي اليوم إلا بك، ولم يقل: فلا بلاغ لي اليَوم إلا بالله وبك، وإنما قال: فلا بلاغ لي اليَوم إلا بالله ثُم بك. **وهذا جائزٌ**؛ لأن هذا الإنسان يستطيع أن يُعينه، ولم يُسوِّ بين الله والمَخلُوق؛ فهذا من كمال التوحيد.

(أَسأَلُكَ بِالَّذِي أَعطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ وَالجِلدَ الحَسَنَ وَالمَالَ): فالمُذَكِّر الأول: أنه جاءه بصُورَته وهيئته، والمُذكِّر الثاني: أنه في سؤاله ذَكَّره بفضل اللهِ عليه؛ فقال: أسأَلُك بالذي أعطاك اللون الحسَن والجلد الحسَن والمَال، فذَكَّره بالحال السابقة بإشارة خفيَّة.

(**بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي**): أي: أتوصَّلُ به إلىٰ مُرَادي.

(**فَقَالَ لَهُ: الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ**): أي: لا أستطيع أن أُعطِيَك؛ لأن هذا المال وهذا الوادي الذي تراه مليئًا بالإبل، إنما هو حَقُّ الناس، وليس هو لي، والحُقوق كثيرة، فبَخِل وكذب، والبُخل يقود إلىٰ الكَذِب، ولا تجد بَخيلًا إلا كذابًا، ولذلك كان الشُّح مِن المُهلكات؛ لأنَّ الشحَّ يَقُود العبدَ إلىٰ الكذب ولابُد.

(**فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعرِفُكَ! أَلَم تَكُن أَبرَصَ يَقذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعطَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المَالَ؟**): فجَاء المُذكِّر الصريح، الأول في الهَيئة، والثاني إشارة في السؤال، والآن ذَكَّره صراحة بنِعمَة الله جَلَّوَعَلَا عليه.

فلَم يُنكِر البَرَص، ولكن سَكت، وقال في المَال: (**فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَن كَابِرٍ**): يقُول العلماء: (كَابِرًا) منصوبة بنَزع الخافض، والمعنىٰ: ورثت هذا المال عن كابرٍ عن كابر؛ أي: ورثتُه عن كبار أجدَادي وآبائي، فزَعَم أنه من أسرة غنية شَريفة ثريَّة، وأنه لم يكن فقيرًا!

فمَع كل هذه المُذَكِّرات أبىٰ أن يُضيفَ النعمة إلىٰ الله، وأضاف النِّعمَة إلىٰ شَرفِه وأسرَتِه.

(**قَالَ: إِن كُنتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنتَ**): فهذا الرجلُ لم يعترف بنعمة الله بلسَانه، ولم يعطِ حق الله في المال؛ فاستحَقَّ أن يدعو عليه المَلَك؛ لكنه دُعاء معلَّق، وفي هذا جواز الدعاء المُعلَّق، كأن يقول قائل: (إن كُنتَ كاذبًا عليَّ أسأل الله أن يَبتَليك بكذا، أو: إن قَصَدت بهذا الكلام أذيَّتي فأسأل الله أن يكشفَ سِترَك، ويفضح أمرك).

وهذا دعاء مُعلَّق جائزٌ؛ فإن المَلَك قال: إن كنتَ كاذبًا فصَيَّرك الله إلىٰ ما كُنتَ.

(قَالَ: فَأَتَىٰ الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثلَ مَا رَدَّ عَلَيهِ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: إِن كُنتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنتَ).

(قَالَ: فَأَتَىٰ الأَعمَىٰ فِي صُورَتِهِ وهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسكِينٌ وَابنُ سَبِيلٍ، قَد انقَطَعَت بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَومَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَد كُنتُ أَعمَىٰ فَرَدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَرِي): فاعترَف بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وبأنه كان في ضُر فرفَع الله عنه ضُرَّه.

وفي رواية البُخاري: «وَفَقِيرًا فَقَد أغنَانِي»: فاعترف بالنِّعمَتين، نعمة المال ونعمة ردِّ البَصر، ونسَب النِّعمَتَين إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

(فَخُذ مَا شِئتَ، وَدَع مَا شِئتَ): فهو طلب منه شاة واحدة ولكنه قال: لا، هذا الغنم كُله من فَضلِ الله فَخُذ ماشئت ودَع مَا شِئت.

(فَوَاللهِ لَا أَجهَدُكَ اليَومَ بِشَيءٍ أَخَذتَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ): أي: لا أَشُقُّ عليك ولا ألومُك بشيء أخذتَه لله عَزَّوَجَلَّ.

وقالَ بعضُ أهل العلم: المعنىٰ: لا أسَامِحُك إن تركت شيئًا أنت تحتاجُه.

فأذن له أن يأخذ ما شاء بغَير حسَاب، وهذا من تمَام كرمه وقيامِه بحَق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا المَال.

(فَقَالَ: أَمسِك مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابتُلِيتُم): أي: اختبَركُم الله جَلَّوَعَلَا.

(**فَقَد رَضِيَ اللهُ عَنكَ، وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيك**): وهذا دليلٌ علىٰ أن من شَكَر الله علىٰ النعمة وأضافها بلسَانه إلىٰ الله، وأدَّىٰ حقَّ الله فيها رَضِيَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، فمِن أسباب الرضَا: أن تكونَ شَكُورًا لله جَلَّ وَعَلَا في النِّعَم.

وعدَمُ شكر الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ النِّعمة، ونِسبَتها إلىٰ المَهَارة والذكاء والحِذقِ والعَائلة الغنية والنسب الشريف؛ مما يُسخِط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والعِبرة من هَذه القصَّة: أن الواجب علي المؤمن أن يَشكُر الله علىٰ النعمة، وأن يتأدَّبَ مع الله في لَفظِه عند النعمة، فلا يَنسب النعمة إلىٰ الأسباب، ولو صدقت؛ وإنَّما يَنسبُها إلىٰ المُنعِم، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا من الأدب.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ الآيَةِ.

الآية الأولىٰ؛ لأن الشيخ ذكر آيتين: الآية الأولىٰ التي ترجم بها الباب، ولعله أيضًا يريدُ الثانية معها فتكون (أل) لجنس الآيات التي هي كلامُ قَارون .

الثَّانِيَةُ: مَا مَعنَىٰ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾.

وقُلنا: يتحصل عندنا صورتان:

الصورة الأولىٰ: أن يقول: هذا ملكي؛ فيُضيف النعمة إلىٰ نَفسه؛ وهذا شرك في الربوبية.

والصورة الثانية: أن يُضيف النعمة إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولكن يَزعُم أنها حقٌّ له، وأنه إنمَا نَالَها لاستحقَاقِه، لا لفَضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهذا باطل وسُوءُ أدب.

الثَّالِثَةُ: مَا مَعنَىٰ قَولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِىٓ﴾.

أي: بسَبب علمي أنا.

وقال بعضُ السَّلف: أي: بسَببِ عِلم الله أنِّي مُستَحقٌّ لهذه الأموال.

الرَّابِعَةُ: مَا فِي هَذِهِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ مِنَ العِبَرِ العَظِيمَةَ.

فهَذه فالقصةُ فيها عِبَر عظيمة كثيرَة.

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠].

الشرح

وهذا الباب أيضًا في الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ، ومن ذلك: شُكر الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ نعمَة الولَد، فإن الولد نعمَةٌ عُظمىٰ.

ومن شُكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمة الولد تَسمِيَته باسم طيب، وعَدم تسميته بالتعبيد لغير الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ لو لم يَقصِد الإنسان حقيقة العبودية الشرعية.

فمِن الأدبِ الواجبِ مع الله جَلَّ وَعَلَا في الألفَاظ: ألا تُعبِّد أحدًا إلا لله، حتىٰ لو قلتَ: أنا لا أقصِدُ العبودية الشرعية، وإنما أقصد الخدمة والإعانة، ونحو ذلك.

فإنَّا نقولُ: الأدبُ الواجب مع الله جَلَّ وَعَلَا في الألفاظ ألَّا تُعبِّد أحدًا لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

ومَقصود الباب: أن الأدب مع الله في الألفاظ من كمال التوحيد الواجب، وأنه لا يَجُوز لمن وَهَبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نِعمَة الولد أن يُسَمِّيه بالتعبيد لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وأن في التعبيد لغير الله عَزَّوَجَلَّ إساءةَ أدَبٍ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فبوَّب الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الآية: (**بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾): وقد اختلفَ العلماءُ في

المُراد في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾؛ من هُمَا؟!

فذهب أكثَرُ العلماء إلىٰ أنهما آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

قال ابن جَرير الطَّبَري: «وَالصَّوَابُ منَ القَول في ذَلكَ أن يُقَالَ: إنَّ اللهَ أَخبَرَ عَن آدَمَ وَحَوَّاءَ أَنَّهُمَا دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا بحَمل حَوَّاء، وَأَقسَمَا لَئن أعطَاهُمَا في بَطن حَوَّاءَ صَالحًا لَيَكُونَانِّ لله منَ الشَّاكرينَ. . .

فَلَمَّا رَزَقَهُمَا اللهُ وَلَدًا صَالحًا كَمَا سَأَلَا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فيمَا آتَاهُمَا وَرَزَقَهُمَا... ثُمَّ اختَلَفَ أَهلُ التَّأويل في الشُّرَكَاء الَّتي جَعَلَاهَا فيمَا أُوتيَا منَ المَولُود، فَقَالَ بَعضُهُم: جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ في الاسم»(١).

ثم قال ابنُ جَرير بعدَ أن ذكر قولَين في معنىٰ الآيةِ عن السَّلف: «وَأَولَىٰ القَولَين بالصَّوَاب قَولُ مَن قَالَ: عَنَىٰ بقَوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ في الاسم لَا في العبَادَة، وَأَنَّ المَعنيَّ بذَلكَ: آدَمُ وَحَوَّاءُ؛ لإجمَاع الحُجَّة من أَهل التَّأويل عَلَىٰ ذَلكَ»(٢).

والسُّؤال هنا: كيف يكونُ في آدم وحواء، وآدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ نَبيٌّ؟!

قالوا: الشِّرك هنا ليس الشِّرك المُنافي للتوحيد، وإنما الشرك هنا شِرك في الطاعة في التَّسمِيَة من غير قَصد ما أرادَهُ إبليس، فهذا ليس من الشرك، وقد سمَّيَاه عبد الحَارث كما جاء في بَعض الروايات، وإبليس كان يُسمَّىٰ (الحارث)،

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٦٢٢)

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٦٢٩).

فأراد (عبد الحَارث)؛ أي: (عَبد إبليس)، وهمَا لم يُريدا هذا، وإنما أطاعاه في الاسم من غير قَصدِ المَعنىٰ.

فهذا شِركٌ في الاسم، وشِرك في الطاعة، وليس شِركًا في العبادة، فهذه مَعصيَة.

فإن قال قائلٌ: إن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيٌّ فكيف يَعصِي؟!

قالَ بعضُ أهل العلم: عصَىٰ كما عصىٰ في السَّماء، والله يتوبُ علىٰ أوليائه وأنبيائه.

وقال شَيخُنا ابنُ باز رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: لعلَّه لم يَكُن حرامًا عندهما، ولم يبلغهما تحريمه، فليس مَعصيَة في حقهما أن يُسمىٰ (عبد الحَارث) أو يُعبَّد لغير الله، فلعله لم يكن قد بَلغَهُما تحريم، يعني: لم يكن نزَل تحريم في هذا الأمر، فيكون كبعض من كانوا يتسَمَّون بهذه الأسماء ثم غيَّروها لمَّا نزل التحريم، فلا تكون معصيَة إذ ذاك.

وأما آخرُ الآيَة في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو ليسَ في آدم وحواء، وإنما هو التفاتٌ من الشَّخص -آدمَ وحواء- إلىٰ جنسِ المشركين.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾: أي: تعالىٰ الله عما يُشركُ به مُشرِكو العرب من عبادة الأصنَام، ثم جاءت الآيات بعد ذلك في حَقِّهم، فهذا التفات.

وذهب بعض المُفَسِّرين والعُلماء إلىٰ أن الآية ليست في آدم وحواء، وإنما

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد» للعلامة ابن باز (ص٢٣٣).

في نفسٍ من نفُوسِ بني آدم وزوجها، فهذا في الذرية وليس في آدم وحواء، فالمُراد المُشركون من ذُريته.

قال ابنُ كثير: «كَانَ الحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ اليَهُودُ وَالنَّصارَىٰ، رَزَقَهُمُ اللهُ أَولَادًا، فَهَوَّدُوا ونَصَّروا.

وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ عَنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّهُ فَسَّرَ الآيَةَ بِذَلِكَ، وَهُوَ مِن أَحسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَولَىٰ مَا حُمِلَت عَلَيهِ الآيَةُ...»[1].

فهذا اختيارُ الحافظِ ابنِ كثير، واختاره كذلك الشيخُ السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

وإذا نظَرنا في سياق الآياتِ نَجد أن الله جَلَّ وَعَلَا قال في أول الآية التي قبلها: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ﴾ وهذا ظاهر أنه في آدم وحواء، فالنفسُ الواحدة هي نفسُ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ وهي حَواء التي خُلِقت من ضلع آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

ثم قال سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ظاهر السيَاق -والله أعلم-: أن الزوج المَذكُور مع زوجته التي خُلِقَت منه لما جامع زوجَتَه حمَلت حملًا خفيفًا في بداية الأمر، وحمل المرأة في بداية الأمر خفيف بالنسبَةِ إلىٰ آخرِه، فمَرَّت به سريعًا، فلما أثقلت وثَقُل حملها وقَربت ولادتها خافَا ألَّا يلدَا مولودًا

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٢٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣١١).

سليمًا صحيحًا، فأقسمَا هذا القسم: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.

وظاهر السِّياق أن الكلامَ لا يَزالُ عن الزَّوجَين المذكورَين، فتكون الآية في آدم وحواء بحَسَب السياق، ويكون الشِّركُ هنا ليس الشرك المُنافي للتوحيد، وإنما المُنَافي للأدب بعد تحريم ذلك، وهو أن يُعبَّدَ المولودُ لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا معنىٰ قَولِ بعض أهل العلم: إنه شركُ طاعة، وليس المقصود شرك الطاعة الذي تقَدَّم في باب من أطاع العُلمَاء والأمراء؛ لأن ذاك شرك طاعة في الأحكام، في التحليل والتحريم، أما هذا فهو طاعة في الاسم وفي اللفظ من غير قَصد ما فيه.

وأما في السُّنة فلم يَصِح حديث في المسألة، والحديث الوارد في أنهمَا آدم وحواء ضَعيف لا تقوم به حجة، وأما الآثار عن الصحابة فقد اختُلِفَ فيها، وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ.

والذِي أميلُ إليه -والله أعلم-: قول الأكثر أنَّها في قصة آدم وحواء، وأن الشرك هنا هو شرك في الاسم وفي الطاعة؛ في التسمية من غير قَصدِ مَا في الاسم، ومن غير مُوَافقة إبليس علىٰ مُراده.

وليس مقصُود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يتكَلَّم فيمن كانت الآية فيهما، وإنما مقصود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام عن الأدب في الاسم، وأن من الأدب الواجب مع ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا وُهِبَ أحدُنا ولدًا، سواء كان ذكرًا أو أنثىٰ، أن يُحسنَ تَسميتَه وألَّا يُعَبِّده لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ ابنُ حَزمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحرِيمِ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ اللهِ، كَـ: عَبدِ عَمرٍو، وَعَبدِ الكَعبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِك، حَاشَا عَبدَ المُطَّلِبِ».

الشرح

وابنُ حَزم رَحِمَهُ اللَّهُ هو أبو مُحمَّد علي بن أحمد بن سَعيد بن حزم الأندَلُسي القُرطبي الظاهري، وهو من العلماء المَعرُوفين بسَعة معرفة الخلاف، فمع كونه ظاهريًّا، إلا أنه كانَ من العلماء المُلمين بخلاف العلماء، ولذلك إذا قرأت «المُحلَّىٰ» تجد أنه يذكر خلاف الأئمة الأربعة ومَن قَبلهم، وخلاف الصحابة، وقد يذكر خلافًا بعدهم، سَواء اختار هذا القول أو جاء بقول آخر، وقد تُوفي (سنة ٤٥٦) من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما يتَأَتَّىٰ أن يأتي أحدٌ ويقول: هذا وهَّابي!

فذكر ابن حَزم في كتابه «مَرَاتب الإجمَاع»[١] هذا القول: (**اتَّفَقُوا عَلَىٰ تَحرِيمِ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ اللهِ، كَـ: عَبدِ عَمرٍو، وَعَبدِ الكَعبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِك، حَاشَا عَبدَ المُطَّلِبِ**): وذكر هذا أيضًا بنَصِّه ابن القطان، المُتوفَّىٰ سنة ٦٢٨ من الهجرة، في كتابه «الإقنَاع»[٢]، ولم ينسبه لابن حَزم.

وهذا الإجماع معلومٌ مستقر؛ فإنه لا يوجد ما يَنقُضه في كلام أهل العلم، فكل اسم عُبِّد لغير الله كعَبد عمرٍو وعبد الكعبة وعبد العُزَّىٰ وعبد الحَسَن

---

(١) (ص١٥٤/ دار الكتب العلمية).

(٢) (١/ ٣٠٨/ دار الفاروق الحديثة).

وعبد الحُسين وعبد النَّبي وعبد جَده وعبد السيِّد، ويُريدون بالسيد من يُسمُّونه الولي الصالح، وسيأتي كلام -إن شاء الله- عن هذا قريبًا، **فهذا حرامٌ بالإجمَاع**.

وأما قَولُه: **(حَاشَا عَبدَ المُطَّلِبِ)** فهل مَعنَاه أنهم أجمعُوا علىٰ جواز عبد المطلب، أو معناه (حاشا عبد المطلب) فإنهم لم يُجمعوا علىٰ تحريمه؟

الجَواب: يَحتمل أنه أراد أنهم أجمعوا علىٰ جوازه، ويحتمل أنه أراد لم يجمعوا علىٰ تَحريمه، لكن المُراد الثاني، وهو أنهم لم يُجمِعُوا علىٰ تحريمه، وإنما اختَلَفُوا فيه.

إذن العلماء قد أجمَعُوا من قبل زَمَن ابن حزم علىٰ تَحريم كُل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو وعبد السيد وعبد النبي.

ولا يوجد خارقٌ لهذا الإجمَاع، وإنما وقع الاختلاف في اسم (عبد المُطلب) فقط، فأجَازه أقوام، قالُوا: يَجُوز أن يسمىٰ بعبد المطلب، ومنهم اللجنة الدائمة للبُحوث العلميَّة برئاسَة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **حيث قَالُوا**: «التسمية باسم عبد المُطَّلب لا مَحذُور فيها»[1].

واحتَجَّ المُجَوِّزون بدليلَين:

الدليل الأوَّل: أن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب، أَنَا ابنُ عَبدِالمُطَّلِب**». كما في «الصَّحيحَين»[2].

---

(١) «فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (١١/ ٤٦٥-٤٦٦/ المجموعة الأولىٰ).

(٢) البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**أنَا ابنُ عَبدِ المُطَّلِب**»، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقول إلا حقًّا ولا يقولُ شِركًا.

وأُجيب عن هذا الاستِدلال: بأنه حكايةُ نَسب قديم، وليس تسمية جديدَة، والنسب القديم يُحكَىٰ كما هو ولا يُغيَّر، فالميت لا يُغَير اسمُه، وإنما يغير اسمُ الحَي، فيَجُوز للإنسان أن يَقُول مثلًا: هذا مُحمد بن عبد الرحيم بن عبد الخالق بن عبد النَّبي، هكذا اسمه، جَده كان يسمىٰ عبد النَّبي، ولا يُقال له: أشرَكت، فحكاية النسب جائزَة، والنَّسب يُحكىٰ كما هو، فليس في ذلك حُجة.

كمَا أُجيب: بأنه لو جاز التسمية بعَبد المُطَّلب لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا لجَازَت التسمية بعَبد مَنَاف، وأنتم تُوافِقُوننا علىٰ أنه لا يجوز، وأنه لا يُستَثنىٰ إلا عبد المطلب، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بَنِي عَبدِ مَنَافٍ، لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا**». والحَديث في «الصَّحيحَين»[1].

فنَاداهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسم جَدِّهم، والإجماع مُنعَقد علىٰ تحريم هذا، فكما أنه لم يَجز التسمية بعبد مناف مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله؛ فإنه لا تجوز التسمية بعَبد المطلب، بحُجَّة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله.

والدَّليل الثَّاني: قالوا: إن ابن عَمِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان اسمُه عبد المُطَّلب بن ربيعة، وهو صحَابي، ولم يُغَيِّره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد رأىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكَلَّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورَوَىٰ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).

وأُجيب عن هذا: بأن اسمه (المُطلب) وليس (عبد المطلب)، ولكن لشُهرَة اسم عبد المُطلب علىٰ الألسنة سَمَّاه بعض العُلماء عبد المطلب، وإلا فاسمه المطلب.

قال ابنُ حجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن عبد البَرِّ: كان علىٰ عهد رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يُغيِّر اسمه فيما علمتُ.

قلتُ: وفيما قاله نظر، فإن الزُّبَير بن بكار أعلمُ من غيره بنسب قريش وأحوالهم، ولم يَذكُر أن اسمَه إلا (المُطلب).

وقد ذكر العسكريُّ أنَّ أهلَ النسب إنما يُسَمونه المطلب.

وأما أهلُ الحديث؛ فمنهم من يقول (المُطلب)، ومنهم من يقول (عبد المُطَّلب)»[1].

فتبَيَّن بهذا أن اسمَه كان (المُطلب) وليس (عَبد المُطَّلب)، هكذا اتفق عليه أهلُ الأنساب، وهم أولىٰ في هذا البَاب.

وذِكرُ بعض علماء الحديث له باسم عبد المطلب، غَلبة اسم لشُهرته؛ لأن اسم عبد المُطلب أشهر من اسم المُطلب فسَمَّوه كذلك.

وبهَذا يتبَيَّن أنه لا حُجة للمجيزين.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذا حَرام؛ لعُموم النصوص، فيَحرُم أن يسمَّىٰ بعبد المطلب، وأما ما ذكره بعض المتأخرين في زماننا وأصدَرُوا فيه

---

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٣١٧/ دار الكتب العلمية).

فتوىٰ من جَواز التسمية بعبد النبي وعبد السيد ونحو ذلك، **واحتجُّوا بثلاثة أدلَّة، منها الدليلان السَّابقان، ودليل ثالث، هو:**

أنهم قَالُوا: إن العبدَ يختلف معناه، فقد تكون العبُودية بمعنىٰ: الخِدمة والرعَاية، وغير ذلك.

وهذا غير العبودية الشرعيَّة؛ لأن العبودية الشرعية هي الذُّل والخضُوع مع المَحبَّة والتعظيم، وهذه ليست مُرَادة.

ويُجَاب عن هذا: بأن الذي يَنقدح في الذِّهن عند سمَاع التَّعبيد هو العبُودية الشرعية، فإذا سَمع إنسَانٌ: عبد النبي، فالذي ينقدح في ذهنه العبودية الشَّرعية، فذاك احتمال ضعيفٌ لا تُعلَّق به الأحكام، ويَعظُم التحريم في التعبيد لغير الله إذا كان المُعبَّد له ممَّا يعبده بعض الناس مثل (النَّبي)، و(الولي).

فالنبيُّ ﷺ جاء بالتوحيد وحَاربَ الشِّرك؛ لكن دخل الشيطان علىٰ بعض المُسلمين فعبَدُوا النبي ﷺ، وعَبدوا الوليَّ!

وهذا يكونُ أشد حُرمة؛ لأنه ذريعة للعبَادة، واعتقاد عبادة هذا المَخلُوق، وذاك شركٌ أكبَر.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَة قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَملَت، فأتَاهُمَا إبلِيسُ، فَقَالَ: إنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيعُنَّنِي أَو لأَجعَلَنَّ لَهُ قَرني أيِّلٍ فَيَخرُجُ من بطنِكِ فَيَشُقُّهُ، وَلأفعَلَنَّ، ولأفعَلَنَّ -يُخَوِّفُهُمَا-؛ سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيتًا، ثُمَّ حَمَلَت فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثلَ قَولِهِ، فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيتًا، ثُمَّ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَذَلِكَ قَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾» **رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.**

الشرح

هذا الأثرُ عَن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا رواهُ ابنُ أبي حَاتِم وغَيرُه[١].

ولا أعلم له إسنادًا يَصِح، ولكن بعض العُلمَاء قالُوا: إن مجموع الأسانيد يشهَدُ أن له أصلًا، أما لو أُفرِدَت الأسانيدُ فلا شك أن الرواية ضعيفةٌ ولا تَصح.

(وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَة قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَملَت، فأتَاهُمَا إبلِيسُ، فَقَالَ: إنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيعُنَّنِي أَو لأَجعَلَنَّ لَهُ قَرني أيِّلٍ): يعني: لأجعلنَّ له قرنَين مثل الغَزَال، ويَخرُجان من البَطن.

(فَيَخرُجُ من بطنِكِ فَيَشُقُّهُ، وَلأفعَلَنَّ، ولأفعَلَنَّ -يُخَوِّفُهُمَا-؛ سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ): وأنا لا أضُره ولا أفعلُ لهُ شَيئًا.

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٣٤) برقم (٨٦٥٤).

(فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ): كرَاهة طاعَة إبليس.

(فَخَرَجَ مَيتًا، ثُمَّ حَمَلَت فأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثلَ قَولِهِ): مثلما أتاهُما أولًا.

(فَأَبَيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيتًا، ثُمَّ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ): أي: غَلَب حبُّ الولد ورَعَهُما؛ فإنهما لم يكونا يَعلَمان بالتحريم -علىٰ قولِ بعض أهل العلم-، فلم يكن ذلك مُحَرَّمًا عندهما، لكن كانا يتوَرَّعان من طاعة إبليس كراهية لإبليس.

(فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ): وذلك مِن غَير قَصدِ ما أراد إبليس.

(فَذَلِكَ قَولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾**)**.

✻✻✻



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ: عَن قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَم يَكُن فِي عِبَادَتِهِ».

الشرح

(**وَلَهُ**): أي: لابنِ أبي حَاتم[1].

(**بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن قَتَادَةَ**): التَّابعي المُفسِّر المَعرُوف.

(**قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ**): في التَّسميَة.

(**وَلَم يَكُن فِي عِبَادَتِهِ**): أي: أن هذا الشِّرك شِركٌ في الطاعة في التسمية، وليس شركًا في الطاعة في الأحكام، ولا شركًا في العبَادة.

ويحتمل أن يكون مُرَاده: أنهما أطاعا إبليس عندما أمرهما وقال: سَمِّياه عبد الحارث، كما يطيعان الله عَزَّوَجَلَّ عندما يأمرهما!، فهذا هو الشِّرك في الطاعة.

ويحتملُ أن يكونَ مُرادُه: أن هذه طاعة لغير الله، والطاعة لله عبادة كما تقَدَّم، ومن لم يُطِع الله لم يَعبُد الله.

أما الطاعَة لغير الله فَليست عبَادَة، وإنمَا مَعصيَة إذا كانت في المَعصيَة، وليست شِركًا.

وطاعةُ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأحكام تقَدَّمت، وفصَّلنا متىٰ تكون شركًا أكبر، ومتىٰ لا تكون شركًا أكبَر.

(١)«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٣٤) برقم (٨٦٥٩).

وأما الطاعة في الألفاظ، فهي ليسَت من الشِّرك، وإنما هي من المَعصيَة في ديننا ومِلَّتنا، إلا إذا اعتقد ما في اللفظ، فإنه يكون بحَسَب ما في اللفظ.

فلو أن جَدَّك قال: سَمِّ ابنَك عبدَ النبي، فسمَّيت ابنك عبد النبي طاعةً لجَدِّك، من غير اعتقاد ما في هذا اللفظ؛ **فهذه معصيَة**.

لكن إن اعتَقَدت أنه عبدٌ للنَّبي، وتُريد أن تربِّيه علىٰ أن يكون عبدًا للنبي؛ **فهذا شِركٌ**.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن مُجَاهِدٍ فِي قَولِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: «أشفقا أَلا يَكُونَ إنسَانًا»، وَذَكَرَ مَعناهُ عَنِ الحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وغَيرِهِمَا.

الشرح

(**وَلَهُ**): أي: لابن أبي حاتم[1].

(**بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن مُجَاهِدٍ**): وهو كمَا قال.

(**فِي قَولِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أشفَقَا أَلا يَكُونَ إنسَانًا**): وقال بعض السَّلف: أشفَقا ألَّا يُولَد حيًّا.

وقال بعضُ السَّلف: أشفقَا ألَّا يُولَد سَليمًا.

والمَقصُودُ أنهمَا خافَا؛ لأنه غَيبٌ بالنسبة لهما، فأطاعَا إبليسَ في التسمية.

(**وَذَكَرَ مَعناهُ عَنِ الحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وغَيرِهِمَا**).

❀❁❁❁❀

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٣٣) برقم (٨٦٤٨)، و(٨٦٥٠)، و(٨٦٥١).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَحرِيمُ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ اللهِ.

وهذا ظاهر، وهو مَحَل إجماع، إلا في عبدِ المُطلب، والرَّاجح أنه حَرَام.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ الآيةِ.

علىٰ ما ورَدَ في الآثار كما تقدَّم.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشِّركَ فِي مُجَرَّدِ تَسمِيَةٍ لَم تُقصَد حَقِيقَتُهَا.

فهو ليس شِركًا مُنافيا للتَّوحيد، ولكنه مُنافٍ للأدب، وهو في مِلَّتنا حرام، ولم نَعلم عن حقيقته في ملة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ البِنتَ السَّوِيَّةَ مِنَ النِّعَمِ.

المَقصُود أن هبةَ الولد السليم ذكرًا كان أو أنثىٰ نعمَة عظيمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تستوجبُ الشكر؛ ومن شكرها ألَّا يُسمَّىٰ الولد بالتعبيد لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ ونص الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا علىٰ البِنت مع أن ظاهر الآثار وإن كان فيها ضعف أنه وَلَد (عبد الحارث)؛ لأن كثيرًا من الجهلة في زَمَنه بل وحتىٰ في زماننا اليوم يَرَون أن الرزقَ بالبنت ليس نعمةً بَل بلوىٰ؛ فإذا رُزق بأنثىٰ ظل وجهه مسودًّا وهو كَظيم، وذلك ليُبطل ما يعتقده بعضُ الناس أن هبة البنت ليست نعمَة بل بَليَّة.

الخَامِسَةُ: ذِكرُ السَّلَفِ الفرقَ بَينَ الشِّركِ فِي الطَّاعَةِ، وَالشِّركِ فِي العِبَادَةِ.

المقصود أن السَّلف كانوا يُفرِّقون بين الشِّرك في الطَّاعة والشِّرك في العبادة،

وليس المُراد هنا الشرك في الطاعة في الأحكام؛ فإن الشرك في الطاعة في الأحكام تقَدَّم وفصَّلناه، وإنما المقصُود الشِّرك في الطاعة في التسمية في الألفاظ دون الأحكام؛ وأن السلف يَرَون أنه غير شِرك العبادة؛ يعني: غير الشِّرك الذي يُنَافي التوحيد.

والأسماءُ في تَعبيدها تَنقَسِم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعبيدها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كعبد الله وعبد الرحمن وعبد السميع وعبد العليم وعبد الرءوف، فهذه أسمَاء حَسَنة مشروعة.

القسم الثاني: التعبيد لغير الله: كعبد النَّبي وعبد الحسن وعبد الحسين، وغير ذلك، وهذه مُحَرَّمة بالإجماع من القُرون الأولىٰ.

والقسم الثالث: ما يَحتَمل في لفظه التَّعبيد لله أو لغيره، مثال ذلك: عبد الولي وعبد السَّيد؛ فالله هو الوَلي؛ فيحتمل أن المراد بالولي هو الله، ويحتمل أن يكون المراد بالولي الذي يُعبَد من دُون الله، وهو الذي تُنذَر له النذور ويُزار قَبرُه، فيكون من باب التَّعبيد لغير الله.

وكذلك عبد السيِّد، فإن الله هو السيد؛ فيحتمل أن يُرادَ به أنه عبد الله الذي هو (السيد)، ويحتمل أن يُراد به من يُعبَد ويدعىٰ من دون الله، وهو الآدمي الذي يقال له: السيد، سواء كان من آل البيتِ أو الأولياء؛ فهذه تحرمُ سَدًّا للذريعة؛ لأن الغالب علىٰ أذهان الناس أن تسبقَ إلىٰ المُحرَّم.

❊❊❊

بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الشرح

وهذا البابُ كالأبواب السَّابقة، يتناول الكلام عن الأدبِ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ.

فليس مراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الباب أن يتكَلَّم عن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وعن توحيد الأسماء والصفات، وإنما مُرادُه أن يُبيِّن ما يتعلق بكمال التوحيد الواجب، وهو الأدبُ مع الله عَزَّوَجَلَّ في الألفاظ من جهة الأسمَاء.

ومِن الأدبِ الواجبِ مع ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ: أن نحترم أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

ومِن احترام أسمَاء الله عَزَّوَجَلَّ: أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أنها حُسنىٰ لا يلحقُها نقصٌ بوَجه من الوجُوه، وأن نُثبتها مع معَانيها علىٰ ما يليق بجلال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وألَّا يُسمىٰ المَخلوق بها، كما تقدم بيانُه.

ومِن احترام أسمَاء الله عَزَّوَجَلَّ: أن نتلقَّاها من النصوص من الكتاب وصَحيح السُّنة، فلا نُدخِل فيها ما لم يَرِد في النصوص.

ومِن احترام أسمَاء الله عَزَّوَجَلَّ: عدم الاشتقاق منها للمخلوقات التي تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، كاشتقاق (العُزَّىٰ) من (العزيز).

وهذان الأخيران همَا مُراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب: ألَّا يدخل في أسماء الله ما ليس منها، وألا يُشتق منها أسماء للمخلوقات التي تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من الأدب الواجب في الألفاظ.

فيَحرُم علىٰ المسلم أن يُدخِل اسمًا في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ لم يثبت في الكتاب ولا في السنة الصحيحة، وأشَرُّ من هذا أن يُسمِّي الله بما لا يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كتسمية النصارىٰ له (أبًا)، فإن هذا من سُوءِ الأدَب، ومن الإلحَاد في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

كما يَحرُم اشتقاق اسم منها للمخلوقات التي تُعبَد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من الإلحادِ في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

قالَ: (بَابُ قَولِ اللهِ تعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾):

يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ﴾ اللام هنا للاستحقاق والوجُود، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُستَحق للأسماء الحُسنىٰ، وأسماؤه الحسنىٰ موجُودة مذكورة في الكتاب والسُّنة.

﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: أي: الكامِلَة التي لا يلحَقُها نقص، ومن كمَالها أنها ليست أعلامًا مُجَردة، وإنما هي أعلام فيها معنىٰ تَدُل علىٰ صفة من صفات ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾: أي: ادعُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمَائه الحُسنىٰ.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ يحتملُ أن يكون من الدعوة وهو التَّسمية؛ كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شَهرُ اللهِ الذِي تَدعُونَهُ المُحَرَّمَ**»[1]. أي: تُسمُّونه المُحَرَّم.

وعلىٰ هذا يكونُ المَعنىٰ: فَسَموه بها كما سمَّىٰ بها نفسه، وكما سمَّاه بها رسولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويحتمل أن تكون من الدعَاء؛ أي: اجعَلُوها في دُعائكم، **والدعَاءُ -كمَا تقدَّم نوعَان**:

- **دعَاء عبَادَة**؛ وهو الثنَاءُ علىٰ رَبنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.
- **ودُعاء مَسأَلة**؛ وهو السُّؤال من ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وكلاهُما عبَادة، وكلاهما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، أن تدعو الله لتسأله؛ هذا عبَادة، والله يحب منك أن تفعل هذا، فمَشرُوع للمؤمن أن يجعل أسماء الله عَزَّوَجَلَّ في دعائه، سَواء كان الدعاء دعاء عبادة وثناء، أو كان دعاء مَسألة.

وقال العُلمَاء: يختار من الأسماء ما يُوافق مسألته؛ فيقول مثلًا: يا جواد يا رزَّاق ارزقني، فيذكُر من الأسماء في دعاء المسألة ما يُناسب سؤالَهُ الذي سيسأله.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾: ﴿وَذَرُواْ﴾: يعني: اتركوهم واترُكوا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

طريقتهم، وهذا أصلٌ عند أهل السنة والجماعة في البُعد عن أهل البدع، وترك مُخَالطتهم، والتباعُد عنهم، والفرار منهم فرارًا عَظيمًا؛ لأن الله قال: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ أي: اتركوا الفاعلين لهذه البدعَة المُلحدِين في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، واترُكوا طريقَهُم فلا تكونُوا معهم، ولا تكونوا من المُلحِدين في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

ويدخلُ في ذلك: تَرك جِدَال المُعرِضين منهم، الذين لا يقبلون الحق، بل هم أهل جدال وكلام، فهؤلاء أيضًا يُترَكون.

فيَكُون المَعنىٰ: وذروا الملحدين وإلحَادَهم، ولا تجادلوا المُعرِضِين منهم؛ فإن جدَالَهُم لا يُؤَدي إلىٰ حَق.

﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: يُلحِدون مَعناها: يميلون عن الحَق والصَّواب في أسمائه بأي صُورة من الصور؛ فإن هذا بدعَةٌ وليس من سَبيل المؤمنين.

وتوعَّدهم الله في آخر الآية بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والجزاء يوم القيامة من جنس العمَل؛ فمن عمل صالحًا وزكَّىٰ نَفسَه كان جزاؤه يوم القيامة صالحًا، ورُفِع بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان العمل سيئًا؛ كان الجزاء من جنس العمل.

ولا شَكَّ أن هؤلاء القوم عملهم سيئ؛ حيثُ يُلحِدون في أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يسلكون طريقَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أسماء الله، فهذا وعيدٌ لهم بالعقاب يوم القيامة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾: «يُشرِكُونَ».

الشرح

ولم أَرَ هذا الأثر عندَ ابن أبي حاتم عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا بعد التفتيش والتدقيق في جميع المَوَاطن؛ وإنما هو عند ابن أبي حَاتم عَن قتَادة بإسنَادٍ صحيح(١)؛ فلعله سَبق نَظَر من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فانتقل من أثر ابن عباس إلىٰ أثَرِ قتادَة، ونَسَبه إلىٰ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

وإنَّما الذي عند ابن أبي حاتم عن ابنِ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾: «التَّكذيب»(٢).

ومعنىٰ قول قتَادة: (﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾: يُشرِكُونَ): أي: أنهم يُشركون غيره في أسمَائه، فيُسَمُّون بها غيره، أو يشتقون منها لغيره من مَعبُوداتهم التي يَعبُدونها من دُون الله عَزَّوَجَلَّ، أو يُشرِكُونه في أسماء تليق بغيره، فيحدثون أسمَاء لم تَرِد في الكتاب ولا في السُّنة، ولا تليقُ بجَلال الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا من الإلحَادِ في أسمائه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٢٣) برقم (٨٥٨٦).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٢٣) برقم (٨٥٨٣).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُ: «سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّىٰ مِنَ العَزِيزِ».

وَعَنِ الأَعمَشِ: «يُدخِلُونَ فِيهَا مَا لَيسَ مِنهَا». انتهىٰ.

الشرح

أي: ذكر ابنُ أبي حاتم[1] أيضًا عَن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُمَا أن إلحَادهم أنهم: (**سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّىٰ مِنَ العَزِيزِ**): وهُم يعبدونها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولكن هذا الأثَر ضَعيفٌ جدًّا عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُمَا؛ فهُو مُسلسَل بالضُّعفاء.

لكن صَحَّ هذا الأثر عن مُجَاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ التابعي الكبير تلميذ ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُمَا[2].

وهذا الذي فعَله المشركون مِن سُوء الأدب مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ: (وَعَنِ الأَعمَشِ: يُدخِلُونَ فِيهَا مَا لَيسَ مِنهَا): وهذا أيضًا رواه ابنُ أبي حاتم[3].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٢٣) برقم (٨٥٨٤)، ولفظه: «الإلحَادُ، المُلحِدِينَ أَن دَعَوا اللاتَ وَالعُزَّىٰ فِي أَسمَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٩٧).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٢٣) برقم (٨٥٨٧).

وقد قالَ الأعمشُ في هذه الرِّواية: «(**يَلحَدون**) بنَصب اليَاء والحَاء؛ أي: بفَتح الياء والحَاء، مِن (اللَّحد)».

والمَعنىٰ: يُدخِلون فيها ما ليس منهَا.

لكن هذا الأثر عن الأعمش ضَعيفٌ جدًّا، وإن كان المَعنىٰ صَحيحًا.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: إِثبَاتُ الأَسمَاءِ.

أي: إثباتُ الأسماء لله عَزَّوَجَلَّ، ومعنىٰ ذلك: أن نثبت لله عَزَّوَجَلَّ أسماء سَمَّىٰ بها نفسه، عَلِمنَا بعضَها؛ حيث أنزلها في كتابه، أو علىٰ لسَان رسُولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو علَّمها أحدًا من خلقه ممن تقدم فيَصِلُنا بطريقٍ صحيح، ومنها ما لم نعلمه؛ كمَا في حَديثِ عَبدِ اللهِ بن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: «... **أَسأَلُكَ بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أَو أَنزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَو عَلَّمتَهُ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، أَوِ استَأثَرتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيبِ عِندَكَ**»[1].

فإنَّا لم نَعلم جميع أسمَاءِ رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنعتقد هذا ونُثبِته، ونثبت الأسماء التي عَلِمناها من الكتاب والسنة، ونثبت معانيها علىٰ ما يَليق بجلال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من القطعيَّات واليقينيَّات في الشَّريعة.

الثَّانِيَةُ: كَونُهَا حُسنَىٰ.

وأسماء ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُسنىٰ؛ أي: قد بَلغَت المُنتَهىٰ في الحُسن؛ فلا أحسَن منها، ولا يتطَرَّق إليها نقصٌ، والله عَزَّوَجَلَّ مُتَّصف بالصفة التي اتَّصف بها علىٰ وجه الكمال بحَيثُ لا يتطرق إليها نقصٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣١٨-الرسالة)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٧٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).

الثَّالِثَةُ: الأَمرُ بِدُعَائِهِ بِهَا.

فالمُسلم يجب عليه أن يُسمِّي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأسماء الثابتة، التي يقرؤها في القُرآن، ويسمَعُها في صحيح سُنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنه مَأمور بأن يجعَلَها في دُعائه؛ فهَذا مَشرُوع، وهو من أعظم وأنفَع أنواع التوسُّل، وأحَب العبَادَات إلىٰ الله أن تجعل أسمَاءَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في دُعَائك.

الرَّابِعَةُ: تَركُ مَن عَارَضَ مِنَ الجَاهِلِينَ المُلحِدِينَ.

تَركُهم بالبُعد عنهم، والبُعد عن طَريقَتِهم، وتَرك مجادلة مَن أعرض منهم، ولجَّ في الضلالة، وأبىٰ أن يَسمع الحَقَّ.

الخَامِسَةُ: تَفسِيرُ الإلحَادِ فِيهَا.

تفسيرُ المُراد بالإلحَاد، وضَابطه العام: المَيل عن الصَّواب فيها، فكل ميل عن الصواب في الأسماء هو إلحَادٌ فيها، والمراد هنا: ما يتعَلَّق باللفظ، وليس ما يتعَلَّق بالمَعَاني.

السَّادِسَةُ: وَعِيدُ مَن أَلحَدَ.

ففي آخرِ الآية: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فهَذا وعيدٌ شديد لمن يُلحِدُ في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

بَابٌ: لاَ يُقَالُ: السَّلاَمُ عَلَىٰ اللهِ.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا مُتعلِّق بالأدب مع ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ.

فإنَّ من الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنه لا يُقَال: السَّلام علىٰ الله.

فلا يَجُوز للمسلم أن يقولَ: السَّلام علىٰ الله، أو: السَّلام علىٰ الله من عباده، أو: السَّلام علىٰ الله من قِبَل عباده، فلا يُسلَّم علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ففِي هذه اللفظة إساءةُ أدبٍ مع الله جَلَّ وَعَلَا في الألفاظ من وجُوه:

الوَجه الأول: أن الله هو (السَّلام)؛ فكيف يُقَال: السلام علىٰ السَّلام، الذي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسيأتي بيانُ هذا -إن شاء الله-.

الوَجهُ الثاني: أنه يُوهِم أن الله عَزَّ وَجَلَّ مُحتَاج إلىٰ دعاء خَلقه له؛ لأن هذا دعاء؛ فعندما تقولُ: السَّلام علىٰ الله، هذا دعاء؛ فهَذا يُوهم أن الله عَزَّ وَجَلَّ محتاج لأن يدعو له خَلقُه، والله هو الغني غنىٰ مطلقًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعبَادُ هم الفقراء.

الوجه الثالث: أنه يوهمُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عُرضَة للشرور، ونُزُول الشرِّ به، ولذلك يُدعَىٰ له بالسلامة من الشرور.

والوَجه الرَّابع: أنه يُوهم أن السلامة تكون له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من عباده، وأن عبادَه يُسلمونه.

وكل هذه الأوهَام باطلةٌ في حق ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه هو الغَني.

وهذه الأوجه قد لا تكونُ قد خَطَرت في بال من قال: السَّلام علىٰ الله مِن عباده؛ لكن الأدب مع الله عظيم، وحق الله عظيم؛ فيُنهَىٰ عن قول ذلك حتىٰ لو لم يخطُر ذلك بقَلب القائل.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي الصَّلَاةِ قُلنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِن عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»**.

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): أي: في الحَديث الصَّحيح في غاية الصحَّة؛ لأنه في «الصحيحين»، وهذا أسلوب يستعمله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذا كان الحديث في «الصحيحين» يَقُول: في الصحيح، ومَقصُوده: في الحديث الصحيح الذي هو في غاية الصحَّة؛ حيث اتفق عليه الشيخَان: البُخَاري ومُسلم[1].

(**عَنِ ابنِ مَسعُودٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي الصَّلَاةِ**): والنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكُن قد علَّم الصحابة التشَهد، فكان الصحابة يَجلسُون مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التشهد الأول والتشهد الأخير، ولا يعرفونَ مَا يَقُولون؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُعَلمهم التشهد، وهم يعلمون أنه لا سكوتَ في الصلاة، وأن كُل جُزءٍ في الصلاة فيه ذكر، فاجتهَدُوا من قِبَل أنفسهم، فكانوا يرون التشهدَ مَحلًّا للتحيَّات، وهذا من فقههم، لكن لم يُصيبُوا نوع التحيَّة، ولذلك قال ابن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (**كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي**

---

(١) البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

الصَّلَاةِ): يعني: إذا جَلَسنا للتشهُّد قبل أن يُعَلمنا النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التحيَّات.

(قُلنَا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ مِن عِبَادِهِ): كانوا يَقُولون ذلك علىٰ سبيل التحية، فاستعملوا السَّلام بمعنىٰ التحية، غير مُنتَبِهين لما يتعَلَّق بهذه الجُملة من أمور تقتضي تركها، وهي الأمور التي بينَّاها فيما تقدم؛ ولذلك لما سَمِعهم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نهاهم عن ذلك، ونقَلَهُم إلىٰ التحية اللائقة، وهي أن يقولوا: التحيات لله...، وهذه التحية من العبد لله عَزَّوَجَلَّ.

(السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ): أي: علىٰ سَبيل التعيين، فكانوا يُعَيِّنون أسماء، فكانوا يقولون: السلام علىٰ جبريل، وميكائيل، وهذان من الملائكة، السلام علىٰ فلان وفلان وفلان، ويُعَينون أسماء ممن يَعرفُونهم، فكانوا يسلمون هكذا.

فعلمهم النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقُولوا: «**السَّلَامُ عَلَيكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَينَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**».

فنحنُ مأمُورون في التشهد بالسَلام علىٰ مُعيَّن واحدٍ لعِظَم مَكانه وحقه، وهو حبيبنا وقرة أعيننا مُحمَّد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فنقول: «**السَّلَامُ عَلَيكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ**».

فنُعَيِّنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم نُسَلم بالعُموم: «**السَّلَامُ عَلَينَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**»، قالَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّكُم إِذَا قُلتُمُوهَا أَصَابَت كُلَّ عَبدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ**». كما في آخرِ حديث ابن مَسعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فهذا الدعاء عَامٌّ يشمَلُك ومن معك في المسجد، وشَمل أيضًا كُلَّ عَبدٍ صالح في أي بلد من أرض الله جَلَّوَعَلَا، وسلَّمتَ كذلك علىٰ كُل عبدٍ صالح في

السمَاء، وكل ذلك بهَذه الجُملة القصيرة التي أرشد إليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ**): فنهاهم أن يَقُولوا هذه المَقُولة، فدل ذلك علىٰ أنَّ هذا حرام لا يَجُوز، ولا يليقُ بالمؤمن؛ لأنه إساءَةُ أدبٍ مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

(**فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**): فالسَّلام من أسماء الله، والله عَزَّ وَجَلَّ مُتَّصفٌ بالسَّلامة الكاملة من كل عيب ونَقص، فله الكَمَال المُطلَق الذي لا يَلحقُه عَيب ولا نَقص، فلربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكمال في ذاته، فذاته كاملة كمَالًا مُطلقًا، والكمال في أسمائه، فأسماؤه كاملةٌ كمالًا مُطلقًا، والكمال في صفاته، فصفاتُه كاملة كمالًا مطلقًا، والكمال في أفعاله، فهي كاملة كمالًا مُطلقًا.

فالله عَزَّ وَجَلَّ هو المتصف بالسلامة الكاملة من كل نقص ومن كل عيب، كما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سالمٌ من أن يكون له مثيلٌ، فلا مثيل لربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يُسَلِّم علىٰ مَن شَاء من عباده، فسَلَّم علىٰ المُرسَلين، وسلَّم علىٰ عباده الذين اصطفَىٰ، وهو الذي يُسَلِّم مَن شاء مِن عبَادِه من الشرور.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ السَّلامِ.

وأنه تحيَّة ودعاء، فلذلك لا يليق أن يكون من العبدِ لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه يتضمن الدعاء، وإنما يكون للمَخلُوق، وقول المخلوق للمَخلُوق: السَّلام عليكم، **لَه مَعَانٍ:**

المَعنىٰ الأول: أي: أُحيِّيكم بالسلام، وهذه تحية المؤمنين.

والمَعنىٰ الثاني: عليكم بركة اسم الله عَزَّوَجَلَّ السَّلام، فيدعو له بالبَرَكة.

والمَعنىٰ الثالث: الدعاء بأن يرزقه الله السلامة.

والمَعنىٰ الرَّابع: إخباره بأنه يَسْلَمُ من آفات المُسَلم وشروره؛ فكأنك تقول: أعِدُك وأخبرك أنه لن يَصِلَك مني أذىٰ، فأنت سالم من شَرِّي، وسَالم من أذَاي.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

فالسلام تحية، ولكنه ليس تحيَّة مُطلَقة، وإنما تحيةٌ تتضَمَّن الدعاء، ولذلك لم يَصلُح في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا لا تَصلُحُ للهِ.

وذلك لأن السلام تحيةٌ تتضمَّن دُعاءً، ولا يليقُ بالمَخلُوق أن يدعو لله، كيف يَدعُو لله، والله هو الغَني الغِنىٰ المُطلَق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

الرَّابِعَةُ: العِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

وهي التي ذكرَهَا النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قَوله: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**»، فكيف يقال: السَّلام علىٰ السَّلام؟!

الخَامِسَةُ: تَعلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصلُحُ للهِ.

وهذا من حُسن تَعليم النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإنه لمَّا نهَاهُم، علَّمَهم ما يقولون، فعلَّمهم التحيَّات التي نَقُولُها في كُل صَلاة.

❀❀❀

بَابُ: قَولِ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا في الأدبِ الواجب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الألفاظ.

فمِن سُوءِ الأدب الذي يُنافي كمالَ التوحيد الواجب: أن يُعلِّقَ العبدُ دعاءه بالمشيئة، فيقول: اللهمَّ اغفِر لي إن شئتَ، غفَر الله لك إن شاء الله، شفاك الله إن شاء الله، اللهم ارزُقني إن شئتَ، فهَذا فيه سُوءُ أدب مع ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من وجُوه:

الأول: أنه يُوهِم أن الله قد يُكرَه علىٰ الإجابة، فكَأنَّ العبد يقول: اللهم أعطِني إن شئت، وإلا فأنا لا أُكرِهُك، وهذا لا يَجُوز.

والثَّاني: أنه يُوهم أن الله قد يتعاظَمُ بعضَ المسَائل فلا يشاءُ أن يُعطِيَها.

ورَبنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَالكُ المُلكِ لا يتعَاظمُ المسألة، فلو اجتمع البشَرُ كُلهم وسألوا الله عَزَّوَجَلَّ جميعَ ما في نفوسهم ما تعاظم الله سُؤلَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو أعطاهم جميعًا سُؤلَهُم في لحظة واحدة ما نقصَ ذَلك من مُلكِه شيئًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كمَا قالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا في الحَديثِ القُدسِي: «**يَا عِبَادِي، لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعطَيتُ كُلَّ إِنسَانٍ مَسأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِندِي إِلَّا كَمَا يَنقُصُ المِخيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فقَول العبدِ: اللهم ارزُقني إن شِئتَ، اغفِر لي إن شئتَ؛ يوهمُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يتعاظمُ هذه المَسألة.

والثَّالث: أن العبدَ إذا قال: إن شئتَ؛ فكأنَّه مُستَغنٍ، إن شئتَ فأعطني، وإن شئت فلا تُعطِني، فالأمر سواء، وهذا يقعُ من المخلوق للمخلوق، فتقولُ له: إن شئتَ أعطني الكتابَ -يعني: أن الأمرَ ليس مهمًّا عندي- لكن إن شئتَ أن تعطيني الكتاب فأعطِني، وإن شئت ألَّا تُعطِيَني الكتاب فالأمر سيَّان عندي!

فيُشعِر بأن العبدَ مُستغنٍ عن فَضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والأمر عنده سَواء أُعطِيَ أو لم يُعطَ، وفي هذا سُوءُ أدبٍ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والرَّابع: أن قائل ذلك كأنه مُتَردِّد في إجابة الله الدعاء، ولو كان جازمًا ومُوقنًا أن الله جَلَّ وَعَلَا يُجيب دعوة الداعي إذا دعَاه ما علَّقه بالمشيئة؛ فلمَّا علَّق بالمشيئة أشعرَ هذا بأنه مُتَردِّد؛ وهذا يُنافي اليقينَ في الدعاء الذي يجب أن يكون من العبدِ.

وهذه الأوجه التي ذُكِرت قد لا تَردُ في ذِهن الداعي الذي يقول: اللهم اغفِر لي إن شئتَ، ومع ذلك فهذا حَرَام؛ لأنه -كمَا تقَدَّم- الأدب مع الله عظيم، ومقَام ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جليل، فالله ذو الجَلال والإكرام؛ فيَنبغي علىٰ العبد أن يتخير ألفاظَهُ، وأن ينتقيَ ألفاظه.

فيَحرُم -لِمَا ذَكرناه- أن يَقُول العَبد: اللهُم اغفِر لي إن شئتَ، وهذا للتَّمثيل، وإلا فهو في كل دعاءٍ وأمرٍ ظَهَر خَيرُه.

فقول الدَّاعي: اللهُمَّ اغفر لي، المغفره ليس فيها إلا خير، وقوله: اللهم ارزقني، الرزق العام ليس فيه إلا خَير من حيثُ هو، فهذا لا يُعلَّق بالمشيئة.

وأمَّا ما لم يَظهَر خَيرُه ويُحِبه العبد ولا يَدرِي هل له فيه خير أو ليس له فيه خير، فهذا لا بأسَ أن يُعَلَّقَ بالمَشيئة.

مثالُ ذلك: أن يقول الشاب غير المُتزَوج: اللهمَّ ارزُقنِي فُلانةَ زوجَة إن شئتَ، أو: إن علمتَ أن لي فيها خيرًا؛ لأنه يُحب أن تكون فلانة زوجة له، ولكنه لا يَدري أهي خير أم شَر؟؛ فيُمكن إذا دخلت البيت تكون شُؤمًا علىٰ بيته؛ بلسَانها، أو بأفعَالهَا.

ومِن ذلك أن يقولَ المُسلم: اللهم أحيني ما عَلِمتَ الحياة خيرًا لي، وتوفَّني ما علمت الوفاةَ خيرًا لي؛ فعَلَّقها باختيار الله عَزَّوَجَلَّ وعِلمِه؛ لأنه لا يَدري ربما بقاؤه علىٰ وجه الأرض يُسَبِّب له فتنة.

وكذلك في دعاء الاستخَارة؛ فإنه يُعلِّقه بعِلمِ الله عَزَّوَجَلَّ فهَذا لا مانِعَ منه.

أما ما ظهر خيرُه وليس إلا خَيرًا في الظاهر؛ فإنه لا يُعلَّق بالمشيئة، ولا يَجوزُ أن يعَلَّق بالمَشيئة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمنِي إِن شِئتَ، لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا مُكرِهَ لَهُ».

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): أي: في الحديث الصحيح الذي بلغ الغَايةَ في الصحَّة؛ حيث رواهُ الشيخَان: البُخاريُّ ومسلمٌ[1].

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ**): وهذا نَهي.

(**اللَّهُمَّ اغفِر لِي إِن شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمنِي إِن شِئتَ**): وفي رواية عندَ البخاري[2]: «**ارزُقنِي إِن شِئتَ**».

(**لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ**): أي: ليَجزِم في الطَّلب، ولا يستَثنِ، ولا يُعلق بالمَشيئَة.

(**فَإِنَّ اللهَ لَا مُكرِهَ لَهُ**): أي: لا مُستَكرِه لله عَزَّ وَجَلَّ؛ بل الله عَزَّ وَجَلَّ يفعَلُ ما يشَاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**ولِمُسلِمٍ: وليُعَظِّمِ الرَّغبَةَ**): الرَّغبَة معنَاها: الحاجَة التي يُريد.

---

(١) البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) برقم (٧٤٧٧).

فالنبيُّ ﷺ يُعلِّمنا أن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ الحاجة التي نريد مهما عَظُمت، ومَهما بَعُدت ما لم تكن مُحَالًا، فإذا نزَلت بك نازلة وأصبحت مَدينًا بمليون ريال، وأنت عاملٌ تَكسب القَليل، فعندك حاجة أنزِلهَا بالله جَلَّ وَعَلَا، وقل: يا ربِّ، ارزقني هذا المليون أُسدد به دُيونَ الناس، ولا تتَعاظَم المسألة مَهمَا عَظُمَت، ومهما بَعُدَت في نَظَرك.

وقالَ بَعضُ أهلِ العلم: معنىٰ (ليُعظِم الرَّغبَة): ليظهر الذُّل والانكسار والحاجة والاضطرار بين يَدَي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليَدعُ دعاءَ المُحتاج المُضطَر لا المُستغني، والمُضطر تَجده مستحضرًا قلبَه، خاشِعًا ذَليلًا، وليُلِحَّ في الدعاء.

ولا مانع من المَعنيَين، فكلاهما صَحيح؛ فيَسأل الله حاجَته مهما بلغت ومهما كَبرَت أو عَظُمت في عينه، ويُلح في السؤال، وينكسر انكسَار المضطر بين يَدَي الله عَزَّوَجَلَّ.

(فإنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُهُ شَيءٌ أعطَاهُ): أي: لا يَكبر عليه شيء، ولا يَعسُر عليه شيء مُطلقًا، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يتعاظَمُه شيء؛ فلا تحتاج أن تقول: ارزقني إن شئت؛ فإن اللهَ إن شاء غيَّر حالَك في لَيلة من الفقر الشديد المُدقِع إلىٰ الثَّراء الكبير، والله يفعلُ ما يشاء ولا مُكرِه له، ولا يَعجزُ عن شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهنا بيَّن النبيُّ ﷺ عِلَّتَين للنَّهي:

الأولىٰ: «أنَّ اللهَ لَا مُكرِهَ لَه»: وهو أن العبد عندما يقول: اللهم ارزقني إن شئتَ؛ كأنه يقول: إن شئت أن ترزقني فارزقني وإلا فأنا لا أُكرِهُك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا مُكرِه له.

والثانية: «أنَّ اللهَ لَا يتعَاظَمُه شَيءٌ أعطَاهُ»: فَهُو الجوادُ الكريم الذي مهما أعطىٰ لا يُنقِصُ ذلك من مُلكِه شيئًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَنِ الاستِثنَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

وهو التعليقُ بالمَشيئة بقول: إن شِئتَ؛ فهذا منهي عنه علىٰ ما تقدم بيانُه.

الثَّانِيَةُ: بَيَانُ العِلَّةِ فِي ذَلِكَ.

وأنهما علَّتان علىٰ حسَب ما ورَدَ في السُّنة:

- أن الله لا مُكرِه له.

- وأن الله لا يتعَاظَمُه شيء أعطاه.

وتقدَّمَ بيانُ الأوجه الأخرىٰ التي تُبيِّن أن في هذا القول إساءةَ أدبٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ.

الثَّالِثَةُ: قَولُهُ: «لِيَعزِمِ المَسأَلَةَ».

ومعناهَا: ليَجزِم في الطَّلب، ولا يستثنِ ولا يتَرَدَّد.

الرَّابِعَةُ: إِعظَامُ الرَّغبَةِ.

وذلك بكَثرَة الإلحاح والانكسار بين يَدَي الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسُؤَال الحاجةِ مَهمَا عَظُمَت.

الخَامِسَةُ: التَّعلِيلُ لِهَذَا الأَمرِ.

يعني: تعليل إعظَام الرَّغبَة، وهو أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يتعَاظَمُه شَيءٌ أعطاه.

بَابٌ: لا يَقُولُ: عَبدِي وَأَمَتِي.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا كالأبوابِ المُتقدِّمة؛ في بيان الأدبِ مع اللهعَزَّوَجَلَّ في الألفاظ، وأن الأدبَ مع الله عَزَّوَجَلَّ في الألفَاظ من كمَال التوحيدِ، وأنه يجبُ علىٰ المؤمنِ المُوحِّد أن يحترزَ من الألفَاظ التي فيها سوءُ أدبٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن تلكَ الألفاظ: إطلاق كلمة (الرَّب) علىٰ المَخلُوق؛ فإن كلمة (الرَّب) وإن كانت كلمة مشتركة تُطلَق علىٰ الخالق وتُطلَق علىٰ المَخلوق، كما في قولهم: رب الدار، ورَب الدابة؛ فإنها في الغالب السابق إلىٰ الذِّهن إنما هي للخَالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما أن حقيقة الربُوبية إنما هي لله عَزَّوَجَلَّ؛ فمن سُوءِ الأدب أن تُطلَق كلمة (الرَّب) علىٰ المَخلُوق، وسيأتي تفصيل الأقسام في هذا -إن شَاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

وكذلك مِن سُوء الأدب في الألفاظ مع الله عَزَّوَجَلَّ: إطلاق كلمة (العَبد) مضَافَة إلىٰ ياء المُتكَلِّم، كأن يقول المالك: عَبدِي وأَمَتي، ففي هذا الإطلاق سُوء أدب ظاهر مع ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فإن العبُوديَّة إنما هي للهعَزَّوَجَلَّ، وفي إطلاق هذه الكلمة مضَافَة إلىٰ ياء المتكلم مُزَاحمة للعبودية للهعَزَّوَجَلَّ؛ فكان إطلاقُهَا من سُوءِ الأدب ويُنَافي كمَال التوحيد الواجِب.

ومن هنا ذكر الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الباب وعقَدَه في «كتَاب التَّوحيد».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «لَا يَقُل أَحَدُكُم: أَطعِم رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ، وَليَقُل: سَيِّدِي وَمَولَايَ، وَلَا يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتِي، وَليَقُل: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».**

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): أي: في الحَديث الصَّحيح الذي بلغ الغَايةَ في الصحَّة؛ فقد رواه الشيخَان: البُخاريُّ ومسلمٌ[١].

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: لَا يَقُل أَحَدُكُم: أَطعِم رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ**): وفي «الصَّحِيحَين»: «**وَاسقِ رَبَّك**»، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يَذكُرها هنا، فلعَله اختصر الحَديثَ.

(**لَا يَقُل أَحَدُكُم: أَطعِم رَبَّكَ، وَضِّئ رَبَّكَ**): والمُراد: أطعِم سَيِّدك المَالك لك، ووَضِّئ سَيِّدك المَالِك لك؛ واسقِ سيدكَ المَالك لك، فهو خطابٌ من غير السيِّد للعَبد. فهذا شَخصٌ يقول لعبدٍ: أطعِم ربَّك، وضِّئ ربَّك، اسقِ ربَّك.

ويَجُوز أن يكون الخطاب هنا من السيد لعبده علىٰ سبيل التعاظُم والتكبُّر والتفاخُر؛ فيَقول السيد لعَبده: أطعِم ربَّك؛ تعاظُمًا وتفَاخرًا، وذلك بدلًا من أن يقولَ: أطعِمني. وقد نهَىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا.

---

(١) البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

زاد مُسلِم هنا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا يَقُل أَحَدُكُم: رَبِّي**».

إذن فهذا نَهي للسَّيد وغير السَّيد أن يقول للعَبد: أطعم رَبَّك؛ ونُهي العبد أن يقول عن سَيده: رَبِّي؛ فجاء النهيُ للجَانِبَين.

(**وَليَقُل: سَيِّدِي وَمَولَايَ، وَلَا يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتِي**): يَعني: لا يَقُل السيد: عَبدِي وأمَتي.

(**وَليَقُل: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**): وفي رِوَايَة عند مُسلم[1]: قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: عَبدِي؛ فَكُلُّكُم عَبِيدُ اللهِ، وَلَكِن لِيَقُل: فَتَايَ، وَلَا يَقُل العَبدُ: رَبِّي، وَلَكِن لِيَقُل: سَيِّدِي**».

وفي رِوَاية عندَ مُسلم[2]: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتِي؛ كُلُّكُم عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُم إِمَاءُ اللهِ**».

فمُحَصل هذه الرِّوايَات: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهىٰ السيدَ أو غَيرَه أن يقول للعبد: أطعِم رَبَّك، أو افعل كذا لرَبك، ونهىٰ العبدَ أن يقول عن سيده: رَبي.

كمَا نهىٰ السيدَ عن أن يقول عن مَملوكه أو مملوكته: عَبدي أو أَمَتي؛ لأن الكل عَبيدُ الله، وكل النساءِ إماءُ الله، فليس من الأدب أن يُضيفَ الإنسانُ العبدَ إليه فيقول: عَبدي أو أمَتي.

وفي هَذا الحديثِ عِدةُ مسَائِل:

المَسألة الأولىٰ: إطلاقُ كلمَة (الرَّب) علىٰ المَخلوق.

---

(١) برقم (٢٢٤٩).

(٢) برقم (٢٢٤٩).

وهذه المَسألَةُ علىٰ أقسَام:

القسم الأول: إطلاق كلمة الرَّب مُحلَّاة بـ (أل) علىٰ المخلوق، فيقول عن المخلوق: (هذا الرَّب)، أو مُضافة إلىٰ ما لا يكون للمخلوق، كأن يَقُول: (هذا ربُّ العالَمِين).

فهذا حرامٌ قَطعًا، ولا يجُوز، فالرب شرعًا لا يُطلَق إلا علىٰ الله، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**». رواه مُسلم[1].

فإضافَةُ كلمة (رَب) إلىٰ ما لا يَكُون للمخلوق اعتدَاءٌ مُحَرَّم لا يَجُوز.

القسم الثاني: إطلاقُهَا حيث تنتفي المُضَاهاة، وينتفي الاشتراك بين الخالق والمخلوق؛ فلا يتوهم الاشتراكُ مُطلقًا، وهذا جائز.

ومنه قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «**أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**». رواهُ مُسلمٍ[2].

فإن التأنيث في كلمة (رَبتهَا) هنا ينفي الاشتراك، فلا يتوهم الاشتراك هنا؛ فجاز.

ومنه قول الناس اليَوم عن المَرأة: رَبَّة بَيت، وهذا جائز؛ لأن التأنيث ينفي الاشتراك.

ومنه -فيمَا يظهَرُ لي والله أعلَم-: اللفظُ الآخر للحَديث الذي ذَكرنَاه؛ حيثُ قال

(١) برقم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا**». كما عند البُخاري ومُسلِم[١].

فهنَا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (رَبهَا) وهذا ليس تأنيثًا؛ لكن في السياقِ يَنتَفي الاشتراك في حق المَخلُوق؛ لأن الربَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يَلِد ولم يُولد، ولا يُتوهم الاشتراك مطلقًا، ويُعلم أن هذا في حَق المَخلُوق، فهذا جَائز.

القسم الثَّالث: إضافة كلمة (الرَّب) إلىٰ ما لا يقعُ عليه التَّكليف كقَولِهم: رَب الدار، ورب الدابة؛ فهذا جائز عند أكثر أهل العلم ولا محظور فيه.

ومنه قولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اللقَطَة: «**فَإِن جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيهِ**»[٢]. فاللقطة من مالٍ وغيره لا يقع عليها التكليف ولا تكون مُكَلفة.

وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضَالَّة الإبل: «**مَعَهَا حِذَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا حَتَّىٰ يَلقَاهَا رَبُّهَا**». مُتَّفق عَليه[٣].

فهنا الإبل لا يقع عليها التَّكليف؛ ولذلك أضافَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمة (الرَّب) لها؛ فهذا جائز.

وذهبَ بعضُ أهل العلم إلىٰ كرَاهيَة ذلك أيضًا، فقالُوا: إنه مكروه؛ لأنها - وإن كانَت لا تُكَلَّف- لكنها تعبُدُ الله، وتُسَبح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا نَدرِي كيف تُسبح.

---

(١) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٩١)، ومسلم (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البخاري (٢٤٣٦)، ومسلم (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد الجُهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكن قول الأكثَرين أصوَب؛ لورُود هذه الإضافة في الأحاديث؛ ولأنها لا يقعُ عليها التكليف وإن كانت تَعبُد الله جَلَّوَعَلَا.

القسم الرابع: إضافة كلمة (الرَّب) إلىٰ مَن يقع عليه التكليف؛ كأن يَقُول العبدُ لسَيِّده: رَبِّي، ويُقَال للعبد: هذا رَبُّك. **فهَذا قد اختَلف فيه العُلَماء**:

فذَهَب جماعةٌ من أهل العِلم إلىٰ أنه مكروهٌ كرَاهةَ تنزيه.

ففي حديث الباب جاء نهي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والنهي للتحريم؛ ولكنه مَصرُوف إلىٰ الكراهة لِمَا تقدم من الأحَاديث، كقَولِ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا**». وغَيره.

وكذلك بقَولِ يُوسفَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].
وبقوله عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف:٢٣].

قالوا :فهذا صَرف النَّهي من التحريم إلىٰ الكَرَاهة.

وذَهبَ بعضُ أهلِ العلم إلىٰ تحريمِ هذا الإطلاق، وأنه مُحَرَّم، لحديث الباب، قالوا: والنَّهي يدل علىٰ التحريم؛ ولأن فيه إساءةَ أدبٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا الاستدلالُ بالأحاديث التي ذكرنَاها؛ فقالوا: هي خارجةٌ عن مَحَل النِّزاع، وهي في الأقسام الأولىٰ.

وأما قَولُ يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فهو مِن شَرع مَن قَبلنا، وشَرعُ مَن قبلنا إذا جاء في شَرعِنا ما يُخالِفُه ليس شرعًا لنا، وقد نهانا نَبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن هذا الإطلاق.

فتبيَّن بهذا أن الرَّاجح -والله أعلم-: أنه يحرُم أن تُضَاف كلمة (الرَّب) إلىٰ مَن يقع عليه التكليف مع وجُود الاشتراك.

وإذا عرفَ طالبُ العِلم هذه الأقسام سهلت عليه المَسألة، فإن كلامَ أهل العلم مُنتَشر في المَسألة -حتىٰ في شروح «كتَاب التوحيد»-، فإذا ضَبَطَ هذه الأقسام سَهُل عليه أن يَرُد قول كل عَالِم إلىٰ قِسمٍ من هذه الأقسام.

المَسألة الثانية: إطلاق كلمة (السيِّد) علىٰ المخلوق، وذلك كمَا يُقَال في الخِطَابات، أو المُكَاتبات: إلىٰ السيِّد رئيس مَجلس الإدارة، أو: إلىٰ السيد فلان، وكما يُقَال لكَبير القَوم: سَيدي.

فهنا إذا كان إطلاق كلمة (السيِّد) علىٰ المخلوق بمعنىٰ السيادة المطلقة التي لا حد لهَا؛ فإنه لا يجوز.

وكذلك إطلاق كلمة (السيِّد) علىٰ المخلوق غُلوًّا فيه؛ فإنه لا يَجُوز.

ولذلك لمَّا جاء وَفدُ بني عامِر فقَالُوا للنبي ﷺ: «أَنتَ سَيِّدُنا. فَقَالَ: **السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ». رَواه أحمدُ، وأبو داودَ، وصَحَّحه الألباني[1].

فهنا لمَّا رَأىٰ النبي ﷺ في عبارَتِهم غلوًّا منَعهم من ذلكَ.

وأيضًا من المَمنُوع: إطلاق كَلمة (السيِّد) بمَعنىٰ (المَعبُود) وهذا أشَرُّ الإطلاقات؛ فإن بعضَ الناس يَستعملُ هذا للمَريض، ويُقَال له: اذهَب إلىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٠٧، ١٦٣١١- الرسالة)، وأبو داود (٤٨٠٦)، وصَحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

السيد، أو: اذهب إلىٰ قَبر السيِّد!

فهُنا بمعنىٰ (المَعبُود) فهذا لا شكَّ أنه من الشِّرك باللهِ والعِياذُ بالله.

وأمَّا إطلاق كلمة (السيد) علىٰ المَخلُوق من بابِ التَّلقيب بما يَليق به؛ فهذا جائز عند الأكثر؛ لهذا الحديث الصَّحيح الذي في الباب قال: «**وَليقُل: سَيِّدِي**». فهذا يَدُل علىٰ الجَواز.

ولقولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**». رواه مُسلِم[1].

ولذلك يجُوز في غير الأذكار التوقيفيَّة أن نقول عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سَيدنا)؛ فهو سَيد ولد آدم، ونحن الذين آمنَّا به أخصُّ الناسِ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا حَرجَ أن يقول المُسلم: سَيدُنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن يلحظ قلبَه وألَّا يَكُون ذلك من باب الغُلو؛ فإن إطلاقها من باب الغُلو حَرام، وقد مَنعَه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم بيانه.

وقد قالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا جاء سعدُ بن مُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُم**». مُتَّفق عَليه[2].

وقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحَسَن: «**إِنَّ ابنِي هَذَا سَيِّدٌ**». رواه البُخاري[3].

وأيضًا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «**أَبُو بَكرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعتَقَ سَيِّدَنَا**» رواه

---

(١) برقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) برقم (٣٦٢٩) من حديث أبي بَكرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البُخَاري[١]. ويَقصِد بالثاني: بِلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقَال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي بَكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم البيعَة: «نُبَايعُكَ فَأنتَ سَيِّدُنَا». روَاه البُخَاري[٢].

فدَلَّ ذلك علىٰ جواز إطلاق كلمة (السَّيد) علىٰ المَخلُوق من باب التلقيب بما يَليقُ به من غير خُروج عن ذلك، سواء خُوطب بهذا أو لم يُخَاطب؛ لأن بعض أهل العلم يقول: يُكره أن يخاطب بهذا فيُقال له: سيدي، أو: سيدنا؛ لأن هذا يدعو إلىٰ التعاظُم؛ لكن هذا الحديثَ ينفي هذا، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**وَليَقُل: سَيِّدِي**». وكما جاءَ كذلك عن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فدَلَّ هذا علىٰ الجواز.

لكن يشترط في ذلك أن يكون المُلقَّب بكلمة (السيِّد) أهلًا لها، وإلا لم يَجُز؛ فقد قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُولُوا لِلمُنَافِقِ: سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِن يَكُ سَيِّدًا فَقَد أَسخَطتُم رَبَّكُم عَزَّ وَجَلَّ**»[٣].

وفي لفظٍ: «**لَا تَقُولُوا لِلمُنَافِقِ: سَيِّدُنَا...**». رواه أحمَدُ[٤].

وذهبَ بعضُ أهل العِلم إلىٰ حُرمة ذلك، قالوا: حرام أن يقال في المخلوق

---

(١) برقم (٣٧٥٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) برقم (٣٦٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٧٧) من حديث بُرَيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٤) برقم (٢٢٩٣٩- الرسالة).

(سيدنا) أو (سيِّدي)؛ لأن النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لبَنِي عامِر: «**السَّيِّدُ الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ»[(١)]. فمنع من إطلاق كلمة (السيد) علىٰ المَخلُوق.

قُلنا: إن الجمع بين الأحاديث مُتَعين، والجمع بين الأحاديث علىٰ التَّفصيل الذي ذكرنَاه.

المَسألة الثالثة: إطلاق كلمة (مَولاي) علىٰ المخلوق، كأن يقال: مَولانا المَلك، أو يُخاطب الملك فيقال له: مولاي.

فهذا إذا كان المقصود به الولاية المطلقة بجَميع معانيها؛ فهذا لا يجوز أن يُطلَق علىٰ المخلوق، وإنما المولىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

أمَّا إذا لم يُرد بها هذا، فقد ذهب أكثَرُ أهل العلم إلىٰ جواز إطلاق هذا علىٰ المخلوق؛ لحديث الباب: «**وَليَقُل: سَيِّدِي وَمَولَايَ**»، فهذا نص صحيح صَريح في جواز قَولِ هذه الكلمة للمَخلوق.

وأما حديثُ: «**لَا يَقُل العَبدُ لِسَيِّدِهِ: مَولَاي؛ فَإِنَّ مَولَاكُمُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ». الذي رواه مسلم[(٢)]؛ فإنه شاذٌّ بهذه الزيادة، وقد أشار مُسلِم في صَنِيعه إلىٰ شُذوذه، فلا تكون هذه الزيادة مَحفُوظَة؛ فلا يُمنَع من إطلاق هذه الكلمة علىٰ المَخلُوق، ويمكن أن تُحمل علىٰ ما حَمَلنا عليه كلمة (السيد).

وذهبَ بعضُ أهل العلم إلىٰ كراهة إطلاق هذه الكلمة علىٰ المَخلُوق جَمعًا

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٣٨).

(٢) برقم (٢٢٤٩).

بين الحَديثَين، وذلك بأن نَحملَ النَّهي علىٰ الكراهة، والصارفُ: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَليقُل: سَيِّدِي وَمَولَايَ**»، فجَمعُوا بين الحَديثَين.

وذهب بعضُ أهل العلم إلىٰ حُرمَة هذا؛ لحَديث: «**لَا يَقُل العَبدُ لِسَيِّدِهِ: مَولَاي؛ فَإِنَّ مَولَاكُمُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ».

والأظهَرُ -والله أعلم-: جواز هذا إذا سَلِم من القَصد الفاسِد.

والمَسألة الرابعَة: حُكم قول: (عَبدي وأَمَتي).

ذَهبَ كثير من أهل العلم إلىٰ كراهية ذلك، وأن النهي في الحديث للكراهة.

وذَهب بعضُ أهل العلم أنه إذا كَان علىٰ سبيل التعاظُم والتطاول وإذلالِ العَبد؛ فإنه يكون حرامًا، وإلا كان جائزًا.

والأظهَرُ -والله أعلم-: التفصيل، فإن كان علىٰ سبيل الإضافة إلىٰ ياء المتكلم فهو حَرَام؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتِي**». وهذا نَهي، والأصل في النهي التَّحريم، ولم يأتِ ما يَصلُح أن يكون صارفًا له هنا؛ ولِمَا فيه من سُوءِ الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكُلُّنا عَبيدُ الله.

أمَّا إذا لم يكن من هذا، فإنه جائز؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ**﴾ [النور:٣٢]. فهذا ليس فيه إضافَة إلىٰ ياء المتكلم.

وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيسَ عَلَىٰ المُسلِمِ فِي عَبدِهِ وَلَا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ**». متفقٌ عَليه[1].

---

(١) البخاري (١٤٦٤)، ومسلم (٩٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا لم تَكُن إضافة (العَبد أو الأمَة) إلىٰ ياء المتكلم؛ فإنه لم يُنه عن إطلاقها؛ بل جاء في الشَّرع إطلاقُها علىٰ المخلوق فتَجُوز، أما إذا كانت بيَاء المتكلم فلم يَرد إلا النَّهي، ولا صَارف، فيكون ذلك دالًّا علىٰ حُرمَة هذا القول، فلا يُقال: عَبدِي وأمَتي.

٭٭٭

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَن قَولِ: عَبدِي وَأَمَتِي.

والنهي ظَاهر في الحَديث، والأصلُ في النهي: التَّحريم، إلا إذا وُجِد صارِف، ولم نَجِد صارفًا يَصلُح أن يصرف النهي هنا عن التحريم، فالأظهر -والله أعلم- التحريم.

ويَعظُم التحريم إذا كان بحضُور العبد؛ يعني: لا يجوز أن يقول: فلان عبدي، ولو كان غائبًا، لكن يعظُم التحريم إذا كان بحضُور العَبد، فيقُول: يا عَبدي، أو: أنت عبدي؛ لما فيه من إذلالِ العَبدِ.

الثَّانِيَةُ: لا يَقُولُ العَبدُ: رَبِّي، وَلا يُقَالُ لَهُ: أَطعِم رَبَّكَ.

وذلك للنَّهي الوارد في الحديث، وقد تقدم بيانُ أقسام هذه المسألة.

الثَّالِثَةُ: تَعلِيمُ الأَوَّلِ قَولَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلامِي.

تعليم السيد أن يقول: فتَاي وفتَاتي وغُلامي.

الرَّابِعَةُ: تَعلِيمُ الثَّانِي قَولَ: سَيِّدِي وَمَولايَ.

تعليم العبد أن يقول: سيدي، ومَولاي، وعَمِّي مَثلًا، فيجوز أن يقول لمَالكه: عمي.

الخَامِسَةُ: التَّنبِيهُ لِلمُرَادِ، وَهُوَ تَحقِيقُ التَّوحِيدِ حَتَّىٰ فِي الألفَاظِ.

أن يتنبَّه المؤمنُ إلىٰ هذه المَنزلة العَليَّة؛ وهي حُسنُ الأدب مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

في الألفاظ، وأن هذا من تحقيق التوحيد، ومن كمال التوحيد، أن يتحرز المسلم عن الألفاظ التي فيها سُوء أدب مع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يتخير ألفاظَه، وأن ينتَقِي كلامَه.

❀❀❀

بَابٌ: لا يُرَدُّ مَن سَأَلَ بِاللهِ.

عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ استَعَاذَ بِاللهِ؛ فَأَعِيذُوهُ، وَمَن سَأَلَ بِاللهِ؛ فَأَعطُوهُ، وَمَن دَعَاكُم؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَن صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوا أَنَّكُم قَد كَافَأتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا في الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي هو من كمال التوحيد.

فمِن الأدب مع الله، وإعظَامه، وإجلاله: أن يُعطَىٰ مَن سأل بالله عَزَّ وَجَلَّ، ولهَذا عقد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب.

وحديث ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رواهُ أبو داود، والنَّسائي[1] بسَندٍ صَحيح.

وقد صَحَّحه النَّوويُّ[2]، والألباني.

(عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنِ استَعَاذَ بِاللهِ؛ فَأَعِيذُوهُ): أي: مَن استعاذ بالله من شَرِّكم، أو من شَرِّ غيركم، فقال لك: أعوذ بالله من شَرك!، أو قال: أعوذ بالله من شَر فلان، فسَألكم بهذه الاستعاذة بالله أن

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) «رياض الصالحين» حديث (١٧٢٣-الرسالة).

تَدفَعوا عنه شَرَّكم، أو تَدفَعُوا عنه شَرَّ غَيرِكم.

وهذا من تعظيمِ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا قال لك المُسلم: أعوذ بالله من شَرِّك!، أو أعوذ بالله من أن تَضربَني، أعُوذُ بالله من أن تَرفع أمري إلىٰ المحكمة، فمِن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ أن تُعيذَه، وأن تُحقِّق له مُرَادَه، وأن تدفَع عنه الشَّر.

ومن ذلك: ما جَاء عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ ابنَةَ الجَونِ، لَمَّا أُدخِلَت عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَنَا مِنهَا، قَالَت: أَعُوذُ بِاللهِ مِنكَ، فَقَالَ لَهَا: **لَقَد عُذتِ بِعَظِيمٍ، الحَقِي بِأَهلِكِ**». رواه البُخَاري[1].

وهنا هذه المَرأة لما دنَا منها النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تزوجها، قالت: أعوذُ بالله منك، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظَمُ مَن عظم الله، فطَلَّقها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفارقهَا؛ لأنها عاذَت منه بالله عَزَّوَجَلَّ.

ويشترط في هذا أن يكونَ فيما يَجُوز أن يُدفَع عنه، أمَّا ما لا يجوز أن يُدفع عنه فلا يُعَاذ منه، كما لو قال مثلًا: أعوذ بالله من أن تمنعني من الغيبة!، فإنك لا تُعيذه هنا، بل تَمنعه من الغيبة؛ لأنه لا يجوزُ أن يدفع عنه ذلك.

أو قال السَّارق مثلًا: أعوذ بالله أن تقطعوا يَدي، تُقطع يده، فإن الله لا يُعيذُ عاصيًا.

فيشترط في كونِنا نُعيذه مما استعاذ به، إن استعاذ من شَرِّنا، ندفع شَرَّنا عنه، وإن استعاذ من شَرِّ غيرنا، نُعينه علىٰ دفع الشر عنه، يشترط أن يكون ذلك مما

---

(١) برقم (٥٢٥٤).

يجوز دفعه. أما مَا لا يجوز دَفعُه وهو يرىٰ أنه شَرٌّ عليه فاستعاذ بالله منه، فإنه لا يدفع عنه، كالحَدِّ علىٰ مَن وجب عليه الحدُّ، والحَرام، ونحو ذلك.

(**وَمَن سَأَلَ بِاللهِ؛ فَأَعطُوهُ**): أي: مَن سأل شيئًا بالله، فقال: أسألك بالله أن تُعطِيَني كذا، أو: أسألك بالله أن تفعل كذا، فإن المسئولَ بذلك مأمور أن يُجيب سؤالَه، وأن يُعطِيَه ما طلب؛ تعظيمًا لله؛ لأنه سأل بعظيم.

والسَّائل بالله لا يَخلو من أحوال:

الحَالة الأولىٰ: أن يَسألَ بالله حقًّا واجبًا له، فهذا يَجب أن يُجَاب.

مثال ذلك: قال صاحبُ المال لمَن عليه الدَّين: أسألك بالله أن تَرُد الدَّين!، أو: أسألُك بالله أن تعطيني حقي!

فهذا في الأصل واجبٌ قبل السؤال، ومع السؤال بالله أصبح أوجَب؛ تعظيمًا لله.

وكأن يقول الوالد لابنه: أسألك بالله أن تَبرَّني، أو: أسألُك بالله أن تترُكَ قَطيعَتي!

فهذا واجبٌ، هو واجب في الأصل، ومن أعظم الوَاجبَات، لكن لما سَأل الوالدُ ابنَهُ بِرَّه بالله تأكَّد هذا الواجب، وأصبحَ أوجَب.

الحَالة الثَّانية: أن يسأل بالله ما لا يَجُوز بَذلُه، كأن يسأل حَرامًا، فيقول مثلًا: أسألُكَ بالله أن تُعطيني خمرًا، فهَذا لا يجوز أن يُجَاب، ويأثم السائلُ إثمًا عظيمًا؛ لأنه سألَ بالله حَرَامًا، وهذا أعظمُ مِن أن يسأل الحَرام فقط، فهو آثِم.

الحَالة الثالثة: أن يسأل ما يُؤدِّي إلىٰ الضرر، أو المَشقة الزائدة بالمسئول.

وذلك كمَن يَرىٰ في جَيبه مالًا، فيقول: أسألك بالله أن تُعطِيَني من هذا المال! فيقول: يا أخي هذا قيمَةُ دواء لابني المَريض وليس عندي غيره.

فهذا سأل بما يُؤدي إلىٰ المَشقَّة، فلا يجب أن يُجَاب سؤله، ولا يجب أن يُعطَىٰ.

ودليلُ هذا ظاهر جدًّا، وهو أن الشرع يمنعُ الضررَ والمَشقَّة.

الحَالة الرابعَة: أن يسألَ بالله، ويكون في سؤاله مُتعديًا، كأن يسأل أمرًا عظيمًا.

وذلك كمَن جاء لإنسان يَملك سيارتَين، فقال: أسألك بالله أن تُعطِيَني إحدىٰ السيارتين، والسيارة شيء عظيم!، فسؤالها فيه تَعدٍّ، وهو لم يطلُب أن يُعيرَه السَّيارة، وإنما يُريدُ السيارة!

فهذا تعدٍّ وإضرار بالناسِ في أموَالِهم، فهذا لا يَجبُ أن يُعطَىٰ.

الحَالة الخامِسَة: أن يسأل بالله ما ليس حقًّا له، وكان مباحًا، وليس في سؤاله ضررٌ ولا تعدٍّ، **فهَذا قد اختلَف فيه العلماء**:

فالجُمهور علىٰ أنه يُستَحب أن يعطىٰ، وأن يُجاب سؤله، ولا يَجِب، فإن أعطاه أُجِر، وإن لم يُعطِه لا يأثم.

قالوا: لأن الأصل أن الإنسان له أن يتَصَرَّف في ماله بما شاء، فيُعطي إن شاء، ويَمنع إن شاء من ماله.

وذهب بعض أهل العِلم إلىٰ أنه يَجب أن يُعطَىٰ؛ لهَذا الحديث؛ لأن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**وَمَن سَأَلَ بِاللهِ؛ فَأَعطُوهُ**»، وهذا أمر، والأمر للوجُوب، ولا صارفَ له هنا، ولأن في إعطائه تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم الله وَاجب.

وذلك يكون حيثُ لا ضَرر، ولا مشَقَّة زائدة، ولا تعدٍّ، وإنما هو أمرٌ عادي سهل.

وِمن العُلماء من فَصَّل فقال: إن كان السائلُ سأَلَ بالله معَينًا من الناس، وخصَّه من بين الناس، وكان قادرًا علىٰ أن يُعطِيَه، فإنه يجبُ عليه أن يُعطِيَه.

وذلك إذا جاءك جارك في البَيت مثلًا، وقال: أنا رَبُّ أسرة، ووالله ما عندي قيمةُ العشاء، وأولادي ما تغَدَّوا، فأسألك بالله أن تُعطيني قيمة العشاء!

وهذا الرجلُ ليس متسولًا، هذا من جيرانك، ولا يطلبُ من الناس، لكن خصَّك أنت بالسؤال، وجاء إليك وقَصَدك قصدًا، وأحسن الظنَّ بك، فإنه هنا يجب أن تُعطيَه ما دُمتَ قادرًا، أما إذا كان السائلُ يُكثر السؤال، ويعتاد السؤال، ويسأل كُل أحد لَقِيه، كالمُتَسول الذي يتَسوَّل، فهذا لا يجبُ أن يُعطىٰ، ولو سأل بالله.

فبعضُ الشَّحاذين يأتيك ويَقول: أسألك بالله أن تُعطِيني، فلا يجبُ أن تُعطِيه، فإن رأيتَ أن تُعطيه فأعطِه، وإن رأيت ألَّا تعطيه فلا تُعطه، ولا تَنهَره. فهَذا التفصيل.

وعَلىٰ كل حَال: لا شكَّ أن مَن سأل بالله فقد سأل بعظيم، وأن وَقعَ هذا السؤال في قلب المؤمن يَجب أن يكون عظيمًا، وأن إجابة من سأَلَ بالله شأنها

عظيم، فلا ينبغي للمُسلم تركُ إجابة السائل بالله مع القدرة علىٰ القيود التي ذكرناها.

وقد قال النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**مَلعُونٌ مَن سَأَلَ بِوَجهِ اللهِ، وَمَلعُونٌ مَن سُئِلَ بِوَجهِ اللهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ، مَا لَم يَسأَل هُجرًا**». رواهُ الطبرانيُّ، وحَسَّنه الألبَاني[1].

فهذا وَعيدٌ شَديد لمن سُئِل بوَجه الله فلم يُعطِ.

وقال النبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِشَرِّ النَّاسِ؟ رَجُلٌ يُسأَلُ بِاللهِ وَلَا يُعطِي بِهِ**». رواه الترمذيُّ، والنسَائي، وصحَّحه الألباني[2].

أي: يَقُول له السائل: أسألُك بالله، فيَمنع السائل!

وذلك علىٰ التفصيل الذي ذَكرناه فيما تقدَّم.

وفي ضبط آخر للفظ الحَديث: «**رَجُلٌ يَسأَلُ بِاللهِ وَلَا يُعطِي بِهِ**».

فهو يَجمع بين أمرَين: هو بنفسه إذا سَأل الناس سأَل بالله، وقال: أسألُك بالله، وإذا سألَه أحدٌ بالله لا يُعطيه، فهو يَسأَلُ بالله، ولا يُعطي مَن سألَهُ بالله!

وكلا الضَّبطَين صَحيحٌ.

فإجابةُ السَّائلِ بالله شأنها عظيم، فلا ينبغي للمُسلم إذا سُئل بالله مع قُدرته،

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٧٧) برقم (٩٤٣)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٥٢)، والنسائي (٢٥٦٩) من حديث ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنۡهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

من غير ضَرَر يلحقه، ولا مشقَّة زائدة، أن يمنع السَّائل سُؤله، وألَّا يُعطِيه مراده. وفَهمُ هذا يفيد جدًّا في ضَبط المَسَائل.

(وَمَن دَعَاكُم؛ فَأَجِيبُوهُ): مَن دَعاكم إلىٰ وليمة فأجيبُوه؛ أي: من خَصَّكم بالدعوة إلىٰ الوليمة فأجيبوه، ما لم يوجد مانعٌ يمنع من الإجابة.

أما الدَّعوة العامَّة؛ فلا تجبُ إجابتها، وقد ذهب جمهور العلماء إلىٰ أن الدعوة التي تجب إجابَتُها هي وليمةُ العرس، أما غيرها من الدعوات فتُستَحب إجابتها ولا تَجب.

وذهب الظاهريَّة وبعضُ العلماء إلىٰ وجوب إجابة الوليمة مُطلقًا ما لم يوجَد مانع.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَجِيبُوا الدَّاعِي**». رواه البُخاري في «الأدَب المُفرد»[1]. وهذا أمر، والأمر يَدُل علىٰ الوجوب.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُم إِلَىٰ الوَلِيمَةِ فَليَأْتِهَا**». مُتَّفق عَليه[2].

وأنا أستظهر قَولَ الجُمهور؛ لأن الأصل في الدعوة والوليمة إذا أُطلقت أنه يُراد بها وليمة العُرس؛ ولأن في وجوب إجابة كل دَعوَة مشَقَّة ظاهرة علىٰ الناس، والإسلامُ لم يأت بالمشقَّة الزائدة علىٰ الناس.

(وَمَن صَنَعَ إِلَيكُم مَعرُوفًا؛ فَكَافِئُوهُ): أي: مَن أحسَن إليكُم إحسانًا، بأي

---

(١) برقم (١٥٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٦١٦).

(٢) البخاري (٥١٧٣)، ومسلم (١٤٢٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أنواع الإحسان، فقَابِلُوا إحسانه بإحسَانٍ مِثله.

فمن أهدَىٰ لك هديَّة أهدِ له هَديَّة، ومن سَاعَدك في مُعَاملة سَاعِده أنت في معامَلة، وهكَذا.

(فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونهُ؛ فَادعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوا أَنَّكُم قَد كَافَأْتُمُوهُ): (تَرَوا) بفتح التَّاء، يعني: حتىٰ تعلمُوا أنكُم قد كافَأتموه، فالذي لا يَجد شيئًا ماديًّا يكافيء به، يُكَافئ بالدعَاء.

وفي ضَبط آخر للرواية: «حَتَّىٰ تُرَوا»؛ أي: حتَّىٰ تَظُنوا أنكم قد كافأتموه.

وهذا من حُسن الأخلاق.

وقد أشار بعضُ أهل العلم إلىٰ أن هذا يتعلقُ بكمَال التوحيد، وتصفيَة التوحيدِ، وذلك لأنَّ الإنسان إذا أحسن إليك، وأسدَىٰ إليك معروفًا، فالغالبُ أن قلبَك يتعلَّق به، وهذا التعلُّق قد يُضعِف تَعَلق قلبك بالله، فتُذهبُ هذا التعلُّقَ بأن تكافِئَه علىٰ معروفه.

فمن أهدَاني أهدَيتُه، ومَن سَاعَدني سَاعدتُه، فتَبقىٰ المحبَّةُ في الله، ويَنتَفي التعلقُ الذي يُخشىٰ أن يُضعِفَ تعلُّقَ القلب بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فكانت المُكافأة علىٰ المعروف من باب تهذيبِ التوحيد، وتصفية التوحيد، ولهذا وجهٌ ظَاهر.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: إِعَاذَةُ مَنِ استَعَاذَ بِالله.

الثَّانِيَةُ: إِعطَاءُ مَن سَأَلَ بِالله.

الثَّالِثَةُ: إِجَابَةُ الدَّعوَةِ.

الرَّابِعَةُ: المُكَافَأَةُ عَلَىٰ الصَّنِيعَةِ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَن لَم يَقدِر إِلَّا عَلَيهِ.

السَّادِسَةُ: قَولُهُ: «حَتَّىٰ تَرَوا أَنَّكُم قَد كَافَأتُمُوهُ».

❊ ❊ ❊

بَابٌ: لا يُسأَلُ بِوَجهِ اللهِ إلاَّ الجنَّةَ.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا في الأدَب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فمِن الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ: أن يُعَظِّم العبدُ وجهَ ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ ولذلك لا يسأل بوجه الله أمور الدنيا، وإنما يسأل بوَجه الله الأمور العظام، والمَطالب العالية، كالجنة وما يُقرب إليها.

وأما أمور الدنيا فإنه لتعظيمه لوجه الله عَزَّوَجَلَّ لا يسألها بوجه الله، لا من الله، ولا من عباد الله؛ فلا يقول في دعائه مثلًا: يا رَب، أسألك بوجهك الكريم أن ترزقني زوجة حسنَاء، أو: تَرزُقني سيارة طيبة، وغير ذلك من أمور الدنيا؛ لأنه يُعظِّم الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يسأل المخلوق كذلك أمور الدنيا بوجه الله، فلا يقول لأخيه: أسأُلكَ بوجه الله أن تُعطِيَني الكتاب، أو: أسألك بوجه الله أن تعطيني مالًا، أو نحو ذلك.

وقد تقدم في الباب السَّابق أن المؤمن إذا سُئل بالله أو بوجه الله ينبغي أن يعطي السائل؛ لأنه يُعظم الله، أو يعظم وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فتَحصَّل عندنا من البابَين: أن المؤمن من تعظيمه لوجه الله لا يَسألُ أمور الدنيا بوجه الله، ولا يَرُد من سأله بوجه الله؛ لأنه يُعظِّم وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى .

فمُراد الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ **من إيراد هذا البَاب**: بيان أن من الأدب ومن كمال

التوحيد الواجب ألَّا يسأل العبدُ بوجه الله عَزَّوَجَلَّ إلا المَطالب العِظَام؛ تعظيمًا لوجه رَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يُسأَلُ بِوَجهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةَ» رَواهُ أَبُو دَاوُدَ.**

الشرح

هذا الحديث رواه أبو داود[1]، وسكت عنه، وقد ذكرَ أبو دَاود في «رسالته إلىٰ أهل مكة»[2] أن ما سَكَت عنه فهو صَالحٌ، وضعَّفه الألبَاني.

ولَكِن قال الألبانيُّ في أحَد المَوَاضِع: «ضَعيفُ الإسناد كمَا بيَّنه المنذريُّ وغيره، ولكن النظَرَ الصَّحيح يشهدُ له»[3].

وقال الإمامُ ابنُ باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه ضعفٌ، لكن ينجَبِرُ بالرِّوايات الأخرَىٰ[4].

فهذا الحَديثُ لم يتَّفق العلماءُ علىٰ تضعيفه، والرجُل الذي ضَعَّف بعضُ أهل العلم الحديثَ بسَببه لم يتَّفِق النقادُ علىٰ جَرحِه وتضعيف حديثه؛ بل من العلماء مَن قَبِلَ حَديثه، ومن العلماء مَن رَدَّ حديثه؛ فلا يُعَاب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإيراد مثل هذا الحديث الذي ضعَّفه بعضُ أهل العلم؛ لأن العلماء لم يتفقوا علىٰ تضعيفه، وله عند أهل العلم ما يُقَويه ويشهد له، ومن ذلك ما تقدم

---

(١) برقم (١٦٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٢) (ص٢٧/ دار العربية).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٥١٣) حديث (٢٥٥).

(٤) «شرح كتاب التوحيد» للعلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٢٤٨).

عندنا في الباب السَّابق من قولِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَلعُونٌ مَن سَأَلَ بِوَجهِ اللهِ، وَمَلعُونٌ مَن سُئِلَ بِوَجهِ اللهِ ثُمَّ مَنَعَ سَائِلَهُ، مَا لَم يَسأَل هُجرًا**»[1].

فدل ذلك علىٰ أن السؤال بوَجه الله حَرام، وكَبيرَة من كبَائر الذنوب، لكن يُحمَل هذا علىٰ سُؤال مَطَالب الدنيا.

فمَطالب الإنسان نوعَان:

النوع الأول: المَطالب العَاليَة، كالجنَّة وما قَرَّب إليها؛ كالدِّين والعلم والصلاح، فهذه يجوز أن تُسأل بوجه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ذلك قَولُ الرجُل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنِّي أَسأَلُكَ بِوَجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَينَا؟ قَالَ: بِالإِسلَام...**». رواه النسَائي، وحسَّنه الألباني[2].

فقد سأل هذا الرجُل عن أمرٍ عَظيم، وهو بِم بُعثَ مُحمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وسَأَل النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوَجه الله، ولم يُنكر عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، ولم يَقُل له النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تسأل بوَجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل أجابه فقال: «**بِالإِسلَام**»؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أنه يجوز أن يسأل بوجه الله المَطلب العظيم، وأعظم المَطَالب رضَا الله والجنة، وكل ما قَرَّب إلىٰ رضا الله والجنَّة فَهُو من المَطَالب العظيمة.

والنَّوع الثاني: المَطالب الحقيرة؛ كمطالب الدنيا كُلها، فإن الدنيا مَلعُونة

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي (٢٥٦٨)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

ملعون ما فيها إلا ذِكرَ الله وما والاه وعالمًا ومتعلمًا؛ فأمور الدنيا حقيرة فلا يجوزُ للإنسان أن يطلبها بوجه الله.

وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَلعُونٌ مَن سَأَلَ بِوَجهِ اللهِ**». يُحمَل علىٰ هذا النوع.

(**لَا يُسأَلُ بِوَجهِ اللهِ إلَّا الجَنَّةَ**): وهذا نَفي ومَدلُوله النهي؛ فكأنه لعِظَم حُرمته لا يقع أصلًا، وهو أبلغُ في بيان المقصود.

قال بعض أهل العلم: المَقصُود بالسؤال هو سُؤال المَخلُوقين؛ أي: أنه لا يُسأل المَخلوقُ بوجه الله مطلقًا، فلا يجوزُ لك أن تسأل مخلوقًا بوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، والمَخلُوق لا يملك الجنة، ولذلك لا يُسأل المَخلُوق بوجه الله جَلَّ وَعَلَا.

وقال بعضُ أهل العِلم: المقصود هو سُؤال الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: أنه لا يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بوجهه إلا الجَنَّة وما قَرَّب إليها.

والظَّاهر -والله أعلم-: أن الحُكمَ يَعُمُّ الأمرين، فلا يجوز أن يُسأل المخلوقُ بوجه الله، ولا يجوز أن يُسأل الله بوجهه الكريم إلا الأمور العظيمة؛ كالجنة وما قَرَّب إليها من قول أو عمَل.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَن أَن يُسأَلَ بِوَجهِ اللهِ إِلا غَايَةَ المَطَالِبِ.

وهي الجنة وما يُقَرب إليها، وإن شئت قُل: الفوز يوم القيامة، فكُل ما يُؤَدي إلىٰ الفوز يوم القيامة فهو من المَطالب العالية.

الثَّانِيَةُ: إِثبَاتُ صِفَةِ الوَجهِ.

لربنا وجهٌ كما يَليقُ بجَلاله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وأهل السُّنة والجَماعة يُثبتُون لله وجهًا كما ثبَت في القرآن والسنة؛ كما في قول ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

وكما في حَديث البابِ، وغيره من النصوص في الكتاب والسنة الصحيحة، فكل هذه النصوص تدُل دَلالة بيِّنة علىٰ إثباتِ الوجه لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علىٰ الحقيقة علىٰ الوجه اللائقِ بربِّنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من غير تكييف ولا تَمثيل ولا تَشبيه، وهذه عقيدةُ أهل السُّنة والجَماعة.

❊❊❊

بَابُ: مَا جَاءَ فِي اللَّو.

الشرح

أي: باب ما جاء في قول «لو»، و«لو» حرف امتناع لامتناع، كأن يقول الأب لابنه: لو حفظت الأربعين النووية لكافأتك؛ وكأنه يقول له: أتدري لم امتنعت عن مكافأتك؟؛ لأنك امتنعت عن حفظ الأربعين النووية.

هذا معنىٰ قولهم: حرف امتِناع لامتنَاع.

والألف واللام لا تدخل علىٰ الحُروف، و(لو) حرف، فلماذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (بَاب مَا جَاءَ في اللَّو)؟!

قال بعضُ أهل العلم: «أل» هنا زائدة لتسهيل النطق.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: إن «لو» حرف، والحرف إذا أريد به التسميَة جازَ أن تدخل عليه «أل»، فإذا دخلت عليه «أل» نعلم أنه أريدت به التسميَة.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ كلمة «اللو» هكذا بـ«أل» من بعض ألفاظ الحديث؛ إذ جاء في بعضِ ألفَاظِه: «... **وَإِيَّاكَ وَاللَّو، فَإِنَّ اللَّو، تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ**». رواه بهذه اللفظَة: ابنُ ماجَه، وصحَّحَها الألبَاني[1].

وقد بوَّب البُخاري في «صحيحه» فقَال: «**بَابُ مَا يَجُوزُ مِن اللَّو**». فأدخل (أل) علىٰ (لو).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

فإدخال (أل) علىٰ (لو) ليس مُجانبًا للفصاحة؛ بل جاء في كلام النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكلامُه أفصح كلام البشَر، واستعمله العُلماء.

وكلمة (لو) إذا استعملها المسلمُ في معارضة القدر، وأن هذا المَقدُورَ ما كان ليَقع لو كان كذا؛ فهذا حرام، ونقص في التوحيد، وفيها نوعُ ضعفٍ في الإيمان بالقضاء والقَدر، فإن الشيء بعد وقوعِه يَعلمُ المؤمن بالقضاء والقدر أنه لو اجتمعت جميع الأسباب واجتمع الجن والإنس علىٰ ألَّا يقَعَ ذلك الأمر، فإنه سيقَع؛ لأنه إذا وقع علم المؤمن أن الله قد أراد وقوعَه فأوقعه ولا رادَّ لمَا أراده الله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا كانَ ذلك كذلكَ؛ فإن المسلمَ إذا وقع قدرُ الله فإنه يُسلِّم له، ولا يجزَع، ولا يتسَخَّط، ولا يقول: لو كان كذا لكان كذا.

أما إذا استعمَلَها في غير مُعَارضة القَدر، كمَقام بيَان الأسبَاب النافعة، ومقام تمني الأفضَل، أو الإخبار عن المستقبل؛ فذلك جائز لا حرجَ فيه، ولا يخدشُ التوحيد.

ومن ذلك أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَوِ استَقبَلتُ مِن أَمرِي مَا استَدبَرتُ مَا سُقتُ الهَديَ، وَلَحَلَلتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا**»[1].

قالَ بعضُ أهل العِلم: النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هنا استعمل (لو) ليُخبر أصحابَه

---

(١) تقدم تخريجه.

بالأفضل وهو التمتع.

وقال بعضُ أهل العِلم: بل هذا إخبار عن المستقبل؛ كأن النبي ﷺ يقول: لو حَجَجتُ مرة أخرىٰ لحججتُ متمتعًا، فهنا استعمال «لو» جائز ولا حَرج فيه.

كذلك لو كانَ يتعَلَّق بأمر وقع في المَاضي، لكن لا علىٰ سبيل الاعتراض، وإنما علىٰ سبيل التنبيه علىٰ الأسباب النافعة، فيقول مثلًا: لو أنك تفقَّدتَ سيَّارتك قبل القيادة؛ ما حصل الحادث! فليس مقصودُه مُعَارضة القدر بالسَّبب، وإنما مقصُوده التعليم بالأسباب النافعة، وفعل الأسباب النافعة، فهذا جائزٌ لا حرَجَ فيه.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ الآيَة [آل عمران: ١٥٤].

الشرح

وهذا قولُ المُنافقين، يخبر به ربُّنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

والمَعلُوم أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشار أصحابَه في الخروج إلىٰ أحد، فكان رأي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبقىٰ المُسلمُون داخل المدينة، لكن أشار أكثَرُ أصحابِه إلىٰ الخروج لمُلاقاة المشركين فدخل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولَبِسَ لَأمَتَهُ ودِرعَه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخرَج إليهم، فعندما دخل قالوا: أكرَهنَا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما خرجَ قالوا: يَا رسُولَ الله، لو بَقينَا في المَدينة، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَنبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأمَتَهُ أَن يَضَعَهَا حَتَّىٰ يَحكُمَ اللهُ بَينَهُ وَبَينَ أَعدَائِهِ**».

فخرج ومعه نحو ألف رَجُل، وفي الطَّريق رجع رأسُ المُنَافقين عبدُ الله بن أُبَي بثلثِمِائة رجل مِن المنافقين، وبقي بعضُ المنافقين حياءً، فلما وقع ما وقع، وقُتل مَن قُتل قال أولئك الذين بقوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[1].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ١٧٢) وما بعدها، فَصل: «أحدَاث غَزوَة أُحُد».

يعني: لو سمع كلامنا لأنَّا قلنا: لا نخرج من المدينة؛ لَمَا وقع القتل، فقالوا هذا علىٰ وجه المُعَارضة للشرع والقَدَر، يعني: المُعَارضة للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه خرج بالناس، وفي هذا سُوء أدب مع رَسُول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقالوا هذا أيضًا معارضة للقدر: لو بقينا في المدينة ما قُتِل مَن قُتِل مِنَّا، وما مات من مات، وهذه معارضة للقدر، وفيها سُوء أدب مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فدَلَّ ذلك علىٰ حُرمَة قول (لو) علىٰ وجه المُعَارضة للقدر، وكذلك علىٰ وجه المُعَارضة للشَّرع.

✽✽✽

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ الآيَة [آل عمران:١٦٨].

الشرح

وهذه أيضًا في المُنَافقين في غَزوَة أُحُد.

(﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾): وهؤلاء هم الثلثِمِائَة الذين رجَعُوا ولم يُكمِلُوا الطريق مع رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لمَّا انتهت المَعركَة وقُتل سبعون من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾): هؤلاء المنافقون قالوا لإخوانهم، مَن إخوانُهم؟

أكثرُ أهلِ العلم علىٰ أن (إخوانَهُم) هنا هم الصَّحَابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والسُّؤال: كيف يكونون إخوانًا لهم وهؤلاء منافقون وهؤلاء صحابةُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

قال بعضُ أهل العلم: المراد بالأخوة هنَا: القرابة من النَّسب، فإن بين هؤلاء وبين الصحابَة قرابة في النَّسب؛ فهذا أخوه، وهذا عمُّه، وهذا ابن عمِّه، ونحو ذلك.

وقال بعضهم: هم إخوانُهم في الدين ظاهرًا؛ لأن المنافقين يُظهِرُون الإسلام، فهم إخوان للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الظاهر، وإن لم يكونوا في الباطن من المُسلمين.

وقال بعضهم: قالُوا هذا لإخوانهم الذين بقوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وقد قُلنا: إن بعضَ المنافقين بقوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياءً ولم يرجعوا، فلما رجَعُوا قال لهم هؤلاء المنافقون الذين رجعوا: لو أطاعُونا؛ يعني: لو أطاعَنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة الذين معه ما قُتِلُوا؛ لأنهم سيبقون في المَدينَة ولم يحصل لهم القتل، **فَهُم جمَعُوا بين ثلاث بَلايَا**:

الأولىٰ: أنهم قعَدُوا وتخَلَّفوا ولم يَنصُروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ﴾.

والثانية: الاعتراض علىٰ الشَّرع.

والثالثة: الاعتراضُ علىٰ القَدَر؛ وأنهم لو ما خرجوا ما قُتِلُوا؛ وهذا جهلٌ بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه لو لم يخرجوا لبَرَزَ وظهر الذين كُتب عليهم الموت إلىٰ مضاجعهم، ولن يتخلف الإنسان عن موقع موته؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهذا يعلمه المُؤمن بقضاء الله وقَدَره.

ولذلك لو خَرج ابنُك بسيارة وسافر ووقَعَ حادث في الطريق ومَات، لا تَقُل: لو أني مَنعتُه ما مَات، ولو أني أقفلتُ عليه الغرفة لما مات في قَرية كذا!

فإنك لو فعلت ذلك كان سيذهَب، ولو أغلقتَ عليه الباب فإنه يقينًا سيُوجد سببٌ يخرج به إلىٰ المكان الذي ماتَ فيه ويموت فيه!

وهذا من إيمانِ المُؤمنِ بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، وتَعظيم المُؤمِن لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِي «الصَّحِيحِ» عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «احرِص عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ، وَاستَعِن بِاللهِ وَلَا تَعجَز، وَإِن أَصَابَكَ شَيءٌ فَلَا تَقُل: لَو أَنِّي فَعَلتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِن قُل: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ «لَو» تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ».

الشرح

(**فِي الصَّحِيحِ**): يعني: في الحديث الصحيح؛ لأن هذا الحديث رواه مسلم في «صَحيحه»[1].

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: احرِص**): مِن الفِعل (حَرَص) بكَسر الرَّاء أو فَتحِها.

(**عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ**): أي: ابذل ما تستطيعُ من الأسباب لتحصيل ما يَنفعك في دِينك ودُنياك.

وكمَالُ نَفع الإنسان في اجتماع هَذين:

الأول: أن يكونَ حَريصًا، باذلًا جُهدَه، مُستفرغًا طاقتَه، دافعًا الكسلَ عن نفسِه لتَحصيل ما يُريد.

والثاني: أن يكون حِرصُه فيما يَنفَعُه في دينه أو دُنياه.

---

(١) برقم (٢٦٦٤).

فإذا لم يكن حريصًا فاتَهُ كثير من الخَير، والذي ليس عنده حرص تَفُوته كثير من المنافع وتَغلبُه نفسه، والذي عنده حرص لكن لا يَحرِص علىٰ ما ينفع في الغالب يجلبُ علىٰ نَفسه الضَّرر، أو يجلب لنفسه الضَّرر، فكمالُ أمرِ العبد أن يكون حريصًا علىٰ ما ينفع، فإذا كان الشيء نافعًا كان حريصًا عليه، مُجتهدًا باذلًا ما يستطيعُ في تحقيقه، أما إذا لم يكن نافعًا، فإنه لا يكونُ حَريصًا عليه.

(**وَاستَعِن بِاللهِ**): أي: ابذل السبب في تحصيل ما ينفعك، وفوِّض الأمر إلىٰ الله، واستعن بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا حَولَ ولا قوةَ إلا بالله.

وهذه حال المُؤمن قبل وقوع الأمر بأن يكونَ حريصًا عليه إذا كان نافعًا، ويبذل الأسباب، ولكنه لا يتَّكل علىٰ الأسباب مَهمَا قَوِيَت الأسباب؛ بل يُفَوض أمره إلىٰ الله، ويستعين بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا يغفل عن التوكل علىٰ الله أبدًا، ولا يعتمد عليها، فمع فعل الأسباب يستعين بالله، ويفوض الأمر إلىٰ الله، ويتوكل علىٰ الله موقنا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه حال المؤمن قبل وقوع الأمر، هكذا عَلَّمَنا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهكذا ينبغي أن نكون.

(**وَلَا تَعجَز**): بفتح الجيم أو كَسرِها. أي: لا تتكَاسل عن طلب ما ينفَعُك، وابذل الأسبابَ في حصُولِ ذلك.

وبعضُ الناسِ يَعجَز عن طلب النافع، وقد يحتج بالقَدر ويقول: لو كان مقدورًا لي سيأتيني وأنا في بيتي، وهذا نقصٌ في العقل، وجَهلٌ بالشرع؛ فإنه لا يوجد عاقل يَقول: أنا لا أتزوج وسوف يأتيني ولدٌ إذا كان الله قد كتب لي أولاد، فلماذا أتزوج؟!

لو قال قائلٌ هذا لحَكَم عليه الناس بأنه مَجنُون!

فالمؤمن قبل وقوع الأمر يحرصُ علىٰ ما ينفعه، ويتوكل علىٰ الله، ويستعينُ به، ولا يَعجز ويتكاسَل ويحتَجُّ بالقَدر ويقول: كل شيء مكتوب!، ولو كان هذا مكتوبًا لي سيأتيني وأنا في بيتي!؛ فإن هذا ينافي الشرع ويخالف العقل.

وأما حال المؤمن بعد وقُوع الأمر فقَد بَيَّنه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: (**وَإِن أَصَابَكَ شَيءٌ**): أي: إذا نزل بك ما تَكرهُه، أو وقعت بك مُصيبَة.

(**فَلَا تَقُل: لَو أَنِّي فَعَلتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِن قُل: قَدَرُ اللهِ**): بغير تشديد الدال، وهذا ضبطُ الأكثرين من أهلِ العلم.

يعني: هذا مَقدُور الله عَزَّوَجَلَّ.

وضبطها بعض أهل العلم بتشديد الدال: (**قَدَّرَ اللهُ**)؛ لكن كثيرًا من العلماء رجَّحوا الأول؛ لأنه الذي جاء في أكثر الروايات؛ ولأنه أبلَغُ في المَعنىٰ.

(**وَمَا شَاءَ فَعَلَ**): وهذه تَعني للمُؤمن أنه لا يُمكن ألَّا يقع الأمرُ بعد أن وَقع، فطالما أنه وقع فإننا نَعلَمُ يقينًا أنه لا يمكن أن يتخَلَّف.

(**فَإِنَّ «لَو» تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ**): (لو) تَفتحُ علىٰ المؤمن عملَ الشيطان من جِهَة الاعتراض علىٰ القَدَر، ومن جهَة الجزَع، ومن جهة التسخُّط، وعَدم الصبر، والحُزن فوق الحُزن المُعتَاد.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ الآيَتَينِ فِي آلِ عِمرَانَ.

وكلاهما -كما تقدَّم- في كلام المنافقين في غزوة أُحُد، وفي كلامهم اعتراض علىٰ القَدَر والشرع.

الثَّانِيَةُ: النَّهيُ الصَّرِيحُ عَن قَولِ «لَو» إِذَا أَصَابَكَ شَيءٌ.

وهو ظاهرٌ في نَصِّ الحديث.

الثَّالِثَةُ: تَعلِيلُ المَسأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ.

فهي من أدوات الشَّيطان في باب مُعَارَضة القدر، وتجعلُ الشيطانَ يتلاعبُ بالإنسان، ويَحزن قلبه، ويجعله يتسَخَّط علىٰ ربِّه، ويعترض علىٰ القدر.

الرَّابِعَةُ: الإِرشَادُ إِلَىٰ الكَلامِ الحَسَنِ.

وهذا من حسن التعليم؛ فإذا كان هناك كلامٌ لا يَصلُح أو فعل لا يصلح، وكان يَحل مَحَله كلام يصلح أو حَسَن، أو فِعل حسن؛ فإن من حُسنِ التعليم أن يُنهَىٰ عن القبيح ويُرشَد إلىٰ الحسن.

فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا نَهىٰ عن قبيح الكلام عند نزول المصيبة، وهو قول العبد: «**لَو أَنِّي فَعلتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا**»، وأرشدَ إلىٰ الكلام الحَسَن عند نُزول المصيبة، وهو أن يقول العبد: «**قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**».

فهذه كلماتٌ طَيِّبات من نَفسٍ طيبة تُطيِّب القلب؛ حتىٰ إن المُؤمن لو قالها بيقين تُخَفِّف حُزنه.

وهذا في الحَقيقة مَنهج ينبغي علىٰ مَن يُعلِّم الناس أن يسير عليه، وهو إذا نَهَاهم عن شيء وكان هناك ما يَحُل محله أن يُرشدهم إليه، ويُعلِّمهم ذلك.

الخَامِسَةُ: الأَمرُ بِالحِرصِ عَلَىٰ مَا يَنفَعُ، مَعَ الاستِعَانَةِ بِاللهِ.

وذلك قبل فوَاتِ الأمر أو وقوعِه؛ فإن المسلم يحرصُ ويجتهد ويَبذُل الأسبابَ في تحصيل ما ينفع مع تفويض الأمر إلىٰ الله بعد فِعلِ السَّبب.

السَّادِسَةُ: النَّهيُ عَن ضِدِّ ذَلِكَ وَهُوَ العَجزُ.

ولاسِيَّما في باب الاحتجاج بالقَدَر؛ فإنه يُنهىٰ عن ذلك، وسيأتي -إن شاء الله- بابٌ يتعلق بالقَدَر، وسنُفصِّل فيه هذه المسألة -بحَولِ الله وقُوَّته-.

❊❊❊

بَابُ: النَّهِي عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

الشرح

وهذا البابُ أيضًا في الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ في الألفاظ، وهو من كمَال التوحيد الوَاجب.

فمِن سُوءِ الأدبِ في الألفاظ: سَبُّ الريح؛ لأن الريح مأمورة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ تأتي بالرحمة بأمر الله، وتأتي بالعذاب بأمر الله، فسَبُّها سبٌّ لآمرها في الحقيقة، واعتراض علىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وسَب الريح إن كان سبًّا لها لِمَا وقع فيها من شَر؛ فهذا حَرَام، وسُوء أدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه يلزم من ذلك سَبُّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن هذا لا يَخطُر في قلب السَّابِّ في الغالب؛ ولذلك لا يكون كفرًا، وإنما هو حرام.

أما إذا كان سَبُّهَا لأنها الفاعلة، والمُحدِثة لهذا الشر، والخَالقة والصانعة لهذا الشر؛ فهذا شِركٌ في الربُوبيَّة.

وكذلك إذا كانَ سَبُّها سبًّا لآمرها؛ يعني: أن الذي سبَّها يقصِدُ سَبَّ آمرها؛ فهذا كفر؛ لأنه سَبٌّ لله عَزَّوَجَلَّ، فإن الذي يَأمُرُ الرِّيحَ هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والريحُ آية من آيات الله، وجُند من جُند الله، تَدُل علىٰ عظيم قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلىٰ قُوة ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلىٰ ضَعف الإنسان، وعلىٰ أن الإنسان مُحتَاج إلىٰ ربه، فقير إليه جَلَّوَعَلَا، مَهمَا عَظُمَت قُوَّته، ومهما وُجِدَ عنده

من أسباب القوة؛ فإنه لا يملك أمامَ الريح شيئًا، ألا ترىٰ إلىٰ هذه الريحِ التي تُسمَّىٰ بالأعاصير كيف تضرب البُلدان، وبعض هذه البُلدان قد بلغ في القوة مبلغًا عظيمًا؟!

ومع ذلك إذا جاءهم الإنذارُ بقُرب الإعصار لا يَملكُون شيئًا إلا الانتظار؛ ماذا سيقَعُ فيها، وما الذي ستُحدثه؛ مما يَدُل علىٰ العجز المُطلق أمام هذه الآية الكبرىٰ من آياتِ الله جَلَّ وَعَلَا!؛ ولذا كان تصريفُ الرياح من الآيات العظام لقوم يعقلون، وهذا كله يَزيدُ توحيدَ المُؤمن قوة.

فالشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا البَاب: (**بَاب النَّهي عَن سَبِّ الرِّيحِ**): أي: النهي عن شَتمِها ولَعنِها، أما وَصفُها والإخبار عما وقع بسَببها؛ فذلك ليس حرامًا.

تَقُول: جاءتنا ريحٌ شديدة، أو: جاءتنا ريحٌ مُدمِّرة، دمرت المَبَاني وأهلكت الدواب!

فهذا إخبارٌ عن واقعٍ ووَصف له وليس سبًّا؛ فليس حرامًا، ولكن الحرام المَنهي عنه هو السَّب والشتم واللَّعن.

كأن يقول إنسان: لعَن اللهُ الريح. أو: لعَنَكِ اللهُ من رِيح!

فهذا سَبٌّ حرام لا يَجُوز؛ لأن الريح لا تفعل شيئًا، وإنما هي مَأمُورة.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيتُم مَا تَكرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ مِن خَيرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيرِ مَا فِيهَا، وَخَيرِ مَا أُمِرَت بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَت بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرمِذِيُّ.

الشرح

هذا الحديث رواهُ الترمذيُّ، وأحمَدُ.

وقال الترمذيُّ: «حسن صحيح».

وصحَّحه الألبانيُّ والأرناؤوط[1].

ورواه ابنُ ماجه[2] بلَفظ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِنَّهَا مِن رَوحِ اللهِ تَأتِي بِالرَّحمَةِ وَالعَذَابِ، وَلَكِن سَلُوا اللهَ مِن خَيرِهَا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِن شَرِّهَا**».

(**عَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ**): أي: لا تَشتُمُوها ولا تَلعَنُوها، ولو أصابَكُم بسَببها شيء تكرَهُونه؛ وذلك لأنها مأمورةٌ من ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، وأحمد (٢١١٣٨ - الرسالة)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، وصحَّحه الأرناؤوط في «المسند».

(٢) برقم (٣٧٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وقد جاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا لَعَنَ الرِّيحَ عِندَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا تَلعنهَا، فَإِنَّهَا مَأمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَن لَعَنَ شَيئًا لَيسَ لَهُ بِأَهلٍ رَجَعَتِ اللَّعنَةُ عَلَيهِ**». رَواه أبو دَاودَ، والتِّرمذي، وصَحَّحه الألبَاني [1].

فأفادَ هَذا الحَديثُ أن عِلَّة النَّهي عن سَبِّ الرِّيح أمرَان:

الأمر الأول: أنها مأمُورة؛ فسَبُّها في الحقيقة سَبٌّ لآمِرِها.

والأمر الثاني: أنها لا تستحقُّ اللعن، **والقاعدة الشَّرعية**: أنَّ من لعن شيئًا ليس أهلًا للَّعنِ؛ فإنه يكون قد لَعَن نَفسَه؛ فتَرجعُ اللعنةُ عليه!

ولذلك لا يكون المُؤمن لعَّانًا؛ بل يكون شديدَ الحذر من اللعن.

(فَإِذَا رَأَيتُم مَا تَكرَهُونَ): أي: إذا رأيتُم في الريح ما تكرهون؛ كقُوَّتِها أو شدَّة حرِّها أو شدَّة بَردِها.

وفي هذه الجُملة بيان أن هذا الذِّكر إنما يُشرَع قولُه إذا كانت الريح يُخشىٰ أن يكون فيها شر، أو يكونَ فيهَا ما يُكرَه؛ بأن كانت شديدةً عاصفة، وأمَّا إذا كانت مُعتَادة -وهي الريحُ الخفيفة التي لا ضرر فيها-؛ فإنه لا يُشرَع للإنسان أن يَقُول هذا الذِّكر.

(فَقُولُوا): فَرَتَّب قولَ هذا الذِّكر علىٰ رؤية ما نكرَه؛ فدَلَّ ذلك علىٰ أنه إذا لم يَكُن في الريح مَظنة ما نكره؛ لم يُشرَع لنا أن نقول هذا القَول.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ مِن خَيرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيرِ مَا فِيهَا، وَخَيرِ مَا أُمِرَت بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَت بِهِ»: أي: يا ألله، إنا نسألك من خَير هذه الرِّيح... إلخ.

والمَقصُود: ارجعوا إلىٰ الله وتُوبوا إليه، وعوذوا بالله من شَرِّها، واسألوا الله من خيرها؛ لأنها قد تأتي بالرَّحمة، وقد تأتي بالعَذاب، فالمؤمن إذا رأىٰ اشتدادَ الريح يخَافُ أن يكون قد فعَل ما يُغضبُ الله جَلَّوَعَلَا، وأن هذا عذابٌ مُسَلَّط عليه؛ فيرجع إلىٰ الله، ويتوب إلىٰ الله، ويستغفر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويلجأ إلىٰ الله، ويَقُول هذا الذِّكرَ الذي أمر به النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وفي هذه الجُملة بيانُ أن الريحَ قد يَحدُث منها خير وتكونُ سَببًا فيه، فتَحمِل معها خيرًا؛ كحُبيبات اللقاح والبذور التي تَحملها معها وتلقيها في الأرض، وقد تُؤمَر بخيرٍ كسَوق السحاب إلىٰ البِلاد، فينزل الغيثُ رَحمةً من الله جَلَّوَعَلَا بالعبَاد.

وهذه الريحُ كذلك قد ينتج عنها شَر، وتكونُ سببًا فيه؛ كقَلع البيوت، والأشجار، وتدمير العُمران، وقد تحملُ شرًّا كالأوبئة والأمراض كالمكروبات أو الفيروسات التي تُسَبِّب الأمراض، وقد تؤمر بالعَذاب؛ فتكونُ حاملةً عذابًا -والعيَاذ بالله-؛ ولذلك أُمِرنا أن نسأل خَيرَها، وأن نعوذ بالله من شَرِّها.

وقد كان النَّبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يفعَلُ هذا؛ فعَن عَائِشَةَ زَوجِ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَت: «كَانَ النَّبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ، قَالَ: **اللهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ خَيرَهَا، وَخَيرَ مَا فِيهَا، وَخَيرَ مَا أُرسِلَت بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا،**

وَشَرِّ مَا أُرسِلَت بِهِ». رَواه مُسلِم[(١)].

وانظر -يا رعَاكَ الله- كيف أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم عند نزول الشَّدائد بالرجُوع إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسؤاله الخير، والاستعاذة به من الشر، ولم يأمرهم بالاستعاذَةِ بالأولياء الصالحين، ولا باللجوء إلىٰ أصحَاب القبور، وإنك لتعجَبُ من بعض من صَدَّق بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذين يتركُون ما أَمَر به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَول أو فعل وتَواتَرَ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن تعليق القلب باللهِ وتحقيق التوحيدِ، وتَأكُّد هذا عند حصُول الشدائد، إلىٰ ما لم يَصِحَّ عنه فيه حرف واحد؛ بل الثابتُ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّهي عنه والتشديد فيه، فتجد أنهم عند الشَّدائد لا يُعلقون قلوبَهُم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَرجعُون إلىٰ الله، وإنما يُعَلِّقون قلوبَهُم بمخلوقات، ويلجئون إلىٰ أصحَاب القبور، وهذا يُنَافي دينَ الإسلام بالكُلِّيَّة، وهو من الشِّرك الأكبر -والعياذ بالله-.

وهنا سُؤَال: تقَدَّم باب أنَّ مَن سبَّ الدهر فقد آذىٰ الله، وهُنا: باب النهي عن سب الرِّيح؛ فهل سَب الريح من سَبِّ الدَّهر؟

قالَ بعضُ أهل العِلم: نعَم، والشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفردَ هذا الباب من باب ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ؛ لشدة الحاجة إليه، وكثرة وقوعه من الناس.

وقال بعضُ أهل العِلم: لا؛ بل ما تَقَدَّم في سبِّ الدهر مُتعلق بسبِّ الزمان الذي تقع فيه الأمور، وهذا الباب مُتعَلق بسَبِّ الجُنود الذين يأمرهم الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) برقم (٨٩٩).

والريحُ من جُند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا عندِي أقربُ والله أعلم؛ ولذلك فصَلَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينهم بأبواب؛ لأن ذاك متعلِّق بالزمان، وهذا مُتَعلق بجند الله الذين يأمرهم الله بالرحمة أو بالعذاب، والريحُ مثالٌ لهذا.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: النَّهيُ عَن سَبِّ الرِّيحِ.

وهذا صريحٌ في الحَديث.

الثَّانِيَةُ: الإرشَادُ إِلَىٰ الكلامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَىٰ الإنسانُ مَا يَكرَهُ.

وهذا -كما تقدَّم- من حُسن التعليم.

الثَّالِثَةُ: الإرشَادُ إِلَىٰ أَنَّهَا مَأمُورَةٌ.

لأنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وخَير مَا أُمِرَت بِه... وشَر مَا أُمِرت بِه**». إذن؛ في جانب الخير هي مأمُورة، وفي جانب الشرِّ هي مأمُورة، والذي هو الله عَزَّوَجَلَّ، وما دام أن الذي أمرَها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإن سبَّها يستلزم سبَّ آمِرِها.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا قَد تُؤمَرُ بِخَيرٍ، وَقَد تُؤمَرُ بِشَرٍّ.

فقد تُؤمَر بالرحمة؛ فتَحمل السحاب وتسوق المطر إلىٰ البلاد، وقد تُؤمَر بالعذاب؛ فتسوق العذابَ إلىٰ من أُمِرت بسَوق العذاب إليه، وقد تُؤمر بِشَر يُصيب بعض البُلدان كالأعاصير والعواصف الشديدة المهلكة، ولو كَان عند الناس الذين تُصِيبُهم هذه الأعاصير عَقلٌ؛ لأدرَكُوا قوة الله عَزَّوَجَلَّ، وآمنوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

بَابُ قَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ الآيَة [آل عمران: ١٥٤]

الشرح

من تَوحيد المؤمنِ لرَبه وتَعظيمِه له: أن يُحسن الظن بربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كل حال، في العُسر واليسر، وفي السَّراء والضَّراء، وفي النَّعماء وعند البَلاء، وأن يعلمَ أن كل أمر يَمُر به بقَدَر الله جَلَّوَعَلَا، وعن حِكمة عظيمة كانَ، وأن يَظُن بالله عَزَّوَجَلَّ في كل شأنٍ كُل جميل؛ فلا يَظُن بربه -مهما تقلَّبَت به الأحوال- إلا الأمرَ الجميل، وأن يُعرِض عن كل ظن قبيح، فإن إساءةَ الظن بالله من شأن أهل الجاهلية، ومن شأنِ المشركين والمنافقين.

فمِن واجبات التَّوحيد، ومن شأنِ المُوحِّدين: حُسنُ الظن بالله.

وحُسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ يقتضي التسليم لله، والتسليم لرَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والتسليم لحُكم الله الشرعي، والتسليم لحُكمِ الله القدري؛ ولذا عقَدَ المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الباب؛ ليُبَين حالَ المؤمنين في الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وحال المنافقين والمُشركين في الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن حال المؤمنين يُخَالف حالَ المشركين والمنافقين في الظنِّ بربنا سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وبَوَّب الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ بهذه الآية التي تبين مُراده رَحِمَهُٱللَّهُ مِن عَقدِ هذا الباب؛ حيث قال: (**بَابُ قَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ**

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

ففي هذه الآية يُبين الله عَزَّوَجَلَّ حالَ المنافقين، لاسِيَّما عند الضرَّاء، أنهم يظنون بالله غير الحَق، فمن شأن المُنافقين أنهم علىٰ طريقة أهل الجَاهلية، وعلىٰ طريقةِ المُشرِكين، يُسيئون الظن بالله، ويسيئون الظن بقَدَر الله، ويسيئون الظن بشَرع الله!

ومن ذلك قولُهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: لم يكن لنَا مِن الأمرِ من شيء، ولو كان لنَا من الأمر شيءٌ لمَا حصَل هذا القتل، وإنما كان الأمر والرَّأي لرَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكان ما كَان، هكذا يظنون، فهو مَخذُول ومهزُوم، وسيَعلُو عليه أعداؤه، وسيُباد المسلمون، وسيُباد الإسلام، هكذا يظنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!

ولذا أمرَ الله نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾: يَصرِفُه ويُدبره كيف يشاء بحكمة تامة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهؤلاء المنافقون لم يُؤمنوا بالقضاء والقدر، وأن الأمور كلها بأمرِ الله القدري، وأن لله جَلَّ وَعَلَا حِكمةً فيما يُجريه، وأنه لا يقدر أحدٌ علىٰ دَفع ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ وقُوعَه.

وأساءوا الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبرَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشَرعِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقال بَعضُ أهل العلم: معنَىٰ قَولِهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾؛ أي: ليس لنا من نَصر الله شيء، وأن الله لن يَنصُرَنا، فلن يَنصُر مُحمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

ولن ينصُرَ المسلمين؛ بل سيُعلي الكفار علينَا، وسيجعل الدَّولَة المستمرة المُستقرة للكفار علىٰ المؤمنين.

فكان الجوابُ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ يُدبِّره ويصرفه بحِكمَة، فقد يُدِيل الدولة للكفار شَيئًا يسيرًا؛ لحكمة وفائدة عظيمَة، ثم يَنصُر رسوله والمُؤمنين.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: هكذا حالُ المُنَافقين في أمرِهم كله؛ فإنهم يُبدُون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلام والاستسلَام، وأنهم معه، وأنهم يُقاتِلُون في صَفِّه، وهم في الحقيقة يُخفُون الكُفر والعدَاء، والرغبَةَ في كَسر المسلمين، والله فَاضِحُهم.

ومما يُخفونه أنهم يَقُولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾: وتقدَّم بيان أن هذا كان في غَزوة أحد، وأن المنافقين في غَزوة أحد انقسموا إلىٰ فريقَين، والفريق الأكبر منهم ترَكُوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطريق ورَجَعُوا إلىٰ المدينة، وقسم منهم بقي حياءً، ولشَيءٍ من المروءة في نفسه، فمضىٰ مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحَابه، فلمَّا وقع ما وقع للمسلمين قال الذين بقوا مع النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المَقُولة: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ فاعترضوا علىٰ شَرع الله، من جهة الخُروج من المدينة، واعترضوا علىٰ قَدَر الله من جهة ما وقع من القَتل، فكان جوابُهُم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، فالأجلُ بقَدَر الله عَزَّوَجَلَّ، فمن جاء مَوتُه مات في مكانِ مَوته قدَرًا، وفي زمان موتِه قدرًا، لن يتأخر ولن يتقَدَّم من حيث الزمَان، ولن يتقهقَرَ عن المكان مِقدار شَعرَة، وسيُساقُ إلىٰ موضع مَوتِه.

فَكَم من شخص عاش في بلد معين عُمره كُله، فلما حانَ أجلُه وهو في بَلدٍ أخرىٰ سيَموت فيها؛ حُمل في ذلك اليوم من بلده إلىٰ البلد الأخرىٰ فما وصَلها حتىٰ قُبض!؛ لأن هذا مكانُ مَوته، وهكذا الزمان، فلو بقي من بقي في بَيته وكان مَقتَلُه عند أُحُد سيَذهب إلىٰ أحُد ويُقتَل هناك.

فهذا الجوابُ الأول: أن القَدَر لا رادَّ له، فما أراد الله جَلَّوَعَلَا وقوعَه كانَ، ولا يقع في كَونِ الله إلا ما أراد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثم جاء الجوابُ علىٰ الحكمة، وأن ما وقع إنمَا هو بحِكمَة عَظيمَة: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ فيَختَبر ما في الصُّدور، يختبر المؤمن من المنافق، ليتَميَّز المؤمن من المنافق بهذا الاختبار والبَلاء.

والمُؤمن الصادق منصور بنصر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولو بعد حِين، ولكنه في نفس الوقت مُختَبر يأتيه البَلاء، وكُلما قَوِيَ دِينُه زاد بَلاؤه، وكثُرَت عليه المِحنُ؛ ليتبين الصدقُ من الكذب؛ ولكن العاقبةَ لأهل التقوىٰ، فالمُؤمنون منصورون ومُختبَرون.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾: وهذه للمؤمنين؛ يُمَحص؛ أي: يُصَفِّي ما في قلوبكم، فالقلب قَلَّاب، وقد يقع في القلب شيء، وبالبَلاء يُمَحِّص ما في القلب حتىٰ يعودَ سَليمًا، نقيًّا، صَافيًا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: عليمٌ بالقُلوب وما فيها؛ فيُظهر ما في قلوبكم من أمراض عارِضَة فيُعَالجكم ويُدَاويكم بالبلاء، ويُطَهِّر قلوبَكم به؛ لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليم بذات الصدُور.

فدَلَّ ذلك علىٰ أن شأنَ أهل النفاق وأهل الجاهلية أنهم يَظُنون بالله غير الحق، ويظنون بالله جَلَّوَعَلَا الظنون السيئة، والواجب علىٰ المؤمن أن يُخالفَ أهل الجاهليَّة، وأن يكونَ ظَنُّه بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ دائمًا هو الظَّن الحَسَن.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾ **الآيَةَ** [الفتح:٦].

الشرح

وهذا أيضًا وصفٌ للمُشرِكين والمنافقين؛ حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾.

(﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾): فيُبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه فَعل ما فعَل ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجرىٰ من تحتها الأنهار -كما في الآية التي قبلهَا-، ويُعذب المنافقين والمنافقَات الذين يُظهرون خلافَ ما يبطنون، وكذلك يفعل بالمُشركين والمُشركَات.

(﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾): أي: الظانِّين بالله ظنًّا سيئًا، وهو أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن ينصُر رسوله والمؤمنين، وكذلك سائر ظنونهم الفاسدة من الشِّرك وغيره.

فكَان الجَواب: (﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾): فعَليهم وحدهم دائرةُ السوء والهَلاك والدَّمار، وما يظنون ويتربَّصونه بالمؤمنين فهو حائقٌ بهم ودائرٌ عليهم لا يُفلِتُون منه، وقد دارَت عليهم الدائرة بهذا الفَتح المبين.

ولذلك أهل الكفر أهل النفاق في كل زمان ومكَان، وكُل من يكيد للحق وأهله؛ كالليبراليين، والعلمَانيين، وأهل البدع، يبذلون ما يبذلون، وينفقون ما

ينفقون ثم تَكونُ عليهم حَسرة، وإن صَدق المؤمنون وتمسَّكوا بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتمسكوا بالتوحيد وبالسنة، ونَصَروا الحق؛ فلن تكون لأهل الباطل دَولَة مستقرة مستمرة، بل كُلما برزوا قُطِعُوا، وقد يجعل الله عَزَّوَجَلَّ لهم شيئًا فيَظُنون أن البابَ قد فُتِح لهم، وأنه أصبح لهُم مدخل ليُظهِرُوا رُءوسَهم ويكشفوا مُخطَّطاتهم، ثم يُنَال منهم، وهذا الذي يَدُل عليه التاريخ، ومَن قرأ التاريخ عرف هذا الأمر، فواللهِ لن تكون للباطل دولةٌ مستقرة مُستمرة علىٰ أهل الحق!

لكن لهَذا شَرط: وهو الصِّدق مع الله من أهل الحَق، وأن يصدقوا ويَثبُتوا، ويتمسَّكُوا بشرع الله عَزَّوَجَلَّ، وبِدِين الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فأهلُ الشرِّ دائمًا عليهم دائرة السوءِ، وتَدُور عليهم الدائرة.

فحالُ المنافقين والمشركين أنهم يَظُنون بالله ظنَّ السَّوء، وبالتالي فحال المُؤمن -في أي شيء كان- أن يَظُن بالله الظنَّ الحسن، وإن أساءَ الظن في حال البلاء فإنه يُسيءُ الظن بنفسِه، ويقولُ: ما جاءني هذا البلاءُ إلا من ذَنبي، ومن تَقصيري ومن اعتدائي! ويُراقب نفسَه ويُحَاسبها، ويرجع إلىٰ الله، ويتوب ويَستغفر، ويَبكي ويتذلَّل ويتَضرَّع بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، أما حالُه مع ربِّه جَلَّوَعَلَا، فهو حَسَنُ الظن برَبِّه مَهما تقلبت به الدنيا، ومهما تقلبت به الأمُور.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي الآيَةِ الأُولَىٰ: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَنصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمرَهُ سَيضمَحِلُّ.

وَفُسِّرَ: أَنَّ مَا أَصَابَهُم لَم يَكُن بِقَدَرِ الله وَحِكمَتِهِ؛ فَفُسِّرَ بِإِنكَارِ الحِكمَةِ، وَإِنكَارِ القَدَرِ، وَإِنكَارِ أَن يَتِمَّ أَمرُ رَسُولِهِ وَأَن يُظهِرَهُ اللهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتحِ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوءِ لأَنَّهُ ظَنُّ غَيرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكمَتِهِ وَحَمدِهِ وَوَعدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَىٰ الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً يَضمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَو أَنكَرَ أَن يَكُونَ مَا جَرَىٰ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَو أَنكَرَ أَن يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكمَةٍ بَالِغَةٍ يَستَحِقُّ عَلَيهَا الحَمدَ، بَل زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ. فـ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وَأَكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ فِيمَا يَختَصُّ بِهِم، وَفِيمَا يَفعَلُهُ بِغَيرِهِم، وَلَا يَسلَمُ مِن ذَلِكَ إِلَّا مَن عَرَفَ اللهَ وَأَسمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكمَتِهِ وَحَمدِهِ، وَوَعدِهِ الصَّادِقِ.

فَليَعتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ بِهَذَا، وَليَتُب إِلَىٰ اللهِ، وَليَستَغفِرهُ مِن ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوءِ.

وَلَو فَتَّشتَ مَن فَتَّشتَ لَرَأَيتَ عِندَهُ تَعَنُّتًا عَلَىٰ القَدَرِ، وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ

يَنبَغِي أَن يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُستَقِلٌّ وَمُستَكثِرٌ، وفَتِّش نَفسَكَ، هَل أَنتَ سَالِمٌ.

فَإِن تَنجُ مِنهَا تَنجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلا فَإِنِّي لا أَخَالُكَ نَاجِيَا

انتَهَىٰ كَلامُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

الشرح

هذا الكلام ذَكَره ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المَعاد»[1]، في مَعرِض كَلامِه عن غزوةِ أُحُد والدُّروس المُستفادة منها، فعندما جاء لقَولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ استفاض في هذا المَقام، وذكر كلامًا طويلًا عَظيمًا علىٰ عادته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بَسطِ العلم، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد اختصَر هذا الكَلام، وتصَرَّف فيه فلم يَنقُله بنصه، وإنما نقله مُختصرًا متصرفًا فيه.

(**قَالَ ابنُ القَيِّمِ -رحمه الله تعالىٰ- فِي الآيَةِ الأُولَىٰ**): التي بَوَّب عليها.

(**فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ**): أي: من المنافقين.

(**بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَنصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضمَحِلُّ**): أي: أن المُنافقين قد ظَنُّوا بالله غير الحَق، وهذا الظن هو ظن المُشرِكين وأهل الجاهلية، وهو أن المسلمين مع رَسُولهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سيُقضَىٰ عليهم، وأن الإسلام لن تكون له دولة، هكذا ظنهم، وكانوا يتربَّصُون بالمسلمين الدوائر.

---

(١) (٣/ ٢٠٥-٢١١).

(وَفُسِّرَ: أَنَّ مَا أَصَابَهُم لَم يَكُن بقَدَرِ الله وَحِكمَتِهِ): يعني: فَسَّر بعضُ السلف هذا الظن بأنهم كانُوا يظنون أن الله لن ينصُر رسُولَه، ولن يُبقي دينه، ولن يُعلي كلمته.

وفَسَّر بعضُ السلفِ ظَنَّهُم: بأنَّهم كانوا يَظُنون أن ما أصابهم لم يكن بقَدَر الله، ولا بحكمَة؛ وأن ما أصابَهُم من قتل وجرح لم يكُن بقدر الله، ولم يكن عن حِكمة، وهذا هو عينُ كلام القدريَّة؛ فيكون هذا أصلًا لبدعة القَدَر؛ ويكون مَعبَد الجُهَني قد أخذ نفي القَدَر من المنافقين علىٰ هذا التَّفسير.

(فَفُسِّرَ بِإِنكَارِ الحِكمَةِ، وَإِنكَارِ القَدَرِ): وهذا هو التَّفسير الثاني.

(وَإِنكَارِ أَن يَتِمَّ أَمرُ رَسُولِهِ وَأَن يُظهِرَهُ اللهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ): وهذا هو التفسيرُ الأول الذي ذَكَره.

(وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتحِ): وهذه الآية الثانيَة التي ذكرها الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(وإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوءِ لأَنَّهُ ظَنُّ غَيرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكمَتِهِ، وَحَمدِهِ، وَوَعدِهِ الصَّادِقِ): وهذا ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمعناه.

ولفظُ ابنِ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَال: «لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيرِ مَا يَلِيقُ بِأَسمَائِهِ الحُسنَىٰ وَصِفَاتِهِ العُليَا، وَذَاتِهِ المُبَرَّأَةِ مِن كُلِّ عَيبٍ وَسُوءٍ، بِخِلَافِ مَا يَلِيقُ بِحِكمَتِهِ وَحَمدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالإِلَهِيَّهِ، وَمَا يَلِيقُ بِوَعدِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يُخلِفُهُ، وَبِكَلِمَتِهِ الَّتِي سَبَقَت لِرُسُلِهِ أَنَّهُ يَنصُرُهُم وَلَا يَخذُلُهُم، وَلِجُندِهِ بِأَنَّهُم هُمُ الغَالِبُونَ».

قال: (فَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَىٰ الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً): أي: مُستمرة دائمة.

(يَضمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ): قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا جوابًا علىٰ ما سَبَق: «فَقَد ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ، وَنَسَبَهُ إِلَىٰ خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِهِ، فَإِنَّ حَمدَهُ وَعِزَّتَهُ وَحِكمَتَهُ وَإِلَهِيَّتَهُ تَأبَىٰ ذَلِكَ، وَتَأبَىٰ أَن يُذَلَّ حِزبُهُ وَجُندُهُ، وَأَن تَكُونَ النُّصرَةُ المُستَقِرَّةُ وَالظَّفَرُ الدَّائِمُ لِأَعدَائِهِ المُشرِكِينَ بِهِ العَادِلِينَ بِهِ، فَمَن ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ أَسمَاءَهُ وَلَا عَرَفَ صِفَاتِهِ وَكَمَالَهُ، وَكَذَلِكَ مَن أَنكَرَ أَن يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلكَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَكَذَلِكَ مَن أَنكَرَ أَن يَكُونَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَهُ مِن ذَلِكَ وَغَيرِهِ لِحِكمَةٍ».

وعَقيدةُ أهل السُّنة والجَماعة -عَقيدة الصَّحابَة-: أن قَدَر الله عَزَّوَجَلَّ لحكمة، فما يفعل الله شيئًا إلا لحكمة، ولا يتحرك مُتحَرك في الكون إلا لحِكمة يريدها الله جَلَّوَعَلَا، ولا يسكُن ساكن في الكون إلا لحِكمة يريدها الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شَرَع إلا لحكمَة، وما أمر بشَيء إلا لأنه حسَن في ذاته، وفيه مصلحة للعبَاد، ولا نهىٰ عن شَيء إلا لكونه قبيحًا في ذاته، وفي فعله مَفسَدة علىٰ العبَاد.

فالله عَزَّوَجَلَّ يفعل لحكمة يُريدها، ويَشرع لحكمة يُريدها سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبعضُ المُبتَدعة قالوا: لا؛ الله لا يفعل لحِكمة، ولا يشرع لحِكمَة، وإنما عندهم هو يَفعل لأنه شاء أن يَفعَل؛ لمَحض المشيئة، وأمر لأنه شاء أن يأمُر، ونَهىٰ لأنه شاء أن ينهَىٰ؛ فيصح عندهم في بداهة العقول أن يأمر الله بالشِّرك، وأن ينهىٰ عن التَّوحيد،

وأن يكون أبو بكر أرذَل الناس، وأن يكون أبو جَهل أعلىٰ الناس، لأن الأمرَ لا يتعلق بحُسن في الذات، ولا بِقُبح في الذَّات، ولا بحِكمة، وإنمَا لمَحض المشيئة!

وهم يَدَّعون أن العقلَ يُوافقُ قولَهم هذا مع ظهور فسَاده!

بل العقلُ مع القول الذي يقولُ: إن الله عليم قوي قادر مُرِيد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس مع الذي يقول إنه فعل لغير حِكمَة، وشرع لغير حكمة، ثم وَقَعت الحكمة بعد ذلك؛ فشَتَّان بين الأمرين!، وهذا من حُسنِ الظَّن بالله جَلَّ وَعَلَا، وأما من يَنفي الحِكمَة فهو يُسيء الظنَّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (فـ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾): يعني: أنَّ هذا الشَّأن من الظَّن السَّيئ، هو شَأن الكفَّار.

قال: (**وَأَكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ**): وذلك يكون في مَوَاقع البلاء، فإذا نزل بهم البلاء، ظَنُّوا برَبِّهم ظنَّ السَّوء، وهذا لا ينجو منه إلا قَليل، ولو في القلب، ولو ما قال، وليس حَديثَ نَفس، وإنما يقع في القَلب وقوعًا مستقرًّا.

وفرقٌ بين حَديثِ النفس وفعل القَلب، ففِعلُ القلب يُؤاخذُ به الإنسان، أمَّا حديثُ النفس فلا يُؤاخذ به الإنسان.

وأكثر الناس يقع في قَلبه: لمَاذا أنا؟! وماذا فَعلتُ؟!

فيَرىٰ أنه أكبَرُ من أن يقع عليه هذا، وهذا لا شَكَّ أنه اعتراض علىٰ القَدَر!

وبَعضُ الناس قد يُصرِّح بهذا ويقول: لماذا يمرض ابني وأولاد الناس كلهم طيبون؟!

هذا من سُوءِ الظَّن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِم، وَفِيمَا يَفعَلُهُ بِغَيرِهِم): فإذا بَلَغه أن فلانًا أصابه مَرض خطير قال: مِسكين، ما يستَاهل؛ وهذه مقولة فيها من سُوء الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيء عظيم؛ ولو تأمَّلتها لوجدت أن معناها -والعياذ بالله-: أن الله ظلمه!، وإن كان القائل لا يُريد هذا؛ لكن هذا سُوءُ ظَن بالله جَلَّوَعَلَا، وسُوء أدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا تأمَّلت الناسَ وَجدت هذا فعلًا، كما يقول ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(وَلَا يَسلَمُ مِن ذَلِكَ إلَّا مَن عَرَفَ الله وَأَسمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكمَتِهِ وَحَمدِهِ، وَوَعدِهِ الصَّادِقِ): ثُم أسهبَ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذِكر أنواع سُوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وذكر أنواعًا كثيرة يَجمَعُها ضابط واحد؛ وهي: أنها ظنُّ ما لا يليق بجلالِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ظن ما يُخَالف ربوبيته، وظَن ما يُخالف ألوهيته، وظن ما يُخَالف أسماءه وصِفَاتِه، وظَن ما يُخالف ما في القرآن، وظن ما يُخَالف ما في السُّنة، كُله من سُوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

وضَابطُه: أن يَظُن بالله جَلَّوَعَلَا ما لا يليق بجَلال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: **(فَليَعتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ بِهَذَا، وَليَتُب إلَىٰ اللهِ، وَليَستَغفِرهُ مِن ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوءِ)**: فالواجبُ علىٰ المؤمن أن يُجاهد نفسه في إحسان الظن بالله جَلَّوَعَلَا، لاسيَّما عند وقوع البلاء والضَّراء، فينبغي أن يجاهِدَ نَفسَه في حسن الظن بالله، وأن يستغفِرَ مِن سوء ظنه بالله، ويَتوبَ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (**وَلَو فَتَّشتَ مَن فتَّشتَ**): يعني: لو فَتَّشت مَن حَولك من النَّاس.

(**لَرَأَيتَ عِندَهُ تَعَنُّتًا عَلَىٰ القَدَرِ**): ولفظ ابن القيم: (تعتُّبًا)؛ أي: لوَجدَته يُعَاتب القدر، ويُعَاتب ما وقع عليه، ولا يُسلم التسليم المُطلق لله جَلَّوَعَلَا.

قال: (**وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنبَغِي أَن يَكُونَ كَذَا وَكَذَا**): فبعضُ الناس من جهلهم يَقُول: كان ينبغي أن نُنصَر نحن المسلمين، وأن تكون الدولةُ اليوم لنا!

وهذا اعتراضٌ علىٰ قَدَر الله، وسُوءُ أدبٍ مع الله، وسُوء ظن بالله، واعتراض علىٰ قَدَر الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإنمَا كانَ ينبغي أن يقُول: يجب علينا أن نلزم شرع الله حتَّىٰ ينصُرَنا الله، وأن نُحَكِّم شرعَ الله في أنفسنا حتىٰ يُقَوينا الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالمُؤمن إذا نزَل به الشيء ووقَع؛ سَلَّم وعَلِم أن هذا هو الحِكمَة، كما سيأتي -إن شاء الله- في باب القَدَر.

(**فَمُستَقِلٌّ وَمُستَكثِرٌ، وفَتِّش نَفسَكَ، هَل أَنتَ سَالِمٌ**): أي: في الأمُور التي وقعت عليك في ضِيق في الرزق، أو مُصيبَةِ مَرض، أو نحو ذلك؛ تَجد أنه حصَلت لك هُنا سقطةٌ في هذا البَاب.

(**فَإِن تَنجُ مِنهَا تَنجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ**): يعني: إن تَنجُ من هذا البلاء تَنجُ من مسألةِ ذاتِ شأنٍ عظيم، وخطر كبير.

(**وَإِلَّا**): إن لَم تَنجُ مِنها.

(**فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا**): فإنَّها مَهلَكة، والوقوع في هذا من المُهلكَات.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ آيَةِ آلِ عِمرَانَ.

وهي الآيةُ الأولىٰ التي بَوب بها، وقد تقدم تفسيرهَا.

الثَّانِيَةُ: تَفسِيرُ آيَةِ الفَتحِ.

وهي الآية الثانية، وقد تقدم تفسيرهَا.

الثَّالِثَةُ: الإِخبَارُ بأَنَّ ذَلِكَ أنواعٌ لا تُحصَرُ.

أي: سُوء الظن بالله أنواع لا تُحصَر؛ ولكن ضَابطها سَهل؛ فهو: كُل ما لا يليق بجَلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو ظَنُّ سَوء بالله عَزَّ وَجَلَّ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لا يَسلَمُ مِن ذَلِكَ إلا مَن عَرَفَ الأَسمَاءَ وَالصِّفَاتِ، وَعَرَفَ نَفسَهُ.

لا يسلمُ من ذلك إلا من عرف ربَّه بأسمائه وصفاته، وعَلِم أنه حكيم عَليم، إن أنعَمَ فبفضله، وإن كانت الثانيةُ فبِعَدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعفو عن كَثير، وعَرف نفسه وضعفَها، وأنه خَطَّاء كسائر بني آدم، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[1].

وهذا ليس احتجاجًا لتقَع في المعَاصي، وإنما ينبغي عليك أن تعرف حقيقة

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

نفسك، وأنهَا تأمر بالسُّوء، وأنها ضعيفةٌ وتميل إلىٰ ما قد يُهلكها، فإذا وقعتَ في شيء من ذلك فتُب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا تَسترسل مع المَعصيَة.

وإذا عرفتَ نفسك بعد أن عرفتَ رَبَّك؛ أحسَنتَ الظنَّ بالله جَلَّ وَعَلَا، وأسأتَ الظنَّ بنفسك، فكُنتَ من السَّالِمِين الناجين الفائزين المُفلحين، ولا يَنجُو من مهالك الدنيا إلا مَن أحسَن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، وأساء الظن بنَفسِه؛ فكان علىٰ هذا الحَال يسير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊❊❊

بَابُ: مَا جَاءَ فِي مُنكِرِي القَدَرِ.

الشرح

لمَّا كانت الأبواب المتقدمة قريبًا لها تعلُّق بالقدر، ولما كان البابُ السابقُ في سُوءِ الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، وفي بيان قُبحه، وأنه ليس من شأن المُوحِّدين، وكان من أعظم سُوء الظن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يتعلق بالقَدَر؛ نَاسَب أن يعقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنكِرِي القَدَر**): أي: من الوَعيد، وحُكم إنكار القدر.

وهذا البابُ يَدُل علىٰ حكم من أنكر القَدر تَصريحًا، ويدل علىٰ وجُوب الإيمان بالقدر تنبيهًا.

والإيمان بالقدر رُكنٌ من أركان الإيمان.

عَن عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤمِنُ عَبدٌ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِأَربَعٍ: يَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤمِنُ بِالمَوتِ، وَبِالبَعثِ بَعدَ المَوتِ، وَيُؤمِنُ بِالقَدَرِ**». رواه التِّرمذِي، وصَحَّحه الألباني[1].

فلا يؤمن عبدٌ حتىٰ يؤمنَ بالقدر خَيره وشَرِّه من الله عَزَّوَجَلَّ.

عَن جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤمِنُ عَبدٌ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّىٰ يَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ، وَأَنَّ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

مَا أَخطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبَهُ». رواهُ التِّرمذي، وصَحَّحه الألباني[(١)].

فلا يُؤمن عبدٌ حقيقة الإيمان؛ بل لا يُؤمنُ أصلًا حتىٰ يؤمنَ بالقدر خيره وشَرِّه، وآيةُ إيمَانه بالقدر خيره و شره: أن يعلمَ أن ما أخطأه لم يكن ليُصيبَه، وما أصابه لم يكن ليُخطِئَه.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التوبة:٥١].

ومَن آمن بالقدَر: حقَّق توحيد الربوبية؛ لأن الإيمَان بالقدر مرتبطٌ بتوحيد الربوبية، وبالتالي يُحَقق توحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وعَظُم تعلُّق قلبه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمَن عَلِمَ أن الأمر كله لله، وأن ما شَاءَه الله كان، وأن الخَلقَ جميعًا لو اجتمعوا علىٰ أن يَنفَعُوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتَبه الله له، ولو اجتمعوا علىٰ أن يَضُروه بشيء لم يضروه بشيء إلا إذا كان الله قد كتبه الله عليه؛ مَن علم هذا فإنه يَهُون عنده شأنُ الخَلق من هذا البَاب، ويَعظُم تعلُّق قَلبِه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومَن آمنَ بالقَدَر: عَظُم خوفُه من الله عَزَّوَجَلَّ، وعَظُم رجاؤه بما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسلِم صدرُه من الحسَد والأمراض، وسَلِمَ الناسُ مِن شَرِّه.

فالإيمانُ بالقضاء والقدر شأنُه عظيم من جهة أصله، ومن جهَةِ أثره:

فمن جِهة أصله: هو ركن في الإيمان، ولا يؤمن العبدُ أصلًا حتىٰ يؤمن به.

ومِن جهةِ أثَره: فإن أثرَه عظيم علىٰ مَن آمن به؛ فيَسلَم القلب ويَسعَد، ويَعظُم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

تعلق القلب بالله جَلَّ وَعَلَا، ويُعَان العبد على الصبر على أقدارِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **هنا قَال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنكِرِي القَدَرِ):**

والقَدَرُ في اللغة: هو القضَاء والحُكم والتدبير والتَّرتيب. وكُلها معانٍ مُناسبة لمعنى القدَر شرعًا.

والقدَرُ شَرعًا: هو تقدير الله للأمور حَسَب ما سبقَ به عِلمُه، واقتَضتهُ حِكمَته.

وللقَدَر أربعُ مَرَاتب؛ مَن عَرفها آمَن بالقدر، واطمأنَّ قلبُه، واندفعت عنه الشبهاتُ؛ وهي:

الأولى: العِلم: فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكل شيء عَليم، علم ما كان وما يكون وما لم يكن، لو كان كيف يكون، علم ما الخَلق عاملون، وعلم جميع أحوالهم؛ من الأفعال والأرزاق والآجال، فعِلمُ الله بهم قديم فلا يَحدُث لله علم بعد أن لم يكن، ومُحيط فلا يعزُب عنه شيء أبدًا، وثابت فلا تلحقُه آفة: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]. فالله علم الأمور علمًا محيطًا ثابتًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والثانية: الكِتَابة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب في اللوحِ المحفوظِ ما هو كائنٌ إلى قيَام الساعة، فإن الله أمر القَلم -كما سيأتي- أن يكتُب، والكتابة فَرعُ العلم، فكتب ما هو كائن إلى قيام السَّاعة، أما ما بعد قيَام الساعة فَهُو مَسكُوت عنه في النصوص فنَسكت عنه، وواجبُ المؤمن أن يسكتَ إذا سُكت في النصوص عن الشيء الغيبي.

وقد جمع الله هاتَين المرتبتين الأولَيين في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

فبدأ بالعِلم ثم الكِتَابة.

والثالثة: المَشيئَة: فقد شاء الله ما في السَّموات والأرض، ولا يكون شيء إلا بمَشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما شاء كان ومَا لم يشأ لم يكُن، ولا يكون في مُلكِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا ما يُريد، وما أراد من عبَادِه شَرعًا إلا الخير، فلربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشيئة نافذةٌ، وقُدرة شاملة، فما في الكون حركة ولا سُكُون إلا بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والرَّابعة: الخَلق: أي: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلق كلَّ شَيء، فالله جَلَّ وَعَلَا خالقُ كل شيء، وهو علىٰ كل شيء وكيل، فالله خلق العباد، وخلق أفعالَ العبَاد، والعبادُ فاعلون حقيقة.

وهذه هي العقيدةُ السليمة المستقرة: أن الله جَلَّ وَعَلَا خلَقَ العبد وخَلق فِعلَه، فليس ثمة إلا خَالقٌ ومَخلُوق، والخالق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمَخلُوق هو العبد، وفِعله مَخلُوق، والعباد فاعلونَ حقيقةً: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

والعبد له مشيئةٌ لا تخرجُ عن مشيئة الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

فدلَّ ذلك علىٰ أن العبد له مَشيئة وله اختيار، إن شاء أن يقوم قامَ، وإن شاء أن يجلس جلس، ولكن هذه المَشيئة لا تخرج عن مَشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعبدُ يعلم مشيئته واختيارَه، ولا يعلم مشيئة الله حتىٰ يقعَ الأمرُ.

ولذلك ليس للعَبدِ عُذر في مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن العبدَ يعلمُ مَشيئته

واختيارَه، وأما مَشيئة الله فلا يعلمُها إلا بعد الوقوع؛ فكيف يحتج بأمر لم يَعلَم به إلا بعد الوقوع؟!

فالعبد فاعل حقيقة وله مشيئة لا تخرجُ عن مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.

والعبد كاسِبٌ ومُكتَسب؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة:٢٨٦].

إذن العبد كاسبٌ ومُكتَسِب، والهَادي والمُضِل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يهدي بفَضله ويُضِلُّ بعَدله، فواللهِ ما أَضَلَّ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مَن يستحق الهِدَايَة.

قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

هذَا مُجمَل عَقيدَة أهل السنة والجماعَة في (القَدَر).

والشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **هنَا قَال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنكِري القَدَر)**: أي: باب ما جاءَ في نُفَاة القدر، وهم الذين يَنفُون القدر ويَقُولون: لا قَدَر، والأمر أُنُف؛ أي: أنهم يزعُمُون أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يعلم الأشياءَ قبل وقوعها، ولم يكتبها، ولا يَعلُم بها إلا إذا وقعت، وهؤلاء هم (القَدرية)؛ أي: نُفَاة القدر الذين يَنفُون القدر!

وهذه الفرقَةُ من أخبث الفرق؛ بل ليست من المُسلمين، ولكنها تَنتَسِب إلىٰ الأمة، وقد أخبرَ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها فقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالقَدَرِ**». رواه أبو داودَ، وحَسَّنه الألباني[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وأخبرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اسم هذه الفِرقَة، وعن أنها ليسَت من المسلمين صِدقًا؛ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ: إِن مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُم، وَإِن مَاتُوا فَلَا تَشهَدُوهُم**». رواهُ أبو داود، وحسَّنه الألباني[1].

فأخبرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن القدريةَ الذين يُكَذِّبون بالقدر ويَنفون القدر هم مَجُوس هذه الأمة؛ لأنهم يُثبِتُون آلهة متعددة كالمَجُوس، وأَمَرَنا بالبراءة منهم، فإذا مرضوا فلا نَعُودهم، وإذا ماتوا فلا نُصَلِّي عليهم، ولا نَشهدُ جنائزهم.

وبدعة القدرية ظَهَرت في أواخر عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من رجالٍ لم يكونوا من أصحاب صحابَة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل كانوا مُعرِضين عن هَدي صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وهكذا هو الشأن في الأمة إلىٰ قيَام الساعة، أهل السُّنة مُقبِلُون علىٰ هَدي صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم -أي: أهل السُّنة- أصحَابٌ لصحَابَةِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن بعُد الزمان، أصحابٌ لهم لأنهم يتعلمون هَديهم ونهجهم، ويسيرون علىٰ طريقتهم، وأهلُ البدع مُعرِضُون عن نهج صحابة رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهؤلاء القدرية الذين ظهروا في آخر زمن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَلزمُوا هَدي صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءوا بهذه البِدعَة القبيحة؛ بل بهذا الكُفر الصريح الذي هو تكذيبٌ للكتاب والسنة، وخَرق لإجماع

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

صحابةِ رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

عَن يَحيَىٰ بنِ يَعمَرَ، قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَن قَالَ فِي القَدَرِ بِالبَصرَةِ مَعبَدٌ الجُهَنِيُّ، فَانطَلَقتُ أَنَا وَحُمَيدُ بنُ عَبدِ الرَّحمَنِ الحِميَرِيُّ حَاجَّينِ -أَو مُعتَمِرَينِ-، فَقُلنَا: لَو لَقِينَا أَحَدًا مَن أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَسَأَلنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي القَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ دَاخِلًا المَسجِدَ، فَاكتَنَفتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَن يَمِينِهِ، وَالآخَرُ عَن شِمَالِهِ، فَظَنَنتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلتُ: أَبَا عَبدِ الرَّحمَنِ، إِنَّهُ قَد ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقرَءُونَ القُرآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ العِلمَ، وَذَكَرَ مِن شَأنِهِم، وَأَنَّهُم يَزعُمُونَ أَن لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخبِرهُم أَنِّي بَرِيءٌ مِنهُم، وَأَنَّهُم بُرَآءُ مِنِّي...» رواه مُسلِم[1]. فحَكَم ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عليهم بالكُفر؛ ولذلك تبَرَّأ منهم البراءة المطلقة، ولا شَكَّ في كُفرهم.

ثم بعد ذلك ظهَرَت فرقة من القدرية تُؤمن بعِلم الله القديم السابق، وبكتابَةِ الله للمَقادير، غير أنها تُنكر عمومَ مشيئة الله جَلَّوَعَلَا، وأخرَجُوا أفعالَ العباد عن مشيئة الله، وعن خلق الله، فقالوا بزَعمِهم: العباد يشاءون أفعالَهُم لا الله، فالله لا يشاءُ أفعالَهُم، والعبادُ يخلُقون أفعالهم لا الله!

وهذه الفرقةُ قد اختلف العلماءُ في تكفيرها، وأما الفرقة الأولىٰ فالعلماء مُجمِعُون علىٰ كُفرها.

هؤلاء هم مُنكِرُو القَدر، وهم الذين يتكلم عنهم الشيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا البَاب.

---

(١) برقم (٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَو كَانَ لأَحَدِهِم مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنهُ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ».

ثُمَّ استَدَلَّ بِقَولِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإِيمَانُ أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

الشرح

وهذه بقية الأَثَر الذي ذَكرناه قريبًا في خروج يحيىٰ بن يَعمر إلىٰ المدينة للسؤال عمَّا قاله وأحدَثَه أهلُ القدر، يعني: نُفَاة القدر، وهو في «صحيح مسلم»[1].

فقال ابنُ عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعد أن تَبرَّأ مِنهُم: (**وَالَّذِي نَفسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَو كَانَ لأَحَدِهِم مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنهُ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِالقَدَرِ**): ثم ذكر ابن عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حديثَ عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ العظيم الذي فيه سؤال جبريلَ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام والإيمان والإحسَان.

ووجه الشَّاهِدِ منه قولُ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإِيمَانُ أَن تُؤمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**».

فابنُ عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بيَّن كُفرَهم، واستدلَّ بهذا الحديث الذي فيه أركان الإيمان، وأن من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر خَيره و شره، وأن من لم يُؤمن

---

(١) برقم (٨).

بالقدر فليس مؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وهذا استدلالٌ صَحيحٌ وَجيه بَيِّن.

وقد اتفقَ العلماء علىٰ كُفر من قال إنه لا قَدَر؛ لأنه أنكر معلومًا من الدين بالضَّرورة، وكَذَّب القرآن، وكذَّب السنَّةَ الصحيحة، وخالف إجماع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

ولذلك قَال القُرطبيُّ: «وَلَا شكَّ في تَكفيرِ مَن يذهبُ إلىٰ ذلك؛ فإنَّه جَحدُ معلومٍ مِنَ الشَّرعِ ضَرورةً»(١).

فهَذا الأثر فيه فوائد عظيمَة؛ منها:

- أن السَّلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إذا حدَثَت شُبهة تُنسَب إلىٰ الدين يطلبون كشفها من أهل العلم؛ فهذا يحيىٰ بن يعمر خرجَ مع صاحبه إلىٰ المدينة؛ لأن المدينة كانت مَعدِن العلم في ذلك الوقت، وهدفهم طلبُ كشفِ هذه الشبهة -شُبهة القَدرية- ومعرفة حُكم القدرية.

وهكذا ينبغي علىٰ الأمَّة أن تطلُبَ كشفَ الشبهات من العلماء الثقات، فلا يُتَطلب كشف الشبهة من المَجَاهيل، ولا ممن لم يَرسَخ في العلم، فإن غير الراسخين في العلم تَظهَر لهم الشبهات دِينًا، والظنُونُ علمًا، فلا ينفع مَن يَسأله، وإنما يُسأل العلماء الثقات، ولو سافر الإنسان إليهم.

ولذلك في باب الفتن والشبهات إياك أن تقتربَ منها، أو من أهلها.

وفي الحديث عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ:

---

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١/ ١٣٢ دار ابن كثير).

«مَن سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنأَ عَنهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحسِبُ أَنَّهُ مُؤمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[(١)].

فابتَعِد عن الفِتَن وعن الشُّبهات، وابتَعِد عما يُخالفُ أهل السنة والجماعة؛ فإن وَجدتَ عالمًا يكشفُها ويُوضحها فاسأله، وإلا فابتعد. هذه طريقة السلفِ الصَّالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

- وفي هذا الأثر بَيان أن مَن أنكر القَدر فقد كَفر، ولذلك كان السلفُ يُحاجُّون القدرية بعِلم الله السابق، فإن أقرُّوا به فقد عَرَفُوا الحق، وإن أنكَرُوه فقد كَفَروا.

***

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أَنَّهُ قَالَ لابنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَن تَجِدَ طَعمَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ تَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ، سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُب مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ».**

يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ: «مَن مَاتَ عَلَىٰ غَير هَذَا فَلَيسَ مِنِّي».**

الشرح

هُنا بَيَّض الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتخريج هذا الأثَر، ثم الحديث في آخره، ولكنَّه لم يذكر تخريجَه كالمُعتَاد.

وهذا قد رواه أبو داودَ، وصحَّحه الألباني[1].

ورَوَاهُ أحمَدُ في «المسند»[2] بقريبٍ منه، غير أنه قال في الوَصيَّة: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَن تَطعَمَ طَعمَ الإِيمَانِ، وَلَن تَبلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ العِلمِ بِاللهِ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيفَ لِي أَن أَعلَمَ مَا خَيرُ القَدَرِ مِن شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعلَمُ أَنَّ مَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) برقم (٢٢٧٠٥-الرسالة).

يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكتُب؛ فَجَرَىٰ فِي تِلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ.**

يَا بُنَيَّ، إِن مِتَّ وَلَستَ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلتَ النَّارَ».

ورواه الترمذي[1] أيضًا بنحوه، غير أنه قال في الوصيَّة: «... يَا بُنَيَّ، اتَّقِ اللهَ، وَاعلَم أَنَّكَ لَن تَتَّقِيَ اللهَ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بِاللهِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِن مُتَّ عَلَىٰ غَيرِ هَذَا دَخَلتَ النَّارَ...».

فهذا الأثر في الوصية، والحديث في آخِره صَحيحٌ ثَابت.

(**وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ): الصَّحَابي الجليل.

(**أَنَّهُ قَالَ لابنِهِ**): يُوصيه في آخر وصيَّة له، والوصية بالخير نَهجُ المُرسَلين، ودأبُ الصالحين، فالأنبياء يُوصُون ذرياتهم بالخير، ويوصون الناسَ بالخير، والصالحون كذَلك -وعلىٰ رأسهم صحَابة رسُول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- كانوا يُوصُون.

ولا شكَّ أن الأب ينبغي عليه أن يتخوَّل أبناءه بالوصية، وأن يجمع لهم جوامع الخير يُوصيهم بها، ولا يزال الأخيار والكبار يفعلون هذا، وهذه الحال -أعني: وصية الناس ولاسيَّما الأبنَاء- سُنَّة قد هجرها كثير من الناس، ومنهج رشيد كان عليه سلفُ الأمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وجَدير بالآباء والأمهات أن يُحيوا هذه السنة، وأن يحرصوا علىٰ إيصَاء أبنائهم وبناتهم بجوامع الخير.

---

(١) برقم (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(**يَا بُنَيَّ**): وهذا من اللطفِ في مُخَاطبة الأبناء، ولا شكَّ أن السنة أن يخاطب الأبُ أبناءه بالألفاظ الطيِّبة والألفاظ الكريمة التي تزرع الخير في نُفوسهم وتُنميه، وأن يبتعد عن تلقيبهم بالألقاب الخَبيثة، أو وصفهم بما يَغرسُ الشر في أنفسهم؛ فهذا خلافُ السنَّة ولا يجوز.

(**إِنَّكَ لَن تَجِدَ طَعمَ الإِيمَانِ**): وللإيمان طعمٌ يَجدُه الإنسان كما يجد طعم الأكلِ تَمامًا، فطعمُه حُلو أحلىٰ من السُّكر والعسل، وهو نَعيم من نعيم الجنة في الدنيا، ولكن لا يَجدُه كلُّ أحد، ومَن صَدقَ الله صدَقَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

(**حَتَّىٰ تَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ**): حتىٰ تعلمَ وتُوقِنَ أن ما وقع لا يُمكن بحال من الأحوال أن يكون إلا كما وقع، فإن أصابك الخيرُ الذي كنت ترجو؛ عَلِمتَ أنه ما كان ليخطئك ويذهب إلىٰ غيرك، وما أخطأك فلم يُصبك الخير الذي ترجو؛ عَلمتَ أنه لم يكن ليصيبك، وهذه دلالة الإيمان بالقَدَر.

(**سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ**): وفي بعض الرواياتِ بدُون (إنَّ)، والمقصود هنا برواية النصب بدون (إنَّ): أن (أولَ) ظرف زمَان، فتكون هذه الجملة كلها ظرفَ زمَان؛ أي: في هذا الزمن، زمن خلق القلم، عند خَلقه مباشرة أمره الله بالكتابة، فلا تكون الأوليَّة هنا أوليَّة للخَلق، وإنما ظَرفُ زمَان.

وبعض أهل العِلم ضبطها (أولُ) بالرفع؛ فيكون القلمُ أول ما خُلق.

وقَد اختلفَ السلفُ في أول ما خُلق علىٰ قولَين:

فقال بَعضُهم: إن أول ما خُلق القلم، واحتجوا بهذا الحديث.

وقالَ جماهِيرُ السَّلف: إن أول ما خُلِق العرشُ والماء، وبعضهم يَزيد: والريح.

ففي الحَديثِ عن النبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَال: «... **كَانَ اللهُ وَلَم يَكُن شَيءٌ غَيرُهُ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شَيءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ**». رواه البُخَاري[(١)].

والأظهَرُ -والله أعلم-: هو القول الثاني؛ أن خَلقَ العرشِ والماء سابقٌ لخَلق القلم، وعليه فيكون القلمُ أول ما خُلق من هذا العَالَم.

(فَقَالَ لَهُ: اكتُب، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُب مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ): وفي هذا دَلالةٌ علىٰ القَدر، وأن الله جَلَّوَعَلَا عَلِمَ ما هو كائن إلىٰ قيام الساعة، فإن الكتابةَ فَرعُ العلم، وأن المقاديرَ قد كُتبت في كتاب عند ربِّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذه الكتابة قبل خلق السَّموات والأرض بزَمنٍ طويل.

قال النبيُّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَن يَخلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**». رواه مسلم[(٢)].

فدَلَّ ذلك علىٰ عِلم الله السَّابق، ثم الكتَابَة بأمرِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

---

(١) برقم (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) برقم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي رِوَايَةٍ لأَحمَدَ[١]: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكتُب، فَجَرَىٰ فِي تِلكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ**».

وَفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهبٍ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَن لَم يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ: أَحرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ**».

الشرح

فخلق الله القَلمَ وأمرَه فورَ خَلقه بأن يكتب؛ فجرىٰ القلمُ في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة.

(**وَفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهبٍ**): هذا العالِمُ تلميذ الإمام مالك، وهو من حُفَّاظ الحديثِ، وهو الذي أخبر الإمام مالكًا بحديثِ تَخليل أصَابع الرِّجلَين في الوضوء، له كتاب في «القَدَر»، وهو مَطبُوع، وهذه الروايةُ فيه[٢].

(**قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَمَن لَم يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ: أَحرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ**): وهذه الروايةُ ثابتة بمَجموع الطرق، وإلا فطريقُ ابن وهب فيه ضعف بيِّن، ولا شكَّ في صحة ما فيها؛ فإن مَن لم يؤمن بالقدر خيره وشره لم يُؤمن أصلًا؛ بل هو كافر.

وما دام ذلك كذلك؛ فإنه في النار، ولا يكون من أهل الجنَّة أبدًا، وإنما هو من أهل النار.

---

(١) برقم (٢٢٧٠٥).

(٢) برقم (٢٦/ دار السلطان).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي «المُسنَدِ» وَ«السُّنَنِ» عَنِ ابنِ الديلَمِيِّ قَالَ: «أَتيتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ، فَقُلتُ: فِي نَفسِي شَيءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهَ أَن يُذهِبَهُ مِن قَلبِي؛ فَقَالَ: لَو أَنفقتَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنكَ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وَلَو مِتَّ عَلَىٰ غَيرِ هَذَا؛ لَكُنتَ مِن أَهلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيتُ عَبدَ اللهِ بنَ مَسعُودٍ وَحُذَيفَةَ بنَ اليَمَانِ وَزَيدَ بنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُم حَدَّثَنِي بِمِثلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ».

الشرح

وكلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا من قَوله: «وفِي المُسند ... إلىٰ قولِه: حَديثُ صحيح، رواهُ الحاكم في صَحيحه»، أخذه بنَصِّه وتمَامه من كتاب «شفَاء العَليل»[1] لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا نقَلَ الكلامَ بالواسطة عن ابن القيم، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عزَا الحديثَ إلىٰ الحَاكم، وقد تطلَّبت الحديثَ في «المستدرك» بقدر ما أستطيع فَلَم أجِده فيه ولا بقريب منه، لكن الحَديث رواه الإمام أحمدُ، وأبُو داود، وابنُ مَاجَه[2].

---

(١) (ص١١٢-١١٣/ دار المعرفة).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٨٩)، وأبو داود (٤٦٩٩)، وابنُ ماجه (٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فقول ابنِ القيِّم -وتبعه شيخ الإسلامِ محمد بن عبدِ الوهَّاب-: **(وَفي المُسنَدِ)**: أي: مُسنَد الإمام أحمَد.

(وَالسُّنَنِ): أي: كتُب السُّنن، وليس المُراد أنه في السنن الأربعة، وإنما يَعني في بعض كُتب السنن، وعند جَمعٍ ممَّن كتبوا في السنن.

وجميعُ الرواياتِ التي وقفت عليها فيها كلام أبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه، وكلام ابن مسعود موقوفًا عليه، وكلام حذيفة موقوفًا عليه، وإنما رَفعَ الكلامَ زيدُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقط.

وما ذَكرَهُ الشيخ مُحمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ هو ما قاله الإمامُ ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «شفاء العليل»: «قالَ -أي: ابن الدَّيلَمِي-: فأتيتُ عبدَ الله بن مَسعُود وحُذيفَة بن اليمَان وزَيدَ بن ثَابت، فكُلٌّ منهم حَدَّثني بمِثلِ ذَلكَ عن رسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وإن كان الظاهرُ -والله أعلم-: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إنما أَخذُوا هذا من السنة؛ لأن ألفاظَهُم طَابَقت ما رواه زيدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا يَدُل علىٰ أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين سَبقُوا زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّثوا بذلك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن لم يُصرِّحوا بالرَّفع.

يَشهدُ لهذا ويُقَويه: أن ابنَ الدَّيلمي قد قال: «فَحَدَّثني بِشَيءٍ»، والأصل في التحديثِ أنه عن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لم يُصَرح الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أُبَي، وابنُ مسعُود، وحُذيفَة، بالرفع إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما الذي صرح بالرَّفع زيد بن ثَابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد جاء في رواية ابن ماجه: أن أُبيًّا قال له بعدَ أن حدَّثه: «وَلَا عَلَيكَ أَن تَأتِيَ أَخِي عَبدَ اللهِ بنَ مَسعُودٍ، فَتسألَهُ، فَأَتَيتُ عَبدَ اللهِ، فَسَأَلتُهُ، فَذَكَرَ مِثلَمَا قَالَ أُبَيٌّ، وَقَالَ لِي: وَلَا عَلَيكَ أَن تَأتِيَ حُذَيفَةَ، فَأَتَيتُ حُذَيفَةَ، فَسَأَلتُهُ، فَقَالَ مِثلَمَا قَالَا».

(عَنِ ابنِ الديلَمِيِّ): وهو تابعي، وذكَرَ بعضُهم أنه صحَابي من صغار الصحابة.

(قَالَ: «أَتَيتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ، فَقُلتُ: فِي نَفسِي شَيءٌ مِنَ القَدَرِ): وفي الرِّوايَات: «وقَعَ فِي نَفسِي شَيءٌ مِن القَدَر»؛ أي: حدث لي شَكٌّ وتَلجلُج.

وجاء في بعضِ الروايات: «فَخَشِيتُ أَن يُفسِدَ عَلَيَّ دُنيَايَ وَدِينِي؛ فَحَدِّثنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهَ أَن يُذهِبَهُ مِن قَلبِي».

فهنا لـمَّا حدثت الشبهَة في قلبه لم يسكُت ولم يترُكها تَنمو وتَزداد؛ بل ذهب إلىٰ الطَّبيب الحاذق ليَستأصل الداءَ من القلب، ولم يذهب إلىٰ كلِّ أحدٍ، فذَهب إلىٰ من عُرفَ بالرسُوخ في العلم، ولم يذهب إلىٰ مجَاهيل في العِلم حتَّىٰ ولو كانوا مشَاهير، لكن ليس عندَهُم عِلم، وإنمَا يُوفَّق من أخذَ العلم من أهله الذين شُهِدَ لهم وبَرزوا، وعُرفوا بالفهم والبَصيرة، وحُسن تنزيل المسَائل.

(فَحَدِّثنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهَ أَن يُذهِبَهُ مِن قَلبِي): فذهبَ ابن الديلمي إلىٰ أبيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكي يحدثه بشَيءٍ يُذهب ما في نَفسه؛ ولعله أرادَ الحديث عن رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن السلف يَعلمُون أن دواء الداء الذي يقع في القَلب: الكتابُ والسُّنة، فهما يَغسِلان القَلب غَسلًا، ويُطهرانه من أدرانه وشُبهاته ووساوسه، فيُرجع إلىٰ من يفهم الكتاب والسنة ومَن هو من أهل السنة، وليس ممن يُقَدم العقل علىٰ

الوحي، ويتفلسَف بعَقله علىٰ كتاب الله وعلىٰ سُنة رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حذف من النص شَيئًا ليس مما يَدُل علىٰ مقصوده، **(فقال: لَو أنفقتَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا)**: في الرِّوايات زيادة: «**فِي سَبِيلِ اللهِ**».

(مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنكَ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بِالقَدَرِ): لأنه إذا لم يُؤمن بالقَدَر فهو كافر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقبلُ من الكافر شيئًا، ولو أنفق ملءَ السموات والأرض وهو كافر ما قَبِلَه الله عَزَّ وَجَلَّ منه.

(وَتعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَم يَكُن لِيُخطِئَكَ، وَمَا أَخطَأَكَ لَم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وَلَو مِتَّ عَلَىٰ غَيرِ هَذَا؛ لَكُنتَ مِن أَهلِ النَّارِ): ثم أرشَدَهُ أُبَي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أن يذهب إلىٰ ابن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليَزدادَ يقينًا، فهذه قضية خطيرة، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّثه كما حدثه أُبَي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَواءً بسواء، وكأنهما قد اتفقا، وهذا يشهدُ إلىٰ أن هذا من حديثِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(قَالَ: فَأَتَيتُ عَبدَ اللهِ بنَ مَسعُودٍ وَحُذَيفَةَ بنَ اليَمَانِ وَزَيدَ بنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُم حَدَّثَنِي بِمِثلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

بَقيَت مَسألة؛ وهي:

أن فيما تقدم في النصوص أن تُؤمِن بالقدر خَيرِه وشَرِّه حُلوه ومُرِّه من الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يقع الخَير إلا بإرادة الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يقع الشَّر إلا بإرادةِ الله عَزَّ وَجَلَّ الكونية القَدَرية، فالإرادة الكونية القَدَرية تتعلق بالخير والشَّر، غير أن الشرَّ ليس إلىٰ ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالشر ليسَ إلىٰ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه عن حِكمَة عظيمة، وإنَّما الشر للمَخلُوق، والشر بالنسبة للمَخلُوق واقع منه، وواقع عليه، أما الواقع منه فإنه يُعَابُ به ويُذَم عَليه ويُعَاقب عليه؛ لأنه علم أنه شَر بالأدلةِ الكثيرةِ التي نَصَبها الله عَزَّوَجَلَّ له، واختار هو ذلك الشَّر وأرَادَه وفَعَله؛ كالزنا، والكذب، والقَتل، والسَّب، والشَّتم، واللَّعن، والضَّرب، كُل هذه شُرور واقعة من المَخلُوق.

وأما الشر الواقعُ عليه؛ كأن يُضرب، أو نحو ذلك، فهذا إن لَزِم فيه شرع الله جَلَّ وَعَلَا كان خيرًا له في حَقيقَته وفي مَآلاتِه، فهو يَحملُ الخَير والمِنَح منَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَجبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤمِنِ، إِن أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإِن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيرًا لَهُ**». رواه مسلم[(١)].

وبهذا تعلمُ أن الإرادة الكونيَّة القَدريَّة تتعَلَّق بالخَير والشَّر؛ فلا يقع في خَلق الله إلا ما أَرَادَه الله عَزَّوَجَلَّ غير أن الشَّر ليس إلىٰ رَبِّنا، أما الإرادَةُ الشرعيَّة فليس فيها إلا خير، فالله ما أراد بعبَاده شرعًا إلا الخَير، فالإرادة الشرعية متعلقة بالخير فعلًا للمأمور وتركًا للمَنهي عنه.

فالله عَزَّوَجَلَّ أراد شرعًا بعباده أن يُوحِّدوه ولم يُرِد شرعًا أن يشركوا به، وهذا من أجل الفُرُوق بَينَ الإرادَة الكَونيَّة القدريَّة والإرادة الشَّرعية الأمريَّة، أن الإرادة الكونية القدرية تتعلق بالخَير والشَّر، لكن الشر ليس إلىٰ ربنا، أما الإرادة الشَّرعية فلا تتعلق إلا بالخَير، هذه المَسألة من مسَائل الإيمان بالقدر.

---

(١) برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سِنَان الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: بَيَانُ فَرضِ الإيمَانِ بِالقَدَرِ.

فالإيمان بالقدر فَرضٌ لازم، ورُكن من أركان الإيمان، وأن مَن لم يؤمن بالقدر لم يُؤمِن أصلًا، ولم يكن من المؤمنين، كما في حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي استشهد به ابنُ عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الثَّانِيَةُ: بَيَانُ كَيفِيَّةِ الإيمَانِ بِهِ.

أو بيانُ مَا يَدُل علىٰ الإيمَان به، وهو أن يعلم المؤمنُ أن ما أصابه من خَير أو شر لم يَكُن ليُخطئه أبدًا، وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه أبدًا، فإذا استقرَّ ذلك في قلبه ووجد ذلك في قلبه؛ فإنه قد آمن بالقَدَر، فهذا الذي دلَّت عليه النُّصوص، ودلَّ عليه صحابَةُ رسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّالِثَةُ: إِحبَاطُ عَمَلِ مَن لَم يُؤمِن بِهِ.

وأنه مَهما فعل من الخير مادام لا يُؤمن بالقَدر؛ فإن الله لا يقبل منه عملَه؛ لأنه كافر، والله لا يقبل من الكافر عملًا مهما كان العمل كثيرًا.

الرَّابِعَةُ: الإِخبَارُ بِأَنَّ أَحَدًا لا يَجِدُ طَعمَ الإيمَانِ حَتَّىٰ يُؤمِنَ بِهِ.

ولا يمكنُ للإنسان مَهما فعلَ أن يجدَ طَعمَ الإيمان حتىٰ يُؤمن بالقَدَر؛ كما في أثر عُبَادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الخَامِسَةُ: ذِكرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.

ويظهر هنا -والله أعلم- أن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أن أول ما خَلق الله هو القَلم، وقد ذكَرنَا المسألة، وذكرنا أن الأقربَ هو ما ذهبَ إليه الأكثر من السَّلف، وهو أن أول ما خَلق الله العرشَ والماء، وأما القلم فهُو أول ما خَلق من هذا العالم، وكُتِبَت به المَقادير.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ جَرَىٰ بِالمَقَادِيرِ فِي تِلكَ السَّاعَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ.

أي: أنَّ القلم جَرىٰ بالمقادير في تلك الساعة عندما خُلق، وذلك بأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، إلىٰ قيام الساعة، وما وراءَ ذلك مَسكُوت عنه في النصُوص؛ فيجبُ علىٰ المؤمنِ أن يسكُتَ عنه ولا يبحث فيه.

السَّابِعَةُ: بَرَاءَتُهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِمَّن لَم يُؤمِن بِهِ.

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والمُؤمنون بُرآءُ ممن لم يُؤمن بالقَدر؛ ولذلك تبرَّأ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ منه، وتبرأ ابنُ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا منه، وهكذا كل مُؤمنٍ عَرف حقَّ الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ يتبَرَّأ ممن لم يُؤمن بالقَدَر.

الثَّامِنَةُ: ذِكرُ عَادَةِ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبهَةِ بِسُؤَالِ العُلَمَاءِ.

وما أعظمها من فائدة وما أحوجَنا إليها، فالعُلماء للقلوبِ كالمَاء للجَسد، فالجسدُ تَعلَق به الأوساخ؛ فإذا اغتسل بالماء لا يبقَىٰ من دَرَنه شيء، والقَلب ما دام العبد في الدنيا تَعلَقُ به عوالق وشُبهات، وطَهَارَتُها إنما هي بالرجُوع للعُلماء الربَّانيين الراسِخين المَعرُوفين بالسنة.

ولا شكَّ أن من لزم العُلماء؛ حَمَل الخير وسَلِم من الشر، وكما قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلَـم هُـدِيتَ أَنَّ أَعظَـمَ المِـنَن   عِلـمٌ يُـزِيلُ الـشَّكَّ عَـنكَ وَالـدَّرَن

فأعظم نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ عليك أن يرزقك علمًا يزيل الشك عنك؛ فتندفع عنك الشبهات، وتسلم منها، وترتفع إن تسَلَّلَت إلىٰ القلب، وتضعُف بهذا العلم سيطرَة الشَّهوات؛ فتكون مستقيمًا علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ، ولن تحصِّل هذه النعمة إلا بلزوم رِكَاب العلماء الربانيين، وأن تثني ركبتيك عند العلماء الربانيين، وهذا منهج السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فإن لم تَجِد عالمًا فابتَعِد عن الفتن وأهلِهَا، وعليك بقراءةِ القُرآن وكَثرَة الدعاء أن يُسَلِّمك الله من الفِتَن وأهلها.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ العُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ الشُّبهَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُم نَسَبُوا الكَلامَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَط.

وهذه وظيفة العَالِم؛ أن يُجيب بما يُحَقق المقصود، لا بما يعكس المَقصُود، وأعظم الجواب من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ومن سُنة رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بأفهام العُلماء الربانيين من الكتاب والسنة، وهكذا فعل الصحَابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنهم أجابُوا ابن الديلمي بكَلام يَطيب به القلب، وتزول به الشبهة، وتبين أن هذا الكلام من كَلام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊❊❊

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ.

الشرح

لمَّا كان التصويرُ خُطوة من خطوات الشيطان التي أوقع بني آدم بهَا في الشِّرك -كما تقدَّم-، عقدَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب؛ فإن في منع تصوير ذوات الأرواح سدًّا لذَريعَة الشرك، ولا شكَّ أن الشَّرع جاء بسد الذرائع إلىٰ الشرك.

كما أن في التصوير سُوءَ أدبٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهو يُنافي كمال التوحيد الواجب، وذلك أن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المُصَوِّر، فالمصور اسمه والتَّصوير فِعلُه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد صَوَّر المخلوقات، وأبدَعَ صُوَرها، فالمصور من الخلق يُشَابه الله جَلَّ وَعَلَا في هذا، ويسعىٰ في هذا، وفي هذا إساءة أدبٍ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا يُنافي كمال التوحيد الواجب؛ ولذا عقد الشيخ هذا البَاب في «كتَاب التوحيد».

قالَ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ): أي: باب ما جَاء في المُصَورين من الوَعيد والعقُوبة.

وعَلاقة التصوير بالتوحيد من وَجهَين:

الوجه الأول: أن المُستَقِرَّ المَعلومَ أن إبليس قاد بني آدم إلىٰ الشِّرك بخطوات، ومن أهم هذه الخُطوات وأعظمها: أنه أمرَهُم بتَصوير الصَّالحين؛ فلمَّا كان ذلك كذَلك؛ كان في مَنع التصوير سدٌّ لذَرائع الشِّرك، فناسب «كتَاب التوحيد».

والوَجهُ الثاني: أن في تصوير المَخلُوقِ لذَواتِ الأرواح إساءةَ أدبٍ مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وتعدٍّ، وهذا يُنَافي كمال التوحيد الواجب؛ فناسب ذِكر هذا الباب في «كتَاب التوحيد».

والتَّصوير علىٰ قِسمَين:

القسم الأول: تَصوير ذوات الأرواح؛ كالإنسان والحَيوان.

والقسم الثَّاني: تصوير غَير ذوات الأرواح؛ كالبُيوت والسيَّارات والأزهار والأشجار، ونحو ذلك.

أمَّا القسم الأول -وهو تصوير ذوات الأرواح- فَهُو علىٰ أربعَةِ أنوَاع:

النَّوع الأول: التصوير بالتماثيل التي يُعبر عنها أهل العلم بما لهُ ظِل؛ أي: أن له جِسمًا؛ كالتماثيل والأصنام وصور الحيوانات المُجَسَّمة، وهذا قد اتَّفقَ العلماءُ علىٰ تَحريمه، وأنه من كبائر الذنُوب.

النَّوع الثاني: ما لا ظل له بل هو رَقمٌ وصورة تُوضَع علىٰ ورقة أو ثوب أو فراش أو نحو ذلك، وهو ما يرسم باليد؛ فيأتي إنسانٌ ويأخذ قلمًا ويَرسُم صورة الوجه والرأس والرَّقبة والجسم، وهذا ذهب أكثر العلماء إلىٰ تَحريمه، وذَهَب بعضُ التابعين وقلة من العلماء إلىٰ إجازته.

والرَّاجح -والله أعلم-: أنه حَرَام؛ وذلك لأمرين:

أولًا: لعُموم النصوص التي معَنا؛ فإنها تَشمَله.

وثانيًا: لأحاديث خاصَّة؛ منها حديثُ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قَالَت: «دَخَلَ عَلَيَّ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي البَيتِ قِرَامٌ فِيهِ صُوَرٌ، فَتَلَوَّنَ وَجهُهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّترَ فَهَتَكَهُ، وَقَالَت: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ مِن أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ**». مُتَّفق عَلَيه[1].

والقِرَام: هو ثوب غليظٌ من صُوف يُجعل سترًا علىٰ الباب، ويُجعل فِراشًا، والغالب أنه مُلَوَّن وفيه نقوش، فهُنا لا شكَّ أن الصورة التي كانت في القرام ليست تمثالًا، وإنما صورة مُصوَّرة، ومع ذلك تلوَّن وجهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغَضِب، ثم أخذ الستر ومزَّقه، وهذه الصُّور صُور رُسِمت باليد، وليس لها ظل؛ فدلَّ هذا دلالة واضحَة بينةً علىٰ حُرمة هذه الصور.

وأيضًا ما جاء عَن أُسَامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «دَخَلتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الكَعبَةِ وَرَأَىٰ صُوَرًا، قَالَ: فَدَعَا بِدَلوٍ مِن مَاءٍ، فَأَتَيتُهُ بِهِ، فَجَعَلَ يَمحُوهَا وَيَقُولُ: **قَاتَلَ اللهُ قَومًا يُصَوِّرُونَ مَا لَا يَخلُقُونَ**». رواه أبو داودَ الطَّيَالسي، وابن أبي شيبة، والطَّبَرانيُّ، وقالَ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَدِيثُ بمَجمُوع الطَرِيقَين ثَابتٌ»[2].

وهذا يدُل علىٰ أن هذه الصور لم تكُن أصنامًا ولا تماثيل، وإنما كانت مَرسُومة رسمًا علىٰ جدار الكعبة، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بماءٍ وأخذ

---

(١) البخاري (٦١٠٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود الطَّيالسي في «مسنده» (٦٥٧- هجر)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢٠٠) برقم (٢٥٢١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ١٦٦) برقم (٤٠٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٦).

يَمحُوها، ولو كانت تماثيل لحَطَّمها؛ لأن إزالتها بالمَاء لا تفيد فيها.

فعلمنا بذلك أنها صور مرسومَة باليد وليس لها ظِل، ودلَّ هذا أيضًا علىٰ أن هذا الفعل -وهو رسمُ ذوات الأرواح مما ليسَ له ظِل- حرام، ومن كبَائر الذُّنوب.

فهذه أدلة واضحة بينة علىٰ حُرمة تصوير ذوات الأرواح باليد لا يُقابلها دليلٌ واضحٌ بَيِّن.

النَّوع الثالث: التصوير بالآلة (الكاميرا)، أو بالجوال، وهي الصُّورة الثابتة.

وهذه قد اختلف فيها العلمَاءُ المُعَاصرون؛ ولم تكن موجودة عند المُتقَدمين:

- فذهب جماعات من العُلماء إلىٰ أن هذا التصويرَ حَرام؛ لعموم النصوص؛ ولأنه تصوير بالاتفَاق.

- وذهب بعضُ العلمَاءِ المُعَاصرين إلىٰ جواز هذا التصوير، واستدلُّوا بأدلة؛ منها:

أولًا: أن هذا التصوير ليس من فعل الإنسَان، وإنما هو من فعل الآلة!

ويُجَاب عن هذا: بأن الآلة جماد لا يُنسَب إليها الفعل، وإنما يُنسَب الفعل إلىٰ الإنسان، ونحن نَقُول عن هذا الذي يَضغط زِرَّ الكاميرا: هذا مُصَوِّر.

ففي مثل هذا يُضَاف الفعل إلىٰ المُتَسبب لا إلىٰ المُباشِر وهو الآلة، وهذا يدخل في قول الفُقهاء: يضاف الفعل إلىٰ المتسبب لا إلىٰ المباشر، والمُتَسَبِّب هنا هو هذا الإنسان الذي ضغط هذا الزِّر فحصَلَ التصوير.

وثانيًا: أن هذا الصورة إنما هي حبسُ ظل الإنسان؛ فهي كالنظر في المرآة والماء، فالإنسان إذا نظر في المِرآة أو في الماءِ تظهرُ صورَتُه وتنطبع كما هي، وهذا جائزٌ بالاتفاق؛ أي: النظر في المرآة والنظر في الماء.

قالوا: فكذا التصوير بالكاميرا والآلات جائز.

ويُجاب عن هَذا: بأن هناك فرقًا بين الكاميرا والمرآة أو المَاء من وَجهَين:

الوَجهُ الأول: أن الحبسَ في المرآة وفي الماء حبسٌ عارض لا يَبقىٰ، وأما الحبسُ في الآلة فهو حبسٌ دائم يبقىٰ ويُقتَنىٰ، فبَينَهُما فرق بَيِّن.

الأمرُ الثاني: أن ما في المرآة هو الحقيقة الواقعة كما هي، فالإنسانُ وهو ينظر في المرآة إذا ابتسم ظهَرَت ابتسامَتُه، وإذا رفع يَدَه ارتفَعَت... وهكذا، أمّا في الصورة فلا يُمكن، وإنما هي صورة جَامِدة ليست هي الحَقيقة، ففرقٌ واضح بَيِّن بين الأمرَين.

ولذَا يَظهَر -والله أعلم-: أن التصوير بالآلات الصُّور الثابتة حرَام بَيِّن، وليس من المشتبهات؛ ولا يَجُوز منه إلا ما دَعَت إليه الضَّرورة والحاجَة؛ مثل: البطاقة، ورُخصَة القيَادة، وجَواز السفر، وما يُطلَب في المَدَارس.

وكَذلك -فيما يَظهَر لي والله أعلم-: ما يحتاجُ إلىٰ توثيق ويُطلب؛ كبَعض الأعمال الخيرية التي تَحتاج إلىٰ توثيق، أو نحو ذلك، فهذا مُستثنىٰ، ونَصَّ العلماءُ علىٰ جَوازه.

ولَو طُلِب من الإنسان صُورَة وأعطاه المُصَوِّر ستَّ صُوَر؛ ماذا يفعل في الخمس الباقية؟

قال بَعض أهلِ العِلم: يَحفَظُها؛ لأن الغالب أنه يحتاج إليها، فحتىٰ لا يقع التصوير مرة أخرىٰ يَحفظها حتىٰ يدفَعَها عند الحَاجَة؛ وحتىٰ لا يكون في ذلك إضاعة للمال.

وقَال بعضُ أهل العِلم: بل يُتلِفُها؛ لأن الحاجة قد سُدَّت فلا حاجة إلىٰ هذه الصور.

وأنَا أرَىٰ -والله أعلم-: أنه يُبقِيها ويحفظها في شيء، لا يُبقيها مَكشُوفة، ولا يُعَلقها، فإذا احتاجَ إليها -والغالب أنه يحتاج إليها- دفَعها إلىٰ مَن يطلبها فلا يضطر إلىٰ التصوير مرة أخرىٰ.

النَّوع الرابع: التَّصوير بالآلات تصويرًا مُتحَركًا ليس ثابتًا؛ **وهَذا علىٰ ناحيتين**:

النَّاحية الأولىٰ: التصوير المُباشر، مثل هذه الكاميرات في مَسجِد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإنها تنَقُل نقلًا مباشرًا، وهذا جائز لا حرج فيه؛ لأنه نقل للواقع كما هو؛ وهو كما لو وَضَعت مرآة تعكس بها الناس وما يَفعَلُون.

وبعضُ أهل العلم يَمنع هذا النوع من التصوير أيضًا، ولكنه أخفُّ من الثاني.

النَّاحية الثانيَة: التصوير غير المُبَاشر المتحرك، **فهَذا قد اختلَفَ فيه العُلمَاء**:

فمن أهل العلم مَن يَراه تصويرًا، ويراه مُحَرمًا ولا يرخص فيه، حتىٰ في باب الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويقول: نحنُ في غنىٰ عنه بالوسَائل الأخرىٰ.

ومن أهل العِلم من يُحَرمه، غير أنه يُرَخص فيه في الدعوة ونحوها؛ كنَقل

المحاضرات الطَّيبة، والدروس والخُطب، وهذا الذي استقرَّ عليه شيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه في الأول كان يَرىٰ أنه تصوير مُحَرم، لكن من خرج من المشايخ في التلفزيون بنية نشر الخَير أنهم يؤجرون علىٰ نِيَّتهم، لكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يَكُن يظهر، وفي آخر حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأىٰ أن جوازه أولىٰ من جَوَاز الصورة للجَوَاز والشهادة، فأذِنَ بإحضار الكاميرات في المُحَاضرات التي كان يُعَلق عليها، وظَهَرت له بعض المُحَاضرات في هذا.

ومن أهل العلم مَن رأىٰ أنه ليس من التصوير، وأنه جائز، وقالوا: هذا الذي يُشبه المرآة حقيقة؛ لأن التصوير في هذه الآلات المُتحَركة ينقل الحقيقة كما هي في الواقع.

والذي يظهَرُ -والله أعلمُ-: أن الراجحَ من أقوال أهل العلم أن تصوير الفيديو من المشتبهات؛ ليس من الحلال البَيِّن، ولا من الحَرَام البَيِّن، فهناك ما يدعو إلىٰ منعه وأنه صُورَة، وهناك ما يَدفَع هذا.

فحَقيقٌ بالمؤمن أن يبتعدَ عنه؛ فهو أبرأ لدِينه وعِرضِه؛ حتىٰ لا يُتَّهم، إلا إذا ظهرت في ذلك مَصلَحة، كالمُحَاضرات والدروس والخطب النافعة.

ومما أُفتِي به في هذا الشَّأن: أنه لو كان المُسلم غائبًا عن والدَيه فترة طَويلة وهو في بلد آخر، ولا يستطيع الحضُور أو السَّفر وأراد والداه أو أولاده أن يَرَوه، فلا حَرجَ أن يستعملَ برامجَ النقل المُباشر التي تنقل الصورة مَباشرة حتىٰ تَراه أمه أو أبُوه، أو ترىٰ أولاده إن كان معه أسرته، ونحو ذلك، وإن لم يتيَسَّر النقل المُباشر؛ فلا بأس من تصوير الفيديو وإرساله؛ لأن هذه حاجة ظاهرةٌ،

والمَصلحة فيها -فيما يظهَرُ لي والله أعلم- ظاهرة.

القسم الثاني: تصوير ما لا رُوحَ فيه، وهذا يتنوع عند أهل العلم إلىٰ ثلاثة أنواع:

النَّوع الأول: ما هو من صُنع الإنسَان نَفسِه؛ مثل: السيَّارة والبيت والآلَة والمَلابس، ونحو ذلك، فهذا يَجُوز تصويره، فيجُوز للإنسان أن يُصَور سيارته أو بيته أو ثَوبه؛ لأنه إذا جاز الأصلُ جازت الصُّورة.

النَّوع الثاني: ما ليسَ من صُنع الإنسان، ولا يَنمُو؛ مثل: الجِبَال والأنهار، ونحو ذلك، فهذه أيضًا يجوز تصويرُها، ولا حرَجَ في هذا.

النَّوع الثَّالث: ما ليس من صُنع الإنسان، ويَنمُو؛ مثل: الحُبوب والأشَجار والأزهار، **وهذه قَد اختلفَ فيها العلمَاء**:

- فذهب الأكثرُ إلىٰ جَواز تصويرها؛ إذ لا مَانع.

- وذَهبَ بعضُ أهل العِلم إلىٰ مَنع تصويرها، وقالوا: إنها تدخل في خَلقِ كخَلق الله؛ لأنه جاء في الحَديث القُدسي الذي سيأتي: «**فَليَخلُقُوا ذَرَّةً**»، وهذا من ذوات الأرواح، «**أَو لِيَخلُقُوا حَبَّةً**»، وهذه الحبة تنمو إذا غُرِسَت في الأرض، ويخرجُ منها نبات.

لكن الذي يَظهَرُ -والله أعلم-: أنه يجوز؛ فإن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لما جاءَه الرجلُ، وذكر له أن مهنته التصوير، وأفتاه بحُرمة تصوير ذوات الأرواح كأن الرجل تغيَّر وجهه، فقال له ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إِن كُنتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصنَعِ

الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفسَ لَهُ». وهذا في «الصحيحين»[1].

فدَلَّ هذا علىٰ جوازِ تصوير الشَّجر وهو ينمو، وجواز تصوير ما لا نَفسَ له وما لا رُوحَ له، و هذا الأظهر والأرجَح -والله أعلم-.

﴿﴾❁❁❁﴿﴾

(١) البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) واللفظ له.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَمَن أَظلَمُ مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقِي، فَليَخلُقُوا ذَرَّةً، أَو لِيَخلُقُوا حَبَّةً، أو لِيَخلُقُوا شَعِيرةً». أَخرَجَاهُ.

الشرح

هذا الحديثُ الصحيحُ عند البخاري[١] ومُسلم[٢].

وهو حديثٌ قُدسي، ويُسميه بعض أهل العلم بالحَديث الإلهي، ويُسَميه بعض أهل العلم بالحَديث الربَّاني، وهو: ما رواه النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عن رَبِّه.

والمعلُوم أن ما نَطق به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَحيٌ، إلا ما دلَّ الدليل علىٰ أنه اجتهاد منه.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

ومَا جَاء به النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ علىٰ ثلاثة أقسام:

- **القُرآن**: وهُو كلامُ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلفظُه ومعناه من الله عَزَّ وَجَلَّ.

- **والحَديث النَّبوي**: وهو ما رُوِي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فمُنتهَاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فمعناه من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو وَحي، ولفظُه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) برقم (٧٥٥٩).

(٢) برقم (٢١١١).

- **والحَديث القُدسِي**: وهو ما روَاه النبيُّ ﷺ عن رَبه جَلَّ وَعَلَا.

وقد اختلَفَ العُلماءُ في لفظه: هل هو من الله جَلَّ وَعَلَا، أو من النبيِّ ﷺ؟

فقَال بعضُ أهل العِلم: لفظُه من النبي ﷺ، بدَليل أنه يجوز أن يُروَىٰ بالمعنىٰ، وذكروا أمورًا ليس هذا مقامَ تَفصيلها.

وقَال بعضُ أهل العِلم: لفظُه من الله جَلَّ وَعَلَا، بدليل أن النبي ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ». وتأتي فيه ألفاظ لا يُمكن أن تكون إلا من الله، كالحَديث الذي معنا في الباب: «**يَخلُق كَخَلقِي**»، أو كحَديث: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمتُ الظُّلمَ عَلَىٰ نَفسِي**»[1].

وقَال بعضُ أهل العِلم: بل نَسكُت عنه، فنَعلمُ أنه وحيٌ، وأن النبي ﷺ يَرويه عن رَبِّه، ولا نَقول: هل لفظه من الله، أو لفظه من النبي ﷺ؟

والأقربُ للتَّحقيق عندِي -والله أعلم-: أن لفظه ومعنَاه من الله عَزَّوَجَلَّ.

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: وَمَن أَظلَمُ**): (مَن) هنا استفهاميَّة، ويُراد بها النفي. والمَعنىٰ: لا أحدَ أظلم.

(**مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقِي**): أي: ممَّن صوَّر الصُّور، وإلا فلا يستطيع أحد أن يَخلُق كخلق الله، لكنه صَوَّر فكَان كأنه خَلَق كخلق الله جَلَّ وَعَلَا.

وهنا إشكَال؛ فالله عَزَّوَجَلَّ قال: «**وَمَن أَظلَمُ مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقِي**»؛ أي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا أحدَ أظلم منه، وهناك مَن يُشاركه في الظلم؛ بل يفوقه في الظلم؛ فما الجَواب؟

قالَ بعضُ أهل العِلم: المعنىٰ: أنه في أعلىٰ مَراتب الظُّلم، ولا يَعني هذا أنه لا يُشَاركه غيره، ولا يعلو عليه غيره، لكن كُلهم في القمَّة يشتركون في أعلىٰ الظلم، ثم يتفَاوتُون في هذا.

وقال بعضهم: المَعنىٰ: لا أحدَ أظلم منه إذا تعمَّد أن يُشَابه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا التصوير، أو صَوَّر صورة لتُعبَد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه إذا تعمَّد أن يشابه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يَكفُر، وإذا صور صورة لتُعبَد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يَكفُر.

ومادام ذلك كذلك؛ فإنه لا أظلم منه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقال بعضهم: المَعنىٰ: لا أحدَ أظلم منه في باب المُضَاهاة؛ فهذا أمر نِسبي، في باب كذا هذا أعلىٰ الناسِ ظُلمًا، وفي باب كذا هذا أعلىٰ النَّاس ظُلمًا... وهكذا، ففي بابِ المُضاهاة هذا أعلىٰ الناس ظلمًا.

والأقربُ عِندي -والله أعلم-: الأول؛ وهو أنه في أعلىٰ مَراتب الظُّلم.

(فَليَخلقُوا ذَرَّةً): هذا أمر تَعجيز وإبطَال، و(الذَّرة): هي النملة الصَغيرة جدًّا، ولا يزالُ الناس إلىٰ اليوم يسمونَها ذرة.

وبعضُ المُتنطعين قالوا: الذرَّة: هي هذه التي تُطلق في الاصطلاحَات العلمية الفيزيائية وغيرها، وهذا لا يأتي به النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه يُخَاطب

الصحَابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بما يَفهَمُون.

فهذا المُصَوِّر بهذا الفعل كأنه يخلُق كخلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو في الحقيقة لا يستطيع أن يخلق أصغَر حيوان فيه رُوح، وما دام أنه لا يستطيع فإنه لا يَجُوز له أن يُصَوِّر، ففيه إبطَالٌ للتَّصوير.

(أَو ليَخلُقُوا حَبَّةً): فإذا كان صعب علىٰ المُصَور أن يخلق الذرَّة؛ لأن فيها تركيبًا بديعًا، وفيها رُوح، إذن فليخلق حبَّة ذُرَة، أو أرز، لا يَستطيع، إذن كيف يذهب ويخلُق كخَلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالتصوير؟!

(أَو لِيَخلُقُوا شَعِيرةً): قال بعضُ أهل العلم: (الشَّعيرة) هنا هي النبات؛ نبتة الشَّعير.

وبعض أهل العلم قال: لا، هي حبَّة الشَّعير؛ فيكون من باب ذكر الخاص بعد العام.

وهذا أيضًا أمرُ تَعجيز وإبطَال، فما دُمتَ أيها المَخلُوق لا تستطيع أن تخلق شيئًا صغيرًا؛ فكيف تجرؤ علىٰ أن تُصَوِّر وتَخلُق كخلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فدَلَّ ذلك علىٰ حُرمة التصوير حُرمَة عظيمة، وأنه من كبَائر الذنوب.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلقِ اللهِ».

الشرح

(**وَلَهُمَا**): أي: للبُخاري[1] ومُسلم[2].

(**عَن عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلقِ اللهِ**): أي: الذينَ يُشابِهُون بخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك بالتصوير.

وجاء عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعتُ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِندَ اللهِ يَومَ القِيَامَةِ المُصَوِّرُونَ**». مُتَّفق عليه[3].

فهذا الحديثُ عن ابن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُفسِّر جملة: «**الذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلقِ اللهِ**». التي في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأن المراد به المُصَوِّرون.

وهذا يَدُل علىٰ أن التصوير من كبَائر الذنوب، والمُصَوِّرون أشَد الناس عذابًا يوم القيامة، وهذا من نصوص الوَعِيد، فيُمَرُّ كما جاء، وهو أن المُصَوِّر متوَعَّد بأشد العذاب يوم القيامة.

---

(١) برقم (٥٩٥٤).

(٢) برقم (٢١٠٧).

(٣) البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٠٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلَهُمَا عَن ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

الشرح

(**وَلَهُمَا**): أي: للبُخاري[1] ومُسلم[2].

ولَفظُه: عَن سَعِيدِ بنِ أَبِي الحَسَنِ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ أُصَوِّرُ هَذِهِ الصُّوَرَ، فَأَفتِنِي فِيهَا، فقَالَ لَهُ: ادنُ مِنِّي، فَدَنَا مِنهُ، ثُمَّ قَالَ: ادنُ مِنِّي، فَدَنَا حَتَّىٰ وَضعَ يَدَهُ عَلَىٰ رَأسِهِ، قَالَ: أُنَبِّئُكَ بِمَا سَمِعتُ مِن رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ.**

وقَالَ: إِن كُنتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفسَ لَهُ».

(**عَن ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ**): هذه جملة خَبر، فكُل مُصَور مُتوعد بدخول النار.

(**يُجعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**): أي: وإذا دخلَ هذا المُصَور النار، فإن مِن عَذَابه: أن الله يجعل له بكل صُورة صوَّرها في حياته

---

(١) برقم (٢٢٢٥).

(٢) برقم (٢١١٠).

-ومَات ولم يَتُب من ذلك- نَفسًا، وهذه النفسُ تُعَذِّبه في النار، وظاهر هذا أنه حتىٰ تَفرغَ الصور التي صَوَّرها وتَنتَهي، واللهُ أعلم بأمَد هذا، نعوذُ بالله من عذاب الله.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَهُمَا عَنهُ مَرفُوعًا: «مَن صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنيَا؛ كُلِّفَ أَن يَنفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيسَ بِنَافِخٍ».

الشرح

(وَلَهُمَا عَنهُ): أي: للبُخاري[1] ومُسلم[2]، عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(مَن صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنيَا): (صورَة) نكرة في سياق الشَّرط؛ فتَعُم كلَّ ما سُمِّي صورة في الدنيا؛ سواء كان تمثالًا له ظل، أو كان بِرَسم اليد علىٰ ثَوب أو ورَقة، أو كان برَقم الآلآت والكاميرات، ونحو ذلك، فإنها كلها تدخُل في هذا اللفظ.

(كُلِّفَ أَن يَنفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيسَ بِنَافِخٍ): كُلِّف يوم القيامة أن ينفخَ في الصورة التي صوَّرها الروح، وأُلزِمَ بهذا، ولن يستطيع مهما بذل فإنه ليسَ بنَافخ، وبمِقدار ما يصور يكونُ له هذا العذاب يوم القيامة والعيَاذ بالله.

وإذا تأمَّلت هذه النصوص المتقدمة تَجد أنها إنمَا وردت في المُصَوِّرين؛ أي: أنها مُتعلقة بالفِعلِ الذي هو التصوير، ولم تُعَلَّق بالصورة.

ويَدخل في هذا الوَعيد وفي هذا الفِعل الذي هو التَّصوير ثلاث:

أوَّلُهُم: المُصَوِّرُ نفسه، وهو الذي يصور التمثال، أو يَرسُم ذوات الأرواح

---

(١) برقم (٧٠٤٢).

(٢) برقم (٢١١٠).

بالأقلام أو الفَحم، أو غير ذلك، أو بالآلات كالكاميرات والجَوَّالات -الهَواتف المتنقلة-، وغير ذلك، فهذا يَدخُل في هذا الوعيد الشديد الوارد في هذه الأحاديث المُتقَدِّمة.

الثاني: **الآمِرُ بالتصوير**، فمَن أمر غيره أن يُصَوِّره أو يُصَوِّر غيره من ذوات الأرواح؛ كأطفاله أو الناس أو الحيوانات، فإنه داخل في الوعيد، وهو مُصَور؛ لأن الآمر بفعل الشيء كالفاعل له، والمُتَسَبِّب في الشيء كالفاعل له.

الثَّالث: **الراضي أن يُصَوَّر**، يَرىٰ المُصَور يُصَوره، وهو لم يَأمُره، ولكن يراه يُصَور ويَرضىٰ فعله، ولرُبَّما ابتسم له، فإنه يدخُل في هذا الوعيد؛ لأن الراضي كالفاعِل، وهذا الوعيد -كما تقدَّم بيانُه- إنما يكون في التصوير المُحرم؛ أما إذا كان التصوير لحَاجة -كما تقدم- فإنَّ الثلاثة لا يَدخُلون في الوَعيد، وكذلك إذا كان التصويرُ لغير ذوات الأرواح؛ فإن المُصَور لا يدخُل في الوعيد.

وكذلك لو أن إنسانًا صُوِّر صُورة وأُحضرت له؛ أي: صَوَّرهُ مُصَور وهو لم يأمُره، ولم يرضَ بأن يُصَور، ولكنه صُوِّر، ثم أُحضرت له الصورة ونظرها ولم يُمَزقها؛ فإنه لا يدخُل في هذا الوعيد؛ لأنه ليس مُصورًا بأي وجه من الوجُوه، لكن هل فعله جائز؟

الجواب: لا، فِعلُه حَرَام.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من فِقهه بعد أن أورَد نصوصَ الوعيد في التصوير الذي يشمل الثلاثة الذين ذكرنَاهُم، ذكَرَ حديثًا في الصورة؛ ماذا يُفعَل بها؟

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِمُسلِمٍ عَن أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيهِ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَستَهَا، وَلَا قَبرًا مُشرِفًا إِلَّا سَوَّيتَهُ».**

الشرح

(**وَلِمُسلِمٍ**): في «صحيحه»[1].

(**عَن أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ**): أمير المُؤمِنين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(**أَلَا أَبعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيهِ رَسُولُ الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ): وعَلي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ خَليفة؛ وإنما يَقُول له ذلك مُحفِّزًا له ليَمتثل ويَفعل ما يُريد.

(**أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَستَهَا**): وهذا تفسير لمَا بعثه عليه رسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ألا يدع صورة إلا أزالها.

وهذا يَدُل علىٰ وجُوبِ طَمس الصُّور وإزالتها، وعدم إبقَائها وتَركها، إلا إذا كانت علىٰ الوَجه الذي ذكرناه سابقًا ممَّا يُحتاجُ إليه، وما عَدا ذلك فإنه يجبُ أن يزال وأن يُطمس، فإذا كان تمثالًا، فإن إزالَتَهُ وطَمسَه يكون بتَكسيره، وإن كُسِّر الرأسُ فإن هذا يكفي؛ فإنه كمَا جاءَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الصُّورَةُ الرَّأسُ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأسُ فلَا صُورَةَ**»[2].

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) أخرجه أبو بكر الإسماعيلي في «معجم شيوخه» برقم (٢٩١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢١).

فإذا أُزيل الرأس فإن هذا يكفي، وإذا كانت مَرقُومة مَرسُومة أو مُصَوَّرة؛ فإن إزالتها تكون إمَّا بتَمزيقها، وإما بطَمسِ الرأس ولو بلون يُذهِبُ الرأسَ بالكلية.

وتَصوير الرأس فقَط حَرام، وداخل في التَّصوير المُحَرَّم، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أنه صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصورة الرأس**»، فجَعل الرأس كأنه الصُّورة كُلها، وهذا يَدُل علىٰ حُرمة تصوير الرأس.

والأمر الثاني: أن الرأسَ يُعبر عن ذي الروح؛ فرأسُ الإنسان يعبر عن الإنسان، ورأس الشاة يعبِّر عن الشاة، فهو دال علىٰ ذي الروح؛ فيكون حرامًا.

وهذا عندي أظهر -والله أعلم-.

أما الجسدُ بدون رأسٍ؛ فهَذا ليس من التَّصوير المُحرم، فهذا يُشبِه الشجرة، ويُشبه ما لا نَفسَ له.

ومما يُستَثنىٰ من وجوبِ طَمس الصُّور: ما تَعُم به البلوىٰ، ويَشُق التحرز منه، ويَصعُب علىٰ الإنسان طَمسُه، وذلك كهَذه الصور التي ابتُلينا بها في هذا الزمان في كثير ممَّا نحتاج إليه؛ فهذه عمت بها البلوىٰ، ويَصعُب علىٰ الإنسان أن يَتَتبَّعها، كالصور التي في الجَرائد والصحف والمجَلات، أو الصور التي توجدُ علىٰ المنتجات الغذائية؛ فهَذا فيه مشقة زائدة لم تأتِ الشريعة بمِثله.

ومِن أسباب التَّخفيف في الشَّريعة: العُسر وعُمُوم البلوىٰ، وهذا لا شكَّ أنه موجود بصورة يصعب التحرز منها؛ ففي مثل هذه الحالة لا يجبُ علىٰ الإنسان أن يَطمسَها، أو أن يتتبعها ليَطمِسَها.

(وَلَا قَبرًا مُشرِفًا إِلَّا سَوَّيتَهُ): أي: ولا تترك قَبرًا بَارزًا بُروزًا غَير شَرعي إلا سَوَّيته بالأرض، إلا ما يدُل علىٰ أنه قبر؛ بأن يرفع مقدار ذِرَاع أو أقل؛ حتىٰ يُعلم أنه قَبر، لأنك لو سَوَّيت القبور بالأرض تمامًا رُبما جاء إنسان لا يعلم أنه قبر ومشَىٰ عليه؛ فأُجيزَ شَرعًا أن تُرفع القبورُ قليلًا بمِقدار ذراع أو أقل حتىٰ يَعلمَ القادمُ أنه قبر.

وقال بعضُ أهل العلم: معنىٰ (إِلَّا سَوَّيته): إلا جَمَّلتَهُ وجَعلتَه سَويًّا؛ أي: جميلًا؛ وذلك بأن يُزيل المُخالفة التي فيه؛ فإن كان عليه بنَاء يُزيلُ البِنَاء، وإن كان مَرفوعًا فوق الأرض رَفعًا كبيرًا يُزيل الزائد ويُبقِي ما جَاز.

وفي هذا الحَديث بيان أن إنكار مثل هذه الأمور إنما هو لولي الأمر، وبأمر ولي الأمر، فإن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يبعث به فيجعل لمن يذهب إلىٰ ذلك ولاية.

وهذا -كمَا يَقُول العلماء-: من تَصرُّفات النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بحُكم الولاية.

فالنبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيه جانبان: جانب النبُوة، وجانب الولاية.

وجَانب الولاية: أي: التصَرُّف بحُكم كَونِه وليَّ أمر المسلمين، فينتقل ذلك إلىٰ ولاة الأمرِ بَعدَه.

أما تَصرُّف النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بحُكم النبوة؛ فإنه لا ينتقل إلىٰ مَن بَعده.

وهذا التصرُّف الوارد في الحَديث هو بحُكم الولاية؛ فمن واجبات ولاة أمور المسلمين: إنكار المُنكَرات، ولاسيَّما الظاهرة، وأن تنشأ جهات، أو يؤمَّر

أشخاص، أو يولَّىٰ أشخاص لإنكار هذه المُنكَرات الظاهرة، لكن ليس لمَن ليسَت له ولاية أن يطمس الصُّور المنتشرة، أو يُسوِّي القبور الزائدة؛ فإن في هذا مفاسِدُ لا تتنَاهىٰ، ويُؤدي إلىٰ شر عظيم؛ ولربما جعل الناسَ يَكرَهُون التوحيد وأهلَه!

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: التَّغلِيظُ الشَّدِيدُ فِي المُصَوِّرِينَ.

ولا شكَّ أن النصوصَ التي ورد فيها الوعيد صحيحة وصَريحة، ومن العجب أن يبلغ منَّا الضَّعفُ هذا المبلغ فنتهَاون في التصوير، مع علمنا بهذا التغليظ الشديد، والذي لا تُقابِلُه مصلحة تجعل الإنسان يخاطرُ ولو بالتأويل، فهذا في الحقيقة من الضَّعف في الإيمان، ومن الضَّعف في العقل.

الثَّانِيَةُ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ العلة، وَهُوَ تَركُ الأدب مَعَ الله، لِقَولِهِ: «وَمَن أَظلم مِمَّن ذَهَبَ يَخلُقُ كَخَلقِي».

التنبيه علىٰ العلة في هذا التغليظ الشديد، وهو أن في التصوير إساءةَ أدبٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن المُصَوِّر يتَشَبَّهُ بخَلق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه يُصَوِّر مثل خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أعجزُ من أن يَخلُقَ شَيئًا.

الثَّالِثَةُ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ قُدرَتِهِ، وَعَجزِهِم؛ لِقَولِهِ: «فَليَخلُقُوا ذَرَّةً، أَو حَبَّةً، أَو شَعِيرَةً».

وهذا -كما تقدَّم بيَانُه- وعيدٌ وتعجيز وإبطال، فإنَّهُم أعجز من أن يخلقوا ذَا رُوح صغير وهو الذرة، بل أعجز من أن يَخلُقوا حبَّةً لا رُوحَ فيها.

الرَّابِعَةُ: التَّصرِيحُ بِأَنَّهُم أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

فهم في شِدَّة عذاب يوم القيامة -والعيَاذ بالله-.

الخَامِسَةُ: أَنَّ اللهَ يَخلُقُ بِعَدَدِ كُلِّ صُورَةٍ نَفسًا يُعَذَّبُ بِهَا المُصَوِّرُ فِي جَهَنَّمَ.

فالمُصَور الذي يُضَاهي خلقَ الله ويُصَور ذوات الأرواح؛ يُجعَل له بكل صورة صوَّرها نفسًا، وتُعَذِّبه هذه النفس في جهنم -والعيَاذُ بالله- حتىٰ تَنتَهي هذه الصُّور.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يُكَلَّفُ أَن يَنفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيسَ بِنَافِخٍ.

وقد تقدم بيان ذلك.

السَّابِعَةُ: الأَمرُ بِطَمسِهَا إذا وُجِدَت.

وهذا متعلق بالصُّورة؛ فالشَّيخ من فِقهه وسَعةِ عِلمِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكَرَ لنا ما يتعلق بالتَّصوير، وما يتعلق بالصُّورةِ نَفسِها.

❊❊❊

بَابُ: مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ.

الشرح

فمِن تعظيم المُؤمن لربِّه: أن يحفظَ المسلم يمينه؛ أن يحفظَها قبل الوقُوع، وأن يحفظَها بعد الوقوع:

أما حِفظُها قبل الوقوع: فهو أن يتحَفَّظ عن اليمين، ولا يُكثر من الحَلِف، فلا يحلف إلا إذا دعت إلىٰ ذلك حاجة حاقَّة، أو مَصلحَة ظاهرة، وإلا فإنه يَكُف عن الحلف، وذلك أن كثرة الحلف تجعل الإنسانَ يستهين باليَمين، وإذا استهان باليمين أساءَ الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كمَا أن كثرة الحَلف بين الناس تجعلُ الناس في الجُملة يستهينون باليمين، ولا يُقَدرونها قَدرها، وفي هذا نقصٌ في تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أمَّا بعد الوقوع وبَعد انعقاد اليَمِين: فإن المسلمَ يحفظ يَمينه بالحرص علىٰ الوفاء والبر بهَا، وعَدم الحِنث فيها؛ فإن رأىٰ غيرها -وهو المَحلُوف عليه- خيرًا منها؛ فإنَّه يُكَفِّر عن يمينه، ولا يتركُ اليمينَ بلا تكفير .

إذن؛ حفظُ اليمين من كمالِ التوحيد الواجب؛ ولذا ناسبَ أن يعقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في «كتاب التَّوحيد» فيقول: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ**).

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

الشرح

فالمُؤمن مأمورٌ بأن يحفظ يمينَهُ -كما تقدَّم-؛ يحفظ يمينه قبل الوقوع وبعد الوقوع.

وكل هذا الحفظ داخلٌ في الآية، والمُفسِّرون اختلفوا في تفسير هذه الآية اختلاف تنَوع:

- فذكر بعضُهم حفظ اليمين قبل الوقوع، وهو الانتهاء عن كَثرَة الحَلِف.
- وذكر بعضُهم حفظ اليمين بعد الوقوع بالبِرِّ بها.
- وذكر بعضُهم حفظَ اليمين بعد الوقوع، بألَّا تُترَك بدون كفارة إذا حَنَثَ فيها.

وهذا اختلاف تنوع، فكُل هذا داخل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾.

وحفظ اليمين -كما قُلنا- تَعظيم للرَّب.

وتَعظيمُ المُؤمن لربِّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في بابِ اليمين علىٰ أنحَاء:

الأول: ألَّا يحلفَ إلا بالله، وهذا من تحقيق التوحيد، فإن الحلف بغير الله مَهمَا عَظُم، فهو من الشِّرك الأصغر، وقد تقدم بيان هذا.

الثاني: أَلَّا يحلفَ بالله إلَّا صادقًا، وهذا من كمال التوحيد الواجب، والحلف بالله كاذبًا من كبَائر الذنوب، وهو ينافي كمال التوحيد الواجب.

الثالث: القناعَةُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَإذا حُلِفَ للمسلم بالله فإنه يَرضىٰ، وقد تقدم هذا في باب مُستقل قريبًا.

الرَّابع: حفظُ اليمين بالله الذي أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ به في هذه الآية، وهذا هو مُراد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عَقدِ هذا الباب.

۞۞۞

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَةِ، مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ». أَخرَجَاهُ.

الشرح

(**عَن أَبِي هُرَيرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ: «الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَةِ، مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ». أَخرَجَاهُ**): واللفظ عند البُخاري[1]: «**مَمحَقَةٌ لِلبَرَكَةِ**». وعند مُسلم[2]: «**مَمحَقَةٌ لِلرِّبحِ**».

أما لفظةُ: «**مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ**»، فقد جاءت في رواية عند أبِي دَاودَ، والنَسَائي وإسنادُهَا صَحيحٌ[3].

(**الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَةِ**): أي: أن الحَلفَ يُنفق السلعة؛ لأن الناس إذا حُلف لهم بالله يُصَدقون ويقنعون ويَرضَون، فإذا حلف لهم بالله أنها سلعة جيدة مُمتازة؛ فإنهم يصدقونه في هذا فيَشترونها، وإذا حلفَ أنه اشتراها بكذا أو عُرِض عليه فيها كذا ولم يبعها به؛ فإنهم يُصَدقونه ويشترونها بمثل ما قال أو زيادة علىٰ ما قال.

فالحلف يُنفِّق السلعة، وذلك أن شأن المُؤمنين أنهم يُعَظِّمون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛

---

(١) برقم (٢٠٨٧).

(٢) برقم (١٦٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٣٥)، والنسائي (٤٤٦١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فإذا حُلف لهم بالله صدَّقوا الحَالِف.

(**مَمحَقَةٌ لِلكَسبِ**): وهذا من باب المُعَامِلة بنقيض القَصد الفاسد؛ لأن هذا الذي يَحلف علىٰ السلعة يُريد الربح ويريد المال؛ فعَاقَبه الله عَزَّوَجَلَّ بنَقيض قَصدِه وبما هو أشد من بقَاء السلعة عنده، فتذهبُ السلعة بحَلِفه، ثم يذهب المالُ، فلا السلعة بَقِيت، ولا المال بارَكَ الله فيه، وهذا أشدُّ ألمًا له.

فلا تكون هُناك بَركةٌ في المال -كما جاء في الرِّوايات-؛ فيُجعَلُ فَقرُه بين عينيه، فكُلما ازداد مالًا ازدَادَ فَقرًا في نَفسه، ولا بَركةَ في ماله، ولا يَنتفع بهذا المال، ولا يفيده هذا الرِّبح الذي لا بركة فيه، وهذا وعيدٌ شَديد!

ويَدخلُ في هذا -والله أعلم- أمرَان:

الأمر الأول: اليمين الكاذبَة علىٰ السِّلعة، وهذه كبيرةٌ من كبائر الذنوب، وهذا من اليمين الغَمُوس؛ لأنه يقتطع بهذه اليمين أموالًا من أموال المسلمين.

وجَاء عند البُخاري[1] عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنظرُ إِلَيهِم: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَىٰ سِلعَةٍ لَقَد أَعطَىٰ بِهَا أَكثَرَ مِمَّا أَعطَىٰ وَهُوَ كَاذِبٌ...**».

وهذا الحديث يَدُل علىٰ أن هذا من كبائر الذنوب، فهَذا الرجلُ حَلَف علىٰ سلعة لقد أُعطي بها أكثر مما أعطَىٰ؛ أي: المشتري الذي يُسَاوم، وهو كاذب!

---

(١) برقم (٢٣٦٩).

وعند مسلم[(١)]: عَن أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنظُرُ إِلَيهِم وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ.**

قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا!

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَن هُم يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **المُسبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»**.

والمُنفق سلعته بالحَلف الكاذب: أي: المُرَوِّج سلعته بالحَلِف الكاذب.

والأمرُ الثاني: كثرةُ الحلف في البَيع والشراء، ولو لم يكن كاذبًا، فيَحلف من غير حاجة ولا مَصلَحة ظاهرة؛ فهذا أيضًا يدخل في هذا الحديث.

وَعَن أَبِي قَتَادَةَ الأَنصَارِيِّ رضي الله عنه: **أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُم وَكَثرَةَ الحَلِفِ فِي البَيعِ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ، ثُمَّ يَمحَقُ»**. رواه مُسلمٌ[(٢)].

فالنبيُّ ﷺ حَذَّرنا من كثرة الحلف في البَيع، وبَيَّن لنا أنه يُنفق السِّلعة غير أنه يَمحَقُ الكسبَ والبَركة والنَّماء.

والسِّر في هذا: أن الغالبَ أن كثرة الحَلف تقُود إلىٰ الكذب.

إذن؛ البائع الذي جعل اليمينَ بضَاعته، يَحلفُ علىٰ البيع، ويحلف علىٰ الشراء، ويُكثرُ من الحلف؛ مُتوعَّد بأنه -وإن راجَت سِلَعُه عند الناس- يمحقُ الله بركة بَيعه وكَسب بيعه.

---

(١) برقم (١٠٦).

(٢) برقم (١٦٠٧).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن سَلمَانَ الفَارِسِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّيهِم، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِط زانٍ، وَعَائِلٌ مُستَكبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ الله بِضَاعَتَهُ، لَا يَشتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.**

الشرح

هذا الحَديثُ الذي رواه الطَّبراني[1]، وقالَ الهَيثميُّ[2]: «رجاله رجال الصَّحيح».

وصحَّحه الألبانيُّ[3]، وابن باز[4] رَحِمَهُمَٱللَّهُ، والحَديث صَحيح .

(**وَعَن سَلمَانَ الفَارِسِيِّ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **قَالَ: ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ**): أي: لا يُكلِّمهم بمَا يَسُرُّهم ولا يُكلِّمهم كلامَ رَاضٍ.

و(**ثَلَاثَة**) هنا ليسَت للحَصر، لكن للدَّلالة علىٰ شدَّة الذَّنب، وإلَّا فقد جاء هذا الوعيدُ في أكثر من ثلاثة؛ بل في أكثر من عَشرة في مَجمُوع ما وَرد.

(**وَلَا يُزَكِّيهِم، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ**): (**لا يُزَكِّيهِم**): قيل: أي: لا يَغفر ذنوبَهُم،

---

(١) في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٤٦) برقم (٦١١١).

(٢) «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٨) برقم (٦٣٣٤).

(٣) في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٨٨).

(٤) «فتاوىٰ نور علىٰ الدرب» (١٩/ ٩٧ الشويعر).

ولا يُطهِّرهم منها؛ فهم مُؤاخَذون بذنوبهم، أو بهذه الذُّنوب المَذكُورة هنا خُصوصًا.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: (لا يُزكِّيهم): أي: لا يثني عَليهِم.

(أُشَيمِطٌ زَانٍ): (أُشَيمِط) هو (الأشمط): وهو الذي ظهَرَ فيه الشَّيبُ؛ فهو شيخ كبير في السِّن قد شَابَ شَعرُه، وصُغِّر هنا تَحقيرًا له؛ فهو مع كِبَر سنِّه يزني، والمعلوم شرعًا أنَّه كلَّما ضعُف الدَّاعي إلىٰ الذَّنب عظُمت العقوبة!

وهذا الرَّجل الذي شاب وأصبح شَيبة وشيخًا كبيرًا ضَعُف الدَّاعي إلىٰ الزِّنا في حقِّه من ثلاثِ جِهَات:

الجِهَةُ الأولىٰ: ضعفُ بدنه، وضَعف قوَّته.

الجهة الثَّانيَة: أنَّه جاءه النَّذير، والشَّيب نذيرٌ بالمَوت.

الجِهَة الثَّالثة: أنَّه أصبح أبًا، وعنده بنات كبار في الغالب، ويعرفُ أَلَمَ الاعتداء علىٰ العِرض أكثر من غيره؛ ولذا كان ذَنبُه عظيمًا.

(وَعَائِلٌ): أي: فقير.

(مُستَكبِرٌ): يعني: طَالبٌ الكِبرَ، والألف والسِّين والتَّاء تَدلُّ علىٰ الطَّلب، فهو يطلب الكِبرَ ويُريد الكبر ويتكبَّر!

والكبر حرام، وكبيرةٌ من كبائر الذنوب من الغَنيِّ ومن الفقير، لكنَّ الدَّاعي إلىٰ الكبر في حقِّ الفقير ضَعيفٌ؛ فإنه ليس عنده شَيءٌ، ومع ذلك يتكبَّر.

وقد جاء الوعيد لهذين الصنفين: الأُشيمط الزَّاني والعائل المُستكبر والثَّالث

مَعهُم هو المَلِكُ الكَذَّاب، في «صَحيح مُسلِم»[1] عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَومَ القِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِم، وَلا يَنظُرُ إِلَيهِم، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُستَكبِرٌ**».

فالملِكُ صاحب قوة وسلطان، ولا حاجة عنده إلىٰ أن يَكذِب، والكذب حرامٌ وقَبيحٌ مِن كُلِّ أحَد، لكن إذا ضعُف الدَّاعي إليه كان قُبحُه أعظَم.

(**وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ**): وهذه فَسَّرها النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (**لَا يَشتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**): فهو كثير الحَلِف في البيع والشِّراء، ويَدلُّ هذا علىٰ أنَّ الإكثار من الحَلفِ كَبيرةٌ من كبائر الذُّنوب؛ لاسيَّما في البيع والشِّراء.

❀❀❀

(١) برقم (١٠٧).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيرُ أُمَّتِي قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، قَالَ عِمرَانُ: فَلَا أَدرِي أَذَكَرَ بَعدَ قَرنِهِ مَرَّتَينِ أَو ثَلَاثًا؟ ثُمَّ إِنَّ بَعدَكُم قَومًا يَشهَدُونَ وَلَا يُستَشهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤتَمَنُونَ، وَيَنذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

الشرح

(وَفِي الصَّحِيحِ): أي: في الحديث الصَّحيح في غاية الصحَّة؛ لكَونِه في «الصَّحيحَين»[1].

(عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيرُ أُمَّتِي): وهذا اللفظ عند البُخَاري، وفي رواية مُسلِم قال: «خَيرُكُم».

(قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم): أي: القَرن الذي فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقرن مائة عَام، فالقرنُ الأول الذي فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل قُرون الأمة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان فيه، ولظهُور التوحيد والسُّنة وعِز الإسلام، وقِلَّة البِدَع؛ حيث لم تظهر البدعُ إلا في آخرِه مع ذِلَّة أهلها، فكانت قَليلة، وكان أهلها أذِلَّة، فلم تكن لها رايةٌ في ذلك القرن.

(١) البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

والتفضيل في هذا القرن بالنِّسبَة للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تفضيلُ أفراد؛ فكل فرد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أفضلُ ممن يأتي بعد الصَّحابة، وبالنسبة لغير الصحابة تفضيلُ جنس -أي: تَفضيل المَجمُوع-، والحديثُ يَدُل علىٰ أن القَرن الذي يلي قرنَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يليه في الفضل، ثم القَرن الذي بعده يَليه في الفضل، وهو يَدُل دلالةً بينةً علىٰ أن الأمة كُلما بَعُدَت عن عهد النبوة بَعُدَت عن الفضل والصَّلاح والخَير.

يقُولُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اصبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأتِي عَلَيكُم زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ، حَتَّىٰ تَلقَوا رَبَّكُم**». رواهُ البُخَاري[1].

(**قَالَ عِمرَانُ: فَلَا أَدرِي أَذكَرَ بَعدَ قَرنِهِ مَرَّتَينِ أَو ثَلَاثًا؟**): لكن الثابت عن غيره كعُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر بعد قَرنِه قرنَين، فالقُرون المُفَضَّلة ثلاثة.

ثمَّ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**ثُمَّ إِنَّ بَعدَكُم قومًا يَشهَدُونَ وَلَا يُستَشهَدُونَ**): أي: أنهم يَقُومون بالشهادة من غير أن تُطلَب منهم، ومن غير أن تَدعُوَ الحاجةُ إلىٰ هذا؛ فإنه إذا طُلِبَت الشهادة منهم فلا عيبَ عليهم في الشهادة؛ بل يجب عليهم أن يبذُلوا ما يعلمون، وإذا دعت الحَاجةُ إلىٰ هذا فإنه يجبُ عليهم أن يبذلوا الشهادةَ ولو لم تُطلب منهم.

مثال ذلك: لو أن إنسانًا له حَق، ثم جُحِد هذا الحق، فأتىٰ بشَاهد واحد،

(١) برقم (٧٠٦٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان هنالك شاهدٌ آخر نَسِيَه صاحبُ الحق، ولكن الشاهد يعرف القضية؛ فإنه يجبُ علىٰ الشاهد أن يُبادر بالشَّهادة.

وكذلك الشهادة في حقوق الله جَلَّوَعَلَا، فإن بذلها طاعة ولو لم تُطلب من الإنسان، أما أن يشهد الإنسان من غير أن يُطلب منه، ومن غير حاجة، ومن غير أن يكون ذلك في حقوقِ الله جَلَّوَعَلَا، فهذا مَذمُوم.

والحديثُ ليسَ فيه يَمين، فلماذا ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

قالَ بعضُ أهلِ العلم: استشهاد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحديث بمَجمُوع الحَديثَين -هذا والذي بعدَه في البَاب-، وأن المقصود بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَشهَدُونَ وَلَا يُستَشهَدُونَ**» أنهم مع شهَادَتهم يَحلِفُون؛ كما في الحديث التالي: «**تَسبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**».

وقَال بعضُ أهل العِلم: بل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذا الحديث تَوطِئَة للحديث الثاني، والشَّاهد في الحديث الثاني.

وقد جاء في حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ يَفشُو الكَذِبُ حَتَّىٰ يَشهَدَ الرَّجُلُ وَلَا يُستَشهَدُ، وَيَحلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُستَحلَفُ**». رواهُ التِّرمِذي، وابنُ ماجَه، وصَحَّحه الألبَاني[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٣) واللفظ له، وابن ماجه (٢٣٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فالمَقصُود هنا: أنه إذا كان الرجلُ يَشهد ولا يُستَشهد؛ فإنه يَحلِف ولا يُستَحلف، ويُكثر الحَلفَ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِيهِ: عَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ يَجِيءُ قَومٌ تَسبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وَقَالَ إِبرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضرِبُونَنَا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالعَهدِ وَنَحنُ صِغَارٌ».

الشرح

(وَفِيهِ): أي: في الحديث الصَّحيح عندَ البُخاري[1] ومُسلم[2].

وهذا الحديث أوضَحُ في الدَّلالة فكأن الشهادة واليمين عنده في سِبَاق، ويُكثر من الحَلف واليَمين، وهذا مُطَابق للباب.

(وَقَالَ إِبرَاهِيمُ): هو إبراهيمُ النخعي، التَّابعي الجليل.

(كَانُوا يَضرِبُونَنَا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالعَهدِ وَنَحنُ صِغَارٌ): وفي هذا بيان أن السلفَ كانوا يعتنون بتَربية الأبناء.

والضربُ هنا غير مُبَرح؛ بل يُؤدِّب ولا يَجرح، ويبني نفس المؤدَّبِ ولا يَهدِم.

وقَولُه: (عَلَىٰ الشَّهَادَةِ): قال بعض أهل العلم: يعني: علىٰ تحمُّل الشهادة وقال بعض أهل العلم: بل علىٰ الكَذب في الشهادة.

---

(١) برقم (٣٦٥١).

(٢) برقم (٢٥٣٣).

وقال بعض أهل العلم: بل علىٰ اليَمين في الشَّهادة، وهذا أظهر -والله أعلم-.

(وَالعَهدِ): العَهدُ قد يؤكد باليمين؛ فكانوا يضربونَهُم علىٰ إعطاء العُهود الموثقة.

والعهد؛ إما أن يُقال: عهد الله، أو: أعَاهِدك بالله، أو: أعَاهدك واللهِ هذا العهدَ الموثق، فكانوا يَنهَونَهُم عن هذا ويَضربُونهم عليه.

وجاء في رواية عند البخاري[1]: قال إبراهيم: «وَكَانَ أَصحَابُنَا يَنهَونَنَا وَنَحنُ غِلمَانٌ أَن نَحلِفَ بِالشَّهَادَةِ وَالعَهدِ». أي: قبل البُلوغ.

«أَن نَحلِفَ بالشَّهَادَةِ وَالعَهدِ»: أي: أن نحلفَ في الشَّهادة، ونحلف في العَهد، وهذا فيه تَربية علىٰ حفظ اليَمين، وعلىٰ عدم الإكثار منَ الحَلِف.

❀❀❀

(١) برقم (٦٦٥٨).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مسائل:

الأُولَىٰ: الوَصِيَّةُ بِحِفظِ الأَيمَانِ.

وذلك في أمر الله عَزَّوَجَلَّ لنا: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾.

الثَّانِيَةُ: الإِخبَارُ بِأَنَّ الحَلِفَ مَنفَقَةٌ لِلسِّلعَةِ، مَمحَقَةٌ لِلبَرَكَةِ.

وقد تقدم بيانُ ذلك في الشَّرح.

الثَّالِثَةُ: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَن لا يَبِيعُ وَلا يَشتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ.

الرَّابِعَةُ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ الذَّنبَ يَعظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي.

وهذه قاعدة تقدم ذكرها: «كُلما قَلَّ الداعي إلىٰ الذنب؛ كان الذنب أعظَم».

ومثل هذه القاعدة أيضًا: «كُلما كانت الحُرمَة أعظَم كان الذنبُ أعظَم».

ولذلك -والعياذُ بالله-: الذي يَزني بامرأة جارِه أعظم ذنبًا من الذي يَزني بامرأةٍ بعيدة عنه، فكُلما عَظُمت الحُرمة؛ كان الذنب أعظم.

ولذلك أيضًا: كان القتلُ في مكَّة والمَدينة أعظمَ من القتل في بقية المُدن، والكَذب في مكة والمَدينَة أعظم من الكذب في غيرهما... وهكذا، فكُلَّما عَظُمت الحُرمة عَظُمَ الذَّنبُ.

الخَامِسَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَحلِفُونَ وَلا يُستَحلَفُونَ.

السَّادِسَةُ: ثَنَاؤُهُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ القُرُونِ الثَّلاثَةِ أَوِ الأَربَعَةِ، وذِكرُ مَا يَحدُثُ بَعدَهُم.

وأن خير الأمَّة إنما هو عند سَلفِها، ومن تطَلَّب الخير فليَعُد إلىٰ ما كان عليه السلفُ الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنهُم.

السَّابِعةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَشهَدُون ولا يُستَشهَدُونَ.

الثَّامِنةُ: كَونُ السَّلَفِ يَضرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَىٰ الشَّهَادَةِ وَالعَهدِ.

***

بَابُ: مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشرح

مِن تَعظيم الله الوَاجب: حفظ ذمته وذِمَّة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ الوقُوع وبعد الوقوع:

- أما قبل الوقوع: فبِعَدم إعطائها خوفًا من عدم الوفَاء بها.

- وأمَّا بعد الوقوع: فبالحرصِ الشَّديد علىٰ الوفاء بها وعلىٰ عدم إخفَارهَا.

ولمَّا كان ذلك كذلك؛ كان حفظُ ذمة الله وذِمة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كمَال التوحيد الواجب؛ ولذلك عقَدَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب التوحيد» هذا البَاب:

(**بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**): والذِّمة: هي العَهد، وذمة الله هي: عهدُ الله؛ بأن يقولَ العبدُ: لك عهدُ الله ألا أؤذِيَك، أو: لك العهدُ بالله ألا أؤذِيَك، أو: لك العهدُ واللهِ ألا أؤذيَك، وذمة نَبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو عَهدُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقَولِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ ﴾ الآيةَ [النحل:٩١].

الشرح

وقَولُ الله تعَالىٰ: (﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾): هذا أمرٌ مُؤكد بالوفاء بعَهد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إذا عاهدَ المؤمنُ أحدًا به.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: (﴿إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾): فيه إشارة إلىٰ أن الأصلَ ألا يُعَاهد بعهد الله، لكن إذا عاهد المؤمن بعهد الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يتأكَّد في حقه أن يفي بالعهد؛ إذ المعلوم أن الوفاء بالعَهد واجبٌ مُطلقًا، لكن إذا عاهد العبدُ بعَهدِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ تأكَّد وجوب الوفاء بهذا العَهد؛ تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ .

(﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾): أمر مؤكد بعدَم نَقض الأيمَان بعد توكيدها.

والمُراد بالأيمَان هُنا: الأيمان المُؤكِّدة للعُهود، وليس مُطلق اليمين؛ لأن مطلق اليمين: أن يحلفَ الإنسانُ علىٰ خير أو شَر، وله إن رأىٰ الخير في ترك ما حَلَف عليه أن يتركه ويُكَفِّر عن يمينه.

أما اليمين التي تؤكِّدُ العُهود؛ فإنه لابد من الوفاءِ بها، ولايجوز نَقضُها، ولا كفارة لها.

(﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾): أي: لمَّا كنتم عاهَدتم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد جعلتُم الله علىٰ الوفاء بما عاهدتم به راعيًا وحافظًا وضامنًا؛ فكيف لا تفي بعهد الله وقد جعلت الله كفيلًا عليك؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: هذا وعيدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمَن ينقض الأيمان المؤكدة، ويُخفِر عهد الله، وهذا يدل علىٰ وجوبِ الوفَاء بعهد الله وجوبًا مؤكَّدًا، وعلىٰ حُرمة إخفار عَهدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن بُرَيدَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيشٍ أَو سَرِيَّةٍ، أَوصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَن مَعَهُ مِنَ المُسلِمِينَ خَيرًا؛ فَقَالَ: «اغزُوا بِاسمِ اللهِ، فِي سَبيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَن كَفَرَ بِاللهِ، اغزُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ؛ فَادعُهُم إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ أَو خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ الإِسلَامِ، فَإِن أَجَابُوكَ، فَاقبَل مِنهُم.

ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِن دَارِهِم إِلَىٰ دَارِ المُهَاجِرِينَ، وَأَخبِرهُم أَنَّهُم إِن فَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَهُم مَا لِلمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيهِم مَا عَلَىٰ المُهَاجِرِينَ.

فَإِن أَبَوا أَن يَتَحَوَّلُوا مِنهَا، فَأَخبِرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعرَابِ المُسلِمِينَ، يَجرِي عَلَيهِم حُكمُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ لَهُم فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيءِ شَيءٌ، إِلَّا أَن يُجَاهِدُوا مَعَ المُسلِمِينَ، فَإِن هُم أَبَوا، فَسَلهُمُ الجِزيَةَ، فَإِن هُم أَجَابُوكَ؛ فَاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، فَإِن هُم أَبَوا، فَاستَعِن بِاللهِ وَقَاتِلهُم.

وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ، فَأَرَادُوكَ أَن تَجعَلَ لَهُم ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجعَل لَهُم ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجعَل لَهُم ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصحَابِكَ، فَإِنَّكُم إِن تُخفِرُوا ذِمَمَكُم وَذِمَّةَ أَصحَابِكُم أَهوَنُ مِن أَن تُخفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ، فَأَرَادُوكَ أَن تُنزِلَهُم عَلَىٰ حُكمِ اللهِ، فَلَا تُنزِلهُم،

وَلَكِن أَنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكمَ اللهِ أَم لَا». رَوَاهُ مُسلِمٌ.

الشرح

هذا الحديث العظيم الصَّحيح في «صَحيح مُسلِم»[1].

(وَعَن بُرَيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيشٍ أَو سَرِيَّةٍ): فيه أن الذي يعقدُ ألويَةَ الجيوش إنما هو ولي أمر المُسلمين، وأن الجيشَ لابد أن يكون له أمير ولَّاه وليُّ أمر المسلمين، فإن لم يكن له أمير ولاه ولي أمر المسلمين، فليسَ جيشًا شرعيًّا، فالجيوش الشرعية التي تُجَاهد في سبيل الله هي التي يُجَيِّشها ولي الأمر، ويعقد ألويَتَها وليُّ الأمر، ويؤمِّر أمراءَهَا ولي الأمر.

والجَيش: جماعة من المُؤمنين يخرجون لقتَالِ الكفار.

والسَّرية: قطعةٌ من الجيش؛ أي: أنها دون الجيش، فالجيشُ أكبر من السَّرية.

والسريةُ قد تخرج من البلد أصلًا؛ يَعني: يكون خروجها من البلد، وهي أقل من الجيش، وقد تخرج من الجيش أثناء مسير الجيش.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن السرية: ما بلغت أربعمائة رَجُل فأقل، والجيش: ما زاد عن ذلك.

---

(١) برقم (١٧٣١).

(أَوصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ): أي: أوصاه في حق نَفسِه خصوصًا، بتقوىٰ الله، بأن يفعل المأمُورات، ويجتنب المَحظُوارت، ويتواضع لمَن معه، وفي هذا أن الإنسان إذا حصلت له قُوة علىٰ غيره؛ فإنه يحتاج أن يُذكَّر ويُوصَىٰ بتقوىٰ الله جَلَّوَعَلَا، فهذا الأمير لمَّا أصبح أميرًا يُسمَع له ويُطَاع، أوصاه النَّبي صَلَّاَللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ بتقوىٰ الله، وكذلك المُعَلم يُوصَىٰ بتقوىٰ الله، والمُدير يُوصَىٰ بتَقوىٰ الله، والطبيب يُوصَىٰ بتقوىٰ الله... وهكذا، لأن القَويَّ إذا فاتته التَّقوىٰ يَظلمُ وَلابُد، والظلمُ عاقبته وخيمَة.

(وَمَن مَعَهُ مِنَ المُسلِمِينَ خَيرًا): يعنىٰ: وَصَّاه بمن معه من المسلمين خيرًا.

(فَقَالَ: اغزُوا): هذا خطابٌ للجيش كُله.

(بِاسمِ اللهِ): أي: اغزوا مُستَعينينَ بالله، مُتَوكِّلين علىٰ الله، والبَاء هنا للاستعانة، فإنه لا نَصرَ إلا بعَونِ الله سُبحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(فِي سَبيلِ اللهِ): أي: مُخلِصين لله سُبحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقَاتِلُوا لتكون كلمةُ الله هي العُليا.

(قَاتِلُوا مَن كَفَرَ بِاللهِ): أي: مَن يَستَحق ذلك بأن لم يَكُن مُعاهدًا؛ ولم يُعطَ عهدًا من المُسلمين، ولَا ذِمِّيًّا؛ أي: ليس من أهل الذمَّة الذين يعيشون بين المُسلمين، ولا مُستأمنًا قد أعطاه مُؤمنٌ الأمان، ولا ضعيفًا عن القتالِ؛ كالولد الصغير، والرهبان المُنقَطعينَ للعبَادة، والمَرأة العجوز والشيخ الكبير، مَا لم يُقَاتِلُوا، فإذا كان أهلًا للقتل والقتال فإنه يُقَاتَل.

(اغزُوا، وَلَا تَغُلُّوا): الغُلول: هو الأخذُ من الغنيمة قبل قسمتها؛ أي: لا تأخذُوا من الغَنيمة قبل قِسمَتِها.

(وَلَا تَغدِرُوا): أي: لا تَنقُضُوا العهد.

(وَلَا تُمَثِّلُوا): أي: لا تُشَوِّهوا القتلىٰ والأسرىٰ؛ فتقطَعُوا آذانهم أو تَقطَعُوا أنوفهم، أو تقطعوا أطرافَهُم.

وهَل هذا النَّهي مُطلَق؟

- ذَهب بعض أهل العلم إلىٰ أنه مُطلَق.

- وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنه مُقَيَّد بما إذا كانوا لا يَفعلون ذلك بقتلانَا، أما إذا كانوا يفعلون ذلك بقَتلانا فإنه يمثَّلُ بهم.

والرَّاجِحُ: أنه بالنسبة للقَتلىٰ، فإنهم إذا كانوا يمثلون بقتلانا فيُرجع إلىٰ اجتهاد ولي الأمر؛ إن رأىٰ في التمثيل بقتلاهم مُقَابلة لفعلهم عِزَّة وقوة وظهورًا عليهم فَعَل، وإلا فلا، وإذا كان لا يُمَثِّلون بقتلانا؛ فلا يجُوز التمثيل بقتلاهم، وأمَّا الأسرىٰ فلا يَجُوز التمثيل بهم.

(وَلَا تَقتُلُوا وَلِيدًا): أي: الولد الصغير الذي لم يَبلُغ؛ لأنه ليس من أهل القتال، ومثلُه من كان لا يُقَاتِل في العادة.

(وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ؛ فَادعُهُم إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ أَو خِلَالٍ): وهذا شَكٌّ من الرَّاوي، وهو علقمَةُ بن مَرثَد، الذي روىٰ عن سُليمَان بن بُرَيدة، والخِصَال والخِلال بمعنىٰ واحد؛ لكنها دقَّة الرواةِ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ.

(فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم): أي: لأيتهن أجابُوك فاقبَل منهم وكُفَّ عنهم القتَالَ.

(ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ الإِسلَامِ): (ثُم) هكذا في روَاية مسلم، وهي زائدة؛ لأنهَا تفسيرٌ للخِصَال الثلاث.

وقال بعضُ أهل العلم: هي ليست زائدَة، وإنما هي لاستفتاح الكلام.

وفي هذا البَدء بالدعوة قبل القِتَال؛ لأنه ليس المُرَاد من الجهاد قتل الكفَّار؛ ولكن المراد إيصَال الحق إلىٰ الخَلق، لذلك يُبدَءون بالدعوة قبل القتال.

والذي عليه الجُمهُور -وهو الرَّاجِح-: أن الكفَّار المُقَاتَلين إذا كانت لم تبلغهم الدعوة قبلُ؛ فإنه يجبُ أن ندعوهم إلىٰ الإسلام قبل المقاتلة؛ أما إذا كانت الدعوة قد بَلَغَتهم؛ فإنه تُستَحب دعوتهم ولا تجب.

فلولي الأمر أو لقائدِ الجيش أن يُغِيرَ عليهم بدُون دعوة؛ لأن الدعوة قد سبقَت، ولكن الأفضل أن يَدعُوَهم قبل أن يُغِيرَ عليهم، حتىٰ لو كانت الدعوةُ قد سبقَت؛ رجَاءَ أن يُسلِمُوا، فيَسلم المسلمون من القتال ويَسلَم أولئك من القتل.

(فَإِن أَجَابُوكَ، فَاقبَل مِنهُم): هكذا في الرواية: «**وَكُفَّ عَنهُم**»؛ أي: كُف عنهم القَتلَ ولا تُقَاتِلهُم.

(ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِن دَارِهِم إِلَىٰ دَارِ المُهَاجِرِينَ): أي: ثم ادعُهم إن أسلَمُوا إلىٰ التحول من دارهم -وهي لمَّا أسلَمُوا أصبحت دار إسلام-؛ لكنها

بعيدة عن دارِ العلم والإيمان، عن مَدينَة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأميرَ أن يَدعُوهم إلىٰ الهجرة من دارهم إلىٰ دار المُهَاجرين التي هي المَدينة في زَمَن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه هجرة خاصَّة، وليست هي الهجرة من دار الكُفر إلىٰ دار الإسلام، وإنما هي الهجرة من دار الجَهل والبُعدِ عن السنة إلىٰ دار العِلم والسُّنَّة.

وقد ذكر بعضُ أهل العلم أن الهجرة في زَمَن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ المدينة كانت وَاجبَة علىٰ كل من أسلم، ولو لم تكن أرضُه أرضَ كُفر.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذه الهجرَةَ مُستَحبة وليست واجبة.

وهذا هو الأظهَرُ -والله أعلَمُ-: أن هذه الهجرة مُستَحبَّة، بدَليل أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل الأمر إلىٰ اختيَارِهم، وأمر الأمير بإقرارهم لو اختارُوا البقَاء في ديارهم.

وفي هذا فَائدَة، وهي: أنه يُستَحب للمسلم إذا كان في أرض تَفشُو فيها البدَع، أن يُهَاجر إلىٰ أرض سُنَّة، أو إذا كان في أرض يَظهَرُ فيها الجهل، ويَقِل العلم، ويُحارَب أهل العلم؛ أنه يستحَب له أن يُهَاجر إلىٰ أرض العلم، وما يُعَانُ فيه علىٰ العِلم.

(وَأَخبِرهُم أَنَّهُم إِن فَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَهُم مَا لِلمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيهِم مَا عَلَىٰ المُهَاجِرِينَ): وفي هذا حثٌّ لهم علىٰ الهِجرَة من ديارهم ليَلحَقُوا بالمهاجرين معَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهم ما للمُهَاجِرين مما يُحَصِّلونه من علم، وما يحصلونه من دُنيا؛ من غنيمة وفَيء، ونحو ذلك، وعَليهم ما علىٰ المُهاجرين،

كالجهاد مع رَسُولِ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .

(فَإِن أَبَوا أَن يَتَحَوَّلُوا مِنهَا، فَأَخبِرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعرَابِ المُسلِمِينَ، يَجرِي عَلَيهِم حُكمُ الله تَعَالَىٰ): (الأعراب): هم الذين يَقطُنون البوادي والقُرىٰ، وقد أسلموا واختَارُوا البقاء في بواديهم أو قُرَاهم، ولم يُهاجروا إلىٰ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن هؤلاء إذا لم يُهَاجروا يكونون كهَؤلاء الأعراب، ويجري عليهم حُكمُ الله جَلَّوَعَلَا الذي يجري علىٰ المُؤمنين؛ من فعل الوَاجبَات، وترك المُحرَّمات، وإقامة الحُدود، وغير ذلك.

(وَلَا يَكُونُ لَهُم فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيءِ شَيءٌ، إِلَّا أَن يُجَاهِدُوا مَعَ المُسلِمِينَ): أي: أنهم لا يكونُ لهم نصيبٌ من الغنيمة.

والغنيمَة: مالٌ يكتَسِبُه المسلمون من الكُفار بالقوة والقتال، والمَعلُوم أن الغنيمة تُقسم خمسة أخماس؛ أربعة أخماس منها تكونُ للمُجاهدين المُقَاتلين، وخُمس يكون لبيت مال المسلمين، يُصرَف في مصالح المسلمين العامَّة، ويُعطىٰ منه المسلمون.

والفَيء: مالٌ يكتسبه المسلمون من الكُفار بغير قتال؛ كأن يَفِرَّ الكفار من ديارِهم إذا سمعوا بالمسلمين، وهذا الفَيءُ يكون لبيت مال المسلمين، ويُصرَف في مصالح المسلمين العامَّة، ويُعطَىٰ منه المسلمون.

لكنَّ الذي أسلَمَ من هؤلاء وأبىٰ أن يُهَاجر ليس له في الخُمس من الغنيمة الذي يُجعَل في بيت المال نَصيب، وليس له من الفيء نَصيب، إلا في حالة واحِدَة: أن يجاهد مع المسلمين، فإذا جاهد مع المسلمين فإنه يكون له نَصيبٌ من الغَنيمة.

(فَإِن هُم أَبَوا): وهذه الخَصلَةُ الثانية علىٰ قول الأكثَر من أهل العلم.

(فَسَلهُمُ الجِزيَةَ): الجِزيَة: مال يَدفَعُه الكافرُ المُقيم علىٰ دينه للمسلمين لقاء حمايته ونُصرته، فيكون دَمُه كدم المسلمين، ومالُه كمَال المسلمين، وعِرضُه كعِرضِ المُسلمين.

وقد اختلف الفُقهاء ممَّن تُؤخَذ الجزية:

قال بعضُ أهل العلم: تُؤخذ من كل كَافر من العَرَب أو غير العَرب.

وقال بعضهم: تُؤخذ من كل كافر إلا العَرَب عَبَدة الأوثان، فإنه لا تُؤخَذُ منهم الجزية.

وقال بعضهم: لا تؤخَذُ إلا من أهل الكتابِ والمَجُوس.

وظاهر الحديث الذي في البابِ يَنصُر القول الأوَّل، وهو قول الإمام مالك: أن الجزية تُؤخَذ من كل كافر، سَواء كان من العرب أو العجم، فإن هذه الوصية لأمير الجيش كلما أمَّرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميرًا علىٰ جيشٍ أو سَريَّة.

(فَإِن هُم أَجَابُوكَ؛ فَاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم): وهذا عائد إلىٰ ما قَدَّمناه من أنه ليس الغَرَضُ من قتال الكفَّار إذهاب نفوسهم وأرواحهم، وإنما الغَرَضُ إيصالُ الحق إليهم، فيُبدَءون بالدَّعوة، ثُم تعرض عليهم الجزية؛ لأنه إذا دفَع الجزية وعاشَ مع المسلمين، ورأىٰ وفاءَ المُسلمين وأخلاقَهُم وكمَالَ دِينِهم؛ فإن هذا يَدعُوه إلىٰ أن يُسلِم، فقُدِّمَت هنا علىٰ الحَرب.

(فَإِن هُم أَبَوا): أي: لم يُعطُوا الجِزية.

(فَاستَعِن بِالله وَقَاتِلهُم): كما تقدَّم في قول النبي ﷺ لهم: «**اغزُوا بِاسمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ**»؛ أي: مُستعينين بالله، مُخلصين لله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا المؤمن في كل شأنه كلمَا عزم علىٰ خير استعان بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه:

إِذَا لَم يَكُن عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَىٰ فَأَوَّلُ مَا يَجنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

فالمُؤمن بحاجة إلىٰ عون الله عَزَّوَجَلَّ في كل خَير يَعزِمُ عليه، ويَقتَرب من فعله.

(وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ): فتَحَصَّنوا في حِصنِهم.

(فَأَرَادُوكَ): أي: أرادوا منك.

(أَن تَجعَلَ لَهُم ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ): أي: طلبُوا الصُّلح، وأرادوا من القائد أن يُعطِيَهم ذمَّة الله وذمة نبيه ﷺ.

(فَلَا تَجعَل لَهُم ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ): وقد ذهب أكثَرُ الفقهاء إلىٰ أن هذا النهي للكَرَاهة، وليس للتحريم؛ قالوا: لأنه احترازٌ عن مُحتَمل ليس بغَالب؛ والمحتمل ألَّا يُوَفَّىٰ بهذه الذمة، وهذا في الحقيقة وإن كان مُحتملًا إلا أنه ليس غالبًا في المسلمين، وإنما الغَالبُ في المسلمين أنهم يُوفون بالعهود ويُوفون بالذمم.

وبعضُ أهل العلم حكَىٰ هذا إجمَاعًا، وقال: إنه للتنزيه بالإجمَاع؛ ولكن فيه خلاف؛ فقد ذهب بعض العلماء إلىٰ التحريم، قالوا: لأنه من باب تَعظِيم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم الله واجب؛ فيَكُون إعطاء ذِمَّة الله وذِمَّة نبيه ﷺ محرمًا.

والأول أكثرُ وأشهر عندَ أهل العِلم، ولعَله الأقرب، والله أعلم.

(**وَلَكِنِ اجعَل لَهُم ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصحَابِكَ**): أي: اجعل لهُم ذِمَّتك أيها الأمير، وذمة أصحابِك؛ لأن الذمَّة كما تكونُ من الأمير تكون من الفرد من الجيش؛ بل تكون من أيِّ مُسلِم، ولو لم يكن من أفراد الجيش، فذِمَّة المسلمين واحدة يسعىٰ بها أدناهم؛ فلو أن عبدًا مملوكًا مسلمًا أعطىٰ الكفار الذمَّة؛ فإن الذمة تلزَمُ المسلمين، إلا أن يَنبذوا لهم ويَرُدوا ذلك لهم علىٰ سواء؛ بل من كمَال الإسلام أنه لو فَهِمَ الكافر الذمة أو الأمان غلطًا وخَطأً؛ فإنه لا يُؤذَىٰ؛ بل يُرَد إلىٰ مكانه.

فلو أن مسلمًا في الجيش أشارَ إلىٰ أهل الحِصن بعِمَامة بيضاء؛ فظنوه يشير إليهم بالأمَان والذمة، فنزل أحدهم أو بَعضُهم إلىٰ المسلمين، فلما قُبِضَ عليه قال: ذاك أشار إليَّ بعِمَامة بيضاء، وهذا يَدُل علىٰ السلام وعلىٰ الذمَّة وعلىٰ الأمن. فقَال المُسلم: لا، أنا كنتُ أنفُض الغبار من عمَامتي، وما أشرتُ إليه ولا قَصَدتُه؛ فإن الفقهاء نَصُّوا علىٰ أن هذا الكافر لا يُؤذَىٰ بل يُرَد إلىٰ حصنه الذي جاء منه!

وإنك لتَعجبُ كيف أن شِرذمة تَنتَسب إلىٰ الإسلام تفهم أن الغَدرَ دِين، وأن إخفَارَ الذِّمم دِين، بل إن قَتلَ المُسلم عندهم دِين، فيُفَجِّرون ويَقتُلون، ويستَحِلُّون دماء المسلمين غَدرًا وخيانة منهم، وهؤلاء ما عَرَفُوا دين الله جَلَّوَعَلَا.

والواجب علينا أن نعتني بتعليم أبنائِنا دينَ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن دِينَ الله دينُ وفاءٍ وتَعظيم للدمَاء والذِّمم والعُهود.

(فَإِنَّكُم إن تُخفِرُوا ذِمَمَكُم وَذِمَّة أَصحَابِكُم): أي: تَنقُضوا العَهد الذي أعطَيتُموه، وجعلتم عليه هذه الذمَّة.

(أَهوَنُ مِن أَن تُخفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ): فَإخفَار الذمة والعَهد حرام علىٰ كلِّ حال، لكن إذا كان العهدُ عهدَ الله، وإذا كانت الذمَّةُ ذمَّةَ الله، أو ذمَّةَ نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن إخفارَها أشَر وأعظَم!

وهذا يعتبرُ مِثالًا عند أهل العلم لقَاعدة: «يُختارُ أَهونُ الشرَّين».

فإذا كان لابد من أحَدِ الشرَّين؛ فإن المؤمن يختار الأهون، وذلك أن الأمير لو أعطاهم ذِمَّة الله يُمكن أن تُخفَر هذه الذمة، ولو أعطاهم ذِمَّته يمكن أن تُخفَر هذه الذمة، وهذان شَرَّان؛ لكنَّ إخفارَ ذمَّة الأمير أهوَنُ من إخفار ذمَّة الله عَزَّ وَجَلَّ، فأرشدَهُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ هذا الأمر الذي فيه اختيَار أهونِ الشرَّين.

(وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ، فَأَرَادُوكَ أَن تُنزِلَهُم عَلَىٰ حُكمِ اللهِ): قَالوا: أنزِلنَا علىٰ حكم الله، واحكم فينَا بحُكم الله عَزَّ وَجَلَّ.

(فَلَا تُنزِلهُم، وَلَكِن أَنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِكَ): وهنا لم يَقُل: وحُكم أصحَابك، فهو ليس كالذمَّة؛ لأن الحُكمَ إنما هو للأمير، وليس لأفرادِ الجيش.

(فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكمَ اللهِ أَم لَا): والخِلاف في هذا كالخِلاف علىٰ إعطَاء الذمة؛ والأكثر علىٰ أن هذا مَكرُوه وليس بحَرَام.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ الحُرمَة.

ثمَّ اختلَفَ العُلَمَاء: هل هذا النهي خاصٌّ بزمن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أم أنه مُستَمِر إلىٰ زماننا؟

فقال بعضُ أهلِ العلم: هو خاص بزَمَن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه وقتُ نُزول الوَحي، ويمكن أن يتغَيَّر الحكمُ، والأمير لا يدري، فيمُكن أن يَخرُج من المَدينة والحكم -مثلًا- أنهم يُقتلون، وأن هذا حُكم الله فيهِم، ثُم قد يُنسَخ هذا الحكم بالتَّخيير بين القتل والفِدَاء والاسترقاق، وقد لا يَعلمُ الأمير بذلك، فلا يكونُ حَكَمَ فيهم بحُكم الله.

ولذلك قالُوا: هذا خاص بزَمَن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه بعد مَوتِ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لن تتغَيَّر الأحكام.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: بل هذا مُستَمر؛ لأن المجتهد مهمَا اجتهد لا يَدرِي هل يُصيب حكم الله أو لا يُصيب؟

وهَذا هو الأظهَرُ -والله أعلَم-: أنه مُستَمر؛ فيقُول لهم الأمير أو وَليُّ الأمر: نُنزِلُكم علىٰ حُكمنا، ثم يجتهد في الحُكم الشرعي، وليس بهَواه، فإن أصَابَ فله أجرَان، وإن أخطأ فله أجرٌ واحِد.

وفي هذا دليلٌ بَيِّن لقَول من قال من أهل الأصول: «إنَّ المُصيبَ مِن المُجتَهدين وَاحِد»؛ فإنه لو كان كل مجتهد مُصِيبًا؛ لما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكمَ اللهِ أَم لَا**»؛ فلما قال ذلكَ؛ علمنا أن المُصيبَ من المجتهدين واحِد.

وفيه فائدة أيضًا، وهي: أن وليَّ الأمر المسلم إذا اجتهد فقد فعَلَ ما عليه؛ سواء أصاب أم أخطأ، فإذا اجتهد وليُّ أمر المسلمين في قَضيَّة واتَّبع الطريق المَشرُوع، فرجع إلىٰ أهل الرأي وأهل العلم، ثم أخذ بما يَراه أصلَح إن اختلفُوا؛ فإنه لا يُعَاب، ولو لم يُصِب الصوابَ في نَظَرنا؛ لأن النبي ﷺ قال للأمير: «**فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكمَ اللهِ أَم لَا**»؛ ومعنىٰ ذلك أنه قد يجتهدُ ويُصيب فيهم حُكمَ الله، وقد يجتهد ولا يُصيبُ فيهم حكم الله، وهو لا يُعاب علىٰ الحالَين، وهذه قاعدة عند أهل السُّنَّة والجَماعة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: الفَرقُ بينَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبينَ ذِمَّةِ المُسلِمِينَ.

وهذا أدَقُّ مما ورَد في بعض النُّسَخ من قولِ المُصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الفَرقُ بينَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَذِمَّةِ المُسلِمِينَ**)؛ لأنا لمَّا أتينا بـ (بَين) في قولنا: «**الفَرقُ بينَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَبَينَ ذِمَّةِ المُسلِمِينَ**». بَينَّا أن ذِمة الله وذِمة نبِيِّه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جانب، وذِمَّة المسلمين في جانب، فهذا هو المقصُود بالتفريق.

أما إذا قُلنا: «**الفَرقُ بينَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَذِمَّةِ المُسلِمِينَ**». فقد يظن القارئ أن التفريق بين الثَّلاثة، وليس هذا هو المراد، وقد تَبيَّن لنا الفَرقُ، وأن ذِمة الله وذِمة نبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظَمُ وأشد، وأن إخفَارَها أعظمُ شرًّا.

الثَّانِيَةُ: الإرشَادُ إلَىٰ أَقَلِّ الأمرَينِ خَطَرًا.

كمَا قلنا: «يُختار أهون الشَّرَّين».

الثَّالِثَةُ: قَولُهُ: «اغزُوا بِاسمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ».

وهذا يَدُل علىٰ أن الجهاد المَشرُوع هو الذي يأمُر به وليُّ الأمر، ويُستعان فيه بالله، ويُخلصُ فيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا فَقَدَ واحدًا من هذه الثلاث؛ فليس جهادًا مشروعًا.

الرَّابِعَةُ: قَولُهُ: «قَاتِلُوا مَن كَفَرَ باللهِ».

ومَن كفَر بِالله: كُل مَن لم يقبَل الإسلام؛ سواء كان من اليَهُود أو النصارىٰ أو المَجوس أو البُوذيين، أو غير ذلك.

وشَرط هذا: أن يكونَ ممن يُقَاتَل، كما تقدم بيانه في الشَّرح.

الخَامِسةُ: قَولُهُ: «استَعِن بِاللهِ، وَقَاتِلهُم».

وأن المُؤمنَ بحَاجَةٍ إلىٰ عَون الله عَزَّوَجَلَّ في كُل أمرٍ يُقدِمُ عليه.

السَّادِسَةُ: الفَرقُ بينَ حُكمِ اللهِ وَحُكمِ العُلَمَاءِ.

فَحُكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجبُ علىٰ المُسلم أن يَلزَمه إذا عَلِمَه، وحُكمِ العلمَاء إذا أجمعوا عليه فهُو حُكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا اختلفوا فالوَاجبُ علىٰ المسلم أن يلزَمَ الحق فيه، هذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ: أن الأمير أو العَالِمَ يُنزل الناسَ علىٰ حُكمِه، بشَرطِ أن يتطلب الحُكم الشرعي، ويَجتهدَ في هذا، وإذا أفتىٰ فإنه يقول: «يَظهَرُ لي والله أعلم أن الحُكم الشرعي كذا»، أو: «رَأيي أن الحُكم كذا»، ولا يقول: حُكم الله. إلا إذا كان يَقُول عن نَص؛ فيَقُول: حُكم الله كذَا، ويقرأ الآية، حُكم الله كَذا، ويَقرأ الحَدِيث، أمَّا إذا كان يُفتي بمَا رآه، ولو عن اجتهَاد في النصوص؛ فإنه يقول: الذي أراهُ كذا، أو: الذي يظهر لي والله أعلَمُ أن الحُكمَ كَذا .

السَّابِعةُ: فِي كَونِ الصَّحَابِيِّ يَحكُمُ عِندَ الحَاجَةِ بِحُكمٍ لا يَدرِي أَيُوَافِقُ حُكمَ اللهِ أم لا؟

الصَّحَابي في زَمَن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجتَهد عند الحاجة، وكذلك الأمير إذا نزَل، أو كان مُحَاصِرًا قومًا في حِصن، وطَلَبُوا منه الحُكم؛ فإنه يَحكُم باجتهاده مع وجود النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه لا يستطيع أن يَصِلَ إليه، وكذلك العَالِم بعدُ، فإنه إذا فَقَدَ النصَّ يَجبُ عليه أن يجتهدَ بالقياس والقَواعد الشرعية العَامَّة، وهو مَحمُود مأجُور، إن أصابَ فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحِدٌ.

❊❊❊

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَىٰ اللهِ.

الشرح

مِن تَعظيم العَبدِ لرَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **ألَّا يُقسِمَ** علىٰ الله بالله في أمر غَيبي بغير علم، وهذا من كمَالِ التَّوحيد الواجب؛ ولذا عقد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتَاب التوحيد» هذا الباب: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَىٰ اللهِ**): أي: من الوعيد.

وإقسَامُ العَبد علىٰ الله له ثلاثةُ أنحَاء:

الأول: الإقسَام بالله علىٰ الله بأمرٍ عُلِم في كتاب الله أو في سُنَّة رسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا جائزٌ ولا حرَجَ فيه.

مثالُ ذلك: أن يقول المُسلم: والله لا يغفِرُ الله لمُشرِك، أو: والله لا يغفر الله للمُشرِكين.

أو يقول المسلم: والله ليَشفَعنَّ أقوامٌ يوم القيامة.

فهذه أمور جاءت في الكتاب والسُّنة، والمؤمن لقُوَّة يقينه يخبر بمَا أخبَرَ الله به وأخبَر به رسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحلِفُ بذلك علىٰ الله جَلَّ وَعَلَا.

والثاني: الإقسام علىٰ الله فيما يَرجُو العبد ثِقَةً بما عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ويقينًا بفَضل الله جَلَّ وَعَلَا.

ومِن ذلك: ما جَاء عن عن أَنَس بن مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الرُّبَيِّعَ وَهِيَ ابنَةُ النَّضرِ كَسَرَت ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا الأَرشَ، وَطَلَبُوا العفوَ، فَأَبوا، فَأَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَأَمَرَهُم بِالقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بنُ النَّضرِ: أَتُكسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَا تُكسَرُ ثَنِيَّتُهَا.

فَقَالَ: **يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ**. فَرَضِيَ القَومُ وَعَفَوا.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ مِن عِبَادِ اللهِ مَن لَو أَقسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[(١)].

فأنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يَقُل هذا اعتراضًا علىٰ حُكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل قال هذا ثقةً بالفَرج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحُسن ظَن به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ألا يقعَ هذا الأمر، وهو القصاص، وقد كان أهلُها مُصِرِّين علىٰ القِصَاص؛ فألانَ الله جَلَّ وَعَلَا قلوبَهم، فرَضُوا وعَفَوا، أو رَضُوا بالأرش، جاء هذا وهذا.

ولعل المُراد بِالعفو هنا: أنهم عَفَوا عن القصاص وأخذُوا المال.

وقولُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِن عِبَادِ اللهِ مَن لَو أَقسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ**»: لعَظيم يقينه وحُسنِ عبادته، ورِفعَة منزلته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والثالث: الإقسام علىٰ الله بالله في أمر غَيبي بلا عِلم، وهذا هو «**التألِّي عَلىٰ الله**»، وهو مُحرَّم؛ بل من كبَائر الذنوب.

وذلكَ كأن يقُولَ الرجُل الصَّالح: والله لا يغفرُ الله لفُلان، سواء كان فلان هذا مَيتًا أو حيًّا؛ فهو مُسلم ولكنه قد يكون مُسرفًا علىٰ نفسه ومُكثرًا من الذنوب!

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣).

وهذا الرجلُ أقسم بالله علىٰ الله في أمر غَيبي لا يُعلَم؛ فإنه ما دامَ أنه مسلم فإنه قد يَغفرُ الله له، وقد لا يغفر الله له.

وكذلكَ لو قال عن حَي -سَواء كان مُسلمًا أو كافرًا-: والله لا يغفر الله له، أو: واللهِ ليُدخلنَّه الله النار؛ فهذا أيضا لا يَجُوز؛ لأنه في المُسلم قد يغفرُ الله له، ولو مات علىٰ ذنبه، وفي الكافر قد يَهدِيه الله ويُسلم؛ فيغفر الله له، إلا إذا كان مرادُه عند الكلام: إذا مات علىٰ تلك الحَال؛ لكن لا يَنبَغي له أن يُدخِلَ نَفسَه في هذا ويُقسم علىٰ الله في مثل هذا الأمر.

ومُراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو النَّوع الثالث: الإقسَام بالله علىٰ الله في أمرٍ غَيبي بلا عِلم.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن جُندُبِ بنِ عبد اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَد غَفَرتُ لَهُ، وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسلِمٌ.

الشرح

هذا الحَديث الصَّحيح في «صَحيح مسلم»[1].

(عَن جُندُبِ بنِ عبد اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ): فأقسَمَ علىٰ الله ألَّا يَغفِرَ لفُلان.

(فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ): مَن ذا الذي يَحلفُ عَليَّ.

(أَلَّا أَغفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَد غَفَرتُ لَهُ، وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ): وحُبوطُ العمَل هو إبطالُه، وإذهابُ أجرِه. وهو علىٰ نوعَين:

الأول: حُبوط كُلِّي شَامِل: وهو إبطالُ جميع الأعمال والخَيرات، ويُسَمِّيه بعضُ أهل العلم: حبُوط إسقَاط، بحَيث تسقط جميعُ خَيرَاته، وهذا لا يكونُ إلا بالكُفر بالله؛ كمَا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

والثَّاني: حبُوطٌ جُزئي: وهذا يكون لبَعض الأعمَال، مثل: حبُوط الصدقة إذا لحِقَها المنُّ والأذىٰ، فهذا يُبطِل الصَّدقة ويحبِطها.

---

(١) برقم (٢٦٢١).

أو للأعمال من جهَةِ مُوَازَنتها بالسيئات، فتَرجُح سيئاتُه علىٰ حسناتِه، وهذا ليس إحباطًا دائمًا، وإنما يدخُل النار -إن شاء الله أن يَدخُل-، فإذا عُذب بسيئاته أُخرِج من النار وجُوزِي بفضل الله بحسنَاته، فترجع الحسناتُ، لكنها تحبط بالمُوازَنة، وهذا إحباطٌ جُزئي.

وفي الحَديث أن رَبَّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال للمُتألي: «**وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ**»، وظاهرُ هذا أنه أحبط جميع عمله؛ لأن (عَمل) مُفرَد مُضَاف للكَاف، والمفرد المضاف يَعُم.

وهنا إشكال في هذا النَّص، وهو: أن الإحبَاط لكُل الأعمال إنما يكون بالكفر فقط، فما المَقصُود منه في النَّص؟

قال بعضُ أهل العِلم: لعله كان مستحلًّا لهذا الحَلفِ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع عِلمه بحُرمته، ومَن استحلَّ الحَرَام مع علمه أنه حرامٌ فإنه يَكفُر.

وقالَ بعضُ أهل العِلم: لعل هذا هو الحُكم في شَرعهم؛ أنَّ مَن أقسم علىٰ الله يَحبط عمله.

وقال بعضُ أهلِ العِلم: بل هو حبُوطٌ جزئي، وإنما ورد بهذه الصِّيغة لتشديدِ الوَعِيد والزَّجر عن مثل هذا الفِعل، ولعل هذا أقربُ، والله أعلم.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوبَقَت دُنيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

الشرح

والحَديثُ بتمَامه عَن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسرَائِيلَ مُتَوَاخِيَينِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذنِبُ، وَالآخَرُ مُجتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ المُجتَهِدُ يَرَىٰ الآخَرَ عَلَىٰ الذَّنبِ فَيَقُولُ: أَقصِر، فَوَجَدَهُ يَومًا عَلَىٰ ذَنبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقصِر، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغفِرُ اللهُ لَكَ، أَو لَا يُدخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَروَاحَهُمَا، فَاجتَمَعَا عِندَ رَبِّ العَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا المُجتَهِدِ: أَكُنتَ بِي عَالِمًا، أَو كُنتَ عَلَىٰ مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلمُذنِبِ: اذهَب فَادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذهَبُوا بِهِ إِلَىٰ النَّارِ.**

قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوبَقَت دُنيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[1].

فهذا الرجلُ لمَّا رأىٰ أخاه المُذنِب علىٰ ذَنب استعظَمَهُ فنهَاه فلم ينتهِ، فقال: والله لا يغفرُ الله لك، أو: لن يدخِلَك اللهُ الجنَّة؛ **فكان قوله هذا ذنبًا عظيمًا!**

وهذا المُذنبُ لم يكن مشركًا، ولذلك قال: خَلِّني وربي. ولو كان مشركًا لما

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

غفرَ الله جَلَّوَعَلَا له؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يغفر للمُشرِك الذي يموتُ علىٰ الشرك؛ ولكِنه مُذنِب مُسرف علىٰ نفسه؛ فغفر الله له.

وفي هذا بيان أن رَبَّنا الرحيم الغَفُور قد يغفر للمُذنب المسرفِ بغَير سَبب، فيغفِرُ له برحمته وعفوه ولطفه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذلك لا ييأسُ من رَحمَة الله مؤمن أبدًا؛ ولكن لا يَغترُّ برحمَة الله مؤمن أبدًا.

وأدخل المجتهد في العبَادة النار بسَبب ذَنبِه، وليس فيه أنه خُلِّد في النار، ولكن هذا يَدُل علىٰ عِظَم ذنب مَن أقسم علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أمر غَيبي بلا علم.

❁❁❁

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: التَّحذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَىٰ اللهِ.

أي: التَّحذير من الحَلِفِ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أمر غيبي بلا علم، فلابُد من هذا القَيد: «في أمرٍ غَيبي بِلا عِلم»، أما لو حلف في أمر غيبي بعِلم، فقال: واللهِ إن لله يدَين، فقد حَلَف علىٰ أمرٍ غيبي أخبرنا اللهُ به فهذا مَحمُود.

ولو حلف علىٰ خَير يُرتَجىٰ ثقةً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا لا يَدخُل في هذا، وإنما يدخُل في هذا إذا حلف علىٰ أمرٍ غيبي بلا عِلم.

الثَّانِيَةُ: كَونُ النَّارِ أَقرَبَ إِلَىٰ أَحَدِنَا مِن شِرَاكِ نَعلِهِ.

فالإنسانُ لا ينبغي له أن يستَخفَّ بالذنوب، فرُبَّ ذنبٍ أوبَقَ صَاحبَه، ورُبَّ ذنب لا يَراه الإنسان عظيمًا كان سببًا في دخوله النار؛ ولذلك المُوفَّق يحرص علىٰ الخيرات بإخلاص واتِّباع، ويَحذر الوقوع في المَنهيَّات؛ حَذَرًا من أن يكون ذلك سببًا في هَلَكتِه.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الجَنَّةَ مِثلُ ذَلِكَ.

فمَا دام الإنسانُ مؤمنًا مسلمًا؛ فإن الجنةَ قريبةٌ منه، وليُحسن ظنه بربه جَلَّ وَعَلَا، وليس بين الإنسان وبين قيَامَته سِوىٰ الموت، وليس بينه وبين الموت سوىٰ أن يَحُل الأجل، والله أعلم متىٰ يَحل!

فيجب علىٰ العبد أن يستَشعر أن النار قريبَة، وأن الجنة قريبة، فيبتَعد عما يؤدِّي إلىٰ النار، ويَجتهد فيما يُدخِلُه الله به الجنَّة بفَضلِه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرَّابِعَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَولِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ» إلَخ.

ورد في الحَديثِ عند البُخَاري[1] عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن رِضوَانِ اللهِ، لَا يُلقِي لَهَا بَالًا، يَرفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لَا يُلقِي لَهَا بَالًا، يَهوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

ومعنىٰ «**لَا يُلقِي لَهَا بَالًا**»؛ أي: لا يكونُ لها وزنٌ في نَظَره، ولا يَرىٰ بها بَأسًا.

وعند مُسلِم[2] عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ العَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، يَنزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبعَدَ مَا بَينَ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ**».

وما وقعَ من هذا الرجل في هذا الحَديث هو من هذا البابِ؛ حيث تَكَلَّم بكلمة لم يُلقِ لها بالًا؛ فدخَل بها النارَ، والعيَاذ بالله.

الخَامِسَةُ: أَنَّ الرَّجُلَ قَد يُغفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِن أَكرَهِ الأُمُورِ إِلَيهِ.

وذلك أن هذا الرجُلَ قد غُفِر له بسَبب تعَالِي الآخَرِ عَليه، وتألِّي الآخَرِ علىٰ

---

(١) برقم (٦٤٧٨).

(٢) برقم (٢٩٨٨).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتعَالِي الآخر عليه واحتقار الآخر له سَببٌ مَكرُوه في نَفسِه، لكن قادَهُ ذلك إلىٰ أن يَغفِرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له.

❀❀❀

بَابٌ: لا يُستَشفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ خَلقِهِ.

الشرح

مِن تعظيم العبدِ لربِّه: ألَّا يستشفِعَ به علىٰ أحدٍ من خلقه، فإن شأنَ الله أعظم من ذَلك؛ إذ الغالبُ أن يكون المستشفَع به لا يستطيعُ أن يفعل الخيرَ بنفسه، وهذا لا يكُونُ في شأن الله أبدًا، بل الله عَزَّوَجَلَّ يُعطي ما شاء لمَن شاء، ولا ينقص ذلك من مُلكه شيئًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولأن الغالبَ أيضًا أن المستَشفَع به يكون أقلَّ مَنزِلة من المستشفع إليه، فتَستشفع بالوَزير عند المَلِك، وتستشفع بالمُدير العَام عند الوزير، وهذا لا يكونُ في شأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولأنَّ الشفاعة تتضَمَّن السؤال، والله عَزَّوَجَلَّ مسئول لا سَائل، والشفاعة تتضمَّن أن تسألَ لغَيرِك.

فالاستشفاع بالله علىٰ أحدٍ مِن خلقه يُنَافي كمالَ التوحيد الواجب، ولذلك عقد الشيخ هذا الباب: **(لَا يُستَشفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ خَلقِهِ)**.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَنْ جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أعرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! نُهِكَتِ الأَنفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَموَالُ؛ فَاستَسقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَستَشفِعُ بِاللهِ عَلَيكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبحَانَ اللهِ! سُبحَانَ اللهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: «ويحَكَ أَتَدرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأنَ اللهِ أَعظَمُ مِن ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُستَشفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِن خَلقِهِ». وَذَكَرَ الحَدِيثَ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الشرح

هذا الحديث رواه أبو داود، وسكَت عنه؛ فهو صالح عنده، ولذلك قال الذهبي وابن القيم: هو حسن عنده -أي: عند أبي داود-[(١)].

ورواهُ ابن أبي عاصم، والبزار، وابن خزيمة في «التوحيد»، وأبو عَوانة، وضعَّفه الألباني[(٢)]، والأرناؤوط[(٣)]، واستغربه الذهبي وابن كثير[(٤)].

---

(١) انظر: «العرش» للذهبي (٢/ ٣٤)، و«مختصر الصواعق» للموصلي (٤٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧٥)، والبزار (٣٤٣٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٣٩)، وأبو عَوانة في «مستخرجه» (٢٥١٧)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٦٥٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٨٣)، والبَغوي في «شرح السنة» (٩٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٣) انظر: تحقيقه علىٰ «شرح السنة» للبغوي (١/ ١٧٦) تحت رقم (٩٢).

(٤) انظر: «العلو» للذهبي (ص٤٤ أضواء السلف)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٦٨١ طيبة).

والنَّاظر في الحَديث يُدرِك أن إسنادَه ضعيف؛ لكن معناه صَحيح، وهذا الذي وصَل إليه الشيخُ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: أن في إسناده ضعفًا، لكن معناه صَحِيح، وما فيه تشهَدُ له الأدلَّة والقوَاعد الشَّرعية.

ولذا ما زَال الأئمَّة الكبار يحتَجُّون به في التوحيد.

ولذا قال شيخُ الاسلام ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الحديثُ وأمثاله، وفيما يُشبِهُه في اللفظ والمعنىٰ لم يَزَل مُتداولًا بينَ أهل العلم خالفًا عن سَالِف، ولم يزل سلَفُ الأمة وأئمتُهَا يَروُون ذلك رِواية مُصَدِّق به، رَاد به علىٰ من خَالَفَه من الجَهميَّة، مُتَلَقين لذلك بالقَبُول»[1].

فالحديثُ -وإن كان في إسناده ضعفٌ- إلا أن معناه صَحيح؛ تَدل عليه الأدلة الأخرىٰ بخُصوصها وعُمُومها، ويَعضُدُ هذا ويُقَوِّيه أن أئمة المسلمين الكبَار يحتجون به، وممن احتجَّ به: ابن خزيمة في «كتَاب التوحيد» الذي اشترط فيه الصحة، والبخاري صَاحب الصحيح، فإنه احتج بهذا الحديث[2]، والإمام أحمد كذلك، وهذا يَدُل علىٰ أن مَعنَاه مَقبُول عند أهل العلم.

والشيخ هنا لم يَروِ الحديث بالنَّص، وإنَّما رواهُ بالمَعنىٰ.

(عَن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! نُهِكَتِ الأَنفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَموَالُ؛ فَاستَسقِ

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ٢٥٥).

(٢) انظر: «خلق أفعال العباد» (ص٤٢ المعارف السعودية).

لَنَا رَبَّكَ): فطلَبَ من النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستَسقيَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا لهُم، وقد كان الصحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستَسقُون بدعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استسقىٰ به الصَّحابة دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إما بدُعاء، فقط كما حصَل وهو علىٰ المِنبَر، وإما بصَلاةٍ ودعاء كما في صَلاة الاستسقَاء.

(فَإِنَّا نَستَشفِعُ بِاللهِ عَلَيكَ، وَبِكَ عَلَىٰ اللهِ): فذكَرَ هاتَين الجُملَتين.

(فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **سُبحَانَ اللهِ! سُبحَانَ اللهِ!)**: و(سُبحَان الله) كَلمَة يَقُولها المُسلم عند الأمر العَظيم؛ إذا رأىٰ عظيمًا، أو سمع شيئًا عَظيمًا.

ومَعنَاها: أُنزِّه الله جَلَّ وَعَلَا تنزيهًا عن نَقصٍ وعَيب، أو عن كل ما يُناقِض الكمالَ والجلالَ والتَّعظيمَ الوَاجبَ له جَلَّ وَعَلَا.

(فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصحَابِهِ): وهذا من عظيم مَحبَّة الصحابَةِ للرسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا تألَّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتألمون!؛ فقد ظَهرَ الألمُ في وجوه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من عَظيم محبَّتهم لرسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ثُمَّ قَالَ: ويحَكَ): وهذه كلمةُ زَجرٍ مع تَوجُّع، فعندَما أقول لكَ: (وَيحَك) عندما تَذكُر لي هذا؛ فكأني أقولُ لك: أوجعتَنِي! لا تَفعَل هذا.

وكذلك فيها زَجرٌ للمُتكلم يَدُل علىٰ عِظَم ما تكَلَّم به!

(أَتَدرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأنَ اللهِ أَعظَمُ مِن ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُستَشفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِن خَلقِهِ): فلم يُنكِر عليه النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّا نستشفِعُ بكَ علىٰ

الله»، وإنما أنكَر عليه أنه قالَ: «إنَّا نَستشفِعُ بالله عَلَيك»؛ وذلك لِمَا ذَكرنَاهُ من الأمورِ الثلاثة التي لا تَليقُ بجَلالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**وَذَكَرَ الحَديثَ**): ولَم يَذكُر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقية الحَديث؛ لأنه اقتصَرَ علىٰ الشاهد للبَاب الذي ذَكرَهُ.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: إنكَارُهُ عَلَىٰ مَن قَالَ: «إِنَّا نَستَشفِعُ بِاللهِ عَلَيكَ».

وفي هذا فائدَةٌ جَليلَة؛ وهي: أن الخطأ يُرَد علىٰ صاحبه كائنًا مَن كان، ولو كان ذا فَضل، ولو كان ذَا قَصدٍ حَسَن، والنبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سمعَ خَطأً إلا رَدَّه؛ فالحق أعلىٰ مِن كُل أحد، مع حفظ فضل أهل الفَضل، فلا عيبَ علىٰ طالبِ العلم إذا سمع قولًا لعَالِم أن يقول: هذا خطأ، والصوابُ كذَا، فإنكار الخطأ سُنَّة.

ولا شك أن هذا الرجلَ القائل هذه المَقُولة لم يكن يقصِدُ الأمور التي لا تليق، لكن الجُملة كانت خطأً مع حُسنِ قَصده؛ فَردَّها النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنكرهَا.

الثَّانِيَةُ: تَغَيُّرُهُ تَغَيُّرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصحَابِه مِن هَذِهِ الكَلِمَةِ.

وفي هذا أن المُؤمنَ يغَار علىٰ دين الله جَلَّ وَعَلَا، وأن الإيمانَ يَقتَضي الغيرة علىٰ دِين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلىٰ مقام رَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلىٰ مقام صحابَة رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالذي يسمع أن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُبَّ ولا يغَار ولا يتألم ولا يتغير وَجهُه؛ فليُرَاجِع إيمانه!

والذي يسمع سبَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وسَبَّ أبي بكر وعُمَر وعثمانَ وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولا يغَار ولا يتألم ولا يَغضب؛ فإن في إيمانه شيئًا؛ فكيف إذا قال:

هم إخوانُنا يَذبَحُون كما نَذبَح!، ويُصَلون كما نُصَلي! لا شك أن مثل هذا القائل يجب عليه أن يُراجعَ إيمانَه، وأن يعالِجَ الضعفَ الواقع في إيمَانه!

فهذا ميزان تزنُ به قوة إيمانِك؛ الغَيرة علىٰ دين الله، والغَيرَة علىٰ مقَام رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والغيرة علىٰ صحَابة رَسُول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَم يُنكِر عَلَيهِ قَولَهُ: «نَستَشفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ».

وهذا يدل علىٰ أنه جَائزٌ.

الرَّابِعَةُ: التَّنبِيهُ عَلَىٰ تَفسِيرِ سُبحَانَ اللهِ.

وأنها تُقَال عند أمرٍ مُستَعظَم؛ حسَنًا كان أو قَبيحًا، وأن معناها: تنزيه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الخَامِسَةُ: أَنَّ المُسلِمِينَ يَسأَلُونَهُ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الاستِسقَاءَ.

أي: الصَّحابة رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ كانُوا يسألون النبيَّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الاستسقاء.

ومعنَاه: أنهم كانُوا يطلبون منه الدعاءَ بنُزول الغَيث، وهذا قد وقع مِرارًا.

ويُفسَّر هذا الاستسقَاءَ: فِعلُ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإنهم إذا سَأَلُوه الاستسقاءَ دعَا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهكذا يَستَسقِي المسلمون بالرجُل الصَّالح الشريف؛ فيُقَدِّمونه في صلاة الاستسقاء، ويَطلُبون منه الدعاء أن يُغيثَهُم الله جَلَّوَعَلَا، كمَا فعل الصحابة في زمَن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، واستَسقَوا بالعباس عَمِّ رَسُول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ أي: بدُعَائه.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المُصطَفَىٰ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِمَىٰ التَّوحِيدِ وسَدِّهِ طُرُقَ الشِّركِ.

الشرح

قد تقَدَّم في هذا الكتاب النافع: (بَاب مَا جاء في حمَاية المُصطفىٰ جنابَ التوحِيد، وسَده كل طريقٍ يُوصِل إلىٰ الشِّرك)، وهذا في أواخِر الثلث الأول من الكتاب، في (البابِ الحادي والعِشرِين)، وقد تقدم شرح ذَلِكُم الباب.

وهنا في البابِ قَبلَ الأخير من هذا الكتاب يَعقِدُ الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ هذا البَاب: (**بابُ مَا جاءَ فِي حمَايَةِ المُصطَفَىٰ** صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **حِمَىٰ التَّوحِيدِ، وسَدهِ طُرُقَ الشِّركِ**).

وهذا يَحتمِلُ من الشَّيخ رَحِمَهُٱللَّهُ أمرَين:

الأمر الأول: أن هذا من بابِ التَّكرار؛ لتأكيد وتَقرير القاعدة، وهي: «**سَدُّ الذَّرائع التي تُفضِي إلىٰ الشِّرك**»، وأن هذا هو نهج النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فينبغي أن يكون هذا نهج المُؤمنين المُحبِّين للنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولو أراد الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ هذا؛ لكان حسنًا طَيِّبًا مَحمودًا.

والأمر الثاني: أن هذا البابَ يَختلف عن الباب المُتقَدِّم، وذلك أن الباب المُتقَدم في حماية النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جنابَ التوحيد؛ أي: في حمَاية النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذات التَّوحيد، فهو متعلق بتَحقيق التوحيد؛ ولذلك عقد المُصنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ ذلك الباب في الجُزء المتعلق بتحقيق التوحيد، كما أن ذلك الباب في

الأفعال؛ بينما هذا البابُ في حمَاية النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حمىٰ التوحيد، والحمىٰ: مَا يُحيطُ بالشيء وليس منه، فهو مُتعلِّق بكمال التوحيد، كمَا أن هذا البابَ في الأقوال.

ولعل هذا الأمر الثَّاني هو المَقصُود؛ وهو الذي أراده الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ -والله أعلم-؛ فإن فيه التنويع مع فائدة الأمر الأول، وهو تقرير وتأكيد قاعدَة سَد الذرَائع.

فيَتَبيَّن بذلك أن هذا البابَ يَختلف عن الباب المتقدم من ثلاثة وجُوه:

الوجه الأول: أن الباب المُتقَدم متعلق بتحقيق التوحيد، وأن هذا الباب مُتَعلق بكمَال التوحيد.

الوجه الثاني: أن البابَ المتقدم مُتعَلق بحماية النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لذات التوحيد، بينما هذا الباب مُتعَلق بحماية النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحمَىٰ التوحيد، وهو ما يُحيط بالتوحيد ويُؤدِّي إليه، وإن لم يكن منه.

والوجه الثالث: أن البابَ المتقدم مُتعَلق بالأفعال، بينما هذا الباب مُتعَلِّق بالأقوَال.

فبَينهُما هذه الفروق، مع اشتراكهما واجتمَاعِهما في قاعدة سدِّ الذرائع المُفضيَة إلىٰ الشِّرك.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن عَبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انطَلَقتُ فِي وَفدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلنَا: أَنتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ». قُلنَا: وَأَفضَلُنَا فَضلًا، وَأَعظَمُنَا طَولًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَولِكُم، أَو بَعضِ قَولِكُم، وَلَا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.



الشرح

هذا الحديث رواه أبو داود[١].

ورواه أحمدُ[٢]، والبُخَاري في «الأدب المُفرَد»[٣]، والنَّسَائي في «الكُبرَىٰ»[٤].

وقَالَ الحَافظُ ابنُ حَجَر: «صَحَّحه غير واحِد»[٥].

وصححه الألبانيُّ؛ فالحديث صحيح الإسنَاد.

(عَن عَبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انطَلَقتُ فِي وَفدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): وهُو عامريٌّ، وقد أسلم قبل أن ينطلقَ مع الوفد، فقد أسلَمَ في عام الفتح، فانطلق في وفد قومِه، وكان مُسلمًا قبلُ في وفد بني عامر،

---

(١) برقم (٤٨٠٦)، وصَحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) برقم (١٦٣٠٧، ١٦٣١١ - الرسالة).

(٣) برقم (٢١١).

(٤) برقم (١٠٠٠٣).

(٥) «فتح الباري» (٥/ ١٧٩).

وذلك في عام الوفود في السَّنَة التاسعة من هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانطلق الوَفدُ ومعهم عبد الله بن الشخير إلىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فَقُلنَا: أَنتَ سَيِّدُنَا): قالوا ذلك للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمعلُوم المتيقن أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيدُنا، وهو سيد ولد آدم أجمَعينَ في الدنيا والآخرة، فقال هؤلاء القوم حقًّا ولم يَقُولوا باطلًا.

(فَقَالَ: السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ): فالسَّيِّد اسم لله عَزَّوَجَلَّ، والسِّيادة المُطلقَة التامة لله عَزَّوَجَلَّ، فلَهُ السُّؤدد التام المُطلَق، وقد قالَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الجُملَة علىٰ سبيل الإنكار عليهم في قولِهم: «أَنتَ سَيدُنَا».

وقد أنكَرَ عليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الإطلاق مع كونه حقًا؛ لأنه لَمسَ في كلامهم غُلوًّا، والغُلو لا خير فيه؛ بل هو من ذرَائع الوقوع في الشرك، فأنكر عليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولهم هذا سَدًّا للذريعة، أو لأنهم كانوا حُدثَاء عهد بكُفر؛ فخاف عليهم النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغُلو؛ لأن المشركين عندهم غُلُو في العُظماء، وهؤلاء قد أسلَمُوا قريبًا.

وهذا معلوم من حال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه في أول الأمر نهىٰ مثلًا عن زيارة القبور؛ لقُربِ عهد الناس بالشِّرك، والمُشرِكُون يُعظِّمون القبور، فلما استقَرَّ الأمر وقوي الإيمان في القُلوب قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَهَيتُكُم عَن زِيَارَةِ القُبُورِ، فَزُورُوهَا**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٧) من حديث بُرَيدَة بن الحُصَيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهَؤلاء لما كانوا حُدَثاء عهد بإسلام، وقالوا هذه الجُملة؛ خاف عليهم نبي الهُدىٰ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغلوَّ، وأن يقعوا في مَعهُود المشركين؛ فأنكر عليهم هذا.

ولحِرصِ صَحابة رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ امتثال ما يكون من رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنك تَجدُ الصحابة مع حُبِّهم لرسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتىٰ بعد مَوته إذا رَوَوا الحديث عنه لا يقولُون: قَال سيدُنا رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنما يقولُون: قالَ رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو: قالَ أبو القَاسم صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما كانوا يَرون في هذا غضَاضة ولا تنقُّصًا للنَّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالذي يعتَقدُ أن من قال اسمَ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو قال: رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بدون أن يقول: سيدنا، أو سيدي رَسُول الله؛ أنه يُسِيء الأدب مع الرسُول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فهو مُخطِئ؛ بل ومُخَالفٌ لما فهمه صحابة النَّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعَمِلُوا به.

(قُلنَا: وَأَفضَلُنَا فَضلًا): أي: أشرَفُنا شَرفًا ونسبًا، ولا شكَّ أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُصطفىٰ اللهِ من خَلقه، فإن الله قد اصطفاه من سَائر الناس؛ فهو أشرفُ الناس وأفضَلُهم نسبًا علىٰ الإطلاق صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(وَأَعظَمُنَا طَولًا): أي: أكثَرُنا جُودًا وكرمًا، وإنفاقًا وإحسانًا، ولا شكَّ أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان أجودَ الناس؛ فكان يجُود بما في يده، ومع كثرة ما يَرد إليه كان لا يُبقِي شيئًا في يديه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ حتىٰ إنه يمر الشهر والشهرَان والثلاثة علىٰ بيته ولم تُوقَد في بيته نار، وإنما طعَام أهله التَّمر وشرابُهم الماء، لا من فَقرِه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنما من جُودٍ يُذهِبُ ما في يدَيه، فكان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

أجودَ الناس بالخَير كما وصفَهُ ابنُ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[١]، فَهُم قالوا قولًا سليمًا صحيحًا.

فقالَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **(قُولُوا بِقَولِكُم، أَو بَعضِ قَولِكُم، وَلَا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ)**: ومعنىٰ: «قُولُوا بقَولِكم، أو بَعضِ قَولِكُم»:

قالَ بَعضُ أهل العلم: أي: قُولوا بقولكم الذي جِئتُم من أجله، واترُكوا عنكُم هذا القول، فأنتم جئتم لتَسألوا عن الإسلام وتُسلِمُوا، فقولوا بقولكم الذي جئتم من أجله واترُكوا عنكم هذا القول؛ وذلك لما في هذا القول مِن المَدح في الوَجه، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَكرَهُ المدح في الوَجه؛ ولأنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خافَ عليهم الغلُو، والغُلو لا يأتي بخَير.

وقالَ بَعضُ أهل العِلم: أي: قُولوا بقولكم الحَسَن، أو ببعض قولِكُم؛ فإن في قولِكُم حسنًا وقبيحًا، فقُولوا بقولكم الحَسَن، أو ببعضِ قولكم بالحَسَن الذي لا غُلو فيه، واتركوا القَبيحَ وهو الغُلو.

وقالَ بعضُ أهل العلم: أباح لهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ القولَ الأخير، وهو قولُهم: «أَنتَ أفضَلُنَا فَضلًا، وأعظَمُنا طَولًا»؛ فأباح لهم أن يقُولوا هذا القول، وأرشَدَهُم إلىٰ ترك كثرَة المدح، ففي الأول إباحة، وفي الثاني إرشَاد إلىٰ الأحسَن، وهو ألَّا تقولُوا هذا القول؛ بل قَلِّلوا من المَدح، وقُولُوا ببعض قَولِكم، ثم

---

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨). ولَفظُه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَجوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلقَاهُ جِبرِيلُ، وَكَانَ يَلقَاهُ فِي كُلِّ لَيلَةٍ مِن رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَجوَدُ بِالخَيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرسَلَةِ**».

حَذَّرهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغُلو في القَول في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَلَا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ)**: يَعني: أنتم الآن تقولون قولًا صحيحًا، وهو: «أَنتَ أفضَلُنَا فَضلًا، وأعظَمُنا طَولًا»؛ فهذا جائز أن تَقُولوه، ولو تركتُم بَعضَه لكَان أحسَن، لكن لا يستجرينَّكم الشيطانُ فينقلكم من القول الجَائز إلىٰ القَول المُحَرَّم الذي فيه غُلُو وإطرَاء.

ومعنىٰ قولِ نَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(وَلَا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ)**:

قَالَ بعضُ أهلِ العلم: أي: لا يتَّخِذَنَّكم جريًّا؛ أي: لا يجعلنَّكم كَثيري الجَري في خُطوَاته اتِّباعًا لَه.

وفي هذا إشارة إلىٰ أن إبليسَ يَقُود الإنسان إلىٰ الحرام خطوة خطوة، وربَّما بدأ بالحَلال، ثم حَسَّن له الزيادة، ثم حسَّن له الغلوَّ، ثم حسَّن له الشِّرك.

وقالَ بعضهم: أي: لا يتخذَنَّكُم رُسُلًا له، ووكلاء عنه، فيكون أحدكُم رسولًا لإبليس في إغواء الناسِ، وذلك كما يفعَلُ بعض الشعرَاءِ الذين يَغْلُون في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنهم وكلاء عن إبليس، ورُسل إبليسَ إلىٰ الناس!

وكم من شاعرٍ غَلا في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصبحَ شِعرُه يُقرأ في المَحَافل، ولرُبَّما كان فيه شركٌ، فيلحقُه وِزرُه ما قُرِئ هذا الشِّعر، فهو رَسُول إبليس ووكيل إبليسَ علىٰ الناس في إيقَاعِهم في هذا الغلو المُحرَّم.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: أي: لا يجعَلَنَّكُم الشيطان ذَوِي جرأة وإقدام علىٰ قولِ الحَرَام، وإن إبليس لَيُشَجِّع بعض بني آدم علىٰ القول الحَرام من أجل أن

ينالوا مَنزلةً عند الناس، فيحل لهم الحرَام إرضاءً لهم، وليكون له جمَاهير؛ فيجتذب الناس بإفسَاد الشريعة بتَحليل الحرام؛ ليوصَفَ بالتَّيسير وعدم التشدُّد؛ ليُقبِلَ عليه الناس ويجتمعون حَوله!

ولذلك يَجبُ علىٰ طالب العلم أن يكونَ حذِرًا حذَرًا شديدًا من الشيطان، ومِن طُرق الشيطان في إغوائه.

وهذه المَعاني كلها صحيحة؛ فاختلافُ أهل العلم فيها اختلاف تنَوُّع وليس اختلاف تضَادٍّ.

❀❀❀

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيرَنَا، وَابنَ خَيرِنَا، وَيَا سَيِّدَنَا، وَابنَ سَيِّدِنَا فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَولِكُم، وَلَا يَستَهوِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، عبد اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِي فَوقَ مَنزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

الشرح

هذا الحديث رواهُ النسائي في «الكبرىٰ»(١).

ورواه الإمام أحمد(٢)، والضياء في «المختارة»(٣).

وصحَّحه الحافظُ ابنُ عَبد الهَادِي في «الصَّارم المُنكِي»(٤)، والألبَاني(٥)، والأرنَاؤوط، فالحَدِيثُ صَحِيحٌ.

(**وَعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيرَنَا، وَابنَ خَيرِنَا**): ولا شَكَّ أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرُ بني آدم، وأشرَفُهُم نَسبًا.

(**وَيَا سَيِّدَنَا**): والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيدُ ولدِ آدم.

---

(١) برقم (١٠٠٠٧).

(٢) برقم (١٣٥٢٩).

(٣) برقم (٢٠٨٠).

(٤) (ص٢٨٨).

(٥) «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٧).

(**وَابنَ سَيِّدِنَا**): أي: أنه شريفُ النَّسَب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(**فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَولِكُم**): يعني: تكلموا وقولُوا، ولا تقولوا إلا خيرًا.

(**وَلَا يَستَهوِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ**): وهذه الجملة ليست عند النَّسائي، وإنما هي عندَ الإمام أحمدَ في «المُسنَد».

ومَعناها: لا يوقِعَنَّكم الشيطانُ في مَهَواةٍ ومَهلَكة بأن يَقُودَكُم إلىٰ الغلو.

(**أَنَا مُحَمَّدُ، عبد اللهِ وَرَسُولُهُ**): وهاتان عِبارَتَا مَدحٍ في غاية المَدح المَشرُوع، ولا تَقُودان إلىٰ مَفسَدة؛ فكون محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله، وأنه أحق الناس بهذا الوَصف الذي كُله شَرف وعِز ورِفعة مَكانة، هذا مدح للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غايَة المَدح المشروع.

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبدُ الله، وما أجمَلها من عبارة!، وما أجمله من وَصف!، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحق الناسِ بهذا الوَصف.

ولا شكَّ أن كل عبُودية ذل، إلا العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنها عِز، وكُلما زاد الإنسان في عبادة الله علىٰ المشروع كان أعزَّ وأشرَفَ؛ فأعظم الناس عبَادَة لله جَلَّ وَعَلَا، وأحق الناس بوَصف (عبد الله) هو مُحمدٌ رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا المدحُ لا يقود إلىٰ الغُلو المنهي عنه.

والثاني: أنه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مَدح للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واجتماعهما -أي: الوَصف بالعبودية لله مع الرِّسَالة- هو غاية الشرف

وغاية العز لمُحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فمُحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدُ الله، وهو خيرُ مَن عبدَ الله، ولا يُعبَدُ مِن دون الله، وهو أشرَفُ مَن شَرُفَ بعبادة الله، ولا يُعبدُ من دون الله، وهو رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يُطاع ولا يُعصَىٰ، ويُصَدَّق ولا يكذب، ولا يُعبَدُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا إلا بما شَرع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمةً تُزلزلُ القُلوب المُحبَّة: **(مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِي فَوقَ مَنزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ)**: وفي هذا ردٌّ علىٰ الغُلاة الذين يزعمون محبَّةَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يُخَالفون نهيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغُلو فيه، أو رَفعِه فوق مَنزِلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

فالمُحب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحبُّ ما يُحِب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والغُلو في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرَهُه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَمنع منه.

وفي هذا بيَان ما ذكره الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: مِن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمىٰ حِمىٰ التوحيد، فَحَمىٰ التوحيدَ وما يُحيط به؛ فإن هذه الجُمَل ليست من التوحيد من جِهةِ جِنسِه وتحقيقه؛ لكنها من مُكمِّلاته إذا كانت حقًّا، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمىٰ حِمىٰ التوحيد؛ فكيف بالتوحيد نفسه؟!

فنهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سد الذرائع المفضية إلىٰ الشرك بالقول أو الفعل سواء كانت بعيدة شيئا أو قريبة مادام أنها تفضي إلىٰ الشرك وأنها تقود إلىٰ خطوات الشيطان فهذا نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينبغي أن يكون نهج المؤمن في حاله ونصحه وتعليمه وفي ولايته إن كان واليا أن يسد الذرائع المفضية والموصلة إلىٰ الشرك.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَحذِيرُ النَّاسِ مِنَ الغُلوِّ.

وهذا أخذه الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنه إذا حَذَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما **يُؤَدِّي إلىٰ** الغلو؛ فمن باب أولَىٰ أن يُحَذِّر من الغُلو ذَاتِه؛ ومقصوده هنا: ما يتَعلَّق بالأقوال.

الثَّانِيَةُ: مَا يَنبَغِي أَن يَقُولَهُ مَن قِيلَ لَهُ: أنتَ سَيِّدُنَا.

فينبَغي عليه أن ينصَحَ بترك هذا في حَالين:

الحَال الأول: إذا رأىٰ هذا غلوًّا وتجاوزًا وإطراءً.

الحال الثاني: إذا رأىٰ هذا من باب المَدح في وَجهه؛ فإنه يقول لهم: اترُكوا هذا.

وأما إذا كان هذا من بابِ التَّلقيب فقد تقدم أنه يَجُوز إذا كان أهلًا لذلك.

الثَّالِثَةُ: قَولُهُ: «لا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ»، مَعَ أَنَّهُم لَم يَقُولُوا إلَّا الحَقَّ.

وهذا تقدم بيانه، فهم قَالُوا حقًّا؛ لكن دلَّت قرائنُ علىٰ أنهم قد يَقعُون في الغلو؛ فحَذَّرهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: **«لا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ»**، وقد تقدم تفسير مَعنىٰ هذه الجُملَة.

الرَّابِعة: قَولُهُ: «مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِي فَوقَ مَنزِلَتِي».

وقد تقدَّم بيَانُ ما فيها .

بابُ: مَا جَاءَ فِي قَولِ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]

الشرح

عقدَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب خَاتمًا به «كتَاب التَّوحيد»، ومُراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانُ أن تعظيمَ الله عَزَّوَجَلَّ فرضٌ لازم، وأن مِن شأن المُوحِّدين تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وأن تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يكون إلا بالتَّوحيد؛ توحيدِ الربوبية، وتوحيدِ الأسماء والصِّفات، وتوحيدِ الألوهيَّة.

ولذلك كان هذا البَابُ حاويًا لأنواع التوحيد الثلاثة؛ فقد ذُكِرَ فيه توحيدُ الربوبية وتوحيدُ الأسماء والصفات بدلالةِ المُطابقة، وتوحيدُ الألوهية بدَلالة اللزُوم، فكانَ هذا البابُ مُناسبًا للأبواب القريبة المُتقدِّمة؛ لأنها كانت في تَعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان هذا مناسبًا لكتاب التوحيد كُله؛ لأن تَعظيمَ الله هو التوحيد، وتوحيد الله هو التعظيم، وتَعظيمُ الله إنما يَكُون بالتَّوحيد.

قال الشيخ مبوبا بهذه الآية العظيمة: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي قَولِ اللهِ تعَالَىٰ**): أي: في تفسير قَول الله تعالىٰ: (﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾):

(﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾): جاءت هذه الجُملة العظيمة في شأنَينِ كَبيرَين:

الأول: في شأن الإشراكِ بالله جَلَّوَعَلَا، وأن المُشركين ما قَدروا الله حق قَدرِه.

والثَّاني: في شأن إنكارِ نُبوة رَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فدَلَّ ذلك علىٰ أنه لا يَقدُرُ الله حقَّ قَدْرِه إلا مَن وَحَّد الله، وآمنَ بِرَسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهَذه الجُملة جاءت في القرآن بثلاثة مواضِعَ مُختَلفة:

- في مَوضِعَين في شأن الإشراك بالله: وذلك في هذا الموضع الذي معنا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وفي قَوله تَعَالىٰ: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٤].

- و المَوضع الثالث في شَأنِ إنكار نُبوة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

فدَلَّ هذا علىٰ أن الذي يَقدُرُ الله حقَّ قَدْرِه هو الذي وحَّدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبَرِئ من الشرك كُله، وآمن برسُول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومَعنىٰ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: أي: وما قدَر هؤلاء المشركون ربَّهم حق قَدره، ولا عظَّموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصَافه وأفعاله، فأوصافه ناقصَة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يَملكُ من الأمر شيئًا، فسَوَّوا هذا المخلوق الناقص بالخَالق الربِّ العظيم.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾: أي: الذي من عَظَمته الباهرة، وقُدرته القَاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة

قَبضَة للرحمن، وأن السَّمَوات -علىٰ سَعَتها وعِظَمها- مَطويات بيمينه، فلا عَظَّمه حقَّ عَظَمته مَن سَوَّىٰ به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: أي: تنزَّه وتعَاظَمَ عَن شِركِهم به[1].

وقد جاءَت الأحاديثُ مُبينةً ذلك كما سَيأتي -إن شَاء الله عَزَّوَجَلَّ-.

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٧٢٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: «جَاءَ حَبرٌ مِنَ الأَحبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالأَرَضِين عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ حَتَّىٰ بَدَت نَوَاجِذُهُ؛ تَصدِيقًا لِقَولِ الحَبرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الآيَةَ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ للبُخَارِيِّ: «يَجعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ». أَخرَجَاهُ.

الشرح

هذا الحديث في «الصَّحِيحَين»[1].

(**عَن ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: جَاءَ حَبرٌ**): يُقَال: حَبرٌ وحِبرٌ: وهو العالِمُ الذي عُرِف بكثرة العلم، وهو مأخوذ من (الحِبر) وهو: الأَثَرُ المُستَحسن، ومنه سُمِّي هذا الذي نكتُب به (حِبرًا)؛ لأن أَثَرَهُ من العلم وغيره حَسَن.

(١) البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

وسُمِّي العالِمُ (حَبرًا أو حِبرًا)؛ لأن أثرَهُ في الناس حسَن، وهذا هو الأصلُ في العَالِم؛ أن أثره في الناسِ يكون حسَنًا.

ويُقال عن ابن عباس رَضِيَالِلَّهُعَنْهُمَا: «حَبر الأمة، أو: حِبر الأمة»، وكذا يُقال عن ابن مسعود رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ: الحَبر؛ أي: العَالِم.

(**مِنَ الأَحبَارِ**): أي: عالمٌ من علمَاءِ اليَهُود كما صُرِّح به في بَعض الروايَات.

(**إِلَىٰ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ**): أي: في كتَابِنا، وهو التَّوراة.

(**أَنَّ الله يَجعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ**): والرواية في «الصَّحيحَين»: «**وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ**»، وليس: (**وَالمَاءَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ**) كمَا ذكَرَ الشَّيخُ رَحِمَهُٱللَّهُ.

(**وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ**): فالمَذكُور هنا خَمسَة، ويكون هذا يومَ القيامَة؛ أن الله عَزَّوَجَلَّ لعظَمَته، وأنه علىٰ كل شيء قَدير؛ يجعَلُ السَّموات علىٰ إصبع، فيطويها جَلَّوَعَلَا ويَجعلها علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبَع، فيَقبِضُها ويجعلها علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والماء والثَّرىٰ، وهو الطِّين المَبلُول، علىٰ إصبع، وسائر الخَلق علىٰ إصبع عَلىٰ يمينه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي هذا بيان عظمَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقُوته وقُدرته وإحاطَةِ قَهرِه؛ حيثُ يجمَعُ المخلوقات في يَمِينه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويَجعل كُلَّ جزء منها علىٰ إصبع من

أصابعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا إثبَاتُ أن لرَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أصابع، نُثبِتها له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ المعىٰ الحَقيقي والمَعنىٰ اللائق بجلالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

والعَجبُ أن اليهودَ لمَّا بَلغَهُم ذلك في كتابهم آمَنُوا به، وآمنوا بأن لرَبِّنا أصابع، ومَا أنكرُوا هذا وما استَوحَشُوه، وما استَقبَحُوه؛ بل أثبَتُوه وأخبرُوا به ونَقلُوه إلىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصَدَّقهم رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصَدَّق بهذا، وإنَّا بما صدَّق به نبينَا مُحمدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَدِّقون، لا نَنفِرُ منه، ولا نَستَوحش منه، ولا نُؤَوِّله عن معنَاهُ الظَّاهر، لكن لا نُشَبِّه ولا نُكَيِّف.

أما المُؤوِّلة الذين يَجدُون ذِكر صفات الله في القرآن وفي صَحيح السُّنة لا يُصَدِّقون بها، ويُؤَولونها، فما كانوا بهذا علىٰ نَهجِ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا علىٰ نهج الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -وهم العَربُ الأقحَاح- كانوا يَذكُرون آيات الصفات مُصَدِّقين بها، ويَروونَ أحاديث الصفات مُصَدِّقين بها، وما كان أحدهم يَقُول: هذه ليسَت علىٰ ظاهِرها؛ بل مُؤَولة بِكَذا وكَذَا!

فالمُؤَولة ما سارُوا علىٰ نهج النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا علىٰ نهج الصحَابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ بل وسَقطُوا عن نَهج اليَهُود في هذا الباب!

فالواجب علىٰ المُؤمنين جميعًا أن يَرجعُوا إلىٰ نَهج النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يُصَدِّقوا بالصفات علىٰ مَعنَاها الظَّاهر علىٰ ما يَليقُ بجَلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع اعتقاد أن الله جَلَّ وَعَلَا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

(**فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ**): أي: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُمَجِّد نَفسه يومَ القيامة، فيقول: أنا المَلك.

وفي بَعضِ الرِّوايَات: «**ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا المَلِك**»(١). تأكيدٌ لَفظِي.

وفي بعضِ الرِّوايات يَقُول: «**يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفسَهُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا العَزِيزُ، أَنَا الكَرِيمُ**»(٢).

فرَبُّنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ذلك المَوقف العظيم يُمَجِّد نفسَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما شاء أن يُمَجِّدها، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَلِك يوم الدين، لا مَلِكَ إلا هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حيث في ذاك المَقام يَذِل الجميع، ولا يتسَمَّىٰ أحدٌ بالمَلك، ففي الدنيَا هناك من يتسمىٰ بالمَلِك، ويكون له نَصيبٌ من المُلك، أما المُلك التام المُطلَق، فهو لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

وأما في الآخِرَة، فلا أحد يتسَمَّىٰ بالمَلِك، ولا أحد يَجرُؤ أن يَقُول: إنه المَلك؛ بل الكلُّ يَذِل لعظمَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فيُجيب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وهذا خطابٌ للمَلائكة، والجواب من المَلائكة، أو يخاطبُ الله جَلَّوَعَلَا نَفسَه تَمجيدًا وتَعظيمًا.

(**فَضَحِكَ النَّبِيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حَتَّىٰ بَدَت نَوَاجِذُهُ**) أي: بدَت أنيابُه من

---

(١) هذه إحدىٰ روايات الإمام مسلم في الموضع السابق.

(٢) «مسند أحمد» (٥٤١٤- الرسالة) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ضَحِكه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فرحًا بالحَق الذي أجراه الله علىٰ لسَان اليَهودي.

قالَ ابنُ مَسعُودٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: **(تَصدِيقًا لِقَولِ الحَبرِ)**: هذا قول ابن مسعود رَضِيَاللَّهُعَنْهُ الصحَابي الجليل، الذي هو من أعلَم الناس بأحوالِ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فالصحابة الكرام رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ فَهمُوا أنه تصديق، ثم يأتي المُؤوِّلة ويقولون: لا؛ إنما ضَحِك النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُخريةً من كلامه!

ولو كانَ هذا مُنكرًا لَمَا كان المقام مقامَ ضَحِك؛ بل لكانَ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ردَّ كلامَه؛ فإنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَرُد الخطأ من المُؤمنين؛ فكيف إذا جاء من يَهُودي؟!

ثُم إن تأخير البيَان عن وقت الحاجَةِ لا يَجُوز، فلو كان هذا خطأً، وهو يتعلَّق بربنا الكريم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لَمَا أخَّر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ البيانَ عن وقت الحاجة؛ فكان ضحِكُه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيانًا أنه حَق، وكان إقرارًا وتصديقًا لمَا قالَه اليَهُودي.

ثم زَادَ تَأكيدَ ذلكَ بقِراءتِهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قولَ رَبنا جَلَّوَعَلَا: (﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾): أي: أن ما ذكَره اليهودي تَفسير لكون الأرض جميعًا قَبضته يوم القيامة، وكَون السموات مطويات بيَمينه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا دليلٌ علىٰ أن اليدَ التي يجعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ أصابعها هذه المخلوقات هي اليَدُ اليمين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قالَ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾، وقد قرأ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذه

الآية في مقامِ التصديقِ لهذا اليَهُودي.

قال: (وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ: وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، ثُمَّ يَهزُّهُنَّ، فيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ): وقد بحثت في «الصَّحيحَين» وغيرهما من كتب السُّنة عن جملة: «أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ» في حديث ابن مَسعُود، فلم أقف عليها بهذا السياق الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن روَاهَا مُسلم[1] في نَفس الشَّأن من حديث ابنِ عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَأخُذُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سَمَوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ -وَيَقبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبسُطُهَا- أَنَا المَلِكُ**. حَتَّىٰ نَظَرتُ إِلَىٰ المِنبَرِ يَتَحَرَّكُ مِن أَسفَلِ شَيءٍ مِنهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟».

يعني: كان المِنبَر يتحرَّك من أسفله إلىٰ أعلاه ويَرتَجِف.

قالَ بعضُ أهل العِلم: من شدَّة حركة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه تَعظيمًا لشأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلم: بل رجَف المنبر نَفسُه من شدَّة ما سَمِع؛ تَعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، ثُمَّ يَهزُّهُنَّ): أي: يَهُز هذه المَخلُوقات العظيمة ويُحرِّكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إظهارًا لقُدرَته؛ وبيَانًا لعَظمَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وتعجيزًا للخَلق.

---

(١) برقم (٢٧٨٨).

وسُبحانَ الله!، مَن يعلم أن الخلقَ كلَّهم يجعلهم الله عَزَّوَجَلَّ في يَمينه ويَهُزهم هزًّا، ويُحَركهم تحريكًا؛ كيف يَجرُؤ علىٰ أن يَصرفَ شيئًا من العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

فيَترُك العظيمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ غَيرِه ممَّا هو فقيرٌ إليه وعَاجز عند عَظَمتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وَفِي رِوَايَةٍ للبُخَارِيِّ: يَجعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ): وقد ذكرَها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحديث مُتَّفق عليه، وانفرد البُخاريُّ ببعض الألفاظ، وانفرد مُسلِمٌ ببعضِ الألفاظ[1].

والشَّاهد منه: بيانُ عَظمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) وتقَدَّم بيانُ مَواضِعه من «صحيح البخاري».

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَلِمُسلِمٍ عَن ابنِ عُمَرَ مَرفُوعًا: «يَطوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يومَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بيَدِهِ اليُمنَىٰ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ، أَينَ الجَبَّارُونَ؟ أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطوِي الأَرَضِينَ السَّبعَ، ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَينَ الجَبَّارُونَ؟ أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

الشرح

قَالَ: (**وَلِمُسلِمٍ**[1] **عَن ابنِ عُمَرَ مَرفُوعًا: يَطوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يومَ القِيَامَةِ**): أي: يَلُفها، وهذه صِفَة فِعلٍ لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وقد تقدَّم صفَة ذاتٍ وهي الأصابع واليَد.

(**ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَينَ الجَبَّارُونَ؟ أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطوِي الأَرَضِينَ السَّبعَ، ثُمَّ يَأخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ**): وهذه رواية بالمَعنىٰ، ولَفظُها: «**ثُم يَطوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ**».

(**ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَينَ الجَبَّارُونَ؟**): الذينَ يتجبَّرون علىٰ الخلق ويَظلمُونَهُم.

(**أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟**): الذين يتكبَّرون علىٰ الخَلق ويَرُدُّون الحَق.

والشَّاهدُ أن الحديثَ يَدُل علىٰ عظمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) برقم (٢٧٨٨).



وهُنا أمرَان:

الأمر الأول: ظاهرُ هذا الحديث أن الله عَزَّوَجَلَّ يطوي السمَوات باليَمين، ويطوي الأرَضِين بالشِّمال، والذي تقدم في حديث ابن مَسعُود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنها كلها في اليَمين؛ فإما أن يُقال: إن هذا الحديثَ الذي في مسلم ضَعيف، والصَّحيح ما في «الصَّحيحَين»؛ وذلك لأن الإمام مُسلمًا رَحِمَهُٱللَّهُ ذكرَه في المُتَابعات، والأصلُ في الباب هو حَديثُ أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

أو أنَّ الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ يأخذ الأرَضِين بشِمَاله ثُم يجعلُهَا في يمينه سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا أقرب أن يُقَالَ به.

الأمر الثَّاني: هل لله عَزَّوَجَلَّ يَدٌ شِمال؟

أجمع أهلُ السنة والجماعة علىٰ أن لله يَدَين، وهذا نص القرآن والسُّنة، وأن كلتَا يديه يمين، وهذا نصُّ الحديثِ الصَّحيح عن رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[1].

كما اتَّفَقُوا علىٰ أن لله يدًا يُمنىٰ، واختلفوا؛ هل يقال لليد الأخرىٰ: شمال؟

فذَهب بعض أهلِ السنَّة إلىٰ أنه يقال لليَد الأخرىٰ: شِمال، من جهة التَّسميَة، فتُسمىٰ هذه يمينًا والأخرىٰ شمالًا، أما من جهة الفَضل والفعل والقوة فكِلتَا يَدَي ربنا يَمين؛ وهؤلاء يُسمَّون بأهل الجَمع من أهل السُّنة؛ أي: الذين جمعوا بين الحَدِيثَين.

ومن المعاصرين الذين سَارُوا علىٰ هذا: الشيخ ابن باز، والشيخ هراس،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا.

والشيخ ابن عثيمين، قال: إذا صح هذا الحديث[1].

وذهبَ بعضُ أهل العِلم إلىٰ أنه لا يُقال ليَد الله (شِمَال)، وإنما كِلتَا يدي رَبِّنا يمين، فإذا ذكرَت اليمين؛ قيل للأُخرىٰ: (الأخرَىٰ) يعني: اليَد اليمين الأخرىٰ، ولا يقال: (شِمَال).

وقالوا: هذا الحَديث ضعيف؛ لأن فيه راويًا ضَعيفًا.

وقالوا: إن هذه الرواية لو كانت رِواية ثقة لكانَت شاذة؛ لأن جميع الروايات الأخرىٰ فيها: (الأخرىٰ)، وليس: (الشِّمال).

وهؤلاء هم أهلُ الترجيح؛ أي: الذين رَجَّحُوا رواية: «**كِلتَا يَدَيهِ يَمِينٌ**» علىٰ هذا الحَديث.

ومِمَّن ذَهبَ إلىٰ هذا مِن المُعَاصِرين: الشيخ الألباني، والشيخ صالح آل الشيخ[2]، فيمن اطلعت علىٰ أقوالهم في هذا.

والأمر ليس اختلافًا في العقيدة؛ فإن أهل السُّنة مُجمِعُون علىٰ أن لله يدَين، وأن كلتَا يديه يمين، وأن إحداهُما أفضلُ من الأخرىٰ؛ لأن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أن في اليَمين الفضل، وفي الأخرىٰ العَدل، ولا شَكَّ أن الفضل أعلىٰ من العَدل، وصفاتُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تتفاضَلُ من غير نَقص، وإنما اختلفوا في

---

(١) انظر: «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٢٥/ ١٢٦ الشويعر)، و«كتاب التوحيد» لابن خزيمة - مراجعة وتعليق الهراس (ص٦٦)، و«القول المفيد» لابن عثيمين (٢/ ٥٣٤).

(٢) انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣١٣٦)، و«الأجوبة والبحوث والمدارسات» للشيخ صالح آل الشيخ (١/ ٣٤٨-٣٥٠).

التسمية لليَد الثانيَة بأن يقال: (شِمَال)، أما من حيثُ الفضل والقُوة والفعل، فكلتا يَدَي ربِّنا يمين.

ومَعلُوم -ولله المَثلُ الأعلىٰ-: أن يد الإنسان اليُمنىٰ أقوىٰ من يَده اليُسرىٰ؛ فيفعل باليُمنىٰ ما لا يَفعَلُه باليسرىٰ، ويحمل باليُمنىٰ ما لا يَحملُه باليسرىٰ، وعندما تَقُول: اليُسرىٰ؛ فهذا دلالة علىٰ نَقصٍ فيهَا عن اليمين.

أما يَدُ ربنا سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الأخرىٰ، فهي يَمينٌ كذلك في القوة والفَضلِ والفِعل، وليس في إحدىٰ يَدي ربنا سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ نَقصٌ.

وأنَا أقُول: كلتا يَدي رَبِّنا سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يمين، فإذا ذكرت اليُمنىٰ فإنه يُقَال للثانية: (الأخرَىٰ)؛ أي: أنها يَمينٌ أخرىٰ، هذا عندِي أقرَبُ، والله أعلم.

❊❊❊

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَرُوِي عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا السَّموَاتُ السَّبعُ وَالأَرضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحمَنِ إِلَّا كَخَردَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم».

الشرح

هذا الأثَرُ رواهُ ابنُ جَرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التَّفسير»[1]، وإسنادُه صَالِح، لكن الذي جَاء فيه: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبعُ وَالأَرَضُونَ السَّبعُ فِي يَدِ اللهِ إِلَّا كَخَردَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم».

وهَذا يَدُلُّ علىٰ عَظَمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) (٢٠/٢٤٦).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَالَ ابنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخبَرَنَا ابنُ وَهبٍ قَالَ: قَالَ ابنُ زَيدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبعُ فِي الكُرسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبعَةٍ أُلقِيَت فِي تُرسٍ».

الشرح

لا شكَّ أن لله عَزَّوَجَلَّ كرسيًّا كمَا أن له عرشًا، وأن كُرسيَّه غير عَرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن كرسي الله عَزَّوَجَلَّ كبير عَظيم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ولله عرشٌ هُو قُبة المَخلوقات فوق السموات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُستَوٍ علىٰ عَرشِه.

وهذا الأثر رواه ابنُ جَرير في «التَّفسير»[1] بإسنَادِه إلىٰ ابنِ زَيد، عن أبيه زيد -وهو تابعي- قال: قال رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهُو مُرسَل؛ لأن التابعي رَفَعه إلىٰ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إن ابن زيد الذي يَروي عن أبيه ضَعيفٌ، فهذا الأثر ضَعيف، والشيخ إنما ذكرَهُ من باب التَّوابع والشَّواهد الدالَّة علىٰ عظمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❀❀❀

(١) (٤/ ٥٣٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا الكُرسِيُّ فِي العَرشِ إِلَّا كَحَلقَةٍ مِن حَدِيدٍ أُلقِيَت بَينَ ظَهرَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرضِ».

الشرح

(قَالَ): أي: ابن جَرير في «تَفسيره»[1].

(وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا الكُرسِيُّ فِي العَرشِ إِلَّا كَحَلقَةٍ مِن حَدِيدٍ أُلقِيَت بَينَ ظَهرَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرضِ): قال الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذِكرِ ضَعفِ أسانيده وذكر بعض الطرق له، قالَ في «السلسلة الصَّحيحَة»[2]: «وجُملَةُ القول: إن الحَديث بهذِه الطُّرق صَحيحٌ».

وفي «السِّلسِلة الضَّعيفة»[3] ذكر ضعفَ الحديث، ثم قَال: «هذا؛ وقد كنتُ ذكرت حديثَ أبي ذر المتقدم من رواية ابن زيد عنه في الصحيحة (١٠٩) مُقوِّيًا به طريقًا أخرىٰ للحديث عن أبي ذر بنحوه، ظانًّا أن ابنَ زيد هو غير عَبد الرحمن هذا الواهي؛ لأنَّني لم أكُن وقفتُ علىٰ رواية أبي الشيخ هذه المُصرِّحة بأنه عبد الرحمن بن زيد؛ فوجَبَ التنبيه علىٰ ذلك قائلًا: ربِّ اغفِر لي خطئي وعَمدي، وهَزلي وجدِّي، وكل ذلك عِندِي.

---

(١) (٤/ ٥٣٩).

(٢) برقم (١٠٩).

(٣) برقم (٦١١٨).

لكن ذلك ممَّا لا يضطرني إلىٰ نقل الحَديث المُشَار إليه إلىٰ هذه السلسلة؛ للطُّرق الأخرىٰ له المَذكُورة هناك، وقد نَجدُ له ما يزيدُه قُوة. والله الموفق».اهـ

ولذلك أبقَاه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الصَّحيحَة» مع ذكره له في «السِّلسلة الضَّعيفة».

والناظرُ في هذا والمُتتبع لطُرقه يعلمُ أن له أصلًا، وأقل ما يَصلُ إليه أن يكون حسنًا لغَيرِه.

وفيه: أن الكُرسي غير العرش، وأن الكُرسي الذي وسع السَّموات والأرض بالنسبة للعَرش كحلقة مِن حَديد مِثل الدِّرع الذي يلبَسُه المُقاتل، ألقيت في صحراءَ مُمتدَّة، ونِسبَة الكُرسي إلىٰ العرش كنِسبة حلقةِ الحديد إلىٰ الصَّحراء الكبيرة المُمتَدَّة.

❊❊❊

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: «بَينَ السَّمَاءِ الدُّنيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرسِيِّ خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَينَ الكُرسِيِّ وَالمَاءِ خَمسُمِائَةِ عَامٍ، وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، لَا يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِكُم».

أَخرَجَهُ ابنُ مَهدِيٍّ عَن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَن عَاصِمٍ عَن زِرٍّ عَن عَبدِ اللهِ.

وَرَوَاهُ بِنَحوِهِ المَسعُودِيُّ عَن عَاصِمٍ عَن أَبِي وَائِلٍ عَن عَبدِ اللهِ.

قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ».



الشرح

وهذا الأثر رَواه الدارميُّ في «الرَّد علىٰ الجهميَّة»، والطبراني في «الكَبير»، والبيهقي في «الأسماء والصفات»[1].

والشَّاهد فيه: أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يعلم ويَرىٰ ويَسمع، ولا تَخفَىٰ عليه خافيَة.

❊❊❊

(١) أخرجه الدارمي في «الرَّد علىٰ الجهميَّة» برقم (٨١)، والطبراني في «المعجم الكَبير» (٩/ ٢٠٢) برقم (٨٩٨٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» برقم (٨٥١).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَعَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَل تَدرُونَ كَم بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟» قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «بَينَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرشِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِ بَنِي آدَمَ» أَخرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ، وَاللهُ أَعلَمُ.

الشرح

والحَدِيثُ بهذه الألفَاظ لم يَروِه أبو دَاود[1]؛ وإنما رَواه أحمَدُ، والدَّارميُّ في «الرَّد علىٰ الجَهميَّة»، والحاكم في «المُستَدرك»، وقال: صَحيحُ الإسنَاد، وأبُو الشَّيخ

---

(١) ولفظه عند أبي داود (٤٧٢٣): عَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كُنتُ فِي البَطحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِم رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّت بِهِم سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيهَا، فَقَالَ: مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟**، قَالُوا: السَّحَابَ، قَالَ: **وَالمُزنَ؟** قَالُوا: وَالمُزنَ، قَالَ: **وَالعَنَانَ؟** قَالُوا: وَالعَنَانَ. قَالَ: **هَل تَدرُونَ مَا بُعدُ مَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟**، قَالُوا: لَا نَدرِي، قَالَ: **إِنَّ بُعدَ مَا بَينَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثنَتَانِ أَو ثَلَاثٌ وَسَبعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوقَهَا كَذَلِكَ.** حَتَّىٰ عَدَّ سَبعَ سَمَوَاتٍ. **ثُمَّ فَوقَ السَّابِعَةِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ مِثلُ مَا بَينَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوعَالٍ بَينَ أَظلَافِهِم وَرُكَبِهِم مِثلُ مَا بَينَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَىٰ ظُهُورِهِمُ العَرشُ مَا بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ مِثلُ مَا بَينَ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، ثُمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ**».

وأخرجه الترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

في «العَظَمة»[١]. وقال الذهبيُّ: «وهو صَحيحٌ». في مَوطِن، وضعفه في مَوطِن آخر من تعليقه على «المُستَدرك».

والحديث من جِهَة الإسناد ضَعيفٌ ظَاهرُ الضَّعف، فإن فيه يحيىٰ بن العلاء، وهو وَاهٍ.

لكن له شاهدٌ من حَديث أبي هُريرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا عندَ التِّرمذي[٢]، وابنِ أبي عَاصِم[٣]، والبَزَّار[٤]، والبَيهقي في «الأسمَاء والصِّفات»[٥]، وفيه ضَعف.

وهُو مع أثرِ ابن مَسعُود المُتقَدِّم يَدُل علىٰ أن له أصلًا؛ فالظاهر -والله أعلَمُ- أنه حسَنٌ لغَيرِه.

(وَعَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **هَل تَدرُونَ كَم بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟، قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: بَينَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِن كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِمِائَةِ سَنَةٍ**): يَعني: من الأرضِ إلىٰ السَّماء الدنيا مَسيرَة خمسمائة سَنة، وكثفُ السمَاء الدنيا خَمسمائة سَنة، ثم إذا انتَهت السماء الدنيَا

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٠-الرسالة)، والدارمي في «الرَّد علىٰ الجَهميَّة» برقم (٧٢)، والحاكم في «المُستَدرك» برقم (٣١٣٧، ٣٤٢٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (٥٦٨).

(٢) برقم (٣٢٩٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) «السنة» (١/ ٢٥٤)، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٥٧٨).

(٤) «البحر الزخار» برقم (٩٥٥٩).

(٥) برقم (٧٤٩).

فمَا بين السماء الدنيا إلىٰ السمَاء الثانية مَسيرَة خَمسمِائة سَنة، ثُم كثف السمَاء الثانية مَسيرَة خمسمِائَة سنة، ثُم بعد السمَاء الثانيَة ما بين السماء الثانية والسمَاءِ الثالثة مَسيرَة خمسمائة سَنَة، ثم كثف السمَاء الثالثة مَسيرَة خمسمِائَة سنة، ثم ما بين السماء الثالثة والرابعة مَسيرَة خمسمائة سَنَة... وهَكذا.

وهذا يَدُل علىٰ عَظَمة الخَالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الذي خلقَها بهذا الإحكَام وهذا الإتقان، وهذه القوة، فمَع تباعُد السماء عن الأرض لا تَرىٰ لها عمدًا ولا تَرىٰ فيها فُطورًا.

(**وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرشِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ فَوقَ ذَلِكَ**): يعني: فوقَ العَرشِ، (**وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِ بَنِي آدَمَ**).

وفي رواية أبي دَاودَ والتِّرمذيِّ وابن ماجَه[1] جَاء في المَسيرة: «**فَإِنَّ بُعدَ مَا بَينَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ، وَإِمَّا اثنَتَانِ، أَو ثَلاثٌ وَسَبعُونَ سَنَةً**».

وعلىٰ فَرض الصحَّة في هذا الحديث الذي في البَاب وأثر ابن مَسعُود: «**مَسيرَة خَمسمِائة عَام**»، وفي تلك الرِّوايَات: «**فَإِنَّ بُعدَ مَا بَينَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ، وَإِمَّا اثنَتَانِ، أَو ثَلاثٌ وَسَبعُونَ سَنَةً**».

جَمع بينها العُلماء فقَالُوا:

هذا بحسَب قُوَّة السَّير؛ فإن كان السيرُ قويًّا؛ كانت المسافَةُ أقَل، وإن كان

(١) تقدم تخريجه (ص٧٢٩) بالهامش.

السير ضعيفًا كانت المسَافَة أكثَر.

يَقُول البَيهقيُّ في «الأسمَاء والصِّفات»[1]: «هَذِهِ الرِّوَايَةُ فِي مَسِيرَةِ خَمسِمِائَةِ عَامٍ اشتَهَرَت فِيمَا بَينَ النَّاسِ، وَرُوِّينَا عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ مِن قَولِهِ مِثلَهَا، وَيُحتَمَلُ أَن يَختَلِفَ ذَلِكَ بِاختِلَافِ قُوَّةِ السَّيرِ وَضَعفِهِ، وَخِفَّتِهِ وَثِقَلِهِ، فَيَكُونُ بِسَيرِ القَوِيِّ أَقَلُّ، وَبِسَيرِ الضَّعِيفِ أَكثَرُ، وَاللهُ أَعلَمُ».

❊❊❊

(١) عقب حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ برقم (٧٤٩).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: تَفسِيرُ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

وهذا التفسير هو ما جاء في السُّنة، وقد تقدم بيانُه.

الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ العُلُومَ وَأَمثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِندَ اليَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، **لَم يُنكِرُوهَا وَلَم يَتَأَوَّلُوهَا.**

فاليَهُود مع ما وقع في التوراة من التَّحريف يؤمنون بما فيهَا، وبعض ما فيهَا حَق لم يَلحَقه التحريف، ومنه مثل هذا العِلم وهذا الخَبَر الذي صدَّقه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا أن مَن عرَفَ قَدرَ الله صَدَّق كلام الله وخَبرَ رَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ علىٰ ظاهره، علىٰ ما يَليقُ بجَلال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الحَبرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ **صَدَّقَهُ وَنَزَلَ القُرآنُ بِتَقرِيرِ ذَلِكَ.**

صدَّقه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وضَحِك فرحًا ومُتعجبًا ومُصدقًا، وتَلا الآيَةَ التي تُقَرِّر ذلك.

الرَّابِعَةُ: وُقُوعُ الضَّحِكِ الكَثِيرِ مِن رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **لَمَّا ذَكَرَ الحَبرُ هَذَا العِلمَ العَظِيمَ.**

وليس المَقصُود أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضحكَ زمنًا طويلًا، وإنما المَقصُود في ذات الفِعل حتىٰ بَدَت نَواجِذُه، وهذا مُنتَهىٰ ضَحكِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يبتسِمَ حتىٰ تبدُوَ نَواجِذُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الخَامِسَةُ: التَّصرِيحُ بِذِكرِ اليَدَينِ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ فِي اليَدِ اليُمنَىٰ، وَأَنَّ الأَرَضِينَ فِي الأُخرَىٰ.

وهذا علىٰ حَديثِ ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولكن حديث ابن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدُل علىٰ أن الأرضين تُوضَع علىٰ أصبع يَدِه اليمنىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلعَلَّه -كما قدمنا-: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَطوِي الأرَضِين في اليَد الأخرىٰ، ثم تكون في يَمينِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السَّادِسَةُ: التَّصرِيحُ بِتَسمِيَتِهَا الشِّمَالِ.

وهذا يَدُل علىٰ أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مَع مَن رأوا الجَمع، وأنها تُسمىٰ (شِمالًا) في التسميَةِ فقط، أما في القُوة والفِعل والخَير وغير ذلك، فهي يَمين.

السَّابِعَةُ: ذِكرُ الجَبَّارِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ عِندَ ذَلِكَ.

أن الله عَزَّوَجَلَّ يُمَجِّد نَفسَه، ويَقُول: «**أَينَ المُتَكَبِّرُونَ؟ أَينَ الجَبَّارُونَ**».

الثَّامِنَةُ: قَولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَخَردَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُم».

أو: «**كَخَردَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم**». كما في بعض نُسَخ «كتَاب التوحيد»، وهي المُوافقة للرواية التي عند ابنِ جَرِير.

التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الكُرسِيِّ بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ السَّمَاءِ.

فالكُرسي يسَعُ السَّموات والأرض.

العَاشِرَةُ: عِظَمُ العَرشِ بِالنِّسبَةِ إِلَىٰ الكُرسِيِّ.

كمَا تقدَّم بيَانُه.

الحَادِيَةَ عَشرَةَ: أَنَّ العَرشَ غَيرُ الكُرسِيِّ وَالمَاءِ.

أن العرشَ غير الكُرسيِّ والماء؛ لِمَا ذُكِرَ مِن المَسيرة بينهما.

الثَّانِيَةَ عَشرَةَ: كَم بَينَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ.

وهي مَسيرة خَمسمِائة عَام.

الثَّالِثَةَ عَشرَةَ: كَم بَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرسِيِّ.

وهي كذَلك.

الرَّابِعَةَ عَشرَةَ: كَم بَينَ الكُرسِيِّ وَالمَاءِ.

وهُو كذلك.

الخَامِسَةَ عَشرَةَ: أَنَّ العَرشَ فَوقَ المَاءِ.

السَّادِسَةَ عَشرَةَ: أَنَّ اللهَ فَوقَ العَرشِ.

أنَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مُستَوٍ علىٰ عَرشِه.

السَّابِعَةَ عَشرَةَ: كَم بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ.

وهي مَسيرة خَمسمِائة عَام.

الثَّامِنَةَ عَشرَةَ: كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمسمِائَةِ سَنَةٍ.

التَّاسِعَةَ عَشرَةَ: أَنَّ البَحرَ الَّذِي فوقَ السَّمَوَاتِ أَسفَلُهُ وَأَعلاهُ خمسُمِائَةِ سَنَةٍ.

كمَا تقَدَّم بيَانُه.

٭٭٭



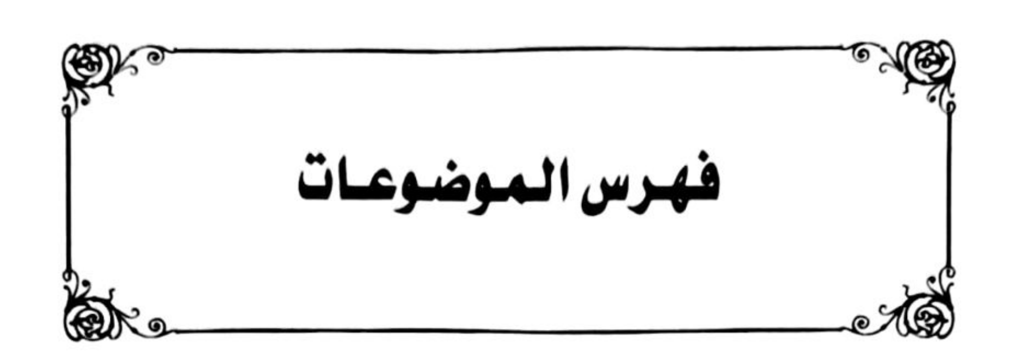
والحَمدُ لله رب العَالمين.

وبهذا نكون قد أتممنا الشرح التأصيلي لـ«كتَاب التوحيد»، وإني لأرجو الله عَزَّوَجَلَّ أن نكون بهذا الشرح قد قرَّبنا «كتاب التوحيد» إلىٰ أفهام المسلمين، وأن يعين هذا الشرح كل مسلم علىٰ أن يشرح «كتَاب التوحيد» لأهله وأسرته شرحًا تأصيليًّا سهلًا مبسطًا يصل إلىٰ أفهامهم.

وإني لأوصي طلاب العلم بالعناية التامة بشرح «كتَاب التوحيد» لأقوامهم، ولا يلزم أن تسمي الكتاب، بل لا يلزم أن تأتي بنفس الكتاب، بل يمكن أن تقيم درسًا لأهلك ولقومك بعنوان تأملات في آيات وأحاديث، أو وقفات مع آيات وأحاديث، ثم في كل يوم تأتي بباب كما ذكره الشيخ بالآيات والأحاديث، تقرأ عليهم قرآنًا، وتقرأ عليهم سنة، وتشرح لهم معانيها وتقربها إليهم وهكذا، فإن الناس أحوج إلىٰ التوحيد من حاجاتهم إلىٰ الطعام والشراب، ولا شك أن الناس قريبون من الحق لولا قُطَّاع الطرق الذين يكرهونهم في الحق، وفي أهل الحق، فينبغي علىٰ أهل الحق أن يُحببوا الناس في الحق، وأن يوصلوا الحق إلىٰ الناس، لعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرحمنا جميعًا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

❀❀❀



فهرس الموضوعات

